تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس ابن المقفع

إعداد و تحقيق

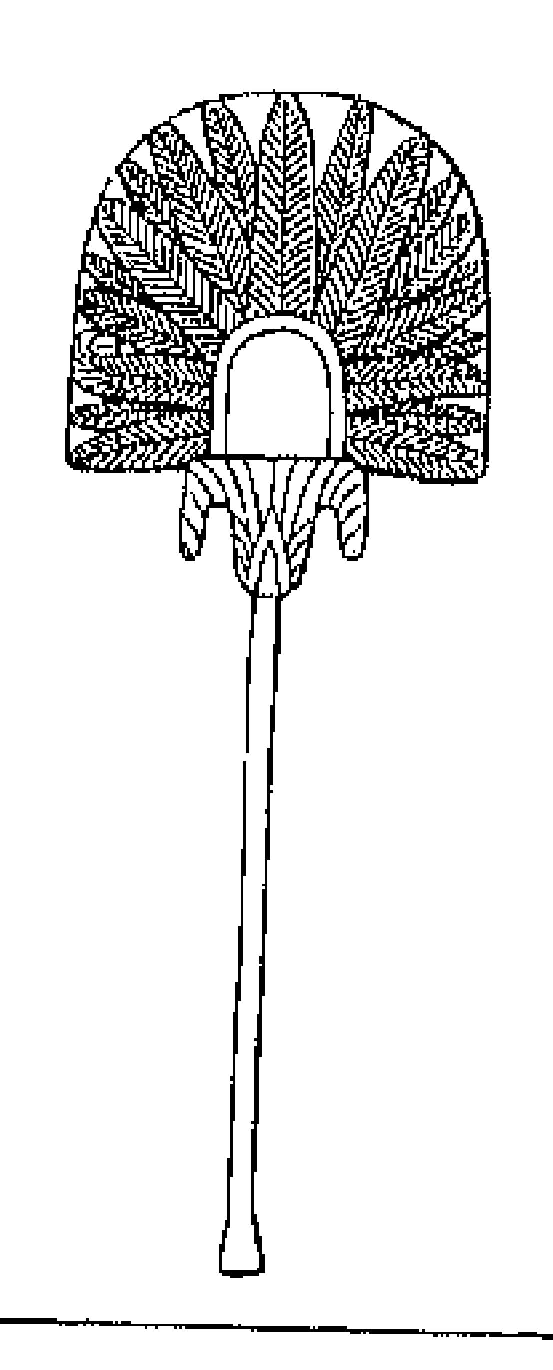
عبد العزيز جمال الدين

الجزء الثالث

المجلد الأول

من مار مرقس حتى البطرك ٣٨ بنيامين الأول ٦٢٢ / ٦٦١م

مكتبة مدبولى



تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى

حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس ابن المقفع

الجزء الثالث/ المجلد الأول

إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

تاريـــخ مـــصـــر

من بدايات القرن الأول الميلادى

حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

تاريـــخ البطاركـــة

لساويرس ابن المقفع

الجزء الثالث/ المجلد الأول

إعداد وتحقيق:

عبد العزيز جمال الدين

الإخراج الفنى:

تامر ومصرية عبد العزيز

الطبعة: الأولى ٢٠٠٦

الناشر: مكتبة مدبولى

٦ ميدان طلعت حرب القاهرة

ت: ٥٧٥٦٤٢١. تليفاكس: ٥٧٥٢٨٥٤

رقم الإيـــداع: ٢٠٠٥/١٣٤٣٧

الترقيم الدولى: 6-549-208-977

الجمع التصويرى والتنسيق الداخلى:

دار جهاد - ٢٦ ش اسماعيل أباظة -

لاظوغلى - ت: ٧٩٦٤٧٨٣

تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى
حتى نهاية القرن العشرين
من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس ابن المقفع

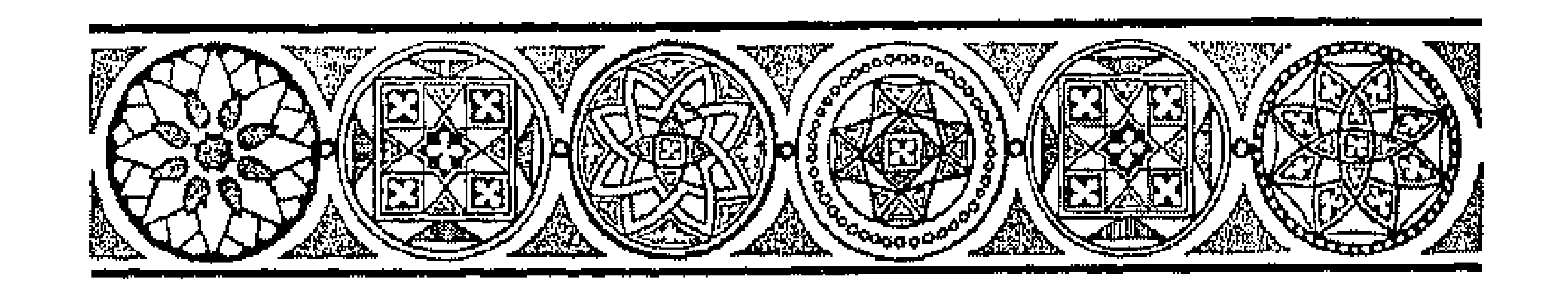
الجزء الثالث: من خايال الثانى [٨٤٩/ ٨٥١] إلى يوحنا [١١٨٩/ ١٢١٦م]

المجلد الأول

إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

الناشر:
مكتبة مدبولى
٢٠٠٦



تقديم

ها هو الجزء الثالث من تاريخ البطاركة وهو يحوى سير البطاركة من خايال الثانى البطرك ٥٣، ومـدته على كـرسى البطركـيـة من ٨٤٩ إلى ٨٥١م، إلى البطرك ٧٤ يوانس (يوحنا) الذى تولى البطركية فى الفترة من ١١٨٩م إلى ١٢١٦م، فتكون المدة التاريخية التى يغطيها هذا الجزء (الثالث) من عام ٨٤٩م إلى عام ١٢١٦م، أى حوالى ٣٦٧عاماً، شغلها ٢٢ بطرك.

فى أول هذه الفترة تولى حاتم ابن هرثمة مصر باستخلاف من أبيه المتوفى فى عام ٨٤٩، ولكنه لم يستمر سوى شهرين حيث صرفه إيتاخ التركى نائب الخليفة المتوكل، وولاها على ابن يحى الارمنى ثانية. وفى نفس هذا العام ثارت البجه من النوبة، فانفذ اليهم الخليفة لحربهم محمد ابن عبدالله من مصر (انظر ملحق مصريو النوبة فى الجزء السابق).

وقد وضعت هامش جانبى عن علاقة الروم بالمشرق من عام ٨٥٦ حتى ١٢٢٢م بدأ من ص١٧ حتى ص٣٧٦. وزودت الجزء السفلى من الصفحة بمتابعة لولاة مصر فى ظل الحكم

الطولونى والاخشيدى استمرت من ص١٧ حتى ص٧١، واتبعت ذلك بحوليات تاريخية من ٨٧١ إلى ١١٠٦م.

وفى سيرة البطرك ٥٤ انبا قزما (٨٥١ ـ ٨٥٩م) كان والى مصر عنبسه ابن اسحاق (سنة ٢٣٨هـ = ٨٥٢م) من قبل الخليفة العباسى المتوكل. وحدثت عدة إغارات من الاساطيل البيزنطية على سواحل مصر الشمالية فنشطت حركة تجنيد المصريين فى الاسطول الحربى دون هوادة وعوملوا بوحشية زائدة تجاوزت حدود معاملة العبيد، وفى ذلك يذكر ساويرس، فى ص٥٣ من هذا الجزء (الثالث) مالاقاه المصريين من عنت وتعذيب فيقول: فاما النصارى فانهم يسيروهم فى المراكب ولا يدفعو لهم ما ينفقوه فى طريقهم ولا درهم واحد ولا زاد الطريق، بل كانو يجرو عليهم جراية من الطعام فقط، وكانو يلزموهم بالمسير بهذا. وكان المتولى من كثرة بغضه للنصارى يفعل هذا ويحصى البلاد كلها ويجعل على كل ضيعة عدة من الرجال يسافرو فى الاسطول. وكان ايضا لا يدفع لهم سلاحا. ويفتقد احوالهم فمن وجده بغير سلاح أو فى سلاحه نقصا ياسى عليه ويغرمه خسارة، وياخذه بابتياع عدة يقاتل بها. حتى انهم كانو ياخذو اقوام ضعفا لا قدرة لهم عل السير وليس يعرفون صنعة البحر ولا القتال فيدفعو ما يملكوه لمن يسافر عنه. ولما شكو ما ينالهم من الكلف وانهم متى وجدو سبيل إلى المضى من هذه الاعمال إلى غيرها مضو اليها، فامر (الوالى) ان يطلق لكل واحد من النصارى ديناران ويزيد عليها ما يقيم به بديلا عن نفسه من المسلمين بخمسة عشر دينار. وكان هذا من الاضطهاد الذى نالهم يشتهون الموت.

وحول تجنيد المصريين القبط فى الجيوش الاسلامية تجنيداً أجبارياً مدى الحياة، تذكر بعض المصادر أن الخليفة الفاطمى المعز استخدم فرقة فى جيوشه بعد أن احتل مصر تعرف بالحجرية، وهم فريق من الرجال كانوا يقيمون فى ثكنات تعرف باسم الحجر تقع بين القصر الكبير فى القاهرة وباب النصر، وهم فى الاصل من ارباب الحرف المهرة، ولكنهم استخدموا فيما بعد إلى جانب عملهم فى الحرب والقتال تحت ظروف شديدة القسوة مما اضطرهم إلى التمرد على قائدهم الافضل شاهنشاه اثناء حصار عسقلان. وقد اعاد الأفضل ابن امير الجيوش بدر الجمالى تنظيم هذه الفرقة الحربية وجعلهم تحت أمرة أمير لقبه بالموفق. وكان اختيار فتيان هذه الفرقة يتم كفردة على كل اقليم من اقاليم مصر، فكان وال الاقليم يختارهم من الحرفيين.

ولكن يبدوا أن الظروف المعيشية لمثل هذه الفرقة كان فى أدنى مستوياتها مما كان يدفع المصريين القبط إلى الهروب من صفوفها اثناء القتال والحروب.

وفى نفس فترة الخليفة المتوكل أمر واليه فى مصر بشق ترعة الاسكندرية التى سمحت بدخول المراكب الكبار من البحر المتوسط مما ساهم فى ازدهار النشاط التجارى للمدينة.

وفى عهد البطرك رقم ٥٥ شنوده (ابونا سانوتيس) الذى تولى البطركية فى الفترة ما بين عامى ٨٥٩/ ٨٨٠م، وعاصر أواخر حكم الخليفة المتوكل ومن بعده المنتصر والمستعين، ثم عاصر حكم أحمد ابن طولون فى خلافة المعتز والمعتمد. وقعت عدة احداث هامة نذكر منها:

١ ـ حادثة الإنشقاق المذهبى التى تذكر فى ص٨٣ وهى حادثة شيعة الاربعة عشريه فى قرى مريوط والتى كانت تنكر آلام السيد المسيح، كذلك كانت توجد شيعة أخرى فى البلينا خرجت على اسقفها واعتنقوا بدعتى سابليوس وفوتيوس.

٢ ـ هروب الباب شنوده من الوالى يزيد ابن عبدالله سنة ٨٦١م لعدم قدرته على توفير الاموال الباهظة التى طلبها منه الوالى.

٣ ـ عندما استولى على الخلافة المعتز بالله سنة ٨٦٦م أرسل البطرك اليه رسالة يشتكى من نهب الولاه لأموال الناس وممتلكات الكنيسة واوقافها فاستجاب له الخليفة المعتز وأمر برد كل اموال الكنايس وممتلكاتها التى كانت نهبت من قبل.

٤ ـ عندما تولى مصر أحمد بن طولون سنة ٨٦٨م من قبل الخليفة المعتز ادعى راهب على البطرك شنوده أنه اغتصب بعضاً من المسلمين وردهم عن الاسلام جبراً وجعلهم نصارى ثم صيرهم رهباناً.

٥ ـ فى ص١٧٦ حادثة تخريب قبيلة «المداجلة» لغرب الدلتا والاسكندرية ورشيد وساحل مريوط.

٦ ـ حادثة هجوم القرامطه على مكة (ص١٨٨).

٧ ـ استبداد ابن المدبر والى مصر بأهلها.

٨ ـ وصول مزاحم ابن خاقان لمصر لقمع تمردات المداجله.

وفى عهد الانبا خاييل البطرك رقم ٥٦ الذى جلس على كرسى البطركية بين سنتى

٨٨٠/ ٨٩٤م، الذى عاصر نهايات حكم الطولونيين. سار ابن طولون بجيوشه إلى الشام (انظر ص٣٣١)حيث مات بعد ذلك وتولى ابنه خمارويه الحكم، وبدأت رسل ودعاة الفاطميين منذ هذه الفترة تصل إلى مصر للدعوة إلى المذهب الفاطمى.

ثم تولى البطركية الاب غبريال البطرك رقم ٥٧ بين سنتى ٩١٠/ ٩٢١م، وفى عهده كثرت الشرطونية بين رجال الكنيسة. وهى أموال كان يدفعها بعض النصارى لتولى بعض المهام والمراكز فى السلم الكنسى.

جاء عقب ذلك البطرك ٥٨ قزما بين سنتى ٩٢١/ ٩٣٣م وحدثت فى عهده حادثة المطران المزور الذى أعلن نفسه مطراناً للحبشة.

وقد زودت الجزء السفلى من الصفحة بمتابعة لحكم الطولونيين حتى نهاية حكم المماليك بدأت من ص٣٥٤ إلى آخر الكتاب، شملت هذه المتابعة:

١ ـ مصر فى عصر الطولونيين.

٢ ـ مصر قبيل حكم الأخشيدين.

٣ ـ مصر فى عهد الاخشيديين (٨٣٥/ ٩٦٩م).

٤ ـ مصر فى عصر الفاطميين.

٥ ـ مصر فى عصر الأيوبيين والمماليك.

ثم تول البطرك مقاره رقم٥٩ الذى تولى البطركية بين سنتى ٩٣٣/ ٩٥٢م، وجاء من بعده البطرك تاوفانس رقم ٦٠ بين سنتى ٩٥٢/ ٩٥٦م، والذى قيل انه تجنن والقى فى النيل عند وفاته.

ثم تبعه البطرك ٦١ انبا مينا بين سنتى ٩٥٦/ ٩٧٤م. وفى الهامش الجانبى للصفحات ما بين ٤٠٢ و ٤١٥ ذكرت أحداث المأساة التى تعرضت لها مدينة تنيس والتى انتهت بتدميرها على يد صلاح الدين الأيوبى والملك الكامل تدميراً كاملاً ما بين سنتى ٥٨٨هـ = ١١٩٢ و٦٢٤هـ = ١٢٢٧م. وتم بذلك القضاء على مدينة من أعظم وأهم مدن مصر والعالم فى ذلك الوقت.

يلى ذلك البطرك ٦٢ انبا ابرهام (ابراهيم) السريانى الذى تولى البطركية بين سنتى ٩٧٤/

٩٧٨م. وفيه ترد قصة عن ساويرس ابن المقفع مؤلف الأجزاء الاولى من هذا المخطوط تكشف عن مدى ذكاءه وسرعة بديهيته في ص٤٣٣. وتحكي القصة: «أنه كان جالس عند قاضي القضاة إذ عبر عليهم كلب، وكان يوم الجمعة، وكان هناك جماعة من الشهود، فقال له قاضي القضاة: ما تقول يا سويرس فى هذا الكلب، هو نصرانى او مسلم؟. فقال له: اسئلة فهو يجيبك عن نفسه. فقال له القاضي: هل الكلب يتكلم، وانما نريدك انت تقول لنا. قال: نعم يجب أن نجرب هذا الكلب، وذلك أن اليوم يوم الجمعة والنصارى يصومو ولا ياكلو فيه لحم، فاذا افطرو عشية يشربو النبيذ، والمسلمين ما يصوموه ولا يشربو فيه النبيذ وياكلو فيه اللحم، فحطو قدامه لحم ونبيذ فان اكل اللحم فهو مسلم وان لم ياكله وشرب النبيذ فهو نصراني. فلما سمعو كلامه تعجبو من حكمته وقوة جوابه وتركوه.

وتتبع هذه القصة قصة نقل الجبل المقطم التى ذكرت فى ص٤٣٩، وهى من قصص التراث القبطى الشهيرة.

وفى ص٤٥٠ تذكر الاحداث والمصاعب التى كان يلقاها المصريين القبط سواء عند ترميم أو تجديد كنائسهم واديرتهم.

وتتوالى الاحداث بعد ذلك حتى يتولى الخلافة الفاطمية فى مصر الخليفة المستنصر (٤٢٧/ ٤٨٧هـ = ١٠٣٦/ ١٠٩٤م)، ومن بعده يتولى ابنه المستعلى (٤٨٧/ ٤٩٥هـ = ١٠٩٤/ ١١٠١م)، وكان بدرى الجمالى الارمنى وابنه الأفضل الحكام الحقيقيين للبلاد طوال الفترة من ٤٢٧هـ إلى ٤٩٥ = ٤٨٧م إلى ١١٠١م.

ويتولى البطرك ٦٣ فيلاتاوس (فلتاؤس): ٩٧٩/ ١٠٠٢م، حيث ترد بعض القصص المأساوية مثل قصة الواضح ابن الرجا فى ص٤٧٠، المسلم الذى تنصر وصار من اصدقاء كاتبنا ساويرس ابن المقفع (ص٥٠٥).

وتذكر في سيرة البطرك فيلاتاوس مطلب ملك الحبشة من ملك النوبة أن يتوسط عند البطرك فيلاتاوس ليعين له مطران لكنيسة الحبشة.

وفى سيرة البطرك ٦٤ زخارياس: ١٠٠٢/ ١٠٣٢م، الذى تولى فى ظل الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله وضعت هامش جانبى عن الحاكم سميته: (القتل سياج الطغيان)، امتد من ص٥٥٥ إلى ص٥٨٧. ومن ص٥٩٩ إلى ص ٦٠١ وضعت هامش عن الدعوات الدينية

لدعاة الحاكم بأمر الله. كما يحكى خلال سيرة هذا البطرك بعض القصص الغريبة عن الحاكم بأمر الله (ص٦١٧).

كما ترد في سيرة هذا البطرك قصة اختفاء الحاكم بأمر الله (ص٦٧٢)، إلى جانب قصة الإضطهاد الذى نال الكنيسة السريانية فى أنطاكية الموافقين فى المذهب الذى تعتنقه الكنيسة المصرية، على ايام بطركهم يوحنا ابن عبدون (ص٦٧٩) على يد الامبراطور البيزنطى.

تأتي بعد ذلك سيرة البطرك ٦٥ سانوتيوس (شنوده) : ١٠٣٢/ ١٠٤٦م، تليهما سيرة البطرك ٦٦ اخر سطودلوس (عبدالمسيح): ١٠٤٦/ ١٠٧٧م، وفى ايامه نقلت البطركية إلى القاهرة. ومن أجل بعض المشاكل التى كانت تحدث قبله فى السلك الكنسى وضع قانون، عُرف باسمه، حدد فيه العلاقات داخل الكنايس (ص٧٨٤) وتشدّد في تطبيقه بهدف اصلاح الأمور داخلها. وكانت البطركية قبل نقلها للقاهرة قد نقلت إلى مدينة دمروا بسبب المضايقات والمظالم التى نزلت عليها من قبائل اللواتيون الذين احتلوا أقليم الاسكندرية مدة تزيد على الاثنى عشر عاماً (٨٦٤، ٩٥٨)، ومنعوا الأقوات عن الناس واهملوا أصلاح الترع والقنوات حتى فسدت الزروع ولقى الناس بمصر وأعمالها الموت والخراب. ولقد ظلت مدينة دمروا مركزاً دينياً هاماً بها ما لا يقل عن سبعة عشر كنيسة، ويطلق عليها مؤرخ سيرة البطرك خريسطودولس اسم القسطنطينية الثانية، إلا أن امتداد تخريب اللواتين لشمال الدلتا ووسطها وقبضهم على البطرك وتعذيبه وعدم الافراج عنه إلا فى مقابل أموال باهظة (ص٨٦٤)، كان فى غالب الظن أحد الأسباب التى دعت إلى نقل مقر البطركية إلى القاهرة. وقد وضع كيرلس البطرك ٦٧ (١٠٧٨/ ١٠٩٢م)، الذى اتى من بعده مقر البطركية فى كنيسة القديس ميخاييل المعروفة باسم «المختارة» بجزيرة الروضة.

كما نعلم من سيرة اخرسطودلوس البطرك قصة رأس القديس مرقس الانجيلى، الذى كان فى حيازة أحد المصريين، وأن حاكم اسكندرية المسلم حاول دون جدوى الحصول عليها لتسليمها للبيزنطيين الذين كانوا على استعداد ليدفعوا له عشرة آلاف دينار مقابلها.

وفى نفس السيرة نتابع المجاعة الشهيرة المعروفة «الشدة المستنصرية» (ص٨٦٧)، التى اجتاحت مصر وأدت إلى ظاهرة «النمنمية» التى اكل فيها الناس لحوم البشر بعد ان نفدت كل الحيوانات والقطط والكلاب وكل ما هو أخضر من الزروع.

وتذكر كذلك أوامر اليزورى (الحسن ابن على) بقفل كنايس الاسكندرية ومصادرة محتوياتها، إلا أن المصريين سبقوه ونقلوا أدوات الخدمة والملابس الكهنونية وغيرها إلى أماكن خفية.

تذكر كذلك قصة شجرة الزيتون فى بلاد الاندلس واعجوبتها (ص٩٢٣). وقصة اعتقال ملك النوبة لكنز الدولة (ص٩٦٨)، وارساله إلى امير الجيوش. وتذكر حادثة ظهور مذنب وحدوث زلزال فى تنيس وتفشى الطاعون فى البلاد وتذكر موقعة «مازكرد» سنة ١٠٧١م، تلك الموقعة التى هزم فيها السلاجقة البيزنطيين وما تبع ذلك من انحدار نفوذ البيزنطيين (ص٩٤٦).

واخيرا تذكر قصة اغتيال ألب أرسلان الذى هزم الامبراطور رومانوس البيزنطى فى موقعة مازكرد.

وفى بداية سيرة البطرك ٦٧ كيرلس الثانى (١٠٧٨/ ١٠٩٢م)، تُذكر قصة ترهب ملك النوبه سلمون فى احد أديرة مصر الجنوبية، ثم قيام امير الجيوش باحضاره إلى القاهرة (ص٩٨٩). كما قامت الاتراك الغز بالهجوم على مصر واستولوا على أقليم الشرقية فخرج إليهم أمير الجيوش بجنوده الارمن وقضى عليهم (ص١٠٢٥).

ونقراء فى نفس السيرة نبذة هامة عن نظام الوراثة فى مملكة النوبة الذى يجعل وراثة العرش فى ابناء الأخت. كذلك نعلم أن البطرك كيرلس سافر إلى الوجه البحرى وكرز فيها عدة كنايس، ويغلب الظن أن بعضها كان قد أصيب بأضرار وقت تخريب اللواتيين لهذه المنطقة، واجبر البطرك كيرلس فيما بعد على أن يضع مجموعة من القوانين لتنظيم الشئون الكنسية تحت ضغط بعض الاساقفة الحاصلين على دعم من امير الجيوش بدر الجمالى. وبالنسبة للأحداث التاريخية فلدينا فى هذه السيرة رواية عن ثورة الأوحد ابن بدر الجمالى ضد والده وسيطرته على الاسكندرية، وقيام والده، بدر الجمالى، بمحاصرته لمدة شهرين، مما أجبره على توقيع صلح مع ابيه، إلا أن بدر الجمالى قبض عليه واعتقله فى السجن لمدة عام ونصف ثم أمر بقتله شنقا.

أما البطرك ٦٨ ميخاييل (١٠٩٢/ ١١٠٢م)، فقد أرغم على قبول بعض الشروط من الاساقفة كذلك ويوقع على قبولها قبل رسامته، من بينها شرط إعادة الاديرة والكنايس إلى

اصحابها الشرعيين والتى كان سلفائه قد الحقوها بالبطركية مع ايراداتها وأوقافها. ولكنه ما أن أصبح بطركاً حتى رفض تنفيذ هذا الشرط وأنكر توقيعه، مما أضطر الاساقفة والاكليروس إلى الكف عن مطالبته بحقوقهم بعد أن هددهم بالحرم، إلا أن أسقف مصر الذى تعرض بهذا السبب لمضايقات شديدة وكثيرة من البطرك، منها انه حاول الحاق الكنيسة الكاتدرائية لأسقف مصر، وهى كنيسة أبى سرجه، بالبطركية، إلا أن ذلك لم يتم بسبب إصابة البطرك ميخاييل بالطاعون ثم وفاته. (ص١١١٨ وما بعدها).

وفى نفس السيرة وردت اخبار استيلاء الفرنج على انطاكية (ص١١٦٠) وبلاد الشام من ايدى الغزّ الخرسانيين، ثم تملكهم مدينة القدس فى ١٥ يونيو ١٠٩٩م ومنعوا المصريين القبط من الحج إلى القدس (ص١١٦١) بسبب الخلافات العقائدية بينهما.

تأتى بعد ذلك سيرة البطرك ٦٩ مقاره الثانى (١١٠٢/ ١١٢٨م)، الذى اختير بطركاً بالرغم من أنه كان ابناً لزواج ثانى الأمر الذى، بحسب القانون الكنسى المصرى (القبطى) يمنع رسامته فى سلك الكهنوت، ولكن تم تجاوز ذلك واستكملت رسامته بزياراته لدير القديس أبى مقار فى شيهات (وادى النطرون)، وكان هذا تقليداً ثابتاً لكل البطاركة، مما يكشف لنا الدور المهم الذى لعبه هذا الدير فيما يتعلق باختيار وتقديم بطاركة الاسكندرية، حتى أن البطرك مقاره الثانى لم يسمح له رهبان الدير بالتقديس فى مصر قبل تقديسه بديرهم.

وفى عهده حدثت زلزلة عنيفة أدت إلى تصدع شديد لكنيسة القديس ميخاييل المختارة بالروضة، (مقر البطركية) ص١١٨٣، وقيام أحد رؤساء البنائين المسلمين بهدمها بسبب عدم حصوله على رشوة كافية. كما كانت هناك محاولة فاشلة من البطرك للأستيلاء على مقر كرسى مصر.

اما فيما يتعلق بالحوادث التاريخية، فقد وردت فى هذه السيرة إشارة وجيزة بشأن غزو مصر بواسطة بلدوين الاول ملك أورشليم وموته قرب مدينة العريش سنة ١١١٧م (ص١٢٥١). كما نقرأ وصفاً تفصيلياً عن أغتيال الوزير الأفضل (ص١٢٥٥) ومصادرة ثروته الضخمة بواسطة الخليفة. وهناك حكاية عن محاولة الوزير التالى (المأمون) للاستيلاء على الخلافة الفاطمية لنفسه (ص١٢٥٨).

تأتى بعد ذلك سيرة البطرك ٧٠ غبريال الثانى (ابن تريك) ١١٣١/ ١١٤٥م، وقد كان

قبل رسامته كاتباً في احد دواوين القاهرة، وهو واحد من العلمانيين القلائل الذين اختيروا بطركاً. وفي رسامته بدير القديس أبي مقار، كما جرت العادة، تورط في مجادلة خطيرة مع الرهبان بشأن صيغة أضافها إلى اعتراف الايمان عن الحضور الحقيقي للمسيح، التي يتلوها الكاهن قبل التناول المقدس (ص١٢٧١). ومن بين الحوادث التاريخية المدونة في سيرته قصة حسن ابن الخليفة الحافظ لدين الله حين خلع والده واستولى عل الخلافة، وكيف أنه أُرغم في النهاية على الانتحار (ص١٢٧٦ + ١٢٨٤).

وكذلك التمرد الذى قاده رضوان ابن ولخشى ضد الوزير الارمنى بهرام والارمن المستوطنين في مصر (١٢٧٩ + ص١٣٠٠).

وكذلك طلب ملك اثيوبيا من البطرك غبريال رسامة أكثر من سبعة اساقفة لأثيوبيا (ص١٣٠٩) ولكنه رفض ذلك الطلب رغم موافقة الخليفة، معللاً هذا الرفض باسباب شرحها للخليفة.

أما فى سيرة البطرك ميخايل، وهو البطرك رقم٧١ (١١٤٥/ ١١٤٦م)، والذى كانت تربطه بالخليفة الفاطمى الحافظ صداقة قوية، والتي يرجح أن كاتبها هو الانبا مرقس ابن زرعه، الذى سيصبح فيما بعد البطرك ٧٣، فتذكر الضجة الكبيرة التى حدثت ضده بفعل دسائس شخص يدعى يونس (ونس) ابن كدران.

كما ترد إشارة لعادة شيقة عند غمر جسد (أصبع) القديس أبي يوحنس (يوحنا) سنهوت في النيل لكي يجلب زيادة الماء فيه عند الفيضان (ص١٣٣٣). وفي الجزء الأسفل من الصفحات الخاصة بالبطرك ميخائيل، وضعت سرد مطول عن الحروب الصليبية، (بدأ من ص١٣٢٦ إلى ص١٥٦٥).

وفي سيرة البطرك ٧٢ يوحنا: ١١٤٧/ ١١٦٦م، والذى جلس فى مملكة الحافظ والظافر والفايز، تظهر مرة أخرى الدسايس التي حاكها من قبل يونس ابن كدران، فأثارت متاعب جمّة حين اتخذت الاجراءات لأختيار البطرك مما دفع الخليفة الحافظ إلى الأمر بانعقاد مجلس يحضره رؤساء الدواوين لأختيار مرشح مناسب للبطركية (ص١٣٣٨).

ومن بين الحوادث التاريخية المدونة في هذه السيرة هروب رضوان ابن ولخشى من سجنه (ص١٣٤٦)، ثم أغتياله بيد العسكر السودان، ووفاة الخليفة الحافظ، واغتيال ابنه الظافر

(٥٤٤/ ٥٤٩هـ = ١١٤٩/ ١١٥٤م)، وسقوط عسقلان في يد الصليبيين (ص١٣٥٧)، ووزارة طلايع ابن رزيق واغتياله، وظهور ضرغام وشاور، ثم قتل ضرغام (ص١٣٩٤). وحدوث غلاءشديد، واعمال سلب ونهب للقاهرة، وغزو مصر بواسطة أمورى (مرّى) وحصار القاهرة التى فرّ منها اسد الدين شيركوه (ص١٣٩٨)، فتبعه أمورى حتى المنيا فى صعيد مصر ودارت بينهما معارك هرب على اثرها شيركوه إلى اسكندرية فتبعه أمورى وحاصر اسكندرية، فهرب شيركوه للقاهرة يتبعه أمورى الذى كان يساند شاور فى حكم مصر. ثم عاد أمورى بعد أن حصل على اموال وغنايم وفيرة من مصر.

يأتى بعد هذا سيرة البطرك ٧٣ مرقس ابن زرعه (١١٦٦/ ١١٨٩م)، ويوحنا السادس (يوانس): ١١٨٩/ ١٢١٦م. هذا بالإضافة إلى سيرة صلاح الدين الأيوبى والملك العزيز عثمان والملك الناصر يوسف والملك الأفضل على والملك العادل أبو بكر والملك الكامل محمد.

ويستمر سرد الحوادث التالية لنياحة البطرك يوحنا، وكل هذا يغطى فترة هامة من الحروب الصليبية خاصة ما يتعلق بحروب صلاح الدين ضد الصليبيين، كما يغطى الحوادث التى وقعت فى مصر أثناء حكم خلفاء صلاح الدين حتى عهد الملك الكامل محمد.

ان قصة هذه الحروب والحوادث التابعة لها فى مصر، كما وردت فى مخطوطنا هذا، ذات قيمة تاريخية بصفة خاصة، إذ تزودنا بمعلومات وتفاصيل بالغة الأهمية تنفرد بها عن المصادر الإسلامية والافرنجية.

وفيما يختص بالبطرك مرقس ابن زرعة، فإن القليل يذكر عنه، ما عدا ما يتعلق بانتخابه الذى جاء سهلاً دون اضطراب، لأن سابقه البطرك يوحنا الخامس كان قد أوصى بتعينه خليفة بعده.

وقد ذكر فى المخطوط أنه مع بداية حكم صلاح الدين وقضاءه التام على الخلافة الفاطمية ورسومها، أزيلت الصلبان من قباب الكنايس، وشوهت من الخارج بالطين الأسود، ومنع دق أجراس الكنايس ونفذت القوانين التى تحدد ملابس المصريين من أهل الذمة. كما طرد معظم كتّاب الدواوين المصريين، ولكنه تم بعد ذلك إعادة هؤلاء الكُتَّاب بسبب نقص الخبرات الإدارية عند الأيوبيين.

وفيما يتعلق بالبطرك ٧٤ يوحنا (يوانس) السادس،فإنه رسم بعد نياحة سابقه بشهر وخمسة ايام، وكان قبل ذلك علمانياً ثرياً، يمتلك مصنعاً للسكر وطواحين للغلال ومالاً وفيراً. وقد اشتهر بأخلاقه الجيدة واحسانه للفقراء. وفي وقته لم يبلغ فيضان النيل مقياسه المعهود فيما بين عامي ١٢٠٠/ ١٢٠١م، وترتب على ذلك قحط خطير تبعته مجاعة شديدة ارتكبت خلالها جرائم وأهوال.

في هذه الفترة بدأ التراخي يتسرب إلى النظم الكنسية مثلما كانت احوال المجتمع كله، كما يتبين ذلك من واقعة ان كاهناً أرمل تزوج ثانية وذهب إلى اسكندرية، وباشر الخدمة في كنايسها. ومرجع هذه المشكلة هو ان زواج القسوس مرة ثانية يمنعه القانون الكنسي، ولما علم يوحنا السادس بهذا، وكانت اقامته في هذا الوقت بالقاهرة، وبخ بصرامة كهنة اسكندرية لسماحهم بهذا، وأوقف الكاهن المذكور وأمر بقفل كنايس اسكندرية. وأخيراً تسامح مع الكاهن المذكور بعد أن وقع كهنة اسكندرية على وثيقة بأن لا يقبل كاهن غريب عن اسكندرية ليؤدى الخدمة في كنايسها بدون موافقة رسمية من البطرك.

وفي وقت البطرك يوحنا (يوانس) جاء رسل من ملك الحبشة يلتمسون منه أن يرسم مطراناً لهم بسبب موت المطران المصرى الذى كان عندهم، وقد تم ذلك. وواكب وصول هذا المطران من مصر إلى الحبشة سقوط أمطاراً غزيرة بالحبشة، وكانت قد توقفت عن النزول في موسمها لفترة طويلة، فصار لهذا المطران شأن عظيم عندهم. ولكنه بعد خمس سنوات من وصوله عاد فجأة إلى القاهرة في حالة يرثى لها، وذكر أنه هرب من محاولة أغتياله. وللوقت أوفد البطرك يوحنا رسولاً إلى الحبشة ليتأكد من صحة رواية المطران، وبعد عام عاد رسول البطرك يحمل خطاباً من الملك يوضح فيه الاسباب الحقيقية لهروب المطران وهي أن المطران أتهم أحد كهنته الاحباش بسرقة قضيب من الذهب فضربه المطران بقسوة حتى مات، وترتب على ذلك أن أقرباء الكاهن أرادوا الانتقام لموته بمحاولة قتل المطران. لهذا عجّل البطرك برسم مطران جديد أوفده مع الرسول إلى الحبشة. أما المطران السابق فقد حرم من وظيفته وقطع.

وقد كان لارتداد راهب بدير القديس أبو مقار بوادى النطرون متاعب جسيمة للدير، فقد اتهم هذا المرتد رهبان الدير لدى السلطات الاسلامية بأنهم يخفون كنزاً في الدير. وعلى الفور قامت هذه السلطات بالتحرى والتفتيش فلم تعثر على أى شيء سوى أواني الكنيسة محفوراً عليها أسماء الواهبين لها.

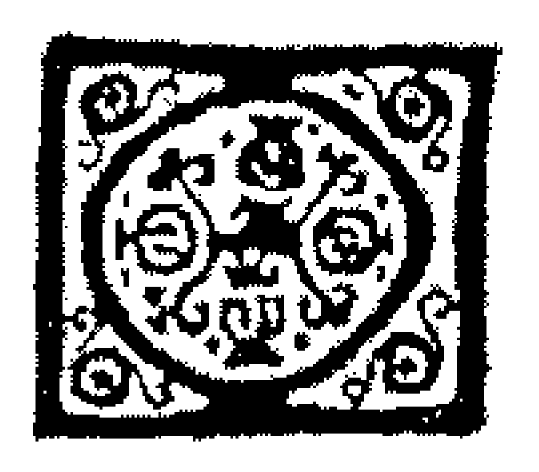
وبعد نياحة البطرك يوحنا (يوانس) قامت أزمة شديدة حول اختيار البطرك الجديد، حيث بُذلت مجهودات كبيرة لاحراز انتخاب قس معين يسمى داود ابن لقق، كان يحظى بتأييد الملك العادل الأيوبي.

ومع أن داود هذا صار في النهاية بطركاً بلقب كيرلس الثالث، ورقمه ٧٥ (١٢٣٥/ ١٢٤٣)، لكن ذلك لم يتحقق إلا بعد عشرين عاماً تقريباً، ذلك لأنه كان له خصوم كثيرون.

* * *

هناك ملاحظة هامة على لغة المخطوط والرسم الإملائي للمفردات في هذا الجزء تختلف كثيراً عنه في الجزئين السابقين. فصياغة الجملة واستخدام العديد من المفردات ذات الأصول المصرية القديمة بالإضافة إلى تمصير العديد من المفردات التركية والفارسية واليونانية واللاتينية والحبشية، اقتربت من النضج والأكتمال من حيث قواعد اللغة ويتضح ذلك منذ سيرة البطرك أنبا مرقس ابن زرعة وفترة الحروب الصليبية.

وقد زودت هذا الجزء بما يزيد عن المائة لوحة ما بين خريطة ورسم وذلك من أجل زيادة الإيضاح.



السيرة الحادية والعشرين(*) من سير البيعة المقدسة انبا خايال البطرك وهو من العدد الثالث والخمسون

[٨٤٩/٨٥١م]

ولما تنيح الاب انبا يوساب البطرك صنع الرب عجايبه فى قديسيه وجعلهم يذكرو الاب القس خايال الذى كان اغومنس بدير ابو يحنس بوادى هبيب. وكان مشهور عند كل واحد بالعفاف والحكمة ومعرفة الكتب الالهية لانه كان كاتب

(*) كاتب هذه السيرة هو ميخايل اسقف تنيس. وهو كذلك كاتب الأجزاء التالية بما فيها سيرة البطرك ٦٥ شنوده الثانى (سانوتيوس) ١٠٣٢/١٠٤٦م. انظر ص٧٠٨)

علاقات الروم بالمشرق من عام ٨٥٦ حتى عام ١٢٢٢م

حكم الامبراطور ميخائيل الثالث ٨٥٦ - ٦٧:

فى عام ٨٥٦ ميلادية، بعد حكم دام أربعة عشر عاما، سلمت تيودرا الحكم الى ابنها بعد أن بلغ الواحدة

الدولة الطولونية

١٠٨. أحمد بن طولون

ثم وليها أحمد بن طولون، من قبل المعتز، على صلاتها، دخلها يوم الخميس لسبع بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين [٨٦٨م]. فأقر بوخيا على الشرط إلى اثنى عشرة ليلة بقيت من شوال سنة أربع وخمسين ومئتين، فصرفه وجعل مكانه بوزان التركى. فاستخلف محمد ابن إسبنديار. فكان بوزان ربما صلى بالناس فى المسجد الجامع.

ثم خرج بغا الأصغر وهو أحمد [بن محمد] بن عبدالله بن طباطبا، خرج فيما بين الإسكندرية وبرقة، بموضع يقال له الكنايس [مركز كفر الدوار]، ومعه ابن عم لجابر بن الوليد المدلجى، وذلك فى جمادى الأولى سنة خمس وخمسين ومئتين، وسار فى جمع معه إلى الصعيد. فلقيه بهم بن الحسين فحاربه، فقتل بغا، وأتى برأسه إلى الفسطاط يوم الثلاثاء لإحدى عشرة بقيت من شعبان سنة خمس وخمسين ومئتين.

ثم صرف بوزان عن الشرط، وولى مكانه موسى بن طونيق، يوم الاربعاء لثمان خلون من رجب سنة خمس وخمسين ومئتين. [وخلع المعتز لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومئتين]، وبويع المهتدى بن الواثق، [فأقر أحمد بن طولون عليها] وخرج ابن الصوفى العلوى بصعيد مصر، وهو ابراهيم بن محمد بن يحيى بن عبدالله بن محمد بن عمر بن على ابن أبى

والعشرين، لكنه كان ضعيفاً،فترك شئون الامبراطورية تسير على نحو ما كانت عليه في عهد وصاية أمه، ولم يخرج عن سياستها قط، فلا نكاد نلاحظ فرقاً بين حكمه وحكم أمه، وكما لاحظ الطبرى في كتابه تاريخ الرسل والملوك «وكان خاله بطرناس هو المدبر أمره»، ولقد لقبه مؤرخو الروم باسم الامبراطور شارد الذهن Blabes لانه كان دائما غائبا عن الوعى، لانصرافه الى اللهو والعبث وساعده على ذلك، أن سياسة الاستقرار التى أرست قواعدها أمه

للاب انبا يوساب المتنيح وهو شماس. لحقه وجع ايام كثيره فسال الاب انبا يوساب ان يطلقه يمضى الى البريه المقدسه. مع ارادة الله استحق ان يكون اغومنس بعد ان كان قسا من يد الاب انبا يوساب. فاخذوه وهو غير راضى ودخلو به الى المدينة العظمى اسكندرية واجلسوه على الكرسى فى اليوم الرابع والعشرين من هتور وهم متممين تذكار البطريرك الشهيد مارى بطرس، فلما جلس على الكرسى كان يظهر العلوم التى استفادها من

طالب،كان خروجه في سنة ثلاث وخمسين ومئتين. فدخل إسنا في ذى القعدة سنة ست وخمسين ومئتين. فنهبها وقتل أهلها. فبعث إليه أحمد بن طولون بابن ازذاد في جيش، فواقعه بهو [قرب قوص بالصعيد] يوم الأربعاء لخمس خلون من ربيع الأول سنة ست وخمسين ومئتين. فانهزم ابن أزذاد وجرح، ثم ظفر به ابن الصوفى وقطع يديه ورجليه، وصلبه ، فعقد أحمد ابن طولون لبهم بن الحسين على جيش ، وضم إليه ابن عجيف. فخرجاإلى الصعيد يوم الخميس لتسع عشرة خلت من ربيع الأول سنة ست وخمسين فالتقوا بناحية إخميم يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر. فانهزم ابن الصوفى، ومضى منهزماً وترك جميع ما كان معه وقتلت رجالته. فبعث أحمد ابن طولون إلى بُهم بخلع وطوق من ذهب. ومضى ابن الصوفى إلى الواح فأقام به سنتين . ثم خرج إلى الأشمونين في المحرم سنة تسع وخمسين. فبعث إليه بأبى المغيث في خمس مئة . فوجد ابن الصوفى قد سار إلى أسوان لمحاربة أبى عبد الرحمن العمرى عبدالله بن عبد الحميد بن عبدالله بن عبد العزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب. فالتقى هو والعمرى، فظفر به العمرى وبجميع جيشه، فقتل منهم مقتلة عظيمة. ورجع ابن الصوفى إلى أسوان، فقطع لأهلها ثلاث مئة ألف نخلة، وظهر فساده بها. فبعث أحمد ابن طولون بأبن سيما مدداً لبهم بن الحسين . واضطرب أمر ابن الصوفى مع أصحابه، فتركهم ومضى إلى عيذاب، فركب البحر إلى مكة، فأقام بها. ثم بُعث به منها بعد ذلك بحين إلى أحمد بن طولون ، فسجنه ثم أطلقه. فخرج إلى المدينة فمات.

المعلمين القديسين الفضلا المويدين حتى يتعجب كل احد منه ومجدو الله. وكان ضعيف الجسم. وكانو المتوليين لاستخراج الخراج يلزموه بخراج الاواسي. وذاق طعم الاوجاع والبلايا.

فلما كان في يوم من الايام بكا بدموع غزيرة وقال يا ربى يسوع المسيح انت تعلم ان الانفراد غرضى طول زماني وليس لي قدرة على هذه التجارب لانني ضعيف الجسد يوم بعد يوم وانا

تيودورا بدأت تأتى بثمارها، كما أن حركة التبشير الارثوذوكسى كانت قائمة على أشدها في البلقان، مما أحدث تنافسا بين روما وكنيسة القسطنطينية.

تأزم العلاقات بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما:

وكان من الطبيعى أن يؤدى انتشار المسيحية الارثوذوكسية بين الشعوب السلافية والبلغارية الى زيادة هيبة ونفوذ القسطنطينية وكنيستها في أوروبا الشرقية وشبه جزيرة البلقان، مما أغضب البابا وسلطات الكنيسة

وكان عيسى بن الشيخ بن السليل الشيبانى واليا على فلسطين والأردن، ثم تغلب على دمشق، وامتنع من حمل المال إلى العراق. فحمل ابن مدبر صاحب خراج مصر إلى العراق بسبع مئة ألف دينار وخمسين ألف دينار. فعارضها [قطع عليها الطريق] عيسى بن الشيخ فذهب بها. وكتب [المهتدى] إلى أحمد بن طولون بالخروج إليه وتسلم أعمالة. ففرض أحمد بن طولون فروضاً، واتخذ السودان فأكثر. وأظهر أحمد الخروج إليه، وذلك في صفر سنة وخمسين ومئتين. ثم رأى أن يكاتبه قبل شخوصه إليه. فكتب إليه مع قيس بن حفص كاتب بكار القاضى وأحمد بن يحيى السراج. فرجعا بما لم يوافق أحمد بن طولون. ثم خرج أحمد بن طولون يوم الخميس لست خلون من جمادى الآخرة سنة ست وخمسين، واستخلف أخاه موسى بن طولون على مصر، وصرفه عن الشرط. فجعل موسى على شرطه محمد بن عيسى. ورجع أحمد بن طولون من الطريق، بكتاب ورد عليه من العراق . فدخل الفسطاط لأيام خلت من شعبان . فعاد موسى بن طولون إلى الشرط. وبعث إلى عيسى بن الشيخ بماجور فحاربه ، فانهزم أصحاب عيسى، وقتل ابنه بمصر، وتسلم ماجور أعمال الشام.

وتوفى المهتدى في شعبان سنة ست وخمسين ومئتين، وبويع المعتمد بن المتوكل، فأقر أحمد بن طولون عليها. وابتدأ أحمد بن طولون في بنيان الميدان في شعبان سنة ست وخمسين. وأمر بحرث قبور اليهود والنصارى وبنى موضعهما.

اعلم انك تقبل دعا المضيقين عليهم وقد قلت: اصرخ الى في يوم شدتك فاخلصك ولتمجدني وانا اسلك يارب ان تظهر علامة رحمتك في هذا الزمان الضيق ولا تدعني اشاهد تجارب اخر لانني غير قادر على حملها فسمع محب البشر دعا ذلك القديس لانه عالم بخبرة كل احد ويسمع القول المكتوب: اذا تكلمت اقول هانذا. فلما كان في ايام الصوم توجه الى البرية المقدسة ليتم عيد الفصح كعادة الابا البطاركة. ولما كان بعد عيد

الكاثوليكية اللاتينية في روما. وحاول البابا اجبار ميخائيل الثالث على عزل البطريرك فوتيوس Photios الذى تولى كرسى البطريركية بعد موت ميثوديوس، بحجة أنه حرف في تفسير بعض نصوص الكتاب المقدس، وذلك في عام ٨٦٣م؛ غير أن الامبراطور ميخائيل الثالث رفض طلب البابا. وقد كانت الحقيقة وراء هذا الصراع بين البطريرك والبابا، أن كلا منهما يريد الآخر أن يذعن لمشيئته، فكل منهما كان يعتقد أن منصبه اعلى من منصب الآخر، وكان كل منهما يحاول تفسير النصوص الدينية

وقدم العباس وخمارويه ابنا أحمد بن طولون بأخيه موسى إلى العراق وجعل مكان موسى على الشرط موسى بن طونيق، وذلك في جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين. ثم أمر أحمد برد أخيه موسى في رجب. فرجع من الطريق فرده إلى الشرط، ثم صرفه عن الشرط في شهر رمضان سنة سبع وخمسين، وجعل مكانه طغلغ فاستخلف طخشي بن بلبرد.

وورد كتاب يارجوخ إلى أحمد بن طولون بتسلم الأعمال الخارجة عن يده من أرض مصر. فتسلم الإسكندرية من إسحاق بن دينار، وخرج إليها يوم الاثنين لثمان خلون من شهر رمضان سنة سبع وخمسين. واستخلف على الفسطاط طغلغ، وجعل على الشرط طخشي بن بلبرد . ثم قدم أحمد بن طولون من الإسكندرية يوم الخميس لأربع عشرة بقيت من شوال سنة سبع،وقد سخط على أخيه موسى بن طولون، وأمر موسى بلباس البياض.

وخرج أحمد أيضاً إلى سكندرية خرجته الثانية، يوم السبت لثمان بقين من شعبان سنة تسع وخمسين. فاستخلف عليها ابنه العباس بن أحمد . فصرف طخشي عن الشرط، وجعل مكانه محمد بن هرثمة. وقدم أحمد إلى الفسطاط يوم الخميس لثمان خلون من شوال سنة تسع وخمسين.

وأمر أحمد ببنيان المسجد على الجبل في صفر سنة تسع وخمسين. وأمر أيضاً ببنيان المارستان للمرضى فبنى لهم في سنة تسع وخمسين.

٥٣: انبا خايال البطرك ٨٤٩/٨٥١م

الفصح المقدس توجع. فدعاه السيد المسيح اليه وتنيح في الثاني والعشرين من برمودة سنة سبع وستين وستماية للشهدا الابرار، وتم عليه قول المزمور، شهوة قلبه اعطيته ولم تمنعه ارادة شفتيه وجعلو جسده في بيعة القديس ابو مقار ونال الاكليل مع القديسين في كورة الاحياء. ومدة مقامه على الكرسي المرقسي سنة واحدة وخمسة شهور. والمجد للاب والابن والروح القدس الى الابد امين.

بطريقته الخاصة، حسب ثقافته، وعقليته وطريقة تفكيره، مما أدى إلى القطيعة بين الكنيستين، ووصل العداء الى اقصاه عام ٨٦٧ ميلادية عندما انعقد مجلس السنودس Synodos وهو المجلس الأعلى للاساقفة المسئول عن مراقبة شئون الكنيسة الارثوذكسية، وكان الامبراطور ميخائيل الثالث يترأس هذه الجلسة، التي أصدر فيها السنودس قرارا بطرد بابا روما من الكنيسة؛ وبالتالي قطعت العلاقة بين ا لكنيستين، واتخذت كل منهما طريقا مستقلا. ولقد اتخذ ميخايل الثالث هذه الخطوة بعد فشله

وورد كتاب [الخليفة] المعتمد إلى أحمد بن طولون يستحثه في حمل الأموال فكتب إليه: لست أطيق ذلك والخراج بيد غيري. فأنفذ المعتمد نفيساً الخادم إلى أحمد بن طولون، بتقليده الخراج بمصر، وبولايته على الثغور الشامية. فأقر أحمد بن طولون أبا أيوب أحمد بن محمد بن شجاع على الخراج خليفة له عليه.

وضج أهل الثغور من ولاتهم . فبعث أحمد بن طولون إلى أخيه موسى، وهو مقيم بطرسوس، بتقليدها؛ فامتنع موسى من ولايتها. وكتب أحمد إلى إبراهيم بن عبد الوهاب بولايتها، فامتنع. فعقد أحمد عليها لطخشي بن بلبرد. فخرج إليها في جمادى الأولى سنة أربع وستين ومئتين. وجعل مكانه على الشرط الحسن بن غالب الطرسوسي.

وتقدم أبو أحمد الموفق إلى موسى بن بغا في صرف أحمد بن طولون عن مصر. وتقليدها ماجور التركي. فكتب موسى بذلك إلى ماجور [وهو والي دمشق يومئذ ، فتوقف] لعجزه عن مقاتلة أحمد بن طولون. فخرج موسى ابن بغا فنزل الرقة. وبلغ ابن طولون أنه سائر إليه، وأنه مجد في محاربته فأخذ أحمد بن طولون في الحذر منه، وابتدأ في بنيان حصن الجزيرة [الروضة] التي بين الجسرين، ورأى أن يجعله معقلاً لماله وحرمه، وذلك في سنة ثلاث وستين.

واجتهد أحمد بن طولون في بنيان المراكب الحربية، وإطافتها بالجزيرة. وأظهر الامتناع من موسى بن بغا بكل ما قدر عليه. وأقام موسى بن بغا بالرقة عشرة أشهر، وأحمد في إحكام

الاب انبا قزما البطرك وهو من العدد الرابع والخمسون[٨٥١/٨٥٩م]

فلما تنيح الاب انبا خايال جلس على الكرسى بنعمة الروح القدس وباتفاق من الابا الاساقفة والشعب الارتدكسى بمدينة اسكندرية قزما وكان شماسا من بيعة القديس ابو مقار واصله من سمنود فاجتمعو الى البيعة واوسموه بطركا فى اليوم الرابع عشر من ابيب سنة سبع وستين

فى ارضاء البابا نيقولا الأول، فقد أرسل اليه ثوبا مطرزا بصورة المسيح وحوله حواريوه كدليل على أنه قد رفع الحظر على عبادة الايقونات تماما. وقد سجل المؤرخون اللاتين وصفا لهذا الثورب الجميل، الذى لم يبق له أثر، غير أن البابا ظل متصلبا فى موقفه من الأمبراطور ومن كنيسة القسطنطينية.

نهاية الأسرة العمورية ٨٦٧م:

ولم تمض شهور على انعقاد مجلس السنودس وطرد البابا نيقولا الأول من رحمة كنيسة القسطنطينية، حتى لقى الامبراطور حتفه؛ اذ اغتاله

أموره. فاضطرب أصحاب موسى عليه، وضاق بهم منزلهم، وطالبوا موسى بالمسير أو الرجوع إلى العراق. فبينا هو فى ذلك، توفى موسى بن بغا فى صفر سنة أربع وستين.

ثم توفى ماجور بدمشق، واستخلف ابنه علياً. فحرك ذلك أحمد بن طولون على المسير. فكتب إلى على يخبره بأنه سائر إليه، وأمره بإقامة الأنزال والميرة لعساكره. فرد عليه على بن ماجور أحسن جواب.

ثم صرف أحمد الحسن بن غالب الطرسوسى عن شرطه. يوم الاربعاء لثمان خلون من رجب سنة أربع وستين، وجعل مكانه إبراهيم بن بلبرد أخا طخشى.

وشكا [المسلمين من] أهل مصر إلى أحمد ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بجنده وسودانه. فأمر بابتناء المسجد الجامع [على جبل] يشكر؛ ابتدأ فى بنائه سنة أربع وقضى فى ست وستين ومئتين.

وخرج أحمد بن طولون فى جيوشه لثمان [بقين] من شعبان سنة أربع وستين، واستخلف ابنه العباس على مصر. وضم [إليه] أحمد بن محمد الواسطى مدبرا. فبلغ أحمد إلى الرملة، فتلقاه محمد بن رافع خليفة ماجور عليها، وأقام له الدعوة بها. فاقره عليها [ومضى إلى دمشق. فتلقاه على بن ماجور، وأقام له بها الدعوة]. فأقام أحمد بها حتى استوثق له أمرها. ثم استخلف عليها أحمد بن دوغباش. ومضى إلى حمص، فلقيه عيسى الكرخى خليفة ماجور،

وخمسماية للشهدا الاطهار. وكان هدو وسلامة في البيعة فحرك مبغض الخير الشيطان شوكة سو وجعل للبيعة عثرة، لما كان في تلك السنة وقد قرب عيد الشهيد مارى مينا اجتمع اليه الشعب المومنين من المدن والقرى ليقدمو قرابينهم وصلواتهم في تلك البيعة التى هى مسرة لجميع الارتدكسين، فاجتمع هناك قوم بهم شياطين فقفز واحد منهم ووثب على اخر مثله ولم يزالو يتخانقو الى ان مات احدهما. فلما سمع الامير والى

أحد رفاقه ويدعى باسيليوس Basile-us، احتجاجا على سياسة الامبراطور المستكينة. وبموت ميخائيل الثالث، أسدل الستار على الأسرة العمورية، وبدأ باسيليوس حكم أسرة جديدة، جاءت من اقليم مقدونيا العريق بتاريخه منذ العصر الهللينستى، والتى عرفت باسم الأسرة المقدونية.

وعموما فان الاحداث الجسام التى شهدها عصر الاسرتين الايسورية والعمورية ساعدت على اكتمال الشخصية الرومية وتميزها عن التراث اللاتينى الغربى، وكانت تلك الحركة

فسلمها إليه. ثم بعث إلى سيما الطويل، وهو بأنطاكيه، يأمره بالدعاء له، فلم يجبه سيما إلى ذلك. فسار إليه أحمد بن طولون في جيش عظيم. وبلغ ذلك سيما، فتحصن بأنطاكية وامتنع. فحاصره أحمد ورمى حصنها المنجنيق، وطال حصاره لها. فاشتد ذلك على أهلها، فبعثوا إلى أحمد ابن طولون فخبروه بالموضع الذى يمكنه أن يدخل إليها منه. فقصده، وعاونه أهلها على سيما. فدخلها أحمد في المحرم سنة خمس وستين ومئتين. فقتل سيما. واستباح أمواله ورجاله. وورد كتاب أحمد إلى الفسطاط بفتح أنطاكية وقتل سيما، في صفر سنة خمس وستين. ومضى أحمد بن طولون إلى طرسوس بأصحابه فغلا السعر بها، واضطرب أهلها ونابذوه. فقاتلهم. وتقدم أحمد إلى أصحابه أن ينهزموا عن أهل طرسوس، ليبلغ ذلك طاغية ملك الروم. فيعلم أن جيوش ابن طولون لم تقم لأهل طرسوس. فانهزموا منهم . فخرج عنهم ، وولى عليهم طخشي بن بلبرد.

وقد كان رأى أحمد بن طولون أن يقيم بالثغور، حتى أتاه الخبر من مصر أن ابنه العباس قد خالف عليه، فأزعجه ذلك. وكان السبب في مخالفته لأبيه أنه استخص قواداً من قواده كانوا على خوف شديد من أحمد بن طولون؛ كان منهم على بن أعور، وعبدالله بن طغيا، وأحمد بن صالح الرشيدى، وأحمد بن أسلم. فحسنوا للعباس التغلب على مصر، والقبض على أحمد ابن محمد الواسطي. وبلغ الواسطي ماعزموا عليه من ذلك، فكتب إلى أحمد ابن طولون يخبره بذلك. وبلغ العباس ذلك، فازداد وحشة من أبيه لما علم أنه اطلع على أمره.

اسكندرية وكان اسمه احمد ابن دينار هذا الامر فامر ان يوخذ الاب قزما. فاخذه وعذبه حتى اخذ منه جميع ما دفع اليه من الصدقات فى يوم العيد تلك السنة. ولم يترك منه شيا. وكاد ان ينزل على البطرك بلايا ويخسره مالا. وتقدم اليه ان لا يزول [يخرج] من اسكندرية.

وكان فى ذلك الزمان ارخنين بمصر محبين لله اسم احدهما مقاره ابن يوسف كاتب صاحب

قد بدأت منذ عصر هرقل، ففى عصر هاتين الاسرتين استقلت كنيسة القسطنطينية اليونانية عن كنيسة روما اللاتينية، واتخذت الأولى المذهب الارثوذوكسى (أى أصحاب النظرية الحقة)، بينما اتخذت الثانية المذهب الكاثوليكى (أى أصحاب النص الحرفى)، وأصبح بابا روما ندا لبطريرك القسطنطينية، ولا يقل عنه، فقد أصبح البابا يسيطر روحيا على العالم الأوروبى الغربى، ويعتمد على ملوكه فى حماية ممتلكاته، تماما مثلما أصبح بطريرك القسطنطينية يهيمن

وكانت للعباس أيضاً طائفة تطيف به من أهل الشعر كانوا خاصته، منهم جعفر بن جدار، وأبو معشر أحمد بن المؤمل، ومحمد بن سهل المنتوف. فشاورهم فيما عزم عليه، فأشاروا عليه أن يفعل. وخافوا من أحمد بن طولون، فأشاروا على العباس أن يبعد عن أبيه ويخرج من مصر. فعمد العباس إلى أحمد بن محمد الواسطى فقيده. ثم سار العباس فى الطائفة التى معه، والواسطى معه؛ كان خروجه إلى الجيزة يوم الأحد لثمان خلون من شعبان سنة خمس وستين ومئتين، فعسكر بها. واستخلف أخاه ربيعة بن أحمد على الفسطاط. وأظهر العباس أنه سائر إلى سكندرية، لكتاب ورد عليه من أبيه يأمره بذلك . فتوجه إلى الإسكندرية ثم سار إلى برقة.

وقدم أحمد بن طولون من الشام إلى الفسطاط، يوم الخميس لأربع خلون من شهر رمضان سنة خمس وستين. فأنفذ أبا بكرة بكار بن قتيبة القاضى، ومعمر بن محمد الجوهرى، والصابونى القاضى، وزياداً المعدنى، إلى العباس. فكتب معهم إليه كتاباً ألان له فيه جانبه ، ووعده أن لا يسوءه ولا يأخذه بقبح عمله. فصاروا إليه إلى برقة. فانقاد العباس إلى الرجوع، وهم بالشخوص معهم إلى أبيه، ففزعت الطائفة التى حسنت له الخروج من أبيه أحمد، وعلموا أنه موقع بهم، فحرضوه على المقام. فرجع إلى قولهم . وانصرف بكار بن قتيبة ومعمر بن محمد إلى أحمد بن طولون. فدخلا الفسطاط أول ذى الحجة سنة خمس وستين.

وعزم العباس على المسير إلى إفريقية، ورأى أنها أمنع له من برقة. فكتب إلى إبراهيم بن

ديوان وله موضع عند جميع من يتولا فسطاط مصر، والاخر ابراهيم ابن سويرس متولى بيت المال وعلى جميع استخراج الاموال ليحملها الى خزاين الملك. فلما اتصل بهما ما جرى في بيعة الشهيد مارى مينا وما خسره الاب البطرك تشاورو بحكمة وتقدما الى والى مصر وهو عبدالواحد ابن يحيى الوزير فقالو له ننفذ الى اسكندرية ونحضر البطرك الى ها هنا ونكتب عليه خراج الاواسى من اجل انه جديد قد ولى فى هذه الايام، وفعلو اوليك

روحيا على كنائس الشطر الشرقى من الامبراطورية ولا يعترف بالبابا ولا بكنيسته فى روما.

كذلك فان نجاح حركة التبشير، التى قادها الرهبان ورجال الدين والمبشرون الروم فى أصقاع أوروبا الشرقية بعد انتصار عبادة الايقونات، حولت جيران الأمبراطورية المتبربرين من أمثال السلاف، والبلغار، والروس، الى شعوب متحضرة، فقد اعتنقت هذه الشعوب المسيحية الارثوذوكسية على مذهب كنيسة القسطنطينية، وذلك منذ منتصف القرن التاسع، وتكونت لديها كنائس قومية، تخضع

أحمد بن محمد بن الأغلب، أن كتاب المعتمد ورد عليه بتقليده إفريقية، ويأمره بالدعاء له بها، ويخبره أنه سائر إليه. ثم مضى العباس متوجها إلى إفريقية فى جمادى الأولى سنة ست وستين. فنزل لبدة، فخرج إليه عاملها وأهلها، فتلقوه وأكرموه. فأمر العباس بنهبها، فنهبت وأهلها على غرة. فقتلت رجالهم، وفضحت نساؤهم. وبلغ الخبر إلياس بن منصور النفوسى، وهو يومئذ رأس الإباضية، [فغضب لذلك وسار إلى العباس ليقاتله]. وبعث إبراهيم بن أحمد بن الأغلب بغلام له، يقال له بلاغ، إلى محمد بن قرهب عامله على أطرابلس، فى جمع كثير من أهل إفريقية. فأطبق الجيشان على العباس، فباشر العباس يومئذ الحرب بنفسه، وحسن بلاؤه يومئذ.

وقتل يومئذ صناديد عسكره، ووجوه أصحابه وحماته، ونهبت أمواله وسلاحه، ورجع هارباً إلى برقة فى ضر واختلال.

وعقد أحمد بن طولون لإبراهيم بن بلبرد على جيش، وبعث به إلى برقة، وذلك فى شهر رمضان سنة سبع وستين. وجعل مكانه على الشرط سرى بن سهل. فأقام إبراهيم فيما بين برقة والإسكندرية. ثم أجمع أحمد بن طولون على النهوض بنفسه إلى برقة، فاستعد لذلك، وخرج فى عسكر عظيم. فزعموا أن عسكره ذلك كان مضموماً على مئة ألف. وخرج من الفسطاط يوم الخميس لثنى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ثمان وستين ومئتين. فأقام بالإسكندرية

الاراخنة المحبين لله هذا الامر ليجدو السبيل الى اخراج البطرك من اسكندرية وانتزاعه من يد ذلك الامير فانفذ الوزير قوما وكتب باحضار الاب البطرك فلما علم الامير ذلك وانه بسبب الخراج لم يقدر يعوقه عن المسيره ولما سار ووصل الى مصر وسلم على الوزير بمصر فتخير له مدينة شرقي مصر تعرف بدميره كلمن يسكن بها نصراني فسكنها الاب البطرك لما كان باسكندرية من البلايا. واعتنا الارخنان المذكوران بامور البيعة

للكنيسة الأم، ويهيمن بطريرك القسطنطينية على أساقفتها بنفوذه الروحى، ويدين هؤلاء الاساقفة لبطريرك القسطنطينية بالولاء والطاعة. كما أن هذه الشعوب، بدأت تسير نحو طريق الحضارة والأستنارة لأول مرة في تاريخها، بعد أن نجح المبشرون الروم في تطوير ابجدية سلافية مشتقة من الابجدية القبطية، والتى تعرف بالابجدية الكريلية (أو السيريلية)، وبتحويل هذه الشعوب الى شعوب مسيحية متحضرة، تخلصت امبراطورية الروم من خطر هذه

وهرب أحمد بن محمد الواسطي من يدى العباس، فأتى سكندرية. فلقى أحمد ابن طولون بها، وهو عازم على المسير إلى برقة. فصغر أمر العباس عنده، فعقد ابن طولون لطبار على بعض الجيش الذى كان معه، فيهم أحمد بن وصيف وتيتك وسعد الأيسر. ومضوا يريدون برقة. فالتقى طبار مع أصحاب العباس بموضع يقال له دنباره من أرض برقة، يوم الاثنين لتسع بقين من جمادى الآخرة سنة ثمان وستين ومئتين. وانهزم أصحاب العباس، وقتل منهم كثير. وهرب العباس. فاتبعوه فأدركوه يوم الأحد لأربع خلون من رجب سنة ثمان.

ورجع أحمد بن طولون إلى الفسطاط يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من رجب سنة ثمان وستين. وأتى بالأسرى، فيهم جعفر بن جدار وأبو معشر ومحمد بن سهل المتوف وعبدالله بن طغيا قد أعطوا أماناً. فرأى بكار القاضى أن لا أمان لهم. وكان دخولهم يوم الاربعاء لثمان بقين من شوال سنة ثمان وستين. ثم أخرجوا يوم الاربعاء لمستهل ذى القعدة، وقد بنيت لهم دكة عظيمة رفيعة السمك. فأمر أحمد بن طولون بأبن جدار، فضرب ثلاث مئة سوط. ثم تقدم إليه العباس فقطع يديه ورجليه، وألقى من الدكه.

ثم بعث أحمد بن طولون بلؤلؤ غلامه في جيش إلى الشام. فكاتبه أبو أحمد الموفق وبعث إليه أبو أحمد، فحمله في الماء من الرقة جمادى الأولى سنة تسع وستين، فبلغ ذلك أحمد بن طولون، فسارع إلى الخروج، ورجا أن يلحق لؤلؤا. واستخلف على مصر ابنه خمارويه بن أحمد.

وجعلا الاب البطرك بغير هم من امور السلطان لمواتاة الزمان لهما، وكان ابراهيم يضمن حسابه [من] خراج اواسي البيعة ويقوم به من عنده ولا يدع احد يخاطب الاب البطرك. وكان من نعمة الله ان جماعة من المومنين متوليين ديوان السلطان وجميعهم يبذلو انفسهم على البيعة شهوة واجتهادا عن امانتهم واراحو البطرك والبيعة والمومنين. وصارو تحت هدو وسلامة ولا موضع واحد كان فيه اضطراب في تلك الايام، وهم مواصلين

الشعوب وعدوانها، فامنت جانبهم،حتى أن الامبراطورية الرومية شعرت أن مستقبلها يقبع في شرق أوروبا السلافي، وليس في غرب أوروبا اللاتيني، وهذا أيضا ساعد على تبلور شخصية الروم وكنيستهم واستقلالهم عن تراث الغرب اللاتيني.

وبالاضافة الى ذلك فان انطلاق نهضة أدبية وفنية رومية جديدة، منذ أواخر القرن التاسع الميلادى، فيها يعرف بالعصر الذهبى الثانى للقسطنطينية، جعل الفن البيزنطى يكتمل في مفاهيمه وأشكاله، ويستقل

ثم خرج أحمد في صفر سنة تسع وستين، وخرج معه بالعباس مقيداً. فسار أحمد حتى نزل دمشق. فكتب إلى خلف الفرغاني عامله على طرسوس؛ كان طخشي قد استخلفه عليها عند وفاته. فكتب إليه أحمد يأمره بالقبض على يازمان الخادم، ويحمله إليه. فعلم أهل طرسوس بذلك، وأخذوا يا زمان من يدى خلف، وأخرجوا خلفاً من طرسوس، وولوا عليهم يازمان. فمضى أحمد بن طولون إلى دمشق، يريد المسير لمحاربة أهل طرسوس. فتلقاه كتاب المعتمد، يعلمه أنه خارج إليه، فتوقف أحمد بن طولون. وخرج المعتمد من العراق كالمتصيد، ثم ركب الطريق إلى الرقة. وبلغ أبا أحمد الموفق مسيره، وهو إذ ذاك موافق العلوى بالبصرة. فكتب أبو أحمد إلى إسحاق ابن كنداج الخزرى، وإلى صاعد بن مخلد، يخبرهما أن المعتمد قد مضى إلى أحمد بن طولون، وإن تم له هذا لم يبق من الموالي أحد، ويأمر إسحاق أن يلحقه فيرده، ووعده على رده أموالاً وإقطاعات. فلما سار المعتمد إلى الحديثة، أتاه إسحاق بن كنداج بهدايا وألطاف، واستأذنه في خطاب الذين ساروا معه، وهم خطاريش وأحمد بن خاقان وتيتك وإبراهيم بن مدبر. فأذن له في خطابهم. فخلا بهم إسحاق فقيدهم ثم عاد إلى المعتمد، فقال: إن الذى عزم عليه أمير المؤمنين هو الخطأ. وأخذه وأحدره إلى سر من رأى يوم الأحد لخمس خلون من شعبان سنة تسع وستين. ووكل به إسحاق بن كنداج خمس مئة رجل. فعقد أبو أحمد الموفق لإسحاق أبن كنداج على مصر. وبلغ أحمد أبن طولون ما فعله أبو أحمد

٥٤: انبا قزما البطرك ٨٥١/٨٥٩م

عن الفن المروث من حضارة الاغريق والرومان.

عصر الأسرة المقدونية
(٨٦٧ - ١٠٥٧م)

يعتبر عصر الأسرة المقدونية من أزهى وأقوى عصور الروم، فقد تخلصت الامبراطورية من كل مشاكلها في أواخر القرن التاسع، ثم انتقل العرش إلى أسرة قوية راسخة الاركان، انطلق أباطرتها الاقوياء الاكفاء يعملون متفانين، ومستخدمين الكفاءات، ومطلقين القدرات والمواهب المغمورة، ولم يكن أباطرة

الصلوات والقداسات شاكرين لله على ما انعم به عليهم كما قال داود: بنور وجهك يسلكون وباسمك يتهللون كل النهار وبحقك يرتفعون لانك انت فخر قوتهم وبحقك يعلوا قرننا.

فلما دامت هذه النعمة والسلامة بدا الاب قزما بالاهتمام يكتب سنوديقا الى الاب يوحنا بطريرك انطاكية، فكتب وانفذ على يد اساقفة قديسين وهم انبا سويرس اسقف دلوج [دلاص/ بنى

وإسحاق بن كنداج، فرجع إلى دمشق. وكتب إلى عامله يأمره بإحضار القضاة والفقهاء والأشراف، وكتب بخبر المعتمد وما فعل به. وورد كتابه إلى مصر، فقرىء على أهلها، بأن أبا أحمد نكث بيعة المعتمد، وأسره، وحرش عليه في دار أحمد بن الخصيب، وأن المعتمد قد صار من ذلك إلى ما لا يجوز ذكره، وأن المعتمد يبكي بكاء شديداً. ثم خطب الخاطب بمصر يوم الجمعة، فذكر ما نيل من المعتمد، وزاد في خطبته: اللهم فاكفه من حصره ومن ظلمه. وخرج من مصر بكار بن قتيبة، ومنهال بن حبيب، وإسحاق بن محمد بن معمر، وقيس بن حفص، وعبدالله بن بشير، وحوثرة بن عبدالرحمن، وسعيد بن سعدون، وفهد ابن موسى، وعلى بن محمد بن عبدالحكم، وغيرهم إلى دمشق. وحضر هناك أهل الشأمات والثغور. فلما اجتمعوا، أمر أحمد بن طولون بكتاب خلع فيه أبا أحمد الموفق من ولاية العهد، لمخالفته المعتمد، وحصره إياه، وكتب فيه: إن أبا أحمد خلع الطاعة، وبرئ من الذمة فوجب جهاده على الأمة. وشهد على ذلك جميع من حضر إلا بكار بن قتيبة ومحمد بن إبراهيم الإسكندراني، وفهد بن موسى. وقال بكار: لم يصح عندى ما فعله أبو أحمد ولم أعلمه وامتنع من الشهادة والخلع. وكان ذلك يوم الخميس لاثنى عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة تسع وستين ومئتين.

وبلغ أبا أحمد ما فعله أحمد بن طولون، فكتب إلى أعماله يأمرهم بلعنه على المنابر. فلعن

سويف] وانبا خايال اسقف البشرودين ومعهم كهنة. فلما وصلو اليه قبلهم بفرح عظيم واتحاد المحبة والامانة وباركو الرب جميع بيع انطاكية، وفرحو بما علمو من سلامته وسلامة البيعة بمصر واعمالها وشيعهم بعد ايام بمجد وكرامة وكتب بسلامة يتضمنو المحبة والاتحاد، ويدعو فى كتبه ان يديم الرب هذه السلامة.

وفيما هو فى ذلك لم يصبر مبغض الخير فبدا وطرح زوان سو فى قلب ملك المسلمين وهو جعفر

البيت المقدونى يسعون وراء القوة وحدها، بل تميزوا بحب الفنون والثقافة، وبفضل محافظتهم على ثروة البلاد، وحسن ادارة مرافقها، أصبحت الامبراطورية فى عهدهم أعظم دولة فى الشرق، اذ جمعت بين القوة المرهوبة الجانب، والرقى الحضارى والفنى، وأصبحت النموذج الامثل الذى احتذت به كثير من الدول. وهؤلاء هم أباطرتها:

الامبراطور باسيليوس الأول: (٨٦٧ - ٨٨٦م):

كان باسيليوس - مؤسس هذه الاسرة - فلاحا مقدونيا فظا ومغامرا،

عليها، وكان مما يلعن به: اللهم العنه لعناً يفل حده، ويتعس جده، واجعله مثلاً للغابرين، إنك لا تصلح عمل المفسدين.

ثم مضى أحمد بن طولون إلى طرسوس من دمشق. فلما صار بالمصيصة، بعث بوجوه من معه إلى يازمان الخادم يدعوه إلى طاعته والدعاء له، ويعطيه أماناً على ما أسلفه. فلم يجبه يازمان إلى شئ مما سأل. فزحف أحمد بن طولون إلى أدنة، ثم إلى طرسوس. فوجد يا زمان قد تحصن بها، ونصب المجانيق على سورها. فنزل أحمد بن طولون بجيوشه عليها فى شدة من البرد، وكثرة من الأمطار والثلوج. فأرسل يازمان الماء على عسكر أحمد بن طولون من نهر البردان، فغرق عسكره. ولم يكن لابن طولون مقام، فرحل عنها ليلاً. ورجع إلى أدنة، فأقام بها.

وارتحل أحمد بن طولون من أدنة إلى المصيصة، فأقام بها أياماً. وعرضت له علته التى كان منها حتفه، فأغذ السير إلى مصر والعلة تزيد عليه حتى بلغ الفرما. فركب فى الليل إلى الفسطاط، فدخلها يوم الخميس لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة سبعين ومئتين. فأمر أحمد بن طولون بكشف بكار بن قتيبة، ووقفه للناس. وأمر بسجنه فى جمادى الآخرة سنة سبعين. وسجن كاتبه قيس بن حفص وأصحابه. وأمرهم برفع حساب ما جرى على أيديهم. ثم أطلق بكاراً فى شعبان سنة سبعين. وجعل النظر فى الأحباس إلى سرى بن سهل صاحب الشرط.

يتمتع بذكاء ودهاء، وعزيمة قوية، وعريكة لا تلين، جعلت منه الرجل المناسب في المكان المناسب، ونتيجة لذلك أحبه الناس واحترموه، ونسوا تماما أنه كان مغتصبا للعرش بعد أن استعاد للامبراطورية هيبتها وكرامتها. ولقد قام باسيليوس بعدة اصلاحات هامة، صححت مسار الامبراطورية ووضعتها على الطريق الصحيح.

سياسته الدينية وموقفه من طائفة البوالس:

ولما كان باسيليوس الأول ينتمي إلى أصول أوروبية، فقد كان شديد

المتوكل [تولى الخلافة العباسية في ٢٣٢هـ=٨٤٧م] فانزل على البيع في كل مكان بلايا لا تحصى عددها. وذاك انه امر بهدم البيع كلها ولا يكون احد من النصارى الارتدكسيين والملكيين والنسطوريين ولا اليهود بلباس ابيض بل بلباس مصبوغ ليظهرو في وسط المسلمين. وامر ان تجعل صور مفزعة على الواح خشب وتسمر على ابواب النصارى، والزم اكثرهم بالاسلام، وامر ان لا يخدم نصراني في خدمة السلطان بالجملة الا

وتزايدت علة أحمد بن طولون، فأمر الناس بالدعاء له. فغدا الناس بالدعاء له إلى مسجد محمود بسفح المقطم. يوم الاثنين لست خلون من شوال سنة سبعين. وحضر معهم القصاص. فدعوا له، ثم غدوا أيضاً بالدعاء له. وحضرت اليهود والنصارى معتزلين عن المسلمين. وحضروا أيضا اليوم الثالث مع النساء والصبيان. وأقاموا على ذلك أياماً. ثم توفي أحمد بن طولون ليلة الأحد لعشر خلون من ذى القعدة سنة سبعين ومئتين. فبلغت وفاته المعتمد فاشتد وجده عليه وجزعه.

١٠٩ - خمارويه بن احمد

ثم وليها أبو الجيش خمارويه بن أحمد، على صلاتها وخراجها؛ بايعه الجند يوم الأحد لعشر خلون من ذى القعدة سنة سبعين [٨٨٣م] فأقر السرى بن سهل على الشرط . وأحضر أخاه العباس لمبايعته فامتنع، فأدخل منزلاً من الميدان، وكان آخر العهد به.

وعقد خمارويه لأبى عبدالله أحمد بن محمد الواسطى على جيش إلى الشام فخرج من الفسطاط يوم الخميس لست خلون من ذى الحجة سنة سبعين. ثم عقد لسعد الأيسر على جيش آخر في سلخ ذى الحجة. وبعث بمراكب كثيرة في البحر [المتوسط]، فكانت مقيمة بسواحل الشام. ونزل أحمد بن محمد الواسطى فلسطين، وهو خائف جزع من خمارويه أن يوقع به، لأنه كان أشار عليه بقتل العباس. فكتب الواسطى إلى أبى العباس أحمد المعتضد بن أبى أحمد الموفق، بكتاب يصغر فيه أمر خمارويه. ويحضه على المسير إليه.

القـوم المسلمين ومن ينتـقل الى الاسـلام. ولاجل ذلك قلت المحبة والصبر من قلوب كتير حتى انهم انكرو السيد المسيح، فمنهم من انكر بسبب رتبة العالم لمحبتهم فيه، واخرين لما لحقهم من الفقر فلما علم السلطان انه قـد زرع هذا الامـر الطمث فى الكورة البرانية فبدا ان يبذره فى كورة مصر ويرمى فى قلب المتوكل ان يدوم على تغلبه. فانفذ الى كورة مصر انسان من جهته غير نصرانى بل فريسى اسمه الغير عبدالمسيح ابن اسحاق [عنبسه

التمسك بعبادة الايقونات والتماثيل، وتصوير الرسل والقديسين فى صور بشرية، ولهذا فقد كان من الطبيعى أن يتخلص من بقايا أعداء الايقونية، والذين يتمثلون فى طائفة «البوالس Paulikaioi أى اتبـاع بولوس السميساطى؛ وقد تكونت هذه الطائفة من المسيحيين الاصوليين الاسيويين، الذين كانوا ينتشرون فى آسيا الصغرى وأرمينيا، وكانوا يتخذون من بولوس تلميذ المسيح رائدا، وذلك ردا على اتباع الكنيسة اللاتينية والبابا الذى يعتبر نفسه خليفة بطرس

وأقبل أبو العباس أحمد بن أبى أحمد الموفق من بغداد. وانضم إليه إسحاق ابن كنداج ومحمد بن ديوداد [المعروف بابن] أبى الساج، حتى أتوا الرقة. فسلم أهل قنسرين والعواصم، ودعوا له. وسار إلى شيزر، فلقيه بها أصحاب دادويه، فقاتلوه قتالاً شديداً. فهزمهم أبو العباس. ثم أتى حتى دخل دمشق. فأقام بها أياماً. وبلغ الخبر خمارويه، فخرج إلى الشام فى جيش عظيم، كان خروجه يوم الخميس لعشر خلون من صفر سنة إحدى وسبعين ومئتين. فالتقيا هو وأبو العباس أبن أبى أحمد الموفق بنهر أبى فطرس من أرض فلسطين، [و] يقال له اليوم الطواحين، فاقتتلوا، فانهزم أصحاب خمارويه، وكان فى سبعين ألفا، وكان أبو العباس فى نحو من أربعة آلاف، واحتوى أبو العباس على عسكر خمارويه بما فيه. ومضى خمارويه على وجهه إلى الفسطاط لا يلوى على شئ. وأقبل كمين خمارويه عليهم سعد الأيسر، وفيهم أحمد بن إسماعيل العجمى، وتشركين، وحوطامش، ولم يعلموا بهزيمة خمارويه، حتى أشرفوا على العسكر. فأقبلوا إلى أبى العباس فحاربوه حتى أزالوه عن العسكر، وهزموه اثنى عشر ميلاً، وذلك فى صفر سنة إحدى وسبعين ومئتين.

ورجع أبو العباس إلى دمشق فلم تفتح له. وقدم خمارويه إلى الفسطاط يوم الجمعة لثلاث خلون من ربيع الأول سنة إحدى وسبعين.

ومضى سعد الأيسر مع الواسطى فدخلا دمشق [و] ملكاها، ودعوا فيها لخمارويه. ثم

الحوارى الأول للسيد المسيح. وكان مذهب البوالس قد بدأ يتبلور منذ القرن الخامس الميلادى، وأصبحوا قوة مؤثرة فى القرن الثامن، وكانوا ينكرون الايقونية، بل ويذهبون إلى حد تكفير عبادة مريم العذراء أم المسيح، وينكرون حادثة العشاء الربانى الأخير للمسيح وحوارييه، والتى هام الفنانون الدينيون بها عشقا، وصاروا يتبارون فى رسم المسيح وحوارييه على هذه المائدة الربانية. ولما انتصرت عبادة الايقونات، وسيطر الايقونيون على كنيسة القسطنطينية،

بن اسحاق الضبى انظر جـ٢ ٤ ولاه خراج مصر والولاية، وامره ان يفعل ببيع مصر والنصارى مثلما فعل بمدينة بغداد والمشرق. فلما وصل الى مصر بدا بالنصارى وانزل عليهم بلايا واذلهم جدا باحزان شتى كما احكمها فيه الشيطان. فكان المذكور يتظاهر عند المسلمين انه يفعل وصايا ناموسهم بالمراياة التى كان يفعلها حتى انهم كانو يقولو ما راينا احد وصل الى مصر مثل هذا يتمم وصايا دين الاسلام. واذا كان فى يوم جمعة مشى

خرج خمارويه من الفسطاط لسبع بقين من شهر رمضان من سنة إحدى وسبعين، حتى أتى فلسطين. ثم عاد إلى الفسطاط، فدخلها لاثنى عشرة بقين من شوال سنة إحدى وسبعين. فصرف السرى بن سهل عن الشرط، يوم الاثنين لخمس خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين، وجعل مكانه موسى بن طونيق. وخرج خمارويه إلى الشام فى ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين ومئتين. فقتل سعداً الأيسر فى شئ ظهر منه من خلاف. ومضى خمارويه فدخل دمشق يوم الثلاثاء سابع المحرم سنة ثلاث وسبعين. ومضى من دمشق فلقى إسحاق بن كنداج بموضع يقال له باجروان ودائمان من أرض الرافقة. فكانت على خمارويه وأصحابه، فانهزم أصحابه. وثبت هو فى طائفة من حماته، فهزموا إسحاق بن كنداج، فمضى إسحاق منهزماً، واتبعه خمارويه حتى بلغ أوائل أصحابه إلى سر من رأى.

ثم سفر قوم من وجوه الجند بين إسحاق وبين خمارويه، فاصطلحا وتصاهرا. وأتى إسحاق إلى خمارويه، فأقام فى عسكره، ودعا له فى أعماله التى بيده.

وكاتب خمارويه أبا أحمد الموفق، فسأله الصلح على مال يبذله عما فى يده. فأجابه أبو أحمد إلى ذلك، وكتب له بذلك كتاباً، فقدم به فائق الخادم إلى الفسطاط فى رجب سنة ثلاث وسبعين، يذكر فيه أن المعتمد وأبا أحمد وأبا العباس كتبوه بأيديهم، بولاية خمارويه

راجلا هو وجيشه الى الجامع فى وسط مصر يصلى، وكان مبغضا للرب يسوع المسيح وصليبه المقدس ومن يتلبس به، ثم بدا هذا المبغض يخفى اظهار علامة الصليب لا تظهر بالجملة، وجعلو يكسرو كل صليب فى البيع بالجملة، ولا يدع احد من النصارى يمشى بعلامة الصليب. وضيق علينا و[على] مذهبنا حتى ان النصارى ما صارو يتمكنو من الصلاة فى البيع الا بصوت خفى، فاذا جاز انسان بالبيعة لا يسمع صوت كلام من يصلى،

انشق البوالس عنها، ورفضوا الاعتراف بها أو الاذعان لسلطانها، بل كانوا فى طريقهم الى انشاء كنيسة خاصة بهم، ولولا اسراع باسيليوس بالقضاء على حركتهم التى كادت أن تحول كنيسة القسطنطينية الى كنيستين متعاديتين.

محاولة باسيليوس الأخيرة لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية:

ولقد كان باسيليوس متأثرا إلى حد كبير بالامبراطور جستنيان ودعوته لتوحيد الكنيسة، فالامبراطورية الواحدة لن تقوم الا على الكنيسة الواحدة المتحدة، ولحسن الحظ كان

وولده ثلاثين سنة على مصر والشامات. ثم قدم خمارويه إلى الفسطاط، سلخ رجب سنة ثلاث وسبعين ومئتين. فأمر بالدعاء لأبى أحمد الموفق، وترك الدعاء عليه.

وجعل خمارويه على المظالم بمصر محمد بن عبدة بن حرب فى شعبان سنة أربع وسبعين، ثم صرف موسى بن طونيق عن الشرط، لمستهل المحرم سنة أربع وسبعين، وجعل مكانه أحمد بن محمد بن الحكم العجيفى.

وبلغ خمارويه مسير محمد بن ديوداد المعروف بابن أبى الساج [إلى أعماله]. فخرج إليه خمارويه من مصر فى ذى القعدة سنة أربع وسبعين. فلقيه بثنية العقاب من أرض دمشق. فانهزم أصحاب خمارويه، وثبت خمارويه، فحاربهم فكشفهم، وانهزموا عنه أقبح هزيمة.

وعاد خمارويه إلى الفسطاط، فدخلها يوم الخميس لست بقين من جمادى الآخرة سنة ست وسبعين. ثم خرج إلى الإسكندرية يوم الجمعة لأربع خلون من شوال سنة ست وسبعين. وأتى الخبر إلى الفسطاط بأن يا زمان الخادم دعا لخمارويه بطرسوس والثغور، فى جمادى الآخرة سنة سبع وسبعين.

وخرج خمارويه إلى الشام يوم الثلاثاء لسبع عشرة من ذى القعدة سنة سبع وسبعين. ومات أبو أحمد الموفق سنة ثمان وسبعين، وعقد العهد لابنه أبى العباس.ثم توفى المعتمد لعشر بقين من رجب سنة تسع وسبعين، وبويع المعتضد بن أبى أحمد الموفق . فبعث إليه خمارويه

بابا روما فى ذلك الوقت فى حالة ضعف بسبب تدهور الدولة الكارولنجية التى كانت تحمى كنيسته، ومن ثم قبل البابا أن يدخل فى مفاوضات مع كنيسة القسطنطينية برعاية من الامبراطور، والذى كان يهدف إلى زيادة نفوذ كنيسة القسطنطينية ومد سلطانها على الكنيسة اللاتينية، ومن أجل ذلك تنازل باسيليوس عن الكثير ليرضى البابا وكنيسته، حتى أن الدارس يبدو له لأول وهله أن هذا الاتفاق كان انتصارا للكنيسة اللاتينية، التى تصر

ومنعوهم ان لا يصلو على نصرانى اذا مات، وقطع ضرب الناقوس. وصار مثل ديقلاديانوس الذى صارت اعماله مثل اعماله ولم يقنعه ذلك حتى بدا يمنع النصارى من القداسات، وان لا يقدسو بالجملة [جماعة]. وامر ان يمنع النبيذ فى جميع اعماله وباخاص مدينة مصر، حتى انه لا يظهر جملة ولا يباع ولا يشترى، فافتقر جماعة ممن كانو يتجرو فيه. وغرضه في هذا جميعه حتى لا يوجد خمر يرفع به القداس، وعدم حتى صارو النصارى

بالهدايا، مع الحسين بن عبدالله ابن منصور الجوهرى . وصرف أحمد بن محمد العجيفى عن الشرط، وجعل مكانه الحسين بن وصيف، يوم الأحد لتسع خلون من شوال سنة سبع وسبعين. وقدم خمارويه من الشام ، فدخل الفسطاط يوم السبت لست خلون من ربيع الأول سنة ثمانين ومئتين.

وورد كتاب المعتضد على خمارويه لخمس بقين من ربيع الأول سنة ثمانين ومئتين، وبولايته هو وولده ثلاثين سنة من الفرات إلى برقة، وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال، على أن يحمل فى كل عام من المال مئتى ألف دينار عما مضى، وثلاث مئة ألف عن كل عام للمستقبل. ثم قدم رسول المعتضد فى شهر رمضان سنة ثمانين بالخلع، وهى اثنتا عشرة خلعة وسيف وتاج ووشاح، مع خادم يدعى سنيف.

وعقد المعتضد على قطر الندى بنت خمارويه سنة إحدى وثمانين.

وفيها خرج خمارويه إلى نزهة بمريوط، خرج من الفسطاط لأربع بقين من شعبان سنة إحدى وثمانين. ثم مضى إلى الصعيد حتى بلغ سيوط. ثم رجع من الشرقية إلى الفسطاط مستهل ذى القعدة سنة إحدى وثمانين. وصرف الحسين بن وصيف عن الشرط، يوم الثلاثاء لست خلون من شعبان سنة اثنتين وثمانين، ورد موسى بن طونيق مكانه. وخرج خمارويه إلى الشام يوم الخميس لثمان خلون من شعبان سنة اثنتين وثمانين. فأقام بمنية الأصبغ، منية مطر.

٥٤: انبا قزما البطرك ٨٥١/٨٥٩م

ياخذو عيدان الزرجون يبلوها بالما [ء] ويعصروها حتى لا يعدمو القربان. وكان الحزن والضيق على النصارى، وكانو يقولو كما قالت الثلثة فتية: انك اسلمتنا في ايدى اعدا ائمة منافقين ماردين وملك ظالم اشر من كلمن على وجه الأرض والان لا نقدر نفتح فانا [فمنا] لاخا [لأن] حزنا وعار صار لعبيدك والذين يعبدونك ولا تسلمنا لاجل اسمك. ولم يزل هذا الظالم يثقل نيره على النصارى من شدة بغضه لهم وبدا ان يتمم عليهم كل امر سو.

على أنها أسبق كنائس العالم وبالتالي يتوجب على جميع الكنائس أن تذعن للبابا، لأنه خليفة بطرس نائب المسيح على الارض؛ لكن هذا التصالح لم يثن الكنيسة الشرقية الاغريقية في القسطنطينية عن تمسكها بأنها الكنيسة الأولى. وأن سلطة البطريرك فوق سلطة البابا، وكل ما حققه باسيليوس هو أنه أوقف الصراع الظاهرى بين الكنيستين، أو بين البابا والبطريرك. غير أن الصراع الحقيقى ظل خفيا يتوقد. والحقيقة أن الامبراطور باسيليوس جعل الأمر أكثر

ثم رحل يوم الثلاثاء لعشر بقين من شعبان سنة اثنتين حتى دمشق. فكان بها مقتله ليلة الأحد لليلتين بقيتا من ذى القعدة سنة اثنتين وثمانين؛ يقال إن خدمه قتلوه، وهم طاهر ولؤلؤ وناشي وسابور ومماقط ونظيف. فقتلوا جميعاً، وحملت رؤوسهم إلى الفسطاط، فجعلت على الجسر. وحمل خمارويه إلى الفسطاط، فدفن بها. فكانت ولايته عليها اثنى عشرة سنة وثمانية عشر يوماً.

١١٠ - ابو العساكر جيش بن خمارويه

ثم وليها أبو العساكر جيش بن خمارويه، وبويع يوم الأحد لليلة بقيت من ذى القعدة سنة أثنان وثمانين ومئتين [٨٩٥م] بدمشق، وإليه صلاتها وخراجها. فسار إلى مصر فدخلها، وجعل على الشرط موسى بن طونيق.

واشتملت عليه طائفة من الجند، وحملوه على أمور كرهها معظم الجند. فتنكروا له، وتنكر لهم. وخافوا على أنفسهم، فدنوا من الفساد عليه. فخرج متنزهاً إلى منية الأصبغ، فهرب من عسكره محمد بن إسحاق بن كنداج، وخاقان المفلحى، ومحمد بن كمشجور بندقة، وبدر بن جف ومحمد بن قرا طُغان في ثلاث مئة رجل من وجوه قواده. فلحقوا بالمعتضد وكان أحمد بن طُغان على الثغر فخلع جيشاً. وخلعه طغج بن جف بدمشق. ثم وثب جيش على عمه نصر بن أحمد بن طولون فقتله. فوثب به يرمش وصافي وفائق في أكثر الجيش والموالي،

٥٤: انبا قزما البطرك ٨٥١/٨٥٩م

تعقيدا عندما عزل البطريرك فوتيوس Photios، ونفاه الى أحد الاديرة النائية ترضيـة للبـابا ؛ وبدون أن يحـسب حسابا لعواطف شعب القسطنطينية، سمح لرسول البابا أن يعلن متفاخرا، أنه «قد تم طرد فوتيوس من الكنيسة» ؛ مما سبب سـخطا شـديداً بين الروم، لدرجة أن باسيليوس حاول في عام ٨٧٣ مـيلادية أن يصلح من مـوقفه باستـدعـاء فـوتيـوس من منفـاه إلى القسطنطينيـة ليعـينه معلما لأولاده، وعندما خلا كرسي البطريركـية بعد

واخـرج [كُـتـاب الدواوين النصـارى] من ديوان السلطان وجعل عـوضا منهـم المسلمين. فلمـا تمـم هذه الامـور كـمـا تممـهـا في بلاد المشـرق وجـعل النصـارى واليـهـود يصبـغـو ثيـابهم، وجـعل على ابوابهم صور مفزعة التي ذكرناها في بلاد المشرق، وصـفـة هذه الصـورة انها تشبـه شيطان عليهـا روس كثير ووجوه لها نايبن راكبة على صورة تشبه خنزير وحـشـة جـدا مـخـوفـة المنظر، وامـر ان لا يركـب نصـرانى بالجـملة فـرس. هذا فـعله ذلك الشـرير

فخلعوه. وبايعوا أخاه هارون بن خمارويه. وجمع له القضـاة والفقهاء والقراء، فتبرأ إليهم من بيعته. وحللهم منها، وأشهدهم على نفسه بذلك . وكـان خلعه يوم الأحـد لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين. فكانت ولايته ستة أشهر واثنى عشر يوماً. ثم سجن فمات بعد أيام.

١١١ - هارون بن خمارويه

ثم وليـهـا هارون بن خـمـارويه [في ٢٨٣هـ = ٨٩٦م]، يوم خلع جيش، فـجـعل على الشـرط مـوسى ابن طونيق. وقـامت الطائفـة من الجند ممن كـره ولاية هارون بن خـمـارويه، [وكـاتبـوا ربيعه بن أحمـد بن طولون]، وكان بالإسكندرية، ودعوه إلى الولاية، ووعدوه القيام معه. فجمع ربيعة جمعاً كثيراً من أهل البحيرة من البربر وغيرهم، وأقبل فيهم حتى نزل منبوبة [امبابه] من كورة وسيم. ثم عدى النيل، فنزل باب المدينة. فخرج إليه نفر من القواد، فـسألوه مـا الذى حمله على المسير. فأخبـر هم أن ناسـاً من القـواد بايعوه. فناوشـوه الحرب، وقتلت بينهم قتلى. ثم طعن فرس ربيعة فسقط، فأسروه؛ أسره شفيع اليعامورى. فأتى به إلى محمد بن أبي فحبسه. ثم أخرج يوم الثلاثاء لإحد عشرة خلت من شعبان سنة أربع وثمانين إلى دار الإمارة القديمة بالعسكر. فضرب ألفاً ومئتى سوط، ومات.

بافكار الشيطان وان بهذه الاسباب يخرجو [النصارى] من اديانهم. وقوما كثير ما صبرو ولا توكلو على الاهم وانكرو اسم المخلص في تلك الايام الشديدة ونسو ما قاله في الانجيل المقدس: والذى يصبر الى التمام فهو يخلص ويكرز بهذا الانجيل. فاما الكتاب المومنين الذين تقدم ذكرهم فكانو تحت ضيقة عظيمة وصعوبة من هذا الذى ليس بانسان ومن قوة امانتهم لما صرفو من اشغالهم توكلو على رحمة الله تعالى ذكره وسالوه

أربع سنوات، أعاد فوتيوس الى منصبه السابق، ونجح في آقناع البابا لكي يعترف بهذا التعيين، وتلى ذلك عودة العلاقات بين الكنيستين غير أن العلاقة لم تكن من القلب، لأن الجرح الذى حدث لم يندمل أبداً، بل على العكس زاد اتساعا في القرن الحادى عشر. ففي عام ١٠٥٤ ميلادية أنشطرت الكنيسة الواحدة الى شطرين منفصلين، وذهب كل شطر في طريقه.

سياسته الخارجية:

كانت الأصول الثابتة لسياسة

ثم كانت فتنة ابن قريش، وذلك أنه أنكر أن يكون أحد خيراً من أهل رسول الله، فوثب به الرعية، فضرب بالسياط يوم الجمعة في جمادى الأولى سنة خمس وثمانين. فمات بعد يومين.

وتوفي أمير المؤمنين المعتضد في ربيع الآخر سنة تسع وثمانين، وبويع أبو محمد ابنه، ولقب المكتفى بالله. وخرج القرمطى بالشام في سنة تسعين ومئتين، فبعث إليه هارون بالقواد. فحاربوه فهزمهم، وبلغ كل مبلغ. فبعث إليه الجيوش من العراق فحاربوه.

وقتل أبو علاثة محمد بن أحمد بن عياض بن أبي طيبة الجفي، وكان رجلاً ذا لسان وعارضة، فكان ممقوتاً عند كثير من الناس. فزلت به القدم، فتشاهد عليه أقوام من سفل الناس وأوضاعهم. و[بلغ] السلطان ذلك منهم، فقبل شهاداتهم فضرب مراراً. وأرادوا بذلك أن يذلوه من ضربهم إياه. وانكشف للناس ظلمهم له وما قصد به فيه، وكان أشد الناس عليه عامة أهل المسجد. كان قتله لست بقين من شهر رمضان سنة إحدى وتسعين ومئتين.

سمعت ابن قديد يقول: أقبح ما أتى أهل هذا المسجد شهادتهم على [ابن] القطاس حتى باعوه، وعلى أبي علاثة حتى قتلوه.

وبعث المكتفي بالله محمد بن سليمان الكاتب. فوردت أخباره إلى مصر بنزوله حمص، وكان بدر الحمامي والياً على الشام من قبل هارون. فكتب بدر إلى محمد بن سليمان بالسمع والطاعة، ثم تلقاه هو والحسين بن أحمد الماذرائي، فكانا معه في عسكره. وكتب محمد بن

الروم تتركز في جانبين ، أولهما صد غارات المسلمين وردهم عن آسيا الصغرى وأرمينيا، وثانيهما استعادة ممتلكات الامبراطورية في ايطاليا وجزر البحر المتوسط. فقد كانت الامبراطورى بين شقى الرحى، خطر العباسيين فى المشرق، وقوة الكارولنجيين فى أوروبا الغربية. وشاءت الظروف أن تضع بين يدى باسيليوس الأول فرصتين نادرتين. ففى المشرق كانت الدولة العباسية تمر بأزمة طاحنة، وتعانى من عوامل التفكك والانهيار بسبب انتشار

ان لا ينساهم. فاما ابونا [قزما] البطرك لما شاهد الاراخنة وما نالهم من الصعوبة من ذلك الشيطان والبطالة وقطع معايشهم وانهم الذى كانو يهتمو بامور البيعة كان حزين جدا، وتواصلت كتب المومنين الى الاب البطرك يسالوه الدعا لهم، وكانو ايضا يكاتبو الابا الصالحين المنقطعين الى الله فى الجبال والديارات بمواصلة الدعا لهم وللمومنين بالمسيح ان يكشف الله عنهم هذه الغمة ولا ينساهم ولا يدعهم تحت رجزه وغضبه. وكان الابا

سليمان إلى دميانة، وهو بالثغر، يأمره بالمسير في مراكبه إلى سواحل مصر وفلسطين. وضم إليه رشيق الوردامي المعروف بغلام زرافة، فسار مع دميانة. وأقبل محمد بن سليمان إلى فلسطين، وعليها وصيف بن صوارتكين عاملاً لهارون. فكتب وصيف إلى محمد بن سليمان بالسمع والطاعة. ولحق صافي مولى خمارويه محمد بن سليمان.

وأتت الأخبار إلى مصر يتبع بعضها بعضاً بمسير محمد بن سليمان. فأخرج هارون مضاربه يوم الاثنين مستهل ذى الحجة سنة إحدى وتسعين ومئتين. وخرج إليها هارون ، فنزلها يوم التروية. وبعث هارون بوصيف القطرميز فى المراكب الحربية ومعه خصيب البربرى وحماد بن ما يخشي. فساروا في النيل حتى أتوا تنيس، ليمنعوا دميانه. فلقيهم دميانة ليلة النحر فحاربهم. فانكشفوا عنه، واستأمن إليه كثير منهم، وهرب وصيف القطرميز. ودخل دميانة تنيس، فأمن أهلها وسكنهم . ومضى حماد بن ما يخشى إلى قرى أسفل الأرض. ففرض فروضاً، وأقبل بهم. ومضى دميانة إلى دمياط، فكتب إلى أصحاب هارون كتاباً. يدعوهم إلى طاعة المكتفي. فأبوها، فسار إليهم في خليج دمياط. فالتقوا غداة يوم الجمعة لثلاث بقين من ذى الحجة سنة إحدى وتسعين. فقتل كثير من أصحاب القطرميز، وانهزم الباقون، وأسر خصيب البربرى ووصيف القطرميز وحماد بن ما يخشي. واحتوى دميانة على مراكبهم بما فيها.

وسار هارون بن خمارويه، فنزل العباسة، واستخلف على الفسطاط حسن بن السير. وخرج هارون معه بجميع أهله وأعمامه، خوفاً من قيامهم بعده بالفسطاط، فكانوا معه فى ضر

الرهبان مواصلين الدعا ليلا ونهارا ان يحفظو الاسم الصالح الذى به النجاة من العذاب.

وكان ايضا فى ذلك الوقت انسانا نصرانيا وانتقل إلى مذهب الاسلام واولاده اسمه اصطفن ابن اندونه وجعله ابليس وعا [وعاء] يتكلم فيه وكان يذكر المومنين بكل سو ويقول ان النصارى قبل هذا اليوم لا يلبسو ثياب لها اكمام بل يلبسو ثيابا بغير اكمام كما تلبس الرهبان الذين هم يدعوهم اباوهم فاذا كان الابا تلبس هذا اللباس

حركات الاستقلال عنها؛ ففى فارس استقل اقليم خراسان، وتأسست فيه دولة تعرف بالدولة الطاهرية؛ وفى مصر استقل أحمد بن طولون وأسس الدولة الطولونية؛ وفى شمال أفريقيا تزايدت شوكة الأغالبة، وأصبح لهم السيادة البحرية على الحوض الغربى من البحر المتوسط، بل أغلقوه فى وجه سفن الروم مستغلين قواعدهم فى تارنتوم وصقلية، والتى منها شنوا غارات بحرية حتى على الاملاك البابوية فى ايطاليا، بل أغاروا على روما نفسها. ولم تستطع الدولة

وجهد. ثم نزل دميانة دميره، فلقيه بها محمد بن أبى ونجيح. فاقتتلوا قتالاً شديداً، فظفر بهم دميانه. وبعث على ابن فلفل فى عدة مراكب، فكانوا فى النيل بإزاء دميانة ليمنعوه من المسير. وتفرق كثير من أصحاب هارون عنه فى البر والبحر، وبقى فى نفر يسير. وتشاغل باللهو والطرب، فأجمع عماه شيبان وعدى ابنا أحمد بن طولون على قتله. فدخلا عليه، وهو ثمل فى شرابه، فقتلاه ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من صفر سنة آثنتين وتسعين ومئتين، وسنه يومئذ ثمان وعشرون سنة. كانت ولايته عليها ثمانى سنين وثمانية أشهر [وأياماً].

١١٢ - شيبان بن أحمد

ثم وليها شيبان بن أحمد بن طولون أبو المقانب، بويع لعشر بقين من صفر سنة اثنتين وتسعين [٩٠٤م]. فأقر موسى بن طونيق على الشرط. وقدم شيبان الفسطاط يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر، فسلم إليه أمرها كله. وبلغ طغج ابن جف وفائقا مولى خمارويه وغيرهما من وجوه الجند والقواد قتل هارون، فأنكروه وخالفوا شيبان. فكاتبوا الحسين بن حمدان بن حمدون، وهو إذ ذاك من وجوه أصحاب محمد بن سليمان، فأخبروه بمقتل هارون، وسألوه أخذ الأمان لهم، وحركوه على المسير إلى الفسطاط. وأقبل محمد بن سليمان حتى نزل جرجير، فوافاه بها كتاب طغج بن جف بالسمع والطاعة. ونزل محمد ابن سليمان العباسة، فلقيه بها طغج فى ناس من القواد كثير، فساروا لسيره إلى الفسطاط. وأقبل دميانة بمراكبه إلى

باحرى ان تكون اولادهم مثلهم. وكان ظنه ان الكتاب يمتنعو من اللباس وينكرو دينهم. وان الرب محب البشر ارذل موامرتهم وبددها كما هو مكتوب في سفر ايوب المملو حكمة الذى يغير موامرة الاشرار. كذلك فعل الله بهذا الانسان الفاجر واعاد موامرته على راسه كما قال ارميا النبى: عودو ايها الذين يعملون الموامرة المخفية ازرعو لكم زرعا جيدا ولا تزرعو على الشوك ليلا

العباسية أن تفعل شيئا لقمع حركات الاستقلال، ولم يتبق لها سوى العراق والشام.

وفي أوروبا الغربية، أدت الحروب التي قامت بين أبناء لويس التقي ابن شرلمان إلى صراع هز كيان الامبراطورية الكارولنجية، فلقد شجعت المنازعات الداخلية بين الورثة إلى طمع أعدائها فيها. مثل النورمانديين والمجريين والاغالبة، حتى أن المؤرخين يطلقون على هذه الفترة من تاريخ الدولة الكارلنجية – اسم «الغزو الثاني للبرابرة»، تشبيهها بالغزو

ساحل الفسطاط، فنزل به سلخ صفر سنة اثنتين وتسعين. وعسكر شيبان يوم الاربعاء مستهل ربيع الأول بعين شمس. فأتاهم محمد بن سليمان، فمضى إليه عامة أصحاب شيبان يسألونه أمانهم. فلما رأى شيبان ذلك، أرسل إلى محمد بن سليمان في أمانه وأمان إخوته وأهله، فأمنهم. وخرج شيبان ليلة الخميس لليلة خلت من ربيع الأول سنة اثنتين إلى محمد بن سليمان، وانصرف عسكره كله. ثم دخل محمد بن سليمان الفسطاط. وكانت ولايته عليها اثنى عشر يوماً.

ثم دخل محمد بن سليمان الكاتب يوم الخميس لمستهل ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومئتين. فأمر بإحراق القطائع فأحرقت. ونهب أصحابه الفسطاط يومئذ. فركب محمد بن سليمان، فطافها وأطلق من في السجون، وسكن الناس. ودعا من الغد على المنبر لأمير المؤمنين المكتفي بالله. وصرف موسى ابن طونيق عن الفسطاط يوم الجمعة لليلتين خلتا من ربيع الأول. وجعل محمد ابن سليمان مكانه رجلاً من أصحابه يقال له البكتمرى. وصرف أبا زرعة محمد بن عثمان القاضي عن قضائه، ورد محمد بن عبدة بن حرب على القضاء. وبعث محمد بن سليمان بطغج بن جف والياً إلى قنسرين، وضم إليه جمعاً من جند بني طولون. ثم أمر بإخراج الأعراب الذين قدموا معه. ثم أخرج ولد أحمد بن طولون ، وهم عشرون إنساناً، وأخرج بدراً الحمامى والياً على دمشق. وأخرج منها قواد بنى طولون ومواليهم، وقتاً بعد وقت،

يخـرج غـضـبى لان غـضـبى يشـتـعل ولا يخـمـد. كذلك هذا الشرير ناله هذا.

وفى ذلك الوقت وصل كتاب الملك يامره [يأمر عنبسـه بن اسحـاق] بالعـودة اليـه وان يحـمل إليـه مـال مـصـر ومـا جـمـعـه لـه ومـعـه حـسـاب الارخنين [مقـار بن يوسف، إبراهيم ابن ساويرس] والكتاب الذين استخدمهم من المسلمين لانه كان قد صرف النصارى. وكـان ذلك بتـدبير من الله جل اسـمـه،

الأول ، الذى أتى على الامبـراطورية الرومانيـة القديمة عام ٤٧٦ ميـلادية. فـقد اسـتقل لوثر الابن الاكبر للويس التـقى باقليم يمتـد من الراين حـتى أطراف الولايات البابوية فى ايطاليا بما فى ذلك العاصمة الكارولنجيـة آكس لاشابل (آخن) ومـدينة رومـا، وأطلق عليـه اسم برجنديا؛ أمـا الابن الثـانى المسمى بلويس الجرمانى، فقد استقل بالشطر الشرقى الذى تسكنه القبائل الجرمانية، وأدى القسم باللغة الالمانية؛ أمـا الجـزء الغـربى من الامبـراطورية الكارولنجـيـة، والذى كـان يتـحـدث

فلم يبق بمصـر منهم أحـد يذكـر. فـخلت منهم الديار، وعـفت منهم الآثار، وتعطلت منهم المنازل، وحل بهم الذل بعد العز، والتطريد والتشـريد بعد اجـتـمـا ع الشـمل ونضـرة الملك ومساعدة الأيام.

وجعل محمد بن سليمان أبا على الحسين بن أحمد الماذرائى على خراجها، وصرف عنه أبا الطيب أحمد بن على بن أحمد الماذرائى.

وورد كتاب المكتفى بولاية الحسين بن أحمد على الخراج، وجعل إليه النظر فى أمر بنى طولون وضياعهم. ثم ورد كتاب المكتفى بولاية النوشرى عليها.

١١٣ - عيسى النوشرى

ثم وليها عيسى النوشرى على صلاتها، من قبل المكتفى؛ دخلها خليفته عليها يوم الأحد لأربع عـشـرة خلت من جمـادى الأولى سنة اثنتين وتسعين ومئتين، فـتسلم الشـرطتين وسـائر الأعمـال. ثم قدمها عيسى النوشرى يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة. فصرف البكتمرى عن الشـرط، وجعل مكانه يوسف بن إسرائيل. وجعل على الإسكندرية على بن وهوذان، والمهاجر ابن طليق على أسفل الأرض ، وأبا عبدان...

فخرج إليه أبو أحمد بن تيتك على مقدمه ابن الخليج إلى معسكره بمنية الأصبغ يوم

فلما وقف عليه وقراه علم منه فساد راى الملك فيه، وكان قد تزوج بمصر واقتنى سرارى وبنا مساكن ورزق اولادا واقتنا نعما كثيرة لا تحصى، وللوقت اصابه فلاجا [فالجاً] وبطلت حركات يديه ورجليه ومات موتة سو عقيب هذا الامر بايام قلايل، كان قد احصاها تادرس الكاتب الذى كان يكتب لمن قبله الرسايل، وهذا كان له صيت عظيم فى صناعته وحسن خطه وايراده [إيراده] الالفاظ المستحسنة لجميع من يقراها، وذكر انها

سكانه باللغة اللاتينية فقد منح لشارل، وأصبح هذا الجزء يعرف بفرنسا، وأدى شارل القسم بالفرنسية؛ وقد أقر الاخوة المتصارعون هذا التقسيم فى معاهدة عقدوها عام ٨٧٠ ميلادية وتسمى بمعاهدة مرسون. وفى وسط هذا الخضم المتلاطم من الصراع، لم يجد البابا من يحميه ويحمى ممتلكاته من النورمانديين ومن الاغالبة.

ولقد بدأ باسيليوس بتصفية حساباته مع الدولة العباسية فى آسيا الصغرى، فبدأ فى تعديل حدود دولته

الخميس لثلاث خلون من المحرم سنة ثلاث وتسعين. ونزل أبو الأغر فلقيته مقدمة ابن الخليج سنة ثلاث وتسعين ومئتين.

وأقام ابن الخليج بالفسطاط صفر وربيعين. ثم بلغه مسير أبى شجاع فاتك المعتضدى إليه، ومسير دميانة فى المراكب. فنزل فاتك بالنويرة، ومعه بدر الحمام؛ وعسكر ابن الخليج بباب المدينة. وتنخل [اختار] من أصحابه ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف، فسار بهم ليلاً ليبيت فاتكاً. فضلوا الطريق وتاهوا ليلتهم، وأسفر ابن الخليج قبل أن يبلغ النويرة. فعلم بهم أصحاب فاتك فنهضوا واقتتلوا. فانهزم أصحاب ابن الخليج، وثبت هو يحميهم فى جمع يسير، ثم اتبع أصحابه منهزماً، ولم يُتبع حتى دخل الفسطاط. وكانت هذه الوقعة يوم الخميس لثلاث خلون من رجب سنة ثلاث وتسعين. واستتر ابن الخليج فى منزل رجل يقال له تريك.

ودخل دميانة فى مراكبه إلى الفسطاط. وأقبل عيسى النوشرى، والحسين ابن أحمد الماذرائى. ومن كان معهما إلى الفسطاط. فدخلوها لخمس خلون من رجب سنة ثلاث وتسعين ومئتين. فعاد عيسى النوشرى إلى ما كان عليه من [صلاتها. والماذرائى إلى ما كان عليه من] الخراج. وعاد يوسف بن إسرائيل إلى الفسطاط. وأتى تريك إلى عيسى النوشرى. فخبره بأن ابن الخليج عنده. فهجم عليه، فأخذ وقيد، وذلك يوم الاثنين لست خلون من رجب. فجميع ما أقامه ابن الخليج منتزياً على الفسطاط سبعة أشهر وعشرون يوماً.

احد وعشرين يوما، وفرح به اكثر المسلمون لانه كان لا يرفع اقدارهم واضعف معايشهم وخسر التجار اموالهم واغتصبهم [اغتصب منهم] اجود الرباع الذين كانو يملكوها واخذها قهرا. وكان مهما صلح له من الادر احضر صاحبها وابتاعه منه وكتب كتابه الدار وسلم اليه المال بحضور الشهود في ذلك الوقت، وبعد انفصال البيع ينفذ ويستعيد المال. ولم يفوز منه بما اخذه من المال الا رجلين كانا اخوين، وكان لهما دار مليحة البنا قد ورثاها

معها، بدفع قواتها شرقا على طول تلك الحدود، من كيليكيا في الركن الشمالي الغربي من البحر المتوسط، إلى أرمينيا وطرابيزون في الركن الجنوبي الشرقي من البحر الأسود، وبذلك سد المنافذ الاستراتيجية التي اعتاد العرب المسلمون أن يزحفوا منها على آسيا الصغرى، ولم يجد باسيليوس من يتصدى له من العرب سوى أمراء طرسوس وبلاد الشام. ولتأمين حدود دولته من خطر أي توسع اسلامي مستقبلا، حرص باسيليوس على أن يسيطر على أرمينيا، وجعلها في قبضة قواته تماما.

ودخل فاتك الفسطاط في عسكره يوم الخميس لعشر خلون من رجب. وأمر دميانة بالخروج، وأخرج معه ابن الخليج في ثلاثة مراكب وحمامة [نوع من السفن]، ومعه ثلاثون رجلاً من وجوه أصحابه. وكان خروجهم يوم الاثنين لست خلون من شعبان سنة ثلاث. ثم طيف بابن الخليج وأصحابه ببغداد، واجتمع الناس لهم هناك، وكان يوماً مذكوراً.

ثم أمر الحسين بن أحمد بهدم الميدان، فابتدئ في هدمه في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين، وبيعت أنقاضه، ودثر كأنه لم يكن.

وخرج فاتك من الفسطاط إلى العراق للنصف من جمادى الأولى سنة أربع وتسعين ومئتين. وأمر النوشري بنفي المؤنثين، ومنع النواح والنداء على الجنائز، وأمر بإغلاق المسجد الجامع فيما بين الصلوات، فكان يفتح للصلاة فقط. [و] أقام على ذلك أياماً، فضج أهل المسجد من ذلك، ففتح لهم.

ثم صرف يوسف بن إسرائيل عن الشرط، وجعل مكانه محمد بن طاهر، يوم الاثنين لأربع خلون من شهر رمضان سنة خمس وتسعين.

وتوفي المكتفي بالله يوم السبت لإحدى عشرة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين، وورد الخبر بوفاته إلى مصر ليومين بقيا من ذي القعدة. فشغب الجند على عيسى النوشري، وكانت منهم طائفة يقال لها الزربحه فحاربوا النوشري على طلب مال البيعة، فظفر بهم

عن ابيهما، وكان قد انفق فيها مال كثير وكانت مثل الفردوس لا تعدم شيا من الاشجار والاثمار، وكانت مشرفة على نهر مصر وكانت تعرف بابيهما على ابن سعيد الاصفهاني. فان هذين الرجلين الاخوين لما احضرهم اليه وطلب منهم الدار المقدم ذكرها قالا له: انا لا ناخذ لها ثمين ولا نكتب لها كتابا [لكنا] قد وهبناك اياها ولا نرجع فيما قلناه لك والشاهد علينا الله تعالى. وقالا له: انا في الساعة نرحل منها ونخليها لك الى [بعد]

خطر البلغار والروس:

لم يستطع باسيليوس الاول أن ينسى أبدا ممتلكات القسطنطينية التى كانت بين يديها منذ أيام جستنيان مثله الأعلى، والتى ضاعت منها، فقد استولى اللومبارديون فى القرن السابع على مساحات كبيرة من ايطاليا، وسقطت أسبانيا فى حوزة القوط الغربيين، واستولى العرب على مصر والشام وفلسطين، وشمال أفريقيا، ومنذ نهاية القرن السادس، بدأت قبائل الصرب وكرواتيا تنفصل عن الاسرة السلافية الكبرى، وراحت

النوشرى وأخرجهم. وبويع جعفر بن أحمد المعتضد، وسمى المقتدر بالله، فأقر النوشرى على صلاتها.

وهزم زيادة الله بن عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب بإفريقية، وزال سلطانه. فأقبل إلى مصر، فنزل الجيزة فى شهر رمضان سنة ست وتسعين ومئتين. ومنعه النوشرى من العبور إلى الفسطاط إلا أن يعبر وحده. وكانت بينه وبين أصحاب النوشرى مناوشة بالجيزة على الجسر. ثم أذن له، فدخل الفسطاط ليلاً.

ثم توفى عيسى النوشرى يوم الاربعاء لأربع بقين من شعبان سنة سبع وتسعين ومئتين، وهو وال عليها، ودفن بها. كانت ولايته عليها خمس سنين وشهرين ونصفاً، منها سبعة أشهر وعشرون يوماً انتزى فيها ابن الخليج. وقام بالأمر من بعده ابنه أبو الفتح محمد بن عيسى النوشرى.

١١٤ - أبو منصور تكين

ثم وليها أبو منصور تكين، من قبل المقتدر بالله أمير المؤمنين، على صلاتها؛ دعى له بها يوم الجمعة لإحدى عشرة خلت من شوال سنة سبع وتسعين [٩٠٩م] فأقر محمد بن طاهر على الشرط، وتقدم إلى تكين فى الجد فى أمر المغرب والاحتراس منه. فعقد لأبى النمر أحمد بن صالح من الأبناء على برقة. وبعث معه بجيش فيه جمع كثير. فسار إليها أبو النسر فدخلها.

مدة ثلثة أيام. وظن ان الله يغفل عن ظلمه اياهما، فخرجا من عنده، وكانا ينقلا ما كان لهما فى الدار واخلوها له وسكن فيها. وهو المكان الذى فلج فيه وبطلت يديه. ولما مات كما ذكرنا نهب المصريون ما كان له من المال والمتاع، وان هذين الاخوين اتيا الى الدار فوقفا على بابها وكانا يقولا للناس: ان هذه الدار لنا وجميع ما فيها، وان هذا الانسان اغتصبنا ذلك. وكانو المصريون يعرفون

تتحرك وتسير ببطء فى موجه مهاجرة من الاصقاع المجاورة لنهر الفستولا، التى كانت تعرف باسم صرماتيا الكبرى Sarmatia Magna (سيبيريا)؛ كما انضمت بعض القبائل السلافية إلى قبائل البلغار، وهم شعب أسيوى العنصر، نجح فى التوسع غربا ليوطن نفسه فيما يعرف الآن باسم بلغاريا؛ ودأب البلغار على مهاجمة حدود الامبراطورية الشرقية لأن مملكتهم كانت تشكل تهديدا دائما لأمن ولاياتها فى البلقان. وفى نفس الوقت كانت هناك جماعة كبيرة من

واشتد سلطانه بها. وفرض بها فروضاً من البربر وغيرهم. وخرج منها حتى بلغ سرت، وحسن أمره فى ولايته. فبعث إليه صاحب توزر بحباسة بن يوسف رجل من البربر من كتامة، فكان موافقا له، قد انتصف كل واحد منهما، وامتنع من صاحبه. وعزم تكين على صرف أبى النمر أحمد بن صالح عما يتولاه ببرقة، وعقد عليها لخير المنصورى. وبلغ حباسة خبره، فبعث إلى أبى النمر وهو موافقه: ما الذى يحملك على حربنا وأنت معزول؟ فبعث إليه بكتاب ورد عليه من مصر بذلك. فانصرف أبو النمر إلى برقة وتبعه حباسة. ثم رحل أبو النمر من برقة يريد مصر، ونزل حباسة عليها. وخرج خير المنصورى إلى برقة، ومعه عبد العزيز بن كليب الجرشى. فوقع بينهما تشاجر، فنفس كل واحد منهما الولاية على صاحبه و تجافيا. فظفر بهما حباسة وهزمهما جميعاً. وانصرفا إلى مصر منهزمين. وكتب تكين كتاباً إلى صاحب إفريقية على لسان أمير المؤمنين المقتدر، يدعوه فيه إلى الطاعة والتمسك بها. وجمع وجوه أهل مصر فقرأه عليهم وأنفذه إليهم ، وذلك فى سنة ثلاث مئة.

وخرج رجل بمدين، زعموا أنه من آل أبى طالب. فخرج إليه محمد ابن طاهر صاحب الشرط، فأتى به. فطيف به لأربع عشرة خلت من شعبان سنة ثلاث مئة.

وأمر تكين فى يوم نوروز ومهرجان بجمع المؤنثين وأمرهم بإظهار المعازف والمزامير والطبول،

الشعوب المحاربة الاسيوية يعرفون باسم الأفــار Avares قد كـونت لنفسـها مملكة كـبيـرة على حـدود بلغـاريا الشرقية والشمالية، وهؤلاء أيضا بدأوا يهاجمون أراضى الروم من آن لآخر. غير أن نجاح حركة التبشير المسيحى، الذى قامت به كنيسـة القسطنطينية الارثوذوكسية منذ أواخر عهد ميخائيل الثـالث، هدأت من درجـة خطورة البلغـار والسـلاف، لكن لـم تقض عليـهـا. والى الشـمال الشـرقى من الافار، كـان السـلافيـون الشرقيـون أجداد الروس الحاليين - يعيشـون فى

صحة ما قالاه ولم ينازعهما احد عليها فملكاها وما فيها فاصبحا اغنيا لما وجداه فيها.

وكان له ولدا كبير كثير السو مثل ابيه وازيد منه، فوضع يده مكان ابيه وذكر ان كتب الملك ولت اليه بان يكون عوضا عن ابيه بعد أن مكث ستة أشهر لا يرى ولا عرف له مكان حتى صنع الكتب عن امر الخليفة. ولما جلس بدا ان يعمل السو مثل ابيه وظن انه ينتقم من المصريين لما فعل [الملك] بابيه واهله واولاده، فخافت المصريون منه

وشهرهم فى لباسهم. وطافوا الفسطاط على المسجد الجامع، كان ذلك يوم الثلاثاء لسبع خلون من ذى القعدة سنة ثلاث مئة.

وقدم نحرير الخادم من العراق، فى إخراج ابن أبى قماش كاتب تكين. وذلك أنه رفع عليه وكثر فأخرجه فى ربيع الأول سنة إحدى وثلاث مئة.

ثم سار حباسة بن يوسف فى جيوشه من برقة قاصداً للاسكندرية، فى مئة ألف أو زيادة عليها. فدخل الإسكندرية يوم السبت لثمان خلون من المحرم سنة اثنتين وثلاث مئة. وقدمت الجيوش من المشرق. فقدم القاسم بن سيما إلى مصر مدداً لتكين، لعشر بقين من صفر. ثم قدم أبو على الحسين بن أحمد الماذرائى، وأبو بكر محمد بن على بن أحمد الماذرائى إلى مصر على تدبيرها؛ دخلا يوم السبت لسبع خلون من ربيع الأول سنة اثنتين وثلاث مئة. وقدم معهما أحمد بن كيغلغ، وأبو قابوس محمود بن حمك، فى جمع من القواد. ثم خرج ابن عمرون على مقدمة تكين إلى الجيزة. وخرج تكين فى جيوشه إلى الجيزة فعسكر بها. وسار حباسة من الإسكندرية فعسكر بمشتول. فنودى بالنفير فى الفسطاط يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الآخر، فلم يتخلف عن الخروج إلى الجيزة أحد من الخاصة والعامة. ثم انصرفوا عشياً ولم يكن لقاء. ثم نودى يوم الخميس، فخرج الناس خروجاً لم ير مثله قط فى الاجتماع والنشاط وحسن البصيرة. وأتاهم حباسة فى جيشه يومئذ. فيما بين الظهر والعصر. فالتقوا وكثرت

وقالو: لقد سخط الله علينا بهذا الانسان وابوه من قبله فما الحيلة فيه. وتم قول اشعيا النبي: ليهلكو الخطاة ومخالفي الناموس معا، والذى تخلو عن اوامر الرب يفنو لانهم يخزون. وكانت البلايا على النصارى فى كل يوم تتزايد من هذا المتولى واعماله الردية تتزايد في كل يوم، فمن لا يحزن قط يحزن لاهل مصر واكثرها النصارى. يا اخوتى اسمعو هذا، اذا كان صليب المسيح يكسر فى كل مكان ولا يقدر احد يظهره لتتمسك النصارى

تجمعات صغيرة في مناطق الادغال والغابات والمستنقعات على ضفاف نهرى الطونة Tanais والدنيبر Dnieper، اللذين يتدفقان عبر الأراضى الجنوبية الغربية لروسيا، وكانوا يعيشون عيشة بدائية قبلية، ثم توحدوا تحت زعامة واحدة، وفي منتصف القرن التاسع غزا أرض الروس جماعة من الفايكنج، الذين جاءوا من اسكندنافيا، ونظموا هذه القبائل الروسية في مناطق الغابات في شكل امارات صغيرة متحدة، ثم توحدت هذه الامارات ودانت بالولاء

القتلى منهم. وقتلت رجالة حباسة كلهم. ثم من الله وله الحمد بهزيمتهم، ومنح أهل مصر أكتافهم. ومضوا على وجوههم هاربين، ورأوا من اجتماع الناس، ونصر الله مالم يسمع بمثله. ومضى جمع من الرعية فاتبعوهم. وعبروا خلفهم خليج بوهة [بالمنوفية]. واختلط الظلام. فخرج عليهم كمين لحباسة بعد المغرب. فاقتطع طائفة منهم، فقتل من يرحمهم الله نحواً من عشرة آلاف. وأصبح الجند يوم الجمعة على مصافهم بالجيزة. ثم نودى بالنفير يوم الجمعة صلاة المغرب. فاضطرب الناس لذلك اضطراباً شديداً. وخرجت الرعية إلى الجيزة ليلتهم كلها كخروجهم بالأمس. ثم عادوا إلى الفسطاط في غداة يوم السبت، ولم يكن لقاء.

وأقبل مؤنس الخادم من العراق في جيوشه. فدخلها يوم الاثنين للنصف من شهر رمضان، ومعه جمع من الأمراء سار بهم معه. ونزل الحمراء، ولقى الناس من جنده كل ما كرهوا. ثم أمر أحمد بن كيغلغ بالخروج إلى الشام في شهر رمضان. فصرف تكين عن صلاتها، يوم الخميس لأربع عشرة، وأمره بالخروج يوم السبت لسبع خلون من ذى الحجة. وأقام مؤنس بالفسطاط يدعى الأستاذ.

١١٥ - ذكا الأعور

ثم وليها ذكا الأعور، ومن قبل المقتدر بالله، على صلاتها؛ دخلها يوم السبت لثنتى عشرة

٥٤: انبا قزما البطرك ٨٥١/٨٥٩م

والزعامة لأمير دوقية كييف Kiev على نهر الدينبر، مكونة شعبا ووطنا واحدا يعرف في ذلك الوقت باسم بلاد الروس Rus، والتي توسعت فيما بعد وأصبحت تعرف باسم امارة موسكوفا Muscovy، ثم الى دولة بلاد الروس مرة أخرى، ولما اشتد ساعد هذه الدولة، باتت تتطلع للتوسع والغزو من أجل السلب والنهب؛ وفي عام ٨٦٦م شقوا طريقهم عبر نهر الدنيبر إلى البحر الاسود، ورست سفنهم عند ساحل القسطنطينية، وتقدموا حتى عسكروا

برويته ويرجو به الخلاص، وكذلك الناقوس المقدس الذى صوته يطرد الشيطان وجنوده ويقيم الكسلان الى ذكر الاهه امر ان يقطعه حتى يتم قول بولس الرسول: يعذبونا ونحن ثابتين وصرنا مثل المرذولين. واكثر من جميع ذلك عذبت النصارى الى ان انكرو امانتهم وانتقلو من الحياة الى الموت.

اسمعو ما كان في ذلك الزمان فانها لكم موعظة ايها الاخوة المومنين بالمسيح، لتعلمو ان

ليلة خلت من صفر سنة ثلاث وثلاث مئة [٩١٥م]. فجعل على شرطه محمد بن طاهر. ثم خرج مؤنس الخادم منها في جميع جيوشه يوم الخميس لثمان خلون من ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاث مئة.

وخرج ذكا إلى الإسكندرية بعد خروج مؤنس . وخرج القاسم بن سيما إلى الشام لأربع عشرة خلت من المحرم سنة أربع وثلاث مئة . وقدم ذكا من الإسكندرية إلى الفسطاط لثمان خلون من ربيع الأول سنة أربع وثلاث مئة، وجعل على الإسكندرية ابنه مظفر بن ذكا.

وتتبع ذكا كل من يوما إليه بمكاتبة صاحب إفريقية. فسجن كثيراً منهم، وقطع أيدى قوم وأرجلهم. وجلا أهل لوبية ومراقية إلى الإسكندرية في شوال سنة أربع وثلاث مئة، خوفاً من ابن المهدى صاحب برقة. فبعث ذكا بجمع من القواد مرة بعد أخرى إلى الإسكندرية.

وفسد ما بين ذكا وبين الرعية، وذلك أن الرعية كتبوا على أبواب المسجد الجامع ذكر الصحابة والقرآن [بما لا يليق] . فرضيه جمع من الناس وكرهه آخرون. وكان محمد بن طاهر صاحب الشرط معيناً لأهل المسجد والرعية على ذلك. فاجتمع الناس لأربع عشرة خلت من رمضان سنة خمس وثلاث مئة إلى دار ذكا بالمصلى القديم، يتشكرونه على ما أذن لهم فيه. فوثب الجند بالناس. وحرضهم على ذلك محمد بن إسماعيل بن مخلد . فنهب قوم، وجرح آخرون . وأقبل ابن مخلد من الغد إلى المسجد الجامع، فلم يترك شيئاً مما كتب عليه

الرب عال مخوف مرهوب ويظهر عجايبه كما انه لم يخفى قوته فى الزمان الذى صلبوه فيه اليهود الكفرة ولم يصدقو ما رواه من العجايب، مثل انشقاق ستر الهيكل الذى انشق من فوق الى اسفل، ومثل الموتا الذين قامو من القبور، ومثل الصخور الذى تشققت، ومثل انقسام النهار باثنين. كذلك ايضا عرف اصفياه المومنين باسمه تمام سرايره ليعرف كل احد انه الذى يرذل الامم الذين لا يطيعوه. كان فى وقت مجي هذا المبغض الى

تحت أسوارها، لكنهم لم يمكثوا طويلا لأنهم قصدوا بحملتهم الاغارة وليس الغزو، وعادوا الى وطنهم محملين بالاسلاب والغنائم. ولما شعر الروس أن هذه المغامرة قد جلبت لهم فيضا من الخيرات، فقد اعتادوا القيام بعمليات الاغارة على حدود الامبراطورية الشمالية، ونهب الحقول والمدن. غير أن باسيليوس ترك معالجة أزمة الشعوب السلافيةوالكرواتية والبلغارية للمبشرين الروم لأن اهتمامه كان منصبا على هدف واحد، الا وهو

حتى محاه. ونهب الناس فى المسجد والأسواق، وأفطر الجند يومئذ. وعزل ذكا محمد بن طاهر عن الشرط، وجعل مكانه وصيفاً الكاتب، يوم الثلاثاء لست عشرة خلت من رمضان سنة خمس وثلاث مئة.

ثم وقع الاختلاف بين المظفر بن ذكر بالإسكندرية وبين بربر البحيرة. فخرج عنها مظفر إلى تروجة، ثم رجع إلى الإسكندرية. وسارت مقدمة صاحب إفريقية إلى لوبية ومراقية، فهرب أهل الإسكندرية منها، وجلوا عنها. وخرج منها مظفر بن ذكا فى خمسة [خلون من صفر]. ودخلت مقدمة ابن صاحب إفريقية إليها، يوم الجمعة لثمان خلون من صفر سنة سبع وثلاث مئة [٩١٩م]. وهرب أهل القوة من الفسطاط إلى الشام فى البر والبحر. فهلك أكثرهم بفلسطين، وذكا مقيم بالفسطاط قد خالفه الجند، وأبوا الخروج معه إلى الجيزة، وامتنعوا وسألوا العطاء. واجتمع قوم من أهل المسجد، فصاروا إلى ذكا، فسألوه الخروج إلى الجيزة والمقام بها، فوعدهم ذلك. ثم خرج إليها، فعسكر بها للنصف من صفر سنة سبع وثلاث مئة فى طائفة يسيرة.

وقدم الحسين بن أحمد الماذرائى، والياً على خراجها فى صفر. فخرج إلى الجيزة، ووضع العطاء بها . وجد ذكا فى أمر الحرب، وأمر ببناء الحصن على الجسر الغربى بالجيزة ملاصق مسجد همدان. واحتفر خندقاً خندق به على عسكره، وعلى الجيزة، وذلك فى صفر سنة سبع [وثلاث مئة]. وعزل وصيفاً الكاتب عن الشرط، يوم الاثنين لخمس بقين من صفر، ورد محمد

ارض مصر في سنة تسع وستين وخمس ماية للشهدا الاطهار ظهرت هذه العلامة المخوفة، وذلك ان جميع من يسكن من الرهبان دير ابو مقار شاهدوا صورة السيد المسيح الرحوم الذى فى بيعة القديس سويرس التى على الصخرة وقد انفتح جنبها وخرج منه دم، وخاف جميع من نظر هذا الدم ومجدو الله على اعماله العجيبة. والقوم الثقات الذى يجب ان يصدقو اخذو من ذلك الدم بامانة وجعلوه على قوم بهم امراض مختلفة فعوفو

استعادة ممتلكات بلاده فى الغرب الأوروبى.

باسيليوس والغرب الأوروبى:

لاحت الفرصة لباسيليوس الأول عندما طلب البابا والامبراطور شارل – ملك الفرنجة الغاليين – منه المساعدة ضد سطوة وتهديد الاغالبة المسلمين بالاندلس، وعلى الفور رحب باسيليوس، لأنه وجد فى ذلك فرصة لأعادة نفوذ الروم فى ايطاليا والبحر المتوسط الى الوضع الذى كان عليه أيام جستنيان؛ فاتجه بقواته غربا، حيث نجح فى اجلاء الاغالبة عن تارنتوم

بن طاهر مكانه. ثم مرض ذكا، وهو مقيم على مصافه بالجيزة، وتوفى بها عشية الاربعاء لإحدى عشرة خلت من شهر ربيع الآخر سنة سبع [وثلاث مئة]، ودفن فى مقبرة الفسطاط. فكانت إمرته عليها أربع سنين وشهراً.

١١٦ - أبو منصور تكين

الثانية

ثم وليها أبو منصور تكين الثانية، ومن قبل المقتدر بالله على صلاتها. فتسلم له خليفته وقد حضر، أبو قابوس محمود بن حمك، يوم الأحد لثمان خلون من ربيع الأول ، ونزل الجيزة. وقدم إبراهيم بن كيغلغ يوم الثلاثاء لسبع بقين من ربيع الآخر. ودخل تكين والياً عليها يوم الخميس لإحدى عشرة خلت من شعبان سنة سبع [٩١٩م]. ونزل الجيزة وحفر خندقاً ثانياً. وجعل على شرطه محمد ابن طاهر. وأقبلت مراكب صاحب إفريقية قاصدة إلى الإسكندرية، عليها سليمان الخادم. فبعث ثمل الخادم صاحب مراكب طرسوس، فأتى فى مراكبه إلى رشيد. فلقى سليمان الخادم لعشر بقين من شوال سنة سبع وثلاث مئة، فاقتتلوا. وبعث الله الريح على مراكب سليمان، فألقتها إلى البر فتكسرت. وأخذ من فيها أخذاً باليد، وأسرهم ثمل، وقتل منهم خلقاً كثيراً، واستأمن إليه من بقى . ودخل بهم الفسطاط فأنزلهم المقس يوم الاثنين لأربع بقين من شوال سنة سبع [وثلاث مئة]، ومعه سليمان الخادم وكل رئيس كان فى تلك

من امراضهم للوقت. واراد الرب ان يظهر علامة للمومنين ويكثرو من الرجا به وبصليبه الزكى فاظهر فى هذه السنة عجايب كثير، وذلك ان جميع الصور التى بوادى هبيب بدير القديس ابو مقار وغيره كانت عيونها تفيض دموعا مثل ينابيع المياه، فعلمو ان هذا بسبب ما فعلوه ولاة السو الظلمة فى اخفا [ء] الصليب. وكانت هذه العجايب تصبرهم وتثبتهم على جميع ما كان يجرى من الولاة والقضاة.

عام ٨٨٠م، وبعد عدة شهور قضاها فى قتال مرهق، نجح فى استعادة عدد من المناطق فى جنوب ايطاليا، غير أن نشوة النصر وبريقه أديا إلى ضياع صقلية ومالطة وكريت. وكل ما أسفرت عنه حملته فى الغرب هو استعادة اقليمين فقط من أملاك الدولة الكارولنجية فى الغرب اللاتينى.

وعموما فقدى حقق باسيليوس الأول انتصارات هائلة لبلاده، سواء على الصعيد الداخلى أو الخارجى، وجعل من الامبراطورية بالفعل قوة مرهوبة الجانب، حتى أن لويس الثانى

المراكب. فأمر تكين بتمييز الأسارى، فأطلق أهل القيروان وطرابلس وبرقة وصقلية وميز كتامة وزويلة ناحية. ثم أذن للناس فى قتلهم، فقتلهم الجند والرعية، كانت عدة القتلى سبع مئة أو نحو ذلك. ودخل ثمل الفسطاط، ومعه سليمان. فطيف به مقيداً، وبرؤساء المراكب، وهم مئة وسبعة عشر، وذلك يوم الثلاثاء لثلاث بقين من شوال.

وأقبل مؤنس الخادم إلى مصر، دخلها يوم الخميس لخمس خلون من المحرم سنة ثمان وثلاث مئة. فنزل الجيزة فعسكر بها، وكان فى نحو من ثلاثة آلاف . فبعث بإبراهيم بن كيغلغ إلى جزيرة الأشمونين وكان بها [عسكر صاحب إفريقية] وأقبل عبد الرحمن ابن صاحب إفريقية من الإسكندرية إلى الفيوم فنزلها. ومات إبراهيم بن كيغلغ بالبهنسى مستهل ذى القعدة سنة ثمان وثلاث مئة.

وظهر تكين على جمع تعاقدوا بالفسطاط على الخروج ليلة الختم من شهر رمضان، فيهم ابن المدينى القاضى ونفر معه. فهرب ابن المدينى، ثم ظفر به فى دار إسرائيل، فأخذه.

وملكت البربر جزيرة الأشمونين كلها مع الفيوم، وأزالوا عنها جند [ابن] كيغلغ. ثم دخل جنى الخادم المعروف بالصفوانى إلى الفسطاط سلخ ذى الحجة فعسكر بالجيزة. وبعث مؤنس بأبى قابوس محمود بن حمك إلى ذات الصفا من الفيوم، فقتل نفراً من البربر، وغنم غنائم. ثم انصرف إلى الجيزة سنة تسع وثلاث مئة [٩٢١م].

ولما كان فى ذلك الزمان تقدم الوالى بعمل مراكب فى ساير البلاد الذين على السواحل لانه كان فى ذلك الوقت قد وصل الى دمياط الروم ونهبوها واقامو بها ثلثة ايام ومضوا بسبيها [ ]اسراهم وذهبها وفضتها الى بلاد الروم. ولاجل ذلك عملت مراكب كثيرة من الاسطول، وكانو فى كل سنة يصلحوا ما فسد منها ويجددو عوض ما تحطم منها، وكانو يمضو بها الى بلاد الروم ويحاربوهم، وينفق فى الاسطول فى كل سنة مالا كثيرا.

ـ خليفة شارل ـ طلب منه السعى لتوحيدالامبراطورية الرومانية بشطريها تحت تاج العرش فى القسطنطينية، غير أن هذا الحلم لم يتحقق، فقد مات باسيليوس فى ظروف أليمة عام ٨٨٦، تاركا العرش لأبنه ليون السادس الملقب بالحكيم .

ليون السادس الملقب بالحكيم ٨٨٦ . ٩١٢:

اختلفت الظروف التى نشأ فيها ليون السادس عن الظروف التى نشأ فيها أبوه، فبينما نشأ الأب فى ظروف قاسية صعبة، وعاش حياة الجنود

ومضى ثمل الخادم فى مراكبه إلى سكندرية، وبها ابن بعله أميرا عليها . ثم ظفر بهم ثمل وهرب ابن بعله. ودخل ثمل الإسكندرية، فنفى أهلها إلى رشيد، وذلك فى المحرم سنة تسع وثلاث مئة. ورجع ثمل إلى الفسطاط. فمضى فى مراكبه إلى اللاهون. وسار مؤنس وتكين فى عسكرهما، وعلى مقدمتهما جنى الصفوانى، يوم الخميس لثمانى عشرة خلت من صفر سنة تسع. فدخلوا مدينة الفيوم. ومضى ابن صاحب إفريقية إلى تهنمت وأقنى، ثم مضى هاربا إلى برقة، ولم يكن بينهم لقاء. فرجع مؤنس وتكين إلى الجيزة يوم السبت لأربع خلون من ربيع الأول سنة تسع.

وصرف تكين عن مصر يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة تسع وثلاث مئة. وولى مؤنس عليها أبا قابوس محمود بن حمك، فأقام عليها أياما. ثم رد تكين عليها يوم الجمعة لخمس بقين من ربيع الأول فأقام أربعة. ثم صرف تكين عنها سلخ ربيع الأول. وأمره مؤنس بالخروج عنها إلى الشام. فخرج فى أربعة آلاف من أهل الديوان. قال ابن مهران:

وَلِيتَ ولايَةً وَعُزِلْتَ عَنْهَا ... كَمَا قَدْ كُنْتَ تَعزِلُ مَن تُوَلِّى
رَحِمْتُكَ يَا أبَا مَنْصور لما ... خَرَجْتَ كَذا بلا عَلَمٍ وَطَبْلِ

فلما وليها تكين بعد ذلك أمر فراشا، فضم ابن مهران ضمة كان فيها نفسه.

٥٤: انبا قزما البطرك ٨٥١/٨٥٩م

[تسخير المصريين القبط في الأسطول الإسلامي]

فاما النصارى فانهم يسيروهم في المراكب ولا يدفعو لهم ما ينفقوه في طريقهم ولا درهم واحد ولا زاد الطريق، بل كانو يجرو عليهم جراية من الطعام فقط، وكانو يلزموهم بالمسير بهذا. وكان المتولي من كثرة بغضته للنصارى يفعل هذا ويحصى البلاد كلها ويجعل على كل ضيعة عدة من الرجال يسافرو في الاسطول. وكان ايضا لا يدفع لهم سلاحا. ويفتقد احوالهم فمن وجده بغير

القاسية التي جعلت منه محاربا صعب المراس، تربى الابن في النعيم المقيم، وبذخ القصور، وبينما حرم الأب من التعليم الراقي، تلقى الابن منذ نعومة أظفاره التعليم من خيرة الاساتذة والعلماء، ومن ثم فقد كانت نظرة كل منهما الى قيادة الدولة تختلف عن الآخر. فالأب رأى أن القوة فوق الثقافة، والابن اعتبر الثقافة فوق القوة، فضلا على أن الظروف التي تولى فيها ليون الحكم، كانت أفضل من الظروف التي تولى فيها أبوه، فقد

---

١١٧ - هلال بن بدر

ثم وليها هلال بن بدر، من قبل المقتدر، على صلاتها؛ دخلها يوم الاثنين لست خلون من ربيع الآخر سنة تسع وثلاث مئة [٩٢١م]. فأقر محمد بن طاهر على الشرط. وخرج مؤنس منها يوم السبت لثماني عشرة خلت من ربيع الآخر، ومعه أبو قابوس. وخرج ثمل في مراكبه، ومعه الأسارى سليمان الخادم وأبو خليل وغيرهما.

ثم شغب الجند على هلال بن بدر في أرزاقهم، وخرجوا إلى منية الأصبغ. وصلح أمر الفرسان، واجتمعت الرجالة والبحريون إلى محمد بن طاهر صاحب الشرط، وكان صاحبهم والمستولي على أمورهم. وتحقق هلال بن بدر فساد أمرهم من قبله، فطلبه فاستتر. ثم ظهر عليه وعلى أخيه أبي الفتح أحمد بن طاهر فمضى بهما إلى هلال. فقتلهما لأربع بقين من صفر سنة عشر وثلاث مئة.

وجعل هلال على الشرط علي بن فارس سبعة أيام، ثم صرفه وجعل مكانه كنجور يوم الثلاثاء لسبع بقين من ربيع الأول سنة عشر. وكانت مصر في أيام هلال من النهب والقتل والفساد على نهاية. ثم صرف عنها في ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وثلاث مئة، وخرج منها لثلاث بقين من ربيع الآخر.

سلاح او فى سلاحه نقصا ياسى اليه [يقسو عليه] ويغرمه خسارة، وياخذه بابتياع عدة يقاتل بها. حتى انهم كانو ياخذو اقوام ضعفا لا قدرة لهم على السير وليس يعرفون صنعة البحر ولا القتال فيدفعو ما يملكوه لمن يسافر عنهم. ولما شكو ما ينالهم من الكلف وانهم متى وجدو سبيلا الى المضى من هذه الاعمال الى غيرها مضو اليها، فامر [الوالى] ان يطلق لكل واحد من النصارى ديناران ويزيد عليها ما يقيم به بديلا عن نفسه من

كان الأب قد حقق معظم المهمات الصعبة، ومن ثم فقد استمتع الابن بتولى زمام حكم مستقر، محبوب من الناس، ومرهوب من الاعداء، فقبع أغلب الوقت فى القصر، ينهل من ينابيع الفكر والثقافة، ويقضى وقته فى التأليف المتنوع، الذى جعل منه امبراطوراً أديباً، استحق من أجله لقب الحكيمSophos .

ولقد تنوعت مؤلفات ليون الحكيم، فغطت عدة مواضيع، فقد

١١٨ - احمد بن كيغلغ

ثم وليها أحمد بن كيغلغ، من قبل المقتدر، على صلاتها؛ قدمها ابنه العباس خليفة لأبيه مستهل جمادى الأولى سنة إحدى عشرة [٩٢٣م]. فأقر كنجور على الشرط. وأقبل أحمد بن كيغلغ، ومعه محمد بن الحسين بن عبد الوهاب الماذرائى على الخراج، فنزلا المنية، لأيام بقيت من رجب سنة إحدى عشرة. فأحضر الجند، ووضع، العطاء، وأسقط كثيراً من الرجالة [الجند المشاة]. فشغب الرجالة، وخرجوا إلى ابن كيغلغ، فتنحى عنهم إلى فاقوس. وعزم محمد بن الحسين ابن عبد الوهاب على التوجه إلى الشام. فخرج إليه الجند، فأدخلوه الفسطاط لثمان خلون من شوال سنة إحدى عشرة وثلاث مئة. وبقى أحمد بن كيغلغ بموضعه. ثم صرف عنها، وقدم رسول تكين بولايته عليها.

١١٩ - ابو منصور تكين
الثالثة

تم وليها تكين المرة الثالثة، من قبل المقتدر، على صلاتها؛ قدمها الرسول بامرته يوم الخميس لثلاث خلون من ذى القعدة سنة إحدى عشرة وثلاث مئة. فاقر كنجور على الشرط. وأسقط كثيراً من الرجالة الذين أثبتهم هلال بن بدر، وهم كانوا أهل الشغب والنهب والشر. ونادى

المسلمين بخمسة عشر دينار. وكان هذا من الاضطهاد الذى نالهم يشتهون الموت، فاطلع الرب الرووف الرحيم المفتقد لشعبه فى كل حين نظر الى تنهد شعبه وبكاهم فلم يطول تلك الايام بل اقصرها واظهر كثرة رحمته على كورة مصر البايسة، وسمع صوت الفقرا كما قال داود النبى: سمع صوت الفقرا ولم يرذل اصفياه. وان الملك [جعفر المتوكل] لما اتصل به ما فعله هذا المتولى بمصر وما صنعه بالنصارى والضيق الذى هم فيه

كتب فى الادارة والاقتصاد عندما أصدر مؤلفه الشيق «كتاب المحتسب» Eparchikon، والذى خصصه لدراسة أصول التجارة والاسواق، والسلع، وطوائف تجارها، والتموين، والاسعار، والحرف الصناعية المختلفة ومراقبة النقابات لها، كما كتب فى فن البروتوكول، وتدرج المناصب والرتب. ومن أهم مؤلفاته كتابه عن الحرب، الذى يعتبر من أهم المراجع لدراسة الجيش والبحرية عند الروم فى القرن التاسع؛ فكتب بقلم الخبير عن التجنيد والتنظيم، والتدريب

فيهم ببراءة الذمة ممن أقام بالفسطاط منهم. واجتمع الناس إلى تكين يشكرونه على ما فعل بهم.

وعزل كنجور عن الشرط يوم الاربعاء لليلتين خلتا من المحرم سنة ثلاث عشرة، وجعل مكانه قزل تكين. ثم عزل قزل تكين، وجعل مكانه وصيفاً الكاتب يوم الخميس للنصف من صفر سنة ثلاث عشرة. ثم عزل وصيفاً الكاتب، وجعل مكانه بجكم الأعور يوم السبت لثلاث بقين من رجب سنة سبع عشرة.

وصلى تكين الجمعة فى دار الإمارة، وترك حضور الجمعة فى المسجدين جميعاً فى سنة سبع [عشرة] وثلاث مئة.

ثم كان قتل المقتدر فى شوال سنة عشرين وثلاث مئة، وبويع أبو منصور القاهر بالله، فأقره عليها. ثم مات تكين بمصر، وهو واليها، ويوم السبت لست عشرة خلت من ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة، وأخرج به فى تابوت إلى بيت المقدس. فكانت إمرته هذه الثالثة عليها تسع سنين وشهرين وخمسة أيام.

وجعل ابنه محمد بن تكين فى موضعه. وأقام أبو بكر محمد بن على الماذرائى بأمر البلد كله. ونظر فى أعماله. فشغب الجند عليه فى طلب أرزاقهم، وأحرقوا دوره ودور أهله.

فارسل وعزل ذلك الوالى السو الذى عمل هذا بالنصارى وانفذ غيره انسان يعرف بيزيد ابن عبدالله [٨٥٦م]، وهذا كان يفعل حسنة مع الناس. وهدت ارض مصر واظهرت التجار الغلات وتزايدت الانعام والخيرات فى كل مكان، وزال البلا عن الناس وطابت نفوس سكان ارض مصر وراو خيرا كثيرا. وكان ذلك فى ايام جعفر المتوكل على الله.

وهذا الملك صرف اهتمامه فى ذلك الوقت الى

والتسليح، والتموين، وأساليب المعارك، حتى أزياء الجنود والضباط لم يغفلها، وكذلك اخلاء الجرحى من ميدان القتال، وركز فى هذا الكتاب العلمى على أهمية فرقة الفرسان المسلحة بالاسلحة الثقيلة، وتحدث عن قواعد أساطيل الامبراطورية الثلاث، وعن الأسر العريقة التى ينتقى منها القادة. كما ألف هذا الامبراطور كتابا عن مستقبل الامبراطورية، وكتابا سماه التنبؤات Prophetica وهو عبارة عن مجموعة من الالغاز السياسية والطرائف عن الاتراك،

وخرج محمد بن تكين فعسكر فى منية الأصبغ.ورحل إلى بلبيس. فبعث إليه محمد بن على يأمره بالخروج عن أرض مصر. وعسكر الجند الذين بالفسطاط بباب المدينة وأقاموا هناك، وذلك سلخ ربيع الأول سنة إحدى وعشرين. ولحق محمد بن تكين بالشام. ثم أقبل سائراً إلى مصر. يذكر ولايته إياها من قبل القاهر. فامتنع محمد بن على فى ذلك . واستجاش بالمغاربة ، ورئيسهم حبشى بن أحمد السلمى يكنى أبا مالك. فخرج حبشى يمنع محمداً من مسيره إليها، وأقام بجرجير.

١٢٠ - ابو بكر محمد بن طغج

ثم وليها أبو بكر محمد بن طغج، من قبل القاهر بالله. على صلاتها. ورد الكتاب بولايته عليها يوم الأحد لسبع خلون من شهر رمضان سنة إحدى وعشرين [٩٣٣م]. ودعى له بها، وهو إذ ذاك مقيم بدمشق. فكانت ولايته عليها اثنين وثلاثين يوماً، ولم يدخلها.

١٢١ - احمد بن كيغلغ
الثانية

ثم وليها أحمد بن كيغلغ ولايته الثانية عليها، من قبل القاهر بالله، قدم الرسول بذلك يوم الخميس لتسع من شوال سنة إحدى وعشرين. واستخلف أبا الفتح [محمد بن] عيسى النوشرى، فأقر بجكم الأعور على الشرط. وشغب الجند فى طلب أرزاقهم على محمد بن على الماذرائى صاحب الخراج فاستتر منهم، فأحرقوا داره ودور أهله. وصرف بجكم عن الشرط،

٥٤: انبا قزما البطرك ٨٥١/٨٥٩م

المدن التى بارض المشرق ومصر مما يقارب النهر [النيل] لاجل نهب الروم دمياط فى ايامه. ثم تقدم بنفقة مال فى بنا الاسوار على تنيس ودمياط وكذلك المدينة العظمى اسكندرية وجميع الاعمال بالبرلس واشمون والطينه ورشيد ونستروه خوفا من الروم، وتممهم كما يجب. وصير حصونا وعمل تذكارات كثيرة بارض مصر عوضا مما فعل بالنصارى. وكان بمصر قاضيا بعيدا عن الظلم يحكم بالحق وكان غير مرابى اسمه الحارث ابن

والبنادق، ومستقبل علاقاتهم مع الامبراطورية،و كأنه فعلا يقرأ الغيب، حتى مجال الوعظ والارشاد الدينى طرقه، فكتب مجموعة من الخطب،والمقالات، والمواعظ الدينية المؤثرة. ولهذا فقد أحب الدفئ والتاليف، ولم يعكر صفو حياته الهادئة الا أمران، صدامه مع الكنيسة فى مظاهرة لاستعراض القوة، وحروبه الفاشلة مع المسلمين والبلغار.

سياسته الخارجية:

وبقدر ما كان ليون السادس رجلا مثقفا، غزير العلم، واسع الاطلاع،

وجعل مكانه الحسين بن معقل، يوم الأحد لأربع بقين من شوال سنة إحدى وعشرين. فرده محمد بن على المادرائى إلى الشرط. فحارب الجند بجكم بالجزيرة [الروضه] والجيزة، فانهزم منهم. وعاد ابن معقل إلى الشرط. ثم نزغ الشيطان بين الجند، فتفرقوا فرقتين: فكان على أهل الشرق منهم حبكويه، وعلى المغاربة حبشى بن أحمد. وأجتمعت كل فرقة على قتال الأخرى. فالتقوا يوم الثلاثاء لخمس خلون من ذى الحجة سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة عند المصلى الجديد. فاقتتلوا، فقتل من المغاربة نحو من أربعين رجلاً، وانهزم المغاربة، فلجأ أكثرهم إلى الجيزة، وتبعهم حبشى بن أحمد بعسكر منهم ثم سار بهم إلى الصعيد فنزل سيوط. ثم عاد حبشى فى المغاربة إلى الجيزة سلخ صفر سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة. فخرج إليه من كان بالفسطاط من الجند ، فعسكروا بالجيزة مستهل ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين. ومضى قوم من أهل مصر إلى حبشى، فسألوه الصلح. وجمع كل منهم إليه، فالتقوا يوم الثلاثاء لثمان خلون من ربيع الأول سنة أثنتين وعشرين بالجيزة. فتوافوا، وجرى بينهم الصلح. فكره ذلك حبكويه، فانضم فى أصحابه إلى الجيزة، وأقام الآخرون فى الجزيرة. فبينا هم فى ذلك أتاهم محمد بن تكين من فلسطين،. فصبحهم يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين. فنزل الجزيرة [الروضه] مع الجند، أظهر كتاباً بولايته. فأنكر ذلك أبو بكر محمد بن على المادرائى. وبعث محمد بن تكين إلى حبشى ومن معه يأمرهم بالدخول فى طاعته والانقياد إليه، فأبوا ذلك.

مسكين عوضا عن القاضى [عبدالمسيح ابن اسحاق] الظالم الذى ذكرناه ولقاه الله فعله مع الاب انبا يوساب البطرك هولاى الثلثة المتوليين ذلك الزمان، الوالى والناظر والقاضى، كانو كواحد فى الحق وفعل الخير مع كل احد، حتى ان الناس نسيو ما حل بهم من البلايا والجوع كمثل قول حزقيال النبى: سيتعلمو انى انا الرب عندما اهشم النير الذى عليهم وانجيهم من ايدى مبغضيهم ولا تنهبهم الامم ولا تاكلهم وحوش الارض ويكونو

كثير العطاء الفكرى، حتى استحق عليه لقب الحكيم، غير أنه لم يكن حكيما على الاطلاق فى سياسته الخارجية، ورجل فى مثل علمه واطلاعه كان يمكن أن يكون داهية، يحقق بالسياسة والكياسة ماعجز عنه من سبقوه بالحرب؛ فقد ارتكب أخطاء فادحة، ومنى بفشل ذريع، بسبب قراراته غير المدروسة، ووطنيته المندفعة، ويتمثل ذلك فى سياسته ازاء البلغار.

حروبه مع البلغار:

كان البلغار على طول تاريخهم،

---

١٢٢ - محمد بن تكين

ودعي لمحمد بن تكين بالإمارة، وعزل الحسين بن معقل عن الشرط، وولى مكانه بجكم الأعور. ورجع حبشي في أصحابه إلى الصعيد، ولحق به محمد بن عيسى النوشرى. فأمروه عليهم وهم على الدعاء لأحمد بن كيغلغ ثم عدى حبشي النيل وأصحابه إلى الشرقية، وأقبلوا إلى الفسطاط. فعسكر محمد بن تكين من بركة المعافر إلى الفج. ثم أتت طائفة من المغاربة، فلقيت عسكر محمد بن تكين ليلة السبت لست خلون من ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين، فقتل من الفريقين جماعة. ثم التقوا من الغد. فانهزمت المغاربة، ورجع محمد بن تكين فنزل دار الإمارة.

وأقبل أحمد بن كيغلغ إلى مصر، وأتت المغاربة إلى الجيزة، فنزلوا بولاق. وعقد محمد بن تكين لحبكويه وأحمد بن بدر السميساطى على ألف من الجند في طلب المغاربة حيث كانوا. فالتقوا في شرقيون في بلقينة يوم السبت لتسع بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين، فاقتتلوا قتالاً شديداً. فانهزم حبكويه وأحمد بن بدر وأصحابهما، واتبعهم المغاربة، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً. ثم عدى المغاربة النيل، فصاروا إلى بلبيس. فعسكر محمد بن تكين بباب المدينة. ولحق بجكم بالمغاربة، فجعل محمد بن تكين على الشرط الحسين بن على بن معقل. وأقبل أحمد بن كيغلغ فنزل المنية يوم الخميس لثلاث خلون من رجب سنة اثنتين وعشرين وثلاث

مترجيين ولا يكون من يخوفهم واقيم لهم شجرة السلامة ولا يهلكو من على الارض. فعل الله لاهل مصر هذا الفعل فى اخر الايام ايام جعفر المتوكل وكذلك فعل فى المدينة العظمى حتى اطمان كلمن كان بها وحولها.

وكان بحر [ترعة] اسكندرية قد نشف ولم يكن فيه ما [ماء] وكان اهلها فى ضيق عظيم لاجل ذلك، ولا يصل اليها مركبا الا فى ايام النيل

مصدر مضايقات مستمرة، وتحرشات دائمة مع الروم، وتعديات لم تتوقف عن حدود معينة خاصة منذ أن أسسوا مملكتهم، وراحوا يعملون على بنائها وترسيخها حتى أصبحت فى القرن التاسع قوة ضاربة، تمتد على طول ضفاف الدانوب حتى جبال البندوس Pindos الواقعة بين اقليم تساليا واقليم ابيروس فى شمال اليونان، كما ضمت اليها بولندا ومورافيا، وبذلك تم لهم السيطرة على البلقان. وفى عام ٨٩٣م تولى ملك بلغارى قوى اسمه سميون Simeon كان قد نشأ وتربى

مئة. فانضمت إليه المغاربة، ولحق به كثيرن من أصحاب محمد بن تكين فأمنهم. ومضى محمد بن تكين فى النيل وترك عسكره فأصبح أصحابه وهم لا يحسونه، فلحقوا كلهم بأحمد بن كيغلغ. ودخل أحمد بن كيغلغ الفسطاط يوم الأحد لست خلون من رجب سنة اثنين وعشرين وثلاث مئة. فصرف ابن معقل عن الشرط، ورد بجكم الأعور. وكان مقام محمد بن تكين بالفسطاط مئة يوم واثنى عشر يوماً.

١٢٣ - احمد بن كيغلغ [الثالثة]

ثم وردت الأخبار بخلع القاهر بالله، وولاية أبى العباس الراضى بن المقتدر. فعاد محمد بن تكين، فالقى إلى الناس أن أمير المؤمنين الراضى بالله ولاه مصر. فأقبل فى جمع معه، فخرج إليه حبشى بن أحمد فى المغاربة. فالتقوا فيما بين فاقوس وبلبيس، بموضع يقال له الطواحين، فاقتتلوا، فانهزم محمد بن تكين، وأسر وبعث به إلى الفسطاط، فاخرج إلى الصعيد.

وخرج بجكم إلى الحج، فجعل مكانه على الشرط محمد بن زياد، الذى يقال له كوجك. ثم عزل سلخ ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين، فجعل على الشرط محمد بن عيسى النوشرى.

ووردت الأخبار بمسير محمد بن طغج إلى مصر، وأن الراضى بالله عقد له على ولايتها. فبعث أحمد بن كيغلغ بحبشى بن أحمد فى المغاربة إلى الفرما، ليمنع محمد بن طغج من

[الفيضان]، فلما علم بذلك الملك جعفر المتوكل امر بحفر البحر المذكور من اوله الى داخل المدينة، فامتلا ما [ماءً] لان البحر النيل اليه يجرى، فصارت المراكب الكبار تدخل اليها حتى انها ترسي بالمراسي في وسط البلد، واصلحت له قناطر اذا هو امتلى فخرج منها الى البحر المالح [البحر المتوسط]. فتنيحت نفوس اهل اسكندرية ومن يصل اليها من الغربا، وكثرت المراكب والتجار فيها. وزرعت الناس الكروم والبساتين على الخليج

في القسطنطينية عندما سلمه أبوه للقصر الامبراطوري كرهينة، فهام بها حبا بعد أن خلبته ثقافتها وفنونها، وتمنى لويجلس يوما على عرشها. من ثم راح يبحث عن مبرر يدفعه للزحف عليها؛ ولقد قدم له ليون هذا المبرر، عندما اتخذ قرارا أحمقا يقضي بنقل التجار البلغار من مقر وكالاتهم في القسطنطينية إلى مدينة نائية هي «سالونيك» المطلة على بحر ايجة في أقصى شمال شرق اليونان . ولقد اتخذ ليون هذا القرار تحت ضغط التجار الروم الذين كانوا يخافون من

المسير. ووقعت الرعية بصاحب الشرط محمد بن عيسى النوشري. فصرفه أحمد بن كيغلغ عن الشرط، وجعل مكانه سعيد بن عثمان غلام الأحول. ثم أقبلت مراكب محمد بن طغج فدخلت تنيس، عليها صاعد ابن كلملم. وسارت مقدمته في البر، ودخل صاعد إلى دمياط. وعزم أحمد ابن كيغلغ على التسليم إلى محمد بن طغج ، فأبى ذلك محمد بن على الماذرائي، وانتظر ما يأمر به السلطان. وبعث بحبشي ليمانعه. وبعث بعلى بن بدر في المراكب، فلقى صاعد بن كلملم ببوش، من أرض سمنود على بحيرة ترسا، فاقتتلوا. فانهزم على بن بدر، وذلك لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ثلاث وعشرين. وأقبل صاعد في مراكبه إلى الفسطاط، فكان في جزيرة راشدة وبالجزيرة. ثم مضى منحدراً في النيل إلى أسفل الأرض، ليلة الثلاثاء سلخ شعبان. وأقبل محمد بن طغج، فعسكر أحمد بن كيغلغ للنصف من شهر رمضان. فخرج إلى محمد بن طغج كثير من الجند مستأمنين. وعاد صاعد بن كلملم، فنزل الجزيرة يوم الأحد لعشر بقين من شهر رمضان. ولحق سعيد بن عثمان صاحب الشرط بمحمد بن طغج، فجعل بجكم مكانه. والتقى محمد بن طغج وأحمد بن كيغلغ يوم الاربعاء لسبع بقين من شهر رمضان. فكف أحمد بن كيغلغ عن القتال، وسلم إلى محمد بن طغج، وتكففا جميعاً. وكره حبشي والمغاربة جميعاً المقام مع محمد بن طغج، فركبوا طريق الشرقية، ومعهم بجكم وعلى بن بدر ونظيف الموسوى وعلى المغربى.

لكثرة الما وفى داخل مساكنهم كمثل خارج المدينة، لان ارضها ارض جيدة مقدسة تاتى بالثمار. وعمر الناس الادر فى الخراب حتى انهم وصلو بالبنا الى الموضع الذى يسمى ممطرمور [قسطورين] الموضع الذى فيه قلاية الاب البطرك. وكانو يمجدوا الله على ما راوه من النعم التى كانت عليهم ويدعو للملك جعفر المتوكل.

وكان الاب البطرك انبا قزما ساكنا فى البلد المعروفة بدميره بهدو وسلامة طول الايام والاراخنة

منافسة التجار البلغار، ولم يكتف ليون بذلك، بل فرض على التجار البلغار فى سالونيك ضرائب باهظة، ولقد حاول سيمون أن يحل المشكلة سلميا، غير أنه لم يجد استجابة من الامبراطور ليون، عندئذ لجأ الى السلاح من أجل نصرة التجارة البلغار ومن أجل تحقيق أمله الدفين. واندلعت الحرب التى ظلت مشتعلة لمائة عام كانت خلالها كفة البلغار هى الراجحة؛ اذ تمكنوا من الزحف على القسطنطينية وحصارها، وتكبيد القوات المدافعة عنها خسائر فادحة، ولم تستطع جيوش الروم أن تصد

١٢٤ - محمد بن طغج
الثانية

ثم وليها محمد بن طغج الثانية، من قبل الراضى بالله، على صلاتها وخراجها؛ دخلها يوم الخميس لست بقين من رمضان سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة [٩٣٥م] وجعل على شرطه سعيد بن عثمان.

ولحق بحبشى وأصحابه بالفيوم، فخرج إليهم صاعد بن كلملم فى مراكبه يوم السبت لثلاث خلون من شوال سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة.

ثم قدم أبو الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن فرات مكشفاً، وقدم باخلع، فخلعت على محمد بن طغج.

ودخل صاعد [بن] كلملم فى مراكبه إلى المنهى ثم صار إلى الفيوم. فاقتتل مع حبشى، فكان بينهم قتلى. ثم ظفر حبشى بصاعد، فأسره وقتله وقتل أصحابه، وذلك لتسع بقين من شوال. ثم مضى حبشى من الفيوم إلى الإسكندرية فى جيشه، وسار على بن بدر وبجكم فى المراكب التى كانت لصاعد. فصبحوا الفسطاط أول يوم من ذى القعدة سنة ثلاث. فأرسوا بجزيرة الصناعة [الروضه] فشعثوها، ثم مضوا إلى جزيرة راشدة. وركب محمد بن طغج فى جيشه، فوقف بحيالهم. ثم انحدروا إلى الإسكندرية آخر النهار. ولقوا حبشياً. وأجمعوا على

٥٤: انبا قزما البطرك ٨٥١/٨٥٩م

تقدم البلغار بسبب انشغالها بصد الفتوحات البحرية للاغالبة. وانتهت المرحلة الأولى من حرب «المائة عام» سنة ٩٠٤م بعقد هدنة كانت في صالح البلغار، فمقابل انسحابهم من حول أسوار القسطنطينية، تنازل ليون الحكيم عن جزء كبير من ألبانيا ومقدونيا، ترضية لهم، ولأنه كان يعتقد خطأ أن توسع البلغار أكثر من اللازم سوف يشتت قوتهم ويضعفهم؛ غير أن البلغار كانوا عازمين على أن تصبح مملكتهم القوة القابضة على البلقان، وبالرغم من أن هذه الحملة تركت معظم اراضي الامبراطورية دون

بمصر كانو يتولو اموره وتحملو اثقاله ولا يدعوه يحتاج الى احد من الناس ولا الى ما يقوم بحاله وقلايته واولاده وغلمانه، ثم حلت هذه النعمة العظيمة في اخر ايامه عند انقضا مدته، وعادو النصارى الذى كانو بعدو عن مصر اليها لما سمعو بالنعم الذى اسبغت عليهم. واستقامت امور النصارى.

وفي ذلك الزمان وصل الى مصر ناظر يدعى سليمان، وعند وصوله توفا [توفي] مقاره احد

اللحاق ببرقة. فساروا إليها ، وكتبوا إلى صاحب إفريقية يستأذنونه في الدخول في عمله، ويسألونه أن يبعث إليهم بجيش يأخذون به مصر، فإنهم يعلمون وجوه الحرب وكيف الوصول إليها. فبينا هم في ذلك، توفي حبشي بن أحمد بالرمادة في صفر سنة أربع وعشرين. وبعث إليهم صاحب إفريقية بجيش أمرهم بالسير معهم إلى مصر. وبلغ ذلك محمد بن طغج فأمر بإخراج العساكر إلى الإسكندرية والصعيد، وذلك في ربيع الأول سنة أربع وعشرين. وسار بجكم على مقدمة أهل المغرب، فدخل الإسكندرية في ربيع الآخر سنة أربع. وبعث الأمير محمد بن طغج بأخيه الحسن وصالح بن نافع في الجيوش [إلى] الإسكندرية لثمان بقين من ربيع الآخر سنة أربع. فالتقوا مع أهل المغرب، وعليهم رجل يقال له يعيش من كتامة، وآخر يقال له أبو تازرت كتامي. فالتقوا فيما بين تروجة وأبلوق [كفر سليم مركز كفر الدوار] لخمس خلون من جمادى الأول. فانهزمت المغاربة، وقتلوا قتلاً ذريعاً، وأسر منهم جمع كبير من وجوههم، وقتل أميرهم يعيش. ودخل الحسن بن طغج وصالح بن نافع الإسكندرية، فقتلوا من بها منهم. ولحق بجكم ومن معه ببرقة، وسكنوا رمادة، وهو في سلطان صاحب إفريقية. ثم قفل الجيش مع الحسن بن طغج وصالح بن نافع، فنزلوا الجيزة ومعهم الأسارى في جمادى الأولى سنة أربع وعشرين. فطيف بالأسارى أول يوم من جمادى الآخرة، وهم مئة رجل وأربعة رجال، وبأربعة آخرين من وجوههم، قد أفردوا عن أولئك، فيهم رئيس لهم يقال له عامر المجنون، فسجنوا ولم يقتلوا.

الارخنين، فاما ابرهيم فكان مقيما على فعل الخير لم يفتر عنه ويهتم بامور البيعة ويحمل امور الاب البطرك، وكذلك يفعل مع اساقفه ارض مصر والديارات، وكان يبذل نفسه عنهم فى اسبابهم ويقضى حوايجهم لعظم محبته للمسيح ومكانه [مكانته] عند الولاة. وعلم انه لابد ان ينزل العدو البلايا على البيع كعادته ان يفعل فى كل زمان ووقت، والرب يسوع المسيح الرووف الذى لا يحزن احد الا بقدر طاقته وما يقدر أن يحمله كما

مساس تقريبا، الا أنها حققت للبلغار السيادة المطلقة على البلقان استمرت حتى مطلع القرن الحادى عشر. كل ذلك بسبب قرار أرعن اتخذه ليون دون تفكير أو ترو.

وفى عام ٩٠٧ عاد الروس الى الاغارة على حدود الامبراطورية طمعا فى مزيد من الاسلاب والغنائم، ووصلوا فى هذا الزحف الى مشارف القسطنطينية، بل علقوا دروعهم على أسوارها؛ واشترطوا على الروم أن يكون انسحابهم منها مقابل منحهم حق الافضلية فى التجارة معها؛ ولقد ظل الروس أيضا أعداء خطرين على

وخرج الفضل بن جعفر بن فرات إلى الشام لليلة خلت من جمادى الآخرة. ثم قدم الفسطاط يوم الخميس لخمس بقين من المحرم سنة سبع وعشرين. ثم خرج من مصر أيضاً يوم الخميس لثمان خلون من ربيع الأول سنة سبع وعشرين وثلاث مئة . ثم توفى بالرملة يوم الأحد لثمان خلون من جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وثلاث مئة.

وورد الكتاب بالزيادة فى اسم الأمير محمد بن طغج، فلقب بالإخشيد، ودعى له بذلك على المنبر فى شهر رمضان سنة سبع وعشرين وثلاث مئة.

ووردت الأخبار بمسير محمد بن رائق إلى الشامات. ففرض محمد بن طغج الفروض، وبعث بمراكبه إلى الشام، وأطلق عامرا المجنون مع الطائفة الأسارى الذين أسروا يوم أبلوق، وذلك فى ذى القعدة سنة سبع. وبعث محمد بن طغج بعمران بن فارس إلى الشام فى جيش. ثم أتى الخبر بدخول محمد بن رائق إلى دمشق، وأن عبيد الله بن طغج سار إلى الرملة، فسلمت إليه فى ذى القعدة.

وعسكر الأمير محمد سلخ ذى الحجة، ثم سار إلى الشام فى المحرم سنة ثمان وعشرين، واستخلف أخاه الحسن عليها. ونزل الأمير الفرما، فأتاه الحسن ابن طاهر بن يحيى العلوى يسأله الصلح. فبعث بعلى بن محمد بن كلا ليوافق محمد بن رائق على ذلك. ثم تم بينهما

الامبراطورية حتى عام ٩٨٨ ميلادية عندما قرر فلاديمير Vladimir دوق كيف Kiev أن يعتنق المسيحية الارثوذوكسية، وأصر على الزواج من شقيقة الامبراطور باسيليوس الثاني، ومنذ هذه اللحظة تحول الروس من أعداء للامبراطورية الرومية الى أصدقاء وحلفاء لها.

سياسته ازاء الدويلات الاسلامية:

أما بالنسبة لسياسة ليون ازاء الدويلات الاسلامية، فلم تخرج عن سياسة أبيه، وهي محاولة وقف التعاظم البحرى الاسلامى فى البحر المتوسط فى القرن التاسع، فمن

قال الرسول بولس اراد الله ان ياخذ الاب قزما اليه ويريحه من هذا العالم الزايل وينقله الى مساكن الابرار، فتنيح واسلم روحه بيد الخالق تحت هدو وسلامة. ومدة مقامه على الكرسى الانجيلى سبع سنين وخمسة اشهر. وكان هذا الاب لما مرض المرضة التى تنيح فيها مضى الى ناحية من اعمال اسفل الارض [الوجه البحرى] وبنا بها بيعة، وكانت هذه الناحية من كرسي سخا واسمها دنوشر والبيعة على اسم القديس الشهيد

الصلح على أن يسلم ابن رائق الرملة ويخرج عنها. وقدم الأمير محمد بن طغج من الفرما إلى الفسطاط يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ثمان وعشرين.

وقدم بجكم الأعور وعلي المغربى من برقة مستأمنين إلى الأمير، فأمنهما.

وتوفي سعيد بن عثمان صاحب الشرط للنصف من صفر سنة ثمان وعشرين، فقام غلامه بدر مقامه إلى تسع بقين من جمادى الأولى، فصرف وجعل مكانه شادن مولى الفضل بن جعفر بن فرات. ثم صرف لست خلون من شعبان سنة ثمان وعشرين، وجعل مكانه على بن سبك.

وأقبل محمد بن رائق من دمشق في شعبان سنة ثمان. فبعث الأمير بالجيوش إلى الرملة. ثم خرج الأمير محمد بن طغج متوجها إلى الشام، فعسكر يوم الاربعاء لست عشرة خلت من شعبان، وسار يريد الرملة. فالتقى مع محمد بن رائق يوم الاربعاء للنصف من شهر رمضان بالعريش. فكانت بينهما وقعة عظيمة. واضطربت ميسرة محمد بن طغج، وانهزم من فيها. ثم كر عليهم محمد بن طغج بنفسه وطائفة من أصحابه وغلمانه. فهزمهم وأسر كثيراً منهم، وأثخنهم قتلاً وأسراً. ومضى ابن رائق منهزماً. وتبعه الأمير محمد بن طغج إلى الرملة فدخلها، وأتي بالأسرى إلى الفسطاط، فطيف بهم وهم نحو من خمس مئة رجل لليلتين خلتا من شوال.

ابطلماوس، فاقام بها منفردا ليكمل عمارتها فاشتد به الوجع فعاد الى المكان الذى كان ياوى فيه بدنوشر وتنيح فيه في اليوم الحادى والعشرين من هتور مسا [ء] في سنة خمس وسبعين وخمس ماية للشهدا الابرار، وجعل جسده في البيعة الذى بناها، ونال الاكليل مع اباية القديسين الابا الاطهار في كورة الاحيا، والمجد للاب والابن والروح القدس الاله الواحد الان وكل اوان والى ابد الابدين [بقولنا اجمعين امين.. امين.. امين.. كيرياليصون.

كريت شن الربض حملات هاجموا فيها السواحل المطلة على البحر المتوسط، مثل طرسوس وطرابلس، وجزر الارخبيل اليوناني. ولهذا بدأ يدعم البحرية الرومية بالسفن، وجعل لها ثلاثة أساطيل. غير أنه فشل في اخراج الربض، [وهم الاندلسيون الذين طردوا من الاسكندرية بعد أن احتلوها حوالى ١٢ سنة على يد عبدالله ابن طاهر عامل الخليفة المأمون في مايو ٨٢٧م فاستقرا في كريت] من كريت عام ٩١٠ ميلادية، وبالرغم من دعمه للبحرية الرومية،

وسار الحسين بن طغج [و] يكنى أبا نصر من الرملة، فكان باللجون [بوادى الاردن] فسرى عليه محمد بن رائق، فقتل أبا نصر الحسين بن طغج يوم الثلاثاء لإحدى عشرة خلت من ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وثلاث مئة. ثم تداعى محمد بن طغج ومحمد بن رائق إلى الصلح أيضاً فمضى ابن رائق إلى دمشق على صلح.

وقدم الأمير محمد بن طغج إلى الفسطاط يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم سنة تسع وعشرين. فصرف على بن سبك عن الشرط لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وعشرين، وولى مكانه الحسين بن على بن معقل. ثم صرفه للنصف من رجب وجعل مكانه ينال الحباكى عن الشرط، ورد إليها على بن سبك ولايته الثانية يوم الاثنين لأربع خلون من ذى الحجة سنة تسع. وورد الخبر بمقتل محمد ابن رائق بالموصل، قتله بنو حمدان في [شعبان] سنة ثلاثين وثلاث مئة. فبعث الأمير محمد بن طغج بجيوشه إلى الشام مع على بن محمد بن كلا. وصرف على بن سبك عن الشرط، وجعل مكانه أحمد بن موسى بن زغلمان لمستهل رمضان سنة ثلاثين.

ثم عسكر الأمير محمد بن طغج، وأجمع على الخروج إلى الشام. ثم سار لست خلون من شوال سنة ثلاثين، واستخلف على الفسطاط أخاه أبا المظفر. وخلا الفسطاط من الجند فخرج محمد بن يحيى [بن محمد] بن أحمد بن عبدالله بن موسى بن على بن أبى طالب، الذى

السيرة الثانية والعشرين من سير البيعة المقدسة شنوده البطرك (ابونا سانوتيوس)

الذى كان اقنوما وهو من عدد الابا الخامس والخمسون

[٨٥٩/٨٨٠م]

نبتدى الان يا اخوتى المومنين بالمسيح، ونذكر ما جرى بعد نياحة الاب القديس انبا قزما لتكون ربحا ورجا لنفوس المومنين. لما تنيح الاب انبا قزما اجتمع الابا الاساقفة والشعب الارتدكسى بمدينة

استمرت البحرية الاسلامية تضيف لنفسها فى كل يوم فتوحات جديدة فى الجزء الاوسط من البحر المتوسط، فقد سقطت أغلب أجزاء صقلية فى أيدى الاغالبة، الذين استعاضوا عن فقدان تارنتوم باحتلال ريجيوم Rhe-gium عند الطرف الجنوبى الغربى لايطاليا، المواجه للركن الشمالى الشرقى لصقلية، وبذلك أصبح الاغالبة يتحكمون فى مضيق ميسانا Messana الاستراتيجى، الذى يفصل بين صقلية وشبه الجزيرة الايطالية، وأعلن أمير الاغالبة فى القيروان، أنه سوف يستمر فى ريجيوم حتى يستولى

يقال له ابن السراج ، فمضى إلى الصعيد. فخرج بشرونة، وصار إلى غربى النيل ، فنهب سمسطا [تابعة للبهنسا، وذلك فى ذى القعدة سنة ثلاثين. ومضى على وجهه فلحق طريق المغرب، فصار إلى سلطان صاحب إفريقية.

وصرف أحمد بن موسى بن زغلمان عن الشرط، وقدم محمود بن داود، رجل من أصحاب ابن رائق، فتسلم الشرط يوم الثلاثاء لثمان خلون من جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين [وثلاث مئة]. ثم قدم الأمير محمد بن طغج، ونزل البستان يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وثلاث مئة. وتوفى محمد بن داود يوم الاربعاء لست بقين من جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين، فجعل مكانه على الشرط مظفر بن العباس الجيشانى. ووردت الأخبار بمسير المتقى لله إلى الشامات، ومعه بنو حمدان. فأمر الأمير بمضربه، فأخرج لثمان خلون من رجب سنة اثنتين وثلاثين، واستخلف أخاه الحسن بن طغج على الفسطاط. ومضى محمد بن طغج إلى الرقة، فلقى المتقى لله، وأقام فى عسكره. ثم رجع إلى مصر، فنزل البستان يوم الخميس سلخ ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة. ودخل داره يوم الاثنين لأربع خلون من جمادى الأولى. وأتى الخبر [بسمل] المتقى وخلعه، وبيعة عبدالله بن المكتفى، وسمى المستكفى، يوم الجمعة لسبع خلون من جمادى الآخرة، فأقره عليها.

اسكندرية فى شهر كيهك سنة خمس وسبعين وخمس ماية للشهدا الاطهار، وبدو ان يفكرو فيمن يصلح لهذه الرتبة وان يكون مستحق الجلوس على الكرسى الرسولى، وكانو الاساقفة يتخيرو وهم لا يشاور الكهنة ولا الاراخنة بمدينة اسكندرية ومصر، وكذلك كانو الكهنة والاراخنة لا يشاركو الاساقفة. ولم يعلمو ان الذى قدمه الرب قد اختاره وعرفه كما هو مكتوب: ان الرب عارف افكار الحكما انه [انها] باطلة.

على ايطاليا وبالذات مدينة روما. فقد كان الاغالبة يعتقدون أن الطريق الى القسطنطينية تمر عبر روما. ولم يستطع ليون الحكيم أن يفعل شيئا، لأنه كان متورطا حتى أذنيه فى مستنقع الحرب مع البلغار فى البلقان، كما عجزت الامبراطورية الرومانية الغربية هى الأخرى أن تفعل شيئا، لأنها كانت تعانى من التفكك الداخلى، ومن غارات التوردين عليها. ووسط هذه الأنواء مات ليون الحكيم عام ٩١٢م تاركا ابنا صغيرا اسمه قسطنطين.

وبعث الأمير بفاتك وكافور غلاميه فى الجيوش إلى الشام. وقدمت وفاة عبيدالله بن طغج من الرملة فى جمادى الآخرة. وخرج محمد بن طغج إلى الشام يوم السبت لخمس خلون من شعبان سنة ثلاث وثلاثين [وثلاث مئة]، واستخلف أخاه الحسن عليها. والتقى أصحاب الأمير محمد بن طغج مع على بن [عبدالله بن] حمدان أبن حمدان، والأمير مقيم فى (اللد) من أرض فلسطين. وصرف المظفر بن العباس عن الشرط يوم الاثنين لست بقين من ذى القعدة سنة ثلاث وثلاثين، وجعل مكانه لؤلؤ الغورى. ثم سار الأمير، فلقى على بن حمدان بأرض حمص، فاقتتلوا. ومضى محمد بن طغج إلى حلب فدخلها.

وخلع ا لمستكفى، ودعى للمطيع لله بمصر، وهو الفضل بن جعفر المقتدر بالله، ويوم الجمعة لثلاث خلون من شوال سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة [٩٤٥م].

وصرف لؤلؤا الغورى عن الشرط للنصف من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين، وجعل مكانه على بن سبك بولايته الثالثة. وعاد الأمير إلى دمشق، فأقام بها. وتوفى الأمير محمد بن طغج بدمشق لثمان بقين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة.وورد الخبر بوفاته إلى الفسطاط يوم الاثنين لليلتين خلتا من المحرم سنة خمس وثلاثين وثلاث مئة.

إلى هنا انتهى ما كتبه أبو عمر، وأخرسته المنية قبل إكماله. قال ذلك ابن زولاق فى أول كتابه «أخبار قضاة مصر». وما بعد ذلك ليس من كلام أبى عمر.

الامبـراطور قنسطنطين السـابع تحت الوصاية ٩١٢.٩٤٤:

يوم مات أبوه، لم يكن قسطنطين السـابع قـد تجاوز السابعة من عـمره بعـد، وأزيحت الامـبـراطورة الأم عن مسرح الاحداث، وبالرغم من أنه كان من المفـروض أن تعين وصـيـة على الامبراطور الطفل طبقا للتقاليد المتبعة، وجـريا على عـادة من سـبـقـهـا، لكن اصرار الكنيسة على موقفها منها، كان السـبب في ابعـادها عن هذا الحق، وعوضا عن وصايتها تشكل مجلس

فلما طال ذلك عليهم اجتمعو الاساقفة وشعب اسكندريه وسارو الى مصر ليجتمعو بها ويكون رايهم راى واحد. فلما حضرو بدو يذكرو اسما جماعة من الكهنة والرهبان والعلمانيين الذين يشهد لهم بعفة اللسان والطهارة والعلم ومعرفة الكتب الالهية [فكانوا] مختلفين القول، كل انسان منهم له هوا فيمن يعرفه فيشهد الحاضرين بما علموه، وكانو يقولو القول الذى كان فى بنى

---

١٢٥ - ابو القاسم انو جور بن الاخشيد

ثم وليها أبو القاسم أنو جور بن الإخشيد، باستخلاف أبيه الإخشيد عليها، يوم ورد الخبر بموت أبيه، وكان أبو المظفر الحسن بن طغج بمصر. وقبض على أبى بكر محمد بن على بن مقاتل يوم الثالث من المحرم سنة خمس وثلاثين [وثلاث مئة ٩٤٦م]، وجعل مكانه [على الخراج] أبا بكر محمد بن على بن أحمد الماذرائى. وراح الأمير أبو القاسم أنوجور إلى الجامع يوم الجمعة ثالث عشر المحرم، ودعى له فيه وحده.

وقدم الحاج يوم الاربعاء خامس وعشرين المحرم. ثم كان النيروز للقبط، موافقاً ليوم السبت ثامن وعشرين المحرم، فمنع الناس من صب الماء. وقدم العسكر يوم الثلاثاء أول صفر سنة خمس وثلاثين، وخلع يوم الاربعاء على أبى على الحسين بن محمد بن على الماذرائى. وخرج أبو المظفر إلى المضرب يوم الأحد رابع عشر ربيع الأول. وكان الارتفاع من المشرق كد والطالع العقرب. فأقام فيه أياماً، ثم رحل والعسكر معه يوم الثلاثاء حادى وعشرين شهر ربيع الأول. وكان مقام العسكر بمصر شهراً واحداً وأحداً وعشرين يوماً. وقرئ يوم الجمعة أول ربيع الآخر على منبر الجامع كتاب من المطيع لله إلى الأمير أبى القاسم أنوجور يعزيه فيه عن الإخشيد.

وقدم محمد بن يحيى بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن موسى بن عبدالله ابن على بن

اسراييل: ليس لنا نصيب في داود ولا ميراث في بيت يسا. ولم يزالو في هذه الافكار كل واحد يرد على صاحبه. وكان ذلك الوقت في بيعة القديس ابو مقار اقنوم اسمه شنوده [ابن الله] الذى قد كنا ذكرنا فضايله وبناوه البيعة الذى بدير ابو مقار وغيرها من البيع، وكان هذا في ذلك الوقت قد دخل الى ابراهيم الارخن بسبب خراج اواسى البيعة، فلما راوه الابا الاساقفة والشعب الارتدكسى واراخنة اسكندريه فرحو به فرحا شديدا ليشاركهم

من كبار رجال البلاط ضم شخصيتين كبيرتين: هما الاسكندر شقيق الامبراطور الراحل ليون الحكيم، وعم الامبراطور القاصر؛ والشخصية الثانية هي رجل البلاط القوى رومانوس ليكابينوس Romanus Lecapinus . ولم يلبث الاسكندر عم الامبراطور أن مات بعد عام واحد أى في عام ٩١٣م. وعلى أثر ذلك عمت الفوضى في البلاد بسبب انقسام مجلس الوصاية على نفسه . وهنا علا نجم رومانوس ليكابينوس، فطهر مجلس

أبي طالب، المعروف بالسراج، من المغرب يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الآخر سنة خمس وثلاثين فأخبر [به أنوجور] ، وتقدم إليه بالخروج واللحاق بالعسكر، فخرج بعد أيام، وتوفى بالرملة.

وكان والي الريف بالأشمونين غلبون. فتظلم التجار منه، وأذاعوا أنه يريد أن يثور بها. فتجهز إليه شادن في جماعة من الجند، وكان خروجه يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة سنة خمس. فكبس غلبون لشادن في السحر، فقتل جماعة من أصحابه، وأفلت شادن بنفسه.

وبعثت أسارى ابن حمدان، وزينت الأسواق، وأدخل بالأسارى من المساء يوم الأحد السادس. وخلع على عليّ بن صالح بن نافع. وعرفنا أن الوقعة كانت بينهم يوم الثلاثاء أربع وعشرين جمادى الأولى، وأنه انهزم بين الظهر والعصر من أكسال بنواحي الأردن. ودخل ابن طغج إلى دمشق بعد كسرته لابن حمدان.

ولما عاد شادن إلى الفسطاط بعد كبسة أصحابه وقتلهم، وبعث إليه عسكر كشيف مع الحسين بن لؤلؤ وتكين الخاقانى وغيرهما . وشغب الأجناد في طلب الأرزاق، ثم ساروا إلى غلبون. فخالفهم في الطريق، وجاء إلى الفسطاط، وقاتل من بقى فيها من الغلمان، ودخلها ونزل دار الإمارة. ثم كرت عليه الغلمان والعساكر، فخرج إلى الشرقية. وتجمعت العساكر ولحقته، وكانت بينهم مقتلة شديدة . فقتل غلبون في معركتها، ونصب رأسه بالمصلى لخمس بقين من ذى الحجة سنة ست وثلاثين وثلاث مئة. فطيف بالأسارى، ولم يحج في هذه السنة

الوصاية، وقلل من دوره، حتى كاد وجودة أن يكون معدوما؛ ثم عمل على تهدئة الاوضاع المضطربة في البلاد، بطمئنة الناس أن هناك في القصر رجلا قويا أمينا على مصالح الأمبراطورية والامبراطور. كما نجح في استعادة اديسا Edessa وبعض المناطق الواقعة حولها. وفي اديسا ادعى أنه قد استعاد الايقونة ذات السر الاعجازي، والتي كانت تعرف باسم صورة المسيح «التي لم ترسمها يد انسان»، وقد استبشر الروم بها خيرا، وحملت

في الراى لانه كان فيه روحا مقدسة ويعرفهم من الرجل الذى يصلح لهـــذه الدرجـــة من الابا القديسين، فذكر لهم قوما يعرفهم بالطهارة. ثم ان الارخن ابراهيم قضى حوايج الاقنوم الذى وصل لاجلها وسار وهو مسرعا الى البرية في الليلة السابعة والعشرين من كيهك، وكان قصدا منه ان يلحق [عيد] الميلاد المجيد في بيعته، فلما كان في الغد حضر الجمع الى بيعة القديس ابو سرجه

لاشتغالهم بغلبون.

وقدم كافور من الشام في الجيوش، وجرت وحشة بين الأمير أنوجور وبين كافور، ثم صلح الأمر بينهما. وعزل تكين الخاقاني عن الشرط، وولي نصر العالى وأظهر الظلم والقسوة، وعزل في سنة أربع وأربعين.

وفي سنة سبع وأربعين وثلاث مئة، وقع بين الأمير أنوجور وبين كافور منافرة ووحشة، ثم مضى إليه الأمير وانصلح الحال. وولي الشرطة بدر غلام يأنس في سنة إحدى وخمسين. وتوفي أنوجور بن الإخشيد يوم الأحد لثمان خلون من ذى القعدة سنة تسع وأربعين وثلاث مئة.

١٢٦ - ابو الحسن على بن الاخشيد

أبو الحسن على بن الإخشيد، دعي له يوم الجمعة ثالث عشر ذى القعدة سنة تسع وأربعين وثلاث مئة [٩٦٠م]، والناظر في البلد والمستولي على الدولة كافور، والإمرة لعلى إلى سنة خمس وخمسين. فتوفي لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة خمس وخمسين [وثلاث مئة ٩٦٥م]، وعمره يومئذ ثمان وعشرون سنة ونصف. وحمل في تابوت إلى البيت المقدس، ودفن مع أخيه ووالده بباب الأسباط [وكانت مدة سلطنة على بن الاخشيد المذكور على مصر خمس سنين وشهرين ويومين].

بقصر الشمع لما هم بصدده، فلما اجتمعو ظهرت اية لجميعهم وقالو بكلمة واحدة يحلفون انه ما يستحق هذه الرتبة الا اقنوم بيعة القديس ابو مقار، وقال جميعهم مستحق مستحق مستحق بالحقيقة هذا هو الرجل الذى اصطفاه الله لهذه الدرجة. وللوقت خرجو لطلبه فقال لهم الارخن ابراهيم: يا ابهاتى المباركين اهتدو وارعو، لانهم كانو يطلبوه انه بمصر ولم يعلمو بمسيره وانه سار الى ديره

فى حرص شديد إلى القسطنطينية لتدخلها منتصرة على رأس موكب مهيب، وقيل أن ليكابينوس كان يخفى طمرحا فى نفسه، وهو أن يحول العرش الى اسرته بعد التخلص من الامبراطور.

ولقد كان لرومانوس ليكابينوس ثلاثة أبناء، هم خريستوفوروس Christophoros واسطفان، وقسطنطين، وكان له عدد من البنات اكبرهم هيلانة. وبالرغم من أن رومانوس كان يفكر فى مستقبل

---

١٢٧ - كافور

واستبد كافور بالأمر بعد موت على بن الإخشيد، ودعى باسمه على المنابر فى المحرم سنة خمس وخمسين وثلاث مئة [٩٦٥م]. ووردت رسل المطيع وخلعه وهداياه وطوق وسوار. ورفعت المطارد على رأسه. ووافت رسل صاحب هجر القرمطى إلى كافور، ومعهم نحو المئتى حمل من متاع الحاج الذين قطع عليهم بنو سليم. فأمر برده إلى الحاج وسلم إليهم.

ولما تم لكافور ملك مصر والحرمين، ولبس الخلع ولقب وطوق وسور، لم يعش بعد ذلك سوى مئة يوم، وتوفى كافور فى جمادى [الأولى] سنة سبع وخمسين وثلاث مئة.

١٢٨ - ابو الفوارس احمد بن على بن الإخشيد

وأجمع الرأى بعد وفاته على ولاية أبى الفوارس أحمد بن على بن الإخشيد. فحسنت سيرته، وأمر برفع الكلف والمؤن، وتعطيل المواخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ونقص النيل، وكثر الغلاء فى أيامه واشتد، حتى أكل الناس الجيف والكلاب.

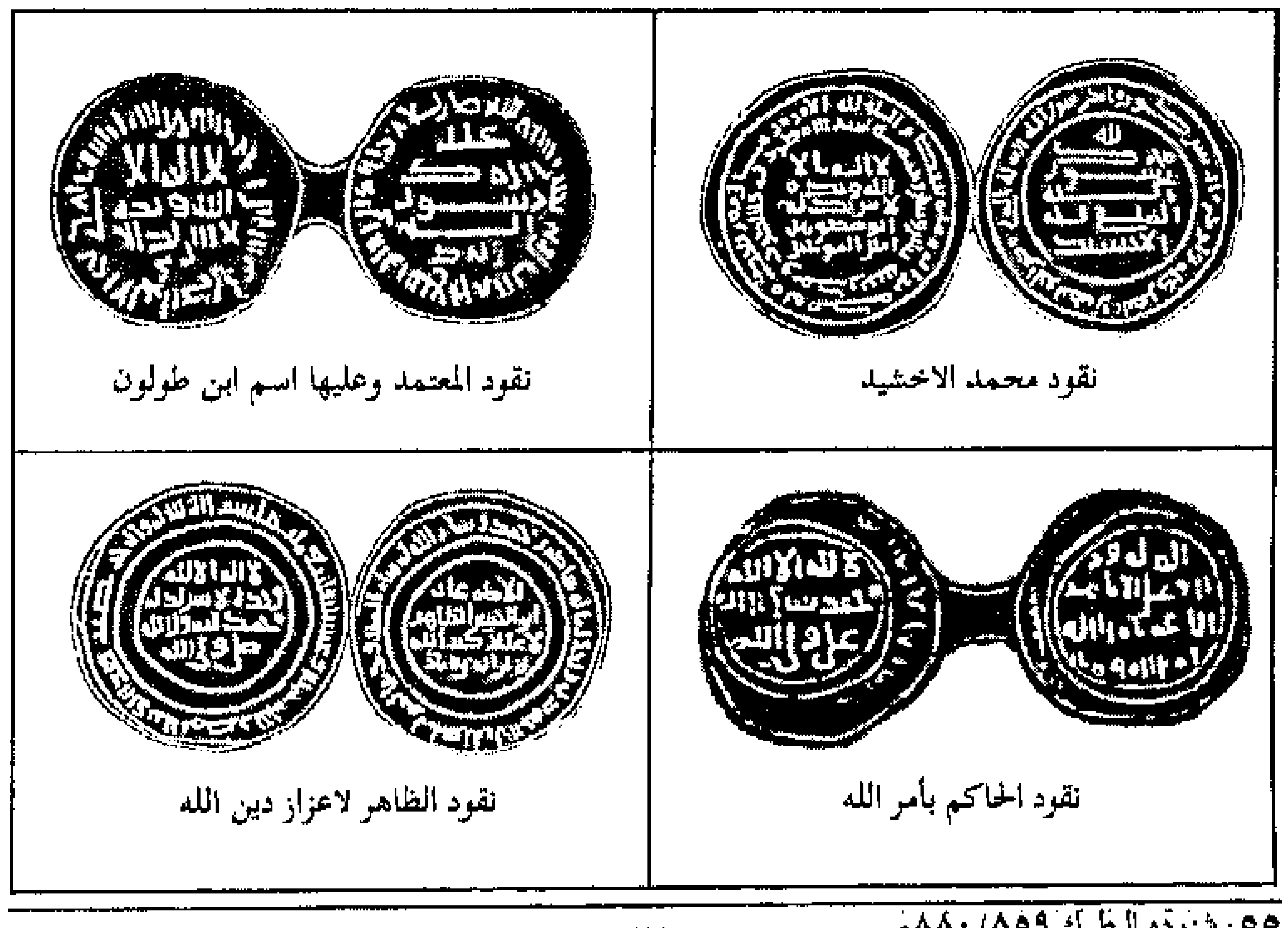
ووافى الخبر من الرملة بأن الحسن بن عبيدالله بن طغج خالف، وأخذ البيعة لنفسه، وقبض على أموال كافور بالرملة. وجاء القائد جوهر إلى الفسطاط، فخرج الناس للقائه فدخل بعد عصر يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة [٩٦٨م].

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

أبنائه، الا أنهم كانوا على علاقة سيئة بأبيهم. وعلى أى حال فقد عمل رومانوس على دعم مركزه رويدا رويدا، لأنه لم يكن متعجلا للاستيلاء على العرش حتى لا يسمونه مغتصبا. ورأى رومانوس أن خير وسيلة للسيطرة على القصر هى ربط هذا الامبراطور القاصر برباط المصاهرة معه، فقد زوجه من ابنته هيلانة. ثم شرع رومانوس فى انجاز عدد من المشروعات الاصلاحية والتنظيمات الادارية، وبالرغم من أنه أصدرها باسم

مسرعا، والان فانا احضره اليكم بحجة كانكم تسالوه عن قوم اخرين قد سهى عنهم. ثم كتب للوقت الى الرجل المستحق النعمة بذلك وانه ما طابت نفوس الاساقفة والشعب المسيحى على رجل من القوم الذين اشار بهم عليهم، فاسرع بمحبته المسيحية وحضر الى مصر فى اول يوم من طوبه ودخل الى كنيسة ابو سرجه وهم مجتمعين فيها، فوافاهم [و] قد بدو فى القداس والجمع يقولو:

وخطب للمعز يوم الجمعة على المنابر بمصر فى السنة. وجاء المعز من المغرب إلى الديار المصرية، فدخل يوم الثلاثاء سادس رمضان سنة اثنتين وستين وثلاث مئة.



نقود محمد الاخشيد

نقود المعتمد وعليها اسم ابن طولون

نقود الحاكم بأمر الله

نقود الظاهر لاعزاز دين الله

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

مستحق مستحق مستحق بالحقيقة، فلما نظروه الجماعة صاح جميعهم بزيادة، مستحق بالحقيقة الذى اصطفاه الرب. ووثبو اليه ومسكوه ورمو فى رجليه قيد حديد، وكان يصرخ ويبكى ويقول: ما هذا الذى تفعلوه امام الرب ظنكم انى مستحق هذه الدرجة لا تظنو هذا ولا تفعلوه. وكان يظن انه يخلص منهم بهذا، وكانت اصواتهم تتزايد وكان الله قد اختاره واراد ان يقدمه راعيا لهذه الامة

قسطنطين السابع زوج ابنته، الا أن الهدف الحقيقى من ورائها كان تعزيز مكانته في قلوب شعوب الامبراطورية. وهكذا ظل الامبراطور قسطنطين السابع يلهو، ويرتع ويتهل من العلم والثقافة، بينما كان الامبراطور الفعلى هو رومانوس ليكابينوس، حتى أن بعض المؤرخين يخطئون ويدرجون اسمه بين قائمة الاباطرة. وظل على ذلك الحال لمدة واحد وثلاثين عاما.

حوليات تاريخية من ٢٥٨هـ = ٨٧١م إلى ٥٠٠هـ = ١١٠٦م

سنة ٢٥٨ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ١٨ نوفمبر ٨٧١م

* استولى الحسن الزيدى على جُرْجان وهزم قائد الخليفة موسى بن بُغَار الذى خرج لرده.

* ولد فى هذه السنة وزيران هما: الوزير العباسى الأديب القاسم بن عُبيد الله وهو الذى عقد البيعة للمكتفى بعد ذلك، والوزير المصرى أبو بكر المَاذَرَائى تولى الوزارة ابان حكم الأخشيد.

* ولد فى هذه السنة من رجال العلم: الفقيه الشافعى أبو بكر الصبغى ولد بنيّسابور، وفيها ولد الفقيه الحنفى أبو محمد عبدالله الكَلاَبَاذى ولد بنواحى بخارى، وفيها ولد عالم اللغة عبدالله بن دُرُسْتَويه وهو فارسى الأصل عاش ببغداد.

* توفى فى هذه السنة شيخ خراسان أبو عبدالله الذُهْلى عن ست وثمانين وهو ممن روى عنهم البخارى.

الضعيفة. وفرح الاساقفة وجميع من فى البيعة وقالو: مبارك الاتى باسم الرب ضو [ضوء] الرب اشرق علينا. ثم حملوه سرعة الى اسكندريه ليكرز هناك، فلما وصلو الى قريب المدينة فخرج اليهم خلق عظيم فاستقبلوه ودخلو به بمجد وكرامة، وكان يصحبه شيوخ رهبان من وادى هبيب لكثرة اماناتهم فيه، وذلك فى اليوم الحادى عشر من طوبه. وكان يوم فيه مطر عظيم، فبارك الرب

سقوط رومانوس وتسلم قنسطنطين السابع العرش ٩٤٤م:

ازدادات علاقة رومانوس ليكابينوس سوءا مع أبنائه، حتى أنهم وشوا به عند الامبراطور الذى أمر بنفيه الى احدى الجزر القريبة من القسطنطينية عام ٩٤٤م، وبقى فيها منفيا حتى موته عام ٩٤٨م. ولما حاول أبناؤه أن يكملوا لعبة أبيهم ألقى القبض عليهم، وأرسلوا الى نفس المنفى، وبذلك هلك أبناء

---

* ممن توفى من رجال العلم: المحدث أحمد بن الفرات الأصبهانى ممن روى عنه أبو داود فى سننه، والمحدث المصرى النشأة أبو عبدالله ابن سَنْجر له العين فى الحديث، وفيها توفى بنيسابور الواعظ الزاهد يحيى أبو مُعَاذ، وفيها توفى المؤرخ أحمد بن الحارث الخَرّاز له أسماء الخلفاء وكتابهم ومغازى البحر فى دولة بنى هاشم، وقاضى الثغور جعفر بن عبدالواحد، وقاضى الأندلس أبو عَمرو الحَضْرَمى.

* وافق هذا التاريخ (٨٧١م) وفاة ملك إنجلترا السكسونى ايثلرد الذى رد الغزو الدنماركى عن إنجلترا.

سنة ٢٥٩ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الجمعة ٧ نوفمبر ٨٧٢م.

* دخل الزَّنْج مدينة الأهواز (رجب) بعد هزيمة عاملها اصعجور ووفاته غرقاً وأسر الحسن بن هرثمة وفى ذى القعدة أنفذ المعتمد قائده موسى بن بُغَار للاشتراك فى حرب الزنج.

* تجددت الحرب بين المسلمين والروم، وكانت القيادة لأحمد القابوسى الذى غلب على الروم عند مَلَطية.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

جميع من في اسكندريه وقالو: حقا ان الله يظهر ثمار كثيره كما في الابركسيس انه فعل خيرا وصلاحا وامطر عليهم مطر الرضا واعطاهم ثمارا. وقدموه بطركا في اليوم الثالث عشر من طوبه سنة خمس وسبعين وخمس ماية للشهدا الاطهار [الاحد ٨ يناير ٨٥٩م]. وكان [الانبا شنوده] من [قرية تعرف] بالبتنون [مركز شبين الكوم] ربوه قوم اخيار مثل طماتاوس، ثم انتقل الى الشيخ

رومانوس ليكابينوس، ولم تبق من ذريته سوى بناته.

وبعد التخلص من ليكابينوس، وجد قسطنطين السابع الذى اشتهر باسم بروفيروجينيتوس Prophyro-gennetos نفسه امبراطورا فعليا وهو فى سن الاربعين، بعد فترة طويلة من العزلة والتعود على الخمول، والتمتع بحياة الأبهة والعظمة وترف القصر. وكان من الصعب عليه أن يترك الحياة التى تعود عليها، كما أنه كان رجل قلم وفكر، لا رجل سيف وحرب،

---

* ولى محمد الأول الأموى أمير الأندلس ابن عَمْروس والياً على أمشقة بعد سنوات من الخلاف، بينما خرج الأمير نفسه إلى طُلَيطلة مرة أخرى بعد أن كان قد أمَّن أهلها فارتدوا إلى الثورة فهزم قائدهم عبدالرحمن بن حبيب.

* فر الثائر العلوى الذى استبد بالصعيد واستولى على اسنا إلى مدينة أسوان منهزماً، وجيش ابن طولون على أثره فواصل الهرب إلى عيذاب ومنها ركب البحر إلى مكة وتفرق أصحابه.

* إستولى يعقوب الصفار على إقليم خراسان بعد أن هزم جيوش الخليفة التى أرسلت لردعه.

سنة ٢٦٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٢٧ أكتوبر ٨٧٣م.

* اتسع نفوذ يعقوب الصفار فبعد أن استولى على نَيْسابور اتجه إلى طَبَرستان وعليها الحسن العلوى الذى انهزم أمامه وأخلى سَارِية وآمُل وغيرها من المدن فدخلها الصفار وجبى خراجها وعاد إلى سِجِستان.

القديس انبا يوساب البطرك الذى حلت عليه روحه من البدى والى الان، كما بدات وذكرت. اسمعو الان يا احباى ما فعله هذا الاب البطرك انبا شنوده عند جلوسه على الكرسى المرقسى، كان كلامه يشبه تواضعه وكانت دموعه فى كل حين قدام كل احد، واذا عزوه فيقول: اذا ما تفكرت فى مجد عروس المسيح الذى هى البيعة وحسنها وعلوها الروحانى، ثم اذكر سوى [حقارتى] انا، فلا اترك

فترك أمور الامبراطورية لزوجته، وانصرف الى التأليف والكتابة، والاهتمام بالتعليم، وتنظيم البلاد، حتى قيل عنه أنه ادرى رجل بواجبات البلاد، والتى شهدت أزهى عصورها فى عهد ذلك الامبراطور.

انتصاره السلمى على ملك البلغار

وفى زحمة الفوضى التى سادت فى مجلس الأوصياء، استغل سيميون Simeon، ملك البلغار الفرصة لتحقيق حلمه الدفين،و هو الاستيلاء على القسطنطينية، فبدأ الزحف

---

* توالت انتصارات ثور الزّنج وفيها قتل عَامل الكوفة على بن يزيد.

* انتهز الامبراطور البيزنطى باسيل الأول أحداث الخلافة الداخلية ووثب على قلعة اللؤلؤة بالقرب من طَرَسُوس.

* شهدت السنة غلاء مفرطاً فى العراق والحجاز بسبب القحط حتى بلغ سعر الأردب أربعة دنانير.

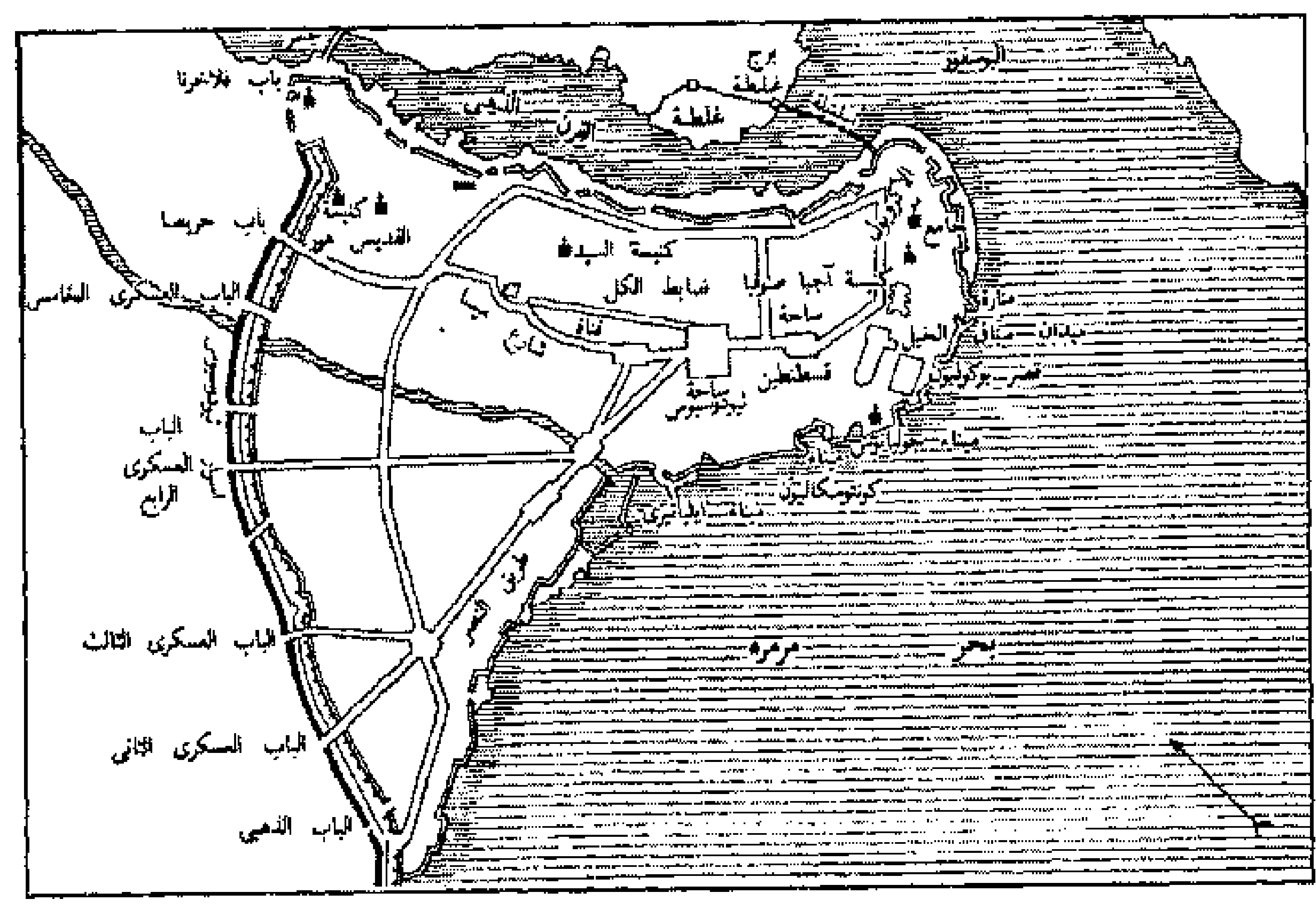
* ثار أهل الموصل على عاملهم التركى اذكوتكين وقاتلوه وأخرجوه ونهبوا داره، كما أغار الأعراب على حِمْص وقتلوا عاملها منّجور التركى وخلفه تركى آخر هو بكتُمر.

* ظهر موسى بن ذى النون بسنت مرية بالأندلس وأغار على طليطلة وغلب على عاملها ابن طريشة.

* ولد فى هذه السنة: بفاراب من نواحى التركستان الفيلسوف الحكيم أبو نصر الفَارَابِى مؤلف المدينة الفاضلة والملقب بالمعلم الثانى.

الحـزن والبكا بيني وبين نفـسي، واقـول من الذى يفكر في هذا هكذى، ومـا الخطيـة التى صنعتـهـا بيعتك اللهم، واى غضب اغضبت سيدها حتى تقدمت عليها انا المرذول الخاطى افتـضـحت بى. واكـثـر من هذا كـان يقـول، وداوم البكا. وكـان كلمن يسـمـعـه يعزيه ويسليـه فـلا يقـدرو. وكـان يقـول: لا تظنو انى ادع هذا البكا عندمـا اتذكـره من اثامى وذنوبى فيتعـجب كل احـد من تواضعـه

نحوها مستوليا في طريقه اليها على اقليم مقدونيا، ثم اقليم تساليا، ثم مـدينة أدرنة عـام ٩١٤م. وعـسكر بجيـوشه على مقـربة من شـمـال القـسطنطينيـة. وحـاول البطريرك نيـقـولاوس التـفـاوض مع البلغـار، واقناعهم بعدم جدوى مهاجـمـة العاصمة. غير أنه لم يجد استجابة منهم، وفي عام ٩٢٤م رمى سيميون بكل قوته لحصار المدينة، ودخولها، واعلان نفسه امبراطورا على بلغاريا الكبـرى بعـد أن تضم ممتكات



خريطة القسطنطينية سنة ١٢٠٤

ونعمة جلوسه الممتلى نعمة وهيبة، واسم المسيح فى فيه يتلوه كل ساعة مثل طفل عينيه الى امه. ولتواضعه لم يكن يعول على شى بل على الاسم المخلص يسوع المسيح وجميع توكله عليه، ويتذكر قول بولس الرسول لليهود فى الابركسيس ويقول: ليس هو اخــر ان يكون الخـلاص به وليس اسم تحت السما اعطى للناس الذى خلاصهم منه الا هو. وجعل الاب انبا شنوده اساسا فى كتبه نجاة

القسطنطينية اليها، واستعداد لهذا الحدث، أعلن سيميون قيام كنيسة بلغارية فى عاصمة مملكته بريسلاف Preslav الواقعة فى وسط سهل بلغاريا. ولم يستطع سيميون احتلال القسطنطينية لمناعتها، ولعدم توفر أسطول بحرى له، ليحكم به قبضته حول المدينة من البحر، فبينما حاصرها من البر شمالا، استمر تموين المدينة من البحر جنوبا. ولما يئس سيميون من طول الحصار، طلب أن يتفاوض مع الامبراطور وجها لوجه، عندئذ أدرك الامبراطور أن الثقافة

سنة ٢٦١ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم السبت ١٦ أكتوبر ٨٧٤م.

* عقد الخليفة المعتمد ولاية العهد لابنه جعفر المفوض كما ولاه بلاد المغرب والشام قد تولى ولاية عهد المفوض أخوه أبو أحمد الموفق واشترط أن تكون ولاية العهد لأخيه إذا توفى (أى الخليفة) وابنه مازال قاصراً.

* تعتبر هذه السنة بداية قيام الدولة السامانية بتولية نَصْر السَامَانى على سَمَرْقند خلفاً لأبيه أحمد بن أسَد بن سامان، فاقره الخليفة المعتمد على إمارة التركستان (ما وراء النهر) وقد دام حكم نصر ١٨ سنة.

* عصى أهل برقة على عاملها ابن الفرج الفَرْغانى نائب أحمد بن طولون أمير مصر فانفذ إليهم غلامه لُؤلؤة على أن يستخدم الرفق أولا ثم السيف حتى استأمنوه فأمنهم وعادوا للطاعة.

* تولى إمارة تونس أبو عقال إبراهيم بن الأغلب وله من العمر أربع وعشرون خلفاً لأخيه أبى الغرانيق.

* عاود أهل الموصل حرب عمال الخليفة الذى كانوا عليها نيابة عن إساتكين التركى فبعد

كل احد باسم السيد يسوع المسيح الاهنا بالحقيقة. وهذا كان رجاه ولهذا كانت اموره قد سهلها من توكل عليه.

ولما فعل هذه السنة فى كتبه اعتمدها الابا الاساقفة ايضا فى كتبهم والاراخنة المومنين والاطفال فى المكاتب، وكتب كتب وصايا فى جميع اعمال البشير مارى مرقس، وتقدم اليهم ان يدعو له ان لا يغلبه الشيطان فيما يفعله فى جميع

والفن يمكن أن تهزم القوة والعنف، فاستقبل الملك البلغارى فى أفخم قصور العاصمة وأكثرها ترفا، وهو قصر البلاخرناى Blachernae. ولقد عرف رجال البلاط نقطة الضعف فى الملك البلغارى، فحرصوا على اغراقه فى حفلات الاستقبال الفاخرة، واستعراض مظاهر الأبهة والفخفخة والترف بشكل بهر الملك البلغارى، فخرج من مفاوضاته مع قسطنطين السابع وهو يسبح بحمد الامبراطور والامبراطورية. ولم يعلن رفع الحصار

أن أخرجوا «اذكوتكين» قاتلوا خليفته الهيثم بن عبدالله وأخرجوه ثم قاتلوا خليفته اسحق بن يوسف وأرجوه.

سنة ٢٦٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ٦ أكتوبر ٨٧٥م.

* في المحرم من السنة سار يعقوب الصَفَّار من فارس يريد العراق بعد أن لعنه الخليفة بسبب نزعته التوسعية فبلغ الأهواز ثم واسط حتى واجهته قوات الخليفة وعلى رأسها أخو أبو أحمد الموفق فكانت الغلبة له فأنسحب الصفار إلى المشرق وكان قد أضمر الاستيلاء على العراق.

* اشتدت الفرقة بين أحمد بن طولون أمير مصر وأبى أحمد الموفق الذى أنفذ إليه جيشاً لاخراجه من مصر بقيادة موسى بن بُغَا ولكنه ارتد بعد أن بلغ الرَّقة.

* سيّر محمد الأول الأموى أمير الأندلس ابنه المُنذر إلى بَطَلْيوس وكان قد استولى عليها ملك جلِّيقية (النافار) فأسرع وأخلاها وتترس بحصن كركر الذى حاصره المنذر وأكثر فيه القتل.

* استولى الزَّنج على البطيحة ونهبوها وعلى رأسهم على بن أبان الذى لم يلبث أن هزمه أحمد بن لَيثويه قائد الخليفة.

امـوره. فـبـهت الناس من هذا الفـعل وفـرح به ملايكة السموات ورب الملايكة فضلا عن الناس الذين تحت سلطانه. وكـان يصلي ويقـول: لا تذكرون نصيب سيمون الساحر الذى كان دفع فضته للحواريون وطلب منهم نعمة روح القدس، فقال هذه المشية للحواريون لا يفعل احد هذا ليلا [لئلا] يسمع الصوت الذى سمعه سيمون: فضتك تكون معك للهلاك لانك ظننت ان تكسب موهبة الله بالمال. ثم كـتب هذا المسـتحق لكل نعـمـة ان

عن عاصمتها فحسب، بل أعلن أن الأنسب هو أن تنضم مملكة البلغار الى الامبراطورية، وليس ضم الامبراطورية الى مملكة البلغـار. وبذلك طويت صفحة من الأطماع والقوة، وتضاءل خطر البلغار على حدود الأمبراطورية، ومن الملاحظ أن تزايد سلطة كتدرائية البلغار في بريسلاف، وتزايد سلطات بطريركـهـا، تزامن مع ضعف ملوك الدولة البلغـارية، وفي نفس الوقت نهضت امبراطورية الروم من كبوتها مرة أخـرى، بعـد أن تخلصت من مشاكلها الداخلية والخارجية. فبعد

سنة ٢٦٣ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٢٤ سبتمبر ٨٧٦م.

* ولي الخليفة العباسي وزارته الحسن بن مَخلد وكان على ديوان الضياع خلفاً لعبيد الله ابن يحيى بن خاقان المتوفي، وقبل نهاية السنة (ذى الحجة) خلفه عليها الوزير سليمان بن وهب.

* ظهر يعقوب الصفار للعام الثاني في العراق واستولى على جُنْدَ نيسَابور ودخل في قتال مع الزّنج في الأهواز.

* بدأ إبراهيم الأغلبي في بناء مدينة رَقّادة في الجنوب من القَيْروان لتكون عاصمة للأغالبة بدلا من العباسة.

* ولي المعتمد أمير مصر أحمد بن طولون إمارة الثغور الشمالية لإخراج الروم من حصن اللؤلؤة الذى سُلم إليهم غدراً، كما قلده خراج مصر وكان في يد أحمد ابن المُدَبر.

* انفذ محمد الأول الأموى ابنه المنذر إلى ما رْدة وجاوزها إلى أرض جُليقية ونشبت بين الفريقين عدة وقائع.

* ولد بالفسطاط المؤرخ المصرى المُسَبِّحِي سعيد بن البَطْرِيق مؤلف التاريخ المعروف باسمه.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

يعتمد كل احد هذا الاساس ليهديهم الى خلاص نفوسهم، ثم ثبت المومنين ان لا يفعلون مكرا ولا دغلا ولا تحيل على هدية بباب من الابواب على شرطونية، ليلا [لئلا] يكونو مثل نصيب حنانيا وصفير زوجته اللذان كذبا روح القدس واماتهما بطرس السليح. فلما سمعو هذا الكلام المملو [المملوء] من نعمة الروح القدس، سمعت النصارى بارض مصر من كتبه الواصلة الى ساير الاساقفة، وكذلك كتبا [كتابه] الى كرسي

موت قسطنطين بروفير وجينيتوس عام ٩٥٩م آل العرش الى عدد من القادة العظام، الذين شاء الحظ أن يواجهوا خطرا جديدا يحدق بالامبراطورية الا وهو خطر السلاجقة الأتراك.

الامبراطور رومانوس الثانى: ٩٥٩-٩٦٣م:

كان رومانوس الثانى آخر أباطرة الشق الأول من البيت المقدونى، اذ أدى ضعفه، وتجمع رفاق السوء من حوله، الى تركه شئون الامبراطورية برمتها الى زوجته الذكية يودوكسيا

---

* توفى ببغداد عن أربع وخمسين الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان استوزره المتوكل والمعتمد لحين وفاته إذ وقع من دابته أثناء لعبه بالصوالج.

سنة ٢٦٤ هجرية

أهل المحرم يوم الجمعة الموافق ١٣ سبتمبر ٨٧٧م:

* سار ابن طولون من مصر لحرب الروم واستخلاص ما استولوا عليه فدخل الشام التى دانت مدنها حتى بلغ الرَّقة ودعي له على منابر الشام وجعل الرقة قاعدة لعمليات الحربية.

* شهدت هذه السنة افتتاح مدينة سَرَقُوسة الحصينة بجزيرة صقلية خرج إليها أحمد بن عبدالله الأغلبى أمير صقلية الجديد وضرب حصاراً حولها دام تسعة أشهر من المحرم إلى أواخر شهر رمضان ثم دهمها بعد أن دك أسوارها ولم ينج من مقاتليها سوى القليل، وانفذ إليها امبراطور بيزنطة باسيل الأول اسطولا فكسره المسلمون واستولوا على أربع من سفنه.

* خرج المُنْذر ابن أمير الأندلس محمد الأول لحرب الصائفة حتى بلغ بنَبْلونة فى أقصى الشمال ثم انحرف إلى سَرَقُسْطة وتُطيلة وخرب حصونها وعاد إلى قرطبة.

* دخل الزنج مدينة واسط فخرج أبو أحمد الموفق لقتالهم ومعه القائد التركى موسى بن بُغَا الذى لم يلبث أن توفى فى الطريق فحمل جثمانه إلى سامراء ودفن بها.

Eudoxia وفى متحف المكتبة الوطنية بـ باريس توجد لوحة منحوتة من العاج تصور المسيح وهو يعلو بقامته متوسطا رومانوس وزوجته يودوكسيا، وقد وضع كلتا يديه على رأسيهما يباركهما؛ وبينما انعزل رومانوس الى رفاقه ولهوه، مارست يودوكسيا مهامها «كامبراطورة على الروم» كما يظهر من النقش المحفور على اللوحة السابقة. ولقد كانت يودوكسيا موفقه فى اختيارها لأصحاب المواهب والكفاءات لمساعدتها فى تسير أمور الامبراطورية، وكان على رأس

انطاكية، وفرحو بهذا التعليم الذى اقلق ابليس وجنوده، وباركو الله طالبين رحمته شاكرين له على اقامته لهم مثل هذا الراعى الصالح الذى اخزى الشيطان بهذه الافعال. وكان يقول امام الرب باكيا: انت قلت فى انجيل لوقا «من منكم يهتم ببنا برج ولم يقدر على تمامه واى ملك يريد محاربة ملك اخر» ، وباقى الفصل معروف عند العلما، «فاجعل ياربى معونتك وقوتك وعزتك لى رسلا لكى اخرج فى لقا عدوى المناصب لى وتهلكه من

---

* أسر عبدالله بن كاوس فى حرب الروم وحمل إلى القسطنطينية.

* ولد فى هذه السنة هرون ابن خمارويه ابن طولون والرابع من الأمراء الطولونين بعد ذلك، وفيها ولد قاضى القضاة أبو السائب الهَمَذانى.

سنة ٢٦٥ هجرية

وافقت غرة المحرم يوم الأربعاء ٣ سبتمبر ٨٧٨م.

* خرج أحمد بن طولون قاصداً أنطاكية وأناب عنه ابنه وولى عهده العباس وبعد أن ضرب الحصار حولها استولى عليها وقتل سيما الطويل الذى كان عاملا عليها وتمرد وأسرع امبراطور الروم لمصالحة ابن طولون فأعاد إليه عبيدالله بن رشيد ابن كاوس أمير الثغور الذى كان قد وقع أسيراً فى يد الروم فى السنة الماضية ومعه جماعة من أسرى المسلمين وعدة مصاحف هدية منه إليه.

* انتهز العباس ولى عهد ابن طولون خروج أبيه إلى الشام وأنطاكية وأعلن التمرد على أبيه وجمع أتباعاً له ولجأ إلى برقة ومعه أموال بيت المال وكثيراً من السلاح والمهمات فأرسل أبوه وراءه من يقبض عليه.

* استولى الزُنج على النُعمانية وهى بلدة بين واسط وبغداد ولكنهم رُدوا عن الأهواز على يد مسرور البَلْخى.

البيعة» . ويقول كلاما كثير مثل هذا من زبور داود وغيره، وكان الرب معه في جميع اموره حتى فاح ريح طيبه في كل المواضع.

يا اخوتي كانت ضيعة من قرى مريوط تسمى بوخبشا وكان بها قوم مرذولين انجاس يسمون بالاربعة عشرية، وهم القوم الذين ينكرون الالام، وان السيد لم يقبل الالام بالجسد بل كانت مثل المنام. وهو لا [هؤلاء] لما سمعو بنعمة روح القدس

مستشاريها نقفور فوقاس وشقيقه ليون فوقاس؛ ولقد لعب نقفور فوقاس Nicephoros phocas دورا بارزا، فقد كان من عائلة اقطاعية كبيرة في آسيا الصغرى، وقد تلقى تدريبا عسكريا رفيعا جعله من أكفأ المحاربين، كما أن اهتمامه بموطنه في آسيا الصغرى، جعله على معرفة دقيقة بشئون جبهة القتال الشرقية مع الدولة الاسلامية، كما كان خبيرا بفنون تدريب الجيوش، فقد وضع كتابا عن «مسار الحروب» تناول فيه ذلك بالتفصيل، ولقد وقع اختيار رومانوس الثاني ويودوكسيا على

---

* أعلن عمرو بن الليث الصفّار ولاءه للخليفة بعد أن خلف أخاه يعقوب ابن الليث فأمّره الخليفة على ولايات المشرق التي شملت فارس وخراسان وسجِسْتان.

* استوزر المعتمد إسماعيل بن بُلْبُل بعد أن غضب على وزيره سليمان ابن وهب فحسبه وابنه ثم صولحا على تسعمائة ألف دينار.

سنة ٢٦٦ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ٢٣ أغسطس ٨٧٩م.

* دخل الزّنْج وعلى رأسهم قائدهم علي بن أبَان مدينة الأهواز بعد أن أوقعوا الهزيمة بقائد الخليفة أغَرْتمش التركي ونصبوا رؤوس القتلى على أسوار مدينتهم، ثم واصلوا الزحف فاستولوا على مدينة رَامْهُرْمُز باقليم خُوزِستان واستباحوها ولكن الأكراد لم يلبثوا أن أوقعوا بهم.

* اشتد القحط والغلاء في أفريقية.

* تولى عبدالله بن طاهر شرطة بغداد من قبل عمرو بن الليث الصفار.

* استولى الخُجُسْتاني على جُرْجان من أميرها العلوى وعلى أطراف طَبَرستان هزم جيشاً للصفارين.

نقفور فوقاس عندما شعرا بتحرقه لشن الحروب على الدولة الاسلامية. ولقد اختار نقفور منطقة حساسة بالنسبة لعواطف شعب القسطنطينية ألا وهي جزيرة كريت التي كان الربض الاندلسيون قد احتلوها، وكان احتلالهم لها يشكل حجر عثرة في طريق تجارة الأمبراطورية مع الغرب الأوروبي، كما أن امتدادها عند مدخل بحر ايجة يحقق لها السيطرة على مدخل هذا البحر، الذي تقع عليه سواحل آسيا الصغرى وسواحل اليونان؛ ومن ثم، أعد نقفور فوقاس

الفايضة في ابينا انبا شنوده البطرك جاو [جاؤا] اليه بفرح عظيم قايلين: ايها الاب اعطنا خاتم امانتك واعتراف بوصاياك لكي نومن بذلك من الان. فلما نظر الى امانتهم قبلهم بفرح واخذهم اليه واعطاهم ختم المعمودية المقدسة وهداهم الى الاعتراف بامانة ابابنا المويدين، فاعترفو واحرمو اغابس واروريجنس وبلينياريوس وبوليانوس ولفرناساوس، وكلمن يومن بامانتهم الطمثة. وكرز لهم بيعة وكهنة وقال لهم شهادة بولس: نعمة الله

---

* أمر محمد الأول ابن عبدالرحمن الأموى صاحب الأندلس ببناء أسطول من السفن في نهر قرطبة يحاصر به سواحل جلّيقية إلا ان أكثره تحطم عندما مخر مياه البحر، كما هزم أسطول عربي عند صقلية وارتد إلى بَلَرْم.

سنة ٢٦٧ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الجمعة ١٢ أغسطس ٨٨٠م.

* بنى أحمد الموفق ولى عهد الخليفة المعتمد مدينة سماها المُوَفَّقِية بالقرب من المختارة مدينة صاحب الزَّنج.

* تفاقمت ثورة الزَّنج في جنوب العراق ووصلت طلائع الثوار إلى مدينة واسط واستباحوها وأشعلوا النيران فيها فجهز الموفق ابنه العباس (الخليفة المعتضد بعد ذلك) لحربهم وعلى يديه تم أول انتصار حاسم على الزَّنج وأصاب منهم مقتلة وأغرق مراكبهم فسارع أبوه لنجدته وسارا معاً إلى المنيعة مدينة صاحب الزنج واستنقذوا منها خمسة آلاف من المسلمات غير الزنجيات ثم استوليا على مدينة المنصورة وفيها لقي عدد من زعماء الزَّنج مصرعهم ثم انتقلا إلى المختارة وحاصراها (رجب من العام).

* تولى إمارة صقلية الحسن بن العباس فبث السرايا وغزا قَطَّانية (كتانيا) وطرمين فأفسد زرعها وقطع أشجارها قبل أن يعود إلى عاصمته بَلَرم، وردَ الروم بالمثل.

حالة عليكم لانكم كنتم عبيدا للخطية فسمعتم وصرتم احرار من الخطية وعبيد الحق. وعلمهم هذا وهو اول قربان قدمه للرب من تعاليمه المقدسة.

ثم عاد الى مدينة اسكندريه وبدا يتمم الناموس القانونى فيما يتعلق بكرسى انطاكية، وكتب سنوديقا عظيمة يتعجب منها كل احد، وانفذها مع اسقفين قديسين احدهما اسقف ملوبولاس داوخ، ويوحنا اسقف ديوسيا، وكهنة معهم، وسيرهم الى الاب يوحنا بطرك انطاكية. وكانت

حملة بحرية كبيرة، حشد فيها كل طاقة الدولة وأساطيلها، واتجه الى الجزيرة وفتحها بالقوة عام ٩٦١م، واستولى على الأسلاب والغنائم، ثم أبحر عائدا الى القسطنطينية عام ٩٦٢، ودخل المدينة في موكب نصر مهيب، استعرض فيه أسراه وسباياه وفي مقدمتهم أمير كريت الربضي. وهكذا نجح نقفور فوقاس في تخليص هذه الجزيرة الهامة، ذات الموقع الاستراتيجي الهام من أيدى المسلمين.
وفي السنة التالية لعودته، تألق نجمه عندما هاجم القلاع العربية

---

* وثب أحمد بن طولون أمير مصر والشام على أحمد بن المدبر متولى خراج الشام وحبسه ثم صالحه على ستمائة ألف دينار.

* قوى أمر الثائر الأندلسى عمر بن حَفْصُون (وهو من أصل أسبانى) واتسع نفوذه فانحاز فى هذه السنة إلى قلعة بُبَشْتر الجبلية ودام أمره سنوات بعد ذلك.

* قبض عمرو بن الليث الصفار على محمد بن عبدالله بن طاهر وحبسه مما أثار عليه غضب الخليفة.

سنة ٢٦٨ هجرية

استهل المحرم بيوم الثلاثاء الموافق الأول من أغسطس ٨٨١م.

* خرج ابن طولون أمير مصر بنفسه إلى الأسكندرية التى لجأ إليها ابنه العباس الثائر عليه قادماً من برقة فظفر به ورده معه إلى القطائع.

* توفى بخراسان الثائر الخُجُسْتاني (أحمد بن عبدالله) قتل على يد بعض غلمانه بعد أن ارتفع شأنه فى المشرق حتى ضرب الدنانير والدراهم باسمه وخلفه فى هَراه رافع بن هَرْثَمة.

* أغزى أحمد بن طولون قائده خلفا الفَرْغَاني التركى نائب الثغور الصائفة وبلغ القتلى من الروم بضعة عشر ألفا، وفى ناحية أخرى أغار الامبراطور باسيل (الملقب بابن الصقلبية) على مدينة مَلَطية فرده عنها بمساعدة أهل مَرْعَش والحَدَث.

المتاخمة لحدود الامبراطورية فى آسيا الصغرى، فاتجه فى حملة عسكرية الى كيليكيا عن طريق ممرات جبال طوروس، واستولى على عدد من القلاع والحصون الاسلامية الهامة، ثم عبر جبال الأمانوس Amanus متجها الى شمال سوريا، ومستوليا فى طريقة على القلاع الدفاعية التى كانت تحمى الشام، ثم اتجه الى حلب عاصمة سيف الدولة الحمدانى وحاصر المدينة، حتى وقعت فى قبضته، وأباد قوات الحمدانيين، غير أن قلعة حلب المحصنة ، ظلت تقاوم،

هذه السنوديقا متضمنة تعاليم كثيرة من اقوال كيرلس واتناسيوس وساويرس وديسقرس وجماعة الابا[ء]. فلما وقف عليها عند وصولها اليه صحبة الابا الاساقفة راها [رأها] ملوة من نعمة روح القدس ففرح جدا ومجد الله، وعلم من خطاب الواصلين اليه ثبات وتحقيق الاتحاد المغبوط والاساس القوى بين كرسيه وكرسى البشير مارى مرقس الانجيلى. حينيذ [حينئذ] اذاع ذلك فى بيعه جميعها القريبة والبعيدة، وبارك الله وكتب له جوابا

---

* انحاز جعفر السحان أحد قواد صاحب الزّنج إلى الموفق فأحسن إليه فتبعه خلق كثير من الزنج مستأمنين ثم عاود الموفق حصار المختارة مدينة الزنج (ربيع آخر) ثم ارتد عنها لعنف المقاومة.

* تمرد لؤلؤ الخادم على مولاه أحمد بن طولون وكاتب الموفق للقدوم عليه.

* أنفذ أمير الأندلس ولى عهده المنذر للقضاء على الخارجين عليه فقصد المنذر سَرَقُسْطة فأهلك زرعها وخرب عمائرها، واستولى على حصن روطة وأسر صاحبه عبدالواحد الروطى، ومنها سار إلى دير تروجة وعليه محمد بن مركب ومنها سار إلى لاَرْدَة ثم قَرْطَاجنة وعليها إسماعيل بن موسى فأذعن بالطاعة كما أوغل فى أرض الأسبان.

* عزل الحسن بن العباس عن صقلية بسبب فشل قائدة أبى ثور وخلفه عليها محمد بن الفضل الذى جدد الغزو واستولى عنوة على قلعة مدينة الملك.

* سار عمرو بن الليث إلى فارس ثم دخل إصْطخر وشيراز.

* توفى فى هذه السنة: فقيه مصر فى عصره أبو عبدالله محمد بن الحكم عن ست وثمانين وهو أخو المؤرخ ابن عبدالحكم مؤرخ مصر، له أحكام القرآن والرد على الشافعى.

كما يجب وودعهم ومن معهم بكرامات جزيلة وكتب. هو ايضا كتابا يشكر فيه انبا شنوده ويكرمه ويسجله ويمدح فعله الذى ثبته فى البيعة بمصر وذكر فى كتبه هكذى: من يقدر ان يقول يسيرا من الكرايمات التى تستحقها ايها الاب لان طغمات السموات لا يسكنو من مدح امانتك لانك جعلت رجاك بالرب يسوع المسيح، واساس عبادة الاوثان قطعتها من البيعة بنعمة الروح القدس يكون حصنها عليك وعلى الاشجار التى

حتى جاءتها النجدات العربية بقوات ضخمة، ولما رأى فوقاس أنه لا قبل له بهذه الجيوش العربية، آثر الانسحاب بدلا من المخاطرة؛ وعاد الى القسطنطينية عام ٩٦٢م. ورغم فشله فى الاحتفاظ بحلب، لكن مجرد استيلائه على المدينة بعض الوقت أكسبه شعبية عارمة بين الروم، وأصبح أكثر شهرة من الامبراطور رومانوس الثانى نفسه.

وفى ذات العام الذى عاد فيه نقفور فوقاس من حملته على حلب، كانت مدينة روما تشهد حدثا كبيرا،

سنة ٢٦٩ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٢١ يوليو ٨٨٢م.

* استولى ابو أحمد الموفق على المُخْتارة مدينة صاحب الزّنج فكان ذلك ايذانا بخاتمة هذا الثائر.

* خرج ابن طولون إلى الشام وفيها وقع الخلاف بين قائده الفرغانى ويَازَمَان الخادم مما أدى إلى ثورة أهل الثغور على ابن طولون فسار إليهم حتى بلغ أطَنَة (أدَنَة) ثم عاد إلى دمشق، وفى الوقت نفسه خرج الخليفة المعتمد إلى الرّقَة متظاهراً بالصيد للاتصال بابن طولون لينقذه من وصاية الموفق عليه ولكن عامل الموصل ابن كُنْداج (أو ابن كُنْداجق) أعادة إلى بغداد.

* خرج محمد بن الفضل أمير صقلية غازياً فبلغ رمطة ثم قطانية فسبى وغنم وعاد إلى بلرم فى ذى الحجة.

سنة ٢٧٠ هجرية

أهل المحرم يوم الخميس الموافق ١١ يوليو ٨٨٣م.

* تولى أبو الجيش خُمَارَوَيْه إمارة مصر خلفاً لأبيه أحمد بن طولون بعد مبايعة الجند له فى يوم الأحد العاشر من ذى القعدة على أثر وفاة أبيه وله من العمر عشرون عاماً، أمه أم ولد يقال لها ميّاس وكانت ولادته بسامراء قبل وفود أبيه على مصر.

غرستها لتنمو اثمار حسنة ماية وستين وثلثين، والمجد والكرامة لكرسى الاب الجليل مارى مرقس. فلما وصلت الكتب اليه قراها وفرح بها وامر الشعب بقرايتها بمدينة اسكندريه ففرحو ومجدو الله وعظموه لما سمعو، ومدحو الاب انبا شنوده على فعله وتعليمه. وتنيح من كرسيه اساقفة وذاع خبر كتبه ووصاياه وتعليمه فى قطع الشرطونية، فلحق من كان يترجا انه ينالها بالمال امرا عظيما، ولم يظهرو ذلك. واوسم بنعمة الله الحالة عليه قوما

فقد كان آوتو Otto الكبير ملك المانيا قد توسع فى ايطاليا، وكان يعمل على ابقاء فرنسا ضعيفة ومفككة، بينما تظل ألمانيا قوية موحدة، وكان يسعى للحصول على لقب امبراطور وتاج الامبراطورية الغربية، وبالفعل قام البابا يوحنا الثانى عشر بتتويجه امبراطورا فى روما عام ٩٦٢م، وكان ذلك يعتبر ايذانا بقيام الامبراطورية الرومانية المقدسة. وقد حاول أوتو الحصول على اعتراف من سلطات القسطنطينية بذلك اللقب، ومن أجل ذلك سعى الى تزويج ابنه ووريثه أوتو

---

* إنضم لُؤلُؤ غلام ابن طولون المتمرد إلى أحمد المُوَفق ولى العهد واشترك معه ومع ابنه العباس فى حرب الزَّنْج (٣ المحرم) وأوقعوا الهزيمة الحاسمة بهم وظفروا بصاحب الزنج وقتلوه.

* خرجت الروم فى غزوة صليبية ونزلوا قَلَمْيَة من نواحى طَرَسوس فخرج عليهم قائد ابن طولون وردهم وبلغ عدد قتلاهم نحواً من سبعين ألفا وفى مقدمتهم بطريق البطارقة وعدد من البطارقة ومن جملة الغنائم سبعة صلبان كبار من الذهب والفضة والصليب الأعظم المكلل بالجواهر.

* توفى فى العاشر من ذى القعدة (أو ١٨ القعدة) أمير مصر أحمد ابن طولون عن خمسين سنة وكان قد مرض بأنطاكية ابان حرب الروم وعاد إلى مصر على محفة، ودام حكمه نحواً من سبعة عشرة عاما وترك وراءه دولةً مستقلة عن التبعية العباسية وخلفه ابنه أبو الجيش خُمَارَوَيْه، واليه تنسب القطائع والمسجد الجامع المعروف باسمه حتى اليوم.

* قتل صاحب الزنج وهو على بن محمد بن أحمد بن عبدالرحيم يقال اسمه نَهْبود (٢ صفر) وقد دام أمره ١٤ سنة و٥ أشهر.

* توفى فى هذه السنة الحسن العلوى مؤسس الدولة العلوية بطَبَرستان، كما توفى حول هذا التاريخ الحبيب الطالبى وهو ثالث الأئمة المكتومين عند الاسماعيلية.

كثير مجاهدين على الامانة الارثدكسية ممن يستحق، وكان الرب معينا له وساترا عليه مثل داوود النبى، وكان يوصي من يوسمه ويوكد عليه ان لا يقبل احد منهم كرامة ممن يوسمه بل يكونو متشبهين به في هذه النعمة. ويقول لهم: قال بولس لسان العطر «اعدو لعلى اخذ ما اخذت فيه»، فتشبهو بى يا اخوة فقد جعلت روحى علامة لكم.

وكان المتقدمون والولاة لحسن طريقته وصورته

الثاني من الأميرة ثيوفانو Theophano أبنه الامبراطور رومانوس الثاني؛ وكلف البابا الجديد، الذى عينه بدلا من يوحنا الثاني عشر، واسمه ليو الثامن بالتوسط لاتمام هذا الزواج، غير أن رومانوس قتل في ظروف غامضة، وهتفت الجماهير بنقفور بطل المعارك ومحرر كريت امبراطورا، وتزوج نقفور من أرملة رومانوس يودوكسيا Eudoxia، ومرة أخرى عرض أوتو زواج ابنه من ثيوفانو ابنة الامبراطور الراحل، فرفض نقفور لنفس الأسباب السابقة. ولم يتم هذا

---

* توفى بالمدينة أحمد بن ابراهيم العلوى الذى ثار على ابن طولون في الصعيد واستولى على إسنا سنة ٢٥٥هـ.

سنة ٢٧١ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الاثنين ٢٩ يونية ٨٨٤م.

* ورث خمارويه الذى استهلت السنة وله فى الحكم خمسون يوماً في إمارة مصر عداء أبي أحمد الموفق الذى تحول إلى لقاء مسلح بأرض فلسطين فجرت فى ١٦ شوال معركة الطَوَاحين وكان في جانب الموفق ابن كُنْدَاج وابن أبي السَّاج وأنقذ المعركة قائد خُمارويه سعد الأيسْر الذى استولى على دمشق.

* سير أمير الأندلس ابنه المُنْذر إلى مدينة بَطَلْيُوس لقتال الثائر ابن مروان الجِلّيقى فنحاه عنها بعد أن خرّب المدينة، وسار جيش ثان بقيادة هاشم بن عبدالعزيز إلى سَرَقُسطة وعليها الثائر محمد بن لُبْ فملكها وأخرج منها ابن لُبْ وكان حليفاً للثائر عمر بن حَفْصُون بالرغم من المصالحة.

* تولى إمارة صقلية سَوَادة بن خَفَاجة خلفاً لأميرها المقتول الحسين بن أحمد وبدأ بالإغارة على مدينة قَطَانية ومنها إلى طرمين حتى أتاه بطريق الروم طالباً الهدنة والمفاداة فهادنه ثلاثة أشهر وفاداه بثلثمائة أسير من المسلمين.

الزواج الا بعد مقتل نقفور عام ٩٦٩م.

نقفور فوقاس أمبراطورا ٩٦٣ - ٩٦٩م:

ولما كان الامبراطور رومانوس الثاني قد أوصى بأن تكون زوجته الأمبراطورة يودوكسيا وصية على ولديه القاصرين: باسيليوس الثاني، وكان صبيا في السابعة من عمره؛ وأخيه قسطنطين الذى يكبره بعام، فقد انتقلت الوصاية على الاميرين الى زوج الام الامبراطور الجديد نقفور فوقاس، غير أن سلطات الكنيسة رفضت أن تبارك هذا الزواج بل حتى

وامانته وافعاله يبجلوه ويكرموه ويقضو حوايجه، وكان الشعب تحت رجا وامن وعافية. ثم انه اهتم بامر ديارات الصعيد واساقفته واراد ان يعرف مزاجهم وما هم عليه فسار اليهم ووصل الى بلادهم ففرحو بوصوله اليهم وباركو الله مثل داوود النبى ومثل اولاد اليهود لما سبحو الرب عند دخوله يروشليم راكب الجحش، فعلمهم ورتبهم فسمعو منه تعليمه ووصاياه، وعاد ووصل الى مدينة اسكندريه وبدا ان يتفقد البيع والمواضع التى وهنت

سنة ٢٧٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ١٨ يونية ٨٨٥م

* وقع زلزال بمصر في جمادى الآخرة من السنة هدم كثيراً من الدور وبعض جوانب المسجد الجامع ولقى نحو ألف حتفهم.

* عاد خُمَارويه إلى فلسطين للمرة الثانية ورجع دون حرب.

* نظم إمبراطور بيزنطة حملة صليبية عليها البطريق أنجفور فنزل على مدينة سيرينة ثم منتية فانسحب منهما المسلمون إلى بلرم.

* وفيها توفى ابراهيم بن جعفر الهمذانى من زعماء الخوارج ممن اشتركوا فى ثورة الزنج كما توفى على المُهلّبى حليف صاحب الزنج قتلا كلاهما فى السجن.

سنة ٢٧٣ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ٨ يونية ٨٨٦م.

* تمت المصالحة بين أمير مصر الطولونى خُمَارويه والخليفة العباسى المعتمد وولى عهده أحمد الموفق بعد أن اكتسح خُمَارويه الشام ودخل دمشق وانتهى عند حدود العراق، وتضمن

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

منها ليعمرها ويجددها. وكان يشتهي ان يعمل في ايامه تذكارا، وكان باسكندريه في الموضع التي كانت فيه القلاية البطركيه واسمه باليوناني «قسطوريون» موضع تاوى اليه المساكين والمنقطعين، وكان الما [ء] الذى عندهم مالحا مرا وهو بعيدا منهم وكانو يريدو نقله اليهم ويتعبو فيه تعبا شديدا وتقودهم الضرورة الى ان يشربو منه لعدم الما [ء] الحلو، لانهم كانو يتركوه اياما في الوعا حتى يطيب قليلا ثم يشربوه. ففكر الاب

رفضت أن تعترف بشرعيته، وقاد رهبان الأديرة حملة شعواء على نقفور ويودوكسيا، ووصفوهما بانهما الزوجان الاثمان، واتهموهما بتدبير موت رومانوس، ووصفوا الامبراطور القتيل بانه يوحنا معمدان جديد، ووصفوا الامبراطورة يودوكسيا بأنها هيروديا العصر. ولقد أثارت حملة الرهبان غضب نقفور فوقاس، الذى لم يكن يفكر في شئ سوى في استعادة مجد القسطنطينية الضائع، ومن ثم، لم يكن ليترك الكنيسة والرهبان دون عقاب، تأمينا للجبهة

الصلح ولاية خمارويه على ما بين الموصل وبرقة ثلاثين سنة وأمر خمارويه بالدعاء للموفق بعد الخليفة وترك الدعاء عليه.

* تولى عرش الأندلس أبو الحكم المنذر خلفاً لأبيه أبى عبدالله بن عبدالرحمن (٨ ربيع أول).

* وقع الخلاف بين ابن كنداج أمير الموصل وابن أبى الساج أمير أرمينية وانتهى إلى الحرب وفيها دارت الدائرة مرتين على ابن أبى الساج.

* قبض الموفق على لُؤلؤ مولى ابن طولون الذى كان قد تمرد على مولاه وانحاز إلى الموفق واشترك في حرب الزنج واستصفى أمواله وكانت أربعمائة ألف دينار.

* توفى في هذه السنة بمصر القاضى أحمد بن العلاء الرّقى، وفيها توفى الزاهد حنبل بن اسحق ابن عم الامام أحمد بن حنبل.

* وافق هذا التاريخ وفاة الامبراطور البيزنطى باسيل الأول.

سنة ٢٧٤ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ٢٨ مايو ٨٨٧م.

* خرج أمير الأندلس أبو الحكم المنذر الأموى بنفسه لحرب الثائر ابن حفصون وفى طريقه استولى على حصون جبل باغة وقبض على حاكمها عيشون نائب ابن حفصون وصلب مع

الداخلية، وحتى لا يثيروا الشعب عليه أثناء غيابه في ميادين القتال.

تقليم أظافر الرهبان والكنيسة والاقطاع:

ويبدو أن عدوى الصراع بين الأباطرة والكنيسة قد انتقلت من الغرب الأوروبى الى الشرق الاغريقى أو العكس، فقد كان قصد كنيسة القسطنطينية من هجومها على نقفور هو اثبات أن للبطريرك الكلمة العليا على الامبراطور. ولقد سبق أن رأينا بوادر صدام حدث بين الامبراطور ليون الحكيم والبطريرك نيقولاءوس

فكرا صالحا وحفر لهم خليج [ترعة] من الخليج الذى حفره المتوكل على الله جعفر حتى دخل الما منه الى اسكندرية وصارت المراكب تصل منه الى الاسواق، وزرع الناس عليه الكروم والبساتين، كما شرحنا اولا، ثم انه نزل حتى فتح فم خليج صغير وجراه الى الموضع المقدم ذكره وصار الما يقيم عندهم حلوا طيبا. وكانت الافعال الجيدة قدامه مثل العنكبوت يسهلها الله تعالى له ويساعده على نجازها، وفى ذلك عمل لمدينة اسكندريه مجارى

خنزير وكلب إمعاناً فى التمثيل به ومنها سار إلى بُبَشْتر التى إحتمى بها ابن حفصون وحاصرها.

* خرج أبو أحمد الموفق أخو الخليفة وولى العهد إلى فارس لحرب عمرو ابن الليث الصفار الذى حاول الاستقلال بالمشرق عن دولة الخلافة.

* سار ابن كُنْدَاج أمير الموصل إلى الشام وهى من أملاك خُمارويه فهرع اليه خمارويه من مصر حتى عبر نهر الفرات وأوقع به الهزيمة وأعلن ابن كُنْدَاج خضوعه، كما قضى خُمارويه قبل نهاية السنة على محاولة مماثلة قام بها ابن أبى الساج الذى أعلن الطاعة.

* توفى فى هذه السنة بقرطبة الفيلسوف الفلكى المتفنن عباس بن فِرْناس أول من استنبط صناعة الزجاج بالأندلس، وأول من حاول الطيران، وأول من صنع قبة سماوية.

سنة٢٧٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ١٦ مايو ٨٨٨م.

* تولى فى الخامس عشر من صفر إمارة الأندلس أبو محمد عبدالله بن محمد خلفاً لأخيه أبى الحكم المنذر، بويع يوم وفاة أخيه فكان ذلك سبباً فى رفع الحصار على بُبَشْتر التى إحتمى بها الثائر ابن حفصون.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

تحت الارض ليحلو ابارهم وينقلو منها الما [ء] الى جباب [جمع جب] عندهم للمياه الحلوه، وهو الذى فعله الاب البطرك انبا شنوده، ثم انه عمل ايضا فسقية كبيره [سبيل] لاوليك الضعفا الصعاليك الذى قدمنا ذكرهم. واقام انسانا يملا تلك الفسقية التى عملها بالة عملها ليشربو منها لاجل انهم لم يكونو يستطيعو يملو لطول الرشا. واصلح ايضا خنادق ومواضع للمياه ومساقى. وكان ايضا لما عبر بضيعة قريبة من مربوط تسمى اتريس، وهو اسمها الى اليوم، خرج اليه سكانها

المتصوف، والذى انتهى بانتصار الامبراطور. ولقد رأى نقفور أنه ليس أقل شجاعة من ليون الحكيم فى تحديه للرهبان والكنيسة، فشرع فى تقليم أظافرها، وكسر شوكة الأديرة، وابعادها عن التدخل فى شئون الحكم، فأصدر فى عام ٩٦٤م قرارا أكال فيه الاتهامات لرهبان الأديرة، ووصفهم بأنهم خرجوا عن حدود العقيدة، والتمسك بتعاليمها، فقد تركوا الزهد والتقشف، الذى هو صلب الرهبنة، الى حياة الترف ومتاع

---

* عاد ابن أبى الساج إلى الخلاف مع خُمارويه الذى أوقع به هزيمة ثانية عند ثَنّية العُقَاب بقرب دمشق واستولى على أمواله وراح يطارده حتى الرَّقة والموصل.

* قبض أبو أحمد الموفق على ولده أبى العباس أحمد لمخالفته له وحبسه فى حجرة بداره.

* والى يازَمان الخادم حرب الصائفة فغزا البحر واستولى على عدة مراكب للروم.

* توفى بسامراء عن تسعة عشرة الامام المنتظر عند الشيعة الامامية وهو أبو القاسم محمد بن الامام الحسن العسكرى ومن ألقابه صاحب الزمان وصاحب السرداب وهو آخر الأئمة الاثنى عشر، قيل دخل فى هذا التاريخ سرداباً فى بيت أبيه ولم يخرج منه، ضريحه وضريح أبيه من مزارات الشيعة.

سنة ٢٧٦ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الثلاثاء ٦ مايو ٨٨٩م.

* استعاد عمرو بن الليث الصَفّار مكانته عند الخليفة المعتمد فولاه شرطة بغداد ونقش اسمه على الأعلام والتُرس.

* خرج أمير الأندلس الجديد أبو محمد عبدالله الأموى لحرب الثائر ابن حفصون فخرب إقليم بُبَشتر ولكنه لم يخضع الثائر الذى استولى على إستِجه ثم طرد منها.

فاخذو بركته وقالو: يا ابانا القديس ان البحر بعيد منا تقدير ميل ولا نصل اليه الا بعد تعب عظيم. فبنا لهم في تلك الناحية بيرا فنبع لهم منها ما [ماء] فباركه وقدسه ما [ماء] حلو فامتارو منه ودوابهم، وهو مع هذا لا يدع الاهتمام بالكتب الارطستيكا المملوة نعمة وتعليم روحانى ليتغذا منها كل احد.

ولما كان فى السنة التانية من جلوسه فى ايام الصوم المقدس كتب ارطستيكا مملوة من كل نعمة

الدنيا؛ وأشار الى أن من بين الرهبان طبقة من الاقطاعيين، ومن ثم ألغى نظام الديرية، الذى كان معمولا به، وصادر أملاك الأديرة فى العاصمة والأقاليم، وطردهم الى الكهوف والصحارى حيث يجب أن يكونوا؛ كما حرم اقامة أديرة جديدة، أو وقف الأموال والعقارات على الأديرة والرهبان، وبذلك أبعد الرهبان عن التدخل فى شئون السياسة، ولقد ضرب نقفور بهذا القرار عصفورين بحجر واحد: فقد قلم أظافر الكنيسة والأديرة وأبعدها عن التدخل فى

---

* عاد خمارويه من الشام إلى مصر بعد سلسلة من الانتصارات ولم يلبث أن رجع إليها.

* قدم محمد بن أبى الساج أمير أرمينية السابق إلى الموفق هارباً من خمارويه بعد أن توالت هزائمة ومطاردة خمارويه له حتى حدود العراق فولاه أذَرْبيجان.

* توفى كاتب الموفق صاعد بن مَخْلد الملقب بذى الوزارتين كان نصرانيا وأسلم.

سنة٢٧٧ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ٢٥ ابريل ٨٩٠م.

* دعا يَازَمَان أمير الثغور لخمارويه على المنابر فى طَرَسوس، وفى الوقت نفسه خرج خُمارويه إلى الشام للمرة الرابعة وعاد من سنته.

* تولى يوسف بن يعقوب المظالم وأمر من ينادى «من كانت له مظلمة قبل الموفق (ولى العهد) أو أحد من الناس فليحضر».

* خلع راشد بن النَّضْر إمام عُمان الإباضى وبويع عَزَّان الخَروصى.

* توفى بالأندلس الأمير محمد بن عبدالله والد الخليفة عبدالرحمن الناصر الذى ولد فى هذه السنة قتله أخوه المطرف فى نزاع بينهما.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

الى [أن] انتهى الى ذكر فريومنا بتدبير كلمة الله فقال: نومن هكذى فى اخر الزمان لما ارد الله ان يخلص جنسنا من العبودية المرة، ارسل ابنه الوحيد الى العالم متجسدا من روح القد [س] ومن مريم العدرى جسدا] مساويا لنا فى كل شى ما خلا الخطية ذو نفس غير مدروكة وجعل الجسد معه واحد بغير تغيير ولا اختلاط ولا افتراق بل طبيعة واحدة واقنوم واحد ووجه واحد تالم [تألم] بالجسد عنا ومات وقام من الموتا كالذى فى

شئون الامبراطورية، وفى نفس الوقت ضمن أموالا طائلة ليستكمل بها حروبه مع الحمدانيين فى الشام.

ولقد جره صدامه مع الكنيسة والرهبان الى تقليم أظافر الاقطاعيين والنبلاء، فقد كانت الكنيسة تجد فيهم أنصارها، كما كان من بين الاقطاعيين رهبان، كما أن ارتباط الكنيسة بالاقطاع لم يكن فى الغرب فقط، بل فى الشرق أيضا، وتطورت حركة مصادرة الأراضى والأملاك حتى شملت أغنياء الطبقة الوسطى، مما

سنة ٢٧٨ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الخميس ٥ ابريل ٨٩١م.

* شهدت هذه السنة بداية ظهور طائفة القَرَامطة (نسبة إلى قِرْمط).

* بويع أبو العباس ابن الموفق (الذى توفى فى سنته) بولاية العهد بعد المفوض ابن الخليفة المعتز ولقب المعتضد بالله وخطب له يوم الجمعة بعد المفوض.

* جرى قتال فى بغداد بين أصحاب وصيف الخادم والبربر.

* غزا يَازَمَان أميُر الثغور الصائفة وبلغ حصنا للروم يقال له سلند فنصب عليه المجانيق إلا أن حجراً أصابه فقضى نحبه فى الطريق إلى طَرَسوس حيث دفن.

* قبض على الوزير أبو صقر سليمان بن بُلبل وانتهبت منازله، وأطلق القواد أبا العباس المعتضد من سجن أبيه الموفق قبيل وفاته.

* توفى ولى عهد الخلافة أبو أحمد الموفق بالله وأخو الخليفة المعتمد وأبو الخليفة المعتضد، أبوه المتوكل وأمه أم ولد يقال لها إسّحق مات بداء الفيل وحمل على سرير من بلاد الجبل إلى بغداد، وكان أخوه قد جعل له الولاية بعد ابنه المفوض فجعل المعتمد الولاية لابنه أبى العباس المعتضد بعد المفوض ثم خلع فأصبح ابنه ولياً للعهد بعد عمه.

جعله مكروها وقلل من شعبيته بين الروم.

سياسة نقفور فوقاس الخارجية:

وما أن انتهى من تأمين الجبهة الداخلية، حتى شرع فى تأمين جبهة الامبراطورية مع البلغار فى حرب وقائية خوفا من عودتهم الى مهاجمة القسطنطينية، وكان التوقيت مناسبا، فقد كان البلغار فى موقف ضعيف بعد أن غابت عنهم شمس القوة منذ موت ملكهم سميون، وتولى من بعده ملوك ضعاف، بينما تزايدت سطوة بطاركة كنيستهم؛ كما هدف نقفور

الكتب، وصعد الى السما وجلس عن يمين الاب، فان قلنا ان الله تالم عنا ومات فلنفهم الان بامانة انه تالم عنا بالجسد وهو الغير متالم، وهو هذا الواحد كما علمنا الابا الذى للبيعة المقدسة، وكلمن يفرقه بتجديف ويقول ان الله الكلمة لم يتالم ولم يموت لكن الانسان هو المتالم والمايت، لكى يفرقه اثنين، الله الكلمة على حدة والانسان على حدة، ويجعله وجهين وطبيعتين كل واحد يفعل ما يشاكلها من طبعا، يريدو بذلك ان يدخلو

سنة ٢٧٩ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ٢ ابريل ٨٩٢م.

* جلس على دست الخلافة العباسية ببغداد أبو العباس أحمد المعتضد بالله ابن الموفق بن المتوكل وذلك في العشرين من شهر رجب خلفاً لعمه المعتمد على الله وكان المعتضد ولياً لعهد عمه قبل شهور من وفاته بعد أن قدّمه على ابنه المفوض.

* عاصر الخليفة الجديد فى الأندلس أبو محمد عبدالله الأول، وفى مصر خُمَارويه بن أحمد بن طولون، وفى أفريقية (تونس وصقلية) ابراهيم الأغلبى، وفى طَبَرستان القائم بالحق محمد بن زيد، وفى التركستان (ما وراء النهر) اسماعيل السامانى، وفى خُراسان عمرو بن الليث الصفّار، كما عاصر الخليفة الجديد الامبراطور البيزنطى ليو السادس، وفى فرنسا أودو الأول، وفى انجلترا الفرد الأكبر.

* كان الخليفة المعتمد قبيل وفاته فى هذه السنة قد أمر بتقديم ابن أخيه المعتضد على ابنه جعفر المفوض فى ولاية العهد وفوض له ما كان لأبيه المفوض فاشتد على أصحاب البدع والاهواء فمنع جلوس المنجمين والقصاصين كما منع الوراقين من بيع كتب الكلام والجدل.

* تولى عبيدالله بن سليمان بن وهب وزارة المعتضد.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

الامــانة النـجـــــة التى لنسطور والجــمع المرذول الطمث الخلقـدونى فى الامـانة المستقـيمـة، هولا البيعة الجامعة الرسولية تحرمهم ونحن نهرب من هولا ونرذلهم، ونحرم ايضا الذين يفرقو الله الكلمة طبـيـيـعتين من بعـد الاتحـاد الذى لا يدرك. ونـحن نعترف باستـقـامـة ان الله الكلمـة قبل اليـه بارادته الالام بالجسد لاشك اتحاد واحد فى كل شى، لان الطبيعتين الذين صارو واحد فى الابتدا لم يفتـرقا بالجملة بامر من الامور بتدبير الكلمة، لانهما غير

من مفاجئة البلغار بالحرب أن يؤمن ظهـره تماما قبل سـحب الجيـوش والقـوات الى الشـرق، للدخـول فى حرب شاملة مع المسلمين، فقد كان يخشى أن يستغل أحد ملوك البلغار غيـابه، ويؤجج عـواطف البلغار ضـد الروم، ويحيى آمالهم القديمة فى فتح القسطنطينية، ولهذا قام بأخذ المبادرة، وغـزا بلادهم عـام ٩٦٧م، ولم يجـد أى صعـوبة فى ذلك، وبذلك ضـمن سلامة الجبهة البلغارية من الخطر.

وبالنسبة لتصاعد خطر أوتو الكبير ملك ألمانيا، الذى نجح فى تقويض قوة

---

* قضى قائد المعتضد على ثورة عُمَان واستعادها من الامام عزّان الخَروصي.

* تولى إمارة ما وراء النهر اسماعيل الساماني خلفاً لأخيه نَصر وهو ثاني ملوك السامانيين.

* توفي في هذه السنة الخليفة المعتمد على الله العباسي بن المتوكل ليلة الاثنين التاسع عشر من رجب وله من العمر ثمان وأربعون ومدة خلافته ٢٣ سنة و٣ أيام.

سنة ٢٨٠ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الجمعة ٢٢ مارس ٨٩٣م.

* سار الخليفة المعتضد لتأديب بني شيّبان بنواحي الموصل فبذلوا له الرهائن واستأمنوه فعاد إلى بغداد.

سنة ٢٨١ هجرية

أهل المحرم يوم الأربعاء الموافق ١٣ مارس ٨٩٤م

* شهدت هذه السنة زفاف قطر الندى ابنة خُمارويه إلى الخليفة المعتضد العباسي وقد صحبها إلى بغداد عمها خزرج بن أحمد بن طولون ووزير ابيها ابن الجصّاص وقد شيد لها على رأس كل منزلة قصر تنزل فيه، وبلغت تكاليف الجهاز ما يعجز خزانة البلاد، وكان صداق قطر الندى ألف ألف درهم.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

دولة الفرنجة فى فرنسا، وعزلها عن مكان الصدارة فى غرب أوروبا، وتوسع فى جنوب ايطاليا، حيث توجه البابا يوحنا الثانى عشر امبراطورا على الرومان، وذلك فى كنيسة القديس بطرس فى روما عام ٩٦٢م. وراح يسعى من أجل الحصول على اعتراف من القسطنطينية بأحقيته فى حمل هذا اللقب على نحو ما فعل شرلمان من قبل؛ فقد أعلن نقفور رفضه لتصرفات أوتو الكبير، ولما كرر أوتو مطلبه فى تزويج ابنه وخليفته أوتو الثانى من ثيوفانو ا بنة الامبراطور

مفترقين، وحتى فى حين الالام قبلها بجسده ليلا نظل مثل فوتنس وسبليوس هذين الذين قالا بكفرهما، «بان اللاهوت بعدت وصلب الناسوت»، ونحن نحرمهما ونهرب منهما واقاويلهما الكفر، ونهرب عن عبادتهما الانسان. ولما وصلت هذه التعاليم الى البيع والشعب فرحو بها وشكرو الله الذى اعطا هذا الاب هذه النعمة التى هى تعاليم كيرلس والابا القديسين. فلما نظر مبغض الخير الشيطان جميع ذلك وان الاب انبا

---

* انفذ خمارويه نائبه على دمشق طُغْج بن جُف الأُخْشيدى لغزو الروم فتوجه من طَرَسوس حتى بلغ طَرابزون على البحر الأسود وفتح ملَوية فى جمادى الآخر من السنة.

* خرج المعتضد للمرة الثانية لتأديب حمدان بن حَمْدون صاحب قلعة ماردين فاستولى عليها وهرب صاحبها ثم هدمت القلعة.

سنة ٢٨٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ٢ مارس ٨٩٥م.

* فى الثانى من المحرم وصل ركب العروس قطر الندى إبنة خمارويه إلى بغداد فانزلت فى دار صاعد حتى عاد زوجها الخليفة المعتضد من الموصل وبُنى بها فى الخامس من ربيع الأول وأقيمت احتفالات جلت عن الوصف.

* توفى فى هذه السنة بدمشق أمير مصر أبو الجيش خُمارويه بن أحمد ابن طولون وذلك فى السابع عشر من ذى القعدة أغتيل على يد بعض خدمه وتعقبهم نائبه طُغْج وقبض عليهم وصلبهم وكانوا نيفا وعشرين، توفى وله من العمر اثنتان وثلاثون ومدة حكمه اثنتى عشرة سنة، ونقل فى تابوت إلى مصر، وخلفه ابنه جيش.

شنوده قد اظهر التعاليم فى قلوب الناس المومنين فى كل مكان باسم الرب يسوع المسيح، قلق جدا ولم يفتر واستعد لمقاتلته ومجاهدته، وطرح فى قلوب اناس، غير ذى فهم ممتلية من الغش والدغل مشتهية لذات العالم وشهواتها قوما انجاس، ان يقولو على الله الكلمة، ولم يهتدو لقراة الكتب المقدسة ولا فحصو عن وصايا هذا الاب القديس لكنه استجذبهم اليه لمحبتهم شهوات العالم وترك العلوم المودية الى النجاة، وقالو بلسانهم المستحق

الراحل رومانوس، كرر نقفور فوكاس رفضه بصفته وليا على أبناء رومانوس بحق زواجه من أرملته، وذلك خوفا من أن يستغل أوتو الكبير ذلك الزواج فى المطالبة بحق ارث عرش الامبراطورية الرومانية الشرقية، ليوحد الامبراطوريتين فى امبراطورية واحدة، وبذلك يكون قد نجح فيما فشل فيه شرلمان.

نقفور فوقاس Phocas وحملاته الصليبية ضد المسلمين ٩٦٧ - ٩٧٦:

ولو حللنا الدوافع، التى جعلت نقفور فوقاس يفكر فى القيام بحملة

---

* توفى الوزير الأندلس عبدالملك بن أبى حَوْثَرة قتل فى حرب مع بعض الثوار بجوار اشبيلية، وفيها توفى الأمير محمد ابن الخليفة المتوكل وعم المعتضد وكان أديبا شاعرا.

سنة ٢٨٣ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الخميس ١٩ فبراير ٨٩٦م.

* خُلع جيش بن خُمارويه بعد سبعة أشهر من توليه إمارة مصر خلفاً لأبيه خمارويه وقد اعترف فى مجلس عُقد له بعجزه عن القيام بتدبير المملكة وشهد على المحضر عدول البلد وذلك فى العاشر من جمادى الاخرة وتوفى بعد أيام مقتولا فى سجنه، وكان عدد من كبار قواده قد هرب إلى المعتضد ببغداد.

* تولى أبو موسى هرون بن خُمارويه إمارة مصر على أثر خلع أخيه وتولى أبو جعفر بن أُبَيّ الوصاية عليه.

* سار الخليفة المعتضد للمرة الثالثة إلى الموصل للقضاء على فتنة هرون الشارى زعيم الصُفّرية فظفر به وقتله.

* جرى الفداء فى هذه السنة بين المسلمين والروم فكان جملة من فودى به من المسلمين

صليبية لا تنزاع الأراضي المقدسة من أيدى المسلمين، لوجدنا أنها تنبع من عدة مسببات، فهذا المشروع العاطفي الديني الكبير يتناسب مع شخصيته وتفكيره وتربيته. فقد كان نقفور شديد التدين والورع وفي نفس الوقت كان عسكريا فذا، فأراد أن يوظف قدرته العسكرية في خدمة العقيدة، وكان يفكر في هذا المشروع حتى قبل توليه العرش، عندما هاجم حلب وقضى على قوات الدولة الحمدانية، مما جله يستمرء الحرب مع المسلمين ويخطط لها. ولهذا ففي العام التالي لتوليه

القطع والتبضيع ان طبيعة اللاهوت ماتت، هم وجماعة سكان بضيعة من اعمال الصعيد تسمى البلينا وما معها من الاعمال التى حولها. فلما بلغ الخبر الى ابينا انبا شنوده البطرك هدم قوة الشياطن وقلع اصل شوكه الذى غرسه فى قلوب المخالفين، كما قال الابركسيس: ان يهوذا الجليلى قام فى تلك الايام وقاد اليه كثير وفى الاخير هلك ومن كان معه تبدد. فلما تكلم اوليك بهذا الكلام ذاع فى تلك الكورة وبقية المدن والضياع وظهرت قلة

من الرجال والنساء والصبيان ألفين وخمسمائة وأربعة أنفس، ووافقت هذه السنة غارة الصقالبة من البلغار على القسطنطينية وإستعانة الامبراطور بأسرى المسلمين فى ردهم وإعلان استقلال الكنيسة البلغارية عن القسطنطينية.

* ولد بمصر المؤرخ أبو عمر الكِنْدى مؤلف كتاب الولاة والقضاة أى ولاة مصر وقضاتها، وفيها مولد الطبيب ابن زَهْرون (ثابت بن ابراهيم) بمدينة الرَّقة التى انتقل منها إلى بغداد وعاش بها.

* توفى فى هذه السنة الشاعر العباسى ابن الرومى (على بن العباس) عن اثنين وستين وقيل توفى مسموما لهجوه الوزير عبيدالله، له ديوان شعر مطبوع متداول، وفيها توفى بالبصرة الأديب الراوية أبو العَيْنَاء (محمد بن القاسم) عن اثنين وتسعين.

* توفى من رجال الحكم فى هذا التاريخ: محمد بن زيادة الله الأغلبى بتدبير إبن عمه ابراهيم الأغلبي أمير تونس، وفيها توفى أبو العشائر نصر بن أحمد ابن طولون بتدبير ابن أخيه جيش بن خمارويه، وفيها توفى رافع بن هَرْثَمة أمير خراسان من قبل الطاهرين قُتل فى حرب الصَّفار وكان على جيش المعتضد، وفيها توفى الوزير الأندلسى الأديب تمام بن عامر الثقفى عن تسع وثمانين وزر لمحمد الأول وخليفته وله ارجوزة أرخ بها فتح الأندلس.

فـــهم رعـــاتهم فى تلك الايام، وهو انه اضطرب واهتم اليـــهم بقلق عظيم ليـــصلح قطيع الرب الخلص يسوع المسيح باى وصل يعيد لله الاعضا التى فصلها ابليس من البيعة والامانة الارتدكسية، وكتب كتبا مملوة حكمة ووصايا واظهر فيها تعاليم ابائنا المعلمين الى هولا الذين احـتـــوا عليـــهم الشيطان، ولما وصلت اليهم وقريت عليهم اعترفو بالامانة المستقيمة والدين الصحيح دين ابائنا وكتبو يعترفو بضلالتهم ويسالو الصفح عنهم ويومنو

العرش، وقبيل أن ينظم جبهته الداخلية، ويؤمن الوطن من البلغار، كتب في عام ٩٦٤م رسالة الى الخليفة العباسي المطيع لله، يتوعده فيها بالويل والثبور وعظائم الأمور، وأنه قادم لا محالة لا تنزاع الأرض المقدسة في فلسطين وبيت المقدس، وللأسف لم يؤخذ هذا الانذار مأخذ الجد من قبل الخليفة وبلاط قصره في بغداد.

كذلك فقدى راى نقفور فوقاس أن قيامه بمثل هذه الحملة الصليبية، سوف يلهب عواطف شعوب

---

* توفى الفقيه الصوفي سهل التُسْتَرى عن ثلاث وثمانين له رقائق المحبين، والزاهد العابد السرّاج النيسابورى، وقاضي القضاة ابن أبي الشوارب.

سنة ٢٨٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٨ فبراير ٨٩٧م.

* السنة الأولى من ولاية هارون بن خمارويه على مصر.

* انفق عمر بن الليث الصفار ألف ألف درهم لاصلاح طريق الحج من العراق إلى مكة وبالغ في التقرب للخليفة بأن بعث برأس الثائر رافع بن هَرْثمة لينصب في بغداد.

* أوقع الأمير عيسى النُوشَرى (أمير مصر بعد ذلك) الهزيمة ببكر ابن أبي دُلف الذى أظهر العصيان واستباح عسكره عند أصبهان.

* إنتقضت طَرَسوس على بنى طولون بعد أن أخرجوا عامل مصر منها فولى المعتضد ابن الاخشيد.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

الامبراطورية، وتجمع الأفئدة من حوله، وتنسيهم تهمة التآمر والخيانة على رومانوس، وهى تهمة كان الرهبان قد عمقوها فى أذهان الناس، وتحت اليها الكنيسة برفضها تتويجه امبراطورا؛ وحتى لا يبدو فى عيون الناس مغتصبا للعرش، كان عليه أن يبحث عن دور مؤثر يبدو فيه رجل العناية الالهية، التى أجلسته على العرش لهذه لرسالة الكبرى؛ كما هدف من ذلك أيضا تحويل انتباه الناس عن الكنيسة، التى كانت تدخل فى صراع معه؛ وامتصاص غضب الجماهير؛ بعد

بالايمان الصحيحة. ثم ان الاساقفة الذين فى تلك المواضع حضرو الى الاب البطرك وسجدو له على الارض قايلين له: قد اضيت نفوسنا وابريتها من السقم بتعاليمك المحيية، ولم تتركنا وشعبنا فى الضلالة هذه المدة، ولو غفلت عنا قليلا كنا هلكنا، وكان المناصب للحق العدو الملعون قد اصادنا فى شركه ولم نقدر على ان نخلص منه. فعمل الاب البطرك انبا شنوده عملا حسنا لكى يكون تاديبا للاساقفة وغيرهم وكلمن يحيد عن

---

* ولد بأصفهان مؤلف الموسوعات أبو الفرج الأصَفَهانى مؤلف كتاب الأغانى وغيره وانتقل إلى بغداد وعاش بها.

* توفى فى هذه السنة الشاعر أبو عُبادة البُحتُرى (الوليد بن عُبيد) أحد فحول شعراء العصر وذلك عن ثمان وسبعين بمسقط رأسه مَنبِج، ديوان شعره وديوان حماسته مشهور متداول.

* دبر البربر مقتل الأمير الأندلسى أبى عثمان سعيد بن جودى الذى تزعم عرب القَيْسية فى وجه إتساع نفوذ البربر.

سنة ٢٨٥ هجرية

وافق هلال المحرم يوم السبت ٢٨ يناير ٨٩٨م.

* عصفت رياح سافية على جنوب العراق أعقبها مطر وبَرَد وزن البَرَدَة مائة وخمسون درهماً واقتلعت الرياح مئات النخيل.

* غزا الصائفة راغب الخادم مولى الموفق ودخل أرض الروم براً وبحراً واستولى على عدة سفن لهم، كما بلغ ابن الأخشيد فى غزاته اسكندرونة.

الامانة ان جعل هولا الاساقفة الصعيدين قامو فى وسط جماعة الابا الرهبان القديسين فى بيعة القديس ابو مقار يوم الحد الفصح المقدس، ووضعو مطانوه للجماعة وسالوهم ورغبو اليهم ان يصلو عنهم ويستغفرو لهم مما كان الشيطان صنعه لهم من التجارب، وقالو باعتراف: انا كنا جدفنا تجديفا عظيما من تعليم الشيطان اللعين. وذكروه حرفاحرفا حتى عجب كل احد من الابا الحاضرين من كلامهم، فصلو عليهم وباركو عليهم وفرحو

مصادرته لممتلكات الأديرة، وكبار رجال الدين والنبلاء والأغنياء؛ واقناع الناس أنه فعل ذلك من أجل قضية عزيزة على قلوب الروم جميعا الا وهى استعادة الأرض المقدسة فى فلسطين.

كذلك كان هدف نقفور من هذه الحرب المقدسة، تأجيج عواطف المسيحيين فى الغرب الأوروبى، وكسب تعاطفهم معه من أجل ابطال مشروع أوتو الكبير فى تأسيس امبراطورية رومانية واحدة مقدسة تدافع عن المسيحية؛ ولكى يعلن

سنة ٢٨٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ١٧ يناير ٨٩٩م.

* ظهر بالبحرين أبو سعيد الجنّابى زعيم القَرَامطة وقويت شوكته بما إنضم اليه خلال السنة من الأعراب حتى انه قصد البصرة فبنى المعتضد عليها سوراً.

* سأل هرون بن خمارويه الخليفة تجديد ولايته على مصر والشام مقابل أن يتنازل له عن حكم قِنّسْرين والثغور مع أربعمائة ألف دينار تحمل إليه كل سنة فأجابه المعتضد.

* وقعت الحرب بين اسماعيل السامانى وعمرو بن الليث الصفّار فأنكسر عمرو مرتين ثم قبض عليه أهل بَلْخ وحملوه إلى السامانى فأكرمه وبعث به إلى الخليفة الذى شهّره وحبسه إلى أن مات.

* توفى فى هذه السنة أسحق الأحمر مؤسس الفرقة الإسحاقية من غُلاة الشيعة.

سنة ٢٨٧ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الاثنين ٧ يناير ٩٠٠م.

* تفشى خطر القرامطة وأغاروا على البصرة فسار لحربهم العباس الغنوى ولكنه هُزم وأسر وقتل خلق من جنده.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

للغرب أن رسالة الدفاع عن المسيحية منوط بها رجل واحد، هو الامبراطور الحقيقي للرومان؛ ومنوط بها الامبراطورية الرومانية الشرقية، والتي لا يجب أن يكون هناك امبراطورية غيرها؛ ولا امبراطورا آخر غير امبراطورها، وبالفعل لفتت هذه الحملة أنظار الكنيسة الغربية الى قضية طرد المسلمين من الأراضي المقدسة، واعلان الجهاد المقدس من أجل هذا الشأن. فكانت حملته ممهدة للحروب الصليبية الكبرى ضد المشرق الاسلامي في القرن الحادى عشر؛ ولا

برجوعهم عن الامانة الردية التى زرعها الشيطان فى قلوبهم، وفرح ايضا بذلك الاب انبا شنوده وباركهم. وكان فى تلك الساعة كلام عجيب قاله الاب وكان كالنبوة وهو امر مخوف، وكان فى بيعة القديس ابو مقار فى ذلك اليوم اسقفان احدهما اسقف سمنود والاخر اسقف منية طانة، لما نظرو الى فعل البطرك مع الاساقفة الصعيدين الذين ضلو ورعيتهم بقولهم ان اللاهوت مات، وكانا هذان الاسقفان امانتهما مفسودة ايضا، ولما

---

* أوقع بدر غلام الطائى بالقرامطة على غرة فقتل منهم مقتلة عظيمة.

* توفيت ببغداد فى التاسع من رجب فى هذه السنة الأميرة المصرية قطر الندى (أو أسماء) بنت خُمارويه أمير مصر الطولونى وزوجة الخليفة المتعضد وكان قد عقد قرانها بها فى عام ٢٨١ ووصل ركبها إلى بغداد فى المحرم من السنة التالية، فكانت مدة زواجها خمس سنين وسبعة أشهر.

سنة ٢٨٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة ٢٦ ديسمبر ٩٠٠م.

* وافق السادس من المحرم إنقضاء تسعة قرون شمسية ميلادية.

* ظهر أبو عبدالله الشيعى داعية الفاطميين فى المغرب قادماً اليه من اليمين واتخذ من موضع يعرف باسم «فج الأخيار» مركزا لدعوته بين قبائل كُتامة متنبئاً بقرب ظهور المهدى المنتظر.

سنة ٢٨٩ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ١٦ ديسمبر ٩٠١م.

* جلس على دست الخلافة العباسية ببغداد الخليفة المكتفى بالله (أبو الحسن على) بويع

علم بالروح القدس فعل هذا باساقفة الصعيد قدامهم لكى تظهر امانة هذين الاسقفين فى ذلك الوقت فتفهما وقال لبعضهما بعض كما قال اهل اثناس لبولس الرسول فى الابركسيس: ما هذا التعليم الجديد؟ انك تاتى الى مسامعنا بكلام غريب. فسمعهما انسان عارف بالكتب المقدسة فاردى قلبه ايمانهما، ثم جا هذا الانسان الى الاب البطرك واعلمه بما قالاه هذين الاسقفين. فتعجب وقال كلمة نبوة الذى كانت قطع عليهما قال

تختلف حملة نقفور فوقاس عن الحملات الصليبية الغربية سوى أن القسطنطينية هى التى تحملت وحدها وزرها، وأن الكنيسة الأرثوذكسية لم تباركها، ولم تدع الى الجهاد من أجلها.

أما السبب العسكرى المباشر، فهو استغلال فرصة نادرة، وهى تدهور الدولة العباسية وضعفها، وتفككها إلى دويلات اسلامية متعددة، فقد استقلت مصر عن الدولة العباسية منذ عهد بنى طولون (٨٦٨ ـ ٩٠٥)، ثم تلاهم بنو الأخشيد (٩٣٥ ـ

يوم وفاة أبيه الخليفة المعتضد وبعهد منه وذلك فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر، وله من العمر ست وعشرون، أمه أم ولد تركية تسمى جيجك.

* إنتشرت القرامطة بسواد الكوفة يتزعمهم ابن أبى الفوارس الذى وقع فى أسر المعتضد فحمل مع جماعة منهم فعذبوا وصلبوا.

* أعلن محمد بن هارون قائد اسماعيل السامانى الثورة فسار اليه اسماعيل وهزمه وضم الرى وقزوين اليه.

* توفى فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر ببغداد الخليفة العباسى المعتضد بالله ابن أبى أحمد الموفق وخليفة عمه المعتمد، توفى وله من العمر سبع وأربعون ودفن بدار الرخام ومدة خلافته تسع سنين وتسعة أشهر، وهو الذى كان قد تزوج قطر الندى ابنة خمارويه والتى توفيت قبل عامين.

* توفى أمير تونس ابراهيم الثانى الأغلبى فى السابع عشر من ذى القعدة عند كونسشيا الايطالية غازياً ومدة إمارته ٢٨ سنة و٦ أشهر.

* توفى بنيسابور أمير خراسان عمرو بن الليث الصَّفَّار بعد حكم دام أربعاً وعشرين سنة وانتهى الى العزل والحبس قبل أن يعيده المعتضد إلى خراسان.

٩٦٩م)، كما استقل بنو سيف الدولة الحمدانى بشمال الشام؛ واستولوا على المدن الرئيسية فيه، مثل حلب، وحمص، وحماة، وأنطاكية، واللاذقية، وشيزر، واستقل اقليم خراسان، وقامت فيه الدولة الطاهرية؛ كما استقل الأغالبة بشمال أفريقيا؛ واغلب العنصر الفارسى على البلاط فى بغداد؛ وأصبح العباسيون ألعوبة فى أيدى البويهيين. ونظرا لانسلاخ الشام من بين أيديهم، لم يعد العباسيون يهتمون بالدفاع عنها؛ ومن ثم ترك الشام لقدره، يواجه وحده

المثل المكتوب فى انجيل لوقا: اتظنو ان هولا الجليليين اكثر خطايا من كل اهل الجليل، ليس كذلك فان لم تتوبو فانكم تهلكون كذلك، ومثل الثمانية عشر الذى سقط عليهم البرج فى سيلوحا وقتلهم اكثر خطية من رجال يروشليم، لا اقول لكم ان لم تتوبو تهلكو مثلهم. هذا ما قاله الاب انبا شنوده البطرك ولم تعلم الاسقفان انه وبخهما به وقطع عليهما الرب الذى يعلم الخطايا، فعل

سنة ٢٩٠ هجرية

استهل المحرم بيوم الأحد الموافق ٥ ديسمبر ٩٠٢م.

* عاث القرامطة فى أرض الشام بزعامة يحيى بن زَكْرَوَيه وهزموا أمير دمشق طُغْج الأخشيد وأبا الاخر قائد جيش الخليفة، وانتهت الوقائع بهزيمة القرمطى وقتله على يد بدر الحمامى قائد هرون بن خمارويه الطولونى.

* ولى القرامطة الحسين بن زَكْرَوَيه الملقب ذو الشامة خلفاً لأخيه يحيى المقتول وهرب ذو الشامةى بعد الهزيمة إلى نواحى الكوفة.

* تولى إمارة تونس أبو العباس عبدالله الثانى خلفاً لابراهيم الأغلبى وبعد شهر من ولايته خلفه أبو نصر زيادة الثالث.

* توفى مقتولاً الأمير الأغلبى أبو العباس عبدالله الثانى بعد أيام من توليه الامارة خلفاً لابراهيم الأغلبى، قتله بعض الصقالبة.

* قتل زعيم القرامطة يحيى بن زكرويه على يد بدر غلام أحمد بن طولون بعد أن عاث فى ما بين الشام والعراق.

امرا عجيبا لكلامه لانهما كانا متفكرين انهما لا يعودا الى الامانة الصحيحة بل يبقيا على ما هم عليه، فوقع بهما الانتقام وماتا بموت سو يعلم به كل احد فى بنا قبل ان يصلا الى كراسيهما.

والان يا احباى فيجب علينا حفظ الامانة الصحيحة بغير زوغان التى هى الصخرة الارتدكسية ليعتدونا مع من سلك الطريق المستقيم ونال النياح. اقول لكم انا الخاطى البايس كاتب

حملات الروم المقدسة؛ كما ثبت لنقفور من غزواته السابقة فى الشام، أن الدولة الحمدانية ليست ندا لجيوش الروم، وبأختصار، لقد كان وضع الدولة العباسية ـ المنهوكة القوى ـ فرصة لن تتكرر لتصفية الحسابات القديمة معها.

مراحل الحرب المقدسة ونتائجها:

وكرجل دارس لفن الاستراتيجية العسكرية، فان نقفور لم يجازف بالهجوم على الأرض المقدسة مرة واحدة؛ وانما مهد للحملة بحروب صغيرة استولى خلالها على الممرات

سنة ٢٩١ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الخميس ٢٤ نوفمبر ٩٠٣م.

* فى هذه السنة زوّج الخليفة المكتفى ابنه أبا محمد من إبنة وزيره القاسم ابن عبيد الله، وكان صداقها مائة ألف دينار.

* أغارت جموع الترك الشرقيين على حدود الدولة السامانية فنادى أميرها اسماعيل بن أحمد الساماني بالنفير فهرع اليه المتطوعة من خراسان وسِجِسْتان وطَبَرستان وأخذوا الترك على غرة وأوقعوا بهم هزيمة ما حقة.

* أنفذ الامبراطور البيزنطى ليو السادس جيشاً قوامه مائة ألف فبلغوا مدينة الحدث فنهبوا وسبوا وأحرقوا، وفى السنة نفسها غزا الصائفة غلام زراقة من طَرَسوس فبلغ انطاكية واستولى عليها عنوة وقتل نحواً من خمسة آلاف وأسر ضعفهم واستنقذ أربعة آلاف من أسرى المسلمين وفاضت الغنائم حتى كان سهم الفارس ألف دينار.

* وقع فى الأسر الزعيم القرمطى الحسين بن زكرويه قبض عليه رجل من قرية الدالية على طريق الكوفة فأرسل إلى بغداد مشهراً على جمل وزينت المدينة إبتهاجاً بالقبض عليه ثم قتل وصلب فى حضرة الخليفة.

* لقى مصرعه صلباً الثائر القرمطى الحسين بن زكرويه صاحب الشامة.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

والمعاقل، والقلاع الهامة، في آسيا الصغرى والشام؛ ومن ثم ركز أول حروبه التمهيدية على اقليم قلقيلية (كيليكيا) المتاخم لحدود الشام الشمالية، وتمكن ما بين عامي ٩٦٣ ـ ٩٦٥م من الاستيلاء على المعاقل الرئيسية للمسلمين مثل أدنة Ada-na(في جنوب شرق آسيا الصغرى شمال شرق سيناء طرسوس) وطرسوس والمصيصة (مامسترا Ma-mistra في قلقيلية) كما استولت قواته أيضا على جزيرة قبرص عام ٩٦٥م. وبالاستيلاء على قبرص ومن

هذه السيرة انني رايت بعيني ذلك انه دفعات شتى ينظر الى السما ويصلب على وجهه ويقول: ياربى يسوع المسيح عيننى وتراف على وافتقدني برحمتك. فلما تاملته اول يوم ظهر لى امرا عجيبا وهو ان في تلك [الساعة] التى رايته شاخصا الى السما يقول هذا قد طرى امرا نزل الينا ويشغل قلبه، فاعلم انه كان في تلك الساعة (وهكذا كان في كل ساعة يفعل هذا) اتصل الخبر بشى، كان قد وصل في تلك الايام من جنس المسلمين من

سنة ٢٩٢ هجرية

استهل المحرم بيوم الثلاثاء الموافق ١٣ نوفمبر ٩٠٤م.

* شهدت هذه السنة نهاية الدولة الطولونية في مصر والشام منذ أن استقل أحمد بن طولون بحكم مصر عام ٢٥٨ هـ وقد عاشت ٣٤ سنة، وهى أول دولة شبه مستقلة قامت في مصر بعد الغزو العربى.

* تولى شيبان بن أحمد بن طولون إمارة مصر بعد مقتل ابن أخيه هارون ابن خمارويه في التاسع عشر من صفر ولكن إمارته لم تدم سوى إثنى عشر يوماً.

* دخل محمد بن سليمان العباسي مصر كما وصلها اسطول من ثماني سفن حربية عليها أمير البحر دميانة وتم استسلام شيبان الطولوني وحمله مع أهل البيت الطولوني إلى بغداد فبذلك عادت مصر إلى السيادة العباسية فتولاها محمد ابن سليمان وخلفه قبل نهاية السنة عيسى النُوْشَرى.

* أحرق القائد العباسى محمد بن سليمان على أثر استسلام شيبان الطولونى مدينة القطائع حتى صارت خراباً.

* استولى اسطول عربى على تِسَاليا اليونانية ابان حكم الامبراطور ليو السادس.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

خراسان قوما جند مضو الى اسكندريه وسالو عن ابينا البطريك، فقالو لهم المومنين: ماذا تطلبون منه؟ فقالو: ان اولاد الياس الذى كان واليا انفذونا اليه بمال ندفعه له وكان ابوهم قد اخذه من البطرك. فعلم الجمع انه المال الذى اخذه والى اسكندريه من الاب البطرك انبا يعقوب عند خروج الدم من الكاس الفضة لما ارادو كسره، فوجدوه فى سخا فجاؤ اليه واعلموه الخبر وان الياس الوالى فى يوم وفاته اوصى اولاده ان ينفذو

قبل كريت - أوقف نقفور فوقاس غارت المسلمين البحرية على شواطئ بحر ايجة والأناضول، وظهر أسطولهم من جديد كقوة بحرية تسيطر على الحوض الشرقى للبحر المتوسط، ولقد عاث جنود الاسطول الرومى نهبا وسلبا فى هذه المدن السورية الشمالية، حتى قيل أن بوابات هذه المدن البرونزية الضخمة اقتلعت ونقلت الى القسطنطينية كشاهد على انتصاراته.

أما الفترة ما بين ٩٦٦ - ٩٦٧م فقد خصصها للاغارة على الشام

---

* توفى قتيلاً فى الثانى عشر من صفر أمير مصر أبو موسى هارون بن خمارويه رابع الأمراء الطولونيين عن ثمان وعشرين وخلفه عمه شيبان لمدة أيام.

سنة ٢٩٣ هجرية

وافق هلال المحرم يوم السبت ٢ نوفمبر ٩٠٥م.

* توالى ثلاث ولاة على مصر فى هذه السنة: ففى الثالث من المحرم استولى محمد بن على الخَلَنْجِى الطولونى على الحكمى قسراً من عيسى النُوْشَرِى ثم استعادها منه بحد السلاح فاتك قائد الخليفة بعد أن هزم جيشان للخليفة كان على الأول ابن ألاغر وعلى الثانى ابن كَيْغَلَغ.

* أقيم على دجلة مقياس مثل مقياس الروضة بمصر طوله ٢٥ ذراعاً ولكل ذراع علامات وذلك بعد الفيضان المدمر (ولكن لم يلبث أن خرب).

* عاثت القرامطة ببلاد الشام وعلى رأسهم أبو غانم عبدالله بن سعيد القَرْمَطى الذى استولى على بُصرى ثم على طَبَرية ثم على هيت، كما دخلوا دمشق ونهبوها واتجهوا من بادية السماوة إلى الكوفة وأوقعوا الهزيمة بقوات للخليفة.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

وحصونه وقلاعه، وكما توقع نقفور، لم يصمد سيف الدولة الحمداني ففر هاربا الى شيزر؛ وكان يمكن لنقفور أن يتقدم لاجتياح الشام، لولا علمه بوقوع بعض القلاقل في الوطن، التي كانت تقتضي منه العودة للقضاء عليها، كما أن النقص في المؤن والعتاد، لم يشجعه على التوغل في بلاد المسلمين. كما كان عليه أن يؤمن جبهته مع البلغار، قبل أن يشرع في الهجوم الكبير، ولهذا أوقف المعركة وعاد الى القسطنطينية في مطلع عام ٩٦٧م. وعندما جاءت الى

هذا المال وهو كذا وكذا الى كرسى اسكندريه لاننى اخذته وقت كونى واليا بها من بطرك اسمه يعقوب فتسلو [فتسألوا] عن البطرك فى هذا الوقت الذى قام عوضا منه وتسالوه ان يحللنى من رباطى ثم يجيبون لكم الرسل الذين يمضون بالمال رقعة من البطرك الذى يجلس بعده. فلما سمع الاب انبا شنوده هذا لم يهمه هذا الامر ولا اخذ المال بالجملة وكان رجاه بالرب الغنى بالرحمة وكان يقول قول بولس: «الذى احسبه انه ربح

---

* قتل فى هذه السنة أبو عبدالله الخَلَنْجي الذى استولى على مصر وحكمها شهورا كما استولى على أنحاء من فلسطين حتى ظفر به فاتك قائد جيش الخليفة المكتفى.

سنة ٢٩٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء الموافق ٢٢ أكتوبر ٩٠٦م.

* تولى إمارة مصر للمرة الثانية عيسى النُّوْشَرى بعد أن استعادها قائد المكتفى فَاتك الخادم.

* خرج زَكْرَوَيه القَرْمَطى لاعتراض قافلة الحاج الثانية وسلب ما قيمته ألفا ألفى دينار ثم انتظر قدوم القافلة الثالثة وفيها خزائن الخليفة وتم له سلبها بعد أن وضع السيف فى جميع الحاج الذين استسلموا له بسبب نفاد الماء فعظم ذلك على المكتفى فأنفذ لقتاله وصيفاً الخادم الذى هزمه ولقى القرمطى مصرعه فى المعركة (٥ ربيع الأول).

* أغارت الروم على قُورُس من أعمال حلب فقاتلهم أهلها قتالاً شديداً ثم انهزموا فدخلها الروم وأحرقوا جامعها وساقوا من بقى من أهلها أسرى.

* توفى فى هذه السنة من رجال الحكم: أبو حاتم بن أفْلَح سادس أمراء الدولة الرُسْتُمية الإباضية بالمغرب الأوسط ومدة حكمه ثلاثة عشر عاماً وكانت تَاهَرْت عاصمة له، وفيها توفى بالأندلس لُبّ بن قَرْتُون غازياً وكان على طَرَسونة وتطيلة فى إمارة عبدالله الأموى.

احسبه خسارة لاجل المسيح الذى خسرت كل شى لاجله. واعده كلا شيد لاربح المسيح لاننى اعرف الذى يومن به وقلبى طيب انه يقدر ان يحفظنى الى يوم وفاتى». ولم يزالو الرسل المذكورين يسالوه ان يجعل ذلك الانسان فى حل كما اوصاهم اولاده والا فما يقدرو على العودة، فسالناه نحن اصحابه ورغبنا اليه ان لا يدع هولا القوم مع بعد المسافة ان يضيع تعبهم حتى يحلله فكتب اليهم يقول: الذى وصلتم لاجله فى حل وطابت

القسطنطينية سفارة بلغارية تطالب باتاوة مالية كبيرة، رفض نقفور الاذعان لمطالب البلغار وأعلن الحرب عليهم؛ وتوغل فى أراضيهم حتى جبال البلقان؛ كما أرسل الى ملك الروس سفايتو سلاف Swaitoslav رسالة، حثه فيها على التوسع فى الاراضى البلغارية، ومنحه التأييد اللازم؛ وبالفعل غزة الدولة الروسية الوليدة بلغاريا من الشمال عن طريق نهر الدنيبر، وقضوا عليها، ثم عبر الروس جبال البلقان؛ وظهروا فى سهول تراقيا، وطمعوا فيها؛ ورفضوا

---

* توفى قتلاً زَكَرَوَيه القَرْمَطى ممن ادعوا الألوهية ولزم قطع الطريق على الحاج وقتل جميع من يستسلمون له، قتل على يد وصيف قائد المكتفي وأحرق جثمانه وأرسل رأسه إلى خُراسان حتى لا ينقطع أهلها عن الحج.

سنة ٢٩٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ١٢ أكتوبر ٩٠٧م.

* تولى الخلافة العباسية ببغداد أبو جعفر المقتدر بالله بن المعتضد خلفاً لأخيه المكتفى، أمه أم ولد تسمى شَغَب، تولى صبياً وله من العمر ثلاثة عشرة ولكن خلافته دامت نحواً من ربع قرن.

* عاصر المقتدر العباسي: فى الأندلس أبو محمد عبدالله الأول ثم ابنه عبدالرحمن الناصر أول من تلقب بالخليفة وأمير المؤمنين فى الأندلس، وفى المغرب عاصره أول الدولة الفاطمية عُبيد الله المهدى، وفى بيزنطة ليو السادس وقسطنطين السابع ورومانوس الأول، وفى فرنسا شارل الثالث وروبرت الأول، وفى إنجلترا ادوارد الأول.

* جرى فى هذه السنة الفداء بين المسلمين والروم وكانت عدة من فودى ثلاثة آلاف انسان.

الانسحاب منها خاصة بعد علمهم بموت ملك البلغار.

وبعد غيبة عام ونصف عام عاد نقفور الى الشام،وكانت الظروف مواتية تماما له، فقد توفي سيف الدولة الحمداني، عماد الدولة الحمدانية؛ وخلفه ابن له ضعيف اسمه سعد الدولة، آثر أن يذعن لمطالب الروم، واستسلمت معاقل الحمدانيين فى حماة وحمص وشيزر، وفتحت لنقفور بواباتها؛ وتعرضت طرابلس للتخريب، وتصالحت معه اللاذقية لتنجو من الخراب. وكان يمكن له أن

نفوسهم وعادو الى بلادهم فرحين. وكان الاب مهتم بمن بقى ممن ظل بهواه فى اثر الشيطان.

ولما كان فى تلك الايام وجعفر المتوكل يوميذ خليفة، ثار عليه ولده محمد وكنيته المنتصر، فغلبه واخذ مملكته، فلما ولى عزل جميع الولاة الذين كانو فى زمان ابيه، وكذلك سليمان ابن وهب الوزير الذى كان محبا للاب جدا، وانفذ الى مصر انسان يعرف باحمد ابن محمد المدبر، فكان رجلا

---

* وصل عبيد الله المهدى متخفياً إلى شمال افريقية قادماً من سَلَمْيَة بسورية بعد أن مهد للدعوة الفاطمية أبو عبدالله الشيعي ثم استخدم القوة فى نشرها مستغلاً ضعف حكم الأغالبة.

* توفى مريضاً فى الثاني عشر من ذى القعدة الخليفة العباسي المكتفي بالله عن واحد وثلاثين عاماً ومدة خلافته نحواً من ست سنين وفى أيامه استولى المسلمون على أنْطاكية ثانية العواصم البيزنطية، وخلف فى بيت المال ما جملته خمسة عشر ألف ألف دينار.

* توفى فى منتصف صفر من السنة اسماعيل الساماني ثاني سلاطين الدولة السامانية فى أسيا الوسطى ودام حكمه ست سنوات وخلفه ابنه أبو نصر أحمد.

* توفى بالأندلس موسى بن ذى النون الثائرى البربرى على أمير الأندلس أبى محمد عبدالله وجد بنى ذى النُّون أصحاب طُلَيْطلة بعد ذلك.

سنة ٢٩٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الجمعة ٣٠ سبتمبر ٩٠٨م.

* شهدت هذه السنة نهاية دولة الأغالبة بتونس على يد الفاطميين وكان عاشر الأغالبة

شـديد صعب في افعـاله مخوف عند كل احـد لا يغلب، ففعل افعالا لم يفعلها احد قبله. وكان قد اقام بفلسطين مـدة كـبيـرة واذاق اهل تلك البـلاد صعـوبة وبلايا، ويقـال انه لم يسـمـع بمن يجـرى مـجـراه في فـهـمـه وتقـدمتـه عند الملوك، وكـان يحـسب لهم فـصـولا لا يفـهـمـوها. وكـان عـشـرة لكلمن يجالسه في امور المملكة، وكان جميع من في الدولة يريد ابعاده عن الملك لهذا، وكان عليه خـراج كثـير عن زراعـة اواسيـه فـارادو ان يجـربوه

يتقدم بسهولة نحو فلسطين، غير أنه غادر الشام عائدا الى القسطنطينية، تاركـا جنده يكملون غـزو المواقع والمدن الاستراتيجية. وكان أكبر نصر حـقـقـه جنوده، هو الاستيـلاء على أنطاكية في خريف عام ٩٦٩م. فقد كان لهذه المدينة مزايا استراتيجية هامة، لأنها المعقل الأمامي والرئيسي للشام، كما كانت ذات مركز تجاري هام، فضلا عن أهميتها الدينية؛ فقد كـانت المقـر الأصلي لكرسي البطريركـية . ثم حاصرت جيـوش نقفور مدينة حلب الشهباء. عاصمة

وآخرهم أبو نصر زيادة الله الثالث وفي أيامه إستولي أبو عبدالله الشيعي على عاصمته رقادة (٢٥ جمادى الاخرة) فخرج هارباً إلى مصر وتوفي بالرملة من فلسطين.

* شهدت هذه السنة زوال الدولة الرستمية الاباضية بافريقيا بعد مقتل آخر أئمتها اليقظان بن محمد على يد أبي عبدالله الشيعي.

* قبض أليسع بن مدرار أمير سجلماسة على عبيدالله المهدى (أول الفاطميين بعد ذلك) الذى جاء الى المغرب متخفياً تطارده عيون الخليفة العباسي وأودعه السجن.

* خلع الخليفة المقتدر بالله العباسي بعد عام (٢١ ربيع أول) من توليته وبايعوا المعتز ولقبوه المنصف بالله ولم يلبث أن قتل وأعيد المقتدر إلى كرسي الخلافة.

* تولى وزارة المقتدر أبو الحسن على بن الفرات فصادر أموال جميع من خرجوا مع ابن المعتز وتولى شرطة المقتدر مؤنس الخازن.

* توفي مقتولاً الخليفة الشاعر عبدالله بن المعتز ابن الخليفة المتوكل الذى لم تدم خلافته سوى يوم وليلة له ديوان شعر متداول، كما قتل في أحداث خلع المقتدر الوزير أبو عبدالله محمد بن داود الجراح، والأمير أبو عبدالله محمد ابن الخليفة المعتمد وكان قد خوطب في تولي الخلافة ولكنه توفي في ساعته مفلوجاً، وفيها توفي سوسن حاجب المقتدر قتل على يد الوزير ابن الفرات.

فسلمو له اباه ليحاسبه فطالبه بجميع ما عليه بغير حشمة واستوفا منه الزايد حتى تعجبت الملوك وقررو له من الجارى فى الشهر ستة الف دينار فلما سمع ابونا البطرك بوصوله مصر حزن وقال الرب يزيل عن شعبه كل موامرة سو [مؤامرة سوء] كعادته. وكان يعرف ما يجرى بالنعمة التى كانت معه ويخاف على البيعة والديارات وسكانها. وعند وصوله [ابن المدبر] الى مصر وضع يده على كل [اواسى] المسلمين والنصارى واليهود واضعف

الحمدانيين وقلعتهم قرابة شهر كامل، حتى استسلمت، وعقد أميرها صلحا مع الروم فى أواخر عام ٩٦٩م ومطلع عام ٩٧٠م (صفر ٣٥٩هـ)، وقد حفظ لنا المؤرخ العربى ابن العديم تفاصيل ذلك الصلح، الذى بمقتضاه أذعنت حلب لنفوذ القسطنطينية. وكان سقوط حلب هو آخر ما وصل اليه جنود نقفور، بعدها خبأ نار الجهاد؛ ولم يتقدم جنود الروم نحو بيت المقدس، وبذلك انتهت هذه الحملة المقدسة.

سنة ٢٩٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء الموافق ٢٠ سبتمبر ٩٠٩م.

* هرع أبو عبدالله الشيعى إلى سجلْماسة واستخلص عبيدالله المهدى من السجن الذى أودعه فيه ألْيسع بن مدْرار وصحبه مَشرفاً إلى تونس وفى مدينة رَقَّادة عاصمة الأغالبة بويع عُبيد الله بالخلافة وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين (٢١ ربيع اخر).

* تولى إمارة مصر تَكِين الحربى خلفاً لعيسى النُّوْشَرى الذى توفى فى عامه وهى لاية تَكِين الأولى على مصر.

* استبد سبك السبكرى قائد عمرو الصَفَّار بحفيديه طاهر ويعقوب ابنى محمد بن عمرو وأرسلهما أسيرين إلى بغداد تقرباً للخليفة المقتدر.

* توفي أمير مصر عيسى النوشرى وكانت مدة ولايته خمس سنين وهو الذى قضى على ثورة الخَجَنْدى، حمل جثمانه إلى القدس ودفن بها.

سنة ٢٩٨ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الأحد ٩ سبتمبر ٩١٠م.

* قاد أبو عبدالله الشيعي جيشاً قضى به على ثورة لقبيلة زَنَاتَة ولكن لم يأت شهر جمادى

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

عليهم الخراج، فقوم لكل دينار دينار وقوم للدينار ثلثه حتى ملا الحبوس في كل الاماكن. وانفذ الى الديارات بكل موضع واحصى الرهبان التي فيها وطالبهم بالجزية والخراج عن الحشيش الذى في البهلس وعن النخل والشجر المثمرة المغروسة في بيوتهم. فلما اتصل الخبر بابينا انبا شنوده بكا بكا مرا وقال: ايها الجبل المقدس وادى هبيب الذى هو مينا الانفس الضالة كيف اقام عليك الشيطان هذا البلا الذى يحل بالقديسين الساكنين فيك وقد

نتائج الحملة:

وبالرغم من أن هذه الحملة قد أخفقت في هدفها الرئيسي وهو غزو بيت المقدس، الا أن الانتصارات التي حققتها على الحمدانيين، والاستيلاء على المعاقل الاستراتيجية الهامة في آسيا الصغيرى والشام، بعثت موجه من السرور والرضا بين جميع طوائف الشعب في القسطنطينية وانطلقت طاقاته الخلافة، تبدع في كافة مجالات الفكر والحضارة. ولهذا يتفق المؤرخون أن هذه الفترة والتي بدأت بحكم باسيليوس الأول ٨٦٧م وحتى

الثانية من السنة حتى عقد عبيدالله بالمهدى العزم على التخلص من قائده ومؤسس دولته عبدالله الشيعي ومن أخيه أبي العباس متهما اياهما بالتآمر على عرشه وتم له ذلك (١٥ جمادى) على يد عروبة بن يوسف الذى كافأه المهدى بتوليه على المغرب الأوسط.

* اقيمت أم موسى الهاشمية قَهْرَمَانة لقصر الخليفة تحمل الرسائل من المقتدر وأمه إلى الوزير، وهي التي أصبح لها شأن في تسيير أمور الدولة فيما بعد.

* قدم بغداد من غزو الصائفة القاسم بن سيما ومعه خلق من الأسرى وخمسون من أكابر الروم مشهرين على الجمال وبأيديهم صلبان الذهب والفضة.

* توفي ببغداد عن ثلاث وثمانين اسحق بن حُنين أحد مشاهير الأطباء والمترجمين من اليونانية والسريانية في العصر العباسي الأول منها كتب اَرِسْطاطاليس وكتب إقْليدس.

* توفي سلطان اليمن الزيدى الداعي إلى الحق (يحيى بن الحسين) مؤسس أسرة بني الرِّس الحاكمة عن ثمان وسبعين له مؤلفات منها: الاحكام في الحلال والحرام والرد على أهل الزيغ، وفيها توفي أمير خراسان محمد (الثاني) وهو الخامس من أمراء الطاهريين وبه انتهت سلالة هذه الأسرة.

* توفي في هذه السنة الفيلسوف المتهم بالزندقة والالحاد: ابن الرَّاوندى (أحمد ابن يحيى) واليه تنسب الفرقة الرَاوندية وكان أبوه يهودياً.

علمت الان ان هذا لاجل ذنوبى. وكـــان هذا الانســان الظالم يطلب الاب ليــاخــذه ويمضى يضمنه ما يتعلق بهذا الوادى وجميع الديارات التى بارض مصر، فلما عرف ابونا هذا قال: ماذا اصنع مع هذا الانسان. وخاف ان يقف فى وجهه اذا وجده فيكون سببا لهلاك الديارات والرهبان وعول على ان يهرب، وقال: لعلى اذ لم اجد ينسا هذه الامور التى بدا يفعلها. ثم انه غير حليته وزيه بزى متضع والذين كانو معه بارك عليهم وانفذهم الى

حكم باسيليوس الثانى ١٠٢٥م، هى أزهى عصور امبراطورية الروم، بل أطلقوا عليها العصر الذهبى الثانى للقسطنطينية؛ فقد أدت هذه الانتصارات الحربية إلى رخاء اقتصادى، بعد أن أدى وقف خطر الغارات الاسلامية الى استقرار الزراعة فى أقاليم الامبراطورية الشرقية، مما أدى الى وفرة انتاج الحاصلات؛ كما أدى الى اعادة تعمير المدن الاغريقية الرومانية العريقة.

يقابل ذلك فى العالم الاسلامى انتشار الفزع والخوف، والشعور بأن

سنة ٢٩٩ هجرية

وافقت غرة المحرم يوم الخميس ٢٩ أغسطس ٩١١م.

* وصلت طلائع القرامطة أبواب البصرة فردهم عنها عاملها ابن كُنْداجق وكان الوزير يستمده، وفيها دخل بالأمان إلى بغداد الأغبر والعظيم من قواد القرامطة.

* ثار أهل طرابلس على الخليفة الفاطمى عبيدالله مهدى ثم استردها وعين عليها أحد الزعماء الموالين له، كما ثارت عليه قبيلة كتامة انتقاما لمقتل أبى عبدالله الشيعى وكاتبوا الخليفة العباسي ببغداد.

* تولى أبو على بن عبدالله بن خاقان وزارة المقتدر بعد أن قبض على وزيره ابن الفرات ونهبت دوره على أثر ذلك شاع النهب فى بغداد كلها.

* ولى عبيدالله المهدى عليا بن عمر البلوى أميرا على صقلية بعد أن انسحبت من تبعية الأغالبة.

سنة ٣٠٠ هجرية

استهلت السنة الأخيرة من القرن الثالث الهجرى بيوم الثلاثاء الموافق ١٨ أغسطس ٩١٢م.

* تولى حكم الأندلس عبدالرحمن الناصر الحفيد السادس لعبدالرحمن الداخل مؤسس

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

مواضع، ومضى هو الى مكان لا يعرفه فيه احدا بالهيه [بالهيئة] التى تزيا بها، وتبعه شماسا كان كاتبا له. وكانو متشردين من موضع الى موضع فى البحر والبر، ودفعات يركبو مراكب بزى رهبان، ودفعات يمشو بارجلهم. وكذلك الاساقفة لم يقدرو ان يظهرو لاجل البطرك راسهم ومدبرهم. وفى تردد ابينا الى كل مكان ناله تعب عظيم.

وكان هذا الرجل الظالم يفتكر ماذا يفعله بالسبع ديارات [وهى ديارات مقار، برامـوس،

ديار الاسلام مقبلة على خطر داهم، وشخص المؤرخون المسلمون من أمثال ابن حوقل وغيره سبب انتصارات الروم بأنها نتيجة لضعف العرب وتفككهم.

نهاية نقفور فوقاس ٩٦٩م:

وبالرغم من هذه الانتصارات العظيمة، التى جلبت الرخاء والاستقرار، الا أنها قوبلت بالجحود والنكران من قبل البطريرك والرهبان، ومن طوائف الشعب، الذى كانت تسيطر عليه أوهام الكنيسة، كما أن سياسة التضيق المالى على الناس

هذا البيت تولى خلفاً لجده أبى محمد عبدالله على أثر وفاته فى هذه السنة دون معارضة من أعمامه فكانت سنه اثنين وعشرين عاماً وهو أول من حمل لقب الخلافة وعرف بأمير المؤمنين.

* ثارت طرابلس مرة أخرى فى وجه حكم عبيدالله الفاطمى فأنفذ اليها ابنه أبا القاسم الذى قضى على الثورة، كما نشبت ثورة فى صقلية وأخرج أهلها الوالى الفاطمى عليا البلوى واختاروا عربياً هو أحمد بن قرهب.

* شهدت هذه السنة أول حملة قام بها الفاطميون لغزو مصر قادها قائده حباسة ولكنها لم تتقدم أكثر من إقليم برقة، وكان عليها تكين الحربى للسنة الثالثة.

* وافق نهاية القرن الثالث وفاة الامبراطور البيزنطى ليو السادس.

سنة ٣٠١ هجرية

أهل القرن الرابع يوم السبت الموافق السابع من أغسطس ٩١٣م.

* شهد مولد القرن الرابع الهجرى: فى بغداد الخليفة المُقْتَدر بالله العباسى، وفى قُرْطبة عبدالرحمن الناصر، وفى المغرب يحيى الرابع الأدْريسى، وفى أفريقية عُبيدالله المهدى الفاطمى، وفى صِقِلّية أحمد بن قُرْهُب، وفى سِجِلْماسة أحمد ابن ميمون، وفى سِجِستان عمرو بن

جعلته مكروها. غير أن الشيء الذى لا نفهمه هو اشتراك زوجته يودوكسيا مع زمرة المتآمرين، الذين كان على رأسهم ابن أخيه يوحنا الزمسكى؛ وهو ضابط شاب كان قد عينه دمستقا Domisticus على الشرق وعاد لتوه من جبهة الحرب فى الشام ساخطا على تصرفات عمه؛ ومتطلعا للجلوس على العرش مكانه؛ ولقد صور الكتاب الروم ليلة تنفيذ المؤامرة بصورة مؤثرة؛ تعيد الى الأذهان مؤامرة اغتيال يوليوس قيصر فى روما قبل ذلك بألف وثلاثة عشرة سنة؛ اذ

السريان، يوحنا الصغير، الانبا مويس، يوحنا الاسود، بشوى] والبطريرك والاساقفة، ومن شر فعله انفذ الى كل مكان نوابا عنه، فمضو على قومة البيع واحضرو ما عند كل واحد من الة البيع لتحمل اليه ويطالبو القومة بديارية الاساقفة ويحملوها الى الديوان. وكذلك بيع مصر قبض عليها واحصى ما فيها من الالة، حتى انه امر ان تغلق البيع التى بها، ولا يمكنوهم من القربان الا فى بيعة واحدة. وكان النواب عنه ياخذو القومة

الليث الصَفار، وفى خراسان نصر السامانى، ومن الولاة فى مصر: أبو منصورتكين الرومى، وفى دمشق محمد ابن طُغج الأخشيدى، وفى حلب مُؤْنس الخادم، وفى الموصل أبو الهَيْجاء الحَمدانى، وفى مكة مُؤْنس المظَفر، وفى المدينة محمد بن يوسف العلوى، وفى البحرين أبو طاهر القرْمِطى، وعاصر مطلع هذا القرن فى أوروبا، قسطنطين السابع إمبراطور بيزنطة، وكُونْراد إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وفى فرنسا شارل البسيط، وفى انجلترا إدوارد الأكبر، وفى الصين أسرة التانج.

* تولى وزارة المقتدر على بن عيسى وكان أميرا على مكة، وفيها خلع المقتدر على إبنه العباس وهو إبن أربع سنين وقلده أعمال الحرب فى مصر والمغرب.

* تولى عرش خراسان وما وراء النهر الملكُ السعيد نصر السامانى خلفاً لأبيه أبى النصر أحمد على أثر اغتياله.

* خرج فى شوال من السنة عبدالرحمن الناصر فى غزوته الثانية لاخضاع الثورة التى قادها ابن حَفْصُون فى ريّة والجزيرة.

* استولى جيش عُبَيد الله المهدى الفاطمى على إقليم برقة وعليه قائده حَبَاسة ابن يوسف قاصداً الاسكندرية.

في كل مكان يحبسوهم ويقيدوهم بالحديد ويحملوهم الى مصر ليقومو بالديارية للديوان. وعول انه في زمانه اجمع ياخذ مال البيع والاساقفة والديارة للديوان.

فلما قرر هذا في ديار مصر ضاقت البيع وحزنو الاساقفة كقول زخريا النبي: صوت الرعاة حزن وتنهد عظيم. كذلك تلك الديارات المقدسة غرمو الابا الرهبان الخراج.

وكان البطرك هاربا من مكان الى مكان في

اقتحم عليه المتآمرون مخدعه الدافئ؛ يقودهم يوحنا الزمسكي نفسه وذلك في احدى ليالي شتاء عام ٩٦٩ القارسة البرودة ثم جروه من فراشه، وطرحوه أرضاً، ثم انهالوا عليه بالخناجر طعنا حتى لفظ أنفاسه.

الامبراطور يوحنا الزمسكي Tzimisles ٩٦٩، ٩٧٦م؛

عرف يوحنا الزمسكي في المصادر العربية باسم ابن الشمشيق أو ابن الشوموشيق؛ وتعزى المصادر الرومية السبب الذي دفعه لتدبير مقتل عمه بانه كان يطمع أن يقوم العم بنقل

---

* في السادس من ربيع ادخل إلى بغداد مُشَهَّرا على جمل الحَلاَّج المتهم بالزندقة وصُلب ثم حبس.

* ممن توفي في هذه السنة: أحمد بن نصر الساماني صاحب خراسان اغتاله بعض غلمانه، كما اغتيل أبو سعيد الجَنَّضاني القرمطي على يد خادم له وكان قد إستولى على بلاد البحرين والاحساء.

سنة ٣٠٢ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأربعاء ٢٧ من يوليو ٩١٤م.

* في أول المحرم دخل عسكر عبيدالله المهدى الفاطمي مدينة الأسكندرية بقيادة حَبَاسَة بن يوسف فسار إليه أبو منصور تَكين أمير مصر وكانت وقعة قتل فيها آلاف من الجانبين حتى كسر العسكر المصرى حباسة وأجلاه عن الأسكندرية ثم طارده إلى برقة.

* غزا الصائفة بشر الخادم ودخل أرض الروم ففتح وغنم وأسر مائة وخمسين بطريقا (قائداً وبلغ السبى ألفي إنسان.

* أسر نصر الساماني أمير خراسان عمه اسحق بن إسماعيل وكان قد خلع بيعة الخليفة المقتدر.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

البرد لانه كان زمان الشتا وهو حزين باكى على البيعة والاساقفة ويقول من داوود: انا وحدى اخطات، ماذا اصنع ببيعة الله حتى انزل عليها هذا البلا العظيم. ولم يزال هاربا متغربا الى تمام ستة شهور، فلما نظر الى غضب هذا الرجل [ابن المدبر] لا يرجع بل متزايد فاستعد الاب ان يسلم نفسه عن البيعة والاساقفة. وكان يقول: انسانا واحدا اذا افتقر لا يضطرب له كل مكان لكن اذا افتقر الموضع كله ضاق بسكانه فاسلم نفسه فدا

وراثة العرش الى بيت فوقاس بعد أن يتخلص من ولدى الامبراطور رومانوس القاصرين، وهما باسيليوس الثاني، وأخيه قسطنطين الثامن، وأن يعلن نقفور اختيار يوحنا وريثا للعرش، بصفته الساعد الأيمن له فى حروبه المقدسة فى الشام؛ ولما شعر يوحنا الزمسكي أن عمه لا ينوى ذلك مطلقا أقدم على التخلص من عمه، ولكى يبعد الأنظار عن ذلك، أعلن عقب توليه العرش، أنه يتعهد بحفظ العرش لولدى رومانوس.

---

* ممن ولد فى هذا التاريخ ببغداد الأديب المنشىء العباسى عيسى بن الجَرَّاح، وفيها ولد القاضى ابن قُرَيْعَة.

* توفى فى هذه السنة الشاعر البغدادى أبو الحسن بن بَسَّام عن ٨٢ عاماً وهو مؤلف كتاب المعاقرين.

* فيها توفى قاضى مصر والشام أبو زُرْعَة (محمد ابن عثمان) أول من حكم بمذهب الشافعى فى الشام وكانوا على مذهب الأوْزَاعى، وفيها توفى الفقية المصرى بِشْر بن نصر.

سنة ٣٠٣ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ١٧ يوليو ٩١٥م.

* اختط الخليفة الفاطمى عُبَيدُ الله المهدى مدينَتَه الجديدة بالقرب من القيروان وأسماها المَهْدية نسبة إليه وأقام حولها سوراً محكماً وجعلها عاصمة لدولته.

* جنح الثائر الأندلسى عمر بن حَفْصون إلى المصالحة فاستجاب الناصر لعقد صلح مع إبداء الحذر من غدره.

* تولى إمارة مصر ذُكا الرومى خلفاً لأبى منصور تكين.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

عن البيعة بحكمة، ومضى في السر من موضع الى موضع حتى وصل الى مصر ودخل الى منزل انسان مومن، وكتب كتابا الى هذا الوالي الذى ذكرناه يلتمس منه امانا لكي يظهر له. وبكثرة دغله عليه ومكره الذى بلا غور كتب هذا الكتاب: اذا انت حضرت عندى من قبل ان يقبضك احد ممن يطلبك من جهتي في كل الاماكن فانت مطلق ومسامح بالبلا الذى اردت انزله بك وبالبيع، فان قبضك انسان واحضرك الى

اذعانه لمطالب الكنيسة،
وبالرغم من أن يوحنا الزمسكي استطاع أن يتخلص من المناوئين له في الحكم، وأن يدعم نفسه بأصدقائه وشركائه في الجريمة، لكنه لم يستطع أن يسكت صوت الكنيسة، فقد أعلن البطريرك أنه لن يتوج يوحنا امبراطورا، لأنه قاتل ومغتصب للعرش. ولم يكن يوحنا الزمسكي في موقف قوى، حتى يدخل في صراع مع الكنيسة، وكان كل أمله أن يفلت من تهمة قتل عمه ويحظى بالعرش. ولذا سعى الى كسب رضى الكنيسة،

---

* أغار الروم على الثغور انتقاماً من هزيمة العام الذى سبق منتهزين فرصة إنشغال جيش الخليفة في حرب الثائر ابن حَمْدان.

* جرت معركة بين قائد الخليفة رَائق فخف إليه مُؤنس الخادم على عسكر مصر وأوقع به وأسره وأدخله بغداد مُشَّهراً.

* شهدت هذه السنة مولد شاعر العربية في كل العصور أبي الطيب المُتَنّبى بمدينة الكوفة.

سنة ٣٠٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ٥ يوليو ٩١٦م.

* في الأول من المحرم خرج أمير مصر الجديد ذَكَا الرومي إلى الأسكندرية وقضى على عملاء الفاطميين بها وقطع أيدى وأرجل بعضهم فعظمت هيبته.

* عاد مُؤْنس المظُفر لغزو الصائفة فدخل أرض الروم من ناحية مَلَطية بينما غزاها أبو القاسم بن بِسْطَام من ناحية طَرَسُوس.

* شهدت السنة وفاة آخر أمراء دولة الاغالبة أصحاب تونس، وهو زيادة الله الثالث بن أبي

وتمريغ وجهه في تراب عتباتها، ووجدت الكنيسة أن في ذلك فرصة لاستعادة حقوقها التي سلبها اياها نقفور فوقاس، فأعلنت أنها لن تتوجه امبراطور قبل أن يستجيب لشروطها: وهي أن يعلن براءته من جريمة قتل عمه، وأن يتخلص من أرملته الخائنة؛ وأن يعلن تعهدا بأنه سوف يحفظ العرش حتى يشب ولدا رومانوس عن الطوق، وأن يلغي كافة القرارات، التي كان الأمبراطور القتيل قد أصدرها في حق الكنيسة، وأثرياء الرهبان والنبلاء، وأن تزول ثروة عمه

فاني افعل بك ما اضمرت به لك واكثر منه. فلما وقف ابونا على هذا الامان الذى هو ممتلى من سم الافاعى حزن جدا وقال: ما الذى اصنع ان انا حضرت اليه بسرعة حتى يرانى انسان ويمسكنى، فهو يقول انك حضرت من غير ارادتك فينزل على غضبه، ثم انه ثبت برجا [برجاء] الرب [يسوع] المسيح ويقول مثل قول داود: ان انا سلكت وسط ظلال الموت لا اخاف لانك معى. ثم قام في تلك الحالة والشياب الزرية التى عليه

العباس عبدالله، دال ملكهم على يد الفاطميين توفي زيادة الله على الأرجح بالرَّمْلة من أرض فلسطين ناجياً بنفسه.

سنة ٣٠٥ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الثلاثاء ٢٤ يونية ٩١٧م.

* وصل رسولان من إمبراطور الروم قُسْطَنطين السابع إلى الخليفة المقتدر ببغداد يطلبان باسمه المهادنة والفداء فادخلا مع الوزير وأديا الرسالة ووقف على جانبي الطريق إلى قصر الخليفة مائة وستون ألف من الجند وسبعة آلاف من الخدم وسبعمائة من الحجاب ومائة من الأسود في السلاسل، فأجابهما الخليفة وسير مؤنساً الخادم ليحضر الفداء معه مائة وعشرون ألف دينار لفداء أسرى المسلمين.

* عاث أَرْدُنيو ملك ليون الأسباني في إقليم طَلَبيرة انتقاماً لهزائمه على يد وزير الناصر الذى سار إليه للمرة الثانية ولكنه هزم واستشهد، بينما غزا سانشو ملك النافار بلتيرة وأحرق مسجدها فاستعد عبدالرحمن للانتقام وانفذ جيشاً تحت إمرة حاجبه بدر بن أحمد.

* وردت على الخليفة المقتدر ببغداد هدايا صاحب عُمَان وفيها الوان الطيب والرماح وطرائف البحر ونوادر الطير والحيوان.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

كـانه راهب وخـرج ومـشى فى الطريق ليـلا حتى وقف على باب ذلك الانســان بقـوة قلب بتـوكله على الله الثابت، فلما نظره الحاجب دخل مسرعا وقال له: هوذا البطرك قد جا. فلما اصبح وجلس فى الديوان احضر ابونا البطرك وكاتبه مينا لانه لم يفارقه يوما قط، فلما نظرهما وراى نعمة الله الحالة امامه فقال لهما بكلام لين: اين كنتما طول هذه المدة والان فـقـد اتيت اخـتـيـارا منك مـايناللك منى سو. ثم تركهما ذلك اليوم ولم يخاطبهم وبعد ثلثة

وممتلكاته الى الشـعب، وتوزع على الفـقـراء والمسـاكين. وبالفـعل نفـذ الزمسكى كـافـة طلبـات الكنيـسـة، فـأعلن براءته من الجـريمة، وتعـهـد بالحفاظ على حياة الأميرين القاصرين، وحفظ العرش لهما حتى يكبرا، ثم نفى زوجة الامبراطور القتيل ثيودوكسيا الى أحد الأديرة النائية فى أرمينيا؛ ثم ألغى كافة القرارات التى أصدرها عمه الراحل فى حق الكنيـسـة والأديرة والنبـلاء، وأعـاد اليـهم ممتلكاتهم، وصـادر ثروة عـمـه وحرم منها أبناءه، ووزعها على الفقراء والمساكين. وما أن

---

* قُبض على الثائر الأندلسى حبيب بن سَوَادة صاحب قَرْمُونة وأرسل فى الأصفاد إلى قرطبة.

* توفى بالرَّقة القائد العباسى العباس الغَنَوى وكان على حرب القرامطة.

* توفى السبكرى غلام الصفار وبه انتهى حكم الدولة الصفارية بالمشرق.

سنة ٣٠٦ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأحد ١٤ يونية ٩١٨م.

* خرج فى المحرم بدر الحاجب قائد ووزير عبدالرحمن الناصر للجهاد والانتقام من ملك ليون وعند مطونية هزم الأسبان فى معركتين حاسمتين فلم ينج منهم سوى فلول قليلة.

* وقعت فتنة فى بغداد بين الحنابلة والعامة فأخذ الخليفة جماعة منهم وسيرهم إلى البصرة وحبسوا فيها.

* أصبح لأم المقتدر شأن فى حكم الدولة فأمرت قَهْرَمانتها ثَمل أن تجلس للمظالم فاستبشع الناس عملها غير أن كثيراً من المظلومين انتفعوا بذلك.

انتهى من ذلك فى أواخر عام ٩٦٩م حتى وافقت الكنيسة على تتويجه، وعلى اثر ذلك أعلن زواجه من ابنة الامبراطور قنسطنطين السابع، ليلحق نسبه بنسب البيت المقدوني، وحتى يعطي لنفسه حقا شرعيا لتولى العرش.

وعلى اثرمصادرة أموالهم، هرب أبناء نقفور فوقاس الى مسقط رأس أبيهم في اقليم قبادوقيا Cappadocia في جنوب شرق آسيا الصغرى، وأثاروا عشيرة آل فوقاس ضد ابن عمهم يوحنا الزمسكي، وقامت حركة تمرد

ايام مضى اليه ابونا القديس ليسلم عليه فبدا ان يحرك عليه مصايد الموت الذى افكر فيهم وقال له: اعلم ان كل ولايتى قد كتبو عليهم الخراج الا انت. فاجب الاب القديس بكلام متواضع وقال مهما تامر به رياستك فعلته. وكان عادته ان يضعف على الناس البلايا اذا ما راددوه في الكلام، واذا ماسكتو ولم يراددوه فى الكلام عدل عليهم. وكان على البيعة خراج في كل سنة الفى دينار، فقال لابينا: لاجل ما جيت بارادتك اراعيك

---

* ولد في هذه السنة بالفُسْطاط مؤرخُ مصر ابن زولاق مؤلف كتاب فضائل مصر وأخبارها.

* توفي في ربيع من هذه السنة حَفْصون من المولدين بالأندلس عن ٧٢ عاماً وهو الذى قاد الثورة ضد الحكم العربى ثلاثين سنة.

* توفى فى هذا التاريخ الحسين بن حَمْدان عم سيف الدولة الحمدانى وكان من كبار القواد والولاة فى عصره حتى ثار على المقتدر فقضى عليه ومات في حبسه.

سنة ٣٠٧ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الخميس ٣ يونية ٩١٩م.

* تولى إمارة مصر أبو منصور تكِين للمرة الثانية على أثر وفاة سلفه ذَكَا الرومى وما أن دخل مصر حتى استعد لصد الغزو الفاطمي وعلى رأس الجيش القائم ابن الخليفة المهدى الذى نجح في دخول الأسكندرية ولكن لم يلبث تكِين أن أستظهر عليه واستولى على المراكب التى حملته.

* إنتشر الجدب فى العراق وأشتد الغلاء وثارت العامة ونهبت دكاكين الدقيق وأحرقت

واسامحك. ثم الزمه بخراج سنتين قبل وصوله الى مصر، وكتب عليه عن الديارات الفي وثلثماية دينار حتى اجتمع عليه في تلك السنة سبعة الف دينار. هذا بداية البلا من عظم الخراج الذى ثبته على البيعة وعلى الاساقفة والديارات التى فى كورة مصر، وكانت هذه السنة سنة ثمان وسبعين وخمس ماية للشهدا، وهى ثالث سنة من بطركيته. وكانت جزية النصارى التى بارض مصر الفى دينار زاد عليه أربعة الف دينار حتى صارت ستة الف

مناوئة له، تزعمها ابن عم له يدعى بارداس فوقاس Bardas Phocas استمرت بضع سنين، الى أن دعم حنا الزمسكى نفسه، ثم قضى على هذه الحركة فى مهدها قبل أن تتحول الى حرب أهليه.

الحرب مع الروس:

رأينا كيف أن خطر الروس بدأ يتعاظم منذ اتحادهم فى شكل دولة تحت امارة كييف، وبدأوا منذ عام ٨٦٦ يغيرون على أراضى امبراطورية الروم، وأكثر من مرة وصلوا الى أسوار القسطنطينية، وكانت الامبراطورية

الجسور وأخرجت المحابيس من السجون ثم سكنت الفتنة بعد أن فتحت مخازن القمح والشعير وبيع ما فيها.

* انهزم يوسف بن أبى الساج صاحب أذْربيجان على يد مؤنس الخادم وأدخل بغداد مشّهراً على جمل وعليه بُرْنس بأذناب الثعالب.

* دخلت القرامطة مينة البصرة فنهبوا وقتلوا وسبوا.

* توفى فى هذه السنة من رجال الحكم والحرب: ذَكَا الرومى أمير مصر توفى بها بعد أربع سنوات، وفيها توفى حَبَاسَة بن يوسف قائد الخليفة المهدى الفاطمى توفى بالأسكندرية بعد دخولها، وفيها توفى فى محبسه القائد السامانى أحمد ابن سهل بمدينة بخارى.

سنة ٣٠٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٢٣ مايو ٩٢٠م.

* فى الثالث عشر من المحرم خرج من قرطبة فى حملة كبرى أميرُ الأندلس عبدالرحمن الناصر على رأس جيش كثيف رداً على فظائع الملكين الأسبانيين وفى طريقه إلى مملكة ليون

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

ترضيهم، أملا فى أن تروضهم بحضارتها، وتنشر المسيحية الأرثوذوكسية بينهم، لتربطهم بكنيستها، وتحولهم الى دولة تسير فى ركابها، فقد سعت الى اعطاء التجار الروس بعض الامتيازات التجارية، واستخدمت جنودهم الأجلاف فى جيوشها واساطيلها. وبالفعل هدأ الروس لبعض الوقت. ولما لقى نقفور مصرعه، وجد الروس أن الفرصة مواتية لغزو أراضى الامبراطورية والتوغل فيها منتهزين فرصة عدم الاستقرار الذى ساد بعد مصرع نقفور

دينار. حتى ان الانسان الفقير الذى يعجز قوته يأخذ منه فى كل سنة خمسين درهما، حتى ضجت أهل مصر واعمالها من عظم هذا العذاب وجحد [انكر دينه واسلم] كثير من النصارى لاجل قلة ما بايديهم من الدراهم. وكتب الاب كتبا الى الاساقفة يعلمهم حضوره فيما هو بصدده. وكانت كتبه من وقف عليها يبكى ويقول كما قال بولس: اريدكم ان تكونو فهمين يا اخوتى لان بامره كثرو علينا اكثر من قوتنا، فلا نكون نحن معولين على

وعليها أوردونيو ومملكة النافار عليها سانشو خرب كل ما صادفه من حصون ومعاقل وأبراج وكنائس وديّارات بعد أن فرت حامياتها إلى الجبال، ثم اجتمعت قوات الملكين بالقرب من بنبّلونة فألحق بهما هزيمة ساحقة وأعدم جميع من فى أسره من أمراء وفرسان وقوامس أخذاً بالثأر وعاد إلى قرطبة بعد ثلاثة أشهر.

* وصلت فى المحرم النجدةُ التى أرسلها الخليفة إلى مصر وعليها مؤنس الخادم للرد على الغزو الفاطمى للأسكندرية.

سنة ٣٠٩ هجرية

وافق هلال المحرم يوم السبت ١٢ مايو ٩٢١م.

* تولى إمارة مصر فى هذه السنة أربعة مما يدل على عدم الاستقرار فى سياسة الحكومة المركزية إذ تولاها: تكين للمرة الثانية وخلفه أبو قابوس محمود فاستصغره الجند فعزل بعد ثلاثة أيام، وعاد تكين للمرة الثالثة وعزل بعد ثلاثة أيام وخلفه هلال بن بدر ولكن لم تنقطع الفتن وقاتل الوالى الجديد المشاغبين عليه.

* قلد الخليفة المقتدر يونس الخادم بلاد مصر والشام ولقبه المظفر وأمر بأن يكتب بذلك فى المراسلات إلى الولايات.

انفسنا لكن على الله الذى يقيم الموتى هو الذى ينجينا من شدايدنا، فكونو انتم ايضا مشتركين فى الدعا عنا. ويقول فى كتبه: ان قلبى طيب على جميعكم لان فرحى بكم فى هذه الاحزان والتجارب وانا اكتب اليكم بدموع غزيرة ولا تحزن قلوبكم بل تعلمو محبتى لكم. فلما وقفو الاساقفة على كتبه تعزو وعلمو انه قد اسلم نفسه للموت لافداهم وسلامة البيعة. وكانو شاكرين ممجدين لله باهتمام راعيهم بهم. ثم اجتمعو الى فسطاط مصر

فوقاس وثورة أبنائه فى آسيا الصغرى، وتوسعوا عبر نهر الدنيبر متوغلين فى أراضى البلقان، واحتلوا مدينة فيليب العريقة Philippolis والتى تقع على الحدود بين تراقيا ومقدونيا، وضعوا أيديهم على مناجم الذهب فيها عام ٩٧٠م. وأعملوا فى المدينة نهبا وتخريبا قبل أن يصل الى المدينة نجدة عاجلة من القسطنطينية.

ونتيجة لذلك توجه يوحنا الزمسكى بقواته ـ بعد أن فرغ من مشاكله الداخلية وقضى على الحرب الأهلية فى آسيا الصغرى ـ لملاقاة

---

* فى يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذى القعدة أخرج أبو مغيث الحسن ابن منصور الحلاج الفيلسوف المتهم بالزندقة وصُلب بعد تعذيبه وله من العمر ٦٥، وكان قد ظهر أمره سنة ٢٩٩ وقبض عليه وحبس سنة ٣٠١هـ.

* ممن توفى من رجال اللغة والفقه: اللغوى المصرى أبو الحسن على بن الحسن الهنَائى له المنجد وله المنضد فى اللغة، وفيها توفى الأديب الأندلسى ابن الأُفشين (محمد بن موسى) مؤلف طبقات الكتاب، وفيها توفى العباس بن سهل الصوفى بسبب تعذيب الوزير له وكان موافقاً للحلاج الفيلسوف المقتول، والزاهد أبو نصر الخفاف.

* توفى أمير جُرْجان الثائر ليلى بن النعمان وكان قد ارتفع شأنه ولقب بالمؤيد.

سنة ٣١٠ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الأربعاء الأول من مايو ٩٢٢م.

* تجدد القتال بين الأسبان وعبدالرحمن الناصر صاحب الأندلس، فأغار أُردونيو ملك ليون على نَاجرة واستولى عليها كما استولى سانشو ملك نافار على بقيرة وأسر من فيها من المسلمين وقتلهم فضجت الأندلس لهذه الأنباء واستعد عبدالرحمن للأخذ بالثأر.

ولما علمو بما استقر على الاب وعلى البيعة المقدسة قسطو ذلك عليهم بحسب القدرة لمعرفتهم ان ليس مع الاب شيا كمن تقدمه، لانه لم تكن نفسه تتطلع لشى من مال الهلاك، حتى ان من هذه الاسباب والخسارة اضعفو الاساقفة الديارية خمسة اضعاف مما كانت وما قدرو ان يوفو ما تقرر على الاب. وكانت كورة مصر في ضيق عظيم، وافتقرو الاساقفة والرهبان وكل احد من اجل الغرامات التى رتبها هذا الانسان المخوف اكثر

الروس عام ٩٧١م. والتحم معهم فى معركتين شهيرتين هما معركتا برستالافا وسلتريا Silosrtia، وبعد مذبحة دامية نجح يوحنا الزمسكى فى دحر الروس، بعد أن حاصرت قواته مدينة سلستريا، التى احتمى فيها ملكهم سفايتو سلاف وزوجته، وما تبقى لديه من قوات، وأجبر الزمسكى سفايتوسلاف على توقيع صلح تعهد بمقتضاه بالانسحاب من بلغاريا وعاصمتها برسلاف، وبذلك ضمت امبراطورية الروم بلاد البلغار اليها، وأصبحت حدود الامبراطورية الجديدة

---

* قبض الخليفة على أم موسى القَهْرمانة وكانت قد زوجت بنت أخ لها من حفيد للخليفة المتوكل فوكل بها القهرمانة ثمل واستخلصت منها ما قيمته ألف ألف دينار.

* فى السادس والعشرين من شوال توفى الفقيه المفسر المؤرخ أبو جعفر محمد ابن جرير الطبرى عن ٨٥ سنة، وهو مؤلف التفسير المعروف باسم تفسير ابن جرير والموسوعة التاريخية تاريخ الأمم والملوك المعروفة باسم تاريخ الطبرى وكلاهما مطبوع متداول.

* توفى فى هذا التاريخ الفيلسوف الفلكى أبو محمد النُوبَخْتِى له الرد على المنجمين ومختصر كتاب الكون والفساد لارسطو، وفيها توفى طبيب العيون خلف الطولونى مؤلف كتاب النهاية والكفاية فى تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وأدويتهما.

سنة ٣١١ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ٢١ إبريل ٩٢٣م.

* انفذ عبدالرحمن الناصر وزيره وقائده عبدالحميد بن بَسيل لحرب الأسبان ريثما يستعد هو للخروج بنفسه، فدخل الوزير مملكة النافار وعاث فيها وقاتل ملكها سانشو وهزمه فى أكثر من معركة.

من جميع من تقدمه. وكان يكتب على المال اذا انفذه «هذا ما كان يسرقه من تقدمتي».

وكان الاب فى جهاد عظيم ومع هذا كان على قلبه هم عظيم ممن بقى من الصعيد من المقالة الفاسدة ويقول الويل لى اذا تركت الشيطان يتسلط على ميراث ملك السما والارض، فما ربحى اذا هلكت هذه الانفس. ثم ان هذا الراعى الصالح قام وسار الى بلاد الصعيد كما [قام]

ملاصقة لحدود الدولة الروسية، وتمتد حتى ضفاف نهر الدانوب. لقد حقق يوحنا الزمسكى نصرا ساحقا على الروس، غير أن ذلك النصر لم يكن نهاية للخطر الروسى على الروم، فقد أصبحت حدود امبراطوريته بعد ضم رومانيا مشتركة مع حدود روسيا، كما أن الروس كانوا شعباً صعب المراس لا ينسى هزيمته بسهولة، ومن ثم كان هذا النصر فاتحة فصل مرير ودامى للحروب بين الروس والروم.

وبعد أن فرغ يوحنا الزمسكى من حروبه مع الروس، اتجه لأحياء

---

* تولى إمارة مصر أبو العباس أحمد بن كَيْغَلَغ وكانت إمارته ستة أشهر وخلفه للمرة الرابعة أبو منصور تكين وذلك ارضاء لجند مصرى.

* نَكب ابن الفرات علىَ بن مُقْلة كاتب الوزير وهو الذى ضُرب به المثل فى جودة الخط.

* أغار أبو الحسن الجَنابى القِرمِطى على البصرة ووضع السيف فى أهلها وأحرق البلد والمسجد الجامع.

* استولى يوسف بن أبى الساجى صاحب أذْربَيجان على الرَّى.

* ولد فى هذه السنة ببغداد جبرئيل بن بَخْتَيْشوع وتعلم بها وحذق صناعة الطب واتخذه عضد الدولة طبيباً له وقد كان جده بَخْتَيْشوع طبيباً للخليفة الرشيد.

* توفى ببغداد إمام الطب الفيلسوف أبو بكر الرازى عن ٦٠ عاماً وقد تولى رياسة البيمارِسْتَان العَضُدى قبل وفاته وهو مؤلف كتاب الطب المنصورى وكتاب سر الصناعة، وكتاب الكافى، ومنافع الأغذية، وخزانة الأطباء، والجدرى والحصبة، وأكثرها متداول.

* أعدم وصلب شاكر الزاهد خادم الحلاج وكان متهماً مثله بالزندقة.

الدعوة الى الحرب المقدسة ضد المسلمين من أجل استعادة بين المقدس، وكانت تطورات هامة قد حدثت على الساحة الاسلامية، فقد قامت دولة الفاطميين في مصر (٩٦٩ ـ ١١٧١م) وهي دولة قوية سعت الى المطالبة بحقها في شمال الشام وجوف سوريا، بصفتها وارثة لكل الاراضي التي فقدتها دولة الحمدانيين خاصة حلب وانطاكية، وكان هدف الفاطميين هو تأمين حدود مصر الشرقية، استعدادا

سيده في طلب الضال وسلك الطرق الصعبة المخوفه ولم يهمه ذلك ولا شفق على نفسه لانقاذ الظالين [الضالين] وبمعونة الله وصل الى المكان وخرج اليه الشعب المومن واستقبلوه بفرح وبارك على جميعهم، وبدى ان يجذب اليه الذين ظلو [ضلوا] ويغذيهم بكلام روحاني مقدس، ولم يقول لهم كلام جافي مثل الطبيب الماهر، فكان يقول لهم بكلام لطيف مثل الاب بتواضع كما في الابركسيس: «توبو وعودو لتمحي ذنوبكم». ثم

سنة ٣١٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ٩ إبريل ٩٢٤م.

* في السادس عشر من المحرم خرج عبدالرحمن الناصر من عاصمته قرطبة معتزماً غزو الأسبان، فاخترق لُورْقة ومُرْسية وطَرْطُوسة وسَرَقُسطة ودخل أرض النافار في شهر ربيع فساد الذعر أهلها وفروا إلى الجبال وتوالى استيلاء عبدالرحمن على الحصون والقلاع قهراً أو بعد هرب إهلها منها حتى بلغ العاصمة بَنْبلونة فدمرها وأحرق قصورها وكنائسها ونهبها ثم إلتقى بقوات الأسبان المتحالفة فسحقها وشتتها وعاد إلى قرطبة بعد غياب أربعة أشهر.

* ورد رسول آخر من ملك الروم قُسطنطين السابع إلى بغداد طالباً من الخليفة المقتدر الهدنة وتقرير الفداء بعد غزاة الصائفة فأجابه المقتدر إلى طلبه.

* استولى أبو طاهر القرمطي على الكوفة سار إليها من هَجَر، ولم يحج في هذه السنة أحدٌ خوفاً من فتك القرامطة بهم بعد أن أغاروا على قافلة للحجاج فيها عم أم الخليفة أبو الهيجاء الحَمْداني صاحب ديار ربيعة وجماعة من أعيان الدولة وأسروهم وأخذوا أموالهم وقتلوا كثيراً من الحجاج.

فتح فاه وقال لهم من كلام الاب انبا كيرلس ما ازال ضلالتهم. وكثير من اوليك فرحو وقالوا عيننا [اعيننا] يا ابانا القديس. فلما علم ابليس ذلك ظهر فى وسط المجمع المقدس والتحف بشيخ علمانى كان سبب التجديف اولا ومقدم لهذا الامر لما سمع ذكر القديس كيرلس وميامره التى هى مثل الفاس القاطع لكل تجديف صرخ الشيخ السو الضال وقال بلسانه الذى يستحق القطع: واى شى لنا نحن مع كيرلس. فلما سمع الاب صوته ذلك

للدخول فى جولة حاسمة مع دولة القرامطة. وبالفعل قام المعز لدين الله بارسال أحد جيوشه الى الشام عام ٩٧١ أثناء انشغال حنا الزمسكى بالحرب مع الروس لاسترداد أنطاكية، وكاد الفاطميون ينجحون فى استردادها، لولا مهاجمة القرامطة لجيوشهم، مما أفشل نجاحهم، وردت القسطنطينية على ذلك بأن قامت عام ٩٧٣م بمهاجمة المدن الاسلامية فى وادى الفرات الاعلى مثل نصيبين Nisibis احدى قلاع المسيحية قديما، وآمد Amida (ديار بكر الحالية)، والرها Edessa (أروفة الحالية

---

* أمر الخليفة بالقبض على وزيره ابن الفرات وابنه المحسِّن وصودر لهما نحواً من ألف ألف دينار.

* عاد إلى مصر أبو منصور تكين أميراً عليها للمرة الرابعة بعد أن اضطربت أحوالها.

* قبض فى بغداد على ثلاثة من أتباع الحلاج وطولبوا بالرجوع عن اعتقادهم فيه فلما رفضوا قتلوا وصلبوا.

سنة ٣١٣ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الثلاثاء ٢٩ مارس ٩٢٥م.

* غزا أمير صقلية سالم بن راشد ما بقى من النواحى فى الجزيرة ثم عبر باسطوله البحر إلى الساحل الإيطالى وحاصر مدينة ترَنت (طارنت) الهامة وفتحها بالسيف ثم انتقل إلى مدينة أدرنت وخربها ونهبها.

* ندب الخليفة مؤنسا الخادم لحرب القرامطة بعد أن نزلوا على الكوفة واعترضوا قافلة الحجاج ولم يسمحوا لها بالمسير إلى مكة حتى دفعوا لهم حق الطريق.

* ضم ابن أبى العافية مدينة فاس إليه وقاتل الأدارسة واستولى على بلادهم.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

في تركيا)، ثم ملطية Melitene (الى الشمال الغربى من آمد)، ولكن هذه الهجمات لم يكتب لها التوفيق والنجاح. وازاء هذا التوسع المستمر في اعالى الرافدين في اتجاه قلب الدولة العباسية قامت ثورة في بغداد عام ٩٧٣ ضد الخليفة العباسي المطيع، لتخاذله في الدفاع عن ديار الاسلام، أطاحت به وتولى مكانه الخليفة الطائع.

وفي عام ٩٧٥ قاد يوحنا الزمسكي قواته من أنطاكية، ومولیا وجهه شطر حلب، ولم تقاوم المدينة،

النجس عند انكاره الاب كيرلس احرمه حرما يستحقه، وافرزه عن نصيب المومنين وكلمن يقتدى بضلالته. وكان هذا قد بدى عند مضى الاب الى تلك المواضع اولا واحرق ميامر الابا المعلمين التى اهدمو اكثر كفره وضلالته. ومن جملة ما احرق الاثنى عشر كفالاون لكيرلس، ومن قول ابيفانيوس، ورسايل كثير لابابنا. وتم على هذا [الرجل] ومن يتبعه قول عاموس: انهم يعصو لمربح في والدى ندر فيها الابواب. وكلام مقدس

---

* تولى قضاء مصر هارون بن حَمَّاد خلفاً لعبدالله بن مُكْرَم.

* توفي بالمغرب الحسن الحَجّام (الحسن بن محمد بن القاسم بن ادريس) أخر الأدارسة وكانت فاس عاصمة له ولم يمتد حكمه سوى عامين.

* وافق هذا التاريخ وفاة ملك ليون الأسبانى أزْدُونيو الثانى الذى عاش فى حرب مع أمراء المسلمين بالأندلس حتى كانت هزيمته الساحقية على يد عبدالرحمن الناصر وعلى أثر وفاته تنازع خلفاؤه العرش سنوات.

سنة ٣١٤ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الأحد ١٩ مارس ٩٢٦م.

* نشر القرامطة الفزع حتى أن حجاج خراسان عادوا من حيث أتوا وسار أهل مكة عنها عندما بلغهم مسير أبى طاهر القِرْمِطى إليها ونقلوا حرمهم وأموالهم إلى الطائف خوفاً منه.

* ولى الخليفة ابن أبى الساج أمر المشرق وأمره بقتال أبى طاهر القِرْمِطى وجهزه بألف ألف دينار.

* اشتد البرد فى العراق وأتلف النخل والشجر وجمد ماء نهر دجلة عند الموصل وعبرت

اهدروه بتمويه الشيطان الذى سكن قلب ذلك الشيخ فاراد الاب ان يعيده من ضلالته، وقال كما في الابركسيس: يضيق على ان اقول لكم اولا كلام الله لترموه خارجا ولا يجعلونكم تستحقو الحياة المويدة هو ذا انتم تعودو الى الامم. وبنعمة الله التى مع ابينا انبا شنوده اعاد كلمن اتبع الشيخ الضال واعترفو بالامانة الحسنة. فلما خزى الشيطان ولم يربح في مصيدته شي بهذه الاعمال

ثم اتجه الى بعلبك واستسلمت له، وفتحت دمشق له بواباتها، ومن دمشق اتجه الى شمال فلسطين، فاستسلمت طبرية والناصرية وقيسارية، ولم يبق أمامه سوى دخول بيت المقدس، التى تجمعت فيها القوات العربية دفاعا عن المدينة المقدسة، ولم يشأ يوحنا الزمسكى أن يغامر بقواته أمام الدفاع الباسل عن القدس، فتركها واستدار شمالا ليستولى على صيدا وبيروت، لكن استعصى عليه الاستيلاء على طرابلس، حيث لاقى مقاومة شديدة فقفل بعدها عائدا الى القسطنطينية.

عليه الدواب وسقطت الثلوج ببغداد وجمدت الأدهان والأشربة حتى ماء الورد والخل فى القنانى.

* لم تنقطع خلال السنة الغارات بين المسلمين والروم فغزا أهل طَرَسوس الصائفة ودخلوا أرض الروم وغنموا وعادوا، ودخل إمبراطور الروم مَلَطية ومعه مَليح الأرمنى صاحب الدروب فأخربها ونبشوا القبور فقاتلهم أهلها وأخرجوهم فلم يظفر من المدينة بشيء.

* ولد فى هذه السنة الوزير أبو طاهر محمد بن بويه تولى وزارة معز الدولة وعز الدولة كما وزر للخليفة المطيع بعد ذلك.

* فيها توفى الوزير أبو على الماذَرَائى من كبار رجال الدولة الطولونية.

سنة ٣١٥ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الميس ٨ مارس ٩٢٧م.

* قدم على بن عيسى بغداد بعد أن تولى وزارة المقتدر للمرة الثالثة فمشت الأمور واستتبت الأحوال وقد تولى الأعمال بنفسه ليلا ونهاراً وجمع حوله الأكفاء من الرجال.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

الصعيدية، فبدا ان يحتال حيلة اخرى ويضل قوم اخرين ليلا يبطل من محاربة الاب.

ولما عاد الاب من الصعيد ووصل الى مصر كان هناك انسان سو تقدم الى الاب وساله ان ياخذ منه مالا كثيرا ويجعله اسقف، وكان الاب لا يلتفت الى شى من هذا لمحبته المسيح، ولما كان قد قرره فى معنى الشرطونية. فلم يزل ذلك الجاهل يتردد اليه بكل جهة فلم يفعل ما طلب، ففكر فى امر

نهاية يوحنا الزمسكى:

عاد يوحنا الزمسكى الى القسطنطينية، ولم يمض وقت طويل بعد عودته حتى أصابه مرض لم يمهله طويلا، فمات فى مطلع عام ٩٧٦م. وبموته عاد العرش لأحد أبناء رومانوس الثانى، وهو باسيليوس الثانى والذى كان وقتذاك فى العشرين من عمره.

عودة العرش الى آل البيت المقدونى مرة أخرى:

حكم باسيليوس الثانى ٩٧٦ . ١٠٢٥م:

وعلى أثر موت يوحنا الزمسكى،

---

* انفذ عُبيَدالله المهدى الفاطمى إبنه أبا القاسم إلى المغرب حتى وصل إلى ما وراء تَاهَرْت للقضاء على ثورة ابن خزر، وفيها أمر ببناء مدينة جديدة سماها المحمدية (المَسِيلة حاليا) ونقل إليها خلقاً كثيراً بعد أن وفر فيها حاجاتهم من الطعام وغيره.

* شَغب الجند على الخليفة المقتدر وخرجوا إلى المصلى ونهبوا القصر المعروف بالثريا وذبحوا ما فيه من وحوش الحديقة حتى ضمن لهم مؤنس المظفر ارزاقهم فعادوا.

* استولى أنصار ابن شيِرَويه على جُرْجان ثم على طبرستان وكان على جيشه مَرْداويج بن زيَّار مؤسس الدولة الزيارية بعد ذلك.

* أغار ملك الروم على مدينة سُمَيْساطَ وضرب الناقوس فى مسجدها فخرج المسلمون فى أثر الروم وقاتلوهم وغنموا غنيمة عظيمة، فأنفذ إليها الخليفة جيشاً بقيادة مؤنس المظفر وخرج لوداعه ولى العهد والوزير.

* استفحل أمر أبو طاهر القرمطى الذى أوقع هزيمة منكرة بجيش الخليفة وعليه ابن أبى الساج الذى جرح وأخذ أسيراً وسار القرمطى إلى الأنبار ولم يتجاسر أحد أن يتبعه ولولا قطع القنطرة على دجلة لملك القرمطى بغداد دون منازعة.

مخزى، فوجد انسان راهب من أهل سورية فمضى به الى منزله واعطاه مالا والبسه ثيابا وعلمه ان يمشي معه وكانه البطرك، وانه يقترض منه مال ويمضى معه الى الشهود ليشهدو عليه، فلما قرر ذلك مع الراهب مضى به الى الشهود الذين لم يعرفو البطرك فقالو له: نشهد عليك. فقال: نعم. واخذ الحجة وخباها عنده. وكان يطلب يوما يجد فيه وسيلة لاحضار الاب الى الحاكم، فعلم احد المومنين بذلك فمضى واعلم الاب ما قد كان

تم انتقال العرش فى هدوء الى الاميرين باسيليوس الثانى، وشقيقه قسطنطين الثامن، وفى البداية حكم الاميرين معا كامبراطورين شريكين، وساعد على ذلك تباين اهتمامات كل منهما عن الآخر، فبينما كان باسيليوس الثانى محباً للتحرك والعنف، ويهوى المغامرات والمخاطرات، وحياة الحرب، كان أخوه على النقيض منه تماما يكره السلطة، فتركها لاخيه.

ولقد أمضى باسيليوس الثانى السنوات التسع الأولى من الحكم

سنة ٣١٦ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين ٢٥ فبراير ٩٢٨م.

* فى الثامن من المحرم دخل أبو طاهر القرْمطى مدينة الرَحَبة بعد حروب ووضع فى أهلها السيف ثم دخل قَرْقيسياء ثم سنْجار على اثاوة حتى إنتهى إلى الرَقة وبعد أن أخلاها وصل إليها عسكر الخليفة، وبنى القرمطى فى هذه السنة داراً سماها دار الهجرة وأعلن الدعوة لعبيدالله المهدى الفاطمى.

* استقال الوزير على بن عيسى بسبب اضطراب الأحوال وعجزه عن مواجهة خطر القرامطة.

* أغار ملك الروم منتهزاً اضطراب شئون الدولة على مدينة خِلاط وبَدْلِيس بارمينية فى ثلثمائة ألف فقتل وسبى.

* أظهر كثير من أهل السواد مذهب القرامطة بعد أن كانوا يخفون اعتقادهم غير أن قائدى الخليفة: هرون وصائف قضيا على التمرد وعادا باعلام القرامطة البيضاء منكسة إلى بغداد.

* فى هذه السنة كان إبتداء أمر أبى يزيد الخارجى بالمغرب، كما قام خارجى اخر بسجستان ولكنه هزم وتفرق أتباعه.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

لاهيا، يسعى وراء المتعة واشباع الذات، ثم فجأة أدار ظهره للعبث والمجون، وأقبل على التدين والتنسك، حتى قيل عنه، أنه كان يرتدى «قميص الرهبنة تحت السترة الامبراطورية»، ولعل هذا التحول جاء نتيجة لمحاولته تقليد نقفور فوقاس ويوحنا الزمسكي، لأنه اتجه بعد ذلك الى الحرب والقتال من أجل اعادة الهيبه للامبراطورية، ومن ثم قضى أكثر سنوات عمره في معارك طاحنة وحروب شرسة، ولم يوقفه عن ذلك

من ذلك الانسان، وكانت عادته ان يتحفظ من كلمن يسلك الطريق الردية، فلما سمع ما عمله ذلك الانسان السو عمل عملا بحكمة ليحله بنعمة الله الذى فيه وباسمه الذى لا ينقطع ذكره من فيه ليلا ولا نهارا. وكان بمصر رجلا من المسلمين يعتقد في البطرك اعتقادا جيدا فاحضره يوما وعرفه ما قد عرف به من فعل الغير شماس وكيف اشهد على الراهب الشامي شهود يقطع بهم الحكم، فقال المسلم: اذا كان هذا الجاهل قد

---

* دخل سبعمائة من الروم والأرمن إلى مَلَطية ومعهم الفؤوس والمعاول وأظهروا أنهم يتكسبون بالعمل وتبين أن مليحا الأرمنى عميل الروم أرسلهم عيوناً إذا ما كبس الروم المدينة فقام عليهم أهلها وفتكوا بهم.

* توفى الداعى العلوى (الحسن بن قاسم) اخر أمراء الدولة العلوية بطبرستان قتل على يد أسْفار بن شيرَوَيه الدَيْلمى، ثم دارت الدائرة على أسفار فقتل على يد قائده مرداويج بن زيّار فأعلن إستقلاله بالبلاد التى استولى عليها ومنها همذان واصبهان.

سنة ٣١٧ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ١٤ فبراير ٩٢٩م.

* اتخذ عبدالرحمن الثالث الأموى بالأندلس لقب الخلافة فتسمى أمير المؤمنين الناصر لدين الله.

* فى ليلة السبت الخامس عشر من المحرم خلع الخليفة المقتدر العباسى ببغداد بتدبير خاصته من الترك الذين بايعوا أخاه محمداً ابن الخليفة المعتصم ولقبوه القاهر بالله وعلى أثر ذلك شاع السلب والنهب فى المدينة.

فعل هذا ليغلبنا وكيف لم تموت الثقات المعروفين ويسرقهم بشي لا يعرفوه، لكن بنعمة الله نرجو ان يخلصنا وإياهم من ضلالة هذا الجاهل. ثم قال له المسلم: ماذا تحب ان تفعل؟ فقال له الاب بفهمه وحكمته النيرة: اريد ان تمضى الى هولا القوم الثقات الذين قد احتال عليهم هذا وتطيب قلوبهم وتحضرهم الى عندى، وانا اجلس مع هولاى الاساقفة الذين معى كاننى واحد منهم، وقول انت لهم «فمن من هولا الذى شهدتهم عليه وفعل

سوى موته وهو فى سن الثامنة والستين.

وفى عام ٩٨٥ حدثت أول مؤامرة ضد العرش المقدونى، فقمعها باسيليوس الثانى بقسوة، ولما عرف أن الرؤس المدبرة لها هم الاقطاعيون فى الاقاليم، الذين كانوا يمولون المؤامرات للاطاحة به، قام بالتخلص من الرؤس المتورطة فى المؤامرة من البلاد، ثم قاده ذلك الى استئصال وتصفية رؤس البيوت الاقطاعية، وتوزيع ثرواتها على الفقراء

---

* تولى وزارة القاهر أبو على بن مُقْلة وتولى نَاَزوك التركى الحجابة وشرطة بغداد.

* فى يوم السابع عشر من نفس الشهر بويع المقتدر للمرة الثانية وخلع القاهر بسبب خلاف بين القادة الأتراك.

* أغار أبو طاهر القرمطى على مكة يوم التروية فاعمل السيف فى حجاج البيت وقتل أمير مكة وعرّى الكعبة وقلع بابها واقتلع الحجر الأسود وطرح القتلى فى بئر زمزم ثم عاد إلى هَجَر ومعه الحجر الأسود الذى رد بعد ذلك فى خلافة المطيع.

* وقع خلاف بين أبى منصور تكين أمير مصر ومحمد بن طغج الأخشيد أمير الحوف.

* نشبت فتنة فى بغداد بين الحنابلة وبعض العامة بسبب تفسير آية من القرآن واقتتلوا ووقع بعض الضحايا.

* توفيت فى هذه السنة ثمل القهرمانة من خاصة أم المقتدر وخلفت أموالا كثيرة.

سنة ٣١٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء ٣ فبراير ٩٣٠م.

* خرج الخليفة الأموى الأندلسى عبدالرحمن الناصر فى قوات كثيرة إلى الشمال حتى

ذلك». وحضرو وقال لهم المسلم كما قال ابونا فقالوا: ما هو واحد من هولا. فقال لابونا عرف الشيوخ ما قد تم عليه من ذلك الشماس الجاهل، فلما سمعو تعجبو وبهتو ثم انهم اقسمو ان لا يشهدو بعد ذلك بعد اليوم. ولم يعلم الشماس بما جرى، وبعد ايام مضى الى القاضى ولم يعلم بان الرب قد ارذل موامرته، واخرج الحجة للقاضى، فامر باحضار الاب فقال له: تعرف ما يقول هذا الانسان؟ فقال له الاب: لا. فقال القاضى: الشهود

والمعدمين، كما أصدر قرارا يحرم فيه على أصحاب الاقطاعات الآخرين زيادة اقطاعياتهم عن طريق اغراء واجبار صغار الملاك على بيع أراضيهم، وقد شمل هذا القرار المدنيين، والاقطاعيين من رجال الدين على حد سواء، وبذلك أوقف باسيليوس الثانى ـ ولو مؤقتا ـ تنامى اخطبوط الاقطاع، وثبت الميزان الاجتماعى حفاظا على بقاء الطبقة الوسطى؛ كما تركت عمليات المصادرة ثروة فى يد الدولة، سخرها للانفاق على مشروعاته الحربية.

بلغ طُلَيْطلة وحاصرها وكانت تضطرم بالثورة ضده تغزيها دسائس ملك ليون راميرو الثانى بعد أن رفض زعماؤها دعوة الناصر إلى الطاعة.

* كثر الشغب في بغداد بين طوائف العسكر بعد عزل وعودة المقتدر حتى أن الجند السودان بعد أن إحترقت دورهم نزحوا إلى واسط وامتلكوها حتى أخرجهم منها مؤنس المظفر.

* خلع المقتدر على إبنه هارون واقطعه المشرق من فارس إلى سِجِستان وخلع على إبنه أبى العباس واقطعه المغرب.

سنة ٣١٩ هجرية

وافق مستهل العام يوم الاثنين ٢٤ يناير ٩٣١م.

* تعددت الغارات بين المسلمين والروم فى هذه السنة، ففى ربيع الأول غزا ثمال والى طَرَسوس بلاد الروم وقد بلغت الثلوج صدور الخيل، ثم عاد إليها فى رجب لحرب الصائفة حتى بلغ عمُّورية فدخلها بعد أن أخلاها الروم وتوغلت قواته حتى بلغت أنْقرة، وعاد فى رمضان وبلغ قيمة السبى ١٣٦ ألف دينار، ورد الروم بمناصرة الأرمن بالغارة علَى خلاَط وما حولها فى أرمينية وقتلوا خلقاً من المسلمين فخف لنجدتها والى أذْرَبِيجان كما أغاروا على سُميَساط فردهم سعيد الحمدانى.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

الذى يقطع بهم الشرع يشهدو عليك. ثم قال للشماس: احضر شهودك. فمضى مسرعا الى الشهود. فلما نظروه لعنوه وشتموه وقالو له: لم تلبس علينا المحال؟ فخزى خزيا عظيما وعاد الى القاضى قايلا: ما وجدت شهودى. فامره بالحضور بالغداة، فلما كان بالغداة بكر ابونا بالحضور الى القاضى، وانتظر القاضى ذلك المزور المحروم فلم يراه لاجل كذبه، فقال للاب: عود الى منزلك. ولحق الغير شماس فضيحة عظيمة واقام مدة لا يظهر.

توثيق العلاقة مع الدولة الروسية:

يعاصر حكم باسيليوس الثانى حكم فلاديمير، الذى يعتبر بحق مؤسس الدولة الروسية، فقد نجح فلاديمير فى ترويض قبائل السلاف الشرقيين وتلجيمهم، سواء فى وسط روسيا أو جنوبها، وكان فلاديمير يسعى لتحضير هؤلاء الاجلاف، وتأسيس امبراطورية روسية مستنيرة منهم.

وفى أثناء ذلك، قامت حركة التمرد الثانية ضد باسيليوس الثانى عام ٩٨٧م فى منطقة نائية من بلاد

---

* استولى ابن أبى العافية على تلمسان بالمغرب فبذلك أمتدت أملاكه من المغرب الأوسط إلى السوس.

* جرت وقعة عند همذان بين جيش الخليفة ومرداويج الديلمى الذى تم له الإستيلاء على بلاد الجبل وهمذان وخوزستان والأهواز.

* نزلت القرامطة الكوفة فهرب أهلها إلى بغداد كما فر إليها أهل الدينَور بعد أن كبسهم الديلم فبلغوا بغداد فى يوم عيد الأضحى وقد سودوا وجوههم ورفعوا المصاحف على رؤوس القصب ومنعوا الخطيب من الخطابة وأعلنوا سب المقتدر وثار معهم عامة بغداد.

* قبض الخليفة على وزيره سليمان بن الحسن وحبسه ١٤ شهراً من وزارته واستوزر عبيدالله الكَلْوذَانى ولم يلبث أن عزله بعد شهرين بحسين بن القاسم.

سنة ٣٢٠ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الجمعة ١٣ يناير ٩٣٢م.

* تولى الخلافة العباسية ببغداد محمد بن المعتضد ولقب القاهر بالله وذلك فى ٢٨ شوال من السنة.

ثم بعد ذلك حضر عنده وساله ان يسامحه واعترف بذنبه له، وقبله وقال له: يا ولدى لابد لنا الجميع من الوقوف امام منبر الله العظيم عراة مساكين مكشفين الرووس، فاجتهد يا ولدى فى فعل الخير فى كل وقت ولا تنطق بالكذب ليلا تسمع المكتوب «ان الرب يهلك كلمهن ينطق بالكذب». فبقى الشماس تحت خوف عظيم وهو يضرب المطانوه ويقول اغفر لى.

وفى تلك [الايام] مات الملك ابن المتوكل الذى

البلغار، وكادت أن تنجح لتعاطف بعض قوات الحامية الرومية مع الثوار، ووجد باسيليوس أن الوصول الى هذه المنطقة سوف يستغرق وقتا طويلا تكون الثورة فيه قد استفحلت، فلجأ إلى طلب النجدة من فلاديمير - قيصر الروس - لقمعها لأن موقعها أقرب الى حدود الروسيا؛ وكان فلاديمير سعيدا بهذا التكليف، فهاهى ذى القسطنطينية العظيمة التى ذهب يسعى اليها جاءت تسعى إليه بنفسها ونفيسها. واشترط فلاديمير أن يقوم بهذه المهمة مقابل وعد من

---

* سار الخليفة الأموى عبدالرحمن الناصر من قرطبة قاصداً طليطلة الثائرة للمرة الثانية فاستنجد أهلها بملك ليون راميرو الثانى ولكنه هزم فاضطرت المدينة للتسليم فدخلها الناصر في رجب من السنة وهدم أسوارها للقضاء على أعمال التمرد.

* اشتدت الوحشة بين الخليفة المقتدر ومؤنس المظفر الذى استولى على الموصل فخرج الخليفة إلى قتاله ولكن العسكر كانت قلوبهم مع مؤنس فعزم الخليفة على الهرب إلى واسط وفى هذا الصراع لقى المقتدر مصرعه على يد أحد الجند من البربر.

* عزل الخليفة المقتدر (قبل مقتله) وزيره الحسن بن قاسم واستوزر أبا الفتح ابن الفرات.

* نزل المقتدر (قبل مقتله) لمرْدَاويج بن زَيّار الدَّيْلمى عن حكم أذربيجان وسجستان وما حولها نظير مال يؤديه مؤسساً بذلك الدولة الزيارية عازماً الاستيلاء على بغداد نفَسها ليقضى على الدولة العربية وينقل الحكم إلى الفرس.

* اشتدو الغلاء في بغداد بسبب الفتن الكثيرة حتى نهب الجند دور الوزراء، وصادر القاهر أموال أم المقتدر وجميع حاشية الخليفة المقتول وحل أوقافها وباعها بالرغم من معارضة الفقهاء.

* توفى الخليفة المقتدر العباسى مقتولا (٢٧ شوال) وله من العمر ٣٨ وقد تولى الخلافة وهو ابن ١٣ سنة فكان أصغر من وليها سناً ودامت خلافته ٢٥ سنة خلع خلالها وأعيد.

هو المنتصر قاتل ابيه، ولم يقم ملك غيره ستة شهور، وانتقم الله منه لاجل ما فعل مع ابيه بعد قتله، ولاجل انه ايضا نام مع سرارى ابيه بعد قتله. وان جسمه تخبث قبل موته، وملك بعده المستعين وكان رجلا صالحا خيرا كما شهد عنه. وفعل خيرا في ايامه في ارض مصر واعمالها وبلدته والمشرق والشام.

ويجب علينا ان نقول ما حل بهذا الملك في مملكته، وما فعل الله لابينا البطرك انبا شنوده. لنعود

الامبراطور بتزويجه من شقيقته الجميلة المثقفة آنا Anna وتحت الحاح الحاجة، وافق الامبراطور باسيليوس مبدئيا على طلبه، ولاعتقاده أن وجود أميرة مثقفة مثل آنا على رأس البلاط في كييف، سوف يساعد على نشر الحضارة والثقافة الرومية والعقيدة الارذوكسية بين الروس؛ وعلى أثر تلقيه ذلك الوعد، انطلق فلاديمير وجنوده كالدببة الضارية، وسحقوا أعداء باسيليوس في بلغاريا، ا لتى كانوا يعرفونها جيدا بفضل غزواتهم السابقة لها. وعقب هذا النصر تم عقد معاهدة

سنة ٣٢١ هجرية

وافق الأول من المحرم فى هذه السنة يوم الثلاثاء الأول من يناير عام ٩٣٣م

* تولى فى هذه السنة على مصر أربعة من الولاة: أولهم أبو المنصور تكين الذى توفى فى شهر ربيع الأول، ثم إبنه باستخلاف من أبيه، ثم محمد بن طُغْج لمدة أثنين وثلاثين يوماً ثم القائد التركى أحمد بن كَيْغَلَغ فى شهر شعبان.

* شغب الجند على الخليفة القاهر ببغداد فلجأ إلى دار مؤنس الخادم الذى انقلب عليه بعيد ذلك فحبسه كما حبس عدداً من الأمراء والقواد وأمر بهم فقتلوا واختفى الوزير ابن مقلة وأحرقت داره واختط القاهر لنفسه سياسة متزمتة دموية وأصبح لقبه الذى نقش على العملة «المنتقم من أعداء دين الله»، وأمر بالتشديد على تحريم الخمور والقبض على القيان والمغنين والمخنثين وكسر آلات اللهو.

* استولى ملك ليون الأسبانى على مدينة وحصن أوسمة المطل على نهر دويرو ورد عبدالرحمن الناصر بالاستعداد لرد الاعتداء.

* توفيت فى هذه السنة السيدة شغب زوجة الخليفة المعتضد وكانت من جواريه وهى أم الخليفة المقتدر وكانت صاحبة الأمر فى الدولة منذ تولى إبنها الصبى الخلافة عام ٢٩٥ هـ وكان دخلها فى السنة ألف ألف دينار وقد لاقت عنتا بعد مقتل إبنها وتولية القاهر.

صداقة بين امبراطورية الروم وروسيا، عفيت بمقتضاها كل جوانب الخلاف لسابقة بين الدولتين، ونصت على أن نرسل روسيا كل عام ستة آلاف جندى للخدمة في الجيش الأمبراطورى. وقد أدت سياسة الانفتاح على روسيا الى انتشارالمسيحية الأرثوذوكسية بين القبائل الروسية نتيجة لفتح الأبواب على مصراعيها أمام المبشرين الروم الى كافة أصقاع روسيا. وتكونت كنيسة أرثوذوكسية روسية في كييف سرعان ما أصبحت أما لكنائس صغرى انتشرت فى كافة أنحاء المدن

الى ما كان المنتصر فعله حتى قتل اباه وجلس عوضه. وكان له اخوين اسم احدهما المعتز والاخر المويد وكان جعفر المتوكل ابوهما قد قرر ان الملك بعده يكون لاولاده الثلثة، فلما جلس محمد بعد ابيه جعفر اخذ اخوته المذكوران اعتقلهما فى موضع ضيق ليقتلهما، ولما لم تطول مدته مات كما قلنا، ولما جلس بعده احمد المستعين اخرج الاخوين من الاعتقال. واخذ المعتز جماعة كانوا التحقوا به وحشد عسكر وخرج ليحارب اخيه

---

* توفى من رجال الحكم: مؤنس الخادم الذى لقبه الخليفة بالمظفر توفى فى نحو التسعين وكان صاحب الأمر فى الدولة العباسية زهاء نصف قرن حتى انقلب عليه الخليفة القاهر وقتله، وفيها توفى أمير مصر أبو منصور تكين (١٦ ربيع أول) وقد تولى أمرتها أربع مرات جملتها نحواً من ١٥ سنة.

سنة ٣٢٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد ٢٢ ديسمبر ٩٣٣م.

* استوحش الناس من الخليفة القاهر قسوته فمازالوا به حتى خلعوه فى يوم الاثنين الخامس من جمادى الأول وسملوا عينيه حتى لا يصلح للخلافة فكان أول خليفة سملت عيناه فكانت مدة خلافته سنة وستة أشهر وستة أيام.

* بويع بالخلافة أحمد ابن الخليفة المقتدر فى اليوم الثانى لخلع القاهر وعرف باسم أبى العباس الراضى بالله أحمد بن المقتدر، أمه أم ولد إسمها ظَلّوم وله من العمر فى هذا التاريخ ٢٥ عاماً.

* فى النصف من جمادى الأول (مايو) خرج الخليفة الأموى عبدالرحمن الناصر من

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

المستعين احمد الرجل الجيد الذى اطلقه من الاعتقال ومعه اخوه لينزعه من الملك ويجلس عوضا منه، وضيق المعتز على المستعين جدا، فخرج من مدينة الملك الذى تسمى سر من راى وخلف زوجته وماله واولاده فى دار المملكة وهرب الى مدينة الملك اولا بغداد، واستولى المعتز على دار الملك وجميع ما فيها، واخذ الاموال وانفق فى العساكر الذين معه. واما ذلك المستعين الذى هرب فكانت بطاعته مواضعا كثيرة، فلم يزالو الاخوين

الروسية الهامة مثل نوفوجرود Novo-gord ، وبشكوف، وتفسر Tver، وسوزدال Suzdal، وفلاديمير، وموسكو. وسرعان ماحملت هذه الكنيسة رسالة نشر المسيحية الى سيبيريا والاسكا. وكان لذلك أثره فى تأزم العلاقة بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما. وبالرغم من أن «آنا» رفضت أن تقترن بالتسار فلاديمير حسب وعد أخيها، مما أدى الى أن فلاديمير قلب ظهر المجن للقسطنطينية بالاغارة على حدودها فى كريميا Cri-mea ، لكن هذه الحادثة لم تغير من

قرطبة قاصداً الامارات الأسبانية فى الشمال فأقتحم مملكة نافار فطلبت ملكتها تيودورا المصالحة والتعهد بالطاعة وعدم الدخول فى أحلاف ضد المسلمين فأمنها، ثم أغار على أراضى إلبة ففر أهلها إلى الجبال وتم استلاؤه على حصون مملكة ليون بما فيها حصن أوسمة الذى استولى عليه ملكها فى العام الفائت وانتهى عبدالرحمن إلى بُرْغُش قاعدة مملكة قشتالة وخربها.

* ثار العسكر مطالبين بارزاقهم وأحرقوا دار الماذَرائى صاحب الخراج وكادت تتحول الفتنة إلى حرب أهلية.

* ظهر نجم عماد الدولة على بن بُوَيَة جد البُوَيهيين منذ هذه السنة وكان فى الأصل من عمال مَرْدَاويج الدَّيلمى فاستولى ابن بويه على فارس بينما أستولى مرداويج على الأهواز مما يدل على ضعف الخلافة كذلك دخل الروم فى نفس السنة مَلَطية وسُمَيْساط وخربوهما.

* خرج اسطول الخليفة الأموى الأندلسى وقوامه ٤٠ سفينة بقيادة عبدالملك ابن أبى حَمَامة من ثغر المَرية وسار إلى جزر البليار الإسلامية ومنها إلى ميناء بالش وهاجمها كما هاجم موانى اينش ومسنيط وأخرب ما بهما من السفن ثم حاصر برشلونة وقتل قائده فى الحصار حاكمها وانتهى إلى طَرْطُوشة عند مصب نهر إبرو قبل عودته إلى المرية.

* توفى فى هذه السنة بمدينة المهدية عُبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية بشمال

يتحاربو ثلثة سنين الى هذه السنة التى كتبنا فيها هذه السيرة وهى سنة اثنين وثمانين وخمسماية للشهدا الاطهار، الموافق لملك الاسلام سنة اثنين وخمسين ومايتى للهجرة.

ولما جرى بين المعتز والمستعين انقطعت الطرق ولم يقدر احد يحمل شى من الخراج من ملك مصر، ليكون كلما استخرجه ابن المدبر محتاط عليه بفسطاط مصر ينتظر من يصح له الملك

الموقف شيئا، ولم توقف المد الحضارى الرومى الارثوذوكسى الى اصقاع روسيا. فقد أخذت روسيا تبنى حضارتها على النمط الرومى فكرا وروحا، وتقلد مظاهر حضارتها فى الفنون والعمارة. وبعد موت فلاديمير، تولى ابنه ياروسلاف، الذى اقتفى أثر سياسة أبيه، حتى أصبحت الروسيا تتمتع بمكانة مرموقة، ومركز حضارى تفوق على سائر ماعداها من الدول السلافية فى شرق أوروبا. وكان هذا أكبر انتصار حققه باسيليوس الثانى فى المجال السلمى.

أفريقية (منتصف ربيع أول) عن ٦٣ عاماً بعد حكم دام ٢٤ سنة وخلفه إبنه الذى أخفى موت أبيه سنة كاملة وهو أبو القاسم محمد باسم القائم بأمر الله.

سنة ٣٢٣ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الخميس ١١ ديسمبر ٩٣٤م.

* التمس راميرو الثانى ملك ليون الأسبانى الصلح من عبدالرحمن الناصر صاحب الأندلس بعد غارات العام الذى سلف فأجابه عبدالرحمن وكان سفيره إلى ليون الوزير يحيى بن اسحق.

* لم يحج أحد من العراق فى هذه السنة بسبب إعتراض أبى طاهر القرْمِطى لقوافل الحجاج وقطعه الطريق.

* شهدت هذه السنة حملات بحرية ناجحة، فيها خرج أسطول عبدالرحمن من المَرية للعام الثانى بقيادة بن أبى حَمَامة وقصد شواطىء المغرب للقضاء على الثائرين على حكم الناصر، وفيها أغار أسطول الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله وعدته ثلاثون سفينة على بلاد إيطاليا وفتح مدينة جنوة الشهيرة وواقع جزيرة سردينية وعاد إلى المهدية محملا بالغنائم.

فيسلمه اليه، ولاجل ذلك تعطلت جميع التجار من طرق مصر والمشرق وافتقر الناس بمصر لانقطاع السبيل وثقل الخراج. ولم يلتفت ذلك الرجل السو الذى هو ابن المدبر الى حروب الملكين ولا ما على الصقع من الخوف بل كان يضمر للناس البلايا ويحصل الاموال. وكان معتقد انه يحمله الى من يملك ويتقدم به عنده فتراأف الرب وبدد الحروب، ووصل الى ارض مصر اول يوم من برموده بان المعتز قد غلب وهزم المستعين، فخطب

باسيليوس الثانى والمسألة البغارية:

لقد سبق وأن عرفنا أن بلغاريا أصبحت مملكة تدور فى فلك القسطنطينية منذ أن طرد يوحنا الزمسكى الروس منها. غير أنه بعد موت يوحنا الزمسكى تولى ملك بلغارى ملك طموح اسمه بريليب Prilep (والمعروف أحيانا باسم صمويل Samuel)، حاول احياء القوة البلغارية، والاستقلال ببلاده عن القسطنطينية؛ واستغل بريليب انشغال باسيليوس الثانى عام ٩٧٧ فى القضاء على المؤامرات الداخلية التى

---

* غلت الأسعار فى بغداد حتى بيع كُرّ القمح (٤٠ أردبا) بمائة وعشرين دينارا والشعير بتسعين فأقام الناس أياماً لا يأكلون سوى الذرة والدخن والعدس.

* وقع القتال عند تنّيس بمصر بين ابن كَيْغَلَغ أمير مصر المعزول ومحمد ابن طُغْج أميرها الجديد وخرج أتباع ابن كيغلغ إلى برقة بعد هزيمتهم وصاروا إلى القائم الفاطمى بتونس وحرضوه على أخذ مصر وهونوا عليه أمرها.

* عظمت حركة الحنابلة فى بغداد تولوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وصاروا يكبسون دور الخاصة والعامة ويكسرون دنان النبيذ وآلات الغناء ويعترضون على البيع والشراء إذا خالف الشريعة ثم أوقفوا عند حدهم.

* أمر الوزير ابن مُقْلة بضرب عالم القراءات بن شَنَّبوذ لانه يبدل فى حروف القرآن.

* قتل فى هذه السنة مَرْدَاويج بن زيّار الديلمى المؤسس الأول للدولة الزيّارية قتله بعض الترك فى الحمام بالأهواز واجتمع الديلم على تولية أخيه وَشْمكير.

سنة ٣٢٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الأثنين الموافق ٣٠ نوفمبر ٩٣٥م.

* عزل الخليفة العباسى الراضى وزيره ابن مُقْلة وقبض عليه وأحرقت داره للمرة الثالثة

هددت العرش المقدونى، واستطاع بقواته أن ينتزع اقليم تساليا واقليم مقدونيا من قبضة الروم ما بين أعوام ٩٧٦ ـ ٩٨٦م، وتقدم جنوبا نحو وسط بلاد اليونان، وبذلك نجح بريليب فى خلال عشر سنوات فقط أن يمد رقعة بلغاريا الى أقصى توسع عرفته منذ انشائها. ولم يكد باسيليوس الثانى يفرغ من مشاكله الداخلية، حتى أسرع لردع البلغار؛ فشن فى عام ٩٨٦ الحرب عليهم، مستخدما كل وسائل الفتك والعنف والدمار؛ حتى أجلاهم عن البلقان؛ ثم

له بمصر، وكان فرح من جميع القبايل من اجل ما كان من الخوف على البلاد، لان العرب بارض مصر كانت قد افسدت، وهم القوم الذى مساكنهم فى الجبل والبرارى، وافسدو فى الصعيد ونهبو وقتلو. ومن جملة ما نهبو دير ابو شنوده ودير القلمون بالفيوم ودير انبا بخوم الذى من اعمال طحا عند ناحية تعرف ببير حواس، واحرقو الحصون ونهبو الاعمال وقتلو جماعة من الرهبان القديسين الذين فيهم، وافسدو جماعة من

وخلفه عبدالرحمن بن عيسى الذى لم يلبث أن قبض عليه الخليفة فاستوزر أبا جعفر الكرخى الذى أبدى عجزاً كذلك فخلعه بسليمان بن الحسن كل ذلك فى عام واحد.

* أستحدث منصب أمير الأمراء وتولاه محمد بن رائق الذى جمع سلطات الدولة فى يده بعد عجز الوزراء وانحطاط سلطة الخليفة.

* أغار الامبراطور البيزنطى على سُمَيْساط فسار إليه سيف الدولة الحَمْدانى ولكن الروم غلبت عليه، بينما شن عرب بني نُمَيْر الغارات على ديار بكر ومضر وقطعوا الطرق، كما سار معز الدولة على بن بويه على كِرْمان وأستولى عليها كل ذلك بسبب ضعف الحكومة المركزية.

* أعلن صاحب سَرَقُسطة التُجيبى بالأندلس إعترافه بسيادة ملك ليون كما دخل فى حلف مع مملكة نافار ومع البَشْكَنس فى وجه الخليفة عبدالرحمن الناصر ولكن قائده أحمد بن إلياس هزم القوات المتحالفة فغرق كثير منها فى نهر إبرو وصدت حامية قلعة مجريط (مدريد) محاولة ملك ليون للاستيلاء عليها.

* أضاف الخليفة الراضى حكم الشام إلى محمد بن طُغْج.

سنة ٣٢٥ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت ١٩ نوفمبر ٩٣٦م.

* فى الأول من المحرم إنحدر الخليفة الراضى من بغداد إلى واسط ومعه أمير الأمراء ابن

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

الرهبانات العذارى وقتلو منهم بالسيف، وفعلو بارض مصر افعال ان ذكرنا اليسير منها طال الشرح وبعد على القارى فهمه.

وكان قبل وصول هذا الانسان الذى تقدم ذكره، الذى ثبت الظلم والخراج على الديارات والبيع، اتصل خبره بالارخنين ابرهيم وسويرس المذكورين، فعولو على المضى الى مدينة الملك. فلما علم الاب انبا شنوده بذلك قال لهما بتذكرة

حاصر مدينة تربادستا (صوفيا الحالية)، الا أن ملك البلغار ألحق بجيش الروم المحاصر خسائر فادحة عند بوابات تراجان بالقرب من المدينة، بل أن باسيليوس الثانى نفسه نجا من الموت باعجوبة. ولقد استمرت الحرب الطاحنة بين باسيليوس الثانى وبريليب عشر سنوات، نجح خلالها الملك بريليب فى أول الأمر فى الاستيلاء على ميناء دورازو Durazzo، كما انقض على بلاد الصرب، وحاول الوصول الى موانئ بحر ايجة، وحاصر

رائق وقضى على ثورة الجند الحجرية والساجية وسار إلى الأهواز لإجلاء البَرِيدى عنها دون نتيجة.

* بدأ فى هذه السنة الخليفة الأموى الأندلسى عبدالرحمن الناصر بناء مدينة الزهراء على مرتفعات جبل العروس (سييرا مورينا) وعلى بعد ثلاثة أميال من قرطبة واستمر البناء والتعمير أربعين سنة.

* بعث الخليفة الفاطمى القائم مدداً جديداً إلى أمير صقلية سالم بن راشد لإخماد ثورة أهل جرجنت.

* دخل أبو طاهر القرمطى الكوفة وعجز أمير الأمراء ابن رائق عن رده ولم يحج أحد من العراق فى هذه السنة خوفاً من القرامطة، وتولى الوزارة أبو الفتح وابن الفرات.

* فى منتصف رجب خرج عبدالرحمن الناصر إلى شمال الأندلس لحرب المتحالفين عليه من ملوك الأسبان ومعهم بعض الخارجين عليه من التُجيبيين أصحاب سَرَقُسطة فاستولى منهم على قلعة أيوب (١٢ رمضان) وكانت تحميها فرقة من الفرسان الأسبان ثم دخل بلاد البَشْكَنس وخربها حتى أعلنت ملكتها الطاعة ثم سار إلى تَطِيلة وسَرَقُسطة حتى طلب صاحبها الأمان وخاض وعاث ونهب فى أرض ليون.

مـدينة سـالونيك، ووصل فى تقـدمـه حتى كورنثا فى جنوب غرب اليونان.

وكـان هذا آخـر مـا وصل اليـه بريليب البلغارى فى توسعه، بعدها بدأ باسيليوس الثانى يقتفى أثره، مصـممـا على الانتـقـام لشـرف بلاده وتأديب البلغار، وانتظر بقواته المتربصة عودة البلغـار من كـورنثـا، وقطع عليـهـم الطريق، وألحق بالجـيـش البلغـارى المرهق من المعـارك هزيمة سـاحـقـة؛ وانسحب البلغار على أثرها من دورازو عـام ١٠٠١م، وتتبـعـهـم باسـيليـوس حـتى أجـلاهـم عن مـقـدونيـا عـام

كتبها لهما يقول فيها: انا اسال السيد المسيح ان يكتب السلامة لكما ويحفظكما ويعينكما على بلوغ ارادتكمـا، واذا تفـضل الله بوصـول ولدى المحبين لله وبلغتما اغراضكما فيكون سوالكما فى بيع مصر الذى اخربو فى هذا الحين. وانا ارجو ان يعمرو فى ايامى وانظرهم قبل ان يقبض روحى، وهذه هى شهوتى على الرب يسوع المسيح. وكان هذا الارخن المبارك ابرهيم احدهما قد جعل هذا فى نفسه وكان مهتم به، فلما وصل الى مدينة

---

* ممن توفى قاضى مصر أبو يعقوب إسحاق الشاشى مؤلف أصول الفقه وهو متداول.

* ممن توفى من رجال الحكم: الإمام الزيدى اليمنى الناصر العلوى الذى قـاتل القـرامطة وظفر بهم، والأمير عدنان بن أحمد بن طولون، وحول هذا التاريخ توفى الثائر الأندلسى هابل ابن حريز.

سنة ٣٢٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ٨ نوفمبر ٩٣٧م.

* جرت معركة بين الروم وناصر الدولة الحَمْدانى وفيها أستولى الحمدانى على سرير الامبراطور وصليبه.

* وردت رسالة من الروم باسم رومانس وقسطنطين واسطفانس إلى الخليفة معنونة باسم الشريف البهى ضابط سلطان المسلمين وكانت الكتابة اليونانية بالذهب والترجمة العربية بالفضة ورد عليها الراضى بمثلها ووافق على طلب الهدنة.

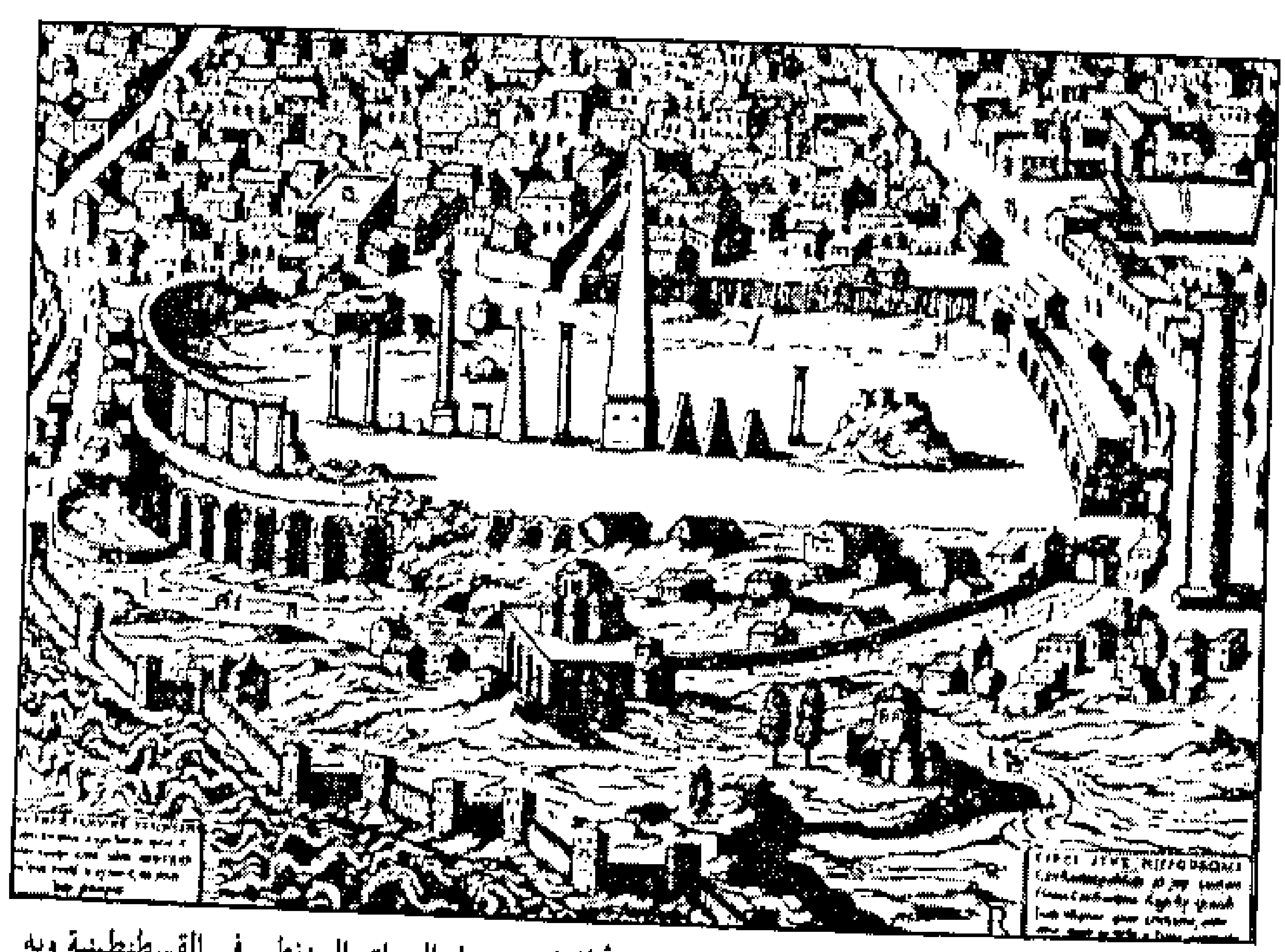
* منح عبدالرحمن الناصر خليفة الأندلس الأمان لمحمد بن هاشم التُجِيبى صاحب سَرَقُسطة بعد أن ضرب الحصار حولها عدة أشهر.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

الملك جعل الخبر عند قوم مومنين [نصارى] من خدام الملك ففرحو بذلك وتقدمو الى المعتز الذى كان متوليا تلك الايام، وسالوه فى امر البيع وشرحو له ما فعله ابن المدبر وما جرى منه، فاجاب سوالهم وكتب لهم سجل بان يبنو البيع فى كل ارض مصر. وثبتا السجل وقالا نلتمس خطه وعلامة بذلك، فمات وملك بعده اخيه المستعين فكتب ابرهيم الارخن رقعة يعرفه فيها الحال عن السجل الذى كان اخوه كتبه وانه لم

١٠٧٧م؛ ولم يبق بذلك للبلغار سوى بلادهم الأصلية القديمة وسط البلقان، غير أن ذلك لم يفت فى عضد بريليب، وظل يتصدى لقوات الروم حتى عام ١٠١٤م حيث تمكن باسيليوس فى ذلك العام من تطويق معظم الجيش البلغارى فى وادى نهر سترومون Strtmon بالبلقان، وبالرغم من أن فرصة البلغار من الفكاك من الحصار كانت ضئيلة للغاية، غير أنهم قاتلوا قتال الأبطال، وما أن أرخى الليل سدوله، حتى كانت جثث الآلاف من قتلاهم مبعثرة فى الوادى،



لوحة مطبوعة بطريقة الحفر من القرن ١٥ تبين أطلال مضمار السباق البيزنطى فى القسطنطينية وبه بعض الآثار المصرية.

ووقع في الأسر منهم أربعة عشر ألفا، ولكي يلقن باسيليوس الثاني البلغار درسا لا ينسوه، أمر بتقسيم الأسرى أمامه، أمر بفقئ عيونهم جميعا فيما عدا قادة المجاميع، ثم أمرهم على الفور بالعودة الى ملكهم بريليب، وعندما مثلوا بين يديه كان منظرهم مروعا، حتى أن الملك البلغارى انتابته نوبة اغماء، ومات من الحزن في خريف نفس العام (١٠١٤). ومن ثم استحق باسيليوس الثاني لقب سفاح البلغار Bulgaroctonos ذلك اللقب الذى سبق منحه لقنسطنطين الخامس الأيسورى.

يبق فيه الا العلامة فامر ان يكشف من الديوان ويخرج منه، فكشف واحضر اليه فوقف عليه وامر بتمامه وان يستقر بايدى الذمة بارض كورة المصريين. واكد فيه غاية التاكيد على من تجاوزه ان يحل به نقمة الملك. وامر لهم بان يعاد اليهم جميع ما كان اغتصب للبيع والديارات من الانية وغيرها والارضين والرباع والاواسى وغير ذلك مما كان بايدى النصارى وكانو فيه متصرفين. فلما وصل هذا السجل الى ارض مصر فرح بذلك

---

* استولى معز الدولة البويهى على الأهواز واستولى اليَشْكُرى نائب وَشْمكِير على أذربيجان.

* وقع الخلاف في هذه السنة لأول مرة بين زعماء القرامطة.

* في ذى القعدة من السنة جرى الفداء بين الروم والمسلمين على نهر البدندون (بالأنضول) وكان ممثل الخليفة ابن ورقاء الشيبانى وعدد من فودى من المسلمين ٦٣٠٠ من ذكور وأناث.

سنة ٣٢٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين ٢٩ أكتوبر ٩٣٨م.

* أمر الخليفة الراضى أن يزاد في ألقاب محمد بن طُغْج أمير مصر لقب الإخشيد فدعى له بذلك على منابر مصر.

* في صيف هذه السنة جرت معركة الخندق بالأندلس بين عبدالرحمن الناصر وقوات الأسبان المتحالفة على رأسها روميرو ملك ليون وملكة نافار وبعد أن عبر عبدالرحمن نهر التاجة ثم نهر وبرو حاصر سمَّورة عاصمة ليون وبعد أن أوقع الهزيمة بالأسبان ارتد بين سورى

الاب انبا شنوده وجميع الاساقفة والشعب المحب لله، وظهرت الرهبان الذين كانو سلمو من السيف وعمرو بيعهم ودياراتهم، وكذلك الشام اهتمو فى عمارة ما فسد من بيعهم. وكان هذا الاب يشكر الله ويمجده ويقول الشكر لله الذى تمم شهوتى وانقذ ميراثيه وجدد وجه الارض. وبنا الاب خيمة داوود التى سقطت كما قال الرب: «والذى وها منها انا اقيمه وابنيه وليطلب الرب بقية الناس وجميع الامم ينادو باسمه عليهم» . وبهذا العزى

وبالرغم من ذلك ظل البلغار يقاتلون لمدة أربعة سنوات أخرى، اذ خلف بريليب على العرش ابنه جبريل، ولم يكن ندا لباسيليوس الثانى، فاستمر يتراجع أمام قوات الروم حتى سقطت المدن البلغارية الهامة واحدة تلو الأخرى، اذ سقطت العاصمة برسلاف عام ١٠١٨، وكان أخرها مدينة أو خريدا Ochrida عاصمة بلغاريا البلقانية، وآخر قلاعها المحصنة، وذلك فى أواخر عام ١٠١٨م معلنا نهاية المملكة البلغارية، وضمها كلها للأمبراطورية. بعد هذا

المدينة فتكاثروا عليه فكانت أول هزيمة حاسمة لعبدالرحمن فى حروبه مع الأسبان (١١ شوال)، وفيها أخذ أمير سرقسطة محمد بن هاشم التجيبى أسيراً حتى فودى بمال كثير.

* خرج الخليفة الراضى لحرب ناصر الدولة الحمدانى وبصحبته أمير الأمراء بجكم وبعد مناوشات إنهزم الحَمْدانى فطارده بجكم إلى نصيبين فلجأ الحمدانى إلى أور ثم اصطلحا وصاهر بَجْكم ناصر الدولة.

* اذن أبو طاهر القرمطى بفتح طريق الحجاج على أن يأخذ عن كل جمل خمسة دنانير فكانت أول سنة أخذ فيها المكس من الحجاج.

* نزلت جماعة مسلحة من النورمان ناحية من جزيرة صقلية وعملوا على تحصينها وجعلوا منها منطلقاً لأعمال القرصنة فى البحر بينما كانت الفتنة ناشبة بين أهل صقلية وأميرها خليل بن إسحق.

* ولد فى هذه السنة الشاعر ابن نُبَاتة المصرى ديوان شعره مطبوع متداول.

* استشهد القاضى جحّاف بن يمن قاضى بلنسيه فى أحد مواقع الحرب مع الأسبان وهو جد القاضى ابن جَحّاف الذى استشهد بدوره حرقاً بعد قرن ونصف من هذا التاريخ.

النصر الكاسح المرهق، عاد باسيليوس الى القسطنطينية ليستقبل استقبال الفاتحين، ودخلها يعلو هامته النصر، ويسير في ركابه كافة أفراد الأسرة المالكة البلغارية رجالا ونساء. حقا لقد انهكت الحروب البلغارية قوى امبراطورية الروم ومواردها، لكنها جعلت حدودها تصل الى أقصى اتساع لها ؛ صحيح أنه اتساع أقل بكثير مما كانت عليه أيام جستنيان، لكنه كان الى حد ما أكبر مما حققه خلفاء جستنين جميعا، فقد أصبحت تمتد من بلجراد حتى الدانوب،

نهض الاب انبا شنوده الى المتولى بارض مصر وساله ان يتمم امر الملك، فكتب له الى جميع البلاد بينا جميع البيع فى كل المواضع حسب ما ورد به امر الملك؛ المستعين بالله، واخذ ابونا الكتب وسلمها الى قوم من جهته الى ساير الاعمال الريفين والصعيدين، وكتب هو ايضا الى الاساقفة وعزاهم فى كتبه بتعزية حسنة مملوة حكمة من كتب البيعة. فلما وصلت الكتب الى الولاه مكنو المومنين من عمارة البيع فى كل موضع الى مدينة

سنة ٣٢٨ هجرية

أهل شهر المحرم يوم الجمعة الموافق ١٨ أكتوبر ٩٣٩م.

* مازالت الثورة فى صقلية ناشبة بين أميرها خليل بن إسحق وأهل جرجنت وقد طال حصارها أكثر من ثلاث سنين.

* خرج ابن رائق عن الطاعة وقصد الشام واستولى على حِمْص وعلى غيرها من المدن حتى بلغ العريش فأنفذ إليه الخليفة واليه على مصر محمد بن الأخشيد ولكنه أنهزم.

* أوقع سيف الدولة الحمدانى الهزيمة بجيش الروم وكان على رأسه الامبراطور (الدُّمُسْتُق كما تسميه المصادر العربية).

* توفى فى هذه السنة من الوزراء: الوزير الأديب أبو على أحمد بن على ابن مُقْلَة بعد أن عاش عامين فى السجن مقطوع اليد واللسان وكان قد تولى الوزارة ثلاث مرات وأشتهر بجودة الخط (توفى فى ١١ شوال).

* توفى بالاسكندرية الطبيب النصرانى سعيد بن البطريق مؤلف نظم الجوهر ويعرف بتاريخ ابن البطريق وذلك عن ٦٥ عاماً.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

اسوان والى مدينة الفرما. فيالذلك الفرح فى ذلك الوقت المبارك الذى كان بارض مصر من الرجال والنسا والاطفال كما هو مكتوب فى الابركسيس: «ان البيعة التى فى جميع اليهودية وارض الجليل والسامرة لهم السلامة وهم يسلكو بخوف الله». وكانو يكثرو بتايد الروح القدس، فمن لا يتعجب الان ويمجد الله ويعترف بهذه النعمة كما قال الرب المسيح فى انجيله المقدس: «من اعترف بى قدام الناس انا اعترف به قدام ملايكة السما».

وأصبحت تجاور حدود المجر. أم البلقان فقد كان جائزة النصر التى استحقها الروم بجدارة، فقد أصبح أغلبها اما فى أيديهم، أو يدين لهم بالولاء.

الحروب الشرقية:

ورغم انشغاله فى حروب البلغار، لم ينس باسيليوس الجبهة الشرقية، خاصة أن الدويلات العربية فى الشام كانت ضعيفة ومفككة، غير أن قيام الدولة الفاطمية فى مصر غير مجرد الأحداث، فالدولة الفاطمية كانت دولة عقائدية، تعتبر الحرب جهادا مفروضا عليه، وكانت دولة فتية،

سنة ٣٢٩ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الثلاثاء ٦ أكتوبر ٩٤٠م.

* تولى الخلافة العباسية ببغداد الخليفة إبراهيم المتقى بالله بن المعتمد بن الموفق بويع يوم ٢٠ ربيع أول بعد خمسة أيام من وفاة الخليفة الراضى أمه أم ولد إسمها خَلُوب وهو الحادى عشر من الخلفاء العباسيين ولم يزل خليفة حتى خلع بعد نحو خمس سنوات.

* تولى إمرة الأمراء ببغداد فى هذه السنة أربعة دليلا على إضطراب أحوال الدولة وضعف الخلافة وهم: أبو الخير بَجْكَم توفى اغتيالا، أبو عبدالله البَريدى الذى أستولى على بغداد ودامت إمارته ٢٤ يوماً، ثم القائد الديلمى كُورتكِين ومدته شهران ثم ابن رائق للمرة الثانية (٢١ الحجة).

* تولى وزارة المتقى ابنُ ميمون خلفاً لابن مُخَلَّد ثم أبو إسحق القراريطى، تولى لأول مرة حجابة الحجاب بدر الخَرْشَنى.

* أغار الروم على كفر توثا بالقرب من رأس العين فقتلوا وسلبوا منتهزين اضطراب الأحوال فى بغداد.

* ولد فى هذه السنة المؤرخ المصرى أبو منصور الفَرْغَانى (أحمد ابن عبدالله) مؤلف سيْرة كافور الأخشيدى.

واذكر ان كان فى ايام ابينا انبا شنوده جماعة من الناس يقولو ان الفصح فى السنة التى صلب فيها المخلص يسوع المسيح كان فى اليوم السادس عشر من برموده، وكان الاب انبا شنوده مهتم بهذا الامر الى ان اظهر لهم الصواب وحققه عندهم، وهو ان القيامة المقدسة كانت فى سنة خمسة الف وخمس ماية اربعة وثلثين للعالم، وان الصلبوت كان فى يوم الجمعة السابع والعشرين يوما خلت من برمهات. وهذا اليوم الذى خرج فيه ادم من

أخذت تطالب بحق مصر فى الشام، وبدأت تفرض سيطرتها على كثير من أجزائه؛ ولقد حاول باسيليوس أن يقتفى اثر سابقيه نقفور ويوحنا الزمسكى، فهاجم الشام عام ٩٩٥م، واستولى على حمص وحلب وصيدا، ثم عاود الهجوم مرة أخرى على الشام عام ٩٩٩م، حيث تقدمت جيوشه نحو طرابلس، وانتهت المعارك بينه وبين القاطميين بتوقيع معاهدة بينه و بين الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله عام ١٠٠١، استطاع بمقتضاها أن يحافظ على المكاسب التى حققها

---

* شهدت السنة (منتصف ربيع الأول) وفاة الخليفة العباسى الراضى بالله عن واحد وثلاثين عاماً وشهور كانت مدته ست سنين وعشرة أشهر وأيام، يذكر عنه أنه آخر خليفة له شعر مدون وآخر خليفة خطب يوم الجمعة.

* توفى ببغداد الطبيب السريانى الأصل بَخْتَيْشوع بن يوحنا ثالث من عرف بهذا الاسم وكان من خاصة الخليفة المقتدر.

سنة ٣٣٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد ٢٦ سبتمبر ٩٤١م.

* استولى أبو الحسين البَريدى على بغداد فى جيش من الترك والديلم وهرب الخليفة إلى الموصل وبرفقته ولى عهده وأمير الأمراء ابن رائق (٢١ جمادى الآخرة) ودخل أصحاب البريدى قصر الخليفة فقتلوا ونهبوا ولكن لم يتعرضوا للقاهر الخليفة المعزول المسحول العينين، غير أن الخلاف لم يلبث أن دب بين البريدى والترك.

* خف ناصر الدولة الحمدانى إلى نُصْرة الخليفة المتقى الذى عاد إلى بغداد بعد أن هرب منها البريدى.

الفردوس. والقيامة فى اليوم التاسع والعشرين من برمهات يوم الاحد، وصح ذلك فى عقولهم. وانا الحقير المسكين كاتب هذه السيرة كنت اقول: من لعله يكتب سيرة هذا الاب. لكثرة امانتى فيه، حتى ظهر لى فى منامى الرب المسيح وارسل الى الشيخ القديس امونه الذى كنت بدات بذكره وقال لى: يا ولدى يوحنا اما تذكر ما قلته لك وانا معك فى الدنيا وانت عندى تتعلم الكتابة، ان ليس احد يكتب السيرة الثامنة عشر الى ان ياتى الذى

كل من ليكابينوس، ونقفور ويوحنا الزمسكي فيم يختص بالشام وأسيا الصغرى. ولم تحدث أى مصادمت بينه وبين الدولة الفاطمية منذ توقيع هذه المعاهدة وحتى وفاته.

فرض الروم لهيمنتهم على أرمينيا:

وكما اهتم باسيليوس بآسيا الصغرى وحماها من خطر غارات السلاجقة الأتراك، الذين بدأوا يظهرون على مسرح الأحداث، فقد رأى أن يؤمن أرميتيا. ولم تجد قواته أى صعوبة في اجتياحها، نظرا لترحيب الأرمن بقوات الروم ورغبتهم في أن

---

* إشتد الغلاء في بغداد بسبب الجفاف والفتن حتى بيع كُرّ القمح بما يساوى ٢١٠ ديناراً وقيل أن بعض الجياع أكلت الجيف.

* ظهر فى المحرم مُذنب هائل أوله في برج القوسى وآخرة في برج العقرب وبقى ظاهراً ثلاثة عشر يوماً ثم إضمحل.

* تبادل الروم والمسلمون الغارات فوصل الروم إلى قريب حلب وخربوا ونهبوا وسبوا، ودخل الثملي أمير الثغور أرض الروم من طَرَسُوس فقتل وسبى وغنم وعاد سالما.

سنة ٣٣١ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الخميس ١٥ سبتمبر ٩٤٢م.

* تزوج ابن الخليفة المتقى وولى عهده أبو منصور إسحق من إبنة ناصر الدولة الحمدانى وكان الصداق مئتى ألف دينار ولم يلبث الحمدانى أن إنقلب على الخليفة وصادر ضياعه ودواوينه فكرهه الناس ونُهبت داره بعد هربه إلى الموصل وجاء على أثره سيف الدولة.

* تولى توزون التركى إمارة الأمراء ولقب بابى الوفا المظفر، وتولى تعيين واقالة الوزراء منهم أبو العباس الكاتب الأصبهانى.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

اول اسمه ثمنية عشر، وتتم امور عجيبة عظيمة، وانت تكون الكاتب لجميع خطابه هذا الذى اول اسميه ثمانية عشر الذى هو ابونا سانوتيوس. فبهت ولم اعلم تفسيرى ما قاله فقال لى: اذا ما حسبت من واحد الى ماية التى هى من Á الى P´ وجدته سبعة عشر حرف والثامن عشر حرف C´ التى هى اول اسم هذا الاب شنوده. قال لى هذا وغاب عنى ولم اشاهده بعدها، وظهر ما كان فى تلك الليلة، ليعلم كل احد منزلة الابا البطاركة

يكونوان طواعية تابعين لهم. وكان ذلك فى عامى ١٠٢١ ـ ١٠٢٢، كما كان يهدف من ذلك أيضا أن يجعل من ارمينيا حاجزا تنكسر على صخورها الصلبة غارات المسلمين القادمة عبر الحدود الايرانية، ولكن الشئ الذى لم يجد له المؤرخون تفسيرا، تدمير باسيليوس الثانى للقوات الأرمينية، مع أن هذه القوات كان يمكن أن تقوم بالدفاع عن حدود الامبراطورية مع المسلمين، كما أنه لم يضم أرمينيا كلها الى حوزة القسطنطينية، ولم يقم بتحصينها

---

* أخذ الاخشيد أمير مصر البيعة لابنه أنوجور على المصريين وعلى جميع القواد والجند.

* أغار الروم على نصيبين فقتلوا وسبوا ثم أطلقوا السبى فى مقابل منديل فى أحد الأديرة زعموا أن المسيح مسح وجهه به فارتسمت صورته عليه.

* هاجر كثير من أهل بغداد إلى الشام ومصر هرباً من الفتنة وحج من حج نظير مال يدفعه لقطاع الطريق من القرامطة.

* ضم الأخشيد أمير مصر ولاية الشام وأناب عنه بدرا الخَرْشَنِى أمير الأمراء السابق.

* توفى من رجال الحكم بدر الخَرْشَنِى أمير الأمراء الذى لجأ إلى مصر فأقامه الأخشيد نائباً على الشام ولم يلبث أن توفى بعد شهرين.

سنة ٣٣٢ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الاثنين ٤ سبتمبر ٩٤٣م.

* فارق الخليفة المتقى بغداد إلى تكْريت ومعه أهل بيته وبصحبته الوزير ابن شير زاد لاجئا إلى ناصر الدولة الحمدانى وبعد هزيمة هذا الأخير على يد أمير الأمراء توزون لجأ الخليفة إلى نصيبين حتى إستأمن توزون فحلف للمتقى الا يغدر به فعاد إلى بغداد.

ويمجدوهم الذى تعبو وصبرو على التجارب، وهو انني نظرت الاب انبا يوساب البطرك وعليه لباس نور مضى يلمع بمجد عظيم ومعه قوم ايضا نيرين وهم يقولو له: دعنا ان نمضى الى المكان الذى خرجنا منه فقال لهم: امنو انني لا افارق حتى ان يجعل ولدى الاساس الذى اهتم ببنايه. وكان اوليك القوم النيرين يقلقوني لاتمم الكلام المقدس، وكنت حزين القلب حيث لا اقدر واولايك وانبا يوساب رايتهم مجتهدين فى بنا الاساس، ومن بعد

كحاجز محصن يحمى المدخل الى أراضى الأمبراطورية، ومن ثم لم يكن لهذه الغزوة أى جدوى أو شفاعة تبرر القيام بها.

احلام باسيليوس فى ايطاليا وصقلية:

كان باسيليوس الثانى، لا يخفى اهتمامه وأحلامه، باستعادة الممتلكات السلبيه فى الغاب الأيطالى، واجلاء الأغالبة عن صقلية، واعادتها الى القسطنطينية، ولهذا اهتم بتطوير الادارة، وتنظيم شئون الممتلكات القليلة المتبقية فى جنوب ايطاليا، وكان بين الفينة والفينة ينتهز الفرصة

---

* فى هذه السنة برز إسم الروس فى الحوليات الإسلامية حين أغاروا على نواحى أذْرِبيجان بعد عبور البحر (بحر قزوين على الأرجح) حتى بلغوا بَرْدَعة فهرب من كان بها وقتلوا من لم يخرج وغنموا وسبوا فبرز لقتالهم المَرْزُبان بن محمد واستمرت المناوشات ستة أشهر حتى جلوا وساعد على جلاءهم إنتشار الوباء.

* خرج الاخشيد أمير مصر إلى الرقة إستجابة لنداء الخليفة العباسي وعرض عليه أن يصحبه إلى الشام ومصر ليكون فى مأمن من غدر أمير الأمراء ولكن أبى وكاتب توزون (انظر ما سبق).

* عمت الفوضى مدينة بغداد وغلت الأثمان وتعطلت الأسواق وكثرت كبسات اللصوص حتى تحارس الناس بالبوقات.

* لم تقع فى هذه السنة حروب بين الروم والمسلمين.

* لقى الزعيم القرْمطى أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنَّابى حتفه وهو الذى نعتوه عدو الله والأعرابى الزنديق وأبو طاهر هو الذى اقتلع الحجر الأسود وروع الحجاج، وخلفه أخوه ابو سعيد القرمطى.

* توفى بالمغرب يحيى بن إدريس من سلاطين دولة الآدارسة بعد أن حكم نحواً من أربعين

لتوسيع رقعة هذه الممتلكات، خاصة وأن الامبراطورية الرومانية المقدسة، كانت مشغولة وقتذاك بالصراع مع بابوات كنيسة روما، وبصد توسعات الأغالبة فى أراضيها؛ ولم يكن تهديد الأغالبة هو الخطر الوحيد، الذى واجهته الامبراطورية الرومانية المقدسة فى ايطاليا، انما كان هناك أيضا خطر الغزاة النورمانديين. وكان النورمانديون قد جاءوا فى أول الأمر الى ايطاليا للعمل كجنود مرتزقة، يعملون فى خدمة أى أمير يدفع لهم مالا أكثر، وفى أول الأمر لم يكن النورمانديون

قليل رايت عمد قد اقاموها وباركو على وغابو عنى، فعلمت ان اوليك العمد الابا القديسين الذى اشتهى ان اكتب سيرهم المقدسة ولم اقدر لقلة فهمى، فلما اصبحت قلت لاخوتى الاحبا الذين معى اولاد الاب انبا شنوده المذكور صفة الحال والمنام الذى رايته، فيعزونى وقوو قلبى لما قلت: اننى لا اقدر على تفسير كلام الابا القديسين بل مثل الفقير الحقير اكتب ما تصل اليه استطاعتى. ومن ذلك الوقت بدات فى كتابة السيرة الثامنة

سنة وهو الذى عاصر قيام الدولة الفاطمية وزوال حكم الأدارسة، وكان قد دعا للخليفة عبدالرحمن الناصر على منابر المغرب بعد أن اعترف الأدارسة بطاعته إلى حين.

سنة ٣٣٣ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت ٢٤ أغسطس ٩٤٤م.

* تولى الخلافة العباسية ببغداد أبو القاسم عبدالله ابن الخليفة المكتفى ولقب بالمستكفى بالله وبإمام الحق، بويع خلفاً للمتقى المخلوع وذلك فى ٢٠ صفر، وأم المستكفى أم ولد تسمى غُصن، وله من العمر فى هذا التاريخ ٤١ سنة.

* اضطر أمير الأمراء التركى تُوزون الخليفة المتقى إلى خلع نفسه ثم سَمل عينيه وكان قد عاد إلى بغداد من الرِّقة بعد أن إستأمن توزون فغدر به وعاش المكتفى بعد خلعه ٢٥ سنة وهو أعمى.

* استولى سيف الدولة الحمدانى على حلب وكانت تابعة للأخشيد أمير مصر فهرب منها نائبه يانس.

* أوقع الروم بأهل بَغْراس ومَرْعَش فهب سيف الدولة إلى نجدتهم وأوقع بالروم غير إنه منى بهزيمة شديدة فى طريق العودة عبر ممرات جبال طوروس فاستنقذ الروم أسراهم.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

عشر والتاسعة عشر والعشرين على ما سمعته من لسان الاخوة الثقات المومنين الذين عاينو ما عاينته انا ايضا بعينى مع اباى القديسين.

واقول ايضا اعجوبة كانت بصلوات الابا القديسين من قبل ان نذكر التجارب التى صبر عليها ابونيا انبا شنوده. مضى ابونا الى بيعة القديس الشهيد ذو الثلثة اكاليل مارى مينا بمريوط فى خمسة عشر يوما من هتور، وبينما هو ساير فى

يشكلون خطرا على الروم، بل على العكس كانت القسطنطينية تستخدمهم فى قواتها هناك لقمع حركات التمرد التى تقوم بها العناصر المناوئة للأمبراطورية. ولكن موت باسيليوس عام ١٠٢٥، جعل استعادة الممتلكات السليبة فى الغرب حلما صعب المنال.

خلفاء الامبراطور باسيليوس الثانى حتى نهاية الأسرة المقدونية:

وبموت باسيليوس بدأت شمس امبراطورية الروم تميل نحو الغروب، بينما بدأ فجر النهضة الأوروبية

---

* لم تنقطع المناوشات بين أمير الأمراء تُوزون والسلطان معز الدولة البويهى حتى كلَّ رجال الجانبين من القتال.

سنة ٣٣٤ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ١٣ أغسطس ٩٤٥م.

* بدأت فى هذه السنة مرحلة جديدة فى تاريخ الخلافة العباسية ببغداد إذ أصبح الحكم فى يد سلاطين بني بُوَيْه، ففى ١١ جمادى الأولى دخل أبو الحسن أحمد بن بُويه بغداد فاحتفى به الخليفة المستكفى وخلع عليه ولقبه معز الدولة وله العراق، ولقب أخاه عليا عماد الدولة وله فارس، ولقب أخاه الحسن ركن الدولة وله الرى والجبال.

* شهدت هذه السنة: فى الأندلس الخليفة الأموى عبدالرحمن الناصر، وفى أفريقية الخليفة القائم الفاطمى ثم إبنه الخليفة المنصور، وفى مصر وملحقاتها محمد ابن الاخشيد ثم إبنه أنوجور، وفى جلب والثغور سيف الدولة الحَمْدانى، وفى خُراسان وما وراء النهر نوح اسامانى، وفى الجزيرة ناصر الدولة الحمدانى وفى عُمان القرامطة.

* فى ٢٨ جمادى الآخرة من السنة خلع معزُ الدولة الخليفةَ المستكفى بعد أن أشهد على نفسه بالخلع فسُملت عيناه ونُهبت داره وكانت مدة خلافته ١٦ شهراً.

الطريق ونحن تابعيه وقبل وصولنا الى البيعة فى اليوم الثالث عشر من هتور اجتمع بنا خلق كثير من الشعب المومنين، ولما لم يجدو ما يشربو والسبب فى ذلك ان السما لم تمطر ثلث سنين ونشفت الابار والجباب، فلما نظر الاب البطرك الشعب وهم متغاديين الى البيعة وهم عطاش ولم يجدو ما [ء]، فحزن لذلك حزنا عظيما ودخل الى البيعة المقدسة واجتمع اليه جميع من كان يريد العيد وسالوه قايلين: نسالك يا ابانا ان تدعو

يقترب؛ دخلت الأمبراطورية فى مرحلة عصيبة وفترة حرجة، اذ بدأت الأوضاعت السياسية المستقرة تتدهور، وأصبح واضحا أن البلاد قد دخلت فى بداية نفق طويل مظلم، ملئ بالفوضى، والاضطراب الاجتماعى، والافلاس الاقتصادى، والضعف العسكرى. وبينما كل ذلك كان يحدث، كانت أوروبا الغربية تشهد ارهاصات حركات التغيير والتنوير والاصلاح؛ لتزيح عن كاهلها تراب العصور القديمة؛ فقد بدأت الكنيسة تصلح نفسها وتعالج أمراضها المزمنة،

---

* بويع أبو القاسم الفضل إبن الخليفة المقتدر بالخلافة ولقب باسم المطيع لله وله ٢٤ عاماً وقرر له المعز فى كل يوم مائة دينار وكاتباً لتدبير شئونه.

* وقع القتال بين معز الدولة البويهى وناصر الدولة الحمدانى فخرج الأول من بغداد ومعه الخليفة المطيع فانهزم معز الدولة عند عُكْبَرا ودخل ناصر الدولة بغداد ومعه الخليفة أسيراً ثم هرب منها.

* فيها توفى بالمهدية عن ٥٦ عاماً الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله إبن الخليفة المهدى وثانى الفاطميين بعد عشر سنوات فى دست الخلافة الفاطمية بأفريقية وكان قد قاد حملتين لفتح مصر دون أن يحرز نجاحاً، وفى دمشق توفى أبو بكر الأخشيد مؤسس الدولة الأخشيدية بمصر والشام وكان قد ولد ببغداد قبل ٦٦ عاماً.

سنة ٣٣٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ٢ أغسطس ٩٤٦م.

* مع مستهل السنة مرت سبعة أيام على تولية أُنوجور الأخشيدى إمارة مصر والشام والأمر للخصى كافور خادم أبيه.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

الى الرب ان يتــراف علينا لكيــلا نموت واولادنا وبهايمنا عطشا. وكان يعزيهم ويقول لهم: ان [أنا] اومن ان الله يرينا رحمته سريعا بصلوات شهيده. ولما اكمل القداس في اليوم الخامس عشر من هتور ناول الشعب من السراير المقدسة وسال الرب من كل قلبه وافكاره ان يذكر الرب شعبه الضعيف في تلك المواضع وييسـر قلوبهم بالما، والرب محب البشر الذى يسمع دعا عبيده في كل حين ويتمم شهوات الخايفين منه صنع امرا عجيبا في ذلك

ونظمها المتداعية، بفضل الروح الاصلاحية الجديدة التى بدأت فى عهد البابا ليو التاسع (١٠٤٩ ـ ١٠٥٤)، والتى طالب فيها رجال الدين بالانضباط، وبفضل حركة الاصلاح التى قادتها مؤسسة دير كلونى Cluny فى فرنسا، والتى تكونت عام ٩١٠م، ولعبت دورا كبيرا وفعالا فى مكافحة الفوضى داخل الكنيسة، والحد من تجاوزات السلطة الزمنية على حقوق الكنيسة. كما واكب ذلك حدوث نهضة تجارية فى المدن الساحلية الأيطالية مثل جنوة وفلورنسا والبندقية؛ وبناء أساطيل لها

---

* أعلنت في طَرَسوس (بالأنضول) الدعوة لسيف الدولة الحمدانى صاحب حلب فانفذ إليها ٨٠ ألف دينار للفداء مع الروم وجرى الفداء على يد نصر الثملى أمير الثغور وبلغ عدد الأسرى ٢٤٠٠ أسيراً من الجانبين.

* عاد معز الدولة البويهى إلى بغداد بعد إنهزام ناصر الدولة الحمدانى على أن تكون للحمدانى من تكريت إلى الشام وجدد المعز الامان للخليفة المطيع.

* مازال الحج من العراق موقوفاً بسبب غارات القرامطة.

* ثار أهل صقلية بأميرهم عَطّاف الأزْدى في يوم عيد الفطر فامتنع بقلعة الخالصة وسار وفد من أهل صقلية إلى المهدية بتونس مطالبين الخليفة الفاطمى (المنصور) بإقرار الحكم على أسس متينة.

سنة ٣٣٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الجمعة ٢٣ يوليو ٩٤٧م.

* قدمت إلى قرطبة سفارة من الامبراطور البيزنطى قُسطنطين السابع تحمل الهدايا النفيسة إلى الخليفة الأندلسى عبدالرحمن الناصر للسعى فى توثيق الروابط بينهما.

قادرة على الابحار بسلام، وحمل البضائع بين شرق البحر المتوسط وغربه؛ حتى أنها قادت فيما بعد الدعوة للحروب الاستعمارية الصليبية في الشرق وفقدت الموانئ اليونانية التابعة لدولة الروم عرش التجارة. كل هذا كان يحدث، بينما توالى على عرش البلاد سلسلة من الأباطرة الضعاف المستهترين، فضلا عن النكبات التى بدأت تلوح فى الأفق، وأولها خطر السلاجقة الأتراك.

حكم قنسطنطين الثامن: ١٠٢٥-١٠٢٨:

من الناحية النظرية، كان من

اليوم، انه لما كان الناس مجتمعين عند الاب وقد قرب مغيب الشمس وهم ياكلون الخبز بدات السما تقطر مطرا ثم تظلم فقال ابونا بمسرة روحانية: ياربى يسوع المسيح الهى الغنى برافته [برأفته] ان كان تريد ان ترحم شعبك فارحمهم وليمتلو من مسرتك وبركتك. فلما قال هذا ودخل الى مخدعه يستريح وينام يسيرا، ولما رفع يديه ليتمم صلاة النوم كعادته وسال الرب ان يذكر

---

* خرج السلطان معز الدولة ويصحبته الخليفة المطيع من بغداد لحرب البريدى فلما قاربوه استأمن جيش البريدى للمعز وهرب البريدى إلى القرامطة مستجيراً بهم.

* فى المحرم قضى الخليفة المنصور الفاطمى على ثورة مَخْلَد بن كَيْدَاد وشتت شمل جيشه وطارده إلى الصحراء ثم أسره وساقه إلى المهدية التى توفى بها.

* تولى إمارة صقلية من قبل الخليفة الفاطمى الحسن بن على الكلبى، خلفاً لأبى عطاف الأزدى الضعيف فعاد الروم إلى دفع ما عليهم من مال، ثم عبر أمير صقلية الجديد البحر إلى ساحل إيطاليا ونزل بميناء ريو ومنها إخترق إقليم قلورية (كالابريا) ففر أهله إلى مدينة بارى ثم استأمنوه فأمنهم وعاد الجيش والأسطول إلى ميناء مسينا للشتاء.

* ساق سيف الدولة الحَمْدانى قواته إلى داخل أرض الروم رداً على غاراتهم على أطرف الشام ولحق بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسترد ما أخذوه كما أسترد حصن برزويه من الأكراد.

* سمل نوح السامانى عيون أخويه وعمه حتى لا يطمع أحد منهم فى الحكم.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

شعبه، فلما تم صلاته حدث رعدا عظيم من السما ونزل مطرا يجرى على الارض مثل الانهار الجارية، ولم تزل المطر الى الغد وكان جميع من فى تلك الاماكن ياتى الى البيعة وكانو ياركو ويهللو ويقولو مباركة الساعة التى اتيت فيها الينا لان الله انقذنا بصلواتك الطاهرة من هذه الغمة. وامتلت الجباب فى كل المواضع ورويت الاراضى والكروم حتى ذكر من كان هناك ان المطر كفاهم تلت سنين.

المفروض أن يكون قسطنطين الثامن شريكا لأخيه باسيليوس الثانى فى حكم الامبراطورية، ولكن من الناحية الفعلية كان معزولا، فقد قضى حياته فى ردهات القصر الامبراطورى بين اللهو والثقافة، اذ تجمع حوله مجموعة السمار من الطواشى، أو الخصيان، هيأوا له كل سبل المتعة، فنشأ لا يهتم الا بملذاته رهو اياته، حتى ابنتيه ا للتين أنجبهما من زواجه وهما زوى Zoe وثيودورا، لم يهتم بتربيتهما أو حتى تزويجهما. وفجأة وهو فى السبعين من عمره، وجد

سنة ٣٣٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ١١ يوليو ٩٤٨م.

* ولّى أُنوجور الأخشيدى صاحب مصر عمه الحسن بن طُغْج نيابة الشام.

* مازال النزاع مستعراً بين السلطان معز الدولة البويهى وناصر الدولة الحَمْدانى صاحب الموصل فخرج إليها قاصداً ناصر الدولة واستولى عليها مما أضطر ناصر الدولة إلى المصالحة.

سنة ٣٣٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق الأول من يوليو ٩٤٩م.

* بنى الخليفة الفاطمى المنصور بالله مدينة جديدة دعاها المنصورية قامت بالقرب من مدينة القيروان وهى غير المهدية التى بناها جده عبيدالله فأصبحت المنصورية عاصمة الفاطميين حتى إنتقل منها إبنه المعز إلى مصر عام ٣٦٢م.

* استفحل أمر عِمْران بن شاهين فى إقليم البَطيحة (جنوب العراق) والتفت حوله جماعات من العامة والصيادين واللصوص وتغلبوا على تلك النواحى.

واقول لكم عجبا اخر في اليوم بعينه، وذلك ان ابانا القديس انبا شنوده اطلع على كاهن من قسوس بيعة الشهيد مارى مينا انه ظلم امرأة ارملة كان لها في جواره قطعة كرم، وانه اخذ منها جزوا [جزءاً] واضافه الى كرمه، فاحضره الاب وردعه وساله ان لا يفعل اثما. وان ذلك القس لم يقبل منه فاحرمه باستحقاق فاظهر الله فيه اعجوبة لانه داس المنع برجليه. وذلك يا اخوتي واحباى المومنين صدقو هذا منى، ولا تظن انفسكم شي من الامور

نفسه امبراطورا منفردا، فقد مات باسيليوس أعزبا.

وأخيرا وهو على فراش الموت تذكر أن ابنته الكبرى زوى Zoe قد شارفت على الإربعين دون أن تتزوج، فاختار لها أحد النبلاء المقربين الى القصر، ليكون زوجا وشريكا لها في الحكم من بعده، وهو رومانوس الثالث الشهير بكنية رومانوس الفضى -Romanus Argyrus وبعد بضعة أيام من زواجها فاضت روحه.

حكم الامبراطورة زوى وزوجها رومانوس الثالث ١٠٢٨، ١٠٣٤:

كانت زوى تشبه أباها في حبه

---

* قطعت القرامطة الطرق فامتنع حجاج العراق من أداء الفريضة في هذه السنة.

* تولى أبو السائب الهَمَذاني قضاء القضاة ببغداد، وتولى شعلة بن بدر الأُخشيدى نيابة الشام من قبل أُنوجُور صاحب مصر.

* وقعت فتنة في بغداد بين الشيعة والسنة ونهبت في خلالها ضاحية الكَرْخ.

* توفى في هذه السنة الخليفة العباسى المستكفى بالله ابن المتكفى عن ٤٦ عاماً وكان قد بويع بعد أبيه عام ٣٣٣ هـ ثم استبد به معز الدولة البويهى وسمل عينيه وعزله ومات مقتولا.

* توفى بشيراز عن ٥٩ عاماً السلطان عماد الدولة أو الحسن على البويهى أول ملوك بنى بُويه وكان على فارس ودام حكمه ١٦ سنة، وهو والد عضد الدولة البويهى.

* قضى الخليفة الأندلسى عبدالرحمن الناصر بقتل إبنه عبدالله حين تآمر مع بعض فتيان القصر بقرطبة على مبايعته بالخلافة بعد أن آثر أبوه أخاه الحكم بولاية العهد كما قضى بإعدام جميع من إشترك في المؤامرة.

* ممن توفى في هذا التاريخ من رجال اللغة والأدب: العلامة النحوى المصرى أبو جعفر أحمد بن إسماعيل النحاس مؤلف: اعراب القرآن، واشتقاق الأسماء الحسنى.

الدنيـانيـة وامنو ان الله قـادر على كل شي، وهو ان المطر الذى ذكرناها كـانت قد نزلت على جميع الاراضى والكروم الاكـرم ذلك القس الذى احـرمـه ابونا. وتم عليـه قـول النبي: «نـصـيـب مطرا عليـه ونصيب لا امطر عليه». وكان جميع من راى هذه الاعجوبة يمجد الله.

خبر اخر، لما كان فى السنة الثامنة من بطركية هذا الاب وقرب ايام الصوم المقدس اراد المسير الى

للمجون والترف، فضلا عما اتصفت به كـأنثى مـاكـرة عنيـدة، مستقلبـة العواطف، تفيض غـرورا وكبرياء، ولا تتردد فى الفتك بأقرب المقربين اليها اذا مـا وقف فى طريق نزواتها؛ ولقـد تركت زوى أمـور الحكم لزوجـهـا رومـانوس الثـالث، وتفـرغت للهـو والمسرات. وكان يضمر فى نفسه أن ينقل وراثة العرش الى اسـرته، ولكنه كـان فى ذلك واهمـا تمامـا، اذ لم يدرك مكر زوجته وذكاءها، فضلا عن كونه رجلا متوسط الذكاء، متواضع القـدرات، سيء الطالع. كـمـا أنه ورث

سنة ٣٣٩ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الخميس ٢٠ يونية ٩٥٠م.

* أعيد إلى مكة الحجـر الأسود من بلدة هَجَر وكان قد إقتلعه أبو طاهر القِرْمطى من موضعه بالكعبة قبل اثنين وعشرين عاماً، وحمل أولا من هَجَر إلى الكوفة وعلقوه بمسجدها حتى يراه الناس ثم حمله بعد ذلك سَنْبَر بن الحسن القرمطى إلى مكة.

* غزا سيف الدولة بلاد الروم وأوغل فيها حتى أصبح على سبعة أيام من القسطنطينية وأسر وسبى وأحرق غير إنه لم يأخذ حذره فى طريق العودة فأوقع به الروم وأستعادوا ما أخذ، ثم أن الروم بعثوا فى طلب الهدنة فلم يستجب سيف الدولة لهم وتهددهم ودخل بلادهم ثانية من ناحية حَرّان فغنم وأسر كما غزاها أهل طرسوس برا وبحراً وهى الغزوة التى خلدها المتنبى فى شعره.

* أصلح صانعان ماهران الحجر الأسود فشدا عليه طوقاً من الفضة بلغ محتواه ٣٧٩٧ درهماً من المعدن.

* تجددت الزلازل فى شمال الشام ودامت ٤٠ يوماً، وتهدمت حصون منها دلوك وتل حامد ورعبان.

البرية المقدسة بوادى هبيب ليتم الصوم هناك والفصح المقدس، فاشارو عليه قوم مومنين ان لا يمضى خوفا من العرب المفسدين، لانهم زمان نزولهم من ارض الصعيد الى ارض الريف بعد [موسم] ربيع دوابهم، فيجرى عليك منهم امر. فقال الاب القديس فى قلبه: ان انا فعلت هذا فعلت مسرة الشيطان اذا انا امتنعت عن المسير الى المواضع المقدسة، فان الشعب يتاخر بسببى ويعدمو بركات القديسين. فاستعان بالله وتوجه الى الوادى

خزانة مفلسة نتيجة لسياسة الاسراف والتبذير التى اتبعها صهره الراحل.

ولقد بدا لرومانوس ضرورة أن يضفى على منصبه الجديد قناعا من الشرعية، تمهيدا لكسب رضاء الجماهير، من أجل التخلص من زرجته وشقيقتها، ونقل العرش الى أسرته؛ ولكى يبهر الناس والكنيسة بحروب مثل التى قام بها من سبقوه من أجل تحرير الأرض المقدسة؛ هاجم رومانوس الثالث ممتلكات الدولة الفاطمية فى الشام، فأوعز الى حاكم أنطاكية أن يغزو حلب، وبسهولة أوقع

---

* أوغل سيف الدولة الحمدانى فى أرض الروم أن جمع لغزوته جيوش الموصل والجزيرة والشام وحلب.

* وافق هذا التاريخ وفاة راميرو الثانى ملك ليون الأسبانى. صاحب الوقائع مع عبدالرحمن الناصر فتنازع العرش أولاده.

* إشتعلت الحرب الداخلية بعدوفاة راميرو الثانى ملك ليون الأسبانى بين ولديه أردونيو وسانشو وانتهز أمراء الولايات الإسلامية المجاورة الفرصة فعاثوا فى أرض ليون.

* شهدت السنة وفاة الخليفة القاهر بالله العباسى إبن الخليفة المعتضد عن ٥٢ عاماً، وكان قد خلف أخاه عام ٣٢٠هـ ولم يلبث أن خلع فى ٦ جمادى من عام ٣٢٢ وسملت عيناه، توفى فى جمادى الأول من هذه السنة.

* توفى بدمشق العالم والفيلسوف الموسوعى أبو نصر الفارابى الملقب بالمعلم الثانى (أى بعد أرسطو) وذلك عن ٧٩ عاماً، ومن مؤلفاته المطبوعة المتداولة: إحصاء العلوم، أراء أهل المدينة الفاضلة، المدخل إلى صناعة الموسيقى، جوامع السياسة.

سنة ٣٤٠ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأثنين ٩ يونية ٩٥١م.

* هدم الخليفة الناصر الأندلسى منارة مسجد مدينة الزهراء القديمة وأقام منارة عظيمة

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

وكانت العرب يعرفو وقت اجتماع الغرب هناك، فوصلو من الصعيد فى خفية وملكو بيعة الاب مقار والحصون ونهبو جميع ما فيها من المتاع والطعام وغير ذلك. وكان اول يوم من برموده طافو الديارات كلها ونهبو كلمن فيها، ومن دخل اليها من الشعب. واخرجو اكثرهم بالسلاح، فلما نظر الاب هذا الامر حزن لذلك. ثم اجتمع اليه الابا الاساقفة والرهبان وهم باكيين قايلين: انا منجلك [من اجلك] اقمنا ها هنا ونريد منك الا

أمير حلب هزيمة مؤلمة بقائد لواء أنطاكية، ولما وصلت أنباء الهزيمة زاد السخط عليه، فحاول أن يمتص هذا الغضب، بالقيام بعمل عسكرى متهور غير مدروس، انتهى بهزيمة أشد وبالا من الهزيمة الأولى وذلك بالقرب من حلب عام ١٠٣٠م.

ولم يمض عام على هزيمته فى الشام، حتى بدأ طالع النحس الذى تميز به حكمه فى الظهور، اذ ضرب القسطنطينية زالزال عنيف خرب شطرا كبيرا منها؛ ثم اجتاح الوباء آسيا الصغرى، فقضى على شطر كبير

مربعة ذات ١٤ شباكاً وعقود ولها سلمان للصعود والنزول وعلى قمتها تفاحتان من ذهب وتفاحة من فضة (أزيلت بعد سقوط الأندلس وأقيم فى مكانها برج لأجراس كنيسة).

* فى ليلة عيد الأضحى من هذه السنة جرت معركة حاسمة على أرض إيطاليا بين الحسن الكلبى أمير صقلية والروم من أهل صقلية وإيطاليا والقسطنطينية وبعد أن إخترق إقليم كالبريا إستولى على ترانت وقسانة فأنهزم الروم هزيمة شنيعة وأكثر.

سنة ٣٤١ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ٩٥٢م.

* تولى الخلافة الفاطمية أبو تميم معد إبن الخليفة المنصور الذى عرف بلقبه المعز لدين الله فاتح مصر بعد ذلك.

* قبض الوزير المهلبى العباسى على جماعة كانوا يقولون بالتناسخ فزعم بعضهم أن روح الإمام على قد إنتقلت إليه وزعمت واحدة أن روح فاطمة الزهراء إنتقلت إليها فضربوا وتعزروا.

تمنعنا الخروج ليلا [لئلا] نموت بايدى هولا القوم الكفرة. وكان هذا فى يوم الجمعة من جمعة الفصح، ولما سمع ابونا انبا شنوده هذا علم انها خديعة وفخ شيطانى نصبه عليه الشيطان لما كان فيه من الروح القدس، وعلم انه الذى جمع الناس واقلقهم يريد بذلك خراب البرية حتى لا يكون فيها من يذكر اسم الله العلى. عند ذلك قال بقوة: قلب الرب يضربك ايها الشيطان ويرذل موامرتك التى فعلتها. وكانو الابا الاساقفة يسالوه الخروج

من القوى البشرية العاملة فى حقولها، فهجرت القوى، وأهملت الزراعة، وتقلص الانتاج الزراعى، حتى لم يعد يكفى لاطعام السكان، مما أدى الى حدوث مجاعة كبرى فى أسيا الصغرى عام ١٠٣٩م. واستغلت الكنيسة الغاضبة على الامبراطور ذلك لتبرر ما حدث بأنه لعنة من الله على البلاد نتيجة لتصرفات الامبراطور، وصدقت جماهير القسطنطينية، التى كانت تهوى الخرافات والخزعبلات وتؤمن بها، مقولة الرهبان والكنيسة، فاصبح الامبراطور ممقوتا من زوجته،

---

* إستولى الروم على مدينة سروج فقتلوا وسبوا وأحرقوا المساجد رداً على غزوة سيف الدولة التى قادها فى العام الذى سبق.

* وقع الخلاف بين أهل مكة فخطب أهل العراق لركن الدولة والمصريون للاخشيد صاحب مصر.

* سار صاحب عمان الرباضى وبصحبته يعقوب القرمطى إلى البصرة فهرع إليها الوزير المهلبى فاستباح عسكرهما وعاد إلى بغداد بالأسرى والغنائم.

* قصد الحسن الكلبى أمير صقلية حصن جراجة بجنوب إيطاليا وحصره فأرسل إليه الامبراطور قسطنطين يطلب منه الهدنة فهادنه، وعاد الحسن إلى ريو (بايطاليا) وبنى بها مسجداً كبيراً وسط المدينة وبنى فى أحد أركانه مئذنة وشرط على الروم انهم لا يمنعون المسلمين من عمارته وإقامة الصلاة فيه والآذان وأن لا يدخله نصرانى ومن دخله من الأسارى المسلمين فهو آمن وأن اخرجوا حجراً منه هدمت كنائسهم كلها بصقلية وأفريقية.

* أمر السلطان معز الدولة (ربيع الأول) بضرب وزيره المهلبى ١٥٠ مقرعة لأمور نقمها عليه ولم يعزله من الوزارة.

* استولى ركن الدولة البويهى على جرجان واستخلف عليه ابن فيرزان ولكن ما أن رجع عنها حتى استردها صاحبها وشمكير الديلمى.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

ليصحبوه، فقال لهم: اغفرو لي يا اباي القديسين ما نفارق هذا الموضع حتى نتم عيد الفصح ولو ان دمي يسفك. فلما راو الرهبان شجاعته وقوة قلبه حسدوه على الشجاعة وتقوو ولم يتركو الشيطان يغلبهم، وجعلو العرب يقلقو جماعة الرهبان لكيلا يتمو عيد الفصح، ويتمو مشية ابوهم الشيطان. وجردو سيوفهم ووقفو على الصخرة شرقي البيعة، فاخذو ما وجدو على الناس من اللباس، ومن امتنع جرحوه بالسيف. وكان هذا يوم الخميس من جمعة

ممقوتا من الكنيسة والرهبان، وممقوتا من عامة الشعب، وتحطمت أحلامه فى نقل العرش الى أسرته.

وفى أثناء ذلك، كانت الشائعات تملأ القسطنطينية عن فسق «زوى» ومغامراتها العاطفية مع عشيقها الوسيم، الذى يصغرها باثنين وعشرين عاما، ولم يعد مجونها ومغامراتها تخفى على أحد. ويبدو أن رومانوس كان آخرمن يعلم، فلما علم وحاول أن يضع لذلك حدا رأت «زوى» أن تضع له حدا أيضا، لتفسح الطريق لعشيقها الوسيم ليأخذ نصيبه فى

---

* توفي في هذه السنة بمدينة المنصورية (بتونس) الخليفة المنصور الفاطمي وهو إسماعيل إبن الخليفة القائم وحفيد المهدى، ثالث الفاطميين، توفى عن ٣٩ ومدة حكمه ٧ أعوام و١٦ يوماً.

* توفى الأمير المغربي الثائر على حكم الفاطميين بالمغرب الأقصى موسى بن أبي العافية في أحدى وقائعه بعد أن أقام إمارة مستقلة كانت مكناسة عاصمة لها ودام حكمها فى عقبه نحو ربع قرن.

سنة ٣٤٢ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ١٨ مايو ٩٥٣م.

* غزا سيف الدولة الحمداني بلاد الروم وأوغل فيها وأوقع بجيش الامبراطور البيزنطي وأخذ ابنه قسطنطين أسيراً ودخل به إلى حلب وبقى عنده إلى أن مات.

* توفى من رجال الحكم: الأمير الاخشيدى الحسن بن طغج أخو الاخشيد وعم أنوجور صاحب مصر تولى إمارة دمشق، توفى بالرملة ودفن بالقدس، وفيها توفى بمصر الأمير العباسي والفقيه المحدث أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب حفيد الخليفة المأمون تولى إمارة مكة وتوفى عن ٧٦ عاماً.

الفصح تاسع برموده فمن سلم من الشعب دخل الى البيعة وكانو صارخين باكيين قايلين: يا ابانا عيننا [أعنا] فقد قوى علينا هولاى العربان. فلما راى هذا القديس قلق الشعب نهض واخذ عكازه في يده الذى عليه علامة الصليب وخرج الى العرب قايلا: الصالح ليا[لى] اموت مع شعب الله أو لعلهم اذا راونى يمتنعو من سوهم ويخلص منهم هذا الشعب الضعيف، فلما نظر الاساقفة حسن نية الاب وانه اسلم نفسه للموت عن شعبه

الجلوس على العرش الدافئ، ففى عام ١٠٣٤ عثر على رومانوس مخنوقا فى حمام القصر، ولم تعرف هوية الجناة، ولم تمض ساعات على مواراته التراب، حتى أعلنت زوى نبأ زواجها من عشيقها ميخائيل، ليشاركها العرش باسم الامبراطور ميخائيل الرابع.

الامبراطور ميخائيل الرابع ١٠٣٤ ، ١٠٤١:

تولى ميخائيل الرابع ـ الزوج الثانى للامبراطورة زوى ـ العرش وهو معذب الضمير؛ فقد كانت الالسنة لا

سنة ٣٤٣ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ٧ مايو ٩٥٤م.

* عاد سيف الدولة الحمدانى في شهر ربيع الأول إلى غزو بلاد الروم فتحالف على حربه الروم والروس والبلغار وألتقى الجمعان عند مدينة الحدث بالأنضول فى شهر شعبان وبعد قتال مرير أنهزم الروم وحلفاؤهم وأسر جمع من الأمراء وكثير من بطارقة الكنيسة.

* تولى السلطان السامانى عبدالملك بن نوح على عرش بلاد التركستان (ما وراء النهر) وخراسان ولقب أبا الفوارس الرشيد خلفاً لأبيه السابع من السامانيين وتولى الحجابة له ألبتكين التركى.

سنة ٣٤٤ هجرية

أهل المحرم يوم الجمعة الموافق ٢٧ إبريل ٩٥٥م.

* وصل إلى قرطبة سفير الامبراطور الألمانى أوتو الأول (أو الكبير) وهو القس يوحنا الجوزينى راجياً تدخل الخليفة عبدالرحمن الأموى لمنع الغارات العربية على إيطاليا وفرنسا وسويسرا وتوغلها فيها.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

مسكوه ومنعوه من الخروج الى العرب، وقالو: لا ندعك ان تسلم نفسك بيد هولا القاتولين [القتلة] الانجاس. فلما سمعهم قال لهم بتواضع وسكينة وقوة نفس كما قال بولس: انا اعلمكم ان بهذا يكون لى خلاص بصلواتكم، وبتدبير الروح القدس يسوع المسيح اتكالى ورجاى فى الحياة والموت، فاما حياتى فبالمسيح والموت ربحا لى». وتقوى بالمسيح وخرج الى العرب الكفرة، وبرافة [برآفة] الله رجعو الى ورايهم ولم يظهرو فى ذلك

تكف عن سيرته وعن علاقاته الغرامية مع الامبراطورة قبل موت زوجها الأول، وتشير اليه أصابع الاتهام بالاشتراك فى جريمة القصر، ولهذا كاد الاحساس بالذنب يقتله، ويطيح بعقله، فضلا عما كان يعانيه من داء الصرع، الذى كانت نوباته تنتابه من حين الى حين؛ ولهذا أولى ظهره لزوجته، ولأمور العرش والدنيا، وكرس نفسه للتقوى والورع، وللتمسح فى أعتاب مقامات القديسين، وكسب رضاء الرهبان، اذ جمع حوله طائفة منهم جعلهم يقيمون معه فى القصر،

---

* عقد سلطان بغداد معز الدولة البويهى إمرة الأمراء لابنه أبى منصور بختيار وكان معز الدولة قد أصيب بمرض أرجف الناس به واضطربت بغداد حتى اضطر معز الدولة للركوب على ما به من مرض فسكنت الأحوال.

* إجتاحت الزلازل بعض أنحاء مصر ودامت مقدار ثلاث ساعات فهلك فيها خلق كثير.

* جرت معارك بحرية بين اسطول الخليفة الاموى عبدالرحمن الناصر بالاندلس وأسطول الخليفة الشيعى المعز لدين الله الفاطمى بأفريقية وكان على هذا الأخير أمير صقلية الحسن الكلبى الذى أغار على ثغر المرية الأندلسى وأحرق بعض السفن.

* انفسخ الصلح بين معز الدولة وعمران صاحب البطيحة الذى كان قد قطع الطريق وأستولى على أموال للسلطان ظنا منه انه مات.

* فى رجب من السنة غزا سيف الدولة الحمدانى بلاد الروم حتى بلغ خرشنة وصارخة ثم عاد إلى أطنة بعد ما خرب وأحرق وسبى.

*ممن توفى فى هذه السنة من رجال العلم: الفقيه الشافعى المصرى ابن الحداد عن ٨٠ عاماً مؤلف كتاب الباهر والفرائض ودفن بسفح المقطم، ومحدث نيسابور أبو عبدالله ابن الأخرم عن ٩٤.

ويرشدونه لأعمال البر والتقوى؛ وكان أغلب هؤلاء الرهبان ممن عانوا التعذيب والنفى أيام الحملة لتحريم عبادة الايقونات؛ وراح يرمم الاديرة، والكنائس، ومقامات القديسين، وأهل الحظوة، ويتوخى فى معاملاته العدل، والنقاء، والطهارة، ولما أكسبه هذا التصرف ثقة فى نفسه؛ أعلن على الملأ انفصاله عن زوجته الفاجرة، وخوفا من أن تدبر له أمرا كما فعلت مع زوجها الأول، وضعهاتحت مراقبة دقيقة، وأجبرها على الاعتكاف فى جناحها بالقصر. وأما شئون الدولة

اليوم. لكن عادو [انصرفوا] بمعونة الله ونية هذا الاب انبا شنوده وثباته فخزى الشيطان عدو الخير. فلما سمع الارخن المومن اصفطن وسويرس الحسن الفعل مع الرب، لانه كان له امانة فى البطرك ومحبة فى الديارات المقدسة، فقام بسرعة ووصل الى الديارات واجتمع مع الاب والرهبان والاساقفة وقوى نفوسهم واعد نفسه قدامهم، وقال للاب: انا اسلم نفسى عنك وعن الشعب الى ان يخرجو من بين هولا المردة. فنظر الاب الى ضعف قلوب

سنة ٣٤٥ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الثلاثاء ١٥ إبريل ٩٥٦م.

* أوفد الخليفة عبدالرحمن الناصر مبعوثاً إلى الامبراطور الألمانى أوتو الأول بمدينة توينجن وكان آسقفاً من رعاياه يدعى ربيعان فاكرم الامبراطور إستقباله وعاد بعد عامين فارتاح الناصر لنجاح مهمته.

* رد الروم غارات سيف الدولة فى العام الذى سبق بغارة بحرية على أهل طرسوس فقتلوا وسبوا وأحرقوا فعاود سيف الدولة الغزو مستولياً على بعض حصونها وسبى وغنم وعاد إلى حلب.

* أغار ملك النوبة المسيحى على أملاك مصر حتى بلغ مدينة أسوان وأوقع بها السلب والنهب فأنفذ إليه كافور الوصى على أنوجور الاخشيدى جيشاً برياً بقيادة محمد بن عبدالله الخازن وعمارة على النيل وعمارة ثانية على البحر الأحمر ففر الغزاة وأخلوا حصونهم عند ابريم.

* توفى بمصر فى جمادى من السنة المؤرخ والراوية الاخبارى أبو الحسن على ابن الحسين المسعودى والذى إشتهر بمؤلفة المطبوع المتداولة «مروج الذهب» ومثله كتاب التنبيه والإرشاد وله أخبار الخوارج وذخائر العلوم وغيرها.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

الشعب وانهم معولين على الخروج وهم خايفين من العرب المحيطين بهم يريدو ان ياخذوهم ويقتلوهم بحد السلاح، وكان يقويهم ويعزيهم بنعمة الروح القدس ويقول كما قال بولس للذين معه في المركب: «ان نفس واحدة منكم لن تهلك» . وكان يقول لهم ان الله انتخبكم من يدى هولا الظلمة ويقاتل عنكم. فنظر فيهم قوم قليلى الامانة بما قاله لهم وقلوبهم ضعيفة فتقدم اليهم ان يجمعو ساير الشعب الى البيعة في يوم الاحد

فقد تركها لشقيق له اسمه يوحنا. وكان يوحنا جشعا، نهما، فى جمع الاموال لنفسه، بل قاده الطمع الى أن يفكر فى نقل العرش الى أسرته؛ وخوفا من موت أخيه من داء الصرع فى أى وقت، سعى الى الامبراطورة زوى، واقنعها أن تتبنى ابن شقيق له ولأخيه الامبراطور، ويدعى ميخائيل، الذى اشتهر بلقب كالافاتيس Ka-laphatis أى بائع الشموع، وهى المهنة التى كان يعمل بها أبوه، وبفضل يوحنا شقيق الامبراطور، أصبح ميخائيل بائع الشموع مرشحا

---

* توفي بمصر الوزير أبو بكر الماذرائى عن ٨٧ عاماً.

سنة ٣٤٦ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ٤ ابريل ٩٥٧م.

* جدد الخليفة الأموى الأندلسى عبدالرحمن الناصر جامع قرطبة الكبير وزاد فيه زيادات كثيرة وثبت لوحة على بابه المسمي باب النخيل (ما زالت موجودة) تؤرخ لذلك جاء فيها «بسم الله الرحمن الرحيم. أمر عبدالله عبدالرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أطال الله بقاءه. ببنيان هذه اللوحة... فتم ذلك بعون الله، فى شهر ذى الحجة سنة أربعة وثلث مائة على يد مولاه ووزيره وصاحب بانيه عبدالله بن بدر. عمل سعيد بن أيوب».

سنة ٣٤٧ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الخميس ٢٥ مارس ٩٥٨م.

* أنفذ الخليفة الفاطمي المعز لدين الله وهو بالمهدية قائده جوهر الصقلى ومعه الزعيم البربرى زيرى بن مناد للقضاء على إستقلال الإمارات المغربية فدخل تاهرت وأفكان ومنها سار إلى فاس حتى إنتهى إلى ساحل المحيط فملأ قلالا (جمع قلة) بسمكه ودخلها معه إلى المعز.

للزواج من زوى، وللعرش فى حالة موت ميخائيل الرابع. وحدث ما كان متوقعا فعلا اذ مات ميخائيل الرابع فى ظروف غامضة فى نهاية عام ١٠١٤م دون أن يكمل السادس والثلاثين من عمره.

ميخائيل الخامس كالافاتيس الشماع ١٠٤١ . ١٠٤٢م:

وللمرة الثالثة زفت زوى، التى تقدم بها العمر، الى هذا الشاب المغامر المستهتر، وأول ما فعله هو أنه انقلب على عمه، الذى كان سببا فى الاتيان به الى العرش، فالقى القبض

ليناولهم من السراير المقدسة ليلا قبل الصبح ويسير معهم الى ان يوصلهم الى الريف فقويت نفوسهم ثم قام فى نصف الليل واجتمع اليه الاساقفة والرهبان والشعب وابتدى بالقداسى، وبينما هو يطوف بالبخور على الهيكل، وعيناه يفيض دموعا بحرقة كما قال عبوديا النبى، بكيت الكهنة الذين يخدمون حول هيكل الرب، وكان يبكى ويقول كما قال النبى: «امهل يارب شعبك ولاترذل ميراثك هذه الرذله وتسود عليه الامم ليلا

---

* تبادل الروم والمسلمون الغارات فدخلت القوات البيزنطية أمد وميافارقين وضربوا سميساط ثم أغار سيف الدولة على الروم من ناحية حلب ولكنه هزم ونجا بعدد يسير من رجاله.

* إستولى معز الدولة البويهى على الموصل فلجأ أميرها ناصر الدولة البويهى إلى أخيه سيف الدولة فى حلب الذى توسط فى الصلح.

سنة ٣٤٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ١٤ مارس ٩٥٩م.

* تم الصلح بين الحمدانيين ومعز الدولة بوساطة سيف الدولة على مال يؤديه أخوه ناصر الدولة الذى عاد إلى الموصل.

* عاد الروم وأغاروا على طرسوس والرها ووقع فى أسرهم إبن ناصر الدولة.

* خلع الخليفة المطيع العباسى على بختيار إبن السلطان معز الدولة وعقد له لواء ولقبه أمير الأمراء عز الدولة.

* وافق هذا التاريخ وفاة الامبراطور قسطنطين السابع وخلفه إبنه رومانوس الثانى ولم

يقـولو الامم اين هو الاههم». والابا الرهبـان يبكو بحرقة ودموعهم ممتزجة بالافكار لما يريد ان ينالهم من العرب المفسدين. وتناولو السـراير قبل الصـبح وكان الاب يبكى على خراب البرية من الرهبان، ثم سرح الشعب وخرج وهو يعزيهم وكانو يباركو الله وتعـجبو من قوة الاب وجسـارته، لانهم كـانو ينظروه مـثل مـوسى النبى امـام بنى اسـرايبل، فبصلواته وطهارته نجا الله الشعب من ايدى العرب ذلك اليوم ولم يفتر من البكا لنظره الرهبان وهم

عليه، ونفاه الى أحد الاديرة النائية، ثم استدار الى زوجته الشمطاء، ففرض عليها الانزواء فى مقصورتها فى القصر، ثم اتهمها بمحاولة دس السم له في الطعام، وقدمها للمحاكمة وقضى الحكم بنفيها عام ١٠٤٢م الى جزيرة نائية.

غير أن ميخائيل الخامس لم يستمتع طويلا بالعرش، اذ اعتبره الناس مغتصبا للحكم، كما أن محاكمته لزوى سليلة الأسرة المقدونية العريقة، أثارت عليه الجماهير. ففي احتفالات عيد الفصح عام ١٠٤٢

تنقطع في عهده كذلك الغارات بين الروم والمسلمين، وهو الذى تزوجت إبنته من إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة أوتو الثاني.

سنة ٣٤٩ هجرية

استهلت السنة بيومن السبت الموافق ٣ مارس ٩٦٠م.

* تولى إمارة مصر فى العشرين من القعدة = ٩ يناير ٩٦١م أبو الحسن على بن الاخشيد خلفاً لأخيه أبوجور وأقره الخليفة المطيع وأضاف إليه حكم الشام والحجاز كما كان لأبيه وأخيه وغير أن الأمر كان لوزيره الخصى كافور الاخشيدى.

* أغار سيف الدولة على بلاد الروم حتى بلغ خرشنة فقتل وسبى وأسر غير أنهم كمنوا له فى طريق العودة بين مفارق الجبال واستخلصوا ما أخذه منهم.

* إشتدت الفتن بين أهل السنة والشيعة ببغداد حتى تعطلت الصلوات فى أكثر المساجد.

* ظهر فى أرمينية رجل يدعى أنه من حفدة الخليفة المكتفى وتلقب بالمستجير بالله ودعا إلى الرضى من آل محمد ولبس الصوف واستولى على عدة بلاد حتى قضى على دعوته صاحب أذربيجان الديلمى.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

متعادیین الی ارض الریف خوفا من الفساد، حتی انه لم یبق فی الدیارات الا قوما یسیر. ولم یزال الشیطان یقیم التجارب علی البیع فی دیار مصر.

خبر اخر، وفی ذلك الزمان قام انسان مسلم من [قبیلة] المدلجة سكان اسكندریة ومعه خلق كثیر من اصحابه مقاتلین قد عرف منهم الشجاعة، وان العربان لما سمعو بخبره جاوا الیه جماعة كبیرة وانطوی الیه جماعة من الناس حتی الفعلة، فصارو

تظاهرت مجموعة من الناس، وهتفت بسقوط میخائیل الخامس وبحیاة زوی، ومطالبین باعادتها من المنفی، وتحولت المظاهرة الی أعمال الشغب والسلب والنهب والتخریب، واندفعت الجماهیر نحو القصر ترید الفتك بالامبراطور الجحود؛ ولتهدئة الموقف، أرسل الامبراطور میخائیل علی الفور یستدعی زوی من منفاها، ورغم عودتها الا أن الجماهیر أصرت علی عزل میخائیل من منصبه، حیث لا حق له فی الجلوس علی العرش بعد طلاقه من الامبراطور. وطالب الناس

---

* توفی فی السابع من القعدة أمیر مصر أنوجور الاخشیدی ثانی أمراء الاخشید عن ثلاثین عاماً وكان قد تولی الحكم بعد أبیه ١٤ سنة و١٠ أیام، وفی عهده ضم إقلیم النوبة إلی مصر، حمل جثمانه إلی القدس ودفن عند أبیه الاخشید.

سنة ٣٥٠ هجریة

وافق هلال المحرم یوم الأربعاء ٢٠ فبرایر ٩٦١م.

* تولی إمارة الأندلس الخلیفة أبو المطرف الحكم الثانی المستنصر بالله خلفاً لأبیه عبد الرحمن الناصر علی أثر وفاته فی الثانی من شهر رمضان، أمه أم ولد واسمها مرجانة.

* تولی إمارة ماوراء النهر (التركستان) منصورن السامانی خلفاً لأخیه عبدالملك بن نوح السامانی ولقب بالملك السعید أبی صالح منصور.

* أنفذ الامبراطور البیزنطی رومانوس الثانی حملة بحریة إلی جزیرة إقریطش (كریت) إستولی علیها من حكامها الأندلسیین وكان قد إستولی علیها عمر ابن شعیب سنة ٢٣٠ هـ.

* بنی معز الدولة البویهی قصراً له فی أعلی بغداد بلغ ما أنفق علیه ١٣ ألف ألف درهم ونقل إلیه الكثیر من عمارة القصور القدیمة ولكن لم یلبث أن تخرب بعد وفاته.

خلق كثير، وكانو يمضون الى كل موضع فيه متصرف من قبل الملك فياخذوه ويطالبوه بالمال الذى تحت يده ويقتلوه. فاحرقو بلاد كثيرة وقتلو عالم كثير. وكانو ينفذو اصحابه عسكر بعد عسكر الى شرقى مصر حتى وصلو الى بنا وملكوها وجبو خراج مريوط واعمالها الى بنا المدينة، ولا يقدر احد يقاتلهم، فانهم كانوا قاتولين اشد الناس لا يقاومو. فلما قوى امرهم وملكو البلاد وكل اواسى بيعة الشهيد ابو مينا بمريوط

بعودة شقيقة زوى وهى ثيودورا، التى كانت تقيم فى أحد الاديرة، وتمارس حياة الرهبنة، وهرب ميخائيل الخامس عندما شعر أن زوى والجماهير ستفتك به؛ وتعقبته الجماهير حتى عثرت عليه مختبئا، فقادوه الى زوى وشقيقتها ثيودورا. وانتقمت زوى منه بأن أمرت بسمل عينيه، ونفيه الى مكان بعيد، عندئذ هدأت الجماهير وارتاح فؤادها.

حكم زوى وقنسطنطين التاسع موناماخوس وثيودورا، ١٠٤٢ ، ١٠٥٥م:

أعادت الجماهير الغاضبة فى عام ١٠٤٢م ، زوى وشقيقتها ثيودورا الى

---

* توفى بمدينة الزهراء الأندلسية الخليفة الأموى عبدالرحمن الناصر وله من العمر ثمان وسبعون وذلك فى الثانى من رمضان (١٥ أكتوبر) وكانت أمه أم ولد تسمى مزنة ودام حكمه ٥٠ سنة و٦ أشهر، وهو باستثناء المستنصر الفاطمى أطول خلفاء الإسلام عهداً بالحكم وتعتبر إمارته العصر الذهبى للحكم العربى فى الأندلس.

* توفى أمير ماوراء النهر وخراسان الملك المؤيد أبو الفوارس عبدالملك بن نوح السامانى من سقطة فرس، وقد دام حكمه ٧ سنين وخلفه أخوه المنصور.

* توفى حول هذا التاريخ الطبيب المؤرخ ابن الجزار (أحمد بن إبراهيم القيروانى) مؤلف زاد المسافر فى الطب، والبغية فى الأدوية المركبة، وله رسالة: أسباب الوباء (أى الطاعون) بمصر والحيلة فى دفعه.

* توفى بمصر الأمير فاتك الرومى الذى إشتهر بقصائد المتنبى فى مدحه ورثاءه.

سنة ٣٥١ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ٩ فبراير ٩٦٢م.

* أحرز البيزنطيون أعظم إنتصارات لهم بدخولهم مدينة حلب بعد أن خرج منها سيف

ومحلة بطره، وكذلك اواسى بيعة القديس ابو مقار، نهبو جميعها واكلو زرعها وتقاسموها. ولما طغو وبغو وكثر مالهم ورجالهم ودوابهم ونساهم واولادهم وعمايرهم عمد المقدم فيهم ومن معه من المقاتلين الذين اختارهم فحاصر مدينة اسكندرية وطلب ان تسلم اليه لينهبها كما نهب غيرها من البلاد، وسبى الاولاد والنسوان وقتل الرجال واخذ الاموال. ولم يقدر على فتحها بوجيه من الوجوه لانه لم يكن له استطاعة على مقاتلة

العرش لتحكمان معا طبقا لوصية أبيهما؛ ولم يمضى وقت طويل على حكم الأختين، حتى طلب رجال البلاط بوجوب زواج احداهن حرصا على بقاء سلالة البيت المقدونى، ولما كانت ثيودورا راهبة متبتلة، تتمسك بعذريتها، فقد رفضت باصرار مسألة الزواج، بينما لم تمانع أختها فى أن تجرب حظها مع الرجال للمرة الرابع. واختار لها رجال البلاط رجلا وسيما اسمه قسطنطين ليكون زوجا، وزفت العروس الشمطاء ـ لأنها كانت فى الثانية والستين من عمرها ـ الى

الدولة الحمدانى منهزماً وغنموا كل ما وقع فى أيديه وأحرقوا ما عجزوا عن حمله ولكن بقيت قلعتها صامدة ونجا كل من إحتمى بها من سكان بينما لقى إبن أخت الامبراطور حتفه فى حصارها.

* إمتنع ألبتكين (جد الغزنويين) أمير هراة على المنصور السامانى وهزم الجيش الذى أرسل إليه وأسر قواده ومنهم خال المنصور.

* إستولى أمير صقلية الحسن الكلبى على قلعة طبرمين بعد حصار طال دام سبعة أشهر وأسكنها نفراً من المسلمين وسميت المعزية نسبة للخليفة المعز الفاطمى.

* وقع بالعراق برد وزن البيضة منه أكثر من رطل.

* أرسل الخليفة المعز الفاطمى نجدة بحرية إلى جزيرة كريت قاتلت الروم وأسرت من كان منهم فى الجزيرة.

* إستولى ركن الدولة على طبرستان ثم على جرجان وأزاح عنها صاحبها وشمكير ثانى أمراء الدولة الزيارية.

* بينما كانت الروم توالى غاراتها وتخرب الثغور إستمرت الفتنة الطائفية بين السنية والشيعة فى بغداد وإمتد لهيبها إلى البصرة وهمذان وشغل الناس بها.

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

الحصون لانه لم يكن له الة لها. وحاصرها ومنع الميرة ان تدخل اليها من البحيرة ومن البحر، واقام جسور فى اماكن قريبة من المدينة فمنع المياه عنهم، وكانو يشربو من الابار والجباب. وقلت الغلات بمدينة اسكندرية ولم توجد بدينار ولا درهم، وعدمت البيع القربان لقلة الغلة والخمر، لان اواسى البيع كانت قد ملكت ومخازنها واموالها نهبت بيد هولا القوم المفسدين وتقوو بها على محاصرة اسكندريه.

زوجها الرابع. وعلى اثر انتهاء مراسم الزواج أعلن توليه العرش شريكا للأختين باسم قسطنطين التاسع. والذى اشتهر بأسم موناخوس أى المحارب بمفرده.

وسرعان ما تكشف للعروس أن الرجل لا يميل اليها على الاطلاق، وأنه لم يقترن بها الا من أجل العرش، وبذخ القصر وحياة اللهو. فقد أعلن عن هويته بأنه فاسق وماجن ومستهتر، لا يقوم من المادب، ولا يفيق من السكر، ولا تنفض من حوله العشيقات، وقد بلغ من استهتاره أن

---

* وقع الأمير الشاعر الفارس أبو فراس الحمدانى فى أسر الروم وحمل معهم إلى القسطنطينية حتى فداه سيف الدولة.

سنة ٣٥٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة ٣٠ يناير ٩٦٣م.

* أصاب سيف الدولة شلل فى يده ورجله بسبب هزيمته على يد الروم.

* خرج سيف الدولة بالرغم من مرضه غازياً فسار إلى حران ثم إلى ملطية من أرض الروم وملأ يديه سبيان وغنائم ودخل أهل طرسوس أرض الروم حتى بلغوا قونية، بينما عبرت الروم الفرات لقصد الجزيرة فتهيأ لهم ناصر الدولة المطيع بسبب أحداث حلب.

* بينما كانت هذه الأحداث الجسام جارية شغل السلطان معز الدولة أهل بغداد باحتفالات تقام فى يوم عاشوراء (١٠ المحرم من السنة) واعتباره يوم حداد تغلق فيه الأسواق ويمنع فيه الطباخون عن الطبخ ويرتفع فيه النواح فكان ذلك أول يوم جرى فيه هذا التقليد الشيعى الذى إنتشر من بغداد إلى غيرها.

* أغار القرامطة على الشام وكانت تابعة لمصر غير أن المصرين عجزوا عن قمعهم بسبب الغزو الفاطمى لبلادهم من الغرب.

جعلهن يقمن فى القصر، ويتدخلن في شئون الحكم، بل ويسيون أمور الامبراطورية. ولم تشأ زوى التى صدمت بهذا الزواج أن تنتقم لنفسها منه خوفا من أن تعيد الى ذاكرة الجماهير سيرتها الأولى، وجريمتها البشعة مع زوجها الأول، وكل ما فعلته أنها سمحت له بعشيقة واحدة لكى تقيم فى القصر، وبذلك أصبح الحكم من الناحية الفعلية رباعيا يتكون من الأختين، والامبراطور وعشيقته. ولقد انزوت ثيودورا كعادتها للصلاة والتعبد فى جناحها، بينما

ولما بلغ الاب ما نال الشعب بها طلب ان يرسل اليهم شيا يقتاتون به فلم يتمكن لاجل الحصار الذى كان عليها من هولاى القوم. ودام هذا الامر على هذه المدينة، فطرح الله فى قلب سكان رشيد ان عملو مراكب اوسقوها غلة واقلعو بها فى البحر المالح الى مدينة اسكندرية، وبهذا السبب كانت سلامة اسكندرية وكثرت عندهم الغلات برافة الله عليهم وعلى اطفالهم. ولما طال حصارها وضاق صدور السكان بها اجتمع رووساها وتشاورو

سنة ٣٥٣ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الثلاثاء ١٩ يناير ٩٦٤م.

* انفذ الامبراطور البيزنطى نقفور (نسيفوروس) حملة بحرية ضمت ٤٠ ألفا لنجدة أهل صقلية فقاتلهم أميرهم الحسن الكلبى فمنوا على يديه بهزيمة ما حقة قتل فيها قائد الحملة منويل وجمع من القواد البطارقة وهرب من سلم إلى مدينة ريو الايطالية، فأعد الكلبى قوات برية وبحرية إستولت على مدينة ربطة بعد حصار طويل.

* إشتد الغلاء فى بلاد الشام حتى عز الخبز وأكل الناس الرطبة والحشائش.

* حاصر البيزنطيون مدينة المصيصة بالأنضول يقودهم الامبراطور وكانوا ثلاثمائة ألف ولكنه عجز عن الاستيلاء عليها فأحرق ما حولها من الضياع ثم إنتقل إلى حصار مدينة طرسوس وطال الحصار حتى إشتد الغلاء وكثر الوباء فرحلوا عنها.

* واصل شيعة بغداد إقامة المآتم فى يوم عاشوراء بالنواح والندب وإغلاق الأسواق.

* اكتشف فى قصر الخلافة ببغداد تمثال من نحاس على هيئة إمرأة جميلة حولها تماثيل صغار فى هيئة الخدم وكان قد جلبه الخليفة المقتدر لتتفرج عليه الجوارى والنساء، وفيها عمل سيف الدولة الحمدانى خيمة عظيمة إرتفاع عمودها ٥٠ ذراعاً.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

مع الوالي بها وقالو يجب ان ندبر صورا [سورا] على جميع المدينة، فجعل اصحاب الدور والرباع كل واحد منهم حايط الى عند جاره، فصار عليها صور يدور وجعلو له ابوابا وامرو ان لا يفتح الا بواب واحد، وبتدبير الله تعالى الذى ينجى الفقير والمسكين. عملو ذلك وتحصنت المدينة وامن اهلها من العدو. ولم يقدرو هذه المحاصرة لها على فتحها. وكان الاب حزين القلب لا يعلم فى اى موضع ياوى اليه لانهم نهبو جميع المواضع الذى

شغلت زوى نفسها بهواية صناعة العطور، وانشغلت العشيقة بجمع الأموال والحلى والجواهر، وانصرف الامبراطور الى مجونه وسماره. ولحسن الحظ أن العشيقة ماتت عام ١٠٤٤، فلم يغير موتها من الأمر شيئا، اذ بقى الامبراطور يلهو، والامبراطورية تحتضر، مما أقلق بطريرك الكنيسة. وفى عام ١٠٥٠م ماتت زوى قرينة الامبراطور؛ وبذلك يكون حقه فى الحكم قد سقط بموت زوجته الوارثة الحقيقية للعرش، وزادت

---

* تجدد القتال بين السلطان معز الدولة البويهى ببغداد وناصر الدولة الحمدانى بالموصل وإنتهى بالمصالحة.

* تمرد نجا غلام سيف الدولة وأظهر العصيان واستولى على أرمينية.

سنة ٣٥٤ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت ٧ يناير ٩٦٥م.

* إنتقلت معركة صقلية إلى البحر فهزم أسطول الحسن الكلبى بقيادة إبنه أحمد بن الحسن الأسطولين البيزنطى والصقلى فى المعركة التى تعرف باسم وقعة المجاز (أى بوغاز مسينا) وغرقت أكثر سفن العدو ثم عقد صلح بين الطرفين.

* فى الانضول عاد الامبراطور البيزنطى نقفور إلى حصار مدينة المصيصة ففتحها عنوة ووضع السيف فى رقاب أهلها ونقل كل ما بها إلى القسطنطينية كما استولى على طرسوس بالأمان وأحرق مسجدها فهجرها أهلها براً وبحراً إلى أنطاكية.

* ولد بالبصرة عالم الرياضيات والطبيعيات أبو على بن الهيثم (محمد ابن الحسن) الذى انتقل بعد ذلك إلى مصر واشتهر بابحاثه فى علم البصريات.

له. وكان لا يقدر يظهر بفسطاط مصر لاجل ابن المدبر الظالم لانه مع هذه البلايا كلها كان له مطالبا بالخراج، اعنى خراج الاواسى وغير ذلك، وجميع من هرب من هذا العدو التجا الى مصر خوفا منه فقبض هذا الرجل السو ابن المدبر عليه ورماه السجن. ومن هذا خاف ابونا من الدخول الى فسطاط مصر، من المطالبة بخراج الاواسى الذى كانت للبيع ونهبت. ولما علم ابونا بسكان المحلة الكبيرة واماتتهم مضى الى عندهم واقام

أحلامن البطريرك ميخائيل كيرولاريوس Michael kcrularios في أن يكون بطريركا وامبراطورا فى آن واحد، متأثرا بتعاليم الدعوة الكلونيسة التى دعت الى وجوب أن يكون الاباطرة بابوات، والبابوات أباطرة، غير أن الامبراطور بادل البطريرك الكراهية، وتشبث بالعرش، وبدأ الموقف كما لو كان بداية صراع طويل بين الدولة والكنيسة. لولا وقوع حدث كبير أوقف مؤقتا ذلك الصراع.

---

* ولد بمدينة واسط الوزير أبو غالب فخر الدولة وزير السلطان بهاء الدين البويهى، وفيها ولد قاضى قضاة مصر من الشيعة الاسماعيلية عبدالعزيز ابن النعمان.

* شهدت هذه السنة وفاة الشاعر أبي الطيب المتنبي (أحمد بن الحسين) عن ٥١ عاماً قتل في الطريق عند دير العاقول، ديوان شعره وشروحه مطبوعة متداولة.

* خر الحسن الكلبى أمير صقلية صريعاً من شدة الفرح على أثر سماع أخبار الانتصارات الحاسمة التى أحرزها إبنه وإبن أخيه على البيزنطيين والايطاليين، وخلفه إبنه أحمد بن الحسن فى حكم صقلية.

* توفى الناصر الحمودى أول ملوك الدولة الحمودية بقرطبة عن ٥٤ وكان قبل ذلك على سبتة ومالقة.

سنة ٣٥٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ٢٨ ديسمبر ٩٦٥م.

* إنسحبت القوات الأموية المرابطة فى مدينة جرينوبل الفرنسية وما حولها من الوديان.

* تولى إمارة مصر الأستاذ أبو مسك كافور الإخشيدى، بعد وفاة سيده أبى الحسن على بن الاخشيد وخطب له على المنابر.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

هناك داعيا لله ان ينجي بيعته وشعبه من هذا الضيق. ولم يفارق البكا لاجل بيع اسكندرية، وانه لا يمكن ينفذ شيا الى قومتها [القيمين عليها] ليقومو بالقداسات. وكان جميع من يسافر من موضع الى موضع ومعه درهم واحد يوخذ منه ويقتل لاجله. وكان لا يسافر انسان الا وعليه ثياب خلقان كراد لا منفعة فيه، كما قال زخريا النبي: اجرة الناس لا تكف قوتهم واجرة البهايم لا تكون. وكلمن يدخل ويخرج لا يجد سلامة من الضيق.

الانفصال النهائى بين الكنيستين ١٠٥٤م:
وفى منتصف القرن الحادى عشر، وبالتحديد فى عام ١٠٥٤ هبت زوبعة على الكنيستين طيرت الرماد، وأظهرت النيران المتقدة من جديد، فقد تولى كرسى البابوية فى روما البابا ليو التاسع، وهو أحد رجال الدين، الذين أنجبتهم حركة مزسسة دير كلونى، وكان رجلا قويا ما لبث أن بدأ يطبق مبادئ الاصلاح الكلونى لدعم نفوذ البابوية سياسيا ودينيا لمناصرة السلطة الدينية على السلطة الزمنية عملا بنظرية «السيفين». ولقد

---

* وقع خسوف كلي للقمر ليلة السبت ١٣ شعبان.

* عاود الامبراطور البيزنطى شن غاراته فحاصر مدينة آمد ولكنها صدته فانصرف إلى نصيبين وكان بها سيف الدولة فسار منها الامبراطور إلى أنطاكية فعجز عن فتحها فخرب ما حلولها.

* أغار بنو سليم على قافلة الحجاج من مصر والشام وكانت تضم ٢٠ ألف جمل ونهبوها.

* جرى الفداء بين البيزنطيين وسيف الدولة وكان جملة ما خلص من الأسر ما بين أمير وراجل ٣٢٧٠ وكان من بين من فودى فى هذا اليوم الأمير أبو فراس الحمدانى الشاعر الفارس وكانت أخت الامبراطور البيزنطى قد أخذته لتفادى به أخا لها فى أسر المسلمين، وكان جملة ما أنفقه سيف الدولة على الفداء ٣٠٠ ألف دينار.

* إستولى معز الدولة على إمارة عمان من القرامطة وأحرق ٨٩ مركباً لهم.

* توفى فى الحادى عشر من المحرم أمير مصر أبو الحسن على بن الاخشيد بعلة أخيه أنوجور وقيل مسموماً وكانت مدة حكمه أربع سنين وبضعة أشهر وخلفه كافور.

* توفى حول هذا التاريخ المؤرخ المصرى أبو عمر الكندى مؤلف كتاب الولاة والقضاة أى

وفيما هذا الامر يتزايد نظر الله جلت قدرته ما على قلب ابونا من امر بيع اسكندرية فهداه الى ان كتب كتابا الى التجار الذين بها مساعى [معامل] الكتان من البلاد الشرقية ان يخرجو اليه بغير شى معهم، فلما وصلو اليه دفع لهم ما توجهو به اليه وقال لهم: ابتاعو لكم تجاير [تجارة] من الريف وسلمو عوضا منه للاقنوم باسكندرية ليصرفه فيما تحتاج اليه البيع. ففرحو بذلك وشكرو اهتمامه، واخذو منه المال وربحو غرر [تعب] الطريق،

بدأ ليو التاسع بفرض نفوذ البابوية على كل شبر فى ايطاليا، بما فى ذلك الأراضى التابعة للقسطنطينية فى اطرافها الجنوبية. ومن ثم فقد أغضبت هذه التصرفات البطريرك ميخائيل كيرولاريوس، واعتبرها تعديا على حقوقه؛ فأرسل فى عام ١٠٥٣م خطابا توجيهيا الى أحد أساقفته فى جنوب ايطاليا أدان فيه تصرف البابا، ووصف البابوية بأنها أضحت دمية فى أيدى النورمانديين يحركونها كيفما يريدون، وذهب فى ادانته للكنيسة البابوية الى حد وصفها بالكفر،

ولاة مصر وقضاتها وهو مطبوع متداول، والأديب المؤرخ أبو إسحق البجيرمى صاحب ديوان الانشاء لكافور مؤلف كتاب ايمان العرب فى الجاهلية وهو مطبوع.

سنة ٣٥٦ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الاثنين ١٧ ديسمبر ٩٦٦م.

* أعد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله العدة لفتح مصر وهو بعد بأفريقية فعبد الطريق من تونس إلى مصر وحفر الابار وأجزل العطايا والمنح وسير أول حملة استطلاعية استولت فى هذه السنة على واحة سيوة.

* تولى أبوالمعالى سعد الدولة شريف (الأول) الحمدانى فى ٢٤ صفر إمارة حلب خلفاً لأبيه سيف الدولة.

* أسلم الوزير يعقوب بن كلس على يد كافور الأخشيدى وكان يهودياً.

* عقد معز الدولة العهد لابنه عز الدولة بختيار ولم يلبث أياماً حتى خلف أباه فكان أول ما فعله مصالحة صاحب البطيحة وسحب الجيوش من واسط.

* وقع خلاف بين القرامطة بسبب انحياز الخليفة المعز الفاطمى لأبناء أبى طاهر القرمطى.

فاستقامت احوال البيع والقلاية باسكندرية كالزمان الذى كان لها فيه الاواسي. ولم تزال العربان تنهب قلالى الرهبان والديارات لان بيوتهم ورجالهم هناك فى الوادى نزولا، حتى انهم سكنو فى الجواسق والاسكنا، وبنو ابواب مساكنهم. وكانو يرصدوهم الى الوقت الذى يخرجو فيه يستقو الما يقتلو بعضهم وياخذو من بعضهم ما يجدوه عليه من الثياب وما معهم من الاوعية التى يحملو فيها الما. وكانو الابا الرهبان باكين يسالو

والمروق على الكنيسة الصحيحة. وأعلن كيرولاريوس أن الكنيسة الشرقية أصبحت فى حل من أى ارتباط مع الكنيسة الغربية، ولا شأن لها بها، واضطر الامبراطور الضعيف قسطنطين التاسع، أن يعلن موافقته على هذا القرار. وبذلك تم الانفصال بين الكنيستين والذى لا يزال قائما حتى يومنا هذا.

نهاية حكم البيت ا لمقدونى ١٠٥٦، بعد موت الامبراطورة زوى عام ١٠٥٠، بقى من سلالة الأسرة المقدونية أختها العجوز ثيودورا؛ والتى

---

* قبض أبو تغلب على أبيه ناصر الدولة الحمدانى صاحب الموصل وأودعه قلعتها ورتب له كل ما يحتاج إليه.

* شهدت السنة وفاة عدد من الملوك والأمراء فى الشرق والغرب فخلت منهم ساحة الأحداث منهم : السلطان معز الدولة البويهى (أحمدن بن بويه) فى ١٧ ربيع آخر عن ٥٣ سنة، كان على كرمان والأهواز والعراق وبغداد ودام حكمه ٢٢ سنة، كان فى أول أمره حطاباً وكان أبوه صائد سمك وهو أخو ركن الدولة وعم عضد الدولة، وقد أظهر التوبة على فراش مرضه وتصدق بأكثر أمواله وأعتق مماليكه.

* توفى سيف الدولة الحمدانى أمير حلب والثغور واشهر الأمراء الحمدانيين غزا بلاد الروم ٤٠ غزوة ودام حكمه لحلب ٢٣ سنة وتوفى عن ٥٣، اشتهر بمدائح المتنبى فيه.

* توفى وشمكير بن زيار (ظهير الدولة أبو منصور) صاحب جرجان وطبرستان وثانى أمراء الدولة الزيارية وخلفه ابنه أبو منصور بيستون، وفيها توفى الحسن بن الفيرزان صاحب شكور.

* شهدت السنة وفاة اثنين من أعلام رواة الأدب هما: أبو الفرج الأصفهانى (على بن الحسين) مؤلف كتاب الأغانى موسوعة الأدب المتداولة، وكتاب مقاتل الطالبيين، والإماء الشواعر وغيرها وذلك ببغداد عن ٧٢ عاماً، وفيها توفى الأديب الروايه أبو على القالى عن ٦٨ ومؤلف كتاب الأمالى (١٤ الحجة) أو أمالى القالى وله كتاب الأمثال.

السيد المسيح ان ينقذهم، وكانو صابرين على الحر والبرد والخوف ويقولو كما قال داود: اخرجنا من هذا الضيق وخلصنا وانقذنا برحمتك.

وكذلك بيعة الشهيد مارى مينا بمريوط التى كانت مسرة لجميع شعوب مصر الارتدكسيين صارت برية لا يتمكن احد من الوصول اليها فى تلك الايام التى كان فيها الحصار على اسكندرية من المداجة والعربان وغيرهم من المفسدين الذى

كانت وقتذاك في السبعين من عمرها، ولقد عرض عليها رجال البلاط أن تتزوج من الامبراطور الأرمل، ولكنها رفضت، لتمسكها برهبانيتها، وانقطاعها للعبادة، ولهذا حقد عليها قسطنطين التاسع، واضطهدها، ثم طردها من القصر، لأنه كان يعتبر رفضها الزواج منه معناه طرده من منصبه، اذ لاحق له في البقاء على العرش بعد موت زوجته، وفي وجود شقيقتها شريكتها شرعا في الحكم. وبقي الامبراطور الضعيف وحده يعربد في القصر تاركا الامبراطورية لقدرها، ومن ثم سخر منه شعب

---

* توفي قاضي بغداد أبو نصر يوسف الأزدى عن ٥١ عاماً وهو من بيت تولى منه أبوه وجده القضاء،و فيها توفي قاضي الأندلس المؤرخ مطرف بن عيسى مؤلف (إنسان العرب النازلين في البيرة وأخبارهم) وفيها توفي بمدينة واسط الراوية الإمامي المصنف أبو طالب عبيدالله الانبارى مؤلف كتاب الانتصارات وكتاب الإبانة عن إختلاف الناس في الامامة.

سنة ٣٥٧ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٧ ديسمبر ٩٦٧م.

* تزوج فى هذه السنة السلطان معز الدولة بختيار من إبنة (عسكر الرومي) الكردى عن صداق مقداره مائة ألف دينار، وفيها تزوج الحسن بن عبيدالله الاخشيد من إبنة عمه فاطمة بنت الاخشيد وأصبح وصياً على إبن عمه أبى الفوارس أحمد.

* انتهى المعز لدين الله الفاطمى من التجهيز لحملته الكبرى على مصر بعد أن قضى على كل معارضة له فى بلاد أفريقية والمغرب.

* تولى إمارة مصر أبو الفوارس أحمد بن على بن الاخشيد خلفاً لمولى جده كافور، وهو صبى فى الحادية عشرة وجعل الوصاية لابن عمه وخليفته الحسن ابن عبيدالله.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

جمعهم مقدم المداجة. وخرجت جميع المواضع المقدسة وكذلك بيعة السيدة الطاهرة باتريب وساير البيع التى كانت عزا للمومنين، وكذلك ديارات الصعيد والبيع التى فيه كما قال عاموس النبي: انى اترك اعيادكم الى حزن وتسبيحكم الى نوح. وكان الاب كثير الحزن والبكا على برية ابو مقار المقدسة [وتسبحة الله لا يفترو منها، وكانوا متشبهين بملايكة الله الذين لا يفترون من التسبيح] صارت منزلا للقاتولين المفسدين، والتجو

القسطنطينية، وأطلقوا عليه لقبا ساخرا هو «المحارب مع نفسه» Mon-omachos ولم يلبث الامبراطور أن مات عام ١٠٥٥م. فاعيدت ثيودورا الى القصر الامبراطورى بصفتها امبراطورة، وتركت أولى الأمر يسيرون أمور الدولة، بينما انقطعت هى للعبادة ومرة أخرى رفضت الزواج، ولقد كان لتحليها بالتقوى والاخلاق الكريمة أن كسبت احترام الناس، اذ لم يحدث خلال العامين اللذين حكمت فيهما البلاد أى ثورات، أو حروب، وظلت تحكم بسلام حتى موتها عام ١٠٥٧، ولقد استطاع رجال البلاط أن يؤثروا

---

* قبض الوزير جعفر بن الفرات على جماعة من أعيان مصر وصادرهم ومنهم يعقوب بن كلس الذى هرب إلى المعز الفاطمى بتونس وحسن له غزو مصر.

* إنتصرت القرامطة على نائب مصر فى الشام الحسن بن عبيدالله الاخشيدى وتعهد بدفع اتاوة سنوية لهم.

* لم يحج أحد من مصر أوالشام بسبب قطع العربان لطريق الحج.

*توفى بمصر فى ٢٠ جمادى الأولى أمير مصر الأستاذ أبو المسك كافور عن ٦٥ عاماً، كان عتيق محمد الاخشيد وأتابك إبنيه أنوجور وعلى، تولى الحكم سنتين وأربعة أشهر وكانت مدة تسلطه على مصر ٢١ سنة وشهرين، وهو ممدوح المتنبى قبل أن يفارقه ويهجوه.

* توفى الأمير الفارس الشاعر أبو فراس الحمدانى (الحارث بن سعيد) إبن عم سيف الدولة مات مقتولا فى نزاع مع خاله سعد الدولة بالقرب من حمص وله من العمر ٣٧. ديوان شعره متداول.

* توفى الخليفة العباسى المعزول المتقى بالله (أبو إسحق إبراهيم) عن ٥٨ عاماً وكان قد تولى خلفاً لأخيه الراضى ولم تدم خلافته سوى أربع سنين إذ خلع فى ٢٠ صفر ٣٣٣م.

القديسين الذين كانو فى البرية الى كل موضع وتفرقت الاخوه الصالحين النيرين.

وباحكام الله الغير مدروكة لما تعطلت الاعياد التي ذكرناها، قام واحد من جنس الملك وحشد حوله اقواما كثير مقاتلة [يقصد القرامطة] وقاتل الملك، وسار الى الموضع الذى يسمى الان مكة بارض الحجاز ويسمى الكعبة وملكها، وملك البيت الذى يحج اليه المسلمين من كل الاعمال وهو المكان الذى يقولو لا يدخله الا شريف لكرامته

عليها ـ قبل أن تلفظ أنفاسها ـ لكى تختار من يخلفها، وجاء اختيارها لرجل ورع مسن، ينتمى الى احدى الأسر التى جاء منها عدد كبير من بطاركة الكنيسة، وهو ميخائيل المتعسكر.

ميخائيل السادس Michael Stratoti- cus ١٠٥٧ . ١٠٥٩؛

اعترض على اختيار ميخائيل السادس زعماء البيوت الاقطاعية فى الولايات الامبراطورية، والتى اعتبرت أن اختيار هذا الرجل هو من فعل حزب البلاط، واستغل الاقطاعيون

سنة ٣٥٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء الموافق ٢٥ نوفمبر ٩٦٨م.

* خرجت الحملة الفاطمية الكبرى لغزو مصر من تونس فى يوم ١٤ ربيع الثانى بقيادة جوهر الصقلى مؤلفة من جيش برى وأسطول ساحلى ومزودة بالعتاد والمؤن والأموال وبلغ ما أنفق عليها ٢٤ مليون دينار، فى ١٨ رجب بلغت الأسكندرية ودخلها جوهر دون مقاومة.

* عقد جوهر الصقلى مع وفد من المصريين عهداً يضمن دخول جيشه مدينة الفسطاط وتم ذلك يوم الثلاثاء ١٨ شعبان وخطب على منبر الجامع العتيق للمعز الفاطمى وانقطع الدعاء لبنى العباس.

* تولى إمارة صقلية يعيش مولى الحسن الكلبى خلفاً لابن سيده أحمد بن الحسن.

* التقى عند الرملة بفلسطين الحسن بن عبيدالله الاخشيد بجيش الفاطميين بقيادة جعفر بن فلاح فانهزم الحسن وحمل أسيراً إلى المغرب وبه إنتهى حكم الاخشيديين فى مصر والشام.

* استولى أحد الفتاك المسمى الرعيلى على مدينة أنطاكية فأغار عليها الروم واستولوا عليها فهرب الرعيلى بحراً إلى الشام.

* بدأ جعفر الصقلى فى رمضان تخطيط وبناء مدينة المنصورية التى سميت القاهرة بعد ذلك كما وضع أساس القصر الكبير.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

عند المسلمين، وملوك المسلمين يحملو اليه فى كل وقت الاموال والثياب. ولما ملكه هذا الثاير احرقه بالنار وما فيه وارذلهم وقال: هذه افعال مرذولة يفعلوها المسلمين. وربط خيله فى ذلك المكان حتى صار فى تلك السنة برية قفرا ولم يدخل اليه احد من الخلايق الذين كانو يمضو اليه فى كل عام، وكان المسلمين تحت حزن عظيم لاجل خراب البيت.

فلما اراد الرب ان ينظر الى شعبه وبيعته جعل

انتهاء سلالة البيت المقدونى الذى كان يستهوى أفئدة الجماهير وطالبوا بإقصاء حزب البلاط عن الحكم بما فى ذلك الامبراطور؛ وتزعم حزب «رجال الاقطاع» رجل يدعى اسحق كومنينوس، واندلعت الثورة ١٠٥٧، وظلت مستعرة عامين، فشل خلالهما ميخائيل السادس ومعه رجال البلاط فى اخمادها بكل وسائل الاغراء والوعود؛ ووصلت الثورة على الامبراطور ورجال البلاط الى نقطة حاسمة عام ١٠٥٩، عندما ثارت القسطنطينية عن بكرة أبيها بعد أن

---

* توفى فى هذه السنة ناصر الدولة الحمدانى (الحسن بن أبى الهيجاء) أمير الموصل وأخو سيف الدولة وصاحب الوقائع مع معز الدولة البويهى وكان قد حجر عليه إبنه أبو تغلب.

* شهدت هذه السنة (توافق ٩٦٩م) إغتيال الأمبراطور البيزنطى الفاتح نقفور (نيقوموس فوكاس) بتدبير من زوجته يودوكسيا وعلى يد إبن أخيه وخليفته يوحنا الزمسكى (الدمستق).

سنة ٣٥٩ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ١٤ نوفمبر ٩٦٩م.

* فى يوم الخميس ١٣ جمادى الأولى شهد جوهر إقامة أبواب القصر الشرقى الكبير بالقاهرة الذى أعده لاستقبال الخليفة المعز.

* أنقض بالعراق كوكب عظيم أضاء منه الدنيا حتى صار وكأنه الشمس وسمع عند إنقضاضه صوت كالرعد.

* تولى إمارة صقلية أبو القاسم على بن الحسن الكلبى خلفاً ليعيش مولى الكلبيين فساد الأمن والهدوء أنحاء الجزيرة.

زال مفعول سحر البيت المقدونى، وانتهت الثورة بخلع ميخائيل السادس المتعسكر، وطرد حزب البلاط من القصر؛ ودخل اسحق كومنينوس العاصمة منتصرا حيث توج امبراطورا. وبذلك انتهى عصر البيت المقدونى، وبدأ حكم أسرة جديدة عرفت باسم أسرة دوقاس.

أسرة دوقاس ومواجهة التحديات
(١٠٥٧ ـ ١٠٨١)

من الناحية الفعلية انتهت الأسرة المقدونية بموت باسيليوس الثانى عام

الملك ارسل الى ارض مصر واليا اسمه مزاحم [ابن خاقان] رجلا كان فى مذهبه تقيا عفيفا عارف بفرايض دينه عادلا فى طرايقه، وصحبته جيش كبير من الاتراك. وكانو هولاى القوم شجعانا مقاتلين لا يقدر احد على مقاومتهم لان سلاحهم كان خلاف سلاح اهل مصر وهو النشاب. ولما وصل الى فسطاط مصر اخذ الاموال الذى كان استخرجها ابن المدبر وانفق فى الرجال، واقام عساكر كثير خارجا عما وصل صحبته من الشرق.

---

* ولدت فى هذه السنة ست الملك بنت نزار بن الخليفة المعز وهو الذى تولى أبوها الخلافة باسم العزيز بالله وكان لها دور فى خلافة أخيها الحاكم بأمر الله بعد ذلك.

* توفى بدمشق الأمير أبو شجاع فاتك الأخشيد وكان نائب سلطان مصر على الشام وهو غير فاتك ممدوح المتنبى، كما توفى بدمشق الأمير صالح العقيلى وهو آخر من ولى دمشق من قبل الاخشيد.

* توفى أبو عبدالله محمد بن الحسن العلوى الطالبى وكان قد أعلن عن حقه فى الامامة وتلقب بالمهدى لدين الله وانتهت ثورته بوفاته مسموماً.

سنة ٣٦٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ٤ نوفمبر ٩٧٠م.

* فى الأول من المحرم أصابت الخليفة المطيع العباسى سكتة ثقل بسببها لسانه واسترخى جانبه الأيمن.

* انقضى ستة عشر شهراً منذ دخلت مصر فى حكم الفاطميين وتولى عليها جوهر الصقلى من قبل المعز لدين الله الفاطمى.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

وبدا ان يدبر تدبيــرا على القــوم الذين اثارو الفتن بارض مـصـر ومـدينة اسكندرية. ولما علم ان معهم بعض بلاد مـصـر انفذ الى هناك مقدما من جيشه وصحبته خيـلا مقـاتلة ورجالة [مشاة] تمشى بين ايديهم مقـاتلة ايضـا، وانفـذ في البـحـر مـراكب اسطول فـيـهـا خلق كـثـيـر من الرجـال المقـاتلين، وسارو اليهم، وكانو باعمال بنا وابوصير من الوجه البـحرى من ارض مـصـر بين هاتين الناحيتين نزولا [مرابطين]، فقتل اكثرهم بالسيف وغرق في البحر

١٠٢٥، وبموته بدأ العــد التنازلى لسقوط امبراطورية الروم. فقد بدأت بوادر الشيخوخة تظهر بسرعة على كافة الاحوال فيها، وبدأ الطالع فى سمائها ينذر اقتراب نهايتها، ليتخلق على أشلائهـا امبـراطورية جـديدة لشعب جديد. فلقد شـهـد النصف الثاني من القرن الحادى عشر عدة أزمات فى الداخل وهزائم في الخارج، وعـجـزت الامبـراطورية عن مـواجـهـة هذه التـحـديات، وعندمـا تعـجـز الامبراطوريات عن مواجهة مثل هذه

---

* أغار القرامطة بقيادة الحسن القرمطي على الشام وحاصروا دمشق وهزموا القائد الفاطمى ونائب دمشق جعفر بن فلاح الذى قتل في المعركة واستولوا على دمشق وولوا عليها ظالم بن موهوب.

* عقدت مصالحة بين أبي المعالى سعد الدولة بن سيف الدولة الحمدانى وقرعويه غلام أبيه الذى كان قد ثار عليه وأعلنا الولاء للمعز الفاطمي.

* أضاف الفاطميون إلى صيغة الأذان التقليدية جملة حى على خير العمل.

* أمر جوهر الصقلى بحفر خندق حول القاهرة بعد أن هاجم القرامطة مدينة السويس إستعداداً للالتقاء بهم.

* أصبح من المواسم المقررة منذ حكم السلطان معز الدولة ببغداد الاحتفال بعيد يوم الغدير في ١٨ ذى الحجة فضلا عن يوم عاشوراء في العاشر من المحرم ويحيـونه كالعادة بالنواح واللطم والبكاء.

سنة ٣٦١ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الثلاثاء ٢٤ أكتوبر ٩٧١م.

* فرغ جوهر الصقلى من بناء الجامع الأزهر في رمضان من هذه السنة، وبدأ الخليفة المعز

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

التحديات فان العمر الافتراضى لها يكون قد أوشك على الانتهاء.

فعلى الصعيد الداخلي زادت حدة الصراع بين الحزب البيروقراطي الحاكم أو حزب القلم ـ كما أطلق عليه ـ وبين أرباب السيف أو الحزب الاقطاعي العسكرى؛ وكان الحزب البيروقراطي هو حزب البلاط ورجال القصر، وعشيقات الاباطرة، ووصيفات زوجاتهم، وأنصار البلاط من الأدباء والفلاسفة والكتاب العاملين بالقلم؛ وكان هذا الحزب يتركز في العاصمة؛ ويستمد قوته من

[النيل] كثير، ومن هرب منهم وطلب الاسطول اخذوه الرجال الذين فيه وهم النفاطين احرقوه بالنار بين سندفا والمحلة، حتى ان من كثرة ما احرقوه النفاطين بالنار احترق بعض حوانيت المحلة وفيها بضايع التجار. وافتقر كثير من الاغنيا فى ذلك اليوم واباد الله اوليك الكفرة ومن فضل منهم وهرب التجا الى البحيرة ولم يقدر يعود لان مراكب النفط كانت على المعادى [المعديات] نزولا على الخايض.

لدين الله الفاطمى رحلته التاريخية إلى مصر من المنصورية بتونس فى أواخر شهر شعبان ولحق به رجاله وعماله وأهل بيته.

* أغار الامبراطور البيزنطى زيمنسكيس الأول (يسميه العرب ابن الشمشقيق) على الرها ونواحيها حتى بلغت قواته نصيبين وديار بكر فسبوا وغنموا وقتلوا وأحرقوا وخربوا ما وصلت إليه أيديهم.

* استعمل الخليفة الفاطمى المعز لدين الله قبل أن يبدأ رحلته إلى مصر: بلكين بن زيرى الصنهاجي على أفريقية، وعبدالله بن يخلف الكتانى على طرابلس، وأقر أبا القاسم الحسن بن على الكلبي على صقلية.

* في يوم الجمعة مستهل ربيع الأول إشتد القتال على باب مدينة القاهرة الجديدة بين القرامطة وعلى رأسهم حسن الأعصم القرمطى والفاطميون وعليهم جوهر الصقلى وبعد يومين إنهزم القرامطة فارتدوا نحو السويس.

*أغار بنو هلال على قافلة الحج المصرى ونهبوا وقتلوا ولم يسلم منهم سوى قلة.

* توفى فى هذه السنة الزعيم القرمطى أبو القاسم سعيد بن أبى سعيد الجنابى فلم يبق من أبناء أبى سعيد سوى يوسف أخى أبى القاسم الذى تولى زعامة القرامطة من بعده مجلس من ستة حتى لا يستبد أحد منهم بشئ دون الآخرين.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

ولما كان هذا، ظهر في يوم حريق المحلة وحوانيتها سر عجيب يجب ان نظهره للمومنين لعظم توكلهم على الله الذى يحفظ اصفياه ولا يدعهم ان يرو الفساد وينجيهم فى زمان الغضب، كان فى ذلك الموضع تاجرين متجاورين احدهما له مال كثير ولم يكن يرحم المستورين والفقرا، والاخر رحوم جيد وكلما يربحه يدفعه للبيع والمستورين والايتام، فلما حاط النار بالحوانيت الى

ادارة القصر التى سيطرت على الاباطرة منذ موت باسيليوس الثانى وحتى سقوط الاسرة المقدونية. وكان حزبا ضعيفا، قصير النظر، ينظر الى مصالح الامبراطورية من خلال مصالحه الخاصة، ويكثر فيه الانتهازيون البيروقواطيون، الذين لا يريدون لأحد أن ينافسهم فى سلطاتهم، خاصة لو كان أقوى منهم، حتى ولو كان فى ذلك خسارة للامبراطورية. وكان هذا الحزب يرى أن رسالة الامبراطورية الخالدة هى فى المقام الأول قبل كل

سنة ٣٦٢ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ١٢ أكتوبر ٩٧٢م.

* دخل الخليفة المعز الفاطمى مدينة الأسكندرية فى شهر شعبان من السنة فتلقاه قاضى مصر أبو طاهر الذهلى والأعيان وتابع سيره إلى الجيزة وعبر النيل إلى مدينته الجديدة المسماة القاهرة فى الثامن من رمضان وقد زينت أحسن زينة فلما دخل القصر خر ساجداً وصلى ركعتين.

* إنهارت المعاقل العربية الإسلامية فى إقليم دوفينيه الفرنسى بعد سلسلة من الغارات عليها إتخذت الطابع الصليبى تزعمها اسقف دير كلونى.

* تجدد القتال بين البيزنطيين وأمير الموصل أبى تغلب هبة الله إبن ناصر الدولة الحمدانى فاستعد أبى تغلب لهذه المواجهة وأوقع بالقوات البيزنطية ووقع قائدها الدمستق فى أسره.

* أخذ الحسن الأعصم زعيم القرامطة فى الاستعداد لغزو مصر للمرة الثانية بعد أن أخمد ثورة أبناء عمه فى البحرين فسار إلى الشام واسترد أكثر البلاد وكان هذا من أسباب تعجيل المعز بالقدوم إلى مصر.

* نشبت عدة ثورات فى أفريقية والمغرب على نائب بلكين بن زيرى شملت باغية وتاهرت وتلمسان.

شئ رسالة فكر وفن وحضارة. وليست رسالة حروب وقتال.

أما الحزب الاقطاعي العسكرى، فقد كان ينظر باحتقار الى أرباب القلم ويعزى اليهم الازمات بسبب سيطرتهم على العروش وعلى من يجلس عليه، فهم الذين يختارون الاباطرة، وهم الذين يدبرون المؤامرات للتخلص منهم، وأن حال الامبراطورية لن ينصلح الا اذا تولى رجال أقوياء وعسكريون زمام الحكم. وكان الحزب الاقطاعي العسكرى يتكون من كبار الاقطاعيين من رجال الجيش -Magna

مخازن التاجرين فاحرق جميعهم، وان الرب المتكلم على لسان داوود حيث يقول: طوبى لمن يرحم الفقير والمسكين فى يوم السو ينجيه الرب. ويقول ايضا: لم ارا صديقا قط رفضه الرب، فنجا الرب جميع ما لهذا الرجل الرحوم من النار ولم يحترق له شى بالجملة، واما الغنى الذى كان ليس فيه رحمة تسلط النار على جميع ماله وصار غناه مثل التراب للريح. وكلمن نظر هذا الامر العجيب

---

* ولد بخوارزم فى ذى الحجة من هذه السنة العالم الموسوعي أبو ريحان البيرونى مؤلف الاثار الباقية وتاريخ الهند وغيرها.

* توفى من رجال الحكم فى هذه السنة: أمير صقلية أبو الحسين أحمد ابن الحسن الكلبى وهو الذى غزا أرض إيطاليا وأحرق الاسطول البيزنطى إبان حكم أبيه وخلفه بعد وفاته فترة، وفيها توفى جودر الخادم أحد مؤسسى الدولة الفاطمية بشمال أفريقية وكان لقبه مولى أمير المؤمنين، واليه ينسب حى الجودرية بالقاهرة، وفيها توفى الوزير أبو الفضل الشيرازى توفى فى سجن عز الدولة البويهى عن ٥٩ عاماً، وكان قد وزر لأبيه معز الدولة.

* ممن توفى من رجال الأدب فى هذه السنة: الشاعر ابن هانى الأندلسى أشهر شعراء الأندلس والمغرب قتل غيلة وهو فى طريقه إلى مصر فى ركب الخليفة المعز عن ٣٦ عاماً، وله ديوان شعر مطبوع متداول

سنة ٣٦٣ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الخميس ٢ أكتوبر ٩٧٣م.

* خلع الخليفة العباسي المطيع لله نفسه ببغداد فى يوم الثالث عشر من ذى القعدة بعد أن إزدادت علته وثقل لسانه وتعذرت حركته.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

مجد الله سبحنه، حتى ان كثير جعلو توكلهم فى ذلك الوقت على الذى يخلص المتوكلين عليه.

ومن بعد ذلك عاد مقدم الجيش الى مصر واسلم الله فى يديه المداجة وقتلهم بالسيف، ومن بقى منهم انهزم فى الجبال الى الصعيد ودرسهم مثل النورج على الاجران، وكلما نهبوه وملكوه اخذ منهم وملكه. وانتقم الرب للديارات التى اخربوها والابا القديسين الاطهار الذين سفكو دماهم والعذارى الذين افسدوهم واظهر فيهم

(i)، الذين يسيطرون على الاقاليم الزراعية التى تأتى منها الغلال والرجال؛ وكان لهم أتباع مسلحون. وكان الاقطاع قد بدأ يستشرى فى الولايات الاسيوية منذ القرن العاشر الميلادى، عندما بدأت الضرائب تثقل كواهل صغار المزارعين، والى جانب الشعور بعدم الأمان، مما شجع صغار الملاك على التنازل طواعيه عن حيازاتهم الزراعية الصغيرة، لتدخل فى أملاك أحد الشخصيات العسكرية الاقطاعية، مقابل أن يدخل المتنازلون فى خدمة سيدهم الاقطاعى

---

* بويع بالخلافة فى بغداد أبو الفضل عبدالكريم ابن الخليفة المطيع لله على أثر خلع نفسه ولقب بالطائع لله وله من العمر ٤٦ عاماً.

* زال خطر القرامطة عن الشرق الأوسط بعد ارتداد الحسن الاعصم القرمطى بقواته واستعادة الفاطميين لبلاد الشام.

* استولى البيزنطيون على مدينة نصيبين واستباحوا وقتلوا وسلبوا وجاءت جموع من أهلها إلى بغداد مستنفرين الناس فى المساجد وسارت جماهير ثائرة إلى قصر الخلافة واقتلعت بعض شبابيكه إعلاناً عن سخطهم عليه وسار وفد من رجال العلم إلى السلطان عز الدولة الذى جهز جيشاً من المتطوعة التقوا بمقدمة الروم وأسروا أميرهم وجماعة من بطاريقهم وقوادهم.

* أبطل فى بغداد ما كان تجرى عليه العادة فى يوم عاشوراء بسبب حروب الروم وذلك بفضل الحاجب سبكتكين وكان سنياً.

* جعل من راتب الوزير الناصح ابن بقية ألف رطل من الثلج فى اليوم غير ألف شمعة فى الشهر.

* عزل عن نيابة الشام ظالم بن موهب وتولاها جيش بن الصمصامة.

عجايبه، وتم فيهم قول النبى اوسيا اذ يقول: شرهم الان ذكر امام الرب واحاط بهم افكار قلوبهم وكانو امام وجهى. وامنت ارض مصر وفرح اهلها ومساكينها. فاما ابن المدبر الذى ذكرناه الظالم لم يرجع عن فعله الردى عنا، وهذا كتب الى جميع ارض مصر بان يوخذ من كل واحد خراجين فى تلك السنة، وكل نصرانى جزيتين. فعاد الناس الذين بارض مصر فقرا بهذا السبب بامر هذا الانسان، حتى ان الاغنيا لم يجدو الخبز ولا يقدرو

الذى يتعهد بحمايتهم؛ وبذلك أصبح ولاء الاتباع لسيدهم الاقطاعى أقوى من ولائهم للدولة .ومن أسباب تنامى الاقطاع أيضا كثرة السيولة المالية لدى بعض الطبقات العسكرية، وشعورهم بأن الاستثمار فى شراء الأرض هو الا ضمن؛ وكان من نتيجة التكالب على شراء الأرض اختفاء طبقة صغار الملاك واعيان القرى، الذين كانوا يعاونون الادارة المحلية ويمدونها بالمال والرجال، وأصبح السادة الاقطاعيون العسكريون هم الذين يملكون القدرة على امداد

---

* ولد بمعرة النعمان من نواحى حلب الشاعر الفيلسوف الضرير أبو العلاء المعرى (أحمد ابن عبدالله) مؤلف رسالة الغفران وسقط الزند واللزوميات، وفيها ولد عالم القراءات الأندلسى أحمد بن قاسم الاقليشى.

* ممن توفى من رجال العلم فى هذه السنة: القاضى النعمان فقيه وداعية المذهب الاسماعيلى الفاطمى، ومؤلف كتاب دعائم الاسلام وذكر الحلال. والحرام، وكتاب الهمة فى إتباع اداب الأئمة وهو متداول.

* شهدت السنة وفاة الأمير البيزنطى الدمستق فى أسر أبى تغلب الحمدانى صاحب الموصل.

سنة ٣٦٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ٢١ سبتمبر ٩٧٤م.

* اشتدت فتنة العيارين من رعاع وحرافيش بغداد وأشعلوا الحرائق فى الأسواق واستفحل أمرهم حتى أخذوا الخفارة على الدروب وركبوا الجند وتلقبوا بالقواد وغلبوا على الأمور.

* سقطت دمشق فى يد ألفتكين التركى فأزال حكم الفاطميين وأعاد الخطبة للخليفة الطائع العباسى.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

عليه. وكان جميع الناس في البلايا من غضبه على الاب البطرك، وطالبه بالخراج الذى عليه عن الاواسي وما يتعلق باسكندرية وبيعة الشهيد مينا بمريوط والديارات، وجزية الرهبان الذى كان قرر عليه اول سنة وهو سبعة الف دينار، وصبر منه على امر عظيم ولم يوفها الا بعد عذاب شديد وضيقة. وكان مستغيث بالله ليرحمه وبيعه وشعبه. وفي هذا كله فكره وحواسه عند الرب الرووف، ولم يضعف قلبه في هذه الامور الهايلة يوما قط

الدولة بالمال والمتطوعين. ولقد شعر الاباطرة بخطورة اختفاء طبقة صغار المزارعين، وتنامي اخطبوط الاقطاع العسكرى منذ أن أصدر الامبراطور رومانوس الأول عدة قرارات للحد من تزايد الاقطاعات، ووقف بيع الأراضي للاقطاعيين وذلك عام ٩٢٢، وانتهاء بقرار الامبراطور باسيليوس الثاني للحد من الاسر الاقطاعية. وباءت كل هذه المجهودات بالفشل، بل على العكس فان أباطرة القرن الحادى عشر الميلادى ساعدوا على تزايد عدد الاقطاعيين، عندما بدأوا يمنحون حق

---

* استغل عضد الدولة صاحب أصبهان ثورة أهل العراق على ابن عمه عز الدولة بختيار فأوعز لجنده الأتراك بخلعه وقبض عليه ودخل بغداد إلا أن أباه ركن الدولة أنكر عليه فعلته فتراجع مؤقتاً من بغداد.

* ظهر بالمغرب مذنب كبير له ذيل وضوء عظيم فظل طالعاً نحو شهر ثم إختفى.

* ثار خلف بن حسين ومعه جمع من البربر بأفريقية على بلكين بن زيرى نائب المعز إلا انهم هزموا وأخذ خلف إلى القيروان وطيف به على جمل ثم صلب.

* ولد بالبصرة قاضي القضاة المصنف البحاثة أبو الحسن الماوردى مؤلف كتاب الاداب السلطانية في السياسة وكتاب أدب الدنيا والدين في الحكم.

* ولد بقرطبة الوزير أبو الحزم جهور بن محمد الذى استقل بقرطبة بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس.

* في الثامن والعشرين من المحرم توفي الخليفة العباسي المخلوع المطيع لله عن ٦٣عاماً وهو ابن الخليفة المعتضد أمه أم ولد تسمى مشعلة تولى خلفاً للمستكفي ودامت خلافته ٢٩ سنة فلج في آخر أيامها.

* ممن توفي في هذه السنة من رجال الحكم: أمير الزاب بأفريقية أبو علي بن غلبون (جعفر

المنفعة لضياع ومقاطعات تابعة للدولة لبعض الافراد الذين قدموا خدمات هامة للعرش ويعرف ذلك بحق الهبة Pronoia الذى انتشر فى أقاليم الامبراطورية. ولقد رأينا كيف أن الامبراطورة ثيودورا آخر حفيدات الاسرة المقدونية، اختارت تحت الحاح حزب البلاط البيروقراطى شيخاً كهلا من السلك المدنى اسمه ميخائيل ستراتيوتيكوس، والذى لم يكن ينتمى لاسرة معينة أو مميزة؛ وكان ذلك الاختيار بمثابة الشرارة التى أشعلت فتيل الصراع بين أرباب القلم وأرباب

بقوة سيدنا المسيح الذى قال: اطلبو اولا ملكوت الله وبره وهذا كله تزادونه. وكان الرب معه ويخلصه من احزانه يوم بعد يوم ولم يقدر الشيطان ان يحيده او يميله الى سلطانه، ولم تميل جوارحه قط يوما الى شيا منها فى هذا للعالم، وكان لا يقدم اسقفا الا من اصطفاه الله قوما صالحين لا يقدر احد يذكر عنهم ما ينكر. الذى اذكر واحد منهم وهو الاسقف القديس انبا جرجه اسقف القيس الذى فعل افعالا حسنة تقبله بفرح

ابن على) وهو بانى مدينة المسيلة بالمغرب، وفيها توفى سبكتكين الحاجب فى يوم وفاة الخليفة المطيع.

سنة ٣٦٥ هجرية

وافق مستهل السنة يوم الجمعة ١٠ سبتمبر ٩٧٥م.

* تولى الخلافة الفاطمية بمصر والشام وأفريقية العزيز بالله (نزار) خلفاً لأبيه المعز وله ٢١ سنة.

* سقط حصن فراكسنيه بإقليم غاليسيا الفرنسى بعد أن ظل ٨٠ عاماً معقلاً عربياً هاماً فى شرق فرنسا وقسمت ممتلكات العرب حوله على الأشراف والجنود الذين اشتركوا فى هزيمة العرب.

* استمرت المعارك فى أفريقية والمغرب بين بلكين الصنهاجى والزناتية الذين طاردهم حتى مشارف الصحراء فاستولى خزرون الزناتى على سجلماسة وأعلن ولاءه للخليفة الأندلسى.

* غزا أمير صقلية أبو القاسم بن الحسن الكلبى مدينة مسينا فأخلاها أهلها وعبر البوغاز إلى أرض إيطاليا فحاصر مدينة كسنتة وأستولى عليها بالأمان ثم استولى على قلعة جلوا بينما

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

روحانيا هذا عند وسمه اسقفا، عندما اعلن روح القدس امره لابونا البطرك، فاخذه واراد ان يقبل نصيبه ولم يرد ذلك، الا ان الله تعالى يعطى هذه الدرجة لمن يختاره، فاظهر للاب البطرك انبا شنوده في المنام ان يصلحه اسقفا، فامن بما راى واخذه قهرا.

ونحن ايضا نذكر لكم عجوبة اخرى لا يجب علينا ان نخفيها، انا كنا قد ذكرنا ذلك الكافر

السيف، ذلك الصراع هو أهم ما يميز تاريخ دولة الروم في الفترة ما بين ١٠٢٥ ـ ١٠٥٧م. فلقد رد الاقطاعيون العسكريون على ذلك الاختيار بوقف امداد الجيش بالمتطوعين من الفلاحين التابعين لهم. ونتج عن ذلك نقص كبير في أعداد قوات الجيش؛ وفي محاولة لسد هذا النقص، لجأ الحزب البيروقراطي الى سد العجز بالجنود المرتزقة من كافة القوميات التي لا ولاء لها الا لرواتبها، والتي كلفت خزانة الدولة نفقات فوق طاقتها؛ فضلا عن أن بعض هؤلاء

تجول أخوه القاسم بالأسطول حذاء شواطئ قلوبرية (كلابريا) فغنم غنائم كثيرة وعاد وأخوه إلى مسينا.

* ثار القائد البيزنطي سقلاروس وأعلن الخلاف واستظهر بابي تغلب الحمداني وصاهره.

* توفي في يوم الجمعة ١٧ ربيع أول بمدينة القاهرة الخليفة الفاطمي المعز لدين الله عن ٤٦ سنة ودام حكمه ٢٣ سنة و١٦ شهر منها ثلاث سنين بمصر.

سنة ٣٦٦ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء الموافق ١٣ أغسطس ٩٧٦م.

* تولى عرش السامانيين الملك الرضى نوح الثاني بن منصور وله من العمر ١٣ سنة خلفاً لأبيه الملك السعيد منصور الأول.

* تزوجت إبنة السلطان عز الدولة البويهي شاه زمان من الخليفة الطائع بالله على صداق مقداره مائة ألف دينار.

* استعاد أبو المعالي شريف الحمداني مدينة حلب بعد حصارها واستئمان بكجور الذي ولاه على حمص فعمرها.

* قبض عضد الدولة على وزير أبيه الفتح ابن العميد وسمل عينيه وجدع أنفه واستصفى أمواله.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

الجنود المرتزقة كان ينتمى الى مذاهب دينية طالما اضطهدتها الدولة،وكان البعض الآخر من قوميات تحمل فى نفسها غلا لدولة الروم وتتمنى زوالها لما أصاب بلادهم من جراء سطوتها.

وخلال هذا الصراع الداخلي بين أرباب السيف والقلم، انتهزت الكنيسة الفرصة، وزجت بنفسها في ذلك الصراع، فقد كان بطاركتها يهدفون الى أن يكون البطريرك امبراطورا، والامبراطور بطريركا عملا بنظرية السيفين، التي كانت تتبناها الكنيسة الكاثوليكية. وفي نفس الوقت

اصطفن ابن اندونه المصرى الذى صار وعا للشيطان فى افكار واضطهاده للاخوة بنى المعمودية، واميرا اسمه يحى ابن عبدالله اشر منه، فبدا ان يعمل السو مثل ابيه، وصار يسعى بالابا الرهبان وثبت عليهم الجزية. وكان ابونا يساله ان يقصر عن ذكر الرهبان امام الامير إذ كان كاتبه، ولم يقبل سواله ولم يكف عن فعله السو، فانتقم الرب لاصفياه منه، وطلعت في كفه الايمن بثرة الذى يمسك بها القلم ويكتب النميمة والسو على

---

* تولى إمار الأندلس الخليفة الأموى أبو الوليد هشام الثانى المؤيد على أثر وفاة أبيه الحكم الثانى.

* شهدت السنة وفاة ثلاثة من سلاطين الدولة الاسلامية، ففى أقصى المشرق توفى الملك السديد منصور الأول بن نوح السامانى وكان على بلاد ماوراء النهر وخراسان، وفيها توفى ركن الدولة البويهى (الحسن بن بوية) عن نيف وسبعين حكم منها بلاد فارس نحواً من ٤٤ سنة، وفيها توفى (٢ صفر) فى أقصى المغرب الخليفة الأموى الأندلسى أبو مطرف الحكم الثانى المستنصر بن عبدالرحمن الناصر، كما توفى بالرملة الزعيم القرمطى الحسن الأعصم بعد فشل غزوة مصر.

* ممن توفى من رجال العلم فى هذه السنة: القاضى المصرى ابن حيوية عن نحو التسعين.

سنة ٣٦٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ١٩ أغسطس ٩٧٧م.

* بدأت فى هذه السنة نواة الامبراطورية الغزنوية بأفغانستان الحالية بعد إستقلال سبكتكين بغزنة وما حولها.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

ابابنا الرهبان وصارت خراجا [دمل]، فاكلت كفه وذراعه جميعا حتى قطعت الاطبا ذراعه. فلما علم انه اذا عاش من بعد قطع ذراعه يكون فضيحة عظيمة منهم من قطعة ومات موتة سو، كما قال اشعيا النبي: «الويل لمن يكتب الشر ويحيد عن احكام الضعفا ويخطف احكام المتواضعين فى الشعب». فلما قبل هذا الجاحد هذا الانتقام من الرب بحق، ولم يقصر ابن المدبر عن افعاله الردية، مثل فرعون في زمانه وبخاص على الابا[ء]

استغلت الكنيسة الكاثوليكية فوضى الصراع الاجتماعى فى القسطنطينية لتشن الحرب على الكنيسة الارثوذوكسية، التى كانت تعتبرها كنيسة مارقة، مطرودة من رحمتها؛ ولذلك عمل بابوات روما على زيادة آلام الدولة الرومية بالضغط على جروحها، وذلك بتأليب الشعوب التابعة لها ـ سواء فى شرق أوروبا أو البلقان أو جنوب روسيا للتمرد عليها، فحرضت الكرواتيين، البلغار، والصرب للقيام بحركات طالبت بالانفصال عنها.

---

* سير الخليفة العزيز بالله الفاطمى باديس بن زيرى الصنهاجي أميراً على الموسم ليحج بالناس وكانت الخطبة للعزيز بمكة.

* دخل عضد الدولة أمير فارس بغداد وخطب له على منابرها بعد أن أخرج منها ابن عمه عز الدولة بختيار ملتجئاً إلى الموصل.

* أقال الخليفة الأندلسى هشام المؤيد بالله وزيره القوى جعفر المصحفي وقبض على أهله وأتباعه وتحفظ على أموالهم.

* جرت معركة فاصلة فى ١٨ شوال من السنة عند قصر الحصن من نواحى تكريت بنى عضد الدولة وابن عمه عز الدولة بختيار ومعه حليفه أبو تغلب الحمدانى فأنهزم وأسر بختيار وفى الثالث عشر من ذى القعدة سار عضد الدولة إلى الموصل وملكها من صاحبها أبى تغلب الذى جلا عنها.

* ممن ولد فى هذه السنة الفقيه المعتزلى ابن مهر يزد، وأمير ديار بكر نصر الدولة بن مروان الذى دام حكمه لها إحدى وخمسين سنة.

* توفي فى هذه السنة سلطان العراق البويهى عز الدولة بختيار بن معز الدولة عن ٣٦ سنة وكان قد خلف أباه قبل عامين ودخل فى نزاع مع ابن عمه عضد الدولة الذى هزمه وأسره ثم أمر بقتله.

خطر النورمان وتزايد قوة المدن الايطالية:

وفي الوقت الذى كان فيه قوى الامبراطورية تخور، كانت القوة البحرية لبعض المدن الايطالية تتزايد؛ اذ أصبحت جنوة والبندقية تمتلكان أساطيل بحرية تحتكر التجارة، وتكتشف طرقا جديدة كانت بداية لثورة في المعرفة البحرية والتجارية، هذه الثورة قادت الى نهضة مدن شمال ايطاليا، فقد أدى النشاط التجارى الى تقدم الحضارة والحياة الفكرية في هذه المدن، وساعدها على

الرهبان الذين فى البرارى ومطالبته لهم بما لا يقدروا عليه، الى ان لم يقدر احدهم يصبر فسقطو في ايدى اسر النكا [اسر الشهوة] وتزوجو وبعدو عن يروشليم المقدسة التى هى برية ابو مقار، وابونا ينظر هذا وقلبه يحترق. وهو مواصل الطلب على الابا وهو يسال الرب ان لا يميته حتى ينظرخلاصهم من هذا الجهاد. وان الله محب البشر السامع لخايفيه صنع عجبا وانتقم لمختاريه من ظالمهم وقطع تنهدهم.

---

* أمر عضد الدولة بالقاء الوزير ابن بقية تحت أقدام الفيلة فقتلته بعد أن كان قد سمله ثم أمر به فصلب على الجسر وهو الذى نظم فيه الانبارى مرثيته المشهورة التى مطلعها: علو فى الحياة وفى الممات.

* ممن توفى فى هذه السنة من علماء الجغرافيا أبو القاسم محمد بن حوقل الذى دامت رحلاته ٢٨ سنة شملت المغرب وصقلية والأندلس و مؤلف المسالك والممالك وهو متداول.

سنة ٣٦٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ١٩ أغسطس ٩٧٨م.

* أمر الخليفة الطائع أن تضرب الطبول ثلاث مرات فى اليوم أمام باب السلطان عضد الدولة وأن يخطب له على منابر بغداد وكلاهما تقليدان لم يكونا إلا للخليفة.

* استلب رجل من الرعاع يسمى قسام الحارثى إمارة دمشق وكان ترابا ونجح فى رد واليين أرسلهما الخليفة العزيز الفاطمى.

* وضع المنصور ابن أبى عامر أساس مدينة الزهراء وجعلها عاصمة لملكه بدلا من قرطبة وأقام قصره فى سره المدينة.

وهذا ما جرى انه لما افتقد الرب الوالي الواصل من خراسان من قبل الملك الى مصر واباد المنافقين، وجا عوضه رجلا اخر ايضا شجاعا قويا مخوفا خاف منه ولاة مصر وصارو معه مثل عصفور في كف طفل، ولم يقدر احد ان يقاوم امره لا قاضي ولا والي ولا صاحب ديوان، ووقعت مخافته في نفوس الكبار والصغار حتى اخوه شقيقه، واذا نظر الى انسان استكبر نهب ماله واذله وينفذ قوما كثير الى مواضع النفي سرا ويفرقهم

ذلك الاستقرار الذى تمتعت به غرب أوروبا فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر، فبفضل النشاط التجارى زاد اتصال هذه المدن بالمشرق الاسلامى، وباتت تتطلع لاستيعاب ممتلكات دولة الروم عن طريق السيطرة على اقتصادها. وكانت الكنيسة الكاثوليكية تبارك ذلك.

أما بالنسبة لممتلكات الروم فى جنوب ايطاليا وصقلية، فقد أصبحت تحت رحمة النورمان. ويرجع تاريخ النورمان الى حوالى عام ١٠١٩م عندما مر أربعون حاجا نورمانديا

---

* مد عضد الدولة أملاكه بعد إستيلاءه على بغداد إلى الموصل وميافارقين وآمد بينما خرج صاحب الموصل أبو تغلب الحمدانى من جهه إلى الشام قاصداً أن يستجير بالخليفة الفاطمى فى مصر.

* لقب الخليفة العزيز الفاطمى وزيره يعقوب بن كلس (وكان يهودياً وأسلم) بالوزير الأجل.

* ولد فى هذه السنة بقرطبة الخليفة الأندلسى عبدالرحمن الرابع حفيد عبدالرحمن الناصر والذى يعرف بلقبه المرتضى الأموى.

* توفى بدمشق أبو القاسم العقيقى صاحب المنشئات وهو الذى إشترى السلطان بيبرس بعد ذلك داره وبناها داراً له ومدرسة وتربة دفن فيها وتعرف بالظاهرية.

سنة ٣٦٩ هجرية

وافق هلال المحرم من السنة يوم الجمعة ٩ أغسطس ٩٧٨م.

* تزوج الخليفة الطائع من إبنة عضد الدولة على صداق مقداره مئتا ألف دينار، وكان القاضى التنوخى وكيلا عن الخليفة واللغوى أبو على الفارسى عن عضد الدولة، وغرض عضد الدولة أن تلد إبنته ولداً يجعله ولياً لعهد الخلافة.

من نساهم واولادهم، وفعل ذلك باخيه شقيقه بغير حشمة، فاطاعه كل احد بخوف ورعدة. فلما ظهر له فعل ابن المدبر الذميم امر باحضاره من الديوان بخزى وفضيحة واجلس عوضا منه رجلا خايفا على نفسه معروف بالخير فى دين الاسلام، فتولا خراج ارض مصر وبدا ان يفعل خير حتى انه جعل كل احد يدعو له وطرح الله فى قلبه ان يفعل خير مع الرهبان وخاصة من امر الجزية، وكانو يباركو الله والاب البطرك ليلا ونهارا ولا يفترو من الشكر

خلال عودتهم من الحج الى بيت المقدس، بجنوب ايطاليا وهم فى طريقهم الى وطنهم فى شمال فرنسا، وراعهم ما شاهدوه، وما حل بهذه المناطق من فوضى وخراب تحت حكم الروم؛ فعقدوا العزم على الهجرة من بلادهم الى هذه المناطق واستيطانها. فبدأوا يتسللون من موطنهم فى شمال فرنسا الى هذه المناطق فى جنوب ايطاليا وصقلية، وبدأوا فى أول الأمر يعملون كجنود مرتزقة فى الحاميات الرومية هناك، حتى تكاثر عددهم وأصبحوا قوة مميزة. وفى سنة ١٠٥٧

---

* نشبت فتنة بين عامة شيراز من المسلمين والمجوس ونهبت دور المجوس فقضى عليها بشدة.

* تولى وزارة عضد الدولة نصر بن هرون وكان نصرانياً خلفاً للمطهر بن عبدالله الذى قتل فى حرب صاحب البطيحة فأمر نصراً بتعمير ما خرب من البيع والاديرة أسوة بالمساجد.

* التجأ القائد البيزنطى المسمى فى المراجع العربية « ورد بن منير» إلى عضد الدولة باذلا طاعته مستنصراً إياه فى قتال منافسيه على عرش الروم وكان قد صاهر من قبل أبى تغلب الحمدانى للغرض نفسه.

* توفى الطبيب ابن زهرون (أبو الحسن ثابت بن إبراهيم الصابى) عم أبى إسحق الصابى الكاتب وذلك عن ٩٦ عاماً من المؤلفات المنسوبة إليه كتاب جوابات ومسائل فى الطب.

سنة ٣٧٠ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ١٧ يونية ٩٨٠م.

* أنفذ الخليفة العزيز بالله الفاطمى قائده بلتكين على رأس جيش إلى الشام فهزم المفرج بن جراح الذى ملك بعض أنحاء فلسطين وعزل قساما الحارثى عن دمشق وحمله معه إلى القاهرة.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

لله على نعمه السابغة عليهم، وعادو الى الديارات مسرعين بقلوب طيبة موضع الاغذية الروحانية، وكانو يشكرو الله لجمع الراعى الحقيقى المسيح لهم وانقاذهم من ايدى الخاطف ابليس. ولما انزل الله غضبه على هذا الظالم، وانه لما عزل عن الخراج امر الوالى ان يعرا [يعرى] من الثياب التى كانت عليه، وأن يلبس ثوب صوف خشن لا يلبسه عبد، ففعل به ذلك وحبس فى موضع ضيق لا يقدر ان يلتفت فيه يمنة ولا يسرة، وجعلت موونته لا تكفيه

اختاروا قائدا وزعيما لهم هو روبرت جيسكار Robert Guiscard الذى سرعان ما دان له كل الجنود النورمان بالولاء؛ وبدأ روبرت وابنه بوهيمند يقوضان الوجود الرومى فى صقلية وجنوب ايطاليا لاقامة دولة نورماندية على أشلائها؛ ولم يكتف جيسكار بذلك، بل تطلع فى أحلامه الى الاستيلاء على القسطنطينية نفسها بقوة السلاح.

خطر القبائل الاسيوية والسلاجقة:

وبينما كانت أوروبا الغربية تنعم بالاستقرار بعد انحسار غارات

---

* خرج الخليفة الطائع للقاء عضد الدولة بعد عودته من همذان عند دخوله بغداد ولم يكن من عادة الخليفة أن يخرج لأحد من الأمراء مما يدل على إنحطاط هيبة الخلافة فى عهد الطائع.

* ولد بمصر الوزير المصنف أبو القاسم المغربى تولى وزارته مشرف الدولة البويهى ومؤلف كتاب السياسة وهو مطبوع.

* شهدت هذه السنة مولد الفيلسوف الطبيب الشيخ الرئيس ابن سينا (الحسين بن عبدالله) بقرية أفشنة بالقرب من مدينة بخارى، أبوه من مدينة بلخ وأمه تسمى ستارة من أفشنة.

سنة ٣٧١ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الخميس ٧ يوليو ٩٨١م.

* فى الرابع من المحرم جرت فى شمال الأندلس المعركة الحاسمة بين المنصور ابن أبى عامر من ناحية وبين القائد غالب بن عبد الرحمن وحليفه راميرو ملك ليون الأسبانى وفيها هزم وصرع غالب كما قتل عدد من فرسان النصارى منهم راميرو من أمراء البشكنس.

* فى ذى القعدة من هذه السنة خرج المكن بردويل (بلدوين) وحاصر جزيرة مالطة

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

الفايكنج والهنغاريين؛ وبعد أن انتظمت أوضاعها السياسية والاجتماعية والدينية، وما تبع ذلك من تقدم ونهضة، كانت الامبراطورية الرومية على وشك الدخول في دوامة الغزوات الاسيوية عليها؛ فما أن اعتلى اسحق كومنين العرش عام ١٠٥٧، حتى لأح في الافق هذا الخطر الذى يذكرنا بخطر هجوم الجرمان على الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادى، مما أدى الى سقوطها في القرن الخامس. ولقد كانت قبائل من الرعاة الاسيويين تسكن سهل آسيا

وهو مغلغل بالحديد، فاذا كان في ايام الصيف اخرج منه وجعل في حرارة الشمس ويدورون وجهة اليها حيث دارت من الغداة في كل نهار الى الساعة التاسعة منه، فدفعات كثيرة يغشى عليه حتى يسقط الى الارض ويصير كالميت، فيضربوه في اوداجه ويقيموه ويجلسوه في الشمس قهرا. واقام في هذا العذاب عدة شهور، وكلمن كان يذكر شره وسو فعله وما ناله الان يتعجبو ويمجدو الله ويقولو كقول داوود: «رايت المنافق يتعالا مثل

فتجهز أبو القاسم الكلبي أمير صقلية فخرج بإسطوله غير إنه رأى أن يرجع مما أطمع فيه بولدوين.

* انفذ السلطان عضد الدولة القاضي ابن الباقلاني إلى القسطنطينية برسالة إلى الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني رداً على رسالة منه إلى السلطان في بغداد.

* أمر عضد الدولة بالقبض على القاضي التنوخي وعزله عن جميع مناصبه لأمر أخذه عليه، وفي الوقت نفسه أطلق كاتبه الأديب أبا إسحق الصابي بعد أن سجنه أربع سنين.

* توفي من رجال الحكم: الحسن بن الأخشيد وكان نائباً لأخيه على إمارة الشام حتى سقوطها في يد الفاطميين، والأمير الزيادى أبو الجيش إسحق ابن إبراهيم توفى بزبيد من اليمن.

سنة ٣٧٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ٢٦ يونية ٩٨٢م.

* في العشرين من المحرم جرت معركة برية وبحرية في مياه إيطاليا الجنوبية بين أوتو الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وأمير صقلية أبي القاسم العلوى وكان الامبراطور قد إستعاد

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

ارز لبنان فجزته فلم يكن وطلبته فلم اجده فى مكانه».

ومن بعد ايام يسيرة انفذ الملك الى ارض مصر واليا على الخراج وكان رجلا صالحا خيرا، ولما وصل فعل الخير واظهر بفعله خوف الله، وطرح الله فى قلب الوالى بكورة مصر ان يكرمه ويبجله ويوقره على كلمن بمصر فى ذلك الزمان، وقدمه ومضى انسان راهب قديس الى مدينة الملك واستعان بقوم نصارى متصرفين اخيار ليعضدوه

الصغرى الاوسط منذ عصور قديمة، وكان أغلبها ينتمى الى أصول أسيوية تركية. ومنذ القرن السادس الميلادى نجح بعضهما فى اقامة مملكة على ضفاف نهر جيحون (نهر الاوكسوس Oxus)، لكن قوات الدولة الاموية التى وصلت الى هذه المناطق فى القرن الثامن الميلادى قضت عليها. وفى العصر العباسى عادت هذه القبائل الى التجمع مرة أخرى، وأقامت عدة ممالك على أطراف الدولة السامانية والدولة الغزنوية، وامتدت هذه الممالك من بعض مناطق

مدينة تارنت فأوقع أبو القاسم بالقوات المسيحية المتحالفة ولم ينج الامبراطور نفسه إلا بمعجزة، وبلغت عدد القتلى وعدد الأسرى عدة آلاف من بينهم عدد من البطارقة والقواد.

* توقف الحج من العراق فى هذه السنة بسبب سيادة الفاطميين على الحجاز والدعاء للخليفة الفاطمى.

* وقعت الحرب بين راميرو الثالث ملك ليون الأسبانى وبين أمير جليقية برمند الذى توج ملكا على البلاد بعد أن أوقع أنصاره الهزيمة بالملك راميرو مما أدى إلى تدخل المنصور ابن أبى عامر.

* تولى إمارة دمشق بكجور التركى خلفاً للقائد الفاطمى بلتكين.

* تولى إمارة صقلية جابر بن أبى القاسم العلوى بعد إستشهاد أبيه.

سنة ٣٧٣ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الجمعة ١٥ يونية ٩٨٣م.

* فى الثانى عشر من المحرم تولى سلطنة العراق وبغداد صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان ابن السلطان عضد الدولة على أثر إعلان وفاته وجاء إليه الخليفة الطائع العباسى معزيا ولقبه تاج الدولة وشمس الملة.

فيما التمسه، وسال الملك بسبب جزية الرهبان وخراجهم ففعل له ذلك بنعمة الله وكتب له سجلا. ووصل الى مصر ولم يعترض احد من الرهبان بجزية، واطلقو النصارى [للنصارى] ان يعدو اعيادهم ظاهرا علانية. وفرح الوالى بالسجل جدا لاجل صلاحه ورافته بالرهبان، وتمم فى الحال امر الملك، وكان يستشهد لكل احد استشهادات من القرآن: ان من يرفض العالم ويسكن الجبال لا يجب ان يلزم بخراج ولا جزية. وكتب سجلا عن

افغانستان الحالية الى أقليم خراسان شمال ايران، وبدأت هذه الممالك تتأثر بتراث هاتين الدولتين الاسلاميتين، وبدأ الاسلام ينتشر فيها على المذهب السنى، ولما سقطت الدولة السامانية فى نهاية القرن العاشر الميلادى ورثت هذه الممالك تراثها، ومما ساعد على تبلور شخصية هذه الممالك الاسيوية، ظهور زعيم قوى من بين ابنائها، وحد شملها، وعمل على نشر الاسلام فيها، وهذا الزعيم هو سلجوق بن دقاق. ومن الملاحظ أن الاسم الأول لهذا الزعيم مزيج من

---

* لجأ بعض زعماء البربر الصنهاجيين وعلى رأسهم أخوة بلكين بن زيرين (زاوى وجلالة وماكسن) إلى الأندلس ورحب بهم المنصور بن أبى عامر فى قرطبة فقادوا الصوائف ودخلوا أرض جليقية وأوقعوا الهزيمة بأهلها وغنموا شيئاً كثيراً وعادوا إلى قرطبة.

* تحرك القرامطة من هجر إلى مشارف بغداد بعد موت عضد الدولة ثم ارتدوا عنها بعد أن صولحوا على مال.

* خرج المنصور ابن أبى عامر إلى الغزو فدخل مملكة ليون وأوقع بملكها واجتمع له من السبى ٣٠ ألفاً وفيها خرب مدينة فروسة.

* تولى إمارة أفريقية المنصور بن يوسف بلكين بن زيرى الصنهاجى ولقبه الخليفة العزيز عدة العزيز بالله.

* اشتد الغلاء فى العراق ومات خلق فى الطرق جوعاً وبلغ الكُرّ من القمح أربعة الاف درهم.

* فى الثانى عشر من المحرم أعلن وفاة السلطان أبو شجاع عضد الدولة (فنا خسرو) البويهى وكان على فارس بعد عمه عماد الدولة ثم انتزع العراق وبغداد من ابن عمه عز الدولة وهو أول من خوطب بالملك شاهنشاه فى الإسلام وخطب له على منابر بغداد بعد

نفسه يثبت امر الرهبان. وعظمت مسرة الاب البطرك بهذه النعمة لاهتمامه بامر الديارات والرهبان وامور البيع. ومن كثر اهتمامه بالبرية المقدسة، اعنى الاب البطرك، اقام في بيعة ابو مقار تذكارا جيدا، وهو انه لما ذكر فعل الرب بالرهبان والبيعة عول على بنا صور حصين على البيعة القتاليكية ففعل ذلك ليكون كهفا وحصنا، بعد السيد المسيح، الذى لا يقاوم، وجمع حجارة كثير ولازم العمل حتى كمل بابراجا وجعل فيه مساكنا

التراث الأغريقى الممتزج بالطابع الاسيوى، لأن اسم سلجوق باللغة الاسيوية لهذا الشعب هو تحريف للاسم الاغريقى سليوقوس Seleucus الملك المقدونى الذى أسس أسرة حاكمة امبراطورية فى الشام الصغرى خلال العصر الهللينستى حتى اسقطها الرومان فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى. وفى عام ١٠٣٤ قاد حفيد سلجوق بن دقاق واسمه طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق شعبه للقضاء على الدولة الغزنوية، التى كانت قد تدهورت،

الخليفة وكانت وفاته بالفالج وذلك حسب رواية فى ٨ شوال من السنة السابقة وله من العمر ٤٨ سنة.

* فى ١٣ شعبان من السنة توفى أمير جرجان السلطان مويد الدولة وذلك بعد مدة يسيرة من وفاة عضد الدولة وله ٤٣ سنة، وكان قد تزوج من إبنة عمه معز الدولة وأنفق فى عرسها ٧٠٠ ألف دينار.

* توفى من زعماء العصر فى ٢٣ الحجة أبو الفتوح بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى أمير أفريقية ومؤسس الدولة الصنهاجية بتونس والمغرب وكان قد وليها من قبل المعز الفاطمى حين إنتقل إلى مصر سنة ٣٦١.

* توفى من رجال الحكم فى هذه السنة: نصر بن هرون وزير عضد الدولة مات قتلا على يد شرف الدولة على أثر توليته لانه كان يسئ إليه فى أيام أبيه.

سنة ٣٧٤ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الأربعاء ٤ يونية ٩٨٤م.

* استنجد راميرو الثالث ملك ليون بعد هزيمته من أمير جليقية بالمنصور ابن أبى عامر على أن يعترف بطاعته له ولكن لم يلبث راميرو أن توفى فتقدم منافسه طالباً نجدة المنصور فى

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

وهزم طغرل بك جيش مسعود الغزنوى فى معركة دانداقان Danda-quan عام ١٠٤٠م. معلنا قيام دولة السلاجقة الاسلامية، ولم يكن فى مقدور الدولة العباسية الضعيفة التى سيطر عليها البويهيون سوى أن تعلن اعترافها بهذه الدولة عام ١٠٤١م، ثم واصل طغرل بك توسيع فتوحاته فى شمال خراسان، فاستولى على خوارزم، وقزوين، وكسرمان، وبلاد الديلم. وفى عام ١٠٥٥م توج فتوحاته بالاستيلاء على تبريز

ومرتفعات فى اقرب مدة، حتى انه كان يعمل مع الفعلة كواحد منهم. وكما كان يعمل وهو اقنوم الدير المقدس كذلك فعل فى تكميل هذا الحصن. وكان هذا الاب شنوده صابر فى كلما يجرى عليه من الشدايد والبلايا ليظفر باجرة ضميره كقول بولس: ان القوة تتم بالضعف. ونزل عليه وجع النقرس فزاد فى الصبر وذكر قول بولس: واذا مرضت فحينيذ انا قوى.

مقابل إعلان طاعته والسماح بحامية إسلامية فى بلاده فأنجده المنصور بجيش اخضع الثائرين عليه.

* أغار القرامطة على البصرة بعد وفاة عضد الدولة فجمع لهم مال أخذوه وأنصرفوا .

* تولى عليان بن ثمال الخفاجى إمارة الكوفة وهو أول من تولاها من بنى ثمال.

* تولى قضاء مصر الفقيه القيروانى ابن حيون وله ٣٤ سنة.

* جرى الصلح بين صمصام الدولة صاحب بغداد وابن عمه فخر الدولة صاحب جرجان.

* توفى بمصر تميم ابن الخليفة المعز الفاطمى عن ٣٧ عاماً ولم يبايع بولاية العهد لانها كانت لأخيه الأصغر نزار الذى عرف بالعزيز بالله، واشتهر منذ حداثته بأنصرافه إلى الأدب.

* توفى على بن كانة قائد السلطان ركن الدولة مات مسموماً بتدبير من الوزير الصاحب بن عباد الذى إستولى على ماله وعلى أعماله.

سنة ٣٧٥ هجرية

أهل شهر المحرم يوم الأحد الموافق ٢٤ مايو ٩٨٥م.

* فى النصف من شهر صفر إقتحم المنصور بن أبى عامر مدينة برشلونة أكبر مدن مملكة

وضعف الاب البطرك ولحقه ضربان فى يديه ورجليه وصار اكثر وقته هكذى، حتى انه صار لا يقدر يكمل القداس ولا يحضر فى ايام الاعياد من شدة الوجع، وما تخلى مبغض الخير عن نصب الفخاخ ومساعدته لمن ينصبها. وكان بعد كمال الحصن لم يصبر الشيطان واقام له وعا يتكلم فيه شيخ غير نصرانى لا مستحق ان يسما يعقوب، صادق قوما من اليهود ومضى الى الوالى الشجاع برقاع كتبها فى الاب البطرك والبيع مملوة نمايما

وأذربيجان. وبذلك فرضت دولة السلاجقة وجودها.

وعلى صعيد آخر بدات قبائل أسيوية أخرى تنتمى الى نفس الأصل، وتعرف البشناق Pechanges تستقر فى وادى الدانوب الادنى، وجنوب غرب روسيا، وبذلك أصبحت المنطقة الممتدة من الدانوب الادنى غربا، الى ما وراء نهر جيحون والدنيبر شرقا، تموج بهذه القبائل الاسيوية التركية الأصل؛ ولقد ساعد على توسعها شرقا أن دولة الروم لم يكن لها حدود ثابتة من ناحية الشرق، بعكس الحال من

أراجون (أرغون) الأسبانية بعد هزيمة أميرها الكونت بوريل فأشاع فيها الدمار والخراب وكان من بين الأسرى نائب بوريل الذى حمل إلى قرطبة.

* بدأ منذ هذه السنة زوال سلطان القرامطة ذلك أن القرامطة أغاروا بزعامة إسحق وجعفر الهجريين وملكا الكوفة وخطبا لشرف الدولة فانفذ إليهم صمصام الدولة جيشين أوقعا بهما الهزيمة فأخليا المدينة.

* استولى الثائران البربريان خزرون بن فلفول الزناتى وزيرى بن عطية على فاس بعد هزيمة المنصور الصنهاجي.

* استولى شرف الدولة على الأهواز ثم على البصرة وكانت لأخيه أبي طاهر تاج الدولة الذى قبض عليه ثم أطلقه.

* وقعت فتنتان فى هذه السنة ببغداد واحدة بسبب ضرائب جديدة فرضت على بعض أنواع الثياب، والثانية بين الديلم بزعامة أسفار بن كردويه انتهت بتثبيت حكم صمصام الدولة.

* أفرج صمصام الدولة عن القائد البيزنطى ورد الرومى وشرط عليه إطلاق عدد كبير من أسرى المسلمين وأن ينزل له عن بعض الحصون وأن يمتنع عن شن الغارات على أرض المسلمين.

وكذب، وسلموها الى قوما قريبين من الوالى لكيما ان يعطيهم السلطان ان يستخرجو منه ما ذكروه في رقاعهم كل سنة ماية الف دينار. ولم يزال هذا الغير نصراني واليهود اصدقاه مواصلين ذلك، فلما بلغ الاب البطرك هذا الحال حزن على هذا الشيخ يعقوب وسال الرب في خلاص نفسه ليلا يغرق في بحار اثامه، ويقول: يا رب لا تجعل الشيطان يهلكه بل نجيه منه ليعرف حقك. وكان يكاتب الاراخنة المصريين بارداعه [بإرداعه] ورجوعه،

ناحية الغرب، حيث كانت مملكة البلغار تقف عازلا بينها وبين قبائل البشناق. ولم يمض وقت طويل حتى تحركت قبائل البشناق تحت زحف فرع آخر من هذه القبائل الاسيوية تعرف بالغز Chuz والكومان، متجهه نحو الأراضي الرومية، ولقد حاولت سلطات القسطنطينية تهدئة الاوضاع سلميا باقامة علاقات تجارية طبيعية مع البشناق؛ بل جندت بعضهم في جيشها كجنود مرتزقة؛ وفي أول الأمر استجاب البشناق لتلك السياسة، ورضوا أن يقوموا بدور الوسيط

---

* في يوم الخميس ٢٦ ربيع الأول ولد بالقاهرة منصور ابن الخليفة العزيز الفاطمى الذى عرف بالحاكم بأمر الله وتولى الخلافة وهو دون الثانية عشرة من العمر.

* ممن توفي في هذه السنة من رجال الحكم: جعفر الكلبى أمير صقلية من قبل العزيز الفاطمي فاستقامت أمورها له واجتمع حول قصره في بلرم (بلرمو) جماعة من الأدباء والعلماء، وفيها توفى الحسن الادريسى آخر أمراء الأدارسة بالمغرب قتل على يد المنصور الصنهاجي، وفيها توفى بزبيد الأمير الزبادى عبدالله ابن إسحق بعد حكم قلق دام أربع سنين، وفيها توفي ابن للسلطان مؤيد الدولة في بغداد فجاء الخليفة الطائع معزيا على غير ماجرى عليه العرف.

سنة ٣٧٦ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الخميس ١٣ مايو ٩٨٦م.

* تجددت الفتن في بغداد بين الأتراك والديلم بالرغم من الصلح الذى تم بين أبناء عضد الدولة الثلاثة (شرف الدولة صمصام الدولة وأبو النصر) وانتهت باستقرار شرف الدولة في بغداد واعتقال أخيه صمصام الدولة في قرية بفارس.

وينفذ الى من يكون من جهته مالا ليقوم بحاله، ويكف عن شره. وكان شره يتضاعف بقوة الشيطان حتى انه كان يفتح فاه بغير خوف الله ويشتم الاب البطرك ويقول كلاما لا ينبغي. فلما نظر الاب انه قد صبر على فعل الشيطان الشرير ومن انطوى اليه من اليهود الكفرة، خاف الاب البطرك قليلا، وكان مخفيا في اعمال الشرق خوفا من الوالي، فلما تم فعلهم طلب الاب البطرك والابا الاساقفة الذين بكورة مصر وكلمن ظفرو به الولاة

التجارى بين الاقاليم الاسيوية النائية في شبه جزيرة القرم Crimea وبين التجار الروس والخزر وما جاورهم. وكان الروم مطمئنين لوجود مملكة البلغار كدرع عازل بينهم وبين البشناق. غير أن هذا الوضع تبدل عندما قام الامبراطور يوحنا الزمسكى بغزو مملكة البلغار، وضمها الى حوزة الامبراطورية، ومن ثم لم يعد هناك حاجز فاصل بين حدودها وبين البشناق. فقد أصبح البشناق هم جيرانها، يتعاملون معها وجها لوجه، وندا لند؛ وقد أدى ذلك الى

---

* تولى إمارة البطيحة (جنوب العراق) أبو الحسن على بن نصر بعد وفاة أخيه المظفر بعهد منه ولقبه الخليفة مهذب الدولة فحمدت سيرته.

* شهدت هذه السنة وفاة واحد من أشهر علماء الفلك وهو الراصد المحقق أبو الحسين عبدالرحمن بن عمر الصوفى عن ٨٥ عاماً مؤلف كتاب صور الكواكب وهو متداولة وقد بلغ عدد النجوم التى رصدها ١٠٢٢ نجماً، كما توفى الفلكى عبيدالله بن الحسن الملقب غلام زحل مؤلف أحكام النجوم.

* توفى عالم اللغة والنحو أبو على الفارسى (الحسن بن أحمد) فى نحو التسعين من العمر مؤلف كتاب الايضاح والجواهر فى النحو (وقيل بل توفى فى السنة التالية).

سنة ٣٧٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء ٣ مايو ٩٨٧م.

* جلس الخليفة الطائع لشرف الدولة جلوسا عاماً ببغداد حضره أعيان الدولة وخلع عليه بعد أن ضربت القباب على شاطئ دجلة وزينت الدور على الجانبين.

احتكاكهم بها؛ وهنا طويت صفحة السلام بينهم وبين الدولة الرومية. ففي القرن الحادى عشر عبر البشناق نهر الدانوب ووصلوا الى شاطئه الجنوبي، وتقدموا حتى وصلوا الى مدينة أدرنة Hadrianopolis، بل وصلت طلائعهم الى مشارف القسطنطينية ذاتها، وهناك الحقوا هزيمة مهينة بجيش الامبراطور قنسطنطين التاسع مونوماخوس، واضطر لعقد صلح معهم، مقابل ثمن باهظ، وهو منحهم أراضي في البلقان للاقامة فيها، والانعام على زعمائهم

في الطريق غرموه المال. وكانت الولاة من الغز ومنظرهم مخوف مبغضين للنصارى، وكانو يصهلو على النسا مثل الخيل ويخطفو اولاد الناس وينجسوهم بغير خوف وينهبو مواشيهم ويذبحوها وياكلونها، واكثر طعامهم لحم الخيل ومداومة الاكل والشرب والفسق، فنظر الرب الرحوم الى سو فعلهم انزل في قلب الوالي تاديبهم، حتى ان من هيبته ونظرهم اليه وهو يقتل كبارهم وينهب اموالهم فلزمهم خوفه والا كانو يهلكو الناس،

---

* وصلت رسل الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني إلى الخليفة العزيز الفاطمي بالقاهرة حاملين الهدايا وطالبين عقد هدنةوكان العزيز قد أعد أسطولاً لغزو الروم فأجابهم واشترط شروطاً منها إنه لا يبقى على أرض الروم أسير من المسلمين وأن يخطب للعزيز في جامع القسطنطينية كل يوم جمعة فضلا عما يحمل إليه من الهدايا النفيسة ومدة الهدنة ٧ سنين.

* في الأندلس استولى المنصور ابن أبي عامر على قلمرية (كولميرا) المطلة على المحيط في شمال البرتغال دخلها ثم سار إلى مملكة النافار وصد غارة ملكهم سانشو وطارد جيشه حتى عاصمته بنبلونة.

* أخذ المنصور الصنهاجي أمير أفريقية يتحرر من تبعيته للخليفة الفاطمي فسار إلى أنصاره من كتامة وأوقع بهم وخرب عاصمتهم ستيف وقتل داعية الخليفة أبا فهم وسلخ جلده تشفياً فيه.

* توفيت في هذه السنة الفقيهة الحاسبة ستيتة أمة الواحد بنت القاضي أبي عبيدالله المحاملي وأم القاضي أبي الحسين محمد المحاملي وكانت تحدث وتفتي.

* توفي قسام الحارثي الثائر الذى تزعم جماعة من الرعاع واستولى على دمشق قبل أن يهزمه جيش الخليفة العزيز ويرسله مقيداً إلى القاهرة وفيها توفي في هذه السنة.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

لانهم كانو قد فعلو افعالا منكرة تضيق السيرة عن شرحها وصعوبتها. وكانو الابا الاساقفة من شدة الخوف يتزايو بزى العلمانيين ويغيرو لباسهم ويمشو رجالة [على أرجلهم] بغير دواب حتى يمضو الى [الحاجات] التى يريدوها، وامر هولا يتزايد. وكان الرب قد ستر على الاب البطرك من ترتيب هولا الذين رفعو عليه يعقوب واليهود مثلما قال اشعيا النبى: «بان موامرة الاشرار بغير الناموس سكرو فيه وهلكو الاطهار بكلام الظلم».

بالقاب رومية رفيعة. غير أنه لم يمض وقت طويل حتى عاودت هذه القبائل الزحف على حدود الامبراطورية بعد أن انضم اليها جحافل من أبناء عمومتها من الغز والكومان، والمزيد من البشناق، وحتى بدت امبراطورية الروم بين شقى الرحى، بين مطرقة البشناق وسندان السلاجقة.

العلاقات بين الروم والسلاجقة قبل معركة منزكرت:

فى أول الأمر أغمضت القسطنطينية عيونها عن فتوحات

سنة ٣٧٨ هجرية

وافق هلال المحرم يوم السبت ٢١ إبريل ٩٨٨م.

* أمر السلطان شرف الدولة ببناء مرصد ببغداد تولى العمل فيه الفلكى ابن رستم الكوهى.

* فى الأندلس خرج المنصور ابن أبى عامر للغزو فبعد أن عبر نهر دويرو ودخل مملكة ليون وهاجم عاصمتها واقتحم أسوارها خربها وكان ملكها قد تمرد على الحامية الإسلامية. بها وكان ذلك شرطاً لمساعدته وتوليه عرش ليون، ثم سار المنصور إلى سمورة التى لجأ إليها الملك واستولى عليها فهرب منها الملك سراً.

* أهدى الصاحب بن عباد وزير السلطان فخر الدولة السلطنة ديناراً زنته ألف مثقال نقشت على أحد وجهيه قصيدة فى فخر الدولة.

* اشتدت العواصف والرياح فجرفت دجلة وأغرقت كثيراً من السفن عليها وهددت منارة مسجد فم الصلح بينما اشتد الحر خلال شهر تموز فكان الناس يتساقطون موتى فى الطرقات، بينما إنتشر الوباء فى البصرة.

* عزل الخليفة العزيز الفاطمى نائبه على دمشق بكجور التركى بعد أن أعلن العصيان ولكنه هزم وهرب إلى الرقة.

اسمعو الان هذه العجوبة كما قال السيد [المسيح]: ان ابواب الجحيم لا تقهرها. وابواب الجحيم هى رووسا الشر، وكان اوليك الذين رفعو على الاب والبيع لا يقدرو من هيبة الوالى ان يتقدمو اليه، لكن واحد من كتابه المقدمين عنده كان يكتب عنه بطلب الاب والاساقفة، ومن بعد ايام ظهر للوالى ان ذلك الكاتب العانى [المكلف] بهولا الرفاعين يزور عنه الكتب بغير امره، فاخذه بغضب شديد ونهب جميع ماله وامر بحلق لحيته

السلاجقة فى اقليم خراسان ومنطقة بحر قزوين ابان القرن العاشر الميلادى، لكن عندما توغل ابراهيم ينال شقيق طغرل بك فى أراضى القوقاز، واجتاح طرابيزون Trebi-zond، وارز روم Erzerum، واسر ملك أبخازيا أحد الملوك المتحالفين مع الروم، وذلك فى عام ١٠٤٨م نفسذ صبر الامبراطورية، فتحرك الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس ليحد من هجوم السلاجقة؛ وأجرى فى عام ١٠٤٩م مفاوضات مع طغرل بك من أجل اطلاق سراح ملك الابخاز،

---

* منى القرامطة بهزيمة جديدة على يد الأصيفر من بنى المنتفق.

* قبض السلطان شرف الدولة على شكر الخادم أخص خاصة أبيه عضد الدولة وعزم على قتله فشفع له فيه فخرج إلى مصر وفيها قربة الخليفة الفاطمى وأصبح له شأن فى دولته.

سنة ٣٧٩ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ١١ ابريل ٩٨٩م.

* تولى أبو نصر فيروز شاه بن عضد الدولة عهد أخيه شرف الدولة وهو على فراش موته وخلفه فى حكم العراق وخلع عليه الخليفة الطائع ولقبه بهاء الدولة وضياء الملة.

*قضى المنصور ابن أبى عامر صاحب الأندلس على مؤامرة للوثوب عليه إشترك فيه إبنه الأكبر عبدالله وأمير سرقسطة عبدالرحمن التجيبى فأقال عبدالرحمن وأقام ولده يحيى مكانه ثم قبض على الأب وحاكمه وأعدمه، وقبل نهاية العام أوقع بسانشو ملك النافار بسبب احتماء ابنه عبدالله به مما اضطره إلى إطلاقه.

* قطع ابن ا لجراح الطائى طريق الحج عند فيد فصالحوه على ٣٠٠ ألف درهم وشى من الثياب أخذها وانصرف.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

وقـيـده بالحـديد وخلده فى السـجن. فلمـا راو المفسدين ذلك مع رجاهم به افتضحو وتم عليهم قـول اشـعـيـا النبى: «لتـهلك الخطاه ومـخـالفى الناموس معا والذين تخلو عن الرب فانهم يخزو». ومن بعد قليل اهلك الله يعـقـوب الغيـر نصـرانى واليهودى صديقه وماتو موتة سو كما قال داوود: «جاهل وغير فهم يهلكان جميعا». وكلمن شاهد انتقام الرب من معاندى البيعة يتعجب ويمجد الله. ولما بلغ ابونا مـوت يعقـوب حـزن قلبـه لموته قـبل

مقابل تعهد من الامبراطور نفسه بأن يعمر مسجد القسطنطينية لتقام فيه صلاة الجمعة، وأن يدعى لطغرل بلك من على منبره.

وعلى صعيد آخر كانت هذه الدولة السلجوقية السنية تشعر بعداء شديد نحو الدولة الفاطمية الشيعية في مصر، وتطمع في احتلال ممتلكاتها في الشام، بل والزحف على مصر لاقتلاع جذور الفاطميين؛ غير أن الدولة الفاطمية وقتذاك كانت على وفاق مع دولة الروم، فقد كان يجمعهما قارب واحد وهو العداء نحو

---

* دام القتال ١٢ يوما ببغداد بين الأتراك والديلم حتى تدخل بهاء الدولة وشرع فى الصلح بينهم.

* لجأ أبو إسحق أحمد ابن الخليفة الطائع إلى البطيحة محتميا بصاحبها مهذب الدولة وعاش في ضيافته حتى أتته الخلافة بعد ذلك فجعل شعاره لهذا السبب «حسبنا الله ونعم الوكيل».

* ثارت قبائل كتامة ثانية على المنصور الصنهاجي بقيادة أبى الفرج فسار المنصور إلى سطيف عاصمتهم وقضى على الفتنة كما قضى فى السنة نفسها على ثورة عمه أبى النهار.

* فى مستهل جمادى الآخرة توفي السلطان أبو الفوارس شرف الدولة صاحب العراق وتولاها بعد أبيه عضد الدولة ونازعه أخوه صمصام الدولة الذى سملت عيناه، توفى عن ٢٩ عاماً بمرض الاستسقاء وحمل إلى مشهد الإمام على ودفن به.

سنة ٣٨٠ هجرية

وافق هلال المحرم يو الاثنين ٣١ مارس ٩٩٠

* بدأ الخليفة العزيز بالله الفاطمى بناء مسجده فى القاهرة الذى يعرف اليوم باسم إبنه الحاكم وهو الذى إستكمل البناء وافتتحه للصلاة بعد نحو ربع قرن من هذا التاريخ.

الدولة العباسية، كما أن خطر السلاجقة كان يهدد الدولتين معا. ولهذا أراد طغرل بلك أن يختبر صدق نوايا الامبراطور قسطنطين التاسع بعد عقد الاتفاق السابق، فطلب منه أن يسهل عبور قوات سلجوقية الى الشام للاستيلاء على بعض ممتلكات الدولة الفاطمية وربما فتح مصر، غير أن امبراطور الروم الذى كانت تربطه صلات مودة وصداقة مع الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، رفض الغدر بصديقه؛ فقد كان وجود الدولة الفاطمية أمرا مفيدا للاستراتيجية

توبته وبكا عليه. وكان الاب يقول عن يعقوب النصرانى الرب يغفر له وينيح نفسه حتى كان كلمن سمعه يتعجب. ولما رأى مبغض الخير ذلك لم يصبر ان يدبر فتنا وانه اثار فتنة اخرى وصنع سوا نحن نذكره ولهذا كتب بولس فى رسالته لاجل هذه التجارب: انكم تكونو تعلمو ان فى الايام الاخيرة يكون زمان سوء تحب الناس نفوسهم ويحبو الفضة متكبرين فاجرين شتامين غير مطيعين لابايهم غير شاكرين غير انقيا غير رحومين غير

---

*ظهرت فى هذه السنة إمارة آل مروان الأكراد فى ديار بكر على يد مؤسسها أبى على الحسن مروان.

* فترت العلاقة بين الطائع والسلطان بها الدولة البويهى الذى أخذ فى الكيد له.

* زحف زبو الذواد (محمد بن المسيب العقيلى) على الموصل واستولى عليها من الحمدانيين ولم يلبث أن استعادها بهاء الدولة.

* فى ١٤ جمادى من العام ضربت بقرطبة عنق الأمير عبدالله الابن الأكبر للمنصور ابن أبى عامر لتآمره على أبيه والتجاءه إلى ملك النافار الأسبانى الذى أوقع به المنصور.

* توفى فى هذه السنة الوزير المصرى اليهودى يعقوب ابن كلس عن ٦٢ عاماً ، هرب إلى مصر وأسلم على يد كافور ثم هرب إلى تونس ودخل فى خدمة المعز وحسن له فتح مصر وصحبه إليها وتولى وزارته ووزارة ابنه العزيز وخلفه أبو عبدالله الموصلى.

سنة ٣٨١ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة ٢٠ مارس ٩٩١م.

* فى ١٢ رمضان من السنة تولى الخلافة العباسية أبو العباس أحمد القادر بالله ابن إسحق ابن الخليفة المقتدر، أمه أم ولد إسمها دمنة، خلف ابن عمه الطائع الذى خلع نفسه وعاش

ثابتين شياطين لا يصبرو ولا يقبلو التعاليم ولا يحبو الخير، اشدا غليظى الرقاب محبين للشهوات اكثر من حبهم لله. فجعل الشيطان هذه الخصال كلها في قوما اخصهم اوعية لنفسه وجعلهم الة له، وقدمنا ذكرهم، وسلطهم على الرفيعة [الوقيعة] على الاب البطرك، وكانو كما قال بولص الرسول: قوما اردیا فی قلوبهم خوالی من الامانة فلم يتم لهم فعلهم، فمن هولا قس راهب من دير الهنانطون دخل الى مصر [الفسطاط] وكتب

الرومية. ولقد أثار هذا الرفض شكوك طغرل بك في أن تتحول هذه الصداقة بين الفاطميين والروم الى تحالف مشترك ضد الدولة العباسية المتدهورة، وقد أدى هذا الرفض الى نقض اتفاق السلام، وشرع طغرل بك في الاغارة على أراضى امبراطورية الروم الواقعة بين بحيرة فان، ومدينة أرزروم، وضرب حصارا حول حصن منزكرت (أو ملاذكرد)، لكنه لم يستطع الاستيلاء عليه.

وردا على هذا التحالف بين القسطنطينية والقاهرة، تحرك الخليفة

الخليفة الجديد قبل توليته مستتراً عند صاحب البطيحة، والقادر هو ثالث خليفة عباسى لم يكن أبوه خليفة.

* قبض السلطان بهاء الدولة على الخليفة الطائع طمعاً في أمواله بتدبير من وزيره أبي نصر فأنزله من سريره وأجبره على خلع نفسه ولجأ إلى مهذب الدولة صاحب البطيحة .

* تولى إمارة حلب وحمص أبو الفضائل سعيد الحمدانى خلفاً لأبيه سعد الدولة.

* عزل الخليفة الفاطمى المنصور بن باديس الصنهاجى من ولاية أفريقية بعد أن طمع فى الاستقلال بها وتولى عليها أبو عبدالله محمد بن أبى العرب.

* توفى فى هذه السنة من أمراء الولايات: سعد الدولة الحمدانى صاحب حلب وحمص وابن سيف الدولة وحمل جثمانه إلى الرقة ودفن بها وخلفه إبنه سعيد الدولة، وفيها توفى بمصر جوهر الصقلى قائد المعز الفاطمى وأول الأمراء الفاطميين عليها و مؤسس مدينة القاهرة والجامع الأزهر والقصر الكبير، وفيها توفى بكجور التركى أمير الشام من قبل الخليفة العزيز الفاطمين إلى أن أعلن التمرد فهزم وقتل فى هذا التاريخ.

* عاصر خلافة القادر العباسي التى إمتدت نحو نصف قرن: فى الأندلس المؤيد بالله هشام ابن الحكم، ولكن السلطان للمنصور ابن أبى عامر، وفى مصر الخليفة العزيز بالله الفاطمى، وفى حلب أبو الفضائل سعيد الحمدانى، وفى المشرق نوح السامانى، وفى فرنسا لوثير ثم

رفايع فى البطرك وسلمها للولاة، فلما راه الشيطان وقد تزايا بهذا طرح فى قلب خواص ذلك الامير الوالى ان اخذو منه الرفايع ودخلو بها اليه، فامر ان يلازم الباب الى ان يسال عنه، فاقام عنده ايام ولم يريد الرب ان يغرقه فى بحار الخطية، فطرح فى قلوب المومنين ان يردعوه عن جهله ويحيدوه عن ابواب الولاة ولا يكبر [يكيد] فى الاب، فاحتشم من كشرة تبكيت اوليك المومنين له، فمضى وطلب بعد ذلك ولم يوجد ولا عرفو له

العباسى القائم بأمر الله، فأرسل دعوة لاستضافة طغرل بك فى بغداد، فوصل اليها فى نهاية عام ١٠٥٥م، حيث استقبل استقبال الفاتحين، وكبطل منقذ للمذهب السنى، وسلم الخليفة العباسى الضعيف زمام دولته المتدهورة للبطل السلجوقى، ليفعل بها ما يشاء، فقام على الفور باسقاط دولة بنى بويه، وهرب قائد جند الاتراك البساسيرى، الذى كان يسيطر على الخليفة، وتم احياء الخلافة العباسية وتمكينها من زمام الامر.

ولقد كان دخول طغرل بك بغداد

لويس الخامس، وفى انجلترا ايثلرد الثانى، وتوفى فى نفس العام إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة شارل السمين.

سنة ٣٨٢ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الأربعاء ٩ مارس ٩٩٢م.

* أغار إمبراطور الروم باسيل الثانى على أرمينية وحاصر مدينة خلاط وانتهى إلى عقد هدنة مع ابن مروان صاحب ديار بكر.

* سلم السلطان بهاء الخليفة الطائع المعزول إلى خليفته القادر بالله الذى أحسن وفادته ووكل به من ثقات جنده من يقوم بخدمته.

* شغبت الجند ببغداد وطلبوا تسليمهم أبا الحسن الكوفى المعروف بان المعلم متولى بغداد الذى أصبحت أمور الدولة فى يديه فقبضوا عليه وسقوه السم مرتين ثم قتلوه خنقاً.

سنة ٣٨٣ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ٢٦ فبراير ٩٩٣م.

* كادت الدولة السامانية أن تسقط بعد ثورة اثنين من مشاهير قوادها هما ابن سيمجور

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

موضعا الى هذا اليوم. فقلق الشيطان وتزايد غضبه ومضى الى الغير شماس باعمال البشمور، وكان قد لبس لباس الرهبان ثم نزع هذا اللباس، فملا قلبه شرا واضمر ان يتم ما قاله القس الذى بعد، وكان الشماس يشبه القس، ومن يراه يقول هو ذلك القس الرفاع، فلما ظهر للولاة لم يشكو انه القس، فقالو له: اين كنت من تلك الايام وقد تقدم اليك بملازمة الباب الى ان تنجز ما سالت فيه وفيه خط السلطان، فمن تلك الساعة كتب له

انتصارا سياسيا لدولة الأتراك السلاجقة، جعل القسطنطينية تعيد حساباتها فى علاقاتها الخارجية، فضحت بعلاقات حسن الجوار مع الدولة الفاطمية التى ساءت علاقاتها معها، فقد انشغل الفاطميون عن صداقة الروم خلال الأزمة الاقتصادية التى تعرضوا لها، والتى أدت الى تقلص نفوذهم فى الشام، فضلا عن انشغالهم بالزحف السلجوقى على العراق والشام، ففى عهد الامبراطورة العجوزة ثيودورا توقفت الصداقة الرومية الفاطمية تماما، بل انقلبت الى

وفائق الخاصة واستيلاء بغراخان الايلكخانى على بخارى غير أن الملك نوح السامانى بعد وفاة بغراخان فى السنة التى سبقت نجح فى إسترداد بخارى والقضاء على الثورة.

* فى ليلة الفطر من هذه السنة توفى الخليفة المطيع لله العباسى (ابن الخليفة الطائع) وكان قد خلع نفسه تحت تهديد السلطان بهاء الدولة ونهبت داره وعاش فى كنف ابن عمه الخليفة القادر لحين وفاته.

سنة ٣٨٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ١٥ فبراير ٩٩٤م.

* مازال خطر القرامطة ماثلا على طريق الحج حتى انه لم يحج أحد فى هذه السنة من العراق.

* استعان الملك السامانى نوح بصاحب غزنة سبكتكين فى حربه مع الثائرين عليه فانتصرت جيوشهما بغرب هراة واستعاد نوح نيسابور عاصمة خراسان فمنح حليفه لقب ناصر الدولة.

* جرت معركة عند واسط بين بهاء الدولة وصمصام الدولة وكان النصر فيها للأول.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

سجلا عظيم وسير معه من الجند اصحاب الخيل عدة ومضو معه الى الموضع الذى كان فيه ابينا البطرك القديس مخفيا، وكان هذا الامر من قبل ان يعلم احد من الناس ولا من الكتاب بالباب، لانه كان قد سال ان يكتب له سجلا ولا يثبت بالدواوين خوفا ان يشهر امره ولا يظفر بحاجته، فقبض عليه وحمله الى مصر فلما سمع الاراخنة والشعب مصر هذا الخبر وان البطرك قد وصل الى مصر [الفسطاط] مقبوضا عليه نالهم حزنا شديدا

عداء على عندما استقبلت الامبراطورة مبعوثا موفدا من قبل السلطان السلجوقى طغرل بك عام ١٠٥٥م، وامرت بأن يدعى من على منبر جامع القسطنطينية فى خطبة الجمعة للخليفة العباسى والسلطان السلجوقى معا.

اباطرة أسرة دوقاس:

١ - الامبراطور اسحق كومنينوس (١٠٥٧ - ١٠٥٩م).

كان اسحق كومنينوس Isaac Commnenos فى الأصل زعيما لأرباب السيوف، ومن كبار الأسر

---

* ولد بقرطبة فى اليوم الأخير من شهر رمضان الفيلسوف ابن حزم صاحب التصانيف، منها الفصل فى الملل والأهواء والنحل.

* توفى الأديب المنشئ أبو إسحق إبراهيم بن هلال الصابى.. عن إحدى وسبعين وكان على ديوان الرسائل لمعز الدولة البويهى له رسائل الصابى مطبوعة متداولة.

سنة ٣٨٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٥ فبراير ٩٩٥م.

* فى منتصف ربيع الثانى أوقع المنصور ابن أبى عامر بملك النافار الكونت غرسيا فوانديز الذى جرح وأسر ولم يلبث أن توفى فخلفه ابنه سانشو على أن يدفع جزية سنوية للمسلمين.

* تحركت القرامطة صوب البصرة فاستعد لهم بهاء الدولة فانصرفوا عنها

* ولى فخر الدولة البويهى وزيرين له فى وقت واحد على أن يتبادلا التوقيع يوماً بعد يوم هما أبو العباس الضبى وأبو على بن حمويه.

* شهدت هذه السنة (على الأرجح) مولد مؤسس دولة السلاجقة الكبرى وهو أبو طالب ركن الدين طغرل بك بن ميكاييل بن سلجوق.

* توفى الفلكى أبو عبدالرحمن العتقى له النجوم وأحكامها توفى بمصر.

وكذلك ايضا حزنو جدا وكانو خايفين من هذا الشماس. فلم يظهر احد منهم وكان الاب تحت الوجع من الضربان والنقرس الذى كان اصابه. فلما اقلقه السفر والطلب والقلق تزايد به اكثر، وعند وصوله امر الوالى بطرحه فى السجن مع المعتقلين اللصوص والقتلة وفعلة السو، فكان يحمل فى محفة على رووس اربعة من غلمانه الى ان قذف به فى الموضع الضيق، فنال تعب عظيم. وسمع اخباره جميع الناس النصارى والمسلمين

الاقطاعية فى آسيا الصغرى، قاده رفاقه جنرالات الجيش بالقوة ليخلع ميخائيل ستراتيوتيكوس الكهل، رجل حزب أرباب القلم، والذى كان حزب البلاط قد أجبر الامبراطورة العجوز ثيودورا على اختياره خليفة لها قبل موتها؛ ولما لم يكن ميخائيل ستراتيوتيكوس ينتمى لأسرة معينة، ولهذا أعتبر خاتمة الأسرة المقدونية.

ولم يكن العسكريون وحدهم الذين حملوا اسحق كومنينوس على الأعناق، بل ساعده كذلك صديقه قسطنطين دوقاس Constantinos

---

سنة ٣٨٦ هجرية

وافق هلال المحرم يوم السبت ٢٥ يناير ٩٩٦م.

* شهدت السنة وفاة الخليفة الفاطمى العزيز بالله ثانى الخلفاء الفاطميين بمصر، وتوفى بالقاهرة فى ٢٨ رمضان عن ٤٣ سنة بمرض النقرس بعد حكم دام نحواً من عشرين سنة وكان فى طريقه لغزو الروم.

* بدأت الخلافة الفاطمية بمصر فى هذه السنة مرحلة جديدة حين تولى أبو على منصور الخلافة بعد أبيه الخليفة العزيز بالله واشتهر بلقبه الحاكم بأمر الله، وهو مصرى المولد والدار والمنشأ والثالث بعد جده المعز من خلفاء القاهرة والسادس منذ خلافة المهدى بافريقية تولى وله من العمر ١٦ سنة.

* تبادل إمارة البصرة فى هذه السنة نواب صمصام الدولة البويهى ثم مهذب الدولة صاحب البطيحة.

* تولى فى هذه السنة المنصور بن يوسف بلكين الصنهاجي إمارة أفريقية من قبل الحاكم الفاطمى خلفاً لأبيه وهو الذى غزا جزيرة سردينية، كما تولى عمه حماد ابن يوسف ولاية أشير وهوجد بنى حماد.

* تولى إمار الموصل حسام الدولة المقلد العيلى خلفاً لأخيه أبى الذواد.

وكان الوالى قد امر ان لا يدخل اليه احدا من ساير الناس الا تلميذ واحد ياتى اليه بطعام وقت الحاجة اليه، ولا يمكن من الحديث معه والوصية له بما يريد، بل كانو المتوكلين بالسجن ياخذو منه الطعام الذى ياتى به التلميذ فياخذو منه ما يريدو ويدفعو له ما يريدو مما بقى منه. وكان الذى يصل اليه ينال منه نزرا يسيرا فى كل ثلثة ايام ثم يناول الباقى الى القوم المعتقلين معه. وكان الله الذى لا يطرح [لاينسى] من يعبده قد طرح فى قلب المسجونين

Ducas زعيم التجار فى العاصمة، وممثل الرأسمالية الارستقراطية المتحالفة مع الكنيسة. فقد كان متزوجا من ابنه شقيق البطريرك الشهير كيرولاريوس Kerularios، بل أن شقا من أرباب القلمن، ممن كانوا على علاقة وثيقة بقسطنطين دوقاس ويتزعمهم المفكر والفيلسوف ميخائيل بسيللوس، انضموا الى الثوار الاقطاعيين فى آسيا الصغرى مستنكرين سيطرة رجال البلاط، وموظفى القصر فى اختيار مرشح الامبراطورة العجوز، وشارك رجال

---

* توفى أمير أفريقية البربرى المنصور بن يوسف بلكين الصنهاجي وخلفه ابنه أبو مناد باديس.

سنة ٣٨٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ١٢ يناير ٩٩٧م.

* توثقت الصلة بين دولة الغزنويين الناشئة وشاهات خوارزم بزواج على ابن مأمون صاحب خوارزم من أخت يمين الدولة محمود الغزنوى.

* تولى إسماعيل بن سبكتكين عرش الغزنويين خلفاً لأبيه غير أن أخاه الأكبر يمين الدولة محمود نازعه هذا الحق وانتهت المفاوضات إلى مجابهة عسكرية.

* دخل الأمير عبدالملك بن المنصور بن أبى عامر مدينة فاس بعد أن عبر البحر إلى المغرب من الأندلس وتولى أمرها فترة.

* استولى الخليفة الحاكم الفاطمى على سواحل الشام وضم الثغور إلى حكمه، وفى القاهرة هرب وزيره أمين الدولة الحسن بن عمار الكتامى إلى الصحراء بعد سنة واحدة من توليه الوزارة وخلفه برجوان الخادم.

له المحبة والرعاية، وكانو يخدموه كخدمة المماليك لساداتهم، ويحملوه الى المكان الذى يريق فيه الما ويعيدوه الى موضعه برفق. ومن شدة ما لقيه من الضيق كان يشكر الله ويدعو اليه ان ينيح الاساقفة ليلا ينالهم ما ناله، ولا يطرحهم فى ذلك الضيق الشديد، لان السجل الذى قد كان كتبه الوالى لذلك الغير شماس يتضمن القبض على الاساقفة ويسيرهم الى مصر. فلما طرح الاب البطرك فى السجن عاد الرافع وخرج الى جميع بلاد أرض

النقابات الحرفية فى الثورة عندما قاد التمرد العسكريون من القسطنطينية، وهكذا سقط الامبراطور ميخائيل ستراتيوتيكوس، وحمل اسحق كومنينوس على أسنة الرماح ليجلس على العرش، معلنا أنه أخذ العرش بحد السيف عام ١٠٥٧م، وتخليد لذلك سك عملة ذهبية ظهر على وجهها وهو يمسك بالسيف، رمز انتصار حزب الاقطاع العسكرى. وكان هذا دليلا على أن حزب أرباب القلم والبلاط قد أبعد عن الحكم والتحكم، غير أن هذا الحزب لم

---

* دخل المنصور ابن أبى عامر مدينة شنت ياقب (٢ شعبان) المقدسة التى تطل على خليج بسكاى على رأس جيش كبير يعاونه اسطول بحرى وتعتبر الحد الأقصى الذى بلغه الفتح الإسلامى فى أسبانيا.

* شهدت السنة وفاة عدد من كبار رجال الحكم من سلاطين وأمراء منهم: السلطان صمصام الدولة المرزبان أبو كاليجار ابن عضد الدولة البويهى الذى كان على العراق وغلب عليه أخوه شرف الدولة وسمل عينيه وحبسه وتوفى ببعض نواحى فارس اغتيالا وذلك عن ٣٤ عاماً، وفيها توفى بالرى ابن عمه السلطان فخر الدولة ابن ركن الدولة توفى مسموماً كما سم ولداه فى هذه السنة فاستعاد قابوس بن وشمكير حكم طبرستان والرى، وفيها توفى الحسن بن مروان الكردى صاحب ميافارقين مات مقتولا على أبواب آمد.

* توفى ببخارى فى ١٣رجب الملك السامانى أبو القاسم نوح بن منصور عن ٣٤ عاماً حكم منها ٢١ سنة وخلفه إبنه منصور وبموته اختل ملك السامانيين، وفيها توفى بنواحى بلخ السلطان ناصر الدولة سبكتكين صاحب غزنة بعد حكم دام ٢٠ سنة وعهد لابنه الأصغر إسماعيل.

* توفى المؤرخ المصرى ابن زولاق عن ٨١ عاماً (الحسن بن إبراهيم) تولى ديوان المظالم فترة، اشتهر بكتبه: قضاة مصر، خطط مصر، مختصر تاريخ مصر وجميعها متداولة.

يقضي عليه نهائيا، وظل خارج الحكم يعمل في الخفاء ليعود اليه، مما سبب احدى المشاق التي واجهها اسحق كومنينوس.

ولقد كان اسحق كومنينوس موزع الولاء والعواطف بين الذين ساعدوه ونصروه، وبين الواجب الذى يتحتم عليه القيام به لانقاذ الامبراطورية، حتى ولو كان ذلك ضد مصلحة هذه العناصر. ولكن الواجب انتصر على العواطف في النهاية. فبعد اقصاء حزب البلاط أعطى

مصر اعلاها واسفلها وقبض على جماعة من الاساقفة قبل اشتهار امره. وكان اذا قبض على احدهم يشهره لانه كان ينزع عنه الثياب ويلبسه غيرها ولا يدع عليه من لباسه الا القلنسوة الذى يلبسوها الرهبان، ويركبهم الدواب بغير سروج ويهزو بهم قدام اهل البلاد. وكان قوما منهم هربو وقوم وقعو في يديه فصانعوه عن نفوسهم وهربو.

واقام ابونا انبا شنوده في هذا الضيق اربعين يوما، فاطلع الله على صبره وشدة ما ناله من

---

* توفي العالم الموسوعي أبو عبدالله محمد بن أحمد الخوارزمي مؤلف مفاتيح العلوم وهو مطبوع.

* توفي في هذه السنة من رجال العلم: أبو الفضل الشيباني عن ٩٠ عاماً له الامالي وينسب إليه معجم أبي المفضل للقنائي وهو متداول، والفقيه الحنبلي عمر ابن مسلم له المقنع وكتاب الخلاف بين أحمد ومالك، والفقيه المعتزلي أبو القاسم الأسدي له الأمد في القراءات، والمحدث أبوعبدالله العكبري عن ٨٣ عاماً، الابانة في أصول الديانة، والزاهد الواعظ ابن سمعون توفي ببغداد عن ٨٧ عاماً.

* توفي من الأمراء والولاة: عبدالله بن قحطان توفي بزبيد وكان قد خلع بيعة العباسيين وخطب للخليفة الفاطمي، وفيها توفي صندل الخادم خاصكي السلطان بهاء الدولة وخلفه أبو المسك عنبر.

سنة ٣٨٨ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الاثنين ٣ يناير ٩٩٨م.

* جرت الخطبة في الحرمين الشريفين للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله.

* إستعاد شمس المعالي قابوس بن وشمكير إمارة طبرستان وكان قد أخرجه منها عضد الدولة.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

التعب والمرض الذى وصفناه، فرحمه وطرح فى قلب الوالى ان اطلقه من السجن بعد ان طلب منه ما لا يقدر عليه ولا يسير منه. فتخلص من يديه لابس اكليل الغلبة مباركا. وكان يقول: اننى لا استحق ان اجرب لان خطاياى عظيمة. فنال النصارى بخلاصة مسرة عظيمة.

ولما تخلص لما يمنع [يحرم] ذلك الشماس [باعمال البشمور] لان الله كان قد منعه من

الفرصة للحزب الارستقراطى العسكرى، وبدأ هذا الحزب يعمل لمصلحته، ويزيد من مساحة اقطاعاته العسكرية، ونتج عنه اعتراض الامبراطور على تصرفات هذا الحزب، فتصدى لخطره، وحاول تقليم أظافره عندما صادر مساحات كبيرة من الأراضى التى استولى عليها كبار الاقطاعيين بطرق غير قانونية، كما أنه لم يترك الوظائف الكبرى حكرا عليهم، حتى لا يصبح تحت رحمتهم مما أدى الى صدامه معهم. لقد كان اسحق كومنينوس يطبق الادارة

---

* تبادل نيسابور القائدان السامانيان ابن سيمجور وبكتوزون.

* تولى إمارة دمشق للحاكم الفاطمى بشارة الاخشيدى خلفاً لأبى تمام أبن فلاح وبدأ بشارة ولايته بالخروج إلى حرب الروم من سنته.

* تولى إمارة جزيرة صقلية جعفر الكلبى بعد أبيه يوسف بن عبد الله الذى أصيب بالفالج.

* ممن توفى فى هذه السنة من رجال الأدب واللغة: أبو بكر الأدفوى النحوى عن ٨٤ عاماً مولف كتاب الاستغناء فى علوم القرآن وهو غير الادفوى صاحب الطالع السعيد، وفيها توفى الوزير الأديب أبو القاسم الجكار كان على ديوان الرسائل لعضد الدولة ثم تولى الوزارة، وفيها توفى بمصر الأديب المؤرخ أبو الحسن الشابشتى، مؤلف كتاب الديارات وهو مطبوع متداول وكان على خزانة كتب الخليفة العزيز الفاطمى.

سنة ٣٨٩ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ٢٣ ديسمبر ٩٩٨م.

* على أثر مقتل صمصام الدولة إستولى بهاء الدولة البويهى على خوزستان وفارس.

* اعترض قافلة الحج أبو الجراح الطائى وفيها الشريفان الرضى والمرتضى ولم بطلقهما حتى أعطى تسعة الاف دينار.

الكهنوة لانه كان لبس ثياب الرهبان ونزعها عنه. وكان يقربه اليه ويقول له الرب يغفر لك.

فاما الابا الاساقفة الذين قبض عليهم [الرافع] واراد بهم الدخول الى مصر بلغه وهو فى الطريق، خلاص الاب البطرك فرفع يده عنهم واعاد عليهم ثيابهم وما كان اخذ لهم من الدواب والغلمان والاثاث، ما خلا ذهب او فضة فانه كان اعطا بعضه للرجال الذين معه ومنه ما نفقه فيما يريد؛ لانه كان فقيرا جدا كثير المحرقة من غير مال ولا

العسكرية الحازمة على الاقتصاد، ولهذا صادر كثيرا من الأراضى والأموال التى كان معظمها ملكا للبيوت الاقطاعية، سواء كانت عسكرية أم مدينة أم كنسية، ولهذا لم تقتنع القوى المؤثرة على الساحة باصلاحاته الاقتصادية.

صدامه مع البطريرك كيرولاريوس:

تجمع الساخطون على اسحق حول البطريرك كيرولاريوس، وكان رجلا طموحا، عاون اسحق كومنينوس فى الاطاحة بميخائيل ستراتيوتيكوس؛ وقد كافاه الامبراطور

---

* قبض بعض خاصة السلطان السامانى منصور بن نوح عليه وسملوا عينيه وأقاموا أخاه عبدالملك خلفاً له وهو بعد صبى صغير وكانت مدة حكم منصور ١٩ شهراً.

* إتخذ محمود الغزنوى مدينة بلخ عاصمة له وخلع التبعية السامانية وخطب للقادر بالله العباسى.

* أوقع زيرى بن عطية الزناتى الهزيمة بقوات باديس الصنهاجى على أبواب تاهرت ثم انقلب النصر إلى هزيمة لقوات باديس الصنهاجى قتل فيها تسعة الاف من صنهاجة وزويلة.

* توفى فى ليلة ٤ صفر قاضى قضاة مصر وداعية الفاطميين محمد بن النعمان ويعرف بابن حيون عن ٥٤ عاماً وهو ابن قاضى القضاة النعمان بن محمد إشتهر بجودة الأحكام وتروى عنه فى ذلك النوادر، وخلفه إبنه عبدالعزيز.

* قتل فى حروب البربر بأفريقية زعيم زناتة فلفل بن سعيد.

سنة ٣٩٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء ١٣ ديسمبر ٩٩٩م.

* هرب السلطان المنتصر السامانى (أبو إبراهيم إسماعيل) متخفياً إلى خوارزم وكان فى سجن بغراخان الإيلكخانى بعد هزيمته عند بخارى.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

ماورثه، ففرحو الابا الاساقفة بخلاصهم من يديه ولم يسالوه عن شيا مما صار اليه منهم، لانهم كانو قد ظنو ان الاخبار التى وصلت اليهم بخلاص البطرك غير صحيحة. وكان الاب يقول لهذا الشماس ليس انت الذى اسلمتنى فى ايدى الولاة لكن خطاياى التى اوقعتنى فى التجارب. وكان كلمن سمع منه هذا القول يقول ما راينا هكذى قط.

نذكر الان ما نال الغير شماس [من اعمال

الجديد على ذلك بأن تنازل له عن حق الامبراطور فى تعيين رجال الدين فى كاتدرائية أيا صوفيا، وجعل ذلك حقا من حقوق البطريرك، كما تنازل له عن كل العقارات والهبات والأراضى الموقوفة لصالح هذه الكاتدرائية. وبذلك أصبح البطريرك كيرولاريوس مستقلا - فى كل ما يتعلق بالشئون الكنيسة - عن الامبراطور الذى كان من المفروض أن يكون رأس الكنيسة الأعلى، لكن كيرولاريوس لم يقنع بذلك،بل ذهب فى أطماعه الى أن يحلم أن يكون

---

* استولى يانس الصقلى خادم الخليفة الحاكم على برقة وكانت تابعة لباديس الصنهاجى الذى أرسل إليه جيشاً هزمه وقتله على أبواب طرابلس فانفذ الحاكم نجدة بقيادة يحيى بن على الأندلسى.

* تولى إمارة دمشق فحل بن تميم نائباً عن الحاكم الفاطمى فمرض ومات بعد أشهر قليلة فخلفه فى العام نفسه القائد على بن جعفر بن فلاح.

* فى ٢٦ ربيع الثانى من السنة قتل بالقاهرة الأستاذ أبو الفتوح برجوان الخادم مدبر دولة العزيز الفاطمى ثم الحاكم بالله الذى ثقل عليه نفوذه فتخلص منه بالقتل بتدبير من ريدان الخادم الصقلى، واستصفيت أمواله منه ألف سروال ديبقى وألف تكة حرير وإليه تنسب حارة برجوان، كما توفى فى السنة نفسها وزير الحاكم أمين الدولة الحسن بن عمار وكان قد هرب من بطش الحاكم به.

* توفيت حول هذا التاريخ بالأندلس السيدة صبح زوجة الخليفة الحكم الأموى وأم إبنه الخليفة هشام وهى التى مهدت لظهور المنصور ابن أبى عامر ثم تحول إلى خصومة بعد أن استبد بالحكم ، وفيها توفيت ببغداد الفقيهة أمة السلام أم الفتح بنت القاضى ابن شجرة وله ٩١ عاماً.

البشمور] لكي يمجد الله منجله [من أجله] كلمن سمع ما ناله، انه لما تخلص ابونا من الاعتقال وابطل الله جميع ما قالو للوالى عنه، كان ذلك الشماس ياتى اليه ويساله في زى مومن ويقول له: اسلك [اسئلك] يا ابى ان تغفر لى لانى قد عظمت خطيتى وقد فعلت بك افعالا لا استحق ان تغفر لى بسببها، لانى عارف بما فعلته من السو وانى لم اقدم اليك صلاحا. ومع ذلك كان [البطرك] يقول له: «الرب يغفر لك. فساله

امبراطور يجمع السلطتين الدينية والزمنية في وقت واحد، تقليدا لمسعى بابوات كنيسة روما الكاثوليكية. ومن المعروف أن البطريرك ميخائيل كيرولاريوس كان يسعى لذلك الهدف منذ أيام قسطنطين التاسع مونوماخوس. وهو الذى أوصل الخلاف مع الكنيسة الكاثوليكية الى درجة القطيعة، عندما صب الكاردينال همبرت مبعوث البابا ليو التاسع اللعنات عليه، معلنا أن كيرولاريوس واتباعه من زمرة الشيطان، وبالمثل

---

* توفى عالم الرياضيات والهندسة أبو سهل الكوهي الذى تولى بناء مرصد بغداد لشرف الدولة البويهى.

* توفى من رجال الحكم: الوزير السامانى عبيدالله العتبى، وحبش الكنانى نائب الفاطميين على الشام.

سنة ٣٩١ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الأحد الأول من ديسمبر ١٠٠٠م.

* عقد الخليفة القادر بالله العباسي ولاية العهد لولده أبى الفضل ولقبه الغالب بأمر الله وعمره نحو ثمانى سنين وكان قد قد جلس بأبهة الخلافة ودخل عليه الحجاج بعد عودتهم من مكة وحضر المجلس القضاة والأشراف.

* بدأت فى هذه السنة أولى غزوات يمين الدولة محمود الغزنوى لبلاد الهند وهى التى بلغت سبع عشرة غزوة إستولى فى خلالها على شمال الهند حتى مجرى نهر الكنج.

* تولى إمارة المغرب المعز بن زيرى خلفاً لأبيه زيرى بن عطية على أثر مصرعه.

* تولى قرواش العقيلى إمارة الموصل خلفاً لأبيه حسام الدولة المقلد بن المسيب على أثر إغتياله.

بتواضع ان يكتب كتاب فيه تحليل [من الحرمان] لانه كان لا يقدر يسلك بين المومنين ولا يدخل الى بيعة من البيع الا اذا نظروه الاطفال من جميع الناس المسلمين والنصارى يرجموه ويقولو: ان هذا الانسان انسان سو رفاع. وكان لا يقدر يمشى بين الناس. وان ابونا المبارك انبا شنوده امر يوحنا كاتبه ان يكتب له كتابا الى جميع المومنين يقول لهم فيه: انني حللت وثاق هذا الشماس من فمي فلا يمنعه احد من المومنين تناول القربان. ولما كتب

فعل كيرولاريوس ذلك بالنسبة لبابا رومالبو التاسع وأتباعه.

وربما أراد اسحق كومنينوس ان يحسن علاقاته مع كنيسة روما، والتى لم يكن يرضيها الا ذهاب كيرولاريوس. وكان الامبراطور قد ضاق به ذرعا لتدخله فى أمور الامبراطورية السياسية سرا وعلانية، ولهذا عزم على التخلص منه، وأخذ ينتظر الفرصة حتى جاءته، عندما ذهب كيرولاريوس الى الاعتكاف فى أحد الأديرة النائية خلال أسبوع الأحزان فى ربيع عام ١٠٥٨م. فأرسل

---

* تجددت الفتنة في بغداد بين الأتراك والعامة من أهل الكرخ قتل فيها كثيرون.

* توفى فى هذه السنة الوزير المحدث أبو جعفر بن حنزابة (جعفر ابن الفضل) تولى الوزارة بمصر فى العصر الاخشيدى وهو الذى سار اليه لعلمه الحافظ الدارقطنى فى تأليف مسنده، توفى بمصر يوم الأحد ١٣ صفر، كما توفى وزير الخليفة العزيز الفاطمى أبو الحسن على بن العداس وكان قد عزل قبل وفاته.

* توفى زعيم زناتة الأمير البربرى زيرى بن عطية المغراوى الذى كان قد استولى على فاس وناصر الخلافة الأموية بالأندلس ودخل فى صراع مع حلفاء الفاطميين قتل فيه.

* توفى أمير الموصل حسام الدولة المقلد بن المسيب العقيلى بعد حكم دام خمس سنوات قتله غلام له غيلة، كما توفى أمير سجستان الذى كان قد قاتل أباه خلف بن أحمد وانتصر عليه ثم غدر به الأب وقتله.

سنة ٣٩٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ٢٠ نوفمبر ١٠٠١م.

* جرت فى المحرم من هذه السنة أولى المعارك الحاسمة بين السلطان يمين الدولة محمود

اليه يطلب مه تنفيذ أمر الامبراطور بالتنازل عن منصب البطريرك. وكان ذلك صدمة نفسية شديدة للبطريرك الذى رفض بشدة ترك منصبه، وهنا استخدم الامبراطور اسحق كومنينوس سلاح التشهير اللااخلاقي، فادعى أن البطريرك قد ا رتكب في خلوته بعض المعاصي والموبقات التي تستوجب محاكمته. ولم يتحمل البطريرك الصدمة فمات قبل ابتداء المحاكمة. ولما علم الناس بموت البطريرك القوى بطل الارثوذوكسية في مواجهة الكاثوليكية خيم عليهم الحزن، وزاد

الكتاب وختمه بخاتمه الذى هو علامة الصليب المقدس طواه ودفعه له. ولما خرج من عنده امر [البطرك] تلميذا له كان معه نفقة القلاية ان يدفع اليه نفقة يستعين بها على ما يريده، وامر ايضا ان يعطا دابة من الدواب وتكون مرحله [سريعه]، وامر له بثلثة ثياب مما كانو غلمانه يلبسوه وودعه. فقلت له انا الحقير كاتب هذه السيرة: يا ابى كيف فعلت هذا وكان غير مستحق لما فعلته معه من اطلاقه ان يتناول القربان. فقال لي: يا ولدى

الغزنوى والملك الهندوكي جيبال بالقرب من بشاور وفيها أبيد من الهنادكة ١٥ ألفاً ووقع الملك نفسه في أسر السلطان حتى تم فك اساره بأموال ونفائس منها قطيع من الفيلة ورهائن منها ابن الملك.

* لم يحج أحد من المشرق في هذه السنة بسبب غارات العربان على قافلة الحج.

* خرج المنصور ابن أبي عامر حاجب الأندلس لغزو الأسبان للمرة الأخيرة وعاث ونهب في أرض ليون والنافار وفي طريق العودة بدأ المرض يتسلل إليه.

* تولى عبد الملك بن المنصور ابن أبي عامر وله ٢٨ سنة حجابة الأندلس للخليفة هشام المؤيد على أثر وفاة أبيه وجمع في يديه كل السلطات.

* تولى إمارة دمشق للحاكم الفاطمي أبو منصور ختكين فظلم وأساء السيرة فخلفه في السنة نفسها تموصلت البربرى.

* وقعت فتنة بين العامة وبعض نصارى بغداد مما أثار العامة فأحرقوا كنيستهم في قطيعة الدقيق.

* في يوم الاثنين ٢٧ رمضان من السنة توفي المنصور ابن أبي عامر مجدد الدولة الإسلامية في الأندلس بمدينة سالم ودفن في صحن قصرها وذلك بعد غزوته الأخيرة في أرض ليون والنافار وله من العمر ٦٤ عاماً، حكم منها (مع وجود الخليفة الأموى) ٢٧ سنة.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

المبارك الا تعلم ان الانسان الخاطى اذا جسر وتناول القربان من قبل اقراره بخطيته امام الله وسواله الصفح عنه والتجاوز وظن ان القربان به يتم كونه نصرانى فقد زاده القربان خطايا، لكنه ان ظن ان القربان يغفر الخطايا كما قال فى انجيله المقدس: «هذا جسدى كلو منه فى كل حين مغفرة لخطاياكم»، فانه قد تناول القربان وامحا خطيته، لكنه لقلة فهميه وغلبة الفكر الشيطانى عليه لا يفهم هذا.

سخطهم على اسحق كومنينوس، ولكى يتقى غضب الشعب عليه، وتربص رجال الكنيسة للأنتقام منه، وليريح نفسه من الشعور بالذنب لما اقترفه فى حق البطريرك، توجه باكيا الى قبر البطريرك كيرولاريوس نادما على ما فعل، طالبا من روحه المغفرة.

وحتى لا يدفع ثمن الاخطاء التى ارتكبها، وتكفيرا عن عقدة الذنب، اختار أحد أصدقائه وهو قسطنطين دوقاس، زعيم التجار وممثل الرأسمالية التجارية، والذى كان يشغل فى عهده منصب وزير الخزانة، ومن المعروف أن

---

* توفى سعيد الدولة الحمدانى (سعيد بن شريف) صاحب حلب بعد ١١ عاماً من الحكم، قيل مات مسموماً.

* توفى ببغداد عالم اللغة والنحو عثمان بن جنى عن ٦٥ عاماً له من المطبوع: المعجم اللغوى المسمى الخصائص وكتاب سر الصناعة والتصريف الملوكي والمقتضب من كلام العرب.

سنة ٣٩٣ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء ١٠ نوفمبر ١٠٠٢م.

* ابتدأ الحاكم بأمر الله الفاطمى فى بناء مسجد راشدة يوم ١٧ ربيع الثانى وقد تم بناؤه وإعداده وفرشه وأنارته بالقناديل بعد عامين.

* قضى عميد الجيوش على الفتنة بين السنية والشيعة فى بغداد فمنع الشيعة من النواح وتعليق المسموح يوم عاشوراء ومنع السنية ما إبتدعوه من البكاء على قبر مصعب بن الزبير فى ٢٦ الحجة متشبهين بالشيعية.

* جاد التقليد إلى المعز بن زيرى من عبد الملك بن أبي عامر صاحب الأندلس بتوليته على جميع أقطار المغرب.

ومعما [مع ما] ذكرناه من فعل الاب معه لم يتخلا عن السو، ولما مضى الى الاعمال التى كان يسكنها وهى ناحية بجوار «صا»، وكان متشور [متسلط] على الكهنة فى الكنايس ويوذيهم، وكان يجالس الولاة، وكان اكثر زمانه مداوم الرفايع [المظالم] على الناس وبخاصة النصارى والكهنة منهم. وتم عليه قول داود النبى اذ قال: «جلس مع الاغنيا ليقتل البرى فى خفية». فلما تزايد امره وخافت منه التجار وذوى الاموال

قسطنطين دوقاس كان أحد الزعماء الذين ساعدوه فى الوصول الى العرش، وكان متزوجا من ابنة شقيق البطريرك الراحل، ولهذا لما عرض عليه تولى العرش، قبله على الفور فى عام ١٠٥٩م، وتوج باسم قسطنطين دوقاس العاشر.

حكم قسطنطين العاشر دوقاس: ١٠٩٥، ١٠٦٧:

سبق أن أشرنا إلى أن قسطنطين دوقاس كان نقيب رجال المال والاعمال فى العاصمة، وعلى اتصال بالكنيس، ولهذا كان فى تفكيره

---

* ضم محمود الغزنوى بلاد سجستان إلى مملكته بعد هزيمة واستسلام خلف ابن أحمد الذى نفاه إلى الجوزجان.

* خرج حاجب الأندلس الجديد عبدالملك بن أبى عامر فى أول غزوة له لقتال الأسبان تشبها بأبيه فسار إلى طليطلة ومنها إلى بلد سالم وانتهى إلى برشلونة وانضم إليه فى الغزو حليفه ملك قشتالة المسيحى.

* فى ليلة الفطر من السنة توفى عن ٧٣ عاماً الخليفة العباسى الطائع لله ابن الخليفة المطيع وكان قد تولى الخلافة بعد أن خلع أبوه نفسه لمرض فدامت خلافته إلى أن خلع بدوره فى شعبان من سنة ٣٨١ وبويع القادر بالخلافة وظل الطائع محبوساً فى دار الخلافة لحين وفاته.

سنة ٣٩٤ هجرية

وافق هلال المحرم يوم السبت ٣٠ أكتوبر ١٠٠٣م.

* خرج حاجب الأندلس الجديد عبدالملك بن المنصور بن أبى عامر إلى مملكة قشتالة وعاث فى أرضها ولم يبد ملكها سانشو مقاومة بل سار بنفسه إلى قرطبة طالباً الصلح.

والموسرين من سكان الاعمال اجتمع قوما من اهل اسكندرية مع تجار الاعمال البحرية الذين هم معامليهم وشكو بعضهم لبعض حال هذا الشماس. وكان باسكندرية واليا صالحا عابدا فى مذهبه، فمضى اليه اهل اسكندرية والتجار الذى ذكرناهم وقالو: ان هذا الثغر لا يكثر ارتفاعه [خراجه] ولا يستخرج منه مالا الا من تاجر يرد اليه فى البحر والبر لان ليس له خراج من زراعة ارض ولا غيرها، وانا نحن تجار البر لا نقدر نخرج

أقرب الى الحزب البيروقراطى منه الى حزب المؤسسة العسكرية، التى لم يكن يشعر نحوها بأى ود، وقد بادلته هذه المؤسسة نفس الشعور؛ ومن ثم لم يهتم باصلاح الجيش، وركز كل جهوده لاصلاح الاقتصاد والادارة، فقد كان خوفه من أن تؤدى الحالة الاقتصادية المتفاقمة، وتدهور قيمة السوليدوس الرومى Solidus الى ثورة الشعب عليه، من أجل ذلك ضحى بالقوة العسكرية من أجل انقاذ الحالة الاقتصادية، فخفض من عدد فرق القوات ، وأعاد تنظيمها فى ضوء

---

* وثب بهاء الدولة على وزيره ومدبر دولته أبى على الاسكافى بسبب ما ذاع من فضله وحنكته مما أثار الغيرة فى نفس السلطان فأمر به فخنق.

* أستولى أبو العباس ابن واصل على البطيحة وأخرج منها صاحبها مهذب الدولة وكان واصل فى ضيافته قبل أن يتمرد عليه كما أوقع أبو العباس الهزيمة بجيش عميد الدولة متولى بغداد.

سنة ٣٩٥ هجرية

وافق مستهل السنة يوم الأربعاء ١٨ أكتوبر ١٠٠٤م.

* أسس الحاكم بأمرالله الفاطمى بالقاهرة دار الحكمة واتخذ لها دار الأمير مختار الصقلى الملاصقة للقصر الكبير وحمل إليها خزائن القصر من الكتب فأصبحت تضم مائة ألف مجلد فى قول، وأوقف عليها الحاكم قسماً من أملاكه، كما عرفت باسم دار العلم.

* خرج السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى فى غزوته الهندية الثالثة وفيها استولى على إمارة بهيرة الهندوكية ثم على الملتان من أبى الفتح القرمطى وأقام نائباً له فى الهند قبل عودته.

الظروف المالية الجديدة، مما نتج عنه نقص عدد المجندين فى الجيش، كما انخفضت لياقة الجنود القتالية، بعد أن سرح عددا من الضباط الاقطاعيين وجنودهم التابعين لهم، وجعل البدل النقدى بديلا عن الخدمة العسكرية، وذلك بالنسبة لاقاليم آسيا الصغرى، التى يسيطر عليها الاقطاعيون العسكريون. وردا على ذلك أرادت المؤسسة العسكرية الاقطاعيون العسكرية الاقطاعية أن تسخر من هذا البيروقراطى وتصرفاته، فتركت الجيش يتدهور، لترى ماذا يفعل هذا

منها الى الوجه البحرى، لان رجل رفاع [جابى] يسكنها يوذى من يصل منا الى تلك الاعمال وغيرها مما يسعى به الى الوالى قصدا ان يتقدم الى قلبه، ونحن فلا نقدر على المضى الى تلك البلاد، وهو ذا التجار اهل البلاد البحرية وقوف خارجا قد امتنعو ان يدخلو بمالهم من التجارة الى هذا الثغر، بحكم ان البضايع اذا ظهرت لهذا الرفاع سعى بهم الى الولاة وقال لهم: انه اذا خرجت هذه البضايع من البلاد ضعفت البلاد. فلما علم الوالى

---

* خرج بنواحى برقة ثائر ادعى انه من ولد هشام الأموى واشتهر باسم أبى ركوة وتعاظم خطره فجهز الحاكم جيشاً لرده ولكنه هزم فتقدم أبو ركوة صوب مصر.

* فى الأندلس خرج فى هذه السنة الحاجب عبدالملك بن المنصور العامرى فى ثالث غزواته فسار إلى طليطلة ودخل أرض مملكة ليون واستولى قائده واضح على مدينة سمورة وشارك فى هذه العمليات حليفه سانشو ملك قشتالة.

* ولد للخليفة الحاكم الفاطمى ابنه أبو الحسن على وهو الذى تولى الخلافة الفاطمية بعد ذلك وعرف بلقبه الظاهر لإعزاز الدين.

سنة ٣٩٦ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ٨ أكتوبر ١٠٠٥م.

* استقبل حاجب الأندلس عبدالملك بن أبى عامر بمدينة سالم مبعوث الامبراطور البيزنطى باسيل الثانى حاملا رسالة مكتوبة بماء الذهب مع هدايا نفيسة بصحبة جماعة من مسلمى المشرق ممن كانوا قد وقعوا فى أسر الامبراطور توكيداً لمعاهدة الصداقة بين القسطنطينية وقرطبة.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

حال هذا الرفاع السر امر للوقت اصحاب الخيل الذين يخدمون بين يديه والقراغلامية [الشرطة] ان يمضى منهم اثنى عشر رجلا واختارهم من اصحابه لما يعلم من شدة وامرهم ان يسيرو الى هذا الرجل ويقبضو عليه اشد القبض ولا يرحموه. ولما توجهو اليه واخذوه ربطوه بسلاسل من حديد في يديه ورجليه واركبوه دابة سولان [بغلة]، هذه الدابة اذا تحرك الراكب عليها تسمع صوت الحديد فتفزع وترجف وتطرحه فيقع عليه الحديد

الامبراطور والامبراطورية مقبلة على جولات من الصراع الشرس مع أعدائها؛ البشناق والغز فى الشرق، والسلاجقة الاتراك فى الشمال؛ وردا على هذا التصرف فتح قسطنطين دوقاس الابواب على مصرعها للجنود المرتزقة لمختلف القوميات والطوائف والنحل مثل النورمان، والسوريان، والارمن، والبشناق، والغز، لكى تقوم بحراسة الاطراف البعيدة للامبراطورية؛ ولم يستفد من دروس التاريخ ـ خاصة من أسباب سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب ـ

---

* عاد السلطان محمود الغزنوى إلى بلاد الهند لخروج نائبه نواسة شاه فقبض عليه وافتدى نفسه بأربعة الاف درهم.

* قلد الخليفة الطائع قرواش العقيلى إمارة الموصل ولقبه معتمد الدولة.

* كانت الخطبة بالحرمين للحاكم الفاطمي فكان إذا ذكر إسم الحاكم أمر الناس بالوقوف تعظيما له وفي مصر كان إذا ذكر إسمه قاموا وسجدوا فى السوق وغيره.

سنة ٣٩٧ هجرية

استهل المحرم بيوم الجمعة الموافق ٢٧ سبتمبر ١٠٠٦م.

* أمر الحاكم الفاطمى بكسوة الكعبة بستائر من الكتان الأبيض المصرى.

* أوقع حاجب الأندلس عبدالملك ابن أبى عامر هزيمة حاسمة فى غزوته الخامسة التى عرفت باسم غزوة النصر على جيوش الأسبان المتحالفة التى ضمت ملوك النافار وليون وقشتالة وذلك بالقرب من قلونية وعاد مع نهاية السنة إلى قرطبة.

* فى أقصى المشرق تألف حلف هندوكى فى وجه السلطان محمود الغزنوى تزعمه داور

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

عندما سمحت لجيشها الوطنى أن يصبح جيشا يتكون من المرتزقة الجرمان، والوندال، والقوط؛ لان الجند المرتزقة لا تدين بالولاء الكامل للدولة التى ترتدى زيها العسكرى وترفع بيارقها وأعلامها، وليست على استعداد أن تموت من أجلها؛ انما كل ما يهمها هو رواتبها الباهظة، التى كلفت خزانة الامبراطورية نفقات باهظة، وعندما كانت تعجز عن ذلك، كانت الجند المرتزقة تنهب الاقاليم، وتستولى على الضياع، وتطرد الفلاحين من أراضيهم بعد أن

ويهشمه، وكانت اكثر اوقاتها اذا لم يقع من على ظهرها تلتفت اليه وتاكل بفمها رجليه. وكان يصيح ولا يُجاب. وكلمن راه يفرح ويدعو للوالى الذى اخذه، وكانو يقولو: الله الذى لم تقبل وصاياه طرحك ياهذا الانسان فى هذا البلا العظيم ونحن نسال الله ان لا ينقذك من هذه الغمة. وكان وجهه وقاحا يقول: انى اتخلص من هذه الامور لاننى رجلا ناصح للسلطان وهو لا يفسدنى وانا اجازى كل انسان منكم بقدر عمله، ولم يقول بلسانه اذا

صاحب الملتان وانجابالا صاحب لاهور فقضى القضاء التام عليه وراح يطارد القوات الهاربة حتى سفوح الهيمالايا.

* استفحل أمر الثائر أبى ركوة بعد أن إستولى على برقة وهزم جيش الحاكم وضرب السكة باسمه وتقدم حتى وصل مشارف الجيزة غير أن القائد الفضل بن عبدالله هزمه وأخذه أسيراً فشهر به فى القاهرة حتى مات ثم صلب، وكان قد هزم ثلاثة جيوش أرسلها الحاكم لقتاله.

* دخل السلطان بهاء الدولة البصرة وملكها واستولى على ذخائر ابن واصل.

* منح الحاكم قائده الفضل بن عبدالله الذى قضى على ثورة أبى ركوة الأقطاعات الجليلة ولكن لم يلبث أن انقلب عليه وقتله.

سنة ٣٩٨ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ١٧ سبتمبر ١٠٠٧م.

* وقع الخليفة الأندلسى هشام المؤيد بالله مرسوماً بخط يده ضمنه ألقاب وزيره عبدالملك بن أبى عامر وهى : الحاجب المظفر سيف الدولة أبى مروان.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

شا الله، فكانو الناس يقولو انك مستحق اكثر من هذا لانك اسلمت ابونا انبا شنوده في السجن، ومن كثرة ما جرى عليه من الافترا من ساير الامم ليس النصارى وحدهم بل وجميع الامم. فلما راى ان جميع الناس له مبغضين وان الوالي لا يضمر له صلاحا غطى وجهه بعمامته من الخزى. فلما وصلو به دار الولاية احضره بين يديه فقال له: انت الرجل المذكور عنك هذا الشر العظيم. وظن ذلك الكافر انه اذا خاطب الوالي بما فعله مع البطرك

تسلبهم مواشيهم وممتلكاتهم، فضلا عن ذلك، كـــان جند الارمن والسوريان حاقدة على الامبراطورية التى طالما اضطهدتهم لعقيدتهم المونوفيزية، ويتمنون سقوطها، بل وعلى استعداد للتعاون مع أعدائها من أجل ذلك الغرض، تماما مثلما فعل الاقبــاط مع العـرب عند الغـزو الاسلامي لمصر؛ ولقد عبر أحد زعماء المؤســـسة العسكرية عن ســخطه لتصرفات الامبراطور البيروقراطية، وهو القائد كيكاومينوس -Kekaume nos عندما قال لابنه يعظمه «يابني

---

* عاد أهل الكرخ ببغداد في هذه السنة إلى عادة النواح في عاشوراء.

* إنقلب الحاكم على أهل الذمة فأمر بهدم بعض كنائسهم في مصر والشام.

* خرج حاجب الأندلس عبدالملك إلى بلاد النافار لتأديب ملكها سانشو بسبب غدره فاستولى عنوة على حصن شنت مرتين المنيع.

* رحل الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعرى من المعرة إلى بغداد وأقام بها ١٩ شهراً.

* صلى الحاكم الفاطمى الجمعة وأقام الخطبة في جامع راشدة الجديد بالقاهرة.

* توفي عالم الأندلس الرياضى الفلكي الفيلسوف أبو القاسم المجريطي (نسبة إلى مجريط أى مدريد) عن ٦٠ سنة، له كتاب الأحجار، روضة الحدائق، ثمار العدد، إختصار كتاب تعديل الكواكب.

* ممن توفي في هذه السنة من رجال العلم والأدب والتاريخ: الفقيه أبو محمــد عبدالله بـن محمـد البخارى الخوارزمى، جلس للتدريب ببغداد سنوات، والمؤرخ المصرى أبو منصــور الفرغانى (أحمد بن عبدالله) عن ٧١ عاماً مؤلف سيرة العزيز الفاطمى وكافور الاخشيدى.

اياك أن تكون بيروقراطيا، لأنه من المحال أن تكون قائدا عسكريا ومهرجا كوميديا في آن واحد.

ولقد أخطأ قسطنطين دوقاس مرة أخرى، عندما اعتقد أن المعضلات الاجتماعية والعقائدية، يمكن أن تخضع لنظريات السياسة والادارة ومعادلاتها، وذلك عندما زج بنفسه في فتنة كانت نائمة فأيقظها، ألا وهي مشكلة النحل، والقوميات المختلفة التي تتكون منها شعوب الامبراطورية المتباينة، وذلك بتطبيق نظرية بيروقراطية عتيقة، وهي أن الرخاء

يخلي سبيله ويشكره على فعله، فقال: نعم انا ذلك الذى سلمت البطرك لوالى مصر وحصلت منه مالا كثيرا وسجلاته بيدى مثبوتة وان لا يفعل معى احد سوا ممن يكون من قبله. فقال الوالى: كانك الذى فعلت هذا الذى بلغنى، والان فقد ظهر لى انك من حزب الشيطان الملعون، وهو ذا انت لابس وجه وقاح اذ لم تخاف من الله ولا احتشمت من ابوك البطرك حين فعلت به هذا الفعل، فقد صح عندى جميع ما قالوه التجار

سنة ٣٩٩ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأحد ٥ سبتمبر ١٠٠٨م.

* امتنع أهل العراق عن أداء فريضة الحج خوفاً من الأصيفر الأعرابى قاطع الطريق حتى صالحوه على مال.

* ثار الأمير محمد بن هشام حفيد الناصر على الخليفة المؤيد وأرغمه على خلع نفسه، فلما استقر في عرش الأندلس باسم المهدى فى ١٧ جمادى الآخرة هجر مدينة الزهراء التى بناها جده عبدالرحمن الناصر فبدأ خرابها منذ هذا التاريخ.

* تولى إمارة دمشق للحاكم الفاطمى قائده أبو الجيوش حامد بن ملهم.

* أعلن بالأندلس وفاة الخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم وله من العمر ٤٨ سنة ولم يكن له فى الحكم شئ، وفى ٢٧ شعبان دفن فى قرطبة رجل مجهول وأعلن للناس انه الخليفة المعزول هشام المؤيد حتى يضع المهدى حداً للمؤامرات، وبه إنهارت الدولة العامرية بالأندلس.

* توفى بالقاهرة الفلكى المصرى المشهور ابن يونس (أبو الحسن على ابن عبدالرحمن) مولف الزيج الحاكمى وهو مطبوع متداول وله جداول السمت وجداول فى الشمس والقمر.

عنك واهل الاعمال التى انت فيها وما تفعله مع الضعفا، لانك قد قلت بلسانك انك رفعت على البطرك، لكنى الان مجازيك على فعلك لان الله قد طرحك في يدى. وامر للوقت ان يطرح على الارض واحضر اليه غلمان اقويا اشدا لا يرحمون خليقة الله بايديهم عصى كانها خشب السقوف وامر ان يضرب بذلك الخشب. فلما قال الجند: أنه قارب الموت. امرهم ان لا يضربوه بعد ذلك بالخشب بل ياخذوه ويقيموه على قامته ويجلدوه

الاقتصادى لا يتحقق الا من خلال السلام الاجتماعى، والسلام الاجتماعى لا يتحقق الا من خلال تحقيق الوئام والانسجام بين النحل والملل والقوميات، ومزجها معا فى فكر واحد، ولذا عاد الى الزج بالسياسة فى أمور العقيدة، ليوفق بين المذهب الملكانى الاريوسى، والمذهب اليعقوبى المونوفيزى، ارضاء للسوريان والارمن، بل وربما للنورمان الكاثوليك أيضا على طريقة أباطرة القرنين السادس والسابع الميلاديين، غير أن هذه السياسة لم تثبت فشلها فحسب،

سنة ٤٠٠ هجرية

استهلت السنة الأخيرة من القرن الرابع بيوم الخميس الموافق ٢٥ أغسطس ١٠٠٩م.

* شهدت أحداث الأندلس فى هذه السنة أبرز الوقائع فى تاريخ العصر: فيها جدد الخليفة المهدى المغتصب للخلافة الأموية البيعة لنفسه وقضى على ثورة البربر بمساعدة قوات نصرانية لحليفه ملك قشتالة وولى خادمه واضحا الحجابة.

* حاول سليمان المستعين أخو الخليفة هشام المؤيد الاستيلاء على عرش قرطبة فى ربيع الأول من السنة ولكن محمد المهدى أزاحه بمساعدة القشتاليين النصارى فى شوال من السنة، وفى ذى الحجة أعلن عن ظهور هشام المؤيد الذى قيل انه توفى ودفن فى السنة السابقة.

* دارت الشائعات فى بغداد بموت الخليفة القادر فخرج وجلس للناس بعد صلاة الجمعة وعليه ابهة الخلافة تكذيباً لهذه الشائعات .

* أهدى الخليفة الحاكم الفاطمى إلى جامع عمر بالفسطاط تنورا من الفضة توقد فيه ألف ومئتا فتيلة فضلا عن جملة قناديل من الذهب والفضة.

* ولى الحاكم إثنين من فقهاء السنة فى دار العلم بالقاهرة بعد أن ثارت عليه الخواطر بسبب استيلاءه على بعض المخلفات النبوية بالمدينة.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

بالسياط ثلثماية سوط. فقال الجند: متى ما جلدناه مات لوقته. لانهم ظنو انه يريد منه مالا ليلا يموت فيعدم المال. فقال لهم: ليس الامر كما تزعمون افعلو ما امركم به. فجلدوه خمسون سوطا بجلود البقر فقارب الموت ايضا، ولم يبق له حركة بعد ذلك امرهم ان يمضو به الى السجن ويضيقو عليه بالحديد والخشب، ولا يطعموه طعاما إلا بمقدار يسير لا يكفه. وكان ذلك بين يومين مقدار يسير، وكان في الاعتقا يشتهى الموت من شدة ما ناله من

بل أدت الى تفتح الجروح القديمة بين اليعاقبة والملكانيين، فأحيت فيهم الشعور بالاضطهاد، والمعاملة المجحفة، خاصة بين أهم قوميتين من بين قوميات الامبراطورية وهما: الارمن والسوريان؛ ولقد استطاع الارمن بسبب طبيعة بلادهم الجبلية الوعرة أن يتقوقعوا على أنفسهم، ويستقلوا بتنظيماتهم السياسية والعسكرية، ومكونين كيانا مستقلا داخل الامبراطورية، منتظرين اليوم الذى تسقط فيه وتنهار ليكتمل استقلالهم.

ولقد تحقق ما توقعه رجال

---

* هرب إلى الشام الوزير أبو القاسم المغربى بعد أن قتل الحاكم أباه.

* توفى فى هذا التاريخ على الأرجح الفيلسوف المعتزلى الأديب أبو حيان التوحيدى توفى فى مخبأه هرباً من الوزير المهلبى الذى اتهمه بالزندقة وهو مؤلف كتاب المقابسات وكتاب الامتاع والمؤانسة والصداقة والصديق وجميعها مطبوعة متداولة.

* توفى فى هذا التاريخ على الأرجح الطبيب على بن عباس المجوسى مؤلف كتاب كامل الصناعة فى الطب، وفيها توفى الفلكى أبو جعفر الخازن مؤلف زيج الصفائح وشرح كتاب اقليدس.

سنة ٤٠١ هجرية

أهل القرن الخامس الهجري يوم الثلاثاء الموافق ١٥ أغسطس ١٠١٠ ميلادية.

* شهد مولد القرن الخامس الهجرى: فى بغداد الخليفة القادر بالله العباسى وله ٢٠ عاماً، وفى القاهرة الحاكم بأمر الله الفاطمى وله ١٥ عاماً،و فى قرطبة الخليفة الأموى سليمان المستعين وله عام واحد، وفى المشرق فاتح الهند يمين الدولة محمودى بن سبكتكين وله ١٢ سنة، وفى المغرب أبو مناد باديس بن زيرى وله ١٥ سنة، وفى التركستان (ما وراء النهر) قطب

الضيق والعقوبة والخزى، حتى ان القوم الذين لا يرجمون احدا الذين يحرسون السجن لما سمعو ما كان يعمله ارادو ان يتمو قتله ليلا فخافو من القوم الذين في السجن ينمو عليهم، وكانو يريدو ذلك بكل جهد يبتغو بذلك رحمة من الله. فلما راى الناس لا يشتهي احد منهم حياته ولا بقاه حتى القوم الذين كانو معه في الاعتقال كانو يلعنوه ويريدو ان يبعده الله عنهم بالموت ليلا يسلم ويخرج فينم عليهم عند الولاة، لانهم كانو قد

المؤسسة العسكرية، عندما استيقظ قسطنطين دوقاس ذات يوم، ليجد قبائل الغز التركية تدق أبواب البلقان، بعد أن عبروا الدانوب بأسرهم، ونسائهم وأطفالهم، ومواشيهم، ينوون البقاء في البلقان الى الأبد، وباءت كل محاولات قسطنطين دوقاس لطردهم بالفشل، وتحمل سكان سلونيك، ومقدونيا، وتراقيا، أعمال التخريب والسلب والنهب، ومن جانب هذه القبائل التركية الأصل.

وأخيرا مات قسطنطين دوقاس

الدولة أبو نصر إيلكخان، وفي المغرب الأوسط حماد بن بلكين وله ٣ سنوات، وفي صقلية جعفر الكلبي، وفي خوارزم أبو العباس مأمون بن مأمون، وفي حلب مرتضى الدولة أبو نصر منصور الحمداني، وفي مكة أبو الطيب داود السليماني، وفي اليمن زياد ابن اسحق الزيادى وفيها كان أمير الأمراء ببغداد السلطان بهاء الدولة البويهي.

* وشهد مولد القرن في القسطنطينية الامبراطور البيزنطي باسيل الثالث، وفي فرنسا ردبرت الثاني، وفي ألمانيا امبراطور الدولة الرومانية المقدسة هنريش الثاني، وفي انجلترا ايثلرد الثاني السكسوني، وفي روما البابا سلفستر الثاني، وفي الصين الامبراطور سونج.

* زحفت قوات البربر ومعها سليمان المستعين على قرطبة لانتزاعها من الخليفة هشام المؤيد.

* أعلن اعتماد الدولة صاحب الموصل العقيلي قطع خطبة العباسيين معلنا ولاءه للحاكم بالله الفاطمي بمصر ولكن لم يلبث أن أبطل الخطبة له ودعا للخليفة القادر على العادة.

* وقع القحط بخراسان واشتدت المجاعة حتى أكل الناس الكلاب والسنانير وتلاه وباء عظيم حتى عجز الناس عن دفن الموتى، بينما زاد فيضان دجلة وأغرق جانباً من بغداد.

* ولى الخليفة الفاطمي الحاكم بالله لؤلؤ بن عبدالله إمارة دمشق ولقبه بمنتخب الدولة.

العاشر عام ١٠٦٧م تاركا العرش لارملته الشهيرة يودوكيا Eudocia التي لقبها أهل القسطنطينية بكنية ساخرة هي «الارملة الطروب» -Mak rembolitessa أو «ذات الرغبة البعيدة»، بعد ان أنجب منها ولدا اسمه ميخائيل، ولم يمض على موت الامبراطور بضعة شهور، حتى سلمت يودوكيا نفسها والعرش معها، لزوج جديد من رجال المؤسسة العسكرية، وهو الامبراطور رومانوس الرابع الملقب باسم ديوجين.

اقرو قدامه بذنوبهم وما فعلوه وما هم معتقلين عليه. وكان معهم رجلا قد اصاب وديعة في الارض لها مقدار، فاعتقل عليها حتى يظهرها، ولمحبته للدنيا لم يريد ان يظهرها فاعتقل بهذا السبب، وكان قد اوصاه عند دخوله الى السجن بوصية لاولاده يعرفهم المكان الذى فيه الوديعة ليلا يموت في الاعتقال ويضيع ماله، فلما علم هذا الانسان انه رفاع للولاة ندم على ما قاله له وكان يشتهي ان يقتله في الليل، ولم يكن له ما يقتله به

---

* خرب الثوار الزهراء ضاحية قرطبة فتحولت إلى اطلال.

* لم يحج أحد في هذه السنة من العراق خوفاً من قطاع الطرق بينما حج أهل مصر وغيرها كالعادة.

سنة ٤٠٢ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٤ أغسطس ١٠١١م.

* استولى السلطان محمود الغزنوى على قصدار وأمن ملكها بعد أن حصل على ما كان ملتزماً به من المال وقدره ١٥ مليون درهم، وسبق أن قضى على عبث الغوريين بشمال الهند وقتل زعيمهم ابن سورى، وأتجه قبل نهاية العام مرة ثانية إلى الهند وقضى على مؤامرات داود القرمطى صاحب الملتان.

* عاد الخليفة الحاكم إلى نزواته الأولى فأمر باغلاق دار العلم وأوقف الأرزاق التى كان يجريها على القراء والغرباء والفقراء. ورجع عن ميله إلى اعتناق المذهب المالكى ومن الخطبة في المساجد وكان قد جهز مسجد عمرو بتنور من فضة يوقد فيه ١٢٠ فتيلا وفرش الأزهر بالبسط الفاخرة.

* عقد الخليفة العباسى ببغداد مجلساً قرئت فيه وثيقة تضمنت القدح في أنساب

فكان ياتى الى جراحه التى اصابته من ضرب السياط ويذر عليها من اوساخ السجن وعكارة ما انعقد فى سقوفه من الانفاس الردية ما يوديه الى موته، فاذا ناله من ذلك الالم فيصيح ويقول له: قتلتنى يا هذا الانسان. ولا يجيبه احد من الناس ولا من الموكلين بالسجن لانهم كانو يريدو موته، فعلم ان الله قد انتقم منه لاجل ما فعله مع ابونا البطرك وغيره من المومنين الصالحين.

حكم الامبراطور رومانوس الرابع ديوجين Diogenes ١٠٦٨،

هكذا وصل ذلك الجندى المحترف الى العرش عام ١٠٦٨م، وكفل ابن زوجته الامبراطورة من زوجها الراحل، وكان يسمى ميخائيل، وكان لا يزال قاصرا وتعهد ديوجين بحفظ العرش له حتى يبلغ سن الرشد.

ولما كان رومانوس ديوجين من أعضاء المؤسسة العسكرية، ففد حاول أن يجعل هدفه الاوحد هو اعادة بناء الجيش بالقدر الكاف، الذى يمكنه من انقاذ ما يمكن انقاذه من الامبراطورية

الفاطميين وعقائدهم بانهم خوارج لانسب لهم وكفار وزنادقة وأقر الوثيقة التى أرسلت إلى الأمصار فقهاء العصر منهم القدورى والأكفانى والشريف الرضى والاسفراييني.

* استولى لؤلؤ الجراحى مولى سعد الدولة الحمدانى على حلب من صالح المرداسى وأخرجه منها.

* سمح السلطان فخر الملك للشيعة فى العراق بالعودة إلى إحياء يوم عاشوراء بالنواح والبكاء والانتحار وتعليق المسوح وغلق الأسواق.

سنة ٤٠٣ هجرية

وافق هلال المحرم من هذه السنة يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٠١٢م.

* جددت البيعة للخليفة الأموى الأندلسى سليمان المستعين بالله وذلك للمرة الثانية وكان اخر من تولى من بيت عبدالرحمن الداخل واستيلاء الحموديين على قرطبة.

* تولى وزارة الخليفة الحاكم بالله الفاطمى أمين الأمناء الحسين بن طاهر الوزان وكان على بيت المال.

* بعث السلطان محمود الغزنوى برسالة الخليفة الحاكم الفاطمى الذى دعاه فيها للدخول فى طاعته إلى الخليفة العباسى ببغداد.

المتداعية، ولهذا عكف على اصلاح الجيش، وتقوية نقاط الضعف، واكمال جوانب النقص، لانه حدد أزمة الامبراطورية فى علة واحدة، هى عجزها عن وضع حد حاسم لغارات السلاجقة على ولاياتها الاسيوية، وترويع مواطنيها، ونهب ممتلكاتهم. وكان الرأى العام فى القسطنطينية يطالب بعمل حربى حاسم ضد السلاجقة، كما كان مواطنى الولايات الاسيوية الشرقية يطالبون حكومة الدولة التى يدفعون لها الضرائب، أن تقوم بحمايتهم من النهب والسلب

انظرو يا اخوتى المومنين ان واحد من الناس الواصلين من اسكندرية الى مصر [الفسطاط] حضر الى ابونا البطرك وعرفه ما نال هذا الشماس من العذاب وظن انه يفرح بذلك. فقال: الله يغفر له ذنوبه التى اوقعته فى هذه التجارب. فعجب الحاضرين من ذلك وسبحو الله وقالو: ما راينا مثل هذا قط. وكان يدعو الى الله ان يخلصه من هذا الضيق الذى انتهى اليه ليلا تهلك نفسه قبل توبته. لانه كما قال اشيعا النبى بان الله لا يريد موت

---

* توفى من رجال الحكم فى هذا التاريخ: السلطان أبو نصر بهاء الدولة البويهى وهو الذى خلع الخليفة الطائع وولى القادر الخلافة وله من العمر ٤٣ سنة حكم منها ٢٥ سنة، توفى بأرجان (٥ جمادى الثانية) ودفن بالكوفة.

* وفيها توفى أمير جرجان وطبرستان شمس المعالى قابوس بن وشمكير مؤسس الدولة الزيارية بعد حكم دام ١٥ سنة، توفى مقتولا، له كتاب (كمال البلاغة) وهو مطبوع.

* وفيها توفى كذلك من رجال الحكم: المؤيد الأموى(هشام بن الحكم) من خلفاء الدولة الأموية بالأندلس ومن أحفاد عبدالرحمن وله من العمر ٤٨ عاماً، وفيها توفى ملك الترك إيلكخان وخلفه أخوه طغان خان الذى راسل محمود الغزنوى وصالحه، وفيها توفى الأمير الزيدى يوسف بن يحيى الداعى.

سنة ٤٠٤ هجرية

أستهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ١٣ يوليو ١٠١٣م.

* أعلن الخليفة الحاكم بالله الفاطمى ابن عمه عبدالرحيم بن الياس ولى عهد له على غير رضاء من عمته ست الملك.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

الخاطى حتى يتوب. ولما طال اعتقاله ولم يكن له ما ياخذ منه الوالى احضره اليه وقال له: هوذا انا اطلقك ومتى ما سمعت عنك انك اذيت تاجرا او غيره فلا تخلص من يدى مرة اخرى. وكانت القروح التى اصابته من ضرب السياط وذر عليها ذلك الرجل الذى معه فى السجن ذلك البلا خوفا منه تدمل عليه الى حين وفاته، وكان يريد لها فى كل يوم ما يلبسه حتى يغسل لباسه منها منجل [من أجل] أنها كانت لا تبرا ولا تقبل الدوا. ولما

والخراب الذى يلحقه بهم السلاجقة. وهكذا وضع رومانوس ديوجين ذلك نصب عينيه ولم يضيع وقتا بعد توليه الحكم، اذ شرع على الفور فى اصلاح وترميم الحصون والقلاع الهامة على طول حدود البلاد، وفى عجلة من الزمن قام بتجنيد أكبر عدد ممكن من المرتزقة من كافة الاجناس والقوميات، وحرص على اختيار ضباط اكفاء، يتولون قيادتهم، وتدريبهم، وتعويدهم على النظام والطاعة، وقد أثمر هذا المجهود الشاق، والجهد المضنى، فى نجاح رومانوس

---

* أقام الخليفة الأندلسى سليمان المستعين أنصاره من البربر حكاماً للولايات ومنهم على بن حمود صاحب سبتة الذى انقلب عليه وأطاح به بعد قليل.

* أمر الحاكم بأمر الله بقطع يدى وزيره أبى القاسم الجرجرانى.

* بدا أن الحاكم قد رجع من بعض معتقداته المتطرفه فأمر بنفى المنجمين من مصر واعتق أكثر مماليكه وأمر بمنع النساء من المشى فى الأسواق.

* أوقع السلطان محمود الغزنوى هزيمة جديدة بالهندوك فكتب الخليفة له عهداً بما فى يده من الممالك ولقبه نظام الدين ويمين الدين.

* توفى فى هذه السنة من رجال الحكم: سلطان اليمن الإمام الزيدى المهدى لدين الله (الحسن ابن القاسم) عن ٢٤ عاماً قتل فى حرب مع معارضيه، له تفسير غريب القرآن وفيها توفى أمير بادية الشام مفرج بن دغفل كان نائب الخليفة المعز الفاطمى.

سنة ٤٠٥ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الجمعة ٢ يوليو ١٠١٤م.

* قرأ الخليفة القادر العباسى ببغداد فى حفل عام عهد السلطان ركن الدين البويهى (ابن

ناله من البلا والفضيحة والخزى مضى الى الناحية التى كان يسكنها قريبا من صا واخذ زوجته واولاده وعاد الى البلد الذى ولد فيها من اعمال البشمور وهى البجوم [قرب ادكو]، فسكن بها. فلما بلغ ابونا ذلك شكر الله وقال كما قال داود النبى: مبارك الرب الذى لم تبعد صلاتى ولا رحمته عنى.

وبعد ذلك بدد الله الشكوك وفاعلى الاثم وكانت سلامة عظيمة في البيعة والبرية المقدسة وكان ابونا مواصل الدعا والابتهال الى الله سبحنه

ديوجين في تجهيز جيش، أصبح جاهزا للعمل في ربيع عام ١٠٦٨م وكان يقوده بنفسه.

كانت استراتيجية رومانوس ديوجين تعتمد على الحروب الخاطفة Blitzlrieg، والتي تقوم على المبدأ الروماني القديم: «اقتف أثر العدو، ودمره، ثم عد» وذلك عن طريق قوة متحركة غير ثابتة، وكانت المناطق التي حددها الامبراطورية في ثغور أعالي الشام، وثغور أعالي بلاد النهرين، وعند أرمينيا، ومن ثم وضع خطة لاغلاق هذه المنافذ، وخلق

بهاء الدولة) ولقبه جلال الدولة وجمال الملة وركن الدين وهو أول من حمل هذا اللقب الأخير.

* انتزع السلطان محمود الغزنوى حصن تيسر (تانيشر) من الهنادكة بعد أن استماتوا فى الدفاع عنه فحطم ما به من الأصنام وحمل الغنائم من الأموال والفيلة عائداً إلى غزنة.

* تولى قضاء مصر أبو العباس أحمد بن أبى العوام وكان مشرفاً على دار القرب وعلى شئون المساجد.

* توفى أمين الأمناء الوزير المصرى الحسن بن طاهر الوزان ، وكان على بيت المال فى خلافة الحاكم ثم تولى وزارته حتى انقلب عليه الحاكم واغتاله، كما أمر بقتل وزيره أبى العباس الفضل بن جعفر بعد خمسة أيام من وزارته وخلفه أبو الحسن على ابن جعفر الكتامى.

سنة ٤٠٦ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الثلاثاء ٢١ يونية ١٠١٥م.

* عبر على بن حمود الادريسى صاحب سبتة البحر إلى الأندلس ودخل مالقة بمساعدة شيعته وساروا قاصدين قرطبة، وجرت معركة حاسمة فى ظاهرها هزم فيها الخليفة هشام المستعين.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

وتعا[لى] ان يقويه على ما يناله من ولاة الظلم، لانه كان زمان ردى وسلطان ظالم ممتلى من السو بقدر اعمال اهل تلك الارض.

والان نذكر يسيرا مما جرى للاب انبا شنوده. انه لما جرت السلامة فى البيعة وطابت نفسه ونفوس الشعب المسيحى كان يداوم الدعا والابتهال الى الله فى كل حين، ويقول: انا اسلك [اسالك] يا ربى والاهى يسوع المسيح ان تحفظ شعبك من البلايا اما انا فانى استحق ما نالنى من التجارب

منطقة عازلة غير ماهولة، بين حدود الامبراطورية مع الشام وأعالى الرافدين، وأن يتم ذلك على ثلاثة مراحل.

كانت المرحلة الاولى تجريد حملة ضد امارة حلب فى أعالى الشام عام ١٠٦٨م، وبالفعل نجحت هذه الحملة فى سحق قوات محمود بن نصر المرادسى أمير حلب ومن معه من التركمان والعرب؛ واستولى على حصونها، ودمرها، غير أنه اضطر الى العودة قبل أن أن يكمل أهداف الحملة، وذلك أن الأنباء وردت اليه أن

---

* تولى المعز بن باديس إمارة افريقية (تونس والمغرب الأوسط) وأقره الحاكم بالله الفاطمى ولقبه شرف الدولة.

* منع الوزير فخر الملك الشيعة من إقامة الحداد والنواح فى يوم عاشوراء درءاً للفتنة.

* استولى أبو نصر المنصور بن لؤلؤ على حلب فزال آخر حكم للحمدانيين بحلب ودانت حلب للخليفة الفاطمى بمصر.

سنة ٤٠٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ١٠ يونية ١٠١٦م.

* دخل على بن حمود مدينة قرطبة (٢٨ محرم) ودعا إلى البيعة لنفسه فبويع بالخلافة وتلقبت بالناصر لدين الله وبه بدأت صفحة الدولة الحمودية بالأندلس.

* ضم السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى خوارزم إلى إمبراطوريته وبعد معاركه حمل يمين الدولة آلاف الأسرى معه إلى غزنة ثم أفرج عنهم وأجرى عليه الأرزاق وسيرهم إلى الهند حراساً على فتوحه فيها.

* ولى الخليفة الحاكم الفاطمى غلامه فاتك الرومى أميراً على حلب ولقبه عزيز الدولة.

أحد زعماء التركمان ـ واسمه أفشين ـ بدأ بشن غارات على عمق من أراضي الامبراطورية بالقرب من أرمينية. وفي العام التالي عام ١٠٦٩م كانت المرحلة الثانية في الشام أيضا ليكمل ما بدأه، وتوغل في أعالي الشام مستوليا على منبج من أعمال حلب Beroia (وكانت قديما تسمى هيرابولس Hierapolis) والتي تقع الى الشمال الشرقي منها، وخربها، وطرد سكانها، وأسر بعضا منهم، ثم واصل سيره الى الشمال من حلب نحو بلدة اعزاز، ففعل نفس الشئ،

منجل [من أجل] خطاياى لكن لاجل رحمتك احفظ شعبك وغنم رعيتك والبيعة الطاهرة التى اشتريتها بدمك الزكى ويكون هذا الشعب تحت الهدو والسلامة بغير اضطراب، وهو مواصل الشكر والدعا لله فى هذا الوجه لا يفتر ليلا ولا نهارا. وان المبغض للخير الشيطان لم يصبر. ولما نظر ان الله قد بدد القوم الذين كانو فى حزبه وهم وعا له يتكلم فيهم، قلق واراد ان يقيم على البيعة بلايا واحزان ليرى ويفرح، فنصب فخا ودخل الى الوعا

---

* تجددت الفتنة بين الشيعة وأهل السنة بواسط فهرب وجوه الشيعة إلى الجزيرة (العراق).

* خرج محمود الغزنوى بعد استيلاءه على خوارزم إلى الهند غازيا لعامه وقصد مملكة كشمير التى أعلن ملكها مع شعبه دخلوه فى الإسلام ثم سار لفتح قنوج مكتسحاً كل ما فى طريقه من مقاومة بما فى ذلك حصن مهاون على نهر جمنة.

* توفى فى هذه السنة آخر خلفاء الدولة الأموى بالأندلس المستعين بالله سليمان بن الحكم قبض عليه على بن حمودفى زحفه على قرطبة وقتله مع أهل بيته.

سنة ٤٠٨ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الخميس ٣٠ مايو ١٠١٧م.

* بويع بالخلافة فى الأندلس القاسم بن حمود وكان أميراً لاشبيلية وذلك بعد ستة أيام من مقتل أخيه الناصر لدين الله على بن حمود أول الخلفاء الحموديين بقرطبة.

* تولى إمارة دمشق من قبل الخليفة الحاكم الفاطمى سديد الدولة أبو منصور ولم يستمر سوى بضعة شهور.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

الجـديد الذى هو راهب من دير ابو يحنس بوادى هبيب، كان قد ظهر له فى الديارات فعل سو من صغره، وكان جنسه من مريوط وكان معروفا بالسعاية والكذب ليس فيه رحمة، كما قال بولس الرسول فى رسالته الى أهل رومية: كما انهم لم يحزنو ويجعلو الله لهم حافظا اسلمهم الرب لشهوات نفوسهم فقست قلوبهم ليفعلو ما لا يجب فعله سرا [من] ظلم وغش وحسد ومكر سو شريرين سبايين. وصار هذا الراهب مسكنا جديدا

وكان هدفه خلق حزام أمنى على طول حدود الامبرطورية مع الشام، ولم يتم رومانوس ديوجين عمله على الوجه الاتم بسبب تناقص المؤن، وظهور أعراض وباء فى جيشه. أما المرحلة الثالثة فقد كانت فى عام ١٠٧١، والتى انتهت بكارثة ملاذكرد..

كارثة هزيمة منزكرت عام ١٠٧١م:

لقد كان عام ١٠٧١م بحق هو عام الكوارث بالنسبة لامبراطورية الروم، فبعد فترة وجيزة من سقوط

---

* تولى أبو المظفر شرف الدولة أرسلان خان عرش بلاد ماوراء النهر (سمرقند وفرغانة) خلفاً لأخيه طغان خان بينما تولى عرش بخارى أخوه قدرخان يوسف

* عظمت سطوة العيارين ببغداد فافسدوا ونهبوا. بينما استمرت الفتنة بين الشيعة وأهل السنة بالكرخ وقتل فيها خلق كثير.

* قدم سلطان الدولة البويهى بغداد فضرب له الطبل فى أوقات الصلوات الخمس على غير العادة.

* توفى بقرطبة أول ملوك الخلافة الحمودية بالأندلس الناصر على بن حمود عن ٥٤ عاماً إغتاله بعض خدمه (٢٨ القعدة) بعد أن استولى عليها من المستعين الأموى ولم تدم خلافته سوى عدة أشهر.

سنة ٤٠٩ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الثلاثاء ٢٠ مايو ١٠١٨م.

* جرت معرك حاسمة بالقرب من غرناطة بين عبدالرحمن المرتضى المطالب بعرش الخلافة الأموية وبين الحموديين وفيها هزم المرتضى وقتل.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

بارى، خرج رومانوس ديوجين على رأس جيشه فى حملته الثالثة من سلسلة حملاته لضرب السلاجقة، بل كانت هذه الحملة الثالثة هى الحاسمة لأن الحملتين السابقتين لم تكونا سوى تمهيدا لها. ومن أجل ذلك جند أعدادا غفيرة من المرتزقة من الروس والخزر، واللان والغز، والقفجق والكرج، ومن الفرنجة والارمن ، مما نتج عنه أن أصبح جيشه ـ بالرغم من عدده وعدته ـ، أقل تماسكا وانضباطا، بل أقل خبرة

للشيطان وكان متظاهرا بالديانة فى بادية امره وكان الشيطان يقول له: ايها الاخ هوذا انت قد لبست هذا الاسكيم وليس يجب لك ان تفعل هذه الافعال لكن يصلح لك ان تخلى هذه الامور الذميمة وتمضى الى الاب البطرك يصلحك شماسا حتى تكمل وتصير من الرهبان القديسين. فلما طرح هذا الفكر فى قلبه فقال فى نفسه ان هذا فكر صالح، ولم يكن يشاور احد من الابا ليهديه الى طريق الصواب، وكان هذا فعله فى

---

* توفى مقتولاً الأميرالأندلسى الأموى عبد الرحمن المرتضى بن محمد المطالب بالخلافة بعد عامين من الدعوة له.

* فيها توفى من رجال الحكم: وزير الوزراء الفاطمى ذو الرياستين المظفر قطب الدولة على بن جعفر بن فلاح توفى اغتيالاً، وفيها توفى الأمير العباسى الغالب بالله ابن الخليفة القادر عن ٢٧ عاماً وكان قد بويع له بالخلافة ولكنه مات قبل أن يليها.

سنة ٤١٠ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ٩ مايو ١٠١٩م

* استولى السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى على قنوج إحدى الإمارات الهندوكية الكبرى فى شمال الهند واستسلم إليه ملكها راجا بالهن (راجيبال) ودخل مع قومه فى الإسلام، وبعث السلطان إلى الخليفة القادر بخبر بما فتحه الله عليه من بلاد الهند.

* ثار أهل صقلية على أميرهم أبو الفتوح يوسف الكلبى وحاصروا قصر الإمارة بسبب إبنه جعفر الذى ساءت سيرته فغادر الجزيرة وتولى الإمارة إبنه أسد الدولة أحمد الأكحل للمرة الثانية.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

جـمـيع ايامـه، وكـان يرذل مـشـاورة الابا لقلة [دينـ]ـه، ويثبت على ما يوعيه له الشيطان من الفكر الردى فى قلبه. فنهض من البـرية مـوضـع الانفراد والعباده ونزل الى [الر]يف موضع القلق والزنا، وقال: ان البطرك يعرف افعالى انها ذميمة من صبـاى فـان انا مـضـيت اليـه ليس يتـمم لى شهـوتى. [فـ]لما مـضى الى بعض الاراخنة بمـصـر واسلهم ان يكتبوا لى كتابا ليوسم شماسا، فقام ومـضى الى فـسطاط مصر واجتمع [بـ]قوم من

ودراية بفنون القـتـال، ولقـد ارتكب رومانوس ديوجين عدة أخطاء فادحة، منها أنه لم يرسل فرقة للاستطلاع كعادة الجيوش الكبيرة لرصد تحركات العدو ومواقعه حتى يكون على علم بالموقف قبل أن يتوجه بجيشه الى حدود فارس؛ بينما كانت جواسيس الامبراطور آلب آرسلان تحيطه علما أول بأول عن جيوش الروم وتحركاتها، بل كـانت المعلومـات تصل اليه من داخل معسكر الروم عن طريق الجنود المرتزقة من القبائل الاسيوية، وكان

سنة ٤١١ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ٢٧ ابريل ١٠٢٠م.

* فى ليلة الثلاثاء ٢٨ شوال من السنة خرج الخليفة الحاكم الفاطمى إلى صحراء القاهرة ولم يعرف له خبر منذ هذا التاريخ وله من العمر ٣٦ سنة و٧ أشهر ودام حكمه نحواً من ٢٥ سنة واتهمت عمته مع ابن دواس شيخ الشيوخ بتدبير قتله حماية للبيت الفاطمى.

* بويع بالخلافة الفاطمية فى مصر أبو الحسن على الملقب بالظاهر لإعزاز الدين خلفاً لأبيه الحاكم بأمر الله وذلكن بعد سبعة أيام من إختفاء الحاكم، والخليفة الجديد صبى له من العمر إحدى عشرة سنة كان فى مثل سن أبيه حين تولى الخلافة، فخرج بتدبير من عمته ست الملك فى موكب عظيم على رأسه تاج جده المعز وبين يديه الوزير وأرباب الدولة.

* تألف حزب هندوكى بزعامة راجابيدا للقضاء على الوجود الإسلامى فى الهند فخرج إليهم محمود الغزنوى حتى بلغ نهر الكنج وعبره لأول مرة حتى بلغ معقل مارى فاستولى عليه ثم أوقع بقوات الحلف قتلا وأسراً ونجا زعيمه بيدا هرباً.

* ثار عزيز الدولة فاتك الواحدى أمير حلب على مولاه الخليفة الفاطمى وقطع خطبته ودعا لنفسه مستعيناً بامبراطور الروم باسيل الثانى.

السلطان ألب أرسلان قد علم بأمر هذه الحملة عند عبوره نهر الفرات عائدا الى خراسان، فلما اكتشف مكان ديوجين، وتوافرت لديه كافة المعلومات عن قواته، قرر أن ينصب فخا لاصطياده وقواته داخل وادى منزكرت في اقليم ارزروم. وكانت بداية الالتحام عندما نجح أحد قادته واسمه صندوق في مهاجمة مقدمة جيش الروم، واحداث ثغرة في دفاعاته،وعلى أثر ذلك بعث السلطان ألب آرسلان الى رومانوس ديوجين

الكتاب النصارى الذين لا يعرفون ذميم طريقته وسالهم سوالا عظيما. فمن جودة اعتقادهم في الرهبان كتبو له كتابا الى الاب البطرك فيما التمسه منهم. وكان ابونا باعمال الشرق مقيما بوجع النقرس وهو يتزايد به، فلما وصل هذا الراهب الى باب البطرك كان في الساعة التاسعة من النهار، فخرج بعض اولاده وهو حزين لشدة وجعه وهو باكيا لما يناله من ذلك، فقال لهم: انى اريد الاجتماع بابونا البطرك فان معى كتبا من

---

* توفي شيخ الشيوخ سيف الدولة الحسين بن دواس الكتامي صاحب الأمر في دولة الفاطميين بعيد اختفاء الحاكم وقيل بتدبير من ست الملك عمة الحاكم والوصية على الخليفة الجديد، كما توفي حول التاريخ نفسه أبو عبدالله الدرزى الداعية الشيعي وإليه تنسب الطائفة الدرزية أو الدروز وكان قد وفد على مصر منذ عام ٤٠٧ ودخل في خدمة الحاكم.

سنة ٤١٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ١٧ ابريل ١٠٢١م.

* دخل قرطبة يحيى بن على الحمودى فخرج منها عمه المأمون منسحباً إلى اشبيلية وبويع يحيى بالخلافة وتلقب بالمعتلى بالله (أول جمادى).

* عاد السلطان الغزنوى يمين الدولة محمود إلى الهند وأخضع ولاية كوليار لسلطانه وصالح راجا جندله على الطاعة وعلى مال معلوم.

* استولى المؤيد جناح الحبشى على اليمن مؤسساً ما يعرف بالدولة الجناحية.

* استقل مجاهد العامرى بكورة دانية ومد سلطانه إلى الجزائر الشرقية فكان ذلك بداية الدولة العامرية بالأندلس.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

جهة الكتاب الاراخنة بمصر واريد ان اوقفه عليها. فقالو له: يا اخونا الراهب ما سمعت ما نحن فيه وانه وجعا من مدة طويلة من النقرس ولا يقدر احد يخاطبه ولا يقول له قولا من شدة الوجع، لكن عرفنا حاجتك التى [وصلـ]ت لاجلها وما تريده، او تصبر لعل الله الرحوم يرزقه العافية تجتمع به ويجاوبك عن كتبك. فلما سمع [الغير] راهب من اولاد القلاية هذا ظهر الشر فى وجهه وعبس مثل الشيطان وقال لهم: كتاب مصر الذى كتبو لى

يعرض عليه الصلح، غير أن الامبراطور ا لمغرور، المتعجل للنصر بأى ثمن، رفض هذا العرض، مقررا أن المعركة هي الفيصل الحاسم.

وفى صبيحة يوم الجمعة الموافق الثامن عشر من أغسطس عام ١٠٧١م، وعند موضع يعرف بالزهرة فى شمال بحيرة «وان» فى أرمينيا، نفذ السلطان السلجوقى خطته بدقة، فما أن اطمأن أن جيش الروم قد دخل الوادى، حتى أغلق مخارجه، وفوجئ رومانوس ديوجين بان عليه القتال

سنة ٤١٣ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الجمعة ٦ ابريل ١٠٢٢م.

* السنة الثانية لخلافة الظاهر لاعزاز الدين الفاطمى فى مصر.

* أعلن البربر فى الأندلس خلع الخليفة الحمودى يحيى المعتلى (١٢ القعدة) ولم يكن قد مضت على خلافته سوى ١٨ شهراً وغادر قرطبة إلى مالقة وجددت البيعة لعمه القاسم الحمودى.

* وقع الصلح بين مشرف الدولة وأخيه سلطان الدولة على أن يكون العراق كله للأول وان يكون فارس وكرمان للثانى.

* توفى من رجال الحكم: عزيز الدولة فاتك الرومى أمير حلب من قبل الفاطميين اغتاله غلام هندى وهو نائم وهو الذى ألف له المعرى كتابه (رسالة الصاهل والشاحج)، وفيها توفى القائد المغربى أبو عبدالله ابن الحسن وزير المعز بن باديس صاحب أفريقية توفى مقتولاً.

سنة ٤١٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٢٦ مارس ١٠٢٣م.

* أعلن أهل قرطبة خلع الخليفة القاسم الحمودى للمرة الثانية (جمادى الآخرة) وحاصر

[و] اريد تمام ما جيت بسببه، وانكم ايها القوم الذين يمنعونى من الاجتماع به وتقولو انه عليل، واذا كان هذا [فا]نى امضى انا واعمل ما اريد من الشر. فلما قال هذا بغضبا قالو له الاخوة: هوذا نراك تتكلم بكلام الجبابرة ونحن [مثلك] حضرنا وما وجدنا سبيل للاجتماع به، فتقيم اليوم هاهنا الى الغداة ندخل بك اليه وسلم اليه الكتب الذين معك كما تزعم. فلما [فلم] يميل الى قولهم ولا رجع الى رايهم لما قد داخله من الافكار الشيطانية،

حتى الموت أو الاستسلام ، وكانت قوات السلطان السلجوقى تتكون من أمهر الرماة من الفرسان خفيفى العتاد والحركة، والقدرة على المناورة، بينما كانت قوات رومانوس ديوجين تتكون من الفرسان المدججين بالسلاح الثقيل الذى يحد من قدرتهم على المناورة والتحرك، ولما رأت القوات المرتزقة من التركمان والاتراك، العاملة فى جيش الروم هذا الموقف اليائس، استجابت لنداء العاطفة مع أبناء عمومتها السلاجقة، فانسحبت معلنة انضمامها الى قوات آلب آرسلان.و

البربر المدينة ٥٠ يوماً فلجأ القاسم إلى أشبيلية ولكنها لم تفتح أبوابها له، وأخذت البيعة لعبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار حفيد الناصر (١٣ رمضان) وتلقب بالمستظهر بالله وله من العمر ٢٣ سنة ولكن لم تدم خلافته كذلك سوى ٤٧ يوماً.

* ثار أهل قرطبة على المستظهر الأموى وهاجمت العامة قصره فهرب مختفياً وبويع بالخلافة محمد بن عبدالرحمن بن عبدالله (حفيد آخر للناصر) وتلقب بالمستكفى بالله وله من العمر ٤٢ عاماً وفى أيامه شاع الخراب فى قصور الزهراء.

* دخل السلطان البويهى الجديد مشرف الدولة إلى بغداد فخرج للقاءه الخليفة القادر على غير ما جرى به العرف.

* جرى بمكة يوم العيد بعد صلاة الجمعة أن قام درويش كان قد جاء من مصر وضرب الحجر الأسود بعمود كان يحمله حتى تقشر جزء من وجهه ففتك به الحجاج، أما الحجر فقد عجن ما تفتت منه بالمك وأعيد إلى موضعه.

* غزا السلطان محمود الغزنوى الهند واكتسح إقليم الكجرات، وبعث إلى الخليفة القائم العباسى برسالة بسط فيها أخبار فتوحاته ووقعها بـ «عبد مولانا أمير المؤمنين وصنيعته محمود ابن سبكتكين».

وتكلم بالقبيح من لسانه الشيطانى فلم يجيبوه عن كلامه بلفظه واحدة لانهم كانو مشغولين بوجع الاب البطرك، وخرج من عندهم وقد امتلى من الافكار الشيطانية وحمى صدره ووغر قلبه واظلمت عيناه عن الافكار الصالحة، كما قال داوود النبى: مالو جميعا ورذلو وليس من يعمل صالحا ولا واحد، حناجرهم قبور مفتحة، والسنتهم غاشة، سم الافاعى تحت شفاههم. هولا الذين افواههم مملوة لعنة ومراة وارجلهم سريعة لسفك

بالرغم من ذلك فقد كان فى مقدور جيش الروم أن يتصرف بطريقة أفضل، لأنه كان لا يزال هو الاكثر عددا وعدة، لكن فجأة قرر المرتزقة اللاتين اعلان حيادهم، وانسحبوا الى تل عال، ليتفرجوا على المعركة، وقد أدى انسحاب اللاتين ا لى فوضى عارمة، وتفرق جيش رومانوس الى مجموعات قتالية متباعدة، ولقد قدم لنا ابن العديم وصفا دقيقا للمعركة، وذكر أنه فى اللحظة التى كان فيها خطباء صلاة الجمعة على المنابر يدعون بالنصر للسلطان السلجوقى،

---

* توفى باشبيلية القاضى اين عباد المؤسس الأول لدولة بنى عباد باشبيلية وكان قد ولاه المنصور ابن أبى عامر فى الأصل قاضيا عليها.

سنة ٤١٥ هجرية

وافق هلال الأول من المحرم في هذه السنة يوم الأحد ١٥ مارس ١٠٢٤م.

* عبر السلطان محمود الغزنوى نهر جيحون وأسر الزعيم السلجوقى إسرائيل ابن سلجوق عم طغرلبك.

* بذل الخليفة الفاطمى الظاهر الأموال الجزيلة لحجاج مكة كسباً لدعوة الفاطمية الشيعية مما أثار الخليفة العباسى فأعيد كثير من الهدايا إلى بغداد واحرقت بها.

* تجددت الفتن بين الشيعة وأهل السنة فى البصرة بعد أن منع الشيعة من النواح فى يوم عاشوراء.

* تولى وزارة الخليفة الظاهر الفاطمى نجيب الدولة على بن أحمد الجرجرائى بعد وفاة عمته ست الملك وكانت الوصية على الظاهر، وكان الحاكم قد أمر بقطع يدى وزيره قبل ١٦ عاماً خلت.

الدما موضع السلامة لم يعرفوه وليس خوف الله امامهم. فخرج من عندهم ومضى الى مريوط الضيعة التى ولد فيها، وكان اهله بها سكانا فاقام بها اياما يتدبر بما يريد ان يفعله بابونا البطرك من البلايا، فاول ما فعل من الشر الذى رتبه له ابوه الشيطان انه كان يمضى الى والى [بعد] والى ويعرفه انه يريد المضى الى مصر ويقول لهم ان فى الاعمال للبطرك مالا وابقار واغنام واواسى وغير ذلك فاحفظ[ـه] الى ان يصل لك كتاب الوالى

كانت المعركة تدور رحاها، فقد حمل رومانوس بقواته على الجيش السلجوقى، لكن آلب آرسلان سحبه الى الكمين، وبدأ فى سحق قواته بلا رحمة، بالرغم من أن مجموعات جيش الروم قد قاتلت ببسالة، غير أن الذعر من الموقف اليائس جعلهم يهملون تدعيم الحراسة حول رومانوس، فوقع فى الاسر، وخارت قوى القوات الرومية، فاستلمت، واستولى السلاجقة على عتادهم، وأسروا منهم أقواما لا تعد ولا تحصى، وامتلأ الوادى بجثث قتلاهم.

---

* توفيت بالقاهرة عن ٥٦ عاماً ست الملك بنت الخليفة العزيز الفاطمى وأخت الخليفة الحاكم وهى التى دبرت كما قيل قتله انقاذاً من مصير الخلافة الفاطمية فى مصر.

سنة ٤١٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الخميس ٤ مارس ١٠٢٥م.

* خرج السلطان محمود الغزنوى إلى الهند فى غزوته الأخيرة وفيها كان دخوله معبد سومنات أعظم مقدسات الهنادكة (تطل سومنات على المحيط الهندى مقابلة لمدينة بومباى الحالية يفصل بينهما خليج كامباى) ونهب السلطان بوابة المعبد معه إلى غزنة (أعيدت عام ١٨٤٢م) كما أعيد بناء المعبد بعد استقلال الهند عام ١٩٤٧.

* خلع أهل قرطبة بيعة المستكفى بالله الأموى بعد أسابيع من توليته فخرج مستخفياً إلى مالقة (ربيع الأول) وخلعه يحيى الحمودى.

* خطب ببغداد لأبى طاهر جلال الدولة وهو بالبصرة على أثر وفاة أخيه مشرف الدولة ولكنه لم يدخلها فقطعت خطبته فى شوال وخطب لابن أخيه أبى كاليجار ابن سلطان الدولة.

بمصر. ولما وصل الى مصر كتب كتبا الى الوالى ودفعها اليه فيها يقول: الذى انهيه اليك ايها الامير ان سلطانك على جميع كورة مصر وجميع من يسمع سلطانك يخاف منه الا البطرك المقيم باسكندرية وهو يفعل افعالا تغضب الله، وذلك انه يسحر قوم من المسلمين ليدخل بهم الى البرية ويعمدهم ويقعدهم فى دينه، فان يشد منى الامير فانا امضى الى البرية واخرج بعض المسلمين الذى فيها وقد صيرهم رهبان، ويقولو البطرك الذى

ولم يكن أمام رومانوس ديوجين الا أن يقبل صاغرا شروط آلب آرسلان المهينة، فقد اعترف الامبراطور الرومى بحق الدولة السلجوقية فى امتلاك وادى منزكرت ومرعش، والرها وانطاكية ومنبج. وتعهد باطلاق سراح جميع الاسرى من الترك وأقرباءهم، الذين كانوا فى سجون القسطنطينية منذ سنوات، يرسفون فى الاغلال، ويعاملون معاملة الذل والمهانة، وتعهد بأن تدفع القسطنطينية أتاوة سنوية لسلطان

---

* غزا النورمان لأول مرة جزيرة صقلية فجهز المعز بن باديس صاحب المغرب وصقلية اسطولا من ٤٠٠ سفينة لردهم إلا أن العواصف أغرقت أكثر سفنه.

* توفى سلطان العراق مشرف الدولة البويهى (ربيع أول) وعمره ٢٣ سنة حكم منها نحواً من ٥ سنين.

* توفى منفياً الخليفة الأموى الأندلسى المستكفى بالله (محمد بن عبدالرحمن) عن ٤٤ عاماً ولم يمتد حكمه سوى ١٧ يوماً، وهو أبو الأدبية الشاعرة ولادة بنت المستكفى.

* توفى فى هذه السنة من رجال الأدب: الشاعر أبو الحسن التهامى (على ابن محمد) كان قد جاء إلى مصر متخفياً ثم حبس فى خزانة البنود وقتل فى سجنه لأسباب سياسية.

*توفى بمصر المؤرخ ابن الطحان (يحيى بن على) له تاريخ علماء مصر وله ذيل تاريخ مصر لابن يونس.

* شهدت هذه السنة وفاة باسيل الثانى امبراطور بيزنطة الذى عاصر حكمه خلافة الطائع والقادر والقائم العباسيين ودخل فى حروب مع الخليفة العزيز ثم الحاكم الفاطمى انتهت بهزيمته قبل وفاته.

جعلنا وفعل بنا هذا ثم ان الغير راهب الذى لا يستحق الاسم تيدرا ابن اوضوريطس لما اخذ هذه الافكار ممن صيره له وعا وكان يمشى امامه.

وكان الامير قد وصل له كتاب الملك بان يتسلم جميع كورة مصر، وان تكون جميع الولاة من تحت يده بخلاف ما جرت به العادة، فانه كان والى اسكندرية ليس بينه وبين الوالى بمصر معاملة ولا خطابا بل كانوا يتهادو الهدايا بينهم، وكانو

السلاجقة، وأن يمدوه بالقوات العسكرية عندما يطلب منهم ذلك، وبالرغم من أن الروم افتدوا رومانوس بمبلغ كبير قدره نصف مليون سوليدوس رومى من الذهب، الا انهم اعتبروا هذه الهزيمة عملا فرديا من جانب الامبراطور المهزوم، وبالتالى لا شان للامبراطورية به.

ولقد كان لأنباء الهزيمة فى منزكرت وقع كبير على شعب القسطنطينية، ووصفوا هذا اليوم «باليوم الرهيب» وقارنوها بهزيمة

سنة ٤١٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٢٢ فبراير ١٠٢٦م.

* عاد السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى من غزوته الكبرى والأخيرة فى الهند ودخل عاصمته غزنة فى ١٠ صفر من العام.

* تولى إمارة صقلية باتفاق أهلها صمصام الدولة حسن بن يوسف بعد مقتل أحمد الأكحل الكلبى.

*عمت الفوضى مدينة بغداد بسبب تسلط الجند الأتراك واستغلها العيارون والرعاع فى النهب والسب واحترق الكثير من البيوت والأسواق فاغلقت أبواب الحارات على أهلها.

* جرى الصلح بين قبائل كتامة وزناتة البربرية وبين المعز بن باديس الصنهاجى صاحب أفريقية فأعطوه العهود والمواثيق على الطاعة والدخول فى حكمه واشترطوا أن يوكل إليهم حفظ الطرق.

* هاجم أعراب خفاجة مدينة الأنبار ونهبوها وأحرقوا أسواقها.

* توفى من رجال الحكم: الوزير أبو سعد ابن ماكولا توفى فى حبس جلال الدولة، وفيها توفى الأمير حماد بن بلكين الصنهاجى عم المعز بن باديس صاحب أفريقية، وفيها توفى مقتولاً بصقلية أميرها أحمد الأكحل الكلبى بتدبير من المعز بن باديس لسوء سيرته.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

مـصطلحين كل الايام، وكـانو من تحت سلطان واحد. فعند وصول السجل اليه من الخليفة ببغداد فـرح فـرحـا عظيـمـا وامـر جنده ان يخـرجـو معـه ويلبسـو افـخـر ثيـابهم وزينتـهم ويمضـو معـه الى اسكندرية، ووهب لهم على سبيل الاكرام، لما ناله من الفـرح، مـا ينفـقـوه في طريقـهم. وكـان الذى انفـقـه من عنده على وجـوه دولتـه، وكـان عـددهم الف ومـايتى فـارس سوا اتباعـهم، لكل رجل منهم زوجا من الثياب الكبار الفاخرة، وعمامة من عمل

الامبراطورية الرومانية القديمة فى كـارهاى عـام ٥٢ ق.م. ورغم أنهم وافـقـوا على دفع الفـدية وشـروط الهـدنة، الا أنهم ثاروا على رومـانوس ديوجين وطالبوا بعزله ومحاكمتـه ، وبالفعل ألقى القبض عليـه وسملت عيناه، ثم أرسل إلى دير بعيد ليقضى فيه مـا تبقى له من عـمر، ولم يعش المسكين طويلا اذ مـات فى السنة التالية عام ١٠٧٢م. وفى ذلك الوقت كـان الامـيـر مـيـخـائيل دوقـاس ابن الامبراطور الراحل قسطنطين دوقاس

سنة ٤١٨ هجرية

والفقب الأول من المحرم يوم السبت ١١ فبراير ١٠٢٧م.

* بايع أهل قرطبة هشام بن محمد من حفدة عبدالرحمن الناصر بالخلافة وكان بناحية ألبونت وذلك خلفاً ليحيى الحمودى وتلقب بالمعتد بالله.

* تسلم الخليفة القادر كتاب السلطان محمود الغزنوى متضمنا أخبار فتوحاته الهندية وتخريب معبد سومنات الذى كان يضم ٥٦ سارية مصفحة بالذهب والجواهر، وفى طريق عودته أوقع بقبائل الجات الثائرة على حكمه.

* استولى الخراب على قصر معز الدولة ببغداد بعد أن جرد من اثاثه ونقبت جدرانه ، وبذلت أموال لحل ما على سقوفه من الذهب.

سنة ٤١٩ هجرية

أهل شهر المحرم في يوم الأربعاء الموافق ٣٠ يناير ١٠٢٨م.

* شغب الجند الأتراك ببغداد على السلطان جلال الدولة ونهبوا دار الوزير ابن ماكولا ودور رجال الحاشية وحصروا السلطان في قصره.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠

من يودوكيـا قـد بلغ سن الرشـيـد، فهتفوا به امبراطورا.

تحليل لاسباب ونتائج هزيمة منزكرت:

لقـد حـسـمت معـركـة منزكـرت مـصـير آسـيا الصـغـرى، فـقـد نجح السلاجقة في التوغل فيها، ولم يعد في استطاعة الروم منعهم من التسلل اليها، واستيطانها استيطانا أبديا، ولم تعد سيادة الامبـراطورية على آسيا الصغرى سوى سيادة اسمية، بينما كان المالك الحقيقي هم السلاجقة الاتراك . ولقد كان فقدان الاقاليم

البشمور، وخمسة دنانيره واعد لهم زادا وحمله في المراكب في البحر. ولما وصل الى اسكندرية اراد ان يقيم فيها واليا من قبله، وكذلك ايضا الخمس. مدن [بنتابولس] فسار الى اسكندرية كما ذكرنا ومعه هذا العسكر المجمل بالزينة القوى العزيمة، وانه لما راها فرح بها واستحسن ماواها [مأواها] واقام بها اياما واصلح امورها وما فسد منها، وكان دخوله اليها اول شهر رمضان فاقام بها الى العيد، ومن بعد ذلك عول على العودة الى مصر. فلما

---

* تولى إمارة دمشق من قبل الخليفة الظاهر الفاطمي بمصر أبو الجيوش أبو منصور أنوشتكين فاستعاد حلب وجميع الشام بعد أن أوقع (في العام التالي) بصالح ابن مرادس وابن الجراح الطائي.

* توفي في معارك الخلافة بالأندلس خيران الصقلبي وكان على مدينة المرية، وفيها توفي من رجال الحكم أبو الحسن بن طراد الأسدى في دفاعه عن الجزيرة (الاندلس) وكانت لأبيه، وفيه توفي الأمير قوام الدولة ابن السلطان بهاء الدولة فحمل تابوته إلى شيراز ودفن بها.

* وافقت هذه السنة وفاة الامبراطور البيزنطي قسطنطين الثامن وهو ابن الامبراطور رومانوس الثاني تولي الحكم مشاركة مع أخيه باسيل الثاني الذى توفي قبله بعامين، فخلفتهما أختهما زوى الثانية التي تزوجت رومانوس الثالث.

سنة ٤٢٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين ٢٠ يناير ١٠٢٩م.

* في الأندلس جددت البيعة للخليفة المعتد بالله الأموى (هشام بن محمد) بعد أن نقل مقره في هذه السنة من ألبونت إلى قرطبة وكان قد قضى بألبونت ٢٠ شهرا.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

سمع الراهب بذلك تم الرفيعة وذكر فيها البطرك والرهبان. ولما وصل الى مريوط، واقام بها يوما وليلة ليستريح عسكره من تعب الطريق قبل ان يسير الى مصر، وجد الغير راهب الوسيلة الى رفيعته بوصوله الى مريوط فرح فرحا عظيما، وقال: لقد سهل الله طريقي. ودخل الى العسكر، وخاطب من اوصله الى الوالي، فسلم اليه الرفيعة الذى كان ملاها من الشر من ابوه الشيطان، فوقف عليها وميزها وميزه ايضا، وهو واقف بين

الشرقية خاصة أرمينيا وقبادوقيا ضربة اقتصادية قاتلة، فقد وصف الاستاذ فريونيس Vryonis ذلك بأنه بمثابة فصل «الرأس عن الجسد» فقد كانت هاتان الولايتان من أغنى ولايات الروم، وكانتا تمدانها بالغلال، والرجال. والاسر الحاكمة القيادية، فقد تشتت الاسر الاقطاعية العريقة بعد أن سلبها السلاجقة اقطاعياتها، وهاجر كثير منها الى القسطنطينية، لينشر الذعر والسخط، ويدعو للثورة على العرش.

---

* توالت انتصارات السلطان محمود الغزنوى فى أقاليم الغرب فاستولت قواته على الرى فقضى على حكم آخر سلاطين بنى بويه بها وهو مجد الدولة الذى نفاه إلى خراسان، كما استسلم له منوجهر بن قابوس صاحب طبرستان وجرجان، وقبل أن ينتهى العام عبرالسلطان الغزنوى النهر إلى بخارى وأوقع بالأتراك الغز (الأوغوز) وشتتهم بين البلاد.

* عاودت قبائل زناته الخلاف مع المعز بن باديس صاحب أفريقية فاوقع بهم.

* توفى فى هذه السنة مؤرخ مصر عز الملك المُسَبِّحى (محمد بن عبدالله) عن ٦٤ عاماً له التاريخ الذى يحمل اسمه.

* ممن توفى من رجال الحكم: أسد الدولة صالح بن مرداس أمير بادية الشام وأول الأمراء المرداسيين بحلب، وفيها توفى الأمير ميكال بن سلجوق وأبو السلطان طغرلبك مؤسس الدولة السلجوقية.

سنة ٤٢١ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الجمعة ٩ يناير ١٠٣٠م.

* خلع أهل قرطبة بيعة خليفتهم المعتد بالله بعد عشرين شهراً فلجأ إلى لارْدَة فى ضيافه بنى هود.

وكما حسمت منزكرت مصير آسيا الصغرى السياسى، فقد حسمت مصيرها الحضارى أيضا، اذ انسلخت بعد ذلك تماما عن ثوبها المسيحى، وتحولت الى السيادة التركية الاسلامية، فقد حقق السلاجقة ما فشل فيه الامويون والعباسيون، اذ غلب السلاجقة المسلمون الاتراك على سكان آسيا الصغرى النصارى الاروام، بل تحول كثير من قاطنى آسيا الصغرى الى الاسلام، واستبدلوا اللغة اليونانية باللغة التركية، وخلال

يديه، فراه لابس ثياب الرهبان، فاراد ان يفعل فيه سوا وقال فى نفسه: لو لم يكن هذا كافرا لم يرفع فى اب النصارى وفى البرية، بل هذا عدوا وغير فهم. فاقلب العدو مبغض الخير فكره وطرح فى قلبه ان يقبل الرفيعة، ثم سلم الرفيعة الى كاتبه، وقال له: اكشف عن هذا الامر بتحقيق. ففعل الكاتب ما امره به الوالى. وملا الشيطان قلبه على البطرك، فقال للراهب: فى اى موضع هولا الذى جعلهم البطرك نصارى واصلحهم رهبانا: فاجاب

---

* بايع الخليفة القادر بالله العباسي لابنه أبي جعفر عبدالله بولاية العهد.

* عادت الشيعة إلى النواح في يوم عاشوراء فتجددت الفتنة بينهم وبين أهل السنة وفيها قتل جماعة من الجانبين.

* خرجت القوات البيزنطية وقوامها ٣٠٠ ألف بقيادة رومانوس الثالث زوج الامبراطورة إلى الشام حتى بلغت مفارق حلب وعليها شِبْل الدولة نصر بن صالح المِرْدَاسى واختلف أمراء الروم فيما بينهم فتراجعوا ففتك بهم العرب والأرمن ولم ينج سوى الامبراطور.

* تولى جلال الدولة محمد ابن السلطان محمود الغزنوى عرش الامبراطورية الغزنوية خلفاً لأبيه وكان نائبه على بَلْخ، غير أن الجند نادت بأخيه مسعود سلطانا، ودخل على الأثر مسعود العاصمة غَزْنة وخلع آخاه وقبض عليه وسُملت عيناه حتى لا يطمع فى العرش.

* شهدت هذه السنة وفاة السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى (١١ صفر) عن ٦١ عاماً ومؤسس الامبراطورية الغزنوية التى شملت الهند وخُراسان وفارس وما وراء النهر بعد حكم نشط استمر ٣٤ عاماً غزا خلاله الهند ١٧ غزوة وباسمه وضع المؤرخ العتبى تاريخه المسمى تاريخ يمينى.

* توفى فى هذه السنة باصبهان عن ٧٧ عاماً الفيلسوف أبو على مِيسْكَويه (أحمد بن محمد) مؤلف كتاب تهذيب الأخلاق.

وقـال لهم: في البـرية لكن ان اعطيـتنى سلطانا ورجالا يشدو منى فانني اسير الى البرية احضـرهم اليك الى مصـر. فانفذ معهم فارسين من الاتراك جـمـيع من ينظرهم يخـاف من منظرهم، وسـار معهم الذى اخذ نصيبه مع يهوذا الاسخر يوطى الى دير القـديس ابو يحنس بوادى هبـيب، فلمـا علم الابا الرهبـان الذين هناك قلقـو ومـاجـو واضطربو، ثم دخل الى قلاية احد الرهبان، وهذا كان خايفا من الله وكان بينه وبينه عداوة من قديم،

السنوات العشـر التى تلت هزيمة منزكـرت تزاوج الاتراك مع سكان آسيا الصغرى، ترمز القصة الشعبية التركية التى دارت حول هيام البطل التركى سيدى غازى بأميرة رومية والذى انتهى بزواجها منه واعتناقها الاسلام، الى التحول الدينى والثقافى الذى حدث فى اسيا الصغرى بعد هزيمة منزكـرت. ولم يقـاوم سكان آسيا الصغرى الاتراك السلجوقيين، بل على العكس فضلوا حكمـهم طوال قرون عديدة، فقد عانت ولايات آسيا

سنة ٤٢٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٢٩ ديسمبر ١٠٣٠م.

* تولى القائم بأمر الله العباسي الخلافة ببغداد خلفاً لأبيه الخليفة القادر وبعهد منه وله من العمر ٣٢ سنة وهو أبو جعفر عبدالله بن أحمد، أمه أم ولد رومية اسمها بدر الدجى.

* خرج السلطان مسعود الغزنوى لأول مرة من غزنة فاستولى على مُكْران ثم سار منها إلى كِرمان واستولى عليها ولم تلبث أن خرجت من طاعته.

* نهب الأتراك الغُز مدينة هَرَاة على أثر وفاة محمود الغزنوى ونشبت الفتنة بين ولديه.

* خرج رومانوس الثالث البيزنطي للغزو فاستولى على مدينة الرُّهَا بعد أن اشترى نصيب ابن عطير فيها وهو النصف فخرب مساجدها، كما استولى الروم على قلعة أفاميّة بالشام بتدبير مع أميرها المخلوع ابن المفرج.

* خُلع الخليفة الأندلسي المعتد بالله آخر خلفاء بني أمية بقرطبة وتولى الحكم الوزير المخضرم أبو الحزم ابن جَهْوَر.

* تولى إمارة الموصل أبو السرايا نصر الحمداني ولم يدم حكمه سوى أربعة أيام قتل بتدبير من الخليفة القائم.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

فجعلهما اوثقاه بالحديد ودخلا به الى مصر وهو لا يعلم ما سبب الامر الذى اخذ عليه. وكان يقول وهو فى الطريق: الرب معونتى فلا اخاف، الرب ناصر حياتى فلا اجزع. فلما دخل [تيدر ابن اوضوريطس] بذلك الاخ الى مصر الى كاتب الامير الذى كان الامر اليه مردود قال له: هذا من المسلمين الذين جعلهم البطرك نصارى فقال له: ماذا تقول ايها الراهب فيما قاله الراهب عنك. فاجاب وقال: انا نصرانى منذ صباى وابى وامى

الصغرى طويلا من الاستغلال منذ أيام الرومان، بل شعروا بقرابة فى العنصر واللغة مع الاتراك السلجوقيين الذين كانوا مثلهم ينتمون الى العنصر الأسيوى؛ وكان هذا الشئ هو تكرار لما فعله الاقباط المصريون عندما رحبوا بحكم المسلمين وفضلوه على حكم الروم الظالم. كما وجدوا أن لغة السلاجقة التركية أقرب الى لغاتهم الاسيوية القومية منها الى اليونانية. كما أنه لم يكن فى نية السلاجقة الانسحاب من الاقاليم الاسيوية التى

---

* شهدت هذه السنة وفاة الخليفة العباسى أبو العباس القادر بالله (أحمد بن اسحق) فى ذى الحجة عن ٧٦ عاماً حكم منها ٤١ عاماً متوالية، وهو آخر خليفة عباسى تولى الأحكام وتصدر مجالس العلم إذ كان من علماء الخلفاء.

* وفيها وقع فى أسر الغزنويين بالهند الأمير إسرائيل بن سلجوق عم طغرلبك فلقى مصرعه.

* عاصر خلافة القائم العباسى فى هذه السنة: إمبراطور بيزنطة رومانوس الثالث، والبابا يوحنا ١٩ فى روما، وهنرى الأول فى فرنسا، وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى المانيا، والملك كانوت أول ملوك انجلترا من البيت الدنماركى.

سنة ٤٢٣ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ١٩ سبتمبر ١٠٣١م.

* بعث الخليفة الظاهر من مصر بكسوة الكعبة فكسيت ولم يحج فى هذه السنة أحد من العراق أو المشرق وحج الناس من مصر.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

واهل مدينتي يعرفاني، فاما [فأما] البطرك الذى يقول عنه فان كان ابى فهو اب جميع النصارى وانا واحد منهم وهذا الرجل فاني لم اراه يوما قط لانني في البرية تربيت. وكان هذا الكاتب رجلا سو لا يخاف الله محبا للفضة والذهب كثير الشر، فاحضر اليه قوما شهدو عليه زور بانه اعترف انه كان مسلم قبل ذلك، وان بطرك النصارى جعله نصراني منذ زمان طويل، غرضا منه ان يغرم البطرك مالا. وجمع على ذلك الراهب مجمعا من

فتحوها، انما جاءوا مع جيوشهم بأسرهم، ومتاعهم بهدف الاستيطان في الاراضي التي استولوا عليها، وشرعوا في تغيير هويتها الحضارية. ومن ثم فقد قامت عدة دويلات تركمانية مستقلة تحت زعامة الاتراك في جهات كثيرة من آسيا الصغرى والشام، وبالرغم من تعرض هذه الدويلات التركمانية لمرحلة من الضعف بسبب تنازعها على السيادة فيما بينها، ووجود العصبية القبلية، غير أن أحدى هذه الدويلات السلجوقية وعاصمتها قونية -Icon

* تولى الوزير ابن جَهْوَر الحكم في قرطبة ونودى في المدينة بطرد كل أموى منها بعد أن ساءت سيرة امرائهم ووزرائهم وأنذر كل من يأوى أموياً.

* انتشر الطاعون والجدرى في المشرق كله من الهند وشمل غَزْنة وخُراسان وأصْبهان وامتد غرباً حتى دخل الموصل والجزيرة وبغداد.

سنة ٤٢٤ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الميس ٧ ديسمبر ١٠٣٢م.

* عاد الشيعة إلى إقامة المآتم في يوم عاشوراء وتصدر ذلك العيّارون وغيرهم من حرافيش بغداد وتستروا بذلك في سلب الناس أموالهم.

* تحولت البصرة إلى ميدان صراع بين جلال الدولة البويهى ومعه ابنه وبين الملك العزيز ابن أخيه عماد الدولة (ابن سلطان الدولة) الذى خُطب له على منابرها.

* ثار أهل الكَرْخ على العَيّارين (رعاع المدينة) وكبسوا دورهم ونهبوا سلاحهم.

* توفى في هذه السنة عن ٨٤ عاماً إمام اليمن الزيدى الناطق بالحق (أبو طالب يحيى بن الحسين الطالبى) مؤلف كتاب (الافادة فى تاريخ الأئمة والسادة) وكتاب (جوامع الأدلة).

* توفى من رجال العلم فى هذه السنة: قاضى حلب الفقيه الحنفى أبو الحسن العُقيلى عن

ioi، نجحت فى فرض زعامتها على قية الدويلات فى آسيا الصغرى طريقتها البدوية ا لرعوية غير لمستقرة، ولقد أطلقت الاميرة الأدبية أنا كومنينا عليهم اسم التركمان Tur-komanoi، تميزا لهم عن القبائل التركية المستقرة التى أطلقت عليها اسم الاتراك Turkoi.

ولقد كان السلطان ألب آرسلان مدركا لابعاد ذلك الانتصار، وأن أبواب الاناضول قد فتحت على مصراعيها له، غير أن المنية وافته قبل أن يقود جيشه اليها، ليتم فصل

القوم المخالفين وقرر معهم الشهادة عليهم انه مسلم، وامر ان تقلع عنه ثياب الرهبان والبسه ثياب المسلمين، واعلمهم ما قد فكر فيه من السو الذى يريد ان يفعله بالبطرك. واحضره مجلس الشهود الزور وهو لابس الثياب الذى البسه اياها ووعده بمال يدفعه اليه اذا هو جدد الاسلام بين يدى الشهود ايضا، فلم يقدر احد يرده عن الامانة المستقيمة. وكان كلما فعلو به شى مما يريدو لا يزداد الا ايمانا وهو يصيح ويقول: انا نصرانى وابى

---

٤٤ عاماً اغتاله لصوص الأعراب على طريق الحج، وفيها توفى الواعظ الصوفى البغدادى ابن السَمَّاك (أحمد بن حسين) عن ٩٥ عاماً.

سنة ٤٢٥ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الاثنين ٢٦ نوفمبر ١٠٣٣م.

* أخذ الغُز (الأوغوز الترك) يشنون غارات منتظمة على مدن خُراسان.

* وقع زلزال بفلسطين هدم نحو ثلث مدينة الرَمْلة وهبت ريح سوداء على نصيبين قلعت معظم أشجارها.

* استعادت قوات جلال الدولة البصرة بعد أن أجلوا عنها ابن أخيه عماد الدولة غير أن أهلها لم يلبثوا أن شغبوا على جلال الدولة.

سنة ٤٢٦ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ١٦ نوفمبر ١٠٣٤م.

* أظهر القاضى ابن عَبّاد صاحب أشبيلية بالأندلس شخصاً زعم أنه الخليفة هشام

وامى واهل مدينتى يعرفونى ويشهدو لى بذلك. وكان يلطم على يوجهه. ويقولو له: انك اعترفت بدين الاسلام أمام الشهود الحاضرين ثم تعود الى الانكار. لكن الرب كان معه في جميع شدأيده ونجاه من جميعها، وان الكاتب لم يلتفت الى ما قاله واخذ خطوط الشهود الزور الذين اقامهم للشهادة عليه، ولم يفعل ان يجدد الاسلام كما طلبو منه. ولما لم يطيعهم القوة في السجن تحت ضيق عظيم. وللوقت كتب [هذا الكاتب] كتبا

الأناضول نهائيا عن القسطنطينية، واختار السلاجقة خليفة لهم هو سليمان بن قطلمش والذى كان والده ابن عم طغرل بك. ولم يكن سليمان متعجلا، فبدأ يستعد لتحقيق أهداف ألب أرسلان.

الامبراطور ميخائيل دوقاس بارابيناكس ١٠٧١-١٠٧٨م:

شب ميخائيل منذ نعومة أظفاره فى القصر الامبراطورى حيث الدعة والرغد، كما توفرت لديه الفرصة فى أن يتلقى المعرفة والعلم على أيدى أشهر مفكرى عصره، وهو الفيلسوف

المُؤَيد بالله المختفى فبايعه ودعا الناس للدخول فى طاعته وظل يحكم أشبيلية باسمه عشرين سنة.

* مُنى السلاجقة بهزيمة ثانية على يد السلطان مسعود الغزنوى بالقرب من نَسا ثم عقد صلح مؤقت بين الطرفين.

* بسط العيارون وغوغاء بغداد سلطانهم على المدينة بمواطأة الجند الأتراك سراً ولم يعد للخليفة ولا للسلطان البويهى جلال الدولة نفوذ أو حكم.

سنة ٤٢٧ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ٥ نوفمبر ١٠٣٥م.

* السنة السادسة عشرة لحكم الخليفة الفاطمى الظاهر لإعزاز الدين فى مصر. وفيها بعث الظاهر خمسة آلاف دينار لشق قناة مدينة الكوفة بالعراق ولم يأذن الخليفة العباسى بذلك إلا بعد أن أخذ مشورة رجال الدين من أهل السنة.

* تولى الخلافة الفاطمية بمصرّ المستنصر بالله وهو معد ابن الخليفة الظاهر ابن الخليفة الحاكم، الخامس من الخلفاء الفاطميين بمصر.

ميخائيل بسيللوس، ولهذا فقد كان اهتمامه بالفكر والثقافة يفوق اهتمامه بالاستراتيجية والعسكرية ، فضلا عن أن هزيمة منزكرت التى أطاحت برأس سلفه وزوج أمه، جعلته يفكر ألف مرة ومرة قبل أن يقدم على ميدان القتال الذى كان عازفا عنه تماما. وهكذا ألقت الاقدار برجل غير مناسب، فى وقت كانت فيه الامبراطورية فى مسيس الحاجة الى عبقرية عسكرية، وقيادة حازمة، لأنقاذ البلاد من براثن السلاجقة والبشناق.

ولقد أحاط بارابيناكس -Parapi

الى حيث الاب البطرك وسير منها قوما من الاتراك، الذين لا يعرفون الكلام بلسان اهل مصر، ومعهم ذلك الراهب السو الرافع ليأخذوه ويحضروه الى مصر، فسميع قوما من النصارى الارتدكسيين ما جرى وما ارادو بالبطرك من السوء، كتبو له كتبا واعلموه فيها ما فعله هذا الغير راهب والقوم المسيرين اليه. فلما وقف على الكتب الواصلة اليه وما اثاره الشيطان من البلايا خرج وصرخ الى الرب ان يزيل هذه التجربة، ثم شكر

---

* لقي المعتلي بالله الحمودى مصرعه على أسوار قَرْمُونة بالأندلس فى حربه مع القاضى ابن عبَّاد صاحب أشبيلية.

* تولى إمارة مالقة بالأندلس أدريس بن على الملقب المتأيد بالله خلفاً لأخيه المعتلي بالله.

* في يوم الأحد الخامس عشر من شعبان توفى الخليفة الظاهر لإعزاز الدين وله من العمر ٣٢ سنة حكم منها ١٦ سنة وخلفه ابنه مَعَدّ باسم المستنصر بالله.

سنة ٤٢٨ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الاثنين ٢٥ أكتوبر ١٠٣٦م

* انقطع الحج هذه السنة بسبب المنازعات وعدم أمن الطريق إلا من مصر الفاطمية.

* بويع على الحكم في غرناطة أبو مُناد باديس الصُّنهاجي خلفاً لأبيه حَبُّوس ابن ماكْسن ولقب بالمظفر وهو الذى استوزر اليهودى ابن غرالة.

* ولد بمرو فى هذه السنة الحسن الصبَّاح زعيم طائفة الباطنية الاسماعيلية التى تعرف بالحشاشين وكان قد تتلمذ على ابن عطَّاش قبل أن يدخل إلى مصر فى خلافة المستنصر ثم جعل من قلعة ألموت مركزاً للدعوة.

الرب وقال: يا ربى يسوع المسيح انا اعلم ان البيعة لم تخطى. وقال ما قاله بولس الرسول: نحن منفيين فى كل شى وليس نحن مضيقين [متضايقين]، هم يطردونا وليس نحن مطرودين، هم يضطهدونا فلا تتركنا لهم يقتلونا وليس نحن هالكين فى كل حين، نحن صابرين على موت المسيح الرب فى اجسادنا لكى تظهر حياة يسوع المسيحى فى اجسادنا التى تموت. واستعد ان يجعل نفسه عوضا من البيعة المقدسة التى اتمن

nakes نفسه بمجموعة من السياسين المفكرين قليلى الخبرة فى فنون الحرب، وراح هؤلاء يستخدمون سلاح الدبلوماسية والسياسة كبديل عن المعارك لوقف تقدم السلاجقة ولانقاذ ما يمكن انقاذه، غير أن الدبلوماسية الماهرة أن لم تساندها قوة عسكرية حاضرة، تصبح عديمة الجدوى. ولقد بدأت هذه السياسة الدبلوماسية باحياء فكرة التحالف والتصاهر مع زعيم النورمانديين، وقد عرضت الامبراطورية ثمن هذا التحالف والمصاهرة بأن تنازلت عن

---

* شهدت هذه السنة وفاة الفيلسوف الطبيب الشيخ الرئيس ابن سينا أبو على الحسين بن عبدالله عن ٥٨ عاماً مؤلف كتاب الشفاء وكتاب الإرشادات والتنبيهات والحكمة المشرقية فى الفلسفة ومؤلف كتاب القانون فى الطب، توفى ودفن بهمذان.

* توفى من رجال الحكم ناصر الدولة الحَمْدانى أمير الشام من قبل الفاطميين.

* توفى من رجال الأدب: الشاعر العباسى المشهور مِهْيار الدَّيْلمى له ديوان شعر مطبوع فى ٤ مجلدات، كان قد أعلن إسلامه عام ٣٩٤.

سنة ٤٢٩ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ١٤ أكتوبر ١٠٣٧م.

* قام مسعود الغزنوى بمحاولة أخيرة لطرد السلاجقة من خُراسان ولكنه هزم عند سرخس على يد طغرلبك، وعلى الأثر استولى السلاجقة على مرو ونيسابور وسَرْخَس ومعظم خراسان باستثناء بَلْخ.

* جرت معركة حاسمة بين قوات الخليفة المستنصر الفاطمى بقيادة أنوشتكين الدِّربزى وبين شبل الدولة المِرْداسى صاحب حلب الذى كان طامعاً فى الاستقلال بها وفيها هزم وقتل.

حقها فى المطالبة بأراضيها فى جنوب ايطاليا وصقلية الى الابد، وبعد أن رفض جيسكارد التصاهر والتحالف مرة فى عهد رومانوس ديوجين، ومرة أخرى فى مطلع حكم بارابيناكس، قبل فى عام ١٠٧٤ مشروع المصاهرة تحت الحاح القسطنطينية لكى يحظى منها باعتراف رسمى بأنها قد تنازلت عن ممتلكاتها له؛ لكن هدف السياسة فى القصر كان أبعد من ذلك، فقد كان الهدف هو توريط روبير جيسكارد فى معاركها ضد السلاجقة فى المشرق، فاذا انتصر أنقذت نفسها من

عليها. ومع ذلك كان لا يقدر يتحرك عن مرقده بل كان يترجا معونة الله له، وكان اولاده الروحانيين انبا سمعان اسقف «بنا» الذى كان اوسمه اسقفا فى تلك الايام، واخوه الروحانى الشماس مقاره عندهم منذ صباه ياخذو بركته، فقال لهم: يا اولادى ما اقدر ان اتحرك من مرقدى وانا الان مستعد لامر الرب فاما انتم فيجب عليكم ان تبعدو من وجه الشيطان ليلا يفعل بكم سو منجلى ليلا [من أجلى لئلا] يظن احد ان معكم

سنة ٤٣٠ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الثلاثاء ٣ أكتوبر ١٠٣٨م.

* بدأ فى هذه السنة قيام الدولة السلجوقية على يد طُغْرُلبك حفيد سلجوق فأصبح يؤرخ لها منذ هذه السنة.

* استقبل الخليفة المستنصر الفاطمى بمصر العام الثالث لحكمه.

* منح الخليفة القائم العباسي ابن السلطان جلال الدولة البويهى اسم الملك العزيز وكان على واسط.

* أوقع السلطان مسعود الغزنوى أول هزيمة بالسلاجقة وطردهم من بعض نواحى خُراسان ولكن لم يلبث أن دارت الدائرة عليه فانسحب عائداً إلى عاصمته غَزْنَة.

* توفى بالقاهرة حول هذا التاريخ عالم الرياضيات والفيزياء عن نحو ٧٦ عاماً، أبو على ابن الهَيْثَم صاحب مشروع إقامة سد على النيل عند أسوان، شملت مؤلفاته الرياضيات والفلك والبصريات.

* توفى فى سجنه الوزير الأديب ابن مَاكُولا (هبة الله بن على) عن ٦٥ عاماً تولى الوزارة عدة مرات.

مـا [مـال] للبيـعـة. وقص عليـهم مـا جـرى من الراهب ووصــول كـتـب الاراخنة اليـه بذلك. ولما كان في هذين الاخوين من الامانة قالو له ما يكون هذا يا ابانا القـديس ولا نفـارقك بل نحن نجـعل نفـوسنا فداك. فبينمـا هم يتكلمـان بهـذا اذ نادى ذلك الغير راهب على الباب: افتحو وكان قد اخذ سجـلا [من] الولاة ليشـدو منه ويساعدوه على ما اخـذ من الاتراك الذين سارو مـعـه. فاخـذ شـرطى ودخل الى حيث ابينا لما فتح له الباب وكان قصده

خطر السلاجقة، أما اذا هلك فلعلها تكون قد تخلصت منه، وربما أعطاها ذلك الامل فى العودة الى أراضيها فى جنوب ايطاليا وصقلية. فسلاح ضرب الخصم بالخصم، كان من أهم أسلحة الدبلوماسية عند الروم، لكن روبير جيسكارد ـ ذلك القائد المحتك ـ فطن الى ذلك، ولم يتـدخل أبدا بقواته ضد السلاجقة.

وفى خلال ذلك تفـاقم الموقف العسكرى عندما استجاب بارابيناكس لرأى أحد مستشاريه بتقليص حجم

---

* توفى حول هذا التاريخ إسماعيل بن ذى النون من ملوك الطوائف بالأندلس أصحاب طليطلة.

سنة ٤٣١ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأحد ٢٣ سبتمبر ١٠٣٩م

* عاد الجند الأتراك في بغداد إلى الشغب ووقع النهب وانتشر الخوف حتى لم يحضر صلاة الجمعة سوى بعض أفراد.

* أوقع السلاجقة بقيادة الأخوين طغرلبك وجغرى داود بالسلطان الغزنوى مسعود الأول وكانت هزيمة تامة لاذ بعدها بالفرار إلى غزنة (رمضان).

* انتهت في المحرم من العام المعارك بين البربر وبين الأندلسيين من أتباع القاضى ابن عبّاد صاحب أشبيلية إلى هزيمة الأندلسيين وفيها قتل إسماعيل بن عباد.

* بويع أبو زكريا يحيى بن إدريس الحَمُّودى بالخلافة في الأندلس وتلقب بالقائم بأمر الله (على أثر وفاة أبيه المتأيد بالله) ولم تستمر خلافته سوى بضعة أشهر تنازل بعدها لابن عمه حسن بن يحيى حاكم بُذة (جمادى الآخرة).

ان يفجعه فيموت فلما نظرو الاتراك والشرط الذين معه انه مريض هكذى بوجع النقرس ولا سبيل له على النهوض فلم يقربوه. وكانو يشتمو ذلك الراهب على فعله، حتى ان احد الاتراك جرد سيفه واراد ان يقتله. ولم يكن هذا الراهب يحتشم بالجملة بل كان يقول انكم ارسلتم معى لتتمو ما امر به الامير وانكم اذا لم تفعلو ما امركم به فان الامير يجازيكم بفعلكم. فدخل الشيطان فيهم وحملهم الى ان اقامو الاب البطرك عن فراشه

المعونات والاتاوات التى كانت تدفعها الامبراطورية لزعماء بعض قبائل الغز والبشناق والصقالبة، الذين كانوا يقومون بحراسة الحدود وحماية مدن الدانوب، وقد أثار ذلك القرار ثائرة هذه القبائل. والتفوا حول احد قادة الروم المتمردين على الامبراطور والمطالبين بالعرش، واسمه نقفور، وانضمت اليهم قبائل كثيرة من الغز والبشناق، واندفعوا نحو القسطنطينية يخربون ويدمرون كل مافى طريقهم؛ وتحت مسيس الحاجة توجه بارابيناكس بالنداء الى زعماء الغرب الكاثوليكى

---

* استولى سليمان (المستعين بالله) بن هود على سَرَقُسطة فانتقل إليها وكان على لارْدَة المجاورة.

* ولد بمصر عالم الحساب الفرضى (المنطق الرياضى) كامل بن ثابت المنصورى.

* وفيها توفى بمصر مسند زمانه أبو عبدالله محمد ابن الفضل الفرّاء عن ٩٠ عاماً.

* توفى من رجال اللغة والأدب فى هذا التاريخ: عالم اللغة الخراسانى الحاكم ابن دُوست له الرد على الزجّاجى، وفيها توفى الشاعر النديم عبدالله الزوزنى كان قزما مقرباً من أمراء خراسان، وفيها توفى ابن خيران صاحب ديوان الانشاء للخليفة المستنصر الفاطمى.

سنة ٤٣٢ هجرية

أهلت السنة بيوم الخميس الموافق ١١ سبتمبر ١٠٤٠م.

* اعترف الخليفة العباسى القائم بأمر الله بالدولة السلجوقية وعاصمتها نيسابور واعترف بطغرلبك سلطاناً عليها وقرئت الخطبة باسمه فى مساجد نيسابور.

* تولى مودود بن مسعود الأول عرض الدولة الغزنوية خلفاً لأبيه فدخل عاصمته غزنة

وحملوه على ايديهم ووطاه معه الى ان انزلوه مركبا اعدوه له يحملوه فيه الى مصر. ثم ان هذا الراهب اخذ هذين الاخوين الذين ذكرتهم ورد ايديهم الى ورايهم وشدهم بوثاق عظيم وكذلك من وجده من الغلمان والاصحاب وانزلهم الى المركب مثل اللصوص، ونهب جميع ما وجد فى قلاية الاب البطرك من الثياب والانية والكتب المقدسة وغير ذلك. وكان هذا الاب كثير الاهتمام بالكتب البيعية حتى انه كان له عدة من النساخ

لانقاذه، لكن النداء لم يجد من يستجيب اليه، وهنا استخدم مستشاروه سلاح الوقيعة بين زعماء الغز والبشناق والصقالبة ، فدب بينهم الشقاق والنزاع ، فاضطروا الى فك الحصار عن القسطنطينية، والعودة الى ضفاف الدانواب محملين بالغنائم والأسلاب.

ولقد واجه ميخائيل بارابيناكس مشكلة أخرى مع أحد البارونات اللاتين، فعندما وجه صيحة النجدة الى العالم الأوروبى الغربى لانقاذ المسيحية فى الشرق، تقدم اليه أحد

قادماً من خراسان فى شهر شعبان وأوقع بعمه محمد وشيعته وانتقم من كل من اشترك فى اغتيال أبيه، وبنى فى هذا الموقع مدينة تذكارية باسم فتح أباد.

* شهدت السنة وفاة السلطان ناصر دين الله مسعود بن محمود الغزنوى بعد حكم دام نحواً من ١٢ سنة وكان فى حياة أبيه والياً على هراة ثم وليا للعهد واخضع قبائل الغور ثم قدم أبوه عليه أخاه محمداً لأسباب غير أن الجند تمسكت به، اغتاله فى طريقه إلى السند بعض مواليه بعد هزيمته على يد السلاجقة، وفى ذى الحجة من العام توفى كذلك أخوه الأمير مجدود وكان على لاهور ثم أظهر العصيان على أخيه مودود، توفى فى الطريق إلى غزنة.

سنة ٤٣٣ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الاثنين ٣١ أغسطس ١٠٤١م.

* تولى إمارة أشبيلية من ملوك الطوائف بالأندلس المعتضد بالله (عباد ابن محمد) خلفاً لأبيه القاضى ابن عباد فعمل على ضم ما حولها ومنها شِلْب ولِبْلة وشَلْطيش.

* فيها توفى من الوزراء: قَسيم الدولة أنوشتكين الدِّزبَرى وزير الخليفة المستنصر ونائبه على الشام وخلفه ناصر الدولة الحمدانى، وفيها قتل الوزير أبو جعفر بقية بتدبير حسن بن يحيى

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

ينسخو له كتبا، وكان لا يكتب له الا قوما علما جيدين خبيرين بقراة الكتب ما خلا خطوطهم، وكان اذا فرغ له كتابا يفرح به كما يفرح ببنا بيعة فيامر ان يصاغ عليه ذهبا وفضة، فانتهب ذلك الراهب اكثر الكتب وصارت اليه، لانه كان قد تعلم ان يقرى قبل ذلك، وكان قصده ان ينتفع بالثمن عنها، لان الشيطان ملا قلبه افكار ردية. وتوجه الى مصر وكان لا يدع احد من اصحابه ولا غلمانه يتقدم اليه ولا يتحدث معه ولا يراه

البارونات النورماندين واسمه - روسل - بارون بايليول، غير أن هذا البارون المتطوع كان يسعى لتحقيق ثروة على حساب القضية ، ولا يعنيه شئ من أمر مصير المسيحية في الشرق. ولقد بدأ روسل بأستحواذ ثقة الامبراطور باراپيناكس المطلقة، ثم شرع يستغل هذه الثقة في العمل لمصالحة، فبالرغم من أنه أقسم يمين الولاء للامبراطورية، الا أنه لم يتردد في أن يستولي على مساحة كبيرة من أراضي الاناضول واحتفظ بها لنفسه، وعند أول فرصة لاحت له أعلنها امارة خاصة به،

صاحب مالقة، وفيها توفى أبو سعد العميدى رئيس ديوان الإنشاء فى خلافة المستنصر بمصر ومؤلف (تنصيح البلاغة).

* ممن توفى من رجال العلم: محدث الاسكندرية أبو عمرو القضاعى الشافعى عن ٧٥ عاماً له كتاب (الفوائد) والحافظ أبو عثمان القرشى الهروى.

* توفى بالشام الزعيم الشيعى داعى الدعاة حمزة بن على الدَّرْزى داعية مذهب الدَّرْزية بالشام وهو ممن دعا إلى تأليه الحاكم وهو أحد الحدود الخمسة عند الباطنية وأول المعصومين.

سنة ٤٣٤ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ٢١ أغسطس ١٠٤٢م.

* وقعت الزلازل بتبريز فهدمت أسوارها وقلعتها وأكثر دورها وهلك تحت الردم ٤٠ ألف وقيل أكثر ولبس الناس بها السواد لعظم المصيبة.

* تولى على إمارة مالقة بالأندلس ادريس بن يحيى ولقب بالعالى الحَمّودى وكان مسجوز على عهد أخيه المستنصر حسن بن يحيى الذى قتل.

* تم للسلطان السلجوقى طغرلبك الاستيلاء على خُوارَزم من ملك شاه وكان عليها مر قبل الغزنويين.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

بالجملة. وكان ابونا لا يعلم ما [جرى]. وكان فى جملة ما اخذه هذا الراهب من قلاية البطرك صناديق كان في بعضها الكتب وفي بعضها ثياب وبعضها يجعل فيه طعام للغلمان. ولما وصل الى مصر حمل تلك الصناديق على انها مملوة من الذهب والفضة والانية، ولم يعلم ان الاب البطرك لم يقتنى قط مالا ولا ذخيرة الا كتب البيعة وكسوة كان يلبسها بين الشعب وقت القداس، وكانت قليلة القيمة لان اكثرها كان من الصوف،

واستقل بها عن الامبراطورية، وتوكيدا لذلك توجه بالنداء الى السلطان سليمان طالبا معونته ضد الامبراطور. ولم يتردد السلطان فى تلبية طلبه، وهكذا أصبح القائد المسلم حليفا للخائن المسيحى من أجل تدمير الامبراطورية.

وعلى أثر ذلك اندلعت أعمال الشغب فى كل أنحاء البلاد، وجدد القائد العسكرى نقفور مطالبته بعرش الامبراطورية، وقبل أن يلجأ نقفور لطلب المعونة من سليمان، حذا الامبراطور حذو البارون، وطلب من

---

* تولى إمارة حلب للمرة الثالثة معز الدولة المِرْداسى (ثمال بن صالح) بعد وفاة القائد أنوشتكين من قبل المستنصر الفاطمى.

* تتابع الأحداث فى الأندلس: ففى هذه السنة قتل الخليفة الحَمّودى يحيى القائم بأمر الله صاحب مالقة على يد قريبه المستنصر بالله حسن بن يحيى، ولم تلبث أن دبرت زوجته وهى أخت يحيى المقتول قتله بالسم فى العام نفسه.

* توفى من رجال الأندلس فى هذه السنة: الحاجب أبو عبدالله محمد ابن بِرْزال من ملوك الطوائف ومؤسس إمارة بنى برزال فى قَرْمونة، وفيها توفى القائد أبو الفوارس نجاء العلوى وكان فى خدمة الحمّوديين أصحاب مالقة، أغتيل على أبوابها، وفيها توفى ابن قاسم الفهرى صاحب حصن ألبونت ودام حكمه ١٣ سنة.

سنة ٤٣٥ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ١٠ أغسطس ١٠٤٣م.

* تميزت هذه السنة بسلسلة من فتوحات السلاجقة وانتصاراتهم.

* استولى السلطان طُغْرلبك على الرىّ واتهم عسكره بتخريبها ونهبها حتى أن الخليفة

السلطان سليمان معونته لاعادة النظام الى البلاد، وكان سليمان سعيدا بذلك، فأى مناسبة تحقق له التدخل في شئون الروم كانت تزيد من قوته ونفوذه، وبسرعة انقلب على حليفه البارون وقبض عليه، ثم عرض تسليمه الى الامبراطور مقابل فدية كبيرة، ومقابل الاعتراف بحق دولة السلاجقة في حكم الاقاليم التى استولوا عليها في آسيا الصغرى. وكلما زادت الخلافات الداخلية، تزايدت طالبات النجدة من القادة المتصارعين الى سليمان، وفي كل مرة يخرج السلطان السلجوقى أكثر قوة

لانه كان قليل لباس الحرير الا في ايام الاعياد، وكان ثوب واحد يكفه سنينا واعواما. ولما كشف هذا الكاتب تلك الصناديق لم يجد فيها شيا فظن ان الراهب اخذ جميع ما فيها من المال والانية لنفسه واحضر الخشب اليه، فاحضره سرا وقال له: ايها الانسان انني لم اجد في الصناديق شيا واني لا اشك انك اخذت ما فيها. فقال له: هكذى وجدتها وهكذى حملتها اليك لاني قد وجدت عندك رحمة ومحبة. وللوقت القا الله في قلبه

العباسى حين بلغه ما وقع بها انفذ القاضي الماوردى إليه مستنكراً ما صنع عسكره ويأمره أن يأخذ الأمر بالعدل.

* دخل السلاجقة الموصل وعاثوا وأفسدوا فاتفق صاحبها قِرواش العُقيلى مع دُبَيس الأسدى صاحب الحِلة على لقاء السلاجقة فأوقعوا بهم.

* توفي في هذه السنة من رجال الحكم: السلطان البويهى أبو طاهر جلال الدولة (ابن بهاء الدولة وحفيد عضد الدولة) وله ٥٢ عاماً حكم منها ١٧ سنة ودفن بمقابر قريش ببغداد في ٥ شعبان، وفيها توفي أمير الأندلس وصاحب قرطبة أبو الحزم جَهْور كان وزيراً لهشام الثالث آخر الأمويين بالأندلس ثم تولى الأمر بعد وفاته ودامت حكومته ١٣ سنة وخلفه ابنه أبو الوليد محمد.

سنة ٤٣٦ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد ٢٩ يوليو ١٠٤٤م.

* ادخل إلى بغداد السلطان عماد الدين أبو كاليجار المَرْزُبان ملك فارس البويهى بعد وفاة جلال الدولة فضم بذلك العراق إلى حكمه ولم يخرج الخليفة إلى لقائه ونزل بالقصر

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

بغضة هذا الراهب وفسد عليه وتغير لوقته ولم يخرج من عنده الا وقد اراد قتله بيده لكنه خاف من هيبة الوالي. وكان جميع اولاد الاب وغلمانه تحت ضـيق عظيم من الاهانة والرباط والوجع والجوع والعطش وقلة رحمة الاعوان لهم لانهم لم ياخذو معهم منهم شيا، وكانو قد ايسو من عطاهم وبخاص اذا وصلو الى مصر فان امرهم يخرج عن ايديهم ولا جل ذلك لم يكونو يرحموهم. فلما راوهم الاخوة المومنين الذين اتو اليهم لينظروهم

بعد أن شق طريقه في ثبات الى قلب أراضى الروم، حتى ضم اليه اقليم ليديا وأيونيا. وفى عام ١٠٧٨ كان في موقف من القوة والنفوذ جعله يؤسس سلطنة الروم السلاجقة في الجزء الاوسط من آسيا الصغرى. واختار لها عاصمة هي نيقية Nilaia الواقعة على أحد الطرق التجارية الرئيسية، وكانت هذه المدينة أجمل وأغنى مدن الامبراطورية في آسيا الصغرى، ومن هذا الموقع الهام في آسيا الصغرى اتسعت سلطنة سلاجقة الروم، حتى وصلت الى شواطئ البحر

السلطاني وأمر بضرب الطبل له في أوقات الصلوات الخمس على غير العادة بالرغم من احتجاج الفقهاء.

* تولى وزارة الخليفة المستنصر الفاطمي: أبو منصور صَدَقة الفلاحي خلفاً للجرجرائي المتوفى.

* توفي من رجال الحكم بالأندلس: مجاهد العامرى مؤسس الدولة العامرية بدانية وجزر الباليار دام حكمه بها ١٤ عاماً غزا في خلالها جزيرة سردينية وكانت للافرنج، وفيها توفي هذيل بن خَلَف مؤسس دولة بنى رزين بالسُّهلة.

* توفي الوزير الفاطمي أبو القاسم الجرجرائي من ألقابه نجيب الدولة، والوزير الأجل الأوحد، وصفى أمير المؤمنين، استوزره الحاكم ثم الظاهر والمستنصر وكان الحاكم قد أمر بقطع يديه عام ٤٠٤هـ.

سنة ٤٣٧ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الجمعة ١٩ يوليو ١٠٤٥م.

* تولى على واسط الملك العزيز ابن جلال الدولة.

الأسود في الشمال، وساحل البحر المتوسط في الجنوب الغربي، والى الشام شرقا، وأصبحت هذه السلطنة، منافسة خطيرة للامبراطورية الرومية، ولقد كان سقوط نيقية صدمة للاوروبيين لانها كانت ترتبط بتاريخ عقد المجامع الكنسية التي بلورت قانون الايمان المسيحي، كما كانت مركزا للدراسات اللاهوتية.

ولقد أحدث سقوط نيقية في حوزة السلطان سليمان بن قطلمش دويا هائلا في أوساط الكنيسة اللاتينية في الغرب، فهي مدينة المجامع

وما هم عليه عند وصولهم اليهم، راوهم على هذه القضية بكو عليهم بكا شديدا وبخاص لما راو الاب البطرك على حال الوجع وهو راقد على فراشه لا يستطيع القيام ولا تقدر اولاده ياتون اليه، ازداد بكاهم وسالو الله ان ياذن لهم بالفرج. فمضو الاخوة وابتاعو من اموالهم قيود حديد واتو بهم الى الموكلين بهم وسالوهم ان يحلو ايديهم من خلفهم ويطرحو القيود في ارجلهم ودفعو لهم ذهبا وفضة وكان هذا باعمال الريف على ساحل اتريب

---

* انفذ الخليفة المستنصر جيشاً إلى حلب لاستخلاصها من معز الدولة المِرْداسي ثمال الكلابي فلما استظهر عليه استنجد بامبراطور الروم قسطنطين التاسع فلم ينجده.

* تعدد قيام الإمارات الأندلسية بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة، ففي هذه السنة تولى إمارة بَطَلْيوس من ملوك الطوائف: المظفر أبو بكر ابن الأفطَس خلفاً لأبيه، وتولى إمارة مورون عِزّ الدولة محمد بن نوح الدمري.

* دخل الإمام الزيدي أبو الفتح الناصر بن حسين إلى اليمن (وكان عليها الصُلَيْحيون) ودعا لنفسه بالامامة واستولى على صنعاء وصعدة وبني حصنَ ظُفار.

سنة ٤٣٨ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الثلاثاء ٨ يوليو ١٠٤٦م.

* حاصر السلطان طغرلبك السلجوقي مدينة أصبهان فصالحوه على مال عظيم وخطبوا له على منابرها مع أميرها كما استولى أخوه على حلوان.

* ثار بالأندلس محمد بن أدريس على حكم ابن عمه الخليفة العالي بالله بعد ٤ سنوات من الحكم فبويع محمد (الأول) وتلقب بالمهدي بالله، وفي سَرَقُسْطة تولى سعد الدولة المقتدر

وما حولها. وكان الغير راهب يقول: ما افعل هذا؟ ولما يعلم ان الله ارذله وافسد قلب الكاتب عليه وهو يعمل مع الامير في هلاكه. وكان النصارى القيام على شط النهر ينظرو ما فعلو بهم ويدعو الله ان يهلك اعدا البيعة وكانو يبكو ويتنهدو. وكان وصولهم الى ساحل مصر فى الساعة العاشرة من الليل. ولما اصبحو جعل الشرط [الشرطة] مع الاب من قبل ذلك الكاتب، لانه كان قد طلع له بالصناديق فى الليل كما ذكرنا اولا. وحضر

المسكونية، ولهذا وجه البابا جريجورى السابع عدة رسائل الى ملوك وزعماء الغرب، وعلى رأسهم هنرى الرابع امبراطور ألمانيا ودوق برجنديا، يدعوهم فيها الى اعداد حملة صليبية من بلاد الغرب الاوروبى لانقاذ القسطنطينية من خطر السلاجقة المسلمين، ولقد كان هدف البابا من ذلك هو اعادة الكنيسة الشرقية الارثوذوكسية الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية العالمية، غير أن دعوة البابا لم تأت بأى نتائج اذ لم يستجب اليه امراء أوروبا، بل أن البابا نفسه دخل

أحمد خلفاً لأبيه سليمان المستعين بن هود، وفيها استقل يوسف المظفر بن سليمان المستعين بحكم رادة بعد انفصلت عن إمارة سرقسطة والحكم فيها لبنى هود.

* أغارت الترك على بلاد ما وراء النهر استولوا على بخارى وسمرقند وخُوارَزم فقطع طغرلبك السلجوقى نهر جيحون والتقى بهم وهزمهم ثم عاد إلى خراسان.

* توفي فى هذه السنة المؤرخ الراوية ابن النديم صاحب الفهرست وهو أول معجم عن المؤلفات العربية حتى عصره، وهو أبو الفرج محمد بن اسحق كان وراقا يبيع المخطوطات.

سنة ٤٣٩ هجرية

أهل المحرم يوم الأحد الموافق ٢٨ يونية ١٠٤٧م.

* فشا الطاعون فى الموصل والجزيرة حتى انهم أقاموا صلاة الجنازة على أربعمائة متوفى دفعة واحدة، وانتشر الغلاء حتى بيعت الرمانة بقيراطين والخيارة بقيراط.

* وصل الرحالة الفارسى ناصر خسرو إلى القاهرة وامتدت إقامته بها نحو السنتين وضمن كتابه (سفر نامه) وصف أحوالها وما تحتويه من عمائر وصنائع وأسواق ومواكب واحتفالات.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

فى جـولة طويلة من الصـراع مع الامبراطور هنرى الرابع حول أحقية اى منهما فى تعيين الآخر.

وهكذا فشل ميخائيل السابع فى انقـاذ الامبـراطورية، وثارت عليـه الجماهير حتى أرغم فى عام ١٠٧٨م على دخول الدير والاعتزال لصالح جندى متقـدم فى السن هو نقفور بوتانياتس.

نقفور الثالث بوتانياتس Botaniates (١٠٧٨-١٠٨١م)؛

فى أثناء الفوضى التى سادت فى أواخر عهد ميخائيل السابع، تمرد

الراهب الى الكاتب كـانه لم يدخل اليه فى الليل ولا اجتمع به وقت سلم اليه الصناديق، وقال امام الناس الحاضرين: قد اتيت بالاب البطرك واولاده واصحابه وجميع ماله. فامر الكاتب باعتقال ذلك الراهب، وامر ايضا ان يحتفظ بالمركب وجميع من فيه، وكان معول على ان يستاذن الامير على ما يريد فعله من السو، وانه لم يحضر اليه ما كان تقرر احضاره. فخاف لاجل الصناديق الذى كان سلمها اليه ليلا ليلا [لئلا] يرفع فيه ويقول انها

---

* دبر أبو منصور الفلاحى (وزير الخليفة المستنصر الفاطمى) مقتل أبى سعد التسترى اليهودى الذى كان ناظراً على ديوان الخليفة.

سنة ٤٤٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ١٦ يونية ١٠٤٨م.

* احتفل الخليفة العباسى بختان ابنه أبى العباس محمد ولقبه بذخيرة الدين وذكر اسمه على المنابر.

* تولى عرش الغزنويين مسعود الثانى ابن السلطان مودود المتوفى فى عامه، وكان مسعود طفلا صغيراً لم يحكم (اسميا) سوى بضعة أسابيع وتوفى، وخلفه عمه أبو الحسن بهاء الدولة على بن مسعود (فى رجب من السنة).

* تولى حكم فارس والعراق الملك الرحيم (أبو نصر خسرو فَيروز) البُويهى خلفاً لأبيه السلطان عماد الدين أبى كَاليجار المتوفى فى سنته.

* قطع المعز بن باديس الصُّنهاجى صاحب أفريقية خطبة الخليفة المستنصر الفاطمى إعلاناً باستقلاله عن التبعية الفاطمية.

كانت مملوة ذهبا وفضة. فاخرجه من الاعتقال وامر باحضار الاب البطرك. وكان لا يقدر يركب دابة بل يحملوه على راس حمال الى حبس ضيق في وسط اللصوص والقتلة، فشكر الرب على جميع ذلك. وكان يعزى اولاده ليلا يضجرو ويعزيهم بكلام بطرس السليح في اول رسالته القتاليقون اذا يقول: ما افتخاركم اذا اخطى احدكم يعذبوكم فتصبرو فافعلو الخير واذا ما توجعتم فاصبرو فهي نعمة من الله قد دعيتم اليها

عليه نقفور بوتانياتس (جامع الاعشاب)، وكان قائدا لاحد ثغور آسيا الصغرى، ووجدت حركته تأييدا من جنوده، فهتفوا به امبراطورا. وقاد قواته ليدخل العاصمة حيث أحسنت الجماهير استقباله، وقام البطريرك بتتويجه وذلك في عام ١٠٧٨م. وتوقع الناس منه أن يحل كل قضاياهم، ولكن نظرا لأنه كان متقدما في العمر، فلم يستطع أن يحسن ادارة الامبراطورية لا في الداخل أو الخارج. كما أنه واجه رفض

---

* عزل الخليفة المستنصر ناصرَ الدولة الحمدانى من إمارة دمشق وأرسل إلى مصر مقبوضاً عليه فانقلب عليه وعمل على خلع المستنصر، وخلفه على دمشق طارق الصقلبى من قواد الخليفة.

* شهدت السنة وفاة اثنين من مشاهير العصر من رجال الحكم هما: السلطان البويهى عماد الدين أبى كاليجار المرزبان (جمادى أول) فى الأربعين من العمر تولى على فارس ثم ضم إليها العراق بعد حكم دام ٤ سنين و٤ أشهر ، وفيها توفى السلطان الغزنوى شهاب الدولة أبو سعد مودود بن مسعود وكان حكمه ٦ سنوات وخلفه ابنه الطفل.

* توفى فى هذه السنة بخُوارَزْم عن ٧٨ عاماً العالم الفيلسوف المؤرخ أبو الريحان البَيْرُونى، له من المطبوع (الآثار الباقية فى القرون الخالية). (القانون المسعودى) نسبة إلى السلطان مسعود الغزنوى، (تحقيق ما للهند من مقولة..) وغيرها، وقد احتفل العالم غرباً وشرقاً بمرور ألف سنة ميلادية على مولده عام ١٩٧٣.

* توفى من رجال الحكم: الوزير ذو السعادات أبو الفجر محمد بن جعفر وزير السلطان أبى كاليجار، والوزير الفاطمى أبو منصور صدقة الفلاحى قتل فى المحرم بايعاذ من أم الخليفة المستنصر إنتقاماً من اغتيال أبى سعيد التسترى اليهودى ناظر ديوانها، وفيها توفى الأمير العباسى محمد بن الحسن حفيد المقتدر عاش متنسكا بعيداً عن شئون الدولة.

لان الرب يسوع المسيح قد تالم عنا وجعل ذلك تذكارا لنتبع اثاره، والان تصبرو وتعزو يا اولادى المباركين واخوتى فى الرب انه لا يتخلى عنا بل يكون معنا كما كان مع ابانا وينجينا من جميع شدايدنا. وكان يعزيهم ويشدد قلوبهم بهذا الكلام وغيره وهم متعجبين لصبره. فلما كان بالغداة انفذ كاتب الامير قوما من المسلمين الذين شهدو بالزور الى الاعتقال ليشاهدو رحاله [الصناديق] ظنو انهم يجدو فيه مالا كثيرا كما ذكر الغير راهب، فلما

زعماء الارستقراطية العسكرية التى تملك الضياع الشاسعة مما أدى الى تفاقم الازمة الاقتصادية؛ كما ظهر عدد من المدعين بأحقيتهم فى العرش فى مناطق مختلفة من الامبراوطرية، ولم يستطيع نقفور جامع الاعشاب أن يصمد على العرش أكثر من ثلاث سنوات، اذ نجح أحد زعماء الارستقراطية العسكرية واسمه الكسيوس كومنين Alexios Comnenos فى عزله ، والفوز بعرش الامبراطورية.

سنة ٤٤١ هجرية

وافق هلال المحرم من السنة يوم الاثنين ٥ يونية ١٠٤٩م.

* تولى عرش الغزنويين السلطان عز الدولة عبدالرشيد ابن السلطان محمود الغزنوى بعد مبايعة كبار الدولة له وكان مسجوناً بقلعة ميدين فقضى بذلك على الفوضى التى نشبت على أثر وفاة أخيه مودود.

* عادت الفتنة فى بغداد بين أهل السنة وبين الشيعة من أهل الكرخ وكان سلاطين بنى بويه يميلون إليهم سراً ولا يظهرون ذلك خوفاً من الناس.

* عزل الخليفة المستنصر الفاطمى نائبه طارقا الصقلبى عن دمشق بعد عام واحد وولى مكانه عدة الدولة رفق المستنصر (المحرم)، وبعد شهرين ولى عليها حيدرة بن مفلح ولقبه معين الدولة.

* دخل فى هذه السنة إلى مصر الطبيب البغدادى النصرانى ابن بطلان وأقام بها ثلاث سنوات وفى خلالها جرت مناظرات (مدونة) بينه وبين الطبيب المصرى ابن رضوان.

سنة ٤٤٢ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٢٦ مايو ١٠٥٠م.

* تولى وزارة الخليفة المستنصر الفاطمى الوزير أبو محمد اليازورى (الحسن بن على) بالاضافة إلى منصب قاضى القضاة.

جااو وفتشوه لم يجدو الا ما لا قدر له ولا يذكر، فلما نظرو ذلك عادو الى الكاتب وقالو له: ما وجدنا الا ما لا قدر له ونحتشم نحضره اليك وهو باقيا بحيث هو. فلما سمع ذلك ايضا امتلى غضبا على الغير راهب، فمنع جميع النصارى المومنين الوصول الى الاب البطرك وانه فى الاعتقال الضيق واولاده حزنو وقلقو، وكان قوم منهم يحضرو ياخذو بركته ولا يكلموه بكلمة واحدة خوفا من السلطان. وبعد ايام وهو واولاده فى الحبس التمسو

حكم أسرة كومنين وبداية الحروب الصليبية

حكم الكسيوس كومنينوس Alexios Commenous ١٠٨١-١١١٨م:

وفى يوم الاحد الذى وافق عيد الفصح الشرقى لعام ١٠٨١م، بينما كان يستبد بالناس اليأس والقنوط حول مستقبل الامبراطورية، التى كانت تواجه أشد أزماتها الاقتصادية، استولى الكسيوس كومنينوس على العرش، مؤسسا آخر الاسرات القوية. فلقد ظلت أسرته تتوارث العرش حتى عام ١١٨٥م. ولقد كان الكسيوس

---

* تولى إمارة الموصل قريش بن بدران خلفاً لعمه قرواش وقريش هذا الذى اشتهر امره ابان ثورة البساسيرى.

* نجح ابن راشد الإباضى فى الثورة على حكم بنى بويه فى عُمَان وكان عليها أبو المظفر ابن السلطان أبى كاليجار فاستولى على البلاد وأظهر العدل وأسقط المكوس ولبس الصوف وخطب لنفسه.

* اغرى الوزير اليازُورى الخليفة المستنصر بإرسال جماعات من العرب النازلين بمصر من زغبة ورياح وغيرهم إلى أفريقية لمناوأة المعز بن باديس على أن يملكوا ما يقتحمونه من الأرض.

سنة ٤٤٣ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء الموافق ١٥ مايو ١٠٥١م.

* ظهر ببغداد فى السابع من صفر (٢١ يونية) وقت العصر مذنّب غلب نوره على نور الشمس له ذيل نحو ذراعين وسار سيراً بطيئا ثم تلاشى.

* أعلن عرب بنى قرة فى مصر العصيان على الخليفة المستنصر وأقاموا بالجيزة وهزموا

منه مالا ويفرجو عنه فلم يكون معه شي يدفعه اليهم، فامر الامير باحضار الراهب الذى امتلى عليه غضبا لما اعلمه به الكاتب من امره. فلما حضر قال له اين المال الذى اخذته من البطرك الذى ذكرت لى وقلت انك اذا جيت الى هاهنا تجيب معه مال كثيرا؟ فخاف منه وقال له: ان الخبر قد وصل اليه قبل وصولى اليه فسلم ماله لاولاده وحفظوه وهم هاهنا معه وهم، سمعان اسقف «بنا»، ومقاره الشماس اخوه. وقال هذا

كومنينوس جنديا ماهرا وسياسيا داهية، وله تاريخ عسكرى مشرف، وحكم البلاد بقدرة بالغة، ووضع حدا لحالة الفوضى والاضطرابات التى كانت سائدة قبل مجيئه، حتى بدت الحياة تبشر بالتفاؤل والرخاء، وشهد الفن والثقافة انطلاقة جديدة. ولقد كان الكسيوس من أبرز رجالات الطبقة العسكرية الارستقراطية، فهو ابن يوحنا كومنين، الذى لم يشأ عمه اسحق كومنين أن يحمله وزر حكم الامبراطورية المضنى، عندما تنازل عن العرش عام ١٠٥٩م، اختار وزير

جيشاً للخليفة فجمع لهم العرب من طيء وكلب وغيرهما فادركوهم باقليم البحيرة وأوقعوا بهم.

* أحرز الملك الرحيم البويهى انتصارين على الديلم والأتراك عند دورق بالأهواز ثم عند تُستُر واستولى أخوه على إصطخروشيراز، غير أن الهزيمة لحقته بعد تحالف أعدائه مع طغرلبك فاستقر بواسط بينما اتخذ طغرلبك أصبهان عاصمة له.

* عادت الفتنة بين السنية وأهل الكرخ من الشيعية بعد أن هدأت وعجز الخليفة والسلطان البويهى عن السيطرة عليها فتركوا الأمر للعيارين والشطار والحرافيش.

سنة ٤٤٤ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأحد ٣ مايو ١٠٥٢م.

* نشر ديوان الخليفة العباسى القائم بأمر الله محضراً تضمن اتهام الفاطميين بانهم مجوس ديصانية ووقع على المحضر القضاة والفقهاء والأشراف.

* استولى في شعبان من هذه السنة الملك الرحيم على البصرة وما حولها من أخيه أبى على بن أبى كاليجار وكان فى جيشه البساسيرى صاحب الثورة فيما بعد.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

حتى دفع عن نفسه. فلما سمع الكاتب ظن انه صحيح واحضر الرجلين. فلما علم ابونا بذلك كان داعيا لهما ان ينجيهما الله فامر [الامير] ان يحضرو اليه واحدا واحدا لياخذهما من كلامهما، فاحضر اليه اولا مقاره الشماس فقال له: اين مال البطرك قد اعلمونى انك اخذت ماله وهربت به غير هذه الدفعة فامضى الان واحضره الى لاطلقك بغير عذاب، فقال له الاخ: اذا كنت تلك الدفعة اخذت المال وهربت فهوذا هذه الدفعة قد احضرته

خزانته قسطنطين دوكاس ليكون الامبراطور الوريث. ولهذا كان الكسيوس على علم تام بأحوال الامبراطورية فى الداخل والخارج، فلم يضيع وقته، وطفق يعمل بجد ونشاط لاصلاح الاحوال منذ اليوم الأول لجلوسه على العرش، حتى لا يخيب آمال الذين هتفوا به امبراطورا.

أحوال الامبراطورية الرومية عند تولى الكسيوس:

تقول آنا كومنينا، ابنة الامبراطور الكسيوس، ومؤلفة الكتاب المعروف باسم «سفر الكسيوس» Alexiad،

---

* ممن توفوا فى هذه السنة من رجال الحكم والرياسة: السلطان الغزنوى عبدالرشيد، الثالث عشر من سلاطين الدولة الغزنوية اغتاله ابن أخيه الثائر طغرل بن مسعود، وفيها توفى أمير الموصل العُقيلى معتمد الدولة قِرواش بن مقلد توفى حبيساً فى قلعة الجراحية على يد أخ له، وفيها توفى بمالقة المهدى الحمّودى من ملوك الطوائف قتل بالسم بعد حكم دام ٦ سنوات فبويع أخوه ادريس ابن يحيى.

سنة ٤٤٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ٢٣ إبريل ١٠٥٣م.

* جرت فى هذه السنة محاجة بين علماء أهل السنة وعلى رأسهم الصوفى عبدالكريم القُشَيرى صاحب الرسالة القشيرية وبين السلطان طغرلبك لأنه أمر بلعن الأشعرى باعتبار أنه مبتدع.

* عاد الأمير أبو منصور (ابن الملك أبى كاليجار) إلى شيراز وأظهر أهلها الطاعة له وأخرجوا منها أخاه أبا سعد، وخطب أبو منصور لطغرلبك السلجوقى وللملك الرحيم البويهى ولنفسه بعدهما.

* قبض المعتضد بن عباد صاحب أشبيلية من ملوك الطوائف بالأندلس على الأمير عبدون

وكلما له ويملكه وهو فى رحله والى السلطان ان ياخذه او يتركه. فسمع منه وانفذه فى موضع وحده وامر باحضار اخيه [سمعان] الاسقف بنا، فلما نظره الوالى قال له: انت سمعان اسقف «بنا»؟ قال: نعم انا هو فقال له: واين مال البطرك الذى عندك؟ فقال له: ما مع ابى مالا وكلما يجده ينفقه على البيع والمنقطعين، والذى فى رحله هو الذى فضل عليه من النفقة. قال الاخوين امامه هذا بثبات لان البطرك لم يكن يدخر شيا بل

تقول على لسان أبيها «ولقد وجدت الامبراطورية محاطة من كل جانب بالبرابرة، كما وجدتها تعانى من نضب موارد الثروة، التى تمكنها من الوقوف فى وجه هؤلاء الاعداء، الذين يغيرون عليها بلا رحمة، ولعلكم تدركون المخاطر التى تصديت لها، وكيف أفلت بالكاد من أن ألقى مصرعي بسيوف البرابرة، وفى كل مرة كان هؤلاء الاعداء يغيرون علينا بقوات تفوقنا عددا. ولعلكم جميعاً تعرفون الكثير عن حملات التى قام بها الفرس (يقصد السلاجقة

ابن خزرون صاحب شذونة واركش وسجنه مكبلا بالحديد ثم قتله، وفعل ذلك بصاحب مورون.

* وصل طغرلبك إلى أصفهان مريضاً وترددت الشائعات بموته ثم عوفى فجاءه صاحب البصرة يشكو أخاه الملك الرحيم الذى أخرجه منها فوعده بنصرته.

* بلغت قوات السلاجقة حلوان (من العراق) فأثار ذلك ذعر أهل بغداد.

سنة ٤٤٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ١٢ ابريل ١٠٥٤م.

* استولت قبائل بنى هلال على القيروان وهى التى أطلقها المستنصر الفاطمى للشغب على المعز بن باديس صاحب أفريقية بعد أن خلع بيعة الفاطميين.

* انتشر الطاعون فى مصر واشتدت المجاعة.

* بلغ السلاجقة بقيادة الأخوين طغرلبك وداود إقليم اذربيجان بعد أن تم لهما ضم خوارزم دون مقاومة ومن اذربيخان دخلا أراضى الامبراطورية البيزنطية وسار طغرلبك إلى أرمينية وحاصر مدينة ملازكرد ونهب ما حولها وأخربها.

صرف جميعه للبيع والمستورين. فلما راى ذلك وعلم صحة ما قالاه ونظر ضعف جسم الاب الاسقف [سمعان] امر ان يعاد الى السجن، وامر باحضار اخيه [مقاره] الشماس دفعة ثانية وهو عليه ممتلى غضبا. فحزن عليه الاب البطرك وعلم انه يقاسى عقوبة. فلما دخلو به اليه قال له: ان انت لم تعطينى مال البطرك عذبتك بعذاب شديدا. فاعاد عليه ذلك الاخ القول الاول وقال له: قد كنت اعلمتك انه ليس لابى شيا الا ما فى رحله.

الشرقيين) ضدنا، وعن غارات الباتزيناك (البشناق)، كما انكم يجب ألا تنسوا الحراب المصوبة نحونا من ايطاليا (يقصد النورمان) فى الوقت الذى قل فيه المال والسلاح». بهذه الكلمات خصت آنا ابنة الامبراطور الاديبة أحوال الامبراطورية، فهى شاهدة عصر، وليست ناقلة عن الآخرين وهنا يكمن أهمية كتابها. ومن ثم سوف نلقى بعض الضوء على أعداء الامبراطورية خاصة فى جبهة السلاجقة الاتراك.

---

* ألقى المعتضد بن عباد صاحب أشبيلية بالأندلس الحصار براً وبحراً حول الجزيرة الخضراء للقضاء نهائياً على حكم الحمّوديين بالأندلس فاضطر الخليفة الواثق الحمودى من التسليم ولجأ إلى المرية فى حماية صاحبها المعتصم بن صمادح، لحين وفاته بعد أربع سنين.

* كتب الخليفة القائم العباسى إلى طغرلبك يستنهضه للمسير إلى العراق بعد أن بدت الوحشة بين الخليفة والبساسيرى.

* ولد بنواحى البصرة فى هذه السنة مؤلف المقامات وهو أبو محمد القاسم ابن على الحريرى اشتهر بالمقامات المنسوبة إلى اسمه وله درة الغواص.

* ممن توفى فى هذه السنة من رجال الحكم والإمارة: الخليفة الأندلسى الحمودى ادريس بن يحيى العالى بالله بعد حكم دام سنتين وعهد لابنه محمد، وفيها توفى صاحب بلبلة فتح اليحصبى من ملوك الطوائف بالأندلسى بعد أن تنازل عنها مضطراً للمعتضد بن عباد، كما وافقت السنة وفاة الامبراطور البيزنطى قسطنطين التاسع زوج الامبراطورة تيودورا.

سنة ٤٤٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ٢ ابريل ١٠٥٥م.

* تميزت هذه السنة بالصراع بين الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية بمصر.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

الجبهة السلجوقية:
كان السلاجقة الاتراك دائمى الاغارة على ممتلكات الامبراطورية فى آسيا الصغرى، وكانت سلطنة سلاجقة الروم أقوى السلطنات السلجوقية جمعاء؛ فقد كان على رأسها السلطان المشهور سليمان بن قطلمش الذى وصلت السلطنة فى عهده الى أوج قوتها واتساعها؛ اذ يذكر ابن العديم أنه يستولى فى عام ٤٧٧هـ (١٠٨٤م) على منطقة أنطاكية وما حولها منتهزا فرصة انشغال الكسيوس فى صد النورمان، وبذلك أصبح نفوذ سليمان يمتد من

فامر ان يبطح على بطنه وتشبح رجليه ويضرب فضرب حتى جرى الدم من جسمه. فلما نظر [الامير] الى الدم امر ان ترفع عنه العقوبة واعادته الى السجين. فلما نظر الاب ما ناله من العذاب عزاه وقال له: افرح يا ولدى الحبيب لانك استحقيت ان تعذب لاجل البيعة، وانا اومن انك تنال الاجر من السيد المسيح. وصلب على جسده وفى الوقت زال عنه الالم، ولم يظهر عليه ضرب بالجملة، فلما شاهد من فى الحبس معه من

---

* دخل السلطان ركن الدين أبو طالب طغرلبك بغداد (٢٥ محرم) فهرب منها البساسيرى الثائر إلى مدينة الرحبة عند صاحبها دبيس وكاتب المستنصر الفاطمى بمصر ومشت بينهما الرسل بينما تقدم الخليفة القائم إلى خطباء المساجد ببغداد بالخطبة للسلطان السلجوقى وذلك قبل دخوله المدينة (الجمعة ٢٢ المحرم).

* قامت باليمن دولة جديدة شيعية باستيلاء على بن محمد الصُلَيحى على اليمن فأزال الدعوة العباسية وخطب للمستنصر الفاطمى عرفت بالدولة الصليحية نسبة إلى الاصلوح من نواحيها ودام حكمها ٦٠ سنة ورد المستنصر بان منح الصليحى الألقاب الآتية: الأمير الأجل، تاج الدولة، سيف الإمام المظفر عمدة الخلافة.

* بعث الخليفة العباسي رسولا إلى المعز بن باديس صاحب أفريقية بعد أن خلع عهد الفاطميين ومعه الهدايا الثمينة والعهد من قبله فوقع الرسول فى أيدى الروم فحملوه إلى القسطنطينية وحملة الروم إلى المستنصر وكانت بينهما هدنة ولكنه اضطر إلى رده إلى بغداد.

* بعث الخليفة المستنصر القاضى أبا عبدالله القضاعى إلى الامبراطورة تيودورا بالقسطنطينية لتسوية الخلافات بين الدولتين بعد المعارك البرية والبحرية المتلاحقة وكانت سجالا.

* توفى فى هذه السنة أبو زكريا يحيى بن عمر اللمتونى المؤسس الأول لدولة المرابطين بالمغرب.

المعتقلين من الامم تعجبو وتقدمو اليه وسجدو له وقالو: هذا الرجل قديس الله. واقام الاب واولاده في الحبس ثلثون يوما والمومنين تحت كا ابة وحزن بفسطاط مصر. وهم بين اللصوص والقتلة فاطلع الرب على صبره وتواضعه وانه لم يضجر يوما واحدا بل يبارك الله بغير فتور ولا ملل ويقول: انا اشكرك ياسيدى يسوع المسيح أنك لم تفعل هذا الا باستحقاق. فجعل الله في قلب الامير رافة، فدفع عنه الاراخنة بمصر مالا كثيرا وافرج عنه

مدينة نيقية في شمال غرب الاناضول حتى طرابلس على ساحل الشام؛ وأصبحت ثغور الشام الاساسية في قبضته فضلا عن أهم مدينتين مقدستين عند النصارى وهما نيقية وأنطاكية. ولقد عجز الكسيوس عن صد هجمات السلاجقة لانها كانت تتزامن مع غزوات البشناق من الشمال، وتقدم النورمان من الغرب؛ غير أنه لم يرى في السلاجقة والبشناق نفس الخطر الذى رآه في النورمان.

وما لبثت الظروف أن تحولت

سنة ٤٤٨ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الخميس ٢١ مارس ١٠٥٦م.

* جرت مصاهرة بين بيت الخلافة العباسية وبين السلاجقة ففيها تزوج الخليفة القائم بنت الأمير داود أخى طغرلبك المسماة خديجة أرسلان خاتون وذهبت أم الخليفة إلى حيث هى وتسلمتها واحضرتها إلى بغداد.

* أقيم أذان أهل السنة بالكرخ بالرغم من أن أهلها من الشيعة.

* عم الوباء والقحط مصر بسبب انقطاع الفيضان (بلغت الزيادة ١٦ ذراعا) كما شمل القحط الشام وبغداد وكان الطاعون يقضى على المطعون في ساعات.

* جرت معركة بالقرب من سنجار بين البَسَاسيرى الثائر ومعه دُبيس الأسدى وبين قُريش العُقَيلى صاحب الموصل ومعه قُتُلْمش ابن عم طغرلبك وفيها دارت الدائرة على البساسيرى وحليفه.

* توفى ببغداد عالم الفلسفة أبو على عيسى بن إسحق بن زَرعة كان عالماً باليونانية واشتغل بالترجمة منها (اختصار ارسطو) توفى عن ٧٨ عاماً.

وعن اولاده وشكر الرب الذى كان معه ونجاه من جميع شدايده. وكان يسبح كما قال داوود النبى: الفخ انكسر ونحن نجونا لان معونتنا من عند الرب الهنا. وكان كل احد ياتى اليه ويسجد له كاستحقاقه. فلما خلص الرب ابانا من ذلك البلا وقف امام الرب بدموع غزيرة لاجل الاخ الراهب الذى جرى منه هذا الامر. وقال: الرب يغفر له. ثم قال طالبا معنا الراهب الاخر الذى اخرج من الديارات وقال عنه انه مسلم ليخلصه من يدى

لصالح الكيسوس، عندما تدهورت دولة سلاجقة الروم أقوى الممالك السلجوقية فى آسيا الصغرى ـ فجأة بعد موت سليمان بن قطلمس عام ١٠٨٦م، فقد أدى موته الى انقسام دولته على نفسها، وتحولت الى بضع سلطنات صغيرة يحكم كل منها احد أبنائه أو أقاربه، فزال خطر سلاجقة الروم، وتحولوا من سياسة التوسع فى أراضى الروم الى الدفاع عن وجودهم بعد أن شعروا بتحفز الصليبيين اللاتين للانقضاض عليهم.
أما الدولة السلجوقية الكبرى،

سنة ٤٤٩ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ١٠ مارس ١٠٥٧م.

* جلس الخليفة العباسى جلوساً عاماً حضره السلطان طغرلبك لأول مرة وكان قد عاد من الموصل بعد أن سلمها عمه إبراهيم إينال وخرج لاستقباله رئيس الرؤساء وأبلغه سلام الخليفة وقدم له جاماً من ذهب وألبسه فرجية من عند الخليفة، وفى هذا الاحتفال حضر السلطان، والخليفة على سرير عال نحو سبعة أذرع وعليه بردة النبى فقبل السلطان الأرض فأعلن الخليفة أنه ولاه جميع ماولاه الله من بلاده ولقبه بملك الشرق والغرب.

* تنازل معز الدولة ثَمال المِرْداسى عن إمارة حلب للخليفة الفاطمى بعد ٩ سنوات من حكمه لها وسار منها إلى القاهرة، وولى المستنصر على حلب مكين الدولة ابن ملهم.

* استعفى ابن النّسوى صاحب شَرطية بغداد لسيطرة العيّارين واللصوص عليها.

* سار باديس الصنهاجى أمير غرناطة بالأندلس إلى مالقة واستولى عليها فغادرها صاحبها المستعلى الحمودى إلى المغرب فكان ذلك آخر عهد الحمّوديين بالأندلس.

* أوقع البساسيرى بعد هزيمته فى العام المنصرم بقوات الخليفة عدة هزائم.

* أمر الخليفة المستنصر بالقبض على وزيره اليازُورى وقرر عليه أموالا عظيمة.

الامم ويصبره ويجعل معه رجا الامانة المستقيمة والرب الكريم الذى يسمع دعا خايفيه، سمع دعا ابونا القديس وطرح فى قلوب الولاة عندما كشفو عنه وجدوه نصرانيا اطلقوه من السجن فايزا باكليل الاعتراف. ومضى الى ديره ولم يعرفه احد الى يوم وفاته.

وكانو الاراخنة يسالو الاب قايلين: نحن نضرع اليك ان تجعلنا فى حل لناخذ قصاص البيعة من هذا الغير راهب. فلم يدعهم الاب وقال لهم: ليس

والتى كان مقرها وعرشها فى بغداد، فبالرغم من أنها كانت من الناحية النظرية دولة قوية متحدة، يديرها سلطان واحد أكبر هو ملك شاه الا أنها كانت من الناحية الفعلية منقسمة الى أجزاء ودويلات صغرى؛ يسود بينها التنافس والعداء؛ لكن وجود السلطان الأعظم فى بغداد، الذى يدينون بالتبعية له، كان يحول دون اندلاع هذا العداء. ولقد حاول الكسيوس بسياسة الدهاء أن يستثمر هذا العداء عن طريق الوقيعة بين أمراء

---

* شهدت هذه السنة وفاة الشاعر الحكيم الضرير أبو العلاء المعرى بمسقط رأسه معرة النعمان عن ٨٦ عاماً فى الثالث من ربيع الأول على الأرجح، له من المطبوع المتداول (رسالة الغفران، سقط الزند، اللزوميات).

* توفى بأشبيلية عالم الهندسة المتفلسف ابن خلدون الحضرمى (عمر ابن أحمد) وهو غير سميه المؤرخ.

سنة ٤٥٠ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ٢٨ فبراير ١٠٥٨م.

* شهدت السنة سلسلة من انتصارات البساسيرى الثائر توجت باستيلائه على بغداد وهرب الخليفة منها.

* استولى البساسيرى وحليفه دُبيس صاحب الحلة على الموصل بعد أن فارقها إينال عم طغرلبك وكان ذلك بداية اتهام إينال بالعصيان، وخرب البساسيرى قلعة الموصل.

* دخل البساسيرى بغداد فى الثامن من ذى القعدة ومعه صاحب الحلة وخطب له على منابرها وهو ما يعرف فى التاريخ الإسلامى بالحادث العظيم، بينما خرج الخليفة من المدينة فى حماية قريش بن بدران العقيلى وانتهى إلى بلدة الحديثة.

هو الذى فعل بى هذا بل خطاياى، وان كان هذا مستحق مجازاة فهو ينالها بفعله الذميم. قال ابونا هذا لمعرفته بما يناله من البلايا لان هذه كانت عادته ان يظهر الله له ما يكون ولا يظهره لاحد من الناس الى حين تمامه، لانه كان يهرب من مجد الناس. فهرب ذلك الغير راهب من مصر خوفا من الاراخنة ومن الولاة ايضا لانهم طلبوه لاجل ما ظهر من بطلان قوله جميعه، فانحدر الى مريوط عند اهله. ولم يتركه الشيطان ان يتخلى عن

السلاجقة، غير أن سياسته هذه لم تؤتى ثمارها؛ كما أن حملاته لم تنجح فى زحزحة السلاجقة شبرا واحداً عن المناطق التى احتلوها فى آسيا الصغرى. وللمرة الثانية ساعدت الظروف الكسيوس، عندما مات السلطان الاعظم ملك شاة فى بغداد عام ١٠٩٢م، واندلعت المعارك بين سلاطين السلاجقة الصغار بشكل شرس ينذر بزوال الخطر السلجوقى. وكان فى مقدور الكسيوس أن يستغل الموقف ويستعيد لامبراطورية الروم ما فقدته، لكن خططه الحربية انقلبت

---

* استمال البساسيرى بايحاء من المستنصر الفاطمى إبراهيم إينال واطمعوه فى السلطنة فأعلن العصيان على ابن أخيه طغرلبك الذى لاحقه بهمذان ثم إلى الرى.

* تولى وزارة المستنصر الفاطمى بمصر ابو الفرج محمد بن جعفر المغربى، وولى المستنصر امارة دمشق وامارة حلب ناصر الدولة الحمدانى.

* ممن توفى من رجال الحكم والامارة فى هذه السنة: توفى فى هذه السنة الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز ابن السلطان ابى كاليجار وخليفته فى العراق وفارس واخر سلاطين بنى بويه، توفى مسجونا بقلعة الرى، وفيها توفى عز الدين البكرى (والد البكرى الجغرافى) امير شلطيش بالاندلس قبل اجلاء المعتضد ابن عماد له وقد دام حكمه ٤٠ سنة، وفيها توفى اغتيالا البيازورى وزير الخليفة المستنصر الفاطمى بعد ان وزر له ٨ سنوات، وفيها توفى رئيس الرؤساء القاسم ابن المسلمة وزير الخليفة القائم قتل فى ثورة البساسيرى، وفيها توفى الناصر بن مزين من ملوك الطوائف.

سنة ٤٥١ هجرية

وافق الاول من المحرم يوم الاربعاء ١٧ نوفمبر ١٠٥٩م.

* وقعت الحرب بين طغرلبك ومعه ابناء اخيه داود وبين عمه ابراهيم إينال الذى حالف

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

افعاله الردية فقام ودخل الى البرية المقدسة وعذب الابا الرهبان، وصار عثرة لجميع الرهبان. فاتصل خبره باهل اسكندرية من قوم تجار مشهورين مسلمين كانو يترددو الى الديارات يبتاعو الحصر وغيرها لانهم شاهدو ما يفعله هذا الراهب بالرهبان، فعرفو الوالى ظلمه لهم واستشهدو بالقوم المسلمين فانفذ عند ذلك الى والى مريوط بالقبض عليه وتوثقه بالحديد واخوه العلمانى وانفاذهما اليه. فلما قبض عليه وعلى اخوه

رأسا على عقب، عندما شعر بتزايد خطر الصليبين على بلاد الروم ذاتها بدعوى تحرير الأراضى المقدسة من المسلمين.

الجبهة الشمالية ضد البشناق:

كان البشناق (patzinak) من أشرس القبائل الاسيوية البدوية التى تنتمى بصلة قرابة لقبائل الاتراك السلاجقة، والتى لم تتوقف عن مهاجمة الحدود الشمالية للامبراطورية فى البلقان، وذلك فى نفس الوقت الذى هاجم فيه السلاجقة الحدود الشرقية. ولقد أوقع البشناق هزيمة

الفاطميين على ان تكون الخطبة لهم اذا استولى على البلاد ولكنه هزم عند الرى واسر وقتل (٩ جمادى الآخر).

* احترقت ضاحية الكرخ ببغداد واحترقت فيها خزانة الكتب التى اسسها الوزير اردشير ونهب ما تخلف منها ومن بينها ١٠٠ مصحف بخط ابن مقلة.

* سار السلطان طغرلبك بعد أن انتهى من عصيان عمه إلى بغداد لاستعادة الخلافة والقضاء على ثورة البساسيرى الذى استولى على المدينة فهرب منها البساسيرى (٦ القعدة) قبل أن يدخلها السلطان فى ٢٥ من الشهر وانفذ وراءه جيشاً لملاحقته فى الشام التى لجأ إليها وفيها قتل وحملت رأسه إلى بغداد ومن بغداد سار السلطان إلى واسط ومنها إلى البطائح حيث قضى صلحاً على عصيان دبيس صاحب الحلة.

* عاد الخليفة القائم بأمر الله إلى بغداد وكان قد لجأ إلى الحديثة هرباً من البساسيرى.

* توفى فى هذه السنة من رجال الحكم: السلطان الغزنوى فروخ زاد ابن مسعود بعد حكم دام ٧ سنوات ثار عليه مماليكه واتفقوا على قتله حتى أدركه أصحابه ثم مات بمرض القولنج، وفيها توفى السلطان السلجوقى داود جغرى بك ابن ميكاييل وكان على خراسان وأخلف عدة أبناء كان لهم دور فى تاريخ العصر وهم ألب أرسلان وياقوتى وسليمان وقاورت.

العلمـانى نظر اليـه الوالى وقـال له: مـا سـمـعت مافعلت انا بالغير شماس الذى فعل مثل فعلك، وامـا الان فـانى اجـازيك واخـوك العلمـانى بما تستحقاه. وامر ان يبطحا ويضربا واجاد الاعوان ضربهمـا بالسياط الى ان صـارا كـالاموات، وجر بارجلهما فى اسواق المدينة واعتقلا واوثقا بالحديد. وبعد سنة وهما مقيدين بالسلاسل الحديد، ودفعا كلما يملكاه، وكانت امهما واخوتهما يطوفا كل موضع ويتصدقو ما يدفعوه عنهما الى ان اطلقا

بجيش رومى يقوده الكسيوس عند سيلستريا silistria (درسترا الحالية فى وادى الدانوب الادنى)، وكـاد الامبرطور أن يقع أسيرا فى قبضتهم، لولا أن الظروف خدمت الامبراطور الكسيوس، عندما دب النزاع بين قبائل البشناق وأبناء عمومتهم من قبائل الكومان حول توزيع الغنائم والاسلاب، وشغلهم هذا الصراع عن الاستمرار فى الزحف على البلقان من الشمال. ولما كان الكسيوس لايرى خطرا ملحا يهدد الامبراطورية من جانب البشناق، فقد آثر استرضاءهم

سنة ٤٥٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ٦ فبراير ١٠٦٠م.

* دخل بغداد السلطان طغرلبك (الجمعة ١٧ صفر) وفى حاشيته السلطان أبو كاليجار البويهى وأمراء الولايات فاعتبر هذا التاريخ خاتمة دولة بنى بويه.

* استولى على حلب محمود بن شبل الدولة المرداسى بعد حصارها مرتين وأوقع الهزيمة بناصر الدولة الحمدانى الذى أنفذه الخليفة المستنصر من دمشق، كما استولى عطيه المرداسى على الرحبة وخطب فيها للفاطميين.

* عاد إلى بغداد بعد هزيمة البساسيرى ولى عهد الخليفة الصبى وعمره أربع سنوات وهو أبو القاسم زخيرة الدين المقتدى بأمر الله ومعه جدته أم الخليفة.

* اغتال الداعى الصايحى المؤيد نجاح الذى كان قد استولى على اليمن وأسس دولة بنى نجاح ودام حكمها نحو قرن من الزمان.

* توفى عن ٥٥ عاماً السلطان المنصور عبدالعزيز بن أبى عامر مؤسس الدولة العامرية ببلنسية وما حولها وخلفه ابنه عبدالملك، وفيها توفى من رجال الحكم المؤيد نجاح الحبشى الذى استولى سنة ٤١٢ على اليمن اغتاله الداعى الصليحى انتقاماً، وصاحب شرطة بغداد أبو

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

بحال زرية. وتجذم [اصابه مرض الجذام] الراهب المذكور وصار لونه اسود وكلمن سمع تعجب ومجد الرب الذى اخذ قصاص الاب البطرك لعظم صبره، ويقولو: بالحقيقة عجايب الله فى قديسيه وباركو الرب الهنا.

ولما اكمل ابونا سانوتيوس، وهو شنوده البطرك المجاهد فى جميع ايامه، المغبوط فى خدمته المرضية الله تعالى، وكمل سعيه وحسن اجتهاده وصبره

بعقد هدنة معهم، لكى يوقفوا التعدى على نهب المناطق الشمالية مقابل مساعدة مالية سنوية تدفع لزعمائهم، غير أن هذه الهدنة لم تدعم طويلا. اذ تحالف البشناق فى عام ١٠٩٠- ١٠٩١م مع حاكم اقليم سمرنة (smyrna) التركى (أزمير الحالية)، وهاجموا القسطنطينية برا وبحرا، ولولا أن الكيسوس استخدم بذكاء سلاح الوقيعة بين زعماء البشناق واستقطاب الكومان والروس الى جانبه لينزل بالبشناق هزيمة ساحقة عند جبل ليفونيون

محمد النسوى عن ٨٠ عاماً وهو الذى أجرى الصلح بين الشيعة والسنية، يوفيها توفى أمير فاس بالمغرب دوناس بن حمامة الزناتي بعد حكم دام ١٢ سنة عنى خلاله بتعمير عاصمته.

سنة ٤٥٣ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الجمعة ٢٦ يناير ١٠٦١م.

* أرسل السلطان طغرلبك السلجوقى إلى الخليفة العباسى يلتمس الزواج من ابنته وكان رسوله الوزير عميد الملك الكندرى فانزعج الخليفة لذلك إذ لم يسبق أن طمع أحد فى مصاهرة بيت الخلافة.

* شهدت السنة وفاة سلطان المغرب الأوسط الصنهاجى شرف الدولة المعز ابن باديس وذلك بعد حكم دام ٤٧ عاماً وكان قد أعلن استقلاله عن التبعية الفاطمية عام ٤١٧هـ مما أثار الحروب بينه وبين المستنصر صاحب مصر. توفى بمرض الكبد.

* شهدت السنة وفاة الطبيب المصرى أبو الحسن على بن رضوان كبير الأطباء إبان خلافة الفاطميين وصاحب المحاورات مع الطبيب البغدادى ابن بُطلان له من المؤلفات: كفاية الطبيب، دفع مضار الأبدان، النافع فى الطب، أصول الطب، وجميعها مخطوطة.

على كل الشدايد والبلوى من تجارب الشيطان، وما لقيه من الولاة والظلمة ومكابدة الاوقات الصعبة التى لا توصف، وشاخ وضعفت قوته وشا[ء] الرب ان ينقله الى دار كرامته ومعدن نياحته، وان يريحه مع الابا والابرار الصالحين الاخبار، فمرض وتنيح في الرابع والعشرين من برموده. وكان مدة مقامه على الكرسى المرقسى احدى وعشرين سنة وثلثة شهور. فاجتمع الابا الاساقفة والكهنة والشعب المسيحى فحزنو عليه حزنا شديدا، وبكو

Levounion شمال البلقان فى نهاية ربيع عام ١٠٩١م. ومنذ ذلك الوقت لم يعد البشناق خطرا يهدد الامبراطورية ويلقق راحتها. ولذلك فان ابنه الامبراطور «آنا» عندما كتبت سيرة ابيها، توقفت طويلا عند هذه المعركة التى اعتبرتها من أعظم معاركه الخالدة، التى انقذ بها الامبراطورية من خطر قبائل البشناق الرعاة، البدو الاجلاف التى كانت تبيد فى طريقها الحرث والنسل، وتقضى على الاخضر واليابس.

سنة ٤٥٤ هجرية

أهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ١٥ يناير ١٠٦٢م.

* جرى عقد زواج السلطان طغرلبك السلجوقى من ابنة الخليفة القائم بأمر الله العباسى بظاهر مدينة تبريز فى شعبان من السنة، وكتب الخليفة الوكالة باسم الوزير عميد الملك الكُنْدُرى وسيرت الكتب من بغداد مع أبى الغنائم ابن المحلبان.

* أغار ملك قشتالة الأسبانى فرناندو الأول على أراضى مملكة طليطلة الاسلامية وخربها حتى أذعن صاحبها المأمون بن ذى النون للصلح وأداء جزية سنوية.

* فى مصر انقطع الوباء الذى دام ثمانى سنوات وصحبته مجاعة وقحط.

* تولى إمارة حلب أبو ذَؤابة عطية بن صالح المِرداسى خلفاً لأخيه ثُمال الذى لم يدم حكمه سوى عام واحد، فأغار عليه ابن أخيه محمود بن نصر لاستعادتها منه.

* تولى على اليمن الداعى الصُليح بعد أن اغتال المؤيدَ نجاح الحبشى غيرى أن أمره لم يدم سوى عامين.

* عزل الخليفة العباسى وزيره أبا الفتح ابن دارُست الذى انسحب إلى الأهواز وتوفى بها وخلفه فخر الدولة بن جهير للمرة الثانية.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

عليه بكا طويلا، وصلو عليه كما يجب لمثله وجنزوه كما ينبغى لرياسته، وقدسه وكفنوه ودفنوه.

صلاته وبركته تكون معنا وتشملنا الى النفس الاخيرة امين والمجد للاب والابن والروح القدس من الان وكل اوان والى دهر الداهرين وابد الابدين امين امين امين.

قيام الدعوة الصليبية فى الغرب الاوروبى:

منذ أن فتح المسلمون العرب فلسطين فى القرن السابع الميلادى، لم تتعطل رحلات الحجاج المسيحيين من كافة أنحاء العالم الى القدس، لكن بعد معركة منزكرت قل عدد الحجاج الى فلسطين تحت تأثير ادعاء الروم بأن المسيحيين الشرقيين يعيشون مضطهدين تحت حكم السلاجقة، بالرغم من أن المسيحيين الشرقين تحدثوا عن التسامح العظيم الذى أبدته دولة سلاجقة الروم ازاءهم

---

* توفى بمصر المؤرخ صاحب الخطط أبو عبدالله القضاعى مؤلف خطط مصر وكتاب تاريخ الخلفاء، ودقائق الأخبار وحدائق الاعتبار، وعيون المعارف، وكان سفير الخليفة الفاطمى إلى الامبراطور البيزنطى.

سنة ٤٥٥ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٤ يناير ١٠٦٣م.

* فى المحرم من السنة قدم السلطان طغرلبك من أرمينية إلى بغداد فخرج الوزير ابن جهير والأمراء فى استقباله ومنهم أبو على ابن الملك أبى كاليجار البويهى وابن كاكويه صاحب أصبهان.

* استولى الصليحى صاحب اليمن على مكة فأحسن السيرة وجلب إليها الأرزاق ورفع جور من تقدمه.

* تولى أمير الجيوش بدر الجمالى إمارة دمشق ولكن أمره لم يدم طويلا.

* انهدمت أسوار طرابلس الشام بفعل الزلازل، وفى مصر إنتشر الطاعون وكان يقضى على ألف إنسان فى اليوم.

بسم الاب والابن والروح القدس

اله واحد له المجد الدايم الى الابد امين

نبتدى بعون الله وحسن توفيقه بنسخ الجزو الثالث من سير الابا البطاركة الاخيار الاطهار خلفا الاب البشير مارى مرقص الانجيلى صلواته وصلواتهم تحفظنا امين. وهم بطاركة القبط بارض مصر المومنين الارتدكسيين الذين جاهدو وصبرو على كل الم ومشقة ونصب وتعب من المناصبين والهراطقة واعدا البيعة، ولم يصدهم ذلك عن

خاصة فى عصر ملك شاه السلطان الأعلى للسلاجقة، لكن تحت تأثير الدعاية العاطفية المواجهة الى الغرب اللاتينى، طلبا للمساعدات العسكرية، كادت رحلات الحج الى فلسطين تتوقف؛ فقد كان سخط الراغبين فى الحج الى فلسطين يتزايد عاما بعد عام؛ ولهذا عندما طلب الكسيوس النجدة مرة أخرى من الكنيسة وملوك الغرب اللاتينى، وذلك فى عام ١٠٩٥م موضحا أنه يريدها فى شكل قوات موالية له، وعلى درجة كبيرة من التدريب، لقى طلبه اهتماما. فقد

---

* كثر طمع الأعراب فى بلاد العراق على أثر وفاة طغرلبك وانتشروا على أطرافها ونهبوا وسلبوا مما اضطر أصحابها إلى حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم وممتلكاتهم.

* تولى فى هذه السنة العرش السلجوقى ألب أرسلان بن محمد بن داود جغرى بك ابن أخى السلطان طغرلبك المتوفى وكانت الولاية لسليمان بن داود الذى كان طغرلبك قد تزوج أمه وكان على خراسان فوقع الشقاق فى الأسرة.

* ثار بافريقية حَموُ بن مليك صاحب صفاقس وهزم تميم الصُنهاجى أمير البلاد عند المهدية.

* شهدت هذه السنة وفاة السلطان طُغرلبك السلجوقى (الجمعة ٨ رمضان) عن ٧٠ سنة أول سلاطين الدولة السلجوقية العظام وهو الذى قضى على ثويرة البساسيرى وأزال ملك بنى بويه وعقد قرانه من ابنه الخليفة إلا أنه توفى قبل أن تزف إليه.

سنة ٤٥٦ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ٢٥ ديسمبر ١٠٦٣م.

* غزا النورمانديون باسطولهم مينة بربَشْتَر الأندلسية وبعد دفاع بطولى استسلمت بشروط غير أن الغزاة أوقعوا بأهلها قتلا وسبيا وبلغ عدد الضحايا ٤ آلاف قتيل.

حب المسيح سيدهم والاعتراف الحسن والاقرار بالامانة المقدسة واقامة منار الدين، وثبتو على الامانة المستقيمة التي ورثوها عن ابايهم القديسيين الصايرة اليهم من الابا الحواريين تلاميذ السيد المسيح الذين راو وشاهدو وصنعو العجايب كما كان سيدهم يصنع واعطاهم السلطان على ذلك وعلى مقاومة الملوك والسلاطين بتاييد الروح القدس الناطق على السنتهم كما وعدهم السيد المسيح له المجد الى الابد امين.

كانت البابوية قد فرغت من صراعها مع الأباطرة في الغرب وحققت انتصارها عليهم؛ كما أن كنيسة روما لم تفقد أبدا الأمل في أن تخضع كنيسة القسطنطينية لكرسي البابوية. ولهذا فقد أحياء استجداء الكسيوس كومنين هذه الآمال، وراح البابا أوربانوس الثاني Urbanus II يروج لهذه الدعوة. وفي شهر نوفمبر عام ١٠٥٩م في مدينة كليرمونت Clermont ـ بوسط فرنسا ـ عقد مجمعا دينيا، وكانت هذه المدينة وقتذاك تعج بالحجاج الغربيين في

---

* قبض السلطان ألب أرْسلان على وزير عمه (طغرلبك) عميد الملك الكُنْدُرى متهماً إياه بتغذية الفتنة ضده وأبعده إلى مرو معتقلا، وفيها لقى مصرعه.

* عادت ابنة الخليفة القائم العباسي وعروس طُغْرلْبك إلى بغداد من الرى وفي صحبتها الأمير ايتكين العثماني.

* في المحرم من السنة أعلن شهاب الدين قُتُلمش من أعمام السلطان الثورة عليه وسار للاستيلاء على الرَىَ فخف إليه ألْب أرْسلان ولكن لم يلبث أن توفي.

* في الأول من شهر ربيع الأول غزا ألْب أرسلان بلاد الروم للمرة الأولى واستولى على مدينة «مريم نشين» بعد أن نقبوا سورها وأسر فيها خلقا كثيراً ثم استولى على مدينة (أعال لال) ببلاد الكُرْج (القوقاز) وهدم أبراجها وعاد بعدها إلى كِرْمان.

* شهدت السنة وفاة الفيلسوف والفقيه المجتهد ابن حَزْم الظاهرى (أبو محمد على ابن أحمد) توفي بناحية لَبْلَة بالأندلس عن ٧٢ عاماً، له من المطبوع: المحلى في الفقه، الفصل بين الملل والأهواء والنحل، الإحكام لأصول الأحكام، وله طوق الحمامة في الأدب.

طريقهم لحضور حج عيد ميلاد عام ١٠٥٩م. وفى نهاية الاجتماع ألقى البابا أو ربانوس الثانى خطبة غراء نارية، تهيب بالمسيحيين أن يحملوا السلاح لاجلاء المسلمين عن بيت المقدس، ومساعدة أشقائهم فى المشرق ؛ ووعد البابا المتطوعين لهذه الحرب بغفران الخطايا، والتكفير عن ذنوبهم؛ ووعد المثقلين بالديون بأسقاطها عنهم وحماية المتطوعين وممتلكاتهم ونسائهم أثناء غيابهم فى الشرق، واستمع المسيحيون اللاتين

السيرة الثالثة والعشرين من سير البيعة المقدسة

قال الاب الفاضل انبا ميخاييل [الدمراوى] اسقف مدينة تنيس ان من الواجب يا احباى لاجل المحبة المسيحية ان نسطر ما اخر تسيطره مما كان فى البيعة الارتدكسية الذى شاهده وعرفه اوليك الرعاة فى كل جيل، وكانو خداما للكلمة. وطلبت من الله سبحانه اعانة ضعفى انا البايس الخاطى لابتدى واجعل لسانى الناقص قلم سريع

سنة ٤٥٧ هجرية

وافق الاول من المحرم الاثنين ١٣ ديسمبر ١٠٦٤م.

* بعد تسعة أشهر من إحتلال النورمان لمدينة بِرْبَشْتُر الأنلسية أوقع المقتدر ابن هود صاحب سرقسطة بالقوات الغازية فلم ينج منها أحد وبلغ السبى وحده خمسة آلاف.

* عبر السلطان أَلْب أَرْسلاَن السلجوقى نهر جيحون (أموداريا) وسار صوب جنّد القرية من بخارى (بها قبر جده سلجوق) فاستسلم ملكُها ودخل فى طاعته.

* وقعت الحرب بين بنى حَمّاد الصُّنْهاجيين أصحاب المغرب الأوسط وبين العرب حلفاء المعز بن زيرى وقد تم للعرب فى الوقعة الاخيرة امتلاك الاقليم.

سنة ٤٥٨ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ٣ ديسمبر ١٠٦٥م.

* عهد السلطان السَلجُوقى اَلبْ أَرْسلان بالولاية لابنه مَلِكْشاه واخذ العهود والمواثيق وأمر بالخطبة له فى جميع البلاد.

الكتابة لكيما يتحرك بموهبة الروح القدس، فاكتب ما سمعته وعرفته من الصادقين الذى يقبل قولهم، ونسلك منهاج من تقدمنا الذين نالو النعمة، لان هذا الامر كان خطر ببالي ان اكمله، وتشبهت بالامراة الارملة التي القت في الخزانة الفلسين الحقيرين ولم يكن لها غيرهما فقبلهما الرب فاحص القلوب منها. ووجدت الذى تضمنته السير الذى رتبها الابا القديسين بقوة الروح القدس هو ما جرت عليه البيعة من زمان الاب القديس

الى خطبة البابا التى تعلن الجهاد الصليبى ضد الاسلام واستجابوا لها، ولكن بطريقة مغايرة في الشرق، واستمع المسيحيون اللاتين الى خطبة البابا التى تعلن الجهاد الصليبى ضد الاسلام واستجاب لها الامبراطور فى طلب قوات مرتزقة، تقبل الخدمة تحت قيادة ضباط أروام، فقد انتشرت دعوة البابا ، ودوت في جوانب أوروبا الغربية، مطلقة العنان لأحلام مكبوتة، ولبى الدعوة جموع غفيرة من الناس، قليل منهم كانت تحركه رغبة صادقة أملا فى تحقيق الثراء والشهرة، كما أن

---

* استولى المأمون بن ذى النون صاحب طُلَيطلة من ملوك الطوائف على بَلَنسية فقضى بذلك على دولة بنى عامر.

* دخل السلطان ألْب أرسْلان بلاد الروم واستولى على مدينة آنى وخربها ثم على مدينة قرس وكانتا عاصمتين لأرمينية القديمة فبذلك أصبح طريقه مفتوحا إلى قلب الأنضول.

* توفى المؤرخ يحيى الانطاكى مؤلف ذيل التاريخ (أى تاريخ ابن البطريق).

* وافقت هذه السنة وفاة فرناندو ملك قشتالة (ديسمبر) وعلى اثر ذلك نشبت حرب اهلية بين ابناءه، كما وافقت غزو وليم دوق نورمانديا بريطانيا وهو الذى عرف باسم وليم الاول أو وليم الفاتح.

سنة ٤٥٩ هجرية

وافق هلال المحرم من السنة يوم الاربعاء ٢٢ نوفمبر ١٠٦٦م.

* نشبت الثورة فى أشبيلية بالأندلس (١٠ صفر) بسبب استبداد الوزير ابن نغرالة اليهودى، وتدبير اغتيال ولى العهد فقبضت عليه العامة وقتل وصلب ونهبت سائر دور اليهود.

* دمر السلاجقة إقليم كابادوكيا البيزنطى بالأنضول وبلغوا مدينة قَيصرية وخربوها.

الفقراء المضطهدين من عبودية الاقطاع وجدوا في قبول الدعوة ملاذا ومهربا من أوضاعهم المتردية التي كانوا يعيشون فيها، وكذلك المثقلون بالديون جذبهم وعد البابا باسقاط هذه الديون عنهم، كما ساهم سكان المدن الايطالية التجارية في هذه الحملة بغية السيطرة على الموانئ التجارية في الشرق وفتح طريق تجارى اليها كذلك هدفت البابوية الى توريط النورمان في هذه الحرب، وتحويل طاقاتهم العدوانية بعيدا عن ايطاليا والممتلكات البابوية وتوجيهها نحو

الانجيلي مارى مرقس البكر الطاهر الشهيد، والى زمان الانبا سانوتيوس [شنوده]، وهو الخامس والخمسين المرسوم بطريركا بعد انبا قسما [قزما]، وهذا الاب سانوتيوس هو الذى لحقه شدايد عظيمة حسب ما تضمنته سيرته، ومن بعده الى زمان انبا سانوتيوس الخامس والستون الذى وسمنى انا الغير مستحق قسا، لم يكتب شي من السير، فكتبت انا البايسى ميخاييل ذلك بمعونة الله سبحنه لي.

---

* عاد القحط والوباء وعم بلاد مصر واستمر نحواً من خمس سنين وهى الفترة التى عرفت فى التاريخ الفاطمى باسم الشدة الكبرى أو الشدة المستنصرية إبان خلافة المستنصر فضلا عن الفتن والحروب الأهلية التى جرت خلالها.

سنة ٤٦٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ١١ فبراير ١٠٦٧م.

* كُسر شرفُ الدولة بن قُريش من بنى كلاب وكانوا شيعة الفاطميين بالرحبة وكُسرت الأعلام الفاطمية وطيف بها فى بغداد.

* عزل الخليفة وزيره فخر الدولة ابن جَهير ثم أعيد إليها فى العام التالى، وفى مصر عزل الخليفة المستنصر أمير الجيوش بدر الجمالى من إمارة دمشق وولاها الأمير بارز طُغان.

* تولى على إمارة بَطَلْيوس بالأندلس المنصور بن الأفطس خلفاً لأبيه.

* ممن ولد فى هذه السنة: الكاتب المؤرخ تاج الرياسة ابن الصيرفى (على ابن مُنْجب: رئيس ديوان الانشاء فى خلافة الآمر الفاطمى ومؤلف كتاب «الاشارة فى مَن ولى الوزارة».

انبا خاييل (خايال) [الثالث] البطريرك وهو من ا لعدد السادس والخمسون
[٨٨٠/ ٨٩٤م]

لما توفى سانوتيوس [شنوده] البطريرك الذى بنى هيكل مارى مرقس باسكندرية، وثبت هذا الهيكل ماية وخمسة عشر سنة، اقسم [أقيم] من بعده انبا خايال، وكان ذو خصال ثلثة [سلسة] جميلة تشبه الذهب المسبوك فى النار لاجل التجارب التى لحقته

بلاد الشام؛ أما حكام وأمراء دول أوروبا فقد كان يحدوهم الأمل فى تأسيس امارات لاتينية لهم فى الشرق. ولهذا السبب نظر الكسيوس كومنين الى الدعوة الصليبية بنفس نظرة القلق التى نظر بها الى البشناق والسلاجقة والتورمان، خاصة أن أحدا من زعماء الصليبيين لم يستشره أو يخطره بخصوص الخطط التى وضعت فى الغرب من أجل فتح الشرق وتحرير الأرض المقدسة!!

الكسيوس كومنين والحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٦م:

وفى يوليو عام ١٠٩٦م كان

---

* عاصر هذا التاريخ استيلاء سانشو ملك قشتالة على أملاك أخويه فى ليون وجلّيقية فلجأ الفونسو صاحب ليون إلى حماية المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة.

سنة ٤٦١ هجرية

أهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ٣١ أكتوبر ١٠٦٨م.

* وقع حريق بالمسجد الأموى الكبير بدمشق وامتدت النار إلى جيرانه وبقى المسجد على حالته من الخراب نحواً من قرن ونصف القرن حتى جدده السلطان العادل الأيوبى صاحب مصر.

* استمر القحط والغلاء فى مصر حتى بيع الأردب بمائة دينار ثم انعدم وجوده، بينما كان يباع السمك فى الكوفة كل أربعين رطلا بحبة.

* وثب صيرفى فى مصر على الأمير ناصر الدولة الحمدانى فجُرح الحمدانى وشُنق الصيرفى.

سنة ٤٦٢ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الثلاثاء ٢٠ أكتوبر ١٠٦٩م.

* دخل الامبراطور البيزنطى رومانُوس الرابع مدينة منّبج غازياً فنهب وفتك بأهلها بعد أن

الكسيوس قد فرغ لتوه من حملة الربيع ضد السلاجقة الروم عندما فوجئ برجال ينتمون الى الغرب الأوروبي، ويرطنون باللغة اللاتينية أو مشتقاتها، ويدينون بالكاثوليكية، يملأون شوارع المدينة العاصمة، واستمر تدفق هؤلاء الغرباء على القسطنطينية بقيادة زعيم يدعى بطرس الناسك، وما أن انتهى العام حتى كان عددهم قد تزايد بأعداد غفيرة جدا، وكان على الكسيوس كومنين أن يوفر الطعام والاقامة

وصبر عليها. وذلك انه كان على كرسى سخا [بكفر الشيخ] اسقف شرير، وكان من جملة كرسيه الضيعة المعروفة بدنوشر، وكان فيها بيعة على اسم الشهيد طلماوس تحتاج إلى تكريز، فاجتمع رويسا الناحية إلى الاب البطرك انبا خايال والابا الاساقفة الذين حضرو معه التكريز وسالوهم الحضور الى البيعة لينالو بركتهم، فحضرو جميعا واجتمع شعب عظيم، وحضرو وقت القداس، وكان اسقف سخا المذكور غايب عن البيعة مهتم

أوقع الهزيمة بأميرحلب المرداسي وابن حَسّان الطائى ثم عاد من حيث أتى. ورد السلاجقة بتخريب مدينة عَمُّورية.

* حاصر أمير الجيوش بدر الجمالى مدينة صور برا وبحرا لإعادتها إلى التبعية الفاطمية وضيق على أهلها سنة كاملة فلم يبلغ غرضه فرجع عنها.

* تفاقم الغلاء فى مصر وشحت الأقوات حتى هاجمت العامة دار الخلافة الفاطمية ونهبوا ما فيها من تحف حملها التجار إلى بغداد منها ٨٠ ألف قطعة بلور و٧٠ ألف قطعة ديباج.

* أبطل أمير مكة الخطبة للمستنصر الفاطمي وأعاد الخطبة للخليفة القائم العباسي ثم للسلطان ملكشاه فمنحه السلطان ٣٠ ألف دينار ووعده بعشرة الاف فى كل سنة وكان المستنصر فى شغل من أمر الغلاء والقحط.

* ولد فى هذه السنة محدث بغداد فى عصره أبو البركات الأنماطى.

* توفى من رجال الحكم فى هذه السنة: الشريف حَيْدَرة بن أبى الجن قبض عليه بدر الجمالى وقتله ومثل به.

سنة ٤٦٣ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ٩ أكتوبر ١٠٧٠م.

* شهدت هذه السنة معركة ملاذكردى (مانزكرت) الفاصلة التى اعتبرت تمهيداً للحروب

بعـمل طعـام لهـم، وتصـرم النهـار وجـاز وقت القـداس، فـانفـذو الى الاسـقف فلم يحـضـر لانه مشتغل بما ذكرنا. فسالو الاساقفة والجماعة الاب البطرك ان يحمل القربان على الهيكل لتبتدى الكهنة بقراة الكتب وتفسيرها على حال رفق ومهلة الى ان يحضر الاسقفى، ففعل ذلك. ومن بعد هذا الاسقف فوجدهم قد بدو قبل حضوره، فـغـضب وقـال للبطرك بضـجـر من جعل لك ان تفعل هذا في كرسي بغير امرى ولا حضورى. ثم

والنفـقـات لهم. كـمـا اكـتـشف الكسـيـوس أنهم لم يكونوا أولئك الجنود المدربين المحنكين في فن القتال الذين كان يتمناهم، فقد كان هؤلاء الضيوف المتطفلون رجالا فوضويين، لادارية لهم بالحـرب. ثم أنهم بعـد وصـولهم بدأوا يتـحـرشـون بأهل القسطنطينية، فكانوا ينهبون متاجرهم ومنازلهم ويرتكبون الكثير من أعمال اللصوصية، وسارعان ما أدى ذلك التحرش الى احياء العداء القديم بين الكاثوليك اللاتين والروم الأرثوذوكس، وظهرت حدة الاختلافات اللغوية،

الصليبية فيها شن الامبراطور البيزنطى رومانوس الرابع حرباً شاملة على الدول الإسلامية المجاورة على رأس ٢٠٠ ألف من الروم والفرنجة والروس والبُوشْنَاق والجركس فخف إليه السلطان ألب أرسلان من خُوَىّ باذربيجان على رأس ١٥ ألفاً وجرت الوقعة يوم الجمعة ٢٠ الحجة (١٩ أغسطس) والخطباء على المنابر وحمل السلطان كفنه وزحف على جيش الحلفاء فأوقع بهم هزيمة منكرة أسر فيها الامبراطور الذى فدى نفسه بمليون ونصف مليون دينار.

* غزا الأمير الخوارزمى أتْسر بن أوق أرض فلسطين واستولى على الرملة وبيت المقدس وسار صوب مصر غير أن دمشق وقفت فى وجه الخوارزمية.

* خطب أمير حلب المرداسى (محمود بن صالح) للخليفة القائم وللسلطان ألب أرسلان بعد استقرار دولة السلاجقة وانتصارات جيوشها، ومع ذلك سار إليها ألب أرسلان حتى أعلن أميرها استسلامه فأقره على ولايته.

سنة ٤٦٤ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الميس ٢٩ سبتمبر ١٠٧١م.

* تزوج ولى عهد الخلافة عُدة الدين (المقتدى بالله) ابن الخليفة القائم من سفرى خاتون

والحضارية، والمذهبية بين الطرفين، وتشكك الكسيسوس من نوايا هذه الحملة ومن زعمائها الذين كانوا آخر من وصل اى القسطنطينية؛ ولم يكن زعماء الصليبيين يختلفون فى نوعيتهم كثيرا عن رجالهم بالرغم من أن الكثيرين منهم كانوا ينحدرون من أرقى الأسر في أوروبا. فقد كان على رأسهم جودفرى بوايون دوق اللورين الأدنى، وأخوه بلدوين دوق بولونيا، وبوهيموند ابن روبر جويكسارد عدو الامبراطورية اللدود، وريموند الرابع أمير تولوز وبروفانس، وروبرت أمير

تقدم الى الهيكل واخذ الدورن [وعاء القربان] الذى حمل عليه كسره ورماه وخرج مغضبا، فصعب ذلك على الاب البطرك وعلى جميع الحاضرين، ثم اخذو دورن اخر حملوه على الهيكل وكملو القداس وقربو الناس. فلما كان بالغداة جلس الاب البطرك واجتمع اليه الاساقفة وقطعو ذلك الاسقف وقدمو غيره. فلما علم ذلك داخله الشيطان، وتسلط عليه الغضب، فمضى الى الامير المتولى بفسطاط مصر من قبل الخليفة وهو احمد

ابنة السلطان ألب أرسلان وتم العقد بنيسابور وكان الوكيلان الوزيرين: عميد الدولة ابن جهَير عن الخليفة ونظام المُلْك عن السلطان ونُثر على الناس الجوهر والذهب.

* أقر الخليفة ملكشاه ابن السلطان ألب أرسلان ولياً لعهد أبيه.

* شهدت السنة وفاة ملك قشتالة سانشو (شانجة) القوى فى حربه مع سانشو الرابع ملك النافار وكان مقتله على أسوار زامورة.

سنة ٤٦٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ١٧ سبتمبر ١٠٧٢م.

* شهدت السنة انتقال سلطنة السلاجقة العظمى إلى ملكشاه خلفاً لأبيه ألب أرسلان باسم جلال الدولة معز الدين أبو الفتح ملكشاه (١٠ ربيع الأول).

* أوصى السلطان ألب أرسلان قبل وفاته ابنه ملكشاه بأن يتولى عمه قاورت بك أعمال فارس وكرمان وأخوه إلْياس (إيَاز) بلخ، ولكن لم تلبث أن وقعت الحرب مع قاورت عند همذان فى شعبان من السنة وكان فى جانب ملكشاه شرف الدولة العُقَيلى صاحب الموصل ودُبيس صاحب الحلة.

٥٦: انبا خايل البطريرك ٨٨٠/٨٩٤م

ابن طولون النايب عن خليفة بغداد، وكان محب لجمع المال، فشكا له البطرك واغراه عليه، وقال له: ان معه مال عظيم. وكان ابن طولون مهتم بتجريد عسكر الشام ففرح بقول الاسقف لياخذ من البطرك ما ينفقه في العسكر، فانفذ واحضر الاب البطرك وخاطبه قايلا: انت تعلم ما نحتاج اليه من الاموال برسم الحمل الى الخليفة ببغداد لانه صاحب هذه الارض، وبخاصة لما عليه من الحروب، وانتم يا مقدمي النصارى تحت سلامه،

نورماندیا، ابن ولیام الفاتح وشقيق ملك انجلترا.

وقبل أن يصل هؤلاء القادة، قرر الكسيوس أن يوزع المتطوعين، فأسرع بنقلهم بزعامة قائدهم بطرس الناسك عبر البوسفور الى آسيا الصغرى، مكلفا اياهم بتحرير نيقية من أيدى السلاجقة، وما أن وطأت أقدامهم مشارف نيقية، حتى انقض عليهم السلاجقة من كل مكان، وفتكوا بالشطر الأكبر منهم، أما الذين استطاعوا النجاة بأنفسهم ، فقد عادوا الى القسطنطينية؛ وكان بطرس

---

* تولى عرش غرناطة بالأندلس عبدالله بن بلقين خلفاً لجده باديس الصنهاجي.

* أصبح نظام الملك مدبراً لشئون دولة ملكشاه ومنحه السلطان لقب أتابك بمعنى مربى الأمير فعمل على قمع ثورات الجند.

* أقيمت الخطبة في القدس للخليفة المستنصر الفاطمي.

* ولد في هذه السنة الطبيب الأديب النصراني ابن التلميذ (موفق الملك هبة الله بن صاعد) الذى انتهت إليه رياسة الأطباء بالعراق.

* شهدت السنة اغتيال السلطان ألب أرسلان (عضد الدولة أبو شجاع الملك العادل محمد بن جغرى بك) عن ٣٩ عاماً على يد مستحفظ إحدى القلاع (٦ ربيع أول) وتوفى بعد أربعة أيام وحمل جثمانه إلى مرو وكان قد سار إلى التركستان بعد أن عبر نهر جيحون على رأس ٢٠٠ ألف، كما شهدت السنة مقتل أخيه قاورد فى النزاع بينه وبين ابن أخيه ملكشاه.

* توفى من رجال الحكم فى هذه السنة صاحب غرناطة بالأندلس ومجددها أبو مناد باديس الصنهاجي (٢٠ شوال) بعد حكم دام ٣٧ سنة وهو الذى استوزر ابن نغزالة اليهودى، وفيها توفى صاحب حلب الأمير المرداسي عطية ابن صالح الذى هجرها إلى الرقة ثم إلى بلاد الروم ومات بالقسطنطينية، وفيها توفى بمصر ناصر الدولة الحمدانى أمير الشام ووزير المستنصر

الناسك قد سبقهم اليها قبل وقوع الكارثة. وهناك انضم اليهم المزيد من الصليبيين القادمين من الغرب مع القادة والأمراء.

ولما أدرك الكسيوس أن أمراء الحملة مهتمون بأنفسهم ومكاسبهم أكثر من اهتمامهم بالقضية الصليبية وانتزاع الأراضي المقدسة من أيدى المسلمين، لم يطق وجودهم. لكنه كظم غيظه، فقد اعتقد في قرارة نفسه ـ كما تذكر ابنته في كتابها عنه ـ أن هدف هذه الحملة هو خلعه من على عرش بلاده، ولاستيلاء على

وما تحتاجو الى ذهب ولا فضة الا خبز تاكلوه وثوب تلبسوه، وقد عرفت ان لك مال كثير وانية لا تحصى ذهب وفضة ودياج وانواع الحرير للبيع، وانا احبك واوقر شيخوختك، وقد احضرتك بغير اجحاف فتجد به عنده وعندى نعمة. فسكت البطرك ولم يدرى ماذا يجيبه، ثم قال له بسكينة وتواضع: ان مملكتكم ليس فيها ظلم، وانتم قوم تعرفون الحق وانا انسان ضعيف لا املك ذهبا ولا فضة ولا شيا مما سعى به اليك، وعظمتك تعلم انا

آخر من كانت له الامارة من الحمدانيين مات مقتولا بقصره المسمى منازل العز على يد ألديكز التركي، وفيها توفى ببغداد سيد بنى العباس في زمانه محمد بن على المهتدى الملقب راهب بنى هاشم، وفيها توفى مقتولا بمصر الوزير عبدالظاهر بن العجمي.

* ممن توفى من الأدباء في هذه السنة الشاعر صَرَّدُرّ (أبو على المنصور على ابن الحسن) له ديوان شعر متداول.

سنة ٤٦٦ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الجمعة ٦ سبتمبر ١٠٧٣م.

* استولى المعتمد بن عبّاد صاحب أشبيلية على مدينة جيّان من أعمال مملكة غَرْناطة الإسلامية على أثر وفاة ملكها باديس الصنْهاجي فاضطر خليفته الشاب أن يتحالف مع ملك قشتالة المسيحي لدفع هذا الغزو عن غَرناطة نفسها التى سار إليها المعتمد وذلك في نظير جزية سنوية مقدارها ٢٠ ألف دينار يدفعها للملك المسيحي.

* استدعى الخليفة المستنصر أمير الجيوش بدر الجمالى وكان على عكا ليوليه وزارته.

* غرق الجانب الشرقي من بغداد بسبب فيضان دجلة حتى أن صلاة الجمعة أقيمت مرتين

٥٦: انبا خايل البطريرك ٨٨٠/٨٩٤م

[أنّا] قوم مامورين ان لا نكنز كنوزا على الارض ولا نهتم بغد، والان فانا بين يديك افعل ما تريد، فسلطانك على جسدى، وروحى بيد خالقها. فلما سمع احمد ابن طولون ذلك غضب وقال: حقا ان اكرامى لك اوجب انكارك على بمالك، وكلمن هو خارج عن ديننا اذا اكرم لا يعرف الاكرام. ثم امر بحبسه. وكان فى الحبس الذى اعتقل فيه انسانا ريس يعرف بابن المدبر،وكان رجلا مامون يحب الصدقة كثير المال، فكان يخدم البطرك

كيسة وعاصمته، وتأسيس امارات لاتينية على أشلائها؛ ودعم من ظنونه سلوكهم الهمجى، فقد عاثوا فى العاصمة والأقاليم نهبا وسلبا، ورغم ذلك فعل ما فى وسعه لاكرام وفادتهم، والاغداق عليهم بالهدايا النفيسة، فقد كان يعرف أنهم قوم جشعون محبون المال - على حد قول آنا كومنينا فى كتابها - كما تعهد بامداد جيوشهم بالعتاد والمؤن خلال حروبهم فى آسيا الصغرى، وامدادها بالخبرة العسكرية والنصائح والادلاء، مقابل أن يقسموا أمامه قسمين: قسم

على ظهر مركب وصحبت الفيضان سيول هدمت وخربت حتى دخلت المياة من شبابيك البيمارستان العضدى، واعتبر الناس ذلك عقاباً لأهل المفاسد وأصحاب الحانات والمغانى والمواخير.

سنة ٤٦٧ هجرية

وافق مستهل السنة يوم الأربعاء ٢٧ أغسطس ١٠٧٤م.

* جلس على دست الخلافة العباسية ببغداد أبو القاسم عُدة الدين المُقْتَدى بأمر الله (محمد ابن الخليفة عبدالله القائم بأمر الله) وخلفاً له وله من العمر ١٨ سنة ولم يكن للقائم من أبناء سواه وقد اشتهر عهد المقتدى بحركة إصلاحية، وبعد أن تمت البيعة له صلى بالوزراء والفقهاء صلاة العصر وفيهم قاضى القضاة.

* اشترك جماعة من أعيان الفلكيين فى عمل الرصد للسلطان مَلِكشاه منهم عمر الخيام الذى ألف له «الزيج الملكشاهى».

* عقد المعتمد بن عبّاد صاحب أشبيلية معاهدة سرية مع ملك قشتالة المسيحى ألفونسو

شخصي يتعهدون فيه بالولاء له، وقسم يتعهدون فيه بأن يعيدوا الى امبرطورية الروم كل شبر من أرضيها ينتزعونه من براثن السلاجقة. وقد مارس الكسيوس عليهم الكثير من الضغط النفسي، والاغراء المادى، والوعود الخلابة لكي يحصل من زعمائهم على هذين القسمين، غير أنهم كانوا يضمرون الغدر بالامبراطور الكيسوس.

وفي ربيع عام ١٠٩٧ تحركت الحملة الصليبية الأولى من القسطنطينية، وتوجهت صوب نيقية ـ

ويصوم معه ويفطر معه على خبز وملح وباقلا مصلوق وما يجرى مجراه. وكان ذلك الريس لا ياكل شيا مما يحمل اليه من داره فاقام معه في الحبس سنة، وكان الحبس مملو جدا وبعد انقضا السنة دفع البطرك للسجان شيا حتى عمل له بيت ما [بيت ماء = بيت راحة مرحاض] طوب وطين طوله ذراعين في ذراعين، ليلا يكون يريق الما قدام المعتقلين لانه ظن ان مدة حبسه تطول الى يوم وفاته. وفي اليوم الذى فرغ البنا من بيت الما فيه

السادس لاقتسام مملكة غرناطة من صاحبها عبدالله بن بلقين فلما فشلت عقد المعتمد الصلح مع ابن بلقين.

* أعيدت الخطبة بمكة للخليفة المستنصر الفاطمي مرة أخرى.

* هاجم نصر المرداسي أمير حلب قلعة منبج واستعادها من الروم.

* في ليلة الخميس ١٣ شعبان توفي الخليفة العباسي القائم بأمر الله (عبدالله ابن القادر بالله) عن ٧٦ عاماً وامتدت خلافته ٤٤ سنة و٨ أشهر.

سنة ٤٦٨ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ١٦ أغسطس ١٠٧٥م.

* السنة الأولى من خلافة المقتدى بالله العباسي التي امتدت عشرين سنة.

* تمكن الخوارزميون وعلى رأسهم أتسز التركماني من دخول دمشق في شهر شعبان من السنة بعد أن اشتدت بها المجاعة فاستسلمت بالأمان وكان عليها ابن حيدرة كما تغلب القائد الخوارزمي على يافا وقطع خطبة الفاطميين لآخر مرة وخطب للمقتدى العباسي.

* باشر أمير الجيوش بدر الجمالي وزارة الخليفة المستنصر الذى ألبسه خلعتها.

٥٦: انبا خاييل البطريرك ٨٨٠/٨٩٤م

افرج الله عنه. وذاك انه كان لاحمد بن طولون كاتبين اخوين احدهما يسمي يوحنا والاخر ابرام [إبراهيم] ولدى موسى، وكان يحبهما وكانا قد اكثرا الطلبة اليه ان يضمنه لهما وياخذاه من الحبس الى منزلهما فلم يفعل. وكان احمد ابن المادرائي وزير ابن طولون له كاتب يسمي يونس، فسال هذا الكاتب صاحبه الوزير ان يسال الامير في البطرك، ثم مضى الى ام احمد ابن طولون وكانت امراة ورعة في دينها عارفة به، وقال لها:

عاصمة السلاجقة - وداهمتها واستولت عليها؛ وكانت بداية مفعمة بالأمل للأمبراطور وشعبه، غير أن نهب الصليبيين للمدينة أفقد الأمل بريقه. وتقدم الصليبيون نحو ميناء طرطوس فاستولوا عليه، لكنهم رفضوا تسليمه لمندوب الأمبراطور المصاحب للحملة. وبينما اتجه الكسيوس وجيشه غربا لاستعادة المدن الهامة في آسيا الصغرى مثل أزمير، وايفيسوس، وساردیس؛ اندفع الصليبيون شرقا نحو أنطاكية، وحاول السلاجقة على عجل أن يرقفوا تقدمهم فدخلوا

سنة ٤٦٩ هجرية

أهلت السنة في يوم الجمعة الموافق ٥ أغسطس ١٠٧٦م.

* سار الخوارزمية وعلى رأسهم أتسز التركماني لغزو مصر غير أن أمير الجيوش بدر الجمالي وزير المستنصر أوقع به الهزيمة فعاد اتسز إلى فلسطين واستعاد فتح القدس حتى لم يسلم من القتل من التجأوا إلى المسجد الأقصى.

* جرت ملاحاة بين فقهاء الحنابلة واتباع الفقيه الصوفي أبي القاسم القُشَيري بسبب انتصارهم لمذهب الأشاعرة حتى لقي بعضهم مصرعه في هذا النزاع.

* استولى محيط العلوى على المدينة وأعاد خطبة المستنصر الفاطمي بعد أن طرد أميرها ابن مُهنّا.

سنة ٤٧٠ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الثلاثاء ٢٥ يوليو ١٠٧٧م.

* بعد حروب طويلة تم الصلح بين تميم بن المعز صاحب أفريقية (تونس) والناصر ابن علَنّاس صاحب المغرب الأوسط (الجزائر) وهو الخامس من بنى حَمّاد، وزوجه تميم ابنة له

قد علمتي طول حبس البطرك، وقد مات جماعة من الاساقفة باقليم مصر ولم يقام عوضهم، والحاجة داعية الى اقامة عوضهم. فقالت له: الم تعلم ان يوحنا وابرهيم ابنا موسى وهما كاتبيه وخاصته قد اجتهدا ان ينقلاه من حبسه الى منزلهما فما قدرا، فكيف يسمع منك انت. فقال لها: انا افعل ما قد جعله الله في قلبي والامر لله جلت قدرته. فشجعته على ذلك، فمضى واخذ معه ولدا له يسما مقاره، وقاما في الغلس [الفجر]

معهم في معركة سريعة عند مدينة دوريلايوم Dorylaeum الواقعة الى الجنوب من نيقية، وذلك في شهر يوليو من العام نفسه، وكانت النتيجة أن تلقى السلاجقة واحدة من أبشع الهزائم القليلة التي عرفوها في تاريخهم، ويحاول المؤرخون الغربيون أن يرفعوا من قدر هذا النصر لدرجة تجعله مساويا لانتصار السلاجقة الحاسم في منزكرت، لأن انتصار دوريلايوم فتح الطريق أمام الصليبيين للوصول الى قلب الأناضول،

تدعى بلارة وسيّرها إليه من المهدية مع فاخر الجهاز وكان مهرها ٣٠ ألف دينار أخذ منه أبوها دينارا واحداً ورد الباقي.

* في شعبان من السنة الموافق مستهل عام ١٠٧٨م ثار نقفور حاكم إقليم عَمُّورية بالأنضول على إمبراطور ميخاييل السابع فاستعان نقفور بالسلاجقة وعلى رأسهم سليمان بن قُتُلْمِش الذى استولى باسمه على نيقية ونيقوميديا وخلقدونيا حتى البوسفور بما يعادل ثلاثة أرباع أرض الأنضول.

* تجددت الفتنة بين الحنابلة وفقهاء المدرسة النظامية ببغداد.

سنة ٤٧١ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ١٤ يوليو ١٠٧٨م.

* السنة الرابعة والأربعون من خلافة المستنصر الفاطمي والسنة الرابعة للخليفة المقتدى العباسي.

* أخذ السلاجقة يتدفقون على الممتلكات البيزنطية في الأنضول وأعلنت حامية نيقية السلجوقية العصيان في وجه نقفور الثالث عقدوا اتفاقية مع منافس له في مقابل اقتسام الأنضول.

٥٦: انبا خايل البطريرك ٨٨٠/٨٩٤م

الى دار احمد ابن على الماذرائى، وكان له عاده اذا خرج بالغداة لا يجاوب احدا ولا يسمع منه كلاما حتى يمضى الى الجامع ويركع فيه خمس ركعات ثم يعود الى داره وموضع جلوسه، فلما عاد من الجامع والشمعة بين يديه وجد يوحنا وولده جالسين على باب داره حتى أنهما فرشا اغشية سروجهما وجلسا عليهما، فلما اذن لهما فى الدخول معه سالهما عن سبب بكورهما بخلاف العادة، فسقعا [فاضطربا] بين يديه وقالا: يا سيدنا

والاستيلاء بسهولة على أهم مدنه مثل قيصرية (Caesarea Mazaca) Kayseri فى قابادوقيا، وقونية Iconion المدينة العريقة، أما نطاكية، فقد وجد الصليبيون صعوبة فى الاستيلاء عليها، لمناعة تحصيناتها، فضرب بوهيموند حولها الحصار، حتى استسلمت له فى يونيو عام ١٠٩٨م. ورفض بوهيموند النورمانى أن يسلم المدينة لمندوب الأمبراطور الرومى، متعللا بأن الامبرطور الكسيوس كومنين لم يف بوعده بامداد قوات الصليبين بالمؤن والعتاد.

---

* عزل الخليفة العباسي وزيره فخر الدولة أبو نصر بن جَهير وخلفه أبو شجاع ظهير الدين الروز روارى لبضعة أيام عاد بعدها ابن جهير إلى منصبه.

* استولى تاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان على دمشق وقبض على زعيم الخوارزمية أتسز التركماني وقتله.

* توفي في هذه السنة إمام اللغة وواضع أصول البلاغة عبدالقاهر الجُرْجَاني مؤلفاته مطبوعة متداولة أشهرها أسرار البلاغة، اعجاز القرآن، دلائل الاعجاز، العوامل المئة.

سنة ٤٧٢ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الخميس ٤ يوليو ١٠٧٩م.

* في صفر من السنة تم للسلطان الغزنوى إبراهيم بن مسعود غزو الهند وحصار قلعة أجور بالقرب من لاهور وتسلمها دون قتال وتوالت فتوحاته مستولياً على روبال بالقرب من البحر وفى خلال ذلك كان ينشر الإسلام فى الأقاليم التى فتحها.

* أعيدت الخطبة فى مكة للخليفة العباسى وللسلطان ملكشاه من بعده.

* تم لسلاجقة الروم وعلى رأسهم سليمان بن قُتُلْمش تثبيت أقدامهم فى نِيقيّة وما حولها.

٥٦: انبا خايل البطريرك ٨٨٠/٨٩٤م

الوزير ننهي اليك ان ليس لنا صلاة في كنايسنا ولا من حكم في أمورنا، وقد طال حبس بطركنا ونحن نسالك مساعدتنا نحن وجميع شعب النصارى، وتسال الامير فيه، فقال لهما: اما تعلما موضع ابني موسى عنده ومكانهما منه، وقد سالاه دفعات كثير فلم يجيب سوالهم، غير انى اصرف اهتمامي في ذلك. وحلف لهما، ثم مضى الى الامير كعادته، وانهى اليه امور دولته، وذكر له حال البطرك. فقال له الامير: انا اقتله فانه تجالد علي.

فانسحب المندوب الامبراطوري محتجا على احتفاظ بوهيموند بانطاكية، وتأسيسه امارة لاتينية بها، أما الكسيوس فقد بعث الى الصليبين بأنه قادم على رأس قواته لمساعدتهم في الزحف على بيت المقدس بشرط أن يسلموه أنطاكية. وفي نفس الوقت أعلن بلدوين كونت فلاندرز Flan نفسه أميرا على اديسا Edssa(اقليم الرها في أعالي الفرات)، ثم اندلع الصراع بينه وبين تنكريد Tancred أمير صقلية حول امتلاك طرسوس، ومن ناحية أخرى

---

* توفي بدمشق شاعر الشام في عصره أبو الفتيان محمد بن حَيّوس عن ٧٩ عاماً له ديوان شعر مطبوع متداول.

* توفي من رجال الحكم في هذه السنة: نصر بن مروان صاحب ديار بكر وخلفه ابنه منصور وتولى وزارته ابن الأنباري، وفيها توفي صاحب ميّافارقين نظام الملك منصور بن بهْرام وخلفه ابنه ناصر الدولة.

* مات غرقاً ابن علاف اليهودي ضامن البصرة وكان قد جمع الأموال واكتنزها حتى عظم أمره.

* توفي من رجال العلم: المحدث أبو منصور العُكبَري عن ٨٨ عاماً، والفقيه المحدث أبو عبا لله يحيى بن أبي مسعود توفي بَهَراة، والصوفي الزاهد هيّاج ابن عُبيد الحِطِّيني فقيه الحرم ومفتي مكة عن ٨٠ عاماً.

سنة ٤٧٣ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ٢٢ يونية ١٠٨٠م.

* عاد السلطان ملكشاه في المحرم إلى أصبهان بعد أن أصطلح وتحالف مع ابن عمه سلطان شاه بن قاورد وزوجه السلطان من ابنة له.

٥٦: انبا خاييل البطريرك ٨٨٠/٨٩٤م

قال له: ما في قتله فايده، ولكن نجتهد في ان نحصل منه شيا لبيت المال اصوب من قتله. فقال له: لعله انفذ يسلك [يسألك] في هذا الامر. فحلف له وقال: انه من يوم اعتقاله ما قرات منه رقعة، ولا خاطبني فيه احد الى هذه الغاية التى جاني يوحنا الكاتب وولده [مقاره] وبكيا، فحلفت لهما انني اخاطبك بسببه. وامر باحضار يوحنا الكاتب وولده، فلما حضرا كتب لهما رقعة الى متولى الاعتقال بتسليم البطرك لهما يمضيا به الى

تبادل بوهيموند رسائل غاضبة مع رايموند أمير تولوز (Touloues) حول أنطاكية، وهكذا سببت هذه الانتصارات صراعات بين قادة الصليبيين، لأنها زادت شهية كل منهم في تحقيق مكاسب خاصة في المشرق الثرى، مما أدى الى تصادم الطموح الشخصي، واثارة البغضاء بين قادة الصليبين، وتحقيق ما كان الكسيوس يتوجس منه خيفة فقد تنكروا للوعد الذى قطعوه على أنفسهم أمامه قبل القيام بالحملة؛ وكان الوحيد من أمراء الصليبين، الذى لم ينل شيئا لنفسه،

---

* انقرضت الدولة المرداسية بحلب بعد أن استسلم سابق المرداسي أميرها لشرف الدولة مسلم العقيلي الذى حاصر قلعتها.

* تولى المُكَرَّم أحمد سلطنة اليمن خلفاً لأبيه الداعي الصُلَيحي فمن ثم كان الثاني من أمراء الدولة الصُلَيحية باليمن.

* استولى القاضي أبو الحسن ابن عمار الملقب بجلال الملك صاحب طرابلس الشام على حصن جبلة من البيزنطيين.

* ولد بغرناطة المهندس الجغرافي الأندلسي أبو حامد ابن أبي الربيع الذى يشتهر بابي حامد الغرناطي (محمد بن عبدالرحيم) مؤلف تحفة الألباب ونخبة الأعجاب في وصف العالم وعجائب الأرض.

* توفي بالأندلس المنصور بن الأفطس صاحب بطليوس ومن ملوك الطوائف بعد حكم دام ١٣ سنة انقسمت فيه الإمارة بينه وبين أخيه المتوكل.

سنة ٤٧٤ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الجمعة ١١ يونية ١٠٨١م.

* خطب الخليفة المقتدى العباسي ابنة للسلطان ملكشاه وكان مقدم الصداق ٥٠ ألف دينار واشترطت أمها انه لا يبقى له سرية ولا زوجة غيرها.

حيث يريدا، ويقررا امره على ما يستقر [من الاموال]. فحينيذ اخرج من الحبس الى دار الوزير، ولم يدخل بيت الما [المرحاض] الذى بنى له فى الحبس بالجملة. وكان قد انفق عليه ثلثمايه دينار، لانه ساعة كماله فرج الله عنه وخرج من الحبس، وصار فى موضع مفروش مزين كما يجب بجوار الوزير. واستأذن يوحنا الوزير [الماذرائى] فى ان يحمل اليه ما يوكل كل يوم، فقال الوزير من دارى يحمل اليه، فان اردت انت تحمل اليه شى اخر

هو الكونت ريمون دى سان جيل، والذى دافع عن الكسيوس ضد جشع أمراء الصليبين الآخرين.

وخلال تقدمهم البطئ نحو فلسطين، لم يتوقفوا عن التشاحن حول تقسيم الغنائم، تاركين رجالهم ينهبون المدن والقرى التى يمرون عبرها، حتى وصلوا فى النهاية إلى بيت القدس، والتى كان الفاطميون أعداء السلاجقة قد زحفوا عليها وأخذوها بالتفاهم مع قادة الحملة الصليبية عام ١٠٩٨ أثناء انشغال السلاجقة بالدفاع عن شمال الشام

---

* سار تاج الدولة تُتُش صاحب دمشق إلى حصن طرطوس (أنْطَرْسوس) وتسلمه من بنى عمار.

* فيها استولى شرف الدولة مسلم العقيلى صاحب الموصل على حرّان من النُمَيريين، فسارع صاحب الرها صالحه وخطب له ونقش السكة باسمه.

* أعلن سليمان بن قُتُلْمش السلجوقى أن المدن التى استولى عليها من الأنضول لم تعد خاضعة لامبراطور بيزنطة وجعل من نيقية عاصمة له ثم انتقل منها إلى قونية.

* استعاد القادر بن ذى النون مدينة طليطلة فى حماية ملك قشتالة الفونسو السادس فى نظير إتاوة سنوية.

* انتزع سديد الدولة على بن مُقَلَّد بن مُنقذ قلعة شَيْزَر من البيزنطيين بعد أن كان قد استولى عليها الامبراطور باسيل الثانى ووطن فيها جالية من الأرمن.

* شهدت السنة تولية الامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين الذى عاصر أحداث الحروب الصليبية الأولى.

سنة ٤٧٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء الموافق الأول من يونية ١٠٨٢م.

* سار تاج الملك تُتُش صاحب دمشق إلى أنطاكية من بلاد الروم مما أثار خوف شرف الدولة العقيلى صاحب حلب فاستنجد بالخليفة الفاطمى فى مصر.

فـالامـر اليك. فكان يحـمل اليه في كل يوم من الطعـام والشـراب شيـا كثيـر. ثم استـقر حاله بعـد سوالات كثير وخطوب [مخاطبات] على عشرين الف دينار، منها عشرة الف الى شهر، والبقية وهى النص الى اربعة شهور. فطابت نفس ابن طولون بذلك، وكـان متوجه الى الشام، فامر ان يكتب على يوحنا وولده مقاره [صك] بما استقر، ويشهد عليهما ان المال في جهتهما، ففعلا ذلك. وحينئذ تسلما البطرك واجتهدا ان يمضيا به الى منزلهما،

ضـد الصليـبيين، ولكن مـا أن وصل جيش الصليبين الى بيت المقدس عام ١٠٩٩ حتى طردوا الفاطميين منها، واستولوا عليـها في يونيـو من نفس العام، وبينما كان الصليبيون يحتفلون بالنصـر وينهبـون المدن الفلسطينيـة، ويقتلون أعدادا كبيـرة من السكان اليهـود والمسلمين، فـوجئ الجـميع باعلان رايموند أمير تولوز نفسه ملكا على امـارة أورشليم اللاتينيـة، والتى بقيت عاصمة للصليبيين في المشرق حتى استـردها الصـالح نجم الدين أيوب من الفرنج عام ١٢٤٤م.

---

* تجددت الفتنة في بغداد بين الحنابلة والفقيه الشافعي الأشعرى أبى القاسم البكرى وكان من معلمى النظامية.

* توفي بسرقسطة من الأندلس المقتدر بالله الهودى (أحمد بن سليمان) من ملوك الطوائف وثانى ملوك بنى هود بسرقسطة، خلف أباه عليها بينما وزع ممتلكاته الأخرى على أبنائه الثلاثة فاستولى على سرقسطة صاحب الترجمة كما ضم إليه طرطوشة ثم دانية وهزم الأسبان وأباد حملة لهم.

* توفي مسموماً جمال الملك منصور ابن الوزير نظام الملك وزير السلطان بسبب مهرج كان يمزح من السلطان مقلدا أباه نظام الملك فقتله.

سنة ٤٧٦ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الاحد ٢١ مايو ١٠٨٣م.

* استعاد السلطان تميم الصنهاجي صاحبُ أفريقية المهديةَ ثم القيروان بعد محاولة فاشلة للثائر مالك بن علوى.

* في أول المحرم عاد تاج الدولة تتش إلى دمشق فحاصرها شرف الدولة العُقيلى صاحب

فلم يفعل بل مضى الى كنيسة الست السيدة بقصر الشمع، بزقاق ابو حصين التى صارت الان للملكية، واقام بها عشرين يوما والاراخنه يحضرو عنده ويتحدثو معه، وياكلو ويشربو عنده، ويتباركو منه. وكان لكل واحد منهم [يوم] يحمل اليه فيه ما يحتاج اليه، فلما قرب فراغ الشهر ولم يحصل له شيا من العشرة الف دينار، ولا كان مع البطرك شيا بالجملة، قلقو لذلك واحصو الكراسى الخالية من الاساقفة فوجدوها عشرة فاقامو لها عشرة

قيام الممالك اللاتينية على أشلاء امبراطورية الروم:

كان الأمراء اللاتين الذين أقاموا أنفسهم ملوكا على المناطق التى استولوا عليها قد حشوا اليمن الذى أقسموه أمام الامبرطور يختزنون فى ذاكرتهم أعمال السلب والنهب وهتك الأعراض، التى ارتكبها هؤلاء الكاثوليك اللاتين فى بلادهم، ولذا كانت قلوبهم تشتعل كرها ومقتل نحوهم. ولما أدرك الكسيوس أنه لايقدر على اجلائهم بالقوة، لجأ الى سلاحه القديم وهو ضرب الخصم

حلب الذى أعلن ولاءه للفاطميين إلا انه انسحب منها لعدم وصول نجدة له من مصر، كما تسلم تاج الدولة قلعة بعلبك من ابن صقيل وكان عليها من قبل المستنصر الفاطمي.

* عصى أهل حرّان على شرف الدولة العقيلى أثناء خروجه إلى دمشق فحاصر المدينة وأعاد فتحها وصلب زعماء الثورة.

* عزم تاج الدولة تتش السلجوقي صاحب دمشق على مصاهرة أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمي الشيعي فأشار عليه القاضي ابن عمار بألاّ يفعل.

سنة ٤٧٧ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الجمعة ١٠ مايو ١٠٨٤م.

* استولى الأمير السلجوقي سليمان بن قُتُلمش صاحب قونية على مدينة أنطاكية من البيزنطيين وكانت في أيديهم نحواً من عشرين سنة منتهزاً الاضطراب الذى حدث بسبب عصيان ملك أرمينية على الامبراطور (١٠٨٥م).

* جدد أمير الجيوش بدر الجمالى مسجد العطارين بالاسكندرية وأرخ ذلك فى لوحة مازالت مثبتة بالجدار عند الباب الشرقى، وكان ابنه على الاسكندرية فحاول العصيان لخلع أبيه فسار أمير الجيوش إلى الاسكندرية وحاصرها وأخذ ابنه أسيراً وشرع فى تجديد المسجد.

اساقفة، فقدموهم اليه بعد ان قررو عليهم مالا [أموال] يقومو به فى مدة عشرة ايام، ورسمهم اساقفة. واحضر يوحنا وولده الفي دينار، ودفع لهم الوزير الف دينار من ماله قرضة، ومضو الى كتاب مسلمين اقترضو منهم سبعة الف دينار، فحملو العشرة الف الى الامير عند انقضا الشهر، وحلفو له ان ليس للبطرك فيها دينارولا درهم، ولا وجدو له شيا، وان جميعها قرضا عليه. فاخذ المال ودفع لهم الخط [الصك] وخزقوه وكتب يوحنا

باخصم، فقد كان ذلك كل ما يستطيع أن يفعله، غير أن الصليبيين اللاتين اكتشفوا لعبته، ولقيت سياسته هذه استياء كبيرا فى الغرب الأوروبى لقرون طويلة، حتى أنهم كانوا فى أوروبا العصور الوسطى، وحتى عصر النهضة الأوروبية يصفون الشخص المنافق اللعوب، والمتلون الماكر، بأنه ذو مسلك«بيزنطى». ولاشك أن اللاتين كان عندهم صفات أشد بشاعة ومقتا من هذه الصفات، وهكذا لعبت الدعاية المبالغ فيها بين الطرفين دورا واضحا فى اثارة اللاتين

* توفى الوزير والأديب الأندلسى الشاعر أبو بكر محمد بن عَمَّار عن ٥٥ عاماً استوزره المعتمد بن عباد صاحب أشبيليه ثم انقلب عليه فقبض عليه بالحيلة وقتله وهو صاحب البيت الذى سرى مسرى المثل وهو:

ألقاب مملكة فى غير موضعها   كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

سنة ٤٧٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٢٩ ابريل ١٠٨٥م.

* حاصر أمير الجيوش بدر الجمالي فى عساكر مصر دمشقَ وبها تاج الدولة تُتُش فلم يظفر به.

* فى فاتحة صفر من السنة وقيل فى ٢٧ المحرم (٢٥ مايو) سقطت طُلَيْطلة فى يد ملك قشتالة ألفونسو السادس وكانت للقادر بن ذى النون وذلك بعد حصار دام ٩ أشهر فهرب صاحبها إلى بلنسية واهتزت الأندلس لسقوطها وبعدها تحولت طليطلة إلى مدينة مسيحية وعاصمة لمملكة قشتالة بعد ٣٧٠ سنة من الحكم الإسلامى، وإلى هذا الحدث يشير شاعر العصر فى قصيدة متداولة يطالب أهله بالهجرة من البلاد بقوله:

الكاثوليك ضد الروم الارثوذوكس؛ وانتهى الامر الى تفجر العداء الصريح بينهما. ووصل الامر أن أرسل عليها الصليبيون، فاستعادت جيوش الكسيوس أطنه، وطرطوس، وغيرها من البلدان التى كانت تدخل فى نطاق امارة أنطاكية النورماندية؛ وعلى أثر ذلك سارع بوهيموند الى السفر الى أوروبا ليحرض البابا ضد الكسيوس كومنين، متهما اياه بخيانة القضية الصليبية؛ تاركا ابن شقيقة «تانكريد» ليحكم امارة أنطاكية مكانه؛ وفى الغرب دعا بوهيموند الى

وولده غيره بالباقى وهو عشرة الف دينار اخرى، وكتبو فيه تلميذه انبا بخوم اسقف طحا وتلميذ اخر حتى صارو اربعة ضمنو المال الى اربعة شهور.

فلما عاد الى البطرك حسه وسكن روعه، اجتمع اليه السنودس وتشاورو فى حال المال المقترض والذى بقى للامير، فاستقر رايهم على ان ينفذو الى كراسيهم، وياخذو من كل انسان قيراط ذهب، ونقضو بفعلهم هذا قانون الابا الحواريون.

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس فما المقام بها إلا من الغلط

* توفي من رجال الحكم والامارة فى هذه السنة: أبو بكر بن عبدالعزيز المنصور العامرى من ملوك الطوائف بعد حكم دام ١٠ سنين، وصاحب الحلة منصور بن دبيس حكم ٦ سنوات وخلفه ابنه سيف الدولة صدقة، وفيها توفي الوزير الفاطمى أبو الفرج المغربى (محمد بن جعفر) وكان قد استوزره الخليفة المستنصر ولقبه «الوزير الأجل الكامل» وبعد عزله تولى ديوان الرسائل لحين وفاته.

سنة ٤٧٩ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم السبت ١٨ ابريل ١٠٨٦م.

* شهدت هذه السنة إحدى المعارك الحاسمة في تاريخ الأندلس، ففيها أوقع السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين في يوم الجمعة ١٢ رجب (٢٣ أكتوبر) هزيمة منكرة بقوات الحلف الأسباني المسيحي بقيادة الفونسو السادس ملك قشتالة فى موضع بالقرب من مدينة بَطَلْيوس وكانت القوات المتحالفة تبلغ عدة أضعاف الجيش المرابطي ولم يسلم منها مع الملك الفونسو سوى مائة. وهي المعركة التي منح فيها الخليفة العباسي ابن تاشفين لقب أمير المسلمين.

ومعلمى البيعة القديسين القايلين ان لا يوخذ عن موهبة الله وهى الكهنوت لا ذهب ولا فضة اعنى الشرطونية، فاخذو من العشرة اساقفة الذى صيروهم على الكراسي ما استقر عليهم. ثم مضى الاب البطرك الى وادى هبيب، فباع الرمارم التى هى موضع وقوف الرهبان فى البيعة للصلاة، واخذ من كل راهب عن موضع وقوفه دينار واحد. ثم مضى الى اسكندرية، وسال الكهنة ان يمكنوه ان ياخذ ما فى الكنايس يبيعه ويحمل ثمنه

حرب صليبية ضد الكسيوس كومنين نفسه؛ وعند عودته من الغرب فى أواخر عام ١١٠٧م على رأس جيش كبير من المتطوعين، وجد الكسيوس فى انتظاره بقواته، حيث أوقع به هزيمة مهينة عند ميناء دور يخايوم (دور ازو) على بحر الادرياتيك عام ١١٠٨م، وأجبره على قبول شروطه المهينة باعلان تبعيته لامبراطورية الروم، وأن يعيد تحكمه لانطاكية كنوع من الاقطاع الممنوح له منها، وأن يعيد لها أى أراضى يستولى عليها

---

* فى مستهل هذه السنة كان ملك قشتالة الفونسو السادس قد استعد لغزو بَلَنْسية والاستيلاء عليها من بنى هود إلا أن نزول المرابطين بقيادة ابن تاشفين لنجدة أهل الأندلس اضطره لرفع الحصار.

* شهدت السنة وفاة المؤسس الأول لدولة سلاجقة الروم بالأنضول الأمير سليمان بن قُتُلْمش صاحب قونية وأنطاكية (ابن اسرائيل بن سلجوق) ابن عمة السلطان ملكشاه توفي صريعاً بعد محاولته الاستيلاء على حلب وقيل قتل نفسه لهزيمته على يد تاج الدولة تتش وخليفة أرتق بن أكسب.

سنة ٤٨٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ٨ ابريل ١٠٨٧م.

* فى المحرم من السنة جرى زفاف الخاتون ابنة السلطان ملكشاه إلى الخليفة المقتدى العباسى فجاءت إلى دار الخلافة ببغداد فى محفة مجللة عليها بالذهب والجوهر تحفها مئتا جارية ونقل جهازها على ١٣٠ جملا و٧٤ بغلا و٣٣ فرساً جميعها مكسوة بالحرير واستخدم فى السماط ٤٠ ألف مَنّ من السكر.

للسلطان، فلم يطيعوه وجرى بينهم خطوب كتير الى ان تقرر معهم ان يبيع رباع الكنايس ويحمل ثمنها، واشرطو عليه ان يعطيهم في كل سنة الف دينار، ويكون هذا رسما عليه مستقر في كل سنة، وعلى من يجلس بعده على كرسى مرقس الانجيلي. واخذو خطه بذلك وخطوط اساقفته. حينئذا باعو رباع الكنايس باسكندرية، وسلمو اليه ثمنها، فاجتمع له من هذا كله مع صدقات حملت اليه عشرة الف دينار، بمقدار ما اقترضه،

من المسلمين مستقبلا، ثم أقسم أمامه يمين الولاء للامبراطورية وللامبراطور.
وقضى بوهيموند السنوات الثلاث الاخيرة من حياته فى أعمال ليست بذات قيمة، حتى مات فى أبوليا Apulia عام ١١١م، وتولى حكم أنطاكية من بعده ابن شقيقه ـ تانكريد ـ Tancred، وكان لايقل عن عمه كراهية للروم؛ رفض اعادة أنطاكية الى حوزة الأمبراطورية. ولحسن حظ تانكريد أن الظروف شغلت الكسيوس بحروب مع السلاجقة منذ عام ١١٤، فلم يستطع

---

* أعلن السلطان ملكشاه ابنه أحمد ولياً لعهده وأقره الخليفة وجعل من ألقابه: ملك الملوك. عضد الدولة. تاج الملة. عدة أمير المسلمين.

* استولى الفرنج على المهدية من تونس فصالحهم أميرها تميم الصُنهاجي على مال أخذوه.

* تولى إمارة حلب قسيم الدولة آق سُنْقَر من قبل السلطان ملكشاه وكان سنقر زوج مربية السلطان يعرف بالاتابك وهو جد بيت آل زنكي.

* تولى إمارة حلب قسيم الدولة آق سُنْقَر من قبل السلطان ملكشاه وكان سنقر زوج مربية السلطان يعرف بالاتابك وهو جد بيت آل زنكي.

* تحالف تاج الدولة تُتُش صاحب دمشق وآق سُنْقر صاحب حلب والأمير بُوزان صاحب الرّفها على رد أمير الجيوش بدر الجمالى وزير المستنصر الفاطمى عن سواحل الشام وتهديد دمشق.

سنة ٤٨١ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الاثنين ٢٧ مارس ١٠٨٨م.

* فى ربيع الأول من السنة عبر السلطان المرابطى يوسف بن تاشفين البحر إلى الأندلس

٥٦: انبا خايل البطريرك ٨٨٠/٨٩٤م

وبقي عليه عشرة الف دينار للامير لا يعرف لها وجه. وصار هذا البطرك القديس إذا كتب كتاب عن نفسه لا يقول من ميخاييل بل من خايا [خايال] وتفسيره الاخير اى انه اخر من ولدته امه التى هى الكنيسه، اذ صار حسنها الى كابة مما جرى من اخذ المال من الاساقفة على الشرطونية.

وفى تلك الايام [حوالى سنة ٨٧٧م] جرى بين الروم والمسلمين غزاه فسبو المسلمين الروم من

تسيير حملة للقضاء عليه، فلما فرغ منها وجد أن تانكريد قدمات، وبقيت مشكلة أنطاكية معلقة، ولم يستطع الكسيوس التقدم للاستيلاء عليها لعودة التأزم بينه وبين السلاجقة.

موت الكسيوس كومنين آخر الاباطرة الاقوياء:

وأخيرا وبعد حياة حافلة بالاصلاحات، والحروب والمؤمرات، مات الكسيوس كومنين عام ١١١٨؛ وبموته ينتهى آخر عهود الاباطرة الاقوياء، الذين بذلوا كل ما فى طاقتهم من أجل اعادة الهيبة الى

فتلقاه بالمؤن والزاد المعتمد بن عبّاد صاحب أشبيلية بالجزيرة الخضراء وفيها بعث بكتبه إلى ملوك الطوائف يستدعيهم للجهاد للتخلص من الخطر الأسبانى الذى يتمثل فى غزو الفارس الأسبانى المسمى القمبيطور (أو السيد) على بلنسية.

* وقعت الفتنة بين العامة ببغداد والجند الأتراك فى أثناء تشييد قنطرة جديدة دشنوا بناءها بنقل الآجر فى أطباق من الذهب والفضة.

* تولى المنصور بن الناصر على المغرب الأوسط خلفاً لأبيه الناصر ابن علّناس.

* استولى الافرنج على زُويلة من أعمال تونس انتقاماً من غزوات البحر التى كان يقوم بها تميم بن المعز على بلادهم، ونجح الحلف المسيحى الذى يضم جنوة من الاستيلاء على جزيرة قوصرة (بين المهدية وصقلية) فصالحهم على ٣٠ ألف دينار ورد جميع السبى.

سنة ٤٨٢ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الجمعة ١٦ مارس ١٠٨٩م.

* انفذ أمير الجيوش الأفضل قوات برية وبحرية تم لها الاستيلاء على صور وصيدا وعكا وجُبيل من موانى الشام وولى عليها أمراء من قبل الخليفة المستنصر الفاطمى.

بلادهم، وجابو الى مصر منهم شي كثير جداً، وكذلك الروم استسارو من المسلمين خلق كثير. فكتب الملكان لاون والاكسندرس الى احمد ابن طولون كتب يلتمسا الصلح، وان يخلى كل واحد منهما ما حصل في يده من الماسورين نفس بنفس. فكتب ابن طولون الى الملكين يشتمهما ويهددهما مثل انسان ضعيف هارب وهو يشتم الذى يطرده.

فكتب اليه كتاب هذه نسخته: «من لاون والاكسندرس الملكان الضابطان من قبل السيد

الامبراطورية، لكن قضت الحملات الصليبية على آماله وأحلامه، وأفسدت سياسته، واستنفدت اقتصاده؛ فعندما مات كان اللاتين الغربيون قد وضعوا أيديهم على جميع المناطق التى استولوا عليها من المسلمين؛ ولم تزد الأمبراطورية شبرا واحدا عما كانت عليه عندما توج امبراطور عليها، وبالرغم من ذلك فقد أوجد الكسيوس في البلاد جيشا قويا وقادر، يستطيع أن يزود به عن الامبراطورية وقت الخطر؛ وهذا الامان جعل الحياة تعود الى طبيعتها في

---

* تجددت يالحرب بين السلطان تميم بن المعز صاحب تونس والثائر ابن علوى الذى لم يلبث أن لجأ إلى الصحراء.

* تجددت الفتنة في بغداد وكثر التخريب والقتل والحريق حتى استنجد الخليفة بصاحب الحلة سيف الدولة صَدَقة الدُبَيسى فهدم بيوت العيارين ونفاهم من المدينة.

* توفى الأديب العسقلانى المنشيء الحسن بن الشحباء له ديوان شعر توفى مسجوناً بالقاهرة.

* توفى إمام اليمن معيد الدين أبو هاشم الحسن بن يحيى.

سنة ٤٨٣ هجرية

استهلت السنة بيوم الاربعاء الموافق ٦ مارس ١٠٩٠م.

* مع مطلع هذه السنة عبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطى البحر إلى الأندلس للمرة الثالثة، وفى ١٠ رجب خلع السلطان أميرَ غَرْناطة عبدالله ابن بَلقين الصُنهاجى ونفاه إلى صحراء أَغْمَات بالمغرب، وعاد السلطان إلى المغرب فى رمضان وفى الشهر التالى استولى نائبه وابن عمه سير بن أبى بكر على مدينة طريف والقى الحصار على رُنْدة ودخل مدينة جَيّان صلَحاً واستعد للوثوب على أشبيلية نفسها.

يســوع المسيح على بلاد الروم يكاتبا احـمـد ابن طولون. «السـلام عليكم بمقـدار استـحـقـاقك. وصلت الينا كـتبك جـوابا عـمـا كنا كـتبنا به عن الماسورين. فـوجدنا فـيها كلام ينقض بعـضـه بعض. اول ذلك تدعـوا لنا مـثل صـديق، ثم بعـد ذلك تخوفنا مثل عدو، فلم يتبين لنا منك ما نعتمد عليه ليكن جوابنا لك بحسبه، بل شتمت مذهبنا وهذا مـا لا يجب لك ان تكتب به بما لا تعـرف تاويله، ولا يجـوز ان تشـتم مـذهبنا ما لم يظهـر فيـه عيبا.

مجال الحياة اليـومية والاقـتصـادية للشـعب الرومي، وبالرغم من أن امبراطوريتهم ضحت ولم تستفد كثيرا من حملة الصليبيين، غير أن هزيمة السلاجقة في معركة دوريلايوم أفادت الأمبراطورية فقد حولت السلاجقة من الهجـوم الى الدفـاع عن وجـودهم، كـمـا أن قيـام الامارات اللاتينيـة في سوريا وفلسطين ، حول انتباه المسلمين بعيدا عن حلمهم القديم، وهو فتح القسطنطينية، وخفف من ضغطهم عليها، وأعطاها فسحة من الوقت لتلتقط أنفاسها.

---

* هاجم تاج الدولة تُتُش صاحبُ دمشق مع حليفيه آق سنقر وبوزان حصنَ بَعَلْبك وعليه ابن مُلاعب بسبب دخوله في طاعة المستنصر الفاطمي فضم تُتُش بعلبك إليه وسار ابن ملاعب لاجئاً إلى مصر.

* نهب الأعراب مدينة البصرة بما فيها دار كتبها واحرقوها.

* برز اسم الحسن الصَّبَّاح زعيم الباطنية الاسماعيلية (أو طائفة الحشاشين) باستيلائه على قلعة أَلَمُوت الحصينة التي جعل منها منطلقاً لمغامراته.

* أرسل الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين رسالة إلى البابا أوربان الثاني لتوكيد التحالف بين البابوية والامبراطورية البيزنطية على حرب السلاجقة المسلمين.

سنة ٤٨٤ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأحد ٢٣ فبراير ١٠٩١م.

* استسلمت مدينة قَصْريانة الحصينة للكونت روبرت الأول النورماندي فتم بسقوطها استيلاء النورمان على جزيرة صقلية بأسرها وخروج العرب منها بعد نحو عشرين سنة من بدء غزوهم الجزيرة.

خلفاء الكسيوس كومنين: (١١١٨-١١٨٥):
١. الامبراطور يوحنا كومنين الثاني: (١١١٨-١١٤٣):

كان عصر يوحنا كومنين الثاني أسعد حظا من عصر أبيه، فقد جني ثمار أعماله التي غرسها بكفاحه، ومن ثم وجد الابن نفسه حاكما على امبرطورية مزدهرة اقتصاديا، وعلى شعب مفعم بالآمال، ولهذا سار يوحنا على نهج سياسة أبيه، بل اتخذ منه نموذجا ومثلا أعلى. ولقد أثبت يوحنا كومنين أنه كان واحدا من أكفأ أباطرة الروم وذلك بفضل صفاته الاخلاقية

وقد تاملنا ما وصل الينا من غيرك منذ ظهور دينكم والى الان فما وجدنا فيها شيا مثلما واجهتنا به من الشتم للمذهب. فعلمنا ان متقدميكم اجل منكم وانت لم تلحقهم في فن من الفنون. وجدفت على اعتقادنا في ابن الله، وزعمت انك لا تعرف ولدا الا من نطفة. وهذا بعيد من المسلك الجيد. لكن العقل يشهد لنا ان الهنا دايم لم يزل حيا ناطقا، فسميت كلمته ابنا وحياته روح قدس،ونحن وانتم معا على ان الله خلق الكل بغير

---

* تم للمرابطين بسط سلطانهم على أكثر دويلات ملوك الطوائف بالأندلس، ففي ٢٢ رجب (٧ سبتمبر) اقتحم سير بن أبي بكر المرابطي مدينة أشبيلية واستولى عليها من صاحبها المعتمد بن عباد كما استسلم ابناه وكان الأول على مارتلة والثاني على رُنْدة، وفي ١٧ ربيع استولى سير على قَرْمونة.

* وقعت زلزلة بالشام هدمت أبراج سور أنطاكية فأمر السلطان بعمارته.

* استولى تُتُش ومعه آق سنقر وبوزان على حمص وعلى حصن فَامِّية غير أن حليفية امتنعا عن الاشتراك في حصار طرابلس وعليها ابن عَمّار لانه تولاها بأمر السلطان.

* ألزم الوزير أبو شجاع الرُوْذرواري أهل الذمة ببغداد بلبس الغيار وشد الزنار.

* دخل في هذه السنة إلى بغداد الإمام أبو حامد الغزالي قادماً من نيسابور ومعه توقيع من الوزير نظام الملك للتدريس بالمدرسة النظامية.

* أعلن إسلامه في هذه السنة الكاتب المنشيء أمين الدولة كمال الرؤساء العلاء ابن الموصلايا على يد الخليفة المقتدي وعينه في الوزارة بعد خلع أبي شجاع كما أسلم ابن أخته أبو نصر هبة الله.

* توفي الأمير معين الدين أُرْتُق بن أكسب التركماني كان على القدس وهو الذي تنسب

اداة عمل، بل بقوله كن فكان. وبقية الكتاب فيه كلام ركيك لم يكتب بمثله احد ممن تقدمك».

فاما الاب انبا خايال فانه اقام تحت ضيق صدر بسبب العشرة الف دينار الباقية عليه. ثم انه استخار الله تعالى وانحدر الى مدينة تنيس لياخذ منها شيا من صدقات النصارى المحبين لله، ثم يطوف فى تلك البلاد ليحصل شيا آخر منها، فلما اقام فى تنيس يوم واحد حضرو جماعة ليتباركو

المستقيمة، فقد كان مثابرا لايكل ولايمل، ذلك لآخر لحظة فى حياته،؛ كمان كان سياسيا بعيد النظر، كما أن حلاوة طبعه، ودماثة خلقه ؛ جعلت مستشاريه يخلصون له؛ ويلتفون حو له، يقدمون له أفضل المشورة، وخالص التجربة. كما أحبه شعبه حتى لقبه باسم «يوحنا الطيب» . ولقد ظهرت قدرته فى العفو عند المغفرة، عندما تآمرت شقيقته آنا كومنينا وزوجها عليه، بهدف التخلص منه، والجلوس على العرش

إليه الدولة الأُرْتُقية التى قامت فى حصن كيفا على يد ابنه سُقْمان وفى ماردين على يد ابنه الغازى.

سنة ٤٨٥ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الخميس ١٢ فبراير ١٠٩٢م.

* فى يوم الاثنين منتصف شهر ربيع الأول من السنة اقترن كوكب زحل والمريخ فى برج السرطان وهو حدث نادر فتنبأ المنجمون أن هذا القران يعنى موت سلطان عظيم ووزير كبير يقصدون موت السلطان ملكشاه سيد الملوك ونظام الملك سيد الوزراء.

* دخل السلطان ملكشاه بغداد للمرة الثالث والأخيرة فى ١٨ رمضان من السنة ووقعت النفرة بينه وبين الخليفة لامور أخذها عليه.

* تولى فى النصف من شعبان مغيث الدين وناصر الدنيا والدين محمود بن ملكشاه (وهو طفل فى الرابعة) عرش السلاجقة العظمى خلفاً لأبيه ولكن لم يلبث أن ثار عمه بركياروق وأوقع الهزيمة بجيش أم السلطان تركان خاتون فى ذى القعدة من السنة وتولى العرش السلجوقى باعتبار انه الابن الأكبر للسلطان المتوفى.

بدلا منه، ومن المدهش أن زوج شقيقته آنا هو الذى أبلغ عن هذه المؤمراة عام ١١١٩م، فلم يقتل أو يسمل أعين أعدائه انما قام بمصادرة أموالهم ، أما شقيقته فقد عفا عنها، فانزوت منذ ذلك الوقت عن الحياة العامة ، وعكفت على تأليف عملها الكبير عن أبيها وهو «سفرالكسيوس» . Alexiad.

ولقد سار يوحنا على نهج أبيه فى السياسة الخارجية، لكنه زاد عليها توثيق علاقاته مع القوى العظمى فى الغرب، خاصة الامبراطورية الرومانية

منه ويسالو عن اخباره وما انتهت اليه حاله، واذا راهب مستور الوجه نحيف الجسم زرى المنظر عليه تراج خلق دخل الى البطرك وسط الجمع واخذ بركته، فلم يقول له احد اجلس فجلس الى جانب التلاميذ وقال لاحدهم لماذا ابونا البطرك قلق بسبب ما هو مطلوب به وما يتوقعه من المطالبة، امضى اليه ويقول [قول] له بعد اربعين يوم يمزق الرب عنه الخط ولا يطلب منه مال بلى يترك له. فتقدم التلميذ واعلم البطرك بذلك فامر التلميذ

---

* بدأ ملكشاه فى بناء مسجده ببغداد وتولى منجمه بهران وجماعة من أهل الرصد تحديد قبلته.

* ثار أهل بلنسية بالأندلس على أميرها المغتصب القادر ذى النون خوفاً من أن يسلمها للأسبان كما فعل بطليطلة وبايعوا القاضى ابن جَحَّاف فى ٢٤ رمضان.

* فى الثالث من شوال من هذه السنة بدأ مرض السلطان ملكشاه بالحمى وتوفى ليلة الجمعة فى النصف من الشهر وله من العمر ٣٨ عاماً كتمت تركان خاتون موته وسارت بالجثمان إلى أصبهان ودعت لابنها الطفل وارسلت إلى الخليفة للخطبة له فأجابها، إلا أن ظهور عمه بركياروق ومطالبته بالعرش هدم هذا التدبير.

* استولى تاج الدولة تتش أخو السلطان ملكشاه على حمص وغيرها من مدن الساحل التى كانت تابعة للخليفة المستنصر الفاطمى كما انفذ عسكرا إلى اليمين لأخذها من أصحابها الشيعة وطمع فى السلطنة بعد وفاة أخيه فاخضع حلب وحرّان والرها وأنطاكية لطاعته.

* شهدت السنة وفاة الوزير نظام الملك (الحسن بن على الطوسى) استوزره السلطان ألب أرسلان عشر سنين ثم خليفته ملكشاه لحين وفاته، وهو مؤسس المدارس النظامية فى بغداد ونيسابور وغيرها، توفى مقتولا (١٠ رمضان) عن ٧٧ عاماً بالقرب من نهاوند على يد أحد الباطنية.

باحضاره اليه فلم يجدوه، وفتشو عليه مدينة تنيس فما عرفو له خبر حتى كان الارض بلعته او السما اخفته، فانفذو الى دمياط والى المواضع القريبة منهم يطلبوه، فلم يجدوه.

ومن بعد ثلثة ايام خرج احمد ابن طولون من مصر ساير الى دمشق [حوالى عام ٨٨٢م] لاجل ما وصل اليه من الاخبار التى اقلقته، فانفق فى العسكر ثلثماية الف دينار، واقام تسعة وعشرين

المقدسة فى ألمانيا، وكذلك من المدن البحرية الجديدة فى ايطاليا مثل جنوة وبيزا، وربما كان ذلك بتأثير زوجته الهنغارية، والمتيمة بطرق الحياة الاوروبية الغربية، فضلا عن محاولته التقليل من احتكار البندقية للاقتصاد فى القسطنطينية، وضمان أصدقاء يؤيدونه ضد أطماع النورمانديين. ومن أجل استعادة أنطاكية العزيزة على نفسه، صادق الامراء الصليبيين وأقام معهم علاقات قوية، ليس حبا فيهم وكرها فى المسلمين، ولكن اتقاء لشرورهم، وأملا فى ضرب بعضهم

---

* لقى القادر ذو النون صاحب طُلَيطلة (السابق) بالأندلس مصرعه فى بلنسية التى حاول اغتصابها (٢٣ رمضان) بعد أن ثار عليه أهلها وهرب مختبئا فى حمام القصر.

سنة ٤٨٦ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الأول من فبراير ١٠٩٣م.

* دخل السلطان السلجوقى إلى بغداد للمرة الأولى وولى وزارته مؤيد الملك الحسين ابن وزير أبيه المقتول نظام الملك، وتوافد على بغداد الأمراء يعلنون دخولهم فى طاعته وفيهم صاحب حلب آق سُنقر وصاحب الرُّها الأمير بوزان بعد أن فارقا تُتُش.

* سار الفونسو السادس ملك قشتالة الأسبانى إلى مدينة شَنْتَرين باقليم البرتغال واستولى عليها لأول مرة بعد حكم العرب لها الذى دام ثلاثة قرون (ثم استعادوها لفترة).

* انتهز الأعراب وفاة السلطان ملكشاه وراحوا يقطعون الطريق على الحجاج من الشام ونهبوا ما معهم فعاد الحجاج إلى الشام على أقبح صورة كما أغار الأعراب على الكوفة.

* احكم السيد القمبيطور الأسبانى حصار بلنسية وأحرق ما حولها وقطع عنها الأقوات.

بالبعض فى الوقت المناسب. كما حاول اقامة جسر من التفاهم مع دولة الاتابكة فى الموصل، عندما أحس بصعودهم كقوة اسلامية جديدة، وتبادل الهدايا مع زعيمهم عماد الدين زنكى. وعندما هاجم البشناق حدود الامبرطورية الشمالية، وعبروا فى عام ١١١٢ نهر الدانوب، متجهين لغزو القسطنطينية، أسرع بجيوشه وصدهم، ثم طوقهم، وأنزل بهم هزيمة حاسمة، أنهت بالمرة وللابد مشكلة الامبراطورية مع البشناق، وهكذا يتضح أن السمة العامة

يوما ساير ولم يستريح فى مكان، وكانت هذه عقوبة سماوية حلت به من عند الله لاجل ظلمه.

وفى تمام الاربعين يوم التى اخبر بها الراهب مات [حوالى عام ٨٨٣م] احمد ابن طولون بعد عودته موت سو، وجلس ابنه خمارويه موضعه. فبعند ذلك اخرج احمد ابن على المادرانى [الماذرائى] الوزير الخط بالضمان وسلمه ليوحنا المليجى كاتبه، وانفذ احضر الاب البطرك من

---

* دخل إلى بغداد أبو الحسين المرزوى الواعظ (اردشير بن منصور) وجلس للتدريس بالنظامية وكان الإمام الغزالى وعدة من الأئمة يحضرون مجلسه.

* ممن ولد فى هذه السنة: بقرطبة عالم القراءات أبو بكر يحيى بن سعدون انتقل إلى مصر ودرّس بها.

* فى المحرم من السنة قتل الوزير تاج الملك انتقاماً من اشتراكه فى تدبير اغتيال نظام الملك.

سنة ٤٨٧ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم السبت ٢١ يناير ١٠٩٤م.

* سميت هذه السنة سنة موت الخلفاء والأمراء لتعدد من توفى فيها من الخلفاء والأمراء والولاة وأدعى المنجمون أن ذلك كان بسبب اقتران الكواكب.

* تولى الخلافة العباسية ببغداد أبو العباس أحمد بن المقتدى باسم المُسْتَظْهر بالله وله من العمر نحو ١٧ سنة وذلك فى النصف من المحرم.

تنيس، فلما وصل نزل في بيعة السيدة بقصر الشمع حين كان اولا، واحضر الاراخنة عنده، واحضرو الخط فخرقه بيده، وعاد الى قلايته يمجد الله حزينا على ما انحل من قانون البيعة وعلى ما ياتى بعده على كرسيه من حال الشرطونية وما يجرى بينه وبين اسكندرانيين. ثم اقام بطركا سبعة وعشرين سنة، وتنيح فى الحادى والعشرين من امشير فى ايام خمارويه ابن احمد ابن طولون.

لسياسة يوحنا كومنين الثانى، هى الصداقة مع الجميع من أجل الحفاظ على الامبراطورية، واستخدام القوة كحل أخيرا وعندما لاتجدى القوة نفعا، يستخدم سلاح الدهاء، والوقيعة بين الاعداء.

حروب يوحنا من أجل حماية الامبراطورية:

وما كاد يوحنا ينتهى من قضية البنادقة، حتى استعدار للدفاع عن الامبراطورية ضد الاخطار التى كانت تتعرض لها. وكان أول تعامله العسكرى مع القبائل الهنغارية (المجر

---

* تولى الخلافة الفاطمية بالقاهرة أبو القاسم أحمد بن المستنصر باسم المُسْتَعْلى بالله وله من العمر ٢٠ سنة وذلك فى ١٨ الحجة من العام.

* خطب ببغداد فى يوم الجمعة ١٤ المحرم للسلطان بَرْكْيَارُوق وله من العمر ٢٥ سنة ولقبه الخليفة المقتدى بركن الدين أبا المظفر وأرسل إليه المقتدى الخلع والتقليد ولم يلبث أن غادر السلطان بغداد إلى الموصل.

* دعا تاج الدولة تُتُش لنفسه فى وجه ابن أخيه بَرْكياُروق فضم إليه حلب والجزيرة وديار بكر وسار إلى أصبهان وعندها فى شهر شوال أوقع الهزيمة بعمه بَرْكياروق.

* بينما كانت تجرى هذه الأحداث فى المشرق كان المرابطون يبسطون سلطانهم على دويلات غرب الأندلس العربية ففى صفر من السنة سقطت بَطَلْيوس فى أيديهم، وفى شرق الأندلس استسلم القاضى ابن جَحَّاف صاحب بَلَنسية (٢٨ جمادى أول) للسيد القمبيطور المحاصر للمدينة فدخلها الأسبان (١٧ مارس) واحتلوها ونكلوا بأهلها وعلى رأسهم القاضى ابن جحاف.

* فى رمضان من السنة عبرت قوات السلطان يوسف بن تَاشَفين البحر من الأندلس لنجدة المسلمين فيها.

وكان خمارويه المذكور بنا جامع خارجا عن مصر وهو الجامع المعروف به الى الان، ثم ان خمارويه سمع بخبر وادى هبيب، فسار اليه ودخل الى بيعة القديس ابو مقار ونظر جسده المقدس وسال عنه، فقيل له هذا جسد صاحب هذه البيعة. فامر بحله من كفنه، فمسك شعر لحيته، ففتح عينيه في وجهه، فوقع على ظهره، واقام ساعة مغشيا عليه لا ينطق، فحملوه الى خيمته، واخذومن زيت قنديل ابو مقار فمسحو به جبينه،

ية)، فقد بدأ الهنغاريون فى ذلك الوقت يلعبون مع الامبرطورية نفس الدور الذى كان يلعبه البلغار، وهو محاولة التوسع والاستيلاد على بعض أراضى الامبراطورية فى شمال البلقان لاقامة دولة قومية عليها، وظل الهنغاريون يتوسعون حتى وصلوا الى صوفيا عام ١١٢٨، وهنا أدرك يوحنا أن الهنغاريين قد وصلوا الى درجة تتوجب التعامل معهم عسكريا قبل أن يشرعوا فى اقامة الدولة، والتى قد تجد لها مؤيدين من الصليبيين والنورمان، فقاد جيشه نحو الدانوب،واجتاح

---

* فى النصف من المحرم توفى ببغداد على حين فجأة الخليفة العباسى المقتدى بالله وله من العمر ٣٨ سنة و ٨ أشهر أمه أم ولد أرمينية تدعى أرجوان، ولد بعد موت أبيه بستة أشهر وتولى الخلافة وله ١٩ سنة خلفاً لجده القائم.

* فى ١٨ من الحجة توفى بالقاهرة الخليفة أبو تميم معّد المستنصر الفاطمى وله من العمر ٦٧ سنة و٥ أشهر، تولى الخلافة ٦٠ سنة و٤ أشهر ولم يول الخلافة الأموية أو العباسية من هو أطول عهداً منه وخلفه ابنه أحمد باسم المستعلى بالله.

* توفى بالقاهرة أمير الجيوش بدر الجمالى تولى وزارة المستنصر وإمارة دمشق وأصبح صاحب الأمر فى الدولة الفاطمية.

* توفى على أبواب حلب أميرها قسيم الدولة آق سنقر فى حربه مع تاج الدولة تُتُش وهو أبو السلطان زنكى وجد السلطان نور الدين محمود.

* توفى أمير مكة الشريف محمد بن أبى هاشم عن ٧٠ سنة وكان موزع الولاء بين الخلافتين العباسين والفاطمية.

* فيها توفى الأمير بوزان صاحب الرُّها بتدبير من تاج الدولة تتش.

* عاصر هذا التاريخ الامبراطور ألكسوس كومنين، والبابا أوربان الثانى.

ثم ظهر له اية اخرى فى هذه البيعة، وهو انه جاز باب الاسكنا من بحريه بجانب القوصرة، فابصر صورة الشهيد وهى تنظر الى الغرب، وقالو [له] انها صورة القديس تادرس. وكان فى يد خمارويه حزمة ريحان فوما بها الى الصورة، وقال: خذها يا فارس يا شجاع. فخرجت يد من الصورة واخذت الحزمة الريحان، واقامت الحزمة الريحان فى يده حتى ابصرها كل واحد، فخاف خمارويه ابن احمد ابن طولون جدا وبهت من هذه العجايب،

الاجزاء الوسطى من وادية حيث يتجمع الهنغاريون، وشتت شملهم، وقضى على امالهم في تكوين دولة قومية عنصرية وعدوانية، وضم أراضيهم الى الامبراطورية، وبذلك وصلت حدود امبراطورية الروم الى أقصى اتساع لها في عهده، ووضع قوات في شمال البلقان لمراقبة أى محاولة جديدة ضد الامبرطورية، لكنه كان متسامحا مع الهنغاريين، لانه كان متزوجا من سيدة هنغارية.

وفى عام ١١٣٠ اتجه بقواته لمحاربة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى.

سنة ٤٨٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس ١١ يناير ١٠٩٥م.

* بدأ فى هذه السنة إشعال فتيل الحروب الصليبية ففى شهر ربيع (مارس) عقد البابا أوربان الثاني مجمعاً دينياً فى بياكنزا بإيطاليا اشترك فيه مبعوث للامبراطور البيزنطى وتم فيه الاتفاق على أن السلاجقة المسلمين لا يهددون بيزنطة وحدها بل المسيحية عامة مما يستلزم تقديم العون المادى إلى الامبراطور لصدهم، ثم عقد مؤتمرين فى نفس السنة الأول فى كليرمونت والثانى فى ليموج وفى ١٠ نوفمبر (٩ القعدة) وجه البابا نداء إلى جميع المسيحيين بالاشتراك في استخلاص الأراضى المقدسة من المسلمين على أن يشترك ممثل للبابوية فى هذه الحملات الصليبية.

* فى رمضان من السنة بدأت قوات المرابطين الهجوم على بلنسية لاستخلاصها من أيدى الأسبان بقيادة القمبيطور بينما سار جيش آخر صوب طُلَيطلة وعاث فى أرضها، وفيها قتل دون ديجو ابن الزعيم الأسبانى السيد القمبيطور.

* اقتسم ابنا تاج الدولة تُتُش صاحب الشام بعد موته أملاكه، فاستولى رضوان على حلب، وسار دُقاق إلى دمشق وولى وزارته أبا القاسم الخوارزمى.

* توفى من رجال الحكم والامارة فى هذه السنة: المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية من

٥٦: ابنا خايل البطريك ٨٨٠/٨٩٤م

وكان السلاجقة أثناء حروبهم الشرسة مع الصليبين قد استولوا على الطريق البرى الذى كان يربط بين أنطاكية والقسطنطينية؛ وكان يهم يوحنا أن يظل هذا الطريق مفتوحا، لانه لم يفقد الامل فى استعادة أنطاكية من أيدى الصليبين. وكان سلاجقة الروم وقتذاك يمرون بأضعف مرحلة فى تاريخ دولتهم، فمنذ موت ملك شاه، لم تتوقف الخلافات بين السلطنات السلجوقية فى آسيا الصغرى، ونجح يوحنا بقواته فى فتح الطريق وتأمينة، لكنه لم يفكر فى شن حملات

ثم امر ان تعمل علامة فى تلك الصورة لتكن ظاهرة الى كل جيل، فصورو فى يده صليب اخر، وذلك الصليب فى يد تلك الصورة الى الان. ومن ذلك اليوم صار يراعى النصارى لاسيما الاساقفة والرهبان.

وكان انبا بخوم اسقف طحا [الذى قد كتب اسمه فى الضمان عن الاب البطريرك] له اخوين اساقفة ايضا، وكان له عوامل [عمال] وغلمان

ملوك الطوائف الكبار بالأندلس حتى الفتح المرابطى، توفى بمنفاه فى أغْمات بصحراء المغرب، وتوفيت فى نفس السنة زوجته أعتماد الرُميْكية الشاعرة وأم ولده المأمون وابنته بثينة الكاتبة، وفيها توفى أمير تونس عبدالحق ابن خراسان، وصاحب ميّافارقين منصور بن مَرْوان آخر بنى مروان فى الجزيرة بعد حكم دام ١٠٨ سنة، وفيها توفى الوزير ظهير الدين أبو شجاع الروذراورى وزر للخليفة المقتدى ٨ سنوات وتوفى بالمدينة، وفيها قتل أحمد خان صاحب سمرقند قبض عليه عسكره لمظالمه وافتى الفقهاء بقتله واجلسوا ابن عمه مسعودا.

سنة ٤٨٩ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الاثنين ٣١ ديسمبر ١٠٩٥م.

* تزعم بطرس الناسك الدعوة لحملة صليبية لاستخلاص الأراضى المقدسة (فلسطين) من أيدى المسلمين فسار على رأس جماعات من العامة إلى كولونيا ومنها سار حتى بلغ أسوار القسطنطينية وعندها عبرت الحملة البحر إلى الأنضول وفى خلال مسيرتهم كانوا ينهبون المدن بل والكنائس التى كانوا يمرون بها فباغتهم السلاجقة بالقرب من نيقية وأوقعوا بهم، وفى الوقت نفسه وقف اليهود من الحملة موقفاً معادياً باعتبارها ضد مصالحهم، وقبل نهاية

٥٦: انبا خايل البطريرك ٨٨٠/٨٩٤م

نحو من ثلثمايه، وكانوا فى كرسيه يحفظوا البلاد، وقد تعلم بعضهم رمى النشاب لان [لأن] البربر كانو يغزوهم من الغرب، ولاجل ذلك كان الامير يحبه وعول عليه فى تفقد تلك البلاد لخوفه من ملك الغرب [الفاطمى] الذى هو من جنس محمد [الاسلام] ويسمى الفاطمى. وكان هذا الاسقف قد اقام معادى [جواسيس] بجانب الغرب يوصلو اليه الاخبار فى كل وقت. فلما تنيح انبا خايال اقامو زمانا لم يرسمو بطركا، فرسمو الملكيه بطركا

عسكرية توسعية ضد السلاجقة فى الشام الاعلى لتخوفه من الصليبيين، فالحروب الطويلة مع السلاجقة أوجدت نوعا من التفاهم معهم، بعكس الصليبيين الذين لم يكن يفهمهم أو يثق بهم، موقنا أنهم أخطر على الامبراطورية من السلاجقة أنفسهم.

يوحنا وامارة أنطاكية النورماندية:

كانت مشكلة امارة أنطاكية من أهم المشاكل التى خلفتها الحملة الصليبية الاولى، وكانت قضية

العام تحركت حملة جديدة بقيادة الكونت جودفرى بوايون كما تحركت حملة ثانية بقيادة ريمون دى تولوز سارت صوب القسطنطينية.

* يتنبأ المنجمون فى بغداد باقتراب وقوع طوفان مثل طوفان نوح بسبب إجتماع الكواكب فى برج الحوت.

* استعاد الزعيم الأرمنى ثويرون حكم الرُها وأعلن تبعيته للامبراطور البيزنطى.

* استولى أمير الجيوش الأفضل الجمالى وزير الخليفة المستعلى الفاطمى على ميناء صور على غرة وسار منها إلى القدس وعليها سكمان بن أُرتق وأخوه ايلغازى فاستأمنه أهلها وفتحوا له أبوابها فخرج منها إبنا أُرتق.

* استولى الأمير كربوقا على الموصل بعد أن خرج من حبس رضوان بن تتش صاحب حلب.

* ثارت مُرسية من الأندلس على صاحبها أحمد بن طاهر الثغرى.

* ممن ولد من الفقهاء: شيخ الشافعية باليمن المصنف المكثر أبو الحسين العمرانى له البيان فى فروع الشافعية، وفيها ولد بنيسابور الفقيه المتكلم أبو الفتح ناصر بن سليمان الأنصارى.

* ممن توفى فى هذه السنة من رجال الحكم والامارة: المتوكل بن الأفطَس (أبو جعفر عمر

لهم ويجحو على الارتدكسيين وتكبرو كثير، فلما اتصل الخبر بابا [بأبا] بجوم الاسقف صعب عليه هذا الامر، فنهض للوقت واخذ من بلاده هدايا كثير وفواكه كثير غريبه في غير وقتها وحملها الى الامير ففرح به وساله عن اخبار الغرب، فقال ليس الا الخير والسلامة بسعادتك. واقام عنده ايام وعاد بعد ان اوصاه بان لا يخفى عنه شيا مما يتصل به من اخبار الغرب. ثم غاب خمسة ايام وعاد، فلما راه خاف وظن وانه قد وصل اليه خبر، فقال له

استعادتها تمثل اهتماما خاصا للامبراطور يوحنا نظرا لاهميتها الدينية والاستراتيجية والتاريخية؛ ومنذ أن تنكر تانكريد خليفة بوهيموند في حكم أنطاكية ـ للمعاهدة التي كان بوهيموند قد وقعها مع الكسيوس، والتي بمقتضاها تجعل من أنطاكية اقطاعا ممنوحا للنورمان من قبل امبراطور القسطنطينية، لم يتوقف يوحنا كومنين عن التفكير في استعادة هذه الامارة؛ ولهذا حرص على معالجة المسألة بدبلوماسية هادئة حتى لايغضب الصليبيين ويعطيهم الفرصة

التُجَيبي) آخر ملوك الطوائف من بني الأفطس أصحاب بطليوس أزاحه عنها السلطان يوسف بن تاشفين المرابطي حتى لا تقع بَطَلْيوس في يد الأسبان، وفيها توفي بقرطبة الوزير الأديب أبو مروان عبدالملك بن سراج له استدراك على كتاب البارع، وفيها توفي صاحب أربل القاسم الشهرزوري.

* توفي من أهل العلم: الفقيه المفسر منصور بن محمد السمعاني جد السمعاني صاحب كتاب الأنساب له تفسير السمعاني وهو مخطوط، وفيها توفي بأصبهان عن ٩٢ عاماً المحدث القاسم بن الفضل له من المخطوط (الفوائد العوالي)، والقاضي وادع بن سليمان كان على معرة النعمان.

سنة ٤٩٠ هجرية

استهل المحرم بيوم الجمعة الموافق ١٩ ديسمبر ١٠٩٦م.

* شهدت هذه السنة قيام الدولة الخوارزمية على يد محمد بن أنوشتكين من مماليك السلاجقة.

* أرسل البابا أوربان الثاني يدعو جمهورية جنوا إلى مد الحملة الصليبية بالسفن فقدمت ١٢ سفينة حربية غير الناقلات.

٥٦: انبا خايل البطريرك ٨٨٠/٨٩٤م

الاسقف: لا تخاف يا مولاى الامير فليس الا الخير، وانما انا لا يجوز لى ان اخفى عنك شى مما يكون فيه ربح لهذه المملكة، وذلك بانى فارقت حضرتك فاتصل بى ان الملكية المخالفين لنا الذين هم من الروم قد اقامو لهم بطركا، فخفت ان يكون عينا لملك الروم هاهنا، فياتى فى المراكب الى اسكندرية، ولهذا رايت ان اعلمك ذلك. فكتب قاطاتيكا [خطابا] الى والى اسكندرية بان يسمع منه ما يامره به. فلما اخذ الامر انحدر الى

لاتخاذ هذه الازمة ذريعة للانقلاب على الامبراطورية الرومية والتوسع فى آسيا الصغرى والشام على حسابها؛ ولهذا شرع أثر توليه العرش فى بدء مفاوضات طويلة، بدأت فى أواخر عام ١١١٨ ميلادية واستمرت حتى خريف عام ١١٣٧، فقد كان النورمان يشكلون خطرا داهما على الامبرطورية، فهم لم يتخلوا أبدا عن حلم الاستيلاء على القسطنطينية. وبدأ هذا الخطر يتزايد منذ عام ١١٠٣ عندما قام روجر النورمانى

---

* وصلت حملة صليبية ثالثة إلى القسطنطينية بقيادة بوهيمونت النورمانى، وحملة رابعة بقيادة روبرت أمير نورماندیا وعبرت الجيوش الأربعة إلى الأنضول ونجحت فى الاستيلاء على نيقية (٢٦ يونية ١٠٩٧) من قلج أرسلان كما استولت على قيصرية ثم على مرعش قبل نهاية العام فرحب بهم أصحابها الأرمن.

* وقعت الحرب بين ولدى تاج الدولة تتش فانهزم دقَّاق صاحب دمشق عند قِنّسرين على يد أخيه رضوان صاحب حلب وتم الاتفاق على أن يخطب لرضوان فى حلب قبل أخيه دقاق.

* خلع وقتل أمير مرسية أحمد بن طاهر بعد خمسة شهور من دخولها فى طاعته.

* انحاز فخر الدين صاحب حلب إلى الفاطميين وخطب على منابر حلب للخليفة المستعلى بأمر الله ولم يلبث أن تراجع وأعاد الخطبة إلى خليفة بغداد دون أن يتنبه للخطر الصليبى الذى اقترب منه.

* اغتال الباطنية عدداً من أمراء السلاجقة منهم الأمير برسق شحنة بغداد، وعبدالرحمن السميرى وزير أم السلطان بركيارق.

بضم صقلية وجنوب ايطاليا الى المملكة النورمانية، وتوج نفسه ملكا على الصقليين في بالرمو، وبذلك أصبح منافسا للقوة الاوروبية الكبرى، والتى كانت تتمثل في الامبراطورية الرومانية المقدسة مما أدى الي قلقها الشديد؛ ولقد استغل يوحنا هذا القلق في بناء جسور الصداقة والتقارب مع الامبراطورية المقدسة، فعقد اتفاقا مع لوثر أمير سكسونيا، والذى كان قد انتخب بعد موت هنرى الخامس عام ١١٢٥امبرطورا على الامبراطورية

اسكندرية وامر ان يقبض على بطرك الملكية الغير بطرك، وان يقطع اصبعيه التى يصلب بهما من يده اليمنى، ووجد عنده ستة اساقفة من ملته المخالفة، فخزق عليهم ثيابهم مع بطركهم، ثم جمع سنودس من الاساقفة الارتدكسيين ومضو الى وادى هبيب بمعونة الله جل اسمه وامر سماوى.

سنة ٤٩١ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ٩ ديسمبر ١٠٩٧م.

* أخذ الخطر الصليبى يدق أبواب بغداد فانفذ الخليفة المستظهر بالله رسولاً إلى السلطان بَرْكْيَارُوق مستنفراً إياه لتدارك الأمر قبل أن يزداد عنفا، فأمر السلطان الوزير عبدالملك بن جَهِير وسيف الدين صَدَقة صاحب الحِلّة بالخروج مع العسكر إلى جهاد الصليبيين.

* توالت فتوحات الصليبيين في الأنضول وشمال الشام ففى هذه السنة استولى بلدَوين البولندى على الرُّها من صاحبها ثورون الأرمنى وباتفاق مع أهلها ثم استولى على سُمَيْساط ثم على سُرُوج وألقى الحصار على أنطاكية سبعة أشهر ودخلها فى رجب (٣ يونية ١٠٩٧) ومنها سار إلى مَعَرّة النعمان واستولى عليها.

* بينما الصليبيون يجتاحون الإمارات الإسلامية كان الأمراء فى نزاع وصراع على الحكم ففيها خرج محمد بن ملكشاه على أخيه السلطان بركياروق وكان قد اقطعه بلاد أران، وفيها نشبت حرب بين سَنْجَر (أخو السلطان) ودولت شاه عند بَلْخ وفيها أسر دولت شاه.

* استعاد تميم بن المعز صاحب أفريقية جزيرة جرْبة ثم جزيرة قرقنة من الفرنج.

* استغل الأمير البيزنطى حنا دوقاس الوجود الصليبى فى الأنضول واستولى من السلاجقة

٥٦: انبا خايل البطريرك ٨٨٠/٨٩٤م

الاب غبريال البطرك وهو من العدد السابع والخمسون

[٩١٠ / ٩٢١م]

واوسمو غبريال بطركا، وكان شابا من اهل المه [الميه قرب شبين الكوم]، ودخل الى البريه وترهب بدير ابو مقار في منشوبيه هناك تعرف بضرو تاوس [دورتاوس]، الذى هو ابوكما [الاسود] اخو يوحنا في الرهبنة. وكانت طريقته حسنة في المنشوبيه،

الرومانية المقدسة. وبعد موت لوثر الثاني عام ١١٣٨، وطد علاقاته مع خليفته كونراد الثالث (١١٣٨ - ١١٥٢)، بل زوج ابنه عمانوئيل من شقيقة زوجة كونراد، وتحول التصاهر الى تحالف حقيقي ضد النورمان. وكان من نتائج هذا التحالف أن تراجع النورمان عن خططهم وأطماعهم ازاء الامبراطورية الرومية، مما ساعد على حل القضية الانطاكية. فقي عام ١١٧٣ بعد أن فرغ يوحنا من حملة عسكرية في اقليم قليقلة

على إقليم ليديا بعد أن أوقع بهم عند ضور ليوم، كما استولى تنكرد على طَرَسوس ومنها سار إلى أطنة ثم إلى المصيصة بمساعدة الأرمن ثم إلى مَرْعش التى ضمت إلى حكم بيزنطة.

سنة ٤٩٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ٢٨ نوفمبر ١٠٩٨م.

* بدأ الصليبيون زحفهم على بيت المقدس بالاستيلاء على الرملة في رجب من السنة (يونية ١٠٩٩) ثم فتحت لهم بيت لحم أبوابها وضربوا الحصار حول القدس وبدأ الهجوم الشامل بقيادة جود فرى دى بوايون وامتد ٤٠ يوماً وبعد استسلامها اعملوا في أهلها السيف فكانت مذبحة رهبة شملت اليهود الذين جمعوا في كنيس وأحرقوا في دخله.

* شهدت هذه السنة في يوم الجمعة ١٣ من شعبان سقوط بيت المقدس في أيدى الصليبيين وقيام ما عرف في التاريخ الوسيط باسم مملكة القدس (أو اورشليم الصليبية).

* خرج أمير الجيوش الملك الأفضل على رأس جيش مصرى لانقاذ الموقف والتحم مع الصليبيين المنتصرين عند عَسْقَلان في شهر رمضان فكان مصير حملته الفشل، وفي الوقت نفسه احتل تَنكرد إقليم الخليل، وفي شمال الشام استولى بولدوين على قلعة البيرة وتخلى عنها لأحد زعماء الأرمن.

وكان كلمن فيها، حميد الطريقة، وكان في هذه المنشوبيه قس شيخ كبير يسما مكسيموس يقول ان العادة جارية في هذه المنشوبيه ان لا يتقدم احد منهم يقول «الليلويا» الا من حفظ المزامير كلها ظاهر [عن ظهر قلب] من غير كتاب، وكان ذلك سببا لمعرفة الرهبان [في هذه المنشوبية] جميع المزامير ظاهرا. وكان لتقدمته نبوة من شيخ كبير يسمى دروتاوس، وذلك ان الاخوة حضرو عنده دفعة لياخذوا بركته، وحضر هذا غبريال معهم

في آسيا الصغرى ضد السلاجقة نجح خلاها في تأمين الطريق البرى الذى يربط بين القسطنطينية وأنطاكية، فرر أن يقوم بعمل عسكرى يضع به حدا لهذه المفاوضات التى طالت مدتها - مع زوج وريثة امارة أنطاكية النورمانية؛ وكان يوحنا قد فقد الامل في نجاح هذه المفاوضات منذ عام ١١٣٥، وأخذ يبحث عن حلول أخرى؛ فاتصل ببعض الامراء الذين كان يعنيهم أمر النورمان، وعلى رأسهم أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة، الذين كانوا يتطلعون لجعل أنطاكية

---

* خطب لمحمد شاه بن ملكشاه وأخوه السلطان بركياروق على منابر بغداد وهو مازال مقيماً بمدينة قُم وذلك بعد الاتفاق مع أمراء الموصل والجزيرة ولقبه الخليفة غياث الدنيا والدين (١٧ الحجة).

* شهدت السنة موت الفارس الأسبانى السيد (القمبيطور) فاتح بلنسية على أثر مقتل ابنه وتولت زوجته خمينا الدفاع عن بلنسية المحاصرة.

* تولت خمينا زوجة الفارس الأسبانى السيد (القمبيطور) المتوفى الدفاع عن مدينة بلنسية التى يحاصرها المرابطون.

* تولى عرش الدولة الغزنوية علاء الدولة أبو سعد مسعود الثالث خلفاً لأبيه إبراهيم المتوفى فأصبح بذلك السادس عشر من سلاطين الغزنويين.

* توفى السلطان الغزنوى ظهير الدولة إبراهيم بن مسعود (الثانى) بعد حكم دام ٤١ سنة.

سنة ٤٩٣ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الخميس ١٧ نوفمبر ١٠٩٩م.

* أعيدت الخطبة للسلطان بَرْكِيَارُوق في بغداد.

فجلسو يسمعو كلامه كلهم الا غبريال، فانه اخذ بركته وخرج لانه كان يحب التفرد ولا يخالط احد، فمد الشيخ يده ومسك يد غبريال وجذبه اليه وهو مبتسم تبسم روحاني، وقال له: تهرب مني ايها الاخ ولا تجلس عندى محبتك الوحدة، اقول لك يا ولدى انك لابد تجلس في وسط جمع كبير رجال ونسا معا. فلما مسكوه غصبا ليجعلوه بطركا ذكر كلام هذا الشيخ القديس. ولما مضى الى اسكندرية ليكرزوه قال له أهل اسكندرية كما

جزاء تابعا لهم في الشرق؛ كما استعان بجمهوريتي بيزا وجنوده، وكسبها الى جانبه، بعدما كانتا حليفتين للنورمان. واستطاع يوحنا أن يقنع الامبراطور لوثر الثاني بغزو جنوب ايطاليا، وكان لوثر الثاني مؤيدا من قبل البابوية على أمل ضم الممتلكات النورمانية الى الممتلكات البابوية بعد سقوط هذه الدولة. وفي ضوء ذلك تقدم يوحنا نحو أنطاكية، فضرب الحصار حولها، حتى استسلمت، وقبل زوج الوريثة النورمانية شروط يوحنا في الاعتراف

---

* وصل إلى ميناء يافا اسطول من البندقية يضم مئتي سفينة للمساهمة في حرب المسلمين على أن يكون لهم ثلث الفتوح والغنائم، وذلك بعد أن سقطت يافا في أيدى الصليبيين، وأعلنت عسقلان وقَيْسارية وعكا ولاءها للصليبيين في نظير جزية مشتركة مقدارها ٥٠٠٠ دينار شهريا.

* في الشمال أوقع ملك غازى بن دانشمند صاحب سيواس في الأنضول بالصليبيين واستعاد منهم مَلَطية، وفي الوقت نفسه ضرب بوهيموند الحصار حول أنطاكية.

* تعقب السلطان بركياروق الباطنية من طائفة الحشاشين وقتل منهم نيفا وثلاثمائة.

* أرسل تنكرد النورماندى (ابن أخت بوهيموند صاحب أنطاكية وخليفته) إلى الأمير دُقَّاق (أو دقماق) بن تتش صاحب دمشق إنذاراً يدعوه فيه إلى اعتناق المسيحية أو إخلاء دمشق على الفور ورد دقاق بأن أعدم رسله إليه باستثناء واحد اعتنق الإسلام.

* في ٢٦ شوال (٩ أغسطس ١١٠٠) سقطت حيفا في أيدى الصليبيين.

* زاد عبثُ العَيارين ببغداد وتعاظم خطرهم فأمر الخليفة وزيره بتطهير البلد منهم سجناً ونفياً.

* توفي اغتيالا على أيدى الباطنية: الأمير بلكابك بأصبهان وهو في ديوان السلطان، ووزير

جرى عادتهم: اكتب لنا خطك بالامانة، فقال لهم كلمة عجيبة: اتونا بنجار يعمل لهولاى القوم امانة جديدة، ما الحاجة الى الخط، نحن مقيمين على الامانة المستقيمة التى رسمها الابا الثلثماية وثمنية عشر بمدينة نيقية، لا نزيد عليها ولا ننقص منها.

فلما كرزوه طالبوه اهل اسكندرية بالالف دينار الذى قررها انبا خايال المتنيح عوضا مما اخذه من رباع الكنيسة، فلم تصل قدرته الى شيء، فاقتضى

بأن أنطاكية اقطاع من لدن امبراطورية القسطنطينية، وعلى أن يضع نفسه في خدمتها؛ وتعبيرا عن ذلك، رفع البيرق الامبراطورى الرومى فوق قلعة المدينة؛ كما تعهد يوحنا من جانبه، بمساعدة امارة أنطاكية، والامارات الصليبية الاخرى في الشام، في الاستيلاء على المدن العربية الهامة التى لم تسقط بعد مثل حلب، وحمص، وحماة؛ كما تضمن الاتفاق الجديد نصا يعطى لامبراطورية الروم الحق في استعادة أنطاكية، اذا ما تمكن النورمانيون في الاستيلاء على

السلطان بركياروق أبو المحاسن الدهستاني، ووزير محمد ابن ملكشاه مؤيد الملك بن نظام الملك.

* شهدت السنة موت الدوق جودفرى دى بوايون الصليبي فاتح بيت المقدس الوصي على عرش القدس والملقب حامى القبر المقدس وبطل ملحمة الشاعر تاسو (تحرير القدس) وأخو بلدوين أول ملوك مملكة القدس.

سنة ٤٩٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء ٦ نوفمبر ١١٠٠م.

* أصبحت القدس وما حولها مملكة صليبية ففي شهر ربيع من السنة (٢٥ ديسمبر) توج بولدوين دى بوايون وكان على الرها ملكا على القدس ووضع مبعوث البابا الاسقف دايمبرت تاجا على رأسه في كنيسة بيت لحم ثم انه سار إلى ميناء أرسوف واستولى عليها وكانت تابعة للفاطميين.

* انفذ الخليفة الفاطمي بعد فوات الأوان حملة لانقاذ القدس بقيادة سعد الدولة القواسى والتقت قواته بالصليبيين عند عسقلان ولكنه انهزم.

٥٧: الاب غبريال البطرك ٩١٠/٩٢١م

الحال ان مشى فى الكرسى، وحل القوانين، وصار كلام الله متجر يباع بالدنانير لمن يطلب ان يقسم [يعين] كاهنا واستقرت الدياريه فى جميع كراسى مصر على كل نسمة من الرجال والنسا قيراط ذهب فى السنة وصار الاساقفة ياخذو ذلك فيقتاتو به ومنه يدفعو الدياريه للبطرك فى كل سنة، وهى جملة دنانير على كل واحد على قدر كرسيه، فيدفع منه لاهل اسكندرية المستقر لهم، ويصرف الباقى فى صدقات رعيته.

احدى هذه المدن ونقلوا مركزهم اليها، ولهذا السبب ساعدت جيوش يوحنا الصليبيين والنورمان ضد المسلمين، غير أن نجاح الصليبيين كان محدودا نظرا لمقاومة المسلمين، وبالتالى رفض النورمان تسليم أنطاكية ليوحنا، الذى أصر على جلاء النورمان عنها فى الحال، لانه ساعدهم فى تحقيق بعض الانتصارات، واستعد لتخليصها بالقوة من براثن النورمان. وتمهيدا لذلك جدد فى عام ١١٤٠ م تحالفه مع الامبراطور كونارد الثالث. وفى عام ١١٤٢ تقدم نحو

---

* استولى ريموند الصنجيلى على ميناء طَرَطوس بمساعدة اسطول جنوه.

* بينما كانت الأحداث تجرى على هذا النحو فى فلسطين كان الخليفة العباسى ببغداد منصرفاً إلى خلافاته المذهبية مع الفاطميين الشيعة فأمر بالجهر بالتسليمة فى الصلاة نكاية بهم وأن يفتح مسجد قصره لصلاة التراويح، وفى الوقت نفسه تجددت الحرب بين السلطان بركياروق وأخيه محمد بن ملكشاه (جمادى الآخرة) وفيها انهزم الثانى عند همذان وأسر وزيره مؤيد الدولة وقتل وسار بَرْكْيَاروق إلى الرى ومنها إلى بغداد.

* شهد هذا التاريخ السنة السابعة والأخيرة من خلافة المستعلى بالله الفاطمى بمصر.

سنة ٤٩٥ هجرية

وافق هلال المحرم يوم السبت ٢٦ أكتوبر ١١٠١م.

* حكم فى هذه السنة خليفتان فاطميان بمصر، ففى أولها كان على مصر الخليفة المستعلى بالله ثم خلفه فى صفر من السنة ابنه على المنصور باسم الآمر باحكام الله وله خمس سنين.

* استجاب ألفونسو السادس ملك قشتالة لاستغاثة خمينا زوجة القمبيطور للدفاع عن

وقيل عن هذا القديس انبا غبريال البطرك انه اقام مدة بطركيته كلها فى وادى هبيب لم يفارقه ولم يسكن الريف ولا مصر ولا اسكندرية. وكان اذا خرج من هناك فى امرمهم يكون مثل الغريب الى ان يرجع الى الوادى المذكور. وذكر عنه ايضا ان شهوة الخطية كانت تعذبه، وانه لاجل ذلك كان يصوم مدة لا يفطر، فلم يجد لذلك راحة لانه كان فى بدايته وشبابه قد اذل نفسه واتعبها، فلما صار بطركا ووجد الراحة هاج عليه هذا الامر،

انطاكية بقواته، لكن القدر لم يمهله لتحقيق هذا الحلم؛ فبينما يقضى بعض الوقت فى رحلة صيد فوق جبال قلقيلة، أصابه سهم طائش مسموم فى ذراعه، تسبب فى موته بعيدا عن عاصمته وعرشه. وهكذا انتهت حياة هذا الامبراطور الشجاع.

الامبراطور عمانوئيل الاول كومنين (١١٤٣-١١٨٠م):

وقبل أن توافيه المنية، اختار يوحنا كومنين أصغر ابنائه من زوجته الهنغارية وهو عمانوئيل ليكون وريثا للعرش من بعده ؛ فقد كان عمانوئيل

بلنسية التى يحاصرها المرابطون ولكنه لم يلبث أن ارتد عنها كما اخلاها سكانها من النصارى وفى الأول من شعبان (٥ مايو) من السنة استعادها المرابطون بقيادة الأمير أبى محمد المزدلى بعد ثمانى سنوات من الوجود الأسبانى.

* فى شعبان من السنة كذلك انفذ الفاطميون حملة ثانية لانقاذ فلسطين من الصليبيين بقيادة شرف المعالى ابن أمير الجيوش فأوقع الهزيمة ببولدوين الذى توج ملكا على القدس عند الرملة (مايو ١١٠٢).

* وقعت الفتنة بين شحنة بغداد إيلغازى بن أُرْتق والعامة حتى تدخل الخليفة فى الأمر.

* تولى وزارة الخليفة العباسى سديد الدولة أبو المعالى عبدالرازق ولقب عضد الدولة.

* تجدد القتال للمرة الثالثة بين السلطان بَرْكْيَاروق وأخويه محمد شاه وسَنْجر وتقرر الصلح بسبب ملل المحاربين من الطرفين على أن يكون بركياروق السلطان ومحمد شاه الملك ولكن لم يلبث القتال أن تجدد للمرة الرابعة عند الرى.

* فى ١٤ صفر من السنة توفى بالقاهرة الخليفة الفاطمى المستعلى بالله وله ٢٧ سنة حكم منها نحو ثمانى سنين وكان قد بويع خلفاً لأبيه المستنصر بيد أن الأمر كان لوزير أمير الجيوش الأفضل الجمالى، وقد شهد حكمه الحملة الصليبية الأولى، وخلفه ابنه المنصور باسم الأمر باحكام الله.

فلما اتعب نفسه بالصوم ولم يجد راحة شكا ذلك للشيوخ الرهبان، فاشرو عليه وقالو له ان هذه النفس لا يذلها الا التواضع والهوان. فعند ذلك عمل مجرفة حديد لنفسه، وصار يقوم فى الليل بعد الصلاة ويلبس تراج بلاكم، يطوف على قلالى الرهبان من برا، وينظف بيوت ما هم [مائهم: المراحيض] من غير ما يعلم به واحد فاقام كذلك سنين الى ان زال عنه ذلك. واقام احد عشر

أحب الابناء الى قلب أبيه ولهذا خطب له برتا Bertha الالمانية شقيقة زوجة صديقه كونراد الثالث امبرطور الدولة الرومانية المقدسة فى الغرب تمهيدا لتوليه العرش؛ ولقد نشأ عمانويل محبا لطريقة الحياة الاوروبية الغربية التى وجد فيها الكثير من التقاليع الجديدة التى هام بها حبا، فقد سحره طريقة عمل وتقاليد البلاط فى قصور أباطرة وملوك أوربا، كما كان شديد الوالع بنظام الفروسية فى أوروبا وقواعدها التى يتقيد بها الفارس؛وعشق مبارياتها ومبارزات

سنة ٤٩٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ١٥ أكتوبر ١١٠٢م.

* السنة الأولى من خلافة الآمر بأمر الله الفاطمى فى مصر التى امتدت نحوا من ٣٠ سنة.

* تجددت الحرب للمرة الخامسة بين السلطان بركيارق وأخيه محمد شاه باذربيجان وتوقف القتال بسبب اعياء عسكر الجانبين.

* استولى دَقاق (ابن تُتش) صاحب دمشق على الرَحَبة.

* هاجم الملك الصليبى بولدوين مدينة عكا برا إلا أن ضعف قواته البحرية دعته إلى رفع الحصار.

* اطلق المسلمون سراح بوهيموند صاحب أنطاكية وعاد إليها ولكن لم يلبث أن غادر الأراضى المقدسة إلى أوروبا وترك حكم الرُها إلى ريتشارد دى سالرنو.

* جنحت بعض السفن الصليبية أمام ساحل الشام فاسرت السلطات الفاطمية مَن عليها وبيعوا رقيقاً فى القاهرة.

* اغتال الباطنية الفقيه أبو المظفر بن الخَجَنّدى بالرى وقتل قاتله.

الفـرسـان ؛ فـادخل هذا النظام فى بلاط القسطنطينية بعد توليه العرش، وأحـاط نفسـه ببطانة من الاوروبـيين الذين جلبـهم من انجلتـرا وفـرنسـا وايطاليـا، حيث أسند اليهم الاشراف علـى المراسـيم «والاتيكيت» فى البـلاط، وكـذلك فى ادارة القـصـر. ونتيـجـة لهـذا الانفـتـاح على الحياة الاوروبية، سرت فى عهده موجة تقليد للسلوك الاوروبى بين شباب الروم من أبناء الطبـقـات الراقـيـة؛ وفى تبنى نظامى الفـروسـيـة والاقطاع، أهم ملامح الحضارة الأوروبية فى العصور

سنه بطركـا، وتنيـح فى الحـادى عـشـر من امـشـيـر ودفن فى دير ابو مقار بوادى هبيب.

قسما [قزما] البطرك وهو من العدد الثامن والخمسون

[٩٢١/ ٩٣٣م]

وقسم بعده قسما [قزما] بطركا وظهر فى ايامه امــر عظيـم عــجـيـب، وذاك انه رسم مطـرانا من الرهبان على بلاد الحبشة، وهى كورة واسعة التى هى مملكة سـابا، وهى التى كـانت ملكة التـيـمن

سنة ٤٩٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ٥ أكتوبر ١١٠٣م.

* جـرى الصلح بين أولاد السـلطان ملكشـاه السلجـوقى على أن يكون اسم السلطنة لبـركـيارق ويخطب له فى بغـداد والعـراق وفـارس، وأن تكون أرمينيـة وأذْربيـجـان والجزيرة والموصل لمحمد شاه وأن تكون خراسان لسَنجر.

* فى جمـادى الثانية وصلت عـمارة بحرية جنوية مددا للصليـبيين فأغارت على طرابلس ولكن ردت عنها ثم استولت على جُبيل صلحا ففتك الصليبيون بأهلها.

* فى شعبان من السنة سقطت عكا فى يد بلدوين ملك القدس بعد أن استعان بالأسطول الصليبى (مايو ١١٠٤) وكان يعليها زَهْر الملك أمير الجيوش الذى قاتل حتى عجز فاستسلم فنقض الصليبيون العهد وفتكوا بأهلها فبذلك سقطت آخر معاقل الفاطميين الهامة فى الشام.

* تحالف معين الدولة سُقْمان بن أُرْتُق وشمس الدولة جكرمش على قتال الصليبيين بالرغم من الحروب التى بينهما ولاذ بوهيموند صاحب أنطاكية بالفرار.

* استولى المرابطون على إمارة ألبونت بالأندلس ثم على شنتمرية الشرق.

* استولى بُلُك بن بهرام الارتقى على مدينة عانة من بنى يعيش بعد أن أجلاه الصليبيون من سرُوج.

٥٨: الاب [قزما] البطرك ٩٢١/٩٣٣م

[اليمن] جاءت منها الى سليمن ابن داوود الملك، واذا اراد ملكها يطوفها يقيم سنة كاملة يطوف سوى ايام الاحاد الى ان يعود الى مكانه. وهى كورة مجاورة للهند وما يليه، وهى داخلة فى كرسى مارى مرقص الانجيلى الى يومنا هذا. فلما انفذ المطران المذكور الى هناك، وكان اسمه بطرس، فقبله ملكها المبارك بابتهاج. فلما قربت وفاة ملكها احضر المطران وسلم اليه تاج المملكة ولديه وقال له: انت خليفة الملك المسيح الاله

الوسطى. وبلغ من تساهله مع مواطنى البلدان الاوربية أن سمح لهم بامتيازات لم تمنح لاى شعب من قبل، فقد أقام مواطنوا المدن التجارية الايطالية فى القسطنطينية وكالات تجارية دائمة. مثل البنادقة وأهل جنوة وبيزا، كما أقاموا فنادق وحانات وملاهى، ولهذا أصبحت الحياة الاجتماعية فى عصر عمانويل أكثر تنوعا وصخبا عن ذى قبل؛ أما على المستوى الشعبى فقد سبب ذلك موجة من السخط والكراهية ازاء مسلك الاوروبيين الكاثوليك، واحتقار

---

* شهدت السنة وفاة الملك دُقَّاق (أو دُقمان) بن تتش صاحب دمشق (وأخو رضوان صاحب حلب فخطب لابنه وله عام ثم لعمه بكتاش بن تتش (فى الحجة) وله ١٠ سنين وكان الأمر كله للاتابك طغتكين جد البوريين أصحاب دمشق بعد ذلك.

سنة ٤٩٨ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الجمعة ٢٣ سبتمبر ١١٠٤م.

* فى ٣ ربيع الثانى خطب فى بغداد للسلطان ملكشاه الثانى ابن بركياروق وله من العمر ٥ سنوات وذلك خلفاً لأبيه.

* استقل طُغْتكين بإمارة دمشق وكان من مماليك تتش السلجوقى مؤسساً بذلك دولة بنى بورى التى حكمت الشام نيفا ونصف قرن وعرف طغتكين باسم معتمد الدولة ظهير الدين.

* انفذ الفاطميون حملة ثالثة إلى الشام بقيادة سناء الملك حسين ابن أمير الجيوش يعاونه أسطول بحرى مع محالفة طُغْتكِين أمير دمشق فكان أول تحالف إسلامى سنى شيعى ضد الصليبيين.

* جرت الحرب بين تنكرد صاحب أنطاكية (خليفة بوهيموند) ورضوان ابن تُتُش صاحب حلب وفيها انهزم رضوان عند أرتاح التى استولى عليها تنكرد.

لطريقة حياتهم؛ وبالمثل بادل الكاثوليك الغربيون المواطنين الروم الارثوذوكس الكراهية والاحتقار، فعاملوهم باستعلاء، واتهموا بالنفاق وخيانة القضية الصليبية، حتى أنهم كانوا يصفون الشخص الماكر والمداهن واللعوب والمنافق بأنه «ذو مسلك بيزنطي».

ولهذا حرص عما نوئيل، بعد توليه العرش على زيادة وتوثيق علاقاته مع أمراء الصليبيين في المشرق الاسلامي، خاصة مع بلدوين الثالث أمير بيت المقدس، وكو نراد

العظيم الذى كل ممالك العالم بامره وهوذا قد سلمت اليك مملكتي وولدى وجعلتهم في يديك لتدبرهم بارادة الرب، ومن رايته منهم مستحقا وديعا خيرا اجعل عليه تاج المملكة. ثم تنيح الملك، وكان المطران رجل عاقل، فراى الولد الصغير اوفا من الكبير، فجعل عليه التاج واجلسه ملكا. واذا براهب من دير انبا اندونه [من اديرة وادى النطرون] يدور البلاد ويجوب الارض ومعه رفيق له يدور معه [مينا]، وكان اسمه بقطر،

---

* بينما أحداث الحروب الصليبية مستعرة بعث أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين المرابطي صاحب المغرب والأندلس إلى الخليفة المستنصر ببغداد يخبره بأن خطب له على منابر ممالكه وطلب الخلع والتعليق فانفذها إليه.

* تفاقم خطر الباطنية من طائفة الحشاشين فقطعوا في هذه السنة الطريق على قافلة الحج عند الرَيّ وقتلوا وسلبوا وغنموا ومن ضحاياهم الفقيه أبو الفرج ابن المشاط.

* شهدت السنة وفاة السلطان بَرْكَيَاروق في الثاني من ربيع الثاني له من العمر ٢٥ سنة منها ١٢ سنة في حروب مع أخوته وذلك في الطريق من أصبهان إلى بغداد وجُعل الأمير إياز اتابكا لابنه الطفل.

* توفي في هذه السنة معتمد الدولة سُقْمان الأرتقي مؤسس الدولة الأرتقية وهو في الطريق من حصن كيفا إلى دمشق خوف استيلاء الصليبيين عليها مات بعلة الخوانيق، وفيها توفي جيَاش بن نَجاح الحبشي صاحب اليمن ومؤلف كتاب المفيد في أخبار زبيد.

* شهدت السنة وفاة الزعيم الصليبي ريموند الصنجلي (دى سان جيل) أثناء حصار طرابلس وهو الذى كان قد استولى على طَرَطُوس قبل ذلك، وخلفه وليم جوردان (٢٨ فبراير ١١٠٥).

فمضيا الى بلاد الحبشة وحضرا عند المطران [بطرس] وطلبا منه ان يعطيهما دنانير ويبرهما بشي من ماله، فلم يدفع لهما شيا. فعلمهما الشيطان ان لبس احدهما ثياب الاساقفة والاخر عمل تلميذه، وكتبو كتب مزورة [لابن الملك الكبير] عن البطرك يقولو فيها: «بلغنا ان جا الى عندكم انسان ضال اسمه بطرس وحكى عنا انا انفذناه اليكم مطرانا، وليس هو صحيح ولا الكتب الذى معه من عندنا ولا نحن رسمناه بل زور عنا ما

الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدسة؛ وحرصا على هذه العلاقة أتم زواجه من برتا Berthaالتي كانت: مخطوبة له منذ عهد أبيه، حتى يتحول التصاهر الى تحالف وثيق العرى بين الامبراطورية الرومية، والامبراطورية الرومانية المقدسة، على أمل أن يؤدى ذلك الى اتحادهما عن طريق وريث يجمع بين الدماء اليونانية الشرقية والدماء الأوربية الغربية، وبذلك يعيد احياء الامبراطورية الرومانية القديمة بشطريها، فقد كان الامبراطور عمانوئيل طموحا يقتفى

سنة ٤٩٩ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأربعاء ١٣ سبتمبر ١١٠٥م.

* أغار قلج أرسلان على الرها وفرض حصاراً حولها.

* وقعت الحرب بين طُغْتكين أتابك دمشق والصليبيين بسبب بناء حصن.

* استولى الباطنية على حصن فاميّة وقتلوا صاحبه خَلَف بن مُلاعب فخف إلى نجدتهم تنكرد صاحب أنطاكية إلا إنه انصرف دون أن يحقق شيئاً.

* استولى صَدَقة صاحب الحلة بايعاذ من السلطان على البصرة من صاحبها إسماعيل بن أرسلان.

* أغارت قوات فاطمية فى فلسطين على قافلة من الصليبيين بين يافا وأرسوف.

* ظهر بنواحي نهاوند رجل يدعى النبوة وتعلق بالسحر والنجوم فتبعه خلق كثير وحملوا إليه الأموال ثم أُخذ وقتل.

* اغتال الباطنية بأصبهان القاضى أبو العلاء صاعد النيسابورى عن ٧٠ سنة.

مسيرة جستنيان وحروبه من أجل بناء الامبراطورية الموحدة. ولهذا كان ينظر الى الجــزء الأوروبى كـــجـــزء تابع لامـبراطورية الروم، ويتحين الفرصة لتحقيق ذلك. وعندما وصل موكب العروس الالمانية برتا الى القسطنطينية، أقيمت الافراح، ومدت المآدب، اعلانا بالزواج والاتحاد؛ فقد كانت الاميرة الالمانية تحمل معها خطابا من كونراد الثالث، يتعهد فيه بالدفاع عن الامبراطورية والامبراطور فى حالة تعرضهما لأى خطر، وفى القصر الامبراطورى أعطيت الامبراطورة

وصل اليكم على يده. والذى انفذناه صحيحا وهو المطران الواصل اليكم بكتبنا على يديه، فعند وقوفكم عليها ابعدو بطرس عنكم، واجلسو هذا مينا على الكرسى. وبلغنا ايضا انه اجلس ابن الملك الصغير فى المملكة ورفض الكبير، وهذ ظلم لان الكبير احق بالملك من الصغير». ومضى بالكتب الى ابن الملك الكبير، وكان منفرد فى موضع وحده وكان قد تبعه يسير من الناس، فلما وقف على الكتب المزورة فرح جدا وجمع اليا

سنة ٥٠٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد ٢ سبتمبر ١١٠٦م.

* فى الأول من المحرم تولى أمير المسلمين أبو الحسن على بن يوسف ابن تاشفين عرش المرابطين فى المغرب والأندلس خلفاً لأبيه وله من العمر ٢٣ سنة.

* سقط حصن فامية فى مستهل العام فى يد تنكرد بعد أن جرد عليه حملة ثانية وكا الحصن قد استولى عليه الباطنية وقتلوا صاحبه خَلَف ابن مُلاعب فلجأ ابنه مصبح إلى تنكر كما استولى على كفر طاب واستعد للهجوم على شيرز وعليها آل منقذ.

* استولى صَدَقة بن مَزيد صاحب الحِلة على تِكْريت كما استولى قلج أرْسِلان عل الموصل.

* رحل فى هذه السنة إلى المشرق محمد بن تُومَرت وهو ابن ١٥ سنة وهو الذ عرف فيما بعد باسم المهدى ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين وحج وجاور وانتهى إل العراق.

* أذن البابا باسكال الثانى للأمير بوهيموند بتنظيم حملة صليبية ضد الامبراطو

٥٨: الاب [قزما] البطرك ٩٢١/٩٣٣م

الجيش وعرفهم بالكتب وما فيها ووجد بها السبيل الى محاربة اخيه، وانظم [انضم] اليه الجيش فغلبه وقبض عليه ونفاه، ونفا المطران ايضا، واجلس ذلك الراهب مينا عوضه. ومن بعد ايام يسيرة وقع الخلف بين هذين الراهبين المزورين، فنهب بقطر قلاية المطرنة واخذ جميع ما فيها، وانهزم هاربا الى ديار [الإسلام] واسلم واتلف جميع ما وصل صحبته فيما لا يرضى الله. فلما بلغ البطرك [قزما] خبر مينا وما فعله حتى نفا المطران وجلس عوضه

الالمانية لقبا يونانيا حسب تقاليد العرش وهو أيريني (Irene) ومعناه «السلام» أى بين الشرق اليوناني والغرب اللاتيني. وبعد الزواج شرع عمانوئيل فى استثمار تعهد كونراد الثالث لردع «روجر» ملك صقلية وجنوب ايطاليا النورماني، وثنيه عن أى أحلام فى غزو اراضى الامبراطورية فى الغرب خاصة فى بحر الادرياتك، وكذلك فى ارهاب حكام امارة أنطاكية وما حولها، لكن خططه قلبت رأسا على عقب عندما فوجئ بوصول الحملة الصليبية الثانية، حتى

البيزنطية على سبيل الانتقام مما اضطر الامبراطور إلى استدعاء معظم قواته من اللاذقية وقليقية لمواجهة هذا الخطر الجديد.

* شهدت هذه السنة وفى اليوم الأول منها وفاة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين وفاتح الأندلس وصاحب الانتصار الساحق فى معركة الزلاقة الحاسمة ضد التجمع المسيحى الأسبانى.

* توفى السلطان السلجوقى قلج أرسلان مات غريقاً فى نهر الخابور فى قتاله مع رضوان صاحب حلب.

* قتل وصلب زعيم الباطنية من طائفة الحشاشين ابن عطّاش (أحمد بن عبدالملك) كان قد استولى على قلعة أصبهان فطارده السلطان محمد بن ملكشاه حتى قبض عليه.

* توفى عن ٦٦ عاما الوزير أبو المظفر فخر الملك (ابن الوزير نظام الملك) وكان وزيراً للسلطان بركياروق ثم للسلطان سَنجر اغتاله أحد الباطنية فى يوم عاشوراء (١٠ المحرم)، كما لقى حتفه أخوه سعد الملك وكان وزيراً للسلطان محمد ابن ملكشاه قتله بسبب اشتراكه فى مؤامرة.

برنا (ايريني) لم تنجب له الذكر الذى قد يطالب بعرش الغرب مستقبلا، لانها أنجبت له بنات.

عما نوئيل والحملة الصليبية الثانية:

وفي العام التالي لتولي عمانوئيل عرش الامبراطورية الرومانية، أى في عام ١١٤٤م (٥٣٩هـ) نجح أتابك الموصل عماد الدين زنكي في استعادة مدينة الرها Edessa وما حولها بعد حصار طويل كان قد ضربه على المدينة، حتى استسلمت ، وبذلك قضى على أول وأقدم امارة أقامها الصليبيون في المشرق الاسلامي، ولقد

حزن جدا وكتب كتبا احرمه وقطعه، فلما سمع الملك ذلك اخذ مينا الراهب المزور فقتله، ولم يعد البطرك يقسم لهم مطرانا بقية ايام بطركيته، ولا البطرك الذى جلس بعده الى تمام خمسة بطاركة وهو فيلاتاوس.والسيرة توضح لنا ذلك عند ما نحتاج الى معرفته اذا بلغنا اليه بمعونة الله لانه لا يجوز لنا ان نذكر بقية هذا الخبر قبل ان نصل اليه، ثم ان الملك انفذ الى بطرس المطران ليعيده الى كرسيه، فوجده قد توفى فى النفى وبقى تلميذه

مصر من حكم الطولونيين حتى نهاية حكم المماليك

أولا: مصر فى عصر الطولونيين

(٢٥٤،٢٩٢هـ= ٨٦٨،٩٠٥م)

١. أحمد بن طولون فى سامرا

في سنة ٢٥٤م (٨٦٨م) أقطع الخليفة العباسي المعتز، مصر، للقائد التركي باكباك، فأرسل هذا القائد نائبا عنه الى وادى النيل. وكان هذا النائب هو أحمد بن طولون الذى أصبح من الشخصيات ذات الشأن في تاريخ مصر.

وكان طولون، والد هذا النائب من العنصر التركى من بلاد ما وراء النهر (التركستان الروسية سابقا). ويقال انه كان ضمن الجزية التى أرسلها حاكم بخارى الى البلاط العباسي في سنة من السنين، كما يقال أيضا انه كان مملوكا لنوح بن أسد والى بخارى وان نوحا أعتقه وأهداه الى الخليفة العباسى المأمون. ووصل طولون الى البلاط في بغداد نحو سنة ٢٠٠هـ (٨١٦م). أما اسمه طولون فمشتق من كلمة تركية بمعنى البدر الكامل.

وتقدم طولون بمواهبه وصفاته العسكرية الى أن وصل الى رياسة حرس الخليفة. والظاهر انه لم يكن له شأن عظيم فى الدسائس والثورات التى قام بها الجند الترك منذ وفاة المعتصم سنة ٢٢٧هـ (٨٤٢م).

فطلب ان يسير الى مصر فلم يمكنه الملك وقال له تجلس عوضا من معلمك. فسال الملك ان يمكنه من السير الى مصر ليرسمه البطرك مطرانا ويعود، فلم يفعل بل لبسه الثياب بغير اختياره، واجلسه بغير قسمة، ومكث الى زمان الاب فيلاتاوس البطرك حتى شاخ وكبر جدا، وكان يفعل افعال الاساقفة. ثم ان الاب قسما [قزما] تنيح، وكانت مدته فى البطركية اثنى عشر سنة، وتنيح فى اليوم الثالث من برمهات صلاته معنا امين.

أحدث سقوط امارة الرها الصليبية فى أيدى المسلمين دويا هائلا فى الغرب المسيحى فقد كانت امارة الرها خنجرا فى ظهر الجبهة الاسلامية، تعيق وحدتها فضلا عن أهمية المنطقة الاستراتيجية، وتحكمها فى الطريق الذى يربط بين الموصل والشام.
ولما كان بابا الكنيسة الكاثوليكية يوجينيوس الثالث Eugenius غارقا فى صراعه مع الامبراطور كونراد الثالث، فقد كان فى وضع لايسمح له بتزعم الدعوة لحملة صليبية ثانية ضد ديار الاسلام فى المشرق، ولهذا تولى عنه

وولد ابنه أحمد فى بغداد سنة ٢٢٠هـ (٨٣٥م)، ثم انتقل مقر الحكومة العباسية فى السنة التالية من بغداد الى سامراء، وهى العاصمة الجديدة التى أنشأها المعتصم شمالى بغداد. ونشأ أحمد ابن طولون فى سامرا حيث تلقى العلوم العسكرية التى كان يتلقاها الجند الترك، ودرس فضلا عن ذلك قسطا من العلوم الدينية.

ورحل أحمد بن طولون الى مدينة طرسوس، وكانت من أهم الثغور الشامية الواقعة على الحدود بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية، وذلك للاشتغال بالجهاد فى محاربة البيزنطيين فى هذه المدينة.

ولفت أحمد بن طولون الأنظار منذ شبابه المبكر الى شجاعته ومرءوته، والمصادر التاريخية تعطينا صورا مختلفة لذلك.

وتوفى طولون، والد أحمد، فى سنة ٢٤٠هـ (٨٥٤م). ولقى أحمد بن طولون وأخوه موسى الشئ الكثير من عناية الجند الترك بعد وفاة أبيهما.

٢. أحمد بن طولون فى مصر

ذكرنا أن الخلفاء العباسيين منذ خلافة المعتصم (٢١٨ـ ٢٧٧هـ) درجوا على اقطاع مصر للقواد الأتراك، وكان هؤلاء القواد الترك يؤثرون البقاء فى عاصمة الخلافة ويرسلون من يقوم

انبا مقاره [مكاريوس] وهو من العدد التاسع والخمسون
[٩٣٣/ ٩٥٢م]

وقسم عوضه مقاره الراهب من دير ابو مقار، من ضيعة بالريف تسمى شبرا [شبراخيت] قريب من اسكندرية، كرز فى اسكندرية ودير ابو مقار ومصر على العادة.

فلما نجز شغله من مصر، انحدر الى اسكندرية

ذلك لويس السابع ملك فرنسا، الصديق الحميم لروجر الثانى ملك صقلية النورمانى، والعدو الاول لأمبراطور الروم. وكلف البابا الراهب برنارد رئيس رهبان دير سانت كلير فو Clarovauxبالدعوة للحملة الصليبية الثانية؛ كما نجح لويس السابع فى اقناع خصمه الالمانى كونراد الثالث بالاشتراك فى هذه الحملة أملا فى ايجاد موضع قدم للامبراطورية الرومانية المقدسة فى المشرق الاسلامى. ولذلك تلقى عمانوئيل أنباء هذه الحملة بقلق شديد، فقد

بالأمر نيابة عنهم، على أن يحمل اليهم هؤلاء النواب الأموال ويدعون لهم على المنابر كما يدعى للخليفة. وكان باكباك من أعظم قواد الترك شأنا فى خلافة المعتز (٢٥٢ـ٢٥٥م/٨٦٦ـ٨٦٩م)، وكان متزوجا حينذاك من والدة أحمد بن طولون بعد وفاة أبيه طولون.

وحين أقطع باكباك مصر، وقع اختياره على أحمد لينوب عنه فى حكمها.

ولكن أحمد بن طولون لم يعين نائبا عن باكباك فى حكم مصر كلها، بل كان على الاسكندرية نائب خاص بها، وعلى برقة نائب آخر، وكانت برقة تتبع مصر.

ووجد أحمد بن طولون عند قدومه الى مصر، أن صاحب النفوذ فيها هو أحمد بن المدبر العامل على الخراج، وكان معينا من قبل الخليفة، فبدأت المنافسة بين الرجلين. وأدرك ابن المدبر أن أمره لن يستقيم مع النائب الجديد، فبدأ يدبر له المكائد والدسائس بواسطة أعوانه فى بلاط الخليفة ودوائر الحكومة ليصل الى عزله. ولم يكن ابن المدبر يعلم أن ابن طولون كان قد استمال اليه رجال البلاط العباسى بالهدايا النفسية واتخذ له نائبا فى سامرا يوافيه بكل م يجرى فى الخلافة، وفشل ابن المدبر فى محاولاته لعزل ابن طولون كذلك لم يرحب بقدو ابن طولون، شقير الخادم، عامل البريد وكان من موالى والدة الخليفة المعتز.

كان يدرك مطامع الملك الفرنسي، والامبراطور الالماني، في أراضي أمبراطورية الروم آسيا الصغرى، كما خاف عمانوئيل من أن تذهب هذه الحملة بالنفوذ الذى حققة بصعوبة على الامراء الصليبين في المشرق وعلى حاكم أنطاكية الصليبي بالذات، كما أن ذكرى أعمال السلب والنهب،التي قام بها جنود الحملة الاولى في أراضي الامبراطورية الرومية في آسيا الصغرى كانت لاتزال عالقة بالاذهان؛ ولهذا شرع عمانوئيل على الفور في ترميم اسوار وقلاع العاصمة. و لما وصلت القوات الالمانيسة الى القسطنطينية في شهر سبتمبر عام ١١٤٧ (٥٤٣هـ)، أظهر عمانوئيل نفسه بمظهر المضياف الكريم مثل جده وأبيه، لكنه كان يتمنى اللحظة التي يتخلص فيها من هؤلاء الضيوف الفضو ليين. وبعد أن حصل منهم على يمين الولاء لشخصه، والتعهد بأعادة كل الأراضي التي يخرجوا المسلمين منها الامبراطورية الروميسة، قام بنقل القوات الالمانية الى آسيا الصغرى، قبل وصول القوات الفرنسية حتى لايعطي الامبراطور الالماني والملك الفرنسي فرصة للتآمر عليه، وحتى يسهل عليه الوقيعة بينهما اذا لزم الامر . وقد قدم عمانوئيل نصيحته لهم بالابتعاد عن قونية ـ عاصمة السلاجقة ـ واتخاذ طريق آخر للاراضي المقدسة في جنوب الشام ، لكن جنود الحملة كانوا يشكون في نوايا عمانوئيل، فلم يعملوا بنصيحته، واتجهوا نحو قونية؛ وحدث ما توقعة عمانوئيل، اذا اطبق السلاجقة على كونراد الثالث وجنوده من كل جانب، وانزلوا بهم هزيمة ساحقة، ولقي الجنود الالمان نفس المصير الذى لقيه جنود بطرس الناسك في الحملة الاولى، وتحطمت القوة الالمانية قبل ان تصل الى قونية، واجبرت على التراجع وهي تجرجر ذيول الهزيمة حتي وصلت الى مدينة نيقو ميديا وذلك في أول نوفمبر عام ١١٤٧م.

وبعد بضعة أسابيع، وصل لويس السابع وجنوده، حيث انضموا الى بقايا القوات الالمانية المندحرة، واتجهت القوات الصليبية الفرنسية الالمانية صوب دمشق للاستيلاء عليها بالرغم من أن أمراء دمشق كانوا على علاقة طيبة بالصليبيين بعكس أمراء حلب. غير أن مشروع فتح دمشق باء بالفشل، بسبب عدم كفاءة الجنود الصليبيين ونقص عتادهم ومؤنهم. وازاء ذلك غادر كونراد الثالث بلاد الشام متجها الى سالونيك، حيث التقى بأمبرطور الروم عمانو ئيل، وجدد تحالفه القديم معه، واشتكى الامبراطور عمانوئيل لحليفة الالماني من تصرفات روجر النورماني ملك صقيلة حليف لويس السابع، فقد استغل الحملة الصليبية ليتوسع على حساب ممتلكات القسطنطينية في البحر الادرياتيكي، فقد استولى على جزيرة كورفو وغيرها من جزر بحر الأدر ياتيك، بل وصل عدوانه الى المدن اليونانية الهامة في شمال بلاد اليونان، مثل كورنثا حيث مصانع الحرير، والى طيبة Thebes عاصمة اقليم بؤوتيا Boeotia، بل أن قواته أغارت على آثينا نفسها، ولهذا شارك الامبراطور الالماني كونراد حليفة عمانوئيل الرأى في وجوب التصدى للعدوان النورماني، واتفقا على تجهيز حملة مشتركة لهذا الغرض، ولم ينتظر عمانوئيل اشتراك الالمان معه، وشرع على الفور في اعداد حملة لطرد لنورمان من بلاد اليونان، على أمل أن يحالفه الحظ بعد ذلك في استعادة نفوذ الروم في جنوب ايطاليا وصقلية.

ولكي يؤمن البلاد في أثناء غيابه، سعى عمانوئيل الى التفاهم مع مسعود سلطان السلاجقة الروم في قونية، ولما علم لويس السابع بنبأ ذلك الاتفاق بعد عودته فاشلا من الشرق ونزوله ضيفا لدى صديقه روجر في جنوب ايطاليا ـ أقام الدنيا وأقعدها ضد عمانوئيل، والقى عليه باللوم في فشل الحملة الصليبية الثانية، واقترح

هو وصديقه الاستيلاء على القسطنطينية نفسها قبل محاربة المسلمين؛ وأخذا ينشران الكراهية في أوروبا الغربية ضد عمانو ئيل وضد الامبراطورية الرومية.

سياسة عمانوئيل مع الامارات الصليبية في المشرق:

واذا كانت سياسة الامبراطور عمانوئيل قد لاقت فشلا ذريعا في الغرب الايطالي فان سياسته في المشرق مع الامارات الصليبية قد لاقت بعض النجاح، فقد كانت هذه الامارات الصليبية في حالة ضعف، وتشعر بالخوف من تصاعد قوة سلاطين البيت الزنكي خاصة من السلطان نور الدين محمود، الذى خلف أباه عماد الدين زنكي؛ وكان الفارس الفرنسي رينودى شاتيون Rinaud de Chatillos، والذى عرف في المصادر العربية باسم أرناط صاحب الكرك ـ زوجا لوريثة امارة أنطاكية الصليبية، وكان من أشد الأمراء الصليبيين خوفا ورعبا من السلطان نور الدين محمود، ولهذا نسى كل خلافاته مع القسطنطينية، وانتهز فرصه زحف عمانوئيل بقواته على اقليم قليقية CilIcia عام ١١٥٨م واقامته في مقر قيادته في المصيصة Mamistra (في اقليم قلقية بالقرب من ميناء طرسوس) ليقوم بتمثيلية التى قام بها الامبراطور هنرى الرابع امبراطور الدولة الرومانية المقدسة مع البابا جريجورى السابع في كانوسا عام ١٠٧٨م، فقد سار أرناط ـ صاحب الكرك - الى مقر عمانوئيل في المصيصة، حافي القدمين، عارى الرأس، مرتديا قميصا من الصوف رداء النساك، محيطا رقبته بحبل، طالبا العفو والغفران؛ وقد أجابه عمانوئيل بالطبع الى طلبه، بعد أن حصل منه على اعتراف بعودة امارة أنطاكية الى سيادة القسطنطينية، وحق الامبراطور بصفته رأس الكنيسة أن يعين الأسقف على كنيسة أنطاكية، وقد اعتبر أمراء الصليبيين ذلك التصرف من قبل دى شاتيون عارا على الكاثوليك. ولم يمض وقت طويل حتى وفد الى مقر عمانوئيل الملك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس، لتقديم فروض الطاعة والولاء للامبراطور الرومي، وتوالى قدوم أمراء الصليبيين لاعلان خضوعهم للامبراطور عمانوئيل. وعقد عمانوئيل معهم معاهدة تعهد فيها بتقديم المساعدة للامارات الصليبية ضد الدولة الزنكية. وفي عيد الفصح لعام ١١٥٩ دخل عمانوئيل أنطاكية ممتطيا جواده، وأرناط يمسك بلجامة ويتبعه سائر أمراء الصليبيين سيرا على الأقدام، ومجردين من سلاحهم، وخرج شعب المدينة عن بكرة أبيه لاستقبال عمانويل يحمل أغصان الزيتون وسعف النخيل، كما لوكان ذلك أعادة لمشهد دخول السيد المسيح أورشليم منتصرا، بينما راحت أجراس الكنائس تدق مرحبة؛ وابتهاجا بدخول عمانوئيل أنطاكية، أعلن لشعبها طلاق زوجته الألمانية، واختيار احدى بنات مدينتهم زوجة له، أملا أن تكون أما لولى العهد، حيث لم تنجب له الزوجة الألمانية سوى بنات، وكانت العروس المحظوظة فتاة تدعى ماريا، وزفت ماريا الأنطاكية الى الامبراطور، وكان ذلك شرفا كبيرا لأهل أنطاكية، ورفعا لمعنويتهم وفي غبطة الفرحة والنشوة، أعلن عمانوئيل أن كل آسيا الصغرى وأعالي الفرات والشام هي أرض رومية يجب أن تعود للامبراطورية، وتعهد للأمراء الصليبيين بأنه سوف يتصدى لأطماع نور الدين محمود بحزم، وأنه سوف ينتزع منه اقليم الرها ؛ ولكن ذلك التعهد كان تعهدا أجوفا، قصد به تهدئة ذعر الأمراء الصليبيين لأنه نفسه كان يعلم مدى قوة نور الدين محمود؛ لهذا كان يتحاشى الدخول في مواجهة معه؛ وفي حركة تمثيلة أمر قواته بالزحف على اقليم الرها، بينما بعث سرا الى نور الدين محمود يشرح له الظروف التى أطلق فيها تهديداته، ويطلب التفاوض معه؛ واستمرت المفاوضات بين نور الدين محمود وعمانوئيل تجرى في سرية تامة، حتى انتهت بعقد

٥٩ : الاب مقاره البطرك ٩٣٣/٩٥٢م

صلح بينما؛ عندها أصدر ا وامره الى قواته أن تستدير عائدة؛ ثم شرح لأمراء الصليبيين بأنه مضطرا لتأجيل عملية الزحف على الرها لأن عليه أولا أن يقمع مؤ مراة تدبر ضده في العاصمة. وانطلت الحليمة على الأمراء الصليبيين. لقد كان من مصلحة عمانوئيل أن تبقى الدولة الزنكية قائمة وقوية لارهاب الامراء اللاتين خاصة بلدوين الثالث ملك اورشليم الذى بقى وفيا للامبراطور عمانوئيل حتى وفاته، وخلفه عمورى(Amaury) الأول كملك على بيت المقدس وذلك في ١٨ فبراير عام ١١٦٢م وهو لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمر ه.

ولقد كان عموري(أو عماوري) الأول يحلم بالاستيلاء على مصر، التى كان نور الدين محمود قد فر ض سلطانه عليها بعد خلاف الوزيرين شاور وضرغام، وعين أكبر قواده صلاح الدين الأيوبي وزيرا أكبر في بلاط الدولة الفاطمية المتدهورة، ولقد شجع عمانوئيل عمورى الاول على غزو مصر، واتفق معه على ارسال حملة مشتركة لتحقيق ذلك. ولما وصلت الحملة الصليبية الرومية المشتركة الى سواحل دمياط قادمة من الشام، تصدى لها صلاح الدين الأيوبي، وأبعدها عن السواحل المصرية بسهولة، فقد كانت مرهقة من طول السفر، فضلا عن نفاد مؤنها وعتادها.

سياسة عمانوئيل مع دولة السلاجقة الروم:

استغل عمانوئيل حالة التشرذم والانقسام التى كان عليها أمراء سلاجقة الروم، في محاولة لاستعادة ممتلكات امبراطورية منهم في آسيا الصغرى، فحاول اشعال نار الوقيعة بين أمراء قونية في الجنوب وأنقرة في الشمال، والدانشمند أمراء قبادوقيا في الشرق، غير أن وجود سلطان ذكي وقوى في قونية واسمه قلج أرسلان، أفسد عليه مخططاته. وبالرغم من أن سياسة عمانوئيل مع هذا السلطان، اتسمت بالود لبضع سنين في بداية تولية العرش، لكنها تحولت الى عداء مستحكم فيما بعد. فقد أدار قلج أرسلان له ظهره وتحول إلى صداقة عدوه فريدرش باربا وسا؛ وكان هذا السلطان السلجوقي قد زار القسطنطينية في صيف عام ١١٦١-١١٦٢م، ونزل ضيفا على عمانوئيل، الذى استقبله بالحفاوة والتكريم، وانزله أجمل قصوره، حتى أن اقامة قلج أرسلان امتدت الى ثمانين يوما، عقد في نهايتها معاهدة صداقة مع امبراطور الروم؛ ورغم ذلك انقلب عليه.

فلقد استطاع فريدرش بارباوسا أن يكسب الى جانبه السلطان قلج أرسلان، ويوغر صدره ضد عمانوئيل، ويؤلبه عليه، ويغرِ به على التقدم لفتح ممتلكات الروم في آسيا الصغرى، وذلك عندما تورط عمانوئيل في محاولة فتح جنوب ايطاليا، حتى يحول اهتمام عمانوئيل عن الغرب، بفتح جبهة في الشر ق ضده. وكان قلج أرسلان، رغم ارتباطه باتفاق صداقة مع عمانوئيل، يعر ف نيته وأحلامه في آسيا الصغرى، منذ أن أعلنها صراحة لاتعوض، فقد كان عمانوئيل غارقا في الغرب، وعلى الفور قام سلطان قونية السلجوقي بالقضاء على مناوئيه من الدانشمند، وأمراء أنقره، ثم بدأ يستعد للتوسع على حساب الامبراطورية الرومية في آسيا الصغرى؛ وردا على ذلك، أعد عمانوئيل جيشا مضادا، أشرك فيه بعض الأمراء السلاجقة المعارضين للسلطان قلج أرسلان، وقاد عمانوئيل جيشه في خريف عام ١١٧٦ متجها نحو قونية، عاصمة السطان قلج أرسلان.

معركة موريو كيفالون (أو معركة الرؤوس الكثيرة) ١١٧٦م:

وانتظر قلج أرسلان حتى دخل عمانوئيل وجيشه احدى الممرات الجبلية الضيقة، ذات الرءوس المتعددة في فر يجيا، عند موضع يقال له موريوكيفالون Myriocephalon، ثم أطبق عليه من كل جانب، وفتك بجيش

عـمانوئيل، الذى نجا من الموت بأعـجوبة، وبلغ من هول هزيمة جيش الروم في موريو كيفالون، أن قـورن بهـزيمه في مـوقـعـة منزكـزت سنة ١٠٧١م، فـقـد فقدت الامبراطورية الرومية في معركة واحدة هيبتها، ومعها كل المكاسب التى قـاتل من أجلهـا أباطرتها الكبار عبر قرون طويلة، وفقدت معها سيادتها على آسيا الصـــغـــرى الى الأبد؛ وأملى السلطان السلجـوقي المنتـصـر شروطه على الإمبراطور المهـزوم: وهى هدم وازالة جميع الحصـون والقـلاع الحـربيــة في آســيـا الصـغرى، والتنازل عن ادعـاءاته في أراضى السلاجقة، وكان قبول تلك الشروط هو بمثابة الاعتراف بعـجـز الامـبـراطورية عن طرد الســلاجـقـة الأتراك من آسـيـا الصغرى، وعلى اثر هذه المعر كة بدأت جحـافل التـركـمان تتدفق من منابع الأنهـار الاسـيـوية فـوق المرتفعات متجهة نحو مصباتها في بحر ايجة.

ولقـد كـانت فـرحـة فـريدرش بارباروسا في هزيمة عـمـانوئيل لاتوصف، وتشـفـيـه في خـسـارته لايقـاس، فـبـعـث اليـه بخطاب يسخر فيه من أحلامه الواهمة فى استـعـادة الامـبـراطورية الرومـانية قـائمة فعلا في الغـرب، وتمارس سـيـادتهم على كـل أنحـاء أوروبا، ولا ينقـصـهـا سـوى اسـتـعـادة سيطرتهـا على الاقليم اليـونانى الشـرقى (يقـصـد الامـبـراطورية الرومـيـــة)؛ وأنه ليس من حق عـمـــانوئيل أن يحـمـل لقب امـبـــراطور، اذ لايوجـــد ســوى امـبـواطور واحـد، هو فـريدرش بارباروسيا، ووريث عرش الرومان. ورغم هذه الكارثة لم يســتــسلم عـمـــانوئيل، ورد على ســخـرية فـريددرش بالانتقام منه عن طريق تشجيع المدن الايطالية الثائرة ضد التـــدخل الالمانى فى ايطاليــــا، وكـانت هذه المدن قـد كـونت عصبة بزعامة مدينة ميلان، وراح يمدها بالمال والسلاح، وظل على ذلك حتى آخر أيام حكمه. لكن ذلك لم يغـيـر من الواقع المرير، فـقـد بدأ أفـول نجم امـبــراطورية الروم بعد هذه المعركة، وفقدت سيطرتها على الامارات الصليبية في المشرق الاسلامى، كما فقدت سيطرها على آسيا الصـغر ى، مما أتاح للدولة الايوبيـة النـاشـئـة الفرصة لتعزيز مركزها في الشرق الادنى، لتـتـولى قـيـادة المقـاومـة الاسلامية ضد الخطر الصليبى.

نهاية عمانوئيل ١١٨٠م:

وأخـيـرا مـات الامـبـراطور عـمــانوئيل كـومنين عـــام ١١٨٠ كـســيـر الفـؤاد، تاركـا امـبـــراطورية الروم تعـالى من التـدهور والضـعـف والافـلاس، بسبب سياسته وأحلامه الواهمة؛ فـعلى الصـعـيـد الداخلى، أدت الحـروب الكـثـيـرة الى زيادة نفـوذ الاقطاعـيين الذين اسـتـفـادوا من نظام الهبات العسكرية Pronoia، الذى ضـمـن لهم حـقـوقـا مـاليـة وقضائية، جعلهم دويلات داخل الامبراطورية، وهذا بالطبع أضعف السلطة المركزية للدولة؛ وواكب ذلك تردى الاحـوال الاقـتـصـادية بسبب كثـرة الضـرائب لتـمـويل المعارك والحروب، فـضلا عن أن طرد التـجـار البنادقـة دون ترتيب مـخطط وبطريقـة مـفـاجـئـة غـيـر مدروسة، أحدث هزة في السـوق التجـارية وانهـيـارا مـفـاجـئـا في الاقتصاد.

وفى أثناء انشغاله بالمعارك مع السـلاجـقـة عـام ١١٦٨ كـانت زوجته الانطاكية ماريا، قد أنجبت له وريثا للعرش، أسمته الكسيوس الثانى كومنين، كما اتخذت لها عشـيـقـا، راحت تلهـو مـعـه، غير عابئة بمشاعر الناس، حتى لاكت الالسن سـيـرتهـا؛ وبعـد مـوته، أصـبـحت الملكة الانطاكـيـة هى الوصـيـة على ابنها الصـغير؛ وكما تركت نفسها لعشيقها، تركت له أيضا تصريف شئون الامبراطورية المنهـارة ومن حـولها بطانتهـا من اللاتين الاجانب.

حكم الامبراطورة ماريا كوصية على ابنها القاصر الكسيوس كومنين الثانى ١١٨٠-١١٨٣م:

وعنـدمـا مـات أبوه، كـــان الكـســيــوس كـومنين الثـانى في الثـانية عـشرة من عـمـره، فعينت أمه الانطاكية اللاتينية وصية عليه وعلى عـرش الامـبـراطورية، لحين

بلوغه السن القانونية؛ وخطبت له الأمير آن الفرنسية؛ وكانت ماريا مكروهة من شعب القسطنطينية بقدر كراهيتهم اللاتين الكاثوليك. فقد كانت في نظرهم امرأة أجنبية لانها سليلة البيت الانطاكي النورماني، ولم تحاول ماريا منذ مجيئها الى القصر أن تتأقلم مع ظروف الحياة اليونانية الشرقية في القسطنطينية؛ فقد عاشت عيشة الاوروبيات الغربيات المتحررة، الصاخبة؛ وكان كل همها الاعتناء بأختيار ملابسها الانيقة، وتبديل عشاقها من اللاتين، الذين ملات بهم القصر والادارات المختلفة، وأصبحوا محل ثقتها، حتى بدأ حكمها كما لوكان حكما لاتينيا؛ ثم اصطفت من عشاقها عشيقا، ألقت اليه بنفسها ونفيسها، وأصبح الآمر الناهي في القصر، وتناقلت ألسنه الروم مغامرات الامبراطورة والعشيق؛ وأضفى الخيال الشرقي الكثير من المبالغات على هذه الغراميات، حتى بدا العرش الكومنيني وقد تحول الى فراش غرام، في وقت كانت فيه الامبراطورية في مسيس الحاجة الى رجل قوى، يقيلها من عثرتها، ويأخذ بيدها قبل أن تغرق. وفي مناخ السخط السياسي تنمو بذرة المؤمرات، التي يكون أبطالها عادة من الرجال الطموحين المتطلعين الى العرش. ولقد تزعمت عملية السخط ابنة الامبراطور الراحل عمانوئيل من زوجته الالمانية الاولى؛ فقد جمعت حولها الناقمين على مسلك ماريا، واعتمادها على الاجانب من اللاتين الكاثوليك أعداء الامبراطورية، حتى كادت أن تصبح دولة لاتينية؛ ولقد ترددت الشائعات حول اعتزام الامبراطورة الام وعشيقها التخلص من الامبراطور الصغير لافساح المجال أمام العشيق ليصبح امبراطورا بمعاونة اللاتين. وتحول الامر الى مواجهة صريحة وتمرد علني على الامبراطور المستهتر ة، وصلت الى حد تدبير مؤمراة للتخلص من العشيق باغتياله أثناء احتفالات عيد الفصح عام ١١٨٢، ولكن المؤامرة كشف أمرها، ثم اندفعت الجماهير في شوارع القسطنطينية تفتك بأرواح اللاتين وتنهب ممتلكاتهم.

وبينما كان هذا يحدث، كان أندرونيك كومنين ابن شقيق الامبراطور الراحل عمانوئيل، يرقب ما يدور حول العرش من بعيد، ولقد كان أندرونيق طموحا وذكيا ومثقفا، لكنه كان فتى محبا للحياة وللمتعة الدنيوية، قضى حياته متجولا بين قصور أمراء اللاتين في الشرق،حيث هربت معه ثيودورا كومنين - أرملة بلدوين الثالث - والتي صاحبته كعشيقة في كل مكان كان يذهب اليه؛ وبسبب تطلعه لأعتلاء العرش أمر عمه بنفيه الى احد ثغور البحر الاسود النائية، تماما مثلما نفى الامبراطور أغسطس - مؤسس الامبراطورية الرومانية - الشاعر الماجن أو فيد لاى تومى Tomi على البحر الاسود بسبب تورطه في فضيحة أخلاقية تمس ابنته الماجنة جوليا؛ ومن منفساه راح أندرونيك يدبر المؤامرات، وينفخ في دخان الفتنة لكي يصل الى العرش، ولأنه لايوجد من بين أبناء البيت الكومنيني، من هو أفضل منه، التفوا حوله وساعدوه كأفضل وريث يمكن أن ينقذ الامبراطورية، ولما حدثت المواجهة العلنية مع الامبراطورة وعشيقها عام ١١٨٣م، بعد أحداث ابريل عام ١١٨٢ الدامية، فرت الامبراطورة الام وعشيقها، وهتف الناس بأندرونيق امبراطور وهكذا وصل أندرونيك الاول الى العرش.

حكم الامبراطور أندرونيكوس الاول (أندرونيق) كومنين (١١٨٢ - ١١٨٥)؛

وعندما وصل أندرو نيكوس الى العرش، كان قد تجاوز الثالثة والستين من عمره، ولقد بدأ حكمه بالتخلص من الامبراطورة، وبطانتها من اللاتين الكاثوليك الذين كانوا يديرون حكم الامبراطورية باسمها؛ كما ألقى القبض على عشيقها وقتله. ولقد كان أندرونيكوس ذكيا فأعلن في البداية حرصه على حياة ابن عمه الامبراطور القاصر، وأنهما شريكان في الحكم، لكن بعد أن

ستتب له الحكم تخلص من الامبراطور القاصر، وتزوج من خطيبته الاميرة«آن» الفرنسية، التي كانت تبلغ الثالثة عشرة من عمرها بينما كان خطيبها القتيل يبلغ الخامسة عشرة من عمره.

ولقد كان حكم أندرونيكوس يقوم على مقته الشديد للعناصر اللاتينية، وتجريدهم من كل امتيازاتهم، وبسبب ذلك أتهم بتدبير مذبحة للتجار الايطاليين في القسطنطينية بعد مصادرة أموالهم، ولهذا حقد عليه الاوروبيون الكاثوليك سواء من البنادقة أو النورمان. وبالرغم من ذلك كانت ادارته للولايات ادار ة عادلة وقادر ة، فقد عمل على رفع كفاءة الموظفين العاملين في هذه الولايات واختيار العناصر الامينة منهم. ولكي يمنع استشراء الفساد والرشوة، رفع من رواتب موظفي الدولة. كما عمل جاهدا على تخفيف الضرائب عن كو اهل الناس، وفرض عقوبات رداعة ضد المستغلين من عمال الضرائب؛ كما أصلح القضاء؛ ودقق في اختيار القضاة. ولقد راعه التفاوت الطبقي والاجتماعي في الولايات بين الاقطاعيين وصغار الملاك، فأراد أن يحدث توازنا اجتماعيا يصلح الخلل، فأصدر عدة قوانين صارمة ضد الاقطاعيين الذين تفاقم خطرهم، وقضوا على طبقة صغار الملاك، وزاد نفوذهم في القضاء والادارة، وتحكموا في الجيش، حتى كادوا يشكلون دويلات شبه مستقله داخل الامبراطورية ويتحكمون في مستقبل العر ش. ولقد فات أندرونيكوس أن نظام هذه الاسر الاقطاعية ضارب في جذور المجتمع ولايمكن القضاء عليه بسهولة؛ فمنها جاء البيت الكومنيني ومن سبقه من البيوت الامبراطورية، وأن هذه الاسر الاقطاعية هي التي جاءت به – هو نفسه – الى العرش؛ ولذلك كان اصطدامه معها سببا في انفضاضها عنه وهي التي بيدها القوة العسكرية، القادرة على مؤازرته في معاركه الخارجية، بل أن البيوت الاقطاعية، التي كان يتزعمها أحد أقربائه ويدعى اسحق أنجيلوس – بدأت تعمل هي الأخرى على اسقاطه؛ وفي غمرة المواجهة والصراع، قام الامبراطور بالقبض على اسحق أنجيلوس ووضعه في السجن، مما أدى الى اشتعال الموقف. ورغم نزاهته في الحكم، الا أن الجماهير لم تتعاطف معه بسبب طريقة حكمه الاستبدادية، أو ما يعرف بنظام المستبد العادل. ولقد عمل اللاتين – خاصة النورمان والبنادقة – على اسقاطه أيضا بسبب المذابح التي دبرها للتجار الايطاليين وخوفا من تهديداته المستمرة لهم.

سياسة أندرونيكوس الخارجية:

حاول أندرونيكوس أن يقيم علاقات متوازنة مع القوى الاسلامية في المشرق، والتي كانت تتمثل في البيت الايوبي بقيادة صلاح الدين، ومع القوة اللاتينية الصليبية في الغرب، فقد كان قلقا من اصرار وليام الاول ملك صقلية النورماني على تجهيز حملة ضد الامبراطورية، بهدف الاستيلاء على عرش القسطنطينية؛ ومن أجل ذلك حاول التصالح مع البنادقة، الذين لم ينسوا ما حل بهم من كوارث على يد عمه الامبراطور الراحل؛ كما عمل أندرونيكوس على التقرب من البابا حتى يتدخل لوقف الخطر النورماني، مقابل التلويح له بوحدة الكنيستين، أو منح الكنيسة الكاثوليكية بعض الحقوق والامتيازات على حساب كنيسة القسطنطينية.

ولما كانت سياسة صلاح الدين الايوبي هي كسب النصارى الارثوذوكس – والذين كان ينتمي اليهم معظم النصارى العرب – الى صفة في حروبة لطرد الصليبيين من بيت المقدس، فقد رحب صلاح الدين بالسفارة التي بعث بها أندرو نيكوس الى الشر ق في صيف عام ١١٨٥ م من أجل تكوين جبهة رومية – أيوبية ضد الصليبيين والنورمان الكاثوليك؛ وبالرغم من أننا لانعرف رد صلاح الدين على هذه السفار ة التي وصلت الى

عاصمة الايوبيين قبل سقوط أندرونيكوس بشهور قليلة. لكن من المفهوم أن صلاح الدين لم يكن يمانع في ذلك.

سقوط أندرونيكوس أواخر عام ١١٨٥م:

بدأت النكبات تنهال على رأس أندرونيكوس عندما قام حاكم قبرص باعلان انفصاله عن تبعيته للقسطنطينية، ولم يكن في استطاعة الامبراطور أن يقضي على هذا التمرد؛ وبضياع قبرص فقدت الامبراطورية مصدرا ماليا وتجاريا كان يدر عليها الكثير فضلا عن الخسارة الاستراتيجية؛ فقد كانت قبرص القاعدة البحرية لاسطول الروم في شرق البحر المتوسط، وبذلك لم تعد الامبراطورية قادرة على حماية غرب بلاد اليونان من الغازات البحرية النورمانية؛ فضلا عن فقدها مناجم الفضة التي اشتهرت بها هذه الجزيرة، وانعكس ذلك على الفنون والصناعات.

ولم يمر على نكبة قبرص بضعة أسابيع حتى هاجم وليام النورماني ميناء ديراخيوم -Dyrra chiumواستولى عليه دون مقاومة تذكر ؛ ولم يتدخل أسطول البندقية - كما اعتاد قديما - في حماية ومساعدة أسطول القسطنطينية، لأن البنادقة كانو ا ينتظرون لحظة التشفي انتقاما لما حل بهم في القسطنطينية على يد عمانوئيل عام ١١٧١م وعلى يد غوغاء القسطنطينية عام ١١٨٢م، ثم على يد أندرونيق عام ١١٨٢م. وبسقوط ديراخيوم أصبح الطريق مفتوحا أمام وليام النورماني للوصول إلى سالونيك - ثاني مدن الامبراطورية - وضرب حولهما الحصار حتى سقطت في صيف عام ١١٨٥م، وعلى أثر دخولها قام النورمان بمذبحة ضد سكانها العزل من الروم الارثوذوكس انتقاما للمذابح التي وقعت ضد اللاتين الكاثوليك في القسطنطينية عام ١١٨٢.

ولما وصلت أنباء هذه الكارثة الى القسطنطينية ثار شعب العاصمة، وانضم اليهم زعماء الاسر الاقطاعية، واتهموا أندرونيكوس بالجبن والتخاذل في صد العدوان والاستعداد له رغم علمه به؛ فعزلوه وسملوا عينية وعذبوه حتى مات، وهتفوا بزعيم معارضيه اسحق أنجيلوس امبراطور، واقتادوه من السجن الى العرش، وهكذا سقطت أسرة البيت الكومنيني مع سقوط أندرونيكوس آخر أباطرتها.

أسرة أنجيلوس والغزو اللاتيني للقسطنطينية (١١٨٥-١٢٠٤م)

حكم اسحق الانجيلي ١١٨٥-١١٩٥:

جاءت ثورة عام ١١٨٥م بأسرة جديدة الى عرش الامبراطورية، هي أسرة آل أنجليوس (الانجيلي)، فقد صعد الى العرش اسحق الانجيلي خلفا للامبراطور المعزول أندرونيكوس. ودام حكمه عشر سنوات فقط، كانت عبارة عن سنوات عجاف، اذ حلت بالبلاد عدة كسوارث ونكبات في الداخل والخارج، فقد ساء الوضع الاقتصادى في الولايات بعد استقلال قبرص وفقدان عوائد اقتصادية كبرى كانت الجزيرة تدرها على الدولة من جراء التجارة بين بلاد الشرق البحر المتوسط وغربه، فضلا عن تلاعب التجارة الايطاليين بالاقتصاد وتحكمهم فيه، بعد أن تزايد نفوذهم وامتيازاتهم، وزاد معها جشعهم وحقدهم على القسطنطينية. وبالرغم من أن أسحق لم يأل جهدا في استعادة قبرص ولو عن طريق التفاهم مع القوة الاسلامية الجديدة بقيادة صلاح الدين الايوبي، لكن إحلامه كانت سرابا ووهما.

ومن ناحية أخرى استغلت بعض القوميات العرقية في البلقان ضعف الامبراطورية، وتكالب الاعداء عليها فاستقلت عنها، بل وحاولت بناء دويلات على حساب الممتلكات الامبراطورية في البلقان، وكان على رأس هذه القوميات البلغار الذين كان يحرضهم الامبراطور الالماني فردريك بارباروسا العدو اللدود للقسطنطينية؛ كما استقل الصرب، وأسسوا لهم دولة، ولم يكن في وسع اسحق أن يفعل

٥٩: الاب مقاره البطرك ٩٣٣/٩٥٢م

شيئا. بالاضافة الى ذلك كان النورمان ـ أعداء الامبراطورية القدامى ـ يستعدون للانقضاض على ارضيها والتوسع فيها، بتشجيع من تجار بيزا وجنوة والبندقية. وباختصار كانت امبراطورية الروم فى مهب الريح.

الوفاق بين الروم والمسلمين ونتائجه:

أدرك اسحق ـ كما أدرك سلفه أندرونيكوس ـ أن التحالف مع القوى الاسلامية فى المشرق هو طوق النجاة للامبراطورية، ففى المشرق الاسلامى كان صلاح الدين قد وحد الجبهة الاسلامية، ونظم صفوفها تحت راية الخليفة العباسى فى بغداد. واستطاع صلاح الدين بقواته الظافرة أن ينزل هزيمة ساحقة بقوات الامارات الصليبية فى الشام فى الرابع من شهر يوليو عام ١١٨٧م (الموافق الخامس والعشرين من ربيع الآخر عام ٥٨٣هـ) عند حطين، ودب الذعر فى امارات الشام الصليبية، وأصبحت تحت رحمة صلاح الدين؛ ثم تابع صلاح الدين فتوحاته صوب عكا، وحيفا، ونابلس، وصوب صيدا وغزة. وكانت قمة انتصاراته هو انتزاعه امارة بيت المقدس من يد ملكها اللاتينى؛ ولقد حرص صلاح الدين: أن يتوافق دخوله الى المدينةالمقدسة المحررة مع مناسبة دينية عزيزة على المسلمين، وهى ليلة الاسراء والمعراج فى السابع والعشرين من رجب عام ٥٨٣هـ(يوم الجمعة الموافق الثانى عشر من شهر أكتوبر ـ تشرين الأول عام ١١٨٧م). وتوالت الانتصارات على المسلمين، والهزائم على الصليبيين فى الشام خلال عام ١١٨٨ وعام ١١٨٩م.

كان أندرونيكوس قبل عزله قد أرسل وفدا يعرض اتفاقا مع صلاح الدين فى صيف عام ١١٨٥م. غير أن قيام الثورة وسقوط أندرونيكوس عطل مهمة الوفد، فضلا عن أن صلاح الدين رأى أن ا لظروف قد تغيرت وبالتالى لابد من تغيير بعض بنود الاتفاق. فالامبراطورية فى ضعف بينما هو فى أوج قوته. ولهذا طالب بمزيد من التنازلات التى يتوجب على امبراطورية الروم تقديمها، ملوحا باعادة كنائس الشام الارثوذكسية، وارجاعها الى الاصل الارثوذوكسى والى الاشراف الرومى بعد أن انتزعها من اللاتين. وكان لذلك تأثير عاطفى جياش فى نفوس الروم واتباع المذهب الارثوذكسى. وأحدث انقساما فى الجبهة الصليبية بين الكاثوليك والارثوذوكس. وتعبيرا عن الوئام الاسلامى الرومى، سمح الامبراطور اسحق الانجيلى باقامة شعائر الصلاة فى مسجد القسطنطينية؛ كما سمح بالدعاء للخليفة العباسى من فوق المنبر خلال صلاة الجمعة. ولقد أكد هذا الوفاق بين الجانبين كل من أبى شامة فى كتابه«الروضتين فى أخبار الدولتين» ، والقاضى بهاء الدين ابن شداد فى كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» ؛ بل قيل أن اسحق الانجيلى هو الذى حذر صلاح الدين من قرب قدوم الحملة الصليبية الثالثة حتى يأخذ حيطته؛ اذ لم يكن يقلق باله انتصارات صلاح الدين بقدر ما كان يقلقه أطماع الصليبيين، ومن ثم فقد كان هذا الوفاق مع المسلمين أحد الدوافع التى شجعت اسحق على تجميع باقى جيوشه لطرد البلغار من تراقيا، والصرب من مقدونيا؛ ومن الملاحظ أن انتصارات صلاح الدين فى الشام تتواكب مع انتصارات اسحق على النورمان، الذين هزمهم، وأرغمهم على الجلاء عن سالونيك ودورازو وابعادهم عن تهديد القسطنطينية، وقبل وليام الثانى ملك النورمان صاغرا توقيع معاهدة مع اسحق حفظا لماء وجهه، وبذلك أنهى اسحق الى الأبد خطر النورمان وهذه بلاشك احدى ثمار الوفاق مع الجبهة الاسلامية.

وبعد ابعاد خطر النورمان عن القسطنطينية، استدار اسحق لقمع ثورات البلغار والصرب، فبدأ بهزيمة البلغار وطردهم من الاجزاء التى كانوا قد احتلوها فى

---

٥٩ : الاب مقاره البطرك ٩٣٣/٩٥٢م

تراقيا؛ كما أبعد قبائل الصرب عن مقدونيا؛ ثم آثر التصالح معهم معترفا بهم كقومية مستقلة؛ وتعزيزا لهذه المعاهدة زفت ابنة شقيقة الى ملك الصرب.

الحملة الصليبية الثالثة وموقف الروم منها:(١١٨٩-١١٩٢م):

أحدث انتصار صلاح الدين على الامارات الصليبية فى حطين فى الرابع من شهر يوليو عام ١١٨٧م، ثم انتزاعه بيت المقدس من ملكها اللاتيني ودخولها فى موكب دينى رائع وافق ليلة الاسراء والمعراج لعام ٥٨٣هـ(الثانى عشر من أكتوبر عام ١١٨٧م) - أحدث دويا هائلا فى الغرب الصليبى، وتعالت الصيحات بوجوب ارسال حملة صليبية ثالثة لاستعادة بيت المقدس؛ وجمعت التبرعات وفرضت ضرائب العشور فى الغرب وسميت باسم «عشور صلاح الدين»، وتم اعداد الحملة التى تزعمها ثلاثة من كبار ملوك أوربا الغربية، وهم: فردريك بارباروسا امبراطور ألمانيا وعدو الدولة الرومية اللدود، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، وريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا. وكان من الطبيعي أن يخطر الملوك الصليبيون اسحق بقدوم الحملة ويطلبون مسبقا تعاونه معها؛ غير أن اسحق كان عازفا عن محاربة صلاح الدين ويتوجس خيفة من نوايا هذه الحملة خاصة أن أحد زعمائها هو الامبراطور الالمانى فردريك بارباروسا، صديقاً وحليفا للنورمانديين. ولم يكن فى مقدور اسحق أن يظهر ما يبطن، فتظاهر بالاستعداد لتسهيل مهمة الحملة الصليبية الثالثة، بينما اتجه سرا الى تحذير صلاح الدين من قدوم هذه الحملة، وعقد معه تحالفا ضدمنافسة سلطان قونية السلجوقى على أساس أن يقوم بوضع كل العراقيل لاعاقة فردريك بارباروسا فى آسيا الصغرى، وفى نفس الوقت يتظاهر أمامه باستعداده لمساعدة الحملة، والتقى مع فردريك بارباروسا الذى أصر على أن تكون حملته عبر آسيا الصغرى لالحاق الضرر والخراب بأغنى أقاليم الامبراطورية؛ كما كانت الانباء قد وصلت الى اسحق حول مفاوضة فردريك بارباروسا مع الصرب والبلغار، وتأليبهم لكى يثوروا على القسطنطينية. ورغم ذلك التقى اسحق مع فردريك عند أدرنه، وتعهد بنقل قوات فردريك بسفنه عبر آسيا الصغرى عن طريق البسفور، وأن يمدهم بالمؤن اللازمة. واخترق فرديك بارباروسا آسيا الصغرى متخذا الطريق البرى، وأحدثت جيوشه بالقرى والمدن والاقاليم المختلفة التى مر بها مالم يلحق بها من قبل على يد الحملات الصليبية السابقة، بل وصلت كراهية فردريك باباروسا الى حد الدعوة لتحويل هذه الحملة الى القسطنطينية بدلا من بيت المقدس خاصة بعد ما افتضح أمر الوفاق الاسلامى الرومي. ولكن شاء الله أن يخلص الروم والمسلمين من شرور هذا الامبراطور الالمانى، اذ سقط فى نهر جارف فى قلقيلية عندما كان يحاول عبوره، وذلك فى العاشر من شهر يوليو(حزيران) عام ١١٩٠م. ومات غريقا. وبذلك فقدت الحملة الصليبية أحدى زعاماتها المؤثرة، وروحها المتحرقة بالتعصب الاعمى، والجشع النهم.

أما القائدان الآخر فيليب أغسطس - ملك فرنسا - وريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا، فقد أبحر كل منهما بقواته من صقلية بعد أن أمضيا شتاء عام ١١٩٠-١١٩١فيها، وفى ربيع عام ١١٩١م (١٢ربيع الاول عام ٥٨٧هـ) وصلت قوات فيليب الى ساحل فلسطين، حيث رست عند ميناء عكا؛ بينما توقف رتشارد فى قبرص قبل ابحاره الى فلسطين ليؤمنها كقاعدة للامداد والتمويل لقواته، وقضى فيها فصل الربيع كله، ولم يغادرها الى فلسطين الا فى الثامن من يونيو عام ١١٩١م حيث وصل الى عكا التى كانت القوات الصليبية تحاصرها منذ عامين؛ وتكاتفت القوات الفرنسية والانجليزية فى ضرب عكا حتى سقطت فى أيديهم فى الثانى

٥٩: الاب مقاره البطرك ٩٣٣/٩٥٢م

شر من شهر يوليو عام ١١٩١م قد ارتكب رتشارد مذابح بربرية ضد الاسرى المسلمين، واستمر واصل مسيرته نحو يافا في طريقه لى بيت المقدس.

أما فيليب أغسطس فقد كان يحقد على فتوحات الملك الانجليزى، وأراد أن يتركه فريسة لصلاح الدين وحده، فانسحب بقواته عائدا الى فرنسا متعللا بتدهور صحته؛ وواصل رتشارد تحقيق انتصارات هزيلة دون مساعدة فعلية من اسحق الانجيلي الذى شغل نفسه بتأديب الصرب والبلغار. ولم يبق رتشارد طويلا اذ تدهورت صحته، ولما علم بثورة أخيه جون (يوحنا) عليه، تملكته رغبة ملحة للعودة إلى انجلترا لانقاذ عرشه؛ ولهذا أرسل الى صلاح الدين يطلب التفاوض؛ وأملى صلاح الدين شروطه لعلمه بارهاق الملك الانجليزى ونضوب امداداته بعد أن غدر به صديقه الفرنسي؛ وعقد صلح الرملة في الثاني والعشرين من شهر شعبان عام ٥٨٨هـ (الثاني من شهر سبتمبر عام ١١٩٢م) والتى نصت على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور الى يافا، بينما تبقى القدس في أيدى المسلمين مقابل السماح للحجاج المسيحيين بزيارة الاماكن المقدسة في حماية الدولة الاسلامية، ودون مطالبتهم بأى ضرائب أو نفقات. ولعل السبب لقبول صلاح الدين التنازل هو تيقنه بأن الوقت في جانبه لكي يحرر ساحل فلسطين، وأن ذلك الصلح كان بمثابة مساعدة الملك الانجليزى على حفظ ماء وجهه بعد فشله في استرداد بيت المقدس، الذى كان الهدف الاساسي من الحملة الصليبية الثالثة. وهكذا كتب لهذه الحملة الفشل، فقد تركت مستقبل ما تبقى من امارات صليبية في الشام وفلسطين تحت رحمة المسلمين، والقى الصليبيون باللوم على اسحق الانجيلي واتهموه بخيانة القضية الصليبية. وفي طريق عودته، توقف رتشارد عند قبرص، وطرد حاكمها الرومي المنشق اسحق كومنين، و ضمها اليه، تاركا فيها حامية عسكرية، ثم عاد الى بلاده.

نهاية اسحق الانجيلي وتولى اخيه الكسيوس:

ورغم نجاحه في انقاذ ما أمكن انقاذه من الامبراطورية في البلقان، وانتصاره على النورمان، غير أن ذلك لم يضع نهاية سعيدة لحياة وحكم اسحق الانجيلي، فقد كان أشد الناس عداوة له هم أقاربه الذين كانوا يعملون على اسقاطه، ويتحرق كل فرد فيهم لوضع التاج على رأس، وارتداء العباءة الامبراطورية؛ بالاضافة الى ذلك فقد كان تجار البندقية وجنوة وبيزا متورطين في هذه المؤامرات الاسرية، كما كان يشجع عليها امبراطور ألمانيا الجديد. وكان هدف التجار الايطاليين الحصول على مزيد من الامتيازات من أجل تحقيق السيطرة الكاملة على تجارة القسطنطينية في الشرق. ولهذا أوعزوا الى شقيق الامبراطور الأصغر وهو الكسيوس أن يطالب بالعرش، وأوغروا صدره ضد أخيه، وأمدوه بالمال والدعم للقيام بانقلاب ضد أخيه، ونجح الكسيوس في عزل أخيه اسحق في انقلاب هادئ تم في عام ١١٩٥م؛ وبعد أن وضع التاج وارتدى قميص الحكم، أقدم على جريمة مجردة من كل المشاعر الانسانية واللخوية، اذ أمر بسمل عيني أخيه المعزول، ونفيه الى أحد الاديرة النائية؛ واستقبل ذلك الانقلاب بارتياح شديد في الغرب اللاتيني، الذى برر أسباب هزيمة الحملة الصليبية الثالثة بخيانة اسحق للدعوة الصليبية، وتآمره مع المسلمين ضد بني دينه.

حكم الكسيوس الثالث الانجيلي (١١٩٥.١٢٠٣):

كان الكسيوس الثالث في الحقيقة شريكا لسياسة أخيه المعزول في الاتصال والتفاهم مع المسلمين، ولهذا لم يحدث أى تغيير في سياسة الامبراطورية الخارجية؛ لكن بالنسبة لسياسته الداخلية فقد ساء الوضع، وعمت الفوضى والاضطرابات سائر أنحاء الامبراطورية، وظلت

٥٩: الاب مقاره البطرك ٩٣٣/٩٥٢م

قائمة حتى نهاية البيت الانجيلي. وساء الوضع أكثر عندما تمكن ابن شقيقه المعزول، والذى كان سجينا مع والده، من الهرب من السجن حيث توجه الى أوروبا الغربية، وراح يتصل بزعمائها وملوكها، يحثهم على ارسال حملة لاسقاط عمه عن العرش. وكان من أشد المتحمسين لقضية الكسيوس بن اسحق، امبراطور ألمانيا وصقلية الجديد هنرى السادس.

موقف هنرى السادس امبراطور ألمانيا وصقلية من القسطنطينية:

بتولي هنرى السادس ابن فردريك باربروسا عرش ألمانيا، تغير النظام السياسي الذى كان قائما فى أوروبا الغربية، فقد ورث هنرى ـ الى جانب عرش ألمانيا ـ عرش صقلية بصفته زوجا لابنه ملك صقلية الراحل وليام النورماني، وبذلك بدأ يتطلع الى تأسيس امبراطورية عالمية، تجمع كل ممتلكات الامبراطورية الرومانية القديمة، وأن تكون امبراطورية مسيحية. وبالطبع لم يكن بابا روما يشعر بالراحة ازاء أطماع هنرى، ولكى يعطى نفسه حقا شرعيا للمطالبة بعرش القسطنطينية فقد زوج هنرى أخاه فيليب السوابى philippus Swabius من «ايرينا» ابنه الامبراطور المخلوع اسحق. والذى لاشك فيه أن وراثته لمملكة صقيلة ذات الموقع والمزايا الاستراتيجية، فتحت شهيته لانشاء امبراطورية فى الشرق والغرب على السواء؛ ولما كان هنرى السادس بطبيعته طموحا؛ فقد أدرك أن تحقيق هدفه لن يتحقق الا بغزوه للقسطنطينية؛ وأن حكم الكسيوس الثالث حكم غير شرعى لأنه مغتصب للعرش؛ وبالطبع كان هذا الادعاء كان كافيا لأن يلقي الرعب فى قلب الامبراطور الكسيوس الثالث؛ فقد كان هذا الموقف شبيها بما كان يفعله الرومان مع ملوك البطالمة المتأخرين من أجل الابتزاز السياسي والاقتصادى لمصر؛ وبالفعل أرسل هنرى السادس رسالة تهديد وابتزاز الى الكسيوس الثالث يطالبه فيها بدفع اتاوة كبيرة سنوية من أجل السكوت عن حقه، واضطر الكسيوس صاغرا أن يشترى سكوت هنرى باتاوة كبيرة، اضطر بسببها لأن يفرض ضريبة جديدة سميت«الاتاوة الالمانية»؛ ومن أجل جمع الاتاوة انتزعت الاشياء الثمينة من المقابر الامبراطورية، والتحف النادرة من القصور؛ لكن ذلك لم يشبع هنرى، اذ بدأ فى عام ١١٩٧م يعد العدة للخروج فى حملة لغزو القسطنطينية؛ وعند الطرف الشمالي الشرقى لصقلية عند مضيق مسينا Mes-sina الذى يفصل بينهما وبين ايطاليا ـ تجمع أسطوله استعداد للابحار نحو الشرق، خاصة أنه وجد تشجيعا من ملوك قبرص لتقديم العون لهذه الحملة؛ وسارع الكسيوس الثالث بارسال الوفود عارضا المزيد من الاتاوات، غير أن الامبراطور الالماني رفض باستعلاء مناقشة الفكرة. وخلال ذلك كان البابا يرقب الموقف باهتمام شديد، فقد كان البابا لايريد أبدأ أن ينجح هنرى فى عزمه؛ وأمره أن يهجر تماما فكرة غزو القسطنطينية وأن يرضى بالحل الذى عرضه عليه الكسيوس؛ كما أمره أن يكفر عن صلافته وغطرسته بالانضمام الى الحملة الصليبية الرابعة التى كان الفرنسيون يعدون لها؛ وفى النهاية وجد هنرى نفسه مضطرا لأن ينصاع لمطالب البابا، ويلغى مشروعه. غير أنه لم يلبث أن أصيب بالحمى ومات فى خريف العام نفسه فى عام ١١٩٧م. وتنفس الروم الصعداء، بعد أن تخصلوا من دفع الاتاوة الالمانية، التى أثقلت كاهلهم، كما شعر البابا بالراحة لذهاب هذا الامبراطور الذى كان ينافسه فى فرض الهيمنة على العالم المسيحى.

الحملة الصليبية الرابعة:

وفى أواخر عام ١١٩٩م نشطت فى الغرب الاوروبى دعوة لارسال حملة صليبية ضد الدولة الايوبية، التى جعلت من القاهرة قلعة المقاومة ضد الحملات الصليبية والوجود الصليبى فى

الشام وذلك لأجبارها على اعادة بيت المقدس الذى كان صلاح الدين قد حرره، وكانت الروح المحركة لهذه الدعوة هو البابا أنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ـ ١٢١٦م)، فبعد جلوسه على كرسى البابوية فى شهر فبراير عام ١١٩٨م قام بارسال الدعاة الى كافة مدن غرب أوروبا؛ وبعث بالرسل الى ملوك وأباطرة الدول الى كافة مدن غرب أوروبا؛ وبعث بالرسل الى ملوك وأباطرة الدول الاوروبية الكبرى الثلاث: ألمانيا، وفرنسا، وانجلترا؛ لكن هؤلاء الملوك كانوا متورطين فى صراعاتهم الداخلية وبين بعضهم البعض، فضلا عن فتور حماسهم للقضية الصليبية لادراكهم عدم جدواها؛ كما بعث البابا بدعوة الى الامير اللاجئ الكسيوس بن اسحق الانجيلى، ونتيجة لذلك استجاب لدعوة البابا كبار الاقطاعيين ودوقات أوروبا، وعلى رأسهم ثيبولت Thi-bault كونت مقاطعة شمبانيا فى فرنسا، وبلدوين Baldwin دوق الفلاندرز، ولويس بلوا وغيرهم ممن فى درجتهم. وفى أثناء التجهيز للحملة مات ثيبولت، فانتقلت قيادة الحملة الى المركيز بونيفاس مركيز مونتفيرات Bon-fiace de Monteferart، وفى اطار التجهيز للحملة، زار المركيز بونيفاس صديقه فيليب دوق سوابيا Swabia وزعيم أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstrauffen الالمانية العريقة، وكان حينذاك قد أصبح امبراطورا على ألمانيا بعد وفاة شقيقة هنرى السادس، كما كان متزوجا من الاميرة ايرينا Irina ابنة اسحق الانجيلى الكبرى ،والتى كانت ذات تأثير قوى على أفكاره؛ كما كان فيليب يأوى فى بلاطه شقيق زوجته الامير الرومى الكسيوس؛ وكان فيليب قد ورث الحقد المزمن على الامبراطورية الرومية. ولما كان فيليب متورطا فى الصراع مع البابا ومنافسة أوتو حول مشكلة الصقليتين ، فقد اعتذر عن الاشتراك فى هذه الحملة؛ غير أنه قدم لها العون وسمح للمتطوعين الألمان أن يشتركوا فيها، وطلب من صديقه بونيفاس أن يكون ممثله فى هذه الحملة، لكى يعيد صهره الكسيوس الى عرش القسطنطينية.

نفوذ انريكو داندولو على الحملة:

فى أثناء ذلك كانت جمهورية البندقية تشهد أعظم أيامها فى عهد الدوج Dodge الشهير انريكو داندولو Enrico Dandolo، الذى كان يعد واحدا من أعظم حكام البندقية بالرغم من أنه كان فى الثمانين من عمره؛ وكان أيضا ضريرا؛ فقد كان داندولو يضع مصالح البندقية فوق كل اعتبار: فوق البابا والكنيسة والدعوة الصليبية؛ اذ كان يدير امارته بعقلية تاجر البندقية الذكى الصبور الذى يزن كل شئ بميزان الربح والخسارة، وبفضل هذه السياسة حقق للبندقية السيطرة التامة على البحر المتوسط، مضيقا الخناق على الجمهوريات الايطالية الأخرى المنافسة للبندقية مثل جنوة وبيزا. فقد أدرك داندولو بحدسه أن الوقت قد حان لضم مدينة القسطنطينية الى امبراطورية البندقية التجارية للسيطرة على تجارتها؛ وكان كل ما يحتاجه هو العثور على عذر أو وسيلة لتحقيق ذلك الهدف؛ فلما علم بأن قادة الحملة قد خططوا للسير الى فلسطين عن طريق الابحار الى السواحل المصرية أولا فى سفن البنادقة الكبيرة المربحة، أدرك أن الفرصة التى كان ينتظرها قد جاءت تسعى اليه.

وبالفعل وصل وفد من زعماء الحملة الى البندقية فى فبراير ١٢٠١م للتفاوض فى أمر السفن التى سوف تنقل الجنود والعتاد الى السواحل المصرية، لكن داندولو لم يكن يريد للحملة أن تتجه الى مصر، لأنه كان صديقا للدولة الايوبية وله فيها مصالح، كما كان على علاقة طيبة بالسلطان العادل، الذى كان يعامل التجار البنادقة المقيمين فى مصر معاملة طيبة على أنهم رعايا دولة؛ فقد كان للبندقية فى ثغر الاسكندرية جالية كبيرة وحى

خاص بهم، به فندقان وكنيستان ومخبز ووكالات تجارية وحمام؛ فقد كان البنادقة يبيعون لمصر الاسلحة والذخيرة وخام الحديد والاخشاب اللازمة لصناعة السفن؛ وكذلك المماليك الذين يأتون بهم من تجاراتهم في أصقاع آسيا، بالرغم من حظر البابا التعامل التجارى مع مصر.

فلقد أدرك داندولو بحكمته وذكائه أنه لايستطيع الاعتراض الصريح على توجه الحملة لمصر، حتى لايتهم من جانب البابا والصليبيين بأنه خائن للقضية الصليبية، ومن ثم لجأ إلى الحيلة والدهاء، اذ أنه طلب أجرا باهظا لنقل الجنود الصليبيين على متن سفنه قيل أنه ثمانون ألف مارك ألماني من الفضة وهو مبلغ كان يعلم أنه ليس في مقدور قادة الحملة دفعه، وكلما طالت المفاوضات، طالت اقامة المتطوعين في البندقية حتى كادت نقودهم تنفذ مما شكل ضغطا على قادة الحملة ليقبلوا مطالب داندولو الذى عرض أن يقوم بنقل الجنود بشرط أن تتجه الحملة أولا الى ميناء زارا zara على ساحل دالماتيا Dalmatia في بحر الادرياتيك لينتزعوا هذا الثغر الهام من ملك المجر؛ ولما كان هذه الملك المجرى مسيحيا تقيا شارك في الحملات الصليبية السابقة، فقد روع البابا أنوسنت الثالث لهذا المطلب ورفض الموافقة عليه؛ غير أنه لم يكن أمام قادة الحملة الا الانصياع لمطلب انريكو داندولو، وهكذا أبحرت الحملة قاصدة ميناء زارا.

وبالطبع لم يكن سكان ثغر زارا ندا للقوات البندقية والصليبية المشتركة، لكنهم رغم ذلك قاتلوا من وراء مليكهم ببسالة، وفضل أغلبهم الموت دفاعا عن مدينتهم وثغرهم على الاستسلام المهين، وضرب البنادقة والصليبيون حصارا حول الميناء بهدف تجويع سكانه حتى الموت أو الاستسلام؛ ولم ينج من كارثة الحصار سوى حفنة قليلة من سكانه؛ وأخيرا سقط الميناء في أيدى البنادقة والصليبيين في نوفمبر عام ١٢٠٢م.

وبعد الاستيلاء على الميناء، انتظر الصليبيون حتى شهر مايو عام ١٢٠٣م وطالبوا داندولو بنقلهم الى السواحل المصرية، فعاود مطالبتهم بالدين، ثم بدأ مندوبوه يغررونهم بذهب القسطنطينية، وجواهر تاج القسطنطينية؛ وفي نفس الوقت كان الامبراطور الالماني فيليب يضغط على ممثلة المركسيز بونيفاس موتفيرات قائد الحملة لكي يعيد صهره الكسيوس الى عرشه، بالاضافة الى ذلك أسرف الكسيوس في وعوده اذا ما أعيد الى العرش؛ فقد وعد البابا أنوسنت الثالث بتوحيد الكنيستين تحت زعامته، ووعد قادة الحملة بتسديد الدين الذى عليهم بحق البنادقة بالاضافة الى المساعدة في تجهيز الحملة الى مقصدها الاصلي وهو سواحل مصر؛ كما وعد البنادقة باطلاق يدهم في تجار جنوة وبيزا، الذين كان الامبراطور المغتصب الكسيوس الثالث قد استمالهم الى صفه على حساب التجار البنادقة. كما كان هناك شعور عام بين الصليبيين بأن دولة الروم دولة خائنة، وأنما السبب في فشل الحملات الصليبية، وأنما تتعامل سرا مع المسلمين. وبذلك استطاع انريكو داندولو أن يستغل كل هذه الظروف ليحول الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها الاساسى لتتجه صوب القسطنطينية بدلا من مصر.

الصليبيون في القسطنطينية:

وفي الرابع والعشرين من شهر مايو عام ١٢٠٣م ظهر الارمادا البندقي قبالة سواحل القسطنطينية، ثم ضرب الحصار البحرى حولها؛ ولما كانت ضاحية جالاتا Galta التي تقع على الساحل الشرقي من القرن الذهبي ملكا في حوزة اللاتين والجالية الاوروبية الغربية في القسطنطينية، فقد استسلمت بسرعة، بل ورحب أهلها بالغزاة؛ بعدها قام الصليبيون الغزاة بتدمير المرفأ العائم الذى كان يحرس مدخل القرن الذهبي، ثم داروا بسفنهم حول الخليج لكى

٥٩: الاب مقاره البطرك ٩٣٣/٩٥٢م

يهاجموا القسطنيطنية من الخلف، بينما هاجمها المشاة الصليبيون - الذين نزلوا عند بحر مرمرة - برا. ولقد تصدى سكان القسطنطينية لذلك الغزو الغادر بشجاعة؛ كما تصدت له قوات الحراسة، خاص حرس الامبراطور الشخصي المسمى باسم «الفارانجيان» ، لكن الامبراطور الكسيوس الثالث المغتصب ولى الادبار، اذ فر من المدينة حاملا معه جواهر التاج الامبراطورى، وأموال الدولة وكنوز القصر. وبالرغم من أن المهاجمين كانوا يفوقون المدافعين عددا وعدة، الا أنه كان فى امكانهم الصمود لوظل القرن الذهبى مغلقا فى وجه سفن العدو؛ ولما تفاقمت الامور، اضطرت القسطنطينية الى التسليم لحفنة من أشقائها المسحيين فى السابع عشر من شهر يوليو عام ١٢٠٣.

وفى بادئ الامر أبدى البنادق تحفظا فى سياستهم، فأخفوا طموحهم الشخصى؛ وأقنعوا الصليبيين بالبقاء بعيدا عن المدينة فى مخيماتهم خارج الاسوار، ثم قاموا باستدعاء الامبراطور المعزول اسحق من منفاه، وأعادوه الى العرش؛ غير أنه كان ضريرا ومسنا، ولذا قاموا بتعيين ابنه الكسيوس امبراطور شريكا لابيه باسم الكسيوس الرابع؛ وأصبح هذا الامبراطور أداة طيعة فى أيدى البنادقة والصليبيين، يحركوه كما يشاءون.

بعد ذلك طالب البنادقة والصليبييون الكسيوس الرابع بتنفيذ وعودة التى كان قد قطعها على نفسه؛ غير أنه لم يكن مقدوره أن يفعل شيئا، فقد وجد الخزانة خاوية، والقصر منهوبا، كما أن محاولته تحقيق وحدة الكنيستين أثارت عاصفة من الاحتجاج من جانب سكان القسطنطينية، معلنين تمسكهم بكنيستهم الأغريقية العريقة ومذهبهم الأرثوذوكسى القويم. كما أن غزو عاصمتهم عنوة أذلهم وجرح كبرياءهم؛ فضلا عن النهب الذى تعرضت له القرى المحيطة بأسوار القسطنطينية من قبل الصليبيين؛ كل ذلك جعلهم يتحفزون للثورة للفتك بالأباطرة الدمى، وسادتهم اللاتين الكاثوليك.

ثورة القسطنطينية وتعيين الكسيوس دوقاس امبراطورا:

وفى أعياد الميلاد فى يناير عام ١٢٠٤ طبقا للتقويم الكنسى الشرقي هب سكان القسطنطينية عن بكرة أبيهم فى واحدة من أعنف الثورات التى شهدتها هذه العاصمة، وزحفت الجماهير على القصر الامبراطورى، حيث القوا القبض على الامبراطور الكسيوس الرابع وقتلوه، وعزلوا أباه والقوه فى السجن حيث مات بعد ذلك بقليل، ثم حملوا إلى العرش زوج ابنة الكسيوس الثالث. وكان يسمى الكسيوس دوقاس الخامس، وكان ينتمى الى الحزب المعادى للأفرنج والبنادقة؛ فأعلن أنه لن يعترف بأى تعهدات أو التزامات قطعها الكسيوس الرابع على نفسه لأسياده الصليبيين؛ وأنه سوف يتبع سياسة حازمة وصارمة ازاء البنادقة والغزاة اللاتين. وقبل أن يستتب الأمر لألكسيوس دوقاس وينفذ وعوده، هزم البنادقة والصليبيون على أخذ المبادرة فعقدا اجتماعاً فى ربيع عام ١٢٠٤، قرروا فيه الهجوم على القسطنطينية والاستيلاء عليها بالقوة، ونهبها وتقسيما بينهم بشر ط ألا يتعرضوا للكنائس والرهبان والنساء.

وفى أعياد الفصح لعام ١٢٠٤، اقتحم الصليبيون والبنادقة العاصمة، وكان سكانها مستعدين ومتلهفين للدفاع عنها؛ ولما كان الامبراطور الجديد الكسيوس دوقاس الخامس يعرف أن الموقف ميئوس منه، فقد حاول أن يتفاهم مع اللاتين بشأن السلام والجلاء، لكن المواطفين لم يعطوه الفرصة، اذ اندفعوا بأ سلحتهم الى أسوار المدينة، ودارت معركة ثانية مع الصليبيين، وبالرغم من أن المدافعين كانوا أقل بكثير من المهاجمين عددا وعدة، ألا أنهم صمدوا حتى الثالث عشر من أبريل عام ١٢٠٤م.

سقوط القسطنطينية في أيدي اللاتين:

ولقد كان عيد الفصح لعام ١٢٠٤ عيدا حزينا في القسطنطينية، ففي الثالث عشر من شهر ابريل اقتحم الصليبيون اللاتين القسطنطينية عنوة، وهرب الامبراطور الكسيوس دوقاس الخامس، ومعه بطريرك العاصمة ونخبة من الزعامات والقيادات، ولجأوا الى البلقان وآسيا الصغرى، عازمين على أن يستأنفوا المقاومة، وحرب التحرير من هناك.

وتصف حوليات العالم الأرثوذكسي استيلاء اللاتين على القسطنطينية في ذلك اليوم الأسود بأنها« كارثة لايمكن نسيانها»؛ ولم يكن ذلك كارثة على الحضارة الشرقية الأغريقية فحسب، بل أيضا على الحضارة الانسانية جمعاء؛ فقد كانت القسطنطينية في ذلك الوقت مدينة المدائن، وأجمل حواضر العصر، فقد فاقت في جمالها حتى روما العاصمة العريقة، وتربعت على عرش المسيحية الأرثوذوكسية بلامنازع. كما كانت كنز الفنون والتراث الخالد، ففيها تراكمت عبر القرون روائع الفنون والمخطوطات والكتب، ولقد ظلت هذه الكنوز القيمة بعيدة عن العبث لما يقرب من ألف عام، اذ لم ينالها أذى على يد أحد من الجيوش المتعددة، التي كانت تحاصر المدينة من آن الآخر.

لكن في هذه المرة أطلق اللاتين لجنودهم العنان ليعيثوا فيها سلباً ونهباً وتخريباً وهتكاً للأعراض وسلباً للأموال والممتلكات، حتى أن كنيسة أيا صوفيا لم سلم من عبث الجنود. ولأيام ثلاثة ابيحت المدينة الجميلة للعبث البربري اللاتيني. ويتحدث شهود العيان عن بشاعة هذا التخريب، و النهب والتدمير، فنهبت كنوزها وآثارها، ودمرت مرافقها وملاعبها، وهتكت أعراض الراهبات، ودخلت الجنود الصليبية وهم سكارى كنسية أيا صوفيا، ونهبوا محتوياتها ونفائسها ومخطوطات، بل وصل بهم الاستهتار أن أجلسوا عاهرة على كرسي البطريرك، وجعلوها ترقص وتغنى أغان خليعة أمام المذبح، والجنود تترنح من فرط الشراب، وتركل بأقدامها الأناجيل اليونانية، وتعبئ الخمر في أواني الشعائر. حتى أن أحد شهود العيان قال متأثرا«ان المسلمين ــ اذا ماقورنوا بهؤلاء الذين يحملون شارة صليب المسيح على أكتافهم ـ يبدو أكثر رحمة وعطفا». هكذا ظل التخريب والعبث طوال السبعين ساعة التي تلت الفتح، وكشف القناع عن حقيقة هؤلاء الجنود البرابرة القساة، الذين جاءوا تحت ستار الدفاع عن المسيحية، فاذا بهم ينتهكون حرمات الكنائس والكاتدرائيات، ويعبثون بمقدساتها، ويضرمون النيران في مسرافق المدينة، ويسرقون ويحطمون روائع الفنون التي لاتقدر بثمن، وكذلك الكتب التي لايمكن استعاضتها.

أما بالنسبة لقادة الحملة، فقد شحنوا الى أوطانهم التحف والكنوز والآثار الكبرى، فقد قدرت قيمة لكنوز المنهوبة بما يعادل٨٠,٠٠٠ (ثمانمائة ألف) دينار ذهبي، بالاضافة الى آيات الفن النادرة، التي كان قسطنطين الكبير قد نقلها الى القسطنطينية من مدينة روما، و غيرها من حواضر العالم، فقد خلع البنادقة مجموعة الجياد البرونزية المعروفة باسم مجموعة لسبوس، التي كانت تزيد ميدان مضمار سباق الخيول والعربات، وحملوها الى البندقية ونصبوها في مواجهة كادرائيتهم الشهيرة، القديس موقس. ولاتزال حتى اليوم باقية هناك. وذكر أحد شهود العيان وهو المؤرخ والشاعر الرومي نيكيتاس الخونياتي Niketas Choniates أن من بين الاعمال التي نهبا زعماء الحملة التمثال الشهير كان مصنوعا من البرونز، وكان شعارا المدينة روما الوثنية، ويمثلها في هيئة ذئبة كبيرة ترضع الطفلين ريموس وروموسولوس مؤسسا مدينة روما كما ورد في الاساطير الرومانية، وكذلك تمثال باريس الطروادي الذي يمسك بالتفاحة الذهبية عندما احتكمت

اليه ربات الاغريق الشهيرات آثينا وهيرا وأفروديت ليحكم بينهن أيهن أحق بها كأجمل ربة كما ورد في أساطير الحرب الطروادية؛ بالاضافة الى عدد من التماثيل الكبرى، التى كان الامبراطور أوكتافيوس أغسطس قد نصبها في روما بعد انتصار ه على الملكة المصرية كليوباترا السابعة في معركة أكتيوم، كما صهر الغزاة عددا من التماثيل، والتحف الذهبية والفضية، ليحولوها الى عملات من فضة وذهب، ليدفعوا منها رواتب الجنود، وليجهزوا لحملاتهم الصليبية المزعومة. حتى قبور أباطرة الروم لم تسلم من النبش والسرقة على يد الجنود. ولهذا فان بعض مؤرخي عصور الروم يعتبرون نهاية امبر اطور يتهم الفعلية عند عام ١٢٠٤م، لانه لم يعد لها من ناحية الواقع وجو د سياسي وحضار ى ملموس كما عر فت في عصورها السابقة فقد هجمت المؤثرات الاوربية اللاتينية والفر نجية على تراث الروم الاغريقي فأفسدته. كما قوضت ركائزه الأساسية؛ وقصمت ظهر الامبراطور ية الشرقية حامية العقيدة الارثوذوكسية وبدأت بعض ولاياتها تنفض عنها خوفا من اللاتين. وأصبح احتمال الغزو العثماني لها ممكنا بعد الدمار الذى لحق بها من جراء الغزوة اللاتينية الصليبية.

تقسيم الامبراطورية بين قادة الحملة:

وبعد الاستيلاء على القسطنطينية، شرع الحلفاء اللاتين والبنادقة في تقسيم الغنائم والاسلاب طبقا لاتفاق مسبق بينهم؛ ولقد لعب انريكو داندلو دوراً بارزا في عمليت التقسيم، فقد بذل جهده في تقليص مكاسب بونيفاس قائد الحملة، لأنه كان لايثق فيه، ولذلك اقترح بأن ينتخب ستة من اللاتين ومثلهم من البنادقة لاختيار امبراطور لاتيني للقسطنطينية، وتم الاقترا ع وفاز مرشح داندولوا وهو بلدوين كسونت فلاندر ز وهينولت Baldwin Count of Flanders and Hainault، كما تم اختيار قس من البندقية اسمه توماس مار سيني -Thomas Marsini ليكون أو ل بطريرك كاثو ليكي على القسطنطينية. وفي السادس والعشر ين من شهر مايو عام ١٢٠٤ توج بلدوين امبراطورا في كنيسة أ يا صوفيا بالقسطنطينية، وقاد القداس ومراسيم التتويج ـ الذى تم باللغة اللاتينية ـ البطريرك البندقي الجديد مارسيني، ولقد كان أول قداس يتم طبقا للمذهب الكاثوليكي وباللغة اللاتينية مما سبب جرحا لكبرياء شعب القسطنطينية الذى يتحدث الاغريقية ويدين بالارثوذكسية.

بعد ذلك شرع الحلفاء المنتصرون في تقسيم أجزاء الامبراطورية تقسيما مساحيا كما اتفق عليه من قبل، فقد منح الامبراطور بلدوين نصف المساحة التى احتفظت بها البندقية لنفسها، ومساوية للمساحة الباقية التي قسمت الى اقطاعيات وامار ات ووزعت على مختلف فرسان الحملة من اللاتين ؛ فقد منح بلدوين خمسة أثمان مدينة القسطنطينية وجنوب اقليم تراقيا، وجزءا صغيرا من شمال غرب آسيا الصغرى مجاورا للبوسفور وبحر مرمرة، كما منح ملكية عدد من الجزر الهامة في بحر ايجة مثل لسبوس، وخيوس، وسافوس؛ لكن من الناحية الفعلية لم يكن بلدوين يتحكم الا في الجزء الخاص من القسطنطينية، لأن الباقي كان يملكه اسميا بحق تبعية الامراء له، الذين حكموا هذه المناطق بصفته صاحب الاقطاع الأول.

أما بونيفاس فقدكون لنفسه مملكة سالونيك اللاتينية من مدينة سالونيك وبعض الاجزاء المجاورة والمحيطة بها من مقدونيا وتساليا وتراقيا، وبالمثل حكم بونيفاس هذه المملكة بصفته تابعا اقطاعيا للملك بلدوين. أما قليم البيلوبونيسوس(المورة) فقد أعطى للفارسين الفرنسيين وليام دى شامبليت -William de Cham

وجيفري دى فلها ردوين plette ، Jeffery de VIlehardouin وعمل هذان الفارسان على نشر الثقافة الفرنسية خاصة في اقليم آخيا جنوب المورة حتى أصبحت تعرف بأسم فرنسا أخرى autre France وكان الفرسان عموما أكثر ثراء وقوة من الزعماء الكبار وخاصة الامبراطور اللاتيني.

وعلى الناحية الاخرى، فقد حصل البنادقة على نصيب الاسد، بصفتهم أصحاب المصلحة في تحريك الحملة البندقية، فقد حصلوا على ثلاثة أثمان مدينة القسطنطينية، وكان يدخل في نصيبهم الحي الذى به كاتدرائية أيا صوفيا، وبذلك أصبح أمر كنيسة القسطنطينية في أيدى البنادقة، كما حرص البنادقة على أن تكون المناطق التى تحقق الامن لمصالحهم التجارية في أيديهم، فقد حصلوا على ميناء «دورازو» على بحر الادرياتيك، وعلى جزر البحر الايونى الهامة، وكذلك على بعض جزر بحر إيجه، وكذلك حصلوا على موانيء بحرمررة والدردنيل، وعلى مدينة أدرنة وحصلوا على جزيرة كريت، وبذلك كان نصيبهم أغنى من نصيب الامبراطور اللاتيني. فقد شرع البنادقة في اقامة مستوطنات لهم على طول السواحل الهامة، وبذلك حققت البندقية لنفسها امتيازات جعلتها تسيطر على التجارة الشرقية.

هكذا تحولت امبراطورية الروم بعد الغزو اللاتيني الى لوحه من الشطرنج فقد قسم الامبراطور اللاتيني ممتلكاته الى عدد كبير من الاقطاعات، التي منحها للامراء والفرسان، بشرط أن يقسموا يمين الولاء له بصفته صاحب الاقطاع الرئيسي، وذلك طبقا لنظام الاقطاع الذى كان في قمة اكتماله في أوروبا في ذلك الوقت. أما البنادقة فقد اعتبروا أنفسهم شركاء للامبراطور وليسوا توابع له، ولهذا لم يقسموا له يمين الولاء.

امبراطورية الروم في المنفى:

ولقد كره الروم سادتهم اللاتين الجدد، لانهم جاءوا كغزاة، لأنهم كانوا متعالين متغطرسين، ولانهم كانوا أتباع الكنيسة الكاثوليكية والبابا في روما، كما أن عاداتهم وسلوكهم كان مختلفا، ويفرضون تطبيق نظما غريبة على الشرق الاغريقي العريق؛ وبذلك سببوا بين شعوب الروم قلقا، وحنينا لحمل السلاح من أجل الكفاح، وتحرير أوطانهم وعاصمتهم بعد قرون من الهدوء والدعة.

ولقد هاجر امراء البيت الحاكم، وأعضاء البيوتات العريقة من القسطنطينية بعد سقوطها، حاملين أموالهم، وممتلكاتهم، ومعهم أتباعهم بهدف قيادة الكفاح المسلح ضد اللاتين من مناطق مختلفة من أجزاء الامبراطورية، تنافست فيما بينها على تحرير القسطنطينية. وهذه الدويلات هي:

١. مملكة طرابيزون Tribesond:

قامت هذه المملكة في جنوب شرق البحر الاسود. وكانت عاصمتها طرابيزون المدينة العريقة التى كان الاغريق قد أسسوها عام ٧٥٦ق.م أثناء حركة الانتشار والاستيطان، وكانت تعرف في الاصل باسم طرابيزوس Trapezos. وكانت مدينة ذات مركز تجارى واستراتيجى هام، مما جلب الربح الوفير لسكانها، وبالرغم من أن قبائل الاتراك كانت تسيطر على السهل الواقع جنوب الساحل الجنوبى للبحر الاسود، الا أن هذه المملكة الصغيرة كانت كثيرة النماء، ومما ساعد على ذلك بعدها عن مواقع اللاتين مما جعلها في مأمن منهم وبعيدة عن توسعاتهم وأطماعهم.

وفي الحقيقة يعود تأسيس هذه المملكة الى قبيل سقوط القسطنطينية بقليل؛ فقد أسسها

حفيدا الامبراطور الرومي أندرونيكوس الاول وهما الكسيوس ودافيد كومنيوس؛ اللذان كان لهما صلة قرابة بأسرة جابراس Gabras الحاكمة في منطقة جورجيا، فقد كانت خالتهما هي «تمارة» Tha-marملكة جورجيا. وكان الكسيوس ودافيد طفلين صغيرين عندما توفي والدهما عمانوئيل كومنين عام ١١٨٠م، وبعد عزل جدهما لامهما الامبراطور أندرونيكوس وموته عام ١١٨٥م أصبحا الورثين الشرعيين لعرش القسطنطينية ومنافسين للأمبراطور اسحق الانجيلي، ولما شرع اسحق في القضاء على منافسيه في الحكم من أسرة كومنين، هربا الى Tiflis تفليس عاصمة جورجيا (تبليسي الحالية) ليقيما في بلاط خالتهما الملكة «تمار» ابنه الامبراطور أندرونيكوس. ولقد انتهزت الخالة تمار فرصة الاستيلاء الاول للصليبيين على القسطنطينية في ١٨ يوليو ١٢٠٣، وأعدت جيشا من قوات جورجيا، لتنصيب الاميرين حاكمين على طرابيزون كوريثين لعرش الامبراطورية في المنفى، ولقد تم ذلك في ابريل عام ١٢٠٤م بعد الاستيلاء الاول للصليبيين على القسطنطينية قبل اندلاع الثورة التي استولى الصليبيون خلالها على زمام الحكم في العاصمة؛ ولذلك تذكر المصادر أن مؤسس امارة طرابيزون هما الكسيوس ودافيد حفيد أندرونيكوس ولدا عمانوئيل كومنين. وسرعان ما توالى قدوم كثير من زعماء الروم الساخطين ميممين وجوههم شطر طرابيزون، وزاد عدد اللاجئين اليها بعد سقوط القسطنطينية نهائيا في أيدى قادة الحملة الصليبية الرابعة. ثم قام دافيد بتوسيع الامارة بسلسلة من الفتوحات غربا على طول ساحل البحر الاسود بمساعدة جنود مرتزقة من جورجيا، فاستولى على بونطس pon-tosوسينوب sinope وهراقليا Hieracliaوكلها مدن عريقة تقع على ساحل البحر الاسود.

وبالرغم من أن حكام هذه المملكة كانوا من أسرة كومنين العريقة، وبالرغم من أن هذه المملكة كانت غنية، ودام حكم أسرة كومنين فيهاحتى القرن الخامس عشر الميلادى، الا أن ملوك هذه المملكة لم يستطيعوا تحرير القسطنطينية، وذلك لبعده هذه المملكة عن القسطنطينية فضلا عن وجود الخطر التركى الذى كان يحيق بها، وأنتهى أمرها بسقوطها في أيدى العثمانيين عام ١٤٦١م(٢).

دوقية ابيروس:

وكان من بين الامراء الهاربين من القسطنطينية بعد سقوطها ميخائيل الانجيلي، أحد أعضاء أسرة أنجيلوس، الذى اتجه الى اقليم نائى في شمال غرب بلاد اليونان، هو اقليم ابيروس الجبلى الوعر، وأسس فيه دوقية امتدت من شمال ميناء دورازو، الذى كان في أيدى البنادقة، الى خليج كورنثا جنوبا، وتساليا شرقا، واتخذ من مدينة ارتا Artaعاصمة لهذه الدوقية بعد الاستيلاء عليها، وارغم الامبراطور اللاجئ الذى طرده الصليبيون وهو الكسيوس الثالث الانجيلى، أن يبايعه وريثا لعرش القسطنطينية ليضفي على نفسه صفة الشرعية. ولما كانت هذه الدوقية مجاورة لمملكة البلغار المعادية ودوقيات الصليبيين اللاتين في اقليم البيلوبونيسوس، وعلى مقربة من ممتلكات البنادقة، فقد سلك ميخائيل سياسة كلها دهاء وشجاعة، اذ خلق نوعا من الوفاق مع البلغار واللاتين والبنادقة، مما ضمن البقاء لدوقيته. ولهذا جعل ميخائيل رسالة دوقيته، هى الحفاظ على تراث الروم الحضارى وحمايته من الضياع في بحر التأثير البلغارى الفرنجي واللاتينى في الاقاليم الغربية من بلاد اليونان ـ ولم يفكر في اعداد جيوش لتحرير ولايات الامبراطورية من اللاتين، وطردهم من القسطنطينية؛ ومن ثم اعتبر نفسه حاكما مستقلا؛ كما جعل له كنيسة مستقلة عن سائر الكنائس الاخرى؛ ولذلك أبقى على النظم الادارية؛ التي

كانت سائدة في ابيروس عندما كانت اقليما تابعا لامبراطورية القسطنطينية قبل سقوطها.

مملكة نيقية:

أما المملكة التي أخذت على عاتقها الدفاع عن شرف امبراطورية الروم بعد أن مرغه الصليبيون اللاتين في الوحل، فهي مملكة نيقية في آسيا الصغرى، التي قامت عام ١٢٠٦ وكان على رأسها الامبراطور المخلوع الكسيوس الثالث، فقد بنت وجودها على حركة قومية، تدعو لتحرير العاصمة والاقاليم، وطرد الصليبيين، والتمكين لنفسها في الاقاليم الاسيوية الرومية؛ ولقد ساعدها على ذلك أنها كانت على مقربة من الامبراطورية الاتينية في القسطنطينية، بعكس الحال الذى كانت عليه طرابيزون النائية؛ كما كانت ذات موارد اقتصادية غنية، بعكس الوضع الذى كانت فيه دوقية ايبيروس الفقيرة. بالاضافة الى ذلك فقد تميزت مملكة نيقية بكثافة سكانية عالية، كما كان بها أعرق المدن والحواضر الاغريقية التي تثير الحنين القومي والحضاري مثل سمرنة smyrna (أزميسر)، وافيسوس (افسة) Ephesos، ونيقوميديا Nikomedia وبرجامون pergamon؛ ويكفي أن عاصمتها كانت نيقية، تلك المدينة الجميلة التي تقع على الجانب الآخر من مضيق البسفور في مواجهة القسطنطينية ـ فقد كانت نيقية مدينة عزيزة عند المسيحيين؛ ففيها انعقد أول مجمع ديني مسكوني لتوحيد الكنيسة. كما كانت مدينة محصنة بأسوار قوية وعالية.

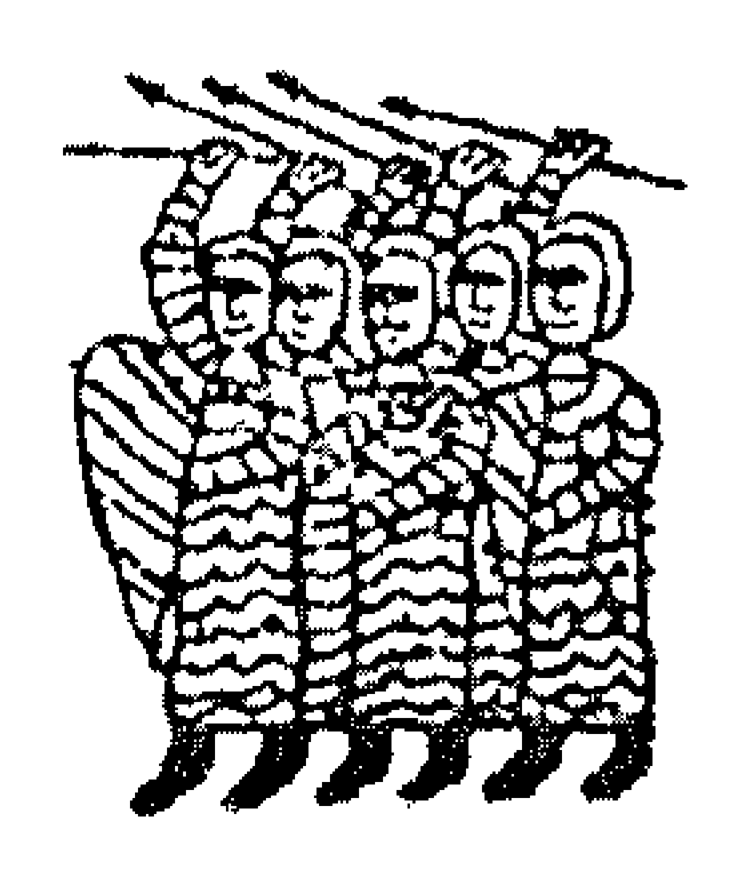
كان المؤسس الفعلي لامبراطورية نيقية أحد أفراد الارستقراطيين العسكريين الروم الذين هربوا بعد سقوط القسطنطينية، وكان اسمه تيودور لاسكاريس Theodoros Lask-aris الذى عرف في المصادر العربية بالاشكرى وكان في الثلاثين من عمره عندما لجأ الى نيقية؛ وكان شقيقا لزوجة امبراطورية الروم المخلوع الكسيوس الثالث، بل كان من أبرز قواد الامبراطورية العسكريين، وخاض عددا من المعارك ضد الصليبيين؛ ولما أدرك امبراطور القسطنطينية اللاتيني خطورة ما يفعله لاسكاريس حاول غزو آسيا الصغرى، وكاد أن يقضي على نيقية لولا أن ظهر في الافق كالوجان ملك البغار، الذى فتك بالصليبيين في معركة أدرنة في الخامس عشر من أبريل عام ١٢٠٥، والتي قتل فيها بالدوين امبراطور القسطنطينية اللاتيني؛ وبذلك أنقذت الظروف تيودور لاسكاريس، وأنقذت معه مشروعه لتحرير الامبراطورية.

عاد لاسكاريس ينظم قواته، ويقيم دعائم مملكته وهو يحمل لقب سلطان نيقية Despotes tes Nikaias، وظل يحمل ذلك اللقب أربع سنوات منذ مجيئه؛ وكان من بين مشروعاته اعادة الكنيسة الارثوذكيسة الرومية، ولذا دعا البطريرك السابق حنا كوماتيروس Komateros إلى أن يأتي إلى نيقية؛ ويترك بلغاريا التي كان قد لجأ اليها، غير أن كوماتيروس رفض الدعوة؛ فأشرف على انتخاب بطريرك آخر، اسمه ميخائيل أوتوريانوس في يناير عام ١٢٠٨، وفي نفس العام تنازل لاسكاريس عن لقب السلطان despotesواستبدله بلقب الملك Basileus، وقام البطريرك الجديد بتنويجه امبراطورا ووريثا لعرش القسطنطينية، وبذلك أصبحت نيقية مقرا لعرش الامبراطور الذى بناه في نيقية، وهو مقر قيادة امبراطورية الروم في المنفى. وأصبحت أسرة لاسكاريس هي أمل جميع شعوبها في العودة. وأصبح كل من يتولى عرش امبراطورية نيقية يحمل لقب لاسكاريس، الذى ترجمه العرب الى الاسكرى أو الاشكرى، وظل لقب الاشكرى يطلق على كل من جلس على عرش القسطنطينية فيما بعد، حتى الفتح العثماني تماما كما كان لقب بطليموس يحمله كل من

خلف بطليموس الاول على عرش مصر، حتى الفتح الروماني.

وبعد مقتل الامبراطور اللاتيني بلدوين، انتخب الصليبيون شقيقه هنري، الذى شغله خطر البلغار عن غزو نيقية؛ ؛كما واجه ثيودور لاسكاريس خطر السلاجقة، الذين كانوا يرفضون قيام أى دولة تنافسهم فى آسيا الصغرى. وتحول دون تقدمهم غربا تجاه ساحل بحر أيجة؛ ولذلك توترت العلاقات بين سلاجقة الروم فى قونية، وامبراطورية الاشاكرة فى نيقية، خاصة بعد لجؤ الكسيوس الثالث انجيلوس والد الاميرة آنا Anna، زوجة تيودور الاشكرى الى بلاط سلطان قونية السلجوقي، طالبا مساعدته فى استرداد العرش من زوج ابنته؛ وبالفعل غزا السلطان غياث الدين خسرو بعض أقاليم نيقية فى عام ١٢١١م من أجل اعادة الكسيوى، غير أن تيودور الاشكرى لاقى السلطان السلجوقى عند نهر مايندر Maender وهزمه، وألقى القبض على أنجيلوس الكسيوس الثالث(١)، ونفاه الى أحد الاديرة التى بقي فيها حتى موته؛ ولقد رفع هذا الانتصار من شأن تيودور الاشكرى بين شعوب آسيا الصغرى الرومية وزاد من أملهم في تحرير القسطنطينية، كما أمن هذا الانتصار حدود نيقية الشر قية، وجعلها فى نظر الروم جديرة بأن تكون الوريث الشرعى لعرش القسطنطينية.

ورغم ابتهاج هنرى - امبراطور القسطنطينية اللاتينى - لانتصار تيودور، الا أن تيودور تقدم لتحر ير القسطنطينية وسط حماس اتباعه؛ وهرع الفرسان والدوقات اللاتين لنجدة سيدهم الامبراطور هنرى بحق التبعية الاقطاعيسة له، وتمكن هنرى وفرسانه من اختراق آسيا الصغرى فى عام ١٢١٢ ـ ١٢١٣، لكن أحد لم يحقق نصرا حاسما على الآخر، فعقدت هدنة بين هنرى وتيودور الاشكرى، تم فيها رسم الحدود بين الدولتين فى آسيا الصغرى؛ وقبل تيودور أن يظل الجزء الشمالى من آسيا الصغرى تابعا للملكة اللاتينية فى القسطنطينية مؤقتا. وفى عام ١٢١٦ مات هنرى وبذلك تخلصت نيقية من أخطر وألد أعدائها؛ وبموت هنرى بدأت شمس المملكة اللاتينية فى القسطنطينية فى المغيب؛ وبدأ باباوات روما يعترفون بوجود امبراطورية الاشاكرة، اذ بدأوا يتصلون بها لاجراء مباحثات من أجل توحيد الكنيستين. وأخيرا مات تيودور الاشكرى فى عام ١٢٢٢ بعد أن وضع الاساس الثابت لعرش امبراطورية الروم فى المنفى.



لانه لم يكن احد من البطاركة مقيم باسكندرية بعد انبا خايال البطرك الذى اباع رباع الكنايس.
وعند انحداره عول على العبور على والدته ليسلم عليها ويسرها بما صار اليه من الموهبة العالية، وكانت قد كبرت جدا، فلما وصل إلى الضيعة ومعه شعب كبير من الاساقفة وغيرهم ليودعوه، قيل لوالدته وهي جالسة تغزل في منزلها، هوذا ابنك مقاره قد صار بطركا ووصل الى ها هنا لكى يفتقدك، فلم تجاوب الذى قال لها ذلك بكلمة

وفي الوقت الذى كان ابن طولون يمكن لنفسه في مصر حدث أن الخليفة المهتدى (٢٥٥ـ ٢٥٦هـ) أمر بضرب عنق باكباك.

وشاء الحظ أن يكون صاحب اقطاع مصر الجديدة هو القائد يارجوخ الذى كان أحمد بن طولون زوجا لابنته. فكتب اليه يارجوخ:تسلم من نفسك لنفسك وزاده الأعمال الخارجة عن قصبة مصر، وكتب الى اسحق بن دينار وكان يحكم الاسكندرية أن يسلمها لأحمد ابن طولون. وكان ذلك في سنة ٢٥٧ هـ = ٨٧١م وهكذا قدر لأحمد ابن طولون أن يستفيد من باكباك ومن يارجوخ في سنتين متقاربه وأن يمكن لسلطانه في مصر. وكانت سنة ٢٥٧هـ سنة حاسمه في حياة ابن طولون فقد أطلقت يد ابن طولون رسميا في شئون البلاد من قبل يارجوخ. وليس من شك في أن ذلك تم بعلم الخليفة المعتمد ورضاه (٢٥٦ـ ٢٧٩هـ/ ٨٧٠ـ٨٩٢م) أذ وافق على أن تلحق أسرة ابن طولون به في مصر. ودان حكام الكور والأقاليم في مصر لأحمد بن طولون بالطاعة والولاء، وأصبح اسحق ابن دينار عاملا على الاسكندرية من قبله في سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م)، كما خضع له أحمد بن عيسى الصعيدى صاحب برقة. أما شقير الخادم فذكر أن أحمد بن طولون استطاع أن يتخلص منه بعد زوال سلطان أم الخليفة المعتز، وقيل في رواية أخرى ذكرها اليعقوبي في تاريخه، أن الخليفة المعتمد عزل شقيرا من منصه في مصر.

أما ابن المدبر فقد ضاعف ابن طولون جهده للتخلص منه واستطاع أن يحصل من الخليفة


منارة جامع ابن طولون

واحدة، ولا تحركت من موضعها، ولا خرجت للقايه، بل كانت تلك العجوز العارفة جالسة فى شغلها تبكى بكا عظيما. فلما دخل من باب منزلها لم تقم للقايه، بل بقيت جالسة تبكى. وكان مسروراً بما اعطى من الموهبة، فلما راها على هذه القضية احتشم جدا من الذين كانو معه، لانها اهانته قدامهم، اذ لم تتلقاه وتفرح به، بل كانت باكية وهو قايم، فقال لها: يا كبيرة لعلك لم تعرفينى انا ولدك مقاره قد اعطانى الرب هذا المجد

المهتدى على الموافقة على عزل ابن المدبر من مصر. وعين أحمد بن طولون عامل خراج خاضعا له هو محمد بن هلال سنة ٢٥٦هـ. لكن هذا العامل لم يمكث طويلا لأن قتل الخليفة المهتدى وتولية المعتمد، جعلت ابن المدبر ينجح فى العودة الى خراج مصر، ولكنه لم يستعد سلطانه الأول وذلك بفضل نشاط ابن طولون وقوة شكيمته. ونجح ابن طولون فى ابعاد ابن المدبر مرة ثانية وقلده المعتمد خراج فلسطين ودمشق والأردن فى سنة ٢٥٧هـ.

وفى سنة ٢٥٩هـ مات يارجوخ صاحب اقطاع مصر. ولا يتفق المؤرخون فى تعيين الشخص الذى أقطع مصر من بعده، ولكن يظهر لنا أن الفوضى فى سامراء شجعت أحمد بن طولون على أن يمضى قدما فى بسط سلطانه على مصر كلها وأن يصبح أميرا على مصر وليس مجرد نائب صاحب اقطاع يقيم فى عاصمة الخلافة. وأصبح نفوذ ابن طولون لا يعتمد على باكباك أو يارجوخ أو غيره، وانما أصبح يعتمد على قوته الشخصية ووفرة ماله وجنده وعسكره.

٣. مصر دولة مستقلة

(أ) سياسة أحمد بن طولون الاقتصادية

حين قدم أحمد بن طولون الى مصر لأول مرة سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨م)، كان سلطانه لا يتجاوز منطقة الفسطاط. لكن قدر للأمور أن تجرى كما يتمنى ابن طولون ويشتهى، وما هى الا

العظيم فما تفرحي انتي الان معي وانا في هذا اللباس الذى هو لباس ومجد الملوك. فاجابته بفهم وقالت له: اما انا فعارفة بك يا ولدى، واما انت فما تعرف ما صرت اليه، وانت مسرور بما نلته وانا حزينة عليك، فليت لو اتونى بك محمولا على نعش ميتا ولا تدخل على بهذا المجد الفارغ، لا تنظر يا ولدى الى ما نلته وتفرح بل ابكي واحزن لان هذا الشعب كله الذى يمجدك انت مطلوب بخطاياهم. فلم يفهم ما قالته له بالجملة من

خمس سنوات حتى استطاع ابن طولون أن يكون أميرا على مصر كلها وأن يضم لنفسه ادارة الخراج في البلاد. وكانت الدولة الطولونية تمثل الانتقال من عصر التبعية الى عصر الاستقلال، من عصر الوالي الذى يمثل سياسة الخلفاء ويأتمر بأمرهم، الى عصر الحاكم القوى الواسع السلطان الذى يسنده الشعب ويسنده الجيش والأسطول، والذى يعمل بما فيه الخير والمصلحة للبلد وأبنائه.

وكان أول ما اتجه اليه أحمد بن طولون العناية بالنواحي الاقتصادية حتي يتم استقلال مصر سياسيا واقتصاديا، وحتى يمكنها المحافظة على هذا الاستقلال، وحتي يعيش أبناء مصر فى رخاء. كان لابد لمشروعات أحمد بن طولون المختلفة من الأموال الوفيرة. وطبيعي كان على مصر وحدها أن تدبر هذه الأموال الطائلة. ولكي ندرك الدور الكبير الذى كان ينتظر أحمد بن طولون في الناحية المالية يجب أن نعرف أن دخل البلاد قبل الدولة الطولونية كان يذهب الى بيت مال الخلافة أو جيوب الولاة أو أعمال الخراج بدون أن تفيد مصر نفسها شيئا كثيرا. ولما كانت البلاد فى عصر الولاة لا تحكمها أسرة تحرص على ازدهارها، وكان غرض الخلافة الأساسى هو جباية أكبر دخل ممكن، عرفنا انها لم تكن من الوجهة الماليه الا شبه مزرعة تستغل بدون كبير رعاية لازدهارها أو بقاء قدرتها على الانتاج. وقد زادت الحالة سوء فى العصر العباسي حين كثير تعيين الولاة وعزلهم فكان كل وال يعمل على اثراء نفسه فى أقصر

الحشمة والخجل والحيا من الناس الذين معه، وخرج من عندهاوهو حزين باكى لاهانتها له وكلامها له بحضرة شعبه، فمكث على الكرسى عشرين سنة وتنيح فى الرابع والعشرين من برمهات.

تاوفانس البطرك وهو من العدد الستين

[٩٥٢/ ٩٥٦م]

[هذا الذى اهملته نعمة الله فتجنن وقيل انه القى فى النيل عند وفاته].

وقت ممكن قبل أن يغادر البلاد. وظهر أيضا فى العصر العباسى وفى عهد أبى جعفر المنصور مسألة ضمان الوالى لخراج مصر كله، أى أن الخليفة أراد أن يجعل الوالى يلتزم بدفع مبلغ معين عن القطر كله دون النظر الى قدرة البلاد على الدفع وظروفها المختلفة.

ولما صارت مصر تقطع للقواد الترك زاد الطين بلة لما عرف عنهم من العنف وسوء الادارة وزيادة الضرائب ثم تولى أحمد بن محمد مدبر خراج مصر وكان متعسفافى فرض الضرائب على المسلمين وأهل الذمة على السواء فزادت الضرائب على المصريين زيادة فاحشة.

ومر بنا أنه حين قدم أحمد بن طولون الى مصر سنة ٢٥٤هـ وجد فيها ابن المدبر عاملا على خراجها.

وكان ابن المدبر قد ولى خراج مصر منذ سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م كما اتضح لنا من الأوراق البردية وكما يذكر اليعقوبى فى تاريخه، وليس كما ذكر المقريزى فى الخطط أنه ولى الخراج بعد سنة ٢٥٠هـ. ولجأ ابن المدبر الى أساليب كثيرة لجمع الأموال، فقد كان يبغى جمع الأموال الطائلة لنفسه، وكان يكثر من تقديم الهدايا والأعطيات الى الحكومة المركزية فى العراق حتى يأمن على مركزه فى مصر. ولم يهتم ابن المدبر بمصلحة مصر أو المصريين وأدخل فى مصر ضرائب جديدة ولجأ الى القسوة فى جبايتها. وكان مما ابتدعه ابن المدبر أنه أحاط بالنطرون(كربونات الصوديوم) وحجر عليه بعد أن كان مباحا لجميع الناس، وفرض

واقسموا عوضه تاوفانيوس، وكان من اهل اسكندرية وقد كبر، وحدث فيه ضيق صدر لكبر سنه وشيخوخته. وكان يدفع للاسكندرانيين الالف دينار المستقرية لهم في كل سنة، فضاق به [الألف دينارا] في بعض السنين وسالهم ان يسامحوه منها بشيء، فلم يفعلو وتخاصمو معه وضيقو عليه، وقالو له ما نخلي لك من الالف دينار درهم واحد. ثم قالو له انما انت اجل منا بهذه الشياب والاسكيم، ونحن البسناك اياها وهي لنا، فاما ان

ضريبة على الكلأ الذي ترعاه البهائم سماها «المراعي» وفرض ضريبة على ما يستخرج من البحر سماها «المصايد». ونتبين من الأوراق البردية التي نشرها المستشرق الأستاذ أدولف جرومان، أن ضريبة مراعي المواشي وضريبة المصايد كانت أثقلها على النفوس اذ كان الناس يعتبرونها غير شرعية، ولعلهم كانوا يعدونها مخالفة الآية القرآنية الشريفة: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ﴾ [المائدة: آية ٩٦].

ويظهر أن ابن المدبر نفسه احتال في تسميتها، فيذكر المقريزي في ذلك:«وأما المصايد فهي ما أطعم الله سبحانه وتعالى من صيد البحر وأول من أدخلها الديوان أيضا ابن مدبر وصير لها ديوان واحتشم من ذكر المصايد وشناعة القول فيها فأمر أن يكتب في الديوان: خراج مضارب الأوتار ومغارس الشباك» وفرض ابن المدبر فضلا عن ذلك ضرائب على أشجار اللبخ والسرو والنخيل. وانقسمت ضرائب مصر منذ مجيء ابن المدبر الى ضرائب خراجية وعرفت الضرائب الهلالية باسم«المرافق والمعاون». وأصبح الشعب والفلاح في مصر ينوء تحت عبء ثقيل من الضرائب، وقامت بعض الثورات في الاسكندرية وشرقي الدلتا والجيزة ولكنها أخمدت كلها بقسوة فظيعة.

هكذا كانت مالية مصر واقتصادها حين استطاع أحمد بن طولون أن ينحي ابن المدبر وأن يشرف بنفسه على ميزانية البلاد. ولسنا نعرف تماما كل اصلاحات أحمد بن طولون المالية،

توفينا ما هو مستقر لنا عليك وعلى من كان قبلك والا فاعطينا ثيابنا. فغلب عليه الضجر. فنزع الثياب والاسكيم من عليه ورماهم في وجوههم، وقال لهم ان كانو لكم فخذوهم فما لى بهم حاجة. فلما نزعهم عنه ورماهم لهم نزل عليه روح نجس فخبطه حتى صار مكبل بالحديد بقية ايام حياته. ثم اخفوه حتى لا يراه احد، فاجتمع الاساقفة وحملوه الى مصر ليطبوه [ليعالجوه]،

ولكن المصادر التاريخية تروى أن خراج البلاد قد انحط فى عهد الولاة الذين سبقوه حتى بلغ ثمانمائة ألف دينار بينما ارتفع فى نهاية حكمه حتى وصل الى أربعة ملايين وثلاثمائه ألف. وكتب المؤلفون أن القمح فى عصر خمارويه ابن أحمد بن طولون، ثلاثة أرادب بدينار، وكان هذا السعر الأخير يعتبر رخيصا جدا فى العصور التالية.

ويحدثنا المؤرخون عن الغاء أحمد بن طولون للضرائب الظالمة. وأكبر الظن أن أحمد بن طولون أحسن توزيع الضرائب كما خفف بعضها. أما الخراج على المراعى، فتؤكد الأوراق البردية والمصادر التاريخية استمرار هذه الضريبة طوال العصور الاسلامية فى مصر.

وكانت أملاك الحكومة الخاصة تدر دخلا كبيرا يفوق كل ما كانت تدره قبل ذلك، وكان يشرف على هذه الأراضى ديوان خاص اسمه ديوان الأملاك.

وعنى أحمد بن طولون بتطهير مصر من اللصوص وقطاع الطرق والمجرمين الذين كانوا يعكرون صفو السكان الهادئين ولاسيما فى الريف.

كذلك اهتم أحمد بن طولون بالقضاء على الثورات والفتن الداخلية ومنها ثورات العلويين التى كانت قد تتابعت قبيل مجئ أحمد بن طولون الى مصر وبعد قدومه اليها.

وكانت النتيجة لهذه العناية بالفلاح وبالأرض وبالهيئة الادارية فضلا عن القضاء على الفتن والثورات الداخلية وعلى المفسدين، أن شهدت مصر نهضة زراعية كبرى. ويحدثنا

فحملوه فى مركب واقلعوا به، ولم تدعهم الحشمة ان يجعلوه فوق سطح المركب بل جعلوه فى الخن، فصرخ وجدف وقال ما يقولوه المخالفين، فقيل ان واحد من تلاميذ الاساقفة الذين معه نزل فى الليل الى الخن وبل مخدة وجعلها على وجهه وهو نايم، وجلس عليها حتى مات. وقيل انه سقى شيا [سما] حتى مات خوفا من الفضيحة. وكانت مدته بطركيته اربع سنين وستة أشهر.

المقريزى أنه استغل فى الزراعة نحو مليون فدان فى العصر الطولونى، وكان هذا أعظم استغلال شهدته مصر حينذاك. وتجلئ هذا الرخاء العظيم الذى توفر لابن طولون فى الملايين التى أنفقها فى مشروعاته والتى ادخرها لأولاده من بعده. وكانت عناية خمارويه بالزراعة لا تقل عن عناية أبيه.

والحق أن العصر الطولونى خلا من الأزمات الاقتصادية، وامتاز بالرخاء وزيادة الانتاج. وكان فيضان النيل طيبا فى سنى الأسرة الطولونية اللهم الا اذا استثنينا بعض سنين من حكم خمارويه ثم السنة الأولى والسنة السابقة للأخيرة من حكم هارون بن خمارويه، فقد كان الفيضان فيها غير طيب وان لم يبلغ من النقصان حد الخطر الذى كان يبلغه بعد ذلك فى عصر الفاطميين والمماليك والذى كانت تنتج عنه الأوبئة والقحط.

ولم تقتصر نهضة مصر على الناحية الزراعية وانما امتدت الى الصناعة والتجارة. كان على رأس الصناعات، صناعة النسج. وأكبر الظن أن مصانع الطراز كانت مصدر ربح وافر للأمراء الطولونيين.

وظلت الصناعات المصرية الأخرى تحظى بالعناية والرعاية مثل صناعة الورق من البردى الذى كان ينمو بكثرة فى مصر وخاصة فى مستنقعات الدلتا والفيوم.

كذلك كانت فى مصر معاصر لا ستخراج الزيت من السمسم وبعض الحبوب والبقول.

مينا البطرك وهو من العدد الحادى والستون

[٩٥٦/ ٩٧٤م]

[قيل أن في عهده تولى ساويرس ابن المقفع اسقفية الاشمونين].

وقسم عوضه انسان من صندلا [مركز كفر الشيخ] ولدا لراهب قديس من دير ابو مقار بوادى هبيب من قلاية تعرف بدربنا، وكان هذا الرجل مختار. وسبب رهبانيته ان ابواه الزماه بالزيجة في

كذلك كان المصريون يعصرون القصب ليصنعوا منه السكر، ونعرف ذلك مما جاء في الأوراق البردية.

ومن الصناعات التي لابد أن تكون قد نجحت في عصر بني طولون، صناعة الأسلحة. فقد كان الجيش الطولوني وافر العدد وكانت تلزمه بطبيعة الحال كميات كبيرة من الأسلحة. وقد أشار المؤرخ ابن الزيات في كتاب الكواكب السيارة، الى بناء سماه مصنع ابن طولون. وربما كان هذا البناء داراً لبعض الصناعات في عصر بنى طولون.

واذا تذكرنا الجهاز الفاخر الذى أعده خمارويه لابنته قطر الندى رجحنا أن من الصناعات التي ازدهرت في مصر الطولونية صناعة الحلى والأثاث الثمين والتحف المصنوعة من المعادن النفيسة كالذهب الذى اشتهرت بصناعاته منذ عصور الفراعنة، فبالرغم من أن مصر لم تملك ذهباً كالذى ملكته روما وغيرها إلا أنها أبدعت في مصنوعاته حتى فاقت في ذلك معظم حضارات العالم. كذلك تفوقت في الصناعات الجلدية.

كذلك من الصناعات التي ازدهرت في مصر الطولونية صناعة الخشب. والمعروف أن المصريين مهروا منذ عصر الفراعنة في صناعة الأخشاب بالرغم من ندرة الأخشاب الجيدة بمصر. واذا صح ما ذكره المقريزى فقد كانت الفسطاط في العصر الطولوني أسواق خشب كبيرة. وقد بلغ النجارون والفنانون في الحفر على الخشب مهارة عظيمة تشهد بها التحف الخشبية التي ترجع الى هذا العصر.

صباه بغير اختياره وكان طايعا لهما جدا، وكملو
كلما يحتاج اليه العرس، وهو يرى ذلك كانه
خيال او منام، فلما دخلو به حجلته [حجرته] مع
زوجته واخلوه معها، وكانت من اهله وقبيلته،
جلس وقال لها: يا اختى ماذا نربح فى هذا العالم،
نقول الان قد اجتمعنا وكملنا شهوة اجسادنا ورزقنا
الاولاد اناث وذكور، ما الفايده فى ذلك، وماذا
نربح فيه اليس نموت اخر ذلك والقبر نهايته ولابد
منهما كما هو مكتوب ان العالم يزول وكل

ومن الصناعات التى ازدهرت فى مصر الطولونية، صناعة الخزف. أكبر الظن أن أحمد بن طولون أدخل فى البلاد الخزف ذا البريق المعدنى الذى اشتهرت بصناعته مصر ولا سيما فى عصر الفاطميين.

ولسنا نعرف كيف كانت تنظم هيئات الصناع فى العصر الطولونى. واذا صح لنا أن نفرض أن النظام المعروف فى العصور المتأخرة كانت نواته موجودة فى العصر الطولونى، جاز أن نظن أن كل طائفة من الصناع كانت لها شبه نقابة أو جماعة يرأسها عريف أو شيخ.

ومما يدل على نشاط مصر التجارى فى أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) نص كتبه الجغرافى المشهور ابن خرداذبة (١) عن التجارة. فقد تحدث عن التجار اليهود الردانية(٢) الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والأندلسية والصقلبية. وذكر انهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا. «يجلبون من المغرب الخدم

(١) انظر: ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص١٥٣ ١٥٤ (طبعة ليدن١٨٨٩ م)، والدكتور زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى:ص ٧-٩ (طبعة القاهرة ١٩٤٥ م).

(٢) الردانية: يرى الدكتور نعيم زكى ان اسم «اليهود الردانية» من الكلمة الفارسية الطريق Rehdan ويقال ان مركزهم كان فى فارس . ويقول أيضا ان مركز تجمعهم وخروجهم كان من مدينة الرى Rhagaبجوار طهران، وكانت الرى فى القرن التاسع الميلادى عاصمة فارس التجارية (انظر: دكتور نعيم زكى فهمى: دور اليهود فى تجارة العصور الوسطى: ص١١ـ طبعة القاهرة ١٩٧١ م).

شهـواته والذى يفعل الخير يدوم الى الابد. فلما طيب قلب الامراة بهذا الكلامى ومثله من الكتب المقدسة لحفظ طهارة اجسادهم اقام على ذلك ثلثة ايام حتى قوى امانتها، ثم قال لها: يا اختى قد طاب قلبنا بعضنا مع بعض، فاجلسى انتى الان فى بيتك، وامضى انا الى وادى هبيب اترهب، بل احفظى هذا السر ولا تعلمى به احد، فقالت له نعم. فحينيذ نهض فى اليوم الرابع غلسا [الفجر] ولم يعلم به احدا، فمضى الى الوادى المذكور

والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور [١] والسيوف، ويركبون من فرنجة[٢] فى البحر الغربى فيخرجون بالفرما[٣] ويحملون تجارتهم على الظهر (الدواب) الى القلزم[٤]. وبينهما خمسة وعشرون فرسخا[٥]، ثم يركبون البحر الشرقى (البحر الأحمر) من القلزم الى الجار وجدة[٦]، ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا الى القلزم، ثم يحملونه الى الفرما، ثم يركبون فى البحر الغربى، فربما عدلوا بتجاراتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم، وربما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك، وان شاءوا حملوا تجارتهم مرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل الى الجابية[٧]،

---

(١) السمور: حيوان برى يتخذ من جلده فراء ثمينة والجمع سمامير.

(٢) فرنجة: تعنى هنا فرنسا.

(٣) الفرما: فى شبه جزيرة سيناء، وهى مدينة بلوزيوم pelusium القديمة أو طينة الحالية وهى الى الشرق من بور سعيد على البحر المتوسط، وكان ينتهى عندها الفرع الثالث الذى كان لدلتا النيل شرقى فرع دمياط والذى كان يعرف باسم الفرع البلوزى.

(٤) القلزم: السويس الحالية.

(٥) الفرسخ: ثلاثة أميال.

(٦) الجار: كانت ميناء المدينة المنورة على البحر الأحمر، أما جدة فهى ميناء مكة.

(٧) الجابية: قرية من دمشق.

وسكن فى القلاية المذكورة التى هى دربنا عند
شيخ قديس وهو اب القلاية، فعلمه مخافة الله،
ولما عرفه السر البسه ثياب الرهبنة، واخفا امره
تلت سنين لم يعلم به احد ممن يعرفه، فلما كان
تانى يوم من مسيره من بيته سالو عنه اهله ليخرج
اليهم كعادته فلم يجدوه، فسالو عنه زوجته فقالت
لهم: خرج من عندى من وقت كبير من الليل.
فطلبوه طلبا حثيثا فلم يجدوه، وصار ذلك العرس
حزن وكاابة. فلما انقضت ايام صنعهم الحزن

ثم يركبون فى الفرات الى بغداد، ثم يركبون فى دجلة الى الأبلة[1]، ومن الأبلة، الى عمان والسند والهند والصين. كل ذلك متصل بعضه ببعض».

والحق ان تجارة مصر الداخلية والخارجية نشطت نشاطا كبيرا فى العصر الطولونى. وحسبنا أن نقرأ ما كتبه المقريزى فى كتابه الخطط عن القطائع لنتبين ما كان من الرخاء بالبلاد فى عصر أحمد بن طولون وخمارويه. وخير دليل على ازدهار التجارة ما نعرفه عن وجود الأسواق الكبيرة.

وذكر المقريزى أن كل طائفة من التجار كان لها سوق كبير فقال:«ولكل من الباعة سوق حسن عامر فصارت القطائع مدينة كبيرة أعمر وأحسن من الشام».

والحق أن أحمد بن طولون عنى بالفلاح وبالزراعة والأرض، وبالصناعة والتجارة، وبالنواحى الادارية، وأقصى عن ديوان الخراج كل من تشكك فى ذمته بحيث لم يضم إلا الموظفين الأكفاء المشهود لهم بالأمانة والعدالة. كذلك عمل ابن طولون على القضاء على الفتن والثورات الداخلية وعلى المفسدين.

فلا عجب أن شهدت مصر نهضة زراعية وصناعية وتجارية كبرى، وتجلى هذا الرخاء العظيم الذى توفر لابن طولون فى ملايين الدنانير التى أنفقها فى مشروعاته.

(١) الأبلة: ميناء قديم أنشئت مدينة البصرة بالقرب منه.

عقيب الفرح والعرس اراد اهل الامراة ان ياخذوها
عندهم ليزوجوها لرجلا اخر، فلم تجيب الى ذلك
ولا قبلت رايهم، وقالت لهم: الذى قضى على به
الرب انا اقيم فى بيتى هذا حزينة على زوجى الى
يوم وفاتى. فلما اقام مينا المذكور ثلثة سنين فى
الدير وامره مخفى عن ابيه واهله، ثم عرفو بعد
ذلك خبره وانه حى وقد ترهب فى دير ابو مقار
فاسرعو اهله ومضواليه حتى راوه هناك حى خادما
لله تعالى ممجدا له. وحفظت الامراة العهد المستقر

وكان رخاء مصر فى عهد أحمد بن طولون وابنه خمارويه مضربا للأمثال. ولا شك أن ذلك الرخاء كان ناتجا الى حد كبير عن بقاء ايراد البلاد فيها أن يتسرب شيء كثير منه الى الخلافة العباسية. وبعد أن أتسعت حدود مصر فشملت الشام والثغور يجدر بنا الا نفكر فى اقامة أى وزن لمساعدة من الشام أو لغنائم من الروم، فقد كانت الحاميات الطولونية فى الشام تكلف الطولونيين نفقات طائلة، كما أن الغنائم من الروم كان يستأثر بها الجند ولاتكاد خزينة الحكومة تستفيد منها شيئا.

ونرى أحمد بن طولون ومن بعده ابنه خمارويه يعمد الى السوق المالية فى مصر فيجعلها مطمئنة باصلاح العملة وسك الدينار الطولونى الذى يمتاز بثقل وزن الذهب فيه وخلوه من الغش والتزييف وذلك حتى تجرى المعاملات الاقتصادية فى جو من الثقة والطمأنينة.

وكانت السكة فى مصر قبل أحمد بن طولون تتبع سكة الخلافة. وكانت السكة تعتبر فى العالم الاسلامى من شارات الملك[1] وهى بلاشك ركيزة من ركائز الاستقلال الاقتصادى. ولم تستقل سكة مصر عن السكة المستعملة فى الخلافة الا بعد أن استقلت مصر على يد أحمد بن طولون. ولهذا نرى المقريزى يقول: «ومع هذا فان مصر لم تزل منذ فتحت دار امارة،

(١) ابن خلدون: المقدمة (الفصل السادس والثلاثون فى شارات الملك والسلطان الخاصه به).

بينهـا وبينه ولم تنقـضـه. واقـام هذا بوادى هبيب
زمانا طويلا ثم صـار سايحـا. فلمـا تنيح الاب انبـا
تاوفـانيـوس البطـرك، اجـتـمعـو الاسـاقـفـة والاراخنة
ليـقـيـمـو عـوضـه، بلغـهم خـبـر هذا الاب الشـيخ
القـديس ابن القـلاية وتعبده فى الديارات وان لديه
علم، فمضـو اليه ولا حلفوه ولا كلموه بما لايريده
ولم يزعـجـوه لاجل قـدسـه، بل خـاطبـوه بسكيـنة
ووقـار قايلين:قد اتيناك يا ابانا القـديس ندعوك الى
امـر الالهى لتكون لنا اب على الكرسى الرسـولى

وسكتها انما هي سكة بني أمية ثم بني العباس الا أن الأمير أبا العباس أحمد بن طولون ضرب بمصر دنانير عرفت بالأحمدية»[1].

والمعروف أن أحمد بن طولون أسس في مصر دارا لضرب النقود حيث ضربت الدنانير التي عـرفت بالأحـمدية وامتازت بعيارها الجيـد[2]. وقـد احتـفظت مـصر للآن ببعض الدنانيـر الطـولونيـة[3]. كما توجد دنانير من العصر الطولوني في دور حفظ مجموعات النقود «متولى دار الضـرب»، وكـان الأمير أحمد بن طولون في بعض الأحيـان يعـهد بالاشـراف على دار الضرب الي القاضي. والمعروف أن النقود كانت تضرب في مصر باسم الخليفة العباسي حتى سنة ٢٦٦هـ (٧٨٩ـ ٨٨٠م). أما النقود التي نعرفها من العصر الطولوني فقد ضربت في أماكن مختلفة مثل مصر ودمشق وحران وحمص وحلب وأنطاكية[4].

(١) المقريزى: النقود الاسلامية:ص١٢ (وهو المعروف باسم شذور العقود القديمة والاسلامية. طبع القسطنطينية ١٢٩٨هـ).

(٢) المقريزي: كتاب النقود الاسلامية: ص١٢؛ البلوى:سيرة أحمد بن طولون: ص ١٩٦ (تحقيق محمد كرد على دمشق ١٩٣٩م) والأب أنستان مارى الكرملي: النقود العربية وعلم النميات:ص٥٤و٥٧(طبع القاهرة ١٩٣٩م).

Dr. Zaky M. Hassan : Les Tulunides PP. 210 - 211.

(٣) انظر Lane-Poole (Stanley) : Catalogue of the Collection of Arabic Coins Preserved in the Khedivial Library at cairo PP. 135_ 136.

(٤) انظر: دكتورة سيدة كاشف: أحمد بن طولون: ص ١٨٧ـ ١٨٨.

وجميعنا نصنع لك مطانوات لاجل الله، لا تردنا خايبين بل تتكلف وتقبل سعينا من جهة الرب. وسجد جميعهم له. فلما فعلو ذلك وراى انه مغلوب معهم، قال لهم: ارفعو رووسكم ما اخالفكم. فلما رفعو روسهم وهمو ان يضعو ايديهم عليه ويقسموه، قال لهم: بامر من الله اسمعو منى ما اقوله لكم، هوذا ترونى شيخ كبير، وما بقى فى حركة لهذا الامر لانه امر عظيم، وانتم عارفين قوانين البيعة وما يجب فيها، وانه ينبغى ان

(ب) الجيش والبحرية

نحن لا نستطيع القول بأن أحمد بن طولون قدم الى مصر وفى عقله خطة مرتبة للاستقلال بها واقامة ملك عريض لبيته فيها، ولكن الذى نستطيع أن نؤكده أن أحمد بن طولون كان ذكيا طموحا عريض الآمال استفاد من مشكلات الخلافة وغيرها، للتمكين لنفسه فى مصر وللاستقلال بها. وكان ابن طولون كثير العطايا والمنح لكسب الشخصيات المختلفة فى قصر الخلافة وفى مصر لتنفيذ ما يريد. كذلك روى مؤرخو[١] العصر الطولونى مدى عناية ابن طولون وبراعته فى الكشف عن الجواسيس الذين سيرهم أعداؤه لرصد أعماله والكشف عن أخطائه. وفوق هذا كله فقد عرف ابن طولون كيف يستفيد من النزاع بين الخليفة المعتمد (٢٥٦-٢٧٩هـ) وبين أخيه الموفق، وأن يستفيد من محاولات حكام شرق العالم الاسلامى للانفصال عن الخلافة العباسية، وان يستفيد من ثورة الزنج فى البصرة ووادى الفرات الأدنى، والتى شغل الموفق باخضاعها والتى استمرت أربعة عشر عاما ضد الخلافة العباسية.

فمثلا حين رغب الخليفة المعتمد أن تحمل اليه أموال مصر سرا وكتب الى ابن طولون يطلب اليه هذا، انتهز ابن طولون الفرصة وقال انه لا يستطيع أن يوفر للخليفة ذلك الطلب الا اذا كان الخراج بيده، فانفذ المعتمد نفيساً الخادم بتقليد خراج مصر والخراج بالثغور الشامية.

(١) انظر: البلوى: سيرة ابن طولون:ص٥٩ .

يكون من يقـدم الى هذه الرتبـة وسط السن لا شيخا فانى ولا شاب ليلا تعذبه شهوة الجسد ولا زايد فى الكبر ليلا يثقل عليه جسده ولا يقدر على ما فعل ما يلزمه. فقالو له: ما نتركك بالجملة الا ان تعرفنا من يصلح لهذه الرتبه. فلما علم انهم لا يتركوه الا ان يدلهم على غيره، فقال لهم: ولدى مينا يصلح لهذا الامر وانا اشهد له بذلك وبحسن طريقته الالهية وانه عالم وسنه متوسط. فصاحو جميعهم مستحق مستحق مستحق، وقامو اليه

وكان من أهم أهداف أحمد بن طولون هو بناء جيش مصرى لا يعتمد على الخلافة، وانما يدين بالولاء والطاعة لابن طولون ويكون عدته فى استكمال الاستقلال بمصر وفى تحقيق مشروعاته. وواتت أحمد بن طولون الفرصة حين فكر الخليفة المهتدى (٢٥٥-٢٥٦هـ) فى أن يكل الى ابن طولون اخضاع أحد الولاة الثائرين فى الشام. فقد حدث فى هذا الوقت أن أحمد بن عيسى بن شيخ الشيبانى والى فلسطين والأردن كان قد توفى واستولى ابنه على أعماله وشق عصا الطاعة على الخليفة، ثم استولى على سبعمائة وخمسين ألف دينار كانت مرحلة من مال مصر الى العراق.

وكان أحمد بن طولون لا يتأخر عن القيام بذلك لأن ابن الشيخ لم يكن ثائرا على الخلافة فحسب، بل كان منافسا خطيرا وجارا مقلقا لابن طولون، والظاهرة انه كان يطمع فى ملك مصر. ونص المقريزى فى الخطط، على ذلك بعبارة مختصرة فكتب «وكانت الأمور قد اضطربت ببغداد فطمع ابن شيخ فى التغلب على الشامات وأشيع أنه يريد مصر».

وبادر ابن طولون بتعبئة مالديه من الجند، كما عنى بالاسراع فى تكوين جيش قوى يساعده فى اخضاع ابن الشيخ ويكون فى الوقت نفسه عدته فى نجاح قضيته الشخصية حين يرى الوقت مناسبا لاثارتها. ولذلك طلب ابن طولون اذن الخليفة فى شراء عدد كبير من العبيد الترك والسودان والحبش وسكان جزائر البحر المتوسط.

واخذوه قهراً وقيدوه بالحديد في رجليه وحملوه الى اسكندرية فاوسموه فيها بطركا، وعادو معه الاساقفة والشيوخ فاجتاز بضيعته المذكورة، فمال اليها ليسلم على اهله، فلما اتصل بهم خبره خرجو للقايه بالمجامر والصلبان، وطلعو به المنزل يستريح، فلما جلس والجمع معه حضر انسان شرير من اهل الضيعة فقال لاحد الاساقفة: اليس انتم تقولون انه لا يجوز لمن تزوج ان يصير بطركا؟. قال له: نعم. فقال: هذا قد تزوج وزوجته

أما ابن الشيخ فقد أبى أن يعترف بسلطان المعتمد، وهو الخليفة الجديد. وعرض عليه المعتمد أن يوليه أرمينية اذا قبل الخضوع ونزح عن الشام فرفض. ولعل ابن الشيخ كان يريد الجمع بين الولايتين، وأن يضيف اليهما مصر اذا استطاع الى ذلك سبيل. وذكر المقريزى في هذه المسألة رواية أخرى، قال: « فلما قتل المهتدى في رجب سنة ٢٥٦هـ وبويع المعتمد بالله أحمد بن المتوكل لم يدع ابن شيخ له، ولا بايع هو ولا أصحابه، فبعث اليه بتقليد أرمينية زيادة على ما معه من بلاد الشام وفسح له في الاستخلاف عليها والاقامة على عمله، فدعا حينئذ للمعتمد» .

وعلى كل حال فان المعتمد كتب الى ابن طولون ليتأهب لحرب ابن شيخ«وأن يزيد في عدته ، وكتب لابن المدبر أن يطلق له من المال ما يريد، فعرض ابن طولون الرجال، وأثبت من يصلح، واشترى العبيد من الروم والسودان، وعمل سائر ما يحتاج اليه» .

وبعد أن تم كل هذا الاستعداد كتب أحمد بن طولون الى ابن الشيخ يدعوه الى الخضوع فلم يفعل. واستخلف ابن طولون أخاه موسى على مصر، وسافر على رأس جنده الى حدود فلسطين. ولعله كان حريصا كل الحرص على ابقاء جيشه سليما لينفعه في فرص أخرى اذا كان في استطاعته أن يتجنب الحرب.فاننا نرى انه كتب مرة ثانية الى ابن الشيخ يدعوه الى

باقية الى الان عندنا فى الضيعة. فلما سمع ذلك الاسقف هذا القول حزن واخبر بقية الاساقفة الذين معه، وقال لهم: يا اخوه أعلمو اننا قد اصابتنا مصيبة عظيمة وفضيحة وصرنا عارا عند كل احد. وعرفهم الخبر فسكتو وصارو سكارى بغير خمر من الحزن والكابة. فلما راهم مينا البطرك يتشاورو علم انهم لاجله، فقال لهم: يا اخوه ما بالكم تتشاورو؟ فقالو له:قد عرفونا انك متزوج وقد فعلنا معك ما لا يجوز وما هو مخالف

الخضوع والى ارجاع المال الذى كان مرسلا من مصر الى العراق والذى اغتصبه حين مروره فى أرضه. ولما لم يتلق ابن طولون من خصمه رداً مرضياً استعد لمهاجمته، ولكنه تلقى من الخليفة أمرا بالعودة الى مصر، اذ عهد الخليفة بأمر اخضاع ابن الشيخ الى أماجور الذى أقطع الشام. فهل أدرك الخليفة فى اللحظة الأخيرة أن من الحكمة منع ابن طولون من التوغل فى الشام لئلا يضمها الى مصر ويستقل بهما؟! أو هل كان المطلوب التخلص من أما جور بتكليفه أن يخضع ذلك الثائر الخطر؟!

وعلى أية حال فقد غنم ابن طولون من الأمر كله، اذ رجع بجيشه كاملا وصار هذا الجيش فى يده أداة قام عليها سلطانه وسلطان ابنه خمارويه من بعده. وقدر المؤرخون فى مناسبات مختلفة الجيش الطولونى بمائة ألف جندى. وذكر ابن سعيد ان أحمد بن طولون خلف عند وفاته سبعة آلاف مولى وأربعة وعشرين ألف عبد. ولعل هؤلاء السبعة آلاف كانوا من أبناء البلاد الاسلامية التى سيطر عليها العرب منذ القرن الأول الهجرى.

وكتب المؤرخ اليعقوبى أن كل الجنود الطولونية أقسمت يمين الطاعة لأحمد بن طولون فى سنة ٢٥٨هـ (٨٧٢م).

ولم نسمع عن جند ابن طولون أى ثورة أو فتن، ولاشك أن أحمد بن طولون استطاع أن يسيطر على الجيش وأن يحفظ النظام بين جنوده بفضل حزمه وكرمه وبعد نظره.

القانون فاصدقنا عن نفسك. فقال لهم: الامر صحيح لكن احضرو الامراة. فاحضروها، فقال لها البطرك: عرفيهم السر الذى بينى وبينك. فاخبرتهم بذلك، فلما سمعو قولها مجدو الله عند معرفتهم بصحة الخبر من المراة ومن جميع أهلها.

وكانت تلك السنة التى جعل فيها هذا الاب مينا بطركا سنة ستماية ثلثة وسبعون للشهدا، وكانت مصر يوميذ لخليفة بغداد وكان الوالى عليها من قبله انسان يعرف بالاخشيد، اقام ثلثة

وعنى أحمد بن طولون بالأسطول عنايته بالجيش. ولكن لم تتضح الحاجة الماسة الى الأسطول الا بعد توسع أحمد بن طولون فى الشام، اذا اضطر الى حماية شواطئه ومواجهة الهجوم البيزنطى ثم المحافظة على طرق الاتصال البحرى بين مصر والشام.

ولم يكن من الصعب على ابن طولون الاهتمام بالناحية البحرية وقد رأينا كيف كان لسكان مصر منذ فجر الاسلام الفضل فى الانتصارات البحرية التى كسبتها الخلافة، وفى بناء السفن وتشييد دور الصناعات فى وادى النيل وفى أفريقيا وفى الشام.

وفى اعتقادنا أن المحافظة على البحرية المصرية أو انشاء أسطول مصرى فى زمن الطولونيين كان استمرار لتاريخ مصر الحربى المجيد، ولم يكن من الأمور الشاقة أو الصعبة مثل انشاء جيش قائم فى مصر حينذاك. والمعروف أن حملة أحمد بن طولون على الشام أتاحت له استخدام أسطوله بل انه أنشأ قاعدة بحرية فى عكا وحصن هذا الميناء على يد مهندس من بيت المقدس، وهو جد المقدسى الجغرافى المعروف.

ولما تولى خمارويه بادر بارسال الأسطول الطولونى للسهر على شواطئ الشام.

ويبدو أن عناية الطولونيين بالأسطول كانت كبيرة، كما كانت عنايتهم بالجيش، أما عن مراكب الأسطول المصرى فيقول المؤرخ ابن اياس ان عدة الأسطول الذى تركه أحمد بن طولون عند وفاته بلغت ألف سفينة.

سنين قبل ان يجعل هذا الاب بطركا، ثم سار الى فلسطين ومات هناك، وخلف ولدين احدهما ابو القسم والاخر ابو الحسن، فتوليا الولاية عوض ابيهما، وثار عليهما ثاير من الغرب اسمه حنابنا، فهربا من قدامه الى فلسطين، وملك هو مصر فلما علمو ان عساكره بمصر فقط عادو الى قتاله فهزموه، وكانا صبيين وكان معهما استاذ لابيهما، وكان اسمه كافور، وكان جنسه نوبى سبوه من بلاد النوبه وسلمه مولاه من صغره لمن علمه الخط

(جـ) القطائع حاضرة الطولونيين

عرفنا أن أحمد بن طولون خرج لمحاربة ابن الشيخ فى الشام سنة ٢٥٦هـ ثم ورد عليه كتاب الخليفة بالرجوع فعاد الى مصر. ثم بدأ أحمد بن طولون فى تأسيس حاضرة له وبدأ فى البنيان كما يقول الكندى فى شعبان من سنة ٢٥٦هـ. واختط ابن طولون عاصمته الجديدة فى المكان الواقع فى سفح جبل يشكر الى الشر ق من مدينة العسكر والى الشمال الشرقى من الفسطاط، حيث توجد الآن قرة ميدان، والمنشية، وميدان صلاح الدين[١].

وكان تفكير أحمد بن طولون فى ترك دار الامارة بمدينة العسكر أو فى الفسطاط يمثل اتجاهه الجديد فى الاستقلال بمصر وفى رغبته فى منافسة بلاط العباسيين.

وقد اتخذ ابن طولون أولا لنفسه قصرا فى هذه الحاضرة الجديدة جعل أمامه ميدانا فسيحا على نمط ما كان فى مدينة سامراء. ثم اختط ابن طولون الأراضى المحيطة بذلك الميدان وأقطع كلا من كبار دولته وقواده وفئات جنده ومن احتاجوا اليهم من صناع وتجار قطيعة، فصارت كل قطيعة خاصة بأبناء الفئة الحربية الواحدة، أو أبناء الصناعة الواحدة، أو ابناء الجنس الواحد مثل قطيعة الروم، السودان وقطيعة البزازين وقطيعة الخبازين...الخ..

(١) انظر : دكتور زكى محمد حسن: الفن الاسلامى فى مصر.ج١ ص٥٧.

والادب وكلما يحتاج اليه، فلما كبر وراه [رآه]
ناجب عارف سلم اليه مملكته وولديه، وهذا كان
مثل يوسف بمصر. فلما انقضا للولدين سبع سنين
ماتا جميعا، وتولا الاستاذ كافور بعدهما، ثم مات
فاخذوه مقدمى الدولة وصبروه [حنطوه] واجلسوه
على كرسى عال فى قصره ولبسوه ثوب باكمام
طوال جدا حتى تصل الى باب المجلس الذى هو
فيه. واقامو خدام بين يديه، وكلمن جا يسلم عليه
يمنعوه من الدخول اليه، ويقولو سيدنا يامر ان

وسميت هذه الحاضرة الجديدة باسم القطائع. ولم يكن التخطيط أو الاسم غريبا، اذ كان تخطيط القطائع يشبه الى حد كبير تخطيط سامراء. كذلك كان يطلق اسم القطائع على مدينة سامراء التى بناها المعتصم اللهم الا القصور الملكية.

وأكبر الظن أن مهندسى القصور الطولونية نحوا فى بنائها نحو قصور الخلفاء فى سامرا. وكان لقصر أحمد بن طولون عدة أبواب كبيرة، وكان لكل باب منها اسم يدل أحيانا على الجهة التى يؤدى اليها، أو على نوع الخدم، وذلك كما كان متبعا فى قصور سامراء. وكان أهم أبواب القصر كما ذكر المقريزى فى الخطط: باب الميدان ومنه كان يمر الجند، وباب الخاصة للمصريين من الأمير، وباب الصوالجة وكان يؤدى الى الميدان الكبير المخصص للعب الصوالجة، وباب الحرم الذى كان لا يدخل منه الا النساء أو الخصيان، وباب الصلاة وكان يوصل الى جامع ابن طولون..الخ..

ولم تبق القطائع مدة طويلة مقر الأمير وخدمه وحشمه ورجال بلاطه وجيشه وحكومته فحسب، بل مالبث أن اتسع نطاقها وزادت عمارتها. وذكر مؤرخو مصر الاسلامية انها أصبحت مدينة كبيرة زاهرة وأنشئت فيها المساجد الجميلة والحمامات والأفران والطواحين والشوارع والحوانيت والمنازل وغير ذلك مما نجده فى المدن الكبرى، وامتدت عمارتها حتى اتصلت بمدينة الفسطاط.

تقبل كمه وتسلم عليه من برا لانه ضعيف لا
يحتمل احد يدخل اليه، وكانو جعلو خلف
الكرسي الذى اجلسـ[وه عليه] من اذا سلم عليه
الناس حرك راسه وكمه كانه يرد عليهم. ولم يعلم
احد من اهل قصره بذلك الا الاستاذين الخواص
وسراريه وابو اليمن قزمان ابن مينا، فاقام هكذى
ثلثة سنين ووزيره يجبى الخراج ويدبر الامور الى ان
عرفو قوم الخبر، فكتبوا الى ملك الغرب واسمه
معد ابو تميم المعز لدين الله، فلما عرف ذلك انفذ

ويظهر من تخطيط القطائع أن أحمد بن طولون لم يرد أن يجعلها مدينة حربية حصينة يغلب عليها الطابع العسكرى، مثلما كانت بغداد حين بناها أبو جعفر المنصور، وانما نرى أحمد بن طولون يتجه اتجاه الخليفة العباسي المعتصم حين بنى سامرا. اذا اتجه المعتصم فى بناء سامرا الى الابداع فى البناء وسائر الفنون الصناعية والزخرفية ليجعلها أكبر منافس لبغداد. وكذلك فعل أحمد بن طولون فى بناء القطائع ليجعلها تنافس سامرا وبغداد.

وكان سقوط الأسرة الطولونية ايذانا بسقوط هذه الحاضرة الجديدة وتخريبها، ولكن ذكراها لا تزال قائمة بفضل المسجد الجامع الذى كان يقوم فيها.

ونلاحظ أن انشاء القطائع لم يقض على العسكر أو الفسطاط، فمع أن الناس كانوا يعتبرون العسكر مدينة قائمة بذاتها وكذلك القطائع الا أنهما لم تكونا فى الحقيقة الا ضاحيتين للفسطاط أو امتداد لها. وظلت الفسطاط المركز الأعظم للحياة المصرية، بل ان المبانى الحكومية القديمة لم تهجر تماما، فمثلا أصبحت دار الامارة التى كان يسكنها الأمراء العباسيون فى العسكر. أصبحت ديوانا للخراج فى عصر الطولونيين.

(د) جامع ابن طولون

أراد أحمد بن طولون أن يكون له مسجد جامع كبير يتضاءل الى جانبه جامع عمرو بن

قايد من قواده اسمه جوهر، وكان شجاع مقاتل
ومعه عسكر كبير، فلما سمع الاخشيديه بخبره،
خرجوا لقتاله، ومنعو المراكب ان تعدى [النيل].
وكانت تلك السنة قليلة الما، فعرف قوم موضع
المخاضة قبالة شطنوف [مركز اشمون]، فلما علم
مقدم الاخشيدية وهو الاستاذ وكان اسمه فاتك
وكان شجاع مقاتل وعسكره رجال مقاتلة ولم
يكن فيهم من يعرف يرمى بالنشاب الا يسيرا منهم
فاما الواصلين من المغرب فكان اكثر عسكرهم

العاص وجامع العسكر ويكون عنوانا لعظمة الأمير ولرخاء البلاد فى عصره. فاختار أحمد بن طولون مكانا لهذا الجامع على جبل يشكر[1] لأن المصريين كانوا يعتقدون أن موضع هذا الجبل مبارك ويزعمون أن الله عز وجل كلم موسى عليه[2] وفضلا عن ذلك فقد كان مكان الجامع يتوسط القطائع عاصمة ابن طولون الجديدة.

واختلف المؤرخون فى تاريخ انشاء الجامع ولكن السنين التى ذكرها المؤرخون متقاربة وتؤكد ان أحمد بن الطولون لم يبدأ فى منشآته العامة ومشاريعه العمرانية الا بعد أن أصبحت مصر كلها تحت سلطانه. فذكر ابن دقماق وأبو المحاسن أن الشروع فى تشييد المسجد كان فى سنة ٢٥٩هـ، أما القريزى فذكر أن بداية بنيان الجامع كان فى سنة ٢٦٣هـ. واختلف المؤرخون فى تاريخ الانتهاء من بناء الجامع اختلافا بسيطا، فذكر المقريزى أن الفراغ من بناء الجامع كان فى سنة ٢٦٥هـ، وهذا التاريخ وارد فى الكتابة التاريخية التى وجدت فى الجامع

(١) يذكر ابن دقماق فى كتابه الانتصار لواسطة عقد الأمصار ان يشكر كان رجلا صالحا، أما المقريزى فى الخطط، والقلقشندى فى صبح الأعشى فيذكران نقلا عن القضاعى ان هذا الجبل نسبة الى يشكر بن جديلة من قبيلة لخم التى اتخذت خطتها فى هذا الجبل بعد أن تم للعرب فتح مصر.

(٢) انظر: الدكتور زكي محمد حسن: الفن الاسلامى فى مصر ص٣٨وما ذكره من مراجع ص٣٧وما ذكره من مراجع.

رجالة عراة ملتفين باكسية صوف، وكانو اذا قاتلو
يجعلو اكسيتهم على ايديهم، ويقاتلو بالسيوف
والنشاب وفضلات حراب لطاف يزرقو [يطعنوا]
بها الاخشيدية، فقتلوهم وكانت مطاردهم
[أعلامهم] خرق مصبوغة عجيبة ملونة على
قصب فضة علامة للغلبة، فاذا ابصروهم ينشروه
يقوو [يقويهم] للحرب، وكانو الاخشيدية حطو
المطارد السود الذى معهم انهزم [فانهزم]
عسكرهم، فلما نظر الاستاذ فاتك تلك المطارد قد
حطها حاملوها وهمو بالهرب عدا اليهم فقتلهم

منقوشة بالخط الكوفى على لوح من الرخام[١].

أما مهندس الجامع فيذكر المقريزى انه كان رجلا قبطياً حسن الهندسة حاذق بها.

وأهم ما يمتاز به جامع أحمد بن طولون هو مئذنته أو منارته التى تقع فى الرواق الخارجى الغربى، وتكاد لا تتصل بسائر بناء الجامع. وهى مشيدة من الحجر وتتكون من قاعدة مربعة تقوم عليها طبقة أسطوانية عليها أخرى مثمنة. وأما السلالم فمن الخارج على شكل مدرج حلزونى. وليس لهذه المنارة نظير فى البلاد الاسلامية اللهم إلا فى الجامع الكبير وفى مسجد أبى دلف فى سامرا وذكر المقريزى وابن دقماق أن أحمد بن طولون لما عقد العزم على تشييد الجامع قال: أريد أن أبنى بناء ان احترقت مصر بقى وان غرقت بقى، فقيل له «يبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوى النار الى السقف، ولا يجعل فيه أساطين رخام فانه لا صبر لها على النار» فبناه هذا البناء.

والحق أن جامع أحمد بن طولون يعتبر من أهم وأقدم الآثار الاسلامية فى مصر، ذلك أن جامع عمرو بن العاص وهو أقدم جامع فى مصر، لم يبق على حاله كما كان فى عصر بنائه اذ أدخل عليه على مر العصور الاسلامية اصلاحات كثيرة وأضيف اليه من الأبنية ما غير

(١) انظر: الدكتور زكى محمد حسن: الفن الاسلامى فى مصر ص٣٧ وما ذكره من مراجع.

وانهزم هو وعسكره. ولم تزل المغاربة يتبعوهم ويقتلوهم الى بلبيس، واسرو من مقدميهم جماعة فكبلهم جوهر بالحديد وانفذهم الى الغرب الى مولاه المعز لدين الله. وملك جوهر ارض مصر، وكان وصوله اليها فى سنة ٦٨٣ للشهداء. فاما ابو اليمن قزمان ابن مينا وزير كافور فانه وجد نعمة قدام جوهر فابقاه على حاله ناظر فى كورة مصر ولما هو مشهور به من الثقة والامانة التى عرفت منه وشهد له بها ثقات مصر.

معالمه. أما جامع أحمد بن طولون فقد احتفظ تقريبا بكل تصميماته الأولى وأصبح البناء الوحيد الذى توافرت فيه هذه الشروط فى مصر والشام قبل العصر الفاطمى[1].

ولم يكن جامع ابن طولون للصلاة فقط وانما كان مدرسة للعلوم الدينية، ومحلا تعلن فيه أمور الدولة، ومكانا تعقد فيه المحاكم. وجعل فيه ميضأة، وخزانة بها الأدوية والأشربة التى قد يحتاج اليها المصلون وعين له طبيبا خاصا يقوم بمداواة ما قد يطرأ على المصلين. ولم يضن ابن طولون على جامعه الكبير «بسلاسل النحاس المفرغة والقناديل المحكمة، وفرشه بالحصر العبدانية والسامانية» [2].

(هـ) قناطر ابن طولون

والبيمارستان وانشاءات واصلاحات أخرى

شيد أحمد بن طولون فى الجهة الجنوبية الشرقية من القطائع قناطر للمياه لا تزال بعض عقودها قائمة. وكان الماء يسير فى عيونها الى القطائع. ويروى مؤرخو مصر الاسلامية ـ على عادة مؤرخى العصور الوسطى ـ القصص والأساطير التى تشير الى بناء هذه القناطر[3].

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن: الفن الاسلامى. ص٣٥و٥٤.

(٢) المقريزى: الخطط: ج٢ص٢٦٥

(٣) انظر: المقريزى: الخطط: ج٢ص٤٥٧ .

وبنا جوهر مدينة على [حول] القصر، وسماهم القاهرة المعزية.

وكان من جملة الاخشيدية استاذ امير اسمه تير وكان والى [على] البشمور (وهو الذى بنا المسجد بظاهر القاهرة)، فمنع جميع البشامرة، ان يدفعو جوالى، وحملهم على ان لا يطيعو جوهر، وقال لهم: ساعدونى وانا احمى بلادكم واوفر عليكم الخراج. فتبعه جمع كبير، فلما بلغ الملك المعز خبره عند وصوله الى مصر انفذ اليه عسكر، فلما

والحق أن عاصمته الجديدة كانت محتاجة الى تدبير المياه لها والى توفير كل سبل الراحة لساكنيها. وقد أشار المشيرون على أحمد بن طولون أن يجرى الماء من عين أبى خليد، فاعترض قائلا: بأن هذه العين لا تعرف أبدا الا باسم أبى خليد، وأنه يريد أن يستنبط بئرا تنسب اليه فعدل عن العين الى الشرق وبنى عليها القناطر.

وكانت هذه القناطر شبيهة بالقناطر الرومانية المرفوعة وسماها المؤرخون المسلمون باسم السقاية.

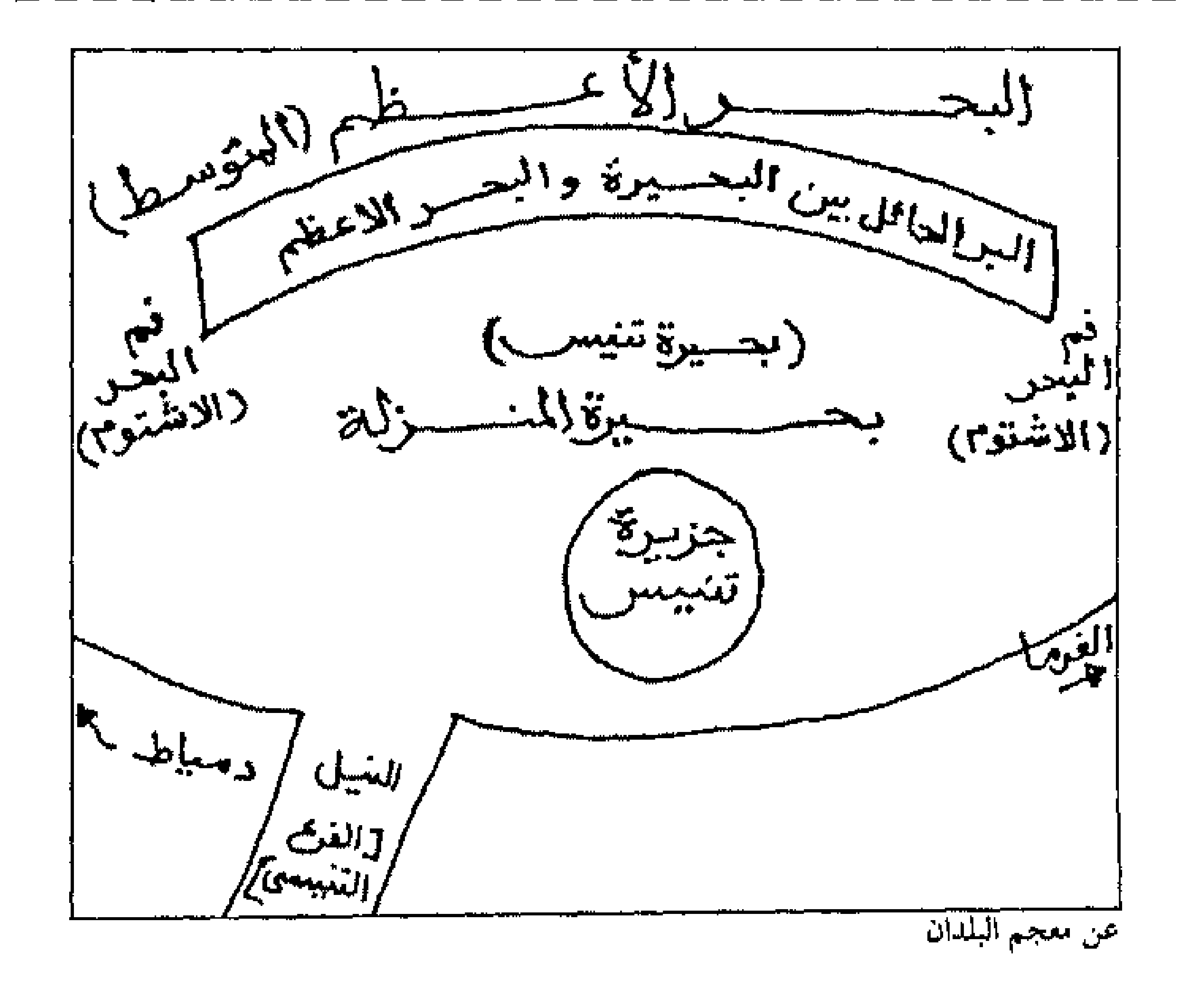
وتطلبت هذه القناطر مجهودا كبير وأموالا ضخمة وكانت من المتانة والابداع بمكان كبير. وكان بناء هذه القناطر بآجر يماثل فى الشكل والحجم آجر الجامع الطولونى. ونعرف أن المهندس الذى تولى لابن طولون بناء هذه العيون هو نفسه المهندس القبطى الذى شيد له بعد ذلك المسجد الجامع.

وأنشأ ابن طولون المارستان للمرضى في أرض العسكر سنة ٢٥٩هـ وجعل له حمامين، خص أحدهما بالرجال والآخر بالنساء، وأباحهما مجانا للناس على اختلافهم من غير تمييز في الأديان والمذاهب وكان هذا البيمارستان لعامة الشعب وشرط أحمد ابن طولون الا يعالج فيه جندى ولا مملوك. وأدخل ابن طولون فى هذا المارستان ضروبا من النظام جعلته فى مستوى أرقى المستشفيات فى هذا الوقت.

راو البشامرة العسكر تشاورو فيما بينهم وقالو: كيف نفسد نحن الملك ولا نامن ما يكون منه. ثم انهم تفرقو كل واحد منهم الى موضعيه، فهرب ذلك البايس تير الى دمياط وتبعه العسكر فركب مركب وهرب الى فلسطين، ودخل يافا فقبضوه هناك، واقام شهر يسقا سيرج حتى ارتفع جلده عن لحمه، وسلخ جلده وخرج مثل الزق فملوه تبن، وصلبوه على خشبة.

وكان اهل تنيس(*) فى ضيق عظيم فى ذلك

(*) تنيس: تقع مدينة تنيس فى



عن معجم البلدان

بحيرة المنزلة بشمال مصر، واستطاعت أن تشق طريقها عبر قرون عديدة من العصور القديمة والوسطى، لتحرز شهرة واسعة في عالم الصناعة والتجارة... وجاء كل ذلك على الرغم من ظروفها الصعبة بحكم وقوعها في جزيرة وسط بحيرة واسعة يغلب عليها الماء الملح ويقل فيها الماء العذب.

ومع ما أحرزته هذه الجزيرة من شهرة، فإنها انمحت من صفحة التاريخ في عصر الحروب الصليبية، في أواخر القرن السادس الهجرى ـ الثاني عشر للميلاد ـ عندما أمر الكامل محمد بن العادل أبي بكر الأيوبي بهدمها. وهكذا إذا كان التاريخ لا يؤكد أن تنيس تم تأسيسها بيد حاكم، فإنه يؤكد أن نهايتها جاءت نتيجة لقرار أصدره حاكم.

والواقع إن عصر الحروب الصليبية شهد قيام المسلمين بهدم بعض المدن بمصر والشام، بمجرد تخوفهم من أن يعود الصليبيون إلى احتلالها واتخاذها قواعد ينطلقون منها إلى داخل البلاد. ومن هذه المدن نذكر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ دمياط وطرابلس وتنيس والفسطاط. ولكن المسلمين عندما هدموا دمياط وطرابلس، شرعوا في بناء مدينتين جديدتين بدلاً منهما في الداخل ـ بعيداً إلى حد ما عن ساحل البحر ـ حتى تكونا في مأمن من أي هجوم بحرى صليبي. وهكذا هدمت دمياط القديمة عقب حملة لويس التاسع في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد لتشيد بدلها دمياط جديدة في الداخل، وهدمت طرابلس القديمة عقب إستيلاء السلطان المنصور قلاون عليها في أواخر نفس القرن، لتحل محلها طرابلس جديدة أقامها المسلمون بعيداً عن ساحل البحر.

أما تنيس فقد هدمت ليخبو نورها إلى الأبد. وبذلك أنتهى دور تنيس في التاريخ في نهاية القرن السادس الهجرى ـ الثاني عشر للميلاد ـ وبقى إسمها في كتب التاريخ يحمل ذكريات مدينة كبيرة، نهضت بدور بارز طوال قرون طويلة، وسجلت نشاطا حضاريا يفوق حجمها في مختلف الميادين الأقتصادية والأجتماعية والفكرية وغيرها.

تِنِّيس مدينة قديمة بديار مصر بالقرب من دمياط على بعد تسعة كيلو مترات من الجنوب الغربى لمدينة بورسعيد الحالية، كانت تنيس هذه قائمة في العصور الوسطى في الجهة الشمالية الشرقية من بحيرة المنزلة التي عرفت باسم بحيرة تنيس نسبة إلى بلدة تنِّيس الواقعة بها. وبعد أن أندثرت تنيس عرفت البحيرة باسم بحيرة المنزلة نسبة إلى بلدة المنزلة القريبة منها والتي هي اليوم قاعدة مركز المنزلة بمحافظة الدقهلية.

ويلاحظ التمييز بين تنِّيس هذه التي بكسر التاء وتشديد النون، وبين تانيس التي هي صان الحجر بمركز فاقوس، وكذلك التفرقة بين تنِّيس الأولى وبين تنيس بغير تشديد. ويقال لها التينه وهي التي تعرف اليوم باسم البربا بمركز جرجا مسقط رأس الملك مينا أول ملوك الفراعنة.

وللأهمية التاريخية لمدينة تنيس موضوع بحثنا تكلم كثير من المؤرخين عن موقعها وتناولوا ذلك من زوايا عديدة وأتفقوا في النهاية على مآثر تلك المدينة بعد التعريف بها.

من ذلك ما يذكره ياقوت الحموى في معجم البلدان من أن تنيس بكسرتين وتشديد النون وياء ساكنة والسين مهملة، جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط، والفرما في شرقيها. كان النيل يجرى إليها وكانت ذات حدائق وبساتين. أما عن وصفها فقد ذكر ياقوت أنها كانت جزيرة في وسط بحيرة مفردة عن البحر الأعظم ـ أي البحر المتوسط أو بحر الروم ـ يحيط بهذه البحيرة البحر من كل جهة وبينها وبين البحر الأعظم بر آخر مستطيل وهي جزيرة بين البحرين، وأول هذا البر قرب الفرما، وهناك فوهه يدخل منها ماء البحر الأعظم إلى بحيرة تنيس في موضع يقال له القرباج فيه مراكب تعبر من بر

الفرما إلى البر المستطيل الذى يحول بين البحر الأعظم وبحيرة تنيس، يسار فى ذلك البر نحو ثلاثة أيام إلى قرب دمياط. وهناك أيضا فوهه أخرى تأخذ من البحر الأعظم إلى بحيرة تنيس، وبالقرب من ذلك فوهة النيل الذى يلقى بماء الفيضان إلى بحيرة تنيس.

وهذه البحيرة طولها مقدار إقلاع يوم واحد فى عرض نصف يوم، ويكون ماؤها أكثر السنة ملحا لدخول ماء بحر الروم إليه عند هبوب ريح الشمال، فإذا تكاملت زيادة النيل يبعد الماء الملح وتغلب حلاوة ماء النيل على ماء البحر فيصير ماء البحيرة عذبا حتى عشرة فراسخ حول تنيس، وعندئذ يدخر أهلها المياه فى جباب وصهاريج عظيمة بنوها تحت الأرض وهى قوية البنيان وتسمى المصانع. وتصبح هذه الصهاريج هى المصدر الرئيسى للمياه التى يستعملها أهالى تنيس وسكانها حتى السنة التالية عندما يفيض النيل، وكل من لديه ماء فوق حاجته يبيع الفائض لغيره، وبالمدينة مصانع كثيرة موقوفة يعطى ماؤها للغرباء.

والبحيرة قليلة العمق يسار فى أكثرها بالمدارى [ذراع طويل من الخشب] ومن حذق نواتى البحر أنهم يقلعون بريح واحدة يديرون القلاع بها حتى يذهبوا فى جهتين مختلفتين متساوية فى سرعة السير فيلقى المركب المركب فى مثل لحظ الطرف بريح واحدة. وبهذه البحيرة سمكه تسمى الدلفين فى خلقة الزق الكبير وتكثر فى مياه بحر الروم، ولها خاصية مشهورة وذلك أنها لا تزال تدفع الغريق عند غرقه وهو يجود بأنفاسه ودفعه مرة ورفعه تارة أخرى إلى أن تخرجه إلى الساحل أو الماء الرقيق، كما أنه إذا أكلها الإنسان رأى منامات هائلة، أى مزعجة.

ويذكر المسعودى أن «بحيرة تنيس ودمياط كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها إستواء وطيب تربه، وكانت جنانا ونخلاً وشجراً ومزارع. ولم ير الناس إلى ما قبل الغزو العربى بمائة عام أرضا أحسن من هذه الأرض ولا أحسن إتصالاً من جنانها وكرومها إلا بلاد الفيوم، وكانت أرضها ترويها ترع لا تنضب مياهها تأتى من النيل صيفا وشتاء فكانت تنبت نباتاً يانعاً من القمح والنخيل والأعناب وسائر الشجر من فاكهة ورياحين، وكان بين البحر وبين هذه الأرض نحو مسيرة يوم واحد. غير أن البحر ما لبث أن طغى عليها فاقتحم ما كان يحجزه من كثبان الرمل، وكانت المياه تزيد طغيانا عاما بعد عام حتى عمت السهل المنخفض فغرقت معظم القرى، وأما التى كانت على إرتفاع من الأرض فلم تناله المياه وأعظم ما نجا من تلك الأراضى مدينة تنيس الشهيرة بما لها من الأتساع والكبر، بعد أن عصفت بغيرها الطبيعه وكتب عليها الغرق واختفت جناتها وآثارها وتكونت على أرضها بحيرة مترامية الأطراف تطوى فى أعماقها مدائن الحدائق، هذه هى بحيرة تنيس التى عرفت فيما بعد باسم بحيرة المنزلة».

أما المقريزى فيذكر أن «تنّيس بكسر التاء المنقوطة باثنتين من فوقها وكسر النون المشددة وياء وسين مهملة بلده من بلاد مصر فى وسط الماء، وهى من كسورة الخليج. وكان للملك بها أمناء يقسمون المياه ويعطون كل قرية قسطها وكان على تلك القرى حصن يدور بقناطر، وكان كل ملك يأتى يأمر بعمارتها والزيادة فيها ويجعلها له متنزها.

الغزو العربى ودور تنيس فى الأحداث السياسية

ذكر جماعة ممن شهد غزو مصر أنه مع بداية الغزو العربى، وبعد أن أستقرت أقدام عمرو بن العاص، وجه عمير بن وهب الجمحى إلى تنيس ودمياط وتونه ودميره وشطا ودقهله وبنا بوصير لاحتلالها. وعندما دخلها أحمد بن طولون سنة ٢٦٩هـ/ ٨٨٢م بنى بها عدة حوانيت وصهاريج تعرف بصهاريج الأمير.

ويذكر المقريزى فى خططه انه عندما سار المسلمون إلى تنيس خرج إليهم حاكمها فناجزهم فى

٦١: مينا البطرك ٩٥٦/٩٧٤م

مواقع كثيرة ودارت بينهم حروب قبل أن يظفر العرب ويهزموا جيشه ويأخذوه أسيراً. ومنذ تم لهم ذلك فتحوا المدينة وبنوا كنيستها جامعاً وغنموا أموالها وقسموها.

وتروى القصة أن شطا ابن حاكم دمياط التى استولى عليها المسلمون لما رأى أن العرب أبطأ عليهم فتح تنيس جمع جيشا من البرلس ودميره وأشموم طناح وجهزه ولحق باعداد المسلمين، ثم سار حتى ألتقى بحاكمها ومازال يقاتله حتى قتل ودفن بظاهر المدينة.

وأصبح العرب بفتح تنيس ودمياط والبلاد المجاورة مسيطرين على منافذ النيل إلى البحر. وأكبر الظن أن سلطان العرب الغزاة صار يمتد منذ ذلك الحين على كل بلاد مصر السفلى إلا بلاداً قليلة كانت في الجزائر التى فى مياه بحيرة المنزلة الفسيحة.

ونتيجة لذلك احتفظت القبائل العربية ببقائها فى مصر بعد الغزو زمنا طويلا، فإن الحمدانى يذكر أن بنى عذره وهم قبائل عربية أقاموا بدمياط وما حولها بتنيس.

ولم تزل تنيس بيد المسلمين إلى أن كانت إمرة بشر بن صفوان الكلبى على مصر من قبل يزيد بن عبدالملك فى شهر رمضان سنة ١٠١هـ/٧١٩م فهاجم الروم تنيس وقتلوا أميرها مزاحم بن مسلمه المرادى فى جمع من الموالي.

واستمرت تنيس بحكم موقعها الهام تشارك في الأحداث السياسية، ذلك أنها نظرا لتطرف موقعها وحصانتها وصعوبة الوصول إليها غدت ملاذاً وملجأ للهاربين من وجه خصومهم وأعدائهم.

من ذلك أنه حدث أثناء الصراع بين الأمين والمأمون ولدى الخليفه هارون الرشيد أن أراد الأول الغدر بأخيه المأمون. وكان الوالي على مصر من قبل الأمين هو حاتم بن هرثمه بن أعين فلما ثار عليه أهل «تنو» وتمى بعث إليهم السرى بن الحكم وعبدالعزيز بن الوزير الجروى فتغلبا عليه في شوال سنة ١٩٤هـ/٨٠٩م. ثم ولى الأمير جابر بن الأشعث الطائى مصر وكان لينا، فلما تباعد ما بين الأمين وأخيه المأمون وخلع الأمين أخاه من ولاية العهد وعهد إلى ابنه موسى، تكلم الجند فى مصر بينهم فى خلع محمد الأمين غضبا للمأمون، فبعث إليهم جابر ينهاهم عن ذلك ويخوفهم عواقب الفتن، وأقبل السرى بن عبدالحكم يدعو الناس إلى خلع محمد. وكتب المأمون إلى أشراف مصر يدعوهم إلى القيام بدعوته فأجابوه وبايعوا المأمون فى رجب سنة ١٩٦هـ/٨١١م ووثبوا بجابر فأخرجوه وولوا عباد بن محمد، فكتب محمد الأمين إلى رؤساء الحوف بولاية ربيعة بن قيس الجرشي ـ وكان رئيس قيس الحوف ـ فانقاد أهل الحوف كلهم معه يمنها وقيسها وأظهروا دعوة الأمين وخلع المأمون وساروا إلى الفسطاط لمحاربة أهلها، فعقد عباد بن محمد لعبد العزيز الجروى وأرسله في جيش لقتال خصومه فخرج فى ذى العقدة سنة ١٩٧هـ/٨١٢م لقتالهم، فانهزم الجروى ومضى فى قومه وأتباعه إلى فاقوس، فقالوا له «لم لا تدعو لنفسك بدون هؤلاء الذين غلبوا على الأرض».

فصادف ذلك هوى فى نفس الجروى، فمضى فيهم إلى تنيس فنزلها، ثم بعث بعماله يجبون الخراج من مصر السفلى. وفى تلك الأثناء بلغ أهل الحوف قتل الأمين ـ وهم أنصاره ـ فتفرقوا. وولى إمرة مصر المطلب بن عبدالله الخزاعى من قبل المأمون، وولى عبدالعزيز الجروى شرطته ثم عزله، ثم صرف المطلب وولى العباس بن موسى بن عيسى فى شوال سنة ١٩٨هـ/ ٨١٣م، ثم عاد عبدالعزيز الجروى فتولى الشرطة مرة ثانية. فلما ثار الجند وأعادوا المطلب فى المحرم سنة ١٩٩هـ/ ٨١٤م هرب الجروى إلى تنيس وأقبل العباس بن موسى من مكة ـ وكان قد ترك الأمر لأبنه عبدالله فى مصر ريثما يحضر هو ـ فنزل بلبيس ودعا

قيسا إلى نصرته، ثم مضى إلى الجروى بتنيس فشاوره، فأشار عليه أن ينزل دار قيس. وبعد موت العباس بن موسى مسموعا فى طعام دسه إليه المطلب دان أهل الحوف للمطلب وبايعوه، وبعد ذلك بعث المطلب إلى عبدالعزيز بن الوزير الجروى بولايته على تنيس وأمره بالذهاب إلى الفسطاط ـ ويبدو أن المطلب أراد بذلك أن يخدع الجروى ويوقع به لأنه عرف رغبته فى الأستقلال وطمعه فى ولاية مصر ـ إلا أن الجروى رفض وامتنع عن الأمتثال لأمر الوالى. وازاء هذا بعث المطلب بوال على تنيس، ولكن الجروى منعه من ذلك وأخرجه منها، فبعث إليه المطلب السرى بن الحكم فى جمع من الجند يسألونه الصلح فأجابهم إليه، إلا أنه اجتهد فى الغدر بهم ففطنوا إلى ذلك وحاربوه، ثم عاد فدعاهم إلى الصلح ولجأ إلى خدعة أستطاع بها أن يقبض على السرى ويأسره ويسجنه بتنيس وذلك فى جمادى الأولى سنة ١٩٩هـ/٨١٤م.

وفى مجموع النزاع بين المطلب بن عبدالله وعبدالعزيز الجروى أخرج الأخير السرى بن الحكم من السجن وعاهده وعقد معه على أن يثور بالمطلب ويخلعه، فعاهده السرى على ذلك فألقى على عرب مصر أن كتابا ورد بولايته، فاستقبله الجند من أهل خراسان وأمده قيس بجمع منهم وحارب عرب مصر الذين أمتنعوا عن تأييده ومبايعته. فطلب المطلب الأمان فأمنه واستبد السرى بأمر مصر.

ولما ولى المطلب بن عبدالله الخزاعى ولايته الثانية على مصر باجماع الجند (١٩٩/ ٢٠٠هـ) ـ (٨١٤/ ٨١٥م) ولى على الاسكندرية محمد بن هبيرة الذى أستخلف عنه عمر بن هلال، وقام الأندلسيون الذين قدموا الاسكندرية بعد طردهم من وطنهم فى عهد الحكم بن هشام الأموى سنة ١٩٨هـ/٨١٣م بقتل عمر بن هلال هذا واستقلالهم بالاسكندرية، وبلغ الجروى ذلك فسار إليها فى خمسين ألفا من رجاله وحاصرها وكاد أن يفتحها فى المحرم سنة ٢٠١هـ/٨١٦م، ولكن اسرى بن عبدالحكم الذى خشى إزدياد نفوذ الجروى بعث عمرو بن وهب الخزاعى على رأس جيش إلى مقره بتنيس، فترك الجروى حصار الاسكندرية ورجع إلى تنيس حيث أخرج جيش السرى منها.

وشاعت الأحوال أن يقتل عبدالعزيز الجروى أثناء حصاره مدينة الاسكندرية فى صفر سنة ٢٠٥هـ/٨٢٠م، وبعده مات السرى بن الحكم فى جمادى الأولى من نفس السنة فبايع الجند سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م عبيد الله بن السرى بعد وفاة أخيه أبو نصر بن السرى الذى خلف والده.

وفى تلك الأثناء بعث المأمون واليا على مصر هو مخلد بن يزيد، فامتنع عبيدالله عن التسليم له فاقتتلوا وانضم على بن عبدالعزيز الجروى إلى جانب مخلد وجرت بينهما حروب كان نتيجتها أن دخل عبيد الله مدينة تنيس مقر ولاية الجروى، وفر الأخير هاربا إلى العريش فى رجب سنة ٢٠٩هـ/٨٢٤م وخضعت مصر كلها إلى عبيد الله بن السرى إذا أستثنينا الاسكندرية التى كانت تحت سلطان الأندلسيين.

وعندما ولى الخليفة العباسى المعتصم أرسل إلى والى مصر يأمره بأسقاط من فى الديوان من العرب وقطع أعطياتهم وأرزاقهم فتم ذلك، فثار يحيى بن الوزير الجروى فى جمع من أتباعه فى تنيس وقال «هذا أمر لا نقوم فى أفضل منه لأنه منعنا حقنا وفيئنا». فخرج الوالى إليه وقاتله فى بحيرة تنيس وأسره وتفرق عنه أصحابه.

وفى تلك الأثناء ظلت تنيس تتعرض لهجمات الروم من ناحية البحر. من ذلك أنه حدث فى خلافة المتوكل سنة ٢٣٩هـ/ ٨٥٣م أن نزلت الروم بدمياط يوم عرفه فملكوها وقتلوا جمعا كثيرا من المسلمين ومضى الروم إلى تنيس فأقاموا بأشتومها

(موضع قرب تنيس وهو المكان الذى يعبر منه ماء البحر الملح إلى البحيرة)، وكان والى مصر عنبسه بن إسحق فلم يقاومهم (يقال أن سبب عدم مقاومتهم وغفلته أنه أراد طهور ولديه يوم العيد حتى يجمع بين العيد والفرح حتى بلغ به الأمر أن أرسل إلى ثغرى تنيس ودمياط فاحضر سائر من كان بهما من الجند والخراجين والزراقين وغيرهم.

ويبدو أن وقع غزوة الروم كان شديداً، فأمر الخليفة المتوكل والى مصر ببناء حصن على البحر بتنيس وأنفق فيه وفي حصن دمياط والفرما مالاً عظيماً.

وفي عهد الدولة الطولونية أثناء ولاية الأمير أبو موسى هرون بن خمارويه أضطربت أحوال مصر إلى أن ورد الخبر بموت الخليفه العباسي المعتضد بالله ومبايعة إبنه محمد المكتفى بالخلافة (٢٨٩/٢٩٥هـ) (٩٠٨/٩٠١م). وعندما خرج القرامطه بالشام سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م - وكانت تابعه لمصر - جهز والى مصر جيشا لمحاربتهم، ولم يستطع هذا الجيش إخراجهم من الشام بل حلت به الهزيمة. ثم وقعت بين هرون وبين الخليفه وحشة وتزايدت إلى أن أرسل المكتفى لحربه محمد بن سليمان الكاتب، فسار بن سليمان من بغداد إلى حمص وبعث بالمراكب والأسطول من الثغور إلى سواحل مصر، فخرج هرون لدفع محمد بن سليمان عن دخول مصر وأرسل المراكب الحربية لقتاله. وفي تنيس ألتقى الأسطولان العباسي والمصرى فحلت الهزيمة بأسطول مصر ووقعت تنيس في يد محمد بن سليمان.

وعندما وصل محمد بن سليمان إلى مصر بالجند كان الأمير عيسى النوشرى من جملة القواد الذين قدموا معه، فأرسله بن سليمان إلى الخليفة يخبره بانتصاره، وتوجه عيسى إلى العراق. فلما وصل إلى دمشق وافاه كتاب الخليفة بولايته على مصر. ثم ورد كتاب الخلافة إلى جماعة من القواد ممن كان في معسكر بن سليمان من بينهم «مهاجرين طليق» بتقليده ثغر تنيس ودمياط.

وتجدر الأشارة إلى اهتمام الطولونين بالبحرية، ولكن السيادة في البحر في ذلك العصر كانت لبنى الأغلب. والمعروف أن أسطول الخلافة في طرسوس هو الذى قام بقيادة دميانه بمساعدة القائد محمد بن سليمان في حملته على مصر، ونجح في القضاء على الأسطول الطولوني في تنيس.

وأثناء ولاية أحمد بن كيغلغ الأخشيدى سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م من قبل القاهر محمد. وبعد تولية الخليفة الراضى بالله محمد بن المقتدر ورد كتاب بتولية الأمير محمد بن طغج على مصر وعزل احمد بن كيغلغ، فانكر الأخير ذلك وتهيأ لحربه، وجهز إليه عساكر مصر ومعه المغاربه ليمنعوه من الدخول إلى الفرما، وأرسل محمد بن طغج قسما من جيشه في أسطول والتقى مع عساكر أحمد بن كيغلغ، والملح هذا الأسطول في الأستيلاء على تنيس ودمياط بعد موقعة هائلة وقتال شديد في السابع عشر من شهر شعبان سنة ٣٢٣هـ/٩٣٤م وسلم الأمر إلى محمد بن طغج. وفي سنة ٣٤٨هـ ٩٥٩م وصلت مراكب من [فرنجة] صقليه فنهبوا مدينة تنيس.

وإبان العصر الفاطمي. ترتب على استيلاء الفاطمين على دمشق وقوعهم في نزاع مع القرامطه. وذلك أن دمشق كانت تدفع الجزية لزعيم القرامطه ردحاً من الزمن، فغدت هذه الجزية لا تدفع إليهم بعد إستيلاء الفاطمين على هذه المدينة. وعندما سار جعفر بن فلاح - أحد قواد جوهر الصقلي - لملاقاة الحسن القرمطي دارت رحى الحرب بين الطرفين فاسر جعفر وقتل ووقع كثيرون صرعى في حومة القتال في شهر ذى القعدة سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧١م. وعندئذ أسرع الحسن بالسير نحو الجنوب بعد إستيلاءه على دمشق فمر بالرمله وانقض على مصر وهاجم الفرما والقلزم على غره. وتحكم بذلك

على برزخ السويس فاعترفت بسلطانه مدينة تنيس، ومن ثم تقدم داخل البلاد وعسكر برجاله في عين شمس وهدد القاهرة.

ولما تلقى جوهر نبأ وصول الحسن إلى برزخ السويس شرع في إعداد وسائل الدفاع، وبعد محاولات وخدع أرغم القرامطه على الرجوع إلى القلزم. وكان ذلك في الوقت الذى وصلت الأمدادات إلى الفاطميين من القيروان، فتقوى بذلك جوهر وزحف إلى تنيس واستولى عليها.

وبعد مقتل الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م أحضرت أخته ست الملك خطير الملك الوزير وعرفته الحال واستحلفته كتمان الخبر والطاعه والوفاء، وطلبت منه مكاتبة ولى العهد وكان مقيما بدمشق نيابة عن الحاكم - بأن يحضر، فكتب إليه بذلك، وأرسلت على بن داود أحد القواد إلى الفرما وقالت له: «إذا دخل ولى العهد فأقبض عليه وأحمله إلى تنيس، ثم كتبت إلى عامل تنيس بارسال ما عنده من المال، فأرسله وهو ألف ألف دينار وألف ألف درهم خراج ثلاث سنين، وجاء ولى العهد إلى الفرما فقبض عليه وحمل إلى تنيس.

وقد حدث في مستهل شهر المحرم سنة ٤٥٠هـ/١٠٨٥م أثناء خلافة المستنصر بالله الفاطمي أن قبض الخليفة على وزيره الناصر للدين عبدالرحمن اليازورى، وسبب ذلك أنه وشي به للمستنصر أنه يكاتب طغر لبك السلجوقي ويحسن له المجيء إلى مصر، وأنه أخرج أمواله مع ولده إلى بيت المقدس.

وكان أن أخرج الخليفة وزيرة إلى تنيس ومعه نساؤه وأولاده الصقالية، وأخرج الوزير ليلا وضربت رقبته في أسفل دار الأمارة بتنيس وحملت رأسه إلى المستنصر.

وفي سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م تفاقم الحال واختلفت أحوال مصر، وعجز الخليفه المستنصر الفاطمي أن يصنع شينا لعلاجها فاستدعى واليه على عكا أمير الجيوش بدر الجمالي، فلبى الدعوه بشرط أن يستقدم معه عسكره من الأرمن بنى جنسه. وسار بدر الجمالي في مائة مركب أربعين يوما حتى وصل دمياط في شتاء سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م فأقام بها وتوجه إلى تنيس ليقترض من تجارها مالاً، مما يدل على نشاط تنيس التجارى وثراء تجارها في الوقت الذى كانت بقية بلاد مصر تعانى شدة عظمى.

وفي أواخر عهد المستنصر، لم يحاول الفاطميون العمل على محاربة النورمان الذين أستولوا على صقلية، فخرجت بذلك عن حكم الفاطميين، بل وجدنا الخلفاء بعد المستنصر يقيمون علاقات سلميه مع النورمان وبخاصة في المجال التجارى ولكن ظهور ملوك متعصبين منهم ومشاركتهم الصليبين الذين هددوا الشرق الأوسط جعلهم يغيرون من سياستهم نحو الفاطميين حتى أنهم أغاروا على موانيء مصر مثل تنيس ودمياط والاسكندرية في أواخر أيام الدولة الفاطمية.

وفي إطار الحركة الصليبية يمكن القول بأن مملكة بيت المقدس الصليبية وصلت سنة ٥١٠هـ/١١١٦م على يد ملكها بلدوين الأول إلى حدودها التاريخية المعروفة. ولم يبق بعد ذلك أمام بلدوين إلا أن يهاجم الفاطميين في عقر دارهم ليشعرهم بقوته بعد أن أحس هو بضعفهم.

وكان أن أستطاع بلدوين أن يعبر الصحراء الممتدة من غزه حتى العريش والفرما دون أن يتعرض لتهديد من جانب العدو. ولم يلبث أن وصل الصليبيون في سنة ٥١٢هـ/١١٨م واستولوا عليها ثم أتجه غربا نحو مصب النيل. ويروى إبن الأثير أن بلدوين الأول وصل إلى مدينة تنيس في بحسر المنزلة، ولكن الأسطول الصليبى توقف ببحيرة المنزلة وتنيس ولم يستطع التقدم في النيل جنوبا صوب القاهرة.

وفي سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م وصلت إلى تنيس من موانيء صقليه نحو أربعين مركبا فحاصروها يومين، ثم وصل إليها

٦١: مينا البطرك ٩٥٦/٩٧٤م

من صقليه أيضا سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م نحو أربعين مركبا فقاتلوا أهل تنيس حتى ملكوها. وكان محمد بن اسحق صاحب الأسطول قد حيل بينه وبين مراكبه فاندمج في طائفة من المسلمين إلى مصلى تنيس، فلما أجنّهم الليل هجم بمن معه على الفرنج وهم في غفلة فأخذ منهم مائة وعشرين فقطع رؤوسهم فاصبح الفرنج إلى المصلى وقاتلوا من بها من المسلمين، فقتل من المسلمين نحو السبعين وسار من بقي منهم إلى دمياط، فمال الفرنج على تنيس والقوا فيها النار فاحرقوها وعادوا وقد امتلأت أيديهم بالغنائم والأسرى إلى الاسكندرية بعد ما أقاموا بتنيس أربعة أيام.

وبقدوم سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م نزل فرنج عسقلان في عشر حراريق على أعمال تنيس وعليها رجل منهم يقال له المعز فأسر جماعه، وكان على مصر الملك العادل من قبل أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف، فثار به المسلمون وقاتلوه وقبضوا عليه وقطعوا يديه ورجليه وصلبوه.

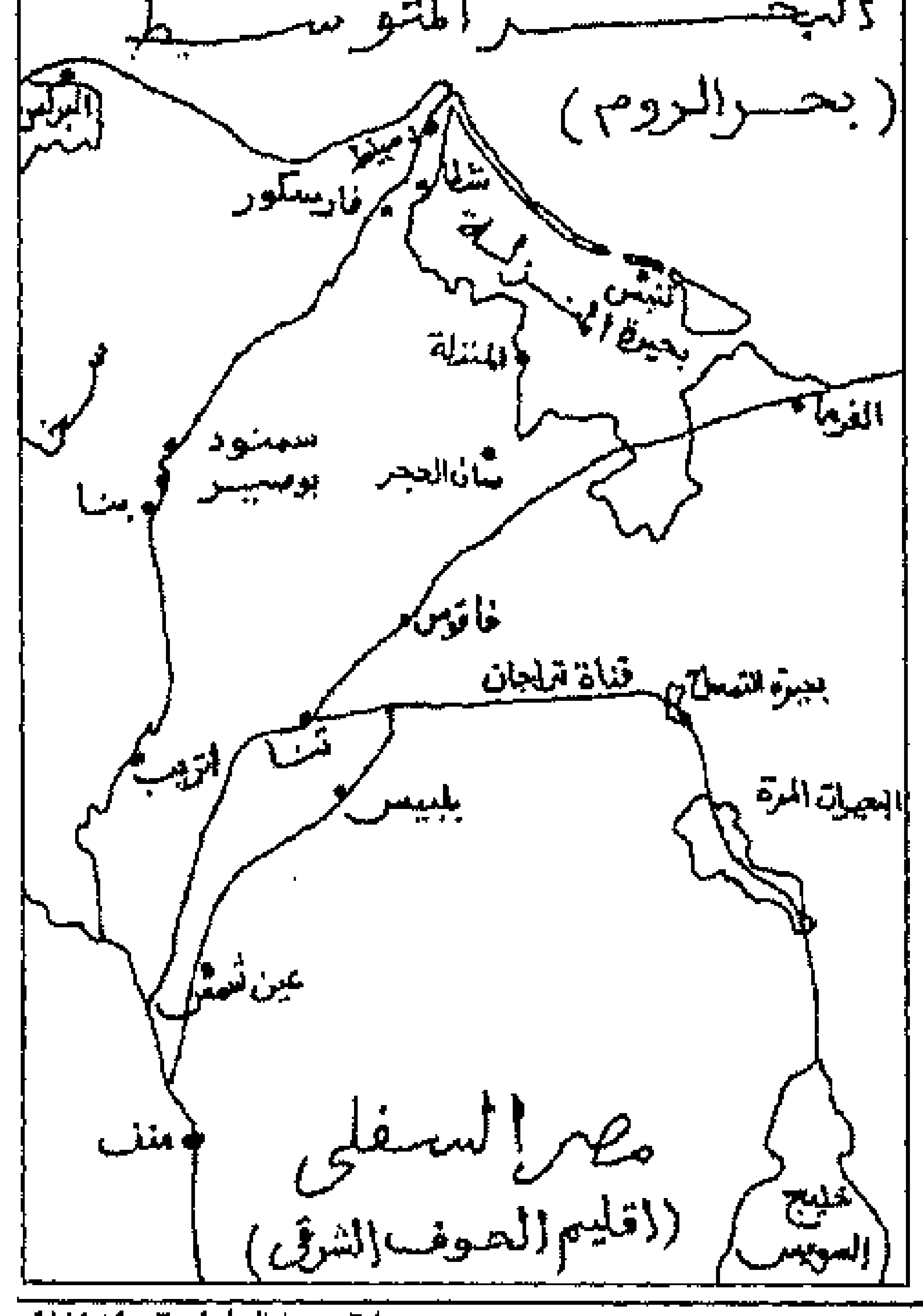
ثم أمر صلاح الدين سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، عقب صلح الرمله مع الصليبين باخلاء تنيس ونقل أهلها إلى دمياط فأخليت في شهر صفر.

ثم أمر الملك الكامل محمد ابن العادل أبي بكر الأيوبي في سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م باخراج سكان تنيس منها ونقلها إلى دمياط، كما أمر بهدم ما بقي من سورها وبيوتها فاندفعت مياه البحر لتغرقها ولم يبق منها إلا رسومها في بحيرة المنزلة وفي اعقاب ذلك هرب سكانها من المصريين الأقباط إلى صحارى الشرقية والى خارج مصر حتى أن بعضهم ذهب إلى بلاد الحبشة؛ كما حدث في أيام الحاكم بأمر الله سابقا.

مكانة تنيس الاقتصادية

أشتهرت مصر منذ أقدم العصور بزراعة الكتان وصناعته فضرب المصريون بسهم وافر في زراعته واهتموا إهتماما كبيرا بأن ينسجوا من أليافه أنفس منسوجاتهم التي كانت تصنع منها الملابس الفاخرة. ومن أجل ذلك عنوا بزراعة الكتان وحصاده للحصول على الياف كتانية جيدة تسمح بغزل خيوط دقيقة.

ولما كانت الأراضي التي



٦١: مينا البطرك ٩٥٦/٩٧٤م

يرويها النيل متفاوته فى المستوى فإن نصيبها من الماء تباين حسب إرتفاعها وانخفاضها، بمعنى أن أوطأ الأراضى كانت أوفرها ماء، وهى التى تظل مغمورة بالماء أطول مده مما يجعلها أصلح الأراضى لزراعة الكتان. وكان أن تركزت صناعات المنسوجات الكتانية فى مصر فى العصور الوسطى فى تنيس ودمياط وشطا ودبيق والبهنسا وأسيوط. وهى الأماكن المنخفضة الكثيرة المياه مما جعلها موضع إهتمام المصريين وعنايتهم بزراعة الكتان.

ويذكر ياقوت الحموى الذى عاش فى أوائل القرن السابع الهجرى أن نساجي الثياب فى تنيس ودمياط من القبط مما جعل العرب يطلقون على المنسوجات المصرية إسم قباطى.

وقد أسهمت حكومات مصر فى العصور الوسطى فى صناعة النسيج، حتى أنها كادت تسيطر على تلك الصناعة. والواقع أن هذه السيطرة لم تكن من إبتكار الحكام المسلمين، وإنما أخذوها عن خبراتهم السابقة القديمة. كما أنه من الثابت أن البيزنطيين أنشأوا فى مصر مصانع حكوميه للنسيج إلى جانب المصانع الأهلية. ولما جاء المسلمون أبقوا على هذا النظام وعرفت مصانع النسيج باسم الطراز مشتق من الفارسيه (ترازيدان) وتراز يعنى التطريز. ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير أو السلطان ورجال الحاشية أصحاب المناصب العالية لاسيما إذا كان فيها شيء من التطريز وعليها أشرطه من الكتابة وأتسع مدلول هذه اللفظ حتى أنتهى فى العربية والفارسيه إلى الدلالة على المصنع والمكان الذى تصنع فيه هذه المنسوجات. ونقل المقريزى عن ابن الطوير حديثا طويلا عن صاحب الطراز وحقوقه وواجباته وهذا نصه: «الخدمة فى الطراز وينعت بالطراز الشريف ولا يتولاه إلا أعيان المستخدمين من أرباب العمائم والسيوف وله اختصاص بالخليفة دون كافة المستخدمين ومقامه بدمياط وتنيس وغيرها.

وقد عنى الخلفاء والأمراء المسلمون بكتابة أسمائهم على الأقمشة الثمينة التى كانوا يتخذونها ملابس لهم أو خلعا يخلعونها على كبار رجال دولتهم، وكانت الكتابة على النسيج بلحمه من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان، وكانت الكتابة تشمل إسم الخليفة وألقابه وبعض عبارات الأدعية، وكثيراً ما كان يذكر فيها رسم المدينة التى فيها طراز واسم الوزير وصاحب الخراج وناظر الطراز.

وكان المركزان الكبيران لصناعة نسيج الكتان فى مصر هما الفيوم وبحيرة تنيس بنواحيها، وهى مدينة تنيس ودمياط وشطا ودبيق، وغدت تنيس ودمياط أكبر مركزين لصناعة النسيج.

ويقول إبن حوقل فى كتابه «المسالك والممالك» «من جليل مدنها وفاخر خواصها ما خصت به تنيس ودمياط، وفيهما يتخذ ويعمل رفيع الكتان وثياب الشروب (المقصود الثياب التى تتشرب العرق) والدبيقى والمصبغات من الحلل التنيسية التى ليس فى الأرض ما يدانيها من القيمة والحسن والنعمة والترف والدقة، وربما بلغت الحله من ثيابها مائتين دينار إذا كان فيها ذهب، وقد يبلغ ما لا ذهب فيه منها مائة دينار وزائداً وناقصا وان كان شطا ودبيق ودميره وتونه وما قاربهم بتلك الجزائر يعمل فيها الرفيع من هذه الأجناس، فليس ذلك بمقارب للتنيسى والدمياطى والشطوى».

وكان بتنيس من مناسج القماش نحو خمسة آلاف منسج، وأختصت بصنع الثياب السريه وكسوه الكعبة. ويقول الفاكهى فى كتابة أخبار مكه «رأيت كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها «بسم الله بركة من الله مما أمر به عبدالله المهدى محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد بن سليمان أن يصنع فى طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عاملة سنة ١٥٩هـ». ويقول رأيت كسوة من كسا

المهدى مكتوبا عليها «بسم الله بركة من الله لعبدالله المهدى محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر به إسماعيل بن ابراهيم أن يصنع فى طراز تنيس على يد الحكم بن عبيده سنة ١٦٢هـ».

ولقد برزت مدينة تنيس فى صناعة المنسوجات الكتانية وأخذت هذه الصناعة فى الأزدهار وبلغت ذروة مجدها إبان عهد الدولة الفاطمية إذ بلغت من التقدم والرقى قدراً كبيراً لم تشهده مصر الإسلامية فى أى عهد من عهودها.

ومما يدل على عظمة تنيس فى النسيج وتقدمها فى هذه الصناعة وقتئذ أنه كان يصنع بها للخليفة ثوب يقال له «البدنة» لا يدخل فيه من الغزل - سداه (السدى من الثوب خلاف اللحمه وهو ما مد من خيوط النسيج) ولحمه - غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب صناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة وتبلغ قيمته ألف دينار، ولم يحفظ لنا التاريخ أن قطعة نسيج تبلغ قيمتها ألف دينار إلا فى مدينة تنيس ودمياط.

وإلى جانب هذه الثياب الجيدة، ثياب رفيعه مهلهلة النسيج كأنها المنخل وهى المسماة «القصب» وكان هذا القصب يلون والملون منه ينسج بتنيس ولم ينسج فى أى مكان آخر قصب ملون مثله، وكانت تصنع منه عمائم الرجال والوقايات وملابس النساء.

كذلك أشتهرت مدينة تنيس بصناعة الحرير القرقبى المنسوج بالذهب، ووجدت فى خزائن المعز لدين الله خريطة كان قد أمر بعملها سنة ٣٥٣هـ/ ٩٧٤م من هذا الحرير زرقاء اللون مبينا عليها بالذهب أقطار العالم بما فيها من جبال وبحار وأنهار وطرق ومدن.

وبمدينة تنيس صناع مختصون بنسيج ملابس السلطان فى مصانع خاصة تنسج بها أثوابه. ويروى الرحّاله ناصر خسرو أنه سمع عن عامل نسج عمامة السلطان فأمر له بخمسمائة دينار مغربى. وشاهد هذه العمامه ويقال أنها تساوى أربعة آلاف دينار مغربى. وما يصنع فى هذه المصانع لا يعرض فى الأسواق ولا يعطى أو يمنح لأحد، ويذكر أيضا أن ملك فارس أرسل رسله إلى مدينة تنيس بعشرين ألف دينار ليشترى له بها حلة من كسوة السلطان وبقى رسله هناك عدة سنين ولم يستطيعوا شراءها.

واشتغلت المناسج المصرية فى خلافة العزيز بالله الفاطمى بصنع ثوبين جديدين من النسيج هما العتابى والسقلاطون (كلمه يونانيه تطلق على ثياب كتانية موشيه) وينسب الأول إلى أحد أحياء بغداد والثانى إلى بلاد الروم، ويمكن تعليل ذلك بحسن العلاقة بين العزيز وعضد الدولة، والصلح مع الروم سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م.

وفى القرن الخامس للهجرة ظهر نوع جديد من القماش وهو المسمى أبا قلمون (نسبة إلى قلمون أو أبو قلمون وهى الحربايه (من اليونانية kham ailen والفرنسية icomeleon) بمعنى أسد الأرض أو الحربايه، وأطلق هذا الأسم على نوع من النسيج. ومن خواصه أن يظهر بألوان شتى على حسب تعرضه للشمس والوضع الذى يكون فيه واختلاف ساعات النهار.

ويذكر المقدسى أن أبا قلمون هى دابه تحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وبرها وهو فى لين الخز لونه لون الذهب لا يغادر منه شيئاً وهو عزيز الوجود فيجمع وينسج منه ثياب تتلون فى اليوم ألوانا، وربما بلغ ثمن الثوب عشرة آلاف دينار). من الحرير المتغير الألوان. وكان يصنع فى مدينة تنيس وحدها ولا ينسج فى مكان آخر من العالم، وتصنع منه أستار هوادج الجمال ولبود (جمع لبده وهى الجزء المرتفع الوثير من سرج الخيل أو برذعة الحمار). سروج الخيل الخاصة بالسلطان وكان يصدر إلى بلاد المشرق والمغرب. واحتل هذا النوع مكانه مرموقه فى أسواق القسطنطينية.

والشـواهد كـثـيـرة على مـا تمتعت به تنيس من شهرة فائقة حتى أصبح يضرب بها المثل فى جودة إنتاجها من الثياب. فقد روى إبن خلكان أنه وصل إلى حضرة سيف الدولة الحمدانى الشاعران المشهوران أبو بكر محمد وأبوعثمان سعيد إبنا هاشم، ومدحاه، فأنزلهما بضيافته: وقام بواجب حقهما وبعث لهما مره وصيفا ووصيفه ومع كل واحد منهما بدره (البدرة: عشر آلاف درهم) وتخت ثياب من صنع مصر.

إلا أن هذه الصناعة المتميزة والتى أشتهرت بها هذه المدينة، فقدت كثيراً من العناية بها منذ أواخر عهد الدولة الفاطمية، نتيجة للظروف والأحداث التى مرت بها، والتى من أهمها ما أصيبت به مصر من شدة عظمى في عهد الخليفة المستنصر بالله. وكذا ما مرت بها من أحداث وأضطرابات سياسيه إبان عصر الأيوبيين والمماليك والتى ترتب عليها القضاء على مركز هام لصناعة المنسوجات فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى)، عندما أمر الملك الكامل بهدم مدينة تنيس.

وإلى جانب صناعة المنسوجات عرفت تنيس صناعة المعادن وأهمها الحديد حيث صنعوا منه المقصات والسكاكين.

واعتقد أن صناع المقصات هذه حتمتها وجود صناعة المنسوجات القائمة للحاجة إليها فى قص القماش وتفصيله.

ويذكر ناصر خسرو أنه رأى مقراضا صنع بتنيس ثمنه خمسة دنانير مغربية يفتح إذا رفع مسماره ويقص إذا أنزل.

وكانت صناعة السلاح المتخذ من الصلب من الصناعات التى كادت تبلغ فى تنيس مبلغ منسوجاتها من الوفرة والجودة. وكان هذا السلاح ينقل بواسطة السفن مع المقاتله لغزو بلاد الروم عن طريق الموانى ومنها تنيس التى أقام بها جيش كامل السلاح والعدة لوقت الطوارىء.

وكان من الطبيعى أن يترتب على تلك الصناعات وزيادة إنتاجها وسهولة إتصال تنيس بداخل البلاد وخارجها، وجود نشاط وعلاقات تجارية مع مختلف الدول.

وعلى الرغم من عدم إستقرار الحالة السياسية وسوء العلاقات بين الدولة البيزنطية ومصر منذ الغزو العربى لم تتوقف العلاقات التجارية، إذ كانت بيزنطه فى حاجة إلى بعض المصنوعات المصرية الممتازة مما تنتجه مناسج تنيس ويقبل عليها الأباطرة لتزيين قصورهم، كما أهدى البابوات الكنائس المسيحية فى أوربا كثيراً من هذه الأنواع.

وقد كان لموقع تنيس وارتباطها بشبكة من المواصلات الداخلية والخارجية أثر واضح فى نشاطها التجارى، فهى على إتصال بشرق الدلتا بواسطة خليج من فرع دمياط يصب فى بحيرة المنزلة. وفى هذا يقول الأدريسى الرحالة الجغرافى الذى زار مصر فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى). «إننا إذا أردنا المسير من دمسيس إلى تنيس متتبعين فرع النيل الرئيسى كان علينا أن نتوجه أولا إلى طلخا حيث ينقسم هذا الفرع إلى خليجين أحدهما يجرى غربا إلى دمياط والآخر يتجه شرقا إلى تنيس».

كما كانت حركة الملاحة فى النيل بالغة النشاط، فقد شاهد ناصر خسرو فى ساحل مدينة مصر من السفن أكثر مما رآه فى بغداد والبصرة، وكان عند تنيس دائما نحو ألف مركب بعضها للتجار ومنها أيضا للسلطان، حيث يجلب إليها كل ما تحتاجه وتجرى المعاملات فيها بالسفن فلا طريق إليها إلا بذلك.

أما إتصال مصر البحرى بمدن وسواحل الشام، فكانت تنيس إحدى مراكز هذا الأتصال الهام إلى جانب الاسكندرية ودمياط. فبعد مغادرة الساحل الشمالى لمصر تسير المراكب بحذاء الساحل الشامى مارة بعسقلان وقيساريه ويافا.

كما كان هناك أتصال بحرى

بين تنيس والقسطنطينية وجزيرة قبرس، وأهم ما كانتا تشتغلان باصداره المنتجات المحلية وكانت السفينة تقطع المسافة بين تنيس والقسطنطينية في عشرين يوماً.

وقد ورد في الأخبار أن تجارة تنيس مع العراق في القرن الرابع الهجري وحده بلغت من عشرين ألفا دينار إلى ثلاثين ألف في السنة الواحدة.

وقامت تنيس بدور تجاري هام مع كثير من الدول الأفريقية والأسيوية، فذكر اليعقوبي أن مراكب بلاد المغرب كانت ترد إلى ثغر تنيس.

وذكر المقريزي أن ما كان يحمل من ثغور تنيس والاسكندرية ودمياط إلى عسقلان وصور من المنتجات الزراعية بلغ مائة وعشرين ألف أردب من الغلال.

أما المسبحي فقد ذكر في حوادث سنة ٣٨٤هـ «وفي ذي العقدة ورد يحيى بن اليمان من تنيس ودمياط والفرما بهديته وهي أسفاط (جمع سفط، وهو ما يعبىء فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء). وتخوت وصناديق مال وخيل وبغال وحمير وثلاث مظال وكسوتان للكعبة. وفي ذي الحجة سنة ٤٠٢هـ وردت هدية تنس الواردة في كل سنة منهما خمس نوق مزينة ومائة رأس من الخيل بسروجها ولجمها وصناعات عدة.

وبفضل نشاط مدينة تنيس التجاري أسهمت في إنعاش ايرادات الحكومة ـ خاصة في العصر الفاطمي ـ عندما أهتم الخلفاء بتنمية موارد بيت المال وتنظيم مصارفه، ففرضت الرسوم على التجارة والصناعة خاصة صناعة النسيج في مراحلها المختلفة إلى جانب الجزيه والخراج والضرائب المفروضه على الصناع والأجراء.

ويبدو أن المسلمين لم يحاولوا في أول الأمر التدخل في النشاط الاقتصادي للأفراد أو الحد من مكاسبهم، ولكن مع مرور الوقت أزدادت المكوس والضرائب حتى أن المقداسي الذي زار مصر في أوائل عهد الفاطميين يقول «أما الضرائب فثقيله بخاصة تنيس ودمياط، ويوجد بتنيس على زق الزيت دينار ومثل هذا وأشباهه، رأيت بساحل تنيس ضرائبيا جالسا قيل: قبالة [إيراد] هذا الموضع في كل يوم ألف دينار ومثله عدة على ساحل البحر بالصعيد وساحل الاسكندرية».

وقد بلغ من شدة وطأة الضرائب بتنيس وكثرة الرسوم أن أهلها شكوا منذ أوائل القرن الثالث للهجرة ـ التاسع للميلاد إلى البطريك وهو مسار بمصر حوالي سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٥م أن الواحد يلزم يدفع خمسة دنانير في كل عام وهو مبلغ لا يقدرون عليه، ولكنه يحصل منهم بقسوة.

كذلك فرض العرب ضرائب على التجارة الخارجية التي تمر بالثغور أو التي ترد إليها أو تصدر منها، فكانت المكوس تجبى في الثغور الاسلامية ومنها تنيس، وهي تشتمل على عدة معاملات مثل الزكاة والجوالي ودار الضرب وواجب أهل الذمة والمواريث الحشرية.

ويروي ناصر خسرو أنه سمع من الثقات أنه يصل من مدينة تنيس لخزانة سلطان مصر يوميا ألف دينار مغربي ويصل ذلك المقدار مرة واحدة يحصله شخص واحدة يسلمه أهل المدينة إليه في وقت معين وهو يسلم للخزانه فلا يتأخر منه شيء.

ولا أدل على أهمية تنيس الأقتصادية من أنه منذ العصر الفاطمي صار لها ـ ولعيذاب أيضا ـ والي يحكمها ويشرف على شئونها. وكان يخلع على هؤلاء الولاه من خزانة الكسوة «بالبدنه» وهو نوع الثياب الذي يلبسه الخليفه الفاطمي في يوم فتح الخليج (وفاء النيل).

ويصف ناصر خسرو مدينة تنيس بعد رحلته إليها فيقول «أنها جزيرة ومدينة جميلة بعيده عن الساحل بحيث لا يرى من أسطحها، والمدينة مزدحمة وبها أسواق فخمة، وقد يبلغ عدد

لدكاكين بها عشرة آلاف منها مائة دكان عطار، وطول المدينة من الجنوب إلى الشمال ثلاث آلاف ومائتى ذراع، وعرضها من الشرق إلى الغرب ثلاثة آلاف وخمسة وثمانين ذراعاً. وكان لها تسعة عشر بوابه مصفحة بالحديد، كما كان بها ستة وثلاثون حماما ومائة معصرة للزيت والسيرج والقصب، ومائة وستون طاحونا. ومن الحوانيت ألفان وخمسمائة حانوت برسم البضائع. وبها نحو مائة وستين مسجداً، وبكل مسجد منارة. وبها جامع طوله مائة ذراع وعرضه إحدى وسبعون ذراعاً يوقد فيه كل ليلة ألف وثمانمائة قنديل، وبها إثنتان وسبعون كنيسه ومخبزاً، وقد هدم الحاكم كنائسها وبنى محلها مساجد.

وعن سور المدينة يذكر ياقوت الحموى أن سور تنيس أبتدىء فى بنيانه فى شهر ربيع الأول سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م وكان والى مصر يومئذ عيسى بن منصور بن عيسى الخراسانى من قبل إيتاخ التركى فى ايام الواثق بن المعتصم وأنتهى منه سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣ فى ولاية عنبسه بن إسحق فى عهد المتوكل.

وفى الحق أن ثروة مصر الضخمة مكنت الفاطميين من بسط سلطانهم على الشام وفلسطين والحجاز، يضاف إلى ذلك أن نظام الضرائب الذى وضعه يعقوب بن كلس وعلوج بن الحسن كانت نتيجته أن زاد خراج مصر بمقدار كبير، وقد أسهمت تنيس بشكل واضح فى تلك الزيادة. فصار خراج مدن تنيس ودمياط والأشمونين يزيد عن ٢٠٠,٠٠٠ مائتين ألف دينار وذلك أمر لم تعهده مصر من قبل.

وهكذا يمكن القول أن عوامل كثيرة مختلفة تضافرت حتى جعلت تنيس فى ذلك المركز السامى، فبالاضافة إلى ما سبق أن ذكرناه عن بيئة تنيس وصلاحية تلك البيئة لزراعة الكتان، وموقعها الفذ الذى مكنها من الأتصال التجارى مع الداخل والخارج، يمكن أن نضيف إلى كل ذلك مهارة أهلها من الأقباط.

وقد مرت مدينة تنيس بأدوار من القحط والفقر، قبل أن تنتعش فى فترات لاحقه. من ذلك أن البطرك ديونيسيوس الذى زار مصر سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٥م يصف تنيس فيقول «ومع أن مدينة تنيس عامره بالسكان كثيرة الكنائس فأنى لم أر من البؤس فى بلد أكثر من بؤس أهلها، وقد سألتهم عن مصدر هذا البؤس فأجابونى «إن مدينتنا محاطه بالماء فلا نستطيع زرعا ولا تربية ماشية والماء الذى نشر به يجلب لنا من بعيد ونشترى الجره منه بأربعة دراهم ولا شغل لنا سوى نسج الكتان، فنساؤنا تغزله ونحن ننسجه ونعطى عن ذلك نصف درهم فى اليوم من تجار الأقمشة. ومع أن أجرتنا لا تكفى لا طعام كلابنا، فإن على كل منا أن يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنانير، ومن أجل ذلك نضرب ونسجن ونلزم باعطاء أبناءنا وبناتنا رهائن فيلزمون بالعمل كالعبيد سنتين لأجل كل دينار، ولو ولدت عندهم إمرأة طفلا فأنهم يأخذون قسمنا بأن لا نطالب به، وقد يحدث أن تحل ضرائب جديدة قبل إطلاق هؤلاء النساء».

وفى سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م مات أسقف تنيس وكان بينه وبين البطريق وحشه، وولى الأخير على تنيس أسقفا من أنصاره من أهل تنيس، فانقسم هؤلاء والأقباط حزبين أحدهما مع البطريق والآخر ضده «وقام لكل حزب من الحزبين غرض فى نصرة هواه، حتى كان الأب لا يكلم إبنه ولا المرأة تخاطب بعلها». وانتشرت المحرمات بينهم وصارت القرابين تنتقل من هيكل إلى هيكل وتكسر على المذابح ويستعين كل فريق منهم على الآخر بالسلطان، حتى خرج جماعة من المناوئين للبطريرك وذهبوا إلى الأمير أبو بكر محمد بن طغج الأخشيد، فوجه معهم قائداً فى طائفة من الجند، فاغلق الكنيسة الجامعة ومنع الصلاة

٦١ : مينا البطرك ٩٥٦/٩٧٤م

فيها وقبض على الأسقف والبطريرك، وأحضر محتويات الكنيسة إلى الفسطاط.

وفي تاريخنا هذا «تاريخ البطاركة» قيل أنه كان بتنيس مجموعه من شباب المسلمين خارجين عن طاعة الأمير يجبون من الأهالي جبايات وينهبون البيوت ويفعلون أفعالا قبيحة، فأرسل المعز عسكراً لقتال المدينة بناء على شكوى النصارى فقاوم العصاة العسكر، ثم التجأوا للدخول تحت الطاعة بسبب قلة المياه العذبة، فدعا أمير الجيوش العصاة واستضافهم لمدة ثلاثة أيام وأهدى لكل واحد منهم خلعة وعشرة دنانير، وكان عددهم مائة. ثم أمر بشنقهم جميعاً على أسوار المدينة.

ومن تلك الشورات أن السودانيين ثاروا بمدينة تنيس على عهد الخليفة الفاطمي الظاهر لاعزاز دين الله. (٤١١/٤٢٧هـ - ١٠٢٠/١٠٣٥م) وطالبوا بأرزاقهم وعاثوا وأفسدوا في المدينة واعتدوا على الناس وقطعوا الطرقات وأخذوا من المودع (صندوق لحفظ مال مخصص لغرض معين، ومودع الحكم صندوق يوضع في عهده قاضي القضاة لحفظ أموال اليتامى القصر وأموال الغائبين). ألف وخمسمائة دينار. فبعث إليهم الوزير الفاطمي نجيب الدولة على بن أحمد الجرجرائي على رأس خمسين فارساً للقبض على الجناه واخضاع ثورتهم.

ولقد عاش بمدينة تنيس وعمل بها اسقفنا ساويرس بن المقفع والذى توفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)، وكذلك الانبا ميخاييل الذى كان اسقفا لتنيس وكاتبا لأحد ذيول تاريخ البطاركة خاصة سيرة عشرة بطاركة أولهم خايال الثالث وآخرهم شنوده.



الزمان من شباب شجعان كانو فيها قد تغلبو عليها، ونهبو مال جماعة من الاغنيا الذين فيها، وقطعو على اهلها مال اخذوه منهم، وكانو مجتمعين ياكلو ويشربو ، وكان كل واحد منهم يفعل ما يريده حتى انهم اخذو البنات الابكار من والديهم غصبا وكذلك النسوة، وما كان احد يجسر يخاطبهم، وكان فى تنيس قوما من النصارى يعرفو باولاد قشلام، وانما سمو بهذا الاسم لسبب فعله ابوهم، وذلك ان ابوهم كان

فكان المريض اذا ادخل تنزع ثيابه ويودع ما معه من المال عند أمين المارستان ثم تقدم له ثياب أخرى وينزل به فى مكان تتوافر فيه وسائل الراحة، كما كان يعطى الأدوية والأغذية مجانا حتى يتم شفاؤه. وبلغ من عناية ابن طولون بهذا المارستان وحرصه على راحة المرضى، أنه كان يتفقده بنفسه كل يوم جمعة فيطوف على خزائن الأدوية ويتفقد أعمال الأطباء ويشرف على المرضى ويبالغ فى مواساتهم وادخال السرور عليهم.

ولم تكن هذه الانشاءات العظيمة هى كل ما فعله أحمد بن طولون من أجل مظاهر استقلاله، أو من أجل المصريين، وانما قام ابن طولون بكثير من التعمير والاصلاح الذى ينم عما ينتظر من أمير يريد تأسيس مملكته فى قلوب الناس. فقد ذكرت المصادر التاريخية كثيرا من أوصاف هذه المنشآت. ومن تلك المنشآت مسجد التنور الذى أقامه ابن طولون فى أعلى جبال المقطم بعد أن ضاق جامع العسكر بالمصلين من جند الأمير وعامة الشعب.

كذلك أصلح ابن طولون مقياس النيل بالروضة، كما قام بتطهير الخليج الذى ربط الاسكندرية بنهر النيل. ومن ضمن اصلاحاته أيضا اصلاح منارة الاسكندرية.

وقد استغرقت هذه الأعمال البنائية مدة طويلة وأموالا كثيرة.. وهكذا لم يعد دخل مصر يتسرب الى بيت مال الخلافة أو الى جيوب الولاة وأصحاب الاقطاع، بل بقيت أموال مصر فيها وبدأ وادى النيل حياته لنفسه فى مجموعة الأمم الاسلامية.

وقد استكمل خمارويه بن أحمد بن طولون منشآت أبيه، وتطورت الحياة فى مصر تطور

٦١: مينا البطرك ٩٥٦/٩٧٤م

رجلا حكيما ولما راى ظلم تلك الشجعان قد كثر
وعلا كتب الى الملك المعز يطلب منه معونة، وقال
فى كتابه ان فى مملكتك مدينة تسمى تنيس فيها
الف غلام مسلمين يفعلو كذا وكذا، وشرح له
جميع افعالهم، والان فيجب ان ينفذ الامير احد
من عنده ليكون واليها، ويكون معه عسكر جيد،
فاذا وصل الينا فانا اساعده فيما يحتاج اليه. فانفذ
المعز اليها رجلا كتامى اسمه مشعلة ومعه رجال
كثيرة فلما وصل اغلقو ابواب المدينة فى وجهه

كبيرا، وظهر فى القطائع مظاهر الترف والثراء العريض الذى حققه استقلال مصر واتساع سلطانها. وظهرت القطائع منافسة لسامراء، وبدا البلاط الطولونى فى مستوى لا يقل عن مستوى بلاط الخليفة من حيث التقاليد والمظهر والحياة.

وقد زاد خمارويه فى القصر الذى بناه أبوه ووسع فيه كثيرا. وبنى فى القصر قبة سماها«الدكة» جعلها على مثال «قبة الهواء» التى أنشأها حاتم بن هرثمة عامل الأمين العباسى على جبل المقطم حيث قلعة الجبل الآن. وكان خمارويه، ومن أتى بعده من الأمراء يختلفون الى هذه الدكة طلبا للراحة وتبديل الهواء.

وكان خمارويه مولعا بالبساتين فحول الميدان الذى أمام القصر الى بستان كبير زرع فيه أنواعا فريدة من الزهور، وبالغ فى تزيين بستانه، وجعل خمارويه فى هذا البستان مجلسا له سماه دار الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب والازرود ونقشت بنقوش جميلة.

كذلك اتخذ خمارويه دار للسباع وجعل لكل سبع بيته الخاص وكلها تفضى الى قاعة فسيحة.

كذلك نعرف أن أحمد بن طولون اهتم بسباق الخيل وكان الميدان مسرحا لسباق الخيل، وكان ابن طولون يتخذ الاصطبلات العظيمة لكرائم الجياد. ويذكر المقريزى فى الخطط، أنه فى عهد خمارويه أصبحت حلبات السباق تقوم مقام الأعياد، وبلغت فى عهده حدا من الروعة جعل القضاعى يعتبرها من عجائب الاسلام.

تلك المفسدين، وقاتلوه ثلثة شهور حتى ضجت
المدينة من العطش، لان ماهم من البحيرة التى
تحلو ثلثة شهور سنة النيل العال، فيملو منها
صهاريجهم، ثم تملح تسعة شهور فتحمل اليهم
المراكب الما الحلو من بحر النيل من مسيرة يوم.
فلما ضجو اجتمع قشلام مع رووساهم وكان
عددهم مايةرجل وقال لهم وهم على الصور: الى
متى نضيق على هذه المدينة ونبقى هكذى، فان
اطعتمونى كنت سفير بينكم وبين هذا الأمير

والحق أن البلاط الطولونى ظل ما ثلا فى الأذهان، وحين استقل محمد بن طغج الاخشيد بمصر قلد الكثير من مظاهر حياة الطولونيين وسار على نهجهم وأحيا تقاليد بلاطهم.

وقد أشار المؤرخ أبو المحاسن ابن تغرى بردى، والذى عاش فى عصر المماليك فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى)، الى عظمة الأعياد فى العصر الطولونى، وذلك عندما تحدث عن حلبة السباق فى عهد خمارويه وقال انها كانت تقوم عند الناس مقام الأعياد لكثرة الزينة وركوب سائر الجند والعساكر بالسلاح، وان الناس كانوا يجلسون لرؤية ذلك كما يجلسون فى الأعياد. وعلق على ذلك بقوله: «والتشبيه أيضا بتلك الأعياد لا بأعياد زماننا هذا فان أعيادنا الآن كالمآتم بالنسبة لتلك الأعياد السالفة»[١].

٤أحمد بن طولون يؤسس امبراطورية مصرية

عرفنا كيف أدرك أحمد بن طولون أن فى استطاعته الاستقلال بشئون مصر، فقد كانت حكومة العراق قد تطرق اليها الضعف، كما قام الزنج فى اقليم البصرة بثورة خطيرة فى عهد الخليفة المهتدى وبلغت هذه الثورة غايتها العظمى فى حكم المعتمد الذى هجر سامراء وأعاد مقر الحكم الى بغداد. وكان يجمع شمل الزنج، وظل القتال بينهم وبين جند الخليفة نحو أربعة عشر عاما. كذلك قامت ثورات أقليمية أخرى فى بعض أنحاء الدولة الاسلامية كتلك التى كانت تحدث فى ايران وفى بلاد الشام.

(١) انظر: المقريزى: الخطط: ج١ ص٣١٨، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٣ص٥٢ وما بعدها.

مشعله وأخذت منه لكل واحد منكم عشرة دنارنير
وخلعة حسنة ويوليكم هذه المدينة من قبله، فليس
لكم بمقاومة السلطان طاقة. فاستصوبو قوله وقالو
له: انت تكون الواسطة فى هذا الامر ومهما رسمته
لنا ما نخالفك. ثم تفرقو جماعة اوليك الاحداث،
ومضى كل واحد منهم الى موضعه، ولم يبق الا
المابة المقدمين، فامرهم قشلام بفتح الباب وخرج
منه واغلق الباب وخرج معه شيوخ المسلمين
بالناحية الذى كان وافقهم على هذا الرأى فمضو

وكان صاحب الأمر والنهى فى الخلافة العباسية هو الموفق أخ الخليفة المعتمد الذى لم يكن له من الأمر شئ.

واذا أردنا أن نصف حكم المعتمد فليس أفضل من النظر فى هذه السطور المقتبسة من كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية لابن طباطبا: «كان المعتمد مستضيفا، وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على أموره. وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بأمرة المؤمنين، ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقود العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذاته»[1].

والواقع أن هذا الحكم الثنائى فى عهد المعتمد كان له خطره فى تاريخ مصر. واستطاع أحمد بن طولون بذكائه وقوة شخصيته أن يستغل هذا الوضع وأن يناضل الموفق دون الخليفة نفسه، فكان الموفق يلح فى طلب أموال مصر من أحمد بن طولون، ولكن حاكم مصر لم يقدم ما كان ينتظره أخو الخليفة ونائبه، فدب الخلاف بينهما وكان هذا ايذانا بعصيان ابن طولون واستقلاله بمصر وفى توسيع حدودها بعد ذلك.

(١) انظر: ابن طباطبا (أو ابن الطقطقى): الفخرى فى الأداب السلطانية والدول الاسلامية: ص ٢١٤ (طبع القاهرة ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م)

الى مشعلة، فلما دخلو عليه اعلمه قشلام بجميع
ما قرره وما فعله، واخذ منه الف دينار ومائة خلعة
طايلة وكتب خطه انه لا يظلمهم فاطمنوا لذلك
وعادو الى المدينة، ودفعو لكل واحد منهم عشرة
دنانير وخلعة، واوقفوهم على الخط الذى كتبه
ففرحو وطابت قلوبهم، وفتحو ابواب المدينة
ودخلها مشعلة بمجد عظيم، وعمل لهم سماط
عظيم ودعاهم جميعهم، وذلك شى كان قرره
قشلام معه ان ينصب لهم، فقدم لهم طعام كثير

وقد كتب الموفق كتابا يعنف فيه ابن طولون، فرد عليه ابن طولون ردا خشنا ظهرت فيه روح الاستقلال والاعتداد بالنفس.

ولم يرد ابن طولون الا بعد أن جمع مجلسا حربيا من أعوانه ورجال الشرع في البلد، وظهر في كتاب ابن طولون براعة ومهارة كاتبه، ابن عبد كان[1]. وبرغم تأدب كاتبه في اختيار العبارات والفاظ الا أنه بين فضل أحمد بن طولون على الدولة العباسية، وأنه يعمل على صيانتها والذب عنها.

وطبيعي أن الموفق غضب من رد ابن طولون أشد الغضب، وأرسل جيشا لاخضاع ابن طولون أو طرده من مصر. غير أن هذا الجيش العباسي لم يجاوز مدينة الرقة، وذلك بسبب ضعف الجند وقلة المال اللازم لتموينهم .

ولا ريب في أن فشل جند العراق في الوصول الى مصر واخضاع واليها، يعتبر فجرا لعصر جديد في حياة ابن طولون بل في تاريخ مصر.

(١) ترك لنا المقريزى فى كتابه الخطط نصا مختصرا من هذا الكتاب. ولكن ابن سعيد حفظ لنا النص فى كتابه «المغرب فى حلى المغرب» نقلا عن سيرة احمد بن طولون لابن الداية، الذى كان معاصرا للدولة الطولونية: انظر: ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب. ص٩١ ـ ٩٢ (عنى بنشره وتحقيقة والتعليق عليه، الدكتور زكى محمد حسن والدكتور شوقى ضيف والدكتورة سيدة كاشف ـ مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣م).

وشـراب وحلف عليـهـم براس الملك المعـز ان لا يمضي احـد منهم الى منزلة ثلثـة ايام بل تقـيـمو عندى تاكلو وتشـربو مـعى. ومن بعـد الثلثـة ايام سكرو من الشـراب. فـاغلق عليـهم البـاب وامـر اجناده بذبحـهم جميعـهم فـذبحـو وصلبـهم على صـور المدينة قـبل الصـبح، فلمـا كـان بالغـداة ابصرهم اهل المدينة وخافو خوفا عظيما. ثم انه امر [بهدم] اكثر السور [المحيط بتنيس لحمايتها من ماء البحر] فهدم وبقى مهدوم الى الان. [انظر الهامش الخاص بتنانيس ص٤٠٢].

وهكذا نرى أن ابن طولون تغير مركزه كل التغيير في مدة خمس سنوات منذ مجيئه الى مصر في سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨م) نائبا عن صاحب اقطاع مصر.

والحق أن تاريخ أحمد بن طولون وتاريخ أسرته من بعده ليس في الحقيقة الا صراعا بينهم وبين الخلافة العباسية أو الحاكمين باسم الخليفة. واذا عرضنا لمسألة التقليد والحق الشرعى بالنسبة لأحمد بن طولون نرى أن الخليفة لم يعينه قط حاكما عاما على مصر. فقد ذكرنا انه قدم اليها نائبا عن واليها باكباك (زوج أمه)، وظل فيها بعد وفاة باكباك واقطاع مصر ليارجوخ حميه. وبعد وفاة الأخير تعقدت الأمور ولم يشأ ابن طولون أن يترك حكم مصر، واستغل لمصلحته الخلاف بين المعتمد والموفق، واستطاع بعطاياه وهداياه أن يجعل حكومة العراق تتركه مؤقتا حتى تحين الفرصة للتخلص منه.

ثم اعترف به الخليفة نائبا عن ابنه جعفر الذى كانت مصر من نصيبه فى الاقطاع [١]،

---

(١) حين ولى الخليفة المعتمد سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م) أرسل الى أخيه الموفق يستدعيه من مكة وكان قد نفى اليها من قبل. وفى سنة ٢٥٧هـ قسم الدولة قسمين، ولى على القسم الغربى ولده جعفر ولقبه المفوض، وهذا القسم يشمل مصر والمغرب ولما كان جعفر لم يزل صغيرا فقد عين موسى بن بغا عونا له. اما القسم الشرقى من الدولة ويشمل الكوفة والحجاز والحرمين واليمن وبغداد وواسط والبصرية والأهوا ز فقد ولى عليه أخاه أبا أحمد الموفق طلحة. ولم يقنع الموفق بهذه السلطات او بالعقد الذى علقه أخوه في جوف الكعبة، فقد بايعه المعتمد وليا للعهد بعد ابنه المفوض، ودعا له على منابر العالم الاسلامى. (انظر: الطبرى: تاريخ الأمم والملوك ج٧ص ٥٩٨- ٥٩٩، والبلوى: سيرة ابن طولون: ص ٣٩، وابن طباطبا: الفخرى:ص٢٠٤، وابو المحاسن: النجوم الزاهرة:ج٣ص ٥٤).

وفى اول سنة ملكو هولاى المغاربة [الفاطميون]
ارض مصر تشرقت الارض ولم [تروى] فبدا الغلا،
وفى السنة الثانية اوفا النيل وزرعو الناس وافلح
زرعهم، فلما ندت نزل عليه فيران كثيرة فهلك
الزرع. وفى السنة الثالثة لحق الزرع ريح اهلكه.
وفى السنة الرابعة نزل على الزرع جراد عظيم
فاكله، ولم يزل الغلا الى تمام سبعة سنين متوالية،
وكان غلا عظيم فى جميع ارض مصر حتى ان
كورة مصر خلت من الناس لكثرة الموت والجوع

أضاف اليه فضلا عن ذلك ولاية الخراج وحكم الثغور الشامية والعواصم[١]. ولما لم يرسل أحمد بن طولون الى الموفق المبلغ الذى كان ينتظره، وانما بعث اليه بكتابه المشهور، أراد الموفق أن يولى على مصر أما جور، حاكم الشام، بالاتفاق مع موسى بن بغا الوصى على اقطاع جعفر المفوض. وقامت حملة الى مصر بقيادة موسى بن بغا، ولكنها توقفت، كما مربنا، عند الرقة، وأصبح أحمد بن طولون بذلك السيد الفعلى لوادى النيل[٢].

والملاحظ أن أحمد بن طولون ظل دائما معترفا بالخليفة العباسى المعتمد، وربما كان ذلك لأن المعتمد لم يكن فى يده من السلطان شئ، بل ان أحمد بن طولون أراد أن يظهر بمظهر المدافع عن المعتمد ضد أخيه الموفق. وهذه مسألة هامة، فان أحمد بن طولون كان فى أكثر الأحيان أقوى من الخليفة نفسه ولكنه كان يحرص على ارضائه لأن الاعتراف بالخليفة كان لايزال له شأنه عند العامة والخاصة، وكان الخليفة يتمتع بنفوذه وسيادته الروحية والدينية بالرغم من انقسام العالم الاسلامى الى دول ودويلات صغيرة مستقلة. فكان أحمد بن طولون يدعو للخليفة فى الخطبة على المنابر وينقش اسمه على النقود التى كانت تضرب بمصر.

وكانت وفاة «أماجور» والى الشام فى سنة ٢٦٤هـ (٨٧٨م) فرصة انتهزها أحمد بن طولون لتحقيق أطماعه، ولكنه كان لايريد أن يبدأ حملته عليها بدون سبب يستند اليه ويبرر

(١) الثغور والعواصم: هما خطا الدفاع الأمامى والخلفى بين الدولتين العباسية. والبيزنطية.
(٢) انظر: دكتورة سيدة كاشف: احمد بن طولون: ص١١٥.

الذى كان. وفى السنة السابعة بلغ القمح نصف
ويبة وربع ويبة بدينار. وخربت عدة من كراسى
الاساقفة لخلوها من الناس، ولم يقام لها اساقفة بل
اضيفت الى الكراسى العامرة المجاورةى لها وهى
ترنوط، اوراط، نستروه، انحلو، اصطف، حريوط،
اتوشو، ابورسا، دقهله، نقيوس واماكن كثيرة ما
يسع الزمان ذكر جميعها.

وكان الاب انبا مينا البطرك فى هذا كله مقيما

به هذه الخطوة الجريئة. ولذا فانه أعلن رغبته فى الجهاد، وفى حماية حدود الدولة الاسلامية ضد البيزنطيين فى آسيا الصغرى. ثم كتب كتاب تعزية الى على بن أماجور وأبلغه فيه انه قادم الى بلاده للاشراف على الثغور، وطلب اليه أن يقيم الانزال والضيافة لجنده.

ولم يجد على بن أماجور واتباعه بدا من الخضوع. وترك أحمد بن طولون على مصر ابنه الأكبر العباس ومعه الواسطى يساعده بالرأى والمشورة ككاتب ووزير له.

ثم سار أحمد بن طولون على رأس جنده الى الشام. وكان الموفق، وهو الرجل الوحيد آنئذ الذى يستطيع مقاومة ابن طولون، لا يزال مشغولا بحروب الزنج.

وخضعت دمشق لابن طولون، وأمر على بن أماجور والوصى عليه أحمد بن دوغباش، بالدعاء فى الصلاة لابن طولون. وكذلك خضعت له حمص وحماه وحلب. وخضت انطاكية عنوة، ودخلها ابن طولون فى سنة٢٦٥هـ(٨٧٨مـ٨٧٩م). وانتهى المطاف بابن طولون الى طرسوس، ذلك الثغر الذى أمضى فيه ابن طولون زمنا من شبابه. ويذكر المؤرخ ابن الداية أن أحمد بن طولون دخل طرسوس«فى خلق كثير وعز منيع»[١].

وبلغ نفوذ أحمد بن طولون الغاية، فوصلت قواته الى حران وما جاورها، ووصلت قوات أخرى الى الرقة بقيادة لؤلؤ. وتذكر الروايات التاريخية ان أحمد بن طولون كان ينوى الغزو ضد البيزنطيين لولا ما بلغه من ثورة ابنه العباس فعاد الى القطائع فى سنة ٢٦٥هـ.

---

(١) انظر: ابن سعيد:المغرب:ص١٧٧.

بالريف، فلما اشتد الغلا انتقل وسكن في ضيعة من اعمال تيدا [مركز كفر الشيخ] تعرف بمحلة دانيال، حتى ان امراة ريسة من اهل بلقونه [قرب سمنود] غنية خايفة من الله اسمها دينا اقامت بقية ايام الغلا تقوم بالبطرك وتلاميذه ومن يخصه. واقام سنة لم يدخل الى اسكندرية ولا الى وادى هبيب [.و] ليرفع الميرون حينيذ بنا مذبح لطيف في محلة دانيال على اسم القديس مارى مرقس وحمل عليه الميرون، فلما انقضت سنى

وقد ذكرنا أن أحمد بن طولون حين خرج الى الشام في سنة ٢٦٤هـ استخلف ابنه العباس على مصر. وتذكر الروايات التاريخية ان بطانة العباس حسنوا له التغلب على مصر والفتك بأحمد بن محمد الواسطى. ونحن لا نستبعد أن يكون الموفق قد عمد الى تدبير ذلك الأمر عن طريق عيونه في مصر، وذلك لخلق الاضطرابات والشغب في حكومة ابن طولون، ولينال منه بهذه الوسيلة ما لم يستطع أن يناله بالقوة.

وخرج العباس من مصر الى برقة بعد أن استولى من بيت المال على مليوني دينار واقترض من كبار التجار مائتى ألف دينار وكلف أبا أيوب العامل على الخراج أن يسددها من الضرائب الجديدة.

وفى ذلك الوقت عاد أحمد بن طولون الى مصر ودخل الفسطاط في رمضان سنة٢٦٥هـ (٨٧٩م). وأرسل ابن طولون الى ابنه من يستميله ويذكره بواجب الأبناء فلم يعد وأبى[(١)]. فأرسل اليه ابن طولون جيشا هزمه وأعوانه في برقة وأعاده الى مصر.

وجئ بالعباس وبطانته الى الفسطاط في سنة ٢٦٨هـ.

وأمر أحمد بن طولون بضرب ابنه ومن أغروه على الخروج والعصيان بالسياط حتى مات بعضهم من الضرب وزج بابنه في السجن.

(١) انظر نص كتاب احمد بن طولون الى ابنه والذى صاغه ابن عبد كان في: القلقشندى: صبح الأعشى: ج٧ص٥ ــ ١٠.

الغلا السبعة وانعم الله على الخلق بالرخا وعادو اهل الغربية الى اماكنهم فلم يجدو قمح يزرعوه حتى نقلو [نقلة] لهم التجار من الشام.

ثم توفا الاب البطريرك انبا مينا بعد ان اقام تمنية عشر سنة، وكان فى اخر ايامه رخا عظيم حتى ابيع القمح اثنا عشر اردبا بدينار وكان يرمى على الناس بامر السلطان.

وهكذا بلغ أحمد بن طولون أوج عظمته حين تم له النصر فى حملته على الشام، وأعقب ذلك بالتوفيق فى اخضاع ابنه العباس. ولذا فقد بدأ منذ ذلك التاريخ باضافة اسمه الى اسم الخليفة وحده حتى سنة ٢٦٦هـ(٨٧٩-٨٨٠م)، ولم يضف ابن طولون الى اسم الخليفة، اسم الموفق، كما كان يفعل سائر الولاة فى أنحاء العالم الاسلامى.

ولكن اسم الموفق كان يذكر فى مصر فى خطبة بوصفه وليا للعهد بعد المفوض. وقد خرج أحمد بن طولون ثانية الى الشام فى سنة ٢٦٩هـ(٨٨٢م) وذلك ليؤدب لؤلؤ أمير الرقة من قبل ابن طولون، الذى انضم الى الموفق واعترف بسلطانه. وكان ابن طولون قد عهد الى لؤلؤ بحكم حلب وقنسرين وحمص وديار مضر

ولا نعتقد أن رجوع ابن طولون الى الشام فى هذه المرة كان بقصد توسع جديد، وانما أراد ابن طولون أن يثبت سيادته فى البلاد التى ضمها الى مصر بعد أن كادت تخرج من السلطان المصرى على أثر خيانة لؤلؤ وانضمامه الى الموفق. كذلك كان الموفق قد قارب الانتصار على الزنج وأصبح من المتوقع أن يواجه أحمد بن طولون بقوته كاملة.

وكان أحمد بن طولون يأمل فى خروجه فى هذه المرة أيضا أن يجذب الخليفة العباسى المعتمد الى وادى النيل فينقل بذلك مقر الخلافة الى مصر. وكتب الى الخليفة بذلك من مصر فى سنة ٢٦٩هـ[١]. واستخلف ابن طولون على مصر تلك المرة ابنه خمارويه..

---

(١) انظر: ابن سعيد: المغرب:ص١٢٦ ١٢٧.

السيرة الرابعة والعشرين من سير البيعة المقدسة انبا ابرهام[ابراهيم] السرياني(*) وهو من العدد الثاني والستون المعروف بابن زرعة

[٩٧٤/ ٩٧٨م]

لما تنيح انبا مينا البطرك وبقى الكرسى خال اجتمع اساقفة كورة مصر من الريف والصعيدين وكتاب مصر وكهنة اسكندرية ومكثو عدة ايام فلم يجدو من يرتضوه للتقدمة، وكان بمصر انسان

(*) كان من التجار الكبار في ذلك الوقت، أكتسب تجارته من التردد على مصر ثم استقر بها، وكان يمد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي وكبار رجال الله الفاطمي وكبار رجال دولته بما يحتاجونه من السلع النفيسة، ومن ثم نشأت صداقة وثيقة بينه وبين الخليفة ورجال دولته.

وواضح مما رواه ابن الداية في سيرة أحمد بن طولون، أن أمير مصر لم يفكر في هذه الخطوة الجريئة الا بعد أن علم بخلع لؤلؤ وانحيازه الى الموفق. ولم يكن من السهل على ابن طولون أن يرى كفاح السنين المتواصل ينهار أمام عينيه، ولذلك نراه يضرب ضربة جريئة علها تكون قاضية على الموفق وألا عيبه، وفي الوقت نفسه تحفظ له ملك مصر ونفوذه في الشام بل تعطى مصر حق زعامة العام الاسلامى حينئذ حين تصبح مقرا للخلافة العباسية.

وبينما كان ابن طولون في دمشق سنة ٢٦٩هـ أتاه كتاب الخليفة المعتمد بأنه سائرا اليه. وتظاهر الخليفة بالخروج للصيد، وكان الموفق لايزال يحارب صاحب الزنج، واتجه الخليفة صوب الرقة، ولكن عيون الموفق أبلغوه الخبر، فأرسل الموفق الى اسحق به كنداج، عامل الموصل يأمر ه باللحاق بالخليفة ويعده بالأموال والاقطاعات. ولا أدل على هلع الموفق واضطرابه حينئذ مما قاله حين أرسل اسحق بن كنداج للحاق بالخليفة «اذا تم هذا الأمر الأمر استولى أحمد بن طولون على أمر ه فلم يكن لكم، ولا لأحد منكم مقدار.. فيكون ذلك سببا في زوال دولة بنى العباس»[١].

ولحق اسحق بن كنداج بالخليفة عند الحديثة قبل أن يخرج من حدود العراق، وأقنعه بأن ما عزم عليه هو الخطأ، وذلك بعد أن قيد أتباعه. وعاد الخليفة الى سامرا شبه سجين في شعبان سنة ٢٦٩هـ وعقد بعدها الموفق لاسحق بن كنداج على مصر.

(١) انظر: البلوى: سير ة احمد بن طولون:ص٢٩٠.

تاجر سرياني اسمه ابراهيم ابن زرعه وكان له صدقات على الارامل والمساكين والمستورين والضعفا، وكان شيخ لحيته نازلة على صدره مثل ابونا ابرهيم الاول، وكان بينه وبين الملك المعز ورجال دولته جميل عظيم لاجل بضايعه وامتعته التى كانت تتواصل وكان يعاملهم فيها، وكان جميع اراخنة مصر يحبوه ويكرموه، وكان الشعب مجتمعين في بيعة الشهيدين سرجيوس وواخس بمصر بقصر الشمع التى هى القتاليكى

وكان قرار الموفق بتولية اسحق بن كنداج على مصر مجرد حبر على ورق، وكان شبيها بقرار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بعزل معاوية عن الشام وهو اذ ذلك ملك غير متوج عليها. فابن طولون لم يصبح مجرد وال على ولاية عباسية، وانما كان حينئذ، امبرطورا على امبراطورية واسعة امتدت الى حدود العراق في الشرق، وجبال طوروس في الشمال، وطرابلس في الغرب.

ولهذا نرى أحمد بن طولون يتصرف حينئذ تصرفا لا يدهشنا، فنراه يعقد مؤتمرا في دمشق ويأمر عامله بأن يدعو القضاة والفقهاء والأشراف من كافة أنحاء دولته الواسعة، لأن أبا أحمد الموفق نكث بيعة المعتمد وأسره. وحينما اكتمل الاجتماع في دمشق في ذى القعدة سنة٢٦٩هـ(٨٨٣م)، أمر أحمد بن طولون بكتاب خلع فيه أبا حمد الموفق من ولاية العهد لمخالفته المعتمد وأسره له. وشهد على ذلك جميع من حضر الا بكار بن قتيبة ومحمد بن ابراهيم الاسكندراني وفهد بن موسى[١] .

ولم يكتف ابن طولون بذلك، بل جرد حملته المشهورة على الحجاز ليمنع من أن يدعى للموفق على منابر مكة[٢].

---

(١) انظر: الكندى: الولاة والقضاة:ص ٢٦٦

(٢) انظر: البلوى: سيرة ابن طولون: ص ٢٩٨.

[البطركية] والاساقفة والكهنة والاراخنة مجتمعين لاجل العيد، فدخل ابرهيم [ابرهام] ابن زرعه ليصلي في البيعة فاومى احد الاراخنة الى احد الاساقفة قايلا انتم تطلبو من يصلح للبطركية وهوذا الذى يستحقها قد بعثه الله لنا. فسمع جماعة من الحاضرين فارضاهم [قو]له ولم يظهرو ذلك، ثم دعاه احد اصدقاه الاراخنة كانه يريد يخاطبه في شي فلما تقدم وصار في صحبتهم صاحو جميعهم: هذا هو الذى اختاره الرب.

وحين بلغ الموفق ما فعله ابن طولون، لم يستطيع عمل شئ الا أن يأمر عماله بلعن ابن طولون على المنابر. وأجاب ابن طولون على ذلك بأن أمر بلعن الموفق على منابر مصر والشام.

لكن الموفق لم يكن قادرا على عدوان جديد، فاتصل بابن طولون يعاتبه على المبادرة بخلعه ويعتذر له ما كان من لعنه على منابر بغداد. ولم يكن من ابن طولون، بعد أن تأكد من صدق رغبة الموفق، الا أن جنح الى المسالمة واعتذر اليه. وطرب الموفق لا ستجابة ابن طولون، وأطلق المعتمد من محبسه.

ولما فرغ ابن طولون من مؤمر دمشق وما كان فيه، سار نحو طرسوس لتأديب عاملها الثائر، وكان الفصل شتاء، ووجد ابن طولون مشقة في القتال فاضطر الى التراجع عن طرسوس الى المصيصة، وهناك مرض مرضه الذى أدى الى وفاته.

وحين اشتدت وطأة المرض على ابن طولون أسرع بالعودة الى مصر فوصل الفسطاط في جمادى الآخرة سنة ٢٧٠هـ. ولم يقف مرضه حائلا دون متابعة الاشراف على دولته الواسعة.

وهكذا نرى أحمد بن طولون استمات في الدفاع عن حقوق اكتسبها حتى آخر رمق في حياته، فقد وافته المنية ليلة الأحد لعشر خلون من ذى القعدة سنة٢٧٠هـ(٨٧٤م) بعد أن حكم مصر سته عشر عاما.

٦٢: انبا ابرهام ٩٧٤ / ٩٧٨م

وقبضوه للوقت وقيدوه بالحديد، فصرخ وبكا وقال: ما استحق هذا الامر.فحملوه للوقت وساروا به الى اسكندرية وقسموه هناك بطركا فابطل الشرطونية التى كانت البطاركة ياخذوها وياخذو الدنانير قرضا عليها وصدق [تصدق] بجميع ما كان له، وكان له مال عظيم. [و] عظم ذكره اكثر ممن تقدمه وكان المعز يحضره اليه في كل وقت وياخذ رايه فيما يعن له ويتبارك به، وساله ان يسكن بمصر.

---

٥. مصر في عهد خمارويه بن أحمد ابن طولون

وضحت نية أحمد بن طولون في توريث ملكه لأولاده من بعده، فنراه يستخلف ابنه الأكبر العباس على مصر حين خرج الى الشام والثغور في سنة ٢٦٤هـ.

وقبل أن يسير أحمد بن طولون الى الشام في سنة ٢٦٩هـ، وحين وردت اليه موافقة الخليفة المعتمد على السير الى مصر، نراه يستخلف خمارويه على مصر ويترك معه جماعة من شيوخ القواد لمشاركته الحكم.

غير أن رغبة ابن طولون في توريث ملكه وضحت تماما حين عاد من بلاد الشام مريضا محمولا، اذ أحس باقتراب منيته، ولذا نراه يبايع ابنه أبا الجيش خماويه بولاية الأمر من بعده.

ولم يكن ينقص ذلك الأمر الا أن أن يستوفى الشكل وأن توافق الخلافة العباسية على مبدأ التوريث. وكانت مبادئ التفاهم بين الموفق وبين أحمد بن طولون تمهد لاقرار الأمر الواقع لولا أن المنية عاجلت أحمد بن طولون قبل أن يستكمل الناحية الشكلية في استقلاله بالملك وتوريثة لأبنائه من بعده[١].

وبعد وفاة أحمد بن طولون ولي خمارويه أمر مصر. وقد ترك أحمد بن طولون ملكا وسعا،

---

(١) انظر: دكتورة سيدة كاشف: أحمد بن طولون:ص١١٦ـ١١٧.

ولما راى جماعة من الاراخنة يتسرو بالسرارى
ويولدو منهم الاولاد فاحرم [من يفـ]عله فاطاعوه
كلهم الا ارخن واحـــد جليل. [هو ابو الســـرور
الكبيـر] من اصحاب الدواوين كان عنده سرارى
عـدة فلم يخرجهم وخالف البطرك، فضـرب له
الاب انبا فرهام البطرك عدة مطانوات فلم يطيعه،
وبقى على سو فعله، كالافعا التى لاتسمع صوت
الحاوى ولا دو يصنعه الحكيم، حينيذ ركب البطرك
ومضى الى داره يخاطبه وقال فى نفسه لعل اذا

ومستشارين وأعوانا مهرة، وجندا كثيرى العدد، ومالا وفيرا، لكنه خلف لابنه مشكلة أخية الأكبر، العباس، كذلك أعداءه القدماء وعلى رأسهم الموفق أخ الخليفة العباسى.

أما العباس، الابن الأكبر لأحمد بن طولون، فقد ذكرنا أنه قام بثورة على أبيه فى حياته. وقد نحى عن ولاية العهد لأن والده أوصى بالعرش لخمارويه. ويتفق جمهرة المؤرخين على أنه كان فى السجن حين توفى أبوه. ولكن النويرى صاحب نهاية الأرب فى فنون الأدب، شذ عن سائر المؤرخين وزعم أن ابن طولون قبل وفاته ببضعة أيام، دعا اليه العباس وعقد له على حكومة الشام وأملاك مصر خار ج وادى النيل، وطلب اليه فى الوقت نفسه أن يخضع لأخيه خمارويه. لكننا نرى أن هذه الرواية غير محتملة لأننا نستبعد أن ينسى ابن طولون ثورة ابنه العباس عليه، وألا يفطن الى ما قد يجره التقسيم بين ابنيه من خراب على الأسر ة اذا طالب الابن الأكبر بالخضوع الصغير.

وعلى أية حال فان أول ما عنى به أعوان ابن طولون وقواده بعد وفاته هو أن يحصلوا من العباس على البيعة بالأمارة لأخية خمارويه. والظاهرة أن بطانة أحمد بن طولون وقواده بعد وفاته هو أن يحصلوا من العباس على البيعة بالامارة لأخيه خمارويه. والظاهر أن بطانة أحمد بن طولون، ولاسيما الواسطى ألحوا على خمارويه فى التخلص من العباس واستصدروا منه أمرا بقتله. أما أبو المحاسن فيذكر أن خمارويه أمر بقتل أخيه العباس لامتناعه عن مبايعته فقتل[1].

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٣ص٤٩.

سعيت اليه يحتشم مني فلما اعلموه ان البطرك
جاى اليه اغلق بابا داره، فلما وصل البطرك الباب
وقف ودقة ساعتين فلم يجيبه احد بكلمة، فاحرمه
ونفض قدميه على العتبة وكانت حجر صوان
فانقسمت بين اثنين وظهرت هذه الاية للناس
وخاف كلمن فى مصر من البطرك. وبعد ايام سيرة
هلك ذلك الارخن وكلما له [وكل ما له]. وكان
وزير الملك المعز رجل يهودى اسمه ابو يعقوب بن
كلس وصل معه من الغرب واسلم على يده،

والواقع أن وفاة أحمد بن طولون وضعت للمساعى السلمية التى كا ن يبذلها الموفق وأعوانه. اذ ظن الموفق أن وفاة أحمد بن طولون قضت على قوة الدولة الطولونية وأن فرصته حانت لاسترداد مصر والشام جميعا من قبضة الطولونيين. واستعان الموفق باسحق بن كنداج أمير الموصل، ومحمد بن أبى الساج والى أرمينية والجبال، وأرسل اليهما جندا من العراق بقيادة ابنه أبى العباس أحمد، وهو الذى تولى الخلافة بعد وفاة المعتمد باسم المعتضد بالله، وزحف الجميع على الشام، واستولت جيوش العراق على الرقة وقنسرين وا لعواصم ودخلت دمشق، ثم تقدمت جنوبا تريد غزو مصر نفسها. لكن خمارويه نشط للأمر وخرج الى الشام وأحررز سلسلة من الانتصارات ضد جند الموفق ودخل دمشق واسترد سلطانه كاملا فى سنة ٢٧٣هـ ثم خرج لقتال ابن كنداج، حليف المو فق، فأنزل به الهزيمة، وأخذ أصحاب خمارويه يطاردونه حتى أبواب سامرا ، فعظم أمر خمارويه فى هذه الموقعة وهابته الناس[١].

وأدرك الموفق أخيرا أن خمارويه مع صغر سنه لا يقل عن أبيه قوة وعزيمة.

وبالرغم من انتصارات خمارويه كان هو البادئ بطلب الصلح والتفاهم فكتب، وهو ببلاد الشام، الى الموفق فى طلب الصلح[٢]. ويبدو أن رغبة خمارويه وجدت الترحيب والاستجابة

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٣ص٥١.
(٢) الكندى: الولاة والقضاة:ص٢٢٧ .

وكان للوزير صديق يهودى اسمه موسى قد رزق من المعز حظ وافر لاجل صداقته لوزيره، فلما راى محبة الملك للبطرك وتقدمته عنده حسده وعمل عليه مشورة وقال للمعز انا اريد تحضر بطريك النصارى اجادله بين يديك ليظهر لك دينه، فلم يواجه المعز البطرك بذلك ولا عرضه لمجادلة اليهودى، لكن قال له ان رايت ان تحضر احد اولادك الاساقفة يجادل اليهودى فافعل، فقررو بينهم يوما معلوم يكون فيه اجتماعهم، وكان من

لدى المعتمد والموفق وابنه أبي العباس، فجاء كتاب هؤلاء الثلاثة الى خمارويه في الشام في رجب سنة ٢٧٣هـ(٨٨٦م)، ويتضمن الكتاب تولية خمارويه وأولاده من بعده على مصر والشام جميعة والثغور ثلاثين سنة. وعاد خمارويه بعدها الى مصر في أواخر رجب المذكور. وكان هذا الصلح مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات بين مصر والخلافة فقد استكملت تلك العلاقة الناحية الشكلية، واعترفت الخلافة باستقلال مصر الطولونية وبسلطانها على الشام والثغور[١].

وأكمل خمارويه انتصاره على أعدائه فاستولى على الرقة، واعترف بولايته على الموصل والجزيرة ودعى له على منابرها. كذلك أخضع خمارويه ابن أبي الساج في سنة ٢٧٦هـ وطارد جيوشه الى نهر دجلة، وهناك بنى خمارويه على شاطىء دجلة سريراً فخماً من الذهب ليجلس عليه اشادة بما حازه من نصر مؤزر. أما عن العلاقة بين خامرويه ويازمان حاكم طرسوس، فالمعروف أن يازمان ثار على أحمد طولون منذ ٢٦٩هـ (٢٨٣)، ولم يستطيع آحمد بن طولون اخضاعه اذ مرض وهوبالشام وحمل الى مصروتوفى سنة ٢٧٠هـ

وفى سنة ٢٧٧هـ بادر يازمان الى الاعتراف بسلطان خمارويه ودعا له على المنابر في طرسوس. وقد أدى استقرار الأمور لخامروية في دولته المترامية الأطراف الى استئناف سياسة

(١) انظر: الكندى:الولاة والقضاة:ص٢٢٧و٢٣٦ـ٢٣٨، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة:ج٣ص٥١ـ٥٢.

جملة الاساقفة حاضر اسقف قديس فاضل على كرسي الاشمونين يسمى سويرس ويعرف بابن المقفع(*)، وكان كاتبا ثم صار اسقفا، واعطاه الرب نعمة وقوة في اللسان العربي الى ان كتب كتب كثيرة وميامر ومجادلات، ومن قرى كتبه عرف فضله وصحة علمه، ودفعات [مرات] كثيرة جادل قضاة من شيوخ المسلمين بامر الملك المعز فغلبهم بقوة الله ونعمته. واتفق انه كان جالس عند قاضي القضاة اذ عبر عليهم كلب، وكان يوم

(*)هو ساويرس ابن المقفع مؤلف الأجزاء الأولى من هذا الكتاب. وفيما يلي قصة تدل على ذكائه وحسن تصرفه.

الجهاد ضد البيزنطيين، فغزت جيوشه الأراضي البيزنطية عدة مرات سنة ٢٧٨ـ ٢٧٩هـ (٨٩١ـ ٨٩٢م)، ومالبث البيزنطيون أن طلبوا الصلح في سنة ٢٨٣هـ (٨٩٦م).

وقد توثقت العلاقة بين خمارويه والخلافة العباسية مرة أخرى بعد وفاة الموفق وابن كنداج سنة ٢٧٨هـ، ووفاة الخليفة المعتمد سنة ٢٧٩هـ، وتولى المعتضد الخلافة سنة٢٧٩هـ.

واستطاع خمارويه أن يكسب رضا الخليفة الجديد بهداياه، وأقره المعتضد على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة وجعلها لأولاده من بعده.

وقدم رسول الخليفة على خمارويه يحمل اليه الخلع والهدايا. وكان من أثر سياسة حسن التفاهم أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التي تلقب بقطر الندى من ابن الخليفة العباسي ولكن الخليفة اختارها لنفسه.

وقد حلا لخمارويه أن يظهر اسرافه في ذلك الزواج فجهز ابنته بما لم تجهزبه عروس من قبل على حد قول المؤرخين. ويذكر ابن دقماق في كتابه الانتصار لواسطة عقد الأمصار، انه «حمل معها ما لم ير مثله، ولا سمع به» الا في و قته». وذكر المقريزي في الخطط: « انه لم يبق خطيرة[1] ولا طرفة[2] من كل لون وجنس الا حمله معها».

وعلى أية حال فقد أفاض المؤرخون في ذكر هذا الزواج وهذا الجهاز. وأمر خمارويه أن

(١) الخطير: النبيل. (٢) الطرفة: الغريب المستحسن.

الجمعة، وكان هناك جماعة من الشهود، فقال له قاضى القضاة: ما تقول يا سويرس فى هذا الكلب هو نصراني او مسلم؟. فقال له: اسيله فهو يجيبك عن نفسه. فقال له القاضى: هل الكلب يتكلم، وانما نريدك انت تقول لنا. قال: نعم يجب ان نجرب [نختبر] هذا الكلب، وذلك ان اليوم يوم الجمعة والنصارى يصومو ولا ياكلو فيه لحم، فاذا افطرو عشية يشربو النبيذ والمسلمين ما يصوموه ولا يشربو فيه النبيذ وياكلو فيه اللحم، فحطو قدامه

بنى لابنته على رأس كل مرحلة قصر لتنزل فيه العروس فى طريقها الى بغداد. كذلك أطلق خمارويه العنان للأفراح التى مازالت أغانيها من الأغانى الشعبية بمصر للآن ويصف المؤرخ أبو المحاسن رحلة العروس فيقول عن البعثة التى رافقتها أنهم كانوا «يسيرون بها سير الطفل فى المهد... وكانت فى مسيرها من مصر الى بغداد على بعد الشقة كأنها فى قصر أبيها حتى قدمت بغداد فى أول المحرم سنة ٢٨٢ هـ»[١].

ويرى بعض المؤرخين ان المعتضد العباسى انما كان يرمى من وراء زواجه بقطر الندى الى افقار أبيها لما كان يتوقعه من اسرافه فى جهازها.

وهكذا نرى أن خمارويه سار على الخط الذى رسمه أبوه أحمد بن طولون، وكانت مصر فى عهده قوية ثرية تحرص الخلافة العباسية على المحافظة على ودها وتهابها الدولة البيزنطية.

أما فيما يتعلق بشئون مصر الداخلية فقد كان مؤمناً مثل أبيه بأن مصر للمصريين، فكان كريما مع أبنائها حريصا على تقدمها لا تشغله مشاريعه فى تثبيت أركان الدولة المصرية الواسعة عن اصلاح شئون مصر الداخلية ، والأخذ بكل وسائل التقدم فيها، وفضلا عن ذلك فقد كان شديد التسامح مع أهل الذمة.

كذلك انصرف خمارويه الى الأعمال الانشائية فزاد فى منشآت أبيه الشئ الكثير كما مر

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٣ص٦٢-٦٣.

لحم ونبيذ فان اكل اللحم فهو مسلم وان لم ياكله وشرب النبيذ فهو نصرانى. فلما سمعو كلامه تعجبو من حكمته وقوة جوابه وتركوه.

فاخذ البطرك انبا افرهام هذا الاسقف فى اليوم الذى استقر فيه حضوره بحضور الملك المعز ومضى معه إلى القصر، وحضر موسى اليهودى والوزير ابن كلس فجلسو زمان طويل وهم سكوت، فقال لهم الملك المعز: تكلمو فيما اجتمعتم فيه، ثم قال، تكلم يا بطرك وقول لنايبك

بنا، وبذل الأموال الطائلة على مبانيه ومتنزهاته مما يفيض فى وصفه المؤرخون. وكان خمارويه مغرما بصيد الوحش والطيور وبتربية الخيل الأصلية.

وكان خمار ويه بن أحمد بن طولون حكيما فى اختيار حرسه الخاص من عرب الحوف الذين كانوا يسكنون شرقى الدلتا، والذين كانوا يقلقون الحكومة بالسلب والنهب والثورات. فرأى خمارويه أن يبعدهم عن ذلك كله وكون منهم فرقة خاصة اتخذها حرسا له. وكان لرجال هذه الفرقة ملابس وأسلحة خاصة. والمعروف أ ن أحمد ابن طولون وخمارويه كانا يعنيان كثيرا بملابس الجيش وعدته، وكانا يستعرضان الجند ويخرجان فى المواكب الرسمية فى مناسبات الحفلات والأعياد وأيام الجمع فيقف الشعب على الجانبين معجبا بجلال أجسامهم و جميل نظامهم.

وقد انتهت حياة خمارويه بمقتله فى دمشق فى ذى الحجة من سنة ٢٨٢هـ بعد حكم دام اثنتى عشرة سنة.

واستطاع أبو المحاسن أن يصور لنا الحزن الشديد على خمارويه فى مصر حين ورد الخبر بوفاته، وكيف تحولت مصر الى مأتم كبير حين وصل تابوت خمارويه محمولا الى مصر حيث دفن بجوار أبيه.

يقـول ما عنده. فـقـال البطرك للاسـقف: تكلـم يا ولدى فان الله يوفقك، فقال الاسقف للملك المعز: مـا يجـوز خطاب رجل يهـودى بحـضـرة امـيـر المومين.فـقـال له اليـهـودى: انت تعـيبنى وتقـول بحـضـرة امـيـر المومنين ووزيره انى جـاهل. قـال له الاسقف أنبا سـويرس: اذا ظهر الحق لامير المومنين ما يكون فيـه غضب. قال الملك المعز ما يجوز ان يغضب احـد في المجادلة بل ينبغى للمـجـادلين ان يقـول كل واحـد منهم مـا عنده ويوضـح حـجـتـه

والحق أن خمارويه كان خير خلف لخير سلف فقد حافظ على الدولة المصرية المستقلة التى أسسها أحمد بن طولون، كما قاد الجيوش ونال الانتصارات الباهرة، وجاهد ضد البيزنطيين، واستطاع أن يسوى المشكلات التى قامت بين الخلافة وبين مصر، بل انه صاهر البيت ا لعباسى، وبدت مصر فى عهده غاية فى القوة والازدهار.

٦. الدولة الطولونية بعد خمارويه

كانت وفاة خمارويه بداية النهاية للدولة الطولونية. اذ سرعان ما دخلت الدولة فى دور التدهور والانحلال وانتهت بوفاته الدولة من حيث هى دولة لها قوتها ونفوذها. وحكم مصر بعد خمارويه اثنان من أبنائه هما أبو العساكر جيش وهارون، واخوه شيبان، ولم يزد حكمهم جميعا على عشر سنوات سقطت بعدها الأسرة الطولونية.

والحق ان انقسام البيت الطولونى بدا واضحا بين أبناء خمارويه الذين غلب عليهم الضعف والترف وبين أعمامهم الذين عز عليهم ضياع الملك الذى أسسه أحمد ابن طولون.

واشتعلت الفتنة فى الجيش الطولونى، ربما للمرة الأولى منذ انشائه، وبدت نذر هذه الفتنةقبل مصرع أبى العساكر جيش بن خمارويه فى جمادى الآخرة سنة ٢٨٣هـ ببضعة شهور. ولجأ بعض قواد الجيش الى الخلافة العباسية. وأصبحت الدولة الطولونية تجتاز منذ عصر جيش بن خمارويه أزمة دقيقة جدا.

٦٢: انبا ابرهام ٩٧٤ / ٩٧٨م

كيف شا. قال الاسقف: ما انا شهدت عليك يا يهودى بالجهل بل نبى كبير جليل عند الله شهد عليك بذلك. قال له اليهودى: ومن هو النبى؟. قال له: هو اشعيا الذى قال فى اول كتابه عن الله عرف الثور قانيه والحمار عرف مذود سيده واسرايل لم يعرفنى. فقال الملك المعز لموسى: اليس هذا صحيح؟ قال: نعم هذا هو مكتوب. قال الاسقف:اليس قد قال الله ان البهايم افهم منكم وما يجوز لى ان اخاطب فى مجلس امير

وكان فى استطاعة الخليفة العباسى المعتضد أن يفتح مصر منذ لجأ اليه قواد الجيش الطولونى، ولكنه ـ فى رأينا ـ لم يكن قد نسى بعد صلة النسب التى كانت تربطه بأمرائها، وكانت قطر الندى خير مدافع عن قضيتهم فى بغداد، ولا سيما أن الخليفة كان مغرما بها الى حد كبير. وفضلا عن ذلك كله فلعل المعتضد لم يكن قد عرف تماما حالة الضعف التى وصلت اليها الدولة الطولونية بعد وفاة خمارويه. وهكذا ظل الحال بين الخلافة العباسية وبين مصر حتى توفيت قطر الندى، وحتى توفى الخليفة العباسى المعتضد سنة ٢٨٩هـ.

وبدأت الدولة المصرية تفقد بعض ممتلكاتها فى الخارج ورفض راغب، الذى استولى على طرسوس وأعمالها بعد ابن عجيف، أن يعترف بسلطان هارون بن خمارويه على طرسوس كذلك أصبح طغج بن جف مستقلا بدمشق استقلالا يكاد يكون تاما، ولكن القائد بدرا الحمامى سار اليه وثبت طغج فى حكمه على أن يعترف فى نظير ذلك بسلطان بنى طولون.

ثم استفحل خطر القرامطة فى الشام، ولم يكن طغج بن جف موفقا حين أرسل الى مصر يستنجد بنى طولون لاخضاع القرامطة، وذلك لأن وادى النيل فى تلك الساعة كان فى أمس الحاجة الى رئيس يوحد كلمته، ومال يفرج به عن أزمته، وسلام داخلى، وجند منظمين لانقاذ البلاد من الاضطراب الذى وصلت اليه.

وكان الخليفة العباسى المكتفى يرقب من بغداد تطور القتال بين القرامطة والطولونيين عازما

المومنين دام عزه من تكون البهايم اعقل منه وقد
وصفه الله بالجهل. فاعجب الملك المعز ذلك
وامرهم بالانصراف واستحكمت العدواة بين
الفريقين وقوى غضب الوزير وصار يطلب عثرة
على البطرك لاجل انه فضح اليهود بين يدى الملك
المعز، والسيد المسيح يحفظ مختاريه وعبيده، فلما
كان فى بعض الايام وجد السبيل الى ان قال
للمعز: مكتوب في انجيل النصارى من كان فيه
ايمان مثل حبة خردل فانه يقول للجبل انتقل

أن ينتهز هذه الفرصة للتخلص من الفريقين. فأرسل الى القرامطة جيشا قوى العدد والعدة وعلى رأسه محمد بن سليمان الذى كان كاتبا للؤلؤ القائد الطولونى.. وأوقع محمد بن سليمان الكاتب بالقرامطة شر هزيمة سنة ٢٩٠هـ (٩٠٣م) بقرب حماه. ورجع محمد بن سليمان الى بغداد بعد نصره الحاسم على القرامطة فأكرمه الخليفة وعينه قائدا عاما للجيش الخليفى، ثم أوفده على رأس حملة لاخضاع مصر وارجاعها الى حكم الخلافة المباشر.

سار محمد بن سليمان على رأس الحملة العراقية الى الشام حيث خضع له الولاة الطولونيون ومن بينهم بدر الحمامى الذى كان حينئذ واليا على الشام كلها. وكتب محمد بن سليمان الى أمير البحر دميانة ـ مولى يازمان ـ يطلب اليه أن يسير الى ساحل البحر فى مصر.

أما محمد بن سليمان فقد تقدم فى سيرة نحو مصر، وفى فلسطين خضع له وصيف بن سورتكين، الذى كان يحكمها من قبل الطولونيين.

أما ما كان من أمر هارون بن خمارويه فانه هم بالدفاع عن مصر، وبدأ بارسال السفن الحربية لقتال دميانة والتحم الأسطولان فى تنيس ثم فى دمياط، وهزم الأسطول المصرى واحتل أسطول الخلافة المدينتين. وبعدها ذهب هارون بن خامرويه الى مدينة العباسة[1] فى شرقى الدلتا وذلك للقاء الجيش العباسى، وأخذ معه أعمامه كلهم وأفراد أسرته.

(١) العباسة: سميت باسم العباسة بنت احمد بن طولون. وقد قامت هذه المدينة حول قصر مما شيده=

واسقط في البحر فيفعل(*)، فيرى امير المومنين رايه في مطالبتهم بتصحيح هذا القول ليعلم انهم على محال وكذب، فان هم لم يفعلوا وجب ان يفعل بهم ما يستحقوه على كذبهم. فوافقه هذا الكلام وانفذ الملك المعز طلب انبا افرهام البطرك وقال له: ماذا تقول في هذا الكلام هو في انجليكم ام لا؟ قال البطرك: نعم هو فيه. قال له: فهوذا انتم نصارى الوف وربوات في هذه البلاد واريد ان تحضر لي واحد منهم تظهر هذه الاية على يديه

(*) قصة نقل جبل المقطم.

وقد ذكر الكندي انه فعل ذلك كي لا يستطيع أحدهم أن يثور ضده في الفسطاط. والواقع أن العلاقة لم تكن طيبة بين أفراد الأسرة الطولونية، وكان عدم التعاون بينهم سببا كبيرا من أسباب ضعفهم وضح ذلك بعد مقتل خمارويه المفاجئ في سنة ٢٨٢هـ.

أما ما كان من أمر هارون في العباسة فانه بعث من هناك كتبا الى بدر وفائق وغيرهما من القواد يستعطفهم ويذكرهم بحرمة أبيه وجده وفضله عليهم وما يستحقه عندهم من عرفان الجميل، ولكن كتبه هذه لم تكن لها أي صدى.

وحين وصل محمد بن سليمان الى مصر كتب الى هارون يطلب منه التسليم، فجمع هارون قواده وعرض عليهم الأمر فرفضوا كلهم التسليم. وفي ذلك الموقف العصيب قتل هارون في ٢٩٢هـ (٩٠٤م) وانضم كثير من قواته الى العباسيين. وخلف شيبان بن أحمد بن طولون هارون ورجع الى الفسطاط ليهئ الدفاع عنها ويقاوم العراقيين. ثم جاءت الأنباء بأن دميانة وصل بأسطوله الى حذاء الفسطاط وبأنه حرق جزاء منها. وسار محمد بن سليمان من العباسة وعلى رأس جيشه وجيوش حلفائه الجدد.

وحاول شيبان في ذلك الوقت تنظيم البلاد ووزع العطايا على أتباعه. ويذكر أبو المحاسن أن

=خمارويه عند سفر ابنته قطرالندى في طريقها الى العراق، وكانت عمتها العباسة ترافقها في هذه الرحلة. وهذه المدينة بجوار الزقازيق الآن.

وانت يا مقدمهم يجب ان يكون فيك هذا الفعل والا افنيتكم بالسيف. حينيذ بهت البطرك وناله خوف عظيم ولم يدرى ما يجيبه به، فالهمه الله تعالى ان قال له امهلنى ثلثة ايام حتى ابحث واطلب من الرب جل اسمه ان يطيب قلب امير المومنين على عبيده، فامهله وعاد الى منزله بمصر [بالفسطاط] واحضر الكهنة والاراخنة بمصر وجميع الشعب الارثذكسى وعرفهم الامر وهو يبكى، وكان بمصر جماعة من رهبان وادى هبيب

شيبان ناوش العباسيين ساعة أدرك بعدها «قلة من معه من الرجال وكثرة جيوش محمد بن سليمان». لذلك استجاب شيبان لمحمد بن سليمان عندما كتب اليه الأخير يؤمنه على نفسه وأهله وولده وماله. وخرج شيبان للقائه والاعتراف بسلطانه وبذلك سقطت الدولة الطولونية وانتهى حكم شيبان الذى لم يطل أكثر من بضعة أيام.

ودخل محمد بن سليمان الفسطاط في يوم الخميس آخر صفر سنة ٢٩٢هـ (٩٠٥م) ودعا على المنابر للخليفة المكتفى بالله[١] وكتب اليه يبشره باحتلال مصر.

٧. المصريون والدولة الطولونية

رأينا في فيما سبق كيف قامت في مصر على يد أحمد بن طولون أول دولة مصرية مستقلة. وكان هذا الاستقلال الذى نالته مصر على يديه أول استقلال لها منذ أن قضى الرومان على دولة البطالسة سنة ٣٠ق.م. وعلى الرغم من أن عمر هذه الدولة التى أسسها أحمد بن طولون كان قصيرا لم يزد على ٣٨سنة (٢٥٤ـ ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ـ ٩٠٥م) الا أن

(١) الكندى: الولاة والقضاة، ص ٢٤٧. وينص الكندى على أن محمد بن سلمان دعا لأمير المؤمنين المكتفى بالله وحده، لأن الدعاء للخليفة على المنابر لم يبطل خلال الدولة الطولونية وانما كان يدعى لأمير الطولونى معه.

راجع عن العلاقة بين بنى طولون والخليفة العباسى:

zaky M. Hassan : Les Tulunides: P. 155.

فجعل على جميعهم قانون ان لا يمضى احد
منهم الى منزله فى الثلثة ايام وان يجتمعو لمداومة
الصلاة فى البيعة الليل والنهار، ففعلو ذلك الثلثة
ايام ولياليها، فاما البطرك فلم يفطر فيها بالجملة،
وبعضهم كان يفطر من الليل الى الليل على خبز
وملح وما [ء] يسير، ولم يزل انبا ابراهام البطرك
قايم يبكى بين يدى الله عنه فى تلك الايام ولياليها
حتى لم يبق فيه حركة، وكان هذا الاجتماع
المبارك فى كنيسة السيدة [العذراء] بقصر الشمع

مصر أصبحت مستقلة للمرة الأولى منذ عصر البطالسة وعاد اليها سلطانها على الشام للمرة الأولى منذ عصر الفراعنة. ولم يعد دخل مصر يتسرب الى بيت مال الخلافة أو الى جيوب الولاة وأصحاب الاقطاع، بل بقيت معظم أموال مصر فيها، وبدأ وادى النيل حياته لنفسه. وبدأ المصريون يشتركون فى جيش بلادهم، وأغلب الظن انهم الموالى الذين ذكرهم المؤرخون. وشعر المصريون لأول مرة بعد قرون طويلة بأن بلدهم أصبحت لهم، وتعلق قلوبهم بأحمد بن طولون كما تعلق هو بهم. بل انه تزوج بواحدة من بنات المصريين فذكر ابن سعيد أنه اتخذ زوجة من بنات الموالى يقال لها أسماء.

وكانت الأغلبية العظمى من سكان مصر فى العصر الطولونى قد استطاعوا أن يساهموا فى تقدم البلاد وأن ينعموا بعطف ظاهر، فهم أهل مصر سواء أسلموا أم بقوا على دينهم. وكان منهم العدد الوفير فى الوظائف الادارية فى البلاد وخاصة المالية منها. وكان منهم الأعداد الكثيرة فى مدينة الفسطاط والقطائع.

كذلك كان لهم نفوذ واسع المدى فى الريف كما كانت لهم مكانتهم الاجتماعية فى البلاد[1].

---

(١) انظر: ابن الداية: المكافأة ص ٦٨ (طبع القاهرة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م).

المعروفة بالمعلقة، ولما كان صباح اليوم الثالث سقط البطرك القديس على الارض من حزن قلبه وصيامه وتعبه وغفى غفوة يسيرة فراى الست [ايزيت = ايزيس] السيدة الطاهرة مرتمريم [مريم] وهى تقول له بوجه فرح: ما الذى أصابك؟، فقال لها: ما تنظرى حزنى يا سيدتى، فان ملك هذه الارض قال لى ان لم تظهر لى فى هذا اليوم اية فى الجبل والا قتلت جميع اهل النصرانية بديار مصر وابادتهم من مملكتى بالسيف. فقالت له

أما أوراق البردى فى عصر الولاة وفى العصر الطولونى فهى تشير الى أن الذين أسلموا فى مصر من الأقباط احتفظوا بأسمائهم القبطية، أو بنسبهم المسيحى الى جانب أسمائهم العربية. ومما يشهد باختلاط الأسماء وثيقة من سنة ٢٣٣هـ، أى من عصر الولاة، بصداق يونة ابنة حليصى من زوجها يزيد بن قاسم[١]، وعقد زواج اسلامى من العصر الطولونى، واسم الزوج يحنس بن شنودة من مدينة الأشمونين والزوجة اسمها دورا ابنة شنودة[٢].

وفى كثير من الأوراق البردية لا تستطيع أن نتبين ديانة أصحابها. فمعظم المصريين بعد الفتح مسلمين كانوا أو أقباطا احتفظوا بأسمائهم القبطية وبقايا الأسماء المصرية القديمة أو بالأسماء المقتبسة من اليونانية والرومانية. ونذكر أن هذه الوثائق البردية، وخاصة تلك التى نشرها الأستاذ أدولف جرومان والتى كانت محفوظة فى دار الكتب المصرية، ترجع الى أماكن متفرقة فى الريف المصرى ولاسيما مصر الوسطى والصعيد. أما شواهد القبور[٣] التى وصلتنا من جبانة الفسطاط والعسكر والقطائع فقد غلب عليها الأسماء العربية.

---

(١) انظر: Grohmann : Arabic Papyri voll. I. PP. 199 - 112

(2) Grohmann : Op. CIT., Vol. I. PP. 82 - 84.

(٣) يوجد العديد من شواهد القبور محفوظا فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة(دار الآثار العربية سابقا)، وقد نشر المستشرق الفرنسى الأستاذ جاستون فيت نصوصها فى عدة مجلدات.

السيدة: لا تخاف فانى ما اغفل عن الدموع التى
سكبتها فى بيعتى هذه، قوم الان وانزل من ها هنا
واخــرج من باب درب الحـــديد الذى يودى الى
السوق الكبير ففيما انت خارج تجد انسان على
كتفه جرة مملوة ما [ء] ومن علامته انه بعين واحدة
فـامـسكه فـهـو الذى تظهـر هذه الاية على يديه.
فـاسـتيقظ البطرك للوقيت وهو مـرعـوب وكـان
غلس[وقت الفجر] ونهض بسرعة ولم يدع احد
يعلم به حتى وصل الى الباب فوجده مغلقا، فشك

ومنذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)نرى المصريين ـ مسلمين ومسيحيين ـ يتعاملون فى عقود البيع والشراء والديون والميراث والهبة حسب الشريعة الاسلامية كما نرى أن ذلك ينص عليه فى العقود المختلفة.

وكان التقارب واضحا بين المسلمين فى مصر وبين أهلها المصريين، فقد احتفل المسلمون وأهل الذمة بالأعياد المسيحية والاسلامية على السواء، ولعل ذلك يرجع الى أن الكثير من المصريين المسلمين كانوا من أصل قبطى. وقد عدد المؤرخون القدامى تلك الأعياد أو وصفوا الاحتفال بها، ومن هؤلاء المؤرخين المسعودى[1]، ويحيى ابن سعيد الانطاكى[2]، والمقريزى[3].

وحين استقلت مصر فى العصر الطولونى كان أمراؤها يشاركون الشعب فى هذه الناسبات. وكان من أهم الأعياد القومية فى مصر الاحتفال بوفاء النيل، ومن أقدم ما نعرفه عن هذه

(١) المسعودى: مروج الذهب: ج٢ص ٣٦٤(طبعة باريس ١٨٦١ـ ١٨٧٧م).
(٢) يحيى بن سعيد الانطاكى: تاريخ أو صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق:ص ١٩٦ـ ١٩٧(طبعة بيروت ١٩٠٥م)
(٣) المقريزى: الخطط: ج١: ص ٢٦٤ـ ٢٦٩و ٢٩٥و ٤٩٤و ج٢: ص ١٥٤.
(٤) ابن رسته: الأعلاق النفسية. ص ١١٦(طبعة ليدن ١٨٩١ـ ١٨٩٢م).

في قلبه وقال اظن ان الشيطان لعب بى، ثم دعا البواب ففتح له فاول من دخل من الباب الرجل الذى قيل له عنه فمسكه وقال له بمطانوه من جهة الرب ارحم هذا الشعب. ثم اخبره السبب فى اجتماعهم، فقال له الرجل: اغفر لى يا ابى فانى خاطى ولم ابلغ الى هذا الحد. فعند ذلك اخبره البطرك بما قالته له السيدة الطاهرة عند ظهورها له، ثم قال له: ما صناعتك؟، فاراد ان يخفيه امره، فجعل عليه الصليب وربطه بالحروم ان لا يخفيه

الاحتفالات فى العهد الاسلامى ما كتبه ابن رسته فى كتابه الذى ألفه سنة ٢٩٠هـ[٤].

وقد رأينا أن المصريين فى العصر الطولونى كانوا يعنون كثيرا بالأعياد الشعبية. وكانت موكب الجند الطولونى بملابسه وعدته فى مناسبات الحفلات والأعياد وأيام الجمع، تقوم عند الناس مقام الأعياد، وكذلك كان الحال بالنسبة الى سباق الخيل.

وكانت بمصر فى العصر الطولونى جالية غنية من اليهود، ويتجلى ذلك من المناسبات التى يرد فيها ذكرهم فى كتابات المقريزى وأبى المحاسن وغيرهما من المؤرخين المصريين.

وقد جاء ذكر اليهود حين فتح العرب مصر وذلك فى معاهدة الاسكندرية التى نعرفها أيضا باسم صلح بابليون الثانى، اذ كان من شروط هذه المعاهدة أن يباح لليهود الاقامة فى الاسكندرية. وحين أرسل عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب يصف له مدينة الاسكندرية ذكر أن بالاسكندرية حوالى أربعين ألف يهودى[١].

وحين مرض أحمد بن طولون مرضه الأخير، خرج المصريون من نسائهم وأولادهم يدعون له الشفاء خرج المسلمون الى المساجد، واشترك اليهود مع المسيحيين فى الصعود الى جبل

(١) انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ص٨٢(طبعة ليدن ١٩٣٠، وسعيد بن بطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق:ص ٢٦(بيروت ١٩٠٥، ١٩٠٩م)، وابن العميد (الشيخ المكين جرجس بن العميد بن الياس): تاريخ المسلمين: ص٣٠ (ليدن ١٩٢٥م).

شيا من امره. فقال له: يا ابى انا اخبرك بحالى
على ان تكتمه، انا رجل دباغ وهذه عينى التى
تراها انا قلعتها لاجل وصية الرب عندما نظرت ما
ليس لى نظر شهوة ورايت اننى ماض الى الجحيم
بسببها ففكرت وقلت الاصلح لى ان امضى الى
الحياة بفرد عين كما قال السيد المسيح اخير من ان
امضى الى الجحيم بعينين، وانا فى هذا الموضع
اجير لرجل دباغ ما افضل مما اعمل به فى كل يوم
الا خبزا اكله والباقى للمستورين المنقطعين من

المقطم ليصلوا الى الله ويدعو بالشفاء لأمير مصر.

وفى العصر الطولونى ظهر النشاط الاقتصادى فى كافة المجالات، وكان الرخاء واضحا بعد فترة التأخر الاقتصادى التى سبقت ذلك العصر. وكان لبنى طولون بلاط يذكر بما كان للعباسيين فى بغداد وسامراء، بل كانت آيات الفخامة والترف فى القطائع والفسطاط أعظم منها فى عاصمة العباسيين. أما سائر أمراء الأسرة الطولونية فقد نشأوا فى هذا العز وكانت الأبهة والتقاليد فى بلاطهم طبيعية وغير متكلفة.

ومن الظاهرات الاجتماعية فى العصر الطولونى كثرة الجاسوسية الى حد كبير، وسبب ذلك اضطراب العلاقة بين أحمد ابن طولون والحكومة العباسية فى العراق. فكان للعباسيين فى مصر عيون وجواسيس ينقلون اليهم ما يحدث فى البلاد، وكان لابن طولون نفسه عيون وجواسيس لكشف جواسيس العباسيين ومن يتصل بهم من المصريين، وذلك فضلا عن عمال البريد الذين كان من اختصاصهم التجسس للحكومة أيضا. ويظهر من المصادر التاريخية أن هؤلاء الجواسيس كانوا مكروهين من الشعب المصرى.

واستطاع ابن طولون ومن بعده خمارويه أن ينهضا بالفنون والعمارة فى مصر. والمعروف أنه لما أسس أحمد بن طولون الدولة الطولونية فى مصر نشأ فيها ما يعرف باسم«الفن

الاخوه نسا ورجال، وهذا الما [ء] اسقيه لهم كل
يوم قبل ان امضى الى شغلى وامضى به الى قوم
فقرا منهم من لا قدرة لهم على شراه من السقا،
فنهارى كله اعمل فى المدبغه وليلى قايم اصلى
وهذه قضية حالي، وانا اسلك يا ابى لا تظهرنى
لاحد فليس لى قدرة ان احتمل مجد الناس بل
الذى اقوله لك افعله، اخرج انت وكهنتك
وشعبك كله الى الجبل [جبل المقطم] الذى يقول
لك الملك عنه ومعكم الاناجيل والصلبان والمجامر

الطولونى» نسبة الى الطولونيين، وفى الوقت نفسه نراه متميزا عما كان موجودا قبله ومقدمة لما وجد بعد العصر الطولونى فى مصر من فنون وآثار.

ولم يكن الفن الطولونى مستقلا كل الاستقلال عن فن الخلافة العباسية آنئذ فقد كان تابعاً له الى حد كبير وفى الوقت نفسه كان منافسا له. وأصبح البذخ والترف فى مصر حديث المعاصرين حينئذ ومن جاء بعدهم، وفى وقت كانت ثورة الزنج والفتن الداخلية قد استنزفت أموال الحكومة العباسية وجهودها.

ومن حسن الحظ أنه وصلت الينا آثار الطولونيين وتحفهم، ولم تكن كل معلوماتنا قاصرة على ما ذكرته المصادر التاريخية والأدبية عن عظمة الطولونيين وعلو شأن الفنون فى عصرهم[1].

وفى العصر الطولونى كانت الحركة العلمية والثقافية فى مصر الطولونية حلقة مستمرة بين عصر الولاة فى مصر وبين ما بعد الطولونيين. وكان أحمد بن طولون مشغوفا بمجالسة الفقهاء وأهل العلم مثل محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، وبلغ به ولعه بالحديث أنه كان ينتقل الى مجلس القاضى بكار بن قتيبة.

---

(١) انظر: الدكتور زكى محمد حسن: الفن الاسلامى فى مصر. ص٢١ـ٢٢ .

والشمع الكبير وليقف الملك وعسكره وجماعته
في جانب وانت وشعبك في جانب وانا خلفك
قايم في وسط الشعب بحيث لا يعرفني احد واقرا
انت وكهنتك وصيحو قايلين يارب ارحم
[كيريالصون] ساعة طويلة ثم امرهم بالسكوت
والهدو وتسجد ويسجدون كلهم معك وانا اسجد
معكم من غير ان يعرفني احد وافعل هكذى ثلث
مرات وكل دفعة تسجد وتقف ثم تصلب على
الجبل فسترى مجد الله، فلما قال هذا القول طاب

وكانت مدينة لقطائع في عهد الطولونيين حافلة بالعلماء والمحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين. ولم تكن الحركة العلمية والثقافية وقفا على الفسطاط والقطائع والاسكندرية انما امتدت المراكز العلمية الثقافية في أنحاء الدلتا والصعيد.

كذلك اشتهرت مصر في العصر الطولوني بالتقدم في علم الطب، وكان هذا التقدم استمرار لازهار الطب في العصور السابقة.

وكان مقام الأسرة الطولونية في تاريخ الحضارة المصرية عظيما جدا، ولاعجب فانها كانت فاتحة العهد الذي أصبح فيه لمصر كيان مستقل.. وأصبحت الدولة الطولونية تخشاها الدولة العباسية نفسها، كما صار البيزنطيون يخطبون ودها بارسال الهدايا النفسية واطلاق الأسرى المسلمين.

وأصبحت مصر في عصر الطولونين امبراطورية واسعة تمتد الى برقة غربا، والى الشام وتخوم العراق شرقا، والى حدود مملكة الروم شمالا والى النوبة جنوبا.

ولا ريب في أن انشغال الدولة العباسية بثورة الزنج سهل لابن طولون تحقيق مشروعاته في الاستقلال بمصر ثم في تكوين دولة اتسعت حدودها، ولكننا نذكر أن الفضل في نجاحه لا

قلب البطرك بما سمعه منه ثم نهض وجميع
الشعب معه وصعدو الى الملك وقالو له اخرج الى
الجبل، فامر جميع عساكره وخواصه ووجوه دولته
بالخروج وضربت البوقات وخرج الملك المعز
ووزيره معه وتقدم بخروج ذلك الكافر موسى،
ففعل الاب البطرك كما قال له ذلك القديس
ووقف الملك المعز واصحابه فى جانب، وجميع
النصارى والبطرك في جانب اخر، ووقف الرجل
خلف البطرك ولم يكن فى الجمع من يعرفه

يرجع الى انشغال الخلافة فحسب، فان ابن طولون كان اداريا حازما من الطراز الأول، استطاع أن يوطد الأمن فى مصر، رأن ينظم المالية، وأن يؤلف جيشا مصريا كبيرا منظما، وأن يتعهد الأسطول المصرى، كما استطاع أن ينهض بالعمارة والفنون فى البلاد.

وكان أسف المصريين على مرض ووفاة أحمد بن طولون عظيما، وكان حزنهم على مقتل خمارويه كبيرا. وكانت فجيعة المصريين أعظم يوم دكت قوات الخلافة العباسية صرح الدولة الطولونية وأحرقوا القطائع. والحق أن قائد العباسيين الذى قضى على الدولة الطولونية أخذ المصريين بمنتهى الشدة والقسوة. ويمكننا أن نفسر العنف الذى صحب سقوط الدولة الطولونية على أنه من الظواهر التى تصحب فترات الانقلاب، ولكن يبدو أن هذا العنف كان بسبب تعلق المصريين بالدولة الطولونية، التى كانت دولتهم. وتجلت الحسرة على ما حل بالطولونيين وزوال الدولة الطولونية من لهجة المؤرخين المصريين فى استهجان الفظائع التى ارتكبها القائد العباسى محمد بن سليمان وجنوده الخراسانية، ومن رثاء الشعراء المصريين والكتاب والمؤرخين للدولة الطولونية.

وقد بقيت ذكرى بنى طولون ماثلة فى أذهان المصريين ، يتحدث عنها المؤرخون والكتاب والأدباء ويتناقلونها جيلا بعد جيل.

الا البطرك وحده، وصرخو: يا رب ارحم. دفعات
كثيرة ثم امرهم بالسكوت وسجد على الارض
وسجدو جميعهم معه ثلث دفعات، وكل دفعة
يرفع وجهه ويصلب يرتفع الجبل عن الارض فاذا
سجدو نزل الجبل الى حده، فخاف الملك المعز
خوفا عظيما وصاح الملك والمسلمين الله اكبر لا اله
غيرك، ثم قال الملك المعز للبطرك بعد ثالث دفعة
حسبك يا بطرك قد عرفت صحة دينكم، فلما
اهتدو الناس التفت البطرك يطلب الرجل القديس

ثانياً: مصر بعد الطولونيين وقبيل الاخشيديين
(٢٩٢ - ٣٢٣هـ = ٩٠٥ - ٩٣٥م)

١. ثورة ابن الخليج

فقدت مصر استقلالها وعادت ولاية تابعة للخلافة العباسية في سنة ٢٩٢هـ (٩٠٥م) وظلت كذلك الى قيام الدولة الأخشيدية في سنة ٣٢٣هـ (٩٣٥م).

وبعد أن انتقل الحكم في مصر الى العباسيين، ورد كتاب من الخليفة العباسي المكتفي، بتولية أبي موسى عيسى بن محمد النوشرى عليها. ولم يكد يستتب الأمر للنوشرى في مصر، ومحمد ابن سليمان الكاتب لايزال في طريقه إلى العراق مع من خرج معه من أفراد الأسرة الطولونية وأتباعهم ومواليهم وكبار الموظفين في دولتهم، حتى انفصل عن ركبه ضابط سابق في الجيش الطولوني اسمه ابن الخليج. وذكر أبو المحاسن أن ابن الخليج من الجند المصريين وأنه ولد بمدينة الفسطاط[١].

وقد عقد ابن الخليج العزم على أحياء الدولة الطولونية ويمم شطر مدينة الرملة فهزم واليها، وأمر بالدعوة على منابرها في يوم الجمعة للخليفة ومن بعده لابراهيم بن خمارويه

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٣ ص ١٤٧.

فلم يجده. ثم قال الملك للبطرك انبا ابرهام: تمنى على شى افعله لك. فقال له: ما اتمنا الا ان يثبت الله دولتك ويعطيك النصر على اعدايك. فقال له: تمنا يا بطرك. فاعاد عليه القول ثلثة دفعات، فقال له الملك المعز: لابد ان تتمنا على شى، قال له البطرك: اذا كان ولابد فانا اسال مولانا ان يامر ان امكن من بنا بيعة ابو مرقوره بمصر. لانها كانت لما هدموها لم يمكنوهم من عمارتها وجعلت شونه للقصب، وكذلك المعلقة بمصر

بوصفه أمير للبلاد، وكان إبراهيم حينئذ أسيرا فى بغداد، ومن بعدهما لنفسه بوصفه نائبا عن ابراهيم. وقد ازداد أنصار ابن الخليج بسرعة مذهلة وسار ابن الخليج وأتباعه نحو مصر، واستعد والى مصر، عيسى بن النوشرى، للقائه، والتقى الجيشان عند غزة وكان النصر حليف ابن الخليج.

وتقدم ابن الخليج بعدها الى العريش ثم الى الفرما وتتابعت انتصاراته، وأعد النوشرى جيشا آخر ضخم العدد والعدة لصد ابن الخليج ولكن والى الخليفة هزم مرة ثانية ولم يجد بدا من الجلاء عن الفسطاط. وتعلق المصريون بأمل احياء دولتهم القومية المستقلة، وحين دخل ابن الخليج الفسطاط أحسن الشعب المصرى استقباله ودعا له الامام على المنبر بعد الخليفة وابراهيم بن خمارويه.

وعمل ابن الخليج على تهدئة الأمور والقضاء على الفوضى فى البلاد بعدما انتابها من وحشية محمد بن سليمان وجنده العباسيين.. وحسبنا بعض مقتطفات مما ذكر أبو المحاسن عن انتقام العباسيين ضد المصريين، فقال فى هذا الصدد: «كان محمد ابن سليمان هذا لا يسمى باسمه ولا بكنيته وما كان يدعى الا بالأستاذ، وكان حكمه فى أهل مصر بضرب أعناقهم وبقطع أيديهم وأرجلهم جورا، وتمزيق ظهورهم بالسياط، وصلبهم على جذوع النخل ونحو ذلك من أصناف النكال، ومازال على ذلك حتى رحل عن مدينة مصر فى يوم الخميس

بقصر الشمع فانها انهدم من حيطانها شي كثير
واعتل بعضها. فسال الاذن في عمارتها ايضا، فامر
للوقت ان يكتب له سجل بتمكينه من ذلك،
واطلق له من بيت المال ما يصرفه في العمارة
فاخذ السجل واعاد المال، وقال للملك المعز:
الرب يثبت ملكك وبيت المال احق بهذا المال.
فلما قرى [ابرهام] السجل عند بيعة ابو مرقوره
فاجتمعوا الباعة الذين هناك واوباش الناس وقالو:
لو قتلنا اجمعين بسيف واحد ما مكنا احد يجعل

مستهل شهر رجب من سنة اثنتين وتسعين ومائتين، واستصحب معه الأمير شيبان بن أحمد بن طولون.. وبنى عمه وأولادهم وأعوانهم حتى انه لم يدع من آل طولون أحدا، والجميع في الحديد الى العراق وهم عشرون انسانا. ثم أخرج قوادهم الى بغداد على أقبح وجه ولم يبق بمصر منهم أحد يذكر، وخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار، وحل بهم الذل بعد العز، والتطريد والتشريد بعد اللذ. ثم سيق جماعة من أصحاب شيبان الى محمد ابن سليمان ممن كان أمنهم فذبحوا بين يديه. وزالت الدولة الطولونية وكانت من غرر الدول، وأيامهم من محاسن الأيام...»(١).

والذى يهمنا في هذا المجال أن مصر بدت وكأنها في سبيل استعادة استقلالها على يد ابن الخليج، وأفلح ابن الخليج في جمع الضرائب وفي دفع رواتب الموظفين والجند. وما لبث أن استولى على الاسكندرية واستقر له الأمر في العاصمة وفي الدلتا، وظلت الحرب سجالا بينه وبين عيسى النوشرى. ولما علم الخليفة المكتفى بذلك أرسل جيشا لمحاربته ولكن ابن الخليج هزم جيش الخليفة شر هزيمة في أوائل المحرم سنة ٢٩٣هـ.

وقد عظم ذلك على الخليفة ـ والخلافة يومئذ في دور صحوتها ويقظتها ـ فأرسل الخليفة

(١) انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٣ص ١٣٩ـ ١٤٠.

حجر على حجر فى هذه البيعة. فعاد البطرك الى الملك المعز بالخبر فغضب لذلك وركب من ساعته وجميع عساكره حتى اتى الى المكان فوقف وامر بحفر الاساس، فحفر بسرعة وجمع له عدة كثير من البنايين وحملت اليه الحجارة من كل مكان بامر الملك المعز وبنو فيه لوقته، فلم يجسر احد ينطق بكلمة الا شيخ واحد كان يصلى باوليك الباعة فى المسجد الذى هناك وهو الذى كان يجمع الجموع ويوليهم [يحرضهم]، فرمى نفسه

جيشا ثانيا التقى مع ابن الخليج بالقرب من النيروم[1] وفى هذه المرة استعدت الخلافة استعداد عظيما بعد أن أدركت فشلها المتكرر أمام هذا الثائر المصرى الذى كان يمثل رغبة المصريين وآمالهم فى استعادة دولتهم المستقلة. واضطر ابن الخليج الى التقهقر الى الفسطاط وقبض عليه فى رجب سنة ٢٩٣هـ بعد أن دام سلطانه نحو سبعة أشهر وعشرين يوما.

وأخذ ابن الخليج الى بغداد ووقف بين يدى الخليفة العباسى فعنفه ثم طيف به وبأصحابه على ظهور الجمال فى بغداد ثم قتل شر قتله. وهكذا احتلت الخلافة العباسية مصر بعد نضال وقتال، مرة سنة ٢٩٢هـ وأخرى ٢٩٣هـ.

٢. محاولات الفاطميين للاستيلاء على مصر

ظلت مصر ولاية تابعة للخلافة العباسية حوالى ثلاثين عاما كانت فى أثنائها مرتعا للجيوش العباسية من الشرق وللجيوش الفاطمية من الغرب. وكانت مقاليد الأمور بمصر فى تلك الفترة فى أيدى ثلاث قوات: الولاة، وقواد الجيش العراقى فى مصر، والماذرائيين.

أما الولاة فكان أعظمهم مكانة وأكثرهم توفيقا هو الوالى أبو منصور تكين بن عبد الله، الذى ولى مصر أربع مرات فى تلك الفترة، وانتهت ولايته الرابعة حين وافته المنية فى ربيع الأول سنة ٣٢١هـ (٩٣٣م). وكان تكين على حد قول أبى المحاسن: «أميرا عاقلا شجاعا

(١) وردت فى المخطوط «النويرة» وصححتها النيروم من قرى الشرقية المندرسة.

في الاساس وقال: اريد اليوم اموت على اسم الله
ولا ادع احد يبني هذه البيعة. فعلم الملك المعز
بذلك فامر ان ترمى عليه الحجارة ويبنا فوقه، فلما
رمى عليه الجير والحجارة اراد ان يقوم فلم يمكنوه
الاعوان لان المعز امر بدفنه في الاساس الذى طرح
نفسه فيه، فلما راى البطرك ذلك نزل عن دابته
وتطارح بين يدى المعز وساله فيسه الى ان امر
باصعاده من الاساس، فما صدق ان ينفلت منه

عارفا مدبرا، ولى الأعمال الجليلة، وطالت أيامه فى السعادة وكان عنده سياسة ودربة بالأمور ومعرفة بالحروب»[١].

وكان للقواد العباسيين فى مصر نفوذ وسلطان عظيم حتى استطاعوا عزل الولاة قبل الرجوع الى الخليفة. وكان أظهر أولئك القواد مؤنس الخادم المظفر.

أما الماذرائيون فأسرة فارسية الأصل تنسب الى ماذارايا أو مادرايا وهى قرية من أعمال البصرة وقيل من أعمال واسط[٢]. وكانت تقع حيث تقوم اليوم كوت العمارة[٣].

ولم تصل هذه الأسرة الى الثروة والسلطان الا بسبب نزوح كثير من أفرادها الى مصر. ولسنا نعرف تماما متى كان خروج أول فرد منها الى مصر. والراجح أنه وفد اليها فى حاشية أمير من أمرائها لعله أحمد بن طولون. ولما لقى فيها الرخاء والنجاح استدعى اليه من العراق

---

(١) انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٣ص٢١١.

(٢) جاء اسمهم بالذال المعجمة فى بعض المصادر مثل الكندى: الولاة والقضاة: ص ٢٤٤، وياقوت: معجم البلدان ج٧ ص ٣٥٣(طبعة القاهرة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٦م) مادة: ماذرايا، وسماهم السمعاني: المادرانيين، ولعل النون تصحيف فى المخطوط: كتاب أنساب العرب: ورقة٤٩٩، وسماهم المقريزى: الماردانين: الخطط: ج١ ص ٣٣٢وج٢ص١٥٥.

(٣) عند مخرج شط الحى من مجرى دجلة الشرقى.

سالما بعد ان اشرف على الموت، وعاد الملك المعز
الى قصره فلم يجسر احد بعد هذا ينطق بحرف
واحد الى ان كملت عمارة البيعة، وكذلك بيعة
المعلقة بقصر الشمع، وبنا كل البيع التى تحتاج الى
العمارة ولم يعترضه احد فى شيا من ذلك.
وكذلك البيع باسكندرية بنا فيها مواضع كثيرة
كانت قد وهت [وهنت] وانفق فى ذلك مالا
عظيمافلم يمكنه ان يوفى الاسكندرانيين الالف

نفرا من أفراد أسرته وتبعهم آخرون. وأول من نقرأ عنه من الماذارائيين فى ادارة مصر هو أحمد بن ابراهيم، أو محمد سنة ٢٦٦هـ. وذكر المقريزى أن الذى ولاه هو الخليفة المعتمد وذكر البلوى وابن سعيد(عن ابن الداية) أن الذى ولاه هو أحمد بن طولون أشرف على مالية البلاد بعد تخلص من ابن المدبر وأصبح منذ سنة ٢٦٤هـ فى عداء ظاهر مع الحكومة المركزية فى بغداد واستقل عنها بادارة مصر(١).

وأتيح لبعض أفراد هذه الأسرة ولاية طائفة من الوظائف الرئيسية فى مصر زمن الطولونيين خاصة الاشراف على الأموال والخراج. وكان الماذرائيون ينفذون من تدبير الشئون المالية الى السيطرة على معظم مرافق الادارة فى مصر. وكان على بن أحمد الماذرائى فى دمشق مع خمارويه عندما توفى هذا الأمير وعاد بعد ذلك الى مصر وأصبح صاحب الأمر والنهى فيها طوال الفترة القصيرة التى حكم فيها أبو العساكر جيش بن خمارويه. وأخفق على الماذرائى فى تهدئة الجند حين ثاروا على الأمير وانتهى الأمر بقتله وقتل جيش ابن خمارويه(٢).

والمعروف أنه فى سنة ٢٧٢هـ استقدم على بن أحمد الماذرائى الى مصر ولديه أبابكر

(١) انظر: Zaky M. Hassan : Les, Tulunides : PP. 63, 247. ودكتورة سيدة كاشف: مصر فى عصر الاخشيديين: ص٣٧ـ ٥٢ .

(٢) انظر: الطبرى: تاريخ الأمم والملوك: ج١١ص ٢٨٣، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٣ ص ٩٣.

دينار المستقرة لهم لنفقة بيعهم، وبعد سوال كثير استقر ان يعطيهم في كل سنة خمس مابة دينار.

وكان مدة مقام هذا البطرك انبا افرهام عل الكرسى ثلث سنين وستة اشهر، وتنيح مع ابايه القديسين.

ويقال ان انسان من الاراخنة يعرف بابى السرور الكبير كان له وجاهة في الدولة، وكان له سرارى كثير فامره باخراجهم فلم يفعل فاحرمه ومنعه من

محمد بن على، وأبا الطيب أحمد بن على ، وأصبحت مصر منذ تلك السنة وطن الماذرائيين[١].

وظل الماذرائيون يتمتعون بنفوذ كبير في مصر بعد سقوط الدولة الطولونية حتى قامت الدولة الاخشيدية، وسوف نرى انه سيكون لهم شأن كبير في الدولة الاخشيدية أيضا. ويدلنا على عظم شأن هذه الأسرة مارواه المؤخرون من عظم شأنهم في المال والادارة. وأصبحت زعامة هذه الأسرة في يد أبي بكر محمد بن على الماذرائي بعد مقتل أبيه على الماذارئى. وذكر المؤرخون أنه كان « أمير البلد في الحقيقة»[٢]. قبل قيام الدولة الاخشيدية ويذكر المؤ خرون انه لما توفي تكين والى مصر في السادس عشر من ربيع الأول سنة ٣٢١هـ أصبح الأمر كله في مصر بيد أبي بكر محمد بن على الماذرائي[٣].

وفي تلك الفتره من تاريخ مصر ، وبعد سقوط الدولة الطولونية، ظهر أمر عبيد الله

(١) انظر: النص العربى المنقول عن «التاريخ الكبير المقفى» للمقريزى ، والذى نقله المستشرق الألمانى جوتشلك، فى رسالته عن الماذرائين: ص١٢٠

Gottaschalk (Hans): Die Madarajjun. (Berlin und Leipzig. 1931).

(٢) انظر: ملحق أخبار القضاة فى الكندى: الولاة والقضاة: ص ٥٢٧.

(٣) الكندى: الولاة والقضاة: ص ٢٨١ ، والمقريزى: الخطط: ج١ ص ٣٢٨.

القربان فتحيل حتى سقاه سقية قتله ومضى الى الرب بسلام وبكا عليه الناس.

وكان في تقدمته نبوة وذاك انه لما كان علماني مضى الى دير ابو مقار بوادى هبيب ليصلي هناك ومضى الى المغاير ليتبارك من السواح [النساك والرهبان] فاجتمع بواحد منهم وكان معه اثنين من اصحابه فبارك عليه ذلك القديس السايح واخذ بيده ومال به الى ناحية وقال: يا اخى هوذا انظر

المهدى[1]. وحاول الخليفة العباسى المكتفى القبض عليه، ولكنه استطاع الخروج من الشام مع ابنه ابى القاسم نزار[2] ومعه خاصته ومواليه، وعقد العزم على الاتجاه الى بلاد المغرب. وحين وصل المهدى الى مصر، كانت كتب الخليفة قد وصلت الى واليها ، النوشرى، بوصف المهدى والأمر بالقبض عليه وعلى كل من يشبهه.

وذكر المؤرخون أن النوشرى فرق الناس في طلب المهدى وانه قبض عليه بنفسه ، ولكنه عاد فأطلق سراحه. ونحن لا نستطيع تعليل ذلك تماما، فر بما كان سبب اطلاق سراحه أنه لم يره شخصا خطيرا، ونحن نعرف أن مصر كانت دائما ملجأ وملاذا لآل البيت. وعلى أسوا الفروض، ربما أغدق المهدى على والى مصر وعلى خاصته كثيرا من الأموال التى جعلتهم يغمضون أعينهم ويطلقون سراحه هو ومن معه. وربما ساعد على اطلاق سراحه شيعة الفاطميين من وجوه القوم فى مصر ومن عامة المصريين.

والمعروف من المصادر القديمة أن الاسماعيلية العلويين الذين ينتسب اليهم المهدى، بثوا دعاتهم سرا فى مصر وفى كل مكان من العالم الاسلامى، وهذا يفسر لنا ظهور الحركات العلوية المتتابعة في مصر فى أواخر عصر الولاة وفى أوائل الدولة الطولونية.

(١) ينتسب المهدى الى اسماعيل بن جعفر الصادق، ومن نسل الحسين بن على والسيدة فاطمة الزهراء بنت النبى محمد.

(٢) هو الذى تولى الخلافة الفاطمية بعد المهدى وتلقب بالقائم.

الى صخرة عظيمة فوقك معلقة وهى نازلة عليك .
فلم يعلم معنى قوله فى ذلك اليوم، وانه عنى له بذلك عظم جلاله البطركية التى استحقها من الله.

ولما صارت مملكة مصر للمعز كما قلنا انفا كان انبا مينا البطرك فى بعض ايامه فى ولاية جوهر وانبا ابرهام بعده، وكان المعز كلما اراد ان يعمل شى كعادته فى الغرب يمنعه منه جوهر بلطف وسياسة ويقول ان اهل مصر قوم فيهم مكر وفطنة

ولم يعرف أن أحمد بن طولون كان معاديا للعلويين ولكنه قضى على الحركات العلوية فى مصر دون هوادة وذلك رغبة منه فى أن يستتب الأمن فى البلاد. وعلى كل حال فقد أصبح المهدى هذا أول الخلفاء الفاطميين، وأسس الدولة الفاطمية وجعل مركزها فى البداية مدينة القيروان، بعد أن تم له القضاء على دولة الأغالبة فى سنة ٢٩٦هـ (٩٠٩م).

وكان هؤلاء الفاطميون لا يعترفون للعباسيين بالخلافة أو الرئاسه الدينية أو السياسية. ولم يقنع الفاطميون ببلاد المغرب، وانما فكر المهدى على أثر قيام الخلافة الفاطمية، فى فتح مصر وذلك لخيراتها الواسعة ولموقعها الجغرافى، وليستطيعوا منها أن يوسعوا نطاق دعوتهم وأن يمدوا نفوذ خلافتهم الشيعية الى الشرق الاسلامى. ومن ثم أخذ المهدى يضع الخطط لغزو مصر. لكن غزو الفاطميين لمصر لم يحدث فى خلافة المكتفى أو ولاية عيسى النوشرى، اذ توفى عيسى النوشرى فى سنة ٢٩٧هـ(٩١٠م) وتوفى قبله الخليفة المكتفى سنة ٢٩٥هـ وبويع من بعده للخليفة المقتدر بالله[١].

وبعد وفاة النوشرى ولى مصر أبو منصور تكين بن عبد الله من قبل الخليفة المقتدر، ووصل الى الفسطاط فى بداية ذى الحجة من سنة ٢٩٧هـ.

وقد وجه تكين منذ توليه حكم مصر عنايته لدرء خطر الفاطميين فى المغرب. فأرسل جيشا

(١) هو جعفر بن الخليفة احمد المعتضد.

لا يخف عنهم شيا فكانهم يعلمو الغيب، فقال له
يوم يا جوهر ان كان ما يقال عن فطنة المصريين
صحيح فانا اريد اجربهم ثم امر ان يوخذ درج
كبير وورق كمثل السجل ويطو ى بلا كتابه
ويختم، فلما اوتى به دفعه للكاتب فعنونه باسم
الملك المعز وامر بضرب البوق قدامه وان ينادى
منادى فى الناس ان يحضروا لسماع سجل الملك
وامر دواسيس [جواسيس] يمشو خلفه ويسمعو ما
يقولوه اهل مصر، ففعل ذلك فسمعو بعض الناس

فى سنة ٢٠٧هـ ولكن هزيمة المصريين فى برقة على يد أعوان الخليفة المهدى كانت أكبر حافز للفاطميين على الهجوم على مصر نفسها. فوجه اليها المهدى جيشا من أفريقيا بقيادة ابنه أبى القاسم فى سنة ٣٠١هـ) ودان لهذا الجيش جزء كبير من مصر. فبعث اليه الخليفة المقتدر جيشا بقيادة مؤنس الخادم، من أعلام القواد العباسيين، وأفلح هذا الجيش فى صد الفاطميين وارغامهم على الجلاء عن مصر.

ولكن عبيد الله المهدى أعاد الكرة السنة التالية، ومرة أخرى قدمت الجيوش من المشرق بقيادة مؤنس الخادم، مددا لتكين، وكان النصر حليف العباسيين.

ولم يثن ذلك من عزم الخليفة عزم الخليفة الفاطمى، الذى انتشر دعاته فى مصر وأصبح له عيون فيها من وجوه المصريين. فجهز المهدى جيشا كثيفا عقد لواءه لابنه أبى القاسم سنة ٣٠٧هـ وساعد هذا الجيش أسطول فاطمى. وتوالت أمداد الخلافة العباسية لدرء هذا الخطر، ولم يهزم الفاطميون الا فى سنة ٣٠٨هـ. وكان لانتصار مؤنس الخادم فى هذه المرة وقع عظيم فى بغداد، فخلع عليه[1] الخليفة المقتدر ولقبه بالظفر.

ومهما يكن من الأمر فقد أصبحت مصر مرتعا للجيوش العديدة التى وفدت اليها من بغداد لقتال الفاطميين.

(١) منحه الخلع والهدايا الثمينة.

يقـولو امـضـو بنا نسـمـع سـجل الملك، وبعضـهم
يقول لا تتعبو ما فيه شي هو فارغ، فعادو واعلموه
فتعجب من ذلك جدا.

وفى بداية قسمة انبا ابرهام بطركا كان الوزير
بمصـر ابو اليـمين قـزمـان ابن مينا المقـدم ذكـره،
وكـان رجل دين بتـول لم يتـزوج قط ولـم يســمـع
عنه ان له صـــبـوه ويفـعل الخـيـر مع كل الناس
ومشكور من كل احد ورزق نعمة ومحبة من المعز

وقد أدى ذلك الى اضطراب الأحوال المالية فى البلاد، فلا عجب اذ كتب أبو بكر محمد علي الماذرائى، العامل على الخراج ينبه الحكومة المركزية فى بغداد الى كثرة الجيوش فى مصر، وما تحتاج اليه من نفقات طائلة.

وفى تلك الأثناء ظهر محمد بن طغج على مسرح السياسة المصرية لأول مرة.

ثالثا: مصر فى عصر الاخشيديين
(٣٢٣، ٣٥٨هـ=٩٣٥، ٩٦٩م)

١. أسرة الاخشيد

حكمت الدولة الاخشيدية مصـر فترة أربع وثلاثين سنة من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)، أو على وجه التحديد بين عامى ٣٢٣و٣٥٨هـ (٩٣٥ـ ٩٦٩م). ومؤسس هذه الدولة هو محمد بن طغج الاخشيد.

أما لقب «اخشيد» فقد منحه الخليفة العباسى الراضى بالله لمحمد بن طغج فى سنة ٣٢٦هـ أو فى سنة ٣٢٧هـ بناء على التماس الأخير. وقيل ان لفظ « الاخشيد» معناه بلغة اقليم فرغانة[1] «ملك الملوك»، وانه كان لقب ملوكهم كما كان قيصر لقب ملوك الروم، وكسرى لقب ملوك الفرس، وفرعون لقب ملوك مصر القدماء.

(١) فرغانة: أقليم من أقاليم ماوراء النهر، أى ماوراء نهر جيحون، أو بين نهرى سيحون وجيحون فى آسيا الوسطى. وأقليم ماوراء النهر هو التركستان الآن.

بحسن سيرته ونيته وقوة امانته، وكان يقبل قوله ومشورته وجعله متولى استخراج مال مصر، ولم يزال هكذى الى ان صار انبا ابرهام بطركا، فلما راى يعقوب ابن كلس الوزير تقدمة ابو اليمن عند المعز حسده وخاف ان يجعله وزيرا عوضه فاشار على المعز وقال له: قزمان ابن مينا يصلح ان تنفذه الى اعمال فلسطين ليدبرها لانه رجل مامون. وكان غرضه ابعاده عن المعز فانفذه الى فلسطين، فلما وصل اليها ونظر فيها استخرج منها ومن

ولعل محمد بن طغج عندما وصل الى منصب الامارة، أراد أن يصل نسبه ببيت الامارة فى موطنه اعلاء لشأن أسرته وقيل أيضا ان لقب أخشيد ايرانى الأصل بمعنى«الذكى» أو «النابه».

وكان جف جد الاخشيد من بين نفر من فرسان فرغانة وشجعانها، قدموا أوجئ بهم، الى الخليفة العباسي المعتصم بالله، فعنى بهم أشد العناية وأقطعهم قطائع فى مدينة سامرا.

ولما توفى المعتصم انتقل جف الى خدمة ابنه الخليفة الواثق. ولما مات الواثق صحب جف الخليفة المتوكل وظل فى بطانته الى أن توفي ببغداد فى الليلة التى قتل فيها المتوكل سنة ٢٤٧هـ (٨٦١م).

أما طغج بن جف فقد الحق بعد وفاة أبيه بخدمة أحمد بن طوولون والأسرة الطولونية من بعده. وكان طغج بن جف من القواد الطولونين الذين لم يرضوا عن قتل هارون بن خمارويه ولم يتعرفوا بخلفه شيبان بن أحمد بن طولون سنة ٢٩٢هـ. وقد قرر هؤلاء القواد أن يتصلوا بالجيش العباسى الذى كان يقو ده محمد بن سليمان الكاتب والذى سار الى مصر للقضاء على حكم بني طولون بعد أن أفلح فى هزيمة القرامطة.

أما محمد بن طغج فقد ولد فى مدينة بغداد فى سنة ٢٦٨هـ (٨٨٢م). ولسنا نعرف شيئا عن نشأته، ولكنا نعرف أنه حين ولى أبوه دمشق وطبرية من قبل خمارويه، كان أبوه يستخلفه فى حكم طبرية.

اعمالها مايتى الف دينار، ثم قام خارجي من ديار الشرق يعرف بالقرمطى [هو الحسن بن أحمد بن أبى سعيد بن بهرام] فملك بلاد الشام حتى وصل الى اعمال فلسطين، فلما بلغ قزمان ابن مينا خبره اخذ المال الذى حصله ومضى به الى دير فوق جبل تابور وسلمه لمقدم الدير وجعله وداعة ليحفظه وعاد الى عمله، فلما وصل اليه القرمطى قال له لا تخف فما يلحقك منى شر وانا اجعلك بصحبتى كما كنت مع المعز وعاهده على

واتصل محمد بن طغج بتكين والى مصر. وعندما قدم الجيش الفاطمى لغزو مصر فى سنة ٣٠٢هـ أبلى محمد بن طغج بلاء حسنا مع تكين فى قتال هذا الجيش.

وفى سنة ٣٠٧هـ حين غزا الفاطميون مصر أبلى محمد بن طغج فى قتالهم بلاء حسنا. وعمل محمد بن طغج منذ ذلك الوقت على توثيق علاقته مع كبار رجال الحكم فى مصر فاتصل بأبى بكر محمد بن على الماذرائى، كما اتصل بالقائد العباسى مؤنس الخادم. وتقلد محمد بن طغج عدة مناصب ادرية فى مصر حينذاك. ويبدو أن تكين ولاه الاسكندرية قبل غزو الفاطميين لمصر. كذلك تقلد محمد ابن طغج حكم الحوفين الشرقى والغربى[١] من قبل تكين.

وقد استطاع محمد بن طغج أن يحصل على تقليد من بغداد بولاية الرملة سنة ٣١٦هـ ثم بولاية دمشق سنة ٣١٩هـ. وكان محمد ابن طغج يطمع فى حكم مصر قبل وفاة واليها تكين، ولكنه انتظر الى أن خلا مكانه واضطربت الأمور فى مصر.

٢. محمد بن طغج الاخشيد وتوليه مصر

استطاع محمد بن طغج الاخشيد أن يحصل من الخليفة العباسى القاهر على تقليد بولاية مصر فى سنة ٣٢١هـ ولكن اضطراب الأمور فى مصر، وفى مقر الخلافة نفسه، لم يترك

(١) الحوف الشرقى: شرقى الدلتا، والحوف الغربى: غربى الدلتا.

ذلك، فكتبو اصحاب الترتيب الى المعز بذلك ان
ابو اليمن قزمان ابن مينا قد وافق القرمطى
وصالحه، فلما علم الوزير بذلك وجد السبيل الى
ذكره بالردى وقال للمعز: هذا قزمان ابن مينا
الذى تقول انه ثقة مامون قد صالح عدوك ودفع
له المايتى الف دينار التى استخرجها من بلادك
ليقويه بها عليك. فغضب المعز وانفذ قبض على
جميع اهله ونهب مالهم واعتقلهم. فلما وصل
القرمطى الى مصر خرج المعز لمحاربته فهزمهه

للاستقلال سبيلا، اذ لم يدع للاخشيد على منابر مصر الا نحو اثنين وثلاثين يوما، ورد بعدها كتاب من الخليفة القاهر بتولية غيره.

وما لبثت الفرصة أن واتت محمد بن طغج ثانية حين ولاه الخليفة الراضى مصر. لكن تقليد الخليفة لم يعد يكفى فى ذلك الوقت لتثبيت الوالى، بل كان لابد للوالى من فرض نفسه والتغلب على عدة عقبات.

وقد كتب الاخشيد قبل قدومه الى مصر الى أبى بكر محمد بن على الماذرائى يطلب اليه أن يتركه يدخل مصر بجيشه على أن يكون له معه ما كان مع سائر الولاة من الأمر والنهى فلم يجبه الى طلبه، واضطره بذلك الى أن يدخل بجيشه فى الفسطاط فى سنة ٣٢٣هـ (٩٣٥م) وأن يستولى على مصر عنوة براً وبحرا ، وأن ينتصر على والى مصر السابق وان يهزم الثائرين عليه من القواد والجند. أما الماذرائى فقد اضطر الى الاختفاء، وفى الوقت نفسه أظهر ابنه الحسين بن محمد الماذرائى التسليم لابن طغج. وليس هذا الانقسام غريبا على ا لماذرائيين، فقد كانوا يضمنون به وجود أفراد منهم يتعاونون مع مختلف الحكام.

وهكذا خلصت مصر لابن طغج بفضل جهوده الشخصية وذلك بعد أن قلده الخليفة الراضى مصر فى سنة ٣٢٣هـ (٩٣٥م).

٦٢: انبا ابرهام ٩٧٤ / ٩٧٨م

وقتله. وكتب قزمان ابن مينا الى المعز اعلمه بما
جرى له مع القرمطى وكيف تلافاه الى ان
تخلص منه وخلص المايتى الف دينار، فنقم المعز
على الوزير ابن كلس وقبض عليه وقتله وانفذ
احضر قزمان ابن مينا الدين الفاضل، فوصل
والمال صحبته فاخلع عليه واكرمه بعد ان افرج
عن جميع ماله واهله، واعاد اليهم ما لهم الماخوذ،
وكان قزمان ابن مينا قد حصل قبل مسيره الى
فلسطين تسعين الف دينار فلما اراد المسير دفعها

---

٣. تثبيت محمد بن طغج فى مصر واتساع سلطانه

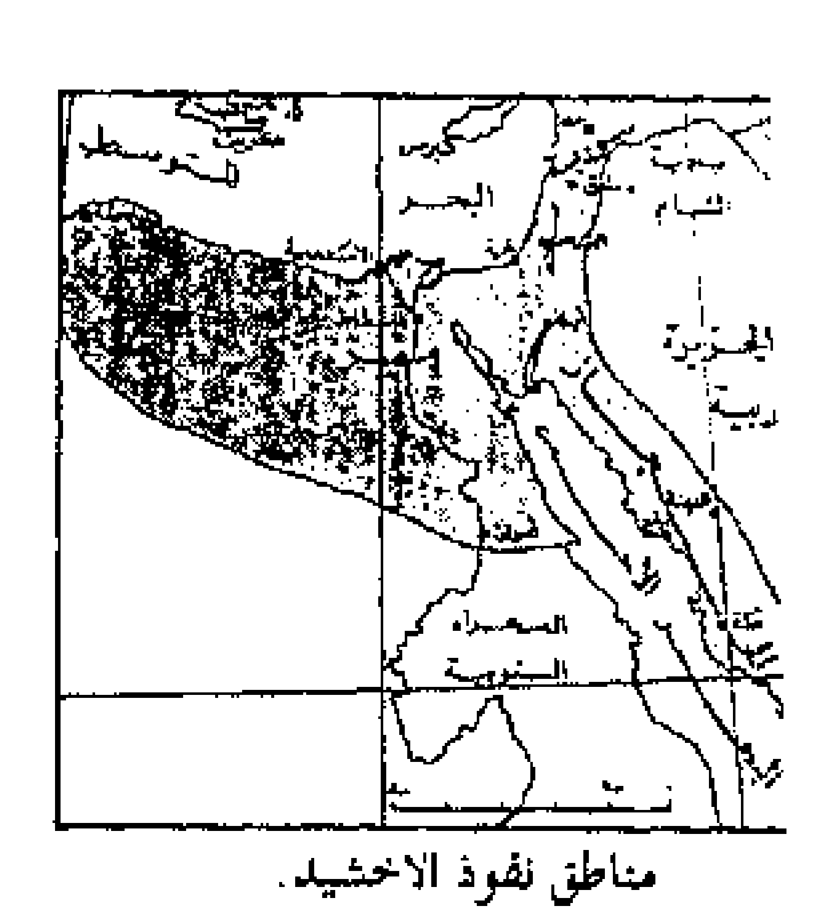
كانت الحكومة المركزية في بغداد ترقب جهود محمد بن طغج لتثبيت قدمه فى مصر، وما كادت الأحوال في مصر تؤذن مصر بالاستقرار حتى قدم اليها الوزير العباسى الفضل بن جعفر بن الفرات[١]، ومعه خلع لمحمد بن طغج من قبل الخليفة الراضى.

وقد أقام ابن الفرات في مصر الى سنة ٣٢٤هـ يبحث شئونها المالية ويكشف ضياعها ولا سيما ضياع الماذرائى. ولما خرج ابن الفرات الى الشام أخرج معه محمد بن على الماذرائى مقبوضا عليه. ويعتبر خروج ابن الفرات من مصر ايذانا ببدء عهد جديد فى حكم الاخشيد، اذ أنه لما كان الفضل بن جعفر بن الفرات فى مصر كان تدبير الأموال والخراج له، وتدبير الحرب والرجال للاخشيد، فلما غادرها ابن الفرات جمع الاخشيد الولايتين كما عمل أحمد بن طولون. كذلك تخلص محمد بن طغج من منافسة الماذرائيين، فضلا عن انه أفاد من مصادرة معظم ضياع أبي بكر محمد بن على الماذرائى فى مصر، ومصادرة أموال أولاده وحاشيته.

كذلك استطاع الاخشيد أن يهزم الجند المغاربة الذين كرهوا الخضوع له واتصلوا

(١) كان محمد بن طغج الاخشيد قد ارتبط برباط المصاهرة مع الفضل بن جعفر قبل ولايته الثانية على مصر اذ زوج ابنته من جعفر بن الفضل ابن جعفر.

للاب انبا افرهام البطرك وقال له: اذا سمعت انني توفيت فاصرفها في خلاص نفسي للبيع والمستورين والمنقطعين والاسارى، وان انا عدت فانا اخذ مالي. فلما عاد الى مصر وانصلحت حاله مع المعز طلب من البطرك التسعين الف دينار فقال له سمعت ما جرى عليك في الشام فظننت انك لا تعود الى هاهنا مما جرى على اهلك وخفت ان يبلغ المعز خبر المال فياخذه ولا يحصل لك منه شي ولا منفعة في الاخرة فاصرفته فيما امرتني به،


مناطق نفوذ الاخشيد.

بالفاطميين في المغرب. وقد فر هؤلاء الجند من الاسكندرية الى الرمادة في طريقهم الى بر قة، وهناك توفي زعيمهم سنة ٣٢٤هـ، وكانوا قد كتبوا الى القائم بأمر الله الخليفة الفاطمي، يسألونه أن يبعث اليهم بجيش يفتحون به مصر. وقيل أيضا ان أبا بكر جعفر بالشام، اتهم بأنه كاتب الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله وزين له فتح مصر[١].

وقد لبى الخليفة الفاطمي دعوة الجند المغاربة، وأنفذ اليهم جيشا أمره بالسير معهم الى الاسكندرية فبلغوها في ربيع الآخر سنة ٣٢٤هـ وبعث اليهم الاخشيد جيشا على رأسه أخوه الحسن ابن طغج وقائده صالح بن نافع.

والتقى الجيشان في قرية من قرى البحيرة، وحلت الهزيمة بالمغاربة وفرت فلولهم الى برقة[٢].

والراجح أن نجاح الاخشيد في التغلب على الصعاب التي لقيها بمصر حمل الخلافة العباسية على تأكيد ولايته لها. فالمعروف أن الاخشيد ولي مصر في سنة ٣٢٣هـ. ونرى في بعض المصادر القديمة أن الراضي قلد محمد بن طغج أعمال مصر مضافا الى ما بيده من

(١) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٢٦ .
(٢) الكندي: الولاة والقضاة:ص ٢٨٧ـ ٢٨٨ .

فلم يقول له كلمة ولا فى اى شى صرفت ماليى، بل قال له يا ابى قد احسنت الى وفعلت معى جميلا ورحمة اذ فرقت ما لى على اهل الحايجة ولم تبقيه للملك. ولما تنيح انبا ابرهام بعد ان اقام ثلث سنين ونصف ولم يبق معه شى من التسعين الف دينار ولا من المال الكثير الذى كان معه لنفسه قبل بطركيته درهم واحد بل اصرف جميع ذلك فى بنا بيعة والصدقات وما يرضى الله سبحانه، وصار مثل الاب ابرهيم الاول فى اعماله

الشام فى سنة ٣٢٤هـ[١]. وهى السنة التى جمع الاخشيد فيها أيضا ولاية مصر مضافا اليها ولاية الخراج.

وقد اضطر الاخشيد الى القتال فى الشام ليوطد سلطانه فيها، فاستطاع أن يصد هجوم محمد بن طغج الذى كان أميرا للأمراء فى بغداد سنة ٣٢٤هـ (٩٣٦م)، والذى هاجم الشام وطالب الاخشيد بضريبة على الممتلكات الاخشيدية فى الشام فى سنة ٣٢٨هـ. ولم تكن نتيجة الحرب حاسمة بين الفريقين فعقد الاخشيد مع ابن رائق صلحا على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمالى الرملة، وعلى أن يحكم الاخشيد ما يقع جنو بيها، وأن يدفع الى ابن رائق جزية سنوية قدرها مائة وأربعون ألف دينار. والحق أن الشام والثغور الشامية[٢] كانت موضع نزاع بينه وبين سيف الدولة الحمدانى كما سنرى.

وهكذا نرى أن الاخشيد كان عليه أن يفرض نفسه على الولاية التى تقلد حكمها، وأن

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ: ج٨ص ١١٤(طبعة بولاق ١٢٩٠هـ)، وأبو الفدا: المختصر فى فى اخبار البشر: ج٢ص ٨٩(طبعة القسطنطينية ١٢٨٦هـ)، وابن خلدون: العبر وديوان المبتدا والخبر: ج٣ص ٤٠٩(طبعة القاهرة ١٢٨٤هـ).

(٢) المعروف أنه منذ حكم معاوية بن أبى سفيان حصنت الحدود الشمالية الشامية وحدود الجزيرة الشمالية تحصينا منيعا، وأقيم هناك خطان دفاعيان أحدهما أمامى يطلق عليه خط الثغور وهو يلى حدود الروم مباشرة، والآخر خلفى يطلق عليه اسم العواصم. وكان من أهم الثغور الشامية مدينة طرسوس.

الموضيـة وحسـب مع الابرار فى ملكوت الله، الرب يرحـمنا بصـلاته وصـلاة كلمن ارضـاه باعـمـاله، والمجد لله دايما ابدا سرمدا.

فيلاتاوس [فلتاؤس] البطرك وهو من العدد الثالث والستون

[٩٧٩/ ١٠٠٣م]

اقـام كـرسى اسكندرية سـتـة شـهـور خـال بلا بطرك، فـاجـتـمع السنودس [المحفل الكنسى] الى

يتغلب على الثوار والمعارضين والغزاة، وأن يلجأ الى الوسائل السلمية حين يستطيع، والى القتال حيث لا تنفع الوسائل السلمية. أما الخلافة العباسية فى بغداد فقد سادت فيها الفوضى وكان موقفها من ذلك كله موقف المتفرج، وذلك حين لاتتدخل من وراء ستار لتزيد الطين بلة وتضيف سببا جديدا للخلاف والقتال بين الولاة الطامعين فى الاستقلال.

ولاريب فى أن الخلافة العباسية كانت مرغمة على تثبيت الولاة المنتصرين، فضلا عن انها كانت ترتاح الى بقاء مصر فى يد حاكم قوى يستطيع صد الفاطميين عنها ويحمى الخلافة منهم. وقديما كان لمثل هذا الاعتبار أثره فى قيام الأغالبة حين أقطعهم هارون الرشيد أفريقيا لتكون ولايتهم حاجزا يحمى مصر والشرق الاسلامى من الأدراسة وغيرهم من الخارجين على الدولة العباسية.

وبعد عودة محمد بن طغج من الشام على اثر عقد صلحه مع ابن رائق وردت الأخبار فى سنة ٣٢٩هـ بوفاة الخليفة الراضى وبيعة أخيه المتقى بالله .

وقد وصل كتاب الخليفة الجديد فى نفس هذه السنة باقرار الاخشيد على مصر.

وقد احتل الاخشيد الشام بعد قتل ابن رائق ودخل دمشق فى سنة ٣٣٠هـ واستقر حكمه فى الشام بحد السيف.



مصر كما جرت العادة وذكرو انسان راهب يسمى يوحنا بدير ابو مقار في منشوبية تعرف بذكر قفرى، فانفذو اليه احضروه الى مصر ومعه تلميذ بصحبته اسمه فيلاتاوس، فلما وصل يوحنا راوه شيخا كبير جدا قد طعن في السن ولا يصلح لهذا الامر، ونظرو ولده فيلاتاوس فاذا هو تام القامة فجعلوه بطركا، فاعتمد اخذ المال على قسمة الاساقفة وكان على البيع سلامة عظيمة في ايام الملك المعز الى ان مات، وكذلك ايام ولده الذى ملك بعده

ولا ريب في أن قتل ابن رائق، واستقرار الحكم في الشام للاخشيد، ونجاحه في تدعيم حكمه في مصر، كل ذلك يعتبر حدا فاصلا في علاقته بالخلافة العباسية، فقد أصبح من القوة بحيث استطاع في آخر ذى القعدة سنة ٣٣١هـ (٩٤٢م) ان يأخذ البيعة من قواده لابنه أبى القاسم أو نوجور من بعده(١).

٤.الاخشيد والخلافة العباسية

اختار الخليفة العباسى المتقى لامرة الأمراء« توزون»، وذلك في سنة ٣٣١هـ. ولكن سرعان ما ساءت العلاقة بين الخليفة وبين أمير الأمراء الى حد اضطر معه الخليفة الى الاستنجاد بالاخشيد والكتابة اليه بأنه سائر للقائه. وخرج الخليفة الى الرقة مع وزيره ابن مقلة. أما الاخشيد فخرج من مصر الى ان وافى الخليفة المتقى بالرقة ولكنه لم يستطع دخولها خوفا من سيف الدولة على بن حمدان.

والظاهرة أن الخليفة المتقى رأى من بنى حمدان الملل والضجر منه فعمل على الصلح مع توزون، ولكنه كتب في الوقت نفسه الى الاخشيد يستحثه على أن يعبر نهر الفرات ليلقاه في

(١) المقريزى: الخطط: ج١ص ٣٢٩، دكتور حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلامى السياسى ج٣ ص١٥٤(الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٤٩م).

وهو نزار ابى المنصور العزيز بالله. وكان فى ايام
هذا الملك جماعة كتاب نصارى مقدمين منهم قوم
يعرفو ببنى المطيع قررو مع الاب البطرك ان لا
يقسم اسقف الا برايهم لانه كان ياخذ المال
ويقسم من لا يستحق. وكان بمنوف العليا اسقف
اسمه مقاره وكان كاتب السنودس وكان اخوه
اسقف طانه واسمه مينا مقيم بدمروا وكان البطرك
بمحلة دانيال ساكن فتنيح انبا مينا الاسقف فى
تلك الايام، فقال اخوه انبا مقاره اسقف منوف

الرقة. وخشي الاخشيد أن يحدث له ما حدث لابن رائق حين عبر الفرات وقتله الحمدانيون فى سنة ٣٣٠هـ. فاضطر الخليفة الى عبور نهر الفرات، واجتمع بالاخشيد وخلع عليه فى بداية سنة ٣٣٣هـ (٩٤٤م). وبالغ الاخشيد فى اظهار امارات الخضوع والاجلال للخليفة، كما قدم اليه وزيره وحاشيته الهدايا النفسية من المال والجواهر والمنسوجات النفسية والطيب والدواب[1].

ويبدو ان الخليفة سر باخلاص الاخشيد وهداياه، فقال له:

«قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك اونوجور»[2].

وهكذا حصل الاخشيد على تقليد جديد من الخليفة بولاية مصر وممتلكاتها وحق توريثها لابنه من بعده، وان كان هذا الحق قد حدد بفتره ثلاثين سنة.

قد نص المؤرخ ابن زولاق على ما يرجع وجود نظام لولاية العرش وضعه الاخشيد قبل لقاء

---

(١) المسعودى: مروج الذهب ج٨ص ٣٤٨ـ ٣٥٠(طبعة باريس ١٨٦١ـ ١٨٧٧م).

(٢) انظر: ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب: ص٤٠(السفر الرابع من كتاب المغرب ـ طبعة ليدن ١٨٩٩م وانظر أيضا: ابن سعيد: الجزء الأول من القسم الخاص بمصرـ طبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣م نشر الدكتور زكى محمد حسن والدكتور شوقى ضيف والدكتورة سيدة اسماعيل كاشف).

للبطرك انبا فيلا تاوس: ان انت سمعت منى
اشرت عليك بمشورة جيدة. قال له: وما هى؟،
قال له: هذا الكرسى الذى كان لاخى هو كرسى
جيد وهو موضع ولدك، ولاخى فيه مسكن جيد
بدمروا فخذ الان احد اخوتك الرهبان الذى فى
قلايتك واوسمه عليه اسقفا واسكن مسكنه بدمروا
ويصير الكرسى برايك. فاستصوب رايه واخذ اباه
الراهب الشيخ الذى كان عليه للبطركية المسما
يوحنا فجعله اسقف فبلغ الخبر للاراخنة بمصر

الخليفة فقال:« كان يدعى للمتقى ثم الاخشيد ثم لاونوجور ثم لأبى المظفر الحسن بن طغج» (١).

والواقع ان هذا التقليد من قبل الخليفة لم يكن له شأن عملي كبير، وانما كان اقراراً للواقع واعطاء لامتياز لم يكن الخليفة ليستطيع أن يمنعه. اذ أن الاخشيد كان قد أخذ البيعة لابنه من كبار القواد قبل لقاء الخليفة كما ذكرنا، وذلك انه عمل فى سنة ٣٣١هـ على أن يعترف ذو الرأى فى مصر من أهل البلاد والقواد والجند بابنه أو نوجور خليفة (٢).

ومهما يكن من أمر فان الاخشيد علم بيأس الخليفة وعزمه على العودة الى توزون عدوه اللدود، فعرض عليه الاخشيد أن يسير معه الى مصر والشام ليكون الاخشيد ورجاله فى خدمته فرفض الخليفة هذه الدعوة.

ولسنا ندرى لماذا استنجد الخليفة بالاخشيد ثم ر فض أن يصحبه الى مقر ولايته. والراجح عندنا أن الخليفة كان قد فقد ثقته فى القواد والزعماء وأصبح لا ينتظر أن يكر مه الاخشيد طويلا ففضل ألا يبعد عن حاضرة ملكه وأن يعمل على الصلح مع توزون أمير الأمر اء.

(١) انظر: ابن سعيد(نقلا عن سيرة الاخشيد لابن زولاق): المغرب فى حلى المغرب. ص ٤٠(طبعة ليدن= ١٨٩٩م).

(٢) المقريزى: الخطط: ج١ص ٣٢٩، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٣ص ٢٥٤.

فاشتكوه للوزير فقبض عليه وطرحه فى السجن الى ان اخذ منه ثلثة الف دينار لبيت المال.

وجرى فى ايامه امر عجيب لا يجب أن نغفل عن ذكره.

«من هاهنا قصة الواضح ابن ابو الرجا(*) الشهيد من اهل مصر». وهو ان شابا من المسلمين الشهود المعدلين [الشهود العدل] بمصر الذين يحضرون مجلس قاضى الحكم بها وابوه رجلا شاهد يعرف بابن

(*) قصة الواضح ابن الرجا المسلم الذى تنصر وصار راهبًا وكان صديقًا لساويرس ابن المقفع مؤلف الاجزاء الأولى من هذا الكتاب.

ولو أتيح للاخشيد أن ينجح فى جذب الخليفة ومقر الخلافة الى مصر لتغير الى حد ما مستقبل الخلافة ومستقبل وادى النيل حينذاك. ولم يكن الاخشيد أول وال عباسى فكر فى مثل هذا المشروع فانا نذكر محاولة أحمد بن طولون مع الخليفة المعتمد. وكان المعتمد كاد أن يحقق حلم أحمد بن طولون لولا أن قبض عليه عيون أخيه الموفق قبل سيره الى مصر.

وهكذا أخفق أحمد بن طولون فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، وأخفق محمد بن طغج الاخشيد فى القرن الرابع الهجرى(العاشر الميلادى) فى جعل مصر مركز الخلافة العباسية ولم يتم ذلك الا على يد الظاهر بيبرس وبعد سقوط الخلافة العباسية فى بغداد على يد المغول فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى)[١].

وقد عاد الاخشيد الى مصر فى سنة ٣٣٣هـ، وسار المتقى الى بغداد، وخرج توزن للقائه وكحله فأذهب عينيه ونادى بالخليفة المستكفى بالله.

ولما ولى المستكفى الخلافة سنة ٣٣٣هـ(٩٤٤م)أقر الاخشيد على ولاية مصر والشام، وقام الاخشيد بالدعوة له على المنابر فى أنحاء ولايته.

ولما عزل المستكفى وبويع المطيع لله خليفة سنة ٣٣٤هـ، (٩٤٦م) ظلت العلاقة بين

(١) انظر: دكتورة سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الاخشيديين ص: ٨٥ـ ٨٧وما ذكرته من مراجع.

رجا، وكان الشاب قد تعلم ناموس [دين] المسلمين
وحفظ القران فعبر فى بعض الايام على ساحل
البحر الموضع الذى يباع فيه الحطب والبوص
ويعرف ببركة رميس بمصر فوجد انسانا كان
مسلم وتنصر وقد تعلق به جند الملك وهم
يمسكوه، وقد اعدو له بركة رميس بالحطب
والبوص ليحرقوه، وقد اجتمع عليه جمع كبير من
الناس وهم متزاحمين لينظروه، وكان هذا الشاب
ابن رجا ابوه غيور جدا فى دينه، كما كان بولس

الخلافة والاخشيد على حالها، وبادر المطيع باقرار الاخشيد على ولايته، وأمر الاخشيد بالدعوة للمطيع على المنابر.

والواقع أن المصادر التاريخية تبين لنا أن العلاقة بين الاخشيد وبين الحكومة المركزية فى بغداد ظلت علاقة طيبة، وأن الاخشيد لم يخرج على ا لخلافة كما خرج أحمد بن طولون على الموفق صاحب الأمر والنهى فى حكومة الخليفة المعتمد. ومن ناحية أخرى نلاحظ ان الدولة الطولونية عاصرت فترة صحوة الخلافة العباسية ويقظتها، بعكس ما كانت عليه الخلافة العباسية زمن الاخشيد والدولة الاخشيدية .

وتشهد النقود التى سكت فى عهد الاخشيد بتطور العلاقة بينه وبين الخلافة، فقد ظلت الدنانير تضرب فى مصر باسم الخليفة وحده حتى سنة ٣٢٩هـ، أما بعد سنة ٣٢٩هـ فقد كان الاخشيد ينقش اسمه على السكة مع اسم الخليفة(١).

ويظهر من المراجع التاريخية أن سلطان الاخشيد امتد الى الحجاز واليمن وانه خطب له هناك. وتذكر المصادر أيضا أن الخليفة المتقى عقد للاخشيد على مصر والشام والحرمين. كذلك أشار الاخشيد الى انه حاكم الحجاز واليمن فى كتابه الى امبراطور الدولة البيزنطية فى سنة ٣٢٥هـ (٢).

(١) انظر: دكتورة سيدة كاشف: مصر فى عصر الاخشيديين: ص٩٠ وما ذكرته من مراجع.
(٢) انظر هذه الرسالة فى: القلقشندى: صبح الأعشى ج٧ص١٠ وما بعدها.

في ذلك الزمان الذى فيه نودى من السما وقيل له
شاوول شاوول لم تطاردني، وذلك القايل له هو
الذى دعا هذا الشاب ليشاهد ذلك الشهيد، فلما
حضر مثل بولس تقدم الى ذلك الشهيد وهو فى
وسط الجند وقال له يا انسان ما الذى حملك
على هلاك نفسك بسبب دين تكفر فيه بالله تعالى
وتشرك به اخر فتستعجل بهذه النار فى الدنيا وفى
الاخرة نار جهنم لانك تجعل الله ثالث ثلثة وهو
واحد لا يشبهه شي وتقول ان الله ولد، والان

ونحن نرجع أن تقليد الاخشيد الحجاز واليمن كان أمرا صوريا ورمزيا. فلسنا نعتقد أن سلطان الاخشيد استقر في تلك الأقاليم، اذ كان حكمها في يد أسرات محلية ربما خضع أمراؤها خضوعا اسميا للخلفاء العباسيين أو لمن يقلدهم أولئك الخلفاء حكم البلاد، ولكن تصريف الأمور فيها ظل بيد الأمراء أنفسهم. ولاشك أن تقليد الاخشيد على الحرمين واليمن يشهد بضعف الخلافة ونزولها عن قسط من نفوذها السياسى للأقوياء من الو لاة.

وقد بلغ من قوة محمد بن طغج الاخشيد ان كان البيزنطيون يحترمونه ويخشون بأسه. وقد راسله الامبراطور البيزنطى رومانوس وكتب اليه متخطيا الخليفة العباسي، يتودد اليه ويطلب تبادل الأسرى وتنظيم الفداء، وقد بادله الاخشيد ودابود.

٥.الاخشيد والحمدانيون

مر بنا أن علاقة الاخشيد بالحكومة المركزية في بغداد لم يطرأ عليها أى تغيير منذ عزل المتقى. فقد شغل الاخشيد بنزاعة مع سيف الدولة الحمدانى على حكم الشام. ووقفت الحكومة المركزية موقف المتفرج، فلم يكن لها فى هذا الخلاف رأى تبديه أو ارادة تمليها.

والحمدانيون أسرة عربية علوية تنتسب الى قبيلة تغلب[١]. أمكنها وسط الفوضى التى

---

(١) تغلب: من القبائل العدنانية من عرب الشمال.

فاسمع منى ودع عنك هذا الكفر وعود الى دينك
وانا اجعلك لى اخ ويكرمك كل احد. فقال له: لا
تنسبنى الى الكفر والشرك بالله تعالى وانى نجعله
ثلثة، ونحن النصارى انما نعبد اله واحد هو الاب
والابن والروح القدس، وليس الابن غريب من الله
الاب الذى هو كلمته وكذلك روحه وسر ديننا
عجيب مخفى عنكم لان عقولكم لا تحمله، وانت
الان يا هذا قلبك مظلم لم تضى فيه نور الامانة
وانا ارى انا بعد قليل يدنو منك النور ويضى قلبك

حلت بالدولة العباسية أن تقيم لنفسها ملكا في بلاد الجزيرة منذ سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م) وكانت عاصمتهم الموصل، وأميرهم أبو محمد الحسن ناصر الدولة.

واشترك الحمدانيون في الأحوال السياسية في بغداد حينئذ بين الأتراك والخليفة مما جعل لهم مراكز في سياسة ذلك الحين.

ولما شبت الفتن في بغداد بسبب القحط والغلاء في سنة ٣٢٩هـ اضطر الخليفة المتقى وابن رائق الى الخروج الى الموصل حيث كان ناصر الدولة بن حمدان. وكان الخليفة يود أن يساعده ناصر الدولة على البريدى الذى كان يحكم واسط، ولكن ناصر الدولة اغتال ابن رائق ليحل محله في منصب أمير الأمراء. ولم ير الخليفة بدا من منحه هذا اللقب في سنة ٣٣٠هـ، كما خلع على أخيه أبي الحسن على ولقبه سيف الدولة.

وسار ناصر الدولة الى بغداد فهرب منها البريدى، وظل ناصر الدولة أميراً للأمراء نحو ثلاثة عشر شهرا ثم قاومه الترك فاضطر الى الرحيل عنها. واختار الخليفة القائد توزون أمير اللأمراء في سنة ٣٣١هـ. وقد مر بنا أنه لما ساءت العلاقة بين الخليفة وبين توزون استنجد الخليفة بالاخشيد.

وكان سيف الدولة الحمدانى يحاول أن يؤسس له ملكا في الشام.

ولما عاد الاخشيد الى مصر سنة ٣٣٣هـ بعد مقابلته للمتقى، سار سيف الدولة الى حلب

بنور المسيح وتجاهد عن الذى انا اجاهد عنه وعلى
اسمه ابذل نفسي وجسدى للالم والموت وستقبل
انت ايضا هذه الالام التى انا فيها. فلما سمع
الشاب قوله حنق عليه وقال: اسمعو ما يقول هذا
الظال [الضال] الكافر اترى اننى اكون ظال كافر
مثلك. ثم قلع قدمه [نعله] من رجله ولطمه به
على فمه ووجهه وراسه والمه باللطم جدا، وقال له:
لا يكون هذا ابدا ان اكون مثلك ايها المرذول.
فقال سوف تذكر كلامي وتعرف صحة قولي. ثم

وقنسرين وحمص وانطاكية والثغور الشامية وسائر الولايات والمدن الشامية فاستولى عليها وأقام الدعوة فيها للخليفة المستكفي، الذى خلف المتقى، ولأخيه ناصر الدولة الحمدانى ولنفسه.

وقد خرج الاخشيد بنفسه على رأس جيشه الى الشام للقاء سيف الدولة. ووقعت بينهما موقعة عند قنسرين، بالقرب من حلب، كان النصر فيها للاخشيد. ولكن هزيمة سيف الدولة لم تكن حاسمة مما دعا الاخشيد الى أن يجنح للسلم ويعمل على الصلح. وقد تم الصلح بينهما في سنة ٣٣٤هـ على أن يكون لسيف الدولة من حمص وأعمالها الى شمالى الشام، وأن يكون للاخشيد من دمشق وأعمالها.

واستقر الاخشيد في دمشق الى أن مات نهاية سنة ٣٣٤هـ. ويبدو لنا أن الاخشيد جنح الى عقد الصلح مع سيف الدولة لأنه كان يعلم أن النزاع بينه وبين الحمدانيين على شمالى الشام واقليم الثغور كان لابد أن ينتهى بانتصار هم عليه لبعد الشقة بين مصر وبين هذا الاقليم، لأنه كان المجال الحيوى لتوسع الحمدانيين. ومن المحتمل أن الاخشيد كان لايكره أن تظل دولة الحمدانيين دولة حاجزة بينه وبين البيزنطيين تكفيه مئونة التعرض لهجومهم من و قت لآخر. فضلا عن أن مصر كان يهددها حينذاك الفاطميون من الغرب، وكان طبيعيا أن يعمل الاخشيد على الاستعداد لصدهم[1].

(١) انظر عن علاقة الاخشيد بالحمدانين: دكتورة سيدة كاشف: مصر في عصر الاخشيد ص٣٤٩-٣٥٣وما ذكرته من مراجع.

انهم ضربو عنقه وطرحو عليه حطب وبوص كثير
حتى صار مثل القصر العال واطلقو فيه النار، فلما
راو الناس عظم تلك النار التى تلهب ظنو ان
جسده قد صار رمادا وبقيت النار عليه ثلثة ايام
والجند يحرسوه نهارا وليلا، ومن بعد ذلك كشفو
عنه نار الحريق فوجدو جسده مثل الذهب لم
يحترق منه شيا، فاعلمو المعز بذلك فامر بدفنه.
ومضى ابن رجا الشاهد الذى ذكرناه الى منزله
وبات تلك الليلة وهو وجع القلب لاجل ما خاطب

---

٦. مصر والخلافة بعد وفاة الاخشيد

توفى محمد بن طغج الاخشيد فى دمشق فى شهر ذى الحجة سنة ٣٣٤هـ(٩٤٦م) ودفن فى بيت المقدس. وكان الاخشيد قد استخلف على مصر قبل سفره ابنه أبا القاسم أونوجور كما استخلف له عمه أبا المظفر الحسن بن طغج. ويبدو لنا أن الاخشيد كان يثق بأخيه الحسن ويسلم بضرورة التعاون بينهما فى حياته، ولكنه كان يخشى اذا جعله بعد ولده أونوجور فى ولاية الحكم أن يستأثر بلسطان وأن ينحى عنه أولاد الاخشيد. ولعل ذلك هو السبب فى أنه رتب أن يدبر أمور ولديه من بعده غلامه كافور دون عمها الحسن والواقع أن تاريخ العصر الاخشيدى هو تاريخ محمد بن طغج مؤسس الدولة الاخشيدية، ثم تاريخ كافور تابعه وتلميذه فى ميدان السياسة.

وكافور هذا كان عبدا نوبيا اشتراه الاخشيد بثمن بخس ولكنه أظهر من المزايا والصفات ما حبب فيه مولاه، وقد أخذ الاخشيد يرقيه فى بلاطه لعقله وحسن تدبيره، وجعله من كبار قواده، وعهد اليه بتربية ولديه أبى القاسم أونوجور ثم أبى الحسن علي. ولاريب فى أن ارتفاع كافور[١] من عبد لا شأن له، الى منصب الوصاية ثم الامارة فى مصر ثم اتصال المتنبى

(١) انظر عن كافور الاخشيدى: دكتورة سيدة كاشف: مصر فى عصر الاخشيديين:ص١٢٧ـ ١٤٤وما ذكرته من مراجع.

به شهيد المسيح، فلم ياكل ولم يشرب تلك الليلة بل كان جالس باهت، فاجتمع اليه ابوه واخوته وقالو له: ما الذى حل بك؟. فاعلمهم ما قاله الشهيد فعند ذلك عزوه وقالو له: لا تجعل فى قلبك شي من كلام ذلك الضال. فلم ينسى ما بقلبه. ومن بعد تلك الايام ابصر الشاب المذكور جماعة من اهل مصر معولين على الحجاز ليحجو، فقال لابوه: اريد احج مع الناس. ففرح ابوه بذلك ودفع لهماية دينار وسلمه لصديق له

الشاعر به ومدحه وهجائه بغرر قصائده، كل ذلك أثار اعجاب المؤرخين المسلمين حتى عدوه من «أعاجيب الدنيا وسيرته من أغرب السير» وحفزهم الى أن ينسجوا حول نشأته قصصا مختلفة لسنا نعرف نصيبها من الصحة. ونلاحظ أن المناداة بأونووجور أميرا لمصر بعد وفاة الاخشيد لم تحدث الا بعد تردد ومحاولات لتنحيته، ولكن أبا بكر محمد بن على الماذرائى اعترض على عرض هذا الموضوع على بساط البحث وقال: ان الاخشيد عقد لابنه أونوجور قبل وفاته وان الخليفة المتقي أذن للاخشيد بذلك. ولما اعترض البعض بأن أونوجور لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، رد الماذرائى بأن صغر السن لا يجوز أن يكون سببا فى تنحيته عن الحكم وأن هارون بن خمارويه بن أحمد ابن طولون ولى حكم مصر وهو أصغر سنا من أونوجور. وتم الأمر لاونوجور واحتفل رسميا بتوليته حين خرج أونوجور فى موكب عظيم سار فيه عمه الحسن بن طغج وأبو بكر الماذرائى وقصد جامع عمرو ابن العاص فأدى صلاة الجمعة فى ١٣ من المحرم سنة ٣٣٥هـ(٩٤٦م) ودعى له على المنابر.

وكتب الماذرائى الى كافور الذى كان لايزال بالشام حين خرج مع سيده ينهى اليه ما تم من تولية أونوجور، فحمد له كافور هذا الحزم فى تصريف الأمور.

وما لبث كافور أن عاد الى مصر على رأس الجيش الذى كان قد سافر الى الشام مع الاخشيد، وكان وصوله الى الفسطاط فى شهر صفر سنة ٣٣٥هـ.

من المسافرين الى مكة، وقال له: هذا ولدى قد سلمته اليك تراعيه مثل ولدك الى ان تعيده معك ويكون في صحبتك بمشية الله. وابتاع له كلما يحتاج إليه، فلما سارو ابصر الشاب منام في بعض الليالي وكان [كأن] شيخ راهب منير جدا وقف به وقال له اتبعني تربح نفسك، فلما استيقظ قص المنام على صديق والده الذى سار معه، فقال له: يا ولدى يوفقك الله فان الراهب هو الشيطان يريد يجربك فلا تجعل فكرك عنده. ثم ظهر له ليلة

وورد كتاب من الخليفة المطيع لله الى الأمير القاسم أونوجور يقره فيه على ولاية مصر والشام وما كان لأبيه من الولاية. وقرئ هذا الكتاب يوم الجمعة أول ربيع الآخر على منبر الجامع العتيق.

ثم أصبحت مقاليد الأمور في بغداد بيد بنى بويه وأضحى معز الدولة صاحب الأمر والنهى في الدولة العباسية. فلا عجب اذا سعى اليه الولاة والأمراء ومنهم أونوجور بن الاخشيد. وقد كتب أبو المحاسن أن أونوجور أرسل طائفة من الهدايا الى معز الدولة البويهى سنة ٣٣٨هـ وسأله أن يكون أخوه مشاركا له في امرة مصر وأن يخلفه بعد وفاته فأجابه معز الدولة الى ذلك[١]. وهكذا نال أونوجور موافقة الحكومة المركزية على استخلاف أخيه.

أما سلطان مصر على الحجاز بعد وفاة الاخشيد فقد ظل سلطان اسميا يقف عند ذكر اسم الأمير الاخشيدى في الخطبة في بعض السنين ولا يكاد يصل الى ذلك في سنين أخرى. وحسبنا ماذكره المؤرخون عن اخفاق المحاولة التى قام بها أمير الركب المصرى للخطبة لابن الاخشيد على المنابر في مكة سنة ٣٤٢هـ[٢].

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٣ ص ٢٩٨.

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٨ص١٨٢ (طبعة بولاق ١٢٩٠هـ)، صبح الأعشى ج٤ ص ٢٦٨.

اخرى وقال له كما قال اول ليلة بلا زيادة ولا نقص، وثالث ليلة ايضا قال هكذى، فلما قضو حجهم وعادو مشو ستة أيام أو سبعة وهم عايدين فنزلو عن جمالهم ليلا ليريقو الما ثم ركب الرجل صديق والده جملة وتاخر هو فانقطع عنه ولم يرى احد، فسعى يجرى حتى تعب فلم يلحقهم وبقى وحده تايه فى البرية فجلس وهو خايف من وحوش البرية لا [لئلا] ياكلوه، واذا شاب راكب فرس بلباس مجمل متمنطق بمنطقة ذهب وقف

واستطاع كافور طوال حكم أونوجور أن يكون الحاكم الحقيقى للبلاد.

ولما توفى أونوجور فى ذى القعدة سنة٣٤٩هـ (ديسمبر ٩٦٠م) نودى بأخيه على بن الاخشيد أميرا على مصر ، وذلك باتفاق كافور وقواد الجند ورجال أبيه الاخشيد، وكان يبلغ من العمر حينداك ثلاثا وعشرين سنة. وقد أقره الخليفة المطيع على ولاية مصر والشام والحرمين. وكانت الأمور على عهده بيد كافور كما كانت الحال فى عهد أخيه.

وقد خاطب علية القوم كافورا بلقب «الأستاذ» ، والراجح أن هذا اللقب أصبح لقبا له منذ عهد اليه الاخشيد بتربية ولديه. أما الخليفة فقد كناه بأبى المسك.

ولما توفى على بن الاخشيد فى سنة ٣٥٥هـ(٩٦٦م)، ظلت مصر بعد وفاته أياما بغير أمير، فلم يذكر فى الخطبة الا اسم الخليفة المطيع. وكان كافور يدبر أمور مصر والشام، وما لبث ـ بعد نحو أسبوعين من وفاة على بن الاخشيد أن أعلن ورود كتاب من الخليفة المطيع بتقليده مصر، فدعى له على المنابر.

ولم يسمح كافور بتولية أحمد بن على بن الاخشيد لصغر سنه وأغلب الظن أن الخليفة العباسى لم يرسل تقليدا لكافور بولاية مصر كما أنه لم يعترض على امارته، ولاسيما أن الخلافة اعتادت أن ترى فى يده تدبير الأمور فى مصر.

قدامه، فلما راه قال له: من انت وكيف تهت في هذه البرية وحدك؟. فقال له الشاب: نزلت عن جملي اريق الما فانقطعت عن رفقتي. فقال له: اركب خلفي الفرس. فلما ركب طار به الفرس في الجو فلم يدرى انه في سما ولا في ارض حتى صار بسرعة في كنيسة الشهيد ابو مرقوره بمصر فانفتح له الباب وحده من غير ان يفتحه احد ودخل معه وهو راكب الفرس الى باب الاراديون [المحراب] فانزله هناك ولم يرجع يبصره، فبقى

وكان كافور يشعر بأنه غريب عن أسرة الاخشيد. ولعله كان يشعر بما نكاد نصل اليه من النصوص، وهو أنه وسط بين الأمير والوصى على العرش، فهو مستقل بحكم البلاد ولكنه غريب عن أسرتها الحاكمة، وهو مطلق التصرف في أمورها ولكن ذلك ليس جديدا عليه فقد كان هذا السلطان منذ وفاة الاخشيد، وهو أمير على البلاد ولكنه يؤثر الاحتفاظ بلقب الأستاذ حتى لايصدم أهل الرأى في البلد باغتصاب الألقاب الى جانب اغتصابه السلطان. بل ان كافورا لم ينقش اسمه على السكة بعكس جميع الأمراء الاخشيديين الذين كانوا ينقشون اسمهم على السكة مع اسم الخليفة العباسي.

وبعد وفاة كافور سنة ٣٥٧هـ اجتمع كبار القواد والموظفين وأولو الأمر في مصر وعقدوا الولاية لابى الفوارس أحمد بن على بن الاخشيد وكان صبيا في الحادية عشرة من عمره[١]. ولم يخرج على هذا الاجماع سوى الحسن بن عبيد الله بن طغج الذى أخذ البيعة لنفسه واستولى على ما كان لكافور من أموال في الرملة[٢].

ودعى لأحمد بن على بن الاخشيد على منابر مصر والشام والحرمين، ثم من بعده للحسن ابن عبيد الله بن طغج اما بوصفه وصيا أو بوصفه خليفة له[٣].

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة. (٢) الكندى: الولاة والقضاة: ص ٢٩٧.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٤ ص٩، المقريزى: الخطط ج١ص٣٣٠.

باهت كانه في منام للعجب الذى شاهده، ثم فكر
في نفسه وقال ما هذا الذى حل بى اترى هذه بيعة
النصارى والتفت فراى القناديل موقودة والصور،
فقال اليس الساعة كنت في البرية فوقف داخل
الراديون الى ان اصبح الصبح فدخل امنوت البيعة
[قندلفت الكنيسة] وظن انه لص واراد أن يصيح،
فاشار اليه بيده ليسكت ويتقدم اليه فلما دنا منه
قال له الشاب: ما هذا الموضع؟. قال له: كنيسة
ابو مرقوره بمصر. قال له: هذه مدينة مصر؟.

ولسنا نعرف تماما هل جاء من الخليفة تقليد لأحمد بن على بن الاخشيد على ولاية مصر والشام والحرمين، أو سبق الغزو الفاطمي ورود هذا الاعتراف من الحكومة المركزية في بغداد. فالواقع أن المراجع التاريخية لا تشير الى هذا الاعتراف بشئ. ومهما يكن من الأمر فان دخول جوهر الصقلى مصر في شعبان سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) وضع حدا لسلطان الدولة الاخشيدية ولسلطان الخلافة العباسية على مصر.

٧. علاقات مصر الخارجية فى عصر الاخشيديين

(أ) مع الخلافة العباسية

مر بنا أن علاقة الاخشيديين بالخلافة العباسية كانت علاقة طيبة. والواقع أن استقلال مصر عن الخلافة العباسية في العصر الاخشيدى كان استقلالا ملموسا لاشك فيه وان ظلت الروابط الروحية ومقتضيات الأحوال السياسية تربطها بالحكومة المركزية فى بغداد من غير أن تصل بها الى التبعية. وكان مثل الدولة الاخشيدية فى ذلك مثل الدولة الطولونية، وان كان استقلال الطولونيين يبدو لبعض الباحثين أوضح وأظهر أثرا. ولعل بعض السبب فى هذا ان الاخشيديين لم يحاربوا الحكومة المركزية صراحة كما فعل أحمد بن طو لون وخمارويه، وأن الاخشيديين خلفتهم الدولة الفاطمية التى جعلت من مصر مقرا للخلافة الفاطمية فأنست القوم ما كان للاخشيديين من مجد واستقلال.

قـــال له: نعم وهوذا اراك كـــانك طايش العـــقل
فعرفني خبرك وما حالك. فحينيذ اهتدى الشاب
وقال له: كيف لا يضل عقلي وانا في هذه الليلة
كنت في الموضع الفلاني وما عرفت كيف وصلت
الى ها هنا الله هو العـــالم بذلك. فلمـــا ســمع
الامنوت بذكر المكان الذى كان فيه قال له: الم
اقـول لك انك طايش العـقل سـاهى لا تدرى مـا
تقول، بينك وبين الموضع الذى ذكرته مسافة شهر
واثنى عشر يوما وعلى ما ارى ما انت الا لص وقوة

ولا تذكر المراجع التاريخية أن مصر كانت ترسل أموالا معينة وبانتظام الى الحكومة المركزية في العراق طوال العصر الاخشيدى.ومع ذلك فالاخشيديون يتعاونون مع الخلافة في دفع النفقات اللازمة لفداء الأسرى المسلمين.

كذلك كان للأمراء الاخشيديين ممثلون في بغداد يسهرون على شئونهم ويراقبون ما يجرى في دار الخلافة، ويعملون على أن يستميلوا الى الاخشيديين من يستطيعون التأثير عليه بمختلف الوسائل من أولي الأمر.

وطبيعي جدا أن يكون للاخشيد وكيل في بغداد، وقد سبقه الى ذلك أحمد بن طولون فكان له وكلاء في سامرا وكانوا يقدمون مثل هذه المساعدة المالية لنفر من كبار رجال الدولة.

والواقع أن اللاخشيد كان يتشبه بأحمد بن طولون، وكان يقصده أمراء بغداد وقوادها وكتابها وأبناء وزرائها وكان ينفق عليهم بسخاء.

(ب) مع الحمدانيين

أما عن علاقة الاخشيديين بالحمدانيين في الشام فقد رأينا كيف حرص الحمدانيون على التوسع في بلاد الشام على حساب أملاك الدولة الاخشيدية، وانه وقعت حروب بين الاخشيد وبين سيف الدولة الحمداني انتهت بالصلح وباقتسام النفوذ في بلاد الشام.

الشهيد خلتك تحتج بهذه الحجة البطالة ليتبين ما
انت عليه في دخولك الى بيعته. فقال له الشاب:
ومن صاحب هذه البيعة؟. قال له: هو القديس ابو
مرقوره الجليل. قال: ابو مرقوره نبى؟ قال له القيم:
لا، ولكنه الشهيد الجليل القوى لانه ترك مجد هذا
العالم وطلب الاخرة ومات على اسم المسيح
لاجل [لأجل] ايمانه به واظهاره اسمه قدام الملوك
الكفرة ولقى منهم عذاب كثير لاجل اسم المسح
وعوقب باصناف العذاب والوان العقوبات الى ان

وبعد تولية أونوجور وردت الأبناء باضطراب الأمور فى الشام وباستيلاء سيف الدولة الحمداني على دمشق وبأنه عول على المسيرالى الرملة لغزو مصر.

فنهض كافور ومعه سيده أونوجور الى الشام، ودارت المعركة بين المصريين وبين سيف الدولة. وقد انتصر المصريون وطاردوا سيف الدولة الى حلب فهرب الى الرقة.

ثم بدأت المفاوضات بين الطرفين وانتهت الى الشروط التى كانت بين الاخشيد وسيف الدولة. وعاد اونوجور وكافور الى مصر بعد عقد هذا الصلح وظل السلام قائما بين سيف الدولة الحمدانى وبين الاخشيديين منذ سنة ٣٣٦هـ[١].

(جـ) مع البيزنطيين

أما عن علاقة الاخشيديين بالدولة البيزنطيةـ أو دولة الروم فى آسيا الصغرى ـ فقد مر بنا أن البيزنطين فى عهد الامبراطور رومانوس الأول كانوا يحترمون الاخشيد ويخشون بأسه. وقد شرع الاخشيد «أمير مصر والشام والثغور الشامية» وهو فى دمشق فى ذى الحجة سنة ٣٣٤هـ(٩٤٥م)، فى الفداء الذى وقع بين المسلمين وبين البيزنطين سنة ٣٣٥هـ.

---

(١) انظر: ابن العديم الحلبي: زبدة الحلب فى تاريخ حلب.ص ٣٧٣ـ ٣٧٤، وابو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٣ص٢٩١ـ ٢٩٢.

اخذه الله اليه وقبله فى ملكوته السماوية الدايمة، وبنيت هذه البيعة وغيرها على اسمه فى مواضع كثير لتمجيد الله سبحنه فيها، وله عند الله شفاعة مقبولة يشفع فى الناس فيشفع فيهم ويظهر الله العجايب منه وبشفاعته. قال له الشاب: فكيف صفته وصورته؟. قال له: هو يشبهك وفى سنك. ثم اخذه ومضى به الى موضع صورته الجليلة فلما راها قال: حق هذه صورة الذى ظهر لى ورايته فى البرية وحملنى على ظهر فرسه هذه الى ها هنا

ولكن الاخشيد كان مريضا وما لبث أن توفى، فرجع كافور بالجيش الى مصر وبعث ثلاثين ألف دينار من مال هذا الفداء.. وقد أتم هذا الفداء سيف الدولة فعرف به ونسب اليه ومع ذلك فان الثغور الشامية لم تدخل فى طاعة سيف الدولة الا بعد وفاة الاخشيد[١].

وحين فرض الامبراطور البيزنطى رومانوس الثانى السيادة البيزنطية على حلب فى سنة ٣٥١هـ(٩٦٢م) فى عهد على بن الاخشيد، عجز سيف الدولة الحمدانى عن صد الروم واستنجد بالاخشيديين، فخرجت الجيوش الاخشيدية من دمشق لنجدة المسلمين وعندئذ انسحب الروم الى بلادهم.

ولكن ماكاد الامبراطور البيزنطى نقفور فوقاس يلى عرش الامبراطورية البيزنطية سنة ٣٥٢هـ(٩٦٣م) حتى بادر الى مهاجمة شمال الشام وأنزل الهزيمة بسيف الدولة الحمدانى. وتوالت هجمات نقفور فوكاس فى سنة ٣٥٧هـ(٩٦٧م) وفى سنة ٣٥٨هـ(٩٦٩م) على بلاد الشام، وجاءت الهجمات على انطاكية وحلب بعد وفاة كافور الاخشيدى حين كانت الدولة الاخشيدية فى طور الاحتضار.

(١) انظر: المسعودى: التنبيه والاشراف: ص١٦٥(طبعة القاهرة ١٩٣٨م)، ودكتورة سيدة كاشف: مصر فى عصر الاخشيدين: ص ٣٥٥_ ٣٥٦.

وهذه المنطقة الذهب التى رايتها فى وسطه كهيتها
[كهيئتها] والان فانا اعلمك انني رجلا مسلم من
اهل هذه المدينة وقد رضيت لاجل هذه الاعجوبة
ان اصير نصرانى. واخبر القيم بجميع ما جرى له
وقال له: انا ابن رجا الشاهد ومااقدر اظهر ليلا
احرق بالنار وتحرق البيعة بسببى لكن اريد ان
تصنع معى جميلا وتاخذ الاجرة من السيد المسيح
وتخفينى فى موضع حتى لا يرانى فيه احد حتى
ادبر ما افعل، واتينى بكاهن خادم لله تعالى تقى

والواقع أن المسلمين فى القرن الرابع الهجرى لم يهملوا واجب الجهاد، وكان المحاربون منهم يتدفقون من كل أنحاء البلاد الاسلامية الى اقليم الثغور، ولاسيما مدينة طرسوس[١].

(د) مع النوبيين

أما القوة المسيحية الأخرى التى احتكت بالدولة الاخشيدية فكانت مملكة النوبة المسيحية.

والمعروف أن الحملة التى قام بها عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر فى سنة ٣١هـ انتهت الى عقد اتفاق بين مصر وبين مملكة النوبة المسيحية[٢].

ولكن هذه المعاهدة كانت تنقض بين حين وأخر، وكان ملوك النوبة يقدمون على غزو جنوب الصعيد كلما أحسوا من أنفسهم القوة على هذا الغزو وظنوا أن مصر لن تستطيع صدهم. ومع ذلك فقد كانت تجارة الرقيق زاهرة بين مصر وبلاد النوبة. وحسبنا الأعداد الكبيرة من الجند السودان فى جيش الطولونيين والاخشيديين.

وقد كتب المؤرخ والجغرافى المسعودى حين زار مصر فى سنة ٣٣٢هـ أن النوبيين كانوا

---

(١) انظر: دكتورة سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الاخشيدين ص٣٥٥- ٣٥٧ وما ذكرته من مراجع.
(٢) انظر: دكتورة سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى فجر الاسلام ص١٥ -١٦ وما ذكرته من مراجع.

فاضل فهيم عالم يعلمنى قوانين النصارى
ومذهبهم وفرايض شريعتهم ويثبتنى فى الامانة
فان قلبى قد مال الى هذا الدين، فاجابه القيم الى
ذلك واخفاه عنده فى موضع مخفى فى البيعة
ومضى الى شيخ قس عالم تقى فاضل فاعلمه
قضية الحال، فنهض معه وهو مسرور به فلما
اجتمعا اجابة القس عن كلما سايله [سأله] عنه
وابانه له وفهمه حقيقة الامر فيه، فساله الشاب ان
ياتيه بالاناجيل وكتب البيعة العتيقة والحديثة ويفسر

لايزالون يقدمو ن السبى الذى اتفق عليه فى البقط وكان يتسلمه نائب أمير مصر فى أسوان[1].

وحدث فى سنة ٣٣٩هـ أن أغار ملك النوبة على اقليم الواحات بمصر فقتل عددا من سكانها وسبى وحرق وخرب[2].

كما حدث فى ذى الحجة سنة ٣٤٤هـ أن أغار ملك النوبة على أسوان، فخرج اليه جيش من قبل أونوجور وعلى رأسه محمد بن عبد الله الخازن، واستطاع هذا الجيش أن يصد النوبيين، وأرسل بعض أسراهم الى مصر فضربت أعناقهم، ثم طارد الجيش المصرى ملك النوبة وفلول جيشه واستطاع أن يفتح مدينة ابريم وعاد الى مصر فى منتصف جمادى الأولى سنة ٣٤٥هـ(٩٥٦م) ومعه مائة وخمسون أسيرا وعدد من رءوس القتلى[3].

(هـ) مع الفاطميين

عرفنا كيف استطاع محمد بن طغج الاخشيد أن يهزم الفاطميين فى سنة ٣٤٢هـ. والحق أن قيام الدولة الاخشيدية فى مصر أجل الغزو الفاطمى لها. ويبدو أن الفاطميين أدركوا أن من

(١) المسعودى: مروج الذهب: ج٣ص٣٩ـ ٤٠.
(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى: ص١١٢ .
(٣) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى:ص١١٤، المقريزى: الخطط: ج١ص١٩٨و٣٢٩ـ٣٣٠، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة:ج٣ص ٣٢٦.

له القبطي باللسان العربي، وقال له: اريد اقراها
وافهمها واعرفها ليثبت عندى صحة الامانة باساس
قوى لان هذه الالام والاوجاع لا تحتمل باطلا.
فاحضر له القس الانجيل وكتب الانبيا وجميع
كتب العتيقة والحديثة الدالة على حقيقة الامانة
الارثذكسية ووحدانية السيد المسيح احدى التلتة
اقانيم الاب والابن والروح القدس، وان الله لاهوت
واحد وسبب تجسده وموته المحيي وقيامته من الموتى
وطلوعه الى السما وحلول الروح القدس البارقليط

الأفضل لتحقيق أهدافهم وسياستهم أن يأخذوا الاخشيديين باللين وأن يعملوا على كسب صداقتهم. واضطر الفاطميون الى مراقبة الحالة فى مصر عن كثب على الرغم من أن مطامعهم فى هذه البلاد كانت تشتد سنة بعد أخرى.

والحق أن الفاطميين عملوا على نشر الدعوة لأنفسهم فى مصر وذلك منذ أواخر عصر الولاة فيها وقبل قيام الدولة الفاطمية فى المغرب. ومنذ سقوط الدولة الطولونية ودعاتهم يزدادون نشاطاً وتغلغلا بين عامة المصريين وخاصتهم. وازداد اتصالهم بوجوه مصر منذ قيام الاخشيد بل وقبل قيام الدولة الاخشيدية.

وحاول المعز لدين الله، رابع الخلفاء الفاطميين، غزو مصر أيام كافور، وسار بجيشه الى حدود مصر الغربية لكن كافور جهز جيشا صد تيار تقدمه. وكان وجود كافور هو السبب الأساسى فى تأخير الغزو الفاطمى. وكان دعاة المعز فى مصر يقولون: «اذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز لدين الله الأرض كلها، وبيننا وبينكم الحجر الأسود، يعنون كافور الاخشيد»[1].

أما الفاطميون فكانوا يستعدون لفتح مصر قبيل وفاة كافور منذ سنة ٣٥٥هـ. وفى نهاية

(١) انظر: المقريزى: اتعاظ الحنفا: ص١٤٦ـ ١٤٧ (نشره الدكتور جمال الدين الشيال. القاهرة ١٩٤٨م)، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٤ص٧٢.

على الرسل، ورجـوع الناس من الضـلالة الى صحة الامانة، فقال الشاب: مبارك هو الذى سلك هذه الطريقة الذى هو شاوول المسمى بولس الذى سمع صوت الرب يقول له شاوول شاوول مالك تناصبنى ثم اصطفاه من ضلالته، هكذى اسله ان يهدينى وينعم على بالاصطفا لاظهر اسمه بين الامم. وتمام هذا الكلام ياتى فى موضعه من هذه السيرة، واقام اياما يبحث فى كتب العتيقة والحديثة حتى انار الله قلبه ووقف على سراير المذهب

جمادى الآخرة من سنة ٣٥٧هـ (٩٦٨م) وردت الأخبار من مصر الى المغرب بوفاة كافور فبدأ المعز فى اعداد المال اللازم للحملة التى سيرها لفتح مصر سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م)[1].

٨ مصر والدولة الاخشيدية

نعمت مصر للمرة الثانية فى العصر الاسلامى باستقلالها وذلك فى ظل الاخشيديين. وأسس محمد بن طغج الاخشيد الدولة الاخشيدية التى عاشت فترة قريبة من تلك التى عاشتها الدولة الطولونية فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى، فظلت أربعا وثلاثين سنة من القرن الثالث الهجرى قبل أن تقوم فيها الخلافة الفاطمية.

وقد اتضح لنا من دراسة العصرين الطولونى والاخشيدى أن مصر شهدت ازدهار فى الحضارة وضح فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفنية. كذلك شاركت مصر فى الأحداث الهامة التى كان صداها يتردد فى العالم الاسلامى كله.

وكما ظلت ذكرى الدولة ما ثلة فى أذهان المصريين وفى قلوبهم وعقولهم، فان أمراء الدولة الاخشيدية كانوا يتخذون الأمر الطولونيين والدولة الطولونية مثالا يحتذى به.

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا:ص١٣٨ـ ١٣٩، ودكتورة سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الاخشيدين: ص٣٦٠ـ ٣٧٠.

وصحة الامانة كما قال الرسول: «ان الانسان اذا عاد الى الرب زالت الغشاوة عن قلبه وعرف ما كان فيه من الضلالة التى افنى فيها عمره وثبت اساسه على الصخرة الذى هو المسيح». وقال ما قاله بولس: «ما الذى يفرقنى من محبة المسيح ضيق ام سبى ام جوع ام نار ام سجن وبقية الفصل لا يقدر شيا من هذا يفرقنى من حب المسيح».

فلما قوى قلب ذلك الشاب فى الامانة

وقد عاصر المؤرخ والجغرافى «المسعودى» صدر الدولة الاخشيدية وزار مصر عدة مرات وأقام بها فترة من الزمن قبل وفاته بها فى سنة ٣٤٦هـ(٩٥٧م).

وأطنب المسعودى فى وصف ازدهار البلاد واتساع تجاربها فى المنسوجات والأقمشة والعطور والأطعمة والعقاقير والرقيق، وذكر أن بضائع العالم كله ترد الى الأسواق المصرية.

ونلاحظ أن تجارة الرقيق كانت رائجة فى مصر منذ الغزو العربى. وكان فى الفسطاط منذ فجر الاسلام فى مصر، سوق للرقيق.

وأصبحت مصر فى عصر الاخشيدى من أعظم أسواق الرقيق الأسود والأبيض. وكانت القوافل تجلب الى مصر الرقيق الأسود من الجنوب. أما الرقيق الأبيض فكان يصل الى أسواقها من بيزنطة وأرمينية وثغور البحر المتوسط ومن أسواق الرقيق فى سائر ديار الاسلام.

وكان الأخشيديون يحسنون معاملة عبيدهم ويسمحون لهم بأن ينخرطون فى سلك الجيش، وكان بعضهم يصل الى مكانة عالية فيه، وقد يعده ذلك لتقليد بعض الوظائف الرئيسية فى الادارة[1].

(١) انظر: دكتورة سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الاخشيد ص٢٤٢ـ ٢٤٤ وما ذكرته من مراجع.

المستقيمة سال الشيخ الكاهن ان يعمده فخاف
ليلا تكون ضربة من الشيطان فاشار على الشاب
المذكور بان يمضى الى وادى هبيب، فمن كثرة
شهوته ساله سوالا عظيما بمطانوات كثيرة وقال
له: ربما لا اعيش حتى اصل الى هناك. والزمه
بكثرة تضرعه له، وبكاه حتى عمده وسماه
بولس، فلما لبس نور حلة المعمودية التمس ثياب
زرية ابتاعها من السوق ولبسها وساله ان يصلى
عليه، وخرج ولم يعرفه احد لتغيير زيه وسحنته من

ونلاحظ بوجه عام ان الأرقاء كثيرا ما كانوا ينخرطون في سلك الجيش أو يتقلدون الوظائف الرئيسية في الادارة.

وفي العصر الاخشيدى كانت الزراعة المصدر الأساسي لثروة مصر كما كانت منذ العصور القديمة. وتدل الأوراق البردية التي ترجع الي العصر الاخشيد ى الى أنه كثيرا ما كانت تفلح الأرض بالمزارعة، أى أن المستأجر يؤدى الايجار من المحصول .

وتدل الوثائق البردية على أن الجزء الذى يأخذه المالك من المحصول كان النصف في بعض الأحيان وكان في أحيان أخر الثلث أو الربع. وكان ينص في عقد المزارعة على الطرف الذى يدفع الخراج أو يقوم بغير ذلك من النفقات ويبدو من الوثائق البردية أن المستأجر كان يأخذ على عاتقه عمارة الأرض أى اصلاح جسورها ومد ترعها وحفر خلجها[١].

وظلت الصناعات التي اشتهرت بها مصر الاسلامية، بل ومنذ العصور القديمة، متقدمة

(١) انظر: papyrus Erzherzog. Rainer: Fuhrer durch die Aus- stellung: p. 257 No. 1016 (Wien 1894).

Grohmann: Arabic Papyri in the Egyptian Library Vol. II. PP. 34, 60.

والمقريزى الخطط: ج١ ص٨٢.

كثرة صومه وصلاته واجتهاده وانتصابه لقراة الكتب الذى كانت قراتها عنده كالشهد.

واما الحجاج فانهم وصلو الى مصر وكانت العادة جارية بان ينفذو اذا قربو من مصر من يخبر بوصولهم فخرج اهل الحجاج مسافة يومين يستقبلوهم من بعيد، فلما خرجو اخوته من جملة الناس للقايه وطافو عليه وسالو عنه فلم يعرفو خبره، فلما وجدو صديق ابوهم هناك مالو اليه

ومزدهرة. وكان من أهم الصناعات في ا لعصر الاخشيدى صناعة النسيج. ومن الصناعات التي عرفتها مصر فى ذلك العصر صناعة الحصر، وكان يصنع منها أنواع فاخرة تقليدا للحصر المصنوعة في عبادان فى ايران.

أما الصناعة المصرية التى شهد العصر الاخشيدى تدهورها بعد أن كانت مزدهرة منذ عصر الفراعنة فهى صناعة القراطيس من البردى. وكان العالم الاسلامى وغير يستورد من مصر البردى للكتابة. أما فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) فيحدثنا الثعالبى أن كواغيد سمر قند عطلت قراطيس مصر والجلود التى كان الأوائل يكتبون عليها، لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ولا تكون الا بسمر قند والصين.

ويذكر كراباتشيك[١] أن صناعة اعداد ورق البردى للكتابة انتهت فى مصر بالاجمال حوالى القرن الرابع الهجرى[٢].

وفى ميدان التجارة استمر ما كان لمصر من شأن عظيم سواء فى التجارة الداخلية أو الخارجية. وأشار المؤرخون والجغرافيون والرحالة المسلمون، الى نشاط مصر التجارى والى

(١) المستشرق Karabacek من علماء البرديات فى عصرنا الحاضر.

(٢) دكتورة/ سيدة اسماعيل كاشف: مصر في فجر الاسلام ص ٢٩١ـ ٢٩٢ وما ذكرته من مراجع.

وسالو عنه فبكا وعرفهم ان اخاهم تاه فى البرية
ليلا، وقال لهم: وقفت طويلا انتظره فلم يجى
وحثنى السير فلحقت اعقاب القافلة فسرت بغير
اختيارى وحال الليل بينى وبينه وظننت انه ربما
كان تقدمنى فى اول القافلة فلما اصبحت طفت
يومى كله عليه فى القافلة من اولها الى اخرها
وسالت كلمن فيها عنه فما عرفت له خبر فعلمت
انه قد انقطع من القافلة فى ذلك الموضع واكلوه
الوحوش. فلما سمعو هذه منه شقو ثيابهم وعادو

موقعها الممتاز فضلا عن أسواق مصر العامرة[1].

وقد بلغت ثروة بعض التجار فى مصر فى بداية عصر الاخشيد درجة عظيمة حتى ان أحدهم وهو عفان بن سليمان البزاز حين توفى استطاع الاخشيد أن يأخذ من ماله نحو مائة ألف دينار[2].

أما النظم الادارية فى مصر فاستمرت كما هى منذ أن غزاها العرب دون تغيير جوهرى اللهم الا فيما يختص بمنصب الامارة أو المناصب العليا.

ولم تعرف مصر منصب الوزارة فى عصر الولاة، ولما جاء الطولونيون اتخذوا وزراء لهم

---

(١) النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب ج١ص ٣٤١(طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩م) وابن خرداذبة: المسالك والممالك ص١٥٣ـ ١٥٤(ليدن ١٨٨٩م)، والمسعودى: التنبيه والاشراف:ص٨١ وما بعدها (ليدن ١٨٩٤م)، وابن حوقل: المسالك والممالك: ص ٨١وما بعدها (لين ١٨٧٣م)، واليعقوبى: كتاب البلدان:ص٣٣٤وما بعدها (لين ١٧٩٢م)، والمقدسى: أحسن التقاسيم:ص ١٩٨(لين ١٨٨٧م)، والمقريزى: الخطط ج١ص ١٩٦ـ ١٩٧، والدكتور زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٧ـ ٩(القاهرة ١٩٤٥م).

(٢) الكندى: كتاب الولاة وكتاب القضاة: ص ٥٤٣، ودكتورة سيدة كاشف: مصر فى عصر الاخشيد ص ٢٧٩ـ ٢٨١وما ذكرته من مراجع.

الى ابيهم فاخبروه بذلك فاقام عليه مناحة وجنازة عظيمة، فلما انقضت ايام الجنازة كان شاب من اصدقاه ساكن بجوار بيعة الشهيد ابو مرقوره بمصر فابصره يوم قد خرج من البيعة وعاد اليها وعليه ثياب صوف وعليه زنار صوف فقال بالحقيقة ان الناس يتشابهو ولو لم يكن ابن رجا قد مات لقلت انه هذا، ثم لقي ابوه واخوته فقال لهم: اردت اليوم ان امسك انسان نصراني عند كنيسة ابو مرقوره وقلت انه ولدكم لولا علمي بموته لقلت انه هو

تشبها بالخلفاء[1]. واتخذ الاخشيديون أيضا وزراء لهم. وكان من أشهر وزراء محمد بن طغج الاخشيد، أبو بكر محمد بن على الماذرائى.

ومر بنا أن أسرة الماذرائيين كان لها نفوذ كبير في مصر وذلك في السياسة والادارة والمال. وحين توفي عميدهم أبو بكر محمد بن على الماذرائى أيام انوجور سنة ٣٤٥هـ حضر أنوجور وكافور الصلاة عليه، وانتهى بموته ما كان للماذارئيين من سلطان في ادارة مصر نحو أكثر من سبعين عاما.

ويبدو أن الاخشيد كان له أعوان آخرون يقومون بأعمال الوزير دون أن يكون لهن لقبه في بعض الأحيان. ومن أشهر الوزراء في العصر الاخشيدى جعفر ابن الفضل[2]. وقد وزر جعفر ابن الفضل للاخشيديين من سنة ٣٣٤هـ الى الفتح الفاطمى لمصر.

أما عن القضاء، فبالرغم من استقلال مصر في العصرين الطولونى والاخشيدى، فان أمر

---

(١) انظر: Dr. Zaky M.Hassan: Les Tulunides :PP. 194-195 وما ذكره من مراجع.

(٢) أبوه هو الوزير العباسى أبو جعفر الفضل بن الفرات، ومربنا أنه تصاهر مع محمد بن طغج، وكان يعد نفسه مصريا اخشيديا. ويعرف جعفر ابن الفضل باسم ابن حنزابة ـ بكسر الحاء وسكون النون ـ اسم جدته ويقال انها كانت جارية رومية .(انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ص ١٣٩ ، وابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الامصارج٤ص١٠).

لانه يشبهه فى كل شمايله حتى مشيته وما
شككت فيه الا بلباسه الصوف والزنار. فلما سمعو
هذا تجدد عليهم الحزن والبكا. ثم ان اخوته اشتهيا
ان ينظرا ذلك الشخص الذى قيل انه يشبه
اخوهما فنهضا للعشا وهم متنكرين بلباس زرى
واختفيا فى ركن عند باب البيعة ينظرا من يخرج
ومن يدخل وقت صلاة الغروب، فلما انقضت
الصلاة وخرجو النصارى خرج الشاب فى وسطهم
فتاملوه فعرفوه وتبعوه الى الساحل فلما صارو فى

القضاء كان لايزال مرجعه الى الخلافة .وفى العصر الاخشيدى كان لابد للقضاء من الحصول على موافقة الأمير الاخشيدى. وكان الأمير الاخشيدى فى بعض الحالات يولى القضاء لمن يشاء بدون موافقة الخليفة.

وكان فى مصر الاخشيدية ـ كغيرها من أنحاء العالم الاسلامى ـ ما يسمونه النظر فى المظالم. وكان الغرض الأساسى من المظالم هو وقف تعدى ذوى الجاه والحسب، وتعد أشبه شئ بمحكمة الاستئناف أو محكمة النقض أو مجلس الدولة فى عصرنا الحالى. وكان اختصاص الناظر فى المظالم واختصاص القاضى يلتقيان فى كثير من الأحيان، وكان يصعب أحيانا أن نتبين أيهما أوسع سلطانا. والحق أن سلطان الناظر فى المظالم لم يكن واسعا الا حين كان هو الخليفة أو الأمير أو من يقرب من مرتبتهما، أو من كان مؤيدا من الأمير حائزا لثقته التامة.

والمعروف فى العصر الطولونى ان خمارويه عين محمد بن عبدة للنظر فى المظالم، وكان له كل اختصاص القاضى. وظل محمد بن عبدة بن حرب ينظر فى المظالم نحو أربع سنين ثم ولى القضاء فى سنة ٢٧٨هـ من قبل الخليفة المعتمد وذلك بعد أن تعطل منصب القضاء نحو سبع سنين.

وفى بداية العصر الاخشيدى كان القاضى ينظر فى المظالم. وفى سنة ٣٣١هـ أفراد للنظر

موضع منقطع عن الناس مسكاه وبكيا وضربا وجوههما وقالو له: ما هذا الذى فعلته بنا يا اخونا. فقال لهما: الذى بى ما تعرفاه. فقال احدهما للاخر: ما هذا موضع خطاب ليلا يكون قد داخله شيطان فنفتضح بين الناس. ولازماه الى ان مضيا به الى البيت برفق فجدد اهله الجنازة لما راوه على تلك الحالة، فخاطبه ابوه وامه وقالا لاخوته: لا تخاطبوه انتم حتى نكشف نحن عن حاله ليلا نصير فضيحة. ثم اغلقو الابواب ودخلو به الى

فى المظالم قاض مستقل. وبعد مقتل ابن رائق وعودة الاخشيد من الشام سنة ٣٣١هـ، كان الاخشيد يجلس للنظر فى المظالم بنفسه فى أيام الأربعاء. وبعده كان كافور يجلس كل سبت للمظالم[١].

وظهر قبيل العصر الاخشيدى المحتسب، ووظيفة الحسبة.. والمفروض أن المحتسب يراقب مراعاة أحكام الشريعة الاسلامية، ويسهر على حسن السلوك العام، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويشرف على نظام الأسواق، ويعمل بوجه عام على حماية الناس من غش التجار والصناع.

وظهر منصب الحسبة قبيل ولاية الاخشيد على مصر . ونعرف أيضا أن مؤنسا الخادم عين محتسبا قبيل ولاية الاخشيد أيضا. وبعد ذلك سنجد هذه الوظيفة فى مصر الاخشيدية كما كانت فى سائر أنحاء العالم الاسلامى آنذاك ظلت هذه الوظيفة قائمة طوال عصور مصر الاسلامية.

وكانت مصر طوال العصر الاخشيدى مركزا للحياة العلمية الدينية والدنيوية، وبرز علماء مصر فى مختلف العلوم والآداب والفنون.

(١) انظر عن القضاء والمظالم: دكتورة سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الاخشيديين:ص ٢٠٥ـ ٢٢٨ وما ذكرته من مراجع.

موضع منفرد فلما تحققو حاله قالو له: ما انت
ولدنا. قال لهم انا بولس. يعنى الاسم الذى سموه
به وقت المعمودية، قال له ابوه: فضحتني يا ولدى
وفضحت شيخوختي بين القضاة والشهود ولعلك
فعلت هذا لانى لم ازوجك وقد كنت معتقد اننى
ازوجك اذا رجعت من الحج لاجل [لأجلّ] من فى
مصر، وانفق فى عرسك مالا كثير، ومكثو يسالوه
ويقولو له: لا تفضحنا فى وسط الناس ولا تخزينا
فى هذه المدينة. ولم يزالو معه الى نصف الليل

وسارت مصر فى طريق الازدهار والأخذ بأسباب العلوم والآداب والفنون الى أن أصبحت زعيمة للعالم الاسلامى قاطبة. وحسبنا أن نذكر قول ابن خلدون المتوفى سنة٨٠٨هـ(١٤٠٥ـ ١٤٠٦م): «ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العالم وايوان الاسلام وينبوع العلم والصنائع»[١].

والحق أن مصر فى العصر الاخشيدى كانت غنية بالفقهاء والعلماء والأدباء. وكانت هذه الطوائف تلتقى فى مجالس الأمراء وعلية القوم وتحظى بتقديرهم ورعايتهم. وكان بالفسطاط سوق كبير للوراقين يسعى اليه أهل العلم وا لأدب. وقيل ان الخليفة عبد الرحمن الناصر أرسل من الأندلس عشرة آلاف دينار لتفرق على فقهاء المالكية، فأمر كافور بعشرين ألف دينار لتفرق على فقهاء الشافعية[٢].

والمعروف أن المذاهب الفقهية الكبرى استقرت فى القرن الرابع الهجرى. وكانت السيادة فى مصر للمذهبين الشافعى والمالكى. وفى سنة ٣٢٦هـ كان للشافعيين فى جامع عمرو بن العاص خمس عشرة حلقة وللمالكيين مثلها، ولأصحاب أبى حنيفة ثلاث حلقات فقط[٣].

(١) ابن خلدون: المقدمة: ص٤٨١(فصل حملة العلم فى الاسلام اكثرهم من العجم. طبعة القاهرة ١٢٤٨هـ/ ١٩٣٠م).
(٢) ابن الزيات: الكواكب السيارة:ص ١٩٠ـ ١٩١.
(٣) ابن سعيد: المغرب:ص ٢٤(ليدن ١٨٩٩م)

وهو يقول لهم: ما اعرف ما تقولو فلما لم يجدو
فيه حيلة جعلوه في بيت مظلم ثلثة ايام بلا طعام
بلا شراب فلم يقدرو عليه. ولعظم بكا امه وحزنها
لم تفطر [تأكل] ايضا، فاخرجوه وقدمو له طعام
فلم ياكل منه شي، وكان كانه قد خرج من صنيع
[مطعم] او وليمة غير محتاج الى طعام ولا الى
شراب كما قال اشعيا النبى: ان الذين عقولهم
عند الرب تبدل قواهم ولا يجوعو ولا يعطشو.
فلما اعياهم امره تشاورو على قتله ليلا يفتضحو

وقد عدد المؤرخون أسماء الكثير من الفقهاء والعلماء والأدباء والشعراء فى مصر الاخشيدية[١]. وكان زعيم الكتاب في هذا العصر هو ابراهيم بن عبد الله بن محمد محمد النجيرمى، ومن انشائه الكتاب الذى أرسله الاخشيد الى المانوس (رومانوس) ملك الروم[٢].

وكان أكبر نصيب لمصر فى الثقافة الاسلامية ما كتبه أبناؤها فى التاريخ. وقد نبغ من المؤرخين المصريين في فجر الاسلام فى مصر عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم صاحب كتاب«فتوح مصر وأفريقيا والأندلس»، والذى توفى سنة ٢٥٧هـ، والذى شهد السنوات الأولى من مجئ أحمد بن طولون الى مصر. ولكن ابن عبد الحكم يمت الى عصر الولاة أكثر مما يمت للطولو نيين. ومن أشهر مؤرخى الدولة الطولونية المؤرخ المعروف بابن الداية، وهو أحمد بن يوسف، والمتوفى سنة ٣٣٩هـ. قدم أبوه يو سف بن ابراهيم من بغداد وعاصر أحمد بن طولون في مصر بضع سنوات، أما ابنه أحمد المشهور بابن الداية فقد ولد فى مصر فى منتصف القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى[٣]. وكتب أحمد بن يوسف، أو ابن الداية،

(١) انظر عن الفقهاء والعلماء والادباء: دكتورة سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الاخشيديين ص ٣٠٠ـ ٣٢٦ وما ذكرته من مراجع.

(٢) انظر الكتاب في: ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب ص١٨ـ ٢٣، والقلقشندى:صبح الأعشى ج٧ص ١٠ـ ١٨.

(٣) انظر: Zaky M. Hassan : Les Tulunides: PP. -11-12

به، ثم انهم رقت قلوبهم عليه واخرجوه سرا ومضو به الى الجيزة وقالو له: ابعد عنا نستريح من فضيحتك. فمضى الى وادى هبيب واقام هناك عند راهب فعلمه طرق الله ورهبه، فلما اقام اياما قلايل قال له بعض من لا يفهم من الرهبان: ان الرب لا يقبل نصرانيتك الا ان تمضى الى مصر وتشتهر بحيث تعرف. فسمع منه وعاد الى مصر طاعة لهم ومضى الى منزل ابوه وقد وطن نفسه على القتل على اسم المسيح، فلما راه ابوه بزى

فى التاريخ وا لطب والأخلاق والمنطق والفلك وغير ذلك مما يشهد بثقافته الواسعة. وللأسف ضاعت مؤلفاته ولم يبق منها الا كتاب المكافأة، وسيرة أحمد بن طولون وسيرة أبى الجيش خمارويه. أما العصر الاخشيدى فقد أخرج من المؤرخين ابن يونس الصدفى الذى توفى سنة ٣٤٧هـ(٩٥٨م)، أبو عمر محمد بن يوسف الكندى الذى توفى سنة ٣٥٠هـ (٩٦١م). والحسن بن ابراهيم بن زولاق الذى ألف كتابا عن «سيرة الاخشيد» والذى توفى سنة ٣٨٧هـ(٩٩٧م). كذلك ألف ابن زولاق كتابا فى أخبار سيبويه المصرى الذى توفى سنة ٣٥٨هـ(٩٦٩م) وكان سيبويه المصرى زميلا فى الدراسة لابن زولاق وكان من أدبا العصر الاخشيدى ومن علماء النحو المشهورين.

ويعتبر الكندى صاحب كتاب الولاة وكتاب القضاة شيخ المؤرخين المصريين قبل الدولة الفاطمية. ومن المؤرخين المصريين المسيحيين الذين أدركوا العصر الاخشيدى سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨هـ(٩٤٠م) وهو البطرك الرومي الملكاني افيتشيوس، وكان طبيبا مشهورا فى الفسطاط، ثم نصب بطركا على الاسكندرية سنة ٣٢١هـ (٩٣٣م). وقد عنى بالتاريخ وكتب فيه مؤلفا مشهورا هو «نظم الجوهر أو التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» وتحدث فيه عن التاريخ منذ بدء الخليقة الى العصر الذى عاش فيه (١).

(١) انظر عن المؤرخين: دكتورة سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الاخشيديين:ص٣٢٦ـ ٣٢٩.

الرهبـان ضـج واغتـاض [اغتاظ] منه وقـال له: مـا
هذه الفضيحة مضيت وعدت الى بطرطور صوف.
يعني القلنسوة المقدسة التى هى بيضة الخلاص، ثم
اخـذه وحبسـه فى مطمـورة مظلمـة يطرح فيـهـا
كناسـة التـراب والرمـاد ووسخ الدار واطبق عليـه
طابقها واقسم على كلمن فى الدار لا يعطوه خبز
ولا مـا ومتى دفع احـد شى من ذلك عاقبـه وامـر
غلمـانه وجـواره ان يرمـو عليـه كلمـا يكنسـوه من
تراب ورمـاد ووسخ الدار وغـالة القـدور، واقـام

ولا ننسى أن نشير هنا الى المؤرخ والجغرافى المسعودى الذى عاصر صدر الدولة الاخشيدية، والذى زار مـصـر عـدة مـرات وأقام بهـا فتـره من الزمن قـبل وفـاته فى مـصـر سنة ٣٤٦هـ (٩٥٧م).

والمعروف أن المتنبى الشاعر زار مصر فى العصر الاخشيدى ووصل اليها فى سنة ٣٤٦هـ. وقيل انه صرح قبل قدومه انه اذا دخل مصر لايقصد العبد، يعنى كافورا، وانما يقصد مولاه، يعنى أبا القاسم أونوجور. ولم يكن هذا أول عهد المتنبى بالاخشيديين، فالراجع انه حين اتهم بادعاء النبوة فى بادية السماوة، قبض عليه ابن لؤلؤ نائب الاخشيد فى حمص وحبسه ثم استتابه وأطلقه. كما يروى للمتنبى الشعر فى رثاء محمد بن طغج الاخشيد.

والمعروف أن المتنبى كان متصلا بسيف الدولة الحمدانى وقال فى مدحه قصائد خالدات، ولكن أمرا حدث بينهما أدى الى أن يبحث المتنبى عن سيد آخر يرعاه.

ولعله سمع ببلاط كافور وما يلقاه الشعراء والأدباء من تقدير واكرام فيه، فعقد العزم على أن ييم شطر مصر. وقيل ان كافورا كتب اليه يستدعيه الى بلاطه.

وقابل المتنبى فى الرملة، وهو فى طريقه الى مصر، الأمير أبا محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج، ومدحه بعدة قصائد. ورحب كافور بالمتنبى وأخلى له دارا وخلع عليه وحمل اليه كثيرا من المال. وظل المتنبى فى بلاط كافور يقول فى مدحه القصيدة السنية بعد الأخرى.

كذلك سته ايام وامه باكية لا تفتر من البكا بسببه
وهى حزينه عليه جدا، وكانت تدلى له الخبز والما
بحبل فلا يذوق منه شى فلما كان بعد الستة ايام
ضعفت قوته وكان ملازم الصوم والصلاة ليله
ونهاره، وظهر له فى اليوم السابع الراهب الذى
كان ظهر له اولا فى طريق مكة وفى يده خبز نقى
فظن انه خيال فلم ياكل منه شيا حتى عرف انه
امرا ظهرا له من عند الله، فقال له الراهب تعرفنى،
قال له نعم انت الذى رايتك فى المنام ثلث دفعات

ولكن المتنبى كان يطمع من كافور بأكثر مما نال من عطاء، وكان يرجو أن ينصبه كافور واليا على اقليم من دولته، فلا عجب اذا تضاءل حماس المتنبى لكافور. وقال المتنبى فى يوم عرفة سنة ٤٥٠هـ قبل مغادرته مصر بيوم واحد قصيدته الدالية المشهورة التى هجا فيها كافورا، ومطلعها:

عيد بأية حال عدت باعيد

بما مضى أم لأمر فيك تجديد

كذلك نظم المتنبى قصائد أخرى كثيرة فى هجاء كافور[١]. وقد عنى الاخشيديون بالجيش والأسطول مثل عناية الطولونيين بهما. وكان الجيش الاخشيدى مثل الجيش الطولونى يتألف من عناصر مختلفة مثل الترك والسودان والمغاربة، ومماليك من أجناس مختلفة. أما البحرية فكان دور المصريين بارزا فيها منذ غزو العرب لها.

وكان محمد بن طغج الاخشيد يستعرض الجيش فى أيام الأعياد وفى بعض المناسبات الأخرى كما كان يفعل أحمد بن طولون من قبله.

---

(١) دكتورة سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الاخشيديين: ص ١٣٩ـ ١٤٤ وما ذكرته من مراجع.

فى طريق مكة، قال له نعم انا ذاك وانا مقاره اب
وادى هبيب والان فقد ارسلت اليك لا عزيك
فتقوى واصبر فان لك مجازاة عظيمة، ثم غاب
عنه فاخذ ذلك الخبز واكل بعد ان صلب عليه
فقويت نفسه، ثم ان ابوه اخرجه من ذلك الموضع
وتعجب من بقاه بلا طعام ولا شراب هذه المدة
ولم يتغير وجهه، فخاطبه فى الرجوع عما هو عليه
وتعب معه فلم يقدر عليه بوجه من الوجوه وكان
له [ابن رجا] قديما سرية قد رزق منا ولدا قبل

وكان قواد الجيش يشتركون مع وجوه البلاد فى التشاور بشأن تولية الأمراء واعلان الولاء لهم(١).

وكان الاخشيديون يخرجون على رأس الجيش فى المعارك المختلفة فى معظم الأحيان كما كان يفعل الطولونيون.

وعنى البلاط الاخشيدى فى مصر بسباق الخيل كما عنى به بلاط ابن طولون. كذلك انتشر سباق الحمام فى عصر الاخشيديين(٢). وكان الصيد من الرياضة المحببة الى علية القوم فى مصر فى العصرين الطولونى والاخشيدى. وكان اقليم الحوف فى الشرقية من الأقاليم التى يرتادها كثير منهم لهذا الغرض.

وقد حدثنا المسعودى عن التسامح الدينى فى عصر الاخشيديين وعن قيام أهل الذمة بقسط وافر من الأعمال الادارية والمالية فى مصر، وعن اشتراك الأمراء الاخشيديين فى الأعياد المسيحية مع سائر المصريين من مسلمين وقبط.

وكتب المسعودى عن الاحتفال بعيد الغطاس فى مصر بعد أن شاهده بعينيه فى سنة

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٣ ص ٣٢٧.
(٢) الغزولى: مطالع البدور فى منازل السرور: ج٢ص ١٧ (الطبعة الأولى مصر ١٢٥٩ـ ١٣٠٠هـ).

مضيه الى مكة فتقدم ابوه الى اخوه الكبير بان يحضرها، فلما حضرت امره [أى أمر أخوه الكبير] أن يجامعها قدامه ففعل ذلك ووهبها له وكان ولده الطفل يتعلم العوم فقال لابوه المومن القديس ان انت لم تطيعني وترجع عما انت عليه والا غرقت ابنك قدامك هذا الذى انت تحبه، فقال نعم انا احبه وهو ولدى غير انى احب الرب اكثر منه، فاحضر العوام الذى يعومه سرا ودفع له دينارين وقال له اذا نزل الصبى معك عشية لتعلمه

٣٣٠هـ، وكان المسلمون يشاركون الأقباط في الاحتفال بهذا العيد[١] وبغيره من أعياد المسيحيين.

وكان العصر الاخشيدى عصر ازدهار فى تشييد العمائر وانتاج التحف والآثار الفنية التى تمثل شتى ميادين الفن الاسلامى.. والمشهور أن الاخشيد كان يقلد ابن طولون فى أمور شتى ومنها عنايته بالعمارة والفنون.

واندثر الكثير من آثار الاخشيديين وبقى وصفها وذكرها فى المصادر التايخية. وأهم هذه المنشآت قصر المختار، والبستان الذى شيده الاخشيد فى جزيرة الروضة سنة ٣٢٥هـ. وأنشأ الاخشيد بستانا آخر شمالى الفسطاط عرف بعد ذلك باسم البستان الكافورى.

وعنى الأمراء الاخشيديون ببناء المساجد مثل مسجد الريح، ومسجد الزمام، ابن عمروس، ومسجد الاقدام، ومسجد موسى[٢].

كذلك عنى الاخشيديون وكافور وكبار القوم مثل الماذرائيين وابى الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات، ببناء الدور والمساجد والبساتين والقيساريات والأسواق.

(١) المسعودى: مروج الذهب: ج٢ ص ٣٦٤، المقريزى: الخطط ج١ص ٢٩٥و٤٩٤وج٢ :ص ١٥٤ .
(٢) ابن زولاق: أخبار سيبويه المصرى ص ٣٢، ٣٦، ٤١، ٤٤، ٥٦(طبعة القاهرة ١٣٥٢هـ ١٩٣٣م).

العوم غرقه وانا احضر لا نظره واعرف بانه هو، فاجابه العوام الى ذلك فلما كان عشية اخذ ابن رجا الشاهد ولده الراهب ابو الصبى ومضى به معه الى البحر ونزل بالصبى مع معلمه الى البحر ليعومه فلما صار فى وسط البحر غرقه وابوه الراهب ينظر اليه، ثم ان اباه اعاده الى داره وحبسه فى موضع اخر منها وكتب فيه رقعة للسلطان، وكان الخليفة فى ذلك الزمان الحاكم بامر الله. كما قال الرب فى الانجيل يسلم الاب ابنه الى الموت،

ولم يبق من عمائر العصر الاخشيدى الا النذر اليسير، أهمها مشهد آل طباطبا قرب ضريح الامام الشافعي، ومحراب قديم فى تلك المنطقة. فضلا عن مجموعة من شواهد القبور محفوظة في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة.

كذلك وصلت الينا من العصر الاخشيدى بعض قطع من النسيج عليها كتابات حاملة أسماء الخلفاء العباسيين والوزراء فى العصر الاخشيدى.

كذلك نمت فى العصر الاخشيدى صناعة الخزف ذى البريق المعدنى، ولكن زخارفه ظلت بدائية الى أن تم تطورها فى العصر الفاطمى. ونلاحظ أن الفن الاسلامى فى مصر فى العصرين الطولونى والاخشيدى كان مرتبطا بالأساليب الفنية التى ازدهرت فى العراق فى العصر العباسى، وحين قامت الخلافة الفاطمية فى مصر بعد العصر الاخشيدى، أصبح لمصر طراز فنى خاص بها عاش وازدهر نحو قرنين من الزمان[١].

وفى اعتقادنا أن الأخشيد وكافور استطاعا القضاء على الفوضى واضطرب الأمن وما الى ذلك من القلاقل التى سادت فى مصر بعد سقوط الطولونيين. ونعمت مصر فى عصر الاخشيديين كما نعمت فى عصر الطولونيين، وأصبحت مقصدا للعلماء والفقهاء والأدباء.

(١) انظر عن الآثار والفنون فى العصر الاخشيدى: دكتورة سيدة كاشف: مصر فى عصر الاخشيدى: ص ٢٨٥ـ ٢٩٩ وما ذكرته من مراجع.

فامر الخليفة بحضوره مع ابيه عند قاضي القضاة
والشهود ويناظروه فان وجب عليه شيا يقتل واذا
لم يجب عليه شيا فيطلق سبيله، فلما اجتمعو
لذلك بحضور واسطة خير اقامه الحاكم بامر الله
ولم يثبت لابوه عليه حجة كما قال السيد المسيح:
انى اعطيكم نطق وحكمة لا يقدر احد يقاومها.
فانصرفو خايبين خجلين ولم يرجع احد يخاطبه.
فامر الحاكم باطلاقه يمضى الى حيث شا، فمضى
الى راس الخليج وشرع فى عمارة بيعة هناك ما بين

ومضت الحضارة الاسلامية قدما، وقطعت مصر أشواطا بعيدة فى كافة مجالات الحضارة. وتمهدت الأمور للتطور الكبير الذى حدث فى عصر الخلفاء الفاطميين.

رابعا: مصر فى عصر الفاطميين

١. مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين

تمهيد:

كان من أثر ما حل بالعلويين من الاضطهاد بعد قيام الدولة العباسية أن لجأ بعضهم الى بلاد المغرب لبعدها عن مركز الخلافة. وكان التشيع قد انتشر فى هذه البلاد على يد الامام ادريس بن عبد الله ابن الحسن بن على بن أبى طالب الذى قدم الى المغرب فرارا من تعقب العباسيين له فى عهد الخليفة الهادى سنة ١٦٩هـ. وأقام الادارسة فى المغرب الأقصى دولة علوية سنة ١٧٢هـ، فلما توجه أبو عبد الله الشيعى الى المغرب فى أوائل سنة ٢٨٠هـ وجد الأمور ممهدة له، كما وجد التشيع قد استقر فى عقول البربر.

وقد نجح أبو عبد الله الشيعى فى نشر الدعوة الفاطمية فى تلك البلاد، كما عمل منذ سنة ٢٨٩هـ على نشر نفوذ الفاطميين. فى شمال أفريقيا. ولما انتصر على الأغالبة سنة ٢٩٦هـ ودخل رقادة مقر امارتهم، حذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة، ثم وجه أهتمامه سنة

بركة الحبش وبنى وايل على اسم الملاك الجليل مخاييل وبناها، وكان بمصر قوم من الرمادية [الفقراء] فمضو ليلا وسرقو الخشب من هذه البيعة، فلما اصبح هذا القديس ابن رجا ابصر بعضهم فى تلك الناحية فقال لهم قد عرفت انكم البارحة اخذتم الخشب وعرفت الموضع الذى خبيتموه فيه فعيدوه الى موضعه والا شكوتكم لوالى القاهرة، فانكرو ذلك وقالو ما اخذنا شىء قال لهم انا امضى الى الحاكم بامر الله وهو ان شا

٢٩٧هـ الى أخذ البيعة لعبيد الله (ابن الامام الحسن ابن أحمد بن عبد اسماعيل بن جعفر الصادق) الذى استطاع أن يهرب مع أتباعه الى المغرب الأقصى، واقيمت الخطبة باسمه فى رقادة التى اتخذها عاصمة له، وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين.

كان عبيد الله المهدى، يطمع فى أن يتخذ مصر قاعدة يوجه منها حملاته الى بغداد للقضاء على الخلافة العباسية المتداعية، لذلك وجه نشاطه على أثر تأسيس خلافته بالمغرب الى الاستيلاء على مصر سنة ٣٠١هـ، غير أن حملاته التى أنفذها اليها لم تستطع فتحها، فقد تصدت لها قوات العباسيين والاخشيديين فى مصر.

ولما ولى أبو القاسم الذى تلقب بالقائم بأمر الله الخلافة سنة ٣٢٢هـ، واصل سياسة أبيه المهدى فى غزو مصر، فأرسل اليها جيوشه سنة ٣٢٣هـ، فوصلت الاسكندرية فى أوائل سنة ٣٢٤هـ، وانضم اليها بعض زعماء المصريين فأنفذ اليهم الاخشيد قو ة كبير ة، استطاعت أن تهزم جند الفاطميين.

على أن هذه الهزائم التى لحقت بالفاطميين فى مصر، ولم تثبط من عزمهم على بسط سيادتهم عليها، فلجأ الخليفة القائم الى التودد الى محمد بن طغج الاخشيد، فأنفذ اليه رسولا ومعه كتاب، يطلب فيه صداقته ايثارا للمسالمة. غير أن الاخشيد لم تخف عليه مطامع الخليفة الفاطمى التى تنطوى على دعوته للدخول فى طاعته، فظل مواليا للخلافة العباسية فى بغداد

الله يتقدم باخذ الخشب من حيث جعلتموه فيه وتتاذو منه، فخافو واعادو الخشب الى البيعة على تمامه وكان هذا القديس ابن رجا قد سمى نفسه الواضح وصار صديقا للرجل العالم الفاضل انبا ساويرس اسقف الاشمونين المعروف بابن المقفع الذى ذكرناه انفا وهو الذى صنف عشرون [مقالة] سوى ميامر وتفاسير واجوبة ومسايل لابى البشر ابن جارود الكاتب المصرى، وهذه اسما العشرين كتابا: كتاب التوحيد، كتاب الاتحاد، كتاب الباهر

حتى توفى سنة ٣٣٤هـ. (٩٤٦م) ثم واجهت مصر بعد وفاته عدة صعوبات، وبخاصة من ناحية سيف الدولة الحمدانى أمير حلب الذى أغار على دمشق وطمع فى المسير الى مصر للاستيلاء عليها.

لم يقم الفاطميون طوال عهد المنصور الذى آلت اليه الخلافة بعد وفاة ابنه القائم سنة ٣٤٤هـ بأى محاولة لغزو مصر. ويرجع سبب ذلك الى انشغال هذا الخليفة بالعمل على ضبط الأمور فى بلاد المغرب، فلما جاء الخليفة المعز سنة ٣٤١هـ (٩٥٢م) حاول اعادة الكرة للاستيلاء على البلاد المصرية، لكنه عنى أولا ينشر الدعوة فى هذه البلاد، فقدمت رسله الى كافور الذى كان وقتذاك يستأثر بالسلطة فى مصر تدعوه الى الاعتراف بسيادته، فرحب بهم ولم يعطهم أى رد حاسم، على حين استطاع دعاة الفاطميين أن يأخذوا البيعة للمعز من كثير من رجال بلاطه وكبار موظفى دولته.

ولما توفى كافور سنة ٣٥٧هـ(٩٦٨م)، اضطربت الحالة السياسية فى مصر، فوقع اختيار رجال البلاط على أبى الفوارس أحمد حفيد الأخشيد ولم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره، وما لبث أن استقل الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات بتدبر أمور ولاية مصر. غير أن هذا الوزير لم يكن فى وسعه أن يقضى على الفوضى التى انتشرت بمصر فى أواخر عهد

رد على اليهود، كتاب الشرح والتفصيل رد على النسطورية، كتاب في الدين كتبه الوزير قزمان ابن مينا، كتاب نظم الجوهر، كتاب المجالس، كتاب طب الغم وشفا الحزن، كتاب الجامع، كتاب تفسير الامانة، كتاب التبليغ رد على اليهود، كتاب الرد على سعيد ابن بطريق(*)، كتاب في معنى اطفال المومنين والكفار وكيف تقوم النفسين، كتاب الاستيضاح وهو مصباح النفس، كتاب السير، كتاب الاستبصار، كتاب ترتيب الكهنوت الاثنى

(*) سعيد ابن بطريق: ٨٧٧/٩٤٠م = ٢٦٣/٣٢٨هـ.
طبيب ومؤرخ من أهل مصر، ولد بالفسطاط. أقيم بطركاً ملكانيا في الاسكندرية وسمى

الاخشيديين، بل ساءت في أيامه الحالة المالية وحل بالبلاد القحط والوباء، من جراء انخفاض النيل، وفقدت الخلافة كل هيبة واستقرار.

كان الخليفة المعز لدين الله، يعد العدة لفتح مصر، قبيل وفاة كافور، فأمر بانشاء الطرق وحفر الآبار في طريق مصر، وأقام المنازل على كل مرحلة، فلما بلغه خبر وفاته سنة ٣٥٧هـ أخذ في اعداد المال اللازم لتجهيز حملة لغزو مصر، ثم وقع اختياره على جوهر الصقلي لقيادة الحملة، وخرج لوداعه يوم رحيله من القيروان في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٣٥٨هـ، فسار جوهر على رأس جيشه حتى وصل برقة، فقدم له صاحبها فروض الطاعة، ثم مضى في سيره حتى وصل الاسكندرية، فدخلها من غير مقاومة، وواصل بعد ذلك زحفه جنوبا، فتغلب على أنصار الاخشيدية، وأجاب أهالي الفسطاط الى ما التمسوه في كتاب الأمان الذي كتبه وأعلنه للمصريين. وقد عرض فيه لبرامج الاصلاح الذي سيقوم به كاقامة شعائر الحج واصلاح الطرقات والعمل على استتاب الأمن وتوفير الأقوات ونشر العدل، كما ضمنه منحهم الحرية في اقامة شعائرهم الدينية حسب مذهبهم، وتعهده وتأمينهم على أنفسهم وأموالهم وأهاليهم وضياعهم.

ولما تيسر لجوهر ضم مصر الى حوزة الفاطميين، عدل عن اتخاذ كل من الفسطاط والعسكر عاصمة له، وفكر في انشاء مدينة جديدة، تكون مقرا للخلافة الفاطمية ومركزا لنشر دعوتهم الدينية، فوضع أساس مدينة القاهرة في ليلة ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ، كما وضع

عشر طقوس البيعة، كتاب اختلاف الفرق، كتاب الاحكام، كتاب ايضاح الاتحاد. وهذه الكتب قد سمي بعضها بخلاف ما ذكرناه، وربما كان للكتاب اسمين، وكان ساويرس الاسقف المذكور والواضح ابن رجا القدسين يتذاكر اكثر اوقاتهما ويفتشا كتب الله لنور عقولهما وجوهرهما حتى انهما فسرا الكتب الروحانية، ثم ان الواضح ابن رجا فسر كتابين باللغة العربية احدهما سماه الواضح وهو الاعتراف واظهر فيه اعوار [عيوب]

انتيخوس سنة ٣٢١هـ = ٩٣٣م. له كتاب «الجدل بين المخالف والنصراني» وكتاب «كناش» في الطب وكتاب «نظم الجوهر» في التاريخ، رد عليه ساويرس ابن المقفع في كتابه «المجامع»، وكذلك هاجمه ساويرس في كتابه «الرد على سعيد ابن بطريق» طبعه الاب بطرس شبلي ١٩٠٦ باريس.

الليلة التالية، أساس قصر الخليفة المعز، وعرف هذا القصر باسم القصر الشرقي الكبير، ثم أقام حول تلك المدينة وقصر الخليفة سورا كبيرا، وأطلق جوهر على مدينته الجديدة، اسم «المنصورية» نسبة الى المنصور أبى المعز، وظلت هذه التسمية حتى قدم المعز الى مصر، فسماها القاهرة على اسم المدينة القديمة التى كانت فى هذا الموضع.

أنشأ جوهر بسور القاهرة، أربعة أبواب، وهى باب النصر وباب الفتوح وبابىّ زويلة[1]. ويعرف أحد هذين البابين باسم باب القوس. وقد مر منه المعز عند قدومه الى القاهرة، أما الباب الثاني، فقد تشاءم منه الناس وهجروه.

كذلك رأى جوهر ألا يفاجئ المصريين من أهل السنة فى مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمي، اثارتهم عليه، ومن ثم عول على بناء مسجد يكون رمزا لسيادة الدعوة الفاطمية، كما كانت القاهرة رمزا لسيادة الفاطميين على مصر، فشرع فى بناء الجامع الأزهر فى اليوم الرابع من شهر رمضان سنة ٣٥٩هـ(٩٧٠م)، وتم بناؤه فى سنتين تقريبا ، وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة فى اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١هـ(٩٧٢م). وقد سمى هذا الجامع فى بادئ الأمر بجامع القاهرة نسبة الى العاصمة الجديدة التى أنشأها جوهر. أما تسميته بالجامع الأزهر، فيظهر أن الفاطميين الذين ينتسبون الى فاطمة بنت النبى محمد سموه الأزهر، اشادة بذكر جدتهم فاطمة الزهراء.

(١) عرف بهذا الاسم نسبة الى قبيلة زويله احدى قبائل البربر التى جاءت مع جوهر من بلاد المغرب.

المخالفين واخصمهم من كتابهم، والكتاب الاخر سماه نوادر المفسرين، واحرق المخالفين بهذين الكتابين وخصمهم من دينهم كما فعل سمسوم [شمشون] الجبار لما جعل السرج [مشاعل النار] في اذناب الثعالب واطلقها في زرع اعدايه فاحرقه. وكتب فيها شرح حاله في نفسه. وقال فيها ان الاسقف انبا ساويرس ابن المقفع حكى له انه كان ببغداد انسان مقدم ابن ملك يعرف بالهاشمي وانه لم يهتم قط بشي من امور المملكة ولا كسوة ولا

شرع جوهر منذ أن وضع أساس مدينة القاهرة في التمهيد لاتخاذها حاضرة للخلافة الفاطمية، فأمر بحذف الدعوة لخلفاء بني العباس التي كانت تقام بمساجد مصر وأقامها للخليفة المعز، وضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي بدلا من اسم الخليفة العباسي. كذلك منع جوهر الناس من لبس السواد شعار العباسيين، كما أمر بأن يؤذن في جميع المساجد بحي على خير العمل، وهي من العبارات التي يتخذ بها الأذان عند الشيعيين.

١. خلافة المعز لدين الله في مصر:

لما استقر سلطان الفاطميين في مصر، كتب جوهر الى المعز يستدعيه ليتولى بنفسه زمام الحكم في البلاد، فلقيت هذه الدعوة قبولا من نفس الخليفة الفاطمي، وسار اليها في موكب حافل ومعه أولاده واخوته وعشيرته ورفات آبائه (عبد الله المهدى والقائم والمنصور). وعندما وصل الى الاسكندرية في شعبان سنة ٣٦٢هـ، استقبله أعيان البلاد وعلى رأسهم - الوزير جعفر بن الفرات، ثم تابع سيره حتى دخل مدينة القاهرة في يوم الثلاثاء ٧ من رمضان سنة ٣٦٢هـ وأصبحت ولاية مصر بعد قدوم المعز اليها دار خلافة بعد أن كانت دار امارة تابعة للخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، كما حلت القاهرة محل المنصورية، وغدت عاصمة الدولة الفاطمية.

كانت أمور ولاية مصر ، قد أسندها المعز الى الجوهر بعد الفتح، فأقر الوزير جعفر بن

٦٣: فيلاتاوس البطرك ٩٧٩ / ١٠٠٣م

جمال سوى انه كان يركب فى كل يوم ومعه
جنده ويرصد بيع النصارى فى وقت القداس
فيدخلها راكب ويامر باخذ القربان من على
الهيكل ويكسروه ويخلطوه بالتراب ويقلب
الكاس، وكلما فعل ذلك فى بيعة مضى الى اخرى
وفعل فيها مثل ذلك حتى كادت بغداد تخلو بيعها
من القداسات وامتنع اكثر الكهنة من القداس
خوفا من هذا وكانت معونة الله تجذبه ولا يدرى،
فلما كان فى بعض الايام دخل الى بيعة من البيع

الفرات فى منصبه، كما أبقى على الموظفين المصريين فى وظائفهم، وأشرك مع كل موظف مصرى موظف آخر من المغاربة، وصار جوهر. يشرف على الدواوين وجباية الخراج حتى أوائل سنة ٣٦٣هـ، حيث تسلم المعز منه دواوين مصر وجباية أموالها والنظر فى أحولها.

وهكذا، استأثر المعز بالنفوذ والسلطان فى مصر، ولم يشأ أن يترك لجوهر ما يساعده على الاستئثار بالحكم، بل أبقاه بجانبه يشير عليه بما تتطلبه أحوال البلاد، وما لبث أن صرفه عن بعض المناصب الادارية وأسندها الى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن.

لما انتقل الخليفة المعز الى القاهرة سنة ٣٦٢هـ، لم يعمل الفاطميون بكتاب الأمان الذى التزم فيه جوهر الصقلى اطلاق الحرية للمصريين فى المعتقدات الدينية، بل تركز الاهتمام فى تحويل المصريين الى المذهب الشيعى، كذلك أمعن الفاطميون فى اظهار شعائرهم المخالفة لشعائر السنيين كالأذان بحى على خير العمل، والاحتفال باليوم العاشر من المحرم وهو اليوم قتل فيه الحسين بكربلاء وعيد الغدير المعروف بغدير خم وهو اليوم الثامن عشر من ذى الحجة) وسبب الاحتفال به ما يرويه الشيعة من أن النبى محمد، وبعد عودته من حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة نزل بغدير خم فى طريقه إلى المدينة وأخذ بيد على بن أبى طالب، وقال: ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى: فقال: من كنت مولاه، فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه. ويعلق الشيعة أهمية كبرى على

كعادته ففتح الله عينيه فابصر في صينية القربان
طفلا جميلا نبيلا وفي وقت القسمة ابصر الكاهن
وقد ذبحه وصفى دمه في الكاس وفصل لحمه
قطعة قطعة في الصينية، فبهت الهاشمي ولم
يستطيع الحركة، ثم خرج الكاهن يقرب الشعب
باللحم وكذلك الشماس بكاس الدم وهو
ينضرهما [ينظرهما] فتعجب وقال لجنده: الا ترو
هذا الفاعل الصانع. يعني الكاهن، قالو له: نحن
نراه. قال لهم: نصبر لهذا ياخذ طفلا يذبحه

هذا الحديث، اذ يعتبرونه بمثابة مبايعة علنية من الرسول لعلي بن أبي طالب.

أثار احياء الشعائر الشيعية في مصر، استياء المصريين السنيين، لما كان يقترن بها في كثير من الأحيان من اعتداءات الشيعيين والمغاربة عليهم. ولم ينشأ التوتر بين المصريين والمغاربة الشيعيين من احياء الشعائر الشيعية وحدها . بل أدى انحياز الفاطميين الى المغاربة والاعتماد عليهم في ادارة شئون دولتهم الى استغلال نفوذهم في الحاق الأذى بالمصريين. فقاموا بنهب أملاكهم واغتصبوا الدور وأجلوا السكان عنها مما حمل المصريين على رفع شكاياتهم الى المعز، فأصدر أوامره الى المغاربة باخلاء هذه الدور والانتقال الى نواحي عين شمس، وعين بنفسه المواضع التي ينزلون فيها، وأقر المال المطلوب للبناء. كما جعل لهم واليا وقاضيا، عهد اليهما بالنظر في أحوالهم.

أما عن سياسة الخليفة المعز لدين الله الخارجية، فانه وجه سياسته بعد قدومه من المغرب الى مصر سنة ٣٦٢هـ الى القضاء على ما بقي للقرامطة من نفوذ ببلاد الشام، وتحقيقا لهذا الغرض رأى أن يستعين ببني الجراح من بني طيئ على استرداد هذه البلاد، كما قرب اليه ظالم بن موهوب العقيلي بعد انصرافه عن تأييد الحسن بن أحمد أمير القرامطة في بلاد البحرين، وأسند اليه ولاية دمشق (رمضان سنة ٣٦٣هـ)، فقبض على وليها أبي المنجا القرمطي وعلى

ويقسم لحمه على هذا الجمع العظيم ويسقيهم من دمه. فقالو له: الله يوفقك يا سيدنا ما نرى نحن الا خبز وخمر. فزاد خوفه وتعجبه وبقو الشعب متعجبين لوقوفه باهت ولم يفعل بالقربان ما جرت به عادته، فلما فرغ الكاهن وخرجو الناس استدعى الكاهن وقال له ما راه، فقال له: يا سيدنا اعيذك بالله ما هو الا خبز وخمر. فلما علم ان هذا السر ما ظهر الا له فقط فقال له: اريد تعرفني سر هذا القربان وبدايته. فعرفه الكاهن كيف كان

كثير من أتباعه القرامطة، وبذلك تم استعادة سلطان الفاطميين على بلاد الشام، وواصل المعز طيلة خلافته العمل على القضاء على الصعوبات التي واجهت حكمه في تلك البلاد.

كذلك عمل المعز على الاحتفاظ بنفوذ الفاطميين في أفريقيا والمغرب، فلما عزم على الرحيل الي مصر، أسند ولاية هذه البلاد الي بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجي، كما حرص على ابقاء السيادة الفاطمية على جزيرة صقيلة، غير انه لم جعل لوالي أفريقية والمغرب حكما على صقيلة، بل صار يلي أمورها وال مستقل من قبله، أجيز له الرجوع اليه في تصريف شئون ولايته.

٢. خلافة العزيز بالله:

لما توفي المعز سنة ٣٦٥هـ خلفة ابنه العزيز. وقد عنى بنشر المذهب الشيعي، وحتم على القضاة أن يصدوا أحكامهم فق هذا المذهب، كما قصر المناصب الهامة على الشيعين، وحتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق هذا المذهب.

كذلك اتسم عهد العزيز بالتسامح مع النصارى لما كان بينه وبينهم من صلة النسب، اذ تزوج من نصرانية وعين أحد أخوايها بطريكا للملكانيين ببيت المقدس سنة ٣٧٥هـ، وعين الثاني مطران للقاهرة، ثم رقى في عهد الحاكم بأمر الله بطريركا للملكانيين بالاسكندرية. وبلغ

السيد المسيح اخذ الخبز والشراب فقسم ذلك على تلاميذه وقال لهم خذو وكلو هذا هو جسدى واشربو هذا دمى اشربو منه كلكم غفرانا لخطايكم، وعلمونا التلاميذ صلاة نقولها على الخبز والخمر اذا جعلناهما على المذبح فيتحول الخبز يصير لحم ويصير الخمر دما سرا كما اراك الله اليوم وهما في الظاهر خبز وخمرلانه ما يقدر احد فى العالم ياخذ لحما نيا ولا يشرب دما غبيطا وانما الله اظهر لك هذا السر الخفى الحقيقى المقدس

من عطف العزيز على المسيحيين أن أحتفل بعيد النيروز و خميس العهد وعيد الميلاد مشاركة لهم فى شعورهم.

وقد اتخذ العزيز يعقوب بن كلس وزيراً له. وكان هذا الوزير مشغوفا بالعلوم والآداب، وكان يعقد مجالسه العلمية تارة بالجامع الأزهر وطوراً بداره، يقرأ فيها مصنفاته على الناس، ويحضر هذه المجالس القضاة والفقهاء والقراء وغيرهم من وجوه الدولة. ولم يقف اهتمام يعقوب بن كلس بالنشاط العلمى عند هذا الحد ، بل اشار على العزيز بتحويل الأزهر من مسجد تقام فيه الصلاة الى معهد للدراسة، ونقل اليه الكثير من الكتب والمصاحف. وقد خصص العزيز لأساتذة هذا الجامع أرزاقا شهرية ثابتة كما قدم لطلابه المأكل والمسكن وكل ما يوفر عليهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة.

أما عن سياسة العزيز الخارجية، فانه لما تفاقم خطر القرامطة فى الشام ، عهد الى جوهر بمحاربتهم سنة ٣٦٦هـ، فأحلوا به الهزائم، من ثم لم يجد العزيز بدا من الخروج بنفسه للقضاء عليهم، فسار الى بلاد الشام وانتصر على القرامطة وأفتكين التركى، الذى انضم اليهم وجاء به أسيرا الى القاهرة ، ثم عفا عنه وعامله معاملة قوامها العطف والرعاية.

كذلك أعد العزيز فى سنة ٣٧٧هـ، حملة بحرية لغزو بلاد الروم. وعلى الرغم من أن هذه الحملة لم تحقق أغراضه لاحتراق مراكبها، فان رسل امبرطور الروم قدمت الى مصر تحمل

خلاص لنفسك، ثم انه قرى عليه كتب الكنيسة وبين له سراير المذهب المسيحى حتى طاب قلبه بالدخول فيه، وعرف شرفه وحقيقته، وتحقق علومه وصحته، فامر اصحابه بالانصراف وبات هناك مع الكاهن وعمده بالليل وصار نصرانيا، فلما كان بالغداة اتاه اصحابه بالدابة طردهم ولم يكلمهم، فلما علمو الخبر مضو الى ابوه واعلموه فصار فى حزنا شديدا وانفذ احضره بغير اختياره وخاطبه باللين والصعب وتعب معه بكل فن واجتهد به

هدية للعزيز وتطلب عقد صلح بين الدولتين . واشتملت الهدية على ثمان وعشرين صينية من الذهب ، فأجاب الخليفة الفاطمى طلب هؤلاء السفراء واشترط للصلح عدة شروط منها:

١ـ أن يطلق البيزنطيون سراح من عندهم من الأسرى المسلمين.

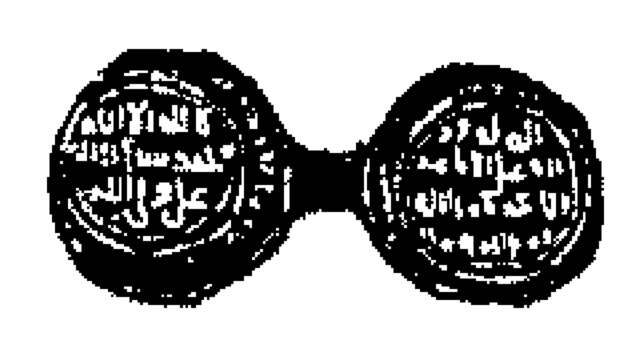
٢ـ أن يدعى للخليفة العزيز بجامع القسطنطينية فى خطبة الجمعة.

٣ـ أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين مدة سبع سنوات .

لم يكن لهذه الهدنة أثر كبير فى وقف تيار الحرب بين الفاطميين والبيزنطيين فلما علم العزيز بتقدم البيزنطيين فى شمال الشام ، استقر رأيه على أن يسير بنفسه لصد قواتهم، فجهز حملة برية، كما أمر بانشاء أسطول يسير بحرا الى طرابلس. ولم يكد يتم اعداد الأسطول حتى اشتعلت فيه النيران فى ميناء المقس وأحترقت منه سته عشر مركبا، فثار المصريون بالروم الذين كانوا يقيمون على مقربة من دار الصناعة بالمقس واتهموا بتدبير مؤامره احراقه. وما لبث العزيز أن قضى على الاضطرابات التى حدثت بالقاهرة بسبب احراق الأسطول، وأمر بانشاء أسطول آخر . ولما تم بناؤه أبحر الى طرطوس[١] . غير أن معظم سفنه لم تلبث أن تحطمت فى البحر على اثر هبوب عاصفة عليها، وأسر الروم بعض رجال الأسطول المصرى. أما الحملة

(١) من أعمال اللاذقية بسوريا وتقع على ساحل البحر.

واكثر من السوال له فى وقت والتخويف فى وقت فلم يقدر منه على شى ولا رجع عن رايه، فعند ذلك اسلمه للعذاب فعذب عذابا شديدا فلم يرجع عن امانته، فقطعت راسه بالسيف على اسم السيد المسيح وتمت شهادته. بركاته تحل علينا وشفاعته تكون معنا، فاما جسده المقدس فاكرموه وعظموه النصارى ببغداد وبنو عليه بيعة وهى الان تعرف بكنيسة الهاشمى.



نقود الحاكم بأمر الله

ولما كمل القديس بولس ابن رجا عمارة

البرية ، فخرج على رأسها الخليفة العزيز الى بلبيس. ولكن المرض اشتد عليه فجأة، فتخلف بها وتوفى سنة ٣٨٦هـ (٩٩٦م).

٣. خلافة الحاكم بأمر الله:

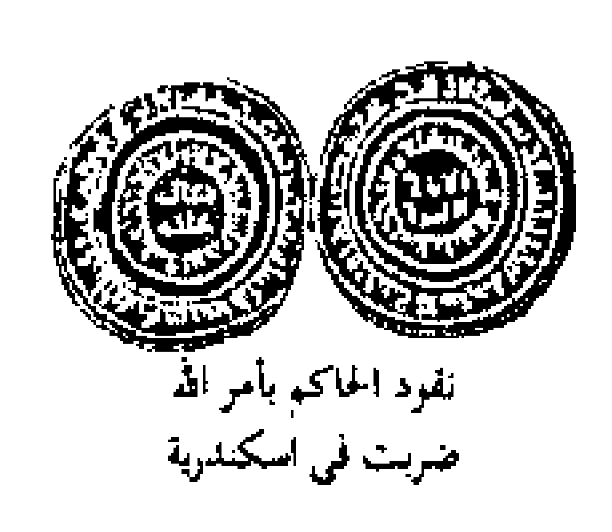
خلف العزيز ابنه المنصور الذى لقب بالحاكم بأمر الله، وله من العمر احدى عشرة سنة ونصف سنة، فقام بالوصاية عليه مربيه برجوان الصقلى، وتقلد أبو الحسن بن عمار زعيم الكتاميين الوساطة، وهى دون الوزارة فى الرتبة.

على أن الحاكم، شعر رغم حداثته بخطورة منصب الخلافة الذى يتقلده، كما فطن الى حرص برجوان على الاستئثار بالسلطة واستهتاره به الى حد الاساءة اليه، فأضمر له الكراهة وعهد الى الحسين بن جوهر بقتله سنة ٣٩٠هـ.

بذل الحاكم جهودا كبيرة فى نشر الدعوة الفاطمية، واضطهد أهل الذمة والمسلمين غير الشيعيين ، غير أنه لم يستمر على هذه السياسة، فخفف من مظاهر تعصبه للمذهب الفاطمى، وأنشا مدرسة لتعليم المذهب السنى.

ولما اشتد تيار المجون فى عهد الحاكم، وأصبحت بعض نواحى القاهرة تغص بالملاهى وبخاصة شواطئ الخليج المصرى، فرض قوانين جديدة لمكافحة الانحلال الاجتماعى، ضيق فيها على حرية النساء، وحرم سماع المغنين والمغنيات، وفرض قيودا على بعض أنواع المآكل

الكنيسسة التى لميكاييل فى راس الخليج عـاد الى وادى هبيب واقام هناك سنتين، فلما رات الرهبان ما هو عليه من العبادة والعلم والمعرفة مسكوه قهرا وقسموه قسا فى اسكنا بنيامين المقدسة، فطالبوه تلاميذ البطرك بدنانير كعادتهم فصعب ذلك عليه جدا ولم يكن معه شى فراهم [فشاهدهم] بعض الاراخنة يطالبوه وقد ازعجوه بالطلب فدفع [الاراخنة] لهم عنه ما طلبوه.


نقود الحاكم بأمر الله
ضربت في اسكندرية

فلما بلغ خبره لابوه انه قد صار قسيسا لم يصبر

والمشرب، وأمر باتلاف أشجار الكروم المزروعة فى أنحاء الديار المصرية خشية استعمال العنب فى صنع الخمر.

حذا الحاكم حذو المعز والعزيز فى الاهتمام برصد النجوم ، ومعرفة ما وراءها من الأحداث. وفى الوقت الذى كثر فيه شغف الحاكم بالخروج لزيارة مرصده الذى أقامه بجبل المقطم لرصد النجوم، جاء الى مصر بعض دعاة الشيعة من بلاد الفرس. وكان أعظمهم تأثيرا فى السنوات الأخيرة من عصر الحاكم: حمزة بن على الزوزنى وحسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم، ومحمد ابن اسماعيل الدرزى. وكان من القائلين بألوهية الحاكم. وقد شرح دعوته وأصول مذهبه فى رسالة قدمها الى الحاكم ، فقربه اليه وارتفعت منزلته عنده.

وقد أثار اعلان محمد بن اسماعليل الدرزى أصول مذهبه فى الجامع الأزهر بعض رجال الدين فصاروا يتعقبونه حتى اضطر الى الرحيل عن مصر الى الشام حيث نزل ببعض قرى بانياس، وهناك . أخذ ينشر دعوة تأليه الحاكم، وتمكن أن يستميل الى جانبه كثيرا من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون باسم الدرزية.

اكتنف الغموض نهاية حياة الحاكم، فقيل انه ركب فى ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال سنة ٤١١هـ(١٠٢١م)، قاصدا جبل المقطم لرصد النجوم، ولم يعرف بعد ذلك مصيره. وبينما يروى بعض المؤرخين، أن أخته ست الملك، دبرت وقتذاك مؤامرة لقتله لأنه اتهمها فى أخلاقها، نرى فريقا آخر من المؤرخين يبرئ ست الملك من جريمة قتل أخيها

عليه قلبه بل انفذ دنانير الى عند بعض العربان الذين فى تلك البرية ليقتلوه، فلما سمع [ذلك] بعض الرهبان اعلموه وقالو له: قد فعلت ما يجب واظهرت اسم المسيح فى الموضع الذى لا يجب اظهاره، والان فلا تسلم نفسك للموت لكن امضى الى الريف فكن فيه مخفيا، فاطاعهم وخرج الى سندفا [جزء من المحلة الكبرى] فاقام فيها سنتين وصار قيم فى كنيسة الشهيد تادرس ملازما لخدمتها ليلا ونهارا، فدخل الشيطان فى

الحاكم، ومن بينهم يحيى بن سعيد الأنطاكى الذى بدأ فى كتابة تاريخه سنة ٤٠٥هـ، اذ تحدث عن مصرع الحاكم دون أن يذكر شيئا عن صلة أخته بهذا الحادث ومن ذلك الفريق أيضا المقريزى الذى قال ان اتهام ست الملك بقتل أخيها جاءنا من كلام المشارقة.

ومما يذكر للحاكم، اهتمامه ببناء كثير من المنشآت، فأتم مسجد أبيه العزيز الذى يعرف الآن بجامع الحاكم، كما شيد جامع المقس وزاد فى بناء الجامع الأزهر، ووقف عليه الأوقاف الكثيرة ونقل اليه كثيرا من الكتب، وفضلا عن ذلك فقد أسس دار الحكمة سنة ٣٩٥هـ لدراسة فقه الشيعة وعلوم اللغة والفلك والطب والرياضة والفلسفة والمنطق والتنجيم كما زودها بمكتبة عرفت بدار العلم حوت الكثير من الكتب فى سائر العلوم والآداب.

٤. خلافة الظاهر لاعزاز دين الله:

كان الخليفة الحاكم قد وقع اختياره سنة ٤٠٤هـ على ابن عمه الأمير أبى القاسم عبد الرحيم بن الياس بن أحمد بن المهدى، ليكون ولى عهده على الرغم من أن له ولدا يسمى أبا الحسن على فى التاسعة من عمره. وكان يعيش مع أمه فى قصر عمته ست الملك خوفا من قسوة أبيه عليه.

أفرد الحاكم لولى عهده عبد الرحيم مكانا فى قصره، ودعى له على المنابر وضربت باسمه السكة. وكان فى بعض الأحيان ينيبه فى الاشراف على شئون الدولة أثناء طوافه بأنحاء القاهرة، وظل على هذه الحال الى أن عينه سنة ٤٠٩هـ واليا على دمشق.

قلب قوما منهم فاذاعو خبره في سندفا والمحلة [الكبرى] وتحدثو بقضية حاله، فكان ذلك قبل وفاته بيومين، واتفق حضور شماس من اهل منوف اسمه تيدر ابن مينا وكان يوميذا كاتب السنوديقا بكرسي مارى مرقس البشير وهو الذى اخذت انا الحقير ميخاييل ناظم هذه السيرة خدمته بعد وفاته، فلما دخل البيعة المذكورة بسندفا فوجد القديس بولس ابن رجا وهو مريض بحما شديدة فقال له بولس المذكور مطانوه: لا تفارقني حتى توارينى

على أن تعيين عبد الرحيم وليا لعهد الحاكم، لم يلق قبولا من أخته ست الملك وكبار رجال الدولة، فلما توفى هذا الخليفة سنة ٤١١هـ، بويع ولده أبو الحسن على بالخلافة في يوم عيد الأضحى من هذه السنة، ولقب بالظاهر لاعزاز دين الله، وهو في السادسة عشرة من عمره.

وقد قامت ست الملك عمة الخليفة الظاهر بالوصاية عليه، في الفترة الأولى من حكمه، فتولت تدبير شئون الدولة وتوطيد دعائمها، ببراعة وحزم نادرين، وبعثت في طلب ولى العهد السابق الأمير عبد الرحيم بن الياس من دمشق، ثم لم تلبث بعد ذلك أن رأت في بقائه خطرا على الخلافة، فدست عليه من قتله.

رأت ست الملك خلال فتره قيامها بالوصاية على ابن أخيها أن تعيد النظر في جميع الاقطاعات والمنح التى قررها الحاكم والتى غدت عبئا ثقيلا على موارد الدولة، فألغت معظمها وردت ما أبطله الحاكم من المكوس.

لم يخل عهد وصاية ست الملك، من بعض أعمال العنف، فرأت أن تتخلص من الوزير الخطير رئيس الرؤساء أبو الحسن عمار بن محمد، خشية من نفوذه وتأثيره على الظاهر الذى كان مشغوفا بملازمته، وانتهى الأمر بقتله في ربيع الأول سنة ٤١٢هـ، فخلفه بدر الدولة أبو الفتوح موسى بن الحسين في المحرم سنة ٤١٣هـ، لكنه مالبث أن قبض عليه وقتله وولى الوزارة بعده الأمير شمس الملوك المكين مسعود بن طاهر.

التراب وتاخذ البركة فما بقي لي في العالم الا يومين فاذا انا قبضت فبادر بدفني قبل ان يعلمو المسلمين فياخذو جسدى فيحرقوه بالنار. وكان قوله روح نبوة تكلمت فيه، فلما كان بعد يومين تنيح كما قال فاذاع الشيطان خزاه الله خبره في المحلة وسندفا، فعدو اهل المحلة الى سندفا واجتمعو اهل المدينتين في اقل من ساعة وحاطو بالبيعة التى تنيح فيها، فتحير الشماس تيدر المقدم ذكره ولم يدرى ما يعمل بجسده، وفيما هو هو حاير يمشى

لما توفيت ست الملك سنة ٤١٥هـ، استقل الخليفة الظاهر بادارة شئون الدولة، فأبدى اعتدالا وروية في الأعمال، وجنح الى الحلم والتواضع. وأعلن بعد مضى ثلاثة أعوام على وفاة الحاكم براءته من دعوى الألوهية التي قيلت في أبيه وأسلافه. وكان متأثر في ذلك برغبته الصادقة في تطهير مصر من هذه الفتنة. ولا غرو فقد عرف هذا الخليفة بميله الى استعمال العنف في مطاردة الخارجين على الدين، فأصدر الأوامر بتتبعهم في سائر البلاد، كما جاهر بانكارما ادعاه بعض الناس من تأليه آبائه، وهدد كل من تحدثه نفسه بذلك في رسالة أذاعها على المصريين.

أسند الخليفة الظاهر سنة ٤١٨هـ، منصب الوزارة الى نجيب الدولة على بن الجراجراني. وكان هذا الوزير من جرجرايا ـ احدى قرى بلاد العراق، ثم انتقل الى القاهرة، في عهد ابيه الخليفة الحاكم بادارة بعض الدواوين. ولما أساء التصرف فيها، أمر بقطع يديه من المرافق، وعينه واليا على ديوان النفقات سنة ٤٠٩هـ. وظل ينتقل في بعض الوظائف الادارية ببلاد الصعيد الى أن اختاره الظاهر، وزيرا له، فاتخذ القاضى أبا عبد الله القضاعى كاتبا له، ونظم شئون الدولة، كما أظهر حرصا شديدا على أموالها.

وكان الظاهر على النقيض من أبيه في سياسته تجاه أهل الذمة، فلم يكد يتولى الخلافة، حتى عمل على اكتساب عطفهم، بأن أصدر بيانا، أعلن فيه أنهم أحرار في عقائدهم

فى البيعة نزلت رجله تحت العتبه فتامل الموضع فوجده مطمورة حسنة نظيفة مخفية، فانزل جسد القديس بولس فيها واردم التراب واعاد البلاطة كما كانت عليه واصلح الموضع كما يجب، ثم فتح الباب فدخل اوليك المجتمعين وطلبو جسده فلم يجدوه، فطافو البيعة كلها فلم يجدوه فخرجو مخزيين.

وهذا الشماس تيدر هو الذى شرح لى حال هذا القديس بولس ابن رجا من اوله الى اخره عن

وشعائرهم وأنه لا اكراه فى الدين، وأن من آثر منهم الدخول فى الاسلام اختياراً من قلبه وهداية من ربه، فليدخل فيه مقبولا مبرورا، ومن آثر بقاءه على دينه من غير ارتداد كان عليه ذمته وحياطته..

كذلك وجه الظاهر عنايته الى ترقية شئون البلاد، وتحسين حالة الزراعة، فأمر بمنع الناس من ذبح البقر و أباح ذبح الحيوانات التى لاتستخدم فى حرث الأرض وذلك على أثر الوباء الذى أصاب بعض الأنعام. وكتب الى الناس كتابا، جاء فيه:

«ان الله تعالى بتتابع نعمته وبالغ حكمته خلق ضروب الأنعام وعمل فيها منافع الأنام، فوجب أن تحمى البقر المخصوصة بعمارة الأرض المذللة لمصالح الخلق، فان فى ذبحها غاية الفساد وضرار للعباد والبلاد».

ولم يقم الخليفة الظاهر ببناء كثير من المنشآت لانشغاله بضبط الأمور فى داخل البلاد المصرية. وقد تم فى عهده بناء قصر اللؤلؤة ويعد من أجمل القصور التى بنيت فى القاهرة فى عهد الفاطميين. وكان الظاهر يتنزه فى هذا القصر، كما كان بعض الخلفاء يختلفون اليه فى وقت فيضان النيل. وقد ظل حافظا لرونقه الى أن وقع الغلاء بمصر فى عهد المستنصر بالله الفاطمى، واضطربت الأمور فى البلاد من جراء النزاع بين الجند السودانيين والأتراك، فاصابه بعض التلف.

حكايته له من فمه الصادق فكتبت ما قاله، وحكى عنه انه قال كلما جرى على من العذاب وما حل بى من الهوان لم يقلقنى غير ثلثة اشيا وهى مجامعة اخى لسريتى قدامى، وتغريق ولدى منها قدامى وانا انظره، واعظم منهما البطرك يبصرنى وتلاميذه يطالبونى بالدنانير على قسمته لى قسيسا وهو ساكت لا يمنعهم ولا يردعهم.



نقود المستنصر

وكان الاب فيلاتاوس البطرك مستمر على جمع

على أن الأمر الذى يسترعى النظر فى خلافة الظاهر، هو ما كان من تقلص نفوذ الفاطميين فى كل من بلاد الشام والحجاز بعد أن توطدت سلطتهم فيها أيام المعز والعزيز. ويرجع السبب فى ذلك الى ميل الظاهر للتسلم، ومن ثم لم يركز اهتمامه على استعادة نفوذ مصر على هذه البلاد.

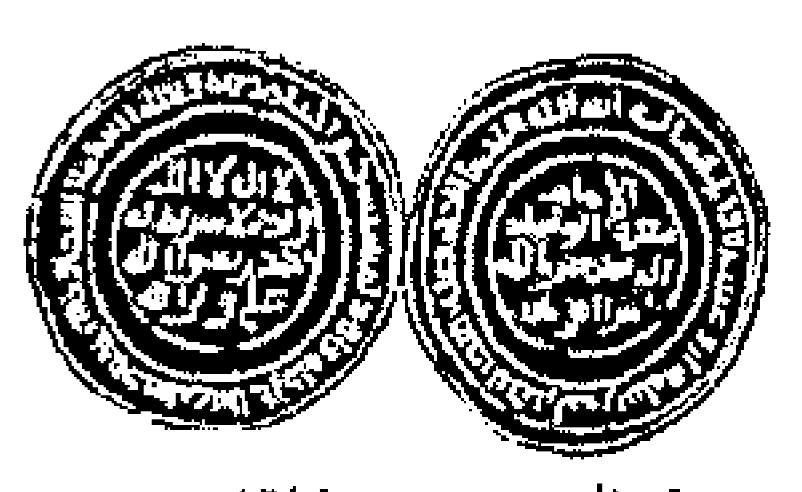
لم يستمر الظاهر طويلا فى الخلافة، فقد توفى فى منتصف شعبان سنة ٤٢٧هـ ببستان الدكة بالمقس، وأخذ الوزير الجرجرائى البيعة لابنه أبى تميم معد ـ وكان فى السابعة من عمره ـ وتلقب بالمستنصر بالله.

٥ـ خلافة المستنصر بالله:

ازدادت فى أوائل عهد المستنصر سلطة أبى سعيد ابراهيم بن سهل التسترى اليهودى. ويرجع السبب فى ذلك الى أن أم الخليفة كانت من قبل أمة فى بيته، ثم أهداها الى الظاهر، فأنجبت منه ابنه تميم معد الذى ولى الخلافة بعده وتلقب بالمستنصر. وسرعان ما علا شأن التسترى عند هذا الخليفة، وأخذ يتدخل فى شئون الدولة.

وعندما توفى الجرجرائى سنة ٤٣٦هـ، خلفه فى الوزارة أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى الذى عمل على التخلص من التسترى لاستئثاره بالسلطة دونه، وحدث فى هذه الأثناء بعض أحداث ساعدت الفلاحى على تحقيق غرضه، ذلك أن أهالى البحيرة قاموا بثورة،

المال والاكل والشرب، وقيل انه بنا حمام في داره وكان يدخلها كل يوم واذا خرج يبخر ببخور طايل جـدا ثم يجلس يحكم ويامـر وينهي الى اربعـة سـاعات من النهار ثم يقوم، واذا كـانت سـادس ساعة يهيا له من الطعام والشراب ما يحتاج اليه وفـواكـه ويقـوم يدخل داره ويحـضـر عنده قـوم عادتهم جارية ان يجالسوه وينادموه من اهل دمرو ومن اهله واقاربه فيـاكل معهم ويشرب ولا يصل اليـه احدبقية يومه الى تاني يوم، ودفعات كثيرة



نقود المستنصر ضربت سنة ٤٢٨ هـ

فأنفذ اليهم المستنصر جيشا تحت قيادة عزيز الدولة ريحان، ولما تمكن من اخماد ثورتهم وانتصر عليهم شمله الخليفة بعطفه ورعايته وقربه اليه. وقد عمل ريحان على اكتساب رضاء المغاربة، فزاد في أعطياتهم وقلل من أعطيات الأتراك، مما أثار التخاصم والنزاع بين الفريقين. ولما توفي ريحان، انتهز الوزير الفلاحي هذه الفرصة ونال من خصمه التسترى الذى كان يحقد عليه لاستبداده بالسلطة، فأذاع بين الجند أن التسترى دس السم لريحان، فانقض عليه ثلاث من الأتراك وقتلوه. غير أن ذلك لم يحمل المستنصر على صرف آل التسترى عن مناصب الدولة، فأسند الى أخيه أبي نصر ديوان خاصته، وقلد ابنه ادارة أحد الدواوين.

لم يكن قتل التسترى مكروها لدى المسلمين لانحيازه الى أبناءجلدته من اليهود، واسناده مناصب مناصب الدو لة اليهم. وقد عبر ابن البواب ـ أحد الشعراء المعاصرين ـ عن استئثار اليهود بالسلطة في هذه الأبيات:

يهـــود هذا الزمـــان قـــد بلغـــوا
غـــاية آمـــالهم وقـــد ملكوا

العـــز فـــيــهم والمال عندهم
ومنهم المســـتـــشـــار والملك

يجلس للاكل والشرب من بكرة او ثالث ساعة من النهار ما خلا الايام التى يجب فيها الصوم.

فلما استمر على ذلك ادبه الله بضربه لامر صادفه، وذلك انه فى بعض الايام فى الحمام ومعه تلميذه يخدمه فخرج ياخذ دلوك [طعام، وهو الثريد] وعاد فوجده مطروحا لا يعى ولا يفيق، فحمله واخرجه منها واحضرو له الاطبا وتعبو فى مداواته فلم يقدرو له على حيلة لان يد الرب ضربته وبقى هكذى الى يوم وفاته.



نقود زجاجية مضروبة
فى عهد الدولة الفاطمية.

يا أهل مصر انى قد نصحت لكم

تهودوا، فقد تهود الفلك

كانت مصر فى أوائل عهد المستنصر تتمتع بكثير من الطمأنينية والرخاء، ويتبين لنا ذلك مما ورد فى كتاب سفرنامه لنا صرى خسرو، الذى طاف فى كثير من بلاد العالم الاسلامى فى القرن الخامس الهجرى، ومن بينها مصر، فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ولاحظ أنها تتمتع بكثر من الرخاء.

وصف ناصرى خسرو مدينة القاهرة المعزية، فى الوقت الذى زارها فيه بين سنتى ٤٣٩، ٤٤١هـ، فقال انه كان بها مالا يقل عن عشرين ألف دكان، يؤجر كثير منها بعشرة دنانير فى الشهر، وليس بينها الا قليل، تبلغ أجرته دينارين فى الشهر. وكان فيها من الخانات والحمامات مالا يمكن حصره.

وكان قصر الخليفة فى وسط القاهرة، وبينه وبين الأبنية المحيطة به فضاء يفصله عنها، ويقوم بحراسته فى الليل خمسمائة فارس وخمسمائه حارس من الرجالة. وكانت أسواره عاليه، فلا يستطيع أحد رؤيته من داخل المدينة. وكان للقصر عشر بوابات فوق الأرض، وباب يقود لاى ممر تحت الأرض، يعبره الخليفة ليصل الى قصر آخر.

على أن هذا الرخاء الذى كانت تتمتع به مصر فى أوائل عهد المستنصر لم يدم طويلا،

وكان الملك العزيز لله ابن المعز لدين الله قد رزق ولدا من سرية له رومية وجلس في الملك بعده ولقب بالحاكم بامر الله، وكان للسرية المذكورة التى هى ام الحاكم اخ اسمه ارسانى [يذكر باسم ارسطس Orestes] فجعلته بطركا للملكيه بعنايتها لان السلطان كان لها فقوى على بيعنا بفسطاط مصر، وكان لنا بقصر الشمع بيعتين على اسم الست السيدة الطاهره احدهما المعلقة والاخرى بزقاق ابو حصين، فاراد ان ياخذ المعلقة فجرت

جنديان من حراس الخليفة الفاطمى

فقد انخفض النيل سنة ٤٤٠ هـ، وانتشرت المجاعة في البلاد وحل بها الوباء، فاختل الأمن وعمت الفوضى.

وقد وجه الوزير أبو محمد الحسن اليازورى، الذى أسندت اليه الوزارة فى المحرم سنة ٤٤١ هـ، اهتمامه الى معالجة خطر المجاعة التى كانت تهدد البلاد، فاستولى على مخازن الغلال وقام بتوزيع ما فيها على الأهلين، وظل هذا الوزير فى منصبه حتى أول المحرم سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨م) حيث قبض عليه المستنصر بتهمة مراسلته طغرلبك السلجوقى ودعوته لغزو مصر، ثم أبعده الى تنيس [١] فظل محبوسا بها الى أن قتل فى ٢٢ صفر سنة ٤٥٠ هـ.

على أن الحالة لم تلبث أن رجعت بعد وفاة هذا الوزير الى ما كانت عليه من الفوضى، فتعاقب على الوزارة أربعون وزيرا فى تسع سنوات، كما قام نزاع بين عناصر الجيش، فاشتبك الأتراك مع الجنود السودانية الذين كانوا عماد الخليفة. ويرجع السبب المباشر فى قيام النزاع بين هاتين الطائفتين الى أن بعض الأتراك كان قد رفع سيفه على أحد السودانيين الذين كانوا فى ركاب المستنصر خارج القاهرة، فهجم عليه كثير من العبيد وقتلوه. وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر فى نفوس الأتراك، فساروا الى المستنصر وقالوا له: «ان كان هذا عن رضاك، فالسمع

(١) كانت تقع هذه المدينة على جزيرة فى بحيرة المنزلة. ولم تزل عامرة الى سنة ٥٧٣هـ (١١٧٧م) انظر الهامش العلوى ص٢٠٤.

لمقدمينا معه خطوب كثيراة وخصايم الى ان اخذ كنيسة السيدة بزقاق ابو حصين وبقيت المعلقة لنا.

(*) ملك الحبشه يطلب من ملك النوبه أن يتوسط له لدى البطرك فيلاتاوس ليرسل له مطران.

وفى ايامه انفذ ملك الحبشة(*) الى ملك النوبة كتابا واسمه جرجس وعرفه ما ادبه الرب به هو واهل كورته، وهو ان امراة ملكة على بنى الهموية ثارت عليه وعلى كورته وسبت منها خلق كثير واحرقت مدن كثير واخربت البيع وطردته من مكان الى مكان وان هذا الذى لحقه جزى [جزاء]

والطاعة وإن كان من غير رضى أمير المؤمنين، فلا نرضى بذلك». فأظهر لهم المستنصر براءته مما حدث. لكن الأتراك سرعان ما عدوا على محاربة السودانيين والتقوا بهم بناحية كوم شريك[1]، حيث أقعوا بهم هزيمة منكرة فاستاءت من ذلك أم المستنصر لأنها كانت تتخذهم عونا لفرض ارادتها، فأمدت العبيد بالأموال والسلاح سرا، ولما وقف الأتراك على هذه المساعدة، عادوا ثانيا الى محاربة السودانيين، غير أن المستنصر سرعان ما ندب الوزير أبا الفرج ابن المغربى ليصلح بينهم، فاصطلحوا صلحا يسيرا. ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى اجتمع السودانيون بالجيزة، وخرج اليهم الأتراك تحت قيادة ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبى، واشتبك الفريقان فى عدة معارك، انتهى الأمر فيها بهزيمة السودانيين، واستقرار خمسة عشر ألفا منهم بالصعيد، حيث عاثوا فى البلاد فسادا سنة ٤٥٩ هـ.

كان من أثر الهزائم التى لحقت بالسودانيين، أن استفحل أمر الأتراك، وأخذوا يطالبون الخليفة بزيارة مرتباتهم سنة ٤٦٠ هـ، فزاد فى أعطياتهم حتى بلغت أربعمائة ألف دينار فى كل شهر بعد أن كانت ثمانية وعشرين ألف دينار. غير أنهم لم يقنعوا بالمرتبات التى قررها لهم المستنصر، بل ألحوا فى زيادة مخصصاتهم. ولما أظهر لهم عجزه عن تلبية طلباتهم لقلة ايرادات الدولة، ألزموه ببيع ذخائره، فأخرج ما كان بقصره من الذخائر وأخذ الأتراك يقومونها

---

(١) احدى قرى مركز كوم حماده بمحافظة البحيرة.

عما كان الملك الذى قبله فعله مع المطران فى ايام الاب انبا قزما مما قد شرحناه اولا من تزويره وكذبه، وقال له فى الكتاب الذى انفذه له: احب ان تساعدنى وتشاركنى فى التعب منجل الله ومن اجل اتفاق الامانة، وتكتب كتاب من جهتك الى الاب البطرك بمصر تسله ان يحللنا ويحلل بلادنا ويصلى علينا ليزيل الله عنا وعن ارضنا هذا البلا، وينعم لنا بان يقسم لنا مطران كما جرت عادة اباينا ويدعى لنا بان يزيل الله غضبه عنا، وذكرت

بأبخس الأثمان. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل ارتكبوا أعمال العنف والشدة، ونهبوا قصر الخليفة وأخذوا ما كان فيه من الأسلحة والأوانى المصنوعة من الذهب والمرصعة، بالأحجار الكريمة. كما أغاروا على المكتبات ونهبوا ما فيها من الكتب، وباعوا كثيرا منها بثمن بخس.

كذلك عمد ناصر الدولة بن حمدان قائد الأتراك، بعد تغلبه على السودانيين الى الاستبداد بالأمور دونهم، كما استأثر بأموالهم.. وكان ذلك مما جعلهم يسعون الى الخلاصة منه، فرفعوا شكاياتهم من تصرفاته الى خطير الملك وزير المستنصر، فحسن لهم الخروج عليه ومناهضته، ثم توجهوا الى المستنصر وأظهروا له استياءهم من ناصر الدولة، فبعث اليه المستنصر يأمره بالرحيل عن مصر، فسار ناصر الدولة الى الجيزة، وما لبث الخليفة أن خرج على رأس فريق من جنده لمحاربته، وألحق به هزيمة ساحقة، فمضى منهزما فى نفر قليل من أصحابه الى اقليم البحيرة حيث انضم اليه فريق من الأعراب.

على الرغم من أن المستنصر، أظهر بعض الجرأة خلال هذه الاضطرابات وتمكن من هزيمة ناصر الدولة، الا أن سلطته لم تعد تتعدى فى الواقع حدود عاصمته، فبينما كان الجند السودانيون يثيرون الاضطرابات فى الوجه القبلى، كان نحو من أربعين ألف فارس من قبيلة لواته والأعراب تحت زعامة ناصر الدولة يغيرون على الوجه البحرى وينهبون بلاده، ويحطمون الجسور والقنوات مما ترتب عليه انقطاع المؤن والامدادات عن القاهرة والفسطاط. ولم يقف

لك ايهـا الاخ ذلك خـوفـا من ان ينقـرض ويبطل دين النصرانية من عندنا لان هوذا ستة بطاركة قد جلسـو ولم يلتـفـتـو الى بلادنا بل هي سايبـه بلا راعى، وقد ماتو اساقفتنا وكهنتنا، وقد خربت البيع وعلمنا انه بحكم حق نزل علينا هذا البـلا عـوضـا مما فـعلناه بالمطران. فلمـا وصلت الكتب الى جرجس ملك النوبه ووقف عليهـا انفذ من جهـتـه كتبا ورسلا الى البطرك فيلاتاوس وشرح له فيـهـا جميع ما ذكره ملك الحبشة وساله ان يترااف على

الأمر عند هذا الحد، بل ان ناصر الدولة، أرسل الى ألب ارسلان سلطان السلاجقة رسـولا من قبله، يسأله أن يرسل اليه عسكرا ليقيم الدعوة العباسية، على أن تؤول اليه السيادة على مصر، فـرحب ألـب أرسلان بذلك، غيـر أنه مالبث أن شـغل بمحاربة الروم، مما حـال دون تحـقـيق أطماعه.

ولما بلغ المستنصر مراسلة ناصر الدولة ألب أرسلان، وطلبه ارسال عسكر اليه، جهز جندا من الأتراك لمحاربته، فأوقع بهم ناصر الدولة الهزيمة، وغنم منهم مغانم كثيرة، وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسى فى الاسكندرية ودمياط، وجميع أنحاء الوجه البحرى، وحال دون وصول الأقوات الى القاهرة ومصر.

وكان مما زاد الحالة سواء، تلك المجاعة التى بدأت بانخفاض النيل سنة ٤٥٧ هـ، واستمرت سبع سنين، فقلت الأقوات بالقاهرة ومصر وغلت الأسعار. وقد عانى الأغنياء وكبار رجال الدولة من هذه المجاعة مثل ما عاناه الفقراء، واضطر بعض أصحاب النفوذ والأعيان الى مغادرة مصر والرحيل الى بلاد الشام والعراق.

رأى الجند الأتراك بعدما حل بهم وبالخليفة المستنصر من الشدائد بسبب المجاعة أن يصالحوا ابن حمدان على أن يظل مقيما واليا بالبحيرة، ويحمل اليه مبلغ مقرر من المال ويكون القائد

شعبة، فاجاب سواله ورسم لهم راهبا من دير ابو
مقار اسمه دانيال وانفذه لهم مطرانا فقبلوه بفرح
وازال الله عنهم الغضب وابطل امر الامراة التي
قامت عليهم.

وفي ايام هذا الاب ظهرت عجايب كثيرة شهد
بها الثقات الصادقين، منها ان الشمس اظلمت من
ثالث ساعة من النهار الى الساعة السادسة وكانت

تاج الملوك شاذى نائبا عنه، فرضى بذلك، وأرسل الغلال الى القاهرة ومصر، مما أدى إلى توفر القوت الضرورى للأهالى.

على أن تاج الملوك شاذى، سرعان ما نقض هذا الصلح، وصار لايرسل لابن حمدان الا القليل من المال، مما حمله على المسير فى جموع من العربان الى الجيزة حيث تمكن من القبض على تاج الملوك شاذى، كما أطلق لجنده العنان فى الفسطاط، فنهبوا دورها، وأشعلوا فيها النيران، فأنفذ اليهم المستنصر فريقا من الدولة وفرارهم الى البحيرة. لكن ناصر الدولة رغم ذلك واصل العمل على اضعاف شأن الخليفة الفاطمى والاستئثار بالحكم، فحذف فى سنة ٤٦٤هـ اسم المستنصر من الخطبة فى الوجه البحرى، وبعث الى الخليفة القائم بأمر الله العباسى ببغداد يلتمس الخلع، ثم قدم الى الفسطاط على رأس جيش كبير، وتولى الحكم فيها، وأرسل الى المستنصر، يطلب منه الأموال. وكان اذ ذلك قد امتنع بقصره.

كانت حالة المستنصر حين وفد اليه رسول ناصر الدولة تنبئ بزوال سلطان الخلافة عنه، فلما علم بذلك ناصر الدولة، أطلق للخليفة مائة دينار كل شهر، وبالغ فى اهانته، وأظهر ميله الى مذهب أهل السنة، واضطر كثير من أقارب المستنصر وأولاده الى الهروب للمغرب والعراق.

خشى الأتراك على أنفسهم من جراء استبداد ناصر الدولة بالأمور فى القاهرة، واقامته

الظلمة مثل الليل وظهرت النجوم فى السما وبكو الناس وحزنو وظنو انه امرا لا ينقضى، ومن بعد ذلك ترحم الله وظهرت الشمس.

وحكى سرور ابن جرجه ارشي دياقن اسكندرية انه حضر يوما فى بيعة مارى مرقس الانجيلى باسكندرية وفيها انبا فيلاتاوس البطرك ومعه جماعة من الاساقفة منهم انبا مرقس اسقف البهنسي وانبا سويرس اسقف ابو صير وان البطرك

الدعوة العباسية وعمله على ازالة خلافة الفاطميين، فاتفقوا على تدبير مؤامرة لقتله، وركب الى داره فريق منهم ذات ليلة، وانقضوا عليه بسيوفهم، ولم يكتفوا بذلك، بل تتبعوا كل أفراد أسرة بنى حمدان بمصر وتخلصوا منهم.

لم تنته الفوضى والاضطرابات التى تعرضت لها مصر بقتل ناصر الدولة بن حمدان، بل سرعان ما ازداد نفوذ قواد الأتراك واستبدوا بالأمور دون المستنصر، حتى ضاق بهم ذرعا، واضطر سنة ٤٦٦هـ أن يبعث الى بدر الجمالى والى عكا، يطلب منه القدوم ليتولى تدبير شئون دولته، واصلاح ما فسد من أمور مصر، فاشترط أن يحضر معه من يختاره من عساكر بلاد الشام، ليستعيض بهم عن الجند الأتراك والمغاربة والسودانيين الموجودين بمصر، فوافقه المستنصر على طلبه.

ولما أتم بدر الجمالى اعداد عدته للرحيل الى مصر، أبحر من عكا ومعه عدد كبير من جند الأرمن وغيرهم، ونزل بجنده دمياط حيث اقترض من تجارها بعض المال، ثم تابع سيره حتى وصل القاهرة على رأس جنده الأرمن، فاستقبله الجند الأترك استقبالا وديا لأنهم لا يعلمون شيئا عن نواياه نحوهم، ومالبث أن دبر مؤامرة للتخلص من قوادهم.

رحب الخليفة المستنصر بقدوم بدر الجمالى. وبلغ من تقديره لكفايته، أنه حين شرع فى العمل على توطيد الأمن واصلاح حال البلاد، خلع عليه بعقد من الأحجار الكريمة، وقلده

طلع الى هيكل مارى مرقس ووقف عل البلاطه
السودا وقدس فلما رفع الضورون [القربان]
اسكت فلم يقدر ينطق بكلمة فلقنوه الاسقفان
المذكوران الكلام فلم يقدر ينطق بكلمة واحدة
فجلس وطلع انبا مرقس اسقف البهنسي فكمل
القداس والتفصيل وقرب الشعب وحمل البطرك
الى دار ابو مليح ابن قوطين عامل اسكندرية وهو
والد ابو الفرج وعبيد، ولم يزال الاب البطرك
ساكتا الى تسع ساعات من النهار واسقوه طين

وزار ة السيف والقلم. كما زاد فى ألقابه السيد الأجل أمير ا لجيوش، كافل قضاة المسلمين وداعى دعاة المؤمنين.

كان يحيط ببدر الجمالى جنده الأرمن الذين عرفوا بالمشارقة، تمييزا لهم عن الأتراك والبربر والسودان، وتفانوا فى الاخلاص له، واحتفظ كثير منهم بديانتهم المسيحية، وكان يرافقهم بطرك خاص بهم ولم يظهر هؤلاء الأرمن تذمرا من البقاء فى مصر ، بل آثروا الاقامة بوطنهم الجديد، على العودة الى بلادهم، لتعذر حصولهم فيها على مقومات الحياة.

اتخذ بدر الجمالى مقرا لاقامته بحارة برجوان بالقاهرة. وعول على اعادة الأمن والاستقرار فى العاصمة، واستعادة كل ما يمكن أن تصل اليه يده من كنوز الخليفة التى نهبت من قصره. وعندما فرغ بدر الجمالى من اعادة الأمور الى نصابها فى العاصمة والفسطاط وجه اهتمامه الى بقية الأقاليم، فاتجه أولا نحو الوجه البحرى، فأخضع بنى لواته، كما توجه الى دمياط وقتل المفسدين ثم سار الى الصعيد سنة ٤٦٩ هـ، حيث كان الجند السودانيون وجماعة من عرب جهينة والثعالبة والجعافرة، يثيرون الاضطرابات فهاجمهم وأخمد حركاتهم، وأعاد نفوذ الخليفة على جميع الوجه القبلى حتى أسوان.

ولم تكن الحالة بالاسكندرية، أحسن منها فى غيرها من المدن المصرية فقد ثار بها سنة ٤٧٧ هـ، الأوحد على أبيه بدر الجمالى، والتف حوله جماعة من الأعراب، فسار اليه أبوه

ابيض وماورد [ماءورد]. فلما افاق سالوه الجماعة ان يعلمهم السبب فيما ناله فامتنع، فالحو عليه بالسوال، فقال: يا اولادى لما رفعت الضورون ومن قبل ان اصلب عليه رايت الشاق [الطاق] قد انشق وخرجت منه يد من راس الحنيه الى اسفل فصلبت اليد عل الضورون فانشق فى يدى واسكت للوقت. فلما قال هذا جف منه عضو وبقى جاف. وكانت مدة بطركيته اربعة وعشرين سنة وثمانية شهور، وتنيح فى اليوم الثانى عشر من هتور، وقيل

وقبض عليه، كما قتل فريقا من أتباعه، ثم صادر كثيرا من أموال أهالى الاسكندرية، وأنفق منها على بناء جامع العطارين الذى ظلت تقام به الخطبة الى أن استبد صلاح الدين بالأمور فى مصر سنة ٥٦٧هـ.

استطاع بدر الجمالى بعزمه ومهارته، أن يعيد الى البلاد المصرية ما كانت تتمتع به من رخاء قبل الشدة العظمى التى حلت بها، واستمرت سبع سنوات(٤٥٧ـ ٤٦٤هـ، فعاد الفلاحون الى الأرض يزرعونها، وتحسنت أحوالهم، بعد أن رفع عن كاهلهم بعض الأعباء المالية.

كذلك عنى بدر الجمالى بتحصين مدينة القاهرة، لصد هجمات المغيرين عليها، فأعاد بناء السور المحيط بالقاهرة المعزية، واستخدم الحجارة فى تجديده سنة ٤٨٠هـ. كما بنى باب الفتوح أيضا فى هذه السنة، فى مكان آخر، غير الذى بنى فيه جوهر بابه.. وتفيدنا النقوش التى عثر عليها أخيرا بسور القاهرة، أن هذا الباب كان يعرف بباب الاقبال. كذلك نقل بدر الجمالى باب النصر الذى بناه جوهر الى المكان الذى يوجد به الآن. وبنى فى سنة ٤٨٤هـ باب زويلة الكبير. وقد استعان بدر الجمالى فى تجديد بناء هذه الأبواب بثلاثة اخوة من مدينة الرها، بنى كل منهم باب.

على أن الأمر الذى يسترعى النظر فى سياسة بدر الجمالى فى مصر، أنه انتهز فرصة

عن اهله انهم وجدو له مالا عظيما من جملة ما جمعه في بطركيته وقسموه فيما بينهم وكانو اربعة اخوة ونفذ المال منهم. ورايت انا ميخاييل منهم انسان في زمان غلا وهو يتسول.

وفي ايامه مات العزيز ملك مصر وجلس ولده الحاكم(*) وكان صغيرا جدا وكانت له امور عجيبة وسنذكر شيا منها بمعونة الله الذى له المجد والقدرة الى ابد الابدين امين.

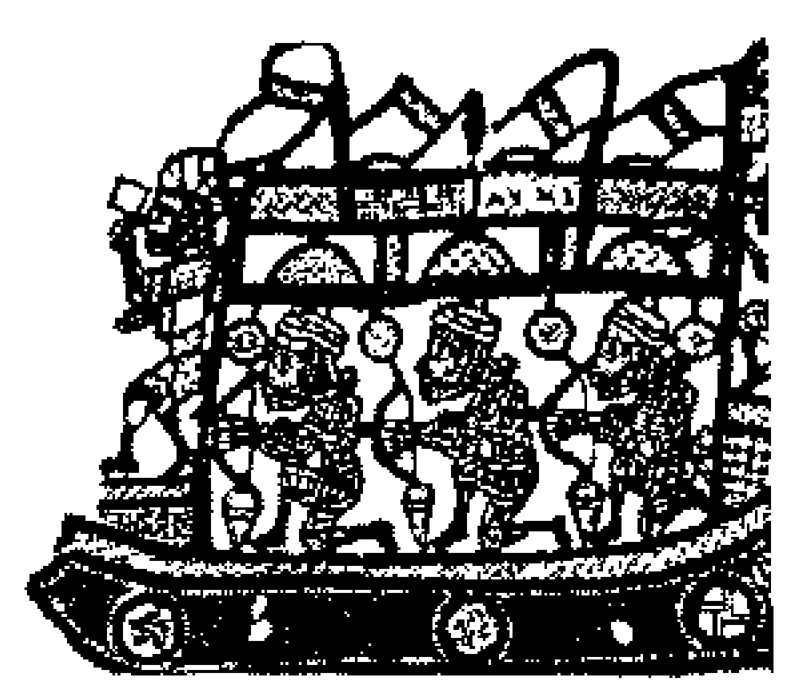
(*) وفاة الملك العزيز وتولى الحاكم بأمر الله مكانه.

استبداده بالسلطة في أواخر عهد المستنصربالله الفاطمي وعهد لابنه الأفضل الاستيلاء على مقاليد الأمور في الدولة فجعله ولي عهده. ولما توفى بدر في جمادى الأولى سنة ٤٨٧هـ، وهو في الثمانين من عمره، خلفه ابنه الأفضل شاهنشاه في الوزارة، وظل المستنصر في عهد وزارته كالمحجور عليه الى أن توفى في ١٧ ذى الحجة سنة ٤٨٧هـ.

***

أما عن سياسة الفاطميين الخارجية في عهد المستنصر بالله، فقد تركزت في العمل على الاحتفاظ بالسيادة الفاطمية في بلاد الحجاز، والابقاء على نفوذهم في بلاد اليمن، كما أن بلاد العراق كانت محط أنظار الفاطميين على اعتبار أنها مقر الخلافة العباسية، لذلك عهدوا الى دعاتهم بالرحيل الى العراق لنشر دعوتهم. وقد صادف هؤلاء الدعاة، كثيرا من النجاح في هذا السبيل، كما لقيت صفوف جند بني بويه، عدد غير قليل يميل الى الفاطميين. وكان ذلك مما مهد السبيل لنجاح أبي الحارث أرسلان البساسيرى في اقامة الدعوة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي من منابر بغداد منتصف القرن الخامس الهجرى. غير أن هذه الدعوة لم يكتب لها البقاء فترة طويلة، فسرعان ما دخل السلاجقة بغداد وأعادوا الخطبة للخليفة العباسى القائم بأمر الله.

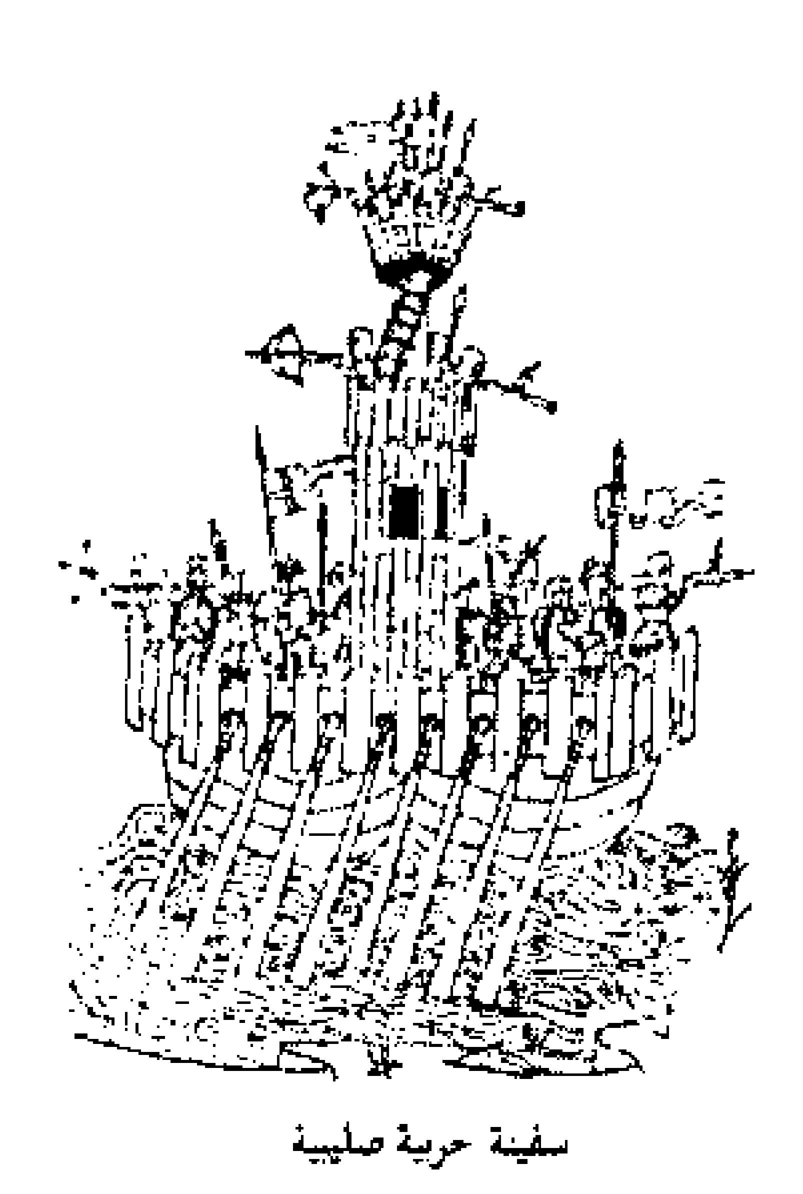
السيرة الخامسة والعشرين من سير البيعة المقدسة انبا زخارياس البطرك وهو من العدد الرابع والستون [١٠٠٣/ ١٠٣٢م]


سفينه حربية خفيفة فاطمية تحمل بعض الجنود المسلحين.

فلما كان فى مملكة الحاكم بامر الله المسمى الامام المنصور وكان كرسى اسكندرية خال اجتمع السنودس ليقدمو بطركا، وفيما هم يتشاورو كان باسكندرية رجلا موسرا اسمه ابراهيم ابن بشر وكان له كرامة عند الولاة وكلمن فى البلد يسمع

كذلك كان للفاطميين علاقات مع الدولة البيزنطية، اتسمت بالتوتر فى كثير من الأحيان، ويرجع السبب فى ذلك الى تهديد البيزنطيين الحدود الشمالية للشام، واستيلائهم على بعض المدن الشامية، وظل النزاع قائما بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية حتى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله حيث عقدت معاهدة صداقة بين هاتين الدولتين. غير أن هذه المعاهدة لم تؤد الى استمرار الوئام بين الفاطميين والبزنطيين، وصارت العلاقات بين الدولة الفاطمية فى عهد المستنصر وبين الدولة البيزنطية لا تستقر على حال، فقد تحسنت فى أوائل عهده، بعد أن عقد هدنة مع الامبراطور ميخائيل الرابع فى سنة ٤٢٩هـ(١٠٣٧م)، واستغل المستنصر، فرصة صفاء العلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية للعمل على انعاش الحالة الاقتصادية فى دولته، فأرسل على أثر المجاعة التى حلت بمصر سنة ٤٤٦هـ =١٠٥٤م إلى الامبراطور قسطنطين التاسع يطلب منه أن يمده بأربعة آلاف أردب من القمح، فأظهر الامبراطور استعداده لاجابة هذا الطلب، ولكنه لم يلبث أن توفى وخلفته الامبراطور تيودورا. فاشترطت لمعونه مصر، أن يمدها المستنصر بالجنود اذا ما اعتدى على بلادها أى معتد. غير أن المستنصر رفض هذا الشروط، فأجابته تيودرا على ذلك بأن حالت دون ارسال الغلال الى مصر، مما ترتب عليه توتر العلاقات بين الدولتين.

منه ويطيعه، وكان تاجر مكثر في بلاد مصر، وكان يهادى ويكرم مقدمى مصر، وكانو لا يخالفوه فيما يريد، فسال وطلب البطركية الى ان كتب له [الولاه] سجل وانفذو صحبته الى اسكندرية استاذين يساعدوه فيما يريد ويلزمو الاسكندرانيين بتقدمته بطركا عوضا من فيلاتاوس البطرك المتنيح لان النوبة كانت للاسكندرانيين في هذه الدفعة في اقامة البطرك. وكان المجمع



سفينة حربية صليبية

---

٦. خلافة المستعلي بالله:

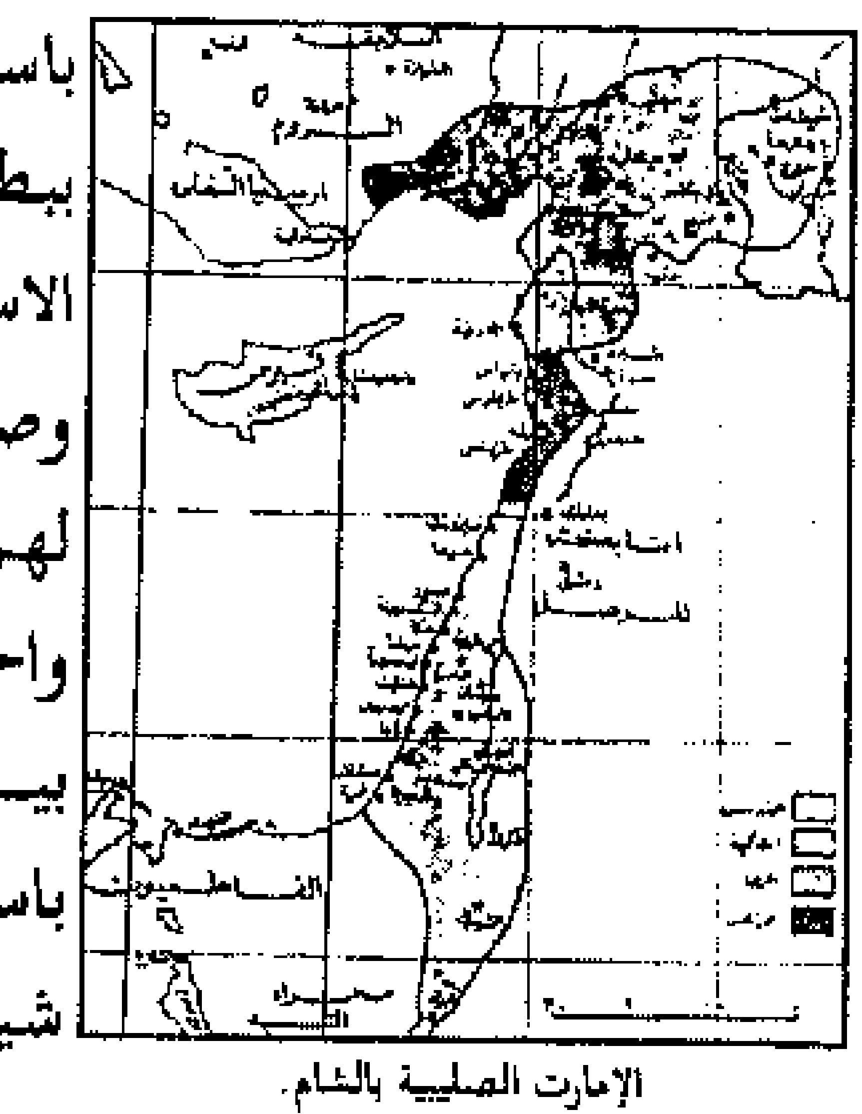
أخذ نفوذ الوزراء في الازدياد، منذ أواخر عهد المستنصر بالله، وبدأ ذلك باستئثار بدر الجمالى بالسلطة دون الخليفة، وتغالى ابنه الأفضل في اغتصاب حقوق هذا الخليفة، بل أقدم بعد وفاته سنة ٤٨٧هـ، على اقصاء ابنه نزار ولى عهده وأكبر أبنائه عن الخلافة، وبايع أخاه الصغير أبا القاسم أحمد الذى لقب بالمستعلي بالله في اليوم الثامن عشر من ذى الحجة ٤٨٧هـ.

كانت أم المستعلى، ابنه بدر الجمالى وأخت الأفضل، لذلك فان بدر يحبذ تعيينه خليفة بعد أبيه، كما حرص ابنه الأفضل على تحقيق هذه الامنية حين أراد المستنصر قبل وفاته أخذ البيعة لأبنه نزار على رجال الدولة، فتقاعد الأفضل عن ذلك وماطله حتى مات.

وكان الأفضل يعتقد أن نزارا اذا ولى الخلافة حال بينه وبين مناصب الدولة، على حين كان أبو القاسم أحمد صغير السن، فاذا ولاه الخلافة، أصبح مطلق التصرف في شئون الدولة.

ادى اقصاء نزار عن الخلافة رغم أحقيته لها الى اضطر ب الأمور في بعض البلاد المصرية، فخرج أهل الاسكندرية على طاعة الخليفة الفاطمى الجديد وانحازوا الى نزار بعد أن قدم اليهم مع أخيه عبد الله وبايعوه بالخلافة، ولقبوه المصطفى لدين الله، كما رحب به واليها ناصر الدولة أفتكين.

استقر رأى الأفضل بن بدر الجمالى بعد أن بلغه نبأ هذه الفتنة التى أثارها نزار، على المسير



الإمارت الصليبية بالشام.

باسكندرية وقد طابت قلوب جماعة من اهلها ببطركيته وكتبو الى مصر بذلك، فلما علمو الاساقفه بذلك لم يوافقوهم على هذا الراى وصعب عليهم الامر لان القانون كما قالو لا يجوز لهم ذلك وعولو على ايقاف الامر ويمضى كل واحد منهم الى كرسيه، وبينما هم مجتمعين فى بيعة مارى مرقس الانجيلى القمحا، وكان باسكندرية في بيعة ميكاييل ريس الملايكة قس شيخ اسمه زخاريا وكان قيم جميع بيع اسكندرية

الى الاسكندرية، على رأس حملة لاخمادها، وهناك دارت بينه وبين واليها ناصر الدولة أفتكين الذى وعده نزار بالوزارة ان ظفر هو بالخلافة، معركة انتهت بهزيمة الأفضل وارتداده الى القاهرة، حيث أعد حملة جديدة في أوائل سنة ٤٨٨هـ حاصر بها الاسكندرية مدة سبعة أشهر، ارتكب فى أثنائها كثيرا من ضروب القسوة والقتل. حتى اضطر كل من أفتكين ونزار الى طلب الأمان، فأمنهما الأفضل، ثم أمر بانفاذهما الى القاهرة حيث نكل بهما.

أما عن الحالة الداخلية في مصر بعد القضاء على الفتنة التى أثارها نزار، فان الأفضل بن بدر الجمالى قبض على شئون الحكم فى البلاد واستبد بالسلطة دون المستعلى، ومن ثم دخلت مصر فى عهد نفوذ الوزراء، وصار وزير السيف كما يقول المقريزى:« هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد واليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية وهو الذى يولى المناصب الديوانية والدينية.

وقد اتخذ الأفضل مسكنه بدرا الملك التى بناها سنة ٥٠١هـ، ونقل اليها الدواوين، وجعل فيها محال خاصة، تقام فيها الأسمطة فى الأعياد، واتخذ فى أحد أبهائها مجلسا، يجلس فيه للعطاء، كما جلب لها كثير ا من الذخائر النفسية.

تعرضت مصر فى عهد الخليفة المستعلي بالله للأخطار الخارجية، فبدأ الصليبيون يغيرون على بلاد الشام، فسقطت أنطاكية فى يدهم سنة ٤٩١هـ(١٠٩٨م)، كما استولوا على بيت المقدس فى السنة التالية، وظل الأفضل بن بدر الجمالى فى حروب مستمرة معهم، انتهت

وكانو الاساقفة نازلين عنده في البيعة وكان
يخدمهم مدة مقامهم باسكندرية، ولم يكن له في
نفوسهم موقع ولا كان له قدر عند كهنة
اسكندرية، وكان كل واحد يستخدمه فيما يعن له،
لكن الله صانع العجايب وحده الذى اصطفا داوود
من مرعى الغنم ليرعى اسراييل ميراثه، الذى يرفع
الفقير من الارض والمسكين من المزبلة ويجلسه
على كرسى المجد هو الذى اصطفا هذا الانسان
المتواضع الغير معدود، وذلك انه صعد يوما الى

بتراجع القوات الفاطمية عن تلك البلاد تدريجيا حتى لم يبق في حوز ة الفاطميين سوى عسقلان.

ومما لاشك فيه، أن الخلافة الفاطمية في أواخر القرن الخامس الهجرى (٤٩٥م) لم تكن في حالة تساعدها على استعادة مكانتها في بلاد الشام، فقد أصبحت مصر من الضعف بسبب ما سادها من الاضطرابات، وما منيت به من منازعات بين طائفة النزارية التى تدعى أن المستنصر بالله أوصى لابنه الأكبر نزار بالخلافة من بعده، وطائفة المستعلية التى ادعت أن المستنصر إوصى بالخلافة لابنه أبي القاسم أحمد الذى لقب بالمستعلى بالله، مما ترتب عليه عجز الفاطميين عن الاحتفاظ بما تبقى لهم من سلطان على بلاد الشام. يؤيد ذلك ما قاله المقريزى عن الخليفة المستعلى بالله(٤٨٧ـ ٤٩٥هـ): وفى أيامه اختلت الدولة وانقطعت الدعوة من أكثر مدن الشام، فأنها صارت بين الأترك والفرنج».

٧. خلافة الآمر لأحكام الله:

لما توفى الخليفة المستعلى بالله سنة ٤٩٥هـ، أحضر الوزير الأفضل ابن بدر الجمالى ابنه أبا على، وبايعه بالخلافة وأقامه مكان أبيه ولقبه الآمر بأحكام الله وعمره وقتذاك خمس سنين. وجاء في سجل توليته الخلافة:«.. وقد كان الامام المستعلى ـ قدس الله روحه ـ عند نقلته جعل لى عقد الخلافة من بعده، وأودعنى ما حازه من أبيه عن جده، وعهد الى أن أخلفه في

علو البيعة لينزل بجرة خل للطباخ الذى يعمل ما ياكلوه الاساقفة، وفيما هو نازل من السلم زلق [و] وقع والجرة معه لم تنكسر ولا انهرق منها شيا، فقالو الاساقفة وجميع الحاضرين لما ابصرو هذه الاعجوبة: هذا هو الذى يستحق هذا الامر الذى نحن مجتمعين بسببه. فعند ذلك قال جميعهم بفرح من فم واحد: هذا بالحقيقة رجل الله. ثم سالو عنه اهل اسكندرية وعن طريقته فقالو كلهم: ما سمعنا عنه قط كلمة سو بل هو فقير بايس وهو

العالم وأجرى الكافة في العدل والاحسان على منهجه المتعالم، وأوصانى بالعطف على البرية والعمل فيهم بسيرتهم المرضية على عمله..».

استبد الوزير الأفضل بن بدر الجمالى بالسلطة دون الآمر الذى لم يبق له من الأمر سوى اسم الخلافة. وبلغ من ازدياد نفوذه، أنه لم يعن بالاحتفاظ برسوم الفاطميين الدينية، بل أخذ يميل ميل السنيين. وتجلت هذه الظاهرة فى الغائه الاحتفال بمولد النبى، ومولد ابنته فاطمة، وعلي ومولد الخليفة القائم بالأمر، ولا يخفى علينا أن عمله هذا يؤدى الى اضعاف نفوذ الفاطميين الذين كانوا يحرصون على الاحتفال بهذه الأعياد لتأييد انتسابهم الى على بن أبى طالب وفاطمة بنت النبى.

على أن الخليفة الآمر الذى ضعفت سلطته كثيرا بتداخل الأفضل لم يلبث بعد أن بلغ سن الرشد، أن شعر بالحاجة الى التخلص من وزيره، وقام عبد الله بن محمد البطائحى ـ أحد خواص الوزير ـ بتدبير مؤمراة لاغتياله، وخلفه فى الوزارة ولقب بالمأمون.

وكان الأفضل كما قال عنه ابن ميسر فى كتابه: تاريخ مصر: من العدل وحسن السيرة فى الرعية والتجار على صفة جميلة تجاوز ما سمع به قديما وشوهد أخيرا، ولم يعرف أحد صودر فى أيامه ولا ضبط عليه». وذكر النويرى فى كتابه «نهاية الأرب» أن الناس نالهم بعد قتل الأفضل من الظلم والجور والعسف مالا يعبر عنه، فجاء الناس الى باب الآمر واستغاثوا».

طاهر. فقالو: حسن وجيد ان يقدم هذا الذى هو
هكذى اجود ممن يجينا بيد قوية وامر سلطانى
ويكون زمانا كله عنده كالعبيد. فاتفقو مع
الاسكندرانيين على قسمته واخذوه واقسموه بطركا
وفى عشية ذلك اليوم الذى قسموه فيه وصل
ابرهيم ابن بشر بالسجل والاستاذين صحبته، فلما
صار فى ظاهر المدينة اجتمع به احد معارفه وقال
له: قد قسم بطرك. فقال له: ومن هو؟ فقال:

أما عن الوزير المأمون ابن البطائحى الذى خلف الأفضل ، فكان من ذوى الآراء والمعرفة التامة بتدبير الدول، كريما، واسع الصدر، كثير التطلع الى أحوال الناس من الجند والعامة، فكثر الواشون والسعاة بالناس فى أيامه.

لم يستمر هذا الوزير طويلا فى الوزارة، فقبض عليه الخليفة سنة ٥١٩هـ بسبب ما وصله عن تآمره ضده: وانفراد الآمر بأمور الخلافة، وبقى بغير وزير، وعهد الى صاحبى ديوان الاستخراج وهما: جعفر بن عبد المنعم، وأبو يعقوب ابراهيم، وضم اليهما مستوف يعرف بابن أبى نجاح وكان راهبا ـ باستخراج الأموال من أربابها. ولما زادت سيطرة هذا الراهب على الدواوين، وكثرت مصادرته للكتاب والعمال والتجارب وأرباب الأموال، أمر الخليفة والى مصر بأخذه الى الشرطة وضربه بالنعال، ومازال يضرب حتى مات، كما عزل الآمر صاحبى ديوان الاستخراج واعتقلهما.

حرص الآمر على أن يخلفه أحد أولاده، فلما رزق طفلا فى ربيع الأول سنة ٥٢٤هـ، سماه أبا القاسم الطيب، واحتفل باعلان البشرى بولادته وتوليته الامامة من بعده. ويصف ابن ميسر فى كتابه تاريخ مصر ذلك الاحتفال فى قوله:«زينت مصر والقاهرة فى الأسواق وبأبواب القصور ولبست العساكر وزينت القصور. وأخرج الآمر من خزائنه وذخائره قماشا ومصاغا وآلات وصياغات وأوانى ذهب وفضة فزين بها، وعلق الايوان جميعه بالستور والسلاح، فأقام الحال كذلك أربعة عشر يوما».

زخريا [س] القس فى كنيسة ميكاييل النوبه. فلما سمع ذلك لحقته رعدة عظيمة فى عظامه ولم تفارقه بقية ايام حياته، ومضى الى بيته بكرب عظيم من شدة الرعدة واعتل لذلك، وبلغ الخبر الى الاساقفة فتعجبو، ثم انهم خافو من السلطان وقالو ما ندرى ما يجرى علينا فاشارو على الاب البطرك انبا زخارياس ان يطيب قلبه بالاسقفية ليامنو [ليأمنوا] غضب السلطان بسببه، وقالو لابرهيم ابن بشر هذا امر قد كان من الله سبحانه

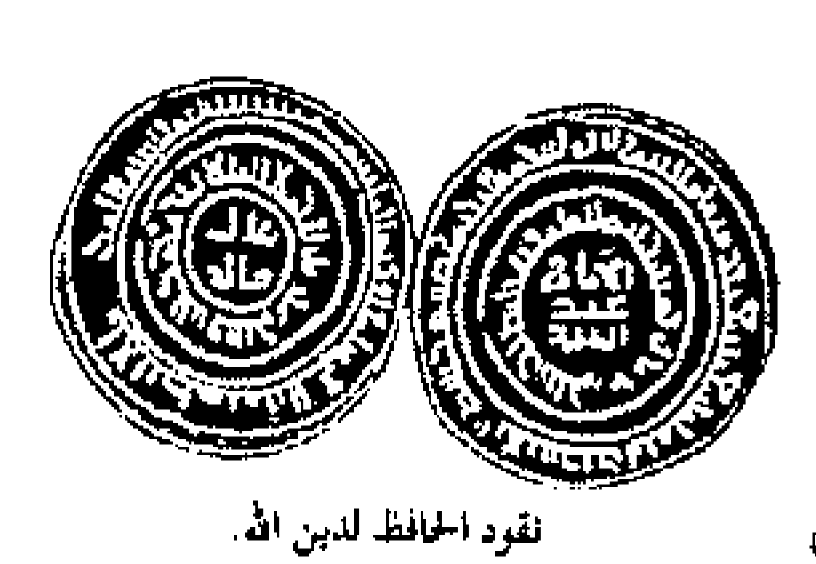
كان لأمراء الصلحيين باليمن علاقات ودية مع الخلفاء الفاطميين فى مص، فلما تقلدت السيدة الحرة زمام الأمور فى اليمن بعد وفاة زوجها المكرم أحمد، ظلت تعمل جاهدة على شد أزر الدعوة الفاطمية فى اليمن، وكانت على اتصال وثيق بالخليفة الآمر، فتبودلت بينهما الكتب والرسل، وأظهرت ولاءها لهذا الخليفة، فاعترفت بامامته، كما اعترفت من قبل بامامة أبيه المستعلى، وأقامت الدعوة لها مما ساعد على احتفاظ الفاطميين بسيادتهم على بلاد اليمن.

وكان الخليفة الآمر ينظر الى السيدة الحرة نظرة تقدير واجلال كذلك، حرص على أن تظل موالية لأبنائه من بعده، فلما رزق أبا القاسم الطيب، كتب الى السيدة الحرة يبشرها بمولدولده ويعرفها أنه ولى عهده، يطلب منها أن تذيع هذا الخبر بين أهالى بلاد اليمن.

وكان للمنشآت نصيب وافر من عناية الآمر، فأمر ببناء الهودج فى جزيرة الفسطاط التى تعرف بالروضة لمحبوبته البدوية. وكان يتردد اليه من حين لآخر، وظل متنزها للخلفاء من بعده. كذلك أنشأ الخليفة الآمر الجامع الأقمر سنة ٥١٩هـ، وبنى تحته دكاكين ومخازن من جهة باب الفتوح. ولاتزال الشعائر تقام فى هذا الجامع الذى يقع فى شارع المعز لدين الله بالقاهرة.

انتهت حياة الخليفة الآمر بقتله فى اليوم الرابع عشر من شهر ذى القعدة سنة ٥٢٤هـ بتدبير فريق من النزارية - أتباع نزار ابن الخليفة المستنصر - وكان لهم أعوان فى مصر، يرون أن الآمر وأباه المستعلى وليا الخلافة دون حق.

والان فاول كرسى يخلو من اسقفه فى هذا الاقليم وتعلم انه يصلح لك تصير عليه اسقفا، ثم قسموه اغومنس والبسوه السواد، فلما خلا كرسى منوف العليا جعلوه عليه، واقام انبا زخارياس بعد بطركيته سبع سنين والبيعة هادية تحت السلامة. ومن بعد ذلك لم يصبر الرب على افعال الرعاة [الاساقفة] الذين كانو فى ذلك الزمان وانزل الله غضبه على البيع بسببهم فابعدو منها لانهم كانو قد صارو مثل الولاة المسلطين على الكهنة ويختلقو حجج لجمع



نقود الحافظ لدين الله.

---

٨ خلافة الحافظ لدين الله:

لما قتل الخليفة الآمر، سارع بعض رجال الجيش الى القبض على زمام الأمور فى القاهرة، ووقع اختيارهم على الأمير أبى الميمون عبد المجيد ابن عم الآمر، ليلى أمور الخلافة، فأخفى أمر الامام الطيب وبايعه الناس بولاية العهد ولقب الحافظ لدين الله، وأقيم كفيلا لحمل منتظر، لأن لما مات ترك احدى زوجاته حاملا.

على أن الأمير عبد المجيد لم تتح له الفرصة للاحتفاظ بسلطته فى الدولة بسبب ثورة الجند عليه وتوليتهم قائدا يدعى أبو على أحمد ابن الأفضل الوزارة، فبدأ هذا الوزير عمله بمنع الحافظ من التصرف فى شئون الدولة، كما سجنه فى خزانة، صار لا يسمح لأحد بزيارته الا باذنه، وأمر الخطباء بحذف اسمه من الخطبة، واستولى الوزير على جميع ما فى قصر من الذخائر والأمور زاعما أن ذلك كان لأبيه، واستأثر منذ ذلك الوقت بالسلطة والنفوذ.

لم يكن الوزير أبو على أحمد بن الأفضل، اسماعيلى المذهب بل كان اماميا، لهذا شرع على اثر توليته الوزارة فى اتخاذ اجراءات، غايتها اظهار مذهب الامامية واضعاف مذهب الاسماعيلية، فأمر باسقاط اسم اسماعيل بن جعفر الصادق الذى تنتسب اليه الاسماعيلية من

المال بكل وجه ويتجرو في بيعة الله لمحبة الفضة والذهب، ويبيعو موهبة الله بالمال فيخسرو ولا يربحو. واذا زادهم انسان في [طلب] ديارية بيعة من البيع دينار واحد فسخو على القيم الاول المهتم بامور البيعة كما يجب، فيطردوه منها ويسلموها بسبب الدينار الزايد لمن لا يصلح لخدمتها ولا يقوم بامورها. ولقد شهد على قيم انه يشرب الخمر الصافي ويخلط المعكر بالما ويصفيه ويقدمه للكهنة يرفعه للهيكل وان الكهنة يرفعو على الهيكل قربانا

الخطبة والدعاء لمحمد المنتظر الامام الثاني عشر عند طائفة الامامية، وضرب دراهم ودنانير جديدة باسم الامام المنتظر.

وعلى الرغم من أن الوزير أبا على أحمد بن الأفضل، قد استقل بحكم البلاد المصرية، فانه كان يرى أن بقاءه في منصبه مستأثرا بالسلطة، يتوقف الى حد كبير على من يلى أمر الخلافة، بعد أن أبعد الحافظ وشدد الرقابة عليه في سجنه. وكان أهم ما يشغله ذلك المولود الذى وضعته احدى نساء الآمر، وأثار بعض المؤرخين الى أنه كان ذكرا. وظل الوزير يضيق الخناق على أهل القصر الفاطمي، لعله يصل الى مكان وجوده. وكان يود أن يظفر بهذا المولود ليتخلص منه، انتقاما لمن قتلهم الخليفة الآمر من اخوته،، ورغبة في التخلص من وريث شرعي للخلافة، غير أنه لم يتمكن من العثور عليه.

لم يتمتع الوزير أبو على أحمد بن الأفضل طويلا بالحكم. اذ كان لسياسته التى تنطوى على مناهضة المذهب الاسماعيلي أسوأ الأثر في نفوس الاسماعيلية، فكونوا معارضة قوية له بزعامة الأمير يانس الأرمني، وتآمروا على اغتياله فكمن له جماعة منهم وقتلوه، بعد أن ظل مستأثرا بالسلطة سنة وشهرا، وأخرجوا الحافظ من سجنه، وبذلك قضى بالفشل على محاولة نشر مذهب الامامية في مصر، واستعاد المذهب الاسماعيلي مكانته. واعتبر اليوم الذى أطلق فيه سراح الحافظ وأعيد الى الحكم عيدا، عرف بعيد النصر. وظل الفاطميون، يحتفلون به الى أن زالت دولتهم.

يكفى طول الجمعة حتى يفضل منه شيا كثير غرضا فى ان لا يتعبو فيقدسو ويبقا القربان فى الكنايس الى ان يعفن لان الاساقفة كانو يوسمو للكهنوت من لا يصلح ولا يفهم.

وحدثنى إنسان مامون [مأمون] ان انبا مينا اسقف طانة الذى قد كنا بدينا بذكره فى هذه السيرة وقلنا ان فيلاتاوس البطرك سكن فى داره بدمروا بعد موته، كان عند وفاته اقسم ما جمعه من المال على اربعة اجزا ودفنه فى اربع مواضع،

لم يكن للحافظ حق شرعى فى الخلافة، ذلك أنه لم يكن ابنا للآمر، وانما هو ابن عمه، فلما أطلق سراحه بعد مقتل الوزير أبى على أحمد بن الأفضل، رأى رجال الدولة فى مصر أن يعيدوه وليا للعهد، وكفيلا للولد الذى لم يعرف مقره.

على أن الحافظ كان يطمع فى الاستقلال بالخلافة، ومن ثم أمعن فى البحث عن ولد الآمر، فلما اهتدى الى مكان اقامته بعد شهرين من عودته وليا للعهد، عمد الى التخلص منه، ثم أعلن نفسه خليفة، وقرئ سجل بامامته فى ٣ربيع الأول سنة ٥٢٦هـ.

اتخذ الحافظ بعد أن استقرت له الخلافة الأمير يانس الأرمنى، وزيرا له، غير أن وزارته لم يطل أمدها، فقد توفى بعد تسعة أشهر ، وتولى الحافظ أمور الدولة بنفسه، فلم يستوزر أحدا، وظل منصب الوزارة شاغرا حتى طمع فيه بهرام الأرمنى والى الغربية، فقدم الى القاهرة فى شهر جمادى الثانية سنة ٥٢٩هـ وحاصرها يوما، فاضطر الحافظ الى توليته الوزارة على الرغم من عدم دخوله فى الاسلام.

لم يكترث بهرام بما أظهره الناس من السخط عليه، بل تغالى فى التحيز لبنى جنسه من الأرمن، فبعث فى طلب كثير منهم الى مصر، حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفا، بعد زمن قصير. وكانت سياستهم مع المسلمين لا تنطوى على شئ من الود، فاشتد جورهم وصادروهم فى أموالهم، وأكثروا من بناء الكنائس والأديرة حتى صار لكل رئيس منهم كنيسة بجوار داره مما

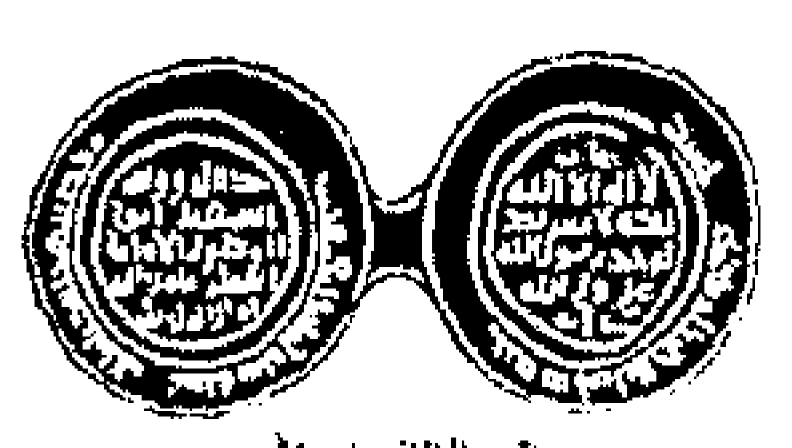
وكان له في الكرسي عدة سنين حتى شاخ، وكان له اخ اسمه مقاره اسقف منوف العليا كاتب السنودس فانفذ الى اخيه رسول ياتى اليه بسرعة، وكان مترقب وصوله وعينه ناظرة الى الطريق، فتاخر عنه يومين لم ياتيه وكتب اربع رقاع وذكر فيها الاربع مواضع التى فيها المال وجعلها في يده الى ساعة وصول اخيه اليه يدفعها له، فلما تاخر عنه ولحقه قلق الموت والنزاع قال لتلميذه انظر لعل اخي قد وصل، فخرج التلميذ وعاد اليه وقال

حمل المسلمين على متابعة الشكاية ضد بهرام وأقاربه، كما بعث أمراء الجيش وقواده الى رضوان بن ولخشي والى الغربية، يطلبون منه القدوم اليهم لينقذهم من سطوة الأرمن، فأجاب رضوان طلبهم، وقدم الى القاهرة على رأس جيش كبير وأنضم إليه الجنود المسلمون في جيش بهرام، فازدادت بذلك قوته،واضطر بهرام الى الرحيل عن القاهرة والالتجاء الى أخيه الباساك والى قوص، فخلفه رضوان في الوزارة سنة ٥٣٠هـ، وتلقب بالسيد الأجل الملك الأفضل، وهو أول من لقب بالملك من وزراء مصر.

اشتد رضوان في معاملة أعوان بهرام، فاستولى على أملاكهم وقتل الكثير منهم. وشرع في خلع الحافظ بحجة أنه ليس اماما، بل هو كفيل لغيره، فاستاء منه الحافظ واضطر رضوان الى المسير الى بلاد الشام، ثم مالبث أن عاد الى مصر على رأس جيش كبير سنة ٥٣٤هـ، فتصدى له جند الخليفة وأرغم على المسير الى الوجه القبلي، حيث طارده الأمير أبو الفضائل بن مصال، الذى عرض عليه عهد الأمان، فاستجاب له وجاء الى القاهرة. غير أن الحافظ لم يف بهذا العهد، فاعتقله بالقصر، ولم يزل في معتقله حتى سنة ٥٤٢هـ، حيث تمكن من الفرار وجمع أنصاره حوله. ثم دارت بينه وبين جند الخليفة السودانيين عدة معارك، انتهى الأمر فيها بهزيمتة وقتله.

لم يتخذ الخليفة الحافظ وزيرا له، بعد أن اشتد الخلاف بينه وبين رضوان بن ولخشي، فظل يحكم البلاد بلا وزير حتى توفي في جمادى الآخرةسنة ٥٤٤هـ.

له لم يصل، فقلق ورمى احد الرقاع الاربعة في فمه ومضغها ورماها ثم قال للتلميذ اترى جا اخي، فخرج ايضا وعاد وقال له ما وصل فمضغ الرقعة الثانية ورماها، وكذلك فعل بالثالثة وبقى في يده واحدة، فقال للتلميذ انظر ان كان اخي وصل فخرج ليبصره فابطى عليه وحس بصعوبة الم الموت فرمى الرقعة الرابعة في فمه ومن قبل ان يمضغها دخل اليه التلميذ مسرعا وقال له هو ذا اخوك قد وصل، فاخرج الرقعة من فمه فلما دخل


نقود الظافر بامر الله
ضربت في اسكندرية.

---

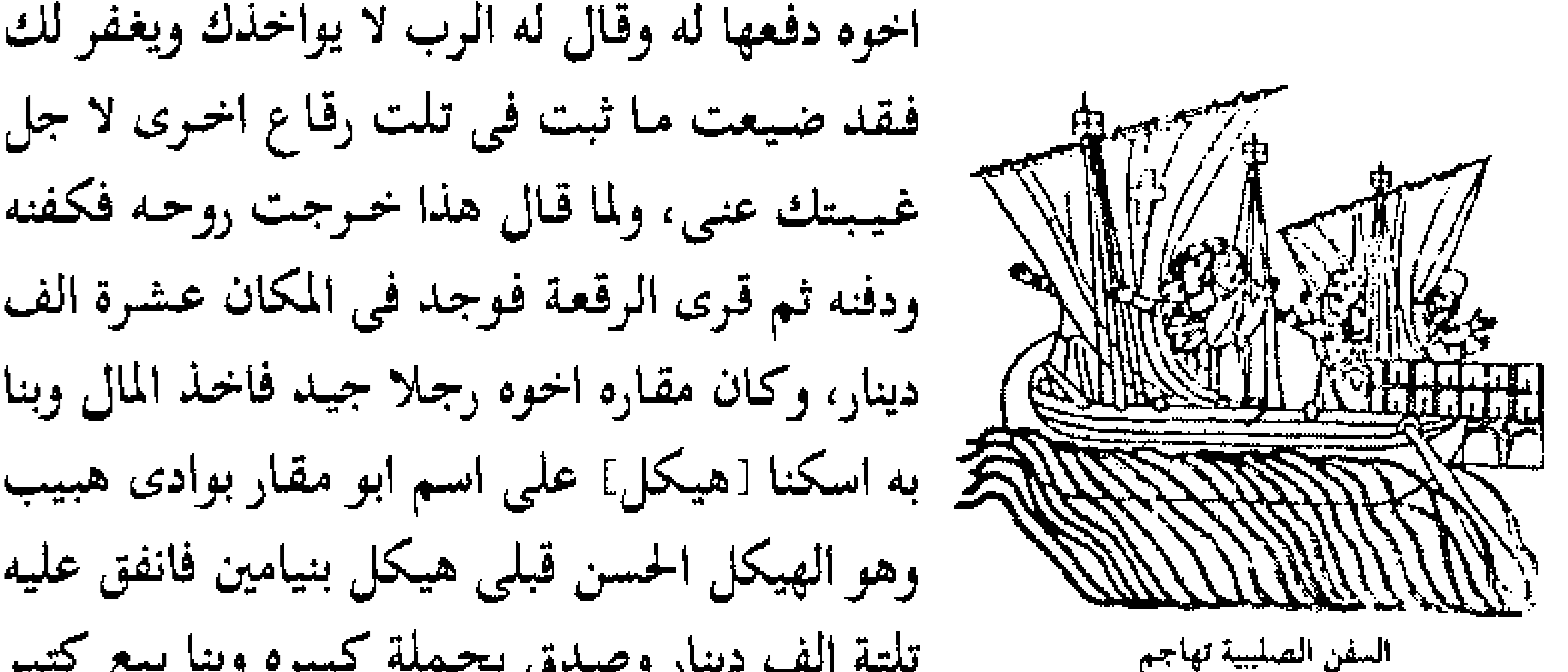
٩. خلافة الظافر بأمر الله:

خلف الحافظ بعهد منه، ابنه أبو المنصور اسماعيل. وكان في السادسة عشرة من عمره، وبدأ حكمه بتولية الأمير نجم الدين ابن مصال الوزارة، ولقب بالسيد الأجل المفضل أمير الجيوش.

عاد التنافس في عهد الخليفة الظافر بين رجال الدولة على تقلد منصب الوزارة، فثار الأمير المظفر على بن السلار والى الاسكندرية والبحرية وقصد القاهرة على رأس فرقة من أعوانه، فاضطر ابن مصال الى الفرار وحل ابن السلار محل منافسه في الوزارة، وتلقب بالعادل، ثم جهز العساكر لمحاربة ابن مصال وأخذت قواته تتعقبه حتى أوقعت به الهزيمة في الوجه القبلي وقضت عليه، وبذلك خلا الجو لابن السلار وقام بأعباء الوزارة.

كان ابن السلار من أصل كردى، يدين بالمذهب الشافعي. وقد أنشأ سنة ٥٣٦هـ بالاسكندرية مدرسة للشافعية، أسند ادارتها الى الفقيه الشافعي الحافظ السلفي، وبذلك هيأ السبيل لاستعادة المذهب السني مكانته، وأدى تعصبه لهذا المذهب ورغبته في احلاله بمصر محل المذهب الاسماعيلي الى استياء الخليفة ورجال دولته منه، فقتل بايعاز منه سنة ٤٥٨هـ، وخلفه في الوزارة أبو الفضل عباس بن أبي الفتوح، ويرقى الى بني زيرى في المغرب.

اخوه دفعها له وقال له الرب لا يواخذك ويغفر لك فقد ضيعت ما ثبت فى تلت رقاع اخرى لا جل غيبتك عنى، ولما قال هذا خرجت روحه فكفنه ودفنه ثم قرى الرقعة فوجد فى المكان عشرة الف دينار، وكان مقاره اخوه رجلا جيد فاخذ المال وبنا به اسكنا [هيكل] على اسم ابو مقار بوادى هبيب وهو الهيكل الحسن قبلى هيكل بنيامين فانفق عليه تلتة الف دينار وصدق بجملة كبيره وبنا بيع كتير فى ريف مصر، ولما حضرت وفاته سالوه ان كان



السفن الصليبية تهاجم عسقلان سنة ٥٤٨ هـ.

على أن الخليفة الظافر مالبث أن أغتيل سنة ٥٤٩ بتدبير من نصر بن الوزير أبى الفضل عباس. وقد أثار قتل الخليفة الظافر أهالي القاهرة ، فنشبت المعارك فى طرقات المدينة، وفر الوزير عباس وابنه نصر الى سورية، غير أنه لقى حتفه فى طريقة على يد جماعة من الفرنجة، أرسلتهم أخت الخليفة الظافرة فى أثره سنة ٥٤٩هـ. أما ابنه نصر، فقد باعه الفرنجة فى عسقلان وأرسل الى القاهر ة سنة ٥٥٠هـ. فى قفص حديد، وطيف به فى المدينة، ثم صلب حيا على باب زويلة، وأحرقت جثته فى المحرم سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م.

كان لاضطراب الأحوال الداخلية فى مصر فى عهد الخليلفة الظافر، أثر بالغ فى زوال سيطرة الفاطميين على ما بقى لهم من المدن الساحلية بالشام، فانتهز الصليبيون فرصة الضعف الذى كانت تعانيه الدولة الفاطمية فى مصر، وعملوا على محاصره عسقلان سنة ٥٤٨هـ، فتصدى لهم أهلها، كما قويت نفوسهم بوصول الأسطول الفاطمي الى هذه المدينة، غير أن الصليبيين ما لبثوا أن عمدوا الى تشديد الحصارة عليها ومهاجمتها.، مما اضطر أهلها الى طلب الأما ن، فأجيبوا الى طلبهم وخر ج منها من استطاع الرحيل عنها بطريق البر والبحر، وبذلك تيسر للصليبين الاستيلاء على عسقلان، و فقدت الخلافة الفاطمية آخر مدن فلسطين التى كانت لاتزال تخضع لسيادتهم.

١٠. خلافة الفائز بنصر الله.

بويع بالخلافة بعد مقتل الظافر لابنه عيسى وهو فى الخامسة من عمره ولقب بالفائز بنصر

معه شي يوصي به بما يفعلوه فيه، فقال الرب
شاهد على اننى وجدت لاخى عشرة الف دينار
وتحصل لى فى الكرسى وفيما اخذته فى كتابة
السنودس فى كل سنة شيا كثير وقد انفقت جميع
ذلك والرب يشهد على اننى لم يبق معى غير دينار
واحد ورباعى وهوذا انا منتقل من هذا العالم وانا
اقسم عليكم ان تدفعوه للكهنة الذين يقرون على.
وهذا الاسقف مينا الذى خلف هذا المال الكثير لم

الله. وقد بدا عليه الفزع والاضطراب من مشاهدته القتلى فى القصر، ولم يطب له عيش مدة خلافته كما ساد الفزع القصر الفاطمي اذ ذاك ، وبعثت عمة الفائز الى طلائع بن رزيك والى الأشمونين والبهنسا بالكتب وفى طيها شعور النساء تستصرخ به على الوزير عباس، وطلب منه نساء القصر القدوم لانقاذهن من الأخطار المحدقة بهن.فقدم طلائع القاهرة بعساكره من العربان والأجناد في يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول سنة ٥٤٩هـ، وكان يرتدى ثيابا سوداء، ومعه أعلام سود، وشعور النساء التى أرسلت اليه من القصر على رءوس الرماح. وقد علق المقريزى(اتعاظ الحنفا. جـ٣.ص٢١٧) على ذلك بقوله: فكان هذا من الفآل العجيب، فان الأعلام العباسية السوداء دخلت الى القاهر ة وأزلت الأعلام العلوية البيض بعد خمس عشرة سنة».

تقلد طلائع بن رزيك الوزارة بعد قضائه على الاضطرابات التى حدثت بالقاهر ة على أثر مقتل الخيفة الظافر، وتلقب بالملك الصالح، وأسند اليه الخليفة جميع أمور الدولة فى سجل توليته الوزارة. وقد جاء فيه:« فقلدك من وزارته، وفوض اليك تدبير ممالكه وكفالته، وجعل لك امارة جيوشه الميامين وكفالة قضاة المسلمين وهداية دعاة المؤمنين، وترديد ما هو مر دود اليهم من الصلاة كخطابة وارشاد الأولياء المستجيبين، والنظر فى كل ما أغدقه الله من أمور اوليائه أجمعين وجنوده وعساكره المؤدين وكافة رعاياه بالحضرة وجميع أعمال المملكة ، دانيها وقاصيها، وسائر أحوال الدولة باديها وخافيها..».

يقنعه ذلك حتى انه اعمر كوم [سندجرا](*) بين كرسيه وكرسى سمنود وصار فيه عشرة بيوت مسكونة، فبنوا هناك كنيسة صغيرة طولها خمسة اذرع او ستة طوب طين، وكان الكوم بين [بشبيش](*) وشبرادمابه، فلما سمع اسقف سمنود اتاها وبنا فيها مذبح لطيف وكرزه ومضى لان شبرادمابه(*) له وهى من حقوق كرسيه، فلما سمع انبا مينا الاسقف المقدم ذكره بذلك جا الى الكنيسة المذكورة وهدم المذبح الذى بناه اسقف

(*) سندجرا: من المدن المندرسة كانت تابعة للغربية.

(*) بشبيش: من المدن القديمة كانت تابعه للغربية ولكن فى سنة ١٩٣٨ أصبحت تابعه لمركز بيلا محافظة كفر الشيخ.

(*) شبرا دما به: من المدن القديمة المندرسة، كانت تابعة للغربية.

أما فيما يتعلق بالوزير عباس فانه سار مع ابنه نصر وأتباعه يريد أيله، ليسير منها الى بلاد الشام، فأرسلت أخت الخليفة الظافر الى الفرنج بعسقلان، تطلب منهم التصدى لعباس وبذلت لهم الأموال، فقاتله الفرنج حتى قتل، وأسر ابنه نصر، وحمل فى قفص من حديد الى القاهرة، فى ربيع الأول سنة ٥٥٠هـ حيث طيف به فى المدينة،ثم صلب على باب زويلة.

شرع الصالح طلائع بن رزيك، بعد قضائه على الاضطرابات الداخلية فى الاستبداد بالسلطة، فتتبع أرباب البيوتات والنعم والأعيان فسلبهم أموالهم، وقبض على الآمراء، وضيق على أهل القصر مستغلا صغر سن الخليفة، وجعل له مجلسا يحضره الأدباء فى الليل. وكان يعرض عليهم شعره، فهرع اليه الناس ودونوا ما ينظمه من الشعر. وبلغ من ميله للشعر والشعراء، أنه دعا الفقية الشاعر نجم الدين عمارة اليمانى الى مجلسة، حين قدم الى القاهرة برسالة من أمير الحرمين قاسم بن فلستيه سنة ٥٥٠هـ.

١١. خلافة العاضد لدين الله:

لما توفى الفائز فى السابع عشر من رجب سنة ٥٥٥هـ، دون أن يوصى لأحد بولاية العهد أو الخلافة من بعده، أقام الوزير الصالح طلائع بن رزيك. العاضد خليفة، وفى ذلك يقول المقريزى:(اتعاظ الحنفا جـ٣.ص ٢٤٣): « لما مات الخليفة الفائز، ركب الصالح بثياب الحزن واستدعى زمام القصر، وسأله عمن يصلح فى القصر للخلافة: فقال: ههنا جماعة، فقال:

سمنود وبنا غيره، فلما سمع اسقف سمنود بذلك صعب عليه جدا وجا الى هناك ومعه جماعة وانبا مينا الاسقف هناك فاجتمعو وتخاصمو ووقع بينهم قتال ولم يفترقو حتي سفكت بينهم الدما، فانظرو الان الى ذلك الاسقف الذى جمع المال الكثير كيف قاتل على شي هذا مقداره حتي انزل الله غضبه على ذلك الكوم واخربها الى الان، واسم الكوم سندجرا.

وفى ايامهم اعنى الرعاة انقطع التعليم ايضا ولم يردع احدا احد ولا يقول له اخرج القذا من

عرفنى بأكبرهم، فسمى له واحدا، فأمر باحضاره، فتقدم اليه أمير، يقال له على بن مزيد، وقال له سرا: لايكن عباس أحزم منك رأيا، حيث اختار الصغير وترك الكبير، واستبد بالأمر، فمال (الصالح) الى قوله، وقال للزمام: أريد منك صغيرا، فقال :عندى ولد الأمير يوسف بن الحافظ واسمه عبد الله، وهو دون البلوغ، فقال (الصالح) على به، فأحضر اليه بعمامة لطيفة وثوب مفوط..، وكان عمره احدى عشرة سنة. ثم أمر صاحب خزانة الكسوة أن يحضر بدلة ساذجة خضراء ـ وهى لبس ولى العهد اذ حزن على من تقدمه ـ وقام فألبسه اياها. وبعد أن تم تجهيز الفائز وحمله الى تربته أخذ (الصالح) بيد عبدالله، وأجلسه إلى جانبه، وأمر أن يحمل إليه ثياب الخلافة، فألبسها وبايعه وتبعه سائر الناس فى مبايعته، ولقب بالعاضد لدين الله، فى يوم الجمعة الثامن عشرمن رجب سنة ٥٥٥هـ.

يتضح لنا مما تقدم الى أى حد زادت سلطة الوزراء فى العصر الفاطمى الأخير، حتى أصبحوا يتدخلون فى تولية الخلفاء، كما أن بعضهم انصرف عن تأييد مذهب الخليفة الفاطمى وأهل دولته، كما فعل كل من الوزير أبى على أحمد بن الأفضل وطلائع بن رزيك. وقد أظهرا مذهب الامامية وعملا على احلاله فى مصر محل مذهب الاسماعيلية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد كان للوزير طلائع ابن رزيك مطامع خاصة تجلت فى حرصه على زواج ابنته من الخليفة العاضد. وكان يرجو من وراء هذه المصاهرة أن ترزق ابنته منه ولدا، فيجمع لبنى رزيك الخلافة مع الملك.

عينيك ليلا يقول له اخرج انت الخشبة اولا من عينك، وكانو رووسا البيعة فيما تقدم يطلبو امر [إمرء = أنسان] فيه علم ومعرفة ليجعلوه كاهنا اذا شهد له جماعة ثقات بالعفاف والعلم من صغره، وانقلبت الامور وصار الفهيم العالم غير معدود لا سيما ان كان فقيرا، والجاهل الغير فهيم مكرما عندهم مبجلا لا سيما ان كان موسرا ليقدموه للطقس العالى من طقوس الكهنة، فمنجل [فمن أجل] ذلك نزلت يد الرب عليهم وحل غضبه

على أن الوزير الصالح طلائع بن رزيك الذى انتقص من سلطة الخليفة العاضد، وكثرت مضايقته لأهل القصر، سرعان ما قتل بتدبير من خاصة الخليفة في رمضان سنة ٥٥٦هـ، وخلفه في الوزارة ابنه أبو شجاع رزيك بن الصالح ولقب بالملك العادل الناصر أمير الجيوش.

واجه العادل بن طلائع بن رزيك ـ بعد توليته الوزارة ـ خروج شاور بن مجير السعدى عليه، بسبب عزله عن ولاية قوص وتولية غيره، ثم دخل القاهرة بصحبه فريق كبير من أتباعه وتخلص من العادل، وخلفه في الوزارة، في المحرم سنة ٥٥٨هـ. وبدأ عمله بزيادة مرتبات الأجناد والعرب وحاشية القصر. لكنه لم يتمتع طويلا بالوزارة، فسرعان ما ثار عليه ضرغام ـ أحد أفراد الجيش ـ وتقلد الوزارة مما اضطر شاور الى المسير الى الشام والالتجاء بنور الدين محمود صاحب دمشق، ليمده بقوة يستعين بها على استعادة نفوذه، ووعد بأن ينزل له عن ثلث دخل مصر بعد اقطاعات العساكر اذا ما عاونه في التغلب على ضرغام وانتزاع الوزارة منه، فتردد نور الدين بادئ الأمر في اجابة طلبه، ثم مالبث أن قوى عزمه على تحقيق رغبته، فأعانه بحملة، أسند قيادتها الى أسد الدين شيركوه. فلما وصلت هذه الحملة الى القاهرة، تصدت لضرغام وتغلبت عليه، ، وبذلك خلا الجو لشاور، فأعيد الى منصبه في الوزارة، في رجب سنة ٥٥٩هـ.

على أن شاور، سرعان ما تخلى عن حليفه نور الدين، فلم يف بما عاهده عليه، وأرسل

على البيعة لعلمه باننا لا نستحق ندخل من بابها كالزمان الذى انزل فيه غضبه على يروشليم حتى خرجت وسبى اهلها وبنيهم وبناتهم.

وكان راهبا اسمه يونس قس في اسكنا ابو مقار ساكن في بيعة القديس ابو نفر في الاسكنا الذى هو بحرى بيعة ابو مقار فراى جماعة يشترو الاسقفية بالمال فالقى الشيطان في قلبه نار محبة الاسقفية ولم يكن معه شيا يدفعه عنها فحضر عند انبا زخارياس البطرك وقال: اريد تلبسني ثياب

الى أسد الدين شيركوه، يطلب منه الرجوع الى الشام. ولم يكتف بذلك، بل بعث الى أملريك Amalric ملك بيت المقدس، يستمده ويخوفه من نور الدين إن ملك الديار المصرية، فسارع الى تلبية طلبه، وأرسل جيشا أرغم شيركوه على العودة بجنده الى الشام، وكان لهذه السياسة أثرها في توجيه أنظار كل من نور الدين صاحب دمشق والفرنجه ببيت المقدس إلى غزو مصر، فانفذ نور الدين حملة ثانية الى مصر سنة ٥٦٢هـ بقيادة أسد الدين شيركوه، وذلك حين ثبت لديه غدر شاور به ونقضه الاتفاق معه، وسير بصحبته بعض الأمراء. وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب من بين الذين اشتركوا في هذه الحملة.

رأى شاور أن يستنجد مرة ثانية بالفرنجة، فاستقر رأيهم على تحقيق رغبته خشية أن يستولى جيش نور الدين على مصر، ويضمها الى بلاد الشام، فيصبح مركزهم في بيت المقدس مهددا بالأخطار. ولما وصلت عساكر الفرنجة الى مصر، انضمت الى جيوش شاور والمصريين. وكان شيركوه قد تقدم بقواته الى الصعيد فتتبعه الفرنجة والمصريون، والتقى الفريقان في مكان يعرف بالبابين[١]، فكان النصر حليف شيركوه، الذى رأى بعد ذلك ، أن يسير الى الاسكندرية عن طريق الفيوم، فدخلها من غير مقاومة، وعين ابن أخيه صلاح الدين واليا عليها وأبقى معه نصف الجيش.

---

(١) قرية جنوب المنيا.

الاسقفية فقط واجعلنى على كرسى خراب مثل دبقو(*) وولو انه لا يكون فيه الا ثلث منا فانى لا اقدر اصبر عن ذلك مما قد غلب على من الفكر لمشاهدتى هولا الذى تقسمهم بالمال وليس هم مستحقين، وانا مدحوض لاجل انى فقير وليس معى شيا وانت تعرفنى، وكان البطرك المذكور عفيف جدا مثل الخروف الوديع ولم يكن يفعل شيا مما ذكرناه برايه، حتى الخبز الذى ياكله اذا خلوه لا يطعموه لا يطلبه، وكذلك الما الذى

(*) دبيق: من المدن التى دمرها الملك الكامل عندما دمر مدينة تانيس سنة ١٢٢٧م. وكانت تقع بين تانيس ودمياط داخل بحيرة تانيس (المنزلة). انظر الهامش الثالث ص٤٠٢.

أما قوات الفرنجة والمصريين، فعادت الى القاهرة بعد واقعة البابين، ثم زحفت الى الاسكندرية حيث قامت بحصارها برا مدة ثلاث أشهر، بينما سار اليها أسطول الصليبيين وأخذ يحاصرها بحرا، حتى قلت بها الأقوات. ولم يكن لدى صلاح الدين من الجند ما يمكنه من رفع الحصار، فأسرع أسد الدين شيركوه الى نجدته، ولم يلبث المصريون والفرنجة، أن ارسلوا اليه يطلبون الصلح، فأجابهم الى ذلك، واشترط ألا يقيم الفرنجة فى البلاد المصرية.. وتسلم المصريون الاسكندرية فى منتصف شوال سنة ٥٦٢هـ، وعاد شيركوه الى دمشق.

على ان جميع قوات الفرنجة لم تغادر مصر، تنفيذا لهذا الصلح، بل عقد شاور مع الفرنج اتفاقا، كان من شروطه، أن يكون لهم بالقاهرة قلعة (شحنة) صليبية، وأن تكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين عن انفاذ عسكر اليها، كما اتفق الطرفان على أن يكون للفرنج من دخل ديار مصر فى كل سنة مائة ألف دينار. ومما يجدر ذكره، أن شاور قرر لهم ذلك من غير علم العاضد ولا مشاورته، وقد عقب أبو شامة فى كتاب(الروضتين فى أخبار الدولتين ص ١٤٢) على هذا الاتفاق بقوله:« هذا كله يجرى بين الفرنج وشاور، وأما العاضد صاحب مصر، فليس له من الأمر شئ ولا يعلم شيئا من ذلك قد حكم عليه شاور وحجبه». أما عن الفرنج، فقد عادوا الى بلادهم وتركوا بالقاهرة جماعة من مشاهير فرسانهم.

أدى دخول الفرنجة البلاد المصرية الى اطلاعهم على ما وصلت اليه حالة هذه البلاد من

يشربه، وكان كالاخرس وكانو اهله وتلاميذه حاكمين عليه وهم يدبرونه وهم الذين ياخذون المال ممن يقدموه له ليجعله فيما يريدو، ولو اراد ان يطعم انسان خبز فما قدر الا باحسانهم، واذا التمس منه انسان شيا ارسله اليهم، ومن التمس منه كهنوت انفذه اليهم ليفصلو معه والا فما يمكنوه يقسمه، فلما اتاه هذا الراهب الذى ذكرناه انفذه اليهم كالعادة، فمضى اليهم وخاطبهم مثلما خاطب البطرك فشتمه احدهم وهو خايال اسقف

الضعف والاضطراب مما جعلهم يطمعون فى الاستيلاء عليها ذلك أنهم تحكموا فى أهلها دون أن يقف في وجههم أحد، وبعثوا الى ملكهم أملريك يهونون عليه أمر امتلاك هذه البلاد، كما أن فئة من أعيان المسلمين بمصر ممن كانوا يعادون شاور، كاتبوا هذا الملك، يحببون اليه القدوم الى مصر وكان قد وصل اليه من بعض أعوانه أسماء قراها وخراج كل منها، وبذلك تمهد السبيل لقوات الفرنجة، لغزو البلاد المصرية، فخرج أملريك على رأس الحملة التى جهزها فى أوائل سنة ٥٦٤هـ(١١٦٩م)، ونزل على بلبيس وكتب بعض أعيان المسلمين كتبا اليه، يعدونه بالمساعدة لكراهتهم شاور. ثم تقدم الفرنجة فى زحفهم صوب القاهرة، فاستقر رأى شاور على اخلاء الفسطاط، وأمر أهلها بالانتقال الى القاهرة، فحملوا معهم كل ما استطاعوا من متاع وطعام، وأشعل النار فيها حتى يكون ذلك حائلاً بينه وبين الفرنجة، واستمرت النار مشتعلة بها، أربعة وخمسين يوما.

ولما اشتد الفرنجة في محاصرة القاهرة، وضيقوا على أهلها حتى ضعفت قواهم، رأى شاور بعد أن أيقن من عجزه عن مقاومتهم وضعفه عن ردهم على أعقابهم، أن يعمد الى اعمال الحيلة، فأرسل الى أملريك يذكره بما بينهما من صلة المودة، ويخوفه من نور الدين. ويطلب منه الصلح على أن يؤدى اليه أربعمائة ألف دينار ويعجل بدفع مائة ألف دينار، وبذلك تقرر الصلح.

سـخـا وهو ابن اخـو البطرك لما علم منه انه يريد الاسـقـفـيـة بلا شي وقـال له بعـد الشـتـم: انك ان ذكـرت من فـمك شي على هذه القـضـيـة جـعلت التلاميذ يهينوك. فاستحكم فيه الغضب ونهض ومـضى الى مـصـر وشكى حـاله للسلطان وكـتب عـدة رقـاع في البطرك ليـرفع للملك الحـاكـم بامـر الله، فلمـا علمـو الاراخنة بمـصـر بذلك منعـوه ان يفعله وكتبـو له كتب الى البطرك وكـان يوميـذا بوادى هبيب، فلما وصلت اليه الكتب دفعها لابن

على أن سياسة شاور تجاه الفرنجة، كانت تنطوى على المخادعة، فقد راسل نور الدين في دمشق، يطلب منه النجدة، كـمـا أن الخليـفـة الفاطمى العـاضـد، كتب في هذه الأثناء الى نور الدين يستنجد به، ووضع في رسالته خصلا من شعور النساء امعانا في الضراعة.

لم تكد تصل هذه الرسائل الى نور الدين، حتى سارع الى تجهيز قو ة من حرسه الخاص، من التركمان بقيادة أسد الدين شيركوه ، وانضم اليه عدد كبير من الأمراء وبعض أقاربه، ومن بينهم صلاح الدين يو سف بن أيوب. ولم يكن راغبا في المسير الى مصر لما لقيه من المصاعب في حصار الاسكندرية، فأخرجه نور الدين كرها. وعلق المقريزى (اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ٢٩٥) على مسير صلاح الدين الى مصر بقوله: «فكان في مسيره اليها تملكه اياها وغيرها من الأقاليم».

وبينما كان أملريك معسكرا بقواته أمام أسوار القاهرة، يستحث أهلها في طلب المال، جاءت الأخبار بقدوم أسد الدين شيركوه بالعساكر، فأزعج ذلك الفرنج، واضطروا الى الرحيل عن القاهرة والعودة الى فلسطين ثم دخل أسد الدين شيركوه القاهرة في شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ، واستقبله الخليفة العاضد وخلع عليه، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكبيرة.

اخيه المقدم ذكره، فلما وقف عليها فغمز على الراهب واحضر العرب الذى هم خفرا الديارة وسلم الراهب اليهم فاخذوه ورموه فى بير ورجموه بالحجارة ليقتلوه، فوجد فى البير موضع خرق فدخل فيه واختفى ولم يلحقه ولا حجر واحد، فلما سمع البطرك الخبر حمل التراب على راسه ونتف شعر لحيته واحرم ابن اخيه على مافعله بالراهب وانفذ تلاميذه الى البير فاصعدوه منه وعزوه وسالوه ان يتسلى، واوعده البطرك ان

أيقن شاور بعد وصول حملة شيركوه الثالثة الى القاهرة أن غايتها القضاء عليه والاستيلاء على مصر، فظل يوجس خيفة منه، وصار كل منهما يكيد لخصمه. ولما حاول شاور تدبير مؤامرة للقبض على شيركوه ومن معه من الأمراء، نهاه ابنه الكامل، فعدل شاور عن عزمه. غير أن أسد الدين مالبث أن اتفق مع أصحابه على التخلص منه، واضطلع بعضهم بتنفيذ هذه المؤمراة، فقبضوا عليه وقتلوه، ثم نهبت دوره. وهكذا انتهت حياة ذلك الوزير الذى استبد بالسلطة فى أواخر العصر الفاطمي واستعان بالعناصر الأجنبية لتثبيت نفوذه ولم يعد للصليبيين بعد مقتله من يحفزهم على التطلع الى غزو مصر.

أصبح أسد الدين شيركوه صاحب السلطان الفعلى فى البلاد بعد أن انتهى عهد شاور، فاتخذه العاضد وزيرا له، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش، وقلده جميع أمور الدولة. وجاء فى سجل تعيينه وزيرا:« وقلدك أمير المؤمنين أمر وزارته وتدبير مملكته وحياطة ما وراء سرير خلافته، وصيانة ما استخلف عليه دعوة امامته، وكفالة قضاة المسلمين وهداية رعاة المؤمنين..» ، كما أوصاه بأن يحسن معاملة رعاياه، بقوله: والرعايا قد علمت مانالهم من اجحاف الجبايات واسراف الجنايات وتوالي عليهم من ضرر النكايات، فأعمر أوطانهم التى خربها الجور والأذى، وأنف من مواردهم الكدر والقذى، وأحسن حفظ وديعة الله منهم،

يجعله اسقف على كرسي مما يخلو فصبر حتى
خلى كرسيين فلم يجعله فى واحد منهما بل كان
اهله وتلاميذه يخاطبوه بما يوجع قلبه فحينيذ
امتلا حنقا بمنعهم له من الاسقفية الذى دخل فى
قلبه محبتها، وهذا هو اول وجع لحق الشيطان
اعنى الكبريا لانه مكتوب اذا حبلت الشهوة ولدت
الخطية واذا نمت الخطية ولدت الموت، فمضى
يؤنس الراهب الى مصر ليشتكى.

وخفف الوطأة ما استطعت عنهم، وبدلهم من بعد خوفهم أمنا».

أقام أسد الدين شير كوه بدار الوزارة، التي كان ينزل فيها شاور ومن قبله من الوزراء، وسلك مع الخليفة العاضد مسلكا طيبا حتى أعجب به ومال اليه، وطلب الى أعيان الفسطاط وأهلها، الذين جلوا عنها خلال الفتنة، وقدموا الى القاهرة الرجوع اليها.

استطاع أسد الدين شيركوه خلال الفتره القصيرة التى قضاها فى الوزارة، أن يقبض على زمام الأمور فى البلاد، كما وزع الاقطاعات على عساكره، وقام بأعباء الدولة دون أن يحدث أى تغيير على أصحاب العاضد، ولم ينكر عليهم أمرا من أمورهم، بل أقر هم على عوائدهم. غير أنه لم يبق طويلا فى الوزارة، فقد توفى بعد أن ظل فى منصبه ما يقرب من ثلاثة أشهر.

اختلف خواص العاضد فيها يتولى الوزارة بعد وفاة شيركوه كما تنازل أمراء نور الدين الذين كانوا مع شيركوه فى طلب الرياسة والوزارة. لكن العاضد مال الى تولية صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقال لأصحابه من الأستاذين وغيرهم« والله أنى لأستحى من تسريح صلاح الدين، وما بلغت غرضا فى حقه لقرب عهد مقام عمه» (المقريزى: اتعاظ الحناف جـ٣ ص

ومن ها هنا نقطع الكلام لان فيما فعله الى ان نذكره فى موضعه.

فاما الملك الذى ذكرناه انفا [الحاكم بأمر الله](*) وانه تقلد امر المملكة وهو صبى صغير جدا وانه نشا وكبر وصار كالاسد يزير [يزأر] ويطلب فريسة وصار محب لسفك الدما أكثر من الاسد الضارى حتى ان جماعة احصو من قتل بامره فكان عدتهم ثمنية عشر الف انسان، اول ما

(*) القتل سياج الطغيان
الحاكم يقبض على السلطة ويتولى إدارة الشؤون. هيبته وروعة مظهره. كيف تصوره لنا الرواية الإسلامية. فتكه بابن عمار. مصرع عدة من الكبراء. مقتل الرئيس فهد.

٣٠٨.)، ثم أرسل فى طلبه وخلع الوزارة، ولقبه الملك القاهر فى اليوم الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ. وجاء فى سجل تقليده الوزارة:

«ولما رأى الله تقلب وجه أمير المؤمنين فى سمائه ولاه من اختيارك قبله، وقامت حجته عند الله باستكفائك وزيرا له ووزيرا للملة، فناجته مراشد الألهام وأضاءت له مقاصد لا تعقلها كل الأفهام وعزم له على أن قلدك تدبير مملكته..» فتقلد وزارة أمير المؤمنين من رتبتها التى تناهت فى الأناقة، الا أن لا رتبة فوقها الا ما جعلها الله للخلافة..».

شرع صلاح الدين بعد أن ولى وزارة العاضد الفاطمى فى استمالة قلوب الناس اليه. وكان لبذله الأموال عليهم أثره فى اكتساب محبتهم مما ساعد على تقوية مركزه فى مصر. كما عمل على التقرب الى الخليفة العاضد بما يرضيه، مما جعله يكسب رضاه.

على أن صلاح الدين مالبث أن استغل توليته الوزارة فى العمل على ازدياد سلطته واضعاف شأن الخليفة العاضد، فأمر بذكر اسم نور الدين محمود فى الخطبة بعد الخليفة الفاطمى، وأقطع أصحابه البلاد، وأسند اليهم بعض المناصب، واستبد بجميع الأمور، ومنع العاضد من التصرف، وبذلك كشف القناع عن حقيقة نواياه ازاء الخلافة الفاطمية، وتجلى للناس حرصه على القضاء عليها.

تولية العداس ومقتله. مقتل ريدان الصقلبى. حوادث قتل أخرى. مصرع زعماء كتامة. فتنة فى القضاء. النزاع بين القاضيين الحسين ابن النعمان وعبدالعزيز بن النعمان. تأييد الحاكم للحسين وخطابه له. تغيره عليه ومصرعه. مقاتل أخرى. ذعر رجال الدولة. استغاثة المتصرفين والعمال والخدم. صدور الأمانات لتطمينهم. ارتياع المجتمع القاهرى. الحسين بن جوهر وصهره عبدالعزيز بن النعمان. مطاردتهما ومصرعهما. مذبحة الغلمان والكتاب. مقتل القائد الفضل والوزير الروذبارى والوزير ابن عبدون وآخرين. مأساة القائد غبن وكاتبه الجرجرائى. موجة التقتيل والسفك. مقتل قاضى القضاة سعيد بن مالك. مقتل الوزير الوزان وغيره. عدد الضحايا. الإرهاب المنظم. القتل وسيلة للحكم. أقوال الرواية فى ذلك. السفك ملاذ الطغاة فى كل عصر.

* * *

كان الحاكم بأمر الله صبياً فى نحو السادسة عشرة، حينما بدأ يضطلع بمهام الدولة على هذا النحو. بيد أن هذا الفتى القوى النفس، كان حاكما حقيقياً يقبض على السلطة بيديه القويتين، ويشرف بنفسه على مصاير هذه الدولة العظيمة، ويبدى فى تدبير شؤونها نشاطاً مدهشاً، فيباشر الأمور فى معظم الأحيان بنفسه، ويتولى النظر والتدبير مع وزرائه[1]؛ وهكذا كان الأمير اليافع يؤثر العمل المضنى، على مجالى اللهو واللعب، التى يغمر تيارها من كان فى سنه، وفى مركزه وظروفه؛ وقد لزم الحاكم هذا النشاط المضنى طوال حياته. وكان الحاكم ذا بنية قوية متينة، وكان منذ حداثته يتمتع بمظهر الجبابرة، مبسوط الجسم، مهيب الطلعة، له عينان كبيرتان سوداوان تمازجها زرقة، ونظرات حادة مروعة كنظرات الأسد، لايستطيع الإنسان صبراً عليها، وله صوت قوى مرعب يحمل الروع إلى سامعيه[2]، وتقول الرواية المعاصرة فى وصفه: «كان منظره مثل الأسد، وعيناه واسعة شهل، وإذا نظر إلى الإنسان يرتعد لعظم هيبته، وكان صوته جهر مسخوف». ويقول الأنطاكى: «ولقد كان جماعة يتعمدون للقائه فى أمور تضطرهم إلى ذلك، فإذا أشرف عليهم سقطوا على الأرض وجلا منه، وفحموا على خطابه». ولقد كان الحاكم فى الواقع سليل نسل من الجبابرة الصحراويين الأقوياء، الذين يذهبون فى زهرة العمر والقوة[3]، وكان أبوه بالأخص عظيم القامة، عريض المنكبين، قوى التكوين[4]، فورث عنه ولده هذه الخواص الطبيعية البديعة، ولم يبددها فى شهوات النفس التى ينغمس فيها أبناء القصور.

وهنا يبدأ عصر الحاكم بأمر الله حقاً، وهو أغرب عصر فى تاريخ مصر الفاطمية، عصر يمازجه الخفاء والروع. وتطبعه ألوان من الإغراق والتناقض، مدهشة مثيرة معاً؛ ولكن هذه الألوان الخفية المغرقة، وهذه النواحى المتباينة، هى التى تسبغ على العصر أهميته وطرافته، وهى التى تحيط شخصية الحاكم بحجب كثيفة من الظلمات يصعب اختراقها. ويحسن قبل أن نعرض إلى درس هذه الشخصية العجيبة وقبل أن نحاول استجلاء غوامضها، واستقراء حقيقتها، أن نستعرض أولا أعمال الحاكم وتصرفاته، وحوادث العصر

---

(١) راجع ابن الصيرفى، الإشارة الى من نال الوزارة ص٢٦.

(٢) أخبار الدول المنقطعة للوزير جمال الدين المصرى (نسخة دار الكتب الفتوغرافية المحفوظة برقم ٨٩٠ تاريخ).

(٣) يلاحظ أن العزيز أبا الحاكم توفى فى الثالثة والأربعين، وأن جده المعز توفى فى السادسة والأربعين، وأن المنصور والد المعز توفى فى الثانية والأربعين (راجع خطط المقريزى ج٢ ص١٦٣ و١٦٧).

(٤) ابن الأثير ج٩ ص٤٠.

وظروفه، ثم نحاول على ضوئها أن نتفهم روح العصر، ونفسية تلك الشخصية الفريدة التى أفاضت عليه من خفاتها وروعتها، وملأته بنشاطها ونزعاتها وأهوائها، وتبوأت فيه المقام الأسمى.

* * *

تقدم الرواية الإسلامية إلينا، الحاكم فى صور مروعة مثيرة، فتقدمه إلينا أولا فى صورة جبار منتقم، وسفاك لا يخبو ظمؤه إلى الدماء، ثم تقدمه إلينا فى صورة طاغية، مضطرم الأهواء والنزعات، متناقض الرأى والتصرفات، لا تكاد تلمس لأعماله باعثاً أو حكمة، شرساً جموحاً، ميالا الى الشر، خؤونا وافر الغدر، لا يستقر على ثقة أو صداقة؛ وتقدمه الينا على العموم فى ثوب شخصية بغيضة خطرة، فاقدة الإتزان والرشد، يغلب عليها الجانب الأسود؛ ولكنها مع ذلك لا تنكر عليه بعض نواحى الخير والخلال الحسنة، فتصفه لنا بالجود والتقشف، والزهد فى كثير من من متاع الحياة الدنيا.

«وكان الحاكم سيىء الاعتقاد، كثير التنقل من حال الى حال... وكان مؤاخذاً بيسير الذنب، حاداً، لا يملك نفسه عند الغضب، فأفنى أمماً وأجيالا وأقام هيبة، عظيمة وناموساً»[1]. «وكان ردىء السيرة، فاسد العقيدة، مضطرباً فى جميع أموره، يأمر بالشىء ويبالغ فيه، ثم يرجع عنه ويبالغ فى نقضه»[2]. «وكانت خلالته متضادة بن شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء، وميل الى الصلاح، وقتل الصلحاء، وكان الغالب عليه الصلاح، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط»[3]. «وكان جواداً، سمحاً، خبيثاً ماكراً، ردىء الإعتقاد، سفاكا للدماء، قتل عدداً كبيراً من كبراء دولته صبراً، وكان عجيب السيرة، يخترع كل وقت أمورا وأحكاما يحمل الرعية عليها»[4]. «وكان حاله مضطرباً فى الجور والعدل، والإخافة والأمن، والنسك والبدعة»[5]. فى هذه الصور وأمثالها تقدم الرواية الإسلامية الينا الحاكم؛ ولا ريب أن فى حياة الحاكم وفى أعماله وتصرفاته، ما يبرر كثيرا من هذه الأوصاف المثيرة، غير أنها ليست كل شىء فى هذه الحياة العجيبة الغامضة، ومن الخطأ أن نقف عندها فى تصوير الحاكم والحكم عليه، ومن الواجب أن نتقصى فى حياة الحاكم جوانب أخرى، وأن نحاول تفهم شخصيته ونفسيته، على أضواء أخرى.

افتتح الحاكم عهد حكمه، بقتل برجوان وصيه ومدبر دولته، وكان للجريمة باعث سياسى قوى، فلم تكن يومئذ دليلا على حبه للسفك أو ظمئه الى الدم، وقد عنى الحاكم بأن يوضح لنا ظروفها ومبرراتها؛ غير أن الحاكم ما لبث أن أتبع ضربته بضربة دموية أخرى، هى مقتل الحسن بن عمار زعيم كتامة وأمين الدولة السابق؛ وكان الحاكم قد حماه من برجوان، وأطلق له رسومه وجراياته، وأذن له بالركوب الى القصر. ففى ذات مساء، حين انصرافه من القصر؛ انقض عليه جماعة من الغلمان الترك، كانت قد هيئت للفتك به، فقتلوه وحملوا رأسه الى الحاكم (١٤ شوال سنة ٣٩٠ ـ أكتوبر سنة ١٠٠٠م)[6]. ولم تكن للجريمة

---

(١) الوزير جمال الدين، أخبار الدول المنقطعة (النسخة الفتوغرافية المشار إليها).

(٢) المكين ابن العميد (تاريخ المسلمين) طبعة ليدن ص٢٥٩.

(٣) مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان لابن قزأوغلى المعروف بسبط ابن الجوزى ومنه عدة مجلدات فتوغرافية بدار الكتب (رقم ٥٥١ تاريخ) ومرجعنا منها هو المجلد الحادى عشر ج١٣ ص٤٠١ وما بعدها؛ (وأورده النجوم الزاهرة ج٤ ص١٧٦).

(٤) ابن خلكان ج٢ ص١٦٦. والذهبى فى تاريخه (مخطوط بدار الكتب) مجلد ٢٢ فى وفيات سنة ٤١١هـ (وأورده النجوم الزاهرج ج٤ ص١٧٨).

(٥) ابن خدون ـ كتاب العبر ـ ج٤ ص ٦٠.

(٦) المقريزى فى الخطط ج ٣ ص٥٨. وفى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ١٥٦.

بواعث ظاهرة، ولكنا نستطيع أن نعللها برغبة الحاكم في سحق الزعماء ذوى البأس والعصبية، وهي رغبة يدلل عليها كما سنرى في مواطن كثيرة، وكانت كتامة أقوى القبائل المغربية كما قدمنا، وكان ابن عمار أقوى زعماء الدولة. ولكن سنرى من جهة أخرى أن الحاكم يسرف في القتل، فيقتل وزراءه وغلمانه تباعاً، دون حكمة ظاهرة إلا ما كان من نزعة مؤقتة أو سخط فجائي.

في أواخر سنة ٣٩١هـ، قتل الحاكم مؤدبه أبا التميم سعيد بن سعيد الفارقي، قتل وهو يسامره في مجلسه، وكان قد رتب مقتله مع الغلمان الترك. وكان الحاكم قد نقم عليه تدخله في شئون الدولة وقراءة الرقاع. وفي المحرم من العام التالي (٣٩٢هـ)، قتل الحاكم ابن أبي نجدة متولي الحسبة، وكان بقالا وابتسم له الحظ، فأساء معاملة الناس، وتدخل فيما لا يعنيه من الشئون، فاعتقل ثم قطعت يده ولسانه، وضربت عنقه.

وفي المحرم سنة ٣٩٣هـ، قتل أبو علي الحسن بن عسلوج وأحرق، وكان من أكابر المباشرين لشئون المال. وفي جمادى الأولى من نفس العام (مارس ١٠٠٤م)، قتل الحاكم وزيره فهد بن ابراهيم النصراني، بعد أن قضى في منصبه زهاء ستة أعوام. وتقول الرواية الكنسية المعاصرة، إن الحاكم أمر بقتله لأنه أبى أن يعتنق الإسلام، وتجعل منه شهيدا، وتزعم أن جثته ألقيت الى النيران فلم تحترق. ولما قتل فهد، حمل أخوه أبو غالب الى سقيفة القصر من مال أخيه، جرابات بها خمسمائة ألف دينار، فلما وقف الحاكم على أمرها، أعرض عنها، ثم أمر بردها، فردت الى أولاد فهد، وقال أنا لم أقتله على مال، ورد الى أولاد فهد أيضا حق استعمال السروج المحلاة، وأذن لهم بالركوب. ولكنه ما لبث أن أمر بأبي غالب فقتل وأحرق بالنار لأقوال نقلت عنه. وأقام الحاكم مكان فهد في النظر والسفارة، أبا الحسن علي بن عمر العداس، وخلع عليه، وعلى ابنه محمد، وكذا على الحسين ابن طاهر الوزان. بيد أنه لم تمض سوى أشهر قلائل حتى سخط الحاكم على العداس، فقتل في شعبان وأحرق. وقبل ذلك في رجب قتل أبو طاهر محمود ابن النحوى متولي أعمال الشأم لكثرة تجبره وعسفه. وفي أواخر ذى الحجة من نفس العام، قتل أبو الفضل ريدان الخادم الصقلبي صاحب المظلة، وكان الحاكم قد أعتقه، وأمر أن يكتب في مكاتباته «من ريدان مولى أمير المؤمنين». وبعد ذلك بأسابيع في المحرم من العام التالي (٣٩٤هـ) خلع الحاكم على مظفر الخادم الصقلبي، وندبه مكان ريدان لحمل المظلة[1].

وفي سنة ٣٩٤هـ (١٠٠٥م) قتل أكثر الأعيان ورجال الدولة. وقد ذكر لنا المقريزى ثبتا طويلا ممن قتلهم الحاكم في تلك السنة، فكان منهم العسكرى منجمه، وأبو علي عسلوج الديباجي، وعلي بن المندو في الشاعر الأعمى، واسماعيل بن سوار، وابن أبي خريطة، وقد كانا من أصحاب برجوان، وابن المغازلي المنجم، وسهل بن كلس أخو يعقوب الوزير، قتل لشدة طمعه وشراهته، وحاول أن يفتدى نفسه بثلاثمائة ألف دينار فلم يجب. وقتل القائد أبو عبدالله الحسين بن الحسن البازيار، لأنه كان إذا دخل المدينة من باب البحر يضع قدمه على عنق دابته، وكان الحاكم وهو في منظرته كثيراً ما يراه واضعاً قدمه قبالته. وقتل عدة من زعماء كتامة، منهم المقداد بن جعفر، وعلي بن سلمان وأخوه يحيى، وخلف بن عبدالله، وابن سمود الكتامي، ومحمد بن علي بن فلاح، وغيرهم، وقتل أيضاً عدد كبير من الغلمان والخاصة والجند والرعية لأسباب مختلفة. وخرج الكتاميون إلى باب الفتوح فترجلوا وكشفوا، رؤوسهم،

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٦ ب و٥٧ ا و ب و١٥٨.

واستغاثوا بعفو أمير المؤمنين، فاستدعى الحاكم جماعة منهم، ووعدهم خيراً، وكتب لهم سجل قرىء بالقصر والجوامع بإعلان الرضى عنهم، وإعادتهم إلى رسومهم ومكانتهم[(1)].

وفي شعبان من هذا العام صرف الحسين بن النعمان عن القضاء؛ وكان الحسين قد غدا موضع سخط الناس حتى اعتدى بعضهم عليه خلال جلوسه بالجامع، فندب الحاكم جماعة للركوب معه في كل مجلس؛ وكان الحسين يتمتع بعطف الحاكم وثقته، وله عنده منزلة خاصة حتى عظم شأنه، وتمكن سلطانه. وكان فضلا عن رياسته للقضاء، يشغل في نفس الوقت منصب داعي الدعاة. ثم بدأ أمر القضاء يضطرب، وظهرت في الأفق فتنة أشاعت الفوضى بين القضاة والمتقاضين. وكان أصل الفتنة يرجع إلى ما شجر من خلاف بين الحسين بن النعمان بصفته قاضياً للقضاة، وبين عبدالعزيز بن محمد بن النعمان متولي المظالم. وذلك أن عبدالعزيز اعتمد جماعة اختارهم للشهادة لديه، فكان من حاكم خصمه إلى الحسين، لجأ خصمه إلى المرافعة لدى عبدالعزيز، والأمر بالعكس. وكان عبدالعزيز إذا جلس للنظر في المظالم، حضر شهوده عنده، وأشهدهم فيما يفعل ويمضي، ولا يحضر أحد منهم عند الحسين، وبقية الشهود القدماء يشهدون عنده؛ بينما يحضر غيرهم مجلس عبدالعزيز. وهكذا، حتى اضطربت الأوضاع، وأضحى المتقاضون في حيرة وبلاء، من جراء هذا الخلاف المستمر. ولما كثر النزاع بين القاضيين، وذاع أمره، كتب الحاكم بخطه كتابا الى النعمان يعرب عن استنكاره لما وقع، ويؤكد ثقته في الحسين، وحقه في الانفراد باختصاصه، ووجوب التجاء الخصوم إليه متى ترافع أحدهم لديه. ولكن الخلاف استمر بعد ذلك يتفاقم، وأخذ الحسين يفقد مكانته شيئاً فشيئاً، حتى انتهى الأمر بتغير الحاكم عليه وإقالته، وذلك لريبة علقت به في اختلاس بعض الودائع القضائية، وكان الحاكم قد شدد عليه في صونها. فلزم الحسين داره متوجسا خائفا؛ وندب عبدالعزيز ابن النعمان لتولى أعماله، مضافة الى ما بيده من ولاية المظالم، وخلع عليه، وأذن له بأخذ الفطرة والنجوى، وقراءة مجالس الدعوة بالقصر. بيد أنه لم تمض أشهر أخرى حتى أدركته نقمة الحاكم، فقتل في السادس من المحرم سنة ٣٩٥هـ، ثم أحرقت جثته بعد ذلك، وكان قد شغل منصب القضاء منذ سنة ٣٨٩هـ، ولبث فيه زهاء خمسة أعوام ونصف، وكان عالما أديبا، يلتف حوله العلماء والأدباء[(2)].

وتلا مصرع الحسين مقتلة أخرى زهق فيها عدد كبير من الخاصة والعامة، يربى عددهم على مائة، قتلوا أو أحرقوا[(3)]، وقتل جماعة من الأعيان صبراً[(4)]. وكان من أكابر القتلى يومئذ عبد الأعلى بن هاشم من قرابة الحاكم، أمر بقتله لما بلغه عنه من أنه يتحدث بأنه سوف يلي الخلافة، وأنه وعد قوماً من الملتفين حوله بولاية بعض الأعمال[(5)].

ولم يك ثمة ريب في أن هذه المذابح المتوالية، كانت عنوان نزعة خطيرة البطش والقتل،

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٨ ب، والخطط ج ٤ ص٦٩.

(٢) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٦ ب و٥٧ أو ٥٨ ب و ٦٠.

(٣) الخطط ج ٣ ص ٣٢ و ج٤ ص٧٠.

(٤) لنجوم الزاهرة ج ٤ ص٢١٢.

(٥) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٠.

واحتقار الحياة البشرية، وكان أشد الناس تعرضاً لهذه النزعات الخطرة، أقرب الناس إلى الحاكم، من الوزراء والكتاب والغلمان والخاصة؛ ولم يكن الكافة أيضاً بمنجاة منها، فكثيراً ما عرضوا للقتل الذريع لأقل الريب والذنوب، أو لاتهامهم بمخالفة المراسيم والأحكام الغريبة الصارمة، التي توالى صدورها في تلك الفترة، وكان رجال الدولة ورجال القصر، وسائر العمال والمتصرفين، يرتجفون رعباً وروعاً أمام تلك الفورات الدموية؛ وكان المجتمع القاهري، ولاسيما التجار وذوي المصالح والمعاملات يشاطرونهم ذلك الروع. ويروي لنا المسبحي صديق الحاكم ومؤرخه فيما بعد، أن الحاكم أمر في سنة ٣٩٥ (١٠٠٥م) بعمل شونة كبيرة مما يلي الجبل ملئت بالسنط والبوص والحلفا، فارتاع الناس وظن كل من له صلة بخدمة الحاكم، من رجال القصر أو الدواوين، أنها أعدت لإعدامهم، وسرت في ذلك إشاعات مخيفة، فاجتمع سائر الكتاب وأصحاب الدواوين، والمتصرفين من المسلمين والنصارى، في أحد ميادين القاهرة، ومازالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر، فوقفوا على بابه يضجون ويتضرعون، ويسألون العفو عنهم؛ ثم دخلوا القصر، ورفعوا إلى أمير المؤمنين، عن يد قائد القواد الحسين بن جوهر، رقعة يلتمسون فيها العفو والأمان، فأجابهم الحاكم على لسان الحسين إلى ما طلبوا؛ وأمروا بالانصراف والبكور لتلقي سجل العفو؛ وفي اليوم التالي صدر سجل كتبت منه نسخة للمسلمين، وأخرى للنصارى، وثالثة لليهود، بالأمان والعفو عنهم[1]. واشتد الذعر بالغلمان والخاصة على اختلاف طوائفهم، فضجوا واستغاثوا وطلبوا العفو والأمان فأجيبوا إلى ما طلبوا؛ وتبعهم في الاستغاثة التجار وأرباب المهن والحرف؛ وتوالى صدور الأمانات لمختلف الطوائف، فصدر أمان للغلمان الأتراك، وصبيان الخاص والغلمان والعرفاء، وصبيان الدار، وأصحاب الاقطاعات والمرتزقة، والغلمان الحاكمية، وصدر أمان لخدم القصر الموسومين بخدم الحضرة، بعد ما اجتمعوا وهرعوا إلى قبر العزيز وضجوا بالبكاء والاستغاثة، وكتبت عدة أمانات للديلم والغلمان الشرابية والغلمان المرتاحية والعلمان البشارية، والنقباء والروم المرتزقة؛ وصدرت أمانات لسكان الأحياء المختلفة، ولسائر الطوائف مثل العطوفية، والجوانية، والجودرية، والمظفرية، والصنهاجيين، والميمونية، وقرئت هذه الأمانات ووزعت على أهلها. وكذلك صدرت أمانات أخرى تربى على المائة لأهل الحرف والأسواق، قرئت كلها بالقصر وكلها من نص واحد. وقد أورد المسبحي إحدى هذه الوثائق ونصها: «هذا كتاب من عبدالله ووليه المنصور أبي علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبدالله: إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين، وأبينا علي خير الوصيين، وآبائنا الذرية النبوية المهديين، صلى الله على الرسول ووصية وعليهم أجمعين، وأمان أمير المؤمنين على النفس والأهل والدم والمال، لا خوف عليكم ولا تمد يد بسوء إليكم، إلا في حد يقام بواجبه، وحق يؤخذ لمستوجبه، فليوثق بذلك، وليعول عليه إن شاء الله تعالى، وكتب في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة، والحمد لله وصلى الله على محمد سيد المرسلين وعلى خير الوصيين، وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة وسلم تسليما كثيرا»[2].

وهكذا هبت على المجتمع القاهري ريح من الرهبة والخشوع، وأصبح اسم هذا الخليفة الفتى، الذي لم يجاوز

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٩ ب. وقد كانت الأوامر والقوانين والمراسيم، التي تصدر عن الخلافة الفاطمية، تسمى أولا «بالسجلات»، ثم سميت في أواخر الدولة «بالعهود» (راجع صبح الأعشى ج١٠ ص٣٠٨).

(٢) المقريزي في الخطط ج٣ ص ٣٢، ٣٣، وفي اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٠.

يومئذ العشرين من عمره، وأصبحت نزعاته وتصرفاته، مثار الرعب والروع. ولم يك ثمة ريب في أن القتل كان في نظر الحاكم خطة مقررة، ولم يكن فورة أهواء فقط. وقد لزم الحاكم هذه الخطة الدموية طول حياته. ووقعت في الأعوام التالية، حوادث ومناظر من القتل الذريع لا نهاية لها، وكانت تقترن أحيانا بضروب مروعة من القسوة. وقلما كان يغادر الحكم وزير أو كبير من كبراء الدولة إلا مسفوك الدم، وفي الأحوال النادرة التي ينجو فيها المعزول بحياته، كانت تلازمه نقمة الحاكم حتى يهلك.

وتقدم إلينا قصة الحاكم مع قائد القواد الحسين بن جوهر، وصهره القاضي عبدالعزيز بن النعمان متولي المظالم، مثلا من أروع أمثلة هذه المطاردات الدموية التي امتاز بها عهد الحاكم. ففي شعبان سنة ٣٩٨هـ (١٠٠٩م)، عزل قائد القواد الحسين بن جوهر، وعين مكانه أبو الفضل صالح بن علي الروذباري لينظر في سائر الأمور التي كان ينظر فيها، ولقب «بثقة ثقات السيف والقلم». ولم تمض أسابيع قلائل حتى أمر الحاكم الحسين وصهره عبدالعزيز بلزوم دارهما، ومنعا وسائر أولادهما من الركوب. ثم عفا عنهما، وأذن لهما في الركوب. وبعد ذلك بأشهر قلائل في جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ، صدر الأمر بالقبض عليهما، فقبض على عبدالعزيز بن النعمان، وفر الحسين وأبناؤه وجماعة، واضطربت القاهرة لمكانة الحسين، وأغلقت الأسواق، فأفرج عن عبدالعزيز، وعاد الحسين مع أولاده، وعفا الحاكم عنهما، بعد أن ارتميا على أعتابه واستجارا به؛ ولكنهما لم يطمئنا طويلا إلى هذا العفو المريب؛ فعمدا إلى الفرار مع أولادهما وجماعة، وغادرا القاهرة تحت جنح الظلام، ومعهما أموال وسلاح (ذو القعدة ٣٩٩هـ)؛ وفي صباح اليوم التالي سير الحاكم الخيل في طلبهما، فلم تدركهما، فأمر بمصادرة أملاكهما، وأحيط بسائر مالهما من المال والمتاع، وأخذت إلى الديوان المفرد؛ وأنفذت لهما كتب الأمان في نفس الوقت. والتجأ الحسين وعبدالعزيز إلى البحيرة، واحتميا بعرب بني قرة، وتوالت عليهما كتب الحاكم بالأمان والعودة. ولكن الحسين اشترط لعودته أن يصرف الوزير ابن عبدون متولي السفارة، لتخوفه من نياته وغدره، فصرفه الحاكم نزولا على هذه الرغبة، وعاد الحسين وعبدالعزيز، بعد أن استوثقا من الخليفة بالأمان والعفو، ودخلا القاهرة في موكب حافل، ومثلا بحضرة الحاكم، فأصدر الحاكم عفوه عنهما، وقرىء سجل أمانهما علنا، وأشهد الحاكم قاضي القضاة على نفسه بالوفاء بنصه، وأذن للحسين في أن يلقب بقائد القواد. وكان ذلك في المحرم سنة ٤٠١هـ. واستمر الحسين وعبدالعزيز يركبان إلى القصر على رسمهما المعتاد بضعة أشهر. وفي ذات يوم استبقيا بالقصر «لأمر تريده الحضرة»، فجلسا وانصرف الناس. ثم قتلا فجأة وذلك في ١٢ جمادى الآخرة سنة ٤٠١هـ (أوائل ١٠١١م)؛ وأحيط في الحال بدورهما وأموالهما، وصودرت، وحملت إلى الديوان المفرد، وهو الديوان الذي أنشأه الحاكم برسم من يؤخذ ماله من المقتولين وغيرهم. وكذلك أخذت سائر الأمانات والسجلات التي كتبت لهما. وعاد الحاكم بعد ذلك فاستدعى أولاد القتيلين، ووعدهم بالجميل وخلع عليهم. وقيل إن ولد الحسين وهم ثلاثة فروا إلى الشام، واستغاثوا بحاكم أنطاكية البيزنطي، فسير الحاكم إلى والي الشام بوجوب القبض عليهم. فأخذوا بالحيلة، وقتلوا وأرسلت رؤوسهم إلى القاهرة (سنة ٤٠٣هـ)[1].

وكان لمقتل الحسين بن جوهر والقاضي عبدالعزيز، وقع عميق في البلاط وفي الشعب، فالحسين

---

(١) المقريزي في الخطط ج٣ ص ٢٣ و ٢٤، وفي اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٢ ب و ٦٣ ب؛ وتاريخ الأنطاكي ص١٩٩.

ولد فاتح مصر ومؤسس دولة الفاطميين فيها، وعبدالعزيز هو حفيد القاضي الكبير النعمان القيرواني وسليل تلك الأسرة الفقهية النابهة التي حملت زعامة الدولة الروحية منذ نشأتها، وكانت من أعظم أوليائها، وكانت المأساة خاتمة لنفوذ هاتين الأسرتين.

وإليك طائفة أخرى من حوادث القتل والسفك التي أمعن فيها الحاكم: في سنة ٣٩٩هـ (١٠٠٩م)، قبض الحاكم على جماعة كبيرة من الغلمان والكتاب والخدم الصقالبة بالقصر، وقطعت أيديهم من وسط الذراع ثم قتلوا، وقتل الفضل بن صالح من أعظم قواد الجيش، وهو الذي ظفر بالثائر أبي ركوة وأخمد ثورته كما سيجيء؛ وفي العام التالي وقعت مقتلة أخرى بين الغلمان والخدم، وقتل جماعة من العلماء السُنية، وقتل أسامة بن محمد اللغوي والحسين بن سليمان الأنطاكي النحوي، وفر ثالثهم عبدالغني بن سعيد، وذلك بسبب اجتماعهم بدار العلم (دار الحكمة). وقتل رجاء بن أبي الحسين لأنه صلى صلاة التراويح في رمضان، وقتل الرواة أو أصحاب الأخبار عن آخرهم لكثرة أرجافهم، وابتزازهم أموال الناس بالأكاذيب[1].

وقتل في العامين التاليين عدة متعاقبة من الوزراء ورجال الخاص. وكان الحاكم قد أسند في المحرم سنة ٣٩٩هـ، نظر ديوان الخراج إلى أبي نصر بن عبدون الكاتب النصراني. ولم يمض على ذلك زهاء عام، حتى صرف صالح بن علي الروذباري، «ثقة ثقات السيف والقلم» (صفر سنة ٤٠٠هـ)، وعين مكانه ابن عبدون لينظر فيما كان ينظر فيه من الأعمال، وخلع عليه ولقب بالكافي. وأذن لصالح بالركوب إلى القصر. ولم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى قبض على صالح وقتل (شوال سنة ٤٠٠هـ)، وقتل في نفس الوقت غالب بن ملاك متولي الشرطتين والحسبة، وقتل عدة كبيرة من الكتاب والخدم وغيرهم. وصرف ابن عبدون عن النظر، بناء على رغبة الحسين بن جوهر كما تقدم (المحرم سنة ٤٠١هـ)، وعين مكانه أحمد بن محمد القشوري الكاتب ليتولى شؤون الوساطة والسفارة؛ وصدر لابن عبدون أمان كتبه الحاكم بخطه، وكان الحاكم يثني عليه، وعلى خدماته. بيد أنه لم تمض أشهر قلائل حتى اعتقل ابن عبدون وقتل، وأخذت أمواله. وأما ابن القشوري فإنه لم يمكث في منصبه سوى عشرة أيام، ثم قبض عليه فجأة وضربت عنقه، وذلك لما بلغ الحاكم عنه من أنه كان يبالغ في تعظيم الحسين ابن جوهر، والعناية بشؤونه. وعين مكانه للوساطة والسفارة، أبو الجيوش زرعة بن عيسى بن نسطورس (المحرم سنة ٤٠١هـ) ولقب بالشافي. واستمر ابن نسطورس في منصبه زهاء عامين ثم مرض وتوفي (ربيع الثاني سنة ٤٠٣هـ) فكان من الرجال القلائل الذين عصمهم الموت أو حسن الطالع من بطش الحاكم. ويقول لنا المقريزي، إن الحاكم تأسف على موته من غير قتل. وقال: «ما أسفت على شيء قط أسفي على خلاص ابن نسطورس من سيفي، وكنت أود لو ضربت عنقه لأنه أفسد دولتي، ونافق علي، وكتب إلى حسان بن الجراح في المداجاة علي، وأنه يبعث بمن يهرب إليه»[2].

وللحاكم قصة دموية مروعة مع خادمة غبن، وكاتبه أبي القاسم الجرجرائي. وكان غبن من الخدم السود الذين يؤثرهم الحاكم بعطفه وثقته، فعينه في ربيع الأول سنة ٤٠٢هـ، للشرطة والحسبة بمصر والقاهرة والجزيرة، والنظر في جميع الأموال والأحوال، ولقب في سجل تعيينه بقائد القواد، وأن يكاتب بذلك، وعهد اليه بنوع خاص بتنفيذ المراسيم الدينية والاجتماعية مثل مطاردة المسكرات، والمنع من بيع العسل والفقاع والملوخية وغيرها مما أمر

---

(١) المقريزي في الخطط ج٤ ص٨٨، وفي اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٣ب.

(٢) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٥ ب و ٦٦أ.

بمنعه، ومنع الملاهي واجتماع الناس في المآتم، والسير خلف الجنائز وغيرها. وعهد غبن بالكتابة عنه إلى أبي القاسم أحمد بن علي الجرجرائي؛ وسطع نجم غبن وعلت مكانته، حتى أنه لما مرض، ركب الحاكم لعيادته، وسير إليه خمسة آلاف دينار، وخمسة وعشرين فرسا. غير أن هذه المظاهر البراقة لم تحل دون نكبته. وكان الحاكم قد سخط عليه قبل ذلك ببضعة أعوام، وأمر بقطع يده فصار أقطع اليد. وفي صفر سنة ٤٠٤، صرف غبن عن الشرطتين والحسبة، وقلدت لمظفر الصقلبي حامل المظلة. ولم يمض سوى قليل حتى سخط عليه الحاكم كرة أخرى. وأمر بقطع يده الثانية (جمادى الأولى)، فقطعت وحملت الى الحاكم في طبق، فبعث اليه الأطباء للعناية به، ووصله بمال وتحف كثيرة. ولكن لم تمض أيام قلائل على ذلك، حتى أمر بقطع لسانه، فقطع، وحمل الى الحاكم أيضا، ومات غبن بعد قليل من جراحه (جمادى الأولى سنة ٤٠٤هـ).

وشملت النقمة أبا القاسم الجرجرائي كاتب غبن، فقد أمر الحاكم بقطع يديه عقب صرف غبن (ربيع الآخر سنة ٤٠٤هـ). وسبب ذلك أنه كان من قبل في خدمة ست الملك أخت الحاكم، وتركها دون رضاه ليلتحق بخدمة غبن؛ ثم بعث اليها برقعة يستعطفها فيها، فارتابت منه، وبعثت بها الى الحاكم فسخط عليه، وأمر بقطع يديه، ويقال بل إنه كان يفض أحيانا المرقاع المختومة المرفوعة الى الحاكم، ويطلع على محتوياتها، وأبقى الحاكم بعد ذلك على حياة الجرجرائي، فعاش أقطع اليدين[1].

وفي ربيع الآخر سنة ٤٠٥هـ (١٠١٤م) قتل قاضي القضاة مالك ابن سعيد الفارقي. وكان قد عين لقضاء القاهرة في سنة ٣٨٩هـ، كما تقدم. ثم ولي منصب قاضي القضاة في رجب سنة ٣٩٨هـ، وخلع عليه، وقرىء سجل تعيينه بالجامع العتيق كالعادة، وعهد إليه بكتب الدعوة التي تقرأ بالقصر على الأولياء. وجمعت له ولاية المظالم والأحباس والدعوة ودار الضرب ودار العيار وأمر الأضياف؛ فعلت منزلته، واجتمعت معظم الدواوين في يده، وتوثقت صلاته بالحاكم، وكان يركب معه ليلا ونهاراً ويشاوره في الأمور، وزادت إقطاعاته وأسلاكه من الدور والضياع وغيرها، وقصده أصحاب الحاجات من كل صوب. وكان جواداً فصيحاً، عف اللسان، كثير الصون. فحدث في ذات مساء من ربيع الأول (٤٠٥هـ)، أن ركب الحاكم ليلا كعادته إلى الجب، وفي ركبه عدد من الناس، ومنهم مالك بن سعيد، فلما سلم على الحاكم، أعرض عنه، فتأخر، فجاء غادى الصقلبي متولي الستر، وأخذه إلى القصور وقتله، وتركت جثته، حتى مر بها الحاكم عند عوده، وأمر بدفنها. ولم يعرف بالضبط سبب مصرعه على هذا النحو، بيد أنه ظن أنه كان يتهم بموالاة سيدة الملك أخت الحاكم ومراعاتها، وكان الحاكم يحقد عليها، كما سيجيء. ولما قتل استدعى الحاكم أولاده، وخاطبهم، ولم يتعرض لشيء من تركة أبيهم، وأقر ولده أبا الفتوح على رسمه وإقطاعه[2].

وفي أواخر شعبان من هذا العام، خلع على أبي العباس محمد بن عبدالله ابن العوام، وصدر سجل بتقليده منصب قاضي القضاة، فعين خلفاءه في مصر والقاهرة وغيرهما، ونقل ديوان الحكم من بيت مالك بن سعيد إلى بيت المال بالجامع العتيق، وكان أول من فعل ذلك من القضاة. وكانت دواوين القضاء تعقد في دورهم، فجعلها بالجامع العتيق، وجعل جلوسهم بالجامع، يومي الاثنين والخميس،

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٥ أو ب و٦٧ أ و ب، والنجوم الزاهرة ج٤ ص٢٢٣.

(٢) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ١٦٢ و ب ولوحة ٦٨ ب.

وبالقاهرة يوم الثلاثاء، وخصص يوم السبت للحضور بالقصر. واستمر ابن العوام في منصبه حتى نهاية عهد الحاكم، ولم تمتد إليه يد الفتك، التي امتدت إلى أسلافه[1].

ولم يمض شهران على مقتل قاضي القضاة مالك بن سعيد، حتى قتل الحاكم وزيره الحسين بن طاهر الوزان، وكان هذا الوزير ملحقاً بخدمة القائد غبن، وعرضت عليه الوساطة، فأجاب بشرط أن يكون لكل طائفة من العسكر زمام يرجعون إليه، وأن يكون نظره هو على الأزمة مجتمعة، ويخصص يوم لشئون كل طائفة، فقبل اقتراحه، وخلع عليه وقرر للوساطة والتوقيع (ربيع الأول سنة ٤٠٣هـ)؛ ثم لقب «بأمين الأمناء». واستمر في منصبه زهاء عامين، وفي ذات يوم ركب الحاكم، ومعه أمين الأمناء، الحسين ابن طاهر على رسمه، فلما انتهى إلى حارة كتامة خارج القاهرة، أمر به فضربت عنقه، ودفن في مكان مصرعه (جمادى الآخرة سنة ٤٠٥هـ). وقتل الحاكم في نفس الوقت عبدالرحيم بن أبي السيد الكاتب متولي ديوان النفقات، وأخاه الحسين متولي الوساطة والسفارة، قتلا في القصر في منتصف شهر رمضان من نفس العام، ولما يمض على نظرهما أكثر من شهرين. وقلد الوساطة أبو العباس يفضل بن جعفر بن الفرات، ثم قتل لأيام قلائل من تعيينه[2].

وهكذا استمر الحاكم في الفتك بالزعماء، ورجال الدولة من الوزراء والكتاب، والموقعين، والعلماء، ورجال القصر من الأساتذة والخدم الصقالبة، ومن إليهم من الحشم حتى أباد معظمهم؛ هذا عدا من قتل من التجار والصناع والكافة، خلال هذه الأعوام الرهيبة، وهم ألوف عديدة[3]. وتقدر الرواية المعاصرة ضحايا الحاكم بثمانية عشر ألف شخص من مختلف الطبقات.

وأحياناً كان القتل يبدو في نظر الحاكم، ضرباً من ضروب اللهو أو الرياضة، إذا صدقنا ما تسوقه إلينا الرواية من حوادث تدل بذلك. فقد نقل إلينا المقريزي ما رواه ابن سعيد عن أحمد بني الحسين الروذباري، من أن الحاكم، قتل ذات يوم ركابيا بحربة في يده على باب جامع عمرو، وتولى شق بطنه بيده؛ ونقل إلينا عن أبي سعيد أيضاً، أن الحاكم كان يواصل أثناء طوافه الوقوف بحانوت ابن الأزرق الشواء ويحادثه، ويبدي عطفه عليه؛ وفي ذات يوم استدعي الحاكم أحد الركابية من السودان المصطنعة بحضرة حانوت ابن الشواء، فوقف بين اثنين من زملائه ورماه برمح، ثم أضجعه، واستدعى سكيناً فذبحه بيده، ثم استدعى ساطورا، فقذف به رأسه وجسده، ثم استدعى ماء فغسل يده. ثم أمر بعد ذلك بغسله ودفنه، وأن تحمل له جنازة حافلة، وصلى عليه قاضي القضاة[4].

وفي أحيان أخرى، كان الحاكم يطرب لمناظر المغامرات المميتة، فمثلا يروي لنا المقريزي في حوادث سنة ٣٩٧هـ، أن الحاكم في شهر صفر من هذه السنة، رسم لجماعة من الأحداث أن يتباروا في القفز من موضع عال بالقصر، ورسم لكل منهم بصلة، فحضر منهم جماعة، وتباروا في القفز، فمات منهم ثلاثين إنسانا، لسقوطهم خارجاً على صخر قريب، ودفع لمن نجا منهم مالا[5].

والآن ماذا نستطيع أن نقرأ في هذا الثبت الدموي الحافل من

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٨ب.

(٢) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٦ أ و٦٨ب و٦٩أ.

(٣) أخبار الدول المنقطعة (النسخة الفتوغرافية) ونهاية الأرب (النسخة الفتوغرافية) ج٢٦ ص ٥٢ و ٣٥، وتاريخ الأنطاكي ص٢٠١.

(٤) المقريزي في اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٧٠ ب و ٧١أ.

(٥) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٩ب.

خواص الحاكم وصفاته؟ لقد كانت هذه الجرائم المثيرة بلا ريب عنوان اجتراء مروع على الشر، وشغف واضح بالسفك، واحتقار بين للحياة البشرية؛ ولكنها لم تكن نزعة دموية فقط، ولم تكن بالأخص دون غاية. كان الإرهاب فى نظر الحاكم وسيلة للحكم، وكان القتل المنظم دعامة هذا الإرهاب الشامل؛ فإذا زعيم أو رجل من رجال الدولة، أو رجال الخاص، وصل إلى مدى خطر من السلطان والنفوذ، فإن القتل أنجع وسيلة لسحقه وسحق نفوذه؛ وإذا وزير أو كاتب أو موقع بدرت منه بادرة انحراف أو خيانة أو تطلع أو تدخل فيما لا يعنيه، قضى عليه بأن يختفى من الميدان؛ وإذا بدرت من قاض نزعة ضعف فمال مع الهوى، وامتدت يده إلى مال حرام أو رشوة، فإن مقتله يغدو كفيلا بسحق الفساد والسلم، وعود الثقة إلى القضاء والعدالة؛ وإذا بدرت من فريق من الناس بادرة تذمر، أو تمرد على أمر من الأوامر أو قانون من القوانين، فإن إزهاق عدد منهم يكفل عودهم إلى السكينة والخشوع. وكانت هذه السياسة الدموية تحيط عرش الحاكم بسياج منيع من الرهبة، وتؤيد حفظ النظام والأمن والسكينة، وتخمد الأطماع المتوثبة فى مهدها، وتنذر الزعماء ورجال الدولة بالخضوع المطلق لهذا الفتى الجرىء. ولقد كان القتل دائماً وسيلة الطغاة إلى تأييد سلطانهم، وكان الحاكم طاغية قوى النفس والشكيمة.

يقول الأنطاكى وهو مؤرخ معاصر: «وأقام له «أى الحاكم» من الهيبة فى نفوس الكافة، لشدة سطوته وتسرعه الى سفك الدماء، وأنه لا يبقى على من صغر ذنبه وقل، فضلا عمن عظم جرمه وجل»[1].

وإذن فلم يفت الرواية الإسلامية والنصرانية أيضاً، المعاصرة والمتأخرة، أن تلاحظ أن خطة القتل الذريع التى لجأ إليها الحاكم قد «أقامت له هيبة عظيمة وناموساً» وحملت «كافة الناس على غاية الهيبة له والخوف منه»، وعانت على توطيد سلطانه طوال مدة حكمه.

ونستطيع أن نلاحظ أن الالتجاء الى مثل هذه الوسائل الدموية لتأييد الحكم والسلطان، ليس خاصاً بنظم العصور الوسطى، أو بسياسة الطغاة فى تلك العصور، ففى عصرنا وفى أرقى الأمم الغربية تعتمد النظم الطاغية (الدكتاتورية)، ويعتمد أقطاب الطغاة فى تأييد هذه النظم، الى مثل هذه الوسائل الذريعة، وترتكب هذه المذابح دائما باسم سلامة الدولة وسلامة النظم القائمة؛ والواقع أنها ليست دائما إلا شهوة من شهوات أولئك الذين يقبضون على زمام السلطة، ويحرصون على استبقائها بأى الوسائل، ويرتجفون دائما لشبح أية معارضة يهمس بها الخصوم الأقوياء.

هذا ويفسر لنا بعض الروايات، إسراف الحاكم فى القتل، بأنه كان تقرباً منه «لزحل وطالعه المريخ»، وقد كان الحاكم شغوفاً بالفلك ورصد النجوم كما سنرى[2].

المراسيم الاجتماعية والدينية

شغف الحاكم بالليل. الحياة والأنوار الليلية. العاصمة الساطعة المرحة. وقف الحياة الليلية. مدينة القاهرة فى هذا العصر. الطرائف من خواص حياة الحاكم. عناصره الاجتماعية والشعبية. بعض نوادر عنه. موجة المراسيم المدهشة. المراسيم الاجتماعية. تحريم بعض البقول والأسماك والأبقار. حظر التبرج على النساء. مطاردة المسكرات. تحريم الزبيب والعنب واتلافهما. مطاردة البغاء ودور اللهو. قتل الكلاب. مراسيم أخرى. اضطراب الحياة الاجتماعية. المجاعة والوباء. قبض الحاكم على أموال أهله. تحريم الخوض فى الشؤون العامة. منع النساء من زيارة القبور والاجتماع والاستحمام. تحريم التنجيم

---

(١) الأنطاكى ص٢٢١.

(٢) مرآة الزمان (النسخة الفتوغرافية) المجلد ١١ ج٣ ص٤٠١ و ٤٠٧ و ٤٠٨، وأورده النجوم الزاهرة ج٤ ص١٧٧.

والغناء. الحجر المطلق على النساء. الصرامة في تنفيذ هذه القوانين. المراسيم الدينية. ملابس النصارى واليهود. هدم بعض الكنائس. مرسوم بهدم كنيسة القمامة. ملابسات هذا المرسوم. إلغاء الأعياد النصرانية. التشريع المرهق للذميين. اضطراب المجتمع النصراني. هدم الكنائس ونهبها ونزع أملاكها. اعتقال البطريرك القبطي. محنة الذميين. إطلاق الهجرة لهم. هدوء المطاردة. إلغاء القوانين المرهقة. إطلاق حرية الشعائر. إعادة بناء الكنائس. الأمان الذى صدر للنصارى. سجلات مختلفة للنصارى. بواعث المطاردة الدينية. تطوراتها في الدولة الفاطمية. أول تشريع للذميين في الإسلام. السياسة المذهبية. سب السلف ومحوه. التوفيق بين الأحكام الدينية. الصلاة والأذان. الزكاة والنجوى. الحاكم وأصول الإسلام. أقوال الدعاة السريين في ذلك. عقيدة الحاكم الدينية.

* * *

كان شغف الحاكم بالليل من أظهر خواص هذه المرحلة من حكمه. كان الحاكم يعقد مجالسه ليلا، ويواصل الركوب كل ليلة، ويتفق شطراً كبيراً من الليل، في جوب الشوارع والأزقة (سنة ٣٩١هـ)، وصدرت الأوامر بهذه المناسبة بتعليق المصابيح ليلا، على جميع الحوانيت وأبواب الدور والمحال المختلفة في جميع طرقات القاهرة والفسطاط، وتكرر هذا الأمر غير مرة في الأعوام التالية، وكان يقرن بأمر آخر هو وجوب كنس الشوارع والأزقة وأمام أبواب الدور في كل مكان، فكانت المدينة تبدو في هذه الفترات بالليل كأنها شعلة مضيئة، وتبدو في نفس الوقت في ثوب مشرق من النظافة والإناقة، ولازم الحاكم الركوب في المدينة المنيرة، وكان يزور كل ليلة حياً معيناً ويشق طائفة من الشوارع والدروب، ويقيم الحسبة بنفسه أحيانا، ويستطلع أحوال الشعب وأخباره أو على قول المقريزى: «فكان يركب إلى موضع موضع، وإلى شارع شارع، وإلى زقاق زقاق»؛ وأصبحت جميع الأعمال والمعاملات تجرى بالليل وتزدهر مواطن السمر، وتختلط حياة الجد بحياة اللهو والقصف، فتسطع الميادين بالوقود والشموع الكبيرة، وتزين الأسواق والقياسر بمختلف أنواع الزينة، وتغص بصنوف اللهو والمرح، وتنفق الأموال الوفيرة في المآكل والمشارب والسماع؛ وكان الشعب القاهرى يحتشد حول مليكه أينما وجد، في جموع غفيرة، وكان الحاكم يشق جموع الشعب المحتشدة في بساطة ورقة، ولا يمنع أحدا من الدنو منه أو من مخاطبته، واستمر الحال على ذلك أشهرا، وظهر النساء في المجتمعات بكثرة[1]، فلما خرج الناس في ذلك عن الحد، وبالغوا في اللهو والإسراف والزينة والمجون، منع الحاكم النساء من الخروج ليلا منذ العشاء لكي تخف عوامل الفتنة والغواية، وعوقب المخالفات بشدة؛ ثم منع الرجال من ارتياد الحوانيت والمقاهى، وأبطلت بعد ذلك جميع الأعمال والمعاملات ليلا، وعاد الظلام يخيم على القاهرة بالليل، (سنة ٣٩٣هـ). وشغف الحاكم بالليل وظلماته من غريب أطواره ونزعاته، حتى أنه كان يؤثر الجلوس في الظلام[2].

وإنه لمن الشائق أن نعرف ماذا كانت عليه مدينة القاهرة المعزية في هذا العصر المليء بالأحداث المدهشة. وقد رأينا كيف نشأت القاهرة على يد جوهر، مدينة ملوكية متواضعة لاتتجاوز مساحتها. ميلا في ميل، وتضم القصر الخليفى وحدائقه، ومساكن الحاشية. وخطط الجند، ويتوسطها الجامع الأزهر، ومن حولها السور اللبن الساذج الذى أنشأه جوهر لحمايتها من عدوان القرامطة. بيد أن المدينة الفاطمية

(١) خطط المقريزى ج٣ ص١٧٦؛ واتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٦ ب و ٥٧ أ.

(٢) مرآة الزمان الجزء المشار إليه ج ٣ ص٤٠١ (وأورده النجوم الزاهرة ٤ ص١٧٦).

أخذت تنمو بسرعة، ولم يمض جيل واحد، حتى اتسعت جنباتها، ونمت نمواً عظيماً، وقامت الأحياء والخطط الجديدة خارج الأسوار، واتصلت بمصر الفسطاط، وامتزجت المدينتان وتداخلتا، وصارتا تكونان معاً، مدينة من أكبر وأعظم مدن الإسلام في العصور الوسطى.

وكان اسم القاهرة المعزية يطلق على مجموعة الخطط التي تقع داخل السور الذى أنشأه جوهر، ولكن هذا السور غير مراراً أثناء الدولة الفاطمية، وأنشئت فيما وراء الأسوار القديمة خطط وأحياء جديدة فخمة؛ وكان أعظم تغيير طرأ على الأسوار، هو مشروع السور العظيم الذى أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالي في عهد المستنصر بالله في سنة ٤٨٦ هـ، وهو السور الذى مازال يقوم من أبوابه العظيمة إلى اليوم ثلاثة، وهى بابا النصر والفتوح في الشمال، وباب زويلة في الجنوب، وهى من أعظم الآثار الفاطمية الباقية.

وكانت القصور الفاطمية، قد نمت، وبلغت في عصر الحاكم منتهى الضخامة والبذخ. وكان القصر الخليفي الكبير أو القصر الشرقي، يقع في وسط المدينة، في منطقة خالية، وأمامه من الناحية الغربية يقع القصر الغربي أو القصر الصغير، وهو الذى أنشأه الخليفة العزيز بالله، وخصص فيما بعد لإقامة ابنته ست الملك، وبينهما ميدان شاسع هو ميدان بين القصرين الشهير، وهو الذى كانت تجتمع فيه الجيوش المسافرة، أو الحرس الخليفي، أو طوائف الشعب أيام الأعياد والأحداث العامة. وقد وصف لنا ناصرى خسرو الذى زار القاهرة بعد عصر الحاكم بنحو ربع قرن فقط (سنة ٤٣٨ هـ)، هذا القصر الفاطمي الكبير بقوله: «انه قصر شاسع تراه من خارج المدينة كأنه جبل نظرا لضخامة مبانيه وارتفاعها. ولا يمكن أن تراه من داخل المدينة إذ تحيط به أسوار شاهقة الارتفاع. ويقال إن هذا القصر يضم من الحشم اثنى عشر ألف نفس. ومن ذا الذى يستطيع أن يقول كم يضم من النساء والبنات. وهم يؤكدون أنه يضم ثلاثين الف شخص، ويتكون القصر من عشرة أجنحة، وله عشرة أبواب تفضى الى الحرم».

ثم يقول ناصرى خسرو، إن القاهرة لها خمسة أبواب، وهى ليست محصورة في رقعة محصنة، ولكن المباني والمنازل مرتفعة جدا، حتى إنها تبدو أعلى من الحصن، وكل منزل، وكل قصر يمكن اعتباره قلعة، ومعظم المنازل يضم خمس أو ست طبقات.

وقد بنيت منازل القاهرة بمنتهى العناية والشرف، حتى ليمكن أن يقال إنها قد بنيت من الأحجار الكريمة، وليس من الآجر والأحجار العادية. والمنازل كلها منعزلة بحيث أن الأشجار القائمة في أحدها لا تصل أغصانها الى المنزل الآخر، ويستطيع كل إنسان أن يهدم داراه وأن يبنيها دون أن يضار أحد.

وتضم القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف حانوت كلها من أملاك الخليفة، ومنها عدد عظيم يؤجر الحانوت منه بعشرة دنانير مغربية في الشهر، والقليل منها يؤجر بأقل من ذلك. كذلك يوجد منها عدد عظيم يصعب حصره من الخانات والحمامات وغيرها من الأبنية العامة. وهذه كلها أيضا من أملاك الخليفة، إذ لا يسمح لإنسان أن يمتلك منزلا أو عقارا إلا ما كان من أبنية الخليفة نفسه.

وأما عن مدينة مصر أو الفسطاط فيقول لنا ناصرى خسرو، إنها كانت هى العاصمة، وانها تقوم على ربوة مرتفعة تظللها من الناحية الشرقية، سلسلة منخفضة من التلال، ويقوم جامع ابن طولون على

مرتفع يشرف على المدينة. وقد بنيت مصر على هذا المرتفع الصخرى لكى يحميها من مياه النيل، وأن من يتأملها عن بعد، يتوهم أنه يرى جبلا، ومن بين مبانيها دور من أربعةعشرة طابق أو سبعة، وبها سبعة جوامع كبيرة[1].

كانت القاهرة، فى عصر الحاكم إذن، سواء من حيث رقعتها ومبانيها وعمرانها، وأحيائها الداخلية والخارجية، مدينة عظيمة، تموج بسكانها الذين ربما بلغوا مع ضم الفسطاط إليها نحو نصف مليون من الأنفس. وكان الحاكم يجد فى طوافه الليلى بعاصمته الكبيرة الزاخرة، من ضروب الحركة والنشاط، ومن صور الحياة الإجتماعية المختلفة، ما يشغله ويذكى اهتمامه، ويملى عليه مختلف المشاريع والقرارات.

وشغف الحاكم بالطواف بمدينة القاهرة وضواحيها طول حياته؛ وقد كان طوافه على هذا النحو، سواء بالنهار أو الليل من أبرز مظاهر نشاطه، وحياته العامة، كما كان من أبرز ظواهر حكمه. وقد نقلت إلينا الرواية عنه صوراً ومناظر منوعة، كلها تستحق الدرس والتأمل، والإعجاب أحياناً.

فكان الحاكم فى مستهل حكمه، كثيراً ما يركب إلى ناحية سردوس، وإلى بركة الجب، وإلى عين شمس وحلوان، للصيد وغيره. ثم كان بعد ذلك يواصل الركوب إلى الصحراء، بحذاء فى رجله، وعلى رأسه فوطة، فيركب كل ليل بعد المغرب. وفى أواخر عهده (سنة ٤٠٤هـ)، كان الحاكم يواصل الركوب فى العشايا. وقد اتخذ له فى هذه الفترة خادماً ركابياً أسود، كناه بأبى الرضا سعد، وأغدق عليه الهبات والإقطاعات، فقصده الناس فى حوائجهم، وقصدوا بابه لمهماتهم، فكان يتوسط بينهم وبين الحاكم، وكان الحاكم يجيب سؤله فى أحيان كثيرة. وكانت هذه المواكب الخلافية البسيطة، تقرن فى معظم الأحيان، مثل ما كانت فى أوائل عهد الحاكم، باحتشاد طوائف الشعب من حوله، وأقبالهم عليه. ويصف لنا المقريزى هذا المنظر فى حوادث رمضان سنة ٤٠٤هـ، حينما ركب الحاكم لصلاة الجمعة بجامع القاهرة (الجامع الأزهر)، فيقول: «فازدحم الناس عليه بعد ركوبه من الجامع إلى القصر، فوقف لهم، وأخذ رقاعهم، وحادثهم وضاحكهم، فلم يرجع إلى القصر من كثرة وقوفه، ومحادثة العوام، إلى غروب الشمس؛ ودفع صلات كثيرة».

واستمر الحاكم فى العام التالى (٤٠٥هـ) على منواله فى الركوب والطواف، فكان يواصل الركوب، ويأخذ الرقاع، ويقف طويلا مع الناس. وفى جمادى الأول من هذا العام، كثر ركوبه، حتى كان يركب فى اليوم الواحد عدة مرار، وكثرت هباته وأعطيته. ثم أمر بابتياع الحمير، وصار يركبها من تحت السرداب إلى باب البستان إلى المقس، وتغلق الأبواب التى يتوصل منها إلى المقس وقت ركوبه، ومنع الناس من الخروج إلى هذا الموضع. وفى رمضان من نفس العام كثر ركوب الحاكم بشكل ظاهر، فركب فى يوم واحد ست مرات، تارة على فرس، وأخرى على حمار، ومرة فى محفة، تحمل على الأعناق، ومرة فى عشارى فى النيل، وهو يلف رأسه بشاشة لا عمامة عليها، وكثرت إقطاعاته للجند والعبيد، واستمر على الركوب إلى ليلة النحر[2].

وقد نقلت الينا الرواية

---

(١) ناصرى خسرو. رحلته وتفكيره الدينى وفلسفته وشعره (بالفرنسية) للدكتور يحيى الخشاب ص١٠٢ و١٠٣ و١٠٩ - ١١١.

(٢) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٥ ب و٦٧ أ و بو ٦٩ أ.

أحاديث ونوادر كثيرة عن المناظر التى كانت تقترن بهذا الطواف، وعما كان ينزع اليه الحاكم أحيانا من الأهواء العنيفة خلال طوافه؛ ومن ذلك أنه كان يأمر بإحراق الشون ليتمتع بمرأى النيران، وأنه لقى ذات مساء عشرة من الناس سألوه الإحسان، فأمر أن ينقسموا الى فريقين يتقاتلان حتى يغلب أحدهما فينعم عليه، فتقاتلا حتى فنى منهم تسعة وبقى واحد، فألقى اليه الدنانير، فلما انحنى ليأخذها عاجله الركابية بقتله، وأنه مر ذات ليلة على دكان شواء، فانتزع منه سكينا وقتل بها أحد الركابية المقربين لديه بغير ما سبب معروف، وتركت الجثة فى موضعها، وفى اليوم التالى أنفذ الحاكم اليه كفناً جليلاً، ودفن مع التكريم. وتزيد الرواية على ذلك أن الحاكم كان أحيانا يلهو أثناء طوافه برؤية بعض المناظر الخليعة المثيرة، بيد أن هذه روايات تحمل الطابع القصصى، ويحفها فى نظرنا كثير من الريب[1].

وفى تلك الفترة الحافلة من عهد الحاكم، وهى التى تملأ نحو عشرة أعوام من سنة ٣٩٥هـ، إلى سنة ٤٠٥هـ، وهى التى تميزت بنزعاته الدموية وكثر فيها مقتل الزعماء ورجال الدولة وأفراد الرعية، كما تميزت بطوافه المستمر المضنى، نرى الحاكم يصدر تباعا طائفة من الأوامر والقوانين (السجلات) المدهشة التى لم يسمع بمثلها من قبل فى أى مجتمع إسلامى. وكانت هذه المراسيم دينية واجتماعية، وكان مما يزيد فى غرابتها وغموض بواعثها، أنها كانت تصدر ثم تمحى بعد قليل وتستبدل بعكسها، ثم يعاد صدورها وهكذا. وقد اتخذ المؤرخون المسلمون على كر العصور، هذه المراسيم، حجة للحكم على الحاكم وعصره بأقسى الأحكام، واكتفوا فى تعليلها بنظرية بسيطة، هى أن الحاكم كان ذهناً مضطرباً لا يصدر عن روية أو حكمة، ولم تكن هذه الأوامر والاجراءات الشاذة، سوى نزعات مخبول لا يستقيم له منطق أو غاية. ويحسن قبل أن نناقش هذا الرأى، أن نستعرض هذه المراسيم أولا وأن نحاول أن نتفهمها، وأن نستقصى بواعثها على ضوء الظروف التى كان يجوزها المجتمع يومئذ

ـ ١ ـ

ونبدأ بالمراسيم الاجتماعية. فى المحرم سنة ٣٩٥هـ، صدرت أول طائفة من هذه الأوامر المدهشة، فصدر سجل يمنع الناس من أكل الملوخية والترمس والجرجير والمتوكلية والدلينس[2]، وحرم ذبح الأبقار السليمة إلا فى أيام النحر (عيد الأضحى وغيره). وفى غيرها، لا يذبح إلا ما كان ذو عاهة أو ما لا يصلح للحرث؛ وحرم بيع الفقاع وعمله بأى صورة، وكان الفقاع مسكراً ذائعاً فى ذلك العصر؛ وحرم صيد السمك الذى لا قشر له وكذلك بيعه؛ وحرم دخول الحمام بلا مئزر، وهوجمت الحمامات تباعا وقبض على المخالفين فأدبوا وشهروا؛ وشدد على النخاسين، وتجار الرقيق فى المنع من بيع العبيد والأماء لأهل الذمة، ثم أمر بعد ذلك ألا يدخل سوق الرقيق أحد إلا أن يكون بائعاً أو مشترياً؛ وأن يفرز الجوارى من الغلمان، وأن يجعل لكل منهم يوم خاص؛ وحرم على النساء أن يكشفن وجوهن فى الطريق، أو خلف الجنائز، وحرم عليهن التزين والتبرج كما حرم البكاء والعويل والصياح وراء الموتى؛ وشدد الحاكم فى تنفيذ هذه الأوامر، وعوقب كثيرون من المخالفين بالجلد والتشهير والإعدام[3]. ثم حرم على الناس أن يخرجوا من منازلهم إلى الطرقات منذ الغروب الى الفجر، وأن يزاولوا البيع والشراء بالليل، فخلت الطرق من المارة، وأقفرت

---

(١) تاريخ الأنطاكى ص٢٠٩ و٢١٧.

(٢) قال ابن البيطار فى مفرداته، الدلينس اسم بالديار المصرية لنوع من الصدف صغير يؤكل نيئا مملوحا يتأدم به.

(٣) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٩ أ.

الشوارع والميادين بالليل، وغدت القاهرة كالمدينة المحصورة.

وفى ربيع الأول سنة ٣٩٩هـ، صدر سجل بالمنع من عمل النبيذ والمزر، وحذر من التظاهر بشيء من ذلك، أو من الفقاع والدلينس، والسمك الذى لا قشر له، والترمس المتعفن، وجاء هذا السجل مؤكداً لهذه المطاردة العنيفة المنظمة التى شهرت فى عهد الحاكم على الخمر والمسكرات بأنواعها، والمواد التى تصنع منها؛ وفى العام التالى صدر سجل بالتشديد فى حظر الخمور وبيعها، وبإراقة النبيذ وجميع أنواع المسكر، وكسرت أوانى الخمور، وأريقت فى كل مكان، وشدد على الخمارين وبدد كل ما فى دورهم ومحلاتهم واستمرت هذه الشدة، وتناهت فى العام التالى (٤٠١هـ). وفى المحرم من سنة ٤٠٢هـ، قلدت الشرطتان لمحمد بن نزال، وصدرت إليه الأوامر، بمضاعفة الحزم فى تتبع المسكرات ومنعها، وأن يحرم. بيع الزبيب إلا خمسة أرطال فما دونها، والا تباع الجرار. ولم تمض سوى أشهر قلائل، حتى حرم بيع الزبيب إطلاقاً، وأمر بمصادرته، وألقيت منه فى النيل مقادير كبيرة، وأحرقت مقادير أخرى كانت فى مخازن التجار، وتوالى هذا الإحراق أياماً بحضرة الشهود. وفى شهر ذى الحجة (٤٠٢هـ) عمل عيد الغدير على رسمه، ومنع مرة أخرى من بيع الزبيب إلا أن يكون أربعة أرطال فما دونها، ومنع من اعتصاره، ثم أمر بإتلافه ومنع بيعه البتة، وأغرق ما وجد منه فى النيل. وطاف المأمورون بأنحاء الجيزة، وكانت يومئذ عامرة بحدائق الكروم فجمعت الأعناب، وطرحت تحت أرجل البقر لدوسه، وصدرت الأوامر بذلك إلى مختلف الجهات؛ وتتبع من يبيع العنب، وشدد فى ذلك حتى اختفت آثاره. ثم ختم بعد ذلك على العسل، وصودرت منه آلاف من الجرار وأغرقت فى النيل؛ وتكرر تحريم المسكرات والفقاع الزبيب فى سجل جديد صدر فى جمادى الآخرة سنة ٤٠٣هـ، وهكذا خصت الخمر ومصادرها طوال عهد الحاكم بأقسى المطاردات وأعنفها[١].

وفى سنة ٤٠١هـ، صدر سجل بمنع الغناء واللهو، وأمر أن لاتباع مغنية، وألا يجتمع الناس فى الصحراء، ومنع النساء من الغناء والنشيد. وهوجمت أماكن البغاء والقصف بشدة وأزيلت دورهم وأوكارهم، وطهرت منهم أحياء المدينة، وكانوا ينبشون فى معظم جنباتها[٢].

وفى سنة ٣٩٥هـ أمر بتتبع الكلاب وقتلها أينما وجدت إلا كلاب الصيد، فطوردت فى كل مكان، وأعدمت حتى خلت منها جميع الطرق والدور[٣] وتكررت هذه الحملة ضد الكلاب بعد ذلك، فى سنتى ٤٠٤هـ، ثم ٤٠٥هـ، وقتل منها فى كل من عدد لا يحصى؛ وقيل فى سبب قتلها إن الحاكم كان يسير فى ركبه ذات يوم فاعترض مطيته كلب، فوثبت وكادت تلقيه على الأرض، وقيل إنها كانت تكثر النباح بالليل وتزعجه فى طوافه فأمر بتطهير الطرقات منها[٤]؛ ولكن سنرى أن قتلها كانت تمليه بواعث صحية؛ وأمر أيضاً بقتل جميع الخنازير التى فى كورة مصر فقتلت عن آخرها[٥]. وفى هذا العام أيضاً (٣٩٥هـ) حرم على كل من يركب مع المكاريين أن يدخل راكباً من باب القاهرة، وحرم ذلك على المكاريين أنفسهم، وحظر على التجار والباعة أن يجلسوا على باب

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ١٦٣أ و ١٦٥أ و ب؛ والخطط ج٤ ص٧٢. وراجع ابن خلكان ج٢ ص١٦٦.

(٢) الأنطاكى ص١٨٦.

(٣) ابن خلكان ج٢ ص١٦٦، والمقريزى ج٤ ص٦٩ و ٧٠، والأنطاكى ص١٨٧.

(٤) فى سير البيعة المقدسة (المخطوط الكنسى). والأنطاكى ص١٨٨.

(٥) سير البيعة المقدسة.

الزهومة (من أبواب القصر)، وألا يمشي أحد بحذاء القصر، ثم أعفى المكارية بعد ذلك من الأمر، وصدر لهم أمان خاص[(١)].

وهكذا اضطربت أوضاع الحياة الاجتماعية في مصر، واستمر تطبيق القوانين والأوامر الجديدة على أشده. وفي سنة ٣٩٨هـ صدرت عدة مراسيم (سجلات) جديدة تكراراً لما سبق الأمر به، فمنع الناس من التظاهر بالغناء، ومن ركوب البحر للتفرج، وذلك لمناسبة نقص النيل في هذا العام، وشدد في منع بيع الخمور؛ ثم صدر مرسوم بمنع الناس كافة من الخروج قبل الفجر وبعد العشاء، فزادت المعاملات اضطراباً واشتد الأمر على الكافة، وسرى إليهم الخوف والجزع؛ واشتد الغلاء من جراء قصور النيل وهلاك الزرع، واشتكى الناس خاصة من قلة الخبز وسواده، ومن غلاء الدقيق والأرز، وتفاقمت الحال بظهور الوباء، وعصف المرض والموت، وعز القوت والدواء والفواكه، واشتدت المحنة بالناس مدى أشهر، وحمل الوباء منهم ألوفاً كثيرة؛ واتخذ الحاكم بعض الإجراءات لمقاومة الغلاء فأمر بألا يخزن أحد من المؤن أكثر من حاجته، وحددت أسعار القمح والمواد الغذائية الأخرى، مثلما تعمل أرقى الحكومات في عصرنا عند الطوارىء، وعوقب المخالفون بالموت[(٢)]. وفي سنة أربعمائة منع ركوب المراكب في الخليج، وسدت أبواب القاهرة التي تلي الخليج وأبواب الدور والطاقات المطلة عليه[(٣)] وعوقب الكثيرون من أجل إحراز الفقاع والملوخية والسمك الذي لا قشر له ومن بيع النبيذ واحرازه، وطورد السكارى والمخالفون بشدة، وكانت العقوبة تصل في أحيان كثيرة إلى الإعدام.

ومن غريب تصرفات الحاكم في تلك الفترة، أنه قبض على جميع أملاك زوجه وأمه وأخته وعماته وخواصه وجواريه وسائر اقطاعاتهن وأموالهن بمصر والقاهرة وكانت جملة عظيمة (سنة ٣٩٩هـ)، ولم تفهم حكمة هذا التصرف أو بواعثه، بيد أنها كانت فيما يظهر ثورة مؤقتة، وقد عاد فرد الأمور إلى نصابها فيما بعد[(٤)].

وفي صفر سنة ٣٩٩هـ، صدر سجل «بترك الخوض فيما لا يعني، والاشتغال بالصلوات في أوقاتها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألا يخوض أحد في أحوال السلطان وأوامره، وأسرار الملك»؛ وفي ذي العقدة من العام التالي تكرر هذا الأمر بترك الخوض فيما لا يعني. وفي سنة ٤٠١، قرىء سجل جديد مماثل بالنهي عن معارضة الإمام فيما يفعله أو يصدر عنه من الأوامر والأحكام، وترك الخوض فيما لا يعني. وكانت النفوس قد اضطرمت من جراء هذه الأوامر المتتابعة، والقيود المضنية، واستطالت ألسنة الكافة وبدت عليهم أمارات التذمر والخوف؛ فصدر من أجل ذلك سجل قرئ في سائر الجوامع بتسكين قلوب الناس وتطمينهم، لكثرة ما داخلهم من التوجس والخوف من أوامر «الحضرة» (أي الخليفة). وفي أوائل سنة ٤٠٣هـ، بدت أعراض الخوف والذعر على كثير من الطوائف فكثر اقتناء الناس للسلاح، وحمله كثير من الكافة، وكثر الكلام في ذلك، فقرىء سجل جديد بالجوامع بتطمين الناس، واعراضهم عن أقوال المرجفين[(٥)]. وأمر في نفس السجل بإعادة «حي على خير العمل» في الأذان، وإسقاط

---

(١) المسبحي في حوادث سنة ٣٩٥، ونقله المقريزي في الخطط ج٣ ص٤٤.

(٢) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٣أ و ٦٤أ، وتاريخ الأنطاكي ص١٩١.

(٣) المقريزي عن المسبحي ج٣ ص٣٨.

(٤) تاريخ الأنطاكي ص١٩٥.

(٥) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٥ ب.

«الصلاة خير من النوم» والنهي عن صلاة التراويح والضحى.

وفي سنة اثنتين وأربعمائة منع النساء من زيارة القبور، فلم تر في الأعياد بالمقابر امرأة واحدة، ومنعن من الاجتماع في المآتم، ومن السير وراء الجنائز، ومن الاستحمام في الحمامات العامة؛ ومنع الاجتماع على شاطيء النيل للتفرج وركوب النساء مع الرجال، وخروجهن إلى مواضع الفرجة مع الرجال؛ وحرم لعب الشطرنج وجمع حيثما وجد وأحرق، وعوقب المخالفون بالحبس والجلد (٤٠٣هـ).

وفي نفس العام (٤٠٢هـ)، صدر مرسوم (سجل) بتحريم صناعة التنجيم والكلام فيها، وأن ينفي المنجمون من سائر المملكة، فاستغاث المنجمون بالقاضي الأكبر مالك بن سعيد الفارقي، فعقد لهم التوبة من هذه الصناعة وأعفوا من قرار النفي، وحدث مثل ذلك للمغنين والمطربين، فهجروا الغناء وأعفوا من المطاردة.

وللحاكم مع النساء قصة شهيرة؛ فقد رأينا فيما تقدم كيف صدرت أوامر الحاكم تباعا، بمنعهن من التبرج، وألا يكشفن عن وجوههن في الطريق، أو يجتمعن في المآتم أو يسرن خلف الجنائز، أو يزرن المقابر، أو يقمن بالغناء والنشيد، أو يجتمعن مع الرجال في أماكن الفرجة، أو يخرجن من دورهن بعد العشاء الآخرة؛ وكان النساء يمتثلن لهذه القيود الجزئية المتتابعة، ويقبلنها على مضض، في انتظار إلغائها أو التخفيف منها. بيد أن الأمور بالعكس كانت تتجه الى التشدد في معاملتهن، والقضاء التام على حريتهن، ومحو أثرهن من الحياة العامة. ففي شعبان من سنة ٤٠٤هـ (١٠١٤م) ذهب الحاكم في معاملة النساء إلى ذروة القسوة والشدة؛ فأصدر مرسومه الشهير بمنعهن من مغادرة دورهن والخروج الى الطرقات بالليل والنهار، ويستوى في ذلك أن تكون المرأة شابة أو عجوزا؛ فاحتبس النساء في ظلام دورهن، ولم تر امرأة في الطريق؛ ولم يستثن من ذلك سوى النساء في ظلام دورهن، ولم تر امرأة في الطريق؛ ولم يستثن من ذلك سوى النساء المتظلمات للشرع، والخارجات الى الحج، أو المسافرات اللاتي تضطرهن ظروف قاهرة إلى السفر، والأماء اللاتي برسم البيع، والقابلات، وغاسلات الموتى، والأرامل اللاتي يبعن الغزل، وأن يكون خروج هؤلاء لمزاولة شؤونهن برقاع خاصة ترفع الى القصر، وتصدر بها تصاريح يقوم بتنفيذها مدير الشرطة؛ ومنع النساء من دخول الحمامات العامة، ومنع الأساكفة من عمل أخفافهن؛ فاختفى النساء من المجتمع المصرى، وساده الانقباض والوحشة، وأغلقت المتاجر التي تبيع السلع النسوية؛ وساد الذعر بين النساء، يقول المقريزى مشيرا إلى عيد الفطر من سنة ٤٠٤هـ «ولا رؤيت امرأة، ولا أبيع شيء مما عادته يباع في الأعياد من اللعب والتماثيل»؛ وحاول النساء التظلم من هذا القرار، وذهب الكثيرات منهن الى القصر داعيات متظلمات فلم يفزن بطائل؛ وعوقب كثير من النساء المخالفات بالضرب والحبس، وعوقب بعضهن بالموت. وفي العام التالي، أي في سنة ٤٠٥هـ، كررت هذه الأوامر القاسية، وشدد في تنفيذها. ولم يقتصر منع النساء على الخروج الى الطرقات بل نص أيضا على منعهن من التطلع من النوافذ والطيقان شبابهن وعجائزهن. واشتد الأمر بنساء الكافة اللاتي ليس لهن من يقوم بأمرهن، واستغثن بأولي الأمر، فأمر الباعة أن يحملوا السلع والأطعمة وكل ما يباع في الأسواق الى الدروب، ويبيعونه للنساء في منازلهن، وأن يحمل الباعة أداة كالمغرفة لها

ساعد طويل يمد الى المرأة وهى من وراء الباب وفيه ما تشتريه، فتتناوله وتضع مكانه الثمن، ولا يسمح مطلقاً أن تبدو من وراء الباب[1]. وعانى النساء هذه الشدة زهاء سبعة أعوام حتى وفاة الحاكم بأمر الله؛ وكان حادثاً مروعا منقطع النظير، ولم يحدث قط فى أى مجتمع إسلامى، بل لم يحدث فى أى عصر من عصور التاريخ، أن عانى النساء مثل هذه المحنة القاسية، وسلبن الحرية على هذا النحو الشامل.

وكان مما يزيد فى صرامة هذه القوانين الإستثنائية، الشدة فى تنفيذها، وروعة العقوبات التى سنت لمخالفيها؛ وكان السهر على تطبيقها من أهم واجبات مدبر الدولة أو قائد القواد، فنجد مثلا فى السجل الصادر بتعيين «غبن» قائداً للقواد ومديراً للشرطة والحسبة (سنة ٤٠٢هـ)، تنويهاً خاصاً بمراعاة تحريم النبيذ وغيره من الخمور وتتبع ذلك والتشديد فيه، وفى تحريم الفقاع وبيعه، وتحريم أكل الملوخيا والسمك الذى لا قشر له، والمنع من الفرجة والملاهى كلها، ومنع النساء من حضور الجنائز، ومنع بيع الزبيب والعنب والعسل إلا ثلاثة أرطال فما دونها أو لمن لا تتجه اليه مظنة اتخاذه مسكرا[2]، وكانت عقوبات المخالفين تختلف بين التشهير[3] والحبس والجلد، وتصل فى أحيان كثيرة إلى الإعدام.

هذا استعراض واف لما صدر فى عهد الحاكم بأمر الله من المراسيم والأوامر (السجلات) الاجتماعية الاستثنائية، ومعظمها يحمل طابع القسوة والشذوذ، ولكن سنرى أنها لم تكن دون غاية، ولكنها غاية المستبد الذى يظن نفسه عادلاً ملهماً ويخضع فى ذلك لثقافة وأواضع عصرة التابعة من ذهنية دينية تظن إن الاصلاح لا يأتى إلا عن طريق القسوة والعنف. ولم تصدر كما يبدو لأول وهلة، عن نزعة مخبول أو هائم، وأن كثيراً منها يحمل بالعكس طابع الطرافة والحكمة، ويرمى الى غايات بعيدة، قد فطن اليها هذا الذهن الجرىء، واتخذ منها مثلا.

ـ ٢ ـ

نعرض بعد ذلك إلى طائفة أخرى من مراسيم الحاكم بأمر الله هى المراسيم الدينية، وقد كانت كالمراسيم الإجتماعية تحمل فى كثير من الأحيان طابع الشدة والتناقض.

وبدأ الحاكم بهذه المراسيم (السجلات) الدينية لأول عهده بالحكم أيضاً. ففى السابع من المحرم سنة ٣٩٥هـ، قرىء سجل بالجوامع، يؤمر فيه النصارى واليهود بلبس الغيار وشد والزنار ولبس العمائم اسود، والسواد هو شعار العباسيين، وهم عصاة فى نظر الفاطميين.

وفى ليلة عيد الشعانين من سنة ٣٩٨هـ، منع النصارى من تزيين كنائسهم على جرى عادتهم، وقبض على جماعة منهم بسبب ذلك. وفى رجب من نفس العام صدر سجل بمصادرة الاوقاف المحبسة على الكنائس، وضمها إلى جانب الديوان السلطانى، وكتب إلى سائر الأعمال بذلك؛ وأحرقت صلبان كثيرة على أبواب الجوامع، وفى دار الشرطة[4].

وفى سنة ٣٩٩هـ أمر بهدم بعض كنائس القاهرة ونهب ما فيها، ومنها كنيسة اليعاقبة بحارة الروم؛ بعد أن أصدر أخطر سجل تطبيقاً لهذه السياسة هو المرسوم

---

(١) الأنطاكى ص٢٠٨، وابن خلكان ج٢ ص١٦٧، والمقريزى فى الخطط ج٣ ص٧٣، وفى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٥ و ٦٧ب؛ و٦٨أ، وابن الأثير ٩ يص ١٠٩.

(٢) المقريزى فى الخطط ج ٤ ص٨٨.

(٣) التشهير هو أن يطاف بالمذنب على حمار أو جمل وتعلق عليه كتابة بمضمون ذنبه، وقد يكون عقوبة أصلية، وقد يعقبه بعد ذلك جلد أو إعدام.

(٤) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ١٦٢أ، وفى الخطط ج٤ ص٤١٨.

الخاص بهدم كنيسة القيامة (قمامة)[1] أو القبر المقدس ببيت المقدس؛ ويضع المقريزى تاريخ هذا المرسوم الشهير فى أواخر سنة ٣٩٨هـ، ولكن الرواية النصرانية تضع تاريخه فى سنة ٧٢٧ للشهداء[2]، وهى توافق سنة ٣٩٩هـ (١٠١٠م)، وكان حادثاً جللا فى تاريخ الكنيسة؛ وتقول الرواية الكنيسة المعاصرة إن هذا السجل الشهير صيغ فى تلك العبارة الموجزة: «خرج أمر الإمامة إليك بهدم قمامة. فاجعل سماءها أرضا، وطولها عرضاً»، وتزيد على ذلك أن الذى كتبه كاتب نصرانى يسمى ابن شترين، وأنه توفى بعد كتابته بأيام قلائل ندما وحزناً، وأنفذ السجل إلى يختكين والى الرملة (فلسطين)، فقام بتنفيذه فى الحال، وأحيط على ما بالكنيسة من الذخائر والتحف والآنية المقدسة، وهدمت سائر رحابها وقبابها، وأزيلت كنيسة مارى قسطنطين التى بداخلها، وأصبحت الكنيسة العظمى أثراً بعد عين، ولم يبق منها سوى أثر الصخرة التى شيد عليها القبر المقدس، وهدم الدير الملاصق لها، وكان غاصاً بالراهبات من مختلف الأمم النصرانية، وانتزعت سائر أحباسها وأملاكها وأموالها؛ وكان هدمها فى شهر صفر سنة ٤٠٠هـ (١٠١٠)[3].

ويروى فى هذا الصدد أن الحاكم أمر بهدمها لما بلغه مما يقع بها من الرسوم والشعائر الوثنية المثيرة، وما ينتظم إليها من المواكب الدينية الصاخبة التى يضج فيها النصارى بالصلوات والأدعية ويرفعون الصلبان الضخمة، ولاسيما فى أيام الفصح وفى عيد الشعانين[4]؛ ويروى لنا المقريزى فى حوادث سنة ٣٩٨هـ، أن الحاكم لفت نظرة كثرة خروج النصارى من مصر إلى القدس لحضور عيد الفصح بقمامة، كما يخرج المسلمون إلى الحج، فسأل ختكين العضدى أحد قواده عن ذلك لمعرفته بأمر قمامة، فذكر له أن هذه بيعة يعظمها النصارى، ويحج إليها من جميع البلاد، ويأتيها الملوك، وتحمل إليها الأموال العظيمة، والثياب والستور والفرش والقناديل والصلبان المصنوعة من الذهب والفضة، وكذلك الأوانى الذهبية والفضية، وبها من ذلك شىء عظيم، فإذا كان يوم الفصح، واجتمع النصارى بقمامة، ورفعت الصلبان وعلقت القناديل فى المذبح، تحيلوا فى إيصال النار إليه بدهن البلسان مع دهن الزيبق، فيحدث له ضياء ساطع يظن من رآه أنها نار نزلت من السماء؛ فأنكر الحاكم ذلك، وتقدم إلى أبى منصور ابن سورين كاتب الإنشاء، فكتب إلى أحمد بن يعقوب الداعى أن يقصد القدس، ويهدم قمامه، وينهبها الناس حتى يعفى أثرها[5].

وتقول الرواية الكنسية المعاصرة أيضاً، إن راهباً قبطياً يدعى يونس نقم على البطريرك

---

(١) تطلق الرواية العربية اسم «القمامة» على كنيسة القبر المقدس. وأصل هذه التسمية تاريخى يرجع الى أن القبر المقدس قد بنى على الموضع الذى كانت توضع به القمامة خارج أسوار بيت المقدس أيام المسيح، وهو الموضع الذى يقول الإنجيل إن المسيح قد صلب فيه (راجع معجم البلدان لياقوت فى كلمة قمامة).

(٢) تاريخ الأنطاكى ص١٩٦. وتقول بعض الروايات الإسلامية بصدور هذا السجل فى سنة ٤٠٣هـ، أعنى حينما صدر السجل العام بهدم الكنائس (راجع أخبار الدول المنقطعة ـ المخطوط) وتاريخ الذهبى (المجلد الثانى والعشرون) وأورده النجوم الزاهرة (ج ٤ ص١٧٨). بيد أننا نؤثر الأخذ بالرواية النصرانية، أولا لأنها أقدم الروايات، بل هى معاصرة تقريبا، وثانياً لأنها أقرب الى الضبط والتحقيق فى مثل هذا الحادث الجلل فى تاريخ الكنيسة وتاريخ النصرانية كلها. وراجع أيضا كتاب Jerusalem تأليف بالمر وبيزانت ص١١٢ وما بعدها.

(٣) تاريخ الأنطاكى ص١٩٦.

(٤) تاريخ الأنطاكى ص١٩٦.

(٥) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٣أ.

زخاريا لأنه لم يرسمه أسقفاً، فتقدم إلى الحاكم ووصف له ما يتمتع به الأحبار النصارى من النفوذ والجاه ومظاهر السلطان والعظمة والثراء، وكونهم يبيعون المناصب الكنسية، وقال فى رقعته التى رفعها إليه: «أنت ملك الأرض، لكن للنصارى ملك لا يعبأ بك لكثرة ما قد اكتنز من الأموال الجزيلة، لأنه يبيع الأسقفية بالمال» وعدد فيها كثيراً من مثالبهم، فكان مسعاه من العوامل التى أثارت سخط الحاكم وحفزته إلى هدم الكنائس ومطاردة النصارى.

وقد كان لهدم القبر المقدس وقع عميق فى الأمم النصرانية كلها، وكان له فيما بعد أثره فى إذكاء الدعوة الصليبية التى شهرتها البابوية «لإنقاذ فلسطين والقبر المقدس»، واستمر موقع الكنيسة بعد هدمها أعواماً طويلة مزاراً يحج إليه النصارى، حتى أعيد بناؤها فى عهد المستنصر بالله بعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً.

وفى العام التالى صدر مرسوم جديد بالتشديد على اليهود والنصارى فى لبس الغيار وتقلد الزنار، وعوقب المخالفون بالضرب، وألغيت الأعياد النصرانية كعيد الصليب والغطاس وعيد الشهيد، وأبطلت رسومها واحتفالاتها فى جميع أنحاء المملكة؛ وكان النصارى يحتفلون بها فى بذخ طائل، ويتخذونها فرصة لإقامة المظاهرات الدينية العظيمة، فيشهرون الصلبان فى مواكبهم، ويضجون بالترتيل والصلوات؛ وتقترن هذه المظاهر الدينية، بإقامة الاحتفالات والمآدب والملاهى الباذخة، ولا سيما على ضفاف النيل والخليج، وتهرع الجموع الغفيرة لمشاهدتها من كل فج، فأبطل ذلك كله؛ وأبطلت أيضاً رسوم الشعانين فى بيت المقدس، وكانت تجرى فى ضجة عظيمة، وتزين جميع الكنائس لهذه المناسبة بأغصان الزيتون وسعف النخل، وألغيت جميع الأوقاف المرصودة على الكنائس والأديار بأعمال مصر، وضمت إلى الديوان السلطانى حسبما تقدم، وخربت كنائس مصر والمقس وأبيحت للنهب. وفى رمضان سنة ٤٠٠هـ، صدر مرسوم الحاكم بهدم دير القصير بالمقطم وهو أعظم أديار الملكية، وكان يأوى إليه أرسانيوس بطريرك الإسكندرية، وأنشىء لليهود حى خاص بجوار باب زويلة حتى لا يختلطوا بالمسلمين[1]، وطبقت هذه الأوامر والقوانين بمنتهى الصرامة، ونزع سائر المتصرفين والكتاب الذميين من وظائفهم، وكانوا جمهرة كبيرة؛ فاشتد الأمر على اليهود والنصارى وطوردوا واضطهدوا، وأهينوا فى كل مكان، وساد بينهم الروع والرهبة، وأسلم كثير منهم اجتناباً لهذا الإرهاق وتظاهر البعض الآخر بالإسلام، وتوارى معظمهم من الطرقات، وكثر بينهم الفزع والارجاف، وهاجر البعض سراً إلى بلاد الروم والنوبة والحبشة، ونفى البعض الآخر إلى خارج الديار المصرية؛ وعمد كثير من النصارى إلى نزع الغيار والتشبه بالمسلمين اتقاء الرقابة والمطاردة؛ وتقول لنا الرواية الكنسية المعاصرة، إن النصارى كانوا خلال هذه المحنة يتعبدون سراً بين أطلال الكنائس المهدومة، ويخفون الآنية والذخائر المقدسة فى أعماق منازلهم، ويقيمون فيها الشعائر والقرابين سراً، وأقام بعضهم بيعاً سرية فى الريف[2].

---

(١) وهذا هو نظام الحى الخاص أو نظام «الجيتو» Ghetto الشهير حيث كانت لليهود أحياء خاصة، وقد بدىء بهذا النظام فى المدن الإيطالية منذ القرن السادس عشر، ثم طبق فى جميع أوربا، واستمر قائما حتى القرن التاسع عشر.

(٢) راجع فى تفاصيل هذه القوانين وآثارها: تاريخ الأنطاكى ص١٩٥ و ٢٠٢، والمقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٥أ و ب و ٦٦أ؛ وفى الخطط ج٤ ص ٧١ و ٧٢ و ٧٣ و ٣٩٩. وأخبار الدول المنقطعة (النسخة الفتوغرافية)، ونهاية الأرب (النسخة الفتوغرافية) ج ٢٦ ص٥٦ و ٥٧، وتاريخ أبى صالح الأرمنى ص٤٦أ، وابن خلكان ج٢ ص١٦٢، والنجوم الزاهرة ج٤ ص١٧٧أ و ١٧٨أ.

وفى ربيع الآخر سنة ٤٠٣هـ (١٠١٣م) صدر سجل جديد بهدم جميع الأديرة بالديار المصرية؛ فهدم كثير من الأديار والبيع ونهبت وقطعت أحباسها؛ وأقطع الكثير منها بجميع ما فيها، ومالها من رباع وأراضى؛ ووهب الحاكم تراث الكنائس وذخائرها من ذهب وفضة إلى جماعة من الخدم الصقالبة، وصدرت الأوامر إلى كل متصرف بأن يهدم ما فى ولايته من الكنائس، وأن يمكن المسلمين من هدمها، فهدمت آلاف الكنائس والبيع بسائر أنحاء القطر، واقطع كثير من الكنائس والأديار بمصر والنواحى لمن التمسها، وأذن للصلاة فى كنيسة أبى شنودة كبرى الكنائس القبطية بمصر، وأحيط بكنيسة المعلقة، ووضع المسلمون أيديهم على ما فى الكنائس والأديار من المال والذخائر وآنية الذهب والفضة والديباج؛ وكانت جملة طائلة؛ واستمر الهدم فى أنحاء المملكة زهاء ثلاثة أعوام؛ ويقال إنه هدم فى هذه الفورة المضطرمة من الكنائس والأديار زهاء ثلاثين ألفاً، وكانت منها عدة من الكنائس والأديار الأثرية الفخمة[1].

وكان رأس الكنيسة القبطية يومئذ هو الأنبا زخاريا بطريركها الرابع والستون؛ وكانت أيامه كلها محن وأحداث للنصارى؛ فلما اشتدت فورة الإضطهاد قبض عليه (سنة ٤٠٠هـ)، واعتقل مدى أشهر؛ وتقدمه إلينا الرواية الكنسية المعاصرة فى صورة القديس الشهيد، وتقول إن الحاكم بأمر الله أمر بتعذيبه وتقديمه للسباع، فألقى إليها مراراً، ولكنها كانت فى كل مرة ترتد عنه وديعة هادئة[2].

وعانى النصارى واليهود هذه الشدائد والمحن مدى أعوام؛ وكانت أشد ما عانوا فى ظل السلطات الإسلامية بمصر، وكان من ملطفات المحنة أن صدر بعد ذلك بقليل مرسوم بأطلاق الهجرة للذميين، وكان قد رفع إلى الحاكم أن الأمر قد اشتد على النصارى وأنهم يفرون سراً إلى بلاد الروم، ويبذلون الأموال الجمة لأصحاب المراكب والطرقات لإطلاقهم، فأصدر فى سنة ٤٠٤هـ سجلا بإطلاق الحرية للنصارى واليهود بالهجرة إلى بلاد الروم أو الحبشة أو النوبة أو غيرها، وأن يحملوا أموالهم ويتصرفوا فيها آمنين مطمئنين. وكتب بذلك إلى سائر الأعمال، فهاجر كثير من النصارى واليهود بعد أن باعوا أملاكهم، ولجأ كثير منهم إلى أنطاكية والنوبة والحبشة[3].

ثم خفت وطأة المطاردة بعد ذلك تباعاً. وفى سنة ٤١١هـ قبيل اختفاء الحاكم بقليل، صدرت عدة سجلات جديدة بالغاء هذه القوانين والفروض المرهقة، وإطلاق حرية الشعائر للنصارى واليهود، ورد ما أخذ من أحباس الكنائس والأديار، والسماح للنصارى بتجديد ما درس من الكنائس والبيع والأديار، ورد ما أخذ منها من الذخائر والتحف والأخشاب والعمد، وأطلقت الحرية للذميين الذين دخلوا فى الإسلام كرها عنهم، أن يرتدوا إلى دينهم الأصلى، فارتد كثير منهم. وتضع الرواية النصرانية تاريخ هذه السجلات فى سنة ٧٣٦ للشهداء وهى الموافقة لسنة ٤١١هـ بعد تسعة أعوام من الخطوب والمحن، وتعتبر صدورها من الحاكم معجزة نصرانية[4]، وتزيد على ذلك أن الفضل فى كشف هذه الغمة المرهقة، وفى إعادة الكنائس، يرجع إلى راهب يدعى بمين كان قد أسلم أيام المحنة، ثم عاد إلى دينه واستأذن الحاكم فى عمارة دير شهران فى ضاحية مصر، وأن

---

(١) المقريزى فى الخطط ج٤ ص٣٩٩، وفى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٦أ.

(٢) المقريزى فى الخطط ج٤ ص٣٩٨.

(٣) الأنطاكى ص٢٠٧.

(٤) تاريخ الأنطاكى صى٢٣٢.

الحاكم كان يزوره في الدير ويستمع إلى رغباته، وأنه كان واسطة التفاهم بين الحاكم وبين الأنبا زخاريا، وأن الحاكم كان في هذه الفترة يبدى إعجابه بالنصرانية ويعطف عليها وعلى بنيها[1].

وصدر يومئذ إلى النصارى سجل أمان شامل هذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبدالله ووليه المنصور أبي على الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين لجماعة النصارى بمصر؛ عندما أنهوا إليه الخوف الذى لحقهم، والجزع الذى هالهم فأقلقهم، واستذراءهم بظل الدولة، وتحرمهم بحضور الحضرة بما رآه وأمر به، من تكميل النعمة عليهم، بتوخيه لهم ذمة الإسلام وشرعه، من تصيرهم تحت كنفه، بحيث تصفو لهم موارد الطمأنينة، وتضفوا عليهم ملابس السكون والدعة، وإجابتهم إلى ما سألوا فيه من كتب أمان لهم يخلد حكمه على الأحقاب، ويتوارثه الأخلاف منهم والأعقاب؛ فأنتم جميعاً آمنون بأمان الله عز وجل، وأمان نبيه محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ﷺ، وعلى آله الطاهرين، وأمان أمير المؤمنين على بن أبي طالب سلام الله عليه، وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين سلام عليهم؛ هذا على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم، وأحوالكم وأملاككم، وما تحويه أيديكم، أماناً صريحاً ثابتاً، وعقداً صحيحاً باقياً، فثقوا به واسكنوا إليه، وتحققوا أن لكم جميل رأى أمير المؤمنين وعاطفته ونصرته تحميكم، وعصمته تقيكم، لا يقدم عليكم بسوء أحد، ولا تتطاول إليكم بمضرة يد، إلا كانت زواجر أمير المؤمنين مقصرة من باعه وعظم إنكاره، مضيقاً فيه من ذراعه، والله عون أمير المؤمنين على ما تعتقدون من صلاح وإصلاح، لسكان أقطار مملكته، ومن له وسيلة الثواء في كنف دولته، وإياه يستشهد على ما أمضاه من أمانة لكم، وعهده الذى يشرفه طرفكم، وكفى بالله شهيداً، وليقرر في أيديهم حجة بما أسبغ من النعم عليهم إن شاء الله تعالى»[2].

وصدرت عدة سجلات أخرى بإطلاق الحرية للنصارى في إقامة الشعائر وإعادة الكنائس، ومنها سجل الى نيقيفور بطريرك بيت المقدس يؤذن فيه بإقامة الصلاة في عرصة كنيسة القيامة وأطلالها دون إعادة بنائها وسجل بإعادة بناء دير القصير؛ وثالث برد أوقاف دير طور سينا؛ وعدة أخرى. وقد أورد لنا الأنطاكى صور بعض هذه السجلات، التى تدلى روحها ونصوصها، بأهمية الإنقلاب الذى طرأ على سياسة الحاكم إزاء الذميين[3] ولكن حدث ذلك بعد أن تم التدمير وضاعت الأموال وقتل الناس دون رحمة أو رادع سواء من دين أو أخلاق أو عهود أو ضمير.

ولقد كانت هذه المطاردة للذميين من أهم ظواهر عصر الحاكم بأمر الله؛ وكانت بلاريب سياسة مقررة، ولم تحمل في مجموعها طابع التناقض؛ بيد أنها كانت في الوقت نفسه انقلاباً جوهرياً في السياسة الفاطمية إزاء اليهود والنصارى؛ ذلك أن الدولة الفاطمية كانت منذ قيامها بمصر، تؤثر كما رأينا سياسة التسامح الدينى من أجل دعم قوتها واحتلالها للبلاد، وتذهب في هذا التسامح إلى أبعد مدى، فتصطفى اليهود والنصارى وتوليهم مناصب الثقة والنفوذ؛ ومنذ أيام المعز نرى ثبتاً حافلا من الوزراء اليهود والنصارى يحتلون أرفع مناصب الدولة، ويستأثرون بمعظم السلطات والنفوذ؛ ولم يشذ الحاكم لأول عهده عن هذه السياسة، فقدم النصارى في مناصب الوزارة والكتابة، وتولى

---

(١) سير البيعة المقدسة، وتاريخ أبي صالح ص١٤٦.

(٢) أورده الأنطاكى في تاريخه ص٢٣٢.

(٣) راجع تاريخ الأنطاكى بص٢٢٨ و ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٣١.

وزارته أربعة منهم هم الرئيس فهد بن إبراهيم، وابو نصر بن عبدون، وزرعة بن عيسى بن نسطورس ثم أخوه صاعد؛ وقد كان طبيب الحاكم الخاص لأول حكمه هو منصور بن مقشر النصراني فلما توفي في سنة ٣٩٤هـ، خلفه في هذا المنصب طبيب نصراني آخر، هو أبو يعقوب بن نسطاس[1].
وكان من أحب الناس الى الحاكم، فلما توفي غريقا في بركة ماء (٣٩٧هـ)، أقيمت له جنازة حافلة سار فيها سائر أهل الدولة؛ وخلفه في منصبه طبيب ذمي آخر هو صفير اليهودي خلع عليه، وأقطعه دارا فخمة.

وقد كان للخلافة الإسلامية منذ عصر عمر، سياسية خاصة لتنظيم مجتمع الذميين، وتحديد مركزهم إزاء المسلمين؛ وكان التشريع الذى أصدره عمر، وهو أول تشريع من نوعه، يحظر عليهم بناء الكناس والبيع الجديدة، أو أن يرفعوا الصلبان فوق الكنائس، أو يظهروا كتبهم المقدسة في الطرق العامة، أو يرفعوا أصواتهم بالترتيل في الكنائس، وألا يحاولوا تنصير مسلم أو يحولوا دون إسلام نصراني، وألا يحملوا السلاح أو يستعملوا السروج أو يسترقوا مسلما، وأن يتخذوا لأنفسهم أزياء خاصة[2].

أما هذه السياسة المغرقة المثيرة التي جرى عليها الحاكم بأمر الله إزاء الذميين، وأما هذا الاضطهاد المنظم، فهو أبعد الأمور عن روح التسامح المستنير.

- ٣ -

ولم تقتصر سياسة الحاكم الدينية على هذه الناحية من اضطهاد النصارى واليهود، ولكنها كانت تتناول الناحية الإسلامية أيضاً، بكثير من الأحكام والأوامر الشاذة. وقد كانت الخلافة الفاطمية تحكم في مصر شعباً لا يتبعها من الوجهة المذهبية، وكان العمل على تدعيم هذه الصبغة المذهبية أهم عناصر سياستها الدينية؛ وقد حذا الحاكم في ذلك حذو أبيه العزيز وجده المعز، وعمل لبث الدعوة الفاطمية في قوة وجرأة، ولكن في نوع من التناقض أيضاً، ففي ٣٩٥هـ، أمر بسب السلف (أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية وغيرهم من الصحابة)، وكتب ذلك على أبواب الجوامع والمساجد ولا سيما جامع عمرو في ظاهره وباطنه، وعلى أبواب الحوانيت والمقابر والدور والقياسر ولون بالأصباغ والذهب، وارغم الناس على المجاهرة به ونقشه في سائر الأماكن. ثم لم يلبث أن، ألغى المرسوم (سنة ٣٩٧هـ) وأمر بمحو كل ما كتب على المساجد والدور وغيرها من ذلك، وطافت الشرطة بمختلف الأحياء والأماكن تنفذ الأمر الجديد.

وفي رمضان سنة ٣٩٨هـ صدر مرسوم يقرر بعض الأحكام ويفسرها، على أثر ما وقع بين الشيعة وأهل السنة من خلاف وشغب على فهم بعض الأحكام وتطبيقها، وهو مرسوم (سجل) يشف عن روح العصر، ويحمل طابع التوفيق بين المذهبين، وإليك نصه بعد الديباجة:

«أما بعد فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين، لا إكراه في الدين... مضى أمس بما فيه، وأتى اليوم بما يقتضيه؛ معاشر المسلمين: نحن الأئمة، وأنتم الأمة... من شهد الشهادتين... ولا يحل عروة بين اثنين، تجمعهما هذه الأخوة، عصم الله بها من عصم، وحرم عليها ما حرم، من كل محرم من دم ومال ومنكح، الصلاح والأصلح بين الناس أصلح؛ والفساد والإفساد من العباد يستقبح، يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر، ويعرض عما

---

(١) قال عنه المقريزي «وكان طبيب وقته عارفا بالطب، آية في الحفظ، ما تغنى له صوت قط إلا ضبطه، ولو غناء مائة مغن في مجلس واحد فقط ساير ما غنوه، وتكلم على الحانها وأشعارها، وكانت له يسفي الموسيقي، وانفرد بخدمة الحاكم في الطب فالرى». راجع اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٢أ.

(٢) راجع هذه الأحكام والقوانين في فتوح مصر لابن عبدالحكم ص١٥١.

انقضى فلا يذكر، ولا يقبل على ما مر وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت في الأيام الخالية أيام آبائنا الأئمة المهتدين، سلام الله عليهم أجمعين، مهديهم بالله، وقائمهم بأمر الله، ومنصورهم بالله، ومعزهم لدين الله، وهو إذ ذاك بالمهدية والمنصورية، وأحوال القيروان تجرى فيها ظاهرة غير خفية، ليست بمستورة عنهم ولا مطوية؛ يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون؛ صلاة الخميس للدين بها جاءهم فيها يصلون، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون؛ يخمس في التكبير على الجنائز المخمسون، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون؛ يؤذن بحي على خير العمل المؤذنون، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون؛ لا يسب أحد من السلف، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف، والخالف فيهم بما خلف؛ لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده، وإلى الله ربه ميعاده عند كتابه وعليه حسابه؛ ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم؛ لا يستعلي مسلم على مسلم بما اعتقده، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمده، من جميع ما نصه أمير المؤمنين في سجله هذا، وبعده قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون﴾. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كتب في رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة»[1].

هذا هو نص المرسوم الفاطمي الشهير، الذي تجمع فيه بعض الأحكام المذهبية المتناقضة في صعيد واحد، ويسبغ عليها جميعاً لون الصحة؛ وهذه سياسة لا تخفى حكمتها وأثرها في تهدئة النزعات المذهبية المختلفة، وعقد الوئام بين الطوائف، وفي تغليب خطة التسامح المرن على خطة الجمود المذهبي؛ ويقول المستشرق ميللر تعليقاً على هذا المرسوم، إن الحاكم أراد أن يفهم الشعب على اختلاف طوائفه، أنه مع انتسابه للشيعة المغرقة، لا يرى بأساً من احتقار الأحكام الدينية المضنية سواء في المآكل أو الملبس أو غيرها، وأن الأديان كلها سواء في فروضها المرهقة وأنه لا بأس من التحرر منها[2].

وصدرت فيما يتعلق بالصلاة والأذان عدة مراسيم متعارضة، فبدىء بالنهي عن صلاة الضحى والتراويح، وقبض بالفعل على بعض أناس وضربوا وشهروا لأنهم صلوا صلاة الضحى (رجب ٣٩٤هـ). وفي المحرم سنة ٣٩٥هـ، قرئ سجل بأن يؤذن لصلاة الظهر في الساعة السابعة، ويؤذن لصلاة العصر في الساعة التاسعة؛ وفي رمضان سنة ٣٩٨ أو ٣٩٩هـ أبيحت صلاة الضحى وصلاة التراويح ضمن ما أبيح في المرسوم الفاطمي الذى سبق ذكره؛ وعزز ذلك بسجل صدر في ذى القعدة سنة ٤٠٠هـ، وفيه أبيح في نفس الوقت العود إلى «التثويب في الآذان»، ثم جمع المؤذنون في سائر الجوامع، وقرئ عليهم سجل بأن يتركوا الأذان «بحي على خير العمل» وقد كانت شعار الأذان الفاطمي منذ الفتح، وأن تستبدل بقولهم في أذان الفجر بعبارة «الصلاة خير من النوم»، وأن يكون ذلك من مؤذني القصر عند قولهم

---

(١) نقلنا نص المرسوم عن ابن خلدون ج٤ ص٦٠. وظاهر أن هناك خطأ مادياً في التاريخ وأن صحته هى «ثمان وتسعين» لأن الأمر بسبب السلف صدر سنة ٩٥ أى قبل صدور المرسوم، وصدر الأمر بمحوه سنة ٩٧. راجع المقريزى في الخطط ج٤ ص٧١. ويذكر المقريزى في اتعاظ الحنفاء، أن صدور هذا المرسوم كان في رمضان سنة ٣٩٩هـ (المخطوط لوحة ٦٢ب).

(2) Müller: Der Islam, P.I.p. 631.

«السلام على أمير المؤمنين ورحمه الله»، بيد أنه لم تمض على ذلك بضعة أشهر حتى صدر سجل جديد بأن يترك من أذان الفجر «الصلاة خير من النوم»، وأن يؤذن «بحي على خير العمل»، وأن تمنع صلاة الضحى والتراويح (أواسط ٤٠١هـ).

وكانت مسألة الفطرة والنجوى، وهما من الإتاوات أو الرسوم التي يؤديها المؤمنون الداخلون في الدعوة، من المسائل التي تتصل بالشئون المالية، للخلافة الفاطمية؛ وكانتا تذكران بنوع خاص في سجل تعيين قاضي القضاة، ثم بعد ذلك في سجل تعيين داعي الدعاة، حينما أنشيء له منصب خاص؛ وكان يباح تحصيلهما أحياناً، ويمنع في أحيان أخرى. ففي سنة ٣٩٤هـ، صدر لقاضي القضاة عبدالعزيز بن محمد بن النعمان سجل بأخذ الفطرة والنجوى، وحضور المجلس بالقصر، وأخذ الدعوة على الناس؛ ثم ألغيت مجالس القصر حيناً؛ ولما أسندت رياسة القضاء إلى مالك بن سعيد في سنة ٤٠٠هـ؛ صدر سجل بإعادة مجالس الحكمة وأخذ النجوى؛ وكانت الزكاة والنجوى قد ألغيتا قبل ذلك. وكانت الخلافة الفاطمية تتردد في أحيان كثيرة، بالنسبة لهذه الإتاوات الإختيارية، بين التقرير والإلغاء. ومن ذلك ما حدث حينما افتتحت جامعة دار الحكمة، فقد كان من رسومها أن يؤدى «المؤمنون» مال النجوى، باعتباره رسماً اختيارياً ينفق من دخله على النقباء، وكانت تحصل أحياناً وتبطل أحياناً.

ومن الصعب أن نحدد موقف الحاكم إزاء الشؤون والأحكام الدينية تحديداً واضحاً، فقد نسبت إليه في هذا الشأن تصرفات كثيرة متناقضة؛ وفي بعض الروايات أنه حاول أن يعدل بعض الأحكام الجوهرية كالصلاة والصوم والحج، وقيل إنه شرع في إلغائها أو إنه ألغاها بالفعل؛ ومن ذلك أنه ألغى الزكاة، وألغى صلاة الجمعة الرسمية في رمضان، وفي العيدين، وألغى الحج وأبطل الكسوة النبوية غير مرة، ولكن لأسباب قاهرة كاستيلاء العرب على طريق الحاج واضطراب الأمن فيه، أو وقوع الوباء أو غيرها؛ وتحمل نفس الرواية هذه التصرفات على أنها انحراف من الحاكم عن الإسلام وجنوح إلى الدعوة الإلحادية، التي أذاعها الدعاة السريون وبشروا فيها بألوهيته كما سنرى[1]. والواقع أن أولئك الدعاة ينوهون في رسائلهم بإقدام الحاكم على إلغاء فرائض الإسلام الجوهرية كالصوم والحج والصلاة لحكم زعموها. بيد أنه ليس ثمة ما يدل على أن الحاكم قد ذهب فعلا إلى هذا الحد في تصرفاته الدينية، وإن لم يك ثمة شك في أنه عمل على تعديل بعض الأحكام والرسوم تعديلا يجعلها أقرب إلى الصبغة المذهبية. وأما عقيدة الحاكم الدينية فمن المجازفة أن نقطع فيها برأى حاسم، ومن المحقق أنها لم تثبت على وتيرة واحدة، وأنها حسبما تدل تصرفاته وأوامره الدينية، كانت تختلف باختلاف فترات حكمه؛ ونستطيع أن نصف الحاكم طوراً بعد آخر بالتعصب الديني والإغراق المذهبي، واليقين والتشكك، والإيمان والإلحاد؛ وسنرى عند الكلام عن الدعوة الفاطمية السرية أن الحاكم كان في أواخر عصره يذهب إلى أبعد مدى من الغلو والإغراق، فيؤيد الدعوة السرية إلى نسخ أحكام الرسلام، وإلى الدعوة بألوهيته وقيامه، أو على الأقل يغضى عنها؛ ويعترض ابن خلدون بشدة على القول بكفر الحاكم والحاده والغائه للصلاة، ويقول إنه زعم لا يقبله ذو عقل؛ ولو صدر من الحاكم شيء منه لقتل لوقته[2]. بيد أن هذا المنطق لا يتفق مع الأدلة والوثائق التي انتهت إلينا عن الفترة الأخيرة من عصر الحاكم وتصرفاته الدينية ومؤازرته للدعاة السريين كما سنبين بعد وهذا كله نابع من طبيعة الاستبداد التي

---

(١) تاريخ الأنطاكي ص٢٢٤.

(٢) ابن خلدون ج٤ ص٦٠.

سمحت بها ثقافة الحاكم الدينية، واحتياجها، كلما تمكنت منه، إلى دعمها بزيادة الاستبداد، فالاستبداد كالماء المالح كلما شرب زاد طلبه.

شخصية الحاكم وخلاله

-١-

ولننتقل إلى ناحية أخرى من خلال الحاكم وتصرفاته. كان الحاكم بإجماع الرواية جواداً وافر البذل، وكان كثير الزهد في المال؛ وكانت الخلافة الفاطمية قد حققت في عهدها القصير، من الأموال والثروات الطائلة، من الجواهر والتحف الباذخة، ما يفيض في وصفه المؤرخون المعاصرون بما يدهش ويبهر، وتكدس لدى الحاكم من الأموال والتحف مايجل قدره ووصفه[١] ولكن الحاكم لم يغرق في تلك المظاهر الفخمة، التي كانت تنشرها الخلافة الفاطمية من حولها، وكان يؤثر بطبيعته مظاهر الانكماش والبساطة.

واشتهر الحاكم طوال عهده بالسخاء والبذل، وكان يسرف في العطاء أحياناً الى حدود تهدد مالية الخزينة.

وتقدم الينا الرواية في غير موضع أخبار الحاكم في العطاء والبذل والصلات، ولاسيما في الحقبة الثانية من حكمه؛ ومن ذلك ما كان يقع خلال طوافه المستمر، فتقول لنا مثلا في أخبار سنة ٤٠٣هـ ما يأتي: «وكثر ركوب الحاكم، وهو بدارعة صوف بيضاء، وعمامة فوطة، وفي رجله حذاء عربي. فأقبل الناس اليه بالرقاع ما بين متظلم أو مستمح، فأجزل الصلات والعطايا ما بين دور ودراهم وثياب، فلم يرد أحدا خايبا، ورد ما كان في الديون من الضياع والأملاك المأخوذة لأربابها، وأقطع كثيراً من الناس عدة آدر؛ وفي أخبار رمضان سنة ٤٠٥هـ «وخرج الحاكم عن المعهود في كثرة العطاء والإقطاعات حتى أقطع النواتية الذى يجدفون به في العشارى، وأقطع المشاعلية، وكثيراً من الوجوه والأقارب، وبنى قرة، فكان مما أقطع الإسكندرية والبحيرة ونواحيها؛ وأيضاً «وفيه كثرت صلات الحاكم ومواهبه وإقطاعاته للناس حتى خرج في ذلك على الحد». وتقص علينا الكثير من نوادر جوده ومروءته؛ ومن ذلك أن بلغه أن أبا القاسم علي بن أحمد الزبيدى نقيب الطالبيين مدين في عشرين ألف دينار، فوقع له بها مما عليه من الخراج، وبعث له بثلاثة آلاف أخرى؛ وأنه وقف اليه أثناء طوافه ذات يوم رجل خراساني ذكر أنه أخذ منه متاع برسم الخزانة، ولم يدفع اليه ثمنه، فدفع اليه جميع ما كان له، وهو خمسة آلاف دينار، فكثر الدعاء له؛ ورد الحاكم على بني عمرو بن العاص حبس جدهم عمرو، ومبلغه في الشهر نحو مائتي دينار[٢].

ولم يخل عصر الحاكم على اضطرابه من الأعمال الإنشائية الخطيرة، ومن الأعمال والمآثر الخيرية الجليلة؛ فقد عنى الحاكم بتجديد الجامع الأزهر وإصلاحه، وأنشأ جامعة دار الحكمة أو دار العلم الشهيرة (سنة ٣٩٥هـ). وأنشأ جامعه الشهير المسمى باسمه جامع الحاكم أو الحاكمي أو الجامع الأنور أو بالحسرى أتم بناءه[٣]، وكان أبوه العزيز بالله قد بدأ بإنشائه، وتوفى قبل إتمامه، فأمر الحاكم بإتمامه في

---

(١) راجع المقريزى فيما نقله عن المسبحي وغيره من مؤرخى الدولة الفاطمية عن غنى هذه الدولة ووفرة بذخها وبهائها (الخطط ج٢ ص ٢٥١ ـ ٢٨١). وراجع النجوم الزاهرة فيما نقله عن ثروة الحاكم بأمر الله (ج٤ ص٩٢).

(٢) المقريزى في اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٧ أ و ب و ٦٨ب.

(٣) ذكر المقريزى في حديثه عن جامع الحاكم بأنه هو المسمى بالجامع الأنور (الخطط ج٤ ص٥٥)، وأشار في موضع آخر الى ركوب الخليفة لصلاة الجمعة بالجامع الأنور الكبير (ص٦١)، والمقصود به جامع الحاكم. والمقريزى حجة وثيقة في مسائل الخطط، ولذلك لم نتردد في الأخذ بقوله. ولكن القلقشندى صاحب «صبح الأعشى» يشير في غير موضع من كتابه خلال حديثه عن المراسم الفاطمية الى «الجامع الأنور الذى بباب البحر» (ج٣ ص٥٠٢ و٥٠٩)، وهى إشارة غامضة قد يفهم منها أن الجامع الأنور هو غير جامع الحاكم الذى يقع بجوار باب الفتوح (لاباب البحر). بيد أنه مهما كان من سبب هذا اللبس، فإن المعول عليه هنا هو قول المقريزى.

سنة ٣٩٣هـ، واستغرق بناؤه زهاء عشر سنين؛ ولما تم بناؤه عنى الحاكم بفرشه وتأثيثه عناية كبيرة، وزين بالستور الفخمة، والتنانير الفضية، وأقيمت فيه الجمعة في رمضان سنة ٤٠٣هـ، وصلى فيه الحاكم بالناس وكان يوماً مشهوداً، وألفى الجامع الأزهر لأول مرة في جامع الحاكم، منافساً ينازعه الصفة الرسمية التى استأثر بها حتى ذلك الحين؛ وما زال هذا المسجد الشهير قائمة الى يومنا[1]. وأنشأ الحاكم أيضاً جامع راشده (سنة ٣٩٣هـ) وتم بناؤه سنة ٣٩٥، وأشرف الحاكم على تأثيثه وتزيينه، وأقام فيه الجمعة في رمضان سنة ٣٩٨ وخطب في الناس؛ وأنشأ أيضاً جامع المقس؛ وأنشأ جامعاً بالإسكندرية (٤٠٤هـ)؛ وعنى بفرش المساجد وتجميلها وتزويدها بالخطباء والمؤذنين، وإجراء النفقة عليها، وأنشأ في سفح جبل المقطم مصلى فخماً يعرف بمصلى العيد، وكان يختلف إليه من وقت الى آخر[2].

وفي سنة ٤٠٣هـ أمر الحاكم بإحصاء المساجد التى لا غلة لها، فوجدت ثمانمائة وثلاثين مسجداً، رصدت لها النفقة اللازمة.

وقد أغدق الحاكم المنح لأساتذة دار الحكمة عند افتتاحها، وحمل إليها الكتب من خزائن القصر، لينتفع بها سائر الباحثين والطلاب؛ ويذكر لنا المسبّحى أن الحاكم في سنة ٤٠٣هـ، استدعى أساتذة دار الحكمة من الفقهاء والرياضيين والأطباء، وعقد لهم بالقصر مجلساً للمناظرة، فكانت كل طائفة تحضر بين يديه للمناظرة على انفراد، ثم خلع على الجميع، وأجزل لهم الصلات[3].

وكان من أصدقاء الحاكم وخاصته عدة من أقطاب المفكرين والأدباء في هذا العصر، منهم عز الملك المسبحى الكاتب والمؤرخ الكبير، وكان يتولى النظر على ديوان الترتيب منذ سنة ٣٩٨هـ، وهو يومئذ من مناصب الوزارة الهامة؛ ونال المسبحى لدى الحاكم حظوة كبيرة، وكانت له مع الحاكم مجالس ومحاضرات شائقة[4]؛ ومنهم أبو الحسن على بن يونس الفلكى والمنجم المشهور، وكان أديباً وشاعراً أيضاً، وقد ألف للحاكم معجماً ضخماً في الفلك يعرف بالزيج الكبير[5]، ومنصور بن مقشر الطبيب النصراني، وكان طبيب الحاكم الخاص، وطبيب والده العزيز بالله من قبل.

واستدعى الحاكم المهندس البصرى الكبير أبا على الحسن بن الحسن ابن الهيثم لما بلغه من براعته وتفننه، وعهد إليه بفحص أحوال النيل، وماذا عسى أن يعمل للانتقاع بمائه؛ ولكن ابن الهيثم رأى أنه لا يستطيع أن يزيد شيئاً على أعمال القدماء، فاعتذر للحاكم عن قصوره، وولاه الحاكم بعض الدواوين، ولكنه خشى بطشه فتظاهر حيناً بالجنون حتى توفى الحاكم[6].

– ٢ –

إلى جانب هذا كان الحاكم يتمتع بخلة أخرى، هى زهده وتقشفه في مظاهره العامة وفي حياته الخاصة، ثم تواضعه المؤثر واحتقاره للرسوم والألقاب الفخمة، وكان لأول حكمه قد صدر في سنة ٣٩٠هـ، في ظل قائد القواد الحسين بن جوهر،

---

(١) يقع هذا المسجد الشهير بين باب الفتوح وباب النصر داخل السور، وكان موقعه في البداية خارج السور.

(٢) نهاية الأرب ج٢٦ ص٥٦.

(٣) المقريزى عن المسبحى، في الخطط ج٢ ص٣٣٤ و ٣٣٥.

(٤) ابن خلكان ج١ ص٦٥٣. وسنعود الى ذكر المسبحى فيما بعد.

(٥) هو على بن عبدالرحمن بن يونس المصرى، كان أبوه عبدالرحمن بن يونس من أكابر محدثى مصر ومؤرخيها، واشتغل ابن يونس بالرياضيات والفلك وبرع فيها براعة عظيمة، وقربة الحاكم إليه، وألف له الزيج الكبير، وكان فوق علمه أديبا شاعراً، وقد توفى سنة ٣٩٩هـ (راجع أخبار العلماء لابن القفطى – مصر – ص١٥٥).

(٦) تاريخ ابن العبرى ص٣١٧ و ٣١٨.

سجل (مرسوم) إلى الناس أجمعين، ينوه فيه بأن الله «أوجب اختصاص الأئمة، بما لا يشركها فيه أحد من الأمة»، وأنه لا يسوغ أن يخاطب أو يكاتب أحد «بسيدنا ومولانا» غير «الحضرة المقدسة» ومن فعل فقد أحل أمير المؤمنين دمه[1]. بيد أن هذه النزعة إلى التعالي لم تلبث أن غاضت، ففي سجل صدر في سنة ٣٩٤هـ، يبدى الحاكم إنكاره وسخطه على من ينعته في المكاتيب «بمولى الخلق أجمعين».

وترك الحاكم ركوب العماريات والخيل والبغال المسومة؛ وترك معظم الرسوم الفخمة، التي امتازت بها مواكب الخلفاء الفاطميين؛ وكان يدفعه إلى ذلك شغف حقيقي بالبساطة؛ وكانت هذه النزعة إلى البساطة، تسود معظم المواكب والاستقبالات الرسمية. فيرتدى ثياباً بسيطة، أو أو يرتدى دارعة صوف بيضاء، ويتعمم بفوطة، وفي رجله حذاء عربي ساذج، وقد يركب فرساً بلا زينة أو حماراً؛ وفي أحيان قليلة يركب محفة يحملها الرجال، أو عشارية تشق به النيل؛ وكان أغلب طوافه بالقاهرة على الحمير دون موكب ولا ضجة، لا يصحبه من الخدم سوى بضعة من الركابية.

ومرض الحاكم في سنة ٤٠٧هـ، فلم ينقطع عن الركوب والطواف، واتخذ له محفة يجلس فيها أو يضطجع، ويحملها أربعة من الركابية. وقيل أيضاً إن الحاكم كان يشغف بالنساء، وكان لديه سرب من الحظايا والجوارى؛ ولكنه حمل ذات يوم بنزعته الصوفية، فأخرج من قصره معظم هؤلاء الحظايا، بل قيل إنه أغرق بعضهن في النيل في صناديق وضعن فيها وسمرت عليهن. وجنح الحاكم في أواخر عهده إلى النسك المطلق والزهد والورع، وأضرب عن جميع الملاذ الحسية والنفسية، واقتصر في طعامه على أبسط ما تقتضيه الحياة من القوت المتواضع؛ ولبث أعواما يرتدى الثياب الساذجة والصوف الخشن كما رأينا، بل قيل إنه أضرب عن دخول الحمام مبالغة في الخشونة والتقشف[2]. وعلى الجملة فلم تذكر لنا الروايات المعاصرة أو المتأخرة أن الحاكم كان في حياته الخاصة يتصف بشيء من تلك الرذائل الإجتماعية الشاملة، التي يتصف بها معظم الطغاة في تلك العصور، بل تدل أقوالها جميعاً على أن هذا الطاغية الفيلسوف، كان أميل إلى النقاء في حياته الخاصة، وإلى الزهد في ذلك الترف الناعم، الذى يفت في الأجسام والأرواح القوية.

وهكذا نجد أن هذه الشخصية العجيبة، التي تقدم إلينا من نواحيها العامة في صور مثيرة مروعة.

ونجد الحاكم في الأعوام الاخيرة ينيب عنه في معظم المناسبات، في الصلاة بالناس، ولى عهده عبدالرحيم بن الياس.

ويلاحظ أن هذه الأعوام الأخيرة، من عهد الحاكم بأمر الله، وهي الأعوام التي جنح فيها إلى البساطة، والزهد في مظاهر الملك والخلافة، هي نفس الأعوام التي جنح فيها إلى الشذوذ، واشتد شغفه بالطواف الليلي، وغلب عليه حب الانكماش والانطواء على نفسه.

-٣-

وهنا نحاول، بعد أن استعرضنا أعمال الحاكم بأمر الله، ونواحي حياته العامة والخاصة، وغريب أحكامه وتصرفاته، أن نعرض إلى أدق وأصعب نقطة في دراسة هذه الشخصية العجيبة.

ماذا كانت حقيقة هذه

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٦أ.

(٢) راجع تاريخ الأنطاكي ص ١٩٢ و ٢٠٧. وابن قزأوغلي في مرآة الزمان في الجزء المشار إليه ص٤٠١، وأورده النجوم الزاهرة ج٤ ص١٧٦.

لشخصية، التي جمعت بين خلال وصفات يحمل أكثرها طابع العنف والشذوذ والتناقض؟ وبأى عين يجب أن ننظر إليها، وبأى معيار نستطيع أن نقدر صفاتها وأعمالها؟ وأى أحكام يسوغ لنا أن نصدرها لها أو عليها فتقرب علينا فهم حقيقتها؟

لدينا في ذلك مادة متنوعة؛ أقوال الرواية الإسلامية المعاصرة والمتأخرة، وحوادث العصر، وأعمال الحاكم وتصرفاته ذاتها. فأما الرواية الإسلامية فلا ترى في أمر الحاكم لغزاً يصعب استجلاؤه؛ ولنلاحظ أولا أن ما انتهى إلينا من أقوال الرواية الإسلامية، إنما هو في الغالب أقوال المؤرخين السنيين، خصوم الشيعة وخصوم الدولة الفاطمية، وأننا لم نتلق من تراث الشيعة الذى بددت معظمه الحوادث والدول الخصيمة، من الروايات والكتابات الرصينة، ما يلقى ضياء كافياً على ذلك الخفاء الذى يحيط بشخصية الحاكم وأعماله؛ ذلك أن كتب الأدب الشعبي، تعنى قبل كل شيء بشئون الدعوة المذهبية، وتنحرف في معظم الأحيان، حين تقص التاريخ إلى جانب الخرافة والأسطورة. والحقيقة أن الرواية الإسلامية العامة تأخذ في هذا الموطن بظواهر الحوادث المادية، وتكتفى بأن تقدم إلينا الحاكم، في تلك الصور المروعة المثيرة التي أشرنا إليها؛ وقلما تحاول أن تلتمس فيما وراء ذلك، شيئاً من البواعث والأسباب، التي يمكن أن نعلل بها بعض نزعات الحاكم وتصرفاته العجيبة. وقد أوردنا بعض أقوال الرواية الإسلامية في وصف الحاكم، فهي لا ترى فيه أكثر من أمير مضطرب العقل والتفكير، عنيف الأهواء والنزعات، كثير العبث والسفك، شديد التناقض، لا يصدر عن روية أو منطق متزن، ولا يتحرى غاية أو مثلا معقولة: تلك هي الصورة العامة التي تقدمها إلينا الرواية الإسلامية عن الحاكم؛ وهي صورة بسيطة ساذجة مستمدة من ظاهر الحوادث المادية؛ فقد كان الحاكم طاغية شديد البطش والسفك، ولكنه كان يتخذ السفك وسيلة لا غاية، وكان القتل في نظره خطة سياسية؛ وكان عنيف الأهواء والنزعات، ولكنها لم تكن نزعات شهوة نفسية، وإنما نزعات ذهن يرتفع عن الوسائل العادية، لتوجيه مجتمع يراه جديراً بالتغيير والتطور؛ وكان متناقضاً في كثير من تصرفاته، ولكن تناقض الذهن الذى يحاول مختلف الوسائل والتجارب، لتحقيق غايات معينة. ومع ذلك فإنه لم يفت بعض المؤرخين أن يلاحظ أن عقلية الحاكم، لم تكن بتلك البساطة التي تصور بها، فقد وصفه الذهبي بأنه كان «خبيثاً ماكراً، ردىء الاعتقاد»[1]، وهي صفات ليست من خواص الذهن المضطرب السقيم، الذى يفكر دون تدبر ويعمل دون غاية.

وإلى جانب هذه النظرية الساذجة، التي تكتفي من البحث والتعليل ببواعث الخفة والاضطراب العقلي، توجد نظرية أخرى في تعليل هذه النزعات والأهواء العنيفة التي كانت تضطرم بها هذه الشخصية العجيبة؛ تلك هي بالنظرية الباتولوجية[2] إذا صح هذا التعبير، لأنها ترجع هذه النزعات إلى أسباب باتولوجية أى مرضية وصحية. وقد قال بهذه النظرية مؤرخ وطبيب نصرانى معاصر هو يحيى الأنطاكي؛ وهو يشرح لنا نظريته فيما يلي:

«وكان سبب بغيه (أى الحاكم)، في جميع ما يقصده من هذه الفعال العجيبة المتضادة، التي تقوم في نفسه ويفعلها شيئاً بعد شيء، صنف من سوء المزاج المرضي في دماغه، أحدث له ضرباً من ضروب المالنخوليا، وفساد الفكر منه منذ حداثته، فإن من المتعارف في صناعة الطب أنه

(١) الذهبي، النسخة المخطوطة ج٢٢ في وفيات سنة ٤١١، وراجع النجوم الزاهرة ج٤ ص١٧٨.

(٢) الباتولوجيا هي علم الأمراض والأعراض الشاذة التي لا تعتبر عادة من الأمراض العادية.

قد يكون فيمن يعتريه هذا المرض، أنه يقوم فى نفسه أوهام، ويتخيل أموراً وعجائب، ويكون كل واحد منهم لا يشك أنه على الصواب فيما يتصوره فى جميع أفعاله، ولا يثنيه عن ذلك ثان ولا يرده راد، وأن قد يكون منهم من يظن بنفسه أنه نبى، ومنهم من يتوهم أنه الإله بنفسه تعالى كثيراً، ويكون بقوم من هؤلاء من اختلاط الكلام ظاهراً واختلاله، ما ينكشف حاله عند من يشاهده ويحادثه، وتزول الشبهة فيه فى أول وهلة، وربما كان تخليط أحدهم فى الكلام مستوراً، وتكون هذه التخيلات والخواطر الرديئة، تعرض له فى أمور مستورة عن العوام، فيكون صورته عندهم صورة العقلاء، وحسن ظنهم به ونظرهم إليه كنظرهم إلى أفضل الناس، فإذا أطالوا اختبارهم بان لهم ما انطوى عنهم فى نقضهم.

وهذه صورة الحاكم، فإن نقضه كان يتبين لمن تطول صحبته له؛ وأما من هو بعيد عنه فإن أفعاله كانت توضحه له؛ وقد يستدل على حقيقة هذا المرض المستحوذ عليه، أنه كان قد عرض له فى حداثته تشنج، من سوء مزاج يابس فى دماغه، وهو مزاج المرضى الذى يحدث فى المالنخوليات، واحتاج فى مداواته منه مع ما كان يعالج به، إلى جلوسه فى دهن البنفسج وترطيبه به؛ وإن كثرة سهره أيضاً وشغفه بمواصلة الركوب والهيمان الدائم، مما يقتضيه هذا السوء المقدم ذكره، وأن أبا يعقوب إسحق بن إبراهيم بن انسطاس، لما خدمه استماله إلى أن تسامح فى شرب النبيذ وسماع الأغانى بعد هجره لها ومنع الكافة منها، فانصلحت أخلاقه وترطب مزاج دماغه، واستقام أمر جسمه، ولما مات أبو يعقوب، وعاد إلى الامتناع عن شرب النبيذ ومن سماع الغناء، رجع إلى ما كان فيه»[1].

وهذا شرح فطن طريف بلا ريب؛ بيد أنه لا يكفى فى نظرنا لتعليل هذا المزيج القوى المدهش، من أعمال وتصرفات كانت رغم عنفها وتناقضها، ترجع فى معظم الأحيان كما سنرى، إلى بواعث سياسية أو مذهبية أو اجتماعية؛ وتردد بعض الروايات الإسلامية المتأخرة هذه النظرية فى تعليل نزعات الحاكم وأهوائه المغرقة، فيقول لنا النويرى مثلا، إن الحاكم أصيب فى سنة ٣٩٣هـ أعنى وهو فتى فى الثامنة عشرة، بضرب من المالنخوليا، فأخذ فى قتل رجال الدولة؛ ويتحدث فى غسيسو موطن عن غلبة هذه «المالنخوليا» على الحاكم[2].

ويقول لنا المقريزى «ويقال إنه (أى الحاكم) كان يعتريه جفاف فى دماغه، فلذلك كثر تناقضه؛ وما أحسن ما قال فيه بعضهم كانت أفعاله لا تعلل، وأحلام وساوسه لا تؤول»[3].

على أننا لا نستطيع أن نقف عند هذا الشرح والتصوير. والواقع أن الحاكم بأمر الله كان عقلية مدهشة، وكان لغزاً عسير الفهم؛ وإذا كان قد أشكل على المؤرخين المسلمين من معاصرين ومتأخرين فلم يحاولوا فهمه، فإنه مازال أيضاً فى بعض نواحيه لغزاً على عصرنا، وإن كنا نستطيع أن نحاول فهمه من بعض النواحى، وأن نعلل كثيراً من أعماله ومراسيمه. ويصفه العلامة الألمانى ميللر بأنه «من أعجب وأغمض الشخصيات التى عرفها التاريخ الاسلامى» ويقول: «إن من يقرأ ما أورده المؤرخون المتأخرون، من مختلف الأساطير والقصص، يخرج بأنهم لم يفهموه، وأنهم اعتبروه مجنوناً فقط، وقد جرى رأيهم فيه مجرى الحقيقة، ولكن توجد ثمة شواهد واضحة، على أن هذا الأمير الذى هو أعجب

---

(١) تاريخ الأنطاكى ص٢١٨ و ٢١٩.

(٢) نهاية الأرب (المخطوط) ج٢٦ ص٥٢ و ٥٦.

(٣) الخطط ج٤ ص٧٤.

من أنجبت أسرته، كان أشدهم إثارة للأساطير من حوله، وأن حجاباً كثيفاً قد أسبغ على صورته، فلا نستطيع أن نظفر منها إلا بلمحات»[1].

والآن ماذا نستطيع أن نقول في قوانين الحاكم وتصرفاته؟ وكيف ننظر إليها؟ هل كانت في مجموعها فورات مجنون، ونزعات مخبول، كما تصورها معظم الروايات الإسلامية؟ إن كثيراً من هذه القوانين والأحكام يحمل طابع القسوة والإغراق؛ ولكن من التحامل والظلم، أن نصفها بالسخف المطبق، وأن ننعت صاحبها بالجنون. ولقد ظلم التاريخ الحاكم، كما ظلم كثيراً من الطغاة المصلحين؛ وقد كان الحاكم طاغية، ولكن مصلحاً على طريقته؛ وكان يرمى بما يصدر من القوانين والأحكام إلى تحقيق غايات معينة، دينية وسياسية واجتماعية، ربما خفيت على الكافاة، لأنها تتعلق بسياسة الدولة العليا، ومن ثم كان الريب في حكمتها، والسخط عليها، وكانت القسوة في تطبيقها.

فأما معاملة الذميين: أعنى اليهود والنصارى، وما صدر في شأنها من الأوامر والأحكام المشددة، فلم تكن بدعة في ذاتها، ولم تكن حدثاً جديداً في الخلافة الإسلامية؛ ولم يكن فيها من الجديد سوى روحها ووسائلها الشديدة، التي جعلت منها نوعاً من الإضطهاد المنظم. فالذميين كانوا يلقون من الوجهة الاجتماعية دائماً نوعا من المعاملة الخاصة، ومنذ خلافة عمر فرضت عليهم بعض الأحكام والقيود، التي تجعلهم من الوجهة الاجتماعية أدنى من المسلمين حتى لو اسلموا، وكان منها كما قدمنا قيود تتعلق بالأزياء وركوب الخيل، وحمل السلاح، واقتناء العبيد؛ وكانت هذه الأحكام تتخذ في عصور العصبية الدينية، لوناً من الشدة يختلف باختلاف الظروف والأحوال. وقد رأينا أن الخلافة الفاطمية كانت تتبع سياسة التسامح الديني نحو اليهود والنصارى، وأن موقف الحاكم نحوهم، واشتداده في معاملتهم على هذا النحو، كان انقلاباً في السياسة الفاطمية. وقد نستطيع أن نفسر هذا التطرف من جانب الحاكم، بأنه نوع من الغلو الديني له بواعثه السياسية؛ ففي هذه المرحلة التي اشتد فيها الأمر على اليهود والنصارى، كان الحاكم يبدى كثيراً من التعصب والغلو، سواء من الناحية الدينية العامة، أو الناحية المذهبية الخاصة.

وإذا كان في هذا الإضطهاد المنظم لليهود والنصارى، وهذه النزعات العنيفة المغرقة في معاملة الأقليات الدينية، ما يؤخذ على الحاكم بأمر الله، فإن في روح العصور الوسطى، وهي روح تعصب ورجعية، ما يخفف هذه التبعة، ويقرب فهم هذه السياسة؛ بل ألم نشهد في عصرنا، وفي أرقى الأمم المتمدينة ألواناً شنيعة من اضطهاد الأقليات الدينية أو الجنسية، وهو اضطهاد يمتد إلى النفس والمال وجميع الحقوق العامة؟ وهذه النزعة لا تختلف في جوهرها عن نزعات العصور الوسطى[2].

وقوانين الحاكم الإجتماعية؟ هل كانت تشريعات جنونية، خالية من كل باعث وحكمة؟ إن الحكم على هذه القوانين يقتضى

---

(1) A. Müller: Der Islam, Im Morgea-und Abendland (Berlin 1885) B. I. P. 628.

(٢) يقدم لنا الدعاة السريون في رسائلهم، تعليلا لسياسة الإضطهاد الديني التي سنها الحاكم، ففي الرسالة التي عنوانها: «خبر اليهود والنصارى»، أن جماعة من اليهود والنصارى لقوا الحاكم ذات يوم بالقرافة، واستغاثوا به من سياسته، وبينوا له أنها تنافي قواعد الإسلام، وحدثت بينهم وبينه مناقشة أوضح لهم فيها الحاكم حكمة إصدار هذه القوانين، وهي أنه قد مضت منذ صاحب الشريعة (أعنى محمدا) أربعمائة سنة، وظهر الإمام المنتظر في شخصه، وأضحى له عندئذ أن يدعوهم الى الدخول في شريعته، فإن أبوا، قاتلهم وعطل شرائعهم وكتبهم، وهذا ما فعله إزاءهم.

أن نفهم روح العصر، وخواص المجتمع المصرى يومئذ؛ كان الحاكم بأمر الله على رأس خلافة مذهبة، يقوم سلطانها السياسى على صفة الإمامة الدينية، وكانت هذه الخلافة تريد أن تحيط ملكها في مصر، بسياج منيع من الخلال القوية الصارمة الجافة التى أحاطت ملكها فى المغرب؛ ولكنها ألفت فى مصر مجتمعاً متحضراً يميل إلى الترف والحياة؛ ولم ترد أن تضيق على هذا المجتمع بادىء ذى بدء، لأنها كانت تخطب وده وتسعى إلى تأليفه، ولهذا كانت تسايره، وتغريه بذخها وبهائها، وتطلق له أعنة البهجة والمرح، وتغمره بالمواسم الفخمة والحفلات والمواكب الشائقة.

وقد صدمت هذه الحياة الحضارية العقلية الجافة للحاكم بأمر الله خاصة عندما سعى إلى ما كان يظنه إصلاح للمجتمع الإسلامى فواجهها بالعنف والكبت والبتر.

ومطاردة المرأة والحجر عليها؟ لاريب أن الحاكم كان يذهب في ذلك إلى ذروة الغلو والإغراق؛ ذلك أن المرأة في عقليته الجافة من أشد عوامل الفتنة والغواية، وقد رأى الحاكم فى الحجر على المرأة والمباعدة بينها وبين الرجل فى الحياة، وسيلة لمكافحة الرذيلة وحماية الأخلاق الفاضلة. الموجودة في ذهنه وعقليته الدينية الجافة، أما الإغراق في تطبيق التجربة، فهو بلا ريب أثر من إغراق هذا الذهن الهائم فى كل ما يعتقد ويبتكر؛ وإذا كنا نستطيع أن نعلل فكرة الحجر على المرأة وإبعادها عن مجتمعات المدينة، فمن الصعب علينا أن نعلل ذلك الإغراق في تطبيقها إلى حدود من القسوة المبالغ فيها.



ابتدى قتل اكابر دولته وكتابه، وقطع ايادى قوما، واول من قتل الاستاذ برجوان الذى رباه لانه كان يسميه في صغره الوزغة فانفذ اليه استاذ من يديه [من عنده] وقال له قول له الوزغة الصغيرة قد صار تنينا عظيما وهو يدعوك، فمضى اليه الاستاذ وقال له ما امره به فجا اليه وهو يرتعد فامر به قطعت راسه، وكذلك امير كبير يسما القايد فضل(*) كان بينه وبينه جميل عظيم فدخل يوما الى القصر كعادته فوجد الملك المذكور جالسا وبين

(*) هو من أهم قواد الجيش، وهو الذى ظفر بالثائر أبى ركوه وأخمد ثورته. قتله عام ١٠٠٩م/٣٩٩م الحاكم بأمر الله.

ودعوتهم الى مصر، فاذا ما خرج صلاح الدين الى لقائهم، قبضوا على من بقى أصحابه بالقاهرة، وانضموا الى الفرنجة في محاربته والقضاء عليه.

على أن صلاح الدين مالبث أن وقف على ما دبره له أعداؤه، فشدد الرقابة على مؤتمن الخلافة جوهر، فى أواخر سنة ٥٦٤هـ، وأرسل اليه صلاح الدين جماعة من أصحابه، تمكنوا من اغتياله في أواخر سنة ٥٦٤هـ، وأحل محله في منصب زمام القصور بهاء الدين قراقوش الأسدى. وأدى قتله الى ثورة جند الخليفة وأكثرهم من السودانيين، فساروا فى جمع من الأمراء المصريين وعوام البلد، وكانوا يزيدون على الخمسين ألفا، ودار بينهم وبين قوات صلاح الدين قتال عنيف في المكان المعروف بين القصرين بالقاهرة، أحرق فيه كثير من الدور. كما أحرق حيهم المعروف بالمنصورية، وحلت بهم الهزيمة ومضت فلولهم الى الجيزة، ومازال صلاح الدين يتتبعهم فى الصعيد الى أن قضى على نفوذهم نهائيا سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م).

لم تكن الصعاب التى واجهت مصر فى الفتره التى قضاها صلاح الدين وزيرا للعاضد مقصورة على الفتن التى أثارها رجال القصر الفاطمى، وأتباعهم من الجند، بل كان الفرنجة فى بيت المقدس يرقبون اذ ذلك ازدياد نفوذ نور الدين المتواصل فى مصر، ويرون فيه خطرا يهدد كيانهم، ولذلك استقر رأى ملك بيت المقدس على الاستنجاد بملوك أوربا لاحباط أطماع نور الدين. لكن دعوته لم تلحق استجابة منهم لانشغال غالبيتهم بمسائل تتعلق بدولهم، فلجأ الى

بديه صبى مليح قد ابتاعه بماية دينار [و] فى يده سكين وقد ذبحه بها وقد اخرج كبده ومصارينه وهو يقطعهم، فخرج وهو خايف مرتعدا الى منزله واعلم اهله وكتب وصيته، وبعد ساعة انفذ اليه من قطع راسه. وكان اذا اراد ان يقتل انسان انعم عليه بالمال والخلع، وبعد هذا ينفذ من يقطع راسه وياتيه بها، ولم يزل يفعل هذا حتى افنا خواصه ومقدمى جيشه.

ثم عاد الاراخنة والكتاب فاخذ منهم عشرة من



الصليبيون والامبراطور البيزنطي يتحدون لتحرير الشام.

ما نويل امبراطور الدولة البيزنطية الذى رحب بمد يد المعونة إليه ومن ثم توجهت قواتهم الى دمياط، ويعاونهم أسطول بيزنطي، مزدود بالمؤن والعتاد الحربي، فوصلوا اليها في صفر سنة ٥٥هـ (١١٦٩م). وكان الامبراطور البيزنطي، يرجو أن تحقق هذه الحملة أطماعه في توسيع رقعة البلاد الداخلة في دائرة نفوذه.

رأى صلاح الدين بعد أن بلغه خبر الحملة التى أنفذها الفرنجة الى دمياط، أنه لابد من النهوض لصدهم، فأرسل جنده عن طريق النيل بقيادة ابن أخيه تقى الدين عمر وخاله شهاب الدين محمود، وأمدهما بالسلاح والذخائر والمال، واضطر صلاح الدين للبقاء بالقاهرة، خشية أن يقوم رجال القصر الفاطمي وجند السودان الناقمون عليه بتدبير المؤامرات ضده، وبعث الى نور الدين يستنجده ويشكو اليه ما هو فيه من المخاوف، وأنه ان تخلف عن دمياط ملكها الفرنجة، وان سار اليها دبر له أعداؤه من المصريين المكائد، وبذلك يصبح الفرنجة أمامه والمصريون خلفه، فاستجاب نور الدين لدعوة صلاح الدين وبعث اليه الأمداد. وكان كلما جهز فرقة من الجند، أرسلها اليه، كما حرص الخليفة العاضد على إعانته بالمال طوال مدة حصار الفرنجة لدمياط. وقد نوه صلاح الدين بمعاونة العاضد له بقوله: ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل الى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف دينار، سوى ماأرسل الى من الثياب وغيرها».

مقدميهم ابو نجاح الكبير وكان نصرانيا ارتدكسيا فاحضره اليه وقال له اريد ان تتخلا عن دينك وتعود الى ديني واجعلك وزيرى وتدبر امور مملكتي، فقال له امهلني الى غدا حتى اشاور روحي، فامهله وخلاه فمضى الى منزله واحضر اصدقاه وعرفهم ما جرى له معه، وقال لهم انا مستعد ان اموت على اسم السيد المسيح وما كان غرضي في امهالي الى غدا مشورة روحي وانما قلت هذا حتى اجتمع بكم وباهلي واودعكم



الاساطيل البيزنطية تهاجم سواحل مصر الشماليه ودمياط.

لم يتيسر للمغيرين على دمياط من الفرنجة وحلفائهم البيزنطيين تحقيق غرضهم، فقد تسرب القلق الى نفوسهم من جراء ما عانوه في سبيل تموين قواتهم، كما وقع الخلف بين قوادهم على الخطة التي يتبعونها لمهاجمة هذه المدينة، وفضلا عن ذلك، فان ما بلغهم عن قيام نور الدين بمهاجمة حصن الكرك وغيره من النواحي التي في أيديهم حملهم على الاسراع في رفع الحصار عن المدينة والرجوع بجيوشهم الى بلادهم في ربيع الآخر سنة ٥٦٥هـ. وبذلك فشلت هذه الحملة في غزو دمياط والاستيلاء على مصر.

كان لاحباط خطة الفرنجة والبيزنطيين في مهاجمة دمياط ورحليهم الى بلادهم منهزمين، أثره البالغ في توطيد سلطة صلاح الدين في مصر، فقد اعتبره المصريون حاميا لهم، واتفقوا معه على محاربة الفرنجة أعدائهم جميعا. كما أن صلاح الدين حرصا منه على تدعيم مركزه، رأى أن يحيط نفسه بأهل بيته، فطلب من نور الدين أن يرسل اليه أباه وأقاربه، فوصلوا الى القاهرة في جمادى الآخرة سنة ٥٦٥هـ(١١٧٠م) وما لبث أن أسند اليهم بعض المناصب الهامة، فجعل أباه على بيت المال وأقطع أخوته بعض النواحي.

لما أيقن صلاح الدين أن سلطته قد استقرت، وجه اهتمامه الى القضاء على المذهب الشيعي في مصر، فأنشأ سنة ٥٦٦هـ مدرسة لتدريس المذهب الشافعي وأخرى لتدريس المذهب المالكي بجوار جامع عمرو بن العاص، وعزل قضاة مصر من الشيعة، وعين صدر

واودعهم واوصيكم واوصيهم، والان يا اخوتي لا تطلبو هذا المجد الفاني فتضيعو مجد السيد المسيح الدايم الباقي فقد اشبع نفوسنا من خيرات الارض وهذا برحمته قد دعانا الى ملكوت السموات فقوو قلوبكم، وانه قوى قلوبهم اجمعين بكلامه وثبتهم على ان يموتو على اسم السيد المسيح وصنع لهم في ذلك اليوم وليمة عظيمة واقامو عنده الى عشية ومضو الى منازلهم، فلما كان بالغداة مضى الى الحاكم بامر الله، فقال له: يا نجاح خبرني هل

الدين عبد الملك بن درباس الشافعي قاضيا للقضاة في جميع أنحاء البلاد المصرية، فأناب عنه في سائر البلاد قضاة شافعية، فاستعاد بذلك المذهب السني قوته، وأخذ المذهب الاسماعيلي في الاختفاء تدريجيا حتى لم يبق له أنصار في مصر.

كان لسياسة صلاح الدين التي تنطوى على اضعاف المذهب الاسماعيلي أثرها في زوال الخلافة الفاطمية، فقد انهارت منذ ذلك الوقت سلطة الخليفة العاضد، وكثر القول من صلاح الدين وأصحابه في ذمه، كما تحدثوا بخلعه واقامة الدعوة العباسية. لكن صلاح الدين رغم استبداده بأمور مصر لم يسارع الى اقامه الخطبة للمستضئ بالله العباسي، بل أعرض في بادئ الأمر عن تنفيذ رغبة نور الدين محمود الذى أرسل اليه يأمره باحلال اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل الخليفة الفاطمي، واعتذر بتخوفه من أن يثير هذا العمل غضب أهالي مصر. غير أن نور الدين أبى قبول هذا العذر، وبعث يشاور أصحابه في ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة بدل الخليفة الفاطمي،فوافقه بعضهم وأظهروا استعدادهم لمعاونته على تحقيق هذه الرغبة وخشى آخرون من الاقدام على ذلك. وكان قد وفد الى القاهرة رجل فارسي يعرف بالأمير العام، فلما رأى ماهم فيه من الاحجام وأن أحدا لايتجاسر على اقامة الخطبة للمستضئ أبدى حرصه على القيام بنفسه بالدعاء لهذا الخليفة، فصعد المنبر قبل الخطيب بالجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) في أول جمعة من أشهر المحرم سنة ٥٦٧هـ ودعا للمستضئ

طابت نفسك؟ قال له: نعم، قال على اى قضية. قال: بقاى على دينى. فاجتهد الحاكم بكل نوع من الترغيب والترهيب ان ينقله عن دينه فلم يفعل ولم قدر يميل نيته عن مذهبه، فامر ان تنزع ثيابه عنه وان يشد [إلى] الهنبازين [آلة التعذيب] ويضرب فضربوه خمس ماية سوط على ذلك الجسم الناعم حتى تقطع لحمه وسال دمه مثل الما، وكانت السياط من [جلود] البقر ما يحتمل الجبار منها سوط لا سيما ذلك الرجل الترف المنعم، ثم

العباسي. ولما لم يظهر أحد اعتراضه على ذلك، أمر صلاح الدين في الجمعة التالية الخطباء بمصر والقاهرة باسقاط اسم العاضد من الخطبة وذكر اسم الخليفة العباسي بدلاً منه. وكان العاضد إذ ذاك مريضاً، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك، ثم توفى فى العاشر من المحرم سنة ٥٦٧هـ. وقيل انه علم قبل وفاته بحذف اسمه من الخطبة، فاعتل وتوفى بعد خمسة أيام، فجلس صلاح الدين للعزاء، وأنفذ رسائل الى البلاد، تضمنت وفاة العاضد واقامة الخطبة للمستضئ بأمر الله العباسي.

وكان الناس فى مصر يتطلعون الى اقامة خليفة بعد العاضد من أهله. غير أن هذه الرغبة لم يرض عنها صلاح الدين، بل انه امتنع عن مبايعة داود بن العاضد عندما طلب منه ذلك، وبعث اليه يقول:«أنا نائب عن أبيك فى الخلافة ولم يوصى بأنك ولى عهده». وقبض عليه وعلى بقية أولاد العاضد. وأقاربه. وأمر بنقلهم من القصر فى رمضان سنة ٥٦٩هـ الى دار المظفر التى أنشأها بدر الجمالى لتكون سكنا له، ومقرا لوزرائه.

وهكذا زال سلطان الخلافة الفاطمية فى مصر، وظلت الخلافة العباسية قائمة على الرغم من تطرق الضعف اليها والانحلال..ويرجع السبب فى ذلك، الى رغبة المسلمين فى الاحتفاظ بها، لاعتقادهم أنها نظام لابد منه لصلاح العالم الاسلامى.

امـر بان يضـرب تمام لالف سـوط فلمـا ضـرب
ثلثماية اخرى قال انا عطشان فبطلو عنه الضرب
واعلمو الحاكم بذلك، فقال اسقوه بعد ان تقولو
له يرجع لدينا، فلما جاأو [جاءوا] اليه بالما وقالو
له ما امرهم به الملك، قال لهم عيدو له ماه فانى
غير محتاج اليه لان سيدى يسوع المسيح قد
اسقانى. وشهد قوم من الاعوان وغيرهم ممن كان
هناك انهم ابصرو الما سقط من لحيته ولما قال هذا

---

٢. الحضارة فى عصر الخلفاء الفاطميين

١. نظم الحكم والادارة:

(أ) الادارة

حرص الفاطميون منذ قيام دولتهم على أن تنتقل الامامة من الأب الى الابن عن طريق التعيين. لكن بعض الأحداث حملتهم على الخروج على هذا النظام، فحاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يحرم ابنه أبا الحسن على الذى ولى الخلافة من بعده وتلقب بالظاهر من ولاية العهد، ويعهد بها لابن عمه عبد الرحيم بن الياس، غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل وخلفه ابنه الظاهر. كذلك بعده ابن عمه الحافظ، كما أنه بعد وفاة الفائز ولى الخلافة ابن عمه العاضد لدين الله.

وكان الخليفة الفاطمى يعين ولى عهده قبل وفاته. ولم يكن له الحق فى أن يعهد بالامامة من بعده لأكثر من واحد. و هذا ما يميز ولاية العهد عند الفاطميين عن ولاية العهد عند الأمويين والعباسيين: فكان الأمويون والعباسيون من بعدهم، يعهدون بالخلافة لأكثر من واحد.

وأحاط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة من التقديس، ويتجلى لنا ذلك من حديث الداعى هبة الله الشيرازى الذى وصف فيه مقابلته الخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى مجلس الخلافة

اسلم نفسه فاعلمو الملك القاسي القلب بوفاته
فامر ان يضرب تمام الالف سوط وهو ميت.
وهكذى تمت شهادته بركاته تكون معا.

ومنهم اخر يعرف بالريس فهد ابن ابراهيم
وكان قدمه على جميع الكتاب واصحاب
الدواوين فاحضره بين يديه وقال له: انت تعلم
انني اصطفيتك وقدمتك على كلمن في دولتي

بالقاهرة، فقال: «فلم تقع عيني عليه الا وقد أخذتني الروعة، وغلبتني العبرة وتمثل في نفسي أني بين يدى رسول الله وأمير المؤمنين ماثل، وبوجهي الى وجهيهما مقابل، واجتهدت عند وقوعي الى الأرض ساجدا لولي السجود ومستحقه، أن يشفعه لساني بشفاعة حسنة بنطقه، فوجدته بعجمة المهابة معقولا، وعن مزية الخلافة معزولا...، ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لساني بنطق ولا يهتدى لقول».

وكان الخلفاء الفاطميون، يرون في تقديس الناس لهم اعلاء لشأنهم، واعتبروا أنفسهم هداة لهم. وكانوا يلقبون أنفسهم بألقاب كثيرة منها الخليفة الفاطمي أو العلوى أو أمير المؤمنين. وكان السنيون يطلقون عليهم العبيديين، نسبة إلى عبدالله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، كما أطلق عليهم الفاطميون نسبة الى السيدة فاطمة الزهراء بنت النبي.

أما عن الوزارة في عهد الفاطميين، فان جوهر الصقلي لما فتح مصر أقر الوزير جعفر بن الفرات في منصبه حتى لا يحدث عزله اضطرابا في شئون ولاية مصر، ولم يقدم على عزل أحد من الموظفين السنيين واحلال المغاربة وغيرهم من أنصار الفاطميين محلهم لأنه لم يوجد من المغاربة في أول الأمر خبير بالشئون الادارية في مصر. وحرص جوهر الصقلي على أن يشرك مع كل موظف مصرى مغربي حتى اذا ما تدرب أنصار الفاطميين على الادارة، انفردوا

فاسمع منى وكن معى فى دينى فارفعك اكثر مما
انت فيه وتكون لى مثل اخ. فلم يجيب الى قوله،
فامر بضرب عنقه واحرق جسده بالنار، فاقام النار
توقد ثلاثة ايام عليه ولم يحترق وبقيت يده
اليمنى كان [كأن] النار لم تدن منها البته، وكانت
هذه اية من الله سبحنه لانه كان رجل دين فيه
رحمة عظيمة ولم يرد قط من يطلب منه شى حتى
انه كان يجتاز فى الشوارع راكبا فيلقاه من يطلب
منه الصدقة فيمد يده الى كمه ويظن ان ليس فيه

بالوظائف. كذلك عمل جوهر على اضعاف سلطة الوزير جعفر بن الفرات بأن عين له خادما يلازمه فى داره ويسير فى ركابه ليكون عينا عليه. وساء الوزير ابن الفرات أن يرى نفسه فى هذه الحال، لذلك انتهز فرصة قدوم الخليفة المعز الى مصر واعتذر له عن البقاء فى منصب الوزارة، فاظهر له الخليفة رغبته فى ضرورة بقائه فى البلاد المصرية بعد اعتزاله منصبه ليستأنس برأيه فى مهام الأمور، فأجابه الى ذلك. ثم عهد الخليفة المعز الى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن المغربى فى ادارة شئون الدولة الفاطمية المدنية والحربية، وقلدهما أمور الدولة التى يضطلع بها الوزراء. على أن ابن كلس لم يسند اليه منصب الوزارة ويلقب بلقب وزير الا فى عهد الخليفة العزيز بالله.

كانت الوزارة فى العصر الفاطمى الأول (٣٥٨ـ ٤٦٥هـ) وزارة تنفيذ لأن الخلفاء كانوا على جانب كبير من القوة بحيث استأثروا بادارة شئون الدولة. وحرص الخلفاء الفاطميون على اختيار وزرائهم من المختصين بتدبير الأموال، كما كان لحكام الولايات وكبار موظفى الدولة على اختلاف درجاتهم الحق فى تقلد منصب الوزارة اذا توافرت عندهم الكفاية اللازمة لهذا المنصب. وبلغ من تسامح الفاطميين أن عهدوا الى بعض ذوى الشأن من أهل الذمة بتولية الوزارة.

لم تظهر تسمية الوزير وزيرا بوضوح الا فى أيام الخليفة العزيز، مع أن هذا المنصب كان

شي فيجد ما يدفعه للسايل، ولذلك ظهرت هذه الاية في يده اليمني الذى كان يمدها للصدقة في كل وقت، فكان له في الله افعال جميلة جدا. رزقنا الله بركة صلواتهم اجمعين.

فاما بقية هولاى العشرة قضاة المقدمين لما طالبهم بترك دينهم والانتقال عنه فلم يفعلو ذلك ولا طاعوه فامر بعذابهم فضربو بالسياط، فلما تزايد عليهم الضرب اسلم منهم اربعة، اما احد

معروفا في عهد الطولونيين والاخشيديين. ومن وزرائه يعقوب بن كلس. وكان يجلس للمظالم كل يوم بعد صلاة الصبح، فيدخل عليه الناس بظلاماتهم. واتخذ في قصرة عدة دواوين، خص بعضها بالنظر في شئون الجيش والمالية والسجلات وما يتعلق بجباية الخراج، وعين لكل ديوان ما يحتاج اليه من الموظفين.

ضعف شأن الوزارة بعد وفاة يعقوب بن كلس، وتحولت الى ما يسمى الوساطة خشية ازياد نفوذ الوزراء، ففى أوائل عهد الخليفة الحاكم بأمر الله عزل عيسى بن نسطوراى لاسناده مناصب الدولة الى أهل ملته من المسيحيين، وتقلد الحسن بن عمار زعيم الكامين الوساطة وتلقب بلقب أمين الدولة.

ومن أشهر رجال العصر الفاطمى الذين تقلدوا الوساطة والوزارة أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح الذى لقب وزير الوزراء ذى الرياستين، وأبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى الذى تقلد بعض المناصب العليا فى عهد الحاكم، ثم أسندت اليه الوساطة فى أوائل خلافة الظاهر الفاطمى، لكنه لم يل الوزارة الا فى سنة ٤١٨هـ، وظل شاغلا هذا المنصب الى أن توفى الخليفة الظاهر، فأقره الخليفة المستنصر فى منصبه، فلما توفى سنة ٤٣٦هـ خلفه فى الوزارة أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى. غير أن هذا الوزير لم يتمتع بما تمتع به غيره من نفوذ

هولاى الاربعة فانه مات فى ليلته بعينها، واما الثلثة الاخر فانه الى انقضا زمان الهيج [الهيجان] اعادو الى مذهب النصرانية. واما بقية العشرة ماتو تحت العذاب ونالو الحياة الدايمة. وفعل هذا الملك افعال لم يسمع بان احد من الملوك الذى قبله فعل مثلها، ولم يثبت على راى واحد ولا اعتقاد واحد، وكان منظره مثل الاسد وعيناه واسعة شهل، واذا نظر الى انسان يرتعد منه لعظم هيبته، وكان صوته جهر مخوف، وكان ينظر الى النجوم والحكمة

بسبب اتساع سلطة أبى سعد التسترى اليهودى الذى تقرب من الخليفة المستنصر بالله وعظم شأنه فى عهده.

أصبحت الوزارة منذ أواخر عهد المستنصر بالله الى نهاية العصر الفاطمى وزارة تفويض، تقلدها كثير من أرباب السيوف بعد أن كانت وزارة تنفيذ أو ساطة، يرجع من تقلدها الى أمر الخليفة ونهيه. ومن أشهر وزراء هذا العصر بدر الجمالى الذى كان واليا على عكا، ثم استدعاه المستنصر ليصلح الأمور فى مصر، فلما قدم الى القاهرة، فوض اليه جميع سلطاته، فقد جاء فى سجل توليته الوزارة «وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره، وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره». وبذلك أصبح بدر الجمالى صاحب الحل والعقد، له أن يولى كبار موظفى الدولة ويعزلهم.

ضعف نفوذ الخلفاء الفاطميين كثيرا فى العصر الفاطمى الثانى، بينما زادت سلطة الوزراء الذين استفحلت قوتهم وتضخمت ثروتهم، وأصبح فى أيديهم أمر تعيين الخلفاء وعزلهم. وكان بعضهم يؤثر اختيار أحد أمراء البيت الفاطمى الضعاف حتى يكون ألعوبة فى أيديهم. وقد تجلت هذه الظاهرة فى عهد الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى الذى كان يتمتع بسلطة مطلقة، فأصبحت فى قبضة يده موارد الدولة الواسعة. وقد نقل الدواوين الى داره التى بناها سنة ٥٠١هـ كما جلب اليها كثيرا من الذخائر النفسية.

البرانية وكان يخدم النجم المسمى زحل على زعمه
ويداوم التطواف في الجبل الشرقي [جبل المقطم]
بمصر ليلا ومعه ثلثة من الركابية ويتشبه له
الشيطان بشبه ذلك النجم فيخاطبه بامور كثير
ويذبح له قرابين وترك لباس الملوك لاجل هذا
ولبس ثوب صوف اسود وربا شعره حتى نزل على
اكتافه وترك ركب العماريات [الإبل] والخيل السبق
المسومه والبغال المطرفة وركب حمار اسود، وكان
يمشي وحده في كل موضع وربما اخذ معه فرد

وكان من ألقاب وزراء التفويض: أمير الجيوش، وكافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين، ثم أضيف اليها لقب ملك بعد أن ولى الوزارة رضوان بن ولخشى فى عهد الخليفة الحافظ، وفى ذلك يقول المقريزى:« أول من لقب بالملك منهم مضافا الى بقية الألقاب رضوان بن ولخشى عندما وزر للحافظ لدين الله، فقيل له: السيد الأجل الملك الأفضل،وذلك فى سنة ثلاثين وخمسمائة، وفعل ذلك من بعده، فتلقب طلائع بن رزيك بالملك المنصور، كما تلقب صلاح الدين بالملك الناصر.

***

كانت مصر تنقسم فى العصر الفاطمى الى أربع ولايات أو أقاليم كبيرة، وهى:ولاية قوص ويحكم متوليها جميع بلاد الصعيد، ولاية الشرقية وتشمل على وجه التقريب الأراضى الواقعة شرقى فرع دمياط، وولاية الغربية وتشمل جميع البلاد الواقعة بين فرعي رشيد ودمياط من الشمال الى الجنوب. أما الولاية الرابعة، فهى ولاية الاسكندرية، ويضاف اليها البحيرة. وقد منحت الحكومة الفاطمية كل وال من ولاة هذه الأقاليم الأربعة الحرية فى تعيين العمال على المدن والنواحي والقرى الداخلة فى نطاق ولايته، كما أجازت له العناية بمرافق اقليمه دون الرجوع اليها.

وكان على القاهرة وال، كما تولى على الفسطاط وال آخر وتمتع كل منهما بمركز ممتاز

ركـابى(*)، وكـان يمشى بالليل فى الشوارع ايضـا ويتسـمع على الناس فى بيـوتهم مـا يقـولوه عنه، وكان له جواسيس كتير ومـخبرين يطوفون ليلا ونهـارا ويرفعـون له الاخبـار ولا يخـفى عنه شـيا مما يجرى فى بلاد مصر جميعها ويظنو الناس ان قوة الله حالة عليه لاجل الملك الذى فوضه اليه، وكان له انسـان يسمى الهادى(*) ومعه اثنى عشر رجلا يتتلمذون له ويدعون الناس اليه ويسمعون، وكان يقول للذين يجتمعون اليه ان الحاكم هو المسيح

(*) عرف هذا الركابى النوبى باسم أبى الرضـا سـعـد، كـانت له إقطاعات وهبها له الحاكم ورفع مكانته حتى قصدته الناس لقضاء حاجاتهم عند الحاكم.

(*) حول الدعوات الدينية لدعاة الحاكم التى ذهبت إلى حد زعم أن الحاكم «إله» يجب أن يعبد وأن تحنو له الجباه. ←

عند الخليفة. غير أن مرتبة والى القاهرة كانت أعلى من مرتبة والى الفسطاط. كذلك كان لكل من تنيس وعيذاب وال يحكمها لأهميتها التجارية.

أما شئون الادارة فى العصر الفاطمى بمصر، فكان يشرف عليها عدة دواوين، نذكر من بينها: ديوان الانشاء، ودواوين الادارة المالية التى تقوم بجباية الأموال وانفاقها، ودواوين الادارة المحلية التى تحكم الولايات. وتنقسم الدواوين الرئيسية بدورها الى عدة دراوين يختص كل منهما بعمل معين.

كان الموظفون فى العهد الفاطمى يتقاضون الرواتب الكبيرة ويمنحون الملابس والهدايا الثمنية فى الأعياد والمواسم، وأصبحوا بفضل هذه الرواتب والمنح فى رغد من العيش مما سهل عليهم القيام بواجباتهم على أحسن وجه، فلم يألوا جهدا فى العمل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية ودفع اغارات الأعداء عنها.

وقد حرص الفاطميون على أن يكون موظفوا الادارة من بين ذوى الخبرة، كما اهتموا بتدريب كتاب الدواوين على جميع الأعمال الكتابية، وأحسن مثل لذلك ابن منجب الصيرفى الذى عمل قبيل توليته ديوان الانشاء ـ فى عهد الخليفة الآمر ـ فى ديوان المكاتبات ودواوين الجيش والمالية. وكانت هذه الطريقة تهيئ لأرباب الوظائف قدرا كبيرا من الثقافة الادارية.

كان ديوان الانشاء من أهم دواوين الادارة فى عهد الفاطميين، وأطلق عليه ابن منجب

والى ذلك الحين سلخ الحاكم زهاء خمسة عشر عاماً فى الحكم؛ وكانت فترة يطبعها الاضطراب والعنف والمفاجأة، بما تخللها من غريب الأحكام والتطورات التى أتينا على ذكرها. ولكن الحوادث تدخل من ذلك الحين في طور آخر، ويميل العهد إلى نوع من الهدوء، ويتجه الحاكم وجهة أخرى . كان ذلك الذهن المضطرم الهائم معاً، لا يسكن إلى ركود الحياة العادية، وكان دائماً يؤثر التوغل فى عوالم الحياة الروحية؛ وكانت أعوام العصر الأخيرة مليئة بهذه التيارات الخفية، التى تحجب عنا أغوارها ريب وظلمات كثيفة؛ وكانت مصر في هذه الأعوام مهداً خصباً لطائفة من الدعاة السريين، والدعوات المذهبية؛ وكان الحاكم، كما سنرى من وراء هذه الدعوات يرعاها ويرقب تطوراتها، حتى استحالت في أواخر عهده إلى دعوة جريئة إلى «ألوهيته»، ونعت الحاكم عندئذ «بقائم الزمان وناطق النطقاء» . وعندئذ تمخضت هذه التيارات الخفية، وهذا الهدوء المحموم، عن عاصفة دموية مروعة اختتم بها ذلك العهد، الحافل بصنوف المفاجآت والأحداث العجيبة. ثم كانت ذروة الخفاء، وكان ختام المأساة، فغاض الحاكم من هذا العالم في ظروف كالأساطير، وأسبغ الخفاء على ذهابه حجباً كثيفة من الغموض والريب، كتلك التى أسبغها على حياته، وعلى شخصيته كلها.

وسوف نتناول فى هذا الفصل حوادث هذه المرحلة من عصر الحاكم بأمر الله، ونبسط ما انتهى الينا من أعمال الدعاة وحركاتهم الظاهرة؛ ولكنا نرجئ شرح مبادئهم ودعواتهم الى القسم الثاني من هذا الكتاب، حيث نعنى بشرح الدعوةالفاطمية السرية وكل نظمها وآثارها.

* * *

كان هذا العهد الغريب الحافل قد أخذ بعد هذه الفترة الطويلة المروعة، يستقر ويبدو طبيعياً لاغرابة فيه؛ وماذا عسى أن يخترع الحاكم بعد من صنوف الأحكام والقوانين المدهشة؟ وماذاعسى أن يستجد من الأحداث والخطوب والمحن، بعد أن تقلب الشعب المصرى فى هذه الغمار أعواماً، وروض نفسه على قبولها والرضوخ لأحكامها؟ لقد شهد الشعب المصرى فى هذه الأعوام الخمس عشرة من الحوادث والمفاجآت السياسية والدينية والاجتماعية، مالم يسمع به من قبل فى أى مجتمع؛ فرأى القتل الذريع يخمد كل صوت أو رأس يرتفع، والاضطهاد المنظم يحطم الطوائف والأقليات، والقوانين الصارمة تقلب أوضاع الحياة الإجتماعية، وتخمد كل الرغبات والأهواء؛ وقد احتمل كل شئ فى صبر وجلد، ودفع من حرياته وماله ودمه ثمن الاحتجاج والتذمر، ولم يبق إلا أن يشهد الحوادث تجرى فى طريقها المحتوم، حتى يأذن القدر بتحويلها وتبديلها.

بيد أن الحوادث لم تكن قد بلغت بعد ذروتها ونهايتها، وكانت ثمة مفاجآت مروعة أخرى.

وقد كان الحاكم خلال هذه الأعوام الحافلة، روح كل شئ فى الدولة وفى المجتمع، وكان هذا الذهن المضطرم الذى رمساه التحامل والتسرع بالجنون، يسيطر على أقدار هذا الملك الشاسع بقوة مدهشة، ويقبض بيديه القويتين على كل صغيرة وكبيرة، فى حياة الشعب الداخلية والخارجية، بيد أنه كان الى جانب هذه الحياة العامة المضطربة المضنية، يحيا لنفسه حياة عقلية وروحية أخرى، قد يلمس الشعب أحياناً آثارها الماديا، ولكنه لا يلمس أصولها الحقيقية. وقد ظهرت آثار هذه الحياة الخفية بنوع خاص في أواخر العهد، أعنى منذ سنة ٤٠٥ هـ؛ فمن ذلك الحين يزداد الحاكم شغفاً بالطواف، والتجول فى الخلاء، ورصد النجوم؛ وتحمله نزعة قوية من التقشف والتصوف، ويهيم فى عوالم جديدة من الفلسفة الروحية، لم تلبث أن ظهرت

آثارها المادية في صورة دعوة جريئة، الى تقديس هذه الشخصية المدهشة والارتفاع بها الى ما فوق البشر، وإحاطتها بحجب كثيفة زادتها خفاء على خفائها.

وقد كانت الإمامة حسبما بينا من قبل عنوان الدولة الفاطمية وشعارها البارز، وكانت هذه الإمامة تصطبغ بصبغة مذهبية عميقة، ولم تحجم الخلافة الفاطمية في هذا السبيل، عن أن تعدل أحكاما بأحكام وشعائر بشعائر، وأن تستحدث كثيراً من النظم والتقاليد الدينية المذهبية؛ وكانت منذ قيامها بمصر تعمل بكل ما وسعت، لبث الدعوة الشيعية المغرقة، تارة في الجهر وتارة في الخفاء، كانت مجالس الحكمة الشهيرة، وهي مجالس الدعاية المذهبية تعقد كما سنرى تارة في القصر الفاطمي نفسه وتارة في الجامع الأزهر؛ ولكن الإمامة الفاطمية تتشح في عصر الحاكم بأمر الله، بنوع من القدسية الرهيبة، وتستحيل الدعوة المذهبية الى نوع من الفلسفة الحرة، تكتنفها نفس الحجب المظلمة؛ وكان الحاكم هو روح هذا التطور الخطير في توجيه الدعوة الفاطمية؛ وسنرى كيف ينشئ الحاكم جامعة خاصة هي دار الحكمة، تلقن فيها الدعوة المذهبية المغرقة في سلفيتها وسريتها، في نظم ومراتب مدهشة، كانت من أغرب النظم السرية التي عرفها التاريخ.

وفوق ذلك فقد كان الحاكم بأمر الله من أنشط وأقوى الخلفاء الفاطميين، في بث الدعوة المذهبية ونشرها في الخارج، وكان له رهط من الدعاة الأقوياء في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ولاسيما في المشرق، يعملون لنشر الدعوة، وأستمالة الناس إليها، ويبعث بالمال الوفير إلى مختلف الدعاة، للإنفاق على شئون الدعوة، وبذل الصلات للمستجيبين؛ وكان من بين أولئك الدعاة علماء من الطراز الأول، مثل حميد الدين الكرماني ـ داعية العراقين وفارس[1].

* * *

في سنة ٤٠٥ هـ ازداد الحاكم شغفاً بالطواف كما قدمنا، فكان يركب مراراً في اليوم، بالنهار وبالليل، وكان يقصد غالباً الى المقطم، وكان قد أنشأ له هناك منزلا منفرداً، يخلو فيه الى نفسه ويهيم في عوالمه وتصوراته، ومرصداً خاصاً يرصد منه النجوم ويستطلعها؛ وربما قصد إلى بعض الحدائق والمواقع المنعزلة، ثم يخرج منه إلى الجبل ويجوب الفضاء الشاسع[2]؛ كان يؤثر ركوب الحمير ولاسيما الشهباء منها ـ وكان أبوه العزيز أيضاً يؤثر ركوبها ـ ويخرج دون موكب ولا زينة، ومعه نفر قليل من الركابية، ويرتدي ثياباً بسيطة ساذجة؛ وكان يبدأ كعادته بالتجوال في شوارع القاهرة. ويحادث الكافة، ويستمع إلى ظلامات المتظلمين، ويفصل فيها لوقته أو يحيلها إلى جهة الاختصاص، وكانت تنهال عليه الرقاع والعرائض المختومة، ومنها ما يحتوي السب المشير له ولأسلافه، أو الطعن المر فيه وفي أسرته؛ وكان توجيه الرقاع القاذفة إلى الخليفة الفاطمي من الأمور المألوفة، وكان يتلقى الكثير منها في القصر أو المسجد أو الموكب ذاته، ففي ذات يوم صادف ركبه أمرأة تمد يدها برقعة كأنها ظلامة، فتقدم الحاكم وتناولها بنفسه وقرأها، فإذا فيها أشنع السباب والقذف، فطلب اعتقال المرأة، فأجيب أنها تمثال من الورق المقوى قد ألبس ثياب امرأة، فثارت نفسه لذلك الاجتراء، وأضمر التنكيل بأهل مصر (الفسطاط). وتقول بعض الروايات إنه نفذ مشروعه فعلا، فأصدر أمره إلى العرفاء والمقدمين، بالمسير إلى مصر وحرقها ونهبها والفتك بأهلها، ووقع الاعتداء المروع بالفعل في مناظر بشعة من السفك والعبث؛

---

(١) المقريزي عن ابن أبي طي، في اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ١٧٠أ.

(٢) المقريزي في الخطط ج٤ ص ٧٣ و٧٤، والنجوم الزاهرة عن ابن الصابي ج٤ ص ١٨٠، وأبو صالح الأرمني ص ٤٧ب.

ولكن بعض الروايات الأخرى على اتفاقها فى وقع هذه الجريمة الشنعاء، ترجعها إلى مناسبة أخرى، وإلى تاريخ متأخر عن ذلك بنحو خمسة أعوام أعنى إلى أوائل سنة ٤١١ هـ، ولما كنا نؤثر الأخذ بهذه الرواية الأخيرة، فإنا نرجئ استعراض هذه الحوادث إلى مكانها المناسب[١].

وهنا ينحدر عصر الحاكم بأمر الله إلى مرحلة جديدة من الخفاء. كانت تلك القوانين المدهشة والأحداث المروعة التى توالت فى الأعوام الأخيرة، وما يحيط بكل بواعثها من غموض، ومايحيط بشخصية الخليفة نفسه، وبأهوائه وتصرفاته الغريبة، من ضروب الخفاء والروع، كلها قد بثت الى المجتمع المصرى نوعا من الرهبة والخشوع؛ ولكن الخفاء فى هذه المرحلة يتجه وجهة أخرى؛ وبينا يغرب عن فهم الكافة، إذا به يثير التوجس والروع فى نفوس الخاصة؛ ذلك لأن الدعوة السرية الفاطمية تذهب عندئذ إلى ذروة الغلو والاجتراء، فتزعم أن الحاكم «إله» يجب أن يعبد وأن تعنو له الجباه.

ولم تسجل الرواية الإسلامية، مثل هذا الزعم المنكر من قبل إلا فى فرصة واحدة، هى ظهور المقنع الخراسانى[٢]؛ وقد كان أقصى ما يطمح إليه الدعاة المغامرون، أن ينتسبوا إلى الإمامة وربما إلى نوع من الرسالة أو النبوة؛ وهذا ما ذهب إليه بعض الدعاة المغرقين مثل داعية القرامطة أشد الفرق الإسلامية الشورية غلوا واغراقا؛ ولكن الارتفاع بالإنسان إلى قدس الألوهية، إجتراء لم يسمع به منذ ظهور المقنع أعنى منذ مائتين وخمسين عاماً، إلا فى عصر الحاكم بأمر الله؛ وسنرى فيما يأتى أن هناك كثيراً من وجوه الشبه بين الحادثين وبين الدعويين.

* * *

فى أوائل سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧م)، ظهر بمدينة القاهرة رجل يدعى حمزة بن على بن أحمد الزوزنى، ويعرف باللباد، ودعا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله، وشرح دعواه فى عدة كتب ورسائل غريبة. فمن هو هذا الداعية الجرئ الذى كان لمزاعمه كما سنرى أثر بعيد المدى؟ إن الروايات المعاصرة والمتأخرة لاتقدم إلينا سوى إشارات موجزة، وقد استقينا معظم التفاصيل المتعلقة به وبدعوته من رسائله ذاتها، التى وفقنا إلى قراءتها واستعراضها فى بعض المجموعات الخطية القديمة. وكل ما نعرف عن شخصه أنه فارسى من مقاطعة «زوزن» وأنه كان فى بدء أمره عاملا يشتغل بصنع اللباد، وأنه وفد إلى القاهرة حوالى سنة ٤٠٥هـ[٣]، وانتظم بين الدعاة الذين كان تغص بهم العاصمة الفاطمية يومئذ، وخاض غمار الجدل الدينى والدعوات السرية التى كانت تضطرم بها يومئذ. ومما تجدر ملاحظته أن معظم الدعاة والملاحدة، الذين خرجوا على الإسلام وحاربوه باسمه، ينتمون إلى أصل فارسى، ومنهم عبدالله بن ميمون القداح، الذى ترجع إليه بعض الروايات نسب الفاطميين أنفسهم. وفى رسائل حمزة ما يلقى بعض الضياء على شخصيته، وعلى طبيعة دعوته ومهمته؛ فهو بلاريب من أكابر الدعاة السريين الذين اتصلوا بالحاكم بأوثق الصلات، وتلقوا وحيه أو استوحوا دعوته واستظلوا فى بثها برعايته، وكان لهم أكبر الأثر فى التوجيه الخفى لكثير من مسائل العصر؛ وسنرى حين نعرض إلى مهمته الحقيقية وإلى رسائله الغريبة، أنه يقدم لنا

---

(١) يقول بهذا الرواية ابن الصابى (ويرويه النجوم الزاهرة ج٤ص ١٨١)، ويتابعه فى ذلك ابن الأثير (ج٩ ص ١٠٨). ويقول بالرواية الثانية الأنطاكى فى تاريخه ص ٢٢٤ و ٢٢٥، والوزير جمال الدين المصرى فى (أخبار الدول النقطعة)، ويتابعه فى ذلك النويرى فى نهاية الأرب (ج ٢٦ ص ٦٠)، وهى أرجح فى نظرنا لأنها أكثر اتفاقاً مع المنطق وأكثر دقة فى شرح الأسباب والظروف وإيراد التواريخ.

(٢) ظهر «المقنع» فى خراسان سنة ١٥٩هـ (٧٧٦م) فى خلافة المهدى، وادعى الإمامة ثم الألوهية.

(٣) أخبار الدول المنقطعة (المخطوط).

نفسه أيضاً في صفة النبوة، ويصف لنا بعض أعماله بالمعجزات.

والظاهر أن حمزة بن علي عكف مدى حين على بث دعوته سراً، ولم يجاهر بها إلا في أواخر سنة ٤٠٧ أو أوائل سنة ٤٠٨ هـ؛ وعندئذ يبدو على مسرح الحوادث الظاهرة، ويلازم الجلوس في مسجد ريدان (أو مسجد تبر) بظاهر باب النصر، ويدعو جهراً إلى عبادة الحاكم، وينادي بالتناسخ في الأديان والشرائع وبالحلول، ويزعم أن الحاكم ليس بشراً، وإنما هو رمز حل فيه الإله؛ فاجتمع إليه طائفة كبيرة من غلاة الشيعة الإسماعيلية وتلقب بهادي المستجيبين، ولقب الحاكم «بقائم الزمان»، وبث دعاته في أنحاء مصر والشام، ورخص في أحكام الشريعة، فاستجاب له كثير من الكافة، وكثر جمعه وذاع أمره؛ وكان الحاكم حين يمر ركبه بالمسجد، يخرج إليه حمزة ويحادثه طويلا على انفراد؛ ولم يلبث أن أولاه الحاكم رعايته بصورة ظاهرة، وبعث إليه وإلى أتباعه بالسلاح؛ ثم تمادى حمزة في مشروعه فاتخذ له بطانة قوية من الدعاة والرسل، ولقب أحدهم وهو إسماعيل بن محمد التميمي «بسفير القدرة»، وكان ينفذه لأخذ البيعة من الرؤساء والكبراء للحاكم في صفته الجديدة التي أسبغها عليه حمزة وشيعته، أعني باعتباره «قائم الزمان»، فكان الكثير منهم يضطر إلى التظاهر بالقبول خوفاً من البطش والانتقام[1].

وفي نفس الوقت الذي ظهر فيه حمزة بهذه الدعوة الجريئة، ظهر بها عدة من رسله وتلاميذه، وفي مقدمة هؤلاء حسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم، ومحمد بن إسماعيل الدرزي، وهذان تذكرهما بعض الروايات المعاصرة والمتأخرة، وإسماعيل بن محمد التميمي، وعبد الله بن محمد القرشي، وعلي بن أحمد السموقي، وعبد الله اللواتي، ومبارك بن علي، وأبو منصور البردعي، وأبو جعفر الحبال، وهؤلاء يذكرهم حمزة في رسائله إلى جانب الدرزي في المبدأ حليف حمزة وداعيته، ولكنه انقلب فيما بعد إلى منافسته وخصومته، كما يقرر لنا حمزة ذلك في بعض رسائله[2].

وقد اختلفت الرواية في تواريخ ظهور هؤلاء الدعاة فيقول لنا الأنطاكي وهو مؤرخ معاصر، إن الدرزي أول من ظهر منهم في سنة ٤٠٨ هـ وأول من أذاع الدعوة بألوهية الحاكم، ثم ظهر حمزة بعد مقتل الدرزي في نفس العام؛ ويتابعه في ذلك ابن العميد؛ ويقول لنا الوزير جمال الدين في «أخبار الدول المنقطعة»، إن الأخرم كان أول من ظهر بمصر من أولئك الدعاة، وذلك في رجب سنة ٤٠٩ هـ، وأن حمزة ظهر من بعده في سنة ٤١٠ هـ، ثم تبعه الدرزي في بث الدعوة؛ ولكن رسائل حمزة التي وقفنا عليها، تدلي بالعكس بأن حمزة كان أول من ظهر من أولئك الدعاة، وأول من بث دعوة الألوهية، وأن ظهوره بالدعوة كان في سنة ٤٠٨ هـ، وهو ما يقرره لنا صراحة في خاتمة رسالته الأولى المسماة «بالنقض الخفي»[3].

وظهر حسن بن حيدرة الفرغاني المسمى بالأخرم بمدينة القاهرة، عقب ظهور حمزة بقليل، ودعا إلى مثل ما دعا إليه حمزة من التناسخ والحلول، وألوهية الحاكم، وأرسل بمضمون نظريته رقاعا إلى العلماء والقضاء والأكابر، وذاعت دعوته بسرعة في جماعة من المغامرين والمرتزقة، فاستدعاه الحاكم، وخلع عليه وأركبه فرساً مطهماً،

---

(١) راجع تاريخ الأنطاكي ص ٢٢٠ و٢٢٣، والمكين ابن العميد ص ٢٦٤ و٢٦٥، والمقريزي في اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٩أ، وراجع أخبار الدول المنقطعة (المخطوط) وأورده فستنفلد في «تاريخ الفاطميين» ص ٢٠٥ و٢٠٦.

(٢) راجع المجموعة الخطية المحفوظة بدار الكتب رقم ١٣٢ عقائد النحل، وهي التي تضم رسائل حمزة بن علي.

(٣) راجع المخطوط المشار إليه ص ٥١.

وسيره في مركبه، وأولاه عطفه ورعايته، بيد أنه لم تمض على ذلك أيام قلائل حتى قتل الأخرم؛ وذلك أنه كان يسير في ركبه بالقاهرة ذات يوم، فوثب به رجل من متعصبي السنة، وأرداه قتيلا، فتفرق في الحال صحبه وانهارت دعوته؛ ونهبت دار الأخرم وطورد أنصاره في كل مكان، وغضب الحاكم لذلك أيما غضب وأمر بإعدام القاتل في الحال؛ وكفن الأخرم بأكفان من القصر ودفن في حفل رسمي؛ وحمل أهل السنة صاحبهم ودفنوه مكرماً، وهرع الناس أياماً لزيارة قبره؛ ولكن القبرنبش بعد أيام واختفت جثته، وكان ذلك على ما يظهر من وحي الحاكم ورغبته[1] وقد انتهت إلينا وثيقة تلقي ضوءاً على مضمون نظرية الفرغاني الإلحادية، وهي عبارة عن رسالة كتبها كبير دعاة الحاكم حميد الدين الكرماني أثناء وجوده بالقاهرة، في أواخر سنة ٤٠٩هـ، تحت عنوان «الرسالة الواعظة»، وفيها يرد على الفرغاني، ويفند نظريته.

وهذا الرد منصب على ما ورد في رقعة من الرقاع، التي كان يذيعها الفرغاني في شرح مذهب «التأليه»، والتي تلقى الكرماني إحداها.

ويمهد الكرماني في رده بشرح سمو «الألوهية» ومهمة الإمام القائم في تلقي رسالتها، ثم يخاطب الأخرم بقوله: «فإن قبلت، وعن أباطيلك رجعت، فقد حماك جمال الإسلام، وتولاك عز الإمام، وحصلت من أهل الإيمان؛ وإن أبيت، وعن الاتعاظ امتنعت إصراراً على ضلالتك التي أنت فيها، تضل عباد الله، وتمنعهم من عبادة الله، وتنقض مراتب حدود الله تعالى وتزيد «ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون».

ثم يندد بما أقدم عليه الأخرم، في رقعته أورسالته من إغفال أسم الله، واسم النبي، واسم الأئمة الطاهرين، وأمير المؤمنين سلام الله عليهم «الذين هدم الله بهم أركان الضلال، وبين بمكانهم الحرام من الحلال، ولا يقبل الله إليه عملا من أعمال العباد إلا بولايتهم، ولا صلاة من الصلوات إلا بالصلاة عليهم».

ويشرح الكرماني بعد ذلك كون الله تعالى ليس «بجسم»، وهو ما يخصص له فصلا في كتابه «راحة العقل»[2]، وكونه ليس هو «المادة» ثم يقول: «وإذا كان الكلام قد أسفر عن الأمر في أن الله تعالى ليس بجسم، ولا في جسم، وهو متقدس من صفات الجسم على كونه تعالى متقدساً أيضاً عما يدرك بالعقول والأفهام، فقد ظهر أن العبادة ليست لشخص، وأن المعبود ليس بشخص، وظهر كفرك والحادك، نعوذ بالله من الكفر والإلحاد».

ثم يرد على الأخرم تساؤله عن معنى الإسلام وشرائطه؟ وعن الشريعة؟ وكونها محدثة أم قديمة مع الدهر؟ وكون الشريعة هي الدين أم طريق الدين؟ ثم سؤاله عن النفس، وعن العقل، وماهي غاية الإبداع الذي فوق الروحانيين والجسمانيين؟

يقول الكرماني: «فعلم ذلك شريف مثبت في صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة، بأيدي سفرة، كرام بررة، وهو عندنا معشر الدعاة، وديعة من جهة أربابها: الرسول صلى الله عليه، الوصي عليه السلام، والقائم فينا عبد الله ووليه ابن نبيه، الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، وآبائه الأئمة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين.. علينا أن نؤديها إلى من استحق ممن أقر بفضلهم، ودان لله تعالى بطاعتهم. وأنت فقد قطعت الأسباب، وأنكرت الأرباب، وصرت في جحودك فضلهم ومنزلتهم مستمراً، وعلى كنودك لهم وكفرك مستقراً».

ويعطف بعد ذلك على عناصر دعوة الأخرم، ويرد عليها على النحو الآتي:

---

(١) مرآة الزمان (المخطوط) المجلد الحادي عشر ج٣ ص ٤٠٤، وأخبار الدول المنقطعة، وأورده فستفلد ص ٢٠٤ و٢٠٥.

(٢) كتاب راحة العقل ص ٤٢ ـ ٤٤.

«وأما قول أصحابك: إن المعبود تعالى هو أمير المؤمنين سلام الله عليه، فقول كفر، تكاد السموات يتفطرن منه، وتنشق الأرض، وتخر الجبال. هذا أن دعوا للإله المعبود غيرا، فياجسارة على الله حين جعلوا إليه تعالى شريكاً ما أعظمها، وياجرأة على الله تعالى حين جعلوا المعبود غيره تعالى ما أفظعها، ولقد قالوا عظيما، وافتروا إثما مبيناً،وإن ذلك إلا كفر محض. فما أمير المؤمنين عليه السلام، إلا عبد خاضع وله طائع، ويسجد لوجهه الكريم، ويعظمه غاية التعظيم، وباسمه يستفتح، وعليه في أموره يتوكل، وأمره إليه يفوض، والله تعالى قد فضله على خلقه، وجعله من جهة رسوله محمد صلى الله عليه، خليفة له في أرضه، ووسيلة لعباده إلى جنته، وأوجب طاعته على عباده، وهو سلام الله عليه يتبرا إلى الله تعالى ممن يعتقد فيه ذلك.. وهو سلام الله عليه ينفي ما تنسبه أنت وأصحابك إليه عن نفسه...».

«وأما قولك وقول أصحابك إن الشريعة والتنزيل خرافات، قشور، وحشو، ولاتتعلق بها نجاة... فهو شقاوة تدعو الى حر النيران، وكفر من عمل الشيطان، وارتداد عن الإسلام».

ثم يقول: «فلولا أسدل أمير المؤمنين عليه السلام ستر الأمن على المؤمن والمنافق، والمسلم والكافر، حتى استوت الأقدام فيه، لكان الجواب عن ذلك التنكيل بك، ثم قطع الوتين منك، وتجريد حد السيف عليك».

ويختتم بقوله: «وبعد فإني أنصحك، ومن نكال الدنيا والآخرة أحذرك، وإياك وهذه المقالات الشنيعة، فلا تعقبك الا البعد عن تعالى الله، وعن أوليائه عليهم السلام، ولا تكسبك إلا العاقبة السوء، ورد عنك من تبعك على ضلالتك، رد بالإقرار لهم ببطلان ما ارتكبته، وفساد ما ابتدعته، ولا يغرنك الإغفال عنك، وتب إلى الله تعالى، قبل أن تضيق عليك عسرصة الإمهال...»[1].

ذلك هو ملخص الرسالة الواعظة، التي يتصدى فيها الكرماني لدحض دعوة الأخرم الإلحادية. ونحن نعرف أن الكرماني كان من أكبر دعاة الحاكم بأمر الله، والمدافعين عن سياسته وتصرفاته المذهبية؛ فإذا كان الحاكم قد أولى الفرغاني عطفه حسبما تقدم، فهل كان الكرماني يعمل في هذا الموطن بوحي من نفسه؟ أم هل كان يمثل دوراً ألقي إليه، حتى يمكن تغطية موقف الإمام، أي الحاكم، عند الحاجة؟ الواقع أن من الصعب علينا أن نعتبر دفاع الكرماني في هذا الموطن، معبرا عنه حقيقة موقف الحاكم، وقد كان فيما يبدو موقف عطف ورعاية لأولئك الدعاة الملاحدة.

وعلى أي حال فإن مقتل الفرغاني لم يضع حداً للدعوة الإلحادية، ولم ين الدعاة لهذا الاعتداء، ولم تفتر دعايتهم وكان محمد بن اسماعيل الدرزي، ويعرف «بانوشتكين البخاري» وهو من أصل تركي، فيما يرجح[2]، أقوى رسل حمزة وأشدهم عزماً وجرأة؛ وكان يسير على طريقة حمزه في الدعوة إلى التناسخ والحلول؛ ويزعم أن روح آدم انتقلت إلى روح على ابن أبي طالب، ثم انتقلت روح علي إلى الحاكم صفوة سلالته، وشرح الدرزي دعوته وأصول مذهبه في رسالة قدمها إلى الحاكم؛ فقر به الحاكم، وأغدق عليه عطفه ورعايته، وارتفعت لديه منزلته،

(١) نشرت هذه الرسالة وعنوانها «الرسالة الواعظة في الرد على الأخرم الفرغاني» من مجموعة خطية من رسائل حميد الدين الكرماني، وبعناية الدكتور محمد كامل حسين، بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، بعدد مايو سنة ١٩٥٢ (ص ١١ – ٢٩).

(٢) ويقول الأنطاكي إنه يرجع إلى أصل أعجمي (ص ٢٢٠)؛ وكذلك المقريزي في اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٩أ.

واشتد نفوذه حتى غدا ملاذ الكبراء، وسفيرهم لديه في قضاء مطالبهم ورغباتهم[1]؛ وسمى الدرزى نفسه «بسند الهادى، وحياة المستجيبين». و«الهادى» هو حمزة كما رأينا، وفي ذلك ما يدل على أن حمزة كان السابق والدرزى هو اللاحق، وأن الرجلين كانا في البداية على الأقل، حليفين يعملان لبث الدعوة معاً بمنتهى التعاون والوفاق[2].

ولم يكن لهذه المزاعم المغرقة أثر يذكر، وإن كان بعض الكافة من الجهلاء والمرتزقة، وبعض الذميين والمنافقين، قد تظاهروا بقبولها اجتناء للنفع أو اتقاء النقمة؛ وكان هؤلاء إذا لقوا الحاكم في ركبه قالوا: السلام عليك يا أحد، يامحى، يا مميت؛ وأمثال ذلك من الهذر المنكر[3]. وكثرت الفتن والمناقشات الدينية، ولاسيما بين أنصار حمزة وأنصار ختكين داعى الدعاة، وهو المشرف على توجيه الدعوة الفاطمية الأصلية، وأخذ كل فريق يرمى صاحبه بالكفر والضلال[4].

وفي رواية عن نهاية الدرزى وهى رواية الأنطاكى، أن الدرزى قتل أثناء ركوبه في موكب الحاكم ذاته؛ قتله مواطنوه الترك على أثر ما شملهم وشمل جميع رجال الدولة ومعظم طبقات الشعب من السخط لمزاعمه الإلحادية المثيرة، ويأخذ المقريزى بهذه الرواية[5] وفي رسائل الدروز السرية ما يشعر بأنه قتل في سنة ٤١٠ هـ بتحريض حمزة، وقتل معه عدة من الدعاة الخوارج[6].

والحقيقة فيما يرجح، هي أن الدرزى لم يقتل في هذا الظرف، ولكنه أختفى في القصر أياماً حتى هدأت العاصفة وسكن الجند، ثم دبر الحاكم له سبيل الفرار، وعاونه بالمال، فسار إلى الشام ونزل ببعض قرى بانياس، وأذاع في الناس دعوته فكانت أصل مذهب الدروز الشهير الذى سمى باسمه[7]؛ وأساسه القول بالتناسخ، وحلول الروح، وأن الروح المقدس انتقلت من آدم إلى على بن أبى طالب، ثم انتقلت روح على إلى الحاكم بأمر الله.

أما مصير حمزة فتحيطه معظم الروايات بالصمت، وينفرد الأنطاكى ببيان مصيره، وفيقول لنا إنه فر بعد فقد الحاكم ثم قتل بعد ذلك، وطورد أنصاره ومزقوا كل ممزق[8]. بيد أن هنالك ما يدل على أنه لبث قائماً بدعوته حيناً آخر؛ ذلك أنه توجد لدينا مجموعة خطية أخرى من رسائل الحادية [9] نعتقد من روحها وأسلوبها أنها من تأليف حمزة بن على ذاته، ومنها رسائل كتبت في سنة ٤٢٢هـ، أى بعد التاريخ الذى نتحدث عنه بنحو احدى عشر عاماً؛ وربما استتر حمزة بمصر حيناً يبث دعايته في الخفاء، وربما انتقل إلى الشأم في أثر زميله الدرزى؛ بيد أنه لا توجد لدينا تفاصيل شافية عن حركة أولئك الدعاة، بعد أن انهارت دعوتهم بمصر على النحو الذى قدمنا.

* * *

ماذا كان موقف الحاكم بأمر الله من هذه الحركة الإلحادية المدهشة ؟ لقد كان فيما يرجح موقف تأييد ورعاية، وهذا ما تقوله معظم الروايات المعاصرة

---

(١) مرآة الزمان (المخطوط) الجزء المشار إليه ص ٤٠٥، وأورده النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٨٤.

(٢) أخبار الدول المنقطعة.

(٣) ابن الصابى، وأورده النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٨٣.

(٤) تاريخ الأنطاكى ص ٢٢٤.

(٥) تاريخ الأنطاكى ص ٢٢٣؛ واتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٩أ.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية في مقال الدرزى.

(٧) مرآة الزمان (المخطوط) الجزء المشار إليه ص ٤٠٥، وأورده النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٨٤.

(٨) تاريخ الأنطاكى ص ٢٣٧.

(٩) تحفظ هذه المجموعة بدار الكتب رقم ٣٥ عقائد النحل.

والمتأخرة؛ وإذا كان من الصعب أن نحدد مدى هذا التأييد، ففى وسعنا أن نقول إن الحاكم كان من وراء الدعاة يشد أزرهم، ويمدهم بالمال والنصح، ويسهر على حمايتهم من الكافة؛ وإذا صدقنا ما يقدمه إلينا الدعاة فى هذا الصدد، فقد نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن الحاكم كان يشرف على توجيه الدعوة، ويشترك فى تنظيمها ونغذيتها بطريقة فعلية؛ وهذا ما يذكره لنا حمزة فى بعض رسائله[1]؛ وفى سياق الحوادث وتتابعها حسبما قدمنا، ما يدل على أن تحطيم الدعوة وتمزيق الدعاة على هذا النحو، كان ضربة شخصية للحاكم بأمر الله، وقد ثارت نفس الحاكم غضباً على الجند والكافة، لأنهم اجترأوا على مطاردة الدعاة.

وقد أشرنا فيما تقدم إلى حادث المرأة التى صنعت من الورق، ونصبها أهل مصر (الفسطاط) فى طريق الحاكم وفى يدها رقعة كأنها ظلامة، وإلى ما أثارته محتويات هذه الرقعة القاذفة فى نفس الحاكم من الحفيظة والغضب على أهل مصر.

اعتزم الحاكم إذن أن ينكل بمصر وأهلها؛ فاستدعى العرفاء والقادة ونظم معهم خطة العمل؛ وعهد إلى مقدمى العبيد وغيرهم من الطوائف بافتتاح الهجوم، فأخذوا يغيرون على أحياء مصر فى هيئة العصابات، وينهبون الحوانيت والسابلة، ويخطفون النساء من الدور، والشرطة تغضى عن جرائمهم، والحاكم معرض عن كل شكاية وتضرع؛ وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة ٤١١ هـ؛ ثم اتسع نطاق الاعتداء، فهاجمت قوى العبيد والترك والمغاربة مصر من كل صوب، وأضرموا النار فى أطرافها؛ وهب أهل مصر للدفاع عن أنفسهم، واستمرت المعارك بين الفريقين ثلاثة أيام، وألسنة اللهب تنطلق من المدينة القديمة إلى عنان السماء؛ وفى اليوم الرابع اجتمع الأشراف والكبراء فى المساجد ورفعوا المصاحف، وضجوا بالبكاء والدعاء، فكف الأتراك والمغاربة عن متابعة الاعتداء، واستمر العبيد فى عدوانهم ، وأهل مصر يدفعونهم بكل ما استطاعوا، وطلب الأتراك والمغاربة إلى الحاكم أن يأمر بوقف هذا الاعتداء الصارخ على أهل مصر وعلى أموالهم، خصوصاً وأن لهم بين المصريين كثيراً من الأصهار والأقارب، ولهم فى مصر كثير من الأملاك، فتظاهر بإجابة مطلبهم، ولكنه أوعز إلى العبيد أن يستمروا فى القتال، وأن يتأهبوا لمدافعة الترك والمغاربة، فاضطرمت المعارك بين الفريقين، ودافع الترك والمغاربة عن أهل مصر، ومزقوا جموع العبيد ونكلوا بهم؛ ثم هددوا الحاكم باقتحام القاهرة وحرقها، إذا لم يوضع حد لتلك الجرائم، فخشى الحاكم العاقبة، وأمر العبيد بالتفرق ولزوم السكينة؛ واعتذر لأشراف مصر وزعماء الترك والمغاربة عما وقع، وتنصل من كل تبعة فيه، وأصدر أماناً لأهل مصر قرئ على المنابر؛ وسكنت تلك الفتنة الشنعاء، بعد أن لبثت الفسطاط بضعة أسابيع، مسرحاً لمناظر مروعة من السفك والعيث والنهب، وأحرقت معظم شوارعها ومبانيها وخربت معظم أسواقها ونهبت، وسبى كثير من نسائها واعتدى عليه، وانتحر كثير منه خشية العار؛ وتتبع المصريون أزواجهم وبناتهم وأمهاتهم، وافتدوهن من الخاطفين.

وكان ما تلا ذلك من المناظر الدموية، وهو آخر الحوادث الهامة فى ذلك العهد الحافل، وكانت بداية النهاية؛ وكانت الخاتمة تدنو مسرعة، وقد أشرف ذلك العام المليء بالحوادث ـ سنة ٤١١ هـ ـ على نهايته، وأشرف العهد نفسه على الخاتمة؛ وكانت الخاتمة ذروة الخفاء.

ذروة الخفاء

ـ ١ ـ

هانحن أولاء نقترب من

---

(١) راجع رسائل حمزة (المخطوط رقم ١٣٣ عقائد النحل) ص ٧٥.

الخاتمة، ونقترب من الذروة، خاتمة العهد الذى استعرضنا، وخاتمة تلك الشخصية العجيبة التى ملأت العهد عنفاً واضطراباً وروعة؛ وذروة ذلك الخفاء الذى كان يغمرها فى حياتها الخاصة والعامة، يسبغ على العهد كله لوناً من الطرافة الممزوجة بالرهبة والخشوع.

كان المجتمع المصرى قد بلغ فى هذه الأعوام الخمسة والعشرين، غاية اليأس والسخط والروع؛ وكانت قد أضنته تلك الأحداث الهائلة التى توالت عليه، فقلبت أوضاعه، وقوضت نظمه من الأساس، ونكبته فى النفس والمال غير مرة، وعصفت بتراثه الروحى وتقاليده الإجتماعية وكل معتقد عزيز لديه؛ وكانت اليد الحديدية التى تقبض على مصايره، والنظم العنيفة التى تطوق أعناقه، تخمد لديه كل نزعة إلى الخروج والمقاومة. بيد أن ذلك الخضوع الذى فرضه عليه تتابع الحوادث وهولها ورعتها لم يكن نهائياً، وإذا كانت القوة الطاغية قد استطاعت أن تخمد الثورة، وأن تنكل بالمجتمع الثائر، فإنها لم تخمد لديه كل نزعة إلى النضال والمقاومة، بل لقد سرت عوامل السخط إلى العسكرية ذاتها، فبدت أنها قد ضاقت ذرعاً بهذه الأهواء العنيفة، وأنها لا تريد أن تكون بعد أداة للطغيان الأعمى، والانتقام الذريع. كان الحاكم بأمر الله يجلس عندئذ فوق بركان مضطرم من الأحقاد والشهوات، وكان يتخبط بين مختلف النيات والمشاريع، ويرى أداة الطغيان وقد فسدت، وكادت تفلت من بين يديه القويتين؛ وبينا يضطرم الشعب سخطاً، ويرقب فرص الانتقاض والمقاومة، وبينا يرتجف الطاغية فى أعماق قصره رهبة من المستقبل.

وقعت المناظر الدموية التى أتينا على وصفها فى جمادى الآخرة سنة ٤١١ هـ واستمرت مدى أسابيع؛ وصدر فى نفس الوقت سجل (مرسوم) بإبطال المراسيم التى صدرت من قبل فى حق النصارى واليهود، ورفع الفروض التى ضربت عليهم، وإطلاق الحرية لهم فى إعادة كنائسهم، وارتداد من أسلم منهم إلى دينه[1] محاولة منه لاستجلاب عطف الجماهير ولكن دون جدوى.

ومضى على ذلك زهاء شهرين، وبينا كانت النفوس على اضطرامها، وجزعها وتوجسها، إذا بالحدث الأكبر يقع فجأة، وإذا بالحاكم بأمر الله يغيض من هذه الحياة الدنيا فى ظروف كالأساطير.

كان مصرع الحاكم بأمر الله، أو بالحرى كان اختفاؤه، من أعجب مآسى التاريخ وأشدها غموضاً.

ولقد كانت شخصية الحاكم مثال الخفاء ذاته؛ ولم تكن مظاهر الغموض والتناقض التى تنتاب هذه الشخصية الغريبة فى كثير من المواطن، لتحجب مظاهر القوة المادية والمعنوية، التى تتمتع بها فى أحيان كثيرة. بيد أن الخفاء المروع يصحب الحاكم فى حياته الخاصة، وفى تصرفاته العامة، فى أقواله وفى أفعاله. وأى خفاء أشد من ذلك الذى تنفثه حولها، شخصية ترتفع فى سماء التفكير، حتى لتزعم السمو فوق البشر وتهيم فى دعوى الألوهية، وتنحط مع ذلك فى كثير من نزعاتها وتصرفاتها، إلى نوع من الشذوذ بل الجنون الغامض؟

وكان ا ختفاء الحاكم كحياته لغزاً مدهشاً، بل كان ذروة الخفاء والروع، وما زالت قصة هذا الاختفاء وظروفه، وحقيقة عوامله، مثار الريب والجدل. ركب الحاكم ذات مساء فى بعض جولاته الليلية، وقصد إلى جبل المقطم، ثم لم ير بعد ذلك قط لاحياً ولاميتاً، ولم يعرف مصيره قط ولم يوجد جثمانه قط، ولم تقدم إلينا الروايات المعاصرة أو المتأخرة، أية رواية حاسمة عن مصرعه أو اختفائه.

* * *

هنالك فى سير الحوادث وأحوال العصر، ما يحمل رغم

---

(١) الأنطاكى ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢، و اخبار الدول المنقطعة، وأبو صالح ص ١٤٦.

خفاء المأساة، وغموض الظروف التي أحاطت بوقوعها، واضطراب الروايات بشأنها، على الاعتقاد بأن الحاكم بأمر الله ذهب ضحية المؤامرة، وأن مصرعه لم يكن سوى جريمة سياسية، ارتكبت لتحقيق غايات الملك والسياسة، وهذا ما تقرره بعض الروايات المعاصرة على اختلافها في الشرح والتعليل؛ ولكن من دبر هذه المؤامرة؟ ومن قام بتنفيذها؟ وكيف نفذت؟ و أين ذهبت جثة الحاكم؟ هذه أمور يحيط بها الخفاء والريب، وإن كنا نجد الجواب عليها أيضاً في بعض الروايات المعاصرة.

والحقيقة أن افتراض المؤامرة السياسية، وربما كان خير تعليل للمأساة. ذلك أن الحاكم بأمر الله كان طاغية خطر الأهواء والنزعات، سريع الانتقام، ذريع الفتك؛ وكانت تضطرم حوله بلا ريب شواظ من البغضاء والسخط، وقد شمل هذا السخط جميع الطوائف والطبقات؛ وكان رجال الدولة وأكابر الزعماء والقادة، يعيشون جميعاً في جو من الخيانة والروع، ولا يأمنون على نفس أو مال. ومن المدهش حقاً أن هذه البغضاء المضطرمة، لم تصب الحاكم من قبل بنارها، ولم تسحق ملكه وسلطانه، بل استطاع أن يخمدها في صدور ذويها، مدى هذه الأعوام الطويلة. ذلك لأن هذه الشخصية القوية كانت تثير دائماً من الرهبة والروع، أكثر مما تثير من البغضاء والحفيظة والسخط.

كانت المؤامرة إذن ترقب الحاكم بأمر الله، ويرصده الموت. ولكن من دبر هذه المؤامرة، وأقدم على الاضطلاع بتلك المهمة الخطرة؟ لم يكن مدبرها الأول رجلا من رجال الدولة، أو زعيما ممن نزلت بهم نقمة الطاغية. ولكن كان مدبرها، على ما يرجح وتقرره معظم الروايات المعاصرة امرأة، هي ست الملك أو سيدة الملك، أخت الحاكم ذاته. وقد أشرنا إلى ست الملك فيما تقدم. كان مولدها بالمغرب في سنة ٣٥٩هـ، وقد عرفت منذ فتوتها بالعقل والحزم وحسن التدبير، وتسميها الرواية أحياناً «ست الكل» وتنعتها بالسلطانة[١]؛ وكان أبوها العزيز يحبها ويستشيرها في كثير من الأمور ويستمع إلى رأيها ونصحها. ولما توفي العزيز استمرت ست الملك على نفوذها في القصر، وقامت بدور كبير في تدبير الشؤون وتوجيهها، في بداية عهد الحاكم بأمر لله، فكانت تمده بحسن رأيها وتدبيرها في كثير من الأمور، وتسهر على سلامته وسلامة ملكه. وهنالك ما يدل على أن العلائق بين ست الملك وأخيها الحاكم، كانت في تلك الفترة الأولى من حكمه، تتسم بطابع المحبة والمودة الوثيقة، فقد ذكر لنا المقريزي في أخبار سنة ٣٨٧هـ، أن ست الملك «أهدت إلى أخيها الحاكم بأمر الله ثلاثين فرساً مسرجة، أحدها مرصع، وستا وعشرين بغلة مسرجة ملجمة، وخمسين خادماً، منها عشرة صقالبة، وتاج مرصع، وشاشية مرصعة، وأسفاط كثيرة من طيب، وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجير». وفي حوادث سنة ٣٩٠هـ، أن ست الملك «أقطعت إقطاعاً مبلغه مائة ألف دينار، منها ضياع في الصعيد، وأسفل الأرض، ودور وبساتين»[٢]. ولكن الأمور تغيرت مع كر الزمن. ذلك أنه لما استأثر الحاكم بالسلطة، واندفع في تيار العنف والإغراق، وأسرف في القتل، وإصدار القوانين والأحكام المتناقضة، كانت ست الملك تعترضه، وتسدي إليه النصح وتحذره من العواقب، فكان يغضب لتدخلها ويردها بغليظ القول واللوم، ويقصيها عن كل تدخل واشتراك في الشؤون[٣].

وكانت ست الملك ترقب

(١) المقريزي في اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٩ب.

(٢) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٢ ب و٥٦أ.

(٣) أخبار الدول المنقطعة (في فستنفلد ص ٢١٥)، ومرآة الزمان (النسخة الفتوغرافية) في الجزء المشار إليه ص ٤٠٥؛ والنجوم الزاهرة ج٤ ص ١٨٥ و ١٩٥؛ ونهاية الأرب ج٦ ٢٦ ص ٦١.

تطورات الحوادث في جزع وتوجس، وتخشى أن تنقض العاصفة وتضطرم الثورة، فتحمل عرش الحاكم ومستقبل الأسرة كله، ويختتم عصرالمجد والسؤدد، في غمر الدماء والشقاء والذلة، وكان الحاكم من جانبه يحقد على ست الملك، وينقم عليها تدخلها وقارص لومها. وتضيف الرواية إلى ذلك، أن الحاكم كان يشدد عليها الحجر والرقابة، وينعى عليها سوء مسلكها وفضائحها الغرامية، ويتهمها بتناوب العشاق عليها، وأنه هددها بإنفاذ القوابل إليها لاستبرائها، فكانت لذلك تخشى بطشه وفتكه[1]. وفي اتهام ست الملك بهذه الفضائح ما يدعو إلى التأمل؛ ذلك أنها كانت يومئذ قد جاوزت عهد الشباب ببعيد، وأشرفت على الثانية والخمسين من عمرها؛ ولم تذكر الرواية عنها ما يشينها قط؛ بل نراها تجمع على امتداحها، والإشادة بحزمها وعقلها وكياستها[2]؛ وإذن فمن المشكوك فيه أن تنحدر هذه الأميرة الفطنة الحازمة، في كهولتها إلى مثل هذا المسلك المشين؛ وعندنا أن العوامل السياسية التي أشرنا إليها هي كل شئ في تلك الخصومة، التي ثارت بين الحاكم وأخته، وهي التي دفعت ست الملك الى طريق الجريمة.

وبحثت ست الملك حولها بين العناصر الناقمة، فوقع اختيارها على سيف الدولة الحسين بن دواس زعيم كتامة ليكون حليفها ومنفذ مشروعها. وكانت كتامة بين القبائل المغربية التي شدت بأزر الدولة الفاطمية، أقواها وأوفرها عصبية وبأساً؛ وكان زعيمها الحسين بن دواس يعيش بعيداً عن القصر. ويقاطع الحفلات والمواكب الرسمية خشية غدر الحاكم و فتكه، ويصارح الحاكم ويراجعه في ذلك وينعى عليه مسلكه، فيزداد إباء وتمسكا، ويصارح الحاكم بما يخالجه من ريب وجزع؛ فاتصلت ست الملك سراً بالحسين بن دواس، وعرضت إليه ما انتهت إليه الأمور من الاضطراب والفوضى، من جراء تصرفات أخيها، وتطرفه وإغراقه، وانتهاكه حرمات الشريعة والإيمان بادعاء الألوهية، وما يهدد الدولة والإسلام كله من خطر التمزق، إذا استمر الحاكم في غيه، ولم يوضع حد لشنيع تصرفاته وجرائمه، وأنه لا سبيل إلى تدارك الموقف ودفع الخطر، غير قتل الحاكم وتولية ولده. فلبى ابن دواس دعوة الجريمة وتعهد بالتنفيذ، وأخذت عليه الأميرة ميثاقاً بالوفاء والكتمان، وقطعت على نفسها مختلف المواثيق والعهود، ووعدته بأنه سيكون مدبر الدولة وصاحب الكلمة العليا في شؤونها. وعهد ابن دواس بالتنفيذ إلى عبدين من أخلص عبيده، فخلعت عليهما ست الملك، ووهبتهما مالا وخيلا وغيرها، وزودتهما بسكينين ماضيين؛ واتفق على أن يكون التنفيذ في مساء اليوم التالي، حينما يخرج الحاكم كعادته ليلا إلى المقطم، ويتوغل فيه منفرداً أو مع اثنين من الركابية فقط، فعندئذ يتم التنفيذ، ويحقق مشروع الجناة بأيسر أمر (٣).

ـ ٢ ـ

وقد أشرنا فيما تقدم إلى شغف الحاكم بالطواف بالليل، ولاسيما في جنبات المقطم؛ ولم يكن ذلك الطواف عبثاً فقد كان الحاكم كأبيه وأجداده يهيم باستقراء النجوم ورصدها. وكان يتوغل في الجبل، ويقصد الربى في مكان يسمى «صحراء الجب»، وهنالك في خلوته المنعزلة التي بناها خصيصاً لذلك، يتأمل النجوم ملياً ويحسب طالعها، ففي ليلة الاثنين ٢٧ شوال سنة ٤١١هـ ١٣٠ فبراير سنة ١٠٢١م) خرج الحاكم كعادته للطواف في الجبل. وتصف لنا الرواية منظراً مؤثراً وقع بينه وبين والدته قبيل

---

(١) ابن خلدون ـ في كتاب العبر ـ ج٤ ص ٦١، والمقريزي في اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٩ب.
(٢) النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٨٥ و ٢٤٨.
(٣) مرآة الزمان النسخة الفتوغرافية في الجزء المشار إليه ص ٤٠٦.

ركوبه، فقد ذكر الحاكم لوالدته أنه يتوقع في الغد قطعاً في طالعه ينذر به ظهور نجم مسعين، وأنه يتوجس من ظهوره، ويخشى أن يصبها مكروه ولاسيما من أخته، وأعطى أمه مفاتيح خزانة مليئة بالمال بها خمسمائة ألف دينار، لتحولها إلى قصرها وتكون ذخيرة لها؛ فجزعت أمه وكانت تعبده ويعبدها حباً، وتضرعت إليه ألا يخرج، فوعدها بذلك. ولبث الحاكم أرقا والضجر يكاد يقتله، حتى مضى من الليل ثلثاه؛ وعندئذ قال لأمه لابد من ركوبي الليلة، وإلا خرجت روحي. ثم ركب في الحال حماره الأشهب المدعو بالفخر، ورافقته بطانته المعتادة؛ وكان أبو عروس صاحب العسس (كبير الشرطة) يطوف كل ليلة بالقصر مع رجاله، وهم يضربون الطبول والبوقات الخفيفة، فإذا خرج الحاكم تبعه في رجاله حتى أبواب المدينة. وخرج الركب إلى الجبل، من درب يقال له درب السباع[1]؛ ولما وصل إلى الجبل رد أبا عروس ورجاله، ونسيما صاحب الستر والسيف، ولم يصحبه سوى اثنين من الركابية[2]، ثم سار متوغلا في شعب المقطم. وكانت أخته ست الملك ساهرة ترقب كل حركاته من قصرها، وهو القصر الصغير أو القصر الغربي المقابل للقصر الخلافي أو القصر الكبير، فما كادت تعلم بخروجه حتى اتخذت كل أهبتها؛ وسبق الجناة فريستهم إلى المكان المقصود. وهنا تقول الرواية نقلا عن أبي عروس صاحب الشرطة، إن الحاكم لما وصل إلى الجبل صعد إلى رابية مرتفعة، وتأمل النجوم قليلا ثم ضرب يداً على يد وقال: ظهرت يا مشئوم! ثم توغل قليلا في شعب الجبل، فاعترضه في الطريق عشرة من عرب بني قرة، والتمسوا منه صلة وإحساناً، فأنفذ معهم أحد الركابيين إلى صاحب بيت المال ليحقق ملتمسهم؛ والظاهر أن اعتراضهم للحاكم على هذا النحو لم يكن عفواً[3]. واستمر الحاكم في سيره مع الركابي الآخر، حتى المكان الذى يقصده، وهو في شرقي حلوان وقد لاح الفجر. فخرج عبداً ابن دواس من مكمنهما، وانقضا عليه وطرحاه أرضاً وهو يصيح بهما «ويلكما ماذا تريدان»، فقتلاه وقطعا ذراعيه، وشقا جوفه، واستخرجا أمعاءه، وقتلا الصبي الركابي، وقطعا قوائم الحمار، وحملا أشلاء الحاكم إلى سيدهما في كساء، فرافقهما ابن دواس في الحال إلى ست الملك، وسلمها الجثة؛ فدفنتها في نفس مجلسها، وأنعمت على ابن دواس وعبديه بمال وتحف كثيرة، ودعت في الحال كبير الوزراء خطير الملك أبا الحسين عمار بن محمد وأخطرته بما وقع، واستحلفته على الكتمان والطاعة، وأمرته باستدعاء ولي العهد عبد الرحيم بن الياس من الشام، فكتب إليه على لسان الحاكم أن يبادر بالعود، فعاد بطريق البحر، وبعثت ست الملك قائد الساحل فاستقبله في مياه دمياط، وسار به إلى تنيس وقتله؛ وهناك روايات أخرى عن مصرعه نشير إليها فيما بعد[4]. وفرقت ست الملك زهاء ألف دينار بين مختلف الأولياء، لكي تطمئن الخواطر المضطربة، ولتقضى على الأقاويل، أن أخاها سيغيب سبعة أيام وأنه يمدها بأوامره، واتخذت كل أهبة لإخفاء الجريمة، وتدبير ما يجب لاختيار الخليفة الجديد.

وكان أول هم لست الملك أن تقضى على شركائها في الجريمة، فيذهب سرها معهم إلى الأبد، فلما استكملت أهبتها، وأخذت البيعة للخليفة الطفل أبي الحسن على بن الحاكم بأمر الله بمعاونة ابن دواس، وأعلن

---

(١) سمى كذلك لأن دار السباع كانت تقع فيه، وكان موقعه في طريق القرافة الموصل إلى مقبرة الشافعي.

(٢) هم الذين يصحبون الركب الخلافي، ويعنون بركوب الخليفة والدواب التي يركبها.

(٣) يقول النويرى إن العشرة الذين اعترضوا الحاكم، إنما هم عبيد ابن دواس أعدهم لتنفيذ الجريمة، وأنهم سبقوا الحاكم ليلة خروجه إلى الجبل، ثم انقضوا عليه وقتلوه (نهاية الأرب مجلد ٢٦ ص ٥٨).

(٤) المقريزى في اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٧٠ أ.

خليفة مكان أبيه في العاشر من ذي الحجة (٤١١هـ)، واستوثقت من طاعة كتامة، وباقي الطوائف والزعماء، استدعت ابن دواس وكان يعتقد أنه غدا أعظم رجل في الدولة؛ وبينا هو في بعض أبهاء القصر، صاح نسيم صاحب الستر في صبيان الخاص بإيعاز ست الملك، بأن هذا هو قاتل مولانا الحاكم فاقتلوه، فانقضوا على ابن دواس وقطعوه بسيوفهم إرباً، ثم قتلوا العبدين اللذين ارتكبا الجريمة؛ ثم دبرت ست الملك أيضاً مقتل الوزير خطير الملك بعد ذلك بأشهر قلائل، ولم يفر أحداً ممن وقفوا على السر؛ وتمت هذه الإجراءات الدموية بسرعة وإحكام، وذهب السر الرهيب مع الجناة إلى الأبد[1].

- ٣ -

هذه خلاصة ضافية لما تعرضه الروايات التي انتهت إلينا عن مصرع الحاكم بأمر الله، وعن ظروف المأساة وبواعثها. ولكن القضاعي وهو مؤرخ معاصر تقريباً، كتب روايته بعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً فقط، يضيف إلى هذه الرواية فصلا آخر، فيحدثنا عن خاتمة المأساة. وكيف اكتشفت آثار الجريمة؛ فيقول إن الحاكم لما سار في طريقه إلى المقطم، وبعث أحد الركابيين مع نفر بني قرة الذين اعترضوا طريقه، صرف الركابي الآخر عند قبر «الفقاعي» في وسط القرافة الكبرى، ولما لم يعد الحاكم كعادته في صباح اليوم التالي، خرج القضاة والأشراف والقواد الى الجبل، فبحثوا عن الحاكم حتى آخر النهار ولم يعثروا له على أثر، وكرروا الذهاب على هذا النحو ثلاثة أيام دون جدوى؛ وفي اليوم الرابع أعني يوم الخميس آخر شوال، خرج مظفر صاحب المظلة، ونسيم صاحب الستر، وابن مسكين صاحب الرمح، وعدة من زعماء الجند والقضاة ورجال الدولة، وتوغلوا في شعب المقطم حتى بلغوا دير القصير، على مقربة من حلوان؛ وعكفوا على البحث والتنقيب حتى عثروا بحمار الحاكم الأشهب، وقد قطعت ساقاه الأماميتان، وعليه سرجه ولجامه؛ فتتبعوا الأثر حتى وصلوا إلى البركة الواقعة شرقي حلوان؛ فنزلها البعض وعثروا فيها ثياب الحاكم، وهي سبع جباب منزرة لم تحل أزارها وفيها أثر الطعان، فعندئذ أيقن الناس بقتله[2].

ثم تقول الرواية إن ست الملك بعد أن استتب لها الأمر، وثبت مصرع الحاكم على هذا النحو، أبدت الحزن عليه، وأقامت عزاءه القصر ثلاثة أيام، ثم استدعت جماعة العرب الذين اعترضوا سبيل الحاكم ليلة الجريمة التماساً للعطاء، وطلبت اليهم أن يقولوا ما يعرفون من مقتل الحاكم، ووعدتهم بالعفو والإحسان إذا أجابوا وإلا أعدموا في الحال؛ فأقسموا جميعاً بأن لا علم لهم بشيء، فضربت أعناقهم؛ وتوسلت ست الملك لستر جريمتها بارتكاب جريمة أخرى.

على أن هنالك رواية في شأن هؤلاء الأعراب ينفرد بها الأنطاكي، وهو مؤرخ معاصر للمأساة[3]، فهو يقول إن الحاكم ليلة خروجه الى المقطم، ومعه

---

(١) أورد هذه التفاصيل عن مصرع الحاكم من المؤرخين وفي مقدمتهم أبو هلال الصابي وقد كتب روايته بعد الحادث بنحو ثلاثين عاما فقط (راجع هذه الرواية في النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٨٥ ومابعدها) وكذلك أبو عبد الله القضاعي وكتب بعد الحادث بقليل أيضاً (راجع عيون المعارف - مخطوط بدار الكتب ص ١٨١ و ١٨٢) والذهبي (راجع المخطوط بدار الكتب مجلد ٢٢ في وفيات سنة ٤١١) وهو ينقل رواية القضاعي؛ وابن قز أو غلي في مرآة الزمان (المخطوط الجزء المشار إليه ص ٤٠٥ - ٤٠٨) وابن خلكان (ج٢ ص ١٦٧ و ١٦٨) وابن الأثير (ج٨ ص ١٠٨ و ١٠٩) والمقريزي في اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٩ب و ٧٠أ، وراجع أيضاً أخبار الدول المنقطعة (المخطوط) وابن العميد (تاريخ المسلمين ص ٢٥٨) وابن العبري (مختصر تاريخ الدول طبع اليسوعيين ص ٣١٢ و ٣١٣) ونهاية الأرب (ج٢٦ ص ٥٨) وابن خلدون (ج٤ ص ٦١) وغيرها.

(٢) راجع رواية القضاعي في النجوم الزاهرة (ج٤ ص ١٩٠ و ١٩١).

(٣) بدأ الأنطاكي كتابة تاريخه حسبما يقرر في مقدمته سنة ٤٠٥هـ في أنطاكية، واستمر في كتابته حتى أوائل عهد الظاهر.

صبي ركابي فقط اعترضه سبعة من البدو أو سبعة فوارس من بني قرة حسبما يروى لنا المقريزى، والتمسوا منه الصلة بجفاء وغلظة، فأجابهم بأنه لا يحمل مالا يدفعه لهم، ولكنه يرسلهم الى متولي بيت المال ابن بدوس ليدفع لهم خمسة آلاف درهم (أو عشرة آلاف على قول المقريزى)، فقالوا إنهم لا يمضون لأنه لا يدفع لهم شيئا، واشتد الجدل بينهم وبينه، فطلبوا اليه أن يرسل معهم الصبي الركابي لينجز لهم ما وعد من عطاء؛ وسار الركابي مع أربعة منهم صوب صوب المدينة، وتخلف الثلاثة الباقون؛ ثم عاد الركابي بعد أن أدى مهمته يبحث عن سيده، في المكان الذى اعتاد انتظاره فيه، وطال بحثه دون جدوى حتى لقيه مساح راهب بالجبل، فسأله وذكر له صفة الحاكم وصفة حماره، فأخبره أنه رأى هذا الحمار في طريقه معرقبا، وسار معه الى الموضع الذى شهده فيه.

وفي صباح اليوم التالي سارت الأميرة ست الملك وجميع الأمراء والقواد الى الجبل، يتتبعون أثر الحاكم حتى وصلوا إلى دير القصير[1]، وبحثوا في الدير وجميع المواضع التي كان يرتادها فلم يقفوا له على خبر؛ ثم عثروا بعد ذلك بثيابه وفيها آثار الطعان والدماء، ولكنهم لم يجدوا جثته، فاستدلوا من ذلك على أن البدو الثلاثة الذين تخلفوا عن رفاقهم، هم الذين قتلوه ودفنوه في الجبل وأخفوا أثره.

واتجهت مظنة التحريض الى ابن دواس، وكثرت في حقه الأقاويل، فعملت ست الملك على استدعائه الى القصر، حيث قتل حسبما تقدم؛ ووجدت ست الملك في بعض صناديقه، السكين التى كان يحملها الحاكم في كمه، فثبت لدى الجميع حينئذ أنه هو مدبر الجريمة[2].

وربما كان لهذه الرواية التي ينفرد بها الأنطاكي قيمتها من حيث التفاصيل الجزئية؛ وليس بعيداً أن يكون هؤلاء الأعراب هم القتلة، وأن يكون وقوفهم في طريق الحاكم أمرا مدبرا كما أشرنا إلى ذلك فيما تقدم؛ ومن جهة أخرى فهي تنفي تهمة تدبير الجريمة عن ست الملك، وإن كانت تتفق في اتهام ابن دواس وتخصه بتدبيرها.وإذا كان من الصعب أن نقف عند هذه الرواية، وأن نؤثر الأخذ بها دون غيرها من الروايات المعاصرة، نظرا لانفرادها بهذا التفصيل، فإنه مما يدعو إلى التأمل أنها ليست هي الرواية الوحيدة التي تنفي تهمة الجريمة عن ست الملك، مع اتفاقها في جوهر الموضوع، وهو أن الحاكم بأمر الله قد ذهب ضحية المؤامرة والجريمة.

- ٤ -

ذلك أن المقريزى أعظم مؤرخي مصر الإسلامية، بالرغم من كونه يقدم إلينا في «اتعاظ الحنفاء» ملخص تفاصيل المؤامرة، منسوبة إلى ست الملك، وتفاصيل تنفيذها حسبما تقدم[3] متفقاً بذلك مع معظم المؤرخين، يعود

---

(١) تحدث أبو صالح الأرمني في تاريخه عن دير القصير، وقد كان يومئذ من أعظم الأديار القبطية الملكية، فذكر لنا عنه ما يأتي: «الدير المعروف بالقصير على قرنة الجبل الشرقي. وهذا الدير يشرف منه على بحر النيل المبارك وطرا (وهي البلدة المعروفة القريبة من حلوان)، أنشأه ارغاديوس الكبير بن تدوس الكبير ملك الروم على قبر معلمه القديس أرسانيوس، وسماه باسمه. وكان أرسانيوس هذا قد هرب منه وتعبد في برية القديس أبو مقار بوادي هبيب ثم انتقل الى هذا الجبل وتعبد فيه. وعرف هذا الدير بدير القصير، ويعيد له عيد عظيم، ويجتمع إليه خلق كثير، وتحت بيعته على الجبل بيعة أخرى نقرت في الجبل بالأزميل فيها مذبح، وهو بيد الملكيين، وفيه جماعة من رهبانهم. وفي هذا الدير ثمانية كنائس وعليه حصن دائر. وفيه منظرة وفيه مدافن، وتحته مغائر كثيرة نقرت في الجبل؛ وفيها ما يناهز ستة آلاف راهب» (تاريخ أبي صالح ص ٦٢ - ٦٦).

وقد صدر مرسوم الحاكم في رمضان سنة ٤٠٠هـ، بهدم هذا الدير حسبما تقدم في موضعه.

(٢) تاريخ الأنطاكي ص ٢٣٣ و ٢٣٤ و ٢٣٨.

(٣) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٩ ب و ٧٠ أ.

بعد ذلك فيقدم إلينا رواية أخرى عن مصرع الحاكم بأمر الله ترمي إلى نفي الاتهام عن ست الملك، ينقله إلينا عن عز الملك المسبحي، مؤرخ الدولة الفاطمية ووزير الحاكم وصديقه. ونص هذه الرواية هو أنه «في المحرم سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤م) قبض على رجل من بني حسين ثار بالصعيد الأعلى، فأقر بأنه قتل الحاكم بأمر الله في جملة أربعة أنفس تفرقوا في البلاد، وأظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم وقطعة من الفوطة التي كانت عليه، فقيل له لم قتلته، فقال غيرة لله وللإسلام؛ فقيل له كيف قتلته، فأخرج سكيناً ضرب بها فؤاده فقتل نفسه، وهو يقول هكذا قتلته؛ فقطع رأسه وأنفذ به إلى الحضرة مع ما وجد معه، وهذا هو الصحيح في خبر قتل الحاكم لا ما تحكيه المشارقة في كتبهم من أن أخته قتلته»[1].

وقد كان المسبحي مؤرخا كبيراً ثقة، وكان من عظماء الدولة، ومن معاصري الحاكم وخاصة جلسائه. والمرجح أنه وقف بنفسه على كثير من التدابير، التي اتخذت عقب اختفاء الحاكم، وسمع من المصادر الوثيقة كثيراً من الأحاديث، التي ذاعت حول مصرعه؛ وليس ثمة شك في روايته للواقعة التي ينقلها إلينا عن ذلك الرجل المقبوض عليه. ولكن هل قال ذلك الرجل حقاً؟ وهل كان حقيقة من قتلة الحاكم بأمر الله؟ هذا ما نشك فيه؛ ومن الصعب أن نعتقد أن رجلا أو رجالا من الكافة، يستطيعون أن يدبروا وأن ينفذوا وحدهم مثل هذه الجريمة الهائلة، في مثل هذا الخفاء والإحكام، واللهم إلا إذا كانوا مأمورين، يعملون لحساب الرؤوس المدبرة ذات القوة والحول؛ والظاهر أن الرجل المشار إليه كان من الفدائية أو الدعاة الهائمين، وأنه أراد أن يجعل من نفسه بهذه الدعوى بطلا وشهيداً.

والمهم في رواية المسبحي هو أنها تبرئ ست الملك من تبعة الجريمة. وإذن فالرواية تختلف في شأن ست الملك اختلافا ظاهراً بين الاتهام والنفي، ولكن مما يلفت النظر أنها تتفق جميعاً في أن الحاكم بأمر الله ذهب ضحية الجريمة والمؤامرة، وأنه توفى قتيلا، ولم يسفر البحث عن أى أثر لجثته، ومن الصعب أن يقف المؤرخ عند أحد الرأيين بصورة حاسمة، بيد أننا نستطيع بتمحيص هذه الروايات، أن نستخلص منها ما يحملنا على ترجيح رأى بعينه في شأن المحرض على الجريمة ومرتكبها.

ذلك أن لدينا أربع روايات معاصرة؛ فأبو هلال الصابى والقضاعي يتفقان في اتهام ست الملك، وكونها دبرت المؤامرة وقامت على تنفيذ الجريمة، بمعاونة ابن دواس ورجاله؛ ويتفق المسبحي والأنطاكي في تبرئة ست الملك من تبعة هذه الجريمة، والصابى مؤرخ محقق ثقة؛ وإذا كان قد كتب روايته في المشرق بعيداً عن مصر، فالظاهر أنه نقلها عن نفس المصادر التى نقل عنها معاصره القضاعي؛ وكذلك الأنطاكي فإن روايته عن الحاكم وعن الحوادث المعاصرة من أدق الروايات، وأحفلها، فإذا كان يغفل الإشارة إلى ست الملك فربما كان في إشارته إلى اتهام ابن دواس قرينة غير مباشرة على اتهام ست الملك باعتبارها أقوى شخصية في القصر يومئذ. وأما المسبحي والقضاعي[2]، فقد كان كلاهما في مصر، واتصل كلاهما بشؤون الدولة وحوادث العصر اتصالا وثيقاً، وربما كانت رواية المسبحي أقرب إلى التحقيق، لأنه كان معاصراً للحوادث نفسها، وكان وثيق الصلة بالحاكم نفسه وكل شخصيات البلاط يومئذ. ولكن المسبحي كان شيعيا يدين

---

(١) راجع الخطط ج٤ ص ١٧٤؛ ولم يصل إلينا تاريخ المسبحي وهو تاريخ مصر الكبير، ولكن انتهت إلينا منه شذور كثيرة على يد المؤرخين المتأخرين. وتوجد منه قطعة صغيرة مخطوطة بمكتبة الاسكوريال حسبما نوضح فيما بعد في ترجمة المسبحي.

(٢) توفى المسبحي في سنة ٤٢٠ هـ، والصابى سنة ٤٤٨، والقضاعي سنة ٤٥٤ هـ، ويحيى الأنطاكي سنة ٤٥٨ هـ.

بالدعوة الفاطمية؛ أفلا تسبغ هذه الصفة بعض الريب على روايته؟ ثم ألا يمكن أن تكون هذه الرواية، رواية قصر بغذيها التحفظ والحرص على عدم المساس بشخصيات سامية، كانت ما تزال ذكراها مقرونة بالإجلال؟ والظاهر أن حرص المقريزى على نقل هذه الرواية يرجع أيضاً إلى انتمائه إلى الفاطميين، والعطف على ذكراهم، وميله إلى الأخذ بما يبرئهم. أما القضاعى فقد كتب بعد ذلك بنحو ثلاثين عاما، فى عصر تضاءل فيه الحرص على الذكرى، ولم يكن يخشى المؤرخ أن يتمتع فيه بنوع من حرية الرأى والرواية؛ هذا إلى أن القضاعى لم يكن شيعيا بل كان سنياً، وكان فقيها شافعيا ثقة، وبذا كان أبعد عن التأثر بنفوذ القصر الفاطمى.

وعلى ذلك فربما كانت رواية القضاعى أقرب الروايات كلها إلى الصحة، خصوصاً وقد أيدتها رواية معاصرة أخرى، هى رواية الصابى، وأيدها بعد ذلك كثير من الروايات المتأخرة؛ وإذا كنا لا نستطيع أن نقف عند جميع شروحها وتفاصيلها، فقد نستطيع أن نقف عند حقيقة واحدة، هى أن الأميرة ست الملك كانت روح المؤامرة، وكانت هى الرأس المدبر للجريمة، وفى ظروف العصر، وفى تتابع الحوادث كما شرحناها، وفيما انتهت إليه سياسة الحاكم الدموية وفوراته المذهبية المغرقة، ومن إثارة الأحقاد والحفائظ، ودفع الدولة فى طريق الدمار والانحلال، وما يؤيد هذا الرأى.

ـ ٥ ـ

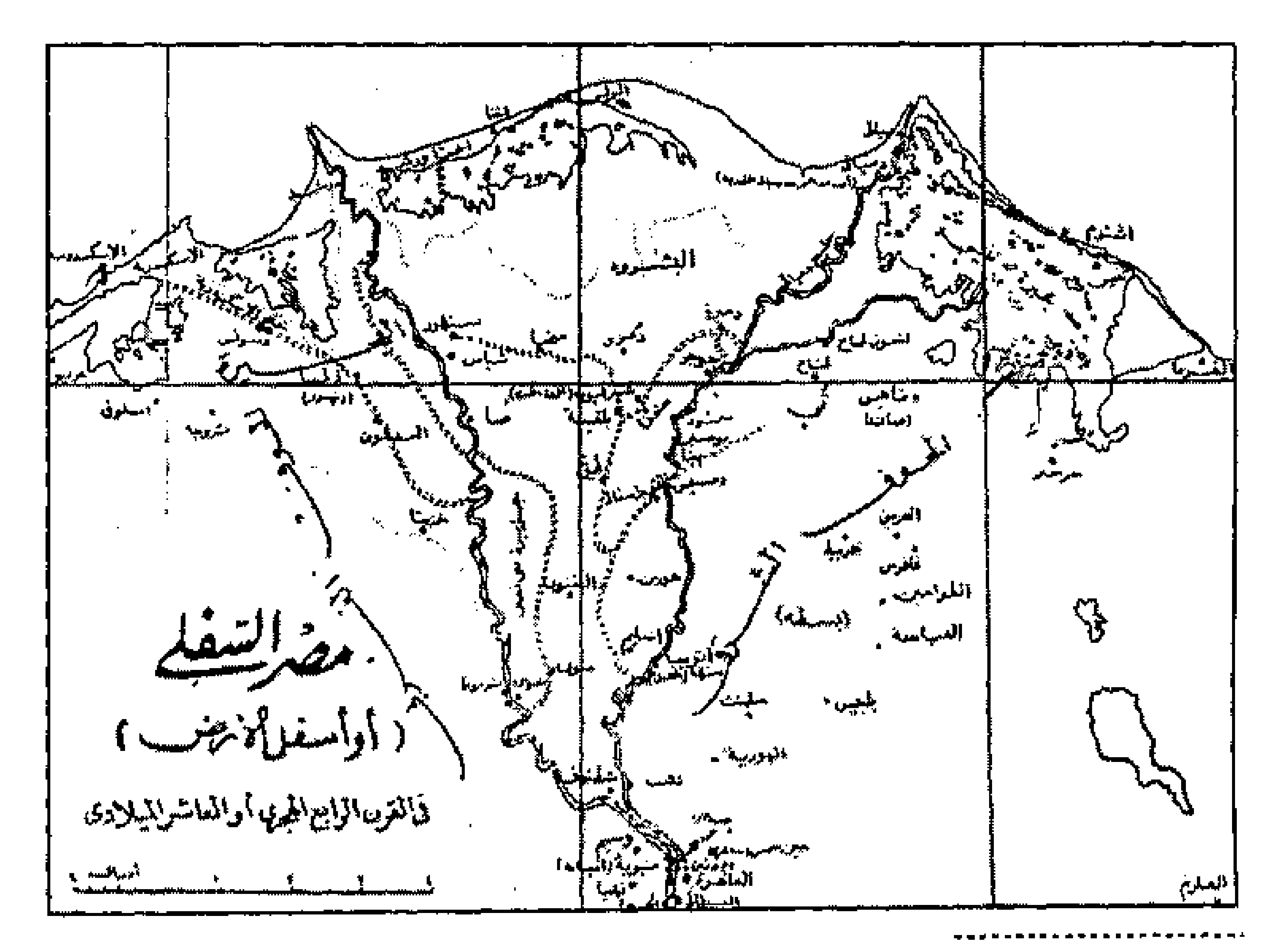
ولما طويت صفحة الحاكم، واستقر فى الأذهان مصرعه، وصفا جو الإرجاف الذى ثار حول اختفائه نوعاً، اتخذت الأهبة لتولية ولده أبى الحسن على؛ وكانت ست الملك قد غدت منذ مصرع أخيها مرجع السلطان والأمر كله فى شؤون القصر والدولة، وكانت تحرص كل الحرص على كسب الحسين بن دواس، حتى تكلل خطتها بالنجاح النهائى؛ فاستدعته إلى القصر، وأفهمته أنها تعتمد على ولائه وعونه فى إقامة الخليفة الجديد، فوعدها بمنتهى الإخلاص والطاعة. ثم أخرجت على بن الحاكم، وألبسته تاج المعز جد أبيه، وهو تاج مرصع بالجواهر النادرة، ووضعت على رأسه مظلة مرصعة، وأركبته فرساً بمركب ذهب، فخرج وبين يديه رئيس الرؤساء الوزير خطير الملك أبو الحسين عمار، ونسيم صاحب السيف، وعدة من الأستاذين المحكنين. فلما برز فى فناء القصر، تقدم الحسين ابن دواس فقبل الأرض بين يديه، وحذا حذوه سائر الزعماء والقادة، وضربت البوقات والطبول، وعلا التكبير والتهليل، والخليفة الفتى يسلم يميناً وشمالا. ثم فتحت أبواب القصر، ودخل الناس جميعاً فسلموا وخدموا، وتمت البيعة. وكتب إلى بلاد الشام والمغرب بوفاة الحاكم، وقيام ولده الظاهر، وطلب إلى الأمراء والعمال، أخذ البيعة على من لديهم من سائر الطبقات[1]. وجلس الظاهر على كرسي الخلافة فى يوم عيد النحر (عيد الأضحى) فى العاشر من ذى الحجة سنة ٤١١هـ (مارس ١٠٢١م) أعنى بعد مصرع أبيه بستة أسابيع، ولقب بالظاهر لإعزاز دين الله. وكان مولده بالقصر الفاطمى فى العاشر من رمضان سنة ٣٩٥هـ، ومن ثم فقد كان فى مستهل عامه السابع عشر حينما ولى الملك. وأمه أم ولد تدعى رصد، وقيل بل حرة تدعى آمنة بنت الأمير عبد الله بن المعز، وان ست الملك كانت تبغض آمنة هذه[2]. وكان الحاكم قد أنجب من الأولاد عدة. ويذكر لنا المقريزى فى حوادث سنة ٣٩٤هـ، أنه فى التاسع من

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٧١ ب.

(٢) الأنطاكى ١ ص ٢٠٧.

صفر من هذه السنة، ولد للحاكم ولد، سمي بالحارث، وكنى بأبي الأشبال، وكان سابع المولود، ثم يذكر لنا بعد ذلك في حوادث سنة٣٩٥هـ، بأنه في يوم الأربعاء العاشر من رمضان، ولد للحاكم ولد ذكر، سماه علياً، وهو الذى تولى الخلافة وتلقب بالظاهر. ومعنى ذلك بأنه إذا كان هذا الولد، وهو أبو الحسن على، هو آخر من أنجب الحاكم، فيكون عدد أولاده ثمانية[١]، وربما ولد له بعد ذلك أولاد أخر لا تذكر لنا الرواية عنهم شيئاً؛ بيد أن المعروف الذى تذكره لنا الرواية من أولاده، هم أبو الحسن على وهو الظاهر، وأبو الأشبال الحارث وقد توفى فى حياته في ربيع الآخر سنة ٤٠٠هـ[٢]، وابنة تسمى ست مصر (سيدة مصر)[٣]، وكان أبو الحسن على (الظاهر) قد حجب مذ ترعرع، مع أمه في قصر عمته ست الملك خوفاً من سطوة أبيه كما قدمنا؛ وكان لعمته عليه أعظم نفوذ وتأثير[٤].

وافتتح الظاهر عهده بإقامة مأتم أبيه في يوم الخميس ٢٠ ذى الحجة سنة ٤١١هـ فجلل القصر بالسواد، واستمر البكاء والعويل طول الليل[٥]، وأسبغت بذلك على المأساة صفتها الرسمية، واختتمت فترة طويلة من الهمس والإرجاف والريب.



(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٩ ب و ٦٠.
(٢) نهاية الأرب (المخطوط) ج٢٦ ص ٦٠.
(٣) النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٩٢.
(٤) الأنطاكي ص ٢٣٥.
(٥) نهاية الأرب (المخطوط) ج٢٦ ص ٦١.

واقوال كثير لا يجوز ذكرها، وكان الحاكم يخرج في اوقات كثيرة من قصره في الليل محمول في محفة على اكتاف اربعة من الفراشين. وامر ان لا تخرج امرأة من بيتها بالجملة لا الى حمام ولا الى غيرها واذا ظفر بامرأة قد خرجت في ليل ام نهار سلمها لمتولى الشرطة ادبها ادبا يقضى بهلاكها، وامر بان لا توكل ملوخيه، وكان يطاع في الظاهر لا في الباطن، وامر بان لا يشرب احد النبيذ وكتب بذلك سجلات الى ساير البلاد وكسرت الاوعية

الصيرفى«ديوان الرسائل». وازدادت أهمية ديوان الانشاء عما كان عليه فى عهد الطولونيين والاخشيديين لأن مصر أصبحت مركزا للخلافة الفاطمية التى امتد نفوذها من بلاد المغرب الى بلاد الشام وجزيرة العرب، وصارت فى حاجة للقيام بدعاية واسعة لخلفائها مما يتطلب من هذا الديوان جهودا كبيرا. وكان يتولى شئون هذا الديوان كاتب يقال له صاحب ديوان الانشاء، ومن واجباته تسلم المكاتبات الواردة ثم عرضها على الخليفة لبحثها واعتمادها. وكان صاحب الانشاء يتقاضى راتبا شهريا قدره مائة وخمسون دينارا، ويتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعملو ن تحت ادارته ثلاثين دينارا.

ويلى صاحب الانشاء في الرتبة صاحب القلم الدقيق الذى كانت مهمته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق وعرضها على صاحب القلم الجليل الذى يوقع على المظالم ويجالس الخليفة. وكان يتقاضى مائة دينار كل شهر.

وكان صاحب ديوان الانشاء يتولى بعض الاحيان ادارة البريد، فيذكر المقريز ى أن الخليفة الحاكم بأمر الله، قلد الحسين ابن جوهر البريد والانشاء فى شوال ٣٨٦هـ، واهتم الفاطميون بالبريد اهتماما كبيرا، وصار أصحابه يعرفون فى أيامهم بأصحاب الأخبار. وكانوا يوافونهم بكل ما يصل اليهم من الأحداث، وبذلك لم يعد يخفى عليهم شئ من أمور دولتهم.

وكان الشرطة من النظم الادارية الهامة التى عنى بها الفاطميون وتختص بحفظ النظام

التى فيها النبيذ فى كل مكان، ثم انه اجتاز يوما قفز قدامه كلب فجفل الحمار الذى تحته فامر بقتل كل كلب في مصر. وذكر ان كلب صاح خارج المدينة صيحة عظيمة فاجتمع اليه كلاب كثير وصعدو الى الجبل الشرقى ومضو، وامر ايضا بقتل الخنازير الذى فى كورة مصر، فقتلوهم جميعهم، وكان فيها خنازير كثير لا سيما فى البشمور، ثم امر لا يضرب ناقوس في بلاد مصر، وبعد قليل امر بان تقطع الصلبان الذى على قبب الكنايس وان

واستتباب الأمن، ويتولى رئيسها الذى يعرف بصاحب الشرطة تنفيذ أحكام القضاة. وكان حكام الولايات المصرية يقومون بأعمال صاحب الشرطة فى ولاياتهم ويعاونهم جماعة من الجند.

ومما تجدر ملاحظته، أن الشرطة قسمت في العصر الفاطمى بمصر الى قسمين وهما: الشرطة العليا فى القاهرة، والشرطة السفلى فى مصر(الفسطاط والعسكر). وكان هذا التقسيم متبعا منذ العصر الطولونى، غير أن الشرطة العليا كانت فى مدينة العسكر، والشرطة السفلى كانت في الفسطاط، فلما تأسست مدينة القاهرة وأصبحت العاصمة، اقتضى ذلك، نقل الشرطة العليا اليها وبقيت الشرطة السفلى فى الفسطاط.

***

(ب) التنظيم الحربى:

كذلك، كان للتنظيم الحربى، نصيب موفور من عناية الفاطميين، فقد رأوا أنهم بحاجة الى جيش قوى، يحمى دولتهم ويساعدهم على امتداد نفوذهم فى أراضى الدولة الاسلامية، كما اهتموا بانشاء أسطول لصد الأعداء الذين يغيرون على دولتهم من ناحية البحر وليكون عونا لقواتهم البرية.

وقد سار الفاطميون فى تحقيق هذه السياسة على ما كان سائدا فى ذلك الوقت، فكونوا

تمحى الصلبان على ايدى الناس، ثم امر ان تشد النصارى الزنار فى اوساطهم ويلبسو على روسهم عمايم سود ويركبو بركاب خشب ولا يركب احد منهم بركاب حديد وان يحملو صلبان طولها شبر، ورجع عمله ذراع ونصف، وان يصبغ اليهود اطراف عمايمهم ويلبسو الزنانير ويعملو كبة خشب شبه راس العجل الذى عبدوه فى البرية، ولا يدخل احد من الذمة حمام مع المسلمين، وافرد لهم حمامات، وجعل على باب حمام

جيوشهم من عدة عناصر، لم يكن بعضها معروفا فى مصر. وكان المعز منذ استقر له الأمر فى البلاد المصرية يعتمد على المغاربة ـ وهم يكونون معظم جيشه، ويشملون عدة طوائف من البربر، نذكر منها: الكتامية والباطلية والمصامدة والجودرية..

ولما ولى العزيز بالله الخلافة، استخدم الأترك والديلم، ثم ظهر عنصرالسودان فى الجيش فى عهد الحاكم بأمر الله، وتضاعف عدده فى خلافة المستنصر بالله حتى بلغ عدد السودانيين فى الجيش خمسين ألفا. وظل هذا العنصر يكون فرقة كبير ة فى الجيش الفاطمى حتى زالت الدولة الفاطمية. وقد أدى تعدد العناصر فى الجيش الى قيام التنافس والتشاحن بين طوائف الجند، وليس أدل على ذلك مما حدث فى عهد المستنصر، حيث قام خلاف بين طائفتى الأترك والسودانيين كان له أسوأ الأثر فى حالة مصر الداخلية.

وكان فى الجيش الفاطمى أيضا عناصر أجنبية، وفدت الى مصر مع بعض الذين تقلدوا الوزارة، منها جند الأرمن. وقد أحضرهم بدر الجمالى من بلاد الشام، كما عمل بهرام الأرمنى أثناء توليه الوزارة على استجلاب عدد كبير منهم الى مصر . كذلك أتى الأكراد مع أسد الدين شيركوه وصلاح الدين يوسف بن أيوب فى عهد الخليفة العاضد.

ومن طوائف الجيش فرق من الجند، تنسب الى الخلفاء أو الوزراء، فمن طوائف الخلفاء: الآمرية والحافظية والظافرية والعاضدية.

النصارى صليب خشب، وعلى باب حمام اليهود قرمة خشب، ثم امر ان يحرق الزبيب فاحصى ما احرق منه فى مصر واعمالها والشام فكان ستماية الف ساطره، وكذلك الذى ظفر به بمصر، والعسل كسره وطرحه في البحر، وان احد التجار خسر جملة مال ثمن عسل وزبيب وانه حاكم [اشتكى] مولانا الحاكم عند قاضي القضاة ابن النعمان وقال له انه وصل الى مصر ببضاعته وهي زبيب وعسل للاكل وعمل الحلاوة وانه اكسر وحرق ورماها

ومن طوائف الوزراء: الوزيرية وتنسب الى الوزير يعقوب بن كلس. وقد سمح له الخليفة العزيز بتكوين حرس خاص به. وهناك طوائف أخرى، ظهرت فى العصر الفاطمى الثانى، منها الجيوشية نسبة الى أمير الجيوش بدر الجمالى، والأفضلية نسبة الى ابنه الأفضل والبرقية وهم جماعة من أهل برقة. وقد أنشاء الوزير طلائع بن رزيك فرقة منهم وجعل ضرغاما مقدمهم.

لم يعمل الفاطميون على اشتراك المصريين فى جيشهم، فيما عدا الاسطول، غير أنه فى أواخر العصر الفاطمى حين أصبحت مصر مهددة من جانب الصليبيين، اشترك المصريون فى الدفاع عن بلادهم، فأصبح يتكون الجيش الفاطمى من جند وأمراءمصر يين، فضلا عن الطوائف الفاطمية الأخرى.

اتخذ الفاطميون للجيش أحياء خاصة، فأنزل جوهر الصقلى عساكر المعز ـ وكانت تتكون من عدة عناصر ـ فى مواضع بالقاهرة عرفت بالحارات وخصص لكل طائفة حارة، يقيم فيها الجند وأسرهم، وبها دكاكين وأسواق. ويرجع السبب فى اتخاذ أماكن معينة لاقامة الجند الى الرغبة فى وجودهم بالقرب من قصور الخلافة وحمايتها..

ويتألف الجيش الفاطمى من الأمراء وهم القادة و طوائف الجند ويتميز الأمراء بعضهم من بعضهم بعلامات فى الأعياد والمواكب الرسمية بحسب مراتبهم، فالأمراء الكبار يحملون حول أعناقهم أطواق الذهب، ويقود كل منهم ألف جندى . وهناك فريق آخر من الأمراء، يعرفون

بالبحر، فساواهما القاضى فى الجلوس والمحاكمة فالتمس التاجر من الحاكم ماله وقيمة ثمن بضاعته الف دينار، فقال له الحاكم انت جلبت هذه البضاعة لعمل المنكر والا فاحلف انك جلبتها لعمل الحلاوة والاكل وخذ ثمنها، فالتمس التاجر احضار المال قبل ان يحلف فامر الحاكم باحضار المال، فحلف التاجر وتسلم ماله وكتب عليه انه قبضه واستوفاه والتمس ان يكتب له سجل برعايته وحفظه ففعل له ذلك، فلما انفصل الحكم فيما

بأصحاب القضب، يحملون في أيديهم قضب الفضة وهى رماح فضية، ويقود كل منهم مائة جندى.

وكان الفاطميون لا يألون جهدا فى سبيل تجهيز جيشهم بكل ما يحتاج اليه من أسلحة، فأنشأوا خزانة السلاح. وكانت تحتوى على خوذات وسيوف ورماح وسهام ودروع وأقواس مختلفة الأشكال. وهناك خزائن أخرى تمد الجيش بمعداته منها خزانة الخيام وبها عدة أنواع من خيام الجند، وخزائن لصناعة السروج اللازمة للدواب فى الحرب. ويذكر المقريزى (خطط. جـ٣.ص٣) أن الخليفة الآمر بآحكام الله الفاطمى لما فكر فى الرحيل الى المشرق ومهاجمة بغداد، أعد فى هذه الخزائن سروجا مجوفة ومبطنة بصفائح من قصدير يوضع فيها الماء ليشرب منها الفارس. وكان كل سرج منها، يسع سبعة أرطال ماء.

وقد أظهر الجند الفاطمى مهارة فى استخدام أسلحة الحرب التى شاع استعمالها اذ ذلك كالحراب والسيوف وآلات الحرب الضخمة كالمجانيق التى ترمى الأسوار بالحجارة. كما زود الجيش بفرقة من النفاطين الذين يقومون باعداد القوارير المملوءة بالنفط ورميها على قوات الأعداد لتحول دون تقدمها.

كان هناك دواوين لاعداد الجيش وتجهيزه وتنظيم النفقة عليه، ويعمل فيها موظفون مدنيون وهى : ديوان الجيش وديوان الرواتب، وديوان الاقطاع، ويشرف ديوان الجيش على الجنود

بينهما وقف القاضى بين يدى الحاكم وحياة تحية
الخلافة فازداد القاضى عنده جلالة وحمل اليه
كرامات عظيمة، وكان يمشى فى الليل فيجد فى
بعض الاوقات الشواين يحمو التنانير ليشوو فيها
فيرمى بعضهم فى التنانير فيحترقو.

ووجد فى بعض الليالى انسان يقلى لحم فى
طاجن فامر بان تقطع يديه وترمى فى الطاجن،
فقال له ذلك الرجل: متى تعلم امير المومنين القلى
فانما كنا نعرفه شوا [ء] متى صار قلا. فضحك

واعدادهم، ويختص ديوان الرواتب بتسجيل عطاءالجنود وجميع موظفى الدولة. وقد طرأ على العطاء عدة تغيرات فى عهد الدولة الفاطمية. فكان يبلغ عطاءالجندى عشرين دينارا فى كل شهر. أما ديوان الاقطاع، فكان مختصا بما هو مقطع للأجناد، ويتولى اثبات الاقطاعات والأموال التى يدفعها المقطعون لبيت المال. ولم تكن هذه الاقطاعات والأموال التى يدفعها المقطعون لبيت المال من الكثرة كما كانت فى عهد الأيوبين فى مصر.

أما فيما يتعلق بالقوات البحرية، فقد اتخذ الفاطميون مراكزهم لانشاء السفن الحربية فى مدينة مصر(الفسطاط والعسكر) وجزيرة الروضة التى عرفت فى العصر الفاطمى بدار الصناعة [السفن]، والاسكندرية ودمياط.

تنوعت السفن الحربية التى يتكون منها الأسطول فى العصر الفاطمى، فمنها الشوانى(جمع شينى أو شونى) التى تميزت بأبراج للدفاع والهجوم ، واحتوت على اهراء لخزن القمح وصهاريج لخزن الماء العذب. ومن سفن الأسطول أيضا الحراريق (جمع حراقة) وهى من المراكب الحربية الكبيرة الخصصة لمهاجمة سفن العدو بالنفط الذى يرمى بالمجانيق أو السهام. كذلك كان من سفن الأسطول الطرائد(جمع طريدة)، وتستخدم فى نقل الخيول، والشلنديات هى مراكب مسطحة يستعان بها فى حمل العتاد والجند، والحمالات وتستخدم فى حمل الذخيرة.

منه وامر بتخليته. واحضر اليه دفعة انسان صدر فضة خطفه في السوق من يد صاحبه، فلما اوقفوه بين يديه والصدر الفضة معه في يده قال له اريد ان تجرى قدامي وتوريني كيف جريت لما خطفته من يد صاحبه، ففعل ذلك ومضى يجرى ولم يجسر احد يتبعه.

واجتاز بعض الاوقات بشون فيها قرط [علف الحيوانات] وحطب وبوص فامر باحراقها فاحرقت

ويشرف على الأسطول عشرة قواد بحريين ،يختار من بينهم رئيس يعرف بأمير الأسطول. وتحمل كل سفينة حربية عددا من المقاتلة عدا البحارة. وهناك أشخاص معروفون عند ديوان الجهاد بالمقاتلة عدا البحارة. وهناك أشخاص معروفون عند ديوان الجهاد يسمون«لنقباء» ،يقومون بجمع المقاتلة من أنحاء البلاد اذا ما تأهب الأسطول للخروج.

وكان للأسطول ديوان، يعرف بديوان الجهاد، يقوم بالاشراف على بناء السفن وتجهيزها بالمعدات الحربية ودفع مرتبات الرجال العاملين منها. أما عن نفقات الأسطول، فقد خصصت له الحكومة الفاطمية ميزانية ضخمة من مستغلات الاقطاعات المحبوسة. ولم يزل الأسطول محل عناية الفاطميين حتى زال حكمهم من مصر سنة ٥٦٧هـ.

وكان من مظاهر اهتمام الفاطميين بقواتهم البرية والبحرية، الاحتفال بتوديعها عند تأهبها للرحيل لمحاربة الأعداء، فاذا ما خرج الجيش الفاطمي، جلس الخليفة بمنظرة باب الفتوح وعلى الأخص حين تكون الحملة متجهة الى بلاد الشام. وفي هذه المنظرة كان يؤذن لقائد الحملة بالمثول بين يدى الخليفة، فيخلع عليه خلعة مزركشة بالذهب، ثم يأمر الجيش بالمسير.

أما في حالة خروج الأسطول، فيحضر الخليفة بصحبة الوزير والأعيان الى منظرة المقس، حيث يكون مقدم الأسطول في انتظاره، وبعد أن يستعرض الخليفة المراكب الحربية، يأذن

وهو راكب ينظر اشتعال النار فيها الى ان احترقت
جميعها وضاعت اثمانها على اربابها.

ولقيه في بعض الليالى عشرة رجال مستعدين
بالسلاح فسالوه ان يعطيهم مال فقال لهم:
اقتسمو فرقين وتحاربو قدامي فمن غلب دفعت له
المال لانه يستحق ان ياخذ الكرامة. ففعلو ذلك
وتحاربو حتى مات منهم تسعة وبقى واحد فقال له
قد استحقيت الان ان تاخذ الكرامة ورما له دنانير
كتير من كمه فتطاطا لياخذها من الارض فاوما

للمقدم بالمثول بين يديه، فيخلع عليه، ثم يودعه ويبدأ الأسطول فى المسير. وعند عودة الأسطول مظفرا، يقام احتفال كالذى أقيم عند رحيله، فيحضر الخليفة بصحبه رجال الدولة ليشهد أسطوله الذى أحرز النصر.

٢. الحال الاقتصادية:

اهتم الفاطميون بالزراعة على اعتبار أنها من أهم مصادر الثروة في مصر، وكانت زراعة القمح تشغل الجزء الأكبر من الأراضى المصرية الخصبة التربة ـ وعلى الأخص أنحاء الدلتا والوجه القبلى ـ لأنه الغذاء ا لرئيسى لأهل البلاد. أما الذرة فلم تكن معروفة فى مصر فى ذلك العهد.

وكان الكتان يزرع في الأراضى المنخفضة التي تظل مغمورة بالمياة مدة طويلة، لذلك انتشرت زراعته في الدلتا والفيوم. أما قصب السكر. فقد توسع المصريون في زراعته في العصر الفاطمى. ونستدل على ذلك من قول ناصر خسرو الذى زار مصر سنة ٤٤٠ هـ «وتنتج مصر عسلا كثيرا وسكرا».

وكانت مصر تشتهر أيضا بانتاج أنواع مختلفة من الفواكه، من أهمها: الكروم، وتزرع فى نواحى مريوط والجيزة والفيوم وقليوب، وبعض جهات الوجهين القبلي والبحرى. وكذلك كان شجر النخيل مغروسا فى مختلف أنحاء القطر. وقد ذكر الأدفوى (كتاب الطالع السعيد) أنه

الى ركابية كانو معه فوثبو عليه وقتلوه وجمعو تلك الدنانير فعادها الى كمه.

وعمل له فى قصره بحر مرخم يستقا له الما بالساقية ويجرى اليه بقناة وعلى خارج البحر حصير رخام وجعل عليه ساير الاطيار وامر بان يجعل فى الحايط سهم [سقاله] خشب رقيق بارز ويكون طرفه خارج منها الى البحر، والرخام معتدل مع حافته وهو عال جدا فى اعلا الحايط، كما حكى من شاهده، ثم امر منادى ينادى ان من

كان يغرس بالصعيد أشجار النخيل على شاطئ النيل من ا لجانبين الشرقى والغربى، كما قال ان محصول اسنا من التمر، بلغ فى احدى السنوات أربعين ألف أردب. وكانت أسوان أكثر نخيلا من غيرها من جهات الصعيد. وبلغ مجموع محصولها من التمر فى سنة واحدة ستة وثلاثين ألف أردب.

كذلك اهتمت الحكومة الفاطمية بغرس أشجار الغابات حتى يتسنى لها الحصول على الأخشاب اللازمة لبناء أسطولها الحربى ومراكبها التجارية. ومن أشهر مناطق الغابات فى العصر الفاطمى: البهنسا والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص.

وعلى الرغم من اهتمام الفاطميين بالرى والزراعة، فلم يخل عهدهم من أحداث أثرت فى الانتاج الزراعى، فكثيرا ما نقص فيضان النيل عن المستوى العادى اللازم لرى الأراضى كما حدث سنة ٤٥٧ هـ، فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى حيث حل بالبلاد المصرية الشدة العظمى التى استمرت سبع سنوات. وكان من مظاهرها اهمال الزراعة وأرتفاع أسعار الحبوب والمواد الغذائية وانتشار الوباء. وقد اقترنت هذه الشدة بقيام الفتن والحروب الأهلية. فلما ولى بدر الجمالى الوزارة سنة ٤٦٦ هـ، قضى على المفسدين. ووجه اهتمامه الى اصلاح حال البلاد، فسادت الطأنينة وعاد الفلاحون الى زراعة الأرض. وعنيت الحكومة الفاطمية بالترع والجسور، فزاد خراج مصر فى أيامه الى أكثر من ثلاثة ملايين دينار.

مشى على هذا السهم وقفز فى البحر ووقع فى الما دفع له ستماية درهم، واطمع جماعة بذلك فمن محبة الدرهم مشى عليه جماعة من الناس وقفزو [ظناً منهم أنهم يسقطون فى الماء] فوقعو على البلاط فماتو.

ثم امر ان تكون صلبان النصارى الخشب وزن كل صليب خمسة ارطال مصرى مختوم بخاتم رصاص عليه اسم الملك ويعلقوه فى رقابهم بحبال ليف، وكذلك اليهود تكون عيار الكبه التى فى

بلغ من عناية الفاطميين بالزراعة أن أنشأوا ادارة خاصة تشرف على أمورها، كما قاموا بمشروعات عظيمة الأهمية لتنظيم رى الأراضى، نخص بالذكر منها الخليج الذى أشرف على حفره أبو النجا متولى ديوان جهات الدلتا الشرقية فى عهد وزارة الأفضل ابن بدر الجمالى. وكان هذا الخليج يخرج من النيل لرى الأراضى الواقعة فى شرق فرع دمياط.

وكان الفاطميون يعاملون الفلاحين معاملة تنطوى على التسامح والرعاية، فلم يتركوا تقدير الخراج للمقطعين، بل حددوا مقداره، كما حرصوا منذ امتد نفوذهم الى مصر على عدم انتزاع الأراضى من أيدى أصحابها، فقد جاء فى عهد الأمان الذى أعطاه جوهر للمصريين:«ولكم على أمان الله التام العام، الدائم المتصل، الشامل الكامل، المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام، فى أنفسكم وأموالكم وآهليكم ونعمكم وضياعكم..» أما الأراضى التى تمتلكها الدولة، فأخذوا فى توزيع أجزاء منها على بعض أعوانهم والمختصين بهم، ولكن اذا منحت الأرض لبعض الأفراد مقابل دفع مبلغ معين من المال تصبح اقطاع استغلال. وهذا النوع من الاقطاع كان يعطى للآجناد فى العصر الفاطمى.

وقد أدخل تعديل كبير على الاقطاعات فى عهد وزارة الأفضل ابن بدر الجمالى، ذلك أنه لماشكا صغار المقطعين من قلة دخل اقطاعاتهم على حين زاد المتحصل من اقطاعات الأمراء، أمر الوزير الأفضل بن بدر الجمالى بحل جميع الاقطاعات واعادة توزيعها، ولم يتعرض للأرض

رقابهم خمسة ارطال ومن يوجد منهم بغير ختم يهون به ويغرم الجنايه فحجز [سجن] كثير من النصارى واليهود من روسايهم وادناهم لاجل هذا ولم يصبرو على هذا الهوان والعذاب. وذكر ان النسا المصريات لما منعهم الحاكم الخروج بالنهار عملو مثالات [خيال مآته] نسا من قراطيس [ورق] وخبز فجل [جريد نخل] واوقفوهم له فى طريقه التى يسلكها خارج مصر فى ايديهم رقاع مكتوبة يشتموه فيها ويسبون اخته وكان يامر باخذ الرقاع

المملوكة، بل أبقاها فى أيدى ملاكها. ومن قوله فى هذا الشأن:« ان كل من كان له ملك فهو باق عليه لايدخل فى الاقطاع وهو محكم ان شاء باعه وان شاء أجره». وكان أكثر المقطعين فى ذلك الوقت من الأجناد. وقد سمح لهم الأفضل بن بدر الجمالى بأن يستغلوا اقطاعاتهم مدة ثلاثين سنة، لا يقبل عليها فيها زائد».

وكان المقطع فى أواخر العصر الفاطمى يدفع ضريبة منتظمة عن كل فدان مقدارها ديناران وخمسة قراريط، واذا انقضت مدة الاقطاع، عليه أن يرد الأرض المقطعة كما تسلمها، ولا ينقل شيئا من المنشآت التى أقيمت عليها.

(أ) الصناعة:

استحدثت فى العصر الفاطمى أساليب جديدة فى الصناعة المصرية. وكان مما ساعد على تقدمها استقرار الأمور فى البلاد، فضلا عن حياة الترف والبذخ التى سادت المجتمع فى بعض المدن المصرية وبخاصة القاهرة والفسطاط. وكان لهذه الحياة تأثير كبير فى الانتاج الصناعى، فأصبح عمل المصانع ليس مقصورا على امداد الجيش والأسطول الفاطمى بالسلاح والعتاد الحربى والملابس لطوائف الجند، بل تنوعت المنتجات لسد حاجة الخلفاء والوزراء ورجال الدولة وغيرهم.

وكان من الصناعات التى ازدهرت فى هذا العصر وتنوعت أصنافها: صناعة النسيج، اذ

منهم فيقراها فيجدها على هذه القضية، هذا فعلوه عدة دفعات ولاجل ذلك امر باحراق مصر ونهبها. ولم يكون يتنعم مثل الملوك لكنه كان سايح فى الجبال والبرارى ليلا ونهارا، وسفك فى ايامه دما كثير.

ونعود الان الى تمام ما فعله يونس [يؤنس] الراهب المقدم ذكره من القبايح فى ايام هذا الملك، وذاك انه لما تحقق انه لا يوسم اسقفا مضى

بلغت من الرقي فى مصر بحيث أصبح من اليسير صنع بعض الأقمشة الصوفية، فامتاز بلد القيس بعمل المنسوجات الصوفية الرفيعة كما اشتهرت طحا ـ احدى قرى الصعيد ـ بصناعة الصوف. ويذكر الرحالة ناصر خسرو، أن منسوجات الصعيد الصوفية، كانت تصدر الى بلاد الفرس حيث عرفت هناك باسم «المصرى».

وكانت القاهرة فى عهد الفاطميين مركزا هاما لصناعة المنسوجات الحريرية. وقد أقام المعز لدين الله فيها دار الكسوة، حيث كانت بهذه الدار أيضا كسوة الكعبة والخلع التى يمنحها الخلفاء للوزراء والأفراد والأشراف وكبار رجال الدولة فى عيد الفطر حتى سمى هذا العيد بعيد الحلل. كذلك عمل الفاطميون على النهوض بصناعة النسيج، فأنشأوا عدة مصانع لانتاج الأنواع الفاخرة.. وكانت دار الديباج منذ عهد الأفضل بدر الجمالى تنتج نوعا من الحرير يعرف الحرير الديباج. كما أن خزانة البنود التى بناها الخليفة الظاهر الفاطمى كان بها ثلاثة آلاف صانع لصنع أفخر أنواع الثياب.

وكان لصناعة المنسوجات الكتانية شأن كبير فى مصر، فى العصر الفاطمى. ومن المراكز الرئيسية لهذه الصناعة: الفيوم وتنيس ودمياط وشطا ودبيق. وينسب الى هذه المدينة الأخير أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالديبقى.

كذلك تقدمت صناعة الزجاج والخزف فى العصر الفاطمى. وكانت الفسطاط من أكبر

الى مصر وكتب رقعة وذكر فيها البطرك بكل سو
وخرج الى الجبل ووقف للحاكم [بامر الله] وقال
له: انت خليفة الله فى ارضه فعيننى [فساعدنى]
لوجه الله. وناوله الرقعة فاخذها منه وكان فيها
مكتوب «انت ملك الارض لكن للنصارى ملك لا
يرضا بك لكثرة ما قد كنز من الاموال الجزيلة لانه
يبيع [وظيفة] الاسقفية بالمال ولا يفعل ما يرضى
الله تعالى» وذكره فى الرقعة بقبايح كثيرة مثل هذا.
فلما وقف الحاكم على الرقعة امر بان تغلق ابواب

مراكز صناعة الزجاج. ومن البلاد التى اشتهرت بهذه الصناعة أيضا الفيوم والأشمونين والاسكندرية. أما الخزف فقد أشار ناصر خسرو الى أن المصريين كانوا يصنعون أنواعا مختلفة منه وبلغ من انتشار استعماله فى مصر أن البقالين وغيرهم من التجار كانوا يضعون ما يبيعونه فى أوان من الخزف بدلا من الورق.

التجارة:

ازداد النشاط التجارى فى الفسطاط والقاهرة حيث يقيم الأعيان وأصحاب الاقطاعات، ويكثر توافد الناس. وكانت الفسطاط من أهم مراكز مصر التجارية لموقعها على النيل وتوسطها بين الوجهين القبلى والبحرى واتصالها بكافة البلاد المصرية عن طريق النيل، وفضلا عن ذلك، فانه كان يخرج منها طرق برية تسير فيها القوافل متجهة نحو الحجاز وبلاد الشام والمغرب.

ولم يؤثر انشاءالقاهرة على مركز الفسطاط التجارى، لأن المدينة الجديدة ظلت أشبه بمعسكر يقيم فيه الجنود والموظفون، كما أن موقعها بالنسبة للنيل كان دون موقع الفسطاط، مما جعل الأسعار فى الفسطاط أقل منها فى حاضرة الخلافة الفاطمية.

وكانت الفسطاط تتمتع برخاء عظيم فى العصر الفاطمى فكثرت بها المتاجر والأسواق، كما كان يأتى اليها كثير من المراكب ويقول ناصر خسرو فى وصفه لها، انه كانت بها

البيع واحضار البطرك، وكان قد شاخ وطعن في السن، فلما حضر اعتقله تلتة شهور وكان اعتقاله في اليوم التاني عشر من هتور سنة سبع وعشرين وسبعماية للشهدا، ثم امر بان يطرح للسباع تاكله فلما رمى لها نقل الله طبعها له وحماه منها ومنعها منه وضبطها عنه فلم تاكله، فنقم الحاكم على سايسها وقال له انت تبرطلت من النصارى واطعمت السباع كثير واشبعتها ولم تجوعها، وامر بان تجوع السباع ثانية فاذا اشتد جوعها تذبح شاه

الأسواق التي تباع فيها جميع أنواع السلع كسوق القناديل الزاخر بالتحف النادرة، وبها الخانات ومالا يقل عن عشرين ألف دكان يتراوح ايجار الواحد منها بين دينارين وعشرة دنانير.

ومن مراكز التجارة الداخلية، مدينة دمياط التي تميزت عن غيرها من المدن بازدهار التجارة والصناعة فيها، وأصبحت الميناء المصرى الوحيد في الجزء الشرقي من البحر المتوسط.. كذلك كانت مدينة قوص من مراكز التجارة الداخلية، فكثرت بها الأسواق الكبيرة لوقوعها عند نهاية طريق القوافل بين البحر الأحمر والنيل. وكان لأسوان أيضا شأن كبير في التجارة الداخلية بسبب ورود تجارة النوبة والسودن اليها.

أما عن التجارة، فقد اتسع نطاقها مع البلاد الآسيوية والأوربية، فكانت مصر تستورد الكثير من غلات الهند والصين، كما أن حاجتها من المواد الخام كالخشب والحديد، حملها على استيرادها من بعض الدول الأوربية. وصارت الاسكندرية من المراكز الرئيسية للتجارة، فتنتقل منها البضائع الآسيوية اللازمة للصناعة المصرية. ولم تكتف مصر بأن تكون طريقا لمرور الغلات الآسيوية. بل كان لديها ما تصدره الى البلاد الأوربية كالنطرون والشب والمنسوجات على اختلاف أنواعها.

وقد ارتبطت مصر بعلاقات تجارية مع المدن وبخاصة جنوه والبندقية، فأخذت سفن البندقية

ويعروا البطرك ثيابه ويلطخ جسمه بدمها وتطلق السباع عليه، ففعلو به ذلك فلم توذيه بالجملة.

وكان يونس الراهب المذكور يمضي في اكثر اوقاته الى البطرك وهو في الاعتقال على سبيل الشماتة به، وكان تاني يوم اعتقاله قد امر الحاكم بكتب [بكتابة] سجل الى والى بيت المقدس بان تهدم القيامة، فكتب الكاتب الى الوالى كتاب هذه نسخته «خرج امر الامامة اليك بهدم قمامة،

تنتقل الخشب والحديد الى الموانى المصرية، كما أقدم تجار جنوه على التعامل مع الفاطميين في النصف الأخير من القرن الحادى عشر، وصارت سفنهم تبحر الى الموانى المصرية. وقد استجاب الخلفاء الفاطميون لرغبة هؤلاء التجارب في الحصول على أمان لهم ولسفنهم تشجيعا لهم على الاتجار مع بلادهم.

وعلى الرغم من المنازعات السياسية بين مصر والدولة البيزنطية، فان العلاقات التجارية بينهما لم تنقطع، فكان البيزنطيون يستوردون المنسوجات المصر ية من مصانع تنيس ودمياط. كما أن مصر كانت تستور د بعض منتجات الدولة البيزنطية وبخاصة الغلال.

أذنت الحكومة الفاطمية في مصر للتجار الايطاليين وغيرهم من الأوربيين، بانشاء الفنادق الخاصةبهم. وكان لكل جالية أجنبية بالاسكندرية فندق وهو عبارة عن بناء يقيم فيه التجار الأوربيون ويحفظون فيه بضائعهم اما في داخل المدينة أو في خارجها. كانوا عادة يختارون أحد أفراد الجالية للاشراف على تنظيم الاقامة في الفندق.

كذلك أقيمت في مصر في ذلك العصر الوكالات، وهى كالفنادق وينزل بها التجار القادمون من بلاد الشرق الاسلامي، فيذكر ابن ميسر في كتابه تاريخ مصر، أن الوزير المأمون البطائحي، أمر سنة ٥١٦هـ ببناء وكالة بالقاهرة لمن يصل من العراق والشام من التجار.

وكان هناك بجانب هذه المنشآت التي أعدت للتجار أبنية أخر ى أطلق عليها اسم القياسر.

فاجعل سمايها ارضا وطولها عرضا» . وكان كاتب
السجل نصرانى نسطورى يعرف بابن شيرين ، فلما
انفذ السجل الذى كتبه صار المذكور مثل السكران
الذى صحا من سكره وفكر فى نفسه فيما قد
فعله ، وقال : كتبت بيدى بان تهدم القيامة فلماذا
لم اصبر على الموت قبل ان افعل هذا ، ولماذا لم
اصبر عل قطع يدى اليمنى ولا اكتب بذلك ، فلو
امتعنت من كتبه ما الذى كان يفعله بى اكثر من
ضرب العنق وما كنت اريد شهادة اعظم من هذه .

وكانت القيسارية مجموعة من المبانى العامة، وبها حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن. وكان في بعض القياسر مساجد لتجار المسلمين ويعلوها رباع، يقيم فيها الصناع والتجار بأجر. وقد انشئ بمصر فى العصر الفاطمى عدد غير قليل من هذه القياسر.

***

أما عن نظم المعاملات التجارية، فقد شاع فى مصر استعمال الدنانير الذهبية واستمرت الدنانير الذهبية واستمر الدينار فى مصر قاعدة التعامل حتى بعد الفتح الفاطمى، غير أن جوهر القائد، بادر الى سك دنانير جديدة، أطلق عليها المعزية، وأبقى التعامل بالدينار الراضى (نسبة الى الخليفة العباسى الراضى).

ولما عهد المعز لدين اله الفاطمى، فى أوائل سنة ٣٦٣هـ الى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بالاشراف على الخراج، صار ابن كلس يجبى الخراج بالدينار المعزى، فانحطت بذلك قيمة الدينار الراضى. ومن ذلك يتضح لنا كيف حملت الحكومة الفاطمية أهالى البلاد المصرية على التعامل بنقودها.

ولم تكتف الحكومة الفاطمية بأن يكون الدينار المعزى وحدة للتعامل، فأصدرت دراهم جديدة فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله، وقررت أن يكون كل ثمانية عشر درهما بدينار أو من

وكان يقول هذا ومثله ويردد هذا على قلبه ليلا ونهارا فمن شدة حزنه اعتل ولزم فراش المرض، ويقول: يايدى اليمنى كيف جسرتى وفعلتى هذا الامر الفضيع [الفظيع] انا ايضا افعل بك ما تستحقيه ولا ازال اعذبك. وجعل يرفع يده ويضرب بها الارض ولم يزل كذلك طول ايام علته حتى تقطعت اصابعه ومات.

ومن بعد ايام انفذ الحاكم سجلات الى ساير

المرجح أن ضرب الدراهم الفضية في ذلك العهد، انما أريد به تيسير التعامل فى السلع القليلة الثمن. وهكذا أصبحت مصر تتعامل بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية.

***

٣. مظاهر الحياة الاجتماعية:

اتخذت الحياة بمصر فى العصر الفاطمي مظاهر خاصة، كما تقلبت بين ألوان من البذخ والترف، قل أن نجدها فى عصر آخر من عصر مصر الاسلامية. وقد تجلى بذخ الخلفاء فيما أورده المقريزى (خطط. جـ١ ص٤١٦ـ ٤٢٥) عن خزائن الفرش والأمتعة والجوهر والخيم والشراب، كما نستدل أيضا على ترفهم من القصور التى بنوها ليتخذوها مساكن لهم ولأفراد أسرتهم، ومن أشهرها القصر الشرقى الكبير. وقد أسس الخليفة العزيز بالله الفاطمي بهذا القصر قاعة الذهب التى يجتمع فيها مجلس الملك. وكانت مؤثثة بأفخم الأثاث ومزينة بالستور والطنافس الحريرية.

وليس أدل على مظاهر العظمة وأبهة الحياة الاجتماعية عند الخلفاء فى آخر العصر الفاطمي من هذا الوصف الذى كتبه غليوم رئيس أساقفة صور عن زيارة رسولى أمريلك ملك بيت المقدس للقصر الفاطمي فى عهد الخليفة العاضد، ومما جاء فيه: «...وسار السفراء يقودهم

اعمال مملكته بان تهدم البيع وان يحمل ما فيها من الانية الذهب والفضة الى قصره وان يطالب الاساقفة في كل الاماكن [بالأموال] وان لا يبايعو النصارى ولا يشارو [يستشاروا] في موضع من المواضع، فجحد جماعة منهم اديانهم [اى أسلمو] لاجل هذا، واكثر النصارى المصريين نزعو عنهم الغيار والصليب والزنار والركب الخشب وتشبهو بالمسلمين فلم يكشف [يتعرف] احد عليهم ويظن من يراهم انهم قد اسلمو.

الوزير شاور بنفسه الى قصر له رونق وبهجة، وفيه زخاف أنيقة. وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم...، فوجدوا في هذا القصر حراسا عديدين، وسار الحراس في طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة، وقادوا السفراء في ممرات طويلة.. ثم وصل الموكب الى فناء مكشوف، تحيط به أروقة ذات أعمدة. وأرضية مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان. وكان وسط الفناء نافورة، يجرى الماء الصافى منها فى أنابيب من الذهب والفضة الى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام.. وفي هذا المكان حل محل الحراس المرافقين للسفراء بعض العظماء من الأمراء المقربين إلى الخليفة.. وبعد أن عبر السفيران أبوابا عديدة، وصلا الى القصر الكبير حيث يقيم الخليفة . وقد فاق هذا القصر كل مارأوه قبل ذلك.. وأدخل المبعوثان في قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان. ولم يكن في هذه القاعة أحد.. ثم ارتفعت الحبال فجأة وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق. وظهر (السلطان العاضد) لأعين السفراء.. وكان على وجهه نقاب يخفيه تماما، وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة.

وكان الوزراء الفاطميون يعيشون أيضا عيشة الترف، فأقام يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمى فى قصره مطابخ خاصة له ولأضيافه وأخرى لغلمانه وحاشيته وأتباعه.

كذلك كان الوزير الأفضل بن بدر الجمالى مترفا فى حياته، فاتخذ مسكنه فى دار الملك

٦٤: أنبا زخارياس البطرك ١٠٠٣ / ١٠٣٢م

وكان شماس اسمه بقيره [الرشيدى] فترك الخدمة فى الديوان الذى كان له وحمل صليبه ومضى الى القصر وصاح على بابه: المسيح ابن الله. فلما سمع الحاكم صوته امر باحضاره واجتهد به ان ينكر دينه ويعترف بالاسلام فلم يفعل، وكان كالصخرة القوية التى لا تضطرب، وكان كلما خاطبه زاد صياحه وقال «المسيح ابن الله» فامر ان يطرح فى حلقه طوق وسلسلة حديد ويرمى فى حبس الدم. وشهد لى انسان ثقة مضى اليه

التى بناها سنة ٥٠١هـ، وجعل فيها محالا لاقامة الأسمطة فى الأعياد، واتخذ فى أحد ابهائها مجلسا، يجلس فيه للعطاء وقد وجد بهذه الدار بعد وفاته مالا يحصى من الأدوات والثياب والبسط والستور المصنوعة من خيوط السجاد.

***

اهتم الخلفاء الفاطميون فى مصربالاحتفال بالأعياد الدينية فى شئ كثير من الأبهة والعظمة، فمنها عيد الفطر وعيد الأضحى ورأس السنة الهجرية، ومولد النبى، ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ومولد ولديه الحسن والحسين ومولد السيدة فاطمة الزهراء، ويوم عاشوراء هذا الى مواسم أخرى وهى ليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة أول شعبان وليلة نصفه.

وكان ينظم فى ليلة عيد الفطر بالايوان الكبير الذى يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم، تنثر عليه صنوف الفطائر والحلوى الشهية، فاذا ما انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر، عاد الى مجلسه، وفتحت أبواب القصر والايوان على مصاريعها وهرع الناس من جميع الطبقات الى السماط الخليفى، وتناولوا ما عليه من الطعام بمشهد من الخليفة ووزرائه. وحينما تبزغ الشمس يخرج الخليفة فى موكبه الى الصلاة.

أما عيد الأضحى، فيحتفل فى أول يوم منه بركوب الخليفة الى الصلاة على النحو الذى

ليفتقده في الاعتقال لمودة كانت بينه وبينه فوجده على تلك الحال وهو كانه مشدود الى وتد كبير مضروب في الارض وهو قايم يصلي وبيده دفتر صغير ووجهه الى الشرق يقرى ويصلي مع ثقل ذلك الحديد الذى هو مغلول به، فلما راه ابتهج به كانه في عرس وقال لى هذا الرجل لما افتقدته واردت الانفصال منه قلت له: ماذا توصيني لمنزلك واهلك. قال: امضي اليهم وقول لهم انا بقية اليوم عندكم قبل مغيب الشمس فلا تحزنو.

أتبع في عيد الفطر ، غير أنه يمتاز بخروج الخليفة الى المنحر ثلاث مرات متواليات في أيامه الثلاثة الأولى واشتراكه في اجراءات النحر. وكان الخليفة اذا انقضى اليوم الثالث خلع على وزيره ثوبه الأحمر الذى كان يرتديه يوم العيد.

وكانت تقدم الحلل الى الوزراء وبعض الأمراء والأشراف وغيرهم في عيد الفطر، كما كان هناك مناسبات أخرى، يجود فيها الخلفاء على كبار رجال الدولة بالخلع، كيوم أول رمضان والاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه، ووفاء النيل.

كذلك حرص الخلفاء الفاطميون على الاحتفال بليلة مولد النبى، احتفالا باهرا، يليق بمكانته في نفوس المسلمين، بعد أن كان ذلك بدعة في نظر المتمسكين بالعادات الاسلامية. لكن أهل الصلاح والورع من المسلمين رغبة منهم في تكريم النبى، رأوا منذ بداية القرن الرابع الهجرى أن يحتفلوا بمولده. ومن المظاهر الدينية المألوفة في هذا العيد قراءة السيرة النبوية في المساجد.

***

كذلك كثر الاهتمام بالغناء والموسيقى في العصر الفاطمى بمصر، فأقبل وجوه القوم في مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنيين والمغنيات. وكان معظم المغنيات من الجوارى.

وكـان هذا الانسـان الذى حـدثنى بهـذا مـهندس
رييس على النشـارين اسـمـه مينا، وهو خـالى اخـو
والدتى، وبصنعته وجد السبيل الى افتقاده بقيره
المذكور، وهو الذى ربانى واقسم لى قايلا: اننى ما
وصلت الى منزلى وقمت متوجه الى منزل بقيره
[الرشيدى] كما قال لى حتى انفذ الحاكم واخرجه
من الاعتقال، وكتب له سجل بان لا يعترض احد
بقيره الرشيدى فى بيع ولا شرى ولا فى امر من
الامور. فلما اخذ السجل نزل الى مصر وطاف

وكـانت مجالس الطرب والغناء واللهو تقام على شواطئ الخليج بالقاهرة، فى أوائل عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى، ثم قام بتحريم ومنع هذه المجالس تحت دعوى أنها تمثل خطرا على الأخلاق العامة.

على أن هذه المجالس ما لبثت أن عادت الى الظهور بعد وفاة الحاكم، فقد أولع بعض من جاء بعده من الخلفاء بالغناء والموسيقى، فكان الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، يميل الى سماع المغنيات. وقد ذكر بعض المؤرخين، أنه كان من مظاهر الاحتفال باستيلاء البساسيرى على بغداد واقامة الخطبة باسم المستنصر على منابرها أن وقفت احدى المغنيات تحت قصر الخليفة، تنشد بعض الأبيات، فأعجب المستنصر بغنائها وأجزل لها العطاء.

وكانت المجالس الاجتماعية، تعقد فى قصور الخلفاء والوزير والأعيان حيث يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة، كما كانت المجالس الخاصة، تعقد فى داخل المنازل لسماع النوادر والأحاديث التى تجلى فيها اللباقة العقلية.

٤. الحياة الثقافية:

اهتم الفاطميون منذ استقر سلطانهم فى مصر بالعمل على نشر الثقافة العلمية والأدبية، فضلا عن الثقافة المذهبية التى تتصل بالدعوة الاسماعيلية كالفقه والتفسير. وكان للجامع

على النصارى الخايفين وطمنهم وحلف لهم ان
بعد ثلثة ايام يزول عنهم كلما هم فيه من الضر،
وكان يبتاع لهم كلما يحتاجوه من خبز وما وطعام
وينفذه اليهم مع غلمانه. ففعل هذا تلتة ايام وفى
صباح اليوم الرابع خرج امر الحاكم بان تبايع
النصارى ويشارو كما جرت عادتهم، وكتب سجل
بانه من اراد من النصارى يمضى الى بلاد الروم او
بلاد الحبشة والنوبة وغيرهم لا يمنعهم احدا. وكانو
قبل ذلك ممنوعين منه. ولما بطل بقيره من الديوان

الأزهر أثر كبير في النهوض بالحياة الثقافية فى مصر. وقد ظهرت فكرة الدراسة به فى أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمى حين قام قاضى القضاة أبو الحسن على بن النعمان المغربى بشرح كتاب«الاقتصار» الذى وضعه أبوه، ويشتمل على مسائل فقهية، استمدها من أئمة أهل البيت، ثم توالت حلقات بنى النعمان فى الأزهر بعد ذلك.

وفى أوائل عهد العزيز بالله، جلس الوزير يعقوب بن كلس بالجامع الأزهر، وقرأ على الناس رسالة الوزيريه، تضمنت ماسمعه فى ذلك من المعز لدين الله وولده العزيز. وكان يفد الى سماعه الفقهاء والقضاة وأكابر رجال الدولة. وصار ابن كلس يعقد مجالسه العلمية تارة بالجامع الأزهر وطورا بداره، ويقرأ فيها مصنفاته على الناس.

على أن الجامع الأزهر مالبث أن فاقت شهرته جميع المساجد الجامعة فى مصر، منذ أن أشار الوزير يعقوب بن كلس ٣٧٨هـ على الخليفة العزيز بتحويله الى جامعة يتلقى فيها الطلاب العلوم النقلية والعقلية وظل الأزهر مركز الفقه الفاطمى الى أن بنى جامع الحاكم بأمر الله، فانتقل اليه الفقهاء لالقاء دروسهم.

كذلك اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافة، فألحقوا بها مكتبات وز ودوها بالندر المؤلفات فى مختلف العلوم والفنون حتى تميزت مكتبة القصر التى أنشئت بالقصر الشرقى الكبير على غيرها، من مكتبات العالم الاسلامى بما فى خزائنها من كتب قيمة.

٦٤: انبا زخارياس البطرك ١٠٠٣ / ١٠٣٢م

الذى كان فيه افرغ نفسه لافتقاد المحبسين ويحمل ما يحتاجوه اليهم، ويفتقد حبوس الجوالى [القبط] ومن وجد مطلوبا بما لا يقدر عليه ضمنه واخرجه من الاعتقال، ويمضى الى الرووبسا والاغنيا فياخذ منهم ما يقوم به عنمن يضمنه ويخلصه، وتوكل على السيد المسيح بجهده من كل قلبه. وكذلك من عرف انه يعوزه القوت من الاخوة المومنين اعطاهم كفافهم فى كل يوم، وفعل افعالا جميلة حسنة كثيرة جدا لم نذكرها

وكان بمكتبة القصر أربعون خزانة كتب فى سائر العلوم، وتحتوى كل خزانة على عدة رفوف، والرفوف مقطعة بحواجز، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائة ألف مجلد فى الفقه على سائر المذاهب، والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك والفلك والكيمياء.

ومن المراكز الثقافة بمصر دار الحكمة التى أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ، وأطلق عليها هذه التسمية رمزا الى الدعوة الشيعية، لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة. وقد زود الحاكم هذه الدار بمكتبه عرفت باسم دار العلم. وسمح لسائر الناس على طبقاتهم بالتردد عليها.

اختلفت مناهج التعليم فى دار الحكمة عن مناهج التعليم فى المساجد الفاطمية المعاصره، اذ كانت تغلب عليها الصبغة العلمية بينما كانت تغلب على مناهج المساجد الصبغة الدينية. وكان بين أساتذة دار الحكمة كثير من أساتذه الحساب والمنطق والطب والنجامة، من أمثال ابن يونس المنجم، وأبو على الحسن بن الهيثم، وعلى بن رضوان.

وقد استطاعت دار الحكمة بفضل هؤلاء الأساتذة، وما كان لها من مناهج منوعة جمعت بين الدراسات العلمية والفقهية أن تجتذب كثيرا من أعلام المشرق، من أمثال الرحالة الفارسى ناصر خسرو، والداعى الحسن بن الصباح اللذين وفدا الى مصر فى عهد المستنصر بالله الفاطمى.

واقتصرنا على اليسير منها. ومن اول ما جرى هذا الامر فى تلك الايام لم يفطر فيها نهارا والايام التى يتقرب فيها لا يفطر فيها الى الليل، وهذا كله عرفته منه لمودة كانت بيني وبينه، وفى اكثر الاوقات كنت انام عنده فيحضر لى بعض الكتب اقر فيها بعض الليل ثم انام يسيراً، واما هو فيقف الى الصباح فاذا اصبح مضى الى الشغل الذى يختاره لنفسه، وصار له مثل صنعة وتصرف. وكان

ظلت دار العلم مفتوحة، ينتفع الجمهور بما فيها من الكتب الى سنة ٥١٦هـ، حيث أمر الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي باغلاقها بسبب وصل اليه من أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التي يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة وهى الشافعي والحنفي والمالكي يترددان على دار العلم، وأن كثيرين من الناس أصغوا اليهما واعتنقوا هذا المذهب. على أن فترة اغلاق دار العلم لم يطل أمدها، فقد أعادها الخليفة الآمر الى ما كانت عليه بعد وفاة الأفضل.

فقدت مكتبة العصر الفاطمى عددا غير قليل من الكتب القيمة التى كانت بها فى غضون الشدة العظمى التى حلت بمصر فى عهد المستنصر بالله، فاستولى الجند والأمراء على الكثير مما فى خزانة الكتب. وعلى الرغم من ذلك كله، فقد بقى فى خزائن القصر بعض كتب لم تصل اليها يد العبث، واستطاع الفاطميون فيما بعد تعويض بعض ما فقدوه، فجلبوا الى مكتبة القصر كثير ا من الكتب الجديدة، حتى أصبح فى قصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مكتبة كبيرة.

***

ازدهرت الحركة العلمية والأدبية فى العصر الفاطمى بمصر، بفضل تعضيد الخلفاء الفاطميين وبعض وزرائهم لها. وكان للبيئة العلمية التى شب فيها المعز أثرها فى تنمية مداركه

القمح وجميع الطعام ماسا [شحيحا]، فلما كان
يوم من الايام اشترى الخبز وفرقه على عادته على
المستورين والفقرا حتى انه لم يبق عنده الا رغيف
واحد يفطر عليه، فجعله على المايده [المائدة]
وصلى وجلس ليفطر فشكر ومد يده لياكل،
فسمع الباب يدق فقال لغلامه ابصر الباب فخرج
الغلام فوجد انسان مستور فقال له قل للشيخ
بقيره نسيتنى اليوم وما عندى ما افطر عليه، فدخل

سعة اطلاعه وتضلعه فى العلوم الدينية حتى انه كان يحاضر العلماء من النحاة والفقهاء وغيرهم. وقد فتح أبواب قصره للعلماء والطلاب، وأباح لهم جميعا الاطلاع على الكتب المختلفة بمكتبة القصر، وحذا الخلفاء من بعده حذوه، فصاروا يعقدون المجالس تقل فى قيمتها التعليمية عن الدروس التى بالجامع الأزهر أو بدار الحكمة.

وقد أدى مجئ الفاطميين الى مصر بمذهب شيعى له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة المسلمين فى مصر الى ظهور فريقين من العلماء، يعمل أولهما على تأييدهم، ويفند الفريق الآخر آراءهم، واستتبع ذلك نشاط علماء الدعوة الفاطمية فى تأليف الكتب. وكان لأبى حنيفة النعمان المغربى وأبنائه وهم جميعا من كبار رجال القضاء والأدب الفضل الأكبر فى نشر الثقافة المذهبية التى تتصل بالدعوة الاسماعيلية.

عاصر أبو حنيفة الفاطميين بالمغرب. وكان مالكى المذهب كسائر أفراد أسرته، ثم تحول الى المذهب الاسماعيلى وقدم الى مصر هو، وأبناؤه فى ركب المعز. ويعد النعمان من أهم دعائم الدعوة الاسماعيلية وله فى الفقه الاسماعيلى عدة مؤلفات منها «دعائم الاسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام». ووقد استغل النعمان ميوله المذهبية فى تأليف هذا الكتاب حتى اننا نراه يضيف الى قواعد الاسلام ا لخمس الولاية وهى حب أهل البيت، والطهارة.

الغلام اليه واعلمه ما قاله الرجل فدفع له الرغيف
وبات طاويا الى الليل تانى يوم. وكان [هناك] ايضا
انسانا جليل القدر فى قومه غنيا جدا وافتقر ونفذ
ماله حتى لم يبقا له شيا فاحتاج ولم تدعه الحشمة
يبذل وجهه ويتسول لاحد فباع كلما فى بيته حتى
لم يبق له الا الثياب التى عليه تستره ولو كان له
غيرها يمضى بها الى البيعة لباعها، فما ادرى
كيف علم به بقيره الخادم للسيد يسوع المسيح
فاخذ عشرة تلاليس فيها عشر ارادب قمح انفذها

كان دعاة الاسماعيلية يرجعون الى كتاب دعائم الاسلام فى أحكامها، ومنهج الوزير يعقوب بن كلس فى كتابه «مصنف الوزير» منهج كتاب الدعائم، وأشاد بذكر هذا الكتاب حميد الدين الكرمانى، داعى الحاكم بأمر لله فى فارس، فى كتابه« راحة العقل»، حتى جعله فى المرتبة التى تلى القرآن والحديث.

وعلى الرغم من تعصب الفاطميين للمذهب الاسماعيلى وتشجيعهم فقهاءه، فقد ظهر فى عهدهم بعض الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية، نخص بالذكر منهم أبا بكرمحمد النعالى المالكى المتوفى سنة ٣٨٠هـ. وكانت حلقته بجامع عمرو بن العاص، تدور على سبعة عشر عمودا، لكثرة من يحضرها. وكان فقهاء المذهب السنى فى مصر يستنكرون تعاليم الفاطميين ولكنهم لا يستطيعون الجهر بذلك.

كان لتشجيع الفاطميين للعلماء والكتاب، أثر فى ظهور طائفة كبيرة منهم فى مصر، ونشاط الحركة الفكرية تبعا لذلك، فاشتهر من المؤرخين فى العصر الفاطمى: أبو الحسن على الشابشتى المتوفى سنة ٣٨٨هـ. وقد اتصل بخدمة الخليفة العزيز، فولاه خزانة كتبه واتخذه من جلسائه وندمائه وله كتاب الديارات، أورد فيه أخبار طريفة عن أديرة العراق والجزيرة والشام ومصر، وما قيل فى كل منها من الأشعار. كما نبغ من المؤرخين فى هذا العصر: الأمير المختار عز الملك. المعروف بالمسبحى الذى ولد بمصر ٣٦٦هـ وتوفى سنة ٤٢٠هـ. كان من جلساء الخليفة الحاكم بأمر الله وخاصته. وتولى فى عهده بعض المناصب الهامة، وشغف بكتابة

اليه مع غلامه فلم يجده فى ذلك الوقت فى منزله فافرغ القمح فى بيته عند زوجته وقال لها: عرفى صاحب البيت وقولى له ان فلان انفذ لك هذه البركة، ومضى الى صاحبه فعرفه ذلك، ولما جا الرجل الى منزله ابصر القمح سال زوجته عنه فاعلمته انها بركة انفذها الرب لنا لنعيش بها، فقال لها من الذى اتى بها، فقالت له من عند بقيره الرشيدى الكاتب، فلما سمع ذلك ضاق صدره وقال حى هو الرب اننى اجلس فى منزلى

التاريخ، وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى «أخبار مصر»، ولايوجد منه الا الجزء الرابع بمكتبة الاسكوريال باسبانيا. وقد نقل عن هذا الكتاب كل من المقريزى وأبى المحاسن.

ومن أعلام المؤرخين: أبو عبد الله القضاعى، الذى ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى، وتوفى بها سنة ٤٥٤هـ. وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعى. وقد ولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، وأوفده هذا الخليفة سفيرا الى تيودورا امبراطورة الدولة البيزنطية سنة ٤٤٧هـ، ليحاول عقد صلح بينهما وبين مصر، وله عدة مصنفات فى الفقه والتاريخ، منها:

«مناقب الامام الشافعى وأخباره»، وكتاب فى خطط مصر، سماه: «المختار فى ذكر الخطط والآثار»، يتضمن تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره. وكان هذا الكتاب عونا للمقريزى على كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار».

ومن الكتاب المؤرخين الذين ظهروا فى أواخر العصر الفاطمى: أبو القاسم على بن منجب الصيرفى. وقد اشتهر ذكره وعلا شأنه فى البلاغة والشعر، كما برع فى الخط، وتدرج فى بعض الوظائف حتى ولى ديوان الانشاء للخليفة الآمر بأحكام الله، وظل فيه الى سنة ٥٣٦هـ ومن تصانيفه كتاب «قانون ديوان الرسائل»، والاشارة الى من نال الوزارة الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز حتى أيامه. وتوفى ابن الصيرفى فى عهد الخليفة الحافظ.

الى ان يقبض الله روحى ولا اخذ صدقة من واحد ولا افضح نفسيى، وبدا يبكى ويلطم وجهه، فقالت له زوجته المومنه قد رزقنا الله قوتنا اليوم فقم الان اغسل وجهك ويديك ورجليك وصلى واسجد الرب واشكر رحمته لك وافطر واذا كان بالغداة رد القمح الى صاحبه، فتسلى بكلامها وطاب قلبه واكل طعامه وتنهد، فلما نام تلك الليلة راى فى منامه كان السيد المسيح قايم امامه، فقال له لماذا انت وجع القلب، فقال له يا سيد كيف لا يوجعنى

كذلك نبغ فى العصر الفاطمى بعض العلماء من أمثال: أبى على محمد بن الحسن بن الهيثم. وأصله من البصرة، ثم قدم الى مصر بدعوة من الخليفة الحاكم بأمر الله لما بلغه أن له نظرية هامة في توزيع مياه النيل. وكان ابن الهيثم مصدر حركة فلسفية كبيرة، وخاصة فى الطبيعيات والرياضيات. وقد ألف نحو مائتى كتاب من الرياضه والطبيعة والفلسفة. ولم يزل مكبا على التأليف حتى توفى سنة ٤٣٠هـ.

واشتهر من الأطباء والفلاسفة: أبو الحسن على بن رضوان وهو مصرى المولد من الجيزة. وقد نشأ فقيرا معدما، وأصبح بفضل جده واجتهاده رئيس الأطباء فى البلاط الفاطمى. وتدل الكتب التى ألفها فى الطب على سعة فكره واطلاعه، كما أن له كتبا فى الفلسفة والمنطق، وغيرهما من علوم الحكمة. وكان على بن رضوان مجددا فى صناعته، فلم يعمد فى مؤلفاته الى نقل وشرح كتب من كان قبله من الأطباء، بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار، وظل طيلة حياته فى كفاح وعمل متصل الى أن توفى حوالى سنة ٤٦٠هـ فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى.

وصفوة القول، أن الحركة العلمية فى العصر الفاطمى، سارت بخطى واسعة نحو التقدم والارتقاء، وتميزت بنشاطها، فكان بمصر طائفة من علماء الدعوة الفاطمية والمؤرخين والفلاسفة والأدباء، أسهموا فى النهضة الثقافية التى تجلت فى ذلك العصر.

٦٤: انبا زخارياس البطرك ١٠٠٣ / ١٠٣٢م

قلبى وانا من بعد ذاك الغنى والرحمة التى كانت لى ولابالى [لآبائى] قد انتهى بى الامر الى هذا الفقر حتى صرت اتصدق، والاصلح لى ان اموت بالجوع افضل من هذا، فقال له لا تحزن فان هذا القمح ما هو لاحد بل هو لى وانا انفذته لك على يد وكيلى، قال له يا سيدى ما جانى لك وكيل بل بقيره الرشيدى انفذه الى، فقال له الرب كانك ما علمت الى الان ان بقيره وكيلى؛ فلما سمع هذا

خامسا: مصر فى عصر الأيوبيين والمماليك

١. مصر فى عصر الأيوبيين

تمهيد:

يستطيع المدقق فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى الممتد فى الفترة الزمنية الواقعة بين الغزو العربى لمصر سنة ٢١هـ(٦٤١م)والغزو العثمانى لها سنة ٩٢٣هـ(١٥١٧م)أن يقسم هذا التاريخ الى ثلاث حلقات، لكل حلقة منها طابعها المميز، مع وجود صلات قوية تربط بينها جميعا، وفقا لمبدأ استمراية التاريخ.

أما هذه الحلقات فأولاها عصر الولاة والطولونيين والاخشيديين. ويتميزا هذا العصر بمحاولات تعريب مصر فضلا عن تبعية مصر فى صورة أو أخرى للخلافة الاسلامية فى المدينة المنورة أو فى دمشق أو فى بغداد. واذا كان عصر الولاة قد انتهى باستقلال بعضهم عن الخلافة، مما أدى الى تعاقب دولتين مستقلتين فى حكم مصر، هما دولتا الطولونيين ثم الاخشيديين ـ فان هاتين الدولتين ربطتهما فى صورة أخرى علاقات وروابط بالخلافة العباسية. كل ما فى الأمر هو أن هذه العلاقات والروابط ربما ظهرت على السطح حينا، أو اختفت وتحولت الى قطيعة وعداء أحيانا، ولكن الباحث المدقق يشعر دائما بأن هناك خيوطا ظلت

استيقظ واعلم زوجته بالمنام وطاب قلبهما بان لا يعيدا القمح بل يعيشان به.

واما انبا زخارياس فانه اقام معتقل تلتة شهور وهم يخوفوه في كل يوم بحريق النار والرمي للسباع ان لم يدخل في دين الاسلام، ويقولو له ان اجبت الى ذلك نلت مجدا عظيما ويجعلك الحاكم قاضي القضاة وهو لا يلتفت اليهم ولا يلوى عليهم، وكان معه في الاعتقال انسان مسلم شرير فقال له: يا شيخ السو ما تسلم حتى يخلوك

تربط مصر بالخلافة العباسية في زمن هاتين الدولتين، كالدعاء للخليفة في خطبة الجمعة، وضرب السكة باسمه، وارسال مبالغ من المال سنويا الى حاضرة الخلافة. هذا الى أن مؤسسي الدولتين الطولونية والاخشيدية ـ وليا حكم مصر بوصفهما والبين عينهما الخليفة العباسي لينوبا عنه في حكم البلاد. واذا كان كل منهما قد استقل عن سيده ليكون بيتا حاكما قصير العمر، فان صفة التبعية ـ ولو اسميا ـ ظلت تربط أصول كل بيت بالخلافة العباسية في بغداد، فضلا عن أن هذا الاستقلال لم يكن تاما في غالب الأحيان[١].

أما الحلقة الثانية في تاريخ مصر في العصور الوسطى، فتتمثل في الدولة الفاطمية، وفيها يشعر المؤرخ بأن مصر غدت لأول مرة منذ الغزو العربي مستقلة تماما عن أية سلطة خارجية وأنها صارت مقرا لخلافة جديدة قائمة بذاتها، لها طابعها الخاص المميز، تدين بالمذهب الشيعي، وتتخذ من مصر بموقعها وثروتها قاعدة لنشر هذا المذهب شرقا وغربا. ومن أجل تنفيذ هذه السياسة أضفى الفاطميون على الحياة الاجتماعية في البلاد ثوبا زاهيا براقا، يحبب الناس في حكمهم ومذهبهم. وأقاموا مؤسسات عديدة ـ دينية وعلمية ـ لتدريب الدعاة

(١) انظر: ابن الداية: سيرة ابن طولون، ص٢١ ـ ٢٤، ٦٨ـ ٦٩ (برلين ١٨٩٤م) البلوى: سيرة ابن طولون، ص٣٠٤ ـ ٣٠٥ (دمشق ١٣٥٨هـ)، الكندى: كتاب الولاة والقضاة،ص ٢٤٨ وما بعدها (بيروت، ١٩٠٨). ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ص ٦ وما بعدها، ص ٢٣٦ وما بعدها.

وتنال منهم الكرامة الكبيرة، فقال له البطرك: اعتمادى على الله الذى له القدرة وهو يعيننى، فلما تم الخطاب دخل اليه احد الاتراك فضربه على فاه بدبوس فقال له البطرك: اما الجسد فلكم عليه السلطان تهلكوه كما تريدو واما النفس فانها بيد الرب، وكان رجلا من العرب مقدم القريتين اسمه ماض ابن مقرب وهو مقدم جماعته، وكان جليل عند الحاكم وكان قد استقر معه ان يقضى له كل يوم حاجة اى شي كانت، وكان له صديق نصرانى

الشيعة وتلقين الناس أصول مذهبهم . وجاء هذا النشاط على حساب المذهب السنى وعلمائه ومؤسساته. ومهما يقل من أن الأمان الذى كتبه القائد جوهر الصقلى لأهل مصر تضمن مبدأ الحرية المذهبية لأهل البلاد، ومن أن المذهب الشيعى لم يصادف قبولا من عامة أهل مصر، فان العبرة هنا بالطابع العام للحكومة وسياستها، والسلطة وطابعها. وقد أشار الأدفوى وابن حجر والعينى والمقريزى وغيرهم، الى أن بعض مظاهر التشيع ظلت باقية بمصر حتى القرنين الثامن والتاسع للهجرة ـ الرابع عشر والخامس عشر الميلادى ـ مما ترجع أصوله حتما الى العصر الفاطمى[1] ولا شك فى أن هذا كله يعطى انطباعا بأن ثمة تغييرا ـ ولو من النوع السطحى الباهت الخفيف ـ ألم بصورة مصر فى العصر الفاطمى.

وربما ازدادت صورة هذا التغيير وضوحا فى ضوء العداء الدفين الذى ظهر فى ذلك العصر بين خلافتى القاهرة وبغداد، وهو العداء الذى اتخذ شكل صدام مسلح بينهما على أرض الشام حينا، وشكل مؤامرات مستترة يديرها كل طرف للآخر أحيانا.

كذلك زاد من روح التغيير فى تلك المرحلة أن مصر فى العصر الفاطمى ارتبطت بالمغرب

---

(١) انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣ص ١٣٠، ترجمة على بن المظفر الاسكندارنى، العينى: عقد الجمان: سنة ٦٥٩هـ، المقريزى: كتاب السلوك ج١ص ٤٤٠. وكذلك: الأدفوى:الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، ص ٣٤١ (القاهرة ١٩٦٦).

عامل قد انكسر عليه للديوان ثلثة الف دينار ولم
يكن له حال يقوم بها فاعتقل عند الاب البطرك
انبا زخارياس، فلما بلغ ماضى [مقدم] القرى خبره
اتاه ليعلم خبره على الحقيقة، وقال: لماذا اعتقلوك؟
فقال: بقى للديوان عند ثلثة دينار وما معى شى
اقوم به. فقال له: انا اجعل اليوم حاجتى عند
الحاكم خلاصك. فقال له ذلك الرجل النصرانى
الدين: ما اقدر اخرج واخلي هذا الاب الشيخ
البطرك. قال له ماضى [ابن مقرب] ما جريرة هذا

أكثر من ارتباطها بالمشرق، وذلك بحكم أن الدولة الفاطمية ذاتها ولدت على أرض المغرب. ومن المغرب ـ وبمساعدة بعض قبائله مثل كتامة وزويلة ـ نجح الفاطميون فى فتح مصر وارساء قواعد حكمهم فيها، مما جعل الخيط متصلا بين مصر والمغرب، فى الوقت الذى ظهر العداء واضحا بين حكام مصر وخلافة المشرق الاسلامى، طوال العصر الفاطمى.

أما الحلقة الثالثة والأخيرة من تاريخ مصر فى العصور الوسطى الاسلامية فتشمل عصر الأيوبيين والمماليك. وتمتاز هذه الحلقة بصفات خاصة أكسبت تاريخ مصر فيها طابعا له ملامحه المميزة. ذلك: أن الأمر لايقتصر على استعادة مصر وجهها السنى بسقوط الدولة الفاطمية وقيام دولة بنى أيوب، وانما يتعدى ذلك الى أن ذلك التغيير جاء مصحوبا بتطور واضح فى مكانة مصر السياسة والحضارية فضلا عن وضعها فى العالم الاسلامى وغير الاسلامى. ونحب أن نؤكد هنا على أن هذه التغييرات التى بدأت مع قيام الدولة الأيوبية ظلت فى نمو حتى أواخر دولة سلاطين المماليك، مما يجعل من هاتين الدولتين وحدة متكاملة فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى.

ذلك أن الأيوبيين يمثلون فى أصلهم قوة أو ظاهرة أرتبطت أساسا ببعض البيوت الحاكمة ـ أو الاتابكيات ـ التى تفرعت عن دولة سلاطين السلاجقة. وقد أحضر الأيوبيون معهم الى مصر كثيرا من النظم والأوضاع المألوفة عند السلاجقة، وطبقوها فى مصر لأول مرة منذ الغزو

البطرك حتى اعتقلوه؟ [فعرفه السبب] فخاف
ماضى [ابنى مقرب] لا يكون الكلام فى امره شيا
لا يوافق السلطان فلا يفرج عنه، فقال: انا ادبر فى
امر هذا شي وهو ان اجعل حاجتى عنده اليوم
السوال فى اطلاق كلمن فى هذه الخزانة
[السجن]، فاذا امر بذلك تخلصت انت وهو من
حملة المطلقين. ثم خرج ماضى واجتمع بالحاكم
وساله فى الجميع فاطلقهم، ولما تخلص البطرك
ونزل الى مصر فرحو جماعة النصارى فرحا

العربى لهذه البلاد. فلما انتهى حكم دولة بنى أيوب وقامت دولة سلاطين المماليك، أبقى المماليك على النظم والأوضاع التى طبقها الأيوبيون، مما جعل من حكم الأيوبيين والمماليك وحدة متكاملة ذات طابع خاص فى التاريخ المصرى. وفى ذلك يقول القلقشندى «أعلم أن الدولة الأيوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتها فى الديار المصرية، خالفتها فى كثير من ترتيب المملكة، وغيرت غالب معالمها، وجرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية فى عهد عماد زنكى بالموصل، ثم ولده الملك العادل نور الدين محمود بالشام»[1] وفى موضع آخر من موسوعته يقول القلقشندى «ذكر ما استقر عليه الحال من ابتداء الدولة التركية(دولة سلاطين المماليك) والى زماننا على رأس الثمانمائة (للهجرة)، مما أكثره مأخوذا من ترتيب الدولة الأيوبية التى هى أصل الدولة التركية»[2] ويؤكد المؤرخ المقريزى نفس المعنى، فيقول «فلما انقرضوا (الأيوبيون) وقامت دولة الأتراك (المماليك) من بعدهم، أبقوا سائر شعائرهم، واقتدوا بهم فى جميع أحوالهم، وكانوا يفتخرون بالانتماء اليهم»[3].

ثم ان صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية لم يرث عن سيده نور الدين محمود دولته فى

---

(١) القلقشندى: صبح الاعشى فى صناعة الانشا، ج٤ ص ٥.
(٢) المصدر السابق، ج٧ ص ١١٩.
(٣) المقريزى: النقود، ص ٦٠(تحقيق الأب انستاس الكرملى).

عظيما واشارو عليه بان يسير الى البرية الى وادى هبيب خوفا ان يكون اطلاقه سهو من الحاكم او يكون نسى انه فى ذلك المكان الذى اطلق [اطلقه] منه ماضى [ابن مقرب مقدم] القرى، فقبل مشورتهم وسار لوقته الى وادى هبيب فاقام فيه تسع سنين لان البيع التى هناك كانت سالمة من الهد، وذلك ان الحاكم كان انفذ امير من مصر وصحبته فعلة ومساحى وطور [حاملى الفؤوس] فى المراكب ليهدمو جميع البيع التى فى البريه،

مصر والشام فحسب، بل أهم من ذلك ورث عنه سياسته فى تجميع القوى الاسلامية فى الشرق الأدنى للنهوض بحركة جهاد كبرى ضد القوى المعادية للاسلام وهذه السياسة نفسها هى التى تمسك بها سلاطين المماليك حتى ان المؤرخ ابن واصل أطلق على المماليك اسم «داوية الاسلام» تشبيها لهم بجماعة الدواية وهم فئة من الفرسان الرهبان أبلوا بلاء حسنا فى الدفاع عن الكيان الصليبى ببلاد الشام، وهكذا ظهرت مصر طوال عصر الأيوبيين والمماليك فى صورة حصن الاسلام الحصين، وقلب المقاومة الاسلامية، وقلعة الصمود فى حركة الجهاد الاسلامى، والمخزن الكبير الذى استمد منه المجاهدون امداداتهم البشرية والمادية فى حروبهم الطويلة، وبخاصة ضد الصلبيين والمغول.

ثم أن تحول جهاز الحكم من المذهب الشيعى الى المذهب السنى نتيجة لسقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، ترتب عليه نشاط واسع فى الحركة الدينية العلمية فأكثر سلاطين الأيوبيين من انشاء المدارس، واقتفى سلاطين المماليك أثرهم فى هذه السياسة. وأدى انتقال الخلافة العباسية الى القاهرة بعد سقوطها على أيدى المغول فى العراق الى أن غدت مصر«محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء» على قول السيوطى[1]. ولاشك فى أن الحروب الصليبية أدت الى انفتاح الغرب المسيحى على الشرق الاسلامى، فنشطت العلاقات

(١) السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢،ص ٩٤ (القاهرة، ١٩٦٨).

فلمـا وصلو الى ترنوط فـقـالوا: نحن نخـاف من
العرب الذين فى هذا الجبل لكثرتهم. وبهـذا بطل
الله موامرتهم، وبامر ظهر لهم من الله وحفظ جميع
كنايس البريه، وذكر ان الشهيد جرجس ظهر لهم
وردهم وخوفهم حتى عادو كما هو مكتوب فى
رويا يوحنا ابن زبدى، ان الامـراة التى ولدت الولد
الذكر اسكب التنين خلفها. بحر ما [ماء] فاعطاها
الرب النجـاة منه الى الموضع الذى قـامت فـيـه.
كذلك البيع التى فى هذا الجبل وجدت راحة، كما

الاقتصادية بين جمهوريات ايطاليا التجارية من ناحية ومصر من ناحية أخرى، مما عاد على مصر بثروة طائلة.

وكان أن أدت هذه العوامل مجتمعة الى قيام نهضة كبيرة فى مصر، شملت الآداب والعلوم والفنون، وبلغت أوجها فى عصر سلاطين المماليك.

وثمة ميزة يمتاز بها عصر الأيوبيين والمماليك بين أواخر القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلاد)، وأوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر للميلاد)، وهى أنه يمثل بالنسبة لمصر فى العصور الوسطى عصرا من عصور القوة والهيبة.

ففى ذلك العصر غدت القاهرة قبلة السفراء والمبعوثين من بلاد الشرق والغرب، من داخل العالم الاسلامي وخارجه. وهؤلاء وفدوا يخطبون ود سلاطين مصر ويطلبون مساعدتهم أو على الأقل مسالمتهم.

ولم يتوقف دور جيوش مصر وأساطيلها فى ذلك العصر عند حد الدفاع عن البلاد وحماية حدودها، وأنما تخطى ذلك الى القضاء على الخطر فى منابعه، فخرجت الحملات من مصر الى آسيا الصغرى واقليم الجزيرة شمالا والى دولة النوبة جنوبا، والى شبه الجزيرة العربية شرقا.. فى حين غزت الأساطيل المصرية قبرس ورودس ـ وقامت بدورها فى تأمين مياه البحرين المتوسط والأحمر.

ان الارض فتحت فاها وابتلعت الما، كذلك كان خلاص هذه البيع من الهيج.

وفي ذلك الزمان ظفر امير تركي براس الاب البشير مارى مرقص الانجيلى، فقيل له ان النصارى يدفعو لك فيها كلما تريده فحمله الى مصر فلما علم بقيره الرشيدى حامل الصليب بذلك اخذ منه الراس بثلثماية دينار، وحمله الى الاب البطرك وهو يوميذ بدير ابو مقار، وكان اكثر الاساقفة مقيم معه

ويشهد التاريخ منذ القدم على أنه ما من عصر من عصور القوة فى التاريخ المصرى الاوحرص حكام مصر على ضم بلاد الشام فى نطاق وحدة مع مصر، بوصف تلك البلاد تمثل الباب الشرقى والرئيسى الذى تسلكه الغزوات الرئيسية التى تهدد دلتا النيل، فبصرف النظر عن الهجمات المحدودة التى تعرضت لها مصر من ناحية الشمال ـ أعنى البحر المتوسط ـ مثل غزوات شعوب البحر والرومان وبعض الحملات الصليبية ثم الحملة الفرنسية فالغزو الانجليزى فى العصور الحديثة، فان طريق الشرق ظل دائما أنجح الطرق أمام الغزاة وأشدها خطرا على مصر وأهلها، وعن هذا الطريق تعرضت مصر لغزوات الهكسوس والفرس واليونانيين فى العصور القديمة، والغزو العربى ثم الصليبى فى العصور الوسطى والغزو العثمانى والانجليزى فى العصور الحديثة.

أما البوابة الغربية، فان طبيعة صحراء الغر ب، وطبيعة الشعوب التى جاورت مصر على حدودها الغربية، جعلت تلك البوابة غير ذات خطر جدى على مصر عبر عصور التار يخ. ولم تتعرض مصر من جانب حدودها الغربية الا لغزوة من جانب الليبيين فى العصور القديمة، وهؤلاء وصفهم قدماء المصريين بأنهم جموع من البدو والرعاة، عديمى المعرفة بشئون الحرب، حركتهم دوافع اقتصادية بحته، مما جعل غزوتهم ضئيلة الأثر والنتائج.

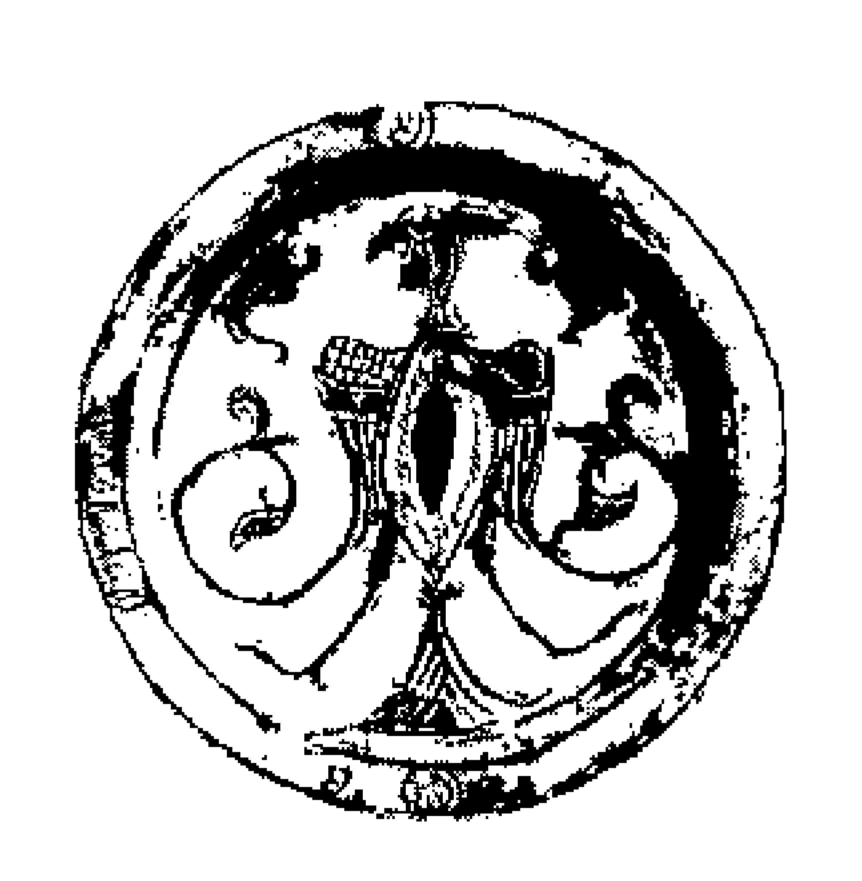
هناك خوفهم من الاهانة والتعب، وكان اكثر
النصارى ايضا يدخلو البرية دفعتين فى السنة وهما
عيد الغطاس وعيد القيامة الذى هو الفصح، وكانو
يشتهو القربان كما يشتهى الطفل اللبن من ثديى
امه، وكان على النصارى فى هذه التسع سنين
ضيق عظيم وطرد وشتم ولعن من المسلمين
ويبصقو فى وجوههم، وكان أكثر ذلك بمدينة
تنيس واعمالها، واذا جاز نصرانى عليهم يشتموه
ويقولو له اكسر هذا الصليب وادخل فى الدين

وربما كانت أنجح الغزوات التى تعرضت لها مصر عبر تاريخها الطويل والتى وفدت عن طريق الغرب، هى الغزوة الفاطمية فى العصور الوسطى، ولكن نجاح هذه الغزوة يرجع فى رأينا الى ظروف مصر القلقة واضطراب أحوالها الداخلية فى تلك المرحلة. أما فى العصور الحديثة، فان قوات المحور التى غزت مصر من البوابة الغربية أثناء الحرب العالمية لم تلبث أن تعرضت للكسرة عند العلمين غربى الاسكندرية.

وهكذا، فان احساس حكام مصر فى عصور القوة بأهمية الخطر الذى يمكن أن يهدد البلاد عن طريق الجبهة الشرقية هو الذى جعلهم يحرصون على ضم بلاد الشام، حيث جاءت هذه الظاهرة عبر التاريخ تعبيرا عن قوة مصر. ونستطيع أن نقرر أن وحدة مصر والشام لم تحدث طوال التاريخ المصرى أقوى وأكمل مما حدثت به فى عصر الأيوبيين والمماليك. حقيقة أن نفوذ مصر امتد الى أجزاء من بلاد الشام فى عصور الطولونيين والاخشيديين والفاطميين ولكن هذا الامتداد جاء مبتورا ناقصا بسبب العقبات التى اعترضته من جانب الخلافة العباسية والقوى التى هيمنت عليها فى مرحلة لاحقة كالسلاجقة من ناحية، أو من جانب القوى المستقلة التى ظهرت فى فترات معينة فى بلاد الشام كالحمدانيين والاتابكة من ناحية أخرى.

أما فى العصر الأيوبى المماليكى فقد كان على رأس الدولة سلطان مقره القاهرة، يعبر عن

الواسع، وان نسى نصرانى صليبه ومشى بلا صليب لقى هوان كثير.



واعلمكم عجوبه اخرى اعلمنى بها ابى الجسدانى، وكانت صناعته بنا وكان فيه دين ومحبة، لانى انا البايس ميخاييل [اسقف تنيس] كنت طفلا فى زمان هذا الضيق، فاخذنى معه يوما وهو متوجه الى ضيعة يبنى فيها، وكنت اتعلم منه صنعة النجارة لانه كان بنا ونجار، فوقف باهتا ودق

رأس السلطة فى الدولة، ودان له بالولاء والطاعة ملوك بنى أيوب الذين اقتسموا بلاد الشام تحت رئاسته من جهة، أو نواب السلطنة فى العصر المماليكى من جهة أخرى.

وفى غالب الأحوال كانت قبضة السلطان على أتباعه أو نوابه فى كافة انحاء بلاد الشام ـ من شمالها حتى جنوبها ـ قوية، بمعنى أنه كان سلطان مصر والشام ، مما أعطى العصر الأيوبى المماليكى طابعا مميزا فى التاريخ المصرى.

ويمكننا أن نقف على كافة الاعتبارات التى كيفت تاريخ مصر فى عصر الأيوبيين والمماليك، وأكسبته طابعه الخاص المميز باستعراض المسيرة التاريخية لمصر فى ذلك العصر.

١. صلاح الدين وقيام الدولة الأيوبية:

تعرض الوطن الاسلامى فى الشرق الأدنى فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد (الخامس الهجرى) لهزة عنيفة نتيجة لوصول الحملة الصليبية الأولى الى الشام سنة ١٠٩٧ (٤٩٠)، وما نجم عن ذلك من تغييرات ونتائج بعيدة المدى فى أوضاع المنطقة من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولعل أبرز النتائج السياسية فيما يتعلق بتاريخ مصر بالذات هو سقوط الخلافة الفاطمية وانتقال الحكم فى مصر الى دولة جديدة هى دولة الأيوبيين.

٦٤: انبا زخارياس البطرك ١٠٠٣ / ١٠٣٢م

يد على يد، فقلت له: يا ابى عرفنى ما نالك. فجلس وعيناه تهطل دموعا وقال لى: يا ولدى اجلس اسمع ما جرى فان لى ثلثة شهور منذ خرجت من مصر وانزل الله على سهو وعرقل لسانى لكى لا اعلمكم بذلك الا فى هذه الساعة، فان الله تعالى انار فهمى واطلق لسانى لا ذكر ذلك، وهو اننى كنت اعمل بمصر فلحقنى مرض فخفت ان يشتد بى الوجع وليس عندى من يخدمنى فخرجت امشى قليلا قليلاً الى الساحل

ذلك أن انتصار الصليبيين فى الحملة الصليبية الأولى، ونجاحهم فى تأسيس امارات فى الرها وانطاكية وطرابلس فضلا عن مملكة بيت المقدس الصليبية لم يكن مرده قوة الصليبيين بقدر ما كان ضعف المسلمين عندئذ وانحلال أمرهم. فالصليبيون وصلوا الى الشرق الأدنى فى وقت كانت تتنازع الولاء الروحى للمسلمين فى المنطقة خلافتان متداعيتان دب فيهما العطب والوهن، وبدا واضحا ان كلا منهما تعانى آلام الموت التدريجى البطئ، الخلافة العباسية السنية فى بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة. وفى الوقت الذى اشتدت الخصومة المذهبية بين هاتين الخلافتين، كانت سلطنه السلاجقة الكبرى قد انقسمت الى عدة فروع أو سلطنات.

ورغم ان الخلافة العباسية نفسها كانت تحت حماية سلطنة سلاجقة فارس فان هذه السلطنة ـ شأنها شأن زميلاتها ـ أخذت تسير سريعا فى طريق الضعف والانحلال فى الوقت الذى دهم الصليبيون بلاد الشام. اما بلاد الشام نفسها فظلت يتجاذبها النفوذ الفاطمى حينا والنفوذ العباسى أحيانا، حتى امتد اليها سلطان السلاجقة، فصارت البلاد مقسمة الى عدد من الواحدات أو الاتابكيات الصغرى التى عبرت عن الأثر السلجوقى، فضلا عن البيوت العربية التى نجحت فى تكوين امارات مستقلة.

وهكذا غدت بلاد الشام نهبا وميدانا للصراع بين الخلافتين العباسية والفاطمية، وبين السنة

فوجدت مركبا منحدر الى المحلة [الكبرى] فركبت فيه وكان موفرا [موفورا] بالناس وهم فيه مزدحمين جدا وليس فيه نصراني الا اسقف وتلميذه في مقدم المراكب في فاره [غرفة] خشب وانا في وسط الناس مطروح وجع، والناس يزاحموني ويلكموني ويقولون لي: يا كلب يا مرذول يا نصراني تنحا عنا. ويصقو على ويهينوني بكل فن من فنون العذاب وينسبو الى ما يفعلوه من القبيح كذبا، فلما زاد امرهم على رفعت عيني

والشيعة، وبين العرب والترك وبين صغار الأمراء والاتابكة بعضهم وبعض، مما سهل على الصليبيين تحقيق مكاسب كبرى سريعة على حساب الجميع[١].

واذا كانت الخلافة الفاطمية في مصر قد خدعت في البداية في أمر الحركة الصليبية ولم تتبين حقيقة أهدافها ونواياها، الا أن الفاطميين أفاقوا عندما رأوا أن الصليبيين لم يكتفوا بالسيطرة على شمال الشام ـ مثلما كان يفعل الروم أو البيزنطيون في غزواتهم القريبة السابقة ـ وانهم أوغلوا في البلاد حتى استولوا على بيت المقدس حيث أحدثوا في المسلمين مذبحتهم الشهيرة بالحرم الشريف سنة ١٠٩٩م. وعندئذ لم يستطع الفاطميون السكوت، فحشدوا امكانات مصر البشرية، والمادية لمقاومة هذا الخطر الذى بدا في طبيعته من نوع جديد، غير الأخطار الخارجية التي اعتاد الفاطميون أو اعتاد المصريون أن يواجهوها في الشام من قبل.

وكان ان خرجت عدة حملات برية من مصر في نهاية القرن الحادى عشر وأوائل الثاني للميلاد لصد الخطر الصليبي[٢]. ولكن يبدو أن الدولة الفاطمية عندئذ ـ في خريف عمرها صارت أضعف من أن تنهض بمهمه مواجهة الخطر الصليبي فحلت الهزيمة بالجيوش الفاطمية مرة بعد أخرى، الأمر الذى مكن بلدوين الأول ملك بيت المقدس الصليبي من السيطرة على

(1)Gibb:The Damascus Chronicle of the Grucudes (London,1932).

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حوادث ٤٩٥ وما بعدها.

الى السما وقلت يا سيدى يسوع المسيح ان لم
تظهر لى شى يطيب به قلبى واعلم ان لى فيما
نالنى من هولا اجر والا انكرت دينك، الرب يشهد
على انه لم يفرغ الفكر من قلبى ولا الكلام من
فمى حتى صرت كاننى قد نقلت من هذا العالم
وغاب عنى جميعه وكاننى فى عالم اخر وصرت
فى موضع عال مضى [مضىء] لا اقدر اصف
حسنه وبهجته بلسانى ولا فى هذا العالم شيا مثله
ولا يشبهه، ورايت السيد المسيح له المجد فلم افهم

وادى عربة، حتى وصل الى أيلة على البحر الأحمر ثم اخترق شبه جزيرة سيناء وأوغل فى أرض مصر حتى تنيس جنوبى بحيرة المنزلة، حيث مات سنة ١١١٨م - (٥١٢هـ)، نتيجة لمرض مفاجئ فعاد أصحابه بجثته بعد أن حنطوها، وألقوا باحشائه فى مكان مازال ينسب اليه قرب مدينة بور سعيد الحالية، يعرف باسم سبخة البردويل وهو التحريف العامى لاسم بلدوين[١] .

وعمت مصر فترة من الاضطرابات اشتد فيها التنافس بين الوزراء من ناحية وتلاعب الوزراء بالخلفاء أنفسهم من ناحية أخرى. وقامت حركة كبرى تدعوه الى جهاد الصليبيين. وتزعم هذه الحركة رضوان بن الوخشى الذى ولى منصب الوزارة سنة ١١٣٧م (٥٣١هـ) فأنشأ فى القاهرة ديوانا جديدا أسماه ديوان الجهاد[٢] غير أن هذه الحركة لم يلبث ان كسر شوكتها وأضعف من شأنها النزاع الداخلى حول منصب الوزارة، وهو النزاع الذى اشتد منذ سنة ١١٦٣م.(٥٥٨هـ) بين رجلين هما شاور وضرغام، حتى استعان كل منهما بقوة خارجية لتأييده ضد خصمه، فكان ذلك بدءا لمرحلة جديدة فى تاريخ مصر وتاريخ الشرق الأدنى.

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج٥ص١٧١.
(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ج٢،ص٨٢.

حقيقة صفته ولم اقدر اميزه من كثرة النور الذى
عليه، فقال لى: لما [لماذا] صرت قليل الامانة، هذا
هو موضع النصارى الذين يصبرون على التجارب
من اجل اسمى فهل طاب قلبك. فمن شدة الوجع
والفرح يا ابنى ميخاييل والبهجة التى رايتها
صحت قايلا: اشكرك يا رب فقد طاب قلبى.
فسمعنى كلمن فى المركب اذ قلت هذا وما كنت
كانني فى مركب، وبعد ذلك قمت من نومى
ونظرت المركب والناس وانا بينهم على حالى

ذلك أن تفاقم خطر الصليبيين يوما بعد آخر فى منطقة الشرق الأدنى واتساع نفوذهم من الجزيرة والفرات شمالا الى شبه جزيرة سيناء ومشارف دلتا النيل جنوبا، أحدث رد فعل عنيف فى العالم الاسلامى، الأمر الذى استثار بعض الزعماء ودفعهم الى القيام بحركة واسعة ضد الصليبيين وسرعان ما اكتشف المسلمون أن نجاح حركة الجهاد هذه لايتحقق الا فى ظل جبهة متحدة، توحد بين القوى المبعثرة بين النيل والفرات وتجعل من هذه القوى بنيانا مرصوصا يستطيع الصمود فى وجه الخطر الصليبى. وعلى رأس هذه الحركة برز عماد الدين زنكى أتابك الموصل الذى نجح فى ضم حلب وبذلك حقق جبهة امتدت من شمال العراق الى شمال الشام. وبعد عماد الدين زنكى خلفه ابنه نور الدين محمود الذى نجح فى ضم دمشق سنة ١١٥٤م (٥٤٩هـ) وبذلك صارت الخطوة التالية هى ضم مصر لتمتد الجبهة المتحدة من الفرات الى النيل وتقع مملكته شمالا فى دمشق وجنوبا فى مصر[١].

وكان ذلك فى الوقت الذى اشتد الصراع فى مصر بين شاور وضرغام، فاستعان أولهما

(١) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٢٨، ابن الأثير: الكامل، سنة ٥٤٩هـ، ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى ايوب ج١ ص ١٢٨.

Schlumbrger (G) :campagnes du Rois Amaury de Jerusalem en Egypte,P.P.38 58, 101 _ 102, 116. (paris,1906).

وغـاب عني مـا رايتـه، فـقـال لي الذين في المركب والك [مـالك] مـا الذى اصـابك انت مـجنـون بك روح شيطان؟ فـقلت: مـا بي روح شيطان لكن الله عـارف بما نالني. ثم اني رايت ذلك دفـعـه ثانيـة كهيته [كهيئته] والسيد المسيح يقول لي: هل قوى قلبك؟ فـصـرخت وقلت قـولي الاول حتى تعـجب كلمن في المركب، ثم رايتـه ايضـا تالت دفـعـه فـحينيـذ قـوى قلبي فلما سـمعني الذى في المركب اقـول ذلك القـول تلـتة دفعات قالو بعضـهم لبعض

بنور الدين محمود في دمشق، واستعان الثاني بالملك عموري الصليبي في بيت المقدس. وكان الأخير لايفتأ يتطلع الى مصر وثروتها، بل لقد غزا عموري مصر فعلا قبل أن يستعين به ضرغام، الأمر الذى نبه نور الدين الى ذلك الخطر وخاصة أن الخلافة الفاطمية باتت على درجة من الضعف لاتقوى معها على الحركة.

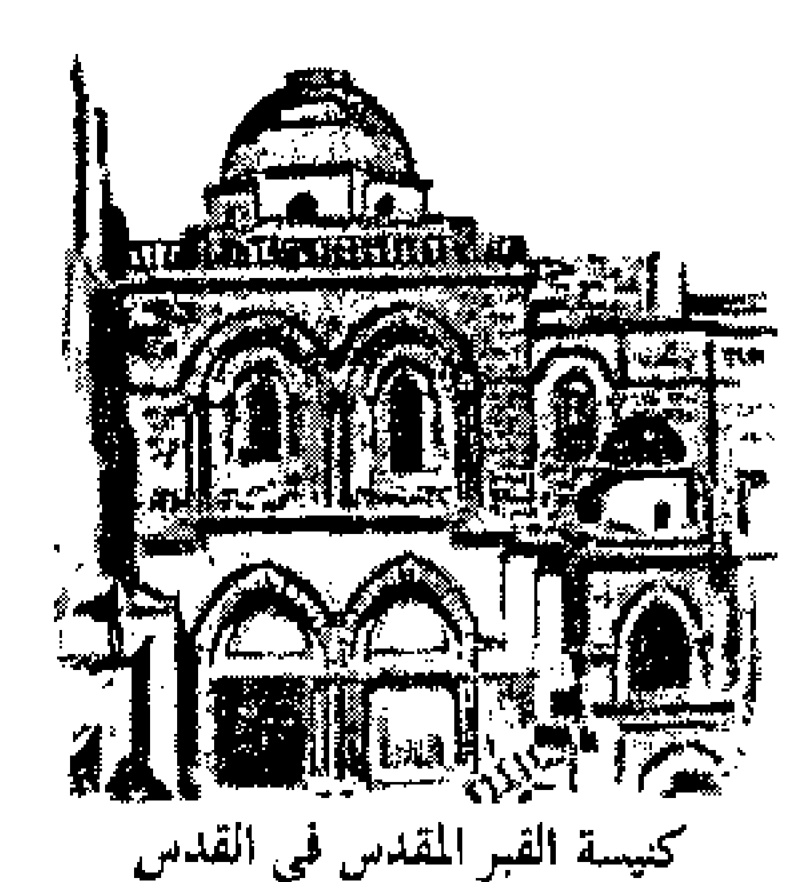
وهكذا غـدت مـصـر بين سنتي ١١٦٤م (٥٥٩هـ)، ١١٦٩م (٥٦٤هـ) ميـدانا لصـراع مرير بين نور الدين والصليبيين. وفي تلك الفتـرة أرسل نور الدين ثلاث حمـلات الى مـصـر بقيادة أسد الدين شيركوه يعاونه ابن أخيه صلاح الدين، في حين غزا عموري مصر على رأس جيوشـه الصليبيـة ثلاث مرات ـ عـدا المرة الأولى التي كان قـد وصل فـيـها الى بلبيس سنة ١١٦٣م قبل أن يستنجد به ضرغام[1].

على أن شـيـركـوه لم يلبث أن توفي بعـد شـهـرين، فـخلفـه ابن أخـيـه صـلاح الدين وزيرا للخليفة الفاطمي من ناحية، وقائدا لقوات نور الدين محمود من ناحية أخرى.ولاشك في أن الازدواج الوظيفي كان مصدر حرج كبير لصلاح الدين، الذى كان سنيا شافعي المذهب يتبع سيده نور الدين محمود الذى كان بدوره يدين بالتبعية للخلافة العباسية السنية في بغداد، وفي نفس الوقت كان على صلاح الدين أن يقوم بمهام الوزارة للخليفة الفاطمي الشيعي، رغم ما

---

(١) ابو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج١ص١٧١١، ابن الاثير: التاريخ الباهر،ص١٣٨.

لعله راى مالا يجوز له ان يقوله لنا لكن نمضى به [إلى الاسقف] فمضو بى اليه واعلموه ما كان منى فقبلنى وقوى قلبى ولطف بى قبل ان اقول له ما رايت وما حل بى. وكان يكلمنى بالقبطى واوليك المسلمين لا يعرفو ما يقول لى، فلما فتحت فاى لا حدثه صرت، يشهد الرب على، مثل من ربط لسانه ولم اقدر اقول كلمة واحدة مما رايته فضربت له المطانوه وقلت له: اجعلنى فى حل فما اقدر اقول شيا، ولما وصلت الى البيت اردت ان


كنيسة القبر المقدس فى القدس

كان هناك من عداء دفين بين الطرفين.ويبدو ان أتباع الخلافة الفاطمية فى مصر لم يرضوا عن هذا الوضع فاشعلوا الثورات واحدة بعد أخرى ضد صلاح الدين ورجاله، ولكنه صمد لهم وتغلب على مؤامراتهم وأخمد حركاتهم.

وزاد من حرج موقف صلاح الدين فى تلك المرحلة أن عمورى الأول ملك بيت المقدس الصليبى لم يرض عن النتيجة التى انتهى اليها أمر الصراع حول مصر بينه وبين غريمه نور الدين، فاستعان بالروم أو الأمبراطورية البيزنطية فى القسطنطينية، وقام الطرفان بهجوم مشترك على دمياط سنة ١١٦٩م (٥٦٥هـ) فهاجمها الأسطول البيزنطى بحرا وحاصرها الصليبيون برا. ولكن صلاح الدين صمد لذلك الخطر واستطاعت دمياط أن تقاوم الهجوم والحصار، فى الوقت الذى نفد تموين الأسطول البيزنطى واشتدت هجمات نور الدين محمود على ممتلكات الصليبيين بالشام، فاضطروا الى رفع الحصار عن دمياط والانسحاب عنها خائبين[1].

ولم تستطع الخلافة الفاطمية أن تعيش طويلا فى ظل الحماية السنية. وعندما أحس نور الدين محمود فى الشام بأن الأمور فى مصر غدت مهيأة للدعوة للخلافة العباسية، شدد على

(١) ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٥هـ.

احـدثكم انت واخـوتك فـارتبط لسـانى ولم ينطق
بذكـره الا فى هذه الساعـة وانا امشى مـعـه. وقـد
ذكـرت الان هـذا العـجب لمحبتكم لانه امـر من الله
وللمومنين بسـماعـه منفعة وقـوة قلب فى الامانه،
ولست اشك فى قول ابى رحمـه الله. وهذه التسـع
سنين التي كـان فـيـهـا الادب من الرب منهـا تلتـة
سنين لم يقـدر احـد يعـمل فـيـهـا ضورون فى بلاد
مـصـر الا فى الديارات فـقـط، ولم تصـبـر المومنين
الاخيار على البعد من السراير المقدسة وكانو يسالو

صلاح الدين فى القيام بهذا الانقلاب. ويقال ان صلاح الدين كان يخشى اتخاذ هذه الخطوة الخطيرة نظرا لما قد يترتب عليها من نتائج داخلية فضلا عن وضعه هو فى مصر. ولكنه اضطر الى ذلك تحت تأثير الحاج نور الدين محمود، فتم الدعاء فى أول جمعة من عام ٥٦٧هـ (١١٧١م) للخليفة العباسي المستضئ «أمير المؤمنين». يقال ان الخليفة العاضد الفاطمى كان عندئذ مريضا فمات بعد الانقلاب بثلاثة أيام دون أن يسمع خبر زوال دولته وسقوط خلافته. وبعد ذلك أخذ صلاح الدين يعمل بسرعة لمحو آثار الخلافة الفاطمية من مصر، مما يعتبر دون شك نقطة تحول فى تاريخ البلاد[١].

والواقع أن سقوط الخلافة الفاطمية لم يكن مجرد انقلاب عادى، وانما كان حدثا خطيرا فى تاريخ العالم الاسلامى بوجه عام وفى تاريخ مصر بوجه خاص. وفى تلك الأثناء دبت الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين بسبب رغبة الأول فى الاستئثار بمصر وتخوفه عندئذ من نوايا سيده نور الدين بعد أن أشيع أنه سيأتى الى مصر بنفسه لاخراج صلاح الدين وأسرته منها. وفى ضوء هذه الحقيقة يفسر بعض المؤرخين الحملة التى أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه شمس الدولة توران شاه الى النوبة لفتحها حتى يأوى اليها بنو أيوب فى حالة اخراجها من مصر. فلما اتضح أن النوبة غير صالحة لاقامة دولة فيها وانها فقيرة «قليلة الجدوى» أرسل

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢،ص٥٦٩(الطبعة الرابعة ١٩٦٨).

الولاة ويبرطلوهم [يرشونهم] بالدنانير الكثير والهدايا حتي يفسحو لهم ان يتقربو في الليل سرا في الكنايس المهدومة الشاسعة ويبيتو فيها في ليالي الاعياد الكبار ليصلو ويتقربو في الليل، وكانت الكسوه والالات الكنايسية مخبيه [مخبأة] [مخبأة] في بيوتهم وكانت الكتب [المقدسة] قد احرقت، وبعدها بثلثة سنين اخر بدو يعمرو الكنايس في البيوت ويكرزونها سرا ويصلون فيها ويتقربون؛ وكان صاحب الترتيب [الشرطة]

صلاح الدين أخاه توران شاه الى اليمن على رأس حملة سنة ١١٧٤م(٥٧٠هـ) فتمكن من فتحها لتصبح تابعة لصلاح الدين[١].

وكان ان ابتسم الحظ لصلاح الدين عندما توفي سيده نور الدين فجأة سنة ١١٧٤م وهو يستعد للقيام بحملته على مصر. وكان صلاح الدين عندئذ مشغولا بمواجهة مؤامرة كبرى، اشترك في حبك أطرافها جميع العناصر الناقمة على الوضع الجديد في مصر، سواء بقايا الخلافة الفاطمية وأتباعها، أو الصليبيون وحلفاؤهم النورمان في جزيرة صقلية، أو الباطنية الاسماعيلية، وهم القوة الهدامة الكبرى بالشام. ورسمت خطة المؤامرة بدقة بالغة، بحيث يبعث الاسماعيلية بعض رجالهم لاغتيال صلاح الدين، وتقوم القوات الصليبية بغزو مصر برا من ناحية الشرق، ويخرج أسطول النورمان من صقيلة لمهاجمة الاسكندرية بحرا، في الوقت الذى يشعل المتآمرون نار الثورة في القاهرة والفسطاط.

ولكن شاء حسن حظ صلاح الدين أن يكشف المؤامرة قبيل الشروع في تنفيذها. فقبض على زعمائها وصلبهم، وعلى رأسهم الشاعر الشيعى عمارة اليمنى[٢]. وتوفى الملك عمورى الأول ملك بيت المقدس الصليبى، في حين لم ينجح الأسطول النورمانى الذى وصل الى

(١) ابن الاثير: الكامل، حوادث ٥٦٩هـ، ابو شامة: كتاب الروضتين، ج١ ق٢ ص٥٣٠، ٥٥١-٥٥٥.
(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٢٤٤ وما بعدها.

يكتب للسلطان الذى هو الحاكم [بأمر الله] بان النصارى قد بنو بيع بمصر والريف سرا ويتقربو فيها، وهو يتغافل عنهم. وبعد ذلك وقف له جماعة من النصارى الذين اسلمو فقال لهم: ماذا تريدون، قالو له تعيدنا الى ديننا. فقال لكل واحد منهم: اين زنارك وصليبك وغيارك. فاخرجوهم له من تحت ثيابهم فامرهم بلباسهم بين يديه. وانفذ مع كل واحد ركابى يكتب له سجل



حصار الصليبين لطرابلس

الاسكندرية فى غزو المدينة، اذ صمد أهلها وأحرقوا بعض السفن المعادية وأغرقوا البعض الآخر، فاضطر النورمان الى الانسحاب فاشلين. وكان ذلك فى الوقت الذى نجح صلاح الدين فى اخماد ثورة أخرى أشعلها أحد قادة الفاطميين - واسمه كنز الدولة الذى جمع حوله بعض العناصر من الشيعة أوهمهم. أنه يملك البلاد ويعيد الدولة العبيدية (الفاطمية) المصرية»(١).

وهكذا جاءت وفاة نور الدين محمود من ناحية، ونجاح صلاح الدين فى التغلب على الأخطار الداخلية والخارجية التى واجهت دولته الناشئة فى مصر من ناحية أخرى، لتفتح صفحة جديدة ارتبطت بتاريخ الدولة الأيوبية فى مصر والشام. التى امتدت من الفرات الى النيل، خاصة أن سيده نور الدين محمود لم يترك الا ابنا صغيرا كان عند وفاة أبيه فى الحادية عشرة من عمره، مما أثار أطماع أمراء نور الدين فى الشام وهدد بانفصال حلب عن دمشق، فى الوقت الذى فرح سيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل بوفاة عمه نور الدين محمود وأسرع الى الاحتلال بعض المواقع فى الجزيرة(٢).

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٧٩، المقريزى:كتاب السلوك، ج١، ص٥٧-٥٨.
(٢) ابن واصل: مفرج الكروب،ج٢، ص٩، ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٩هـ.

يكون بيده بان لا يعترض، فعادو كثير ممن اسلم الى دينهم.

وكان من جملة من اسلم راهب اسمه بمين [بنيامين] عاد الى دينه وسال الحاكم ان يمكنه من عمارة دير خارج مصر على اسم شهيد المسيح مارى مرقوريس(*)، وهو دير شهران، فبناه وسكنه مع اخوة له رهبان، وكان الحاكم [بأمر الله] يجى الى عندهم دفعات كثيرة ويقيم هناك وياكل من

(*) هناك كنيستان لمارى مرقوريوس حول القاهرة. الاولى وقد خربت عدة مرات ومازال باقيا من آثارها الكنيسة القائمة بين مصر عتيقة

وعندما رأى صلاح الدين فى مصر أن الصليبيين فى الشام هم وحدهم المستفيدون من تلك الفرقة التي دبت بين القوى الاسلامية فى الشرق الأدنى والذى كان هو احد اسباب تفرقها وقيام النزعات فيما بينهما، اعتبر نفسه الوريث الوحيد لسيده نور الدين، لا فى ممتلكاته فحسب، بل أيضا فى سياسته التى استهدفت توحيد قوى المسلمين من ناحية ثم ضرب الصليبين من ناحية أخرى.. وكان ان خرج صلاح الدين الى الشام فى أواخر سنة ١١٧٤، (٥٧٠هـ)حيث دخل فى صراع مرير ضد القوى الاسلامية، فضلا عن القوى الأخرى التى أيدتها مثل الصليبيين والاسماعيلية فى شمال الشام والجزيرة، حتى نجح أخيرا سنة ١١٨٦م (٥٨٢هـ) فى اعادة ضم الشام إلى نفوذه معتمداً فى المقام الأول على موارد مصر الضخمة فى تنفيذ سياسته.

على ان صلاح الدين أدرك أن دخوله فى حرب طويلة المدى ضد الصليبيين سيتطلب منه الاقامة بالشام مكتفيا بالاعتماد على ما تمده به مصر من طاقة بشرية ومادية. ولاشك فى ان اقامة صلاح الدين بالشام من شأنها ان تجعله يتخوف على مصر من أن تدهمها فى غيابه حملة صليبية كبرى. ولم يكن صلاح الدين مبالغا فى مخاوفه هذه، اذ تثبت الشواهد

طعامهم الحقير. وكان كلمن له حاجة عند الحاكم يمضى الى بمين [بنيامين] الراهب يخاطبه عليها وقت حضوره عنده فيقضيها له، فلما علم بمين انه قد صار له عنده قولا مقبول اذكره بحال انبا زخارياس البطرك وساله الاذن في بنا البيع فوعده بذلك، فانفذ احضر البطرك من دير ابو مقار واخفاه عنده في دير مرقوريس بشهران، فلما اتاه الحاكم [بأمر الله] كما جرت العادة اخرج له البطرك فسلم عليه بسلام الملوك وبارك عليه ودعا

والقاهرة وبداخلها كنيسة صغيرة على اسم القديسين يوحنا المعمدان ويعقوب. وفى عام ١٠٨٠م أقام القداس بهذه الكنيسة ٤٧ أسقفاً حضروا من جميع أنحاء مصر بناء على طلب أمير الجيوش لضبط القوانين التى يلزم السير بمقتضاها عند القبط. وفى عام ١١٣١م أنتخب فيها البطرك غبريال الثانى (ابن تريك) البطرك رقم سبعين. والذى كان شماسا لهذه الكنيسة.

التاريخية أن الصليبيين في بيت المقدس ظلوا يتطلعون الى مصر، وان ثمة اتصالات قوية دارت سنة ١١٧٧م (٥٧٣هـ) بين الصليبيين والبيزنطيين للقيام بمحاولة جديدة لغزو مصر[١].

لذلك شرع صلاح الدين قبل الخروج الى بلاد الشام لجهاد الصليبيين فى القيام بسلسلة من التحصينات القوية لحماية مصر وعاصمتها وثغورها ومراكزها الحيوية ضد أى هجوم صليبى مباغت، وليس من المستبعد أن يكون صلاح الدين الذى نشأ وشب وقضى معظم سنى عمره فى بلاد الشام، قد استرعى نظره الفارق الكبير بين الأوضاع الدفاعية للمدن والثغور فى بلاد الشام وبين ما كان عليه الوضع فى مصر. ففى الوقت الذى كان لكل مدينة كبرى فى بلاد الشام قلعتها الحصينة التى تحميها، وأسوارها المنيعة التى تحيطها، اذ بصلاح الدين يجد القاهرة عاصمة البلاد بلا قلعة تذود عنها فى حين كان سورها قد «تهتدم أكثره وصار طريقا لايرد داخلا ولاخارجا !!!»[٢].

واذ كان صلاح الدين قد قام بمحاولة لترميم سور القاهرة القديم سنة ١١٧١م (٥٦٧هـ) قبل سقوط الخلافة الفاطمية، الا أنها كانت محاولة محدودة، لأن صلاح الدين كان وزيرا للخليفة الفاطمى من ناحية وتابعا لسيده نور الدين محمود من ناحية أخرى، فلم

(1)Grousset,(R): Histoire des Criosades et du Royaume franc de Jerusalem. 11,P.P. 644 _ 645 (Paris,1948 - 3 - 1946).

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١ ص٩٢ (طبعة النيل).

له، فقال الحاكم لبمين الراهب: من هذا؟ قال: هو ابونا البطرك انفذت احضرته كما امرت. فاوما باصبعه اليه وسلم عليه، وكان معه جماعة من الاساقفة فقال: من هولا فقال له بمين الراهب: هولا خلفاه في البلاد وهم الاساقفة. فتامله الحاكم وتعجب منه لانه كان حقيرا فى العين مهابا فى النفس وكان قصير القامة كوسج(*) ذميم الخلقة، وراى الاساقفة الذين معه شيوخ ذوى مناظر حسنة وشخوص بهية وقامات تامة، فقال لهم: هذا

وفى عام ١١٦٨م، التهمتهما النيران أثناء حريق الفسطاط الذى حدث بسبب النزاع بين شاور وضرغام فى عهد الخليفة الفاطمى العاضد. أما الكنيسة الثانية فتعرف باسم كنيسة ابن سيفين الصغيرة بحارة زويله. والمقصود هنا هو فى الغالب الكنيسة الاولى.

(*) كوسج: الذى لحيته على ذقنه لاعلى العارضين

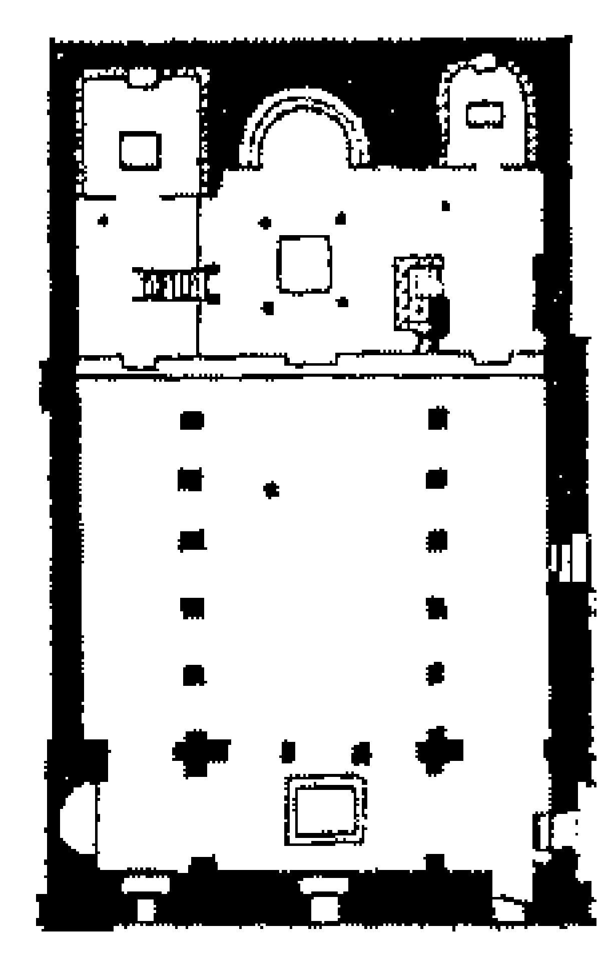
يكن منتظرا أن يحمى القاهرة للخلافة الفاطمية التى كان يرمى إلى القضاء عليها. لكن الوضع تغير بعد ذلك عندما غدا صلاح الدين سيد البلاد ولاسلطان لأحد عليه، فقرر بناء سور ضخم من الحجارة يحيط بالقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع للحماية من أى هجوم خارجي، كما قرر بناء قلعة ضخمة على جبل المقطم تكون مركزا للحكم ولحماية القاهرة. وعهد صلاح الدين ببناء السور والقلعة الى الأمير أبى سعيد قراقوش عبد الله الأسدى الملقب ببهاء الدين، فجلبت الأحجار اللازمة للبناء من أهرام الجيزة مما أدى إلى تدمير بعضها، كما ساعدت فى البناء اعداد من أسرى الصليبيين[١].

وقد اكتشف أجزاء من هذا السور الذى بناه صلاح الدين، وهو فى الواقع ثالث الأسوار التى بنيت حول القاهرة، اذ بنى السور الأول جوهر الصقلى وبنى الثانى بدر الدين الجمالى. ولكن السورين الأولين كانا من اللبن، فى حين بنى سور صلاح الدين من الحجارة.

أما قلعة الجبل فتقع على أحد المرتفعات المتصلة بجبل المقطم، وهى فى الأصل كانت معبداً مصرياً قديماً وهى تتألف من مساحتين من الأرض مستقلتين، الشمالية تقترب من شكل المستطيل ولها أبراج بارزة، ويفصلها عن الجنوبية جدار سميك ذو أبراج. وفى وسط الجدار

(١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام،ص٥١وما بعدها (القاهرة، ١٩٦٩)، نظير حسان سعداوى: التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين،ص٩٢،١٠٣ـ١٠٨.

مقدمكم كلكم؟ قالو له: نعم يا مولانا الرب يثبت ملكك فتعجب وقال لهم: الى اين ينتهى حكمه؟ فقالو له: ينفذ حكمه فى ديار مصر والحبشة والنوبة والخمس مدن الغربية افريقية وغيرها. فازداد تعجبه وقال: كيف يطيعونه هولا كلهم بلا عساكر ولا مال ينفقه فيهم؟ قالو له: بصليب واحد تطيعه هذه القبايل كلهم. قال لهم: وايش هو هذا الصليب؟ قالو له: مثال الذى صلب عليه المسيح فمهما اراد منهم كتب اليهم وجعله بين سطور



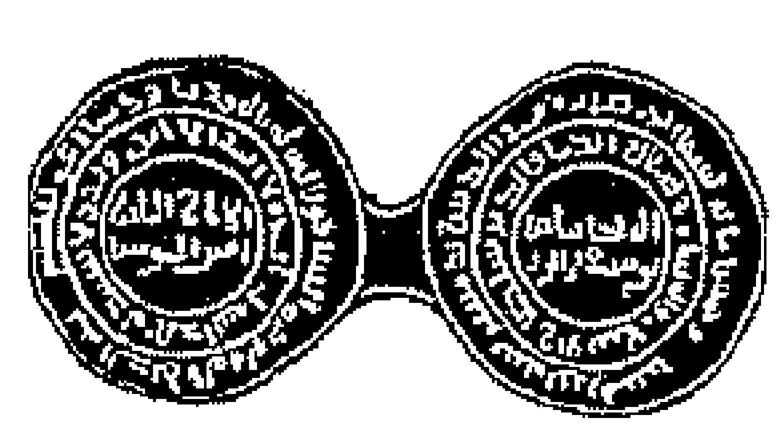
كنيسة القديس سرجيوس بمصر عتيقة.

باب القلعة الذى يعرف الآن باسم الباب الجوانى. والجزء الشمالى من القلعة كان الحصن نفسه، أما الجزء الجنوبى فكان يضم الملحقات والقصور السلطانية، وما يتبعها من اسطبلات وغيرها. ويغلب على الظن أن الجزء الشمالى تم تشييده على أيام صلاح الدين نفسه، فى حين أن الجزء الجنوبى الذى يشمل الملحقات استكمل على عهد السلطان الكامل الأيوبى. وقد سار العمل فى بناء القلعة بهمة كبيرة تشهد على قوة قراقوش وحزمة. وفى الجهة الجنوبية من القلعة كان يوجد البئر القديم للمعبد المصرى الذى أطلق عليه اسم بئر يوسف نسبة الى صلاح الدين يوسف. وعرف هذا البئر باسم الحلزون، ويتألف من طابقين عمق الأول نحو خمسين متراً والآخر نحو أربعين، ولكل طابق منهما ساقية لرفع المياه بواسطة الدواب.وقيل ان ماء البئر كان عذبا فى أول الأمر حتى أراد قراقوش توسيعها فاتصلت بعين مالحة أفسدت ماء البئر الأمر الذى جعل القلعة بعد ذلك تعتمد على النيل فى امدادها بالماء(١).

وثمة قلاع أخرى بناها صلاح الدين فى مختلف أنحاء البلاد أهمها قلعة سيناء قرب عين سدر، وقلعة فرعون فى جزيرة فرعون فى خليج العقبة، والغرض منهما منع الخطر الصليبى من الوصول الى البحر الأحمر. ويروى المؤرخ أبو شامة ان صلاح الدين خرج الى دمياط سنة ١١٧٧م (٥٧٢هـ) وبصحبته ولداه الأفضل على والعزيز عثمان فتفقد تحصينات الميناء، ثم

(١) القلشندى: صبح الأعشى، ج٣،ص٣٧٦ـ ٣٧٧ .

الكتاب موضع علامة الملك ويقول لهم افعلو كذا وكذا والا عليكم الصليب فيطيعو قوله ويفعلو ما يامرهم به بلا عساكر ولا حرب. فقال: بالحقيقة ليس في العالم دين ثابت مثل دين النصارى هو ذا نحن نسفك الدما وننفق الاموال ونخرج الجيوش وما نطاع وهذا الرجل الشيخ الحقير المنظر الذميم الخلقة تطيعه اهل هذه البلاد كلها بكلمة لا غير. ثم قال له وللاساقفة: اقيمو هاهنا حتى اقضى لكم حوايجكم. وخرج من عندهم وهم مسرورين



نقود صلاح الدين ضربت عام ٥٨٣ هـ في دمشق

رحل الى الاسكندرية حيث تفقد سورها الدائر حولها وفحص الزيادات التى أمر بانشائها غداة استيلائه على حكم البلاد. كذلك تفقد صلاح الدين الأسطول بالاسكندرية وأمر بعمارته وتجديد سفنه «وما انصرف حتى أمر باتمام الشغر وتعمير الأسطول». وقد حدث سنة ١١٨١م(٥٧٧هـ) ان أغار الصليبيون على تنيس ـ على بحيرة المنزلة ـ فخشى صلاح الدين أن يكون المقصود بتلك الغارة سبر غور المسلمين تمهيد لغزو مصر من ناحية البحر، لذلك أمر بمضاعفة العناية بتحصين دمياط وتنيس «ورتبت المقاتلة على البرجين بدمياط، وجهزت خمسمائة دينار لعمارة سورها والنظر فى السلسلة التى بين البرجين. وعمل تقرير باسم مايحتاج اليه سور تنيس واعادته كما كان فى القديم».

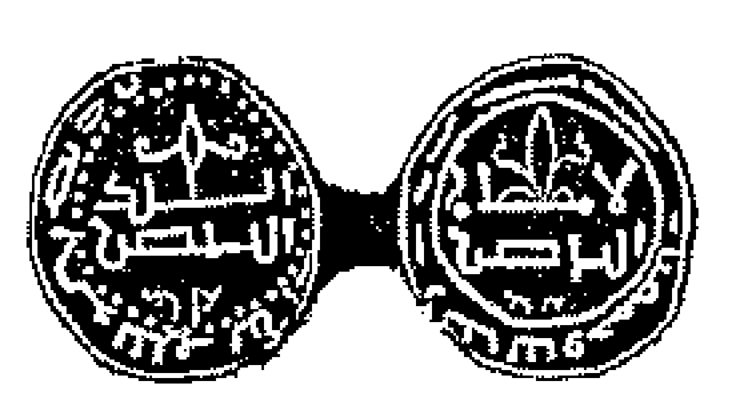
كذلك أمر صلاح الدين فى العام نفسه ببناء برج بالسويس «ورتبت فيه الفرسان»[(١)].

٢ ـ صلاح الدين والصراع ضد الصليبيين:

وبعد أن اطمأن صلاح الدين الى قوة تحصين مصر غادرها الى الشام فى مايو سنة ١١٨٢م (٥٧٨هـ) ليقوم بحركة جهاد شاملة ضد الصليبيين. وكانت هذه آخر مرة يرى فيها صلاح الدين وجه القاهرة، اذ قدر له أن يظل بعد ذلك ببلاد الشام «ولم يعد بعدها الى مصر حتى أدركه الحمام»[(٢)].

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ص ٢٦٨ - ٢٦٩، المقريزى كتاب السلوك، ج١، ص ٧٢-٧٤.
(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٢٨، المقريزى: كتاب السلوك، ج١ ص٧٧.

بما سمعوه منه، ثم ان يونس الراهب، الذى كان رفع على البطرك، عرف مكانهم فجا اليهم مسرعا كالطير، ولما يعلمو به حتى دخل وصار بينهم وقال للبطرك: هوذا قد اعاد الرب لك طقسك واريد ان تجعلنى اسقفا. فقال له البطرك: اذا اراد الرب فانا اجعلك. وكان ابن اخيه الذى هو خايل اسقف سخا حاضر هناك وهو خصم يونس الراهب فخاطبه ايضا بما اغاضه [اغاظه] حتى طلع فوق سور الدير وصاح: انا بالله وبالحاكم انا مظلوم انا



نقود صلاح الدين ضربت عام ٥٨٤ هـ.

ومع أن صلاح الدين اتخذ دمشق مركزاً لعملياته الحربية فى ذلك الدور، الا أنه اعتمد اعتمادا واضحا على موارد مصر واموالها وقوتها البحرية بالذات فى تنفيذ سياسته. ومن ذلك أنه حدث فى العالم السابق أن أرناط الصليبى صاحب الكرك اتجه من أيلة فى عدة سفن فى البحر الأحمر مستهدفا الاغارة على الحرمين الشريفين فى الحجاز وهدم مقام النبى محمد فى المدينة المنورة. وعندئذ أرسل صلاح الدين مسرعا الى أخيه العادل الذى ينوب عنه فى مصر يأمره بمطاردة الصليبيين فى البحر الأحمر والحيلولة بينهم وبين تنفيذ أهدافهم. وكان أن خرج الأسطول المصرى فى البحر الأحمر مطاردا السفن الصليبية، حتى لحق بها عند الحوراء على ساحل الحجاز فى مقابلة المدينة، فظفر المصريون بالصليبيين وأحرقوا سفنهم، ومن نجا منهم من القتل حملوه أسيرا الى مصر حيث تم استعراضهم فى شوارع مصر والقاهرة. هذا وان كان أرناط نفسه قد تمكن من الفرار فى قلة من رجاله(١).

وازاء تلك الاستفزازات من جانب أرناط الذى استغل موقع امارته ليقطع طريق الاتصال البرى بين مصر والشام، ويغير على القوافل الآمنة رغم ما كان بين المسلمين والصليبيين من هدنة، قرر صلاح الدين أن ينصرف بكليته إلى الفرنج. وقد بدأ صلاح الدين بعدة مناوشات

(١) ابن واصل: مفرج، ج٢،ص١٢٧وما بعدها، رحلة ابن جبير، ص ٢٩-٣٠(القاهرة، ١٩٥٥)، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢،ص٣٥وما بعدها.

مظلوم خذ لى حقى. فخافت الاساقفة وجرى بينهم وبين خاييل الاسقف خصومة عظيمة وقالو له: أنت سبب هذا البلا كله وكلما نالنا من هدم البيع ولباس الغيار والهوان وغيره انت اصله وتريد ايضا تجدد شيا اخر حتى يكون الاخر اشر من الاول. ولم يزالو حتى سكن غضب يونس الراهب والزمو البطرك ان جعله اغومنس والبسه القلنسوة السودا ووعده بجميل. ثم ان الملك الحاكم [بأمر الله] جا اليهم ومعه سجل عظيم بفتح الكنايس

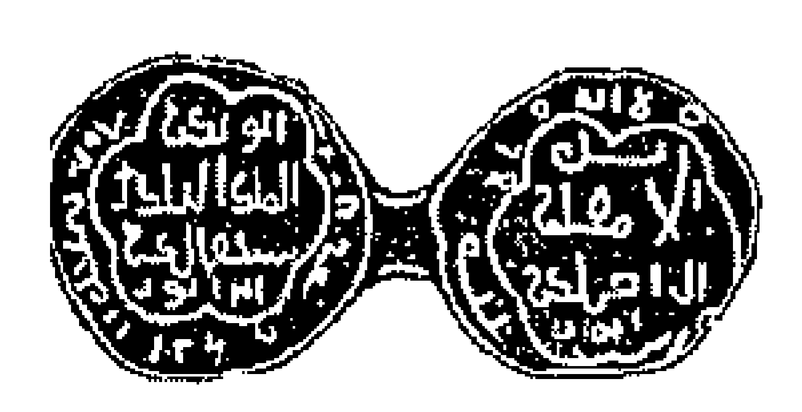

نقود صلاح الدين

ادرك بعدها الصليبيون نوايا صلاح الدين فعبئوا قواتهم ضده، ولكنه نجح فى أن ينزل بهم هزيمة كبرى فى موقعة حطين سنة ١١٨٦م (٥٨٢هـ)، وهى الموقعة التى انتهت بالقضاء على الجيش الصليبى بأكمله بين قتلى وأسرى. وكان من جملة الأسرى جاى لوزجنان ملك مملكة بيت المقدس الصليبية فضلا عن أرناط صاحب حصن الكرك، الذى عوقب على جرائمه ضد المسلمين بالقتل[١]، وسرعان ما تتابعت انتصارات صلاح الدين، فاتجه أولا للاستيلاء على الموانى الساحلية ليحرم الصليبيين من أيه معونة تأتيهم من غرب أوروبا عن طريق البحر. وكان ان استولى على عكا والناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية، فى حين زحف أخوه العادل على رأس الجيش المصرى واستولى على يافا. وفى الوقت الذى استولى الجيش المصرى على حصن تبنين وصرفند وصيدا، واصل صلاح الدين تحركاته على الساحل فاستولى على بيروت وجبيل وعسقلان. وبعد ذلك أدرك صلاح الدين أن دور بيت المقدس قد حل بعد أن حرمها من واجهتها البحرية، فنجح فى الاستيلاء عليها فى اكتوبر سنة ١١٨٧م (٥٨٣هـ).

ثم كان ان اتجه صلاح الدين بعد ذلك الى تقليم أظافر الصليبيين فى شمال الشام. واذا

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية،ص ١٢٥ (القاهرة، ١٩٦٢)، عماد الدين الأصفهانى:، ص ٢٣ (القاهرة، ١٣٢٢هـ).

كلها التى فى مملكته وعمارتها، وان تعاد اليهم الاخشاب والعمد والطوب الماخوذ منها والاراضى والبساتين التى كانت لها فى كل كورة مصر. وكان هدم الكنايس فى سنة سبع مماية سبعة وعشرين للشهدا وفتحت واطلق عمارتها فى سنة سبع مماية وستة وثلثين للشهدا، وفى هذا السجل اعفاهم من لباس الغيار وحمل الصليب وان يضربو النواقيس فى كل الكنايس بكل موضع كما جرت عادتهم، فياله من فرح كان فى ذلك اليوم


نقود الملك العادل وعليها اسم الخليفة العباسى الناصر

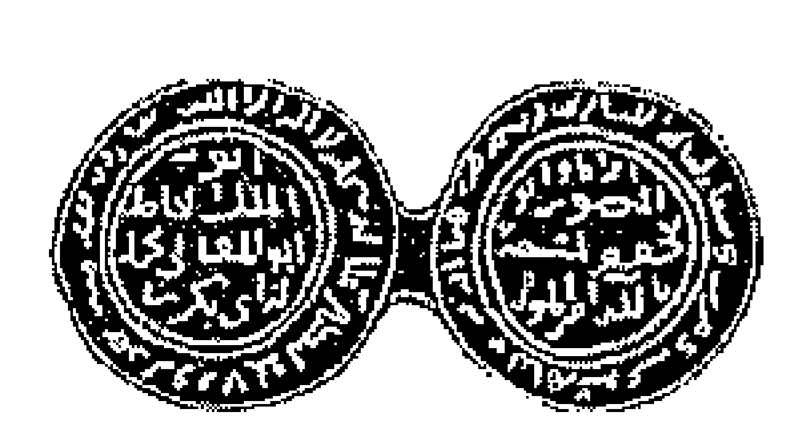
كانت مدينة صور قد استعصت عليه بعد أن تجمعت فيها البقايا الصليبية التى تركها صلاح الدين تخرج آمنة من المدن التى استولى عليها، فانه نجح فى الاستيلاء على كثير من المدن والقلاع والحصون التابعة لامارتى طرابلس وانطاكية الصليبيتين مثل هونين وصفد وكوكب وبانياس وجبلة واللاذقية والقصير وبغراس ودربساك حتى غدت امارتا طرابلس وانطاكية «مقصوصتى الجناح» على قول أحد المؤرخين المعاصرين[(١)].

على أن الانتصارات التى حققها صلاح الدين على الصليبيين استثارت الغرب الأوروبى، فخرجت الحملة الصليبية الثالثة الى الشام. ورغم ما أصاب جيوش المسلمين عندئذ من انهاك، فقد صمد صلاح الدين امام جيوش الصليبيين، ودارت بين الطرفين أحداث ووقائع مثيرة، وانتهت بفشل ريتشارد قلب الأسد فى استرداد مدينة بيت المقدس، فعقد صلح الرملة مع صلاح الدين سنة ١١٩٢م.(٥٨٨هـ)، وبمقتضاه صارت للصليبيين فى فلسطين المنطقة الساحلية من صور الى يافا، وما عدا ذلك بما فيه بيت المقدس ظل بأيدى صلاح الدين. وقد احتفظت دولة الصليبيين باسم مملكة بيت المقدس وان غدا مركزها فى عكا. إما صلاح الدين فلم يلبث أن توفى بعد مرض قصير فى دمشق فى مارس سنة ١١٩٣م(٥٨٩هـ)[(٢)].

(١) ابو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص١٣٢ـ ١٣٣ .
(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٤١٠٠٠٠ .

لجميع النصارى الذى فى كورة مصر.

وفى السنة التى كان فيها الخلاص واطلاق العماير فى الكنايس ظهر امرا عجيب وذلك ان الحاكم [بأمر الله] كان يطوف بالجبال [الشرقية = المقطم] التى بظاهر مصر فى الليل والنهار ومعه تلتة ركابية أو ركاب واحد، فلما كان فى ليلة من الليالى بلغ الى حلوان ومعه ركابى واحد فنزل عن دابته وقال للركابى عرقب هذا الحمار ففعل ما امر



نقود الملك الكامل وعليها اسم الخليفة العباسى المستنصر

---

٣. مصر فى عصر خلفاء صلاح الدين:

ترك صلاح الدين عند وفاته فراغا ضخما، لم يستطع أحد من أبنائه أو أهل بيته أن يملأه في سهولة. وكان أن انقسمت الدولة الأيوبية الكبيرة في مصر والشام وأطراف الجزيرة الى ممالك ووحدات سياسية بين أبناء البيت الأيوبى[١]. وعلى رأس هذه الوحدات السياسية التى انقسمت اليها الدولة الأيوبية ظلت مصر تتمتع بمكان الصدارة بحكم ما توافر لها من امكانات بشرية ومادية وحربية فضلا عن اتساع رقعتها. ويفسر هذه المكانة الخاصة التى انفردت بها مصر أن صاحبها اختص بلقب سلطان في معظم الحالات، دون بقية الوحدات الأيوبية التى لم يحظ أصحابها الا بلقب«ملك». ومعنى ذلك أن صاحب مصر من بنى أيوب كانت له غالبا الزعامة العليا على بقية ملوك البيت الأيوبى. ومهما تكن هذه الزعامة اسمية فى بعض الحالات، فانها تشهد على الدور البارز الذى كان على مصر أن تنهض به فى تلك الفترة المضطربة، بسبب ما قام من منازعات وخلافات وحروب بين أبناء البيت الأيوبى بعضهم وبعض من ناحية، وما قام بينهم وبين الصليبيين الذين ما فتئوا يعملون من حصونهم وقواعدهم ضد المسلمين في بلاد الشام من ناحية أخرى.

وقد تعاقب فى حكم مصر بعد وفاة صلاح الدين ستة حكام من البيت الأيوبى هم:

(١) ابن الاثر: الكامل، حوادث ٥٨٩هـ، عماد الدين الاصفهانى: الفتح القسى، ص ٣٥٨ وما بعدها.

به، فقال له امضى الى القصر ودعنى انا هاهنا فمضى كما امره، فلما اصبح اهل القصر ولم يجدوه فطلب فى كل موضع فلم يوجد ولا عرف له خبر، وكان له ولد صغير واخت [ست الملك] فضبطت الملك سنتين الى ان كبر ولده الطفل فاجلسوه ملكا واسموه الظاهر لا عزاز دين الله(*) واسمه الذى يعرف به على وكنيته ابو الحسن فلم يتعرض الى شيا من اعمال ابيه، وكان فى ايامه هدو وسلامة عظيمة واقام ستة عشر سنة ملكا،

(*) جلس الظاهر على كرسى الخلافة فى يوم عيد الأضحى فى العاشر من ذى الحجة سنة ٤١١هـ = مارس ١٠٢١م، أى بعد مصرع والده بستة أسابيع،

١ـ العزيز عثمان بن صلاح الدين (١١٩٣ـ ١١٨٩م=٥٨٩-٥٩٥هـ)

٢ـ الأفضل نور الدين بن صلاح الدين (١١٩٩ـ١٢٠٠م=٥٩٥-٥٩٦هـ)

٣ـ العادل سيف الدين أبو بكر أخو صلاح الدين (١٢٠٠ـ١٢٤٨=٥٩٦-٦١٥هـ)

٤ـ الكامل بن العادل (١٢١٨-١٢٣٨م=٦١٥-٦٣٥هـ)

٥ـ العادل الثانى (الصغير) ابن الكامل (١٢٣٨-١٢٤٠م=٦٣٥-٦٣٧هـ)

٦ـ الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل (١٢٤٠-١٢٤٩=٦٣٧-٦٤٧هـ)

٧ـ المعظم توران شاه ابن الصالح أيوب (١٢٤٩-١٢٥٠م=٦٤٧-٦٤٨م)



الصليبيون يهاجمون القسطنطينية

وكان دين النصارى مستقيم واهله مكرمين، وبنيت البيع في ايامه حتى اعيدت لما كانت عليه وافضل، ولم يزل البنا فيها والعمارة متصلة الى السنة التى كتبت فيها هذه السيرة وهى سنة سبع ماية سبعة وستين للشهدا، ولم تزل الناس منذ غيبة الحاكم والى انقضى مدة ولده يقولون انه بالحياة وكثير كانو يتزايو بزيه ويقول كل واحد منهم انا الحاكم، ويظهرو للناس فى الجبال حتى ياخذو منهم

وكان عمره وقتذاك سبعة عشر عاماً، وكان لعمته ست الملك نفوذ كبير عليه فجعلته يتبع سياسة متسامحة مع كل المصريين وأصلح من الشئون المالية للبلاد. وهكذا ظلت ست الملك تحكم من خلف ستار الظاهر مدة ثلاث سنوات حتى ماتت سنة ٤١٤هـ= ١٠٢٣م.

وطوال العصر الأيوبى الذى استمر بعد صلاح الدين أكثر من نصف قرن، استمرت مصر تنهض بدورها القيادى فى منطقة الشرق الأدنى، فرغم المنازعات التى دبت بين بنى أيوب بعضهم وبعض فقد بقيت مصر تمثل قلعة الصمود ضد الخطر الصليبى من ناحية، والقبلة التى يتجه اليها أهل الشام وحكامها للخلاص من الأخطار الداخلية والخارجية التى حاقت بهم فى ذلك الدور من ناحية أخرى.

وهكذا لم تتخل مصر عن دورها الرائد فى المنطقة، مع استمرار تفاعل عديد من التيارات الداخلية بين أرجائها. وقبل أن نتطرق الى دور مصر فى التصدى للحركة الصليبية بعد صلاح الدين، يصح أن نلقى نظرة عامة سريعة على أوضاعها فى العصر الأيوبى .

٤- نظم الحكم والادارة والمالية فى العصر الأيوبى:

لما كان صلاح الدين كثير التغيب عن مصر بسبب انشغاله بأمر الجهاد في الشام فانه صار عليه أن يترك شخصا يعتمد عليه في حكم مصر ورعاية شئونها أثناء غيابه. لذلك استحدث صلاح الدين فى مصر وظيفة النائب، وهو الذى ينوب عن الحاكم وقد أناب صلاح الدين عنه فى حكم مصر طوال تواجده في بلاد الشام ـ أخاه العادل سيف الدين مما يعتبر البداية الحقيقية لنشأة وظيفة نائب السلطنة فى العصر الأيوبى[١]. ومن الواضح أن انشاء وظيفة نائب

(١) يلاحظ أن العادل سيف الدين لم يلقب أثناء نيابته عن أخيه صلاح الدين فى حكم مصر بلقب=

الدنانير، وكان انسان من شبرا كلسا(*) يسما شروط نصراني ثم اسلم وتعلم السحر وصار حاذقا به وكان قوم يشهدو انه كان يمشي معهم ولوقته يغيب عنهم، وكان يشبه الحاكم حتى كلامه لكنه اطول منه قليل وسمى نفسه ابو العرب وتبعه قوم يمشو معه ويتتلمذو له وكان ينفذهم الى الاغنيا بكتبه ياخذو له منهم المال ويقول لهم انا اعيد لكم العوض عند رجوعي الى مملكتي، ومن لقيه وقال له انت سيدنا الملك ضربه وقال له ما تحفظ

(*) شبرا كلسا: من المدن المندرسة كانت تابعة لكفر الشيخ وبالبحث عنها وجد أن زمامها أضيف في تاريخ سنة ١٢٢٨هـ على أراضي ناحية سيدى غازى. وكانت قبلها تسمى دير شبرا كلسا. ويوجد محلها الآن عزبة سيدى محمد أبو شعيشع، وبذلك اختفى اسم شبرا كلسا.

السلطان في العصر الأيوبي أضعف من أهمية الوزير. فالوزارة التي كان لها شأن كبير في العصر الفاطمي، انحطت مكانتها في العصرين الأيوبي ثم المماليكي، بعد أن استحوذ نائب السلطنة على ماكان للوزير من سلطات. وهكذا غدا الوزير في العصر الأيوبي «وزير تنفيذ» لا غير، أى يقتصر عمله على مجرد تنفيذ ما يأمر به السلطان، حتى أن بعض خلفاء صلاح الدين استغنوا أحيانا عن وظيفة الوزير.

وبالاضافة الى وظيفة الوزارة وجدت وظائف أخرى سامية في الدولة الأيوبية، بعضها يختص بالبلاط والبعض الآخر يختص بالدواوين. فمن وظائف البلاط وظيفة الحاجب الذى يقوم بادخال الناس على السلطان. ووظيفة الاستادار الذى ينظر في ادارة البيوت السلطانية، ووظيفة الدوادار الذى يقوم بابلاغ الرسائل ورفع القصص والشكاوى الى السلطان، والحصول على توقيعة على المراسيم والمناشير السلطانية. بالوزارات ووظيفة ناظر الخاص، المكلف برعاية شئون السلطان المالية.

وقد وجد بمصر في ذلك العصر عدد كبير من الدواوين ـ أشبه بالوزارات اليوم، قامت بتصريف مختلف شئون الدولة، مثل ديوان الانشاء وديوان بيت المال، وديوان الجيش. ولكل

=«نائب السلطان» لأن صلاح الدين نفسه لم يتخذ في حياته لقب سلطان، وانما أضفى عليه المؤرخون والمعاصرون هذا اللقب تكريما له.

راسك، واقام بمصر هكذا عشرين سنة وهو متستر حتى ظن أكثر الناس بمصر انه الحاكم وانه يخفى نفسه لامر مكتوم لا يعرفه الا هو، ولم يزال كذلك الى ايام معد المستنصر بالله فخرج الى البحيرة ونزل عند رجل بدوى من بنى قرة يعرف بمفرج ابن تمام فضرب له البدوى خيمة واقام عنده سنتين وهو يتظاهر بافعال الانبيا كذبا وعليه ثياب زرية كالزهاد، وكان يدفع للبدوى ثيابا طايلة وسلاحا حسنا، فاذا قال له البدوى لماذا لا تلبس

من هذه الدواوين ناظر ـ أى رئيس ـ وميزانية خاصة، وعدد من الموظفين يتبعون الناظر وينفذون أوامره. وكان ابن مماتى المصرى المتوفى سنة ١٢٠٩هـ(٦٠٦هـ) ناظر لديوان بيت المال فى أوائل العصر الأيوبى وألف كتابا مستفيضا بعنوان «قوانين الدواوين» تكلم فيه باسهاب عن الدواوين والوظائف الادارية فى مصر فى العصر الأيوبى[١].

يضاف الى ذلك عدد من الوظائف فى الدولة بعضها ذو صبغة ادارية مثل والى القاهرة والبعض الآخر ذو صبغة دينية مثل قاضى القضاة والمحتسب.

وجدير بالذكر ان صلاح الدين كان شافعى المذهب، ولذا حرص على أن يكون قاضى القضاة شافعيا. وظل الشافعية يتمتعون بذلك التكريم حتى أوائل دولة المماليك عندما عين السلطان بيبرس قاضيا للقضاة من كل مذهب عددهم أربعة يمثلون المذاهب السنية[٢].

أما فيما يتعلق بالنظم المالية، فان العصر الأيوبى شهد تحولا من النظام النقدى الى النظام الاقطاعى. ومن الثابت فى تطور النظم الاقطاعية فى الشرق والغرب فى العصور الوسطى أن الاقطاع اتخذ طابعا حربيا فى بعض الدول التى خيم عليها الطابع الحربى. ذلك أن الحكام

(١) ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين(تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣).
(٢) المقريزى: كتاب المواعظ والاعتبار،، ج٢،ص ٣٤٤ (بولاق)

من هذا الثياب الفاخرة فيقول له حتى يجوز عنى
القطع الذى اخافه، وبهذا الكلام كان يدخل
عليهم ويلهو بهم، يعنى بمفرج ابن تمام القرى
وبجماعته وغيرهم من النسا، وكانو يدخلو اليه
ويصقعو له ويسلمو عليه كما يسلم الناس على
الملوك الخلفا فنهاهم عن ذلك وتوهم انه يريد
كتمان امره الى الوقت الذى يريد اظهاره فانتشر
خبره في ديار مصر كلها حتى ضجت المملكة
واضطربت، فخاف شروط على نفسه وهرب من

والملوك كانوا يجدون أنفسهم فى حاجة الى محاربين وفرساناً مزودين بالسلاح والخيول، مما يتطلب أموالا ونفقات لاتتحملها مواردهم، فيعمدون إلى توزيع أراض فى صورة اقطاعات على الامراء والاجناد مقابل ما يؤدونه من خدمات عسكرية للحكام. ولم يكن هذا الاقطاع وراثيا، وانما صار للمقطع أن يتمتع بالأرض المقطعة له طالما يؤدى الخدمة العسكرية المتفق عليها فى شروط الإقطاع. وما كاد صلاح الدين يوطد أقدامه فى مصر حتى قام «باقطاع البلاد والتوقيع بها على الأجناد»[1]. وقد حرص خلفاء صلاح الدين من حكام بنى أيوب على ترسيخ قواعد النظام الإقطاعى فى مصر، فوزعوا الأرض اقطاعات على أمرائهم وأجنادهم ومماليكهم واختصوا أولادهم بالاقطاعات الكبرى.

ولا شك فى أن انتقال النظام المالى فى الدولة الأيوبية من الاقتصاد النقدى الى الاقطاعى أدى الى ضعف ثم زوال ديوان المال، ليحل محله ديوان جديد اختص بالنظر فى جميع شئون المالية من ايرادات ومصروفات، سمي ديوان النظر. وقد واجهت مصر فى بداية الدولة الأيوبية ضائقة مالية بسبب هروب الذهب منها نتيجة لعدم استقرا الأوضاع في أواخر العصر الفاطمى.

ولكن صلاح الدين واجه الموقف فى حزم وسك عملة ذهبية جديدة كاملة العيار حازت

(١) ابو شامة: كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، ج٢، ص ١٦ (القاهرة ١٢٨٧هـ).

عند البدوى [مُفرج] واختفى فى موضع لم يعرفه احد واقام مختفى الى ايام الاب انبا شنوده البطرك فكتب اليه وتلاها به حتى انفذ اليه مالا.

فاما الاب انبا زخارياس البطرك فانه اقام بعد اجتماعه بالحاكم فى هدو وسلامة بقية ايامه وكانت مدة بطركيته ثمنية وعشرين سنة منها قبل زمان الاضطهاد سبع سنين وبعد بنا البيع اثنى عشر سنة وتنيح فى سنة سبع ماية وثمنية واربعين

ثقة المتعاملين. على أنه يبدو أن أعباء الحرب الطويلة التى شنها صلاح الدين ضد الصليبيين الجأته سنة ١١٨٨م (٥٨٣هـ) الى ضرب درهم نصفه من الفضة ونصفة من النحاس فضاق الناس بهذه الدراهم الرديئة، مما جعل السلطان الكامل الأيوبى يصدر فلوسا نحاسية. وبالجملة فان أحوال النقد ظلت مضطربة أيام الأيوبيين، بسبب العبء الكبير الذى تحملته مصر فى الدفاع عن الاملاك الايوبية فى منطقة الشرق الأدنى ضد الصلبيين، مما أثر تأثيرا واضحا فى النشاط الاقتصادى داخل البلاد[١].

٥. النشاط الاقتصادى فى العصر الأيوبى:

اعتمدت مصر فى حياتها الاقتصادية ـ طوال تاريخها ـ على الزراعة بوجه خاص. فبالزراعة اشتغل غالبية أهلها، وعلى الانتاج الزراعى عاش معظم سكانها. والمعروف ان مصر لم تستخدم الرى الدائم لأول مرة الا فى القرن التاسع عشر للميلاد، ولذلك اعتمدت الزراعة فى العصور الوسطى ـ ومن جملتها العصر الأيوبى ـ على رى الحياض، بمعنى تقسيم الأراضى الزراعية الى حياض كبيرة تغمر بمياه الفيضان مدة كافية حتى اذا ما انحسرت عنها مياه

(١) حسنين محمد ربيع: النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ،ص ٩٤وما بعدها(القاهرة، ١٩٦٤).

للشهدا ودفن في كنيسة السيدة ببني وايل المعروفه بكنيسة الدرج [بابليون الدرج].

ثم هاج على كنيسة السريان الموافقين لنا في الامانة المستقيمة في المشرق بلا عظيم حتى ان بطركهم نفي من كرسيه ومات في النفي. وذلك انه كان على كرسي انطاكية السريان اليعاقبة اخوتنا ابا قديس يسمى يوحنا ابن عبدون حتى انه ضاها الابا القديسون الاولين وعمل ما سنذكره،

الفيضان تبذر فيها البذور. ولا شك في أن اتباع هذه الطريقة أدى الى جعل البلاد والعباد تحت رحمة الفيضان. فاذا جاء مستوى الفيضان طبيعيا تمكن الناس من زراعة الأراضي في أطمئنان، وظهر المحصول طبيعيا في مقداره وأثمانه، أما اذا جاء الفيضان منخفضا فمعنى ذلك ضعف المحصول وارتفاع أسعار الغلال، مما يترتب عليه حدوث المجاعات وانتشار الأوبئة في البلاد.

وفي ضوء هذه الحقيقة يمكن تفسير ما حدث بمصر في تلك العصور من أزمات اقتصادية. ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة ١٢٠١م (٥٩٧هـ) في عهد السلطان العادل الأيوبي اذ يروى المؤرخ ابن تغرى بردى انه «كان هبوط النيل.. واشتد الغلاء والوباء بمصر، فهرب الناس الى المغرب والحجاز واليمن والشام، وتفرقوا وتمزقوا كل ممزق...» ثم يروى المؤرخ كيف كان الناس خلال تلك الأزمة يأكلون لحوم أبنائهم بدافع الجوع، فيذبح الرجل ولده، وتساعده أمه في طبخه وشيه!!. ومهما يكن في هذه الأوصاف من مبالغات فانها تدل على سوء أحوال البلاد وأهلها، وما كانت تتعرض له من ظروف اقتصادية عصيبة عند انخفاض الفيضان[1].

ولاينتظر في مثل هذه الأوضاع أن يحيا الفلاح حياة آمنة مستقرة، طالما كان تحت رحمة الطبيعة من ناحية وتحت رحمة الحكام والاقطاعيين من ناحية أخرى.

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٦ ،ص١٧٣ .

وذلك ان ابانا [آباءنا] البطاركة السريان لم يكونو
يتمكنو من السكن في مدينة انطاكية منذ زمان
الاب ساويرس خوفا من الروم ولا يدنو بالجملة من
اعمالها، وكان هذا القديس ساكن في دير قريب
ملطيه، وكان بداية امره انه كان سايح في الجبل
الاسود وكان حسن السمعة عند كل احد كما هو
مكتوب في الانجيل المقدس ليس تخفى مدينة وهى
مبنية على جبل»، وكان بجواره راهب يتعبد ايضا
هناك اسمه يوحنا فلما تنيح اثناسيوس بطرك

واذا كانت الطبيعة تشدد قبضتها على الفلاح حينا وترحمه أحيانا، فان الحكام كانوا لا يرحمونه في الغالب، فاثقلوا عليه الالتزامات والرسوم، ولم يتهاونوا في جمع المفروض عليه من ضرائب وأموال.

وبالاضافة الى الزراعة أسهمت الصناعة والتجارة في تدعيم النشاط الاقتصادى في مصر في العصر الأيوبي. فمن الصناعات التي ازدهرت في ذلك العصر صناعة المنسوجات الكتانية والحريرية والقطنية والصوفية، وكانت أهم مراكز هذه الصناعة الفسطاط وتنيس (قبل أن يدمرها الملك الكامل الأيوبي سنة ١٢٢٧م = ٦٢٤هـ) ودمياط والبهنسا وأخميم. هذا فضلا عن صناعة الزجاج والتحف المعدنية وصناعة استخراج الزيوت من السمسم والكتان وغيرهما، وصناعة الصابون ـ وخاصة في قفط ـ من الزيوت. أما السكر فكانت مصر تنتج منه كميات وفيرة يستهلك بعضها داخل البلاد ويصدر البعض الآخر[١].

أما من ناحية التجارة فان الحروب الصليبية أسهمت بشكل واضح في تنشيط التبادل التجارى بين الشرق والغرب، وخاصة أن القوى البحرية الايطالية وعلى رأسها البندقية وجنوا وبيزا ـ رأت في الانفتاح الذى أتاحته الحروب الصليبية على الشرق فرصة لتدعيم نشاطها

(١) المصدر السابق، ١ ج١، ص ١٠٢.

انطاكيه في زمان انبا فيلا ثاوس بطريرك سكندرية
وكانت افعاله مثل افعال سميه اثناسيوس الكبير
بالحقيقة. وقال عند نياحته ان هذا القديس يوحنا
ابن عبدون يجلس بعده على كرسي انطاكيه. فلما
تنيح طافو عليه، ومن قبل وصولهم بيوم عرف
صديقه الراهب الذى كان بجواره ما اظهره له
الروح القدس وقال له: في غد يجونا قوم ياخذو
واحد منا يجعلوه بطرك الكرسي فترا ان نقوم
نمضي من هاهنا ليلا [لئلا] يجدونا. قال له

التجارى مع بلدان الشرق الادنى. وهنا نلاحظ أن العداء لم يظل مستحكما بين المسلمين والصليبيين طوال عصر الحروب الصليبية وانما كانت جذوة الحروب تشتعل حينا وتخمد نارها أحيانا.

وفى الفترات التى كان يتوقف فيها القتال حدثت اتصالات حضارية ومعاملات اقتصادية على جانب خطير من الأهمية بين المسلمين والصليبيين. وقد عبر صلاح الدين عن هذه الحقيقة فى احدى رسائله التى جاء فيها «.. ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبيازنه (من مدينة بيزا الايطالية) والجنوية، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لاتطاق ضراوة ضرهم ولا تطاق شرارة شرهم، وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الاسلام فى الأموال المجلوبة عنهم يد الحكام المرهوبة..».

ولم تفلح المراسيم التى أصدرتها البابوية لمنع التجار الأوربيين من التعامل التجارى مع المسلمين فى الشرق الأدنى، اذ أدى حرص الجمهوريات التجارية الايطالية على مواصلة نشاطها التجارى الى سعيها لتجديد المعاهدات الاقتصادية مع السلطان العادل بعد وفاة صلاح الدين. كذلك أدت سياسة التودد التى اتبعها العادل والكامل الى اتجاه كثير من التجار الأوربيين بسفنهم نحو شواطئ مصر وكان ان شهدت الاسكندرية ودمياط ـ بصفة خاصة ـ نشاطا تجاريا واسعا نتيجة للامتيازات التى منحها سلاطين الأيوبيين لتجار المدن الايطالية حتى أنه وجد

الراهب يوحنا: لماذا نهرب ان كان الرب قد دعا احدنا لهذا الامر فالى اين نهرب من بين يديه. قال له ذلك الاب القديس: اما انا فما اطيق هذا الامر ولا اصلح له فان كنت انت تقدر عليه فابقا مكانك وامضى انا اختفى الى ان يجوز عنا هذا الغضب الذى قد جانا ليخرج احدنا من هذا الانفراد الطوبانى الذى انا اوثره. ومضى هاربا من هناك وبقى يوحنا الراهب موضعه، فلما كان بالغداة وصل الى الدير من يطلب يوحنا القديس

بميناء الاسكندرية فى شتاء سنة ١١٨٧ ـ ١١٨٨م (٥٨٣هـ)[١] سبع وثلاثون سفينة ايطالية تجارية، وهو عدد ضخم بالنسبة لفصل الشتاء بالذات.

أما التجارة الداخلية فكانت لاتقل نشاطا فى العصر الأيوبى، حتى ان الرحالة ابن جبير الذى زار مصر فى ذلك العصر، وصف مدنها الداخلية ـ مثل منفلوط وأبى تيج وغيرها ـ فقال بأن «فيها الأسواق وسائر ما يحتاج اليه من المرافق»[٢]. وتشهد كتب الحسبة التى ألفت فى العصر الأيوبى مدى النشاط التجارى الداخلى فى ذلك العصر، وعلى ما كان هناك من اشراف دقيق على الأسواق والباعة[٣].

٦. الحياة الاجتماعية فى العصر الأيوبى:

جاءت الدولة الأيوبية فى مصر من الناحية الزمنية بين دولتين اتصفتا بالبذخ وامتازت الحياة الاجتماعية فيها بالاسراف والمبالغة فى احياء الحفلات، هما الدولة الفاطمية والدولة المماليكية. ولكن دولة الأيوبيين احاطت نشأتها ظروف غير الظروف التى احاطت بالدولة السابقة لها أو

---

(1) Heyd: Hist. du Commerce du Levant, Tome II, PP. 391 - 399.

(٢) رحلة ابن جبير، ص٣١ (تحقيق حسين نصار، القاهرة ١٩٥٥).

(٣) انظر على سبيل المثال كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة تأليف الشيزرى (تحقيق الباز العرينى ١٩٤٦).

فطافو عليه فى الجبل فما وجدوه، فلما انتهو الى الموضع الذى ذلك الراهب فيه مقيم وجدوه لانه كان مشتهى لذلك فاخذوه وفيما هم نازلين من الجبل ماضيين به الى حيث الجماعة راو فى طريقهم شجيرة فمالو اليها يستظلوا تحتها، فضرب عود من الشجرة عين يوحنا الراهب فقلعه فصار أعور من ساعته، فتعجبو واستعلمو منه قضية حاله فاعترف لهم بما جرى بينه وبين القديس يوحنا ابن عبدون وانه اشتهى هذا الامر وذاك زهد فيه، فلما عرفو

الدولة اللاحقة بها، اذ ولدت الدولة الأيوبية فى وقت كان الصليبيون بالشام أشد ما يكونون قوة وعنفاً، حتى هدد خطرهم بابتلاع الشرق الادنى، ليس فى الشام فحسب، بل أيضا فى مصر والحجاز. اذ غلبت فكرة الحروب على السلاطين، مما لم يترك مجالا للتوسع فى الاحتفالات وحياة الترف. واذا توافر الوقت أحيانا فى العصر الأيوبى لحياة الترف، فان المال لم يتوفر عندئذ، لأن حراسة القوافل وتحصين المدن والقلاع واعداد الجيوش وبناء السفن والأساطيل وصناعة العدد والآلات الحربية... كل ذلك كفيلا بأن يستنفذ كل درهم فى خزانة سلاطين بنى أيوب. وحسبنا أن أول ما فكر فيه الخليفة المعز لدين الله الفاطمى عند وصوله الى مصر كان العناية بقصوره وصلاح وتعمير القاهرة بالأسواق والمنشآت ورعاية الحفلات الدينية والمبالغة فى احيائها، فى حين كان أول ما اهتم به صلاح الدين هو تحصين البلاد وبناء القلعة وسور القاهرة وتقوية استحكمات الثغور.

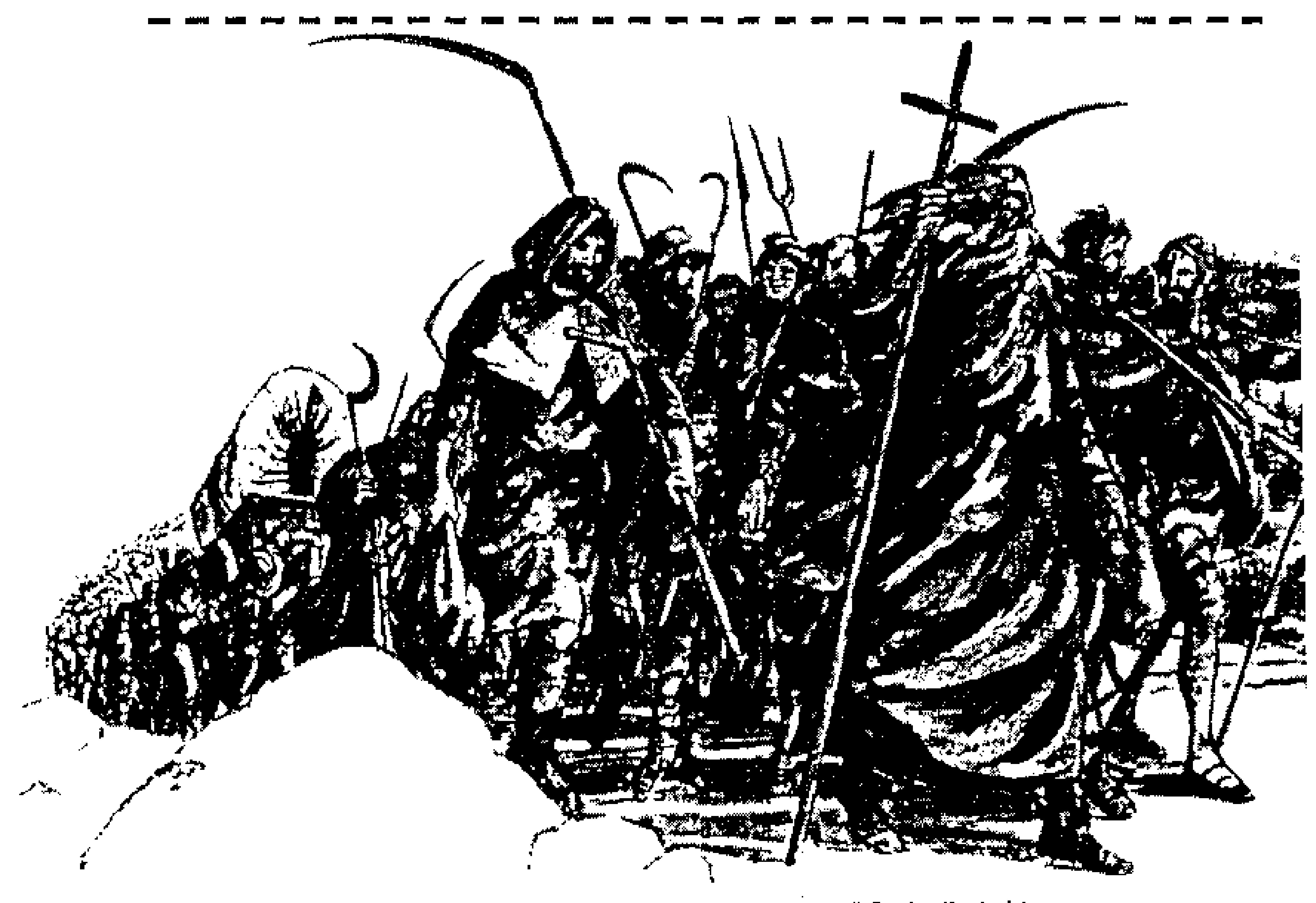
وبينما نقرأ عن خلفاء الفاطميين وسلاطين المماليك فى مصر أن كلا منهم مات تاركا فى خزائنه أكوام المال وعديد التحف، اذا بكتب التاريخ المعاصرة تروى أن صلاح الدين مات ولم يترك ديناراً..» لقد استنفذت الحروب كل دينار فى خزانة مصر[١].

---

(١) المقريزى: كتاب السلوك، ج١ص١١٣ ــ ١١٤ .

صفه الحال تركوه ومضو الى الجماعة واعلموهم بذلك فقوى عزمهم على طلب ذلك القديس اين ما كان، فلم يزالو يطوفو ويبحثوا عنه الى ان وجدوه بمشية الله بعد ان تعبو، فامتنع عن المضى معهم فاخذوه غصبا واوسموه بطركا واجلسوه على الكرسى فلم يتغير فى مدة بطركيته عن تواضعه وعبادته.

وكانت الاموال تحمل اليه برسم الصدقات ولا



الحمله الصليبية الاولى كان معظمها من الفلاحين الباحثين عن حياة افضل من حياتهم فى اوربا

يبقى منها الا قوت يومه ويدفع الباقي للمستورين والفقرا، فاتت اليه امراة ذات يوم ومعها دنانير كثير في صرة كبيرة فجعلتها عند قدميه وقالت له: يا ابى السيد هذه الدنانير بركة احضرتها فانعم على بقبولها وبارك على واصرفها في لوازمك وللمستورين، فاجابها بصوت خفي وقال لها: الرب يقبل ذلك منك يا ابنتي. فوقفت منتظرة له ان يقول لها شيا اخر اكثر من هذا مما يدعوا لها من الدعا والكرامة كما جرت العادة لغيره ممن

٧- الحياة الدينية والعلمية فى العصر الأيوبى:

كان أهم ما اتصفت به الحياة الدينية في العصر الأيوبى هو القضاء على آثار المذهب الشيعي وتدعيم المذهب السنى فى أنحاء مصر. واذا كانت بعض بقايا المذهب الشيعى قد ظلت قائمة في البلاد حتى عصر المماليك، فان هذه البقايا غدت ضعيفة لا تقوى على الظهور حتى تختفى بعد قليل.

وثمة ظاهرة دينية أخذت تزداد وضوحا في العصر الايوبى هي ظاهرة انتشار التصوف، وما تبعها من بناء منازل للصوفية غير المصريين عرفت باسم الخانقاوات التى بناها ودعمها صلاح الدين. ويفهم مما كتبه المقريزى ان صلاح الدين انشأ خانقاه سعيد السعداء سنة ١١٧٣هـ (٥٦٩هـ) ، وولى عليها شيخا عرف بشيخ الشيوخ، ووقف الأوقاف للانفاق على من فيها من الفقراء (الصوفية)، كما خصص لهم فى كل يوم طعاما ولحما وخبزا، وبنى لهم حماما بجوارهم[١]. وهو ما لم يكن يتمتع به المصرى الذى يكدّ ويكدح ليوفر هذا للصوفية. ولم تلبث ظاهرة التصوف أن أخذت تنتشر فى مصر حتى تركت أثرا خطيرا فى الحياتين الدينية والاجتماعية على عصر سلاطين المماليك.

وأما دور العلم فعلى رأسها تأتى المدارس التى توسع الأيوبيون فى انشائها فى مصر. قصد محاربة المذهب الشيعي. وقد بلغ عدد المدارس التى أنشاها صلاح الدين فى القاهرة خمس

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢ ص ٤١٥ (بولاق).

يجمع المال ويرغب فيه حتى لو اتاهم انسان بفلس واحد يجلوه ويكرموه لاسيما هذا المال الكثير، فلما طال وقوفها ولم تسمع غير ما قال لها، فخرجت متقمقمة [مغتاظة] فعاد التلميذ الذى خرج ليغلق الباب وقال للبطرك: يا ابى هذا مال كثير جا ات به هذه الامراة فما كانت تستحق ان تدعو لها دعا كثير وتطيب قلبها حتى مضت وهى متقمقمة علينا، وقالت لعل الاب ما علم ما جيت به. فقال له [البطرك]: امضى ردها [أى

مدارس ووقف عليها الأوقاف لتنفق من ريعها وتتمكن من الاستمرار فى اداء رسالتها. واستمر سلاطين الأيوبيين فى سياسة بناء المدارس، من أهمها المدرسة الكاملية التى أنشاها السلطان الكامل١٢٢٤م (٥٢١هـ) والمدارس الصالحية التى بناها الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٤١م (٦٣٩هـ). وكانت هذه المدرسة الأخيرة أول مدرسة تجمع بين مذاهب السنة الأربعة.

ومن أشهر شعراء مصر فى ذلك العصر ابن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ١٢١١م (٦٠٨هـ) وقد استكثر من الموشحات وأجاد فيها، وعمر بن الفارض المتوفى فى سنة ١٢٣٥م (٦٣٢هـ) وقد اتصف شعره بمسحة واضحة من التصوف، وبهاء الدين زهير المتوفى سنة ١٢٥٨م (٦٥٦هـ). أما النثر فى ذلك العصر فأتصف باتقان الصناعة اللفظية، والتفنن فى البديع والجناس والسجع والمبالغة فى التنميق، كما يبدو بوضوح فى كتابة عماد الدين الاصفهانى ورسائل القاضى الفاضل[1].

كذلك شهد العصر الأيوبى نشاطا كبيرا فى علوم اللغة، وخاصة النحو والصرف أما علم التاريخ فقد ألفت فيه كثير من الموسوعات وكتب التراجم، مع العناية بصفة خاصة بتسجيل

(١) ياقوت: معجم الأدباء، ج١٩، ص ٢٥٦، السيوطى: حسن المحاضرة، ج١، ص ٣٣٧، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١ ص ١٩٤، ابو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ص ٢٤٢.

أحضر الامرأة]. فمضى وردها اليه. وقال [البطرك] للتلميذ: اتينى بميزان. فاحضره له فاخذ قطعة رقعه وكتب فيها: «الرب يقبلهم منك» كمثل ما دعا لها بفمه اولا وجعل الرقعة فى كفة الميزان وجعل المال فى الكفة الاخرى، وقال للتلميذ: ارفع الميزان. فرفعه فرجحت الرقعة اكثر من المال وطلعت الكفة التى فيها المال ونزلت الكفة التى فيها الرقعة الى اسفل، فقال البطرك للامراة: يا ابنتى خذى منهما ما اردتى. فالقت نفسها بين يديه

أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين.

٨ الجيش والأسطول فى العصر الأيوبى:

وفى ختام كلامنا عن أحوال مصر فى العصر الأيوبى ينبغى أن ننوه بالرعاية الفائقة التى لقيها الجيش والأسطول فى ذلك العصر، ذلك ان الدولة الأيوبية جاءت وليدة أحداث الحروب الصليبية، وعاصرت أشد مراحل تلك الحروب ضراوة وعنفا، ولذلك كان لابد وأن يكون الاهتمام بالجيش أول ما استأثر بجهود حكامها.

ويبدو أن صلاح الدين أعاد تنظيم جيشه عدة مرات حتى جعل منه قوة ضاربة، يتألف من فرسان ومشاه، وينقسم الى أطلاب على رأس كل طلب أمير أى ضابط، وبالاضافة الى الجيش الدائم، ضم جيش صلاح الدين فرقا مساعدة من التركمان والأكراد والعرب، وهؤلاء كانوا بمثابة جند غير نظاميين.

أما الأسطول المصرى فكان فى حالة سيئة عند قيام الدولة الأيوبية لاهماله فى أواخر العصر الفاطمى، مما عرض شواطئ مصر، فضلا عن الثغور الاسلامية فى بلاد الشام، لهجمات خطيرة من جانب الصليبيين. لذلك اهتم صلاح الدين بأمر الأسطول، حتى غدا الأسطول المصرى قوة ضاربة منذ سنة ١١٧٩م (٥٧٥هـ) تضم أنواعا متباينة من القطع الحربية

وبكت وقالت: اغفر لي يا ابى فانك تعتقد ما عند الله وانا اعتقد ما عند الناس. ثم اخذت تلك الرقعة وجعلتها لها قوة.

وكان ايضا قد خرج الى البحر [النهر] لبنا [لبناء] قنطرة كانت الناس تعبر عليها فانهدمت فسالوه قوما اخيار ان يقف عليها عند الابتدا في بناها حتى تنالها بركته فاذا راه الناس هناك اجتمعو وتساعدو على بنيانها، ففعل ذلك واجتمع جمعا كبير واقامو ثلثة ايام يبنو فيها ويعملو بفرح

وناقلات الجند والخيول[1]. وبفضل هذه القوى تمكن الأسطول المصرى من انزال ضربات قوية بالصليبيين في البحرين المتوسط والأحمر، فضلا عن مساعدة صلاح الدين - بعد حطين - في الاستيلاء على بعض الموانى والثغور الشامية.

وعلى الرغم من أن خلفاء صلاح الدين أهملوا أمر الأسطول وفترت همتهم عن العناية إلا أن تعرض مصر لحملتين صليبيتين بحريتين كبيرتين في النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة)، جعل سلاطين بني أيوب يفيقون الى رشدهم ويعاودون العناية بأمر الأسطول. وقد ظهر ذلك في الوصية الشهيرة التي كتبها الصالح نجم الدين أيوب لابنه توران شاه والتي جاء فيها «فالأسطول أحد جناحي الاسلام، فينبغي أن يكونوا شباعا..»[2].

٩. مصر والحروب الصليبية:

يدل الاتجاه العام للحركة الصليبية منذ بداية القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة) على أن مصر بالذات غدت موضع اهتمام دعاة الحروب الصليبية وزعمائها، بعد أن آمن الصليبيون بالشام وأنصارهم في الغرب الأوربي بأن مصر غدت مركز المقاومة الحقيقة في

(١) ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ٣٣٩- ٣٤٠.
(٢) النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ورقة ٩٢

لنظرهم للبطرك، فلما كملت في اليوم الثالث
تزاحم الجمع في عبورهم عليها فسقط شاب في
البحر وقد كان عرض ذلك البحر تقدير عشرين
ذراعا وكان تياره قوى جدا فتقدم الاب بان ينزل
يشيله ممن له معرفة بالعوم، فنزع جماعة من
الحاضرين ثيابهم ونزلو يطلبوه فلم يجدوه فلم
يزالو يغطسو ويفتشو من الساعة السادسة من النهار
الى الساعة التاسعة حتى تعبو وضجرو، وبلغ خبره
الى امه فخرجت صارخة باكية مثل ارملة مدينة

الشرق الادنى ضد الحركة الصليبية، وأنه منذ نجح نور الدين في توحيد مصر والشام في اطار جبهة واحدة، والصليبيون شبه مطوقين بالمسلمين. هذا فضلا عما أثبتته التجارب فعلا من أن الأيوبيين كثيرا ما اعتمدوا على مصر ـ ذات الموارد البشرية والمالية الضخمة ـ في الحصول على الامكانات التي مكنتهم من ضرب الصليبيين بالشام.

وبعبارة أخرى فان دعاة الحركة الصليبية والمتحمسين لها وصلوا في نهاية القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر الى نتيجة حاسمة لاشبهة فيها ولا جدال حولها، هي أن مفاتيح بيت المقدس توجد في القاهرة، وأن عليهم البدء بمصر أولا اذا أرادوا تحقيق أهدافهم في فلسطين والشام، حتى لقد نادوا بأن القاهرة هي الطريق الطبيعي ـ الذى لاطريق غيره ـ للوصول الى بيت المقدس. وظهرت هذه العقيدة بوضوح في أقوال زعماء الحركة الصليبية ودعاتها، فهم حينا يشبهون مصر بأنها رأس الأفعى وأحيانا يشبهونها بالقلب في الجسم.. الى غير ذلك من التشبيهات العديدة التي فاضت بها كتب دعاة الحروب الصليبية في أواخر العصور الوسطى، والتي ان دلت على شيء فانما تدل على ان الصليبيين أدركوا أن الخطر الحقيقي الذى هدد بقاءهم واعترض وجودهم وعرقل مشاريعهم في بلاد الشام انما نبع من مصر بالذات[1].

وأدى الايمان بهذه الفكرة والتمسك بها، الى تغيير هام خطير طرأ على اتجاه الحركة

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ،ج٢ ، ص ٧٥٩ ـ ٧٦١(طبعة ١٩٦٨).

ناين، فوجدوه بعد عشرة ساعات واصعدوه وهو ميت، فحملوه الى خيمة الاب انبا يوحنا البطرك وتركوه قدامه ومضو، فقام القديس وصلي وسال الله فيه ففتح الشاب عينيه وقام وخرج من الخيمة حيا والجمع قيام برا، فبادرو اليه وازدحمو عليه لينظرو هذه الاية العجيبة، ولم يقدر يتخلص منهم ويمضى الى بيته الا بعد تعب وجهد عظيم. واشتهرت عنه هذه الاية العظيمة فى جميع بلاد

الصليبية، فغدت مصر منذ بداية القرن الثالث عشر للميلاد تستأثر بجهود الصليبيين، ووضعت الخطط الخاصة بجميع الحملات الصليبية ماعدا النذر اليسير منها ـ منذ بداية القرن الثالث عشرـ على أساس الاتجاه ضد مصر. ومن ذلك أن حملة صليبية كبرى تجمعت فى الغرب الأوروبى فى أوائل القرن الثالث عشر لمحو آثار حروب صلاح الدين فى الشرق واغتصاب بيت المقدس مرة أخرى. وكان أن تقرر ان تكون مصر بالذات هدف هذه الحملة بغية انزال ضربة قاصمة بها بوصفها مركز المقاومة الحقيقى ضد الصليبيين بالشام والمخزن الكبير الذى استمد منه الأيوبيون مواردهم البشرية والمادية فى محاربة الصليبيين. وبعد أن تحددت وجهة الحملة نهائيا، اتصل الصليبيون بالبندقية لتقوم باعداد السفن اللازمة لنقل الصليبيين الى شواطئ مصر. لكن البنادقة الذين كانوا يغلبون دائما مصالحهم الاقتصادية والتجارية على الصالح الصليبى انحرفوا بالحملة الصليبية سنة ١٢٠٤ نحو القسطنطينية، وهاجم الصليبيون تلك المدينة المسيحية، واستولوا عليها بحجة سياسة الدولة البيزنطية فى عرقلة المشاريع الصليبية بالشرق(١).

ولكن اذا كانت الحملة الصليبية قد خرجت عن طريقها الموضوع لمهاجمة مصر، فان ذلك لم يصرف أصحاب المشاريع الصليبية فى الشرق والغرب عن سياستهم مما جعل مصر

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٧٣٣ وما بعدها (طبعة ١٩٨٦).

سورية وغيرها حتى وصل خبرها الى بلاد مصر وصار فخرا للارتدكسيين وحزنا للمخالفين.

وكانت ملطيه قريبة من الدير الذى سكن فيه هذا الاب القديس، وليس كان فى كرسيه اعظم منها ولا اكثر نصارى، وكان فيها ستة وخمسين كنيسة عامرة بالكهنة والشعب الكثير السريان الارتدكسيين. وكان عددهم ستين الف نصرانى يحملو السلاح اذا ارادو واحتاجو الى ذلك سوى

تتعرض فى النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد لحملتين صليبيتين كبيرتين، هما الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢١٨ والحملة الصليبية السابعة سنة ١٢٤٩م. وهنا نلاحظ التشابه الكبير بين الحملتين اللتين فصلت بينهما قرابة ثلاثين سنة، فكلاهما اتجه الى دمياط، وكلاهما وقع فى نفس الاخطاء سواء فى اختيار مكان الرسو والنزول أو فى تحديد طريق الزحف فى عمق البلاد، وانتهى الأمر بأن كليهما تعرضت لنفس المصير من الفشل والهزيمة[١].

أما الحملة الصليبية الخامسة فكان الهدف منها تقويم الانحراف الذى وقعت فيه الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م باتجاها ضد القسطنطينية بدلا من مصر. وعندما اكتمل توافد الصليبيين من الغرب، خرجت الحملة الخامسة من عكا فى مايو ١٢١٨م (٦١٥هـ) متجهة الى دمياط، بزعامة جان دى برين ملك مملكة بيت المقدس الذى آمن ايمانا قويا بفكرة ضرب مصر بوصفها القلعة التى تعترض الوجود الصليبى بالشام. ولم يفت الصليبيون عندئذ أن يتصلوا بدولة الحبشة المسيحية لتحريض النجاشى على التعاون معهم فى محاربة المسلمين والقيام بغزو الحجاز وهدم الكعبة[٢].

(١) المقريزى: كتاب السلوك، ج١ص ١٩٥، ٣٣٤ وما بعدها.

(2) Colbeaux: Hist. Politique et Relitiquse de L,Abyssinie,. ps. 556(paris, 1929).

النسا، ولما وصلت انا البايس ميخاييل [الدمراوى]
وابا غبريال اسقف صا الى هذا البطرك القديس
بالرسالة السنوديقا من جهة انبا اخرستودولس عند
جلوسه على كرسى اسكندرية واعمالها راينا منه
قدس عظيم، ولما انفصلنا عنه اكرمنا وانفذ ابن
اخيه معنا لننظر المدينة والخلق الذى فيها، فقال لنا:
ليس عندى مثلها، وراينا فيها نفرا من الملكية
الخلقدونيين ولهم مطران فيها، وكان اليعاقبة
الارتدكسيين الذين هم فى المدينة من كثرة

على انه يلاحظ أن حملة جان دى برين وقعت فى عدة أخطاء، أولها أنه حاول غزو مصر عن طريق دمياط والنيل بدلا من أن يستفيد من تجارب الملك عمورى الأول، وهى التجارب التى أثبتت أن الوصول الى القاهرة يكون أسهل عن طريق الصحراء الشرقية، وربما اختار الصليبيون طريق دمياط لأنها أقرب الموانى المصرية الى الصليبيين بالشام، فضلا عن أنهم ظنوا أن فرع دمياط يمثل طريقا سهلا يؤدى بهم الى جوف البلاد والقاهرة، ويربطهم بقواعدهم بالشام. ولكنهم نسوا مايمكن أن يتعرضوا له فى غزوهم مصر عن طريق النيل من عقابات طبيعية تتمثل فى السدود والترع والقنوات العديدة، بالاضافة الى مياه الفيضان التى تغمر كافة الأراضى بلا استثناء فى وقت ارتفاع النيل، وذلك فى عصور لم تعرف مصر كلها سوى أسلوب رى الحياض[1].

أما الخطأ الثانى الذى وقع فيه الصليبيون فهو رسوهم على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط، بدلا من النزول على الضفة الشرقية حيث تقوم مدينة دمياط نفسها، مما آثار أمامهم مشكلة عبور النيل، فى وقت كان مدخل النيل محصنا تحصينا قويا، وتمتد بعرض مجراه عند مصبه مآصر، وهى سلاسل ضخمة من الحديد تحول دون عبور السفن المعادية مجرى النهر.

(1) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 190.

محبتهم لهذا القديس البطرك يمضو اليه فى كل وقت الى الدير ويسلوه الحضور عندهم فى الاعياد الكبار وفى ايام الاحاد ليتباركو منه ويتقربو من يده، وكان اذا اتاهم يلقوه بالاناجيل والصلبان والجامر والقراء بين يديه من باب المدينة الى الكنيسة بفرح عظيم ومحبة، يفعلو ذلك كل دفعة ياتى اليهم، ويذكرو فضايله لكل احد ويتحدثو بالايات التى فعلها الله سبحنه على يده. فوجد الشيطان له معين فى اذية البطرك المذكور اسقف

هذا بالاضافة الى برج السلسلة وهو بمثابة حصن بناه المصريون وسط مجرى النيل لحماية دمياط ودفع أى عدوان يقع عليها، واعتبر المعاصرون ذلك البرج«قفل الديار المصرية»[١].

وأخيرا فان الصليبيين أضاعوا كثيرا من الوقت عقب نزولهم على شاطئ مصر، بدلا من الاستفادة بشن هجوم سريع مفاجئ، مما أعطى المصريين فرصة طيبة للاستعداد، فأسرع الملك الكامل الأيوبى ـ الذى كان ينوب عن أبيه السلطان العادل فى مصر - ونصب معسكره جنوبى دمياط، فى الوقت الذى أمر العادل ابنه الملك الأشرف بمهاجمة الصليبيين وأراضيهم فى الشام ليجبرهم على رفع يدهم عن مصر.

وهكذا لم يستطيع الصليبيون الاستيلاء على برج السلسلة وتحطيم المآصر التى تحمى مدخل النيل الا بعد ثلاثة أشهر. ويقال ان السلطان العادل كان مريضا فلم يحتمل أثر تلك الاخبار السيئة ومات فى نهاية أغسطس سنة ١٢١٨م (٦١٥هـ) فخلفه ابنه الكامل فى حكم مصر. وقد حاول الكامل القيام باجراءات دفاعية سريعة فشيد جسرا بعرض النيل وأغرق عدة مراكب كبيرة فى مجرى النهر لمنع السفن المعادية من التقدم، ولكن الصليبيين تغلبوا على

---

(١)ابو شامة: ذيل الروضتين .(Rec. Hist. Cr. Or., 5.p.161) ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤هـ، ابن أيبك: كنز الدرر، ج٧، ص ١٩٦.

مخالف ممن يقول بطبيعتين، فاقام عليه تجربة عظيمة، كما قال الرسول ان «ان كلمن يريد ان يحيى بالامانة المستقيمة فانه يضطهد من اناس اردياء مبغضين للحق»، فناصبه هذا الاسقف حسدا بغير حشمة لانه كان يرى اجلال الناس لهذا الاب القديس [يوحنا] وخدمتهم له لقوة امانتهم فيه وينظر الى دخوله الى مدينته باحسن زى واجمله، وكان الاسقف المذكور يدخل ويخرج ولا يلتفت احد اليه ولا يسال عنه فتفتت قلبه من الحسد

تلك العقبات. وكان ذلك في الوقت الذى استمر اخوة الكامل ـ وهما المعظم عيسى والأشرف موسى ـ يشددون هجماتهم على الصليبيين بالشام[1].

وزاد موقف المسلمين حرجا وصول امدادات كبيرة للصليبيين من غرب أوربا، وعلى رأس هذه الامدادات الكاردينال بلاجيوس مندوبا عن البابا، فى الوقت الذى أخذ أحد قادة الكامل وهو ابن المشطوب يدبر مؤامرة ضده، مما جعل الكامل يستنجد بأخيه المعظم الذى جاء مسرعا من الشام. على ان ذلك لم يفلح فى انقاذ دمياط التى صمدت بفضل مقاومة اهلها فى شجاعة للحصار الصليبى المفروض عليها، وتصدت فى بسالة لصد الهجمات المعادية، حتى ساءت حالتها فاضطرت الى التسليم فى نوفمبر ١٢١٩م (٦١٦هـ)، وعندئذ بالغ الصليبيون فى أعمال السفك والعدوان داخل المدينة[2].

على أن الاستيلاء على دمياط لم يكن بالنسبة للصليبيين انتصارا سهلا رخيص الثمن، اذ الواقع أن الصليبيين دفعوا ثمنا باهظا فى الأرواح والمعدات نتيجة للمقاومة العنيدة التى أبداها المصريون.. وكان أن دب الخلاف بين قائدى الحملة الصليبية، جان دى برين ملك الصليبيين والكاردينال بلاجيوس المندوب البابوى، فانسحب الأول عائدا الى عكا فى أواخر مارس

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، ج٣، ص ١٨٠ (دمشق، ١٩٦٨).
(٢) المقريزى: كتاب السلوك، ج٣، ص١٨٠ (دمشق، ١٩٦٨).

والغيرة المتولدة فيه والحنق عليه، فمضى الى القسطنطينية ورفع على هذا الاب القديس انبا يوحنا عند الملك وقال له: ان فى مملكتك رجل بطرك قد تطاول والناس يطيعوه اكثر منك، وهم يعاقبة ويتعبدو لهذا المخالف اليعقوبى، وهو ايضا يدعو للملوك غيرك اكثر منك، وقد صار له اسم كاذبا انه يقيم الموتا ولاجل هذا مالت اليه قلوب الجمع، فتطرده الان من ملكك وتحضره الى هاهنا ويحكم قدسك بينى وبينه. فارسل الملك ليحضره

١٢٢٠م (٦١٧هـ)، وعندئذ تجمد وضع بلاجيوس فأضاع بقية ذلك العام والنصف الأول من عام ١٢٢١م (٦١٧ ـ ٦١٨هـ ـ) فى حالة ركود تام. ولم يكن ذلك الا فى أواخر عام ١٢٢م (٦١٨هـ) عندما قرر بلاجيوس الزحف على القاهرة، فأرسل الى جاندى برين يرجوه العودة ومساعدته، وعندئذ خشى الملك الصليبى أن يتهم بعدم التعاون فعاد إلى دمياط فى أوائل يوليو، فى الوقت الذى شرع الصليبيون فى الزحف فعلا بمحاذاة مجرى النيل متجهين جنوبا[١].

أما الأيوبيون فلم يضيعوا ذلك الوقت، وانما حاولوا فتح باب المفاوضات مع الصليبيين، وعندما استنفدوا كافة وسائل الحل السلمى أمام عناد الصليبيين وغرروهم، لم يبق الا السلاح والحرب، فأقام الكامل منزلة على الضفة الشرقية للنيل وأطلق عليها اسم المنصورة، واجتمع المصريون فى حماسة بالغة ليقيموا خطا دفاعيا قبالة طلخا. هذا فى الوقت الذى اتخذت السفن المصرية مكانها نهر النيل لتسد الطريق فى وجه السفن الصليبية[٢].

وفى أواخر يوليو سنة ١٢٢١م (٦١٨هـ) اجتمع الأخوة الثلاثة ـ الكامل والمعظم والأشرف ـ فى المنصورة استعداد للمعركة الفاصلة، فى الوقت الذى أخذ الصليبيون يواصلون

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٧٧٣ـ ٧٤٤(القاهرة ١٩٨٦).
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٤١.

وجلس الاسقف في مدينة البطرك عند بطركها وكانو مجتمعين يدبرو ما يفعلو بالقديس فوجدوه الرسل في ملطيه، فلما علمو المومنين بالخبر اجتمعو كلهم وقالو: نحن نموت كلنا ولا يوخذ منا بل نبذل نفوسنا وكلما نملكه دونك. فمنعهم من ذلك وقال لهم كلاما لينا: ان من يقاوم الملك فهو يخطى وهو كالمقاوم لامر الله، ما عسا الملك يقدر ان يعمل غير قتل جسدى، فان فعل لى هذا فهو اكليل مستعد لى، وان كلمنى من اجل الامانة

زحفهم جنوبا بحذاء النيل. وهنا يلاحظ أن الصليبيين ارتكبوا خطأ جديدا، اذ لم يكتفوا بأنهم اختاروا أسوأ الطرق وهو طريق النيل والمزارع والطمى للتوغل داخل البلاد، بل اختاروا أيضا أسوأ فصول السنة لاتمام زحفهم. فبعد أن أضاعوا بضعة أشهر فى الانتظار أو فى خلافاتهم الداخلية، قرروا الشروع فى زحفهم فى وقت فيضان النيل وهو وقت يمتلئ فيه مجرى النهر، فضلا عن الترع والقنوات العديدة بالماء. ونسى الصليبيون ـ أو ربما أدى بهم جهلهم بطبيعة البلاد ـ الى عدم ادراك حقيقة خطيرة هى أنهم أثناء زحفهم انما يسيرون وسط مثلث كبير تحيط به المياه من ثلاث جهات، وهى بحيرة المنزلة شرقا وفرع دمياط غربا والبحر الصغير جنوبا. وهكذا حتى وصل الصليبيون إلى نقطة تفرع البحر الصغير (بحر أشموم) من فرع دمياط، وهى النقطة التى تمثل رأس المثلث الذى تحيط به المياه من ثلاث جهات، وعندئذ قطع المصريون السدود، فانطلقت مياه الفيضان فى قوة تغمر الأرض الواسعة، ولم يشعر الصليبيون بأنفسهم الا وقد غاصوا بخيولهم وآلاتهم فى الماء والوحل[١].

وعندما تنبه الصليبيون الى خطورة موقفهم حاولوا الارتداد بسرعة نحو دمياط، ولكن السلطان الكامل كان قد أنزل شمالهم ـ عند شر باص شمالى شربين ـ ألفى فارس ليقطعوا

(١) ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤، المقريزى: السلوك، ج١، ص ٢٠٧.

فهو جهاد لى وكرامة، وكيف لى ان اتشبه بسيدى
الذى شتم وقتل. وبهذا وما يشبهه كان يخاطبهم
الى ان تركوه، فسار مع الرسل ومعه اربعة اساقفة
وثلثة رهبان تلاميذا له الى ان وصلو به الى دار
الملك بالقسطنطينية، فجعلوه فى الاعتقال ايام الى
ان اعلمو الملك بوصوله، ثم ان بطرك الملكية جعل
له يوم فرغه [فراغه] هو واساقفته واسقف ملطيه
الذى رفع على البطرك يوحنا وتزينو بقساوة قلب
ولبسوا ثياب ديباج وجلسو على كراسى مجملة،
وامرو باحضار القديس يوحنا اليهم، فاتاهم بثياب

على الصليبين خط الرجعة.. وهكذا تجمد موقف الصليبين، وأحاطت بهم المياه من حولهم ومن تحت أرجلهم، فلاهم يستطيعون القتال فى الوحل، ولا هم يستطيعون العودة الى قواعدهم، ولم يبق أمامهم الا الانسحاب من البلاد، ووافق السلطان الكامل الأيوبى على الصلح الذى عرضه الصليبيون، وتم جلاؤهم عن دمياط فى سبتمبر ١٢٢١م(٦١٨هـ)[١].

وعلى الرغم من الخلافات التى دبت بين الكامل الأيوبى فى مصر، وأخويه المعظم والأشرف فى الشام، الا أن مصر استمرت فى ذلك الدور ـ بعد جلاء الصليبين عن دمياط سنة ١٢٢١م ـ تنهض بدورها فى المنطقة وخاصة ضد الخطر الصليبى. وليست هناك أهمية خاصة للأحداث التى دارت فى الربع قرن الذى أعقب جلاء الصليبيين عن دمياط، سوى مجئ حملة صليبية صغيرة، هى الحملة السادسة بزعامة فردريك الثانى امبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى الغرب، تمكنت من اعادة بيت المقدس ـ عن طريق المفاوضات مع الملك الكامل ـ الى حوزة الصليبيين سنة ١٢٢٩م (٦٢٦هـ)، وهو الأمر الذى لم يرض عنه الناس وأعلنوا سخطهم الشديد عليه[٢]. وكان ان توفى السلطان الكامل سنة ١٢٣٨م (٦٣٥هـ)، فأدى

(١) ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤هـ، ابو شامة: ذيل الروضتين ج٢، ص ٢٠٩.
(٢) ابو الفدا: المختصر، سنة ٦٢٢هـ، العينى: عقد سنة ١٢٤٤م ٦٢٦هـ.

زرية ووقف قدامهم هو والذين معه فلم يجلسوهم ولا سلمو عليهم وتشاغلو عنهم بالقراة وهم قيام حينا حتى ضاقت صدورهم، وعند ذلك تكلم يوحنا القديس بلسان عذب سرياني وقال: اى قانون من قوانين البيعة امركم ان تجلسو على كراسيكم وتوقفونا بين ايديكم مثل الاعوان [العبيد]. فقالو له: انت مخالف وجماعتك وما يجب ان تجلسو معنا كالاساقفة الارتدكسيين. فقال لهم: ان كنا مخالفين كما تقولو انتم فنجلس

ذلك الى فترة من عدم الاستقرار بسبب المنازعات بين أبناء البيت الأيوبى، انتهت بقيام الصالح نجم الدين أيوب ـ ابن الكامل ـ فى منصب السلطنه سنة ١٢٤٠م (٦٣٧هـ)، وفى عهد السلطان الصالح هذا استرد المسلمون بيت المقدس نهائيا ـ وتمت هذه العملية سنة ١٢٤٤م (٦٤٢هـ)[1]. وسرعان ما أدت هذه العملية الى تمكين الصالح نجم الدين أيوب من اعادة توحيد الدولة الأيوبية، وهذه الوحدة مكنته من الاستفادة من امكانات مصر مرة أخرى فى انزال عدة ضربات بالصليبيين فى الشام سنة ١٢٤٧م (٦٤٥هـ) فانتزع منهم قلعة طبرية، كما استولى على عسقلان وبذلك انحسرت حدود الصليبيين وانكمشت الى أبواب يافا[2].

على أن استيلاء المسلمين على بيت المقدس سنة ١٢٤٤م (٦٤٢هـ) من ناحية أخرى، كان له صدى عنيف فى الغرب الأوربى، فقامت البابوية كعادتها تدعو لحملة صليبية جديدة، وهي الدعوة التى صادفت قبولا فى نفس لويس التاسع ملك فرنسا. وبعد ان اكتملت استعدادات الملك لويس التاسع خرج على رأس حملته الى جزيرة قبرص سنة ١٢٤٨م

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣..

(٢) ابو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٤٥هـ، العينى: عقد الجمان، حوداث٦٤٥هـ، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥،ص٣٧٨.

معكم ونتكلم على الامانة والذى يعطيه الله الغلبة فهو يظفر ان وجدنا من يحكم بيننا بالحق لا بسلطان المملكة. وكان اسقف ملطية قد قرر مع بطرك الملكية واساقفته ان لا يجادلوه ولا اساقفته، وقال لهم: انهم علما جدا وان جادلتموهم افتضحتو قدامهم بل تسلطو عليهم بالكلام بعز المملكة. فحينيذ شتموهم وقالو لهم: أنتم هراطقة ما ينبغى لنا نخاطبكم. وقالو للخدام: خذوهم للغد. فلما كان بالغداة احضر الملك جميعهم

(٦٤٦هـ) حيث قضى الصليبيون بضعة أشهر، حتى استقر رأيهم أخيرا على مهاجمة مصر بوصفها قلب المقاومة[١].

وهكذا تكررت فصول الحملة الصليبية الخامسة قبل ذلك بثلاثين عاما، فخرج الملك الفرنسى على رأس حملته الصليبية من قبرص قاصدا دمياط فى مايو سنة ١٢٤٩م (٦٤٧هـ). والشئ الغريب الذى يسترعى الانتباه هو أن الحملة الصليبية السابعة بزعامة لويس التاسع لم تستفد مطلقا من الدروس التى تلقتها الحملة الخامسة بزعامة جاندى برين، وانما وقعت فى نفس الاخطاء سواء فى الرسو على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط بدلا من الضفة الشرقية التى تقع عليها دمياط ذاتها، أو فى اضاعة خمسة أشهر كاملة (يونيو ـ نوفمبر ١٢٤٩م = ٦٤٧هـ) عقب سقوط دمياط فى قبضة لويس التاسع، ثم اختيار أسوأ الطرق وهو طريق النيل الملئ بالترع والقنوات فى الزحف على القاهرة.

حقيقة ان السلطان الصالح نجم الدين أيوب توفى فى تلك الأثناء ـ فى نوفمبر ١٢٤٩م (٦٤٧هـ) ـ ولكن زوجته شجرة الدر قبضت على زمام الأمور فى حزم ومهارة، وأرسلت تستدعى على عجل ابنه توران شاه الذى كان خارج البلاد ينوب عن أبيه فى حصن كيفا بشمال العراق. ومرة أخرى وصل الصليبيون عند رأس المثلث المعروف باسم جزيرة دمياط، بعد

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢،ص ٨٣٥ (طبعة ١٩٨٦).

واوقفهم بين يديه وجعل ترجمانا بينه وبينهم وقال الملك للترجمان: قل للبطرك قد عرفوني انك قديس الله والان ما احب منك الا ان تعترف بمجمع خلقدونيه وتطيب نفسي فارفعك واكرمك واعطيك السلطان على جميع البلاد القريبة منك. فقال له: يا سيدنا الملك الرب يحفظ مملكتك وسلطانك وهو يعلم انني ما اترك الصلاة والدعا لمملكتك الضابطة كما امرتنا الكتب المقدسة حتى تكون حياتنا في دعة وسلامة، وليس يجوز

أن صادفوا مقاومة شديدة عنيفة من المصريين الحقت بهم خسائر لا حصر لها. وما كادت مقدمة الجيش الصليبي تدخل المنصورة حتى أطاحت بها فرقة المماليك البحرية، فاوسعوهم قتلا، وتحول التيار بسرعة ضد الصليبيين. وعلى الرغم من أن لويس التاسع تمالك شجاعته وحاول تنظيم صفوفه إلا أن جيشه تناقص بسبب كثرة من سقطوا قتلى في معركة المنصورة، وقلة المؤن، وانتشار الأمراض والحميات بين صفوف الصليبين زادت من موقف الملك الفرنسي سواء[1].

وفي تلك المرحلة وصل المعظم توران شاه الى المنصورة في فبراير سنة ١٢٥٠م (٦٤٧هـ) بعد أن أعلن سلطانا في دمشق أثناء طريقه الى القاهرة. ولم يلبث توران شاه أن أمر ببناء عدة سفن حملت أجزاؤها على الجمال الى شمالي المعسكر الصليبي حيث ركبت وأنزلت في النيل وشحنت بالمقاتلين، فانقضت على المراكب الصليبية «وأخذتها أخذا وبيلا» وقطعت الطريق على السفن الصليبية لتحول دون اتصالهم بقاعدتهم في دمياط[2].

وكان أن شرع لويس التاسع ورجاله في عملية «هروب الى دمياط» كما اسماها المؤرخ المعاصر ابن واصل، ولكن المصريين لاحقوهم حتى تم انزال هزيمة كبرى بالصليبيين عند

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥١، العيني: عقد الجمان، حوادث ٦٤٧هـ.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٦٦.

لسلطانك ان يلزم احد بان يترك دينه، كما ان لنا ملكين وهما ملك الحبشة وملك النوبة وما يلزمو احد من اهل ملتكم المقيمين عندهم ان ينتقلو عن امانتهم، والان فانا اسال السيد المسيح ان يثبت ملكك بلا اضطراب ويحفظ كل منا بما قد تبينه له. ففسر الترجمان جميع ما قاله له الا الملكين الحبشي والنوبي فانه زاد في ذلك وقال: لنا ملكين اعظم منك. وذلك ان اسقف ملطيه كان برطل الترجمان بمال وقرر معه ان يحرف القول عنه بما

فارسكور و «أحدق المسلون بهم يتخطفونهم طول الليل قتلا وأسرا». وكان من جملة الأسرى لويس التاسع نفسه الذى سيق مكبلا بالاغلال الى المنصورة حيث سجن في دار القاضي ابن لقمان (١٢٥٠ـ ٦٤٧هـ)[١].

٢. قيام دولة سلاطين المماليك

١. نهاية الدولة الأيوبية:

يرجع الفضل الأول فى الانتصار على الصليبيين فى المنصورة ثم فى فارسكور الى المماليك البحرية، الذين أخذ نفوذهم يزداد بشكل واضح منذ ذلك الوقت. ويطلق مصطلح «مماليك» فى التاريخ الاسلامى على جموع الرقيق الأبيض الذين ازداد الاقبال على شرائهم وتكوين فرق منهم ـ وخاصة فى مصر والشام ـ فى الفترة التى أعقبت وفاة صلاح الدين، والتى عمت فيها المنازعات بين حكام منطقة الشرق الأدنى وخاصة الأمراء المتنافسين من بنى أيوب، مما جعل كلا منهم يعمل على تكوين عصبية لنفسه يعتمد عليها فى تحقيق مآربه السياسية والحربية. وهكذا أقبل الملوك والأمراء على شراء أعداد كبيرة من المماليك، وعنوا بتدريبهم وتربيتهم

(١) ابن أيبك: كنز الدرر، ج٧،ص ٣٨١، المقريزى: كتاب السلوك، ج١، ص٣٥٦، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٦،ص٣٦٦.

يحنق الملك عليه ولو بكلمة واحدة، فلما سمع الملك اشتد غضبه وحنقه ولعنه ولعن مذهبه ومجمعه وقال: حقا انكم مخالفين. وامر ان يعاد الى الاعتقال. وكان احد تلاميذ القديس يوحنا يفهم اللغة وهو ترجمانه فلما خرجو اعلمه بما فعله الترجمان من تحريف القول عنه، فلما كان بالغداة احضر الملك بطركه ومجمعه واستشارهم فيما يفعله، فاشارو عليه بان ينفيه الى الجزاير القريبة منه هو ومن معه الى ان يعترفو بامانتهم

وتنشئتهم ليكونوا لهم عدة وسندا، ومن هؤلاء كان السلطان الصالح نجم الدين أيوب، الذى كون فرقة كبير ة من المماليك ـ وأسماها المماليك البحرية قدر لها أن تلعب دورا خطيرا فى التاريخ[1].

أما عن السبب فى تسمية هذه الفرقة بالبحر ية فالمرجع أن ذلك يرجع الى اختيار الصالح نجم الدين أيوب جزيرة الروضة فى «بحر» النيل مركزا لهم. ومعظم هؤلاء المماليك البحرية من الأتراك، جلبوا من بلاد القفجاق ـ شمالى البحر الأسود ـ ومن بلاد القوقاز قرب بحر قزوين. والمعروف عن الأتراك القفجاق أنهم امتازوا عن طوائف الترك بحسن الطلعة وجمال الشكل وقوة البأس فضلا عن الشجاعة.

وكان أن حقق المماليك البحرية الغرض من انشاء فرقتهم وأثبتوا جدارتهم وكفايتهم عندما أحرزوا انتصاراتهم على لويس التاسع وحملته ـ بين المنصورة وفارسكور ـ سنة ١٢٥٠م (٦٤٧هـ). وصادف ذلك وصول السلطان الجديد توران شاه ـ ابن الصالح نجم الدين أيوب ـ الذى وصفته المصادر المعاصرة بالطيش والخفة والهوج، فلم يقدر حقيقة الدور الذى نهض به المماليك البحرية ولم يدرك أهمية تلك الفرقة، وانما حسدهم على ما صار لهم من نفوذ نتيجة للانتصارات التى حققوها، وأخذ يخطط للخلاص من زعمائهم وجاء ذلك فى الوقت الذى

(١) العينى: عقد الجمان، حوادث ٦٤٧هـ.

وحينيذ يطلق سبيلهم، وكان منهم شيخين مطرانين
فلما علما بذلك اعترفا بمجمع خلقدونيه وظنا
انهما يقيا في طقسهما الاول فلم يتركهما بطرك
الملكيه فيه بل جعلهما ابو دياقنين، واما الاثنين
الاخر فانهما تمسكا بامانتهما ولم يجيبها الى ما
اراده الملك، واجتهد الملك فما قدر يصدهما عن
امانتهما الارتدكسيه، فاحضر الملك ابا يوحنا
البطرك ووعده بكرامة كثيرة وتقدمة، فقال له: هو
ذا انا قايم بين يديك وتحت حكمك، وسلطانك

استثار توران شاه حفيظة زوج أبيه شجرة الدر بعد أن تنكر لها ونسى أنها حفظت له عرش أبيه بعد وفاته وأرسلت تستدعيه من حصن كيفا، فاتهمها بانها أخفت ثروة أبيه، وأخذ يكيد لها. ولم يلبث أن تم اتصال بين المماليك البحرية من ناحية وشجرة الدر من ناحية أخرى للتخلص من العدو المشترك، حتى انتهى الأمر بقتل توران شاه سنة ١٢٥٠م (٦٤٨هـ)، وبمقتله انقرضت دولة بنى أيوب من مصر بعد أن حكموها احدى وثمانين سنة[١].

ويبدو أن شجرة الدر كانت أبرز شخصية على مسرح الأحداث بعدمقتل توران شاه فاختيرت لمنصب السلطنة، نظرا لما اشتهرت به من أنها كانت «خيرة، دينة، رئيسة، عظيمة فى النفوس». وكانت شجرة الدر أول أمرها جارية للخليفة المستعصم العباسى، قبل أن يشتريها الصالح نحم الدين أيوب ويعتقها ويتزوجها، ولذا فانها من ناحية الأصل والنشأة أقرب الى المماليك، مما جعل المؤرخين يعتبرونها أولى سلاطين المماليك فى مصر، فقال عنها المقريزى أنها «أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك»[٢].

وبعبارة أخرى، فانه بقيام شجرة الدر فى الحكم سنة ١٢٥٠م (٦٤٨هـ) بدأت دولة

(١) ابو الفدا: المختصر فى اخبار البشر، ج٣،ص١٨١١ ،المقريزى: كتاب السلوك،ج١، ص٣٥٨- ٣٦٠، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٦،ص ٣٧٢.
(٢) المقريزى: كتاب السلوك ،ج١،ص١٦٣ .

فهو على جسدى فافعل فيه ما ترى وكما تريد فاقتلنى فاننى لا اتخلا عن امانتى المستقيمة الى الابد، فامر بنفيه الى دير فى جزيرة قريبة من القسطنطينية بينه وبينها مسافة يوم واحد ولم يدع معه الا تلميذ واحد يخدمه، وكان به وجع النقرس فى رجليه فاقام هناك سنتين وكان فى تلك الجزيرة حبيس [راهب] من الملكية فامر الرهبان الذين معه ان يمضو كل يوم الى البطرك القديس يوحنا ويلعنوه ويبصقو فى وجهه، وجعل عليهم حرم

سلاطين المماليك فى مصر، وهى الدولة التى استمرت فى حكم البلاد أكثر من قرنين ونصف من الزمان، أى حتى الغزو العثمانى سنة ١٥١٧م (٩٣٢هـ). وقد انقسمت هذه الدولة الى قسمين أو دولتين، الأولى دولة المماليك الترك أو البحرية الذين استمروا فى الحكم حتى سنة ١٣٨١م (٧٨٤هـ) والثانية دولة المماليك الجراكسة أو البرجية ـ نسبة الى أبراج القلعة التى نشأوا وربوا فيها ـ واستمرت حتى سقطت على يد السلطان سليم العثمانى سنة ١٥١٧م (٩٢٢هـ).

واذا كان معظم مماليك الدولة الأولى من عنصر الأتراك القفجاق، ومعظم مماليك الدولة الثانية من عنصر الجركس أو الشراكسة، فليس معنى ذلك ان عصر سلاطين المماليك فى مصر لم يعرف غير هذين العنصرين. ففى عصر دولة المماليك الأولى وصلت دفعات من المماليك من أصل مغولى، وهؤلاء ارتقوا بسرعة فى وظائف الدولة حتى أن السلطان كتبغا نفسه ١٢٩٤ـ ١٢٩٦هـ(٦٩٤ـ ٦٩٦هـ) كان مغولى الأصلى. وفى ضوء هذه الظاهرة يمكننا أن نفسر انتشار بعض عادات المغول فى مصر بين المماليك، مثل أكل لحوم الخيل فى الحفلات والمناسبات، وصناعة بعض أنواع الخمور من لبن الخيل بالذات[1].

وعندما وجد تجار الرقيق ان سلاطين المماليك وأمراءهم فى مصر يقدرون بضاعتهم

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص١٢.

[حرمان من الكنيسة] ان لم يفعلو ذلك كل يوم، وكانو يفعلو به هذا مدة مقامه هناك، وكان فى الدير صبى خادم وكان يزيد فى شتم البطرك وكان التلميذ اذا اصلح [ماء] حار لرجلى البطرك ليجد به راحه يرمى ذلك الصبى فيه الرماد، وكان التلميذ يبكى والبطرك يعزيه ويقول له يا ولدى الله ما ينسانا، وكان الصبى قد لج فى هذا الفعل فوثب عليه روح شيطان فخنقه وخبطه وعذبه فقدموه الى الشيخ ابا يوحنا وهو يزبد ويضرب

ويدفعون فيها الأموال الطائلة، نشطوا فى جلب المماليك، وأسهم فى هذه التجارة بعض التجار الأوروبيين ـ وخاصة من المدن التجارية الايطالية ـ الذين نافسوا التجار الشرقيين فى جلب المماليك الى مصر. وهكذا نجد أصول المماليك فى مصر قد أ خذت تتنوع تنوعا واضحا، فوجد منهم المغول والصقالية والروم والأسبان والألمان.. وغيرهم، فضلا عن الأتراك والشراكسة. وقد انتسب هؤلاء المماليك غالبا الى أساتذتهم، أى سادتهم الذين اشتروهم بالمال من التجار وأشرفوا على تربيتهم... فالمماليك الظاهرية نسبوا الى الظاهر بيبرس والمماليك الأشرفية نسبوا إلى السلطان الأشرف خليل... وهكذا.. وأحيانا نسب المملوك الى تاجره الذى جلبه اذا كان معروفا بحسن بضاعته وجودتها، كالمماليك العثمانية الذين نسبوا الى الخواجا عثمان أحد كبار تجار الرقيق فى ذلك العصر. وربما نسب المملوك الى قيمته التى اشترى بها اذا كانت كبيرة تستحق الفخر، لما لها من دلالة على عظم المواهب والصفات المتوفرة فى ذلك المملوك مثل قلاون الالفى الذى اشترى بألف دينار[1].

٢.نظام المماليك وحياتهم:

حكم المماليك مصر بوصفهم ارستقراطية عسكرية ممتازة. سيطرت على البلاد وأهلها.

(١) المقريزى: كتاب المواعظ والاعتبار، ج٢ ،ص٢٩١ (بولاق) ابن قاضى شهبة: الاعلام بتاريخ أهل الاسلام، ج٤ ،ص ٢٧٣ .

براسه ويصر باسنانه فاقام ثلثة ايام والشيطان يعذبه ثم مات موتا ردى. وكان بالقسطنطينية انسان يحب انبا يوحنا فجا الى هناك ليفتقده فلم يقدر يصل اليه، فكتب له رقعة ومضى الى قرية قريبة من الدير اجتمع فيها بانسان يعرفه وقال له انا اشتهى تاخذ هذه الرقعة توصلها للبطرك سرا من غير ان يعلم بك احد ودفع له دينار والرقعة ولم يكن فيها شيا الا السوال عنه والاعتذار اليه بانه لا يمكن من الوصول اليه ليفتقده والتمس منه بركة

وكان لهم في أصلهم ونشأتهم وطريقة تربيتهم وأسلوبهم الخاص في الحياة سياج اكسبهم واكسب دولتهم طابعا خاصا مميزا. وعلى الرغم من أن المماليك يرجعون الى أصول وعناصر أجنبية وفدت على البلاد من الشرق والغرب، الا أنه لايمكن أن نعتبر حكمهم حكما أجنبيا. ذلك انهم غدوا بعد جلبهم الى البلاد، جزءا من مصر وتاريخها، ونجحت مصر في استيعابهم وهضمهم وتشكيلهم، وأحسوا بأحاسيس أهل البلاد، وانفعلوا بحضارتهم. وبذلك أمدوا ــ ليس في مصر فقط بل الشام أيضا ــ بدماء جديدة حتى غدوا درع المنطقة الذائدين عنها، لايعرفون لهم وطنا الا مصر ولا أرضاً غير أرضها. ونسمع عن بعضهم عندما شب وكبر وأصاب قدر من حسن الحظ في الحياة، واستدل على مسقط رأسه الأول، أنه أرسل يستدعي أبويه وأهله الى مصر، بوصفها وطنه الذى غدا لايعرف وطنا غيره. وبعبارة أخرى فان أصول المماليك الأجنبية لاتتعارض مطلقا مع ما صاروا اليه قطعة من مصر وتاريخها وحضارتها. وما أشبه المماليك في ذلك العصر بالشعب الأمريكي الذى ترجع أصوله اليوم الى مختلف الجنسيات والأصول ولكنهم غدوا قطعة من أمريكا يشكلون تاريخها ولاينتسبون الا اليها، ويعملون من أجلها، والتشبيه مع الفارق.

وكان السلطان اذا اشترى عددا من المماليك، فانه يرسلهم أولا الى الأطباء لفحصهم، ثم ينزلهم في الطباق ــ وهى البيوت المخصصة لتربيتهم في القلعة ــ وقد خصص لكل طبقة من

يجعلها فى منزله، فاخذ الرقعة ومضى بها الى المقدم [قائد الحرس] كما فعل يودس، فارسل قوما الى صاحب الرقعة فضربوه وحبسوه، فسمع الاب البطرك بكاه وكلامه بالسرياني، فصاح لتلميذه واستعلم منه الخبر فاعلمه بكلما جرى فتعجب البطرك واغتم وانفذ اليه يعزيه وقال له لا تضيق صدرك بعد ثلثة ايام يزيل الرب هذا كله، فاستقصى التلميذ عن معنى القول فقال له سرا:

هذه الطباق فقيه يحضر اليها لتعليم المماليك القرآن وأحكام الدين وآداب الشريعة[1]. فاذا كبر المملوك وأدرك سن البلوغ بدأ تعليمه فنون الحرب من «الرمي بالنشاب واللعب بالرمح وركوب الخليل وأنواع الفروسية». وعندما ينتهي المملوك من هذه المرحلة التعليمية يظل يتقدم درجة بعد درجة، حتى يتحرر ويرتقي ليصير من الأمراء.

وعندما يتحرر المملوك ويصبح أميرا كان من حقة أن يقتنى بدوره عددا من المماليك يتناسب مع درجة امارته. وأرقى درجات الامارة كانت «أمير مائة مقدم ألف» ومن حق هذا الأمير الكبير أن يمتلك مائة مملوك ويقود أثناء الحرب ألفا من المماليك[2].

والواقع أن المملوك اذا تحرر وصار من الأمراء فانه يصبح سلطانا صغيرا، أو على قول القلقشندى «سلطانا مختصرا»، تدق على بابه الطبول والزمور، ويكون له اسطبل خاص أى مجموعة من المبانى تضم مسكنه وبيوت مماليكه وموضع خيوله ومخازن مؤنتها وسروجها، وله ادارات خاصة ـ تعرف باسم البيوت الكريمة ـ تشرف على مصالحة مثل الطشت خاناه،

---

(١) المقريزى: كتاب السلوك، ج٢،ص٥١٤، سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص١٤.

(٢) القلقشندى: كتاب صبح الاعشى ،ج٤،ص١٤ ـ ١٥.

بعد ثلثة ايام ياخذني الله اليه فلا تدفني في مدفن الهراطقة بل اجعلني في موضع وحدي، لان اليوم الذي انام فيه ينفذ الملك ليخرجني فيجدني قد خرجت من هذا الجسد فيمضي بك وبالرجل الاخر الى الملك فيفرج عنكما، وانا اوصيك ان تقول للشعب لا يدع الذي ياتي بعدي يسكن في بلاد الروم بل يسكن في امد أو مدينه الرها. وكان تلميذه مفكر كيف يقدر يخلص جسده بعد موته من المخالفين ليلا يفعلو به ما يريدو، ثم قال في

والفراش خاناه وغيرها. ويعتمد في حياته على الاقطاع الذي يهبه السلطان اياه والذي كان يتراوح عادة بين زمام قرية وعشر قرى[١].

ولم تكن الرابطة الأسرية ـ أي ارتباط الزوج بزوجه وأولاده وأسرته ـ هي أقوى الروابط بين المماليك، وانما فاقتها رابطة الأستاذية أي الرابطة التي تربط المملوك بسيده، أي أستاذه الذي اشتراه رقا في صغره وتعهده بالتربية والرعاية حتى كبر واعتقه. وقد كرس السلاطين والأمراء الجزء الأكبر من عنايتهم لمماليكهم، ولم يضنوا عليهم بالأرزاق والأموال، وانما خصصوا لهم الأطعمة المختلفة من لحوم وحلوى وفواكه، كما عينوا لهم الكسوات الفاخرة، بل ان الأمير كان لايتناول طعاما مع زوجه وأولاده وانما يتناوله صحبة مماليكه «ولايمكن أن يأكل الا وجميع أجناده معه»[٢].

ذلك أن السلطان أو الأمير كان يعرف جيدا أن هؤلاء المماليك عصبيته وحماته والملتفون حوله وقت الأزمات، ودرعه ضد خصومه، والمنتسبون اليه. ومن ناحية أخرى فان المملوك كان يشب وينشاء لا يعرف أباً إلا أستاذه الذي اشتراه صغيرا وسهر على تربيته، ولم يضن عليه بمال أو عطف، وهكذا بلغت رابطة الأستاذية ـ التي تربط المملوك بأستاذه ـ درجة من القوة

(١) المصدر السابق، ج٤ ص٦٠.
(٢)المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١، ص٨٧ ـ ٨٨.

نفسه بل تكون مشية الله، فعلم البطرك بالروح
فكره وقال له: لماذا تشك لاجل جسدى اومن ان
الله قادر على كل شيء. ومن بعد ثلثة ايام تنيح
كما قال، فلما علمو الرهبان بذلك اجتمعو
ليدفنوه، وكان ريس الدير برا [غير موجود] فارسل
الملك يطلب البطرك فوجده ميتا، فتخاصمو الرسل
مع الرهبان الذين ارادو دفنه ومنعوهم ان يدفنوه
هناك وقالو: امضو بهذا الهراطيقى من وسط

جعلت بعضهم يوصى فى الحجج الشرعية الخاصة بأوقافهم بصرف جزء من ريع الوقف «على تربة أستاذه»[١].

ويضاف الى هذه الرابطة رابطة أخرى هى رابطة الخشداشية ـ أى الزمالة ـ بمعنى ان يحس المماليك المنتمون الى أستاذ واحد برابطة قوية تربط بينهم حتى وكأنهم اخوة ينتمون الى أب واحد. هذا فضلا عن رابطة الزمالة بين المماليك جميعا وبين أفراد كل طائفة من طوائفهم[٢].

على أنه يبدو أن المماليك أحسوا من أول الأمر بأنهم لايمتلكون حقا شرعيا فى الحكم، اذ اغتصبوا الملك من سادتهم بنى أيوب. هذا فضلا عن احساسهم بعقدة نفسه خطيرة مصدرها أصلهم غير الحر، وأنهم كانوا رقيقا فى يوم من الأيام مما يضعف من مكانتهم فى نظر المحكومين. من ذلك ما تعرضوا له من ثورات فى بداية حكمهم من جانب بقايا

(١) عبد اللطيف ابراهيم: دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر المماليك مجلد ١، ص٣٩ (رسالة لم تطبع).

(٢) محمد مصطفى زيادة: بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر(بحث نشر فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، المجلد الرابع، الجزءالأول، ١٩٣٦).

الارتدكسيين. فاخذوه ومضو به الى موضع صخره فحفرو ودفنوه بعيد عنهم. فاما رسل الملك فانهم اخذو التلميذ والرجل الذى جا من القسطنطينية لافتقاد البطرك وكتب اليه الرقعة وعادو الى الملك واخبروه بوفاته فاطلقهما لانه كان قد قاسا عذابا فى منامه فى تلك الليلة لاجل البطرك القديس.

وكانت نياحته فى النفى فى سنة سبع ماية سبعة واربعين للشهدا الابرار، وما كان الله جل ثناوه

البيت الأيوبى فى الشام من ناحية، ومن جانب الأعراب فى مصر من ناحية أخرى، وهم الذين أبو الخضوع لأناس «قد مسهم الرق»[1].

ولهذا وذاك من العوامل لجأ المماليك الى احياء الخلافة العباسية فى مصر بعد أن كانت قد سقطت على أيد التتار ـ أو المغول ـ فى سنة ١٢٥٨م (٦٥٦هـ). ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس استحضر أحد أبناء البيت العباسى الى مصر، وبعد أن شهد الشهود على صحة نسبه بويع بالخلافة فى القاهرة سنة ١٢٦١م (٦٥٩هـ)، فقام الخليفة العباسى بدوره بتقليد السلطان الظاهر بيبرس«البلاد الاسلامية» ، مما أضفى على سلطان المماليك وحكمه صبغة شرعية، بوصفه متمتعا ببيعة الخلافة العباسية[2].

على أنه يبدو أن هذه الخطوة لم تكن كافية للتغلب على مركب النقص الذى احس به المماليك من ناحية أصلهم غير الحر، ومن ثم دأبوا على الظهور فى صورة حماة الإسلام الذايين عنه ليتكسبوا حب المعاصرين وتقديرهم، ذلك أنهم لم يكتفوا برعاية المنشآت والمؤسسات

(١) المقريزى: البيان والاعراب عما بأرض مصر ص٩، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٣٨٦ ـ ٣٨٨.

(٢) النويرى: نهاية الأرب، ج٢٨، ص١٨ ـ ١٩(مخطوط)، المقريزى: كتاب السلوك، ج١ص٤٤٨ وما بعدها.

وتعالى يخفى عنه شيا مما يريد معرفته لقدسه وطهارته.

وكان من قبل اشخاصه [ارساله] الى بلاد الروم قد هرب اليه انبا افرهام اسقف دمياط لاجل ما جرى عليه من شعبه وما بلغه عن قدسه فمضى ودخل ديره وعليه لباس زرى بزى الرهبان وقلنسوة بيضا ليخفى امره، ووقف فى زاوية من البيعة فى وسط جماعة الرهبان وكان يوم الاحد والاب انبا

الدينية ورجالها، وانما قاموا بحركة جهاد واسعة أظهرتهم فعلا فى صورة القوى الكبرى التى حمت الاسلام فى الشرق الأدنى من الأخطار العديدة التى ألمت به، وعلى رأسها خطر الصليبيين من ناحية، وخطر التتار من ناحية أخرى.

٣. المماليك والتتار:

قامت دولة سلاطين المماليك فى مصر فى وقت دهم منطقة الشرق الأوسط خطر ضخم من نوع جديد هو خطر التتار أو المغول. فبعد أن نجح جنكيزخان فى توحيد قبائل التتار غدوا قوة رهيبة فى أوائل القرن الثالث عشر، وانطلقوا غربا نحو شرق أوروبا ووسطها من ناحية والشرق الأوسط من ناحية أخرى، فى صورة غزوات هدامة يسفكون الأرواح بالجملة ويفسدون الزرع والضرع ويخربون المدن والقرى، وينشرون الدمار والرعب فى كل مكان. ولم يكتفوا بالاستيلاء على بلاد فارس، وانما غزوا العراق واقتحموا بغداد ليسقطوا الخلافة العباسية ويقتلون ثمانمائة ألف من أهلها فى مذبحة رهيبة سنة ١٢٥٨م (٦٥٦هـ)، مما أثار موجة من الرعب فى بلاد الشام ومصر، وهما على التوالى الخطوتان التاليتان فى خط سير الزحف التترى[١].

(١) أبو الفدا: المختصر، حوادث ٦٥٦هـ، رشيد الدين الهمذانى: جامع التواريخ، ص٣٣٦ وما بعدها.

يوحنا داخل الاراديون [الهيكل أو المحراب] فقال لتلميذه: امضى الى الموضع الفلانى من البيعة تجد هناك اسقفا من ديار مصر قايما مع الرهبان بزى راهب فاتينى به. وهذا عجب يشبه ما جرى للقديس باسيليوس المعلم الكبير اسقف قيساريه قبادوقيه مع القديس مارى افرام السريانى، فمضى التلميذ الى هناك فلم يعرفه لاجل تغييره لباسه، فعاد الى الاب وقال له: ما وجدته. فقال له: بلا هو قايم هناك ومعه راهبين غريبين. فرجع التلميذ

واذا كان ملوك الأيوبيين فى بلاد الشام قد ضعفوا أمام ذلك الخطر، فاستسلم بعضهم وصانعوا العدو وأعلنوا خضوعهم له، فى حين فر البعض الآخر تاركا بلاده، تسقط فى قبضة التتار أتباع هولاكو، مما مكنهم من الاستيلاء على ميافارقين وحلب ودمشق.. فان المماليك فى مصر صمدوا ووقفوا موقفا كريما يذكره لهم التاريخ. ذلك أن السلطان قطز ما كاد يتسلم رسالة من هولاكو، يطلب منه فيها الاستسلام، وينذره بالويل والثبور اذا حدثته نفسه بالمقاومة، حتى هب قطز يدق طبول الحرب معتمدا على امكانات مصر الواسعة، فأمر بقتل رسل التتار الأربعة وتعليق رؤوسهم على باب زويلة، وشرع تعبئة قواته على أوسع نطاق[1].

ومرة أخرى خرج جيش كبير ضخم من مصر لينقذ بلاد الشام من موجة خطر جديد. وشاء حسن حظ المماليك عندئذ أن يضطر هولاكو نفسه الى العودة مسرعا الى جوف القارة الآسيوية عندما سمع بموت خاقان المغول العظيم، وان كان ذلك لم يوقف موجة الزحف المغولي التى أخذت تمتد الى جنوب فلسطين فى اتجاه حدود مصر. وفى ذلك الوقت كان جيش المماليك بزعامة سلطانهم قطز قد زحف عن طريق غزة والساحل متجها صوب بحيرة طبرية[2].

(١) المقريزى: كتاب السلوك، ج١، ص٤٢٩.
(٢) ابو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٨هـ.

الى الموضع وقال للثلثة: من منكم الاسقف؟. فقال واحد من الراهبين: هو هذا. فقال له: الاب يدعوك. فاتى معه اليه ولما دخل له سجد بين يديه فاقامه البطرك وقال له: لماذا هربت من النعمة التى دفعها لك السيد المسيح، فقال له ما انا هارب وانما جيت لا شاهدك واخذ بركتك، فقال له: بلا انت هارب من كثرة الكلام والتعب الذى نالك. وخاطبه بكلام طيب قلبه، واقام عنده مدة واعادة الى كرسيه مكرما.

وفى موقعة عين جالوت التى دارت بين المسلمين والمغول سنة ١٢٦٠م (٦٥٨هـ) تفوق المغول فى أول الأمر، وعندئذ أظهر قطز مزيدا من الثبات، وحمل على المغول حملة صادقة زعزعهم بها، فانهارت صفوفهم، وقتل كتبغا قائدهم وكثير من رجاله، وولى الباقون الادبار(١).

ولاشك فى أن موقعة عين جالوت كانت نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الشرق الأدنى. ومهما يقل من أن المغول كانوا بوصولهم الى عين جالوت قد بلغوا نهاية فى حركتهم التوسعية فى ذلك الاتجاه، فان موقف مصر وحكامها هو الذى أنقذها ـ فضلا عن الشام ـ من خطر المغول وجعل دولتهم فى فارس تقف عند حدود العراق. أما بالنسبة للمماليك أنفسهم فان انتصارهم فى عين جالوت أضفى عليهم وعلى دولتهم الناشئة هالة من المجد كانوا فى أشد الحاجة اليها. ويكفى أنهم تغلبوا على الخطر الكاسح الذى لم تستطيع قوة أخرى أن تصمد أمامه وبذلك أنقذوا الشام ومصر من خطر التتار. يضاف الى ذلك ان المماليك بعد عين جالوت بسطوا سيطرتهم على كل بلاد الشام، فطاردوا المغول وردوهم الى الجزيرة والعراق من

(١) ابن تغرى: النجوم الزاهدة، ج٧، ص٧٩.

وجلس على كرسى انطاكيه بعد هذا القديس يوحنا ابن اخيه واسموه يوحنا بطركا، رزقنا الله شفاعتهما وبركتهما جميعا.

وتلميذه اخبرنى انا ميخاييل [الدمراوى] كاتب هذه السيرة بذلك لما مضيت الى كرسى انطاكيه بعد ان صرت اسقفا على كرسي مدينة تنيس واعمالها ومعى انبا غبريال اسقف صا بالرسالة السنوديقا التي كتبها انبا اخر ستودلوس بطرك

ناحية، وانتزعوا ممتلكات البيت الأيوبى فى الشام من ناحية أخرى ولاشك فى ان تقاعس ملوك البيت الأيوبى عن صد التتار، ونفورهم من الجهاد، بل تواطأ بعض ملوك بنى أيوب بالشام مع التتار واشتراكوا معهم ضد اخوانهم المسلمين فى عين جالوت، أفقد الأيوبيين أى حق شرعى فى حكم البلاد[1].

. وفى ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نضيف الى أهمية عين جالوت أنها كانت بمثابة الحد الفاصل فى الصراع بين المماليك فى مصر والأيوبيين فى الشام، وانها جاءت ايذانا بغروب شمس دولة بنى أيوب وارتفاع نجم دولة المماليك فى مصر والشام جميعا.

على أن خطر مغول فارس لم يتوقف بعد عين جالوت، اذ استمروا يخرجون من العراق للاغارة على بلاد الشام. ولكن هذه الغزوات لم تتخذ شكلا كاسحا مثلما كان الحال من قبل، وانما اتخذت صفة متقطعة تنتهى بالانسحاب السريع عندما تخرج لهم الجيوش من مصر. وقد ظل سلاطين المماليك بعد قطز متيقظين لذلك الخطر، فانزلوا بالتتار كثيرا من

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليك فى مصر والشام، ص٣٦.

اسكندريه الى ابا يوحنا المقدم ذكره فى سنة سبع
ماية خمسة وستون للشهدا، لاننى سالت هذا
التلميذ وقلت له: اقام الاب ابا يوحنا الميت احقا
هو؟. فشرح لى جميع ما ذكرته فى هذه السيرة.
فاما خبره مع انبا افرهام اسقف دمياط فاننى
سمعته من فمه فى السنة التى توفى فيها الاب انبا
زخارياس بمصر. وهذين البطركين لقيا تعبا عظيما
ومشقة واخذا اكليلا جليلا بصبرهما واعترافهما
بالامانة الارثذكسيه قدام المخالفين، اما انبا يوحنا

الضربات عند أعالى الفرات وشرق آسيا الصغرى[1]. وظل الوضع على ذلك حتى أوائل القرن الرابع عشر للميلاد(القرن الثامن الهجرى).

ثم كان ان تجدد خطر التتار مرة أخرى فى أواخر ذلك القرن عندما ظهر تيمور لنك الذى ينتمى الى بيت من أشراف التتار، ولد فى مدينة سمر قند وتألق نجمه فيها، واتخذها قاعدة لاعماله التوسيعة فى بلاد الشرق الأوسط فضلا عن الهند. ولم يكتف تيمورلنك بالاستيلاء على بغداد سنة ١٣٩٣م (٧٩٥هـ) وتخريبها وقتل كثير من أهلها، وانما استولى على حلب ودخل دمشق، مما أحدث هزة عنيفة فى مصر. وكانت دولة المماليك عندئذ تعانى بعضا من مشاكلها الداخلية الأمر الذى جعل سلطانها فرج بن برقوق يعقد صلحا مع تيمور لنك سنة ١٤٠١م (٨٠٤هـ) ولم يلبث أن توفى تيمور لنك بعد ذلك بأربع سنوات، مما عرض دولته الواسعة للتمزق بسبب النزاع بين ورثته، وبذلك انكسرت حدة خطر التتار على دولة المماليك فى مصر والشام[2].

(١) انظر على سبيل المثال: المقريزى: كتاب السلوك ،ج١ص ٥٢٤، ٥٨٤، ٦٨٠.
(٢) ابراهيم طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص٧٢ وما بعدها.

فقدام ملك الروم وبطركهم وطايفته، واما ابا زخارياس فقدام الحاكم ملك المسلمين واهل مملكته.

وقال انبا افرهام اسقف دمياط المقدم ذكره: شاهدت من الاب القديس يوحنا البطرك عند كونى عنده عجايب عظيمة، فمنها اننى رايت تلميذ من تلاميذه قيل لى انه كان اعما وان ابا يوحنا فتح عينيه، فسالت التلميذ بمطانوه ان

هذا، ويلاحظ أنه فى الوقت الذى سادت العلاقات العدائية بين المماليك من ناحية وتتار فارس والعراق من ناحية أخرى، كانت هناك علاقات ودية ربطت بين المماليك وفرع آخر من التتار هم تتار القفجاق قرب بحر قزوين وشمالى البحر الأسود. وكان تتار القفجاق ـ أو القبيلة الذهبية وفقا للون مخيماتهم الذهبى ـ قد اعتنقوا الاسلام منذ وقت مبكرا مما أدى الى تقارب بينهم وبين القوى الاسلامية فى الشرق الأوسط وعلى رأسها دولة المماليك فى مصر والشام. وقد ظهر هذا التقارب فى صورة تبادل السفارات والهدايا، فضلاعن عقد اتفاقيات ضد العدو المشترك ممثلا فى تتار فارس والعراق[١].

٤ـ سلاطين المماليك البحرية(الدولة التركية)

١ـ شجرة الدر(٦٤٨هـ ١٢٥٠م).

٢ـ المعز الدين أيبك(٦٤٨هـ ١٢٥٠م).

٣ـ المنصور نور الدين على (٦٥٥هـ ـ ١٢٥٧م).

(١) العينى : عقد الجمان، ج٢، المجلد الثالث ورقة٤٩٤(مخطوط) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٠٤ ـ ٢٠٥القلقشندى: صبح الاعشى، ج٧، ص٢٩٥ـ ٢٩٦. النويرى: نهاية الأرب، ج٣٠، ورقة ١٣٧(مخطوط).

يشرح لى خبره. فقال لى: كنت اعما وكنت اجلس فى البيعة عند حوض الما الذى تعطى الناس قربانهم منه، وكنت اجذب ثياب الذين اعرف كلامهم ليصدقو على بشى من مالهم، فجذبت يوم ثوب واحد من الاخوة فمضى وشكانى للاب وكان قد فرغ من تقريب الشعب واعطاهم السلامة وغسل يديه، فخرج الى عندى وقال لى: يا ولدى ما بالك توذى الناس وتخزق ثيابهم. فقلت: يا ابى انا اعمى وضعيف وهم يبصرو اطلب

٤ـ المظفر سيف الدين قطز(٦٠٧هـ ـ ١٢٥٩م).

٥ـ الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى (٦٥٨هـ ١٢٦٠م).

٦ـ السعيد ناصرالدين بركة خان (٦٧٦هـ - ١٢٧٧م).

٧ ـ العادل بدر الدين سلامش (٦٧٨هـ ١٢٧٩م).

٨ ـ المنصور سيف الدين قلاون الألفى (٦٧٨هـ ـ ١٢٧٩م).

٩ـ الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاون (٦٨٩هـ ١٢٩٠م).

١٠ ـ الناصر ناصر الدين محمد بن قلاون (للمرة الأولى)(٦٩٣هـ ١٢٩٢م).

١١ـ العادل زين الدين كتبغا(٦٩٤هـ ـ ١٢٩٤م).

١٢ـ المنصور حسام الدين لاجين المنصورى (٦٩٦هـ ـ ١٢٩٦م).

١٣ـ الناصر ناصر الدين محمد (للمرة الثانية) (٦٩٨هـ ـ ١٢٩٨م).

١٤ـ المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير(برجى) (٧٠٩هـ ـ ١٣٠٨م).

١٥ـ الناصر ناصر الدين محمد (للمرة الثالثة) (٧٠٩هـ ـ ١٣٠٩م).

١٦ـ المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد (٧٤١هـ ـ ١٢٤١م).


نقود الملك الظاهر بيبرس

منهم ان يعطونى شيا صدقة فما يفعلو. قال لي: فان فتح السيد المسيح عينيك فايش تعمل، فقلت: اخدمك الى يوم وفاتي. فاخذ بيده من ذلك الحوض ما وقال: السيد المسيح الذى جبل طينا بتفلته من الارض وطلى به عينى الاعما المطموس وقال له امضى اغسلهما في عين سلوان ينفتحا هو يفتح عينيك هاتين. ورش الما على عينى فانفتحا كما ترى، فخدمته الى الان واخدمه ايضا الى ان اموت تحت رجليه. وعرفنى الثقات المامونين عن

١٧ـ الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد(٧٤٢هـ ـ ١٣٤٢م).

١٨ـ الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد(٧٤٣هـ ـ ١٣٤٢م).

١٩ـ الصالح عماد الدين اسماعيل بن الناصر محمد(٧٤٣هـ ـ ١٣٤٣م).

٢٠ـ الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦هـ ـ ١٣٤٥م).

٢١ـ المظفر سيف الدين حلجى بن الناصر محمد(٧٤٧هـ ـ ١٣٤٦م).

٢٢ـ الناصر ناصر الدين الحسن بن الناصر محمد(للمرة الأولى) (٧٤٨هـ ـ ١٣٤٧م).

٢٣ـ الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد(٧٥٢هـ ـ ١٣٥١م).

٢٤ـ الناصر ناصر الدين الحسن بن الناصر محمد (للمرة الثانية) ٧٥٥هـ ـ ١٣٥٤م.

٢٥ـ المنصور صلاح الدين محمد بن حاجى(٧٦٢هـ ـ ١٣١٦م).

٢٦ـ الأشرف ناصر الدين شعبان(٧٦٤هـ ـ ١٣١٦م).

٢٧ـ المنصور علاء الدين على بن شعبان(٧٧٨هـ ـ ١٣٧٦م).

٢٨- الصالح صلاح الدين حاجى بن شعبان(المرة الأولى) (٧٨٣هـ ـ ١٣٨١م).

٢٩ـ بريق (برجى) (٧٨٤هـ ١٣٨٢م).

٣٠ـ حاجى (للمرة الثاني، وفيها تلقب بالمنصور((٧٩١هـ ١٣٨٩م).

الاب انبا زخارياس عجايب كثيرة، منها ان انبا مرقوره اسقف تلبانه كان جسمه قد تلمع بالبرص وظهر عليه بياض فاحش فحضر عند الاب انبا زخارياس بدمرو(*) في يوم احد فقال له الاب المذكور بتواضع وسكينة ووجع قلب: يا اخى ابا مرقوره انا مساهمك فيما انت فيه وانت تعرف ان الله قال لموسى لا تاخذ بوجه احد فى الحكم وما يصح كهنوت الا بعد ان يقلع السيد المسيح عنك هذا الوضح [البياض] لانه نجس كما سماه

(*) دمرو: من المدن المندرسة كانت تعرف بدمرو الكنايس لأنها كانت فترة مقراً للبطركية كما كان حالها وقت البطرك زخارياس. وكانت قريبة من المحلة الكبرى.

---

٥. المماليك والصليبيون:

على أن خطر التتار لم يكن الخطر الوحيد الذى هدد منطقة الشرق الأدنى فى ذلك العصر، والذى كان على سلاطين المماليك ان يواجهوه معتمدين على قوة مصر وامكاناتها البشرية والمادية. وانما كان على المماليك ان يواجهوا خطر آخر هو الصليبيين.. وبينما كان خطر التتار من النوع الداهم المفاجئ الذى لايرتبط الا بالرغبة فى التوسع والنهب والسلب، ولا يتصف الابسفك الدماء والتدمير الحضارى الشامل، اذ بالخطر الصليبى على الشرق الأدنى يرتبط وقت قيام دولة المماليك ـ بأصول قديمة وعوامل ربما يرجع بعضها الى بداية حركة الغزوات العربية الاسلامية فى اوروبا والاندلس بالذات فى القرن السابع الميلادى.

وقد رأينا أن دولة المماليك فى مصر جاءت وليدة الحركة الصليبية اذ كان الدور الذى قام به المماليك البحرية فى المنصورة ثم فى فارسكور ضد حملة لويس التاسع هو البداية الحقيقة لظهورهم على سطح الأحداث والوصول الى النفوذ والسلطان. ثم ان دولة المماليك قامت والصليبييون على أرض مصر يحتلون دمياط رغم أن ملكهم لويس التاسع كان أسيراً فى المنصورة. وطالما كانت دمياط ـ وهى ميناء مصر الأول فى ذلك العصر ـ فى قبضة الصليبين فانه صار من الممكن اتخاذها رأس جسر لجلب مزيد من الجيوش والأساطيل الصليبية، من الشام أو من الغرب، لاعادة الكرة ضد مصر والمسلمين، وفى ذلك الخطر الجسيم. لذلك

الكتــاب. فــبكا وقــال: عــيننى بصــلاتك يا ابى القديس. وخـرج من عنده ومضى الى كنيسـة فى كرسيه على اسم السيدة الطاهرة مرتمريم العذرى والدة الاله الكلمة، وتلك البيعة فى ضيعة تسمى تمى(*)، فدخلها غداة يوم الاثنين وكان فيها شيخ قسيس اسـمه فـرح وقال لتلميـذه: اذا كـان نهـار الاربعا عشيـة افتقدنى هاهنا فان وجدتنى توفيت ساعـد هذا القس على دفنى هاهنا وان وجـدتنى حى خاطبتك. فمضى عنه التلميـذ ووقف هو بين

(*) تمى: وهو اسمها المصرى القديم كانت مركزاً إدارياً لكورة تناوتمى. تتبع حاليـاً مركـز السنبـلاوين بمحافظة الدقهلية.

حرصت شجرة الدر أولى سلاطين المماليك ـ على ابرام الصلح مع الصليبيين وترتب على ذلك فك أسر لويس التاسع الذى اختار ان يتجه الى عكا حيث قضى أربع سنوات محاولا أن يعيد تنظيم صفوف الصليبيين بالشام ودعم جهودهم(١).

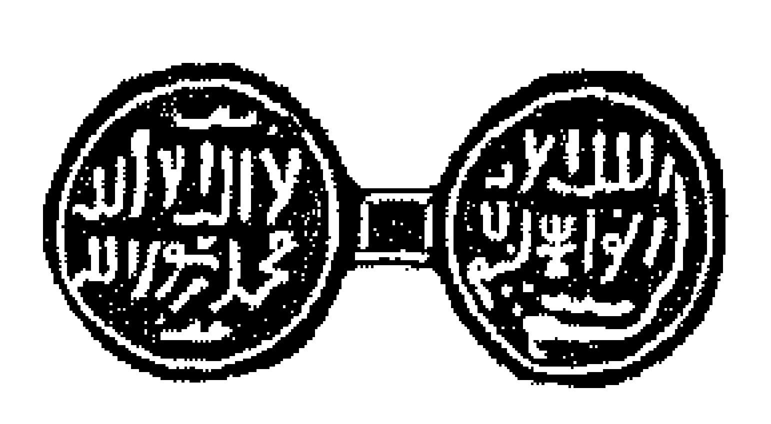
ثم كان ان انتصر المماليك على التتار فى عين جالوت، وبذلك تغلبوا على أول خطرين خارجين هددا دولتهم الناشئة وهما خطر التتار وخطر الأيوبيين بالشام. ومادام المماليك قد ورثـوا الأيوبيين فى ملكهم فى مصـر والشـام، فـانه كـان من الطبيـعى أن يرثوا عن الأيوبيين سياستهم فى جهاد الصليبيين وتقويض دعائم ملكهم بالشام، هذا الى أن المماليك ظلوا بعد عين جالوت فى حاجة الى مزيد من النشاط الذى يضفى عليهم قسطا من الأهمية ونوعا من الشرعية.

وكانت المعاقل الكبرى للصليبيين بالشام عند قيام دولة سلاطين المماليك هى أنطاكيـة وطرابلس، وكل منهما كانت مركزا لامارة صليبية يتبعها عدد غير قليل من الحصون والقلاع الداخلية، فضلا عن عكا التى كانت مركزا لمملكة بيت المقدس الصليبية، وهى المملكة التى غدت منذ أواخر عهد صلاح الدين تمتد فى صورة أو أخرى على شاطئ فلسطين من صور

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٨٥٧ـ ٨٥٩(١٩٨٦).

يدى صورة السيدة باكيا متضرعا يوم الاثنين وليلة الثلثا ويومه وليلة الاربعا ويومه وهو يتشفع بها ضارعا لها فى كشف ذلك الوضح وازالته عنه، فلما كانت الساعة التاسعة من نهار يوم الاربعا خدر من الصوم والتعب فاسند بالحايط الذى فيه الصورة وهو ناعس فراى يد الصورة كانها قد مسحت جسمه فاستيقظ وقد عوفى من مرضه، فاستدعى القس واعلمه بالخبر وساله ان ينظر جسمه كله فراه وقد صار نقيا سالما من الوضح



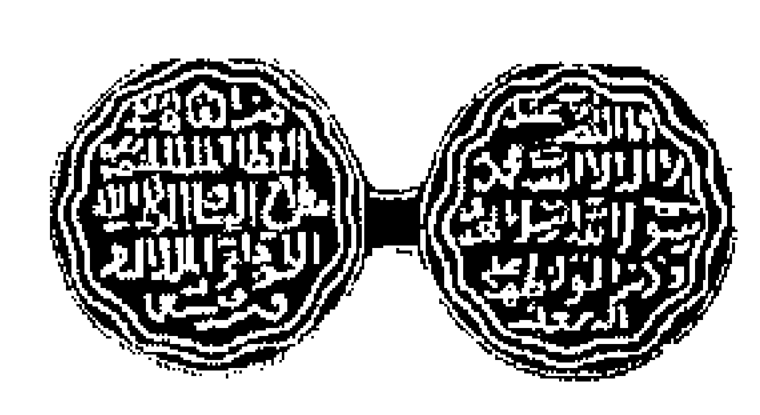
نقود الملك االمنصور قلاون

الى يافا. ومن الواضح أنه كان من الصعب على المسلمين أن يقبلوا هذا الجسم الغريب ـ ممثلا فى جماعات أتت من الغرب واعتمدت فى بقائها وعدوانها على الغرب ـ داخل جسدهم. لذلك ماكاد الظاهر بيبرس يلى منصب سلطنة المماليك سنة ١٢٦٠م (٦٥٨هـ) حتى أراد أن يجعل من نفسه صلاح الدين الثانى، فوضع برنامجا ضخما أبرز أركانه الاعتماد على موارد مصر وامكاناتها الضخمة فى تأمين بلاد الشام من خطر التتار وتقويض البناء الصليبى. وكان أن قام بيبرس ـ الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المماليك ـ بهجمات شاملة متعددة ضد الصليبيين، توجها بالاستيلاء على أنطاكية سنة ١٢٦٨م (٦٦٦هـ)[١]. وكان لسقوط انطاكية فى قبضة المسلمين دلالة بالغة الأهمية بوصفها أولى الامارات التى أسسها الصليبيون فى الشام، وثانى الامارات التى أسسوها بالشرق ـ بعد الرها ـ عند مجيئهم لأول مرة فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد. لذلك جاء استيلاء بيبرس عليها دليلا على بداية انهيار البناء الصليبى من أساسه.

وعندما اعتلى عرش سلطنة المماليك سنة ١٢٧٩م (٦٧٨هـ) السلطان المنصور قلاون،

(١) المقريزى: كتاب السلوك، ج١، ص ٥٦٨، النويرى: نهاية الارب، ج ٢٨ ورقة ٣٠٨ (مخطوط)، مفضل ابن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد، ص١٧١ ـ ١٧٢.

ففرح وشكر السيد المخلص وعظم بكاه، ثم جاه التلميذ اخر النهار فقال له: يا ولدى قد تفضل السيد المسيح بشفاعة السيدة الطاهرة والدته بالعافية ويجب ان اقيم فى هذا الموضع ثلثة ايام اخر شكرا للسيد على ما انعم على به واتينى بالدابة يوم السبت. ثم انه استعمل يسيرا من خبز وما [ماء] واقام هناك ثلثة ايام كما قال. واتاه التلميذ عشية يوم السبت فتوجه الى دمرو ودخل الى الاب زخارياس غداة يوم الاحد وهو فى البيعة



نقود الملك المنصور محمد

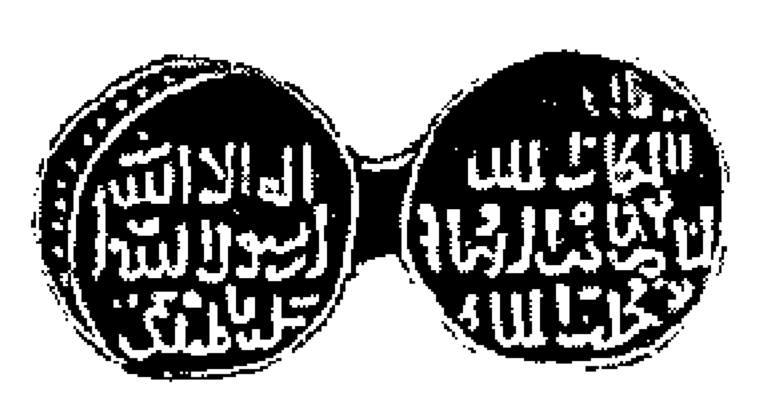
استأنف سياسة الجهاد ضد الصليبيين، فخرج من مصر الى الشام سنة ١٢٨٩م(٦٨٨هـ) على رأس جيش كبير مكنه من الاستيلاء على طرابلس فى تلك السنة(١).

وبذلك لم يبق للصليبيين من ملكهم العريض ببلاد الشام سوى عكا عاصمة مملكتهم، فضلا عن بعض المعاقل الأخرى الأقل أهمية مثل صيدا وصور وعتليت. وقد عكف السلطان قلاون فى مصر بعد ذلك على تعبئة قواته استعداداً للاستيلاء على عكا، خاصة بعد أن وصلت اليها حملة صليبية صغيرة من الغرب اعتدت على الاهالى وقتلت عددا منهم رغم الصلح الذى كان معقودا بين الطرفين. ولكن حدث عندما هم السلطان قلاون بمغادرة القاهرة على رأس جيشه لمحاربة الصليبيين بالشام أن دهمه الموت سنة ١٢٩٠م (٦٨٩هـ) فخلفه ابنه الأشرف خليل الذى خرج الى الشام على رأس الجيوش التى أعدها أبوه، وتمكن بعد جهد كبير من الاستيلاء على عكا سنة ١٢٩١م (٦٩٠هـ)(٢).

ولاشك أن سقوط عكا ـ آخر البقايا الصليبية الكبرى بالشام ـ جعل بقية المعاقل الصليبية الصغيرة تتساقط فى أيدى المسلمين واحدة بعد أخرى، فاحتل المماليك صور وصيدا وحيفا، ثم طرطوس وعتليت.

(١) المقريزى: كتاب السلوك، ج١، ص ٧٤٧، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٢١.
(٢) ابو الفدا: المختصر، حوادث ٦٩٠هـ المقريزى: كتاب السلوك، ج١، ص٧٦٤ ـ ٧٦٥، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج٨، ص٦ وما بعدها.

وعرفه بالخبر وقال: يا ابى هذا بصلواتك. فقال له: بل بامانتك وصلاتك. وجعله تصرف وقدس [يتصرف ويقدس] ذلك اليوم، وقال له: حقا انك احق مني بالقداس لناخذ بركتك عقيب هذه النعمة الجلية التى نالتك، ومجد جميع الحاضرين الله صانع العجايب.



نقود الملك الناصر بن قلاون

وكان انسان شماس من اهل منية مليج معروف مشهور فتخاصم مع زوجته وكانت طاهرة دينة فخرج من عندها وقد امتلأ غيضا شيطانيا فمضى

وكانت الحروب الصليبية فى بلاد الشام قد تمخضت فى الجزء الأخير من القرن الثانى عشر الميلاد(القرن السادس الهجرى) عن مولد مملكتين صليبيتين فى الشرق الأدنى، أولاهما هى مملكة أرمينيا الصغرى فى اقليم قليقية فى الركن الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى، والثانية هى مملكة آل لوزجنان فى جزيرة قبرص. وقد اكتشف المماليك أثناء محاربتهم الصليبيين بالشام مدى ما تقدمه هاتان المملكتان المسيحيتان من دعم لهم، وهو أمر لم تستطيع أن تغفره سلطنة المماليك فى مصر. لذلك أرسل السلطان الظاهر بيبرس جيشا من مصر سنة ١٢٦٦م (٦٥٥هـ) لمهاجمة أرمينية الصغرى، أحرق عاصمتها سيس وخرب مدنها الكبرى أدنة والمصيصة وطرسوس، وأسر كثيرا من رجالها. وقد تكرر هجوم بيبرس على مملكة أرمينية الصغيرى بعد ذلك، فهاجمها سنة ١٢٧٥م (٦٧٣هـ) وخرب المصيصة ودخل سيس وخرب اياس. ويبدو أن بيبرس قام بهذه الضربة عقابا لمملكة أرمينية الصغرى لتحالفها مع تتار فارس[(١)].

ومع أن ملوك أرمينية الصغرى دأبوا بعد ذلك على شراء مسالمة دولة المماليك الا أن السلطان الأشرف خليل ما كاد يفرغ من الاستيلاء على عكا حتى أغار على أطراف تلك

(١) مفضل بن ابى الفضائل: كتاب النهج السديد، ص ١٥٢ـ ٢٢٦.

جامع رجل مونث ووقع معه في الخطية، ثم عاد الى منزله فصالحته زوجته، فلما كان الليل جلس على فراشه وتعرى من ثيابه لينضجع فرات زوجته جسمه وقد وضح جميعه بالبرص، فقامت وقد امتلت خوفا وقالت له: ما الذى فعلت حتى تبرصت انظر الى جسمك، فتامل جسمه وبكا بحرقة وقال لها: يا اختى لما تخاصمت معك اليوم ولعب بى الشيطان ففعلت كذا وكذا ثم لطم وجهه ونتف شعر لحيته وزاد فى البكا، فقالت له

المملكة واستولى على قلعة الروم سنة ١٢٩٢م (٦٩٢هـ)، وفى عهد السلطان المنصور لاجين (١٢٦٩ - ١٢٩٨م = ٦٩٦هـ - ٦٩٨هـ) خرجت حملة أخرى أغارت على مدن أرمينية الصغرى. وهكذا توالت الضربات التى وجهتها سلطنة المماليك الى تلك المملكة المسيحية التى لم تفتأ تساعد الصليبيين فى الشام حينا، والتتار فى العراق وفارس أحيانا، حتى كانت سنة ١٣٠٤م فخرجت حملة كبرى من مصر فى سلطنة الناصر محمد الثانية - لتأديب مملكة أرمينية الصغرى، وأنزل المماليك بها كثيرا من الدمار[١].

ولم تلبث ان ساءت أحوال تلك المملكة ولم تعد تتحمل الضربات المتوالية، فاضطرت الى الاستسلام سنة ١٣٣٧م (٧٣٧هـ) وسلمت قلاعها للماليك. وبذلك غدت فى حالة تبعية لسلطنة المماليك فى القاهرة، وصار عليها أن تدفع جزية سنوية فاذا تأخرت عن دفع هذه الجزية، أغارت عليها جيوش المماليك مثلما حدث سنة ١٣٣٤م (٧٤٤هـ). ويبدو أن أحوال مملكة أرمينية الصغرى ساءت بدرجة أقعدتها عن دفع هذه الجزية مما جعل السلطان اشرف شعبان يرسل ضدها حملة سنة ١٣٧٥م (٧٧٦هـ) أسرت آخر ملوكها ليو السادس وأتت به الى القاهرة حيث ظل سجينا ثمان سنوات حتى جمعت البابوية المال اللازم لدفع فدائه فأطلق

(١) النويرى: نهاية الأرب، ج٣٠، ص٢٣ - ٢٤ (مخطوط)، المقريزى: كتاب السلوك، ج١، ص ٩٤٩، أبو الفدا: المختصر، أبو الفدا: المختصر، ج٤ ص٤٦.

زوجته الخيرة الدينة وهى باكية عليه: قد اخطات يا اخى وغلطت فبادر الى الاب انبا زخارياس القديس وامسك قدميه والزمهما حتى يسال الله فيك فتبرا. فنهض باكرا وركب دابته ومضى الى دمرو وطرح نفسه بين يدى البطرك واكثر البكا والتضرع وتعلق بقدميه واعترف له بما جرى عليه. فقال له: يا ولدى فيك [هل يمكنك] ان تثبت على التعب بين يدى السيد المسيح. فقال له: يا ابى احكم على بما شيت فانى فاعله بمعونة الله لى وبركة صلاتك.

سراحه ليعود الى أوربا.وبأسر ليو السادس سنة ١٣٧٥م سقطت مملكة أرمينيا الصغرى نهائيا، وصارت اقليما تابعا لنيابة حلب، احدى نيابات سلطنة المماليك بالشام[١].

وهكذا فان طرد آخر البقايا الصليبية من الشام فى أواخر القرن الثالث عشر، لايعنى نهاية قصة الحروب الصليبية، اذ استمرت بقية فصول تلك القصة فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ونهضت دولة المماليك بدورها كاملا فى حمل أعباء تلك الحركة.. واذا كانت مملكة أرمينيا الصغرى بحكم موقعها الجبلى المتطرف فى الركن الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى، لم تستطيع أن تقوم الا بدور محدود فى تنفيذ أركان السياسة الصليبية فى الشرق، وخاصة أنها تتصل اتصالا بريا مباشرا بأرض الشام مما جعلها فى متناول فرسان المماليك، فان مملكة آل لوزجنان الصليبية التى قامت فى جزيرة قبرص فى الركن الشمالى الشرقى من حوض البحر المتوسط كانت فى موقع مكنها من أن تقوم بدور أضخم فى تلك المرحلة الأخيرة من مراحل الحروب الصليبية.

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠.
سعيد عبد الفتاح عاشور: سلطنة المماليك ومملة ارمينية الصغرى. (بحث فى كتاب: بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى بيروت، ١٩٧٧).

فـدخل به الى بيت مظلم عنده وتركـه قـايم فى ساطرة [برميل] طرفا [نبات الحناء] يشبه البتيه بعد ان جعل فيها نصفها ملح وجعل وجهه الى الشرق وقال له: يا ولدى واصل الصلاة والتضرع والبكا وتوب ان لا تعود الى خطية، وكان بعد ثلثة ايام وثلثة ليال يطعمه خبز يسير بالميزان ويسقيه الما ايضا بميزان الى تمام خمسة عشر يوم، وجا اليه افتقده وصلى عليه، والى تمام ثلثة اسابيع افتقده ايضا وصلى عليه، والى تمام الشهر جا اليه



انسحاب بقايا الصليبيين من الشام

وفى تلك الأثناء لم يغفل سلاطين المماليك فى مصر عن الدور الذى قام به ملوك قبرص من آل لوزجنان فى مساندة القوى الصليبية بالشام من ناحية وفى الاعتداء على السفن والموانى الاسلامية فى شرق البحر المتوسط من ناحية أخرى. لذلك أرسل السلطان الظاهر بيبرس حملة بحرية سنة ١٢٧٠م (٦٦٨هـ) لغزو قبرص، ولكن هذه الحملة أصيبت بالفشل بسبب ريح عاصفة هبت على السفن الاسلامية قرب شواطئ الجزيرة، فتحطم بعضها، وعاد البعض الآخر دون أن يحقق نتيجة ما[١].

والمعروف ان الحروب الصليبية دخلت دورا جديدا منذ نهاية القرن الثالث عشر عندما تم طرد آخر البقايا الصليبية من بلاد الشام، مما أثار رد فعل عنيف فى الغرب الأوروبى، وجعل المتحمسين للحروب الصليبية ـ وعلى رأسهم البابوية ـ ينادون بأن دولة المماليك هى السبب فى الكارثة التى حلت بالصليبيين وانه لاسبيل لاستعادة بلاد الشام الا باضعاف دولة المماليك فى مصر. ولما كانت الدولة سلاطين المماليك تستمد ثروتها وقوتها من احتكار التجارة بين الشرق والغرب، فان أصحاب المشاريع الصليبية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد نادوا بفرض حصار اقتصادى شديد على شواطئ دولة المماليك فى مصر والشام لمنع التجار الأوروبيين من الوصول اليها، مما يصيب تجارة المماليك بالكساد والبوار ويؤدى الى اضعاف

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٤٧ـ ٤٨.

وكشف جسمه فوجد الوضح قد تناقص عنه فطيب نفسه ثم بشره بذلك، ثم الى تمام اربعين يوما اتاه وتامله فوجده قد طهر ولم يبق في جسمه شيا من الوضح ففرح به وحمه بما حار ودهنه وصلى عليه وقال له: يا ولدى قد عوفيت فاعرف ما ندرته على نفسك ولا تعود الى خطية ولا تظن انني صومتك ثلثة ايام ثم بعدها ثلثة ايام وافطرت انا بل حي هو اسم المسيح ما تغذيت في هذه الاربعين يوما الا بمثل ما غذيتك به ولا كنت افطر



نقود الملك الاشرف

دولتهم. ولتنفيذ هذه السياسة تقرر اتخاذ جزيرة قبرص ـ لما لها من موقع ممتاز في شرق البحر المتوسط ـ مركزا لمراقبة شواطئ مصر والشام من ناحية وشن غارات مفاجئة على موانى سلطنة المماليك من ناحية أخرى(١).

وكان أن صادفت هذه السياسة هوى فى نفوس ملوك قبرص من آل لوزجنان، وهم الذين عرفوا بحماستهم الصليبية الشديدة، فقام أحدهم ـ وهو الملك بطرس الأول لوزجنان ـ بحملة صليبية كبرى على مدينة الاسكندرية سنة ١٣٦٥م (٧٦٧هـ)، انتهت بنجاح الصليبيين في اقتحام المدينة حيث قضوا ستة أيام تعتبر من أحلك الأيام في تاريخ الثغر، اذ انتشر الصليبيون فى شوارع الاسكندرية وأزقتها «فاستلموا الناس بالسيف، ونهبوا الحوانيت والدور، وأحرقوا الخانات والقصور، وخربوا المساجد والزوايا، واعتدوا على النساء والبنات». وبعد أن حمل الصليبيون في سفنهم ما خف حملة وغلا ثمنه ـ فضلا عن عدد كبير من الأسرى ـ هربوا فى سفنهم عائدين الى قبرص عندما سمعوا باقتراب جيش المماليك الذى خرج مسرعا من القاهرة لانقاذ الثغر(٢).

ويبدو أن دولة المماليك البحرية فى أواخر أيامها عندئذ كانت تعانى شيئا من الانحلال

---

(1) Heyd: Hist. du Commerce de Levant' I, Ps. 7,378&II, Ps. 56, 57, 436.

(٢) النويرى: الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام، ج١، ص ١٧٤، ١٦٤(طبعة حيدر اباد).

الا فى الوقت الذى كنت افطرك فيـه بمثل الخبـز والما الذى كنت اغـذيك به سـوا. ثم بارك عليـه وامره بالانصراف الى منزله فعاد الى زوجته المباركة فرحا مسرورا.

وذكر الشيخ علم الكفاه ابو يحيى اصطفن ابن مينا التوريجى الكاتب انه مضى مع عم له اسمه زكيـر الى دمـرو وسلمـو على الاب انبا زخـارياس، البطرك. رزقنا الله بركة صلاته فخرج الاب ماشيا بلا دابة الى طمباره(*) حتى سلم على انسان نوبى

(*) طمباره: هى طنباره الحالية تابعة لمركز بيلا محافظة كفر الشيخ.

وعدم الاستقرار، فلم تتمكن من الثأر السريع من قبرص وملوكها. ولكن أهل مصر لم يستطيعوا أن ينسوا ما حل بالاسكندرية على أيدى القبارصة من خراب ودمار فى الحملة السابقة. لذلك ما كادت الأمور تستقر بقيام دولة المماليك الجراكسة أو البرجية سنة ١٣٨٢م (٧٨٤هـ) حتى بدأت الأنظار تتجه للثأر من جزيرة قبرص سنة ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦م (٨٢٧هـ، ٨٢٨، ٨٢٩هـ)، نجحت الحملة الأخيرة فى انزال هزيمة كبرى بالقبارصة وأسر الملك جانوس واحضاره مع عدد كبير من الأسرى الى القاهرة حيث زفوا فى شوارعها. ومنذ ذلك الوقت وجزيرة قبرص تعتبر «من جملة بلاد السلطان»، أى تابعة لمصر وتدفع لها جزية سنوية، حتى سقوط سلطنة المماليك على أيدى العثمانيين سنة ١٥١٧م (٩٢٢هـ)[١].

على أن جزيرة قبرص لم تكن وحدها مصدر الخطر على مصر والشام فى ذلك الدور الأخير من أدوار الحركةالصليبية ، وانما شاركتها جزيرة رودس فى ذلك، وكانت رودس قد غدت منذ سنة ١٣١٠م (٧١٠هـ) مركزا للفرسان الاسبتارية، وهم فرقة من فرسان الصليبيين قاموا فى بلاد الشام بدور كبير فى خدمة الهدف الصليبى، حتى اذا ما دالت دولة الصليبيين بالشام، غادروها الى قبر ص ومنها الى رودس ليواصلوا نشاطهم ضد مصر والشام.

(١) المقريزى: كتاب السلوك، ج٤، ص ٦٣١، ٧٢٤ ـ ٧٢٥ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص ٧٢ ـ ٧٣، ١٠٤ ـ ١٠٥ (حيدر أباد)

راهب اسمه ششيه واخذ بركته قبل ان يبارك عليه
واكرمه كرامة كثيرة وخضع له وبجله، فلما خرج
من عنده سالوه الذين كانو معه وقالو له: ما
السبب في تعظيمك لشان هذا وخضوعك له
وتقديمه عليك في البركة وانت بطرك الاقليم.
فقال لهم هذا كان الحاكم طرحه معي للسباع بعد
تجويعها فكانت السباع تخضع له وتلحس رجليه
قبلي.

وعندما تأكد سلاطين المماليك في مصر من حقيقة الدور الذى يقوم به فرسان رودس فى مهاجمة سفن المسلمين وشواطئ بلادهم، قام السلطان الظاهر جقمق بارسال ثلاث حملات من مصر لغزو رودس سنة ١٤٤٠، ١٤٤٣، ١٤٤٤م (٨٤٤، ٨٤٧، ٨٤٨هـ) انتهت بعقد صلح بين الطرفين، دون أن يفلح المماليك فى اخضاع رودس مثلما نجحوا فى اخضاع قبرص[١].

وأخيرا، فان نشاط المماليك الحربى لتأمين مصر والشام لم يقف عند حد ما قاموا به من حروب ضد التتار من جهة والصليبيين من ناحية أخرى وانما أنفذ سلاطين دولة المماليك الأولى أو البحرية عدة حملات الى البلاد الواقعة جنوبى مصر حيث قامت مملكة مسيحية كبيرة ـ عرفت باسم مملكة النوبة ـ دأبت على الاغارة على حدود مصر الجنوبية، اما بدافع العصبية الدينية أو رغبة فى السلب والنهب. وقد نجح سلاطين المماليك فى كسر شوكة تلك المملكة واضعافها. حتى كان أوائل القرن الرابع عشر فأخذت تخضع لمصر وينتشر فيها الاسلام، مما أحدث تغييرا جذريا فى العلاقات بين سلطنة المماليك فى مصر وتلك البلاد[٢].

وهكذا غدت مصر فى عصر سلاطين المماليك مركزا لدولة قوية، خافها الاعداء، ونجحت

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٣٤١ ـ ٣٦٣.
(٢) المقريزى: نهاية الأرب، ج٢٨، ص ١٠٩، ج٢٩، ص٢٧٤، ج ٣٠ ص٩٥ـ (مخطوط).=

سانوتيوس [شنوده] البطرك وهو من العدد الخامس والستون

[١٠٣٢ / ١٠٤٦م]

فلما تنيح انبا زخارياس البطرك طلب قوم البطركية وطمعوا ان ينالوها بيد السلطان وان يلزموا الاساقفة بتقديمهم، فلما علم بذلك بقيره الكاتب الرشيدى، صاحب الصليب الذى فيه الغيرة لله تعالى، جمع قوما اخيار ومضى الى الوزير

فى أن تقوم بدورها كاملا فى حماية المنطقة وتأمينها ضد الأخطار التى هددتها. ولم يلبث أن امتد نفوذ المماليك على الحجاز وبلاد اليمن[1]، وغدت القاهرة فى عصرهم قبلة السفراء والمبعوثين من بلاد الشرق والغرب جميعا، يطلبون صلحا أو هدنة، أو عقد اتفاقية تجارية، أو تاييدا ضد خصومهم، بحيث حققت مصر لنفسها زعامة مرموقة فى البلدان المحيطة بها وسواحل البحر المتوسط.

ودعم هذه المكانة ما تمتعت به مصر فى ذلك العصر من رخاء اقتصادى مرموق انعكست صورته فى نظم الحكم والادارة من ناحية وفيما اتصفت به الحياة الاجتماعية والعلمية والدينية من نشاط من ناحية أخرى. وهى الجوانب التى تتضح بالقاء نظرات سريعة عليها.

٦. النشاط الاقتصادى فى عصر سلاطين المماليك:

كانت ثروة مصر فى عصر سلاطين المماليك هى الدعامة التى مكنتهم من القيام بذلك النشاط الواسع فى داخل البلاد وخارجها. وعند الكلام عن النشاط الاقتصادى فى ذلك

=ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج٧، ص٤٥ ـ ٤٦، ج٨ص ٨٢ ابن عبد الظاهر: تشريف الايام والعصور، ص١٥٣ـ ١٥٥ مصطفى مسعد: الاسلام والنوبة ص ١٥٣، ١٦٠، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٩ .

(١) المقريزى: كتاب السلوك، ج١، ص٤٤٥، ٥٦٠، ٥٧٩، ٥٦٣ ٥٩٥ ٦٢١، ج٢ ص٣٣ـ ٣٨، ١٩٧، ٢٣٩، ٢٥٩ـ ٢٦٠.

على ابن احمد [الجرجرائى](*) وخاطبه فى ذلك، وكان رجل يفهم ويحب النصارى فقال لبقيره ومن معه: يجب لبيت المال المعمور على من يقسم [يعين] بطركا ثلثة الف دينار وقد تركناها كرامة لكم وما تفعلو بعد هذا ما يرضى الله سبحنه كما يفعل عندنا ببغداد. وذلك انهم اذا ارادو يقدمو انسان للبطركية اجتمعو فى البيعة واختارو ممن فى الديارات ماية رجل ومن الماية خمسين ومن الخمسين خمسة وعشرين ومن الخمسة وعشرين

(*) اسند الخليفة الظاهر سنة ١٠٢٧م = ٤١٨هـ، منصب الوزارة إلى نجيب الدولة على بن الجرجرائى بالعراق، ثم انتقل إلى القاهرة، وعهد إليه الخليفة الظاهر بإدارة بعض الدواوين. ولكنه غضب عليه وقطع يديه من المرافق. ثم عينه واليا على ديوان النفقات سنة ٤٠٩هـ. وظل ينتقل فى بعض الوظائف الادارية ببلاد الصعيد إلى أن اختاره وزيرا له. فاتخذ القاضى أبا عبدالله القضاعى كاتبا له.

العصر تحتل التجارة مكانة خاصة، بوصفها المصدر الأول لشراء المماليك وقوة دولتهم فى مصر، ذلك أن الظروف شاءت أن يكون قيام دولة المماليك فى مصر فى منتصف القرن الثالث عشر مصحوبا بازدهار طريق البحر الأحمر وموانى مصر، واضمحلال ماعداه من طرق التجارة الرئيسية الأخرى بين الشرق والغرب. وقد رأينا أنه لم يكد يمضى على قيام دولة المماليك سنوات معدودة حتى استولى التتار على بغداد سنة ١٢٥٨م، وامتد نفوذهم الى الشام وآسيا الصغرى، فضلا عن بلاد فارس التى اتخذها هولاكو مركزا لدولته فى الشرق الأوسط، وبذلك لم يبق آمنا بعيدا عن سيطرة التتار وخطرهم من طرق التجارة بين الشرق والغرب سوى طريق مصر والبحر الأحمر.

وكان أن أفاد سلاطين المماليك فى مصر من ذلك الموقف فائدة ضخمة فعملوا على تأمين طرق التجارة داخل مصر بحيث تصل المتاجر الواردة من الشرق سليمة من موانى البحر الأحمر ـ خاصة عيذاب ـ الى موانى البحر المتوسط وخاصة دمياط والاسكندرية حيث يفد التجار الأوروبيون والايطاليون لشرائها وحملها. هذا بالاضافة الى تأمين الملاحة فى البحر الأحمر نفسه. ومن على جانب أخرى فان سلاطين المماليك عملوا على اغراء تجار الشرق على جلب بضاعتهم الى مصر ، ثم اغراء التجار الأوربيين على التردد على مصر وموانيها لشراء تلك البضائع،وقد دأب السلاطين المماليك على اصدار التعليمات لنوابهم بالثغور بحسن

عشرة ومن العشرة ثلثة ويكتبوا اسماوهم الثلثة فى ثلثة رقاع والرابعة يكتبوا فيها اسم الرب وتشمع بنادق(*)، وتجعل على الهيكل ويصلو ويقدسو وبعد الصلاة والقداس يجيبو طفل صغير من أولادهم ما عليه خطية فيمد يده وياخذ احدتهن [احداهن] فان كان فيها اسم من الثلثة أوسموه بطركا وان كان فيها اسم الرب علمو ان ما فى الثلثة من يصلح فيكتبو اسما ثلثة اخر ولم يزالو كذلك الى ان يصطفى الله سبحنه من يختاره

(*) تشمع بنادق: اى تطوى كالبندق وتكسى بالشمع.

معاملة التجار وملاطفتهم والتودد اليهم وترغيبهم. بل ان السلطان قلاون كتب منشورا الى التجار «من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم».. يرحب بقدومهم الى مصر ويصف لهم محاسنها.. «لأنها فى الدنيا جنة عدن لمن قطن، ومسلاة لمن تغرب عن الوطن..»[1]. وهكذا اكتظت المدن والثغور المصرية بمؤسسات التجارة مثل الفنادق التى كان ينزلها التجار الأوربيون، والوكالات والخانات التى كان ينزل بها التجار الشرقيون والمسلمون فيجدون فيها الراحة والمأوى ويعقدون صفقاتهم التجارية من بيع وشراء، ويحفظون أموالهم وبضائعهم[2].

وعلى رأس البضائع التى قامت عليها عظمة دولة المماليك وثروتها، كانت التوابل من فلفل وبهار وقرنفل ونحوها. وقد عرف تجار التوابل باسم الكارمية، واتخذوا مدينة قوص فى صعيد مصر سوقا تجاريا واسعا لمنتجات وسط أفريقيا والهند والحبشة واليمن وساعد على ذلك ان البضائع كانت تنتقل اليها من ميناء عيذاب على البحر الأحمر عبر الصحراء الشرقية، ومن قوص كانت تنقل فى النيل شمالا الى القاهرة ودمياط والاسكندرية[3]. على أنه يبدو أن

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٤٠ـ ٣٤١.
(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص٨٦ ـ ١٠٧ (بولاق).
(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص ٣٨٢، المقريزى: كتاب السلوك، ج٢، ص ١٣٢، ١٠٣.

فيطلع اسمه فيوسموه بطركا وهكذا يجب ان تفعلو انتم ها هنا، فتعجبو من حكمته وفهمه وشكروه ودعو له ومضو، فاجتمع الاساقفه ومعهم رويسا وادى هبيب فلم يفعلو كما قال لهم الوزير بل جلسو يفكرو فى قوم يختاروهم ليوسمو منهم واحد، فذكر انسان كان قد ترهب وعمره اربعة عشر سنه اسمه شنوده وقد صار قسيسا فى اسكنا ابو مقار عارفا بالكتب المقدسة وهو من اهل تلبانة(*) عدى وترهب فى منشوبية تعرف

(*) تلبانه: من مدن مركز المنصورة محافظة الدقهلية.

الثروة الكبيرة التى حصلت عليها دولة المماليك من ذلك النشاط التجارى، دفع بعض سلاطين الدولة الجركسية أو البرجية الى تطبيق سياسة الاحتكار التجارى ـ وخاصة فيما يتعلق بالتوابل والبخور مما أدى الى ارتفاع أثمانها ارتفاعا فاحشا ، وأنزل الضرر بالتجار الأوروبين والمستهلك الأوروبى. ومازال الوضع يتأزم، حتى دفع الضيق القوى البحرية الايطالية فى أواخر العصور الوسطى الى البحث عن طريق آخر يوصلها الى الهند والشرق الأقصى عبر طريق رأس الرجاء الصالح، مما حرم مصر من الثروة الهائلة التى كانت تجنيها نتيجة لاحتكار تجارة الشرق، وأدى بالتالى الى اضعاف دولة المماليك وذبولها[1].

ومن الطبيعى أن تنتعش التجارة الداخلية فى مصر فى ظل نشاطا التجارة الخارجية. وقد اشتهرت المدن المصرية ـ وعلى رأسها القاهرة ـ بأسواقها العامرة بالبضائع. وأهم ما يلاحظ على هذه الأسواق ان كلا منها اختص بنوع معين من البضائع، فسوق الشماعين اختص ببيع الشمع، وسوق النحاسين اختص ببيع النحاس وهكذا. ومن محاسن هذا النظام ان التاجر لم يستطيع أن يشذ عن جيرانه أو أن يرفع أسعار السلعة التى يتجر فيها، لأن منافسيه على مقربة منه، كما أن المشترى ان لم يعجبه نوع السلعة أو ثمنها فانه يستطيع أن ينتقل فى سهولة من

(1)Weit: L,Egypte Arabe, p. 5 73.& Ronciere: La Decouverte de l, Afrique au Moyen Age, Tome 3, P. 31.

(*) دنجاية: من القرى القديمة وهى التى بمركز شربين قرب دمياط. ويعرفها العامة باسم دنجيه.

بدنجايه(*) وكان بعض الاساقفة يخيره [اختاروه] لعلمه، كان شيخ فبقيو حايرين فى من يقسموه هو او غيره، فراى احد الاساقفة قايلا يقول له فى منامه: «اول من يدخل اغدا [غداً] من باب البيعة ويقبل الاجساد خذوه فهو البطرك». فانتبه لوقته واعلم الاخوه. الاساقفة بذلك، فلما اصبحو دخل شنوده فاخذوه للوقت. وكان قبل هذا فى ليلة اليوم المذكور قد راى فى منامه بطرس الرسول ويوحنا الانجيلى وكانهما قد دفعا له مفاتيح، فلما

متجر لآخر دون أن يتحمل أدنى مشقة.أما عيوب هذا النظام فأهمها أن الفرد اذا أراد شراء عدة أصناف متباينة من البضائع، فعليه أن يقطع المدينة كلها طولا وعرضا حتى يقضى حاجاته لأنه لن يجد فى السوق الواحد سوى نوع واحد من البضائع.

وبالاضافة الى التجارة، ظلت الزراعة تمثل ركنا أساسيا فى حياة مصر الاقتصادية فى تلك العصور، فأهتم سلاطين المماليك بالزراعة بوصفها الحرفة الأولى لغالبية السكان والمورد الأول الذى عاش عليه معظم الأهالى. وظهر هذا الاهتمام فى العناية بالترع والجسور ومقاييس النيل ونحوها. واشتهرت مصر فى ذلك العصر بانتاج القمح الذى كان محصوله يزيد عن حاجة البلاد، مما جعل السلاطين يمدون بلاد الشام والحجاز بمقادير وفيرة منه. هذا فضلا عن الكتان وقصب السكر والخضروات والفواكه وغيرها[1].

ويرتبط بالانتاج الزراعى الثروة التى عنى سلاطين المماليك بتنميتها وتنويعها، فأكثروا من انتاج الأغنام وجلب الأنواع الممتازة منها لتربيتها. ويقال ان السلطان الناصر محمد بن قلاون قام بمشروع هام للعناية بالثروة الحيوانية، اذ بنى حظيرة كبيرة على قطعة أرض بجوار قلعة الجبل وأجرى اليها الماء من القلعة وأنشأ بها بيوتا للدواجن وأخرى للأغنام والمواشى، ثم أودع

(1) المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج1، ص 101 (بولاق).

انتبه قال لراهب كان معه فقال: رايت فى منامى
كذا وكذا. فقال له الراهب: البطركية تصير لك.
وقيل ان شنوده هذا كان مشتهى لهذا وكان قد
التمس اسقفية مصر ولم يكن معه شيا يدفعه عن
ذلك فطردوه وجعلو فيلاتاوس اسقفا على كرسى
مصر وانهم قبل ان يلبسوه ثوب البطركية استقر
بينه وبين الاساقفة ان يقسم لهم يونس الراهب
الذى سعى بالاب زخارياس الى الحاكم اسقفا
للفرما لخوفهم من لسانه ومضو به الى قلايته

بها ألفى رأس من الضأن بعث فى طلبها من بلاد الصعيد وأربعة آلاف من الوجه البحرى، فضلا عن عدد كبير من البقر ، هذا وبعث فى طلب الأغنام الممتازة من بلاد النوبة واليمن[1].

أما الصناعة والفنون فقد ازدهرت فى عصر سلاطين المماليك نتيجة للثراء الذى اشتهرت به مصر. والمعروف عن الصانع أو الفنان أنه يحاول دائما أن يرقى بانتاجه اذ اطمأن الى أنه سيجنى فى النهاية ثمن أتعابه ويتقاضى أجرا يتناسب مع ما يبذله مسن جهد ووقت. ومن ناحية أخرى فان المستهلك اذا ارتفع مستواه المادى وعظمت ثروته وزادت عن مطالبه الأساسية، فانه يفكر فى اقتناء الكماليات ويتأنق فى اقتناء التحف والنفائس. وهذا وذاك كانا من العوامل التى أثرت فى ارتقاء الصناعة والفنون فى مصر فى عصر سلاطين المماليك[2].

فبالاضافة الى الى الصناعات الحربية من أسلحة وسفن ونحوها، ارتقت صناعة المنسوجات وصناعة المعادن وصناعة الزجاج وصناعة الأخشاب وصناعة الجلود وغيرها. فمن المنسوجات اشتهرت مصر بانتاج الاقمشة الحريرية والقطنية والصوفية والكتانية التى أمتازت جميعا بدقة

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص ٢٢٩.
(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام. ص ٢٧٨.

وضـــرب له مطانوه ان يســاعــده على كل شى
ويجـعله عنده مـثل اخ، فـقـال له: ان اردتنى
اساعدك فاكتب لى خطك تعطينى فى كل سنة
ثلثون دينارا اعيش بها لان كرسى الفرما الذى
تجعلنى عليه ما فيه شى، وتقسم اخى فى كرسى
اخر، فكتب خطه بذلك، واقامو الاساقفة بعد هذا
ايام مجتمعين ولم يتفق رايهم على قسمته، وكان
كل واحد منهم يذكر واحد من قراييه او صديق له
ليصير بطركا الى بعد اسبوع، فقال لهم يونس

الصناعة وجمالها وجودة الخامة ومتانة النسيج، وهو الأمر الذى تشهد عليه قطع النسيج المتبقاة من ذلك العصر. وعن صناعة المعادن استخدم النحاس بصفة خاصة فى صناعة الثريات والأوانى المنزلية والأباريق والصحون والطسوت، فضلا عن تغطية بعض أبواب المساجد وقصور السلاطين والأمراء.

وانتشرت فى عصر سلاطين المماليك صناعة تكفيت ـ أى تطعيم ـ البرونز والنحاس بالذهب والفضة واشتهرت بهذه الصناعة سوق الكفتيين بالقاهرة. وعن صناعة الزجاج فى مصر كانت أهم مراكزها الفسطاط والفيوم والاشمونين والاسكندرية.

وتشهد المشكاوات الزجاجية المحفوظة فى مختلف دور الآثار فى العالم والتى صنعت فى مصر فى ذلك العصر على مدى تقدم هذه الصناعة وتقدمها. هذا فضلا عن الخزف الذى كانت مصر مركزا لصناعته فى العالم، والذى صنعت منه أنواع متعددة الاشكال والألوان، بعضها صناع خصيصا للسلاطين والأمراء وعليه الرنك أو الشعار الخاص بكل منهم. ومثل ذلك يقال عن المصنوعات الخشبية التى استخدم فى زخرفتها الخرط والتعطيم والحشوات. وكان تطعيم الخشب يتم عادة بالعاج أو الأبنوس لاسيما فى الكراسى والمناضد والأبواب وحوامل المصاحف. أما المصنوعات الجلدية ـ خاصة السروج ـ فكانت لاتقل جمالا وحسنا

٦٥: سانوتيوس البطرك ١٠٣٢ / ١٠٤٦ م

الراهب المقدم ذكره: جلوسكم هذا الى متى وكل
واحد منكم يطلب شهوة نفسه وما يصلح لكم
غير شنوده رجل قديس عالم قد قرى الكتب
وفهم. ووصفه واطنب فى وصفه وساعدوه
الاساقفة. فانفذو احضرو شنوده وجعلوه اغومنس
وسارو به الى اسكندريه، واجتمع اسكندرانيين
ليقررو شيا يتعلق بهم فاخذو خطه بخمس ماية
دينار فى كل سنة يصرفوها فى مصالح كنايسهم،
واخذو خطه بان لا ياخذ من احد شرطونية ولا

عن أنواع المصنوعات السابقة[1].

وبالاضافة الى هذه الصناعات التى ترتبط فى معظمها بما يمكن تسميته الفنون الصغرى، ارتفعت الفنون الكبرى ـ وهى العمارة والتصوير والنحت ـ رقيا كبيرا فى مصر على عصر سلاطين المماليك. ومازالت العمائر ـ دينية ومدينة ـ القائمة فى القاهرة وغيرها من المدن من جوامع ومدارس وقصور وقباب وغيرها تشهد كلها على ما بلغته تلك الفنون من رقى فى مصر فى عصر سلاطين المماليك، ومن أجمل هذه العمائر الخالدة جامع ـ أو بمعنى أصح مدرسة ـ السلطان الناصر حسن وقبة ومدرسة وبيمارستان السلطان قلاون، ومدفن برقوق، وقصر الأمير بشتاك وغيرها[2].

وكثير من هذه العمائر كسيت بالرخام وزخرفت زخارف جميلة، من وحدات نباتية أو رسوم هندسية، فضلا عن بعض الآيات القرآنية المكتوبة بالخط الكوفى المزخرف الجميل مما يشهد على رقى فن الرسم والزخرفة فى ذلك العصر، وهو الفن الذى ظهر أيضا فى زخرفة الخزف والمنسوجات والتحف المعدنية والزجاج والبللور، فضلا عن أغلفة الكتب، أما فن النحت والحفر فارتقى بأنواعه المختلفة، سواء النحت أو الحجر والرخام أو الحفر فى الخشب، أو فى

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢ص ٩٦ـ ٩٩، ١٠٢ـ ١٠٥ (بولاق).
(٢) زكى محمد حسن: فنون الاسلام ص ٧١، ص٧٧ ـ ٨٤.

يطلب عن موهبة [هبات وصدقات] المسيح دينار
ولا درهم ولا اكثر من ذلك، والزموه قبل قسمته
عن رسوم جرت عادتهم بها للوالى ماية دينار، فلما
قسموه ولم يكن معه ما يدفعه للوالى ولا له ايضا
فقال له قوم منهم: انت اخير من ابايك الذين كانو
ياخذون الشرطونية ويدفعونها فى هذا وغيره؟
فوافقه ذلك، وكان كرسى بنا [مركز ميت غمر]
خال وكان هناك انسان اسمه يستس وله ابن اخت
اسمه رفاييل فقرر معه عن الكرسى ستماية دينار

العاج والعظم. وتوجد فى العمائر التى ترجع الى ذلك العصر فضلا عن التحف المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة ومختلف دور الآثار والمتاحف فى العالم، أمثلة ونماذج لتحف رائعة ترجع الى عصر المماليك وتشهد على ما بلغه فن النحت والحفر من رقى وجمال[١].

٧. نظم الحكم والادارة والقضاء فى عصر سلاطين المماليك:

على أن النشاط الاقتصادى الذى اتصف به التاريخ المصرى فى عصر سلاطين المماليك ليس وحده مصدر القوة الكامنة وراء تلك الطاقة الضخمة التى مكنت مصر فى ذلك الدور من اتمام تلك المنجزات العظيمة فى الداخل والخارج، وانما كانت تساند ذلك النشاط نظم محكمة عملت دولة المماليك فى ظلها، وظلت هذه الدولة محتفظة بمكانتها طالما بقيت النظم التى قامت على أسسها سليمة محترمة. فلما اختلت تلك النظم اختل توازن الدولة وتضعضعت أحوالها مما أدى الى سقوطها.

فعلى رأس دولة المماليك وجد سلطان لم يتول الحكم نتيجة لحق شرعى موروث، وانما رشحته قوته ومواهبه وكثرة مماليكه لتولى ذلك المنصب. فاذا توفى السلطان القائم اتيحت

(١) زكى محمد حسن: أطلس الفنون الزخرفة والتصاوير الاسلامية ص ٤٢٣ـ ٤٢٧ ديماند: الفنون الاسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، ٨٧، ١١٠، ١٣٢ـ ١٣٣.
حسن الباشا: التصوير الاسلامى فى العصور الوسطى، ص١٦٥.

ولم يكن معه شى غير نصف وربع دينار، فمضى
الى قوم مسلمين واقترض ذلك منهم بالربا وكتب
على نفسه حجة بان يدفع لهم بذلك ثمار لوز من
سعر اردب وثلث بدينار، وحينيذ قسمه فاقام سنتين
على كـــرســـيـــه ومـــات، ودفع البطرك المال
للاسكندرانيين، وفسخ ما كان استقر معه من انه لا
ياخذ شرطونية، واحب المال وجمع منه شى كثير
ووهبه لاهله، وكان محب لمجد هذا العالم.

ولما خـــرج من اسكندريه واتو به الى مـــصـــر

الفرصة لأقوى الأمراء أن يخلفه في الحكم. فاذا رأى ذلك الأمير أن الظروف غير مواتية وأن هناك من زملائه الأمراء من ينافسه، فانه يلجأ في هذه الحالة الى تعيين ابن السلطان المتوفى مكان أبيه، لا اعتقادا من المماليك فى أحقية ذلك الابن، ولكن كحل مؤقت حتى يسهل على أقوى الأمراء عزله واحتلال عرش السلطنة. وبعبارة أخرى، فان المماليك لم يؤمنوا بمبدأ الوراثة فى الحكم.

ومع أن السلطان تمتع بنفوذ واسع، وخاصة فيما يتعلق تأمير الأمراء وملء المناصب الكبرى فى الدولة وتوزيع الاقطاعات، الا أنه لم يستغن فى أحوال كثيرة عن استشارة كبار رجال الدولة فى مهام الأمور، وبخاصة المسائل المتعلقة بشن الحرب أو عقد السلم. ولذلك وجد فى عصر المماليك مجلس المشورة الذى كان يعقد برئاسة السلطان أو من يقوم بالوصاية عليه، وعضوية أتابك العسكر والخليفة العباسى والوزير وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين وعدهم أربعة وعشرون أميرا. هذا مع ملاحظة أن السلطان لم يكن ملزما بدعوة مجلس المشورة أو الأخذ برأيه وانماترك ذلك لرغبة السلطان ومشيئته[1].

والى جانب السلطان وجد عدد من كبار الموظفين، مهمتهم مساعدته فى شئون الحكم

(١) خليل بن شاهين: زبدة كشف المماليك ص ١٠٦، المقريزى: كتاب السلوك، ج٢، ص ٤٩٨.

ليكرزوه نزل فى كنيسة ميكاييل المختارة التى فى جزيرة مصر [جزيرة الروضة]، ومضى اليه جماعة الكهنة والاراخنة ليتباركو منه، وكان معهم الشماس بقيره الرشيدى صاحب الصليب، فلما سلمو عليه واخذو بركته وجلسو قال لبقيره: ملك الرب فلتزجر الشعوب، قال له بقيره: ما معنى هذا الكلام يا ابونا؟ فقال له: انا طلبت اسقفية مصر ما رضيت بى وطلبت فيلاتاوس وهو ذا الرب قد جعلنى ملك بغير اختيارك. فاغتاضو الاراخنة منه

والادارة، ومن هؤلاء الموظفين نواب السلطان، واحد بالقاهرة يعتبر ساعده الأيمن فى تصريف شئون الدولة، وستة فى الشام فى النيابات الكبرى على رأسهم نائب دمشق. واى جانب نواب السلطان وجد الأتابك، وهو القائد العام للجيش، والوزير الذى تضاءل نفوذه نتيجة لوجود نائب للسلطنة[1].

أما الادارة المحلية فى المدن والاقاليم فقد أشرف عليها عدد من الولاة اختيروا دئما من أمراء المماليك، فيما عدا مدينة الاسكندرية التى عين لها نائب سلطنة منذ سنة ١٣٦٥م (٧٦٧هـ)[2].

واعتمد هذا الجهاز الادارى الضخم على مجموعة من الدواوين الكبيرة، وهى أشبه بالوزرات اليوم، منها ديوان الجيش وديوان الانشاء، وديوان الاحباس أو الأوقات وديوان النظر الذى اختص بمراقبة حسابات الدولة.

واما شئون القضاء والعدالة فقد أولاها سلاطين المماليك جانبا كبيرا من اهتمامهم وعنايتهم. وكان أهم تطور فى النظام القضائى فى عصر المماليك هو ما قام به الظاهر بيبرس

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٦ـ ١٧، ص ١٨.
(٢) الخالدى: المقصد الرفيع، ص ١٢٦،
القلقشندى: صبح الاعشى، ج٣ ٤٠٤، ج٤ص ٢٤، ج١١ ص ٤٠٥.

ونظر بعضهم الى بعض وهمو بالقيام، فقال له بقيره: هذا الكلام قاله داوود النبى فى المزمور عن السيد المسيح وحده لانه ملك على اليهود من غير ان يشتهوه ان يكون عليهم ملكا لانه جا لخلاص العالم، وهو ذا انت الان شبهت نفسك بالرب وشبهتنا باليهود. وقامو خرجو مغضبين قايلين ليس فى مملكتك خلاص، وبالحقيقة ليس كان فيها خلاص لانه اول من قسم اسقف بنا الذى تقدم ذكره واخذ منه ستماية دينار، واقسم بعده بدير

سنة ١٢٦٥م (٦٥٥هـ) من تعيين أربعة من قضاة القضاة يمثلون المذاهب الأربعة لأهل السنة بعد أن كان الوضع منذ أيام صلاح الدين هو وجود قاضي واحد يمثل المذهب الشافعي[١].

وقام القضاة فى ذلك العصر بدور هام فى المجتمع اذ امتدت اختصاصاتهم الى مختلف أنواع القضايا المدنية والجنائية. هذا فى حين اختص قضاة العسكر بالنظر فى القضايا التى يكون طرفاها أو أحدهما من الجند. أما محكمة المظالم فكانت تعقد برئاسة السلطان للنظر فى القضايا التى اختص السلطان بها مباشرة أو التى يستأنفها أصحابها أمام السلطان غير راضين عن الحكم الذى أصدره القضاء فيها، أو تلك التى تنشأ بين الحكام والمحكومين[٢].

٨ـ النظام الاقطاعي الشرقي والفلاح:

كانت دولة المماليك دولة اقطاعية بكل معانى الكلمة فقسمت أراضي مصر فى عصر سلاطين المماليك الى أربعة وعشرين قيراطا، اختص السلطان منها بأربعة قراريط، والأمراء بعشرة، والأجناد بعشرة. وكان الاقطاع أمرا شخصيا بحتا لادخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه، بمعنى أنه كان مفروضا فى المقطع أن يحل محل السلطان فى التمتع بغلات

(١) المقريزى: كتاب السلوك ، ج١ ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩، خليل بن شاهين: زبدة كشف المماليك، ص ٩٢.
(٢) القلقشندى: صبح الأعشى، ج ١٠، ص ٢٤٣، ٣٣٤ - ٣٣٦، ابن قاضي شهبة: الاعلام ، ج١، ص ١٢.

ارشي بابا اسيوط اسقف واخذ منه مالا كثير،
فمنعوه اهل اسيوط من الدخول اليهم ثلثة سنين
لاجل المال الذى دفعه لانهم تمسكو بالقوانين
وقالو: لا يجوز لمقدم ولا كاهن الذى ياهل نفسه لله
ان يدفع على ذلك مال، ولا ياخذ ممن يقسمه
لخدمة الله شيا، كقول المسيح من فاه المعظم
لتلاميذه لما امرهم ان يعمدو الامم ويبشروهم
بالانجيل لخلاصهم، قال لهم الوصية المشهورة في
الانجيل وقال لهم فى اخرها: «مجانا اخذتم مجانا

الاقطاع وايراده فحسب، فاذا أخل المقطع بشروط الاقطاع، جاز للسلطان أن يستولى على اقطاعه فورا.. وكذلك كان يستبعد غير القادرين على الخدمة العسكرية فتصادر اقطاعاتهم لتوزع على الاكفاء القادرين[1].

وقد حدث فى عصر سلاطين المماليك أن مسحت أراضى مصر مسحا شاملا أكثر من مرة، ليعاد قياسها وحصر ها فى سجلات مع تقدير قيمتها ومدى خصوبتها. وتشبه هذه العلمية فى عصرنا الحالى ما يعرف بفك الزمام، فى حين سميت فى عصر المماليك «الروك» وكان يتبعها اعادة توزيع الاقطاعات[2].

اما الأمراء والمماليك المسنون الذين لايقوون على تحمل تبعات الاقطاع، فاعتاد سلاطين المماليك أن يمنحوهم بدل الاقطاع رواتب نقدية تخصص لها جهات معينة يتناول المقطع نصيبه منها. ويذكر المقريزى انه جاء وقت أصبحت فيه معظم الضرائب والمكوس المفروضة فى مصر «عليها اقطاعات الأمراء والأجناد». فلما راك السلطان الناصر محمد بن قلاوون البلاد

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٥٨.
(٢) العينى: عقد الجمان، ج٢٣ ق١ ص ٥٤.
المقريزى: السلوك، ص ٨٥٤.
المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج١ ص ٨٨.

اعطو» ، اى انكم قد اخذتم هذه النعمة بلا ثمن فلا تطلبو ممن تدفعوها له ثمن، ولم تزل بطاركة القبط وابهاتهم عاملين بهذه الوصية الى زمان الضغط من ولاة امور المسلمين من احمد ابن طولون الى ايام الحاكم وغير ذلك مما لو شرحناه لطال شرحه، ودعتهم الضرورات الى ما فعلوه من ذلك لاجل ما طلب منهم من المال وما كلفوه من الاثقال.

سنة ١٣١٥م (٧١٥هـ)، أبطل هذا النوع من الرواتب التى تحمل صفة الاقطاع، وقصر الاقطاعات كلها على الأراضى.

٩. سلاطين المماليك البرجية (دولة الجراكسة)

١ـ الظاهر سيف الدين برقوق(٧٨٤هـ ١٣٨٢م).

٢ـ المنصور حاجى (من البحرية) (٧٩١هـ ١٣٨٩م).

٣ـ الناصر ناصر الدين فرج بن برقوق (٨٠١هـ ١٣٩٩م).

٤ـ المنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق (٨٠٨ هـ ١٤٠٥م).

٥ـ الناصر فرج (للمرة الثانية) ٨٠٨هـ ١٤٠٥م).

٦ـ الخليفة العباسى العادل المستعين بالله (٨١٥هـ ١٤١٢م).

٧ـ المؤيد سيف الدين شيخ المحمودى (٨١٥هـ ١٤٢١م).

٨ـ المظفر شهاب الدين أحمد بن المؤيد شيخ) ٨٢٤هـ ١٤٢١م).

٩ـ الظاهر سيف الدين ططر (٨٢٤هـ ١٤٢١م).

فلنعود الان الى ذكر قضية اسقف اسيوط، انهم لما منعوه من الدخول اليهم عاد الى البطرك انبا شنوده وطلب منه المال او يثبت له الاسقفية، فلم يقدر يفعل له شيا ولا عاد له المال الذى اخذه منه. واقول انا البايس ميخاييل [الدمراوى]: يشهد الرب على لقد رايته يوما يخاطبه فى هذا الامر فلم يخاطبه بكلمة واحدة، فبكا ولطم خديه وقلع ثياب الاسقفية رماها ووقع مرتعدا كمثل الميت او كمن به شيطان، فاقمناه ورفقنا به الى ان اهتدا

توقيع السلطان برقوق

١٠ـ الصالح ناصر الدين محمد بن ططر (٨٢٤هـ ١٤٢١م).

١١ـ الأشرف سيف الدين برسباى (٨٤١هـ ١٤٣٨م).

١٢ـ العزيز جمال الدين سيف بن برسباى (٨٤١هـ ١٤٣٨م).

١٣ـ الظافر سيف الدين جقمق (٨٤٢هـ ١٤٣٨م).

١٤ـ المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق (٨٥٧ هـ ١٤٥٣م).

١٥ـ الأشرف سيف الدين اينال العلائى (٨٥٧هـ ١٤٥٣م).

١٦ـ المؤيد شهاب الدين أحمد بن اينال (٨٦٥هـ ١٤٦١م.

١٧ـ الظاهر سيف الدين خشقدم (٨٦٥هـ ١٤٦١م).

١٨ـ الظاهر سيف الدين يلباى (٨٧٢ هـ ١٤٦٧م).

١٩ـ الظاهر تمربغا (٨٧٢هـ ١٤٦٧م).

٢٠ـ الأشرف سيف الدين قايتباى (٨٧٢هـ ١٤٦٧م).

٢١ـ الناصر ناصر الدين محمد بن قايتباى (٩٠١ـ ١٤٩٦م).

٢٢ـ الظاهر قانصوه (٩٠٤هـ ١٤٩٨).

وعـاد اليـه عـقله وكـتـبنا له كـتـاب الى اسـقـفين مـجـاورين كـرسيـه بان يكرزوه فى احـد ضـيـا ع كرسيه. وتوفا اسقف اخر اسمه ايليا فى بلد تسما بشنانه [مـركز السنبلاوين] فانفـذ اخذ داره وكلما له، فحضر اخوه وساله وتضرع اليه ان يعطيه الدار خالية وياخذ كلما فيها فلم يلتفت له واحوجه الى ان اسلم واخـذ الدار وجـمـيع مـا فـيـهـا، وكـان من ضجره وافعاله مالا يجوز نسطرها.

توقيع السلطان جقمق

٢٣ـ الأشرف جانبلاط (٩٠٥هـ ١٥٠٠م).

٢٤ - العادل سيف الدين طومان باى (٩٠٦هـ ١٥٠١م).

٢٥ـ الأشرف قانصوه الغورى (٩٠٦هـ ١٥٠١م).

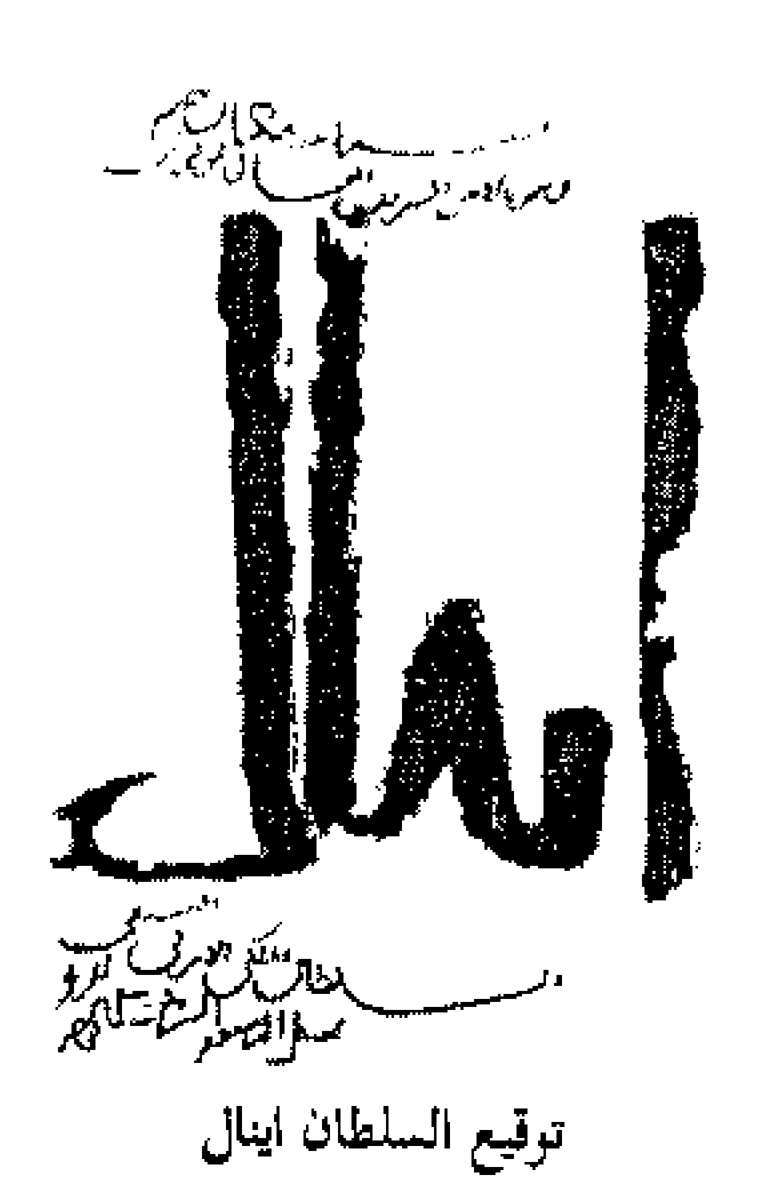
٢٦ـ الأشرف طومان باى (٩٢٢هـ ١٥١٦م).

أصبح من القواعد المتبعة ألا يكون الاقطاع وحدة متماسكة من الأرض، بل اقطاع الفرد الواحد بين عدة جهات مختلفة مما جعل زمام القرية الواحدة مقسما بين عدة مقاطع(١).

وفى ظل هذا النظام عاش الفلاح المصرى فى عصر سلاطين المماليك مربوطا الى الأرض التى يفلحها ويفنى حياته فى خدمتها وليس له من خيراتها الا القليل ، لان أراضى مصر الزراعية ظلت نهبا موزعا بين السلطان وأمرائه ومماليكه، دون أن يبقى للفلاحين سوى العمل والسخرة ودفع الأموال وهم صاغرون. لذلك لم يكن عجبا اذا أجمعت المصادر على سوء حال الفلاح فى ذلك الوقت وأنه فى أفخر مأكوله لا يأكل إلا الشعير والجبن القريش والبصل. وقد أدرك المقريزى ريف مصر وأهله يشترون الكثير من حوائجهم ببعض الدجاج وبنخال

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٥٢،

ولما طالبوه اهل اسكندرية باخمس مابة دينار ثاني سنة انكرهم، فمضو واشتكوه للوالي، فمضى هو وتطارح على قوم من الاراخنة حتى اخذو الخط الذى باخمس ماية دينار من السكندرانيين وكتب لهم غيره بثلثماية وخمسون دينار، وحضر هذا التقرير بقيره الشماس صاحب الصليب وصالح البطرك وقال له: اسمع الان ما اقوله لك فهو يرضى الله تعالى والناس ويفرحو به. فقال له: مهما اشرت به فعلته ولا اخالفه. قال له: يجب ان تترك


توقيع السلطان اينال

الدقيق، لأن «الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف، الذين تزايدت فى اللذات رغباتهم، فخلت معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد[١].

ومما زاد حال الفلاحين فى ذلك العصر سوءا، كثرة المغارم والمصادرات التى حلت بهم من الولاة والحكام، ليأخذوا منهم «غير العادة أضعافا». كذلك فرض الولاة على أهل القرية الواحدة نظام المسئولية المشتركة فيما يستحق عليهم من أموال، بمعنى أن يكون كل فلاح شريكا بالنسبة لزملائه فى الوفاء بما هو مفروض على القرية من مال. وعند وصول المشد ـ أو الجابى ـ الى القرية توزع نفقات اقامته على الفلاحين من حيث الأكل والشرب وما تحتاج اليه دوابه من عليق، ويلتزم الفلاح بكل ذلك قسرا مهما يبلغ فقرة.. وربما هر ب الفلاح لضيق ذات يده فتلتزم زوجته وأولاده بالمطلوب، وتضطر الى بيع مالديها لشرا ء مايلزم ذلك الحشد من دجاج ولحم[٢].

أما القرية المصرية عندئذ، فكانت على ما هى عليه من بيوت ضيقة مشيدة من الطوب اللبن وتعلوها الأحطاب. وظلت حياة الفلاح تسير على وتيرة واحدة بين منزله وحقله فى حين

(١) المقريزى: اغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٣٦، ٤٦.
(٢) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٠٢، الشربينى: هز القحوف فى شرح قصيد أبى شادوف، ص١١٠ـ ١١١ (بولاق، ١٨٩٠).

هذه الشرطونية التى تاخذها ولا تبيع موهبة الله بالمال. فقال له: من اين لى ما انفقه على نفسى وتلاميذى وما احتاجه من المون واللوازم وما اعطيه للسكندرانيين وما اقوم به عن خراج الاراضى التى على، قال له: نحن نحسب كلما عليك وجميع ما تحتاجه ونحسب كلما تاخذه من الاساقفة عن الديارية فى كل سنة فان عجزت شيا قسطناه علينا وحملناه لك وتستريح من هذا الاسم السو الذى يكرهه الله والناس، فاظهر انه قد طاب قلبه وهو



توقيع السلطان خوشقدم

تشاركه زوجته بنصيب كبير في تحمل عبء الحياة. فعليها تقع مهام جلب مياه الشرب من النهر أو الترعة، وغسل الملابس فيها، ووقيد الفرن لخبز الخبز «وتدميس الفول وطبيخ البيسار وتقمير البتاو»(١).

١٠. الحياة العامة فى المدن فى عصر سلاطين المماليك:

واذا كانت هذه حياة الفلاحين ـ وهم الغالبية العظمى من أهل البلاد ـ فى القرى، فان الصورة اختلفت تماما فى المدن المصرية فى عصر سلاطين المماليك، وخاصة المدن الكبرى مثل القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد. وقد أشاد الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر فى ذلك العصر بعظمة المدن المصرية وكثرة سكانها، اذا قيست بغيرها من المدن الأوربية المعاصرة مثل روما وفلورنسا وباريس. وكان أهم ما استرعى انتباه أولئك الرحالة هو تلاصق منازل تلك وضيق حاراتها واكتظاظ طرقاتها بالمارة والسوقة والدواب، فضلا عن كثرة الباعة الجائلين فى الطرقات(٢). فالخيول يركبها المماليك ويركضون بها وسط الدروب والأسواق المزدحمة، وهم

---

(١) الشربينى: هز القحوف، ص ٥٤.

(2) Dopp (p.H): Le Caire vu par les voyageurs Occident - aux du Moyen Age (Bulletin de S.R.G. d'Egypte - Tome 23, 195 & Tome 24, 1951 & Tome 26, 1953).

في الباطن لا يوثره، فقال له: اكتب خطك بالرضا. بهذا فكتب بذلك خطه فاخذه بقيره وانصرف. وكنت انا البايس ميخاييل، الغير مستحق ان ادعا اسقف تنيس، حاضرا وانا يوميذا شماس ففرحت بهذا الامر وساعدت عليه، وكان جعلني كاتبه لان قوما من اصحابه وصفوني له فاخذني اكتب له، ثم انه انفذ احضر الاساقفة ليطيب قلبهم بهذا، فدخل اليه انسان منهم وقال له: ما الحاجة الى ما دعوتنا اليه ولماذا تركت الشرطونية وزعمت انك لا



توقيع السلطان قايتباى

يضربون الناس يمنة ويسرة ليشقوا طريقهم، غير مبالين اذا سقط بعض المارة تحت حوافر الخيل، والجمال العديدة يطوف بها السقاؤون، وهي تحمل القرب لامداد المنازل والأسواق بحاجاتها من الماء. وقدر البلوى المغربى ـ الرحالة الذى زار مصر فى عصر المماليك ـ عدد الجمال في القاهرة بما يتراوح بين خمسين ألفا ومائتى ألف جمل، وعدد السقائين بين خمسة آلاف وستين الف سقاء، سجلوا أنفسهم عند المحتسب وقاموا بدفع ضريبة معينة للحكومة مقابل ما يأخذونه من ماء النيل. اما الحمير التى قامت بدور سيارات الأجرة فى أيامنا فقد بلغت عددا كبيرا ، وعنى أصحابها بتطهيرها ليستأجرها الناس فى قضاء حاجاتهم وسفرياتهم[1].

وعندما زار التاجر الروسى باسل مصر فى ذلك العصر وصف القاهرة بأن بها أربعة آلاف شارع ودرب، كل منها له بابان وحارسان وبكل شارع منها عدد كبير من المنازل فضلا عن سوق كبير لسد حاجات السكان اليومية. وفى الليل تضاء تلك الشوارع بالمصابيح بعد أن تغلق أبوابها وتشدد الحراسة عليها، فيرتب لها جماعة من الطوافين لكشف الأزقة وغلق الدروب، وتفقد أصحاب الأرباع، وتأديب المخالف، ومن سار فى الليل لغير سبب قبض عليه. وعنيت السلطات بالقاهرة بنظافة الشوارع بالكنس والرش بالماء. وهى المهمة التى قام بها

(١) رحلة البلوى المغربى ، ص ٥٥ (مخطوط)، رحلة ابن بطوطة، ص ٣٢ (بيروت ، ١٩٦٨).

تاخذ شيا ممن تصيره اسقف، اى شى فعلت بنفسك اذ سمعت ممن لا يريد لك خير. فاقلب عقله من ساعته وثبت فى نفسه مخالفة بقيره وقال: ان لم اخذ الشرطونية فقد مضت منى البطركية، فلما سمع بقيره بان الاساقفة قد حضرو جا اليه واخذ بركته كالعادة وقال له: يا ابونا قد حضرو الاساقفة فاجعل عندهم ان هذا الامر انت فعلته من ذاتك من غير ان يشير احدا عليك به فيكون هذا حسنا قدام الله والجمع. فقال له:



شعار السلطان الملك الأشراف
ابو النصر قايتباى

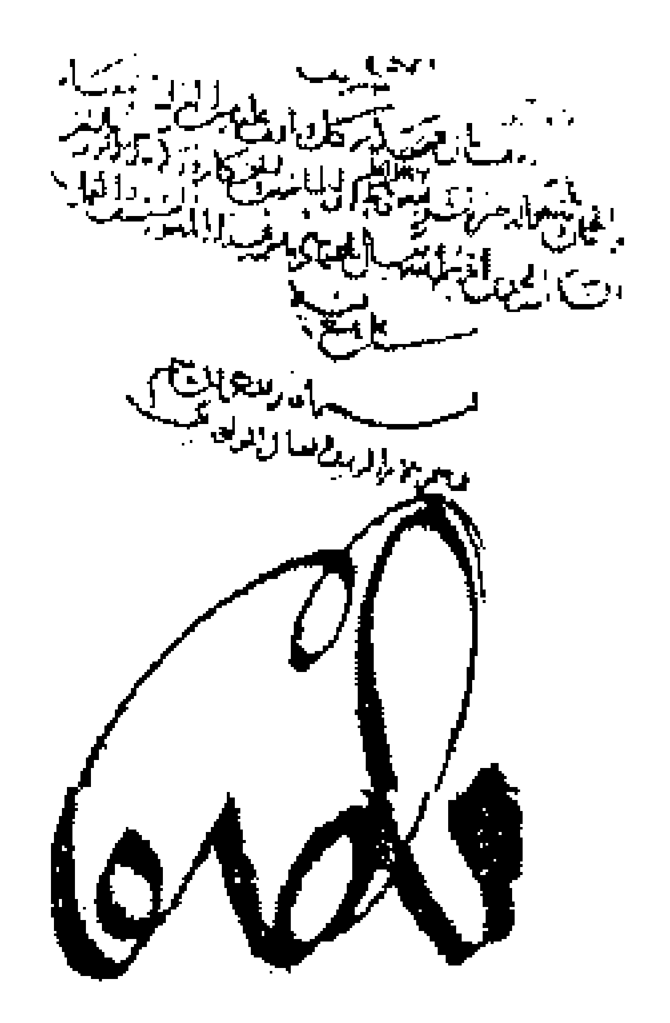
الباعة وأصحاب الحوانيت. كذلك أمر أصحاب الحوانيت بأن يضعوا على أبواب حوانيتهم آنية مملوءة بالماء لتسهيل اطفاء ما يقع حرائق[(١)].

وزخرت المدن المصرية عامة والقاهرة خاصة فى عصر المماليك بكثير من المنشآت العامة من الوكالات المعدة لاستقبال التجار وبضائعهم، والمارستانات أو المستشفيات لعلاج المرضى، والأسبلة لتيسير حصول الناس والدواب على ماء الشرب، والحمامات التى اختص بعضها بالرجال والبعض الآخر بالنساء فضلاً عن العديد من القصور والسجون التى كانت على أنواع فمنها ما هو خاص بأرباب الجرائم من اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم ومنها ما هو خاص بالنساء المذنبات ومنها ما هو خاص بالأمراء والمماليك والجند. ويفهم من المصادر المعاصرة أن السجون بلغت درجة مخيفة من الحطة والقذارة، وسوء معاملة السجناء داخلها، حتى أن الاعدام كان فى كثير من الحالات أخف وطأة من عقوبة السجن[(٢)].

وعلى الرغم من المتاعب والأزمات التى تعرض لها الناس أحيانا فى عصر سلاطين الممايك - بسبب انخفاض الفيضان وانتشار الأوبئة أو بسبب الفتن بين طوائف المماليك أو عسف

(١) المقريزى: كتاب السلوك، ج٣، ص١٩، ج٤، ص ٦٦٧.
(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ١٨٧ وما بعدها، كتاب السلوك، ج٢، ص ٦٨٦ - ٦٨٧، ٤٩١، ٥١٩.

هكذى افعل لكن احضر لى الخط الذى كتبته لك لا وقفهم عليه اذا اجتمعو. فدفعه له فلما صار فى يده مزقه قطعة قطعة، فتعجبو الحاضرين من فعله وقالو هذا بيت مبنى على غير اساس ولا صخرة، واتصل الخبر بالاساقفة فغضبو وقالو: كانه انما يتلاهى بنا واحضرنا لامر ورجع فسخه، نحن لا ننزل عن هذا بالجملة، وكانو مجتمعين فى [كنيسة] ابو مرقوره [ابو سيفين] بمصر وكان انبا شنوده البطرك فى كنيسة ميكاييل المختارة فانفذو


توقيع السلطان قانصوه

بعض الحكام في جمع الأموال وأهمال الاعمال العامة التي تحفظ صلاحية وسائل الرى والصدق ـ فان روح المرح والرغبة في التسلية والترويح عن النفس ظلت هي الغالبة على أهالي المدن المصرية. وقد اعتاد الناس في ذلك العصر الخروج الى الحدائق المنتزهات مثل بركة الرطلى وبركة الحبش وجزيرة الروضة، أو الى شواطئ النيل ـ حيث الأشجار والزهور ـ طلبا للتسلية والترويح. وكثيرا ما كانوا يستأجرون القوارب في النيل ويصطحبون معهم المغانى وآلات الطرب لقضاء وقت سعيد على صفحات النهر الخالد. كذلك اشتهر من وسائل التسلية في عصر المماليك خيال الظل، فضلا عن ولع الناس بالتلهى بتطهير الحمام ونطاح الكباش ومناقرة الديوك والمصارعة وغيرها من الألعاب التى كانت تتم عن طريق الرهان(١).

واشتهرت الحياة في المدن المصرية في عصر المماليك بالحفلات الصاخبة التي كانت تقام بين حين وآخر لاحياء مختلف المناسبات العائلية والدينية والقومية. فمن أشهر الحفلات العائلية حفل الزواج، وفيه جرت العادة باقامة الولائم الحافلة واستحضار المغنيات وضاربات الدفوف، ويشارك الأهل والأحباب بتقديم الهدايا والنقوط.. ومثل ذلك يقال عن الحفلات الخاصة

(١) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الامصار، ج ٥٤ ص ١١٠ (بولاق ١٨٩٣)، ابن اياس: بدائع الزهور، حوادث سنة ٨٦٦هـ ، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ١٣٦ .
Paul Kahle: The Arabic Shadow Play in Egypt (p.p. 31 _ 34) (J.R.A.S 1940).

اليه بعض الاراخنة قايلين: ما يمكنك تفسخ هذا الامر الذى جمعتنا بسببه فى معنى ترك الشرطونية الى ان يستقر ما يجب. فلما راى انهم لا ينزلو عن هذا الامر اجتمع معهم وجلسو يخاطبوه من باكر الى الليل وبقيره معهم فما قدرو على مقاومته، ثم دخل اليه احد تلاميذه برقعة من عند رجل من حزب ابليس خزاه الله، فلما وقف عليها قال للشماس بقيره، وانت ايش لك فى الكلام فى هذا المجمع. ثم اوما الى تلاميذه فوثبو اليه وضربوه

بالولادة ـ لاسيما اذا كان المولود ذكرا ـ وختان الطفل... وغير ذلك من المناسبات السعيدة[1]. أما الاحتفالات القومية فى عصر سلاطين المماليك فكانت كثيرة ومتنوعة، منها ما ارتبط بالسلاطين مثل الاحتفال بتولية سلطان جديد أو ابلال السلطان من مرض أو عودته سالما من سفر أو ظافرا من حرب. وفى جميع هذه الحالات كانت القاهرة تزين بالزينات الفاخرة، ويخرج السلطان فى موكب حافل، فى حين يحتشد الناس للفرجة وسط قرع الطبول وزغاريد النساء. وثمة مناسبة سعيدة حرص المصريون على احيائها والاحتفال بها كل عام، هى عيد وفاء النيل، فكان يحتفل فى عصر المماليك بكسر الخليج فى موكب حافل تسير فيه السفن المزينة بالأعلام. وعند وصول السلطان أو نائبه الى مقياس الروضة يمد سماط كبير من الشواء والحلوى والفاكهة وسط ابتهاج الناس وفرحهم. أما المناسبات الدينية مثل عيد رأس السنة الهجرية والمولد النبوى ودوران المحمل وشهر رمضان وعيدى الفطر والأضحى، فكان يحتفل بها على نطاق واسع فتقام الزينات وتوزع الصدقات وتمد الأسمطة والولائم، وتضاء الأضواء فى الجوامع والمدارس وغيرها حيث يجتمع الناس لسماع المقرئين والمنشدين والوعاظ،

(١) السخاوى : التبر المسبوك، ص ٣٢ ، المقريزى : كتاب السلوم ص ٣٠٥ ، ٦٠١ ابن الحاج: المدخل، ج٣ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٨ ، ٢٩٠ - ٢٩١ ، ابن دقماق : الجوهر ص ٢٧٦ ، وابن حجر: أنباء الغمر ، ج٢ ص ٣٧٦ .

ضربا عظيما وقام البطرك خرج وانفل [انفض] المجلس ومضى كل منهم الى موضعه.

واما يونس الراهب الذى صار اسقفا على الفرما فكتب له بان يعطيه ثلثين دينار فى كل سنة ويجعل اخوه اسقفا، وانه لما طالبه بذلك لم يدفع له شيا، فخرج من عنده وهو يهدده ويتواعده بان يفعل به كما فعل بانبا زخارياس البطرك القديس، فلما علم منه ذلك اظهر كتاب حرم عجيب لم

قلعة الجبل

ويقيم الصوفية حلقات الذكر. وغير ذلك من مختلف الوسائل للتعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم(١).

وهكذا كانت الحياة العامة فى المدن المصرية ـ وخاصة القاهرة ـ فى عصر سلاطين المماليك حياة نشطة حافلة بالحركة مفعمة بالحيوية مما أضفى على المجتمع المصرى فى ذلك العصر طابعا خاصا مميزا. وبينما أهل القاهر ة يحيون هذه الحياة، كان سلطان المماليك يعيش على مرأى منهم فوق جبل المقطم فى مدينة صغيرة أطلق عليها اسم قلعة الجبل. ذلك أن هذه القلعة لم تكن فى عصر سلاطين المماليك مجرد مركز للحكم ودار اقامة للسلطان فحسب، وانما صارت بمثابة مدينة تضم طباق [مساكن] المماليك السلطانية، ودورا لخواص الأمراء ونسائهم وأولادهم ومماليكهم ودواوينهم، فضلا عن دار الوزارة التى اشتملت على قاعة الانشاء وديوان الجيش وبيت المال وخزانة الخاص.

وكانت قلعة الجبل موضع عناية سلاطين المماليك دائما، فأقاموا فيها العمائر الكثيرة والقصور والمساجد العديدة، مما جعلها مثار دهشة الرسل والسفراء الأجانب فى ذلك العصر.

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٥٧٥، ابن الحاج: المدخل، ج٢ ص ٢ ، ١١ ، ٢٥ .
المقريزى: كتاب السلوك ج٤ ص ٤٢٠ حوادث ٨٢٥ هـ.
السخاوى: التبر المسبوك، سنة ٨٤٥، ٨٤٩هـ.

يسمع بمثله كان كتبه عليه بيده من يوم جعله اسقف. فانفذه حينيذ الى كورة مصر ومقدمى النصارى والاساقفة بان لا يقبلوه ولا يطعموه خبز ولا يدفعو له شيا. وكانو فى اول سنة اقسم دفع له كل واحد من الاساقفة دينارين. فلما جرا هذا اظهر هذا الحرم، وفيه مكتوب من [الكتب] العتيقة الحروم المكتوبة فى الناموس الثانى والمكتوبة فى المزمور الماية وثمانية(*) لداوود النبى على يهوذا

(*) انظر المزمور ١٠٩.

وأشرف على أعمال الصيانة العامة بالقلعة ديوان الدولة الشريفة الذى تولى ناظره الانفاق على قصور السلاطين من عمائر وأسمطة وصدقات، وكل ما تحتاج اليه البيوت السلطانية. أما هذه البيوت فكانت عديدة لكل منها مباشر أى رئيس أو مشرف من الأمراء، له مساعدون عديدون، وأطلق عليها اسم البيوت الشريفة ومن هذه البيوت الشراب خاناه ـ أى بيت الشراب ـ ويحوى مختلف أنواع الأشربة والأدوية التي يحتاج اليها السلطان، والطشت خاناه، وفيه أنواع الأوانى والطشوت والأباريق اللازمة لغسل الأيدى والوضوء والاستحمام، والفراش خاناه، وفيه أنواع الفرش والبسط والخيام والتخوت والوسائد.. وغيرها[1].

وسارت الحياة فى قلعة الجبل حسب تقاليد خاصة فى عصر سلاطين المماليك، منها دق الكوسات عند أبوابها، وهى صنجات من نحاس يدق بها مع طبول وشبابة (آلة نفخ مثل الناى والمزمار) مرتين كل ليلة، ويدار بها فى جوانب القلعة مرة بعد العشاء ومرة فى الفجر قبل التسبيح على المآذن، وتسمى كل منها «الدورة». ومنها الزفة بالطبلخاناه وهى طبول متعددة

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣ ، ص٣٧٦، ج٤ ، ص ٩ وما بعدها.
المقريزى: المواعظ والاعتبار ، ج٢ ص ٢٠١ وما بعدها.
النويرى: نهاية الأرب ، ج٨ ، ص ٢٢٤ وما بعدها.
خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ٩٧ ـ ١٢٤ .

الاسخريوطي، وكان البطرك المذكور يكتب الحرم بيده.

وفى هذه الايام كان الملك الظاهر لاعزاز دين الله واسمه ابو الحسن والوزير يوميذ على ابن احمد الجرجائي والناظر فى الريف على ابن حديد وكان له صيت عظيم وملا الحبوس من الناس رجال ونسا حتى ان النسا الحبالا ولدو فى الحبوس.

وظهر فى تلك الايام بارض فلسطين عجوبه

معها أبواق وزمر تختلف أصواتها على ايقاع مخصوص تدق كل يوم بالقلعة صباحا وبعد صلاة المغرب فيصير لها دوى عظيم يعرف به موعد فتح أبواب القلعة وغلقها من مسافة بعيدة.. وجرت العادة أن يحتفظ السلطان فى المساء بمفاتيح القلعة، فيحضرها اليه المتولون على الأبواب مساء ويتسلمونها صباحا[1].

أما حياة سلاطين المماليك ـ داخل القلعة وخارجها ـ فاتصفت بالثروة والبذخ. فالقصور السلطانية داخل القلعة استكملت كل أسباب الترف من أثاث ورياش، ونافورات، وصنابير للمياة الباردة أو الساخنة حسب الحاجة، بل ان الثلج كان يجلب لهم من جبال الشام لتبريد الماء صيفا، وذلك «لكمال الرفاهية والأبهة»، فقرروا له هجنا فى البر وسفنا تحمله فى البحر ـ في برادات وبطريقة خاصة ـ حتى يصل الى القلعة حيث يحفظ بالشرابخاناه[2].

كذلك أمعن سلاطين المماليك فى لبس الفاخر من الثياب، فأبدلوا ملابسهم فى اليوم

(١) ابن تغرى بردى: حوادث الدهور، ج١، ص ١١٨، النجوم الزاهرة، ج٨ ص ١٧٠، القلقشندى: صبح الأعشى ج٤ ص ٩.

(٢) خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ١١٧ ـ ١١٨، القلقشندى: صبح الأعشى ج١٤، ص ٣٩٥.

وهو ان جبلين فى اعمال بانياس التقيا(*) وخرج من بينهما نار عند التقايهما احرقت اشجار كثيرة ونشف من البحر قطعة كبيرة حتى كانوا الناس ياخذوا السمك من على الارض التى انكشفت، ووجدو فيها رصاص وحديد واشيا كثير، ثم ان البحر عاد لما كان عليه.

(*) بانياس من موانى الساحل السورى جنوب اللاذقية. عرفت باسم قيصرية بانياس.

وفى سنة سبعماية اربعة وخمسين للشهدا [١٠٣٨/١٠٣٧م] اشرق الريف ولم يزرع فيه الا

الواحد ثلاث مرات، ومع ذلك فان الرداء الذى يخلعه السلطان كان لايلبسه مرة أخرى مطلقا، وانما توضع الملابس المخلوعة فى خزانة خاصة حتى ينعم بها على بعض خاصته. وعند مبيت السلطان يظل حوله عدد من أمرائه ومماليكه للسهر على حراسته، فيقسمون الليل بينهم، كلما انقضت نوبة فئه أيقظوا أصحاب النوبة الذين يلونهم(١).

أما الحريم السلطاني، فاحتوى على عدة قاعات تحيط بها البساتين والأشجار والطيور والحيوانات الجميلة، وقدخصصت لكل واحدة من زوجات السلطان الأربع قاعة خاصة بها، وأحيطت كل واحدة منهن بعدد من الوصيفات، كما لكل واحدة منهن أربعة طواشية (خصيان) بمثابة حرس دائم لها، ولايفارقنها فى أى مكان تذهب اليه. .فاذا رزق السلطان بولد ذكر من احدى زوجاته دقت البشائر بالقلعة وأنعم على الأمراء بالخلع(٢).

بالاضافة الى شغف كثير من سلاطين المماليك بالموسيقى والغناء فان معظمهم أظهر ولعا كبيرا بالألعاب الرياضية وخاصة الخروج لسرحات الصيد أو ميادين لعب والرمى بالبندق. هذا

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٩، ج٥ ص ٤٥٩.
(٢) خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ٢٦ ـ ٢٧.
المقريزى: السلوك، ج٢، ص ٧٦٤.

اليسير. وفى زمان الحصاد ظهر فار كثير مثل الجراد فى الريف واكل مزارع كثيرة وكروم، وكانو عند تدرية الاجران ياخذو بايديهم الزناجر [السلاسل الحديد] واليقطين(*) ينقرو به على الفيران ويحرسو الغلة منهم. وذكرو ان واحد من المزارعين اقلب جرن فيه ستة عشر اردب وقعد يحرسه من الفيران الى بكرة، فلما اصبح وجد فيه ستة ارادب، وكان لانسان كرم فدفع فيه ثلثة عشر دينار، فقال ما اخذ الا اربعة عشر دينار

(*) اليقطين: من أدوات الفلاح مثل المنجله والشرشرة.

فضلا عن الخروج للنزهة فى أماكن متفرقة ظاهر القاهرة، مثل خليج الزعفران أو الجيزة أو غيرها(١).

وفيما عاد ذلك فان الحياة الرسمية فى البلاط داخل القلعة اتصفت بالتعقيد وأحيطت بمختلف مظاهر التفخيم والبروتوكول. وكانت الاستقبالات والمجالس الرسمية تمثل جزءا هاما أساسيا في حياة سلاطين المماليك، مما جرى العرف على تسميته المواكب.. وأشهر هذه المواكب التى كانت تجرى داخل القلعة موكب استقبال الرسل والسفراء الأجانب، عندما كان السلطان يرتدى أفخر ملابسه ويظهر حوله الأمراء فى أبهى صورة. ويجلس السلطان على سرير الملك وهو منبر من الرخام بصدر الايوان، مغطى بالمخمل. وفى أركان القاعة بعض المنشدين والموسيقيين يعزفون فى هدوء على مختلف الآلات الموسيقية من رباب وعود وغيرها. وقبل أن يتشرف السفير بالمثول بين يدى السلطان ينبهه رجال الحاشية الى قواعد البروتوكول السلطانى، من ضرورة تقبيل الأرض أمام السلطان وعدم البصق فى حضرته...(٢).

(١) السخاوى: التبر المسبوك ، حوادث ٨٤٩ هـ.
العينى: عقد الجمان، حوادث ٨٢١ هـ.
(٢) القلشندى: صبح الأعشى، ج٤ ، ص ٦ ـ ٧ .
Schefer : Voyage du Magnifique et tres illustré Chevalier Dominice Trevisan, P. 184. (Paris, 1864).

فاصبح ثاني يوم فلم يجد فيه شي يساوى درهما واحدا. ولم يقدر احد في تلك السنة يخبز كعك خوفا ان تنعجن الفيران فيه، حتى انهم كانو يقرضو الفخار. وكان الشراقي والفيران تنحط من الله تعالى، وكانو الناس يبتهلو الى الله سبحانه ويضرعو اليه جل اسمه في ازالة ذلك عنهم برافته وفضله فزال في هتور، وذكر انسان ان قصريه نحاس كان فيها ما [ماء] الى مقدار نصفها نسوها مكشوفه بالليل فلما اصبحو وجدو فيها اربعين فار

المصريون المسلمون وأحوالهم الدينية فى العصر المملوكى

أولا: فى القرن السابع

* تلامذة ابن عربى من أعيان الصوفية المصريين فى القرن السابع وصراعهم مع الفقهاء:

١ـ يلفت النظر أن الشعرانى أو جزء فى ترجمته لابن عربى، فلم تصل فى الطبقات الكبرى إلا ثلثى صفحة، مع أن الشعرانى شغف بابن عربى إلى درجة تلخيص آرائه فى كتاب (اليواقيت والجواهر والكبريت الأحمر).. ويبدو أن تحرج الشعرانى من الإسهاب فى سيرة ابن عربى مرجعه إلى ما عاناه (الشيخ الأكبر) من إنكار فى حياته وبعد مماته.. حتى أن الترجمة القصيرة التى أوردها الشعرانى لم تخل من ذكر لبعض هذا الأذى وإن كان الشعرانى ـ على عادة الصوفية ـ يغلفه بالكرامات..

يقول مثلاً (وقد بنى عليه قبة عظيمة وتكية شريفة.. واحتاج إلى الحضور عنده من كان ينكر عليه من القاصرين بعد أن كانوا يبولون على قبره، وأخبرنى أخى الشيخ الصالح الحاج أحمد الحلبى أنه كان له بيت يشرف على ضريح الشيخ محيى الدين، فجاء شخص من المنكرين بعد صلاة العشاء بنار يريد أن يحرق تابوت الشيخ فخسف به دون القبر..)[1]. ولولا

(١) الطبقات الكبرى جـ١/ ١٦٣ طـ صبيح.

غرقو فيها وماتو، وذكر اخر انه جلس فى الظلام وبيده عصا يضرب بها الارض ليطرد الفيران عن قفة فيها قمح فلما اصبح وجدماية وخمسين فار قد ماتوا بعصاته. وبعد هذا نزل على انبا شنوده ضربان فى راسه، وتمسح نهاره وليله بدهن بنفسج فلا يجد له راحة من شدة الضربان والسعال، وكان يحس النار كانها تلهب فى راسه، ولحقه ايضا وجع فى اذنه واقام الوجع ثلثة سنين الى ان افتقده الرب جل اسمه فتنيح فى يومين من هتور



حلقة ذكر دينى

هذه الأساطير لما رويت قصص الإنكار على ابن عربى.. ذلك الأنكار الذى استمر على ابن عربى حتى عصر الشعرانى فى القرن العاشر..

٢ـ ومعنى ذلك أن ابن عربى أصبح قضية دينية فى العصر المملوكى، احتدم حولها الصراع بين مؤيدين ومعارضين، وقد انضم إلى المعارضين بعض الصوفية.. وذلك إما عن جهل وحقد على شخصية ابن عربى الفيلسوف الذائع الصيت بين صوفية يفتقرون إلى مثل علمه وشهرته.. وإما عن مكر وخداع حفاظاً على مذهب التصوف وحتى لايصل إنكار الفقهاء إلى حد يؤثر على دين التصوف وأساسه..

وطبيعى أن يكون المنكرون الحاقدون على ابن عربى من أهل عصره، وأبرزهم الصوفى ابراهيم بن معضاد الجعبرى(ت ٦٨٧) الذى اجتمع بابن عربى فقال عنه (رأيت شيخاً نجساً يكذب بكل كتاب أنزله الله وبكل نبى ارسله الله) وذكر عنه أنه (يقول بقدم العالم ـ أى ألوهية العالم ـ ولايحرم فرجا)[١].

٣ـ وحظى ابن عربى بنقمة عز الدين بن عبد السلام، فروى تلميذه ابن دقيق العيد أنه سأل ابن عبد السلام عن ابن عربى فقال(هو شيخ سوء كذاب، يقول بقدم العالم ولايحرم فرجا)[٢].

(١) ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل ج٤/٧٦، تنبيه الغبى للبقاعى ١٧٨.
(٢) البقاعى. تنبيه الغبى إلى تكفير ابن عربى ١٥١:١٥٢.

في سنة سبع ماية ثلثة وثلثين للشهدا [١٠١٦م] وهو يشتهي الدنيا.

وكانت مدة بطركيته خمسة عشر سنة ونصف وتنيح وانا عنده جالس وغمضت عينيه بيدى، واجتمعنا للصلاة عليه ودفناه في الكنيسة الكبرى بدمرو الذى كان بناها انبا زخارياس البطرك وكملها هذا الاب انبا شنوده رزقنا الله بركة صلواته وانفق فيها مالا كثيرا لانه كان انذر ذلك قبل ان يصير بطركا.

ويقول الشعراني (وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الإسلام يحط كثيرا عليه، فلما صحب الشيخ أبا الحسن الشاذلي وعرف أحوال القوم صار يترجمه بالولاية والعرفان..)[١] وهذا حقيقي فقد تناقض ابن عبد السلام مع تاريخه الطويل حين وفد إلي مصر، فاعتنق التصوف علي يد الشاذلي وصار له مريداً، وسبحان الله رب العالمين..

وقد عاصر العسقلاني (ت٦٨٦) ابن سبعين، وكان ينكر عليه بمكة كثيرا من أحواله، وقد صنف في الاتحادية كتاباً في الإنكار عليهم، بدأ فيه بالحلاج وختم بالعفيف التلمساني (وقد فوضت له مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة)[٢].

٤ـ وعرف القرن السابع تلاميذ متأخرين لابن عربي، تطرف بعضهم في محبته مثل الشيخ التيمي ت ٧١٩[٣]، وقدم بعضهم إلى مصر ليدرس مذهب وحدة الوجود من كتب ابن عربي وحظي باعتقاد المصريين في ولايته مثل الشيخ أبي ذر (ت: ٧٨٠)[٤]. وحظي أبو عبد الله الكركي (ت: ٨٠٠) بميل السلطان إليه، فاستغل ذلك في الدعوة (إلي مقال ابن العربي الصوفي يناضل عنها ويناظر عليها، ووقع له مع السراج البلقيني مقاومات)[٥].

(١) الطبقات الكبرى جـ١/١٦٣ط. صبيح.
(٢) شذرات الذهب جـ٥/٣٩٧ .
(٣) تحفة الأحباب ٣٢.
(٤) إنباء الغمر جـ١/١٨١ .
(٥) إنباء الغمر جـ٢/٢٩: ٣٠ .

وفى ذلك الزمـان مـات الظاهر لاعـزاز دين الله وجلس بعده ولده [معد] ابو تميم المستنصر بالله امير المومنين.

وفى ذلك الزمان احرقت بيعة اليعاقبة السريان بانطاكيه لخصومة جرت بين الكهنة والاراخنة بسبب مال البيعة المذكورة، فمضى الارخن المقدم ذكره الى بطرك الملكية ودفع له مال حتى بعث ختم باب البيعة، واخذ الكهنة وطرحهم الاعتقال

٥ـ وقد شهد القرن السابع تكون أشهر الطرق الصوفية فى مصر وأشياخها: أحمد البدوى (٦٧٥) وإبراهيم الدسوقى (٦٧٦) وأبو الحسن الشاذلى (٦٥٦).. وتأثير ابن عربى فيهم واضح..

٦ـ وقد قيل فى الدسوقى «أنه يذهب إلى أكثر ما ذهب إليه الحلاج، فهو يقول أنه عين الله فى حين أن الحلاج قد سمى نفسه الحق[1]» وليس فى ذلك من تحامل على الدسوقى، فهو القائل فى تائيته[2]:

تجلى المحبوب فى كل وجهة
فشهادته فى كل معنى وصورة
وخاطبنى منى بكشف سرائرى
فقال اتدرى من أنا قلت منيتى
فأنت منايا بل أنا أنت دائما
إذ كنت أنت اليوم عين حقيقتى

(١) دائرة المعارف الإسلامية جـ٩/٢١٨.

(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ١/١٥٨ط صبيح ونقلها عن جوهرة الدسوقى وقد طبعت «جوهرة الدسوقى» ونشرتها مكتبة الجمهورية ص ١١٢.

وعذبو منه ستة ايام الى ان انفذو اليه وبذلو انهم
ينكرو امانتهم ويعترفو بامانته ويصيرو معه على ان
يقيهم في طقسهم وياخذ لهم حقهم من ذلك
الارخن الذى ظلمهم، فلما سمع الارخن بذلك
سبقهم ومضى الى بطرك الملكية وصار ملكيا خوفا
من ان يطالب بمال البيعة، وصارت الكهنة ايضا
ملكية وخرجو من الاعتقال ومضو الى البيعة
المذكورة ونهبوها وهدمو الهيكل واخذو قربان كان
فيها فرموه في البحر وهدمو البيعة وتسلطو على

فقال كذلك الأمر لكنه إذا
تعينت الأشياء كنت كنسختي
فأوصلت ذاتي باتحادى بذاته
بغير حلول بل بتحقيق نسبتي
فصرت فناء في بقاء مؤبد
لذات بديمومة سرمدية
وغيبني عني فأصبحت سائلا
لذاتي عن ذاتي لشغلي بغيبتي
وانظر في مرآه ذاتي مشاهداً
لذاتي بذاتي وهي غاية بغيتي
أنا ذلك القطب المبارك أمره
فإن مدار الكل من حول ذروتي
أنا شمس اشراق العقول ولم أفل
ولاغبت إلا عن قلوب عمية

الشعب وعذبو اكثرهم حتى صارو ملكية، وحكى ان الذين صارو ملكية من السريان اليعاقبة فى تلك النوبة احدى عشر الف انسان، وهو الذى رايته وسمعته وكتبته لاخوتك انا البايس ميخاييل الدمراوى الذى قسمني الاب انبا زخارياس شماساً وجعلنى انبا شنوده [سانوتيوس] قسا وصيرنى انبا اخرسطودلوس اسقفا على مدينة تنيس واعمالها بغير استحقاق منى لهذه الرتبة الجليلة. وكملت هذه السيرة فى اليوم الخامس والعشرين من بشنس


احد الدراويش

يرونى فى المرآة وهى صدية

وليس يرونى بالمرآة الصقيلة

وبى قامت الأنباء فى كل أمة

بمختلف الآراء والكل أمتى

ولاجامع إلا ولى فيه منبر

وفى حضرة المختار فزت ببغيتى

وما شهدت عينى سوى عين ذاتها

وإن سواها لايلم بفكرتى

بذاتى تقوم الذات فى كل ذروة

أجدد فيها حلة بعد حلة

أ)فالدسوقى يقرر وحدة الوجود فى البيت الأول وينسب لله أنه تجلى له فرآه فى كل الكائنات المعنوية والمادية.

ب) وعبر عن الحول فى البيت الثانى إذ جعل الله يحل فيه ويخاطبه من داخل ذاته..

سنة سبع ماية سبعة وستين للشهدا الابرار [١٠٥١م] بقدر ما وصلت معرفتي اليه ليكون تذكار لي عند من يقراه، والمجد للاب والابن والروح القدس الان وكل اوان والى دهر الداهرين امين(*).

(*) إلى هنا ينتهي ما كتبه انبا ميخاييل الدمراوى اسقف تنيس. وما يليه من سير كتبها وجمعها موهب ابن منصور مفرج الاسكندراني الشماس.

ج) ثم أثبت الاتحاد التام بينه وبين الله في البيتين الثالث والرابع، وساوى بينه وبين الله فيقول.: (بل أنا أنت دائما ـ أنت اليوم عين حقيقتي ـ إذا تعينت الأشياء كنت كنسختي).

د) ثم تطرف الدسوقي فأنكر حلول الله فيه، فجعل نفسه هو الذى يحل بالله ويتحد به، وإن ذلك نسبه الحقيقي كما في البيت الخامس و ما بعده إلى البيت الثامن..

هـ)ثم خاطب العالم بصفته الجديدة فأثبت وحدة الوجود لالله وإنما لنفسه، فهو مدار الكل وشمس إشراق العلوم ولايراه المحجوبون(ولاغبت إلا عن قلوب عمية)، وإن الأنبياء جاءت إلى الأمم من لدنه(وبى قامت الأنباء فى كل أمة..)والمصلون في الحقيقة يتجهون إليه(ولاجامع إلاولى فيه منبر).. ثم إنه طبقاً لوحدة الوجود يظهر فى كل صورة.. وتعبر عنه كل ذات (بذاتي تقوم الذات فى كل ذروة أجدد فيها حلة بعد حلة)..

ولم يتوقف الدسوقي عن إعلان عقيدته نثراً فهو القائل(أنا كل ولى فى الأرض، خلعته بيدى، ألبس منهم من شئت، أنا فى السماء شاهدت ربى، وعلى الكرسى خاطبته، أنا بيدى أبواب النار غلقتها، وبيدى جنة الفردوس فتحتها ، من زارنى اسكنته جنة الفردوس..)[١].

٧ـ أما الشاذلي فقد أكتسب الشهرة بالاعتدال وأنه أقرب الطرق الصوفية إلى مذهب أهل

(١) الطبقات الكبرى: جـ١/١٥٧وجوهرة الدسوقى٩٩.

قـال مـوهوب ابن منصـور ابن مـفـرج الأسكندراني الشمـاس انه لما كـان من تقـدم من السلف الاخيار ،رزقنا الله بركتـهم قد اهتم وكتب سيرة البيعة ورتبـهـا وشـرح امور البطاركة على كرسي البشير مارى مرقس الانجيلي باسكندرية وما جرى لهم، ومـا اظهره الله سبحنه على يديهم من العـجـايب، وايدهـم به من الصـبـر والجـهـاد وقـوة الامـانة وارشـادهم لرعيـتـهم وهدايتـهم اياهـم الى الامانة المستقيمة وتعليمهم الوصايا الانجيلية كما

السنة وأبعد عن مدرسة ابن عربي.. وفي ذلك يقول أبو الوفا التفتازاني (كان تصوف الشاذلي والمرسي وابن عطاء ـ وهم أركان المدرسة الشاذلية ـ مبتعداً تماماً عن مدرسة ابن عربي في وحدة الوجود، فلم يكن واحد منهم قائلا بهذا المذهب، ولكن هذا لايعني إنه لم تكن هناك صلات بين مدرسة ابن عربي والمدرسة الشاذلية.

وقد يكون من الأفضل أن نتعرف على عقيدة الشاذلي والمرسي من خلال ما كتبه تلميذهما ابن عطاء في (لطائف المنن)لنرى إلى أى حد تأثرت الشاذلية بآراء ابن عربي وعبرت عن عقيدة الاتحاد ووحدة الوجود.. يقول الشاذلي(في بعض كتب الله تعالى المنزلة على بعض أنبيائه: من أطاعني في كل شئ أطعته في كل شئ)[1]. والشاذلي (وهو يفترى هذا الحديث الذى نسبه إلى بعض الكتب المنزلة ولم يعينها ـ على بعض الرسل ـ ولم يعرفنا بهم) بعد ذلك خلص إلى غرضه الأساسي، وهو شرح هذا القول في ضوء فهمه لعقيدة الصوفية في الاتحاد ووحدة الوجود.. (فقال الشيخ أبو الحسن: من أطاعني في كل شئ بهجرانه لكل شئ، أطعته في كل شئ بأن اتجلى له دون كل شئ ، حتى يراني أقرب إليه من كل شئ.

هذه طريقة أولى وهي طريقة السالكين، وطريقة كبرى: من أطاعني في كل شيء بإقباله على كل شيء، بحسن إرادة مولاه في كل شيء، أطعته في كل شيء، بأن أتجلى له في كل

(١) لطائف المنن ٣٩: ٤٠مكتبة القاهرة ١٩٧٩.

امرهم الرب جل اسمه، اشتهيت انا الخاطى البايس ان اجمع سيرهم واكتبهم ليكون ذلك ربحا لى ولمن يقراها بعدى، فاستعنت بالله تعالى ذكره، وصرت الى دير القديس ابو مقار بوادى هبيب المقدس، فوجدت الشماس ابا حبيب ميخاييل ابن بدير الدمنهورى، وكان هناك الاب انباكيرلس ومعه ثلثة اساقفة وهم انبا غبريال اسقف البحيرة وانبا ابرهام اسقف دبقوا [مركز كفر الزيات] وانبا خايال اسقف نوسا [مركز أجا] الذى من بوره

شيء، حتى يرانى فى كل شئ، وأذ قد عرفت هذا فأعلم أنهما ولايتان: ولى يغنى عن كل شئ فلايشهد مع الله شيئاً، وولى يبقى فى كل شئ فيشهد الله تعالى فى كل شيء، وهذا أتم)[١]..

فعبر الشاذلى عن الاتحاد أو طريقة السالكين (بأن اتجلى له دون كل شيء حتى يرانى أقرب إليه من كل شيء) وهو صوفي (لا يشهد مع الله شيئا) أو بتعبير الغزالي (لا يرى إلا فاعلاً واحداً)، وعن وحدة الوجود قال (وطريقة كبرى.. أطعته فى كل شيء بأن اتجلىى له فى كل شيء حتى يرانى فى كل شيء) والصوفى حينئذ (يشهد لله تعالى فى كل شيء، وهذا أتم)..

ويقول الشاذلى (الصوفى من يرى الخلق لاموجودين ولامعدومين..)وقال (إنا لانرى أحداً من الخلق، هل فى الوجود أحد سوى الملك الحق؟ وإن كان لابد فكالهباء فى الهواء إن فتشته لم تجد شيئا)[٢]. وهو متأثر بقول ابن عربى (إن شئت قلت هو الخلق وإن شئت قلت هو الحق وإن شئت قلت هو الخلق الحق.. وإن شئت قلت بالحيرة فى ذلك)[٣] فقال الشاذلى (إن الخلق لاموجودين ولامعدومين).. واعتبر وجود الخلق (كالهباء فى الهواء)..

(١) لطائف المنن ٣٩: ٤٠ مكتبة القاهرة ١٩٧٩.
(٢) نفس المرجع ١٩٩ . (٣) الفصوص ١٣٤.

[كفر البطيخ/شربين]، وذلك في برمهات سنة ثمان ماية واربعة للشهدا، الموافقة لسنة اربع ماية ستة وسبعين الخراجية، وهو المحرم من سنة ثمانين واربع ماية الهلالية، وهي السنة العاشرة من بطركيته. وفي البرية المذكورة يوميذ تقدير سبع ماية راهب، منها في دير ابو مقار اربع ماية، وفي دير أبو يحنس ماية خمسة وستين، وفي دير ابو كما خمسة وعشرين، وفي دير برموس عشرين، وفي دير ابو بشيه اربعين، وفي دير السريان ستين،

وقد سبق القول في أن ابن عربي ارتفع بمكانة الإنسان حتى جعله بالنسبة لله تعالى (بمنزلة انسان العين من العين الذى به يكون النظر).. وقد تأثر به الدسوقي فجعل من نفسه الأصل الذى تصدر عنه مظاهر الأشياء، كما عرضنا في شرح قصيدته السابقة، ثم ألمح الشاذلي إلى هذه النقطة حين جعل نفسه يتحد مع تلميذه المرسى فقال له(يا أبا العباس ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا أنت)[١] وتأسيساً على ذلك فقد رويت اسطورة منامية بعد موت الشاذلي جعلته يحل في شخص المرسي، يقول ابن عطاء (واخبروني بعض أصحابنا قال: رأى انسان من أهل العلم والخير كأنه بالقرافة الصغرى والناس مجتمعون يتطلعون إلى السماء، وقائل يقول: الشيخ أبو الحسن الشاذلي ينزل من السماء والشيخ أبو العباس مترقب لنزوله متأهب له، فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء وعليه ثياب بيض، فلما رآه الشيخ أبو العباس ثبت رجليه في الأرض وتهيأ لنزوله عليه فنزل الشيخ أبو الحسن عليه ودخل من رأسه حتى غاب فيه[٢].

أى أن الشاذلي ادعى انه الذى يتحد بخليفته، ثم جاء اتباعه فجعلوا من الشاذلي ـ بعد

(١) لطائف المنن المرجع السابق ٩٦.
(٢) لطائف المنن المرجع السابق ١١٢.

وفى مغارة ابو موسى راهبين سريانى وقبطى سوا [غير] السواح الذى لم نراهم ولم نعرفهم. وكان يوميذ ملك مصر الامام المستنصر بالله(*)، وجلس فى الملك احد وخمسين سنة خراجية، لانه ولد يوم الثلثا السادس عشر من جمادى الاخر سنة اربع ماية وعشرين الهلالية، وجلس فى المملكة وعمره سبع سنين فى يوم الاحد النصف من شعبان سنة اربع ماية سبعة وعشرين الهلالية، الموافق لبرموده سنة اربع ماية خمسة وعشرين الخراجية

(*) كانت أم المستنصر من السودان.

موته ـ ينزل من السماء ليحل فى شخص تلميذه المرسى.. والشاذلى يرى أن شأن الولى الحقيقى ـ ويقصد نفسه ـ هو أن يكون عين الاسم الأعظم لله تعالى [1].

وقد كان ابن مشيش هو الشيخ المباشر للشاذلى، ولازالت صلاة ابن مشيش هى الورد المفضل للشاذلية حتى اليوم.. وفيها يقول ابن مشيش(وزجنى فى بحار الأحدية، وانشلنى من أوحال التوحيد، واغرقنى فى بحر عين الوحدة، حتى لاأرى ولاأسمع ولاأجد ولاأحس إلابك)[2]. فابن مشيش لايكتفى بإدعاء الوحدة وأن يكون فى عين ذات الله وأنما يعتبر التوحيد الإسلامى ـ دين الله ـ أوحالاً يترفع عن التدين به، وينبغى الفرار منه إلى الاتحاد بذات الله والغرق (فى بحر عين الوحدة)..

ويبدو تأثر الشاذلى بصلاة ابن مشيش.. فهو يقول فى دعائه (اجعلنى عندك دائماً وبك قائماً.. واسقط البين بينى وبينك حتى لايكون شئ أقرب إلى منك ولاتحجبنى بك عنك[3]. ويقول (اللهم هب لى من النور الذى رأى به رسولك ما كان ومايكون، ليكون العبد بوصفى سيده لا بوصف نفسه[4].

(١) لطائف المنن المرجع السابق٨٨.
(٢) شرح صلاة ابن مشيش٢٢٥ك٢٦٦ مخطرط..
(٣) ، (٤) لطائف المنن ٢٤٧ .

[١٠٣٦م]، ومستولى الامر والوزارة والنظر فى المملكة يوميذ السيد الاجل امير الجيوش سيف الاسلام بدر الجمالى، وهى السنة الرابعة عشر منذ دخوله الى مملكة ديار مصر من عكا، لانه كان واليها ومنها جا الى القاهرة فى العشر الاول من طوبه، وهى صخرة [حصن] امير الجيوش التى تعرف بديار مصر الى الان ولا تعرف بغيرها، وتحدث [تحدثتُ] مع الشماس ابو حبيب الدمنهورى المقدم ذكره فيما عولت عليه من جمع

ويقول الشاذلى فى حزبه (اللهم صلنى باسمك العظيم الذى لايضر معه شئ فى الأرض ولافى السماء، وهب لى منه سراً لاتضر معه الذنوب شيئاً.. وأدرج اسمائى تحت اسمائك وصفاتى تحت صفاتك وأفعالى تحت أفعالك.. وأغننى حتى تغنى بى وأحينى حتى تحيا بى)[١].

٨ــ ولم يتخلف ابو العباس المرسى عن ركب شيخه، يقول عن خاصة الأولياء واحسبه يقصد نفسه(إن لله تعالى عباداً محق أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه وذاتهم بذاته، وحملهم من أسراره ما يعجز عامة الأولياء عن سماعه، وهم الذين غرقوا فى بحر الذات وتيار الصفات، فهى إذن فئات ثلاث: أن يفنيك عن أفعالك بأفعاله وعن أوصافك بأوصافه وعن ذاتك بذاته.. فإذا افناك عنك ابقاك به..)[٢].

ويقول المرسى يصف ألوهية الصوفى المتحد بالله(لو كشف عن حقيقة الولى لعبد، لأن أوصافه من أوصافه ونعوته من نعوته)[٣] أى لو عرف المحجوبون من البشر حقيقة ألوهية الولى الصوفى لعبدوه، لأن صفاته من صفات الله.

ويقول التفتازانى (ولقد لاحظنا بعد استقراء طويل لأقوال ومذاهب صوفية مصر منذ القرن الثالث إلى القرن السابع، سواء منهم من كان مصر ياً أو وافداً إلى مصر ومقيما بها ما يلى:

(١) نفس المرجع ٢٦٥:٢٦٦ .   (٢) لطائف المنن٣٢:٣٣.
(٣) لطائف المنن ٤٥.

سير البطاركة، فاتفق راينا على البحث عنها وطلبها حيث ما كانت، فوجدنا في دير السيدة بنهيا [على النيل قرب امبابه] منها سيرة اثنين واربعين بطرك من مارى مرقس الانجيلى الى سيمون، ووجدنا فى دير الشهيد الجليل تادرس على المنهى بابلاج [بوادى النطرون] سيرة اربعة بطاركة من الاكسندروس الى خايال وهو تمام ستة واربعين بطرك، ووجدنا فى دير نهيا ايضا سيرة تسعة بطاركة من انبا مينا الى شنوده وهو تمام خمسة

١ـ لم يقل واحد منهم بوحدة الوجود أو الحلول أو الاتحاد..

٢ـ بخلو تصوفهم من العناصر الأجنبية غير الأسلامية، وتصوفهم فى نظرنا يمثل التصوف الإسلامى الخالص)[١].

وهو قول مجاف للحق تماماً، فأين عمر بن الفارض والعفيف التلمسانى وغيرهما؟؟ وشهرتهم بالاتحاد والحلول لاينكرها أحد من معاصريهم، والتفتاز انى نفسه يقول(على أنه منذ القرن السادس الهجرى أيضاً نجد مجموعة أخرى من شيوخ التصوف الذين مزجوا تصوفهم بالفلسفة)، وذكر منهم (سلطان العاشقين الشاعر الصوفي المصرى عمر بن الفارض.. وواضح أنهم قد استفادوا من عديد من المصادر والآراء الأجنبية كالفلسفة اليونانية خصوصاً مذهب الأفلاطونية الحديثة.. وقد آثار متفلسفة الصوفية فقهاء المسلمين واشتدت الحملة عليهم لما ذهبوا إليه من القول بالوحدة الوجودية،وكان أبرز من حمل عليهم ابن تيمية)[٢] والمهم أن دعوة التفتازانى لتأكيد الاعتدال فى الطريقة الشاذلية التى ينتمى إليها جعلته يبالغ فيحسب ذلك الاعتدال على صوفية مصر جميعاً.. وذلك ما يأباه المنطق والتاريخ معاً..

٩ـ ويتمتع أشياخ الطرق ـ خاصة البدوى والدسوقى والشاذلى ـ بتقديس اضطرد مع

(١) التفتازانى: ابن عطاء وتصوفه ٥٣، وحوليات آداب القاهرة ص ٦٣ مجلد ٢٥ سنة ٦٣.
(٢) مدخل إلى التصوف الإسلامى: ٢٣، ٢٤.

وخمسون بطركا، ووجدنا في دير ابو مقار سيرة
عشرة بطاركة من خايال السادس والخمسون الى
سانوتيوس الخامس والستون، كتبها انبا ميخاييل
[الدمراوى] اسقف تنيس وهى بخط لقوط الراهب
ولده، فلما كملت لى هذه السير ونسختها بخطى
وصارت عندى بالاسكندريه، وجب الان ان ابتدى
واشرح ما يتلوا ذلك، وهى سيرة الاب القديس ابا
اخرسطودولس البطريك ومن جلس بعده، وجعلتها
بمقتضى سياقة عدد السنين التى قبلها.

تتابع السنين.. بما كرسه الأتباع من تأليه وعبادة لهم طبقاً لعقيدة الصوفية.. إلا أن ذلك التقديس المضطرد لايحجب حقيقة هامة تتمثل فى وجود الإنكار عليهم فى حياتهم مع ما كان للتصوف من دولة زاهرة فى العصر المملوكى..

أ) فابن دقيق العيد انكر على أحمد البدوى، وجاء فى الجواهر السنية (إن مولانا قاضى القضاه شيخ الإسلام تقى الدين ابن دقيق العيد كان ينكر على الشيخ أحمد البدوى)[1]. وتنتهى قصة الإنكار بكرامة تجعل ابن دقيق العيد يعتقد ولاية البدوى، ويذكر الشعرانى أن الخطباء فى طنطا انتصروا لأحد المنكرين على البدوى وبنوا له مئذنة عظيمة (فرفسها سيدى عبد العال برجله فغارت إلى وقتنا هذا)[2].

ب) ولاشك أن ادعاءات الدسوقى المتطرفة قد آثارت الإنكار عليه، فكان يقول (عليكم بتصديق القوم فى كل ما يدعون، فقد أفلح المصدقون وخاب المستهزئون، فإن الله تعالى قذف فى سر خواص عباده ما لايطلع عليه ملك مقرب ولانبى مرسل.. ما أنا قلت هذا من عندى إنما هو كلام أهل العلم بالله تعالى فما للعاقل إلا التسليم والاحرم فوائدهم وخسر الدارين[3]. أى أن الدسوقى يرد الإنكار بما يستوجب الإنكار، إذ فضل الولى الصوفى على

(١) الجواهر السنية ٤١.
(٢) الطبقات الكبرى جـ١/ ١٦٠، ١٦٢.
(٣) الطبقات الكبرى جـ١/ ١٥٠.

السيرة السادسة والعشرون من سير البيعة المقدسة انبا اخر سطودلوس [عبدالمسيح] البطريرك(*) وهو من العدد السادس والستون

[١٠٤٦ / ١٠٧٧م]

(*) فى أيامه نقلت البطركية إلى القاهرة. ومن هنا يبدأ ما كتبه موهب ابن منصور ابن مفرج الاسكندرانى الشماس من سير تاريخ البطاركة.

ولما تنيح الاب انبا شنوده وكانت النوبة [نوبة أختيار البطرك] للاسكندرانيين، اجتمع أهل اسكندريه والكهنة والأراخنة وتشاورو فيمن يجلسوه على الكرسى الرسولى، وكان فيها عاملين: أحدهما المعروف بفهد ابن فلوتس

النبى والملائكة ولادليل له من كتاب أو منطق، وإنما من كلام الصوفية وإحاديثهم أو على حد قوله (إنما هو كلام أهل العلم بالله تعالى)..

والطريف أن الدسوقى قد أوسع مكاناً فى النار للمنكرين عليه وأحبط أعمالهم. وذلك فى معرض استعراض ألوهيته يوم القيامة يقول: (ومن كراماتنا .. أنى سددت أبواب جهنم السبع بفوطتى وفتحتها لأعدائى وأدخلتهم فيها، ومنها أنى فتحت أبواب الجنة الثمانية بيدى وأدخلت أمة محمد ﷺ فيها ومنها أن صنج الميزان بيدى أصير حسنات مريدى أثقل من سيئاته، ومسيت عليها بيدى فصارت سيئات المنكرين علىّ أثقل من حسناتهم ولو كانوا مطيعين[1].

وقد لعب الإنكار على الشاذلى دوراً هاماً فى حياته، مع أنه اشتهر ظاهرياً بالاعتدال.. ومعلوم أن الإنكار دائماً من نصيب الصوفى المتطرف فى العصر المملوكى ويزداد الإنكار بإزدياد تطرف الصوفى فى ادعاءاته.

ثانيا: فى القرن الثامن

أ) ابن تيمية ونصر المنبجى:

فتح هذا القرن عينيه ليشهد ثورة الفقهاء بزعامة ابن تيمية على نفوذ أتباع ابن عربى فى

(١) طبقات الشرنوبى ٣، ٤ . مخطوط بجامعة القاهرة تحت رقم ٢١٨٤٦ .

[فلتس]، والآخر يسمى علون [علوان] ابن زكريا
من قبل على ابن حديد ناظر الريف، فحضرا
المجمع وذكرا قمص دير القديس ساويرس الهانطون
غربى اسكندرية، وكان فيه يوميذ نيف وأربعين
راهب فضلا علما منهم شيخ قديس يسمى تيدر
الخصى، رأيته أنا الخاطى واضع هذه السيرة
وتقربت من يده دفعات واستعلمت قصته من
الرهبان، فعرفوني أنه كان قد نزل بالدير جماعة
من امرآ العرب القريبين وأن جارية من جوارهم

آواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن، ممثلاً فى نصر المنبجى الذى سيطر على السلطان المملوكى بيبرس الجاشنكير، وقد اغتصب العرش من الناصر محمد ابن قلاوون..

١.محاكمة ابن تيمية الأولى فى الشام..

وتتابع المؤرخ الأمير بيبرس الداودارى وهو معاصر لهذه الفترة، يقول أن مجلساً عقد لمحاكمة ابن تيمية فى رجب ٧٠٥«وسألوه فى مواضع خارجا عن العقيدة، ثم رجعوا واتفقوا أن يحاققه ابن الزملكانى من غير مسامحة، وانفصل الأمر بينهم على أنه أشهد على نفسه الحاضرين أنه شافعى المذهب، وابتهج أصحاب الشيخ وقالوا: ظهر الحق مع شيخنا، فعزروا أحدهم، ثم حبس أحد أصحاب ابن تيمية لأنه قرأ فصلاً فى الرد على الجهمية من تصنيف البخارى ، فظنوا أنهم المقصودون بالتكفير ، فأخرجه ابن تيمية من الحبس، وتنازعوا، وكان نائب السلطان(فى الشام) غائباً فى الصيد، فلما جاء اعتقل من أكثر من الكلام من الطائفتين (الفقهاء والصوفية)، وهدد من تكلم فى العقائد ليخمد الفتنة»..

٢.محاكمته الثانية فى مصر:

«وقد اجتمع القضاة للبحث فى العقيدة وانتهى الاجتماع بين ابن الوكيل وابن الزملكانى بأن جعل القاضى نجم الدين صيصرى قاضى القضاة يعزل نفسه رغم إلحاح الأمراء عليه، ثم ورد من مصر بعودته للحكم، ومضمون أحد الكتابين يقول: قد فرحنا بإجماع رأى العلماء

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

تعرضت به وألزمته نفسها. فأخذ سكين مضه [ماضية] وسنها على حجر المآ وقطع بها مذاكره فوقع كالميت حتى جا سرور الراهب قيم الدير فوجده مطروحاً على هذه الحال فشوا جبن خيشي(*) وجعله عليه حتى انقطع الدم وبرى وعاش إلى الان. فاما القمص الذى ذكروه للبطركيه فهو شيخ قديس اسمه يونس ابن تبروس من كهنة اسكندرية وكان له أخ أرشي دياقن اسمه تيدر، فلما عولو على تقدمته مضى قوم من كهنة

(*) الجبن الخيشي: هو الجبن الذى يتم تصفيته من الشرش بلفه في لفائف الخيش ليفقد الماء الموجود به.

على عقيدة الشيخ تقى الدين(ابن تيمية)، فباشر القاضى نجم الدين مستهل شهر رمضان وسكنت الفتنة، ثم ورد مرسوم آخر في (٥) رمضان بطلب نجم الدين بن صصرى وابن تيمية وابن الزملكانى، وفيه إنكار على ابن تيمية، ثم وصل مملوك ملك الأمراء (يقصد بيبرس الجاشنكير ولم يكن قد تولى السلطنة) على البريد، وأخبر إن الطلب عل ابن تيمية حثيث، وإن القاضى المالكى ابن مخلوف قد قام فى الأمر قياماً عظيماً، وإن بيبرس الجاشنكير معه فى الأمر، وأخبر بأشياء كثيرة وقعت فى مصر فى حق الحنابلة(أتباع ابن تيمية) وإن بعضهم أهين، وإن القاضى المالكى (المنحاز للصوفية) والحنبلى (المؤيد للفقهاء) جرى بينهما كلام كثير، فأمر ملك الأمراء بتجهيزهم فوصلوا فى رمضان، وعقد مجلس لابن تيمية فى دار النيابة (بمصر) بحضور سلار والعلماء والأئمة والقضاة الأربعة وبيبرس فادعى ابن عدلان القاضى الشافعى على ابن تيمية دعوى شرعية فى عقيدته، فأراد ابن تيمية أن يذكر عقيدته فى فصل طويل،فقالوا له: ياشيخ الذى بتقوله معلوم ولاحاجة للإطالة، وأنت قد ادعى عليك هذا القاضى بدعوى شرعية أجب عليها، فأعاد القول فى التحميد فلم يمكنوه فى تتمة تحاميده، فقال عند من هى هذه الدعوى؟ فقالوا: عند القاضى زين المالكى، فقال: عدوى وعدو مذهبى.. وطال الأمر، فحكم القاضى المالكى باعتقاله، فاعتقل، وسجن أخوته فى برج من أبراج القلعة.

اسكندرية إلى شيخ يسمى أبا يحى زكريا كان يصحب القايد الأجل المستنصر وكان قريباً من السلطان ومن الوزير على ابن أحمد الجرجانى [الجرجرائى](*) وكان لهذا أبو يحى تقدمة وجاه عريض وكان نايباً عن الاب البطرك المتنيح انبا شنوده، وقالو هذا الاغومنس يونس ابن تبروس الذى عولو على قسمته بطركاً هو اشبين علوان ابن زكريا العامل ومتى جلس على الكرسى الرسولى

(*) الجراجرائى: توفى ٤٣٦هـ = ١٠٤٥م. هو على ابن أحمد الجرجرائى، أبو القاسم، نجيب الدولة: وزير من الدهاة. ولد فى جرجرايا بسواد العراق. سكن مصر تنقل فى الأعمال السلطانية بالريف والصعيد. كثر التظلم منه

٣.سبب المحاكمات:

ويقول المؤرخ بيبرس الداودار تحت عنوان(ذكر السبب الموجب لهذه الفتن المذكورة) يعلل السبب الحقيقى فى اعتقاله: (أحضر بعض أصحاب ابن تيمية له (فصوص الحكم) لابن عربى، فرأى فيه الشيخ مسائل تخالف اعتقاده، فشرع فى لعن ابن العربى وسب أصحابه ممن يعتقد اعتقاده، ثم اعتكف الشيخ (ابن تيمية) فى شهر رمضان وصنف نقيضه وسماه(النصوص على الفصوص)، وبين فيه الخطأ الذى ذكره ابن عربى.. وبلغه أن شيخ الشيوخ كريم الدين شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة له اشتغال بمصنفات ابن عربى وانه يعظمه تعظيماً كبيراً، وكذلك الشيخ نصر المنبجى(ت ٧١٩)، ثم أن الشيخ صنف كتابين فيهما إنكار كثير على تأليف ابن العربى ولعنه فيهما مصرحاً ولعن من يقول بقوله، وسير الكتاب الواحد للشيخ نصر المنبجي والشيخ كريم الدين، فلما وقف عليه الشيخ نصر تألم، وكانت له منزلته عند ركن الدين بيبرس (الجاشنكير المتحكم فى السلطنة) الذى لايقوم ولايقعد إلابه، وكان سائر الحكام من القضاة والأمراء وأرباب المناصب يترددون عند الشيخ نصر لأجل منزلته عند بيبرس الجاشنكير، فحضر عنده القاضى ابن مخلوف المالكى عقيب وقوف نصر على كتاب ابن تيمية، فأوقفه على الكتاب المذكور، فقال له القاضى: أوقف الأمير ركن الدين بيبرس عليه وقرر ما أحببت وأنا معك كيف شئت، وألزم الأمير ركن الدين بطلبه

كان مستحوذ عليه وتنفسد الأحوال، فعند ذلك بطل أمر الاغومنس ثم اجتمعو أيضا وبحثو حتى ذكر لهم انبا اخر سطودلوس وكان قسيسا من اهل بوره في مبدا حداثته في دير برموس بوادى هبيب، وكان له أخ في الرهبنة اسمه يعقوب صار قمص برموس وكان له عجايب كثيرة لأنه كان قديساً عظيما. فخرج اخرسطودلوس من البرية ومضى إلى صومعه على البحر المالح [بحيرة البرلس] في

في أيام الحاكم الفاطمي فقبض عليه واعتقل ثم صدر الأمر بقطع يديه. تولى ديوان النفقات سنة ٤٠٦هـ ولقب سنة ٤٠٧هـ بنجيب الدولة. استوزره الظاهر الفاطمى سنة ٤١٨ وأقره بعده المستنصر الذى حضر وفاته وصلى عليه سنة ٤٣٦هـ.

إلى الديار المصرية ونسأله عن عقيدته فقد بلغنى إنه أفسد عقول جماعة كبيرة، وهو يقول بالتجسيم، وعندنا من اعتقد هذا الاعتقاد كفر ووجب قتله. فلما حضر الأمير ركن الدين عند الشيخ نصر على عادته أجرى له ذكر ابن تيمية وأمر عقيدته، وأنه أفسد عقول جماعة كبيرة، ومن جملتهم نائب الشام وأكبر الأمراء الشاميين، والمصلحة تقتضى طلبه إلى الأبواب العالية، ويطلب منه عقيدته وتقرأ على العلماء بالديار المصرية من المذاهب الأربعة، فإن وافقوه وإلا يستتيبوه ويرجعوه ليرجع عن مذهبه واعتقاده وساير من لعب بعقله من الناس، ثم ذكر له ذنوبا آخر، حتى حرص بيبرس على طلبه)(١).

أى صار لعقيدة وحدة الوجود النفوذ والسيادة في مطلع القرن الثامن ممثلة في تسلط نصر المنبجي على عناصر السلطة المملوكية (بيبرس الجاشنكير) والقضاة، (وكان سائر الحكام من القضاة والأمراء وأرباب المناصب يترددون عند الشيخ نصر لأجل منزلته عند بيبرس الجاشنكير) وزين القاضى ابن مخلوف لنصر المنبجي استحضار ابن تيمية لمصر حيث يتمكن من قتله متهماً بالكفر..

واعتبرا معاً أن دعوة ابن تيمية ضد العقيدة الصوفية بمثابة (إفساد لعقول جماعة

(١) ابن أيبك الداوداري: سيرة الناصر ١٤٣ .

نستروه [مركز دسوق] وتعرف بنفره فحبس نفسه فيها فعلم اخوه يعقوب بالروح أنه يصير بطركاً فبكا لاجله وأعلمه بذلك. وكان عنده في الصومعه جسد تكله الرسولة تلميذة بولس الرسول الذى شهد لوقا الإنجيلى فى الكتاب الذى وضعه لأجلها، وذكر فيه ما كان منها وأنها طرحت للسباع ورميت في النار بمدينة انطاكية ولم يصيبها من ذلك أذية بالجملة، وهى التى ذكرها

كبيرة).. وأثار نصر المنبجى خوف بيبرس الجاشنكير من ابن تيمية، منها أنه ضم إليه (نائب الشام) (وأكبر الأمراء)، وذكر له ذنوبا أخر حتى حرص بيبرس على طلبه..

واستمر تجاهل الصوفية فى مصر لموضوع العقيدة أثناء محاكمة ابن تيمية فاشتطوا فى منع ابن تيمية من شرح عقيدته (.. فأراد ابن تيمية أن يذكر عقيدته فى فصل طويل، فقالوا له: ياشيخ الذى بتقوله معلوم ولاحاجة للإطالة)، بل منعوه فى ذلك المجلس الذى عقد لمحاكمته ـ من مجرد تحميد الله والبدء في الكلام.. وكان التحامل واضحاً على ابن تيمية تنفيذاً للمخطط الذى وضعه ابن مخلوف وباركه نصر المنبجي ووافق عليه بيبرس الجاشنكير.. وانتهى الأمر بحكم ابن مخلوف باعتقال ابن تيمية، ثم لم يكتف بذلك فسعى لدى بيبرس الجاشنكير حتى منع الامراء من الاتصال به، ومازال به حتى حبسه في الجب، وهدد اتباعه من الحنابلة بالقتل إذا انكروا على عقائد الصوفية الاتحادية..

ولاريب أن جهل القضاة ـ مع تسليمهم للتصوف وخضوعهم للصوفية والحكام ـ أدى إلى تباعد بين ابن تيمية وبقية الفقهاء فى مصر، مع أنهم جميعاً من أشياخ الفقه أو يجب أن يكونوا كذلك..

وقد اعترف خصمه كمال الدين الزملكاني بأن ابن تيمية(اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها)[1].

(١) تاريخ ابن الوردى جـ٢/٢٨٨، ٢٨٩.

القديس اغريغوريوس وقال القديسه العذرى تكلمه
الذى [التى] فازت بالفضيلتين، فضيلة الثلثة فتية
فى أتون النار وفضيلة دانيال النبى فى جب
السباع، وكان جسدها فى تابوت تظهر منه
العجايب كما حدثنى الاب انبا اخرسطودلوس بعد
بطركيته، وجسدها اليوم مع جسد فيلاتاوس القايد
الشهيد فى صومعة سنجار(*) التى فيها يوميذ
ميخاييل الاغومنس الحبيس، وطلعت [أنا موهب

(*) سنجار: من المدن الدارسة، وكانت تعرف كذلك بشنشار. كانت فى فترة ما قبل الاسلام

---

٤. التآمر على ابن تيمية فى المعتقل وخارج المعتقل:

وقد مارس الصوفية الضغط على ابن تيمية وهو فى المعتقل حتى يسلم لهم بعقائدهم ويكف عن الإنكار عليهم فى نظير إخراجه، فكان نصر المنبجي يدعوه للصلح وبعد أن يحصل على موافقته يرفض الصلح معه إلا بعد أن يتنازل عن آرائه، يقول صاحب مخطوطه (تكسير الأحجار) التى فصلت حياة ابن تيمية فى المعتقل (لما كان الشيخ فى قاعة الترسيم جاءه شمس الدين الدباهي للصلح بينه وبين نصر المنبجي، فقال ابن تيمية: أنا أجيب إلى ذلك، فذهب إلى نصر وعنده المشايخ التدامرة، وعرض عليه الأمر، فقال يا سيدى وكم كتبنا إلى الشيخ مثل هذا وما سمع منا .. فقال له اكتب إنك أجبت إلى ذلك، فقال: إن كتب الشيخ كتبت فاتفقا على ذلك، فسير ورقة للصلح إلى ابن تيمية فكتب: أجبت إلى ذلك ولاحول فاتفقا على ذلك، فسير ورقة للصلح ابن تيمية فكتب: أجبت إلى ذلك ولاحول ولاقوة إلابالله العلى العظيم وكتبه أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، فقال الدباهي لنصر: اكتب مع الشيخ مثل ما قلت وعاهدت الله عليه، فقال ما بقيت أكتب شئ، فقال له شمس الدين: عاديتك فى الله، وكشف رأسه وقال ثم نبتهل ثم نبتهل، وقام من عنده فسير الشيخ نصر لوالى المدينة أن يكبس بيت ابن تيمية ومسك (اعتقال) أصحابه، فسير الوالى نائبه فكبس البيت وقصدوا اعتقال شرف الدين أخى الشيخ، ولكنه هرب وأمسك أصحاب الشيخ واعتقلهم فى بيته ومنع الناس من الدخول على الشيخ.

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

ابن منصور] إلى عنده وتباركت منه ومن الجسدين المذكورين فى سنة ثمان ماية وثلثة للشهدا، وصار هذا ميخاييل بطركاً بعد انبا كيرلس القديس، وأما انبا اخر سطودلوس لما ذكر فى المجمع اتفق رايهم على تصييره [بطركاً] فسار إليه عشرة من مقدمى اسكندرية وصحبتهم جماعة من جملتهم ابو المليح منصور عامل اسكندرية المعروف بابن العلمى [العليمى] وقس اسمه سيمون فى بيعة

كرسى اسقفية. ومحلها اليوم كوم سنجار فى جزيرة واقعة ببحيرة البرلس (بحيرة نستروه) على بعد ١٠ ك.م من الجنوب الغربى لقرية البرج الواقعة على البحر المتوسط باقليم البرلس التابع لمركز بيلا. وهناك لحن مصرى قبطى قديم يعرف باللحن السنجارى ينسب إلى هذه المدينة.

ثم توسط الأمير حسام الدين مهنا وكلم السلطان من أجله، فأمر بإطلاق سراحه، وتوجه الأمير حسام الدين بنفسه للسجن وأخرجه[1]، ولم يسكت الصوفية عنه، خاصة وإنه لم يسترح بعد خروج من المعتقل فأخذ فى مباحثة الفقهاء بحضرة الأمير سلار، وعقدت مجالس أخرى بالمدارس الصالحية[2] فكان أن أثار الصوفية عليه الغوغاء فامتدت ايديهم للشيخ بالضرب والأذى، فتجمع أهالى الحسينية ليثأروا للشيخ، فألح عليهم ابن تيمية بالرجوع لأنه لاينتصر لنفسه، وفى نفس هذا الشهر رجب ٧١١ اعتدى عليه آخر بالقول المقذع، وأخيراً لجأ الصوفية للسلطان وتجمهروا حول القلعة. وتزعمهم فى هذا ابن يعقوب البكرى (ت٧٢٤) الذى (قام على ابن تيمية وانكر ما يقوله وآذاه حين دخل مصر)[3] وابن عطاء الله السكندرى وكان (المتكلم على لسان الصوفية فى زمانه، قام على الشيخ ابن تيمية فبالغ فى ذلك)[4].

ومع ذلك تزايد اتباع ابن تيمية وكان (الناس يجتمعون به ويهرعون إليه ولم يزل كذلك إلى أن سافر سنة ٧١٢)[5].

(١) سيرة الناصر ١٥٠ . (٢) سيرة الناصر١٥١ .

(٣) شذرات الذهب جـ٦/٦٤تاريخ ابن كثير جـ ٤٦/١٤: ٥٠ .

(٤) شذرات الذهب جـ٦/١٩ .

(٥) سيرة الناصر ١٥١ .

البشير مارى مرقس واستحق أن صار أسقفاً على
مدينة تنيس وهو باق عليها إلى ذلك اليوم وهى
سنة ثمان ماية للشهدا، وجماعة معهم ومضو إلى
عنده والتمسو أن ينزل إليهم فامتنع إلى أن
أحضرو له رجل كان قد تشبن له [أى كان اشبيناً
له] يعرف بابن زكرى ابن مرقوره، فطلع إليه ولم
يزل به إلى أن قرر معه الإجابة إلى مايريدوه، وقال
لهم قد استقر أنه يصير [بطركا] لكنه ما ينزل من

(ب) آثار حركة ابن تيمية على الفقهاء فى القرن الثامن

مدرسة ابن تيمية الفقهية المناوئة للصوفية:

١ـ أسفرت جهود ابن تيمية عن تكوين مدرسة فقهية ابتعدت عن خط القضاة وكبار الفقهاء الذين دانوا بالتصوف ودافعوا عنه.. وتحمل أولئك التلاميذ الكثير من عنت الفقهاء والصوفية أثناء محنة أستاذهم، وأبرزهم: ابن قيم الجوزيه[١] وابن مرى البعلبكى وابن شاس[٢]. وعلى عبد الله الاسكندرى[٣]..

٢ـ واستمرت مدرسة ابن تيمية بعد موته تنادى بمبادئه وتدافع عنه وعنها وتتحمل فى سبيل ذلك الكثير من الأذى ، ومنهم المؤرخ ابن كثير[٤] وابن البرهان المصرى[٥] وابن ماجد[٦] وأبو بكر الهاشمى[٧] وابراهيم الآمدى[٨] وابن المنصفى[٩] وابن عبد الله

---

(١) السلوك جـ١/ ٢٧٣.
(٢) السلوك جـ٢/ ٢٦٣، الدرر الكامنة جـ٢/ ٣٢٣.
(٣) تاريخ الجزرى. مخطوط جـ٢/ ١٧: ١٨.
(٤) ذيل ابن العراقى. مخطوط ١٤٦.
(٥) عقد الجمان. مخطوط وفيات ٨٠٨، إنباء الغمر جـ ٢/ ٣٣٢: ٣٣٣.
(٦) شذرات الذهب جـ٦ /٢٨٢ .
(٧) إنباء الغمر جـ ٢/ ٥٢٦.
(٨) الدرر الكامنة جـ ١/ ٢٧ .
(٩) إنباء الغمر جـ٢/ ١٨٦ .

صومعته إلا حتى يلبس الثياب ليلا يجرى امر فيصير هزواً، فألبسوه الثوب فوق وأقسم يوميذ، ولا يملك إلا درهمين ونصف وربع(*)، وسارو به إلى اسكندرية وكرزوه في كيهك في سنة سبع ماية ثلثة وستين للشهدا. وكانت بداية أمره حسنة وظهرت منه معجزات وكانت روح القدس قريبة منه، ثم سار إلى دير أبو مقار وكرز هناك، وكانت قسمته من الله، وسمعت أنا موهب [ابن منصور

(*) لاحظ هنا أنه كان حتى هذا العهد يصعب اكتشاف جمع الكسور فكان يجب أن يذكر «درهمين وثلاثة أرباع الدرهم».

الناسخ[1] وابن المحب الحافظ[2] وابن الأعمى المصرى[3] وصدر الدين اليوسفى[4] والغزل[5] والحمصى[6] وابن السكرى[7].

(ج) آثار حركة ابن تيمية على خصومه الصوفية:

هجوم بعضهم على ابن عربى

١ـ بعض دهاة الصوفية بادر بالهجوم على ابن عربى وابن تيمية فى نفس الوقت مخافة أن يتطرق الإنكار إلى هدم مبدأ التصوف.. ومن أولئك علاء الدين البخارى، وقد كان يبالغ فى الحط على ابن تيمية وتكفيره حتى ثارت فتنة بسبب ذلك فى الشام[8].. وقد صنف البخارى رسالة فى نقض مذهب الاتحاد سماها (فاضحة الملحدين وناصحة الموحدين)، قال فى آخرها (أنهم يسمون كفرة وملاحدة وزنادقة) ووصف ابن عربى بأنه (كان كذاباً حشاشاً كأوغاد الأوباش)، وقال عن الفصوص (أفتطمعون من مغربى يابس المزاج يأكل الحشيش شيئاً غير ذلك)[9].

(١) إنباء الغمر جـ٣/٤٢.
(٢) شذرات الذهب جـ٦/٣٠٤: ٣٠٥.
(٣) إنباء الغمر جـ١/٤٦٤.
(٤) الدرر الكامنة جـ٢/٢٦٢.
(٥) إنباء الغمر جـ١/١٨٧.
(٦) إنباء الغمر جـ٣/٤٩١.
(٧) تاريخ قاضي شهبة: مخطوط جـ١/٢٢.
(٨) إنباء الغمر جـ٣/٤٧٧.
(٩) تنبيه الغبى ١٨٢: ١٨٣.

الاسكندرانى] الخاطى من فم هذا الاب أنه لما كان
في الصـومعـة رأى في منامـه القـديسين بطرس
ومرقس وقد سلما له ضبارة مفاتيح كبيرة مشدودة.
ومن الوقت أتوه الاسكندرانيين ولبس الثـوب
الصوف وأنزلوه من الصومعة. ومن بعد قسمته
كرز في اسكندرية ست بيع: بيعة على اسم يوحنا
الإنجيلي، وسمعت من فاه يوم تكريزه لهذه البيعة
أنه رأى في منامـه يوحنا ابروطس اسكندرية وفى

وحاول البخارى أن يخرج ابن عربى وأصحابه من دائرة التصوف والأولياء، يقول (إن الملاحدة عبروا عن ضلالتهم بعبارات العارفين بالله يستترون بها فى زندقتهم، فينبغى الحذر من ذلك، فأراد بالفناء نفى حقائق الأشياء .. وذلك غير ما أراده العارفون فإنهم أرادوا بها معانى يصدقها الشرع)[1]. وواضح خوفه من وصول الإنكار إلى ابن عربى إلى درجة اتهام التصوف نفسه..

٢ـ والطريف أن قاضياً للقضاه متعاوناً مع الصوفية ويدين بالتصوف ـ وهو البساطى ـ قد فوجئ بموقف علاء الدين البخارى، فقد قال فى مجلس عقد فى القرن التاسع ـ إن كلام ابن عربى يمكن تأويله ـ وقصد بذلك نفاق علاء الدين البخارى وكان حاضراً المجلس ومعه ابن حجر وعبد الرحمن التفهنى والعينى والسيرامى وابن نصر البغدادى وأبو بكر القمنى وابن الأمانة وابن تقى المالكى، فقال له البخارى على رءوس الاشهاد: كفرت.. وسلم له من فى المجلس بتكفيره، وما خلص البساطى إلا بالبراءة من اعتقاده أمامهم[2].. ثم تشجع البساطى فاعتبر الاتحاديين وابن عربى ضمن القائلين بقدم العالم مع ابن سينا والفارابى، وقال (واعلم أن هذه الضلالة المستحيلة فى العقول سرت فى جماعة من المسلمين، نشأوا فى الابتداء على

(١) تنبيه الغبى ١٨٦ : ١٨٧ .
(٢) إنباء الغمر جـ٣/٣.٤حوادث ٨٣١ .

يده مجمرة من ذهب وهو يبخر الكنيسة من
صدرها إلى بابها داخل خارج بعد أن فرشت كلها
بورق كرم وزرجون أخضر [عيون الكروم] وكان
الذى رأى المنام يقول فى نفسه هذا يوحنا
المعمدانى قد حضر ليكرز بيعته لان هكذى جرت
عادته يحضر فى صورة إنسان اسمه مثل اسمه،
فاتفق نظر هذين الاثنين لهذا المنام فى ليلة واحدة.
وكرز بيعة على اسم الشهيد أبو مرقوره، وبيعة

الزهد والخلوة والعبادة، فلما حصلوا من ذلك على شئ صفت أرواحهم وتجردت نفوسهم وتقدست أسرارهم، وانكشف لهم ما كانت الشواغل الشهوانية مانعة من انكشافه)[1].

أى أنه يسلم لابن عربى بصفاء الروح وقدسية السر وقيام الكشف أو العلم اللدنى، ويجعل ذلك كله مؤدياً للقول بالاتحاد والوحدة مع أنه وصفها بالضلالة المستحيلة فهو يقترب بذلك من رأى العلاء البخارى وإن كان أقل منه مهارة فى التلفيق..

وقد قام البساطى سالف الذكر بشرح تائية ابن الفارض بنفس المنهج الرامى إلى التوفيق بين عقيدة ابن الفارض فيها والإسلام، وذلك لصالح الاتحادية، وقد تكلم على الأبيات على وجه يظهر منها حملها على موافقة الشرع فإن عجز صرح بإعتذارات الصوفية[2].

والبساطى معذور، فللبخارى نفوذ فى الدولة، وكان قد تعصب ضد البساطى فى المجلس وأقسم بالله وإن لم يعزل السلطان القاضى البساطى ليخرجن من مصر، وأمر السلطان بإحضار القضاة عنده فتبرأ البساطى من مقاله ابن عربى وكفر من يعتقدها (وذلك حتى لايعزل، واسترضى السلطان علاء الدين وسأله ألايسافر)[3]. وفى ذلك يقول أبو المحاسن عن البخارى (أنه عزل قاضى القضاة المالكى محمد البساطى وتشاجر معه لأنه حاول أن يؤول

(١) تنبيه الغبى ١٧٠. (٢) تنبيه الغبى ١٧٤.
(٣) إنباء الغمر جـ٣/ ٤٠٤.

رفاييل الملاك، وبيعة الشهيد أبو مينا ، وبيعة لمارى
جرجس، وتجديد بيعة مارى مرقس، واوسم يوم
تكريز بيعة رفاييل الملاك قس واحد ونيف وستين
وشرط على ابايهم أن ليس لهم حق فيما للبيعة،
وسبب ذلك أن بعض الكهنة قال له إن هولا إنما
يتزاحمو على الشماسية بسبب الحقوق التى للكهنة
فى البيع والجوالى التى تدفع عنهم من مالها
وتضيق على البيع فى عمارتها فلاجل هذا السبب

كلام ابن عربى ويدافع عنه)[1]. وكان البخارى ينهى الناس عن مطالعة كتب ابن عربى، ومثله فى ذلك كان الصوفى الإتكاوى ٨٣٤فى القرن التاسع، مع اعتقاده بعرفان ابن عربى وكماله[٢].

٣ـ ومعنى ذلك أن تأثير ابن تيمية استمر إلى نحو منتصف القرن التاسع فى الصوفية الرامين لخدمة الطريق الصوفى وانقاذه من خطر ابن تيمية..

ومع ذلك فإن أولئك الصوفية المنكرين على ابن عربى كانوا تلاميذ لقطب الدين بن ميمون فى القرن التاسع، وقد اشتهر يا نكاره على الاتحادية وكتب فيهم مبتدئاً بالحلاج، وختم بالعفيف التلمسانى.

٤ـ ولولا ابن تيمية ما وجد فى القرن التاسع من ينهج منهج ابن ميمون المعاصر لابن عربى، إذ أن المنطقى فى حكم التاريخ أن يزدهر طريق التصوف باضطراد، ويقل الإنكار عليه وتجتمع آراء الصوفية على عقيدة واحدة بلا نفاق.. إلا أن حركة ابن تيمية أجبرتهم على الهجوم على ابن عربى، ولكن بهجوم صوفى يثبت العقائد الصوفية ولا ينفيها..

*** أثر ابن تيمية العكسى فى ازدهار عقيدة الاتحاد الصوفية:**

(١) المنهل الصافى. مخطوط جـ٥/ ٢٤٩.
(٢) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٣٤٠.

شرط عليهم هذا الشرط، وفى اليوم المذكور وهو
الشامن من مسرى سنة سبع ماية أربعة وستين
للشهدا كتب قانونا وأمر فيه(*) أن لا يعمد ذكر
وأنثى في معمودية واحدة. ولا يدخل أحد إلى
الكنيسة إلا حافى مكشوف الراس . ولا يغطى أحد
من المومنين قربانه بخبز قبل التسريح. وأن تتحرز
المومنين من الما الذى يعطوا منه قربانهم بثلثة جرع
حتى لا يقع منه شيئاً على الأرض فانه مساوى

(*) قانون اخرسطودلوس ومواده تحدد العلاقات داخل الكنيسة.

إلا أن لابن تيمية أثراً غير مباشر في ازدهار عقيدة الاتحاد الصوفية، على غير قصد منه طبعاً.. وترجع هذه المفارقة إلى أن ابن تيمية ـ مع استكمال أدوات الاجتهاد فيه ـ كان إبناً لعصره الذى دان بالتصوف، وحكم على حركته بالفشل وحكم عليه بأن يعيش بين سجن ونفي ومعاناه.. وحتى لا تتشابك عناصر هذه القضية فإننا نبسطها في النقاط التالية ـ

أ) يرى ابن تيمية في التصوف رأياً حسناً، ويقول عن الصوفية (إن الصوفية مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذى هو من أهل اليمين.. وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلاً، فإن أكثر مشايخ الطريق انكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد سيد الطائفة وغيره)[1].

وواضح أن ابن تيمية مخدوع بالجنيد ومنافقى الصوفية الأوائل، ويرى أن أصحاب الوحدة والاتحاد ليسوا من الصوفية، وعلى ذلك تتضاءل المسافة بينه وبين خصمه الصوفى علاء الدين البخارى فكلاهما ينشد اصلاح الطريق الصوفى من شرور (أصحاب البدع والزندقة) .. بل إن ابن تيمية يقول في الجنيد مقالة الصوفية فيه: (.. فإن الجنيد قدس الله روحه وكان من أئمة الهدى، فسئل عن التوحيد فقال: التوحيد افراد الحدوث عن القدم)[2].

(١) ابن تيمية: الصوفية والفقراء ١٦.
(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ١٠٠ طـ صبيح.

الجوهر. وأن يكون وقوفهم فى البيع فى أيام الحاد والاعياد بخوف ورعدة بين يدى الله جل اسمه بالابتهال والتضرع والسوال فى مغفرة الخطايا والنجاة من مصايد العدو. ولا يتكلم أحد ولا يتحدثن فى أوقات الصلاة والقداس إلا فى هذين الأمرين وهما أمر الدين والقراة والعلم والتفاسير مما يكون فيه خلاص النفوس وينصتو لسماع وصايا الرب سبحنه [سبحانه] إلى أن يقف القداس.

ب) ويعتقد ابن تيمية بكرمات الصوفية حتى ممن يعتبرهم أولياء للشيطان، يقول عنهم (وهؤلاء يأتيهم أرواح تخاطبهم وتتمثل لهم وهى جن وشياطين فيظنونها ملائكة.. وهذه الأرواح الشيطانية هي الروح الذى يزعم صاحب الفتوحات (يعنى ابن عربى) أنه ألقى إليه ذلك الكتاب.. واعرف من هؤلاء عدداً، ومنهم من كان يحمل فى الهواء إلى مكان بعيد ويعود، ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق تسرقه الشياطين وتأتيه به، ومنهم من كانت تدله على السرقات بجعل يحصل له من الناس)(١).

(ومن هؤلاء من يأتيه الشيطان بأطعمة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما لا يكون فى ذلك الموضع، ومنهم من يطير به الجنى إلى مكة أو بيت المقدس أو غيرهما، ومنهم من يحمله عشية عرفه ثم يعيده فى ليلته)(٢).

وذلك التصديق بإدعاءات الصوفية وإمكانية حدوثها فعلاً: هو اعتقاد العصر المملوكى الذى لم يستطع ابن تيمية الخروج عنه، وإن رده إلى فعل شيطانى يناسب رأيه فيهم باعتبارهم كفرة..

ج) وابن تيمية حين ثار على صوفية عصره فإنما ثار على بيئته، وقد ترسبت معتقداتها فى

(١) الفرقان بين أولياء ٩٩.
(٢) الفرقان بين أولياء ١٤١ : ١٤٢.

وكذلك النسا يقفون في مواضعهم بعفاف ولا ينطقوا بلفظة فى أوقات الصلوات والقداسات. ولا النسا يختلطون بالرجال ولا يجلسو فى طرقات الرجال لينظرو الداخلين والخارجين. ويكونو طايعات لأزواجهن مقبلات على بيوتهن ليتباركو بركة أمهن سارة ورفقا وراحيل. ويستعمل المومنين في صوم الاربعين النقية التى صام مثلها ربنا والاهنا ومخلصنا يسوع المسيح له المجد وهو النسك

داخل نفسيته. ويتضح ذلك فى قراءتنا لهذا النص من مخطوطه (تكسير الأحجار) عن ابن تيمية وصحبه حين قام معهم لهدم ضريح صوفى يقصده الناس بالعبادة والتقديس (.. بلغه ما يفعله الناس عند العامود المخلق (له صورة) فشدَّ عليه وقام واستخار الله فى الخروج إلى كسره) وبعد أن وصف الكاتب اجتماع الناس معهم ثم تراجعهم رويداً رويداً مخافة التعرض للغضب المزعوم للولى المدفون قال:(وصحنا على الحجارين (أى من يهدمون الحجارة) دونكم وهذا الصنم، فما جسر أحد منهم يتقدم إليه)ثم قال (فأخذت أنا والشيخ المعاول منهم وضربنا فيه، وقلنا جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، وقلنا إ ن أصاب أحداً منه شئ نكون نحن فداه، وتتابعنا الناس فيه بالضرب حتى كسرناه فوجدنا خلفه صنمين حجارة مجسدة مصورة كل صنم منها نحو شبر ونصف)[1].

فمع أن فقه ابن تيمية حمله على القيام لكسر ذلك العمود المقدس الذى كان فى الغالب تمثال من الآثار الفرعونية إلا أن رواسب التصوف التى ارضعتها له البيئة الصوفية لعصره قد جعلته (يستخير الله فى الخروج)، وعندما تقهقر الناس خوفاً استمر هو، إلا أن شجاعته فى الإقدام لم تخل من خوف زرعته فى قلبه عقائد التصوف المتحكمة فى البيئة والعصر، وأظهره

(١) تكسير الاحجار مخطوط ١٤٠ : ١٤١.

والتواضع. ولا يكون تزويج البتة فيها. ولا يكون في الجمعة الكبيرة معمودية ولا تجنيز ويلزمو فيها البيعة النسك لأنها جمعة حزن وكاابه. وبعد فراغ القداس في يوم أحد الزيتونة يقرى إنجيل ترحيم الموتى بعد رسالة بولس المعروفة ويقرى بعد ذلك على جميع الشعب التحليل(*) وفي الجمعة الكبيرة لا يجوز فيها ترحيم ولا تحليل ولا تجنيز إلى انقضى يوم عيد الفصح. ويكون القداس يوم

(*)انظر في ذلك القداسات الثلاث، The three Anaphorae.Cairo, .1936, p. 82 sqq

---

له تراجع الناس من حوله، فقال(إن أصاب أحداً منه شئ نكون نحن فداه)، أي أنه يسلم بقدرة تلك الأصنام على الأضرار، وتشجع ليفدى الناس من ضررها بنفسه..

د) وإخلاص ابن تيمية لعصره وما ساده من تقديس للصوفية - جعله يفقد الطريق الصحيح في حربه لصوفيه عصره المغالين، فطاشت سهامه في حروب متفرقة ضد متطرفي الصوفية من أتباع ابن عربي أو من فقراء الأحمدية الذين كانوا يلعبون بالحيات ويمارسون الشعوذة.. فصرفه ذلك كله عن الهدف الأصلي المنتظر منه باعتباره مستكملاً لأدوات الاجتهاد يخرج باجتهاده عن إطار عصره ويسمو على تقليد المعاصرين .. فكان ينبغي على ابن تيمية أن يدرس باجتهاده عقائد الصوفية الأوائل بدءاً بالجنيد وانتهاءاً بالغزالي ويحكم عليهم بالقرآن، ويحارب مبدأ التصوف من أساسه يبتعد قدر الإمكان عن التعرض لأشياخ الصوفية في عصره حتى لايصطدم بنفوذهم، ويجعل من ذلك الاساس الذى تقوم عليه مدرسته في حرب التصوف باعتباره عقيدة التوحيد الإسلامي، ثم يعرض عقائد الفقهاء أيضاً على القرآن ليرى ما فيها من خلل.

إلا أن ابن تيمية أصر على أن يشارك بثورته في كل ميدان، وصمم على أن تصل سهامه إلى السياسة أيضاً.. فحكم على نفسه بمزيد من العنت والاضطهاد لأن مقاييس (السياسى) في عصره لم تتوافر فيه..

الخميس الكبير برهبة وخوف وسكوت بغير تقبيل [قبلة السلام](*) ولا مصافحة ولا يقال «ابرسفارين» بل يقال عوضه «مادافابوا» بغير تحليل لا فى الأول ولا فى الاخر. وفى يوم قداس السبت الكبير يقال الترحيم والتحليل بلا تقبيل ولا يعمل فى أيام الخمسين لا معمودية ولا شرطونية. ولا يجوز في أيام الآحاد بكآ ولا نوح ولا قوالات ولا يجوز لنصرانى يفعل ذلك ولا شيا منه على

(*) فى هذا القداس يتلامس الحاضرين بايديهم.

فقد شهد ابن تيمية ـ أو شهدت محنته عصر سلطانين من المماليك .. السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير. والناصر محمد بن قلاوون.. وقد كان بيبرس الجاشنكير مغتصباً لسلطة محمد بن قلاوون السلطان الصغير الشرعي .. ويؤيده فى ذلك الصوفية بزعامة نصر المنبجى داعية ابن عربى، وأراد الجاشنكير أن يتسلطن رسمياً ويعزل محمد ابن قلاوون فوافقه علماء مصر من الصوفية والقضاة، ولم يكن للجاشنكير أن يتجاهل وجود ابن تيمية فى مصر وهو فى المعتقل، وظن أنه تحت ضغطه، فاستحضره من الحبس ليوافق على مبايعته بالسلطنة، فأبى ولم يعترف بتنازل محمد بن قلاوون عن السلطنة، وكذب الشهود الذين جاء بهم الجاشنكير وأعلن أن البيعة له باطلة(فاغتاظ الملك المظفر وقال ردوه إلى الموضع الذى كان فيه، فردوه إلى حبس الاسكندرية. ولم ينقطع ابن تيمية عن مهاجمة الجاشنكير فى سلطنته، فكان ينال منه (ويقول: زالت أيامه، وأنتهت رياسته، وقرب انقضاء أجله، ويتكلم فيه)[1].

أى أن ابن تيمية ادخل نفسه فى صراع الجاشنكير مع محمد بن قلاون بحيث بات الجاشنكير يعتقد أنه من أنصار محمد بن قلاون. ومن الطبيعى أن يستغل الصوفية الموقف فعقدوا لهم مجلساً بأشارة نصر المنبجى، قام بالإدعاء فيه عليه ابن عطاء السكندرى.. وفى هذا المجلس كان القضاة صوفية لحماً ودماً وليسوا مجرد قضاة يعملون لصالح التصوف..

(١) عقد الجمان: مخطوط حوادث ٧٠٨ تاريخ ابن كثير جـ١٤ / ٤٦.

ميت إلا الترحيم والقربان والصلاة على الميت والصدقة بمقدار الطاقة ليرحم الرب نفوس موتاكم ويبارك فى أعماركم وأرزاقكم ومنازلكم وأولادكم ويرد غيبة مسافريكم ويصلح لكم زمانكم. وليس لأحد من الأساقفة ولا القسس [القساوسه] ولا الشمامسه الغربا إذا دخلو مدينة اسكندرية أن يقدسو فى كنايسها ولا يتقدمو على مذابحها ولا لأحد أن يقدمهم فيها ولا خدمة البتة. ويجب على

ولم تستمر أيام الجاشنكير كثيراً إذ سقط وتفرق عنه اتباعه ـ والصوفية فى المقدمة ـ وتم الأمر للناصر محمد بن قلاوون.. وكان ابن تيمية معتقلاً بينما الصوفية يعدون العدة لاستقبال السلطان الجديد الذى تخلوا عنه سابقاً..

وبدأ الناصر محمد عهده بالنيل ممن تألب عليه من القضاة واخراج ابن تيمية من الحبس معززاً مكرماً إلى فترة من الزمن.. زاد فيها نفوذه السياسى حتى تم تعيين الأمير الأفرم فى نيابة طرابلس بإشارته، وعزل نائب دمشق لأنه شتم بعض فقهاء المدينة[١]، واستفحل خطر الشيعة فى الشام فقال ابن تيمية بقتالهم، وكتب إلى أطراف الشام يحث على قتالهم واستمر فى حصارهم حتى أجلاهم، وكتب بذلك للسلطان الناصر محمد فخشى السلطان نفوذه (لأن الناس اجتمعوا عليه ولو طلب الملك ما بعد عنه) وانتهز الصوفية الفرصة فكادوا له عند السلطان (وأشاعوا أنه يسعى فى الإمامة الكبرى وأنه كان يلهج بذكر ابن تومرت ويطريه)[٢]. أى يريد أن يقيم دولة كما فعل الفقية ابن تومرت فى شمال افريقيا.

وكان الناصر محمد عائداً إلى سلطنته الثالثة وقد ذاق الأمرين من تجارب الحكم وتحكم كبار الأمراء فيه مذ كان صبياً، فحرص اشد الحرص على ألا يعلو رأس فى مملكته وأن يقضى فى الحكم مستبداً، والصوفية من ناحيتهم خير معين للحاكم المستبد ولايخشى منهم مناوئاً، ثم

---

(١) تاريخ ابن كثير جـ٥٣/١ : ٦٢.   (٢) الدرر الكامنة جـ١٦٦/١.

المومنين صيـــام الرسل الحــواريين الذى هو بعـــد
الخمسين شكرا لله على ما أنعم به علينا من موهبة
الروح القدس صياماً متصلاً إلى اليوم الخامس من
أبيب [٢٩ يونيو] ويعيدو فيه كما جرت العادة، وإن
اتفق ذلك اليوم يوم الأربعا فيفطرو فيه قبل وقت
الصوم، وإن كان يوم الجمعة فلا يفطرو فيـه قبل
وقت الصـــوم الجارى بهـا العـادة. وكـذلك صـوم
الميلاد المقدس يكون من عيد مارى مينا فى خمسة

جاءت تصرفات ابن تيمية فى الشام تأكيداً لمخاوف السلطان ومساعى الصوفية.. فتم التحالف بينهما وأقام السلطان خانقاه سريا قوس للصوفية من أهل جنسه واتباعه وافتتحها فى حفل جامع سنة ٧٢٥[١]. وفى السنة التالية ٧٢٦أمر باعتقال صديقة السابق بسبب فتوى سابقة عن زيارة القبور[٢]. وهى أمور تمس الصوفية وتعبر عنهم، وذكرت صريحة فى دعوى الاتهام، مما ينهض دليلاً على ازياد النفوذ الصوفى فى أقل من عام.. وحمل الاعتقال الأخير كل حقد الصوفية على ابن تيمية، وقد كان يفرح بالاعتقال حيث يتوفر على العبادة والتأليف[٣]. إلا أنهم منعوه فى حبسه الأخير من الكتابة ونشر آرائه مما أثر على نفسيته وهو فى مرحلة الشيخوخة، وقد أمضى حياته فى حرب خصومه من الشيعة والصوفية والمغول، فمات بعد عامين فى الحبس.

وهكذا .. خسر ابن تيمية فى السياسة وأضاف إلى رصيد أعدائه نصراً جديداً عليه حين كان يقابل من الإيذاء فى عصر صديقة السلطان الناصر محمد اضعاف ما لاقاه فى عصر عدوه الجاشنكير .. وتمت للصوفية دولة بجهده وأقيمت لهم أعظم الخوانق التى أنشئت فى العصر المملوكى وهى (خانقاه سرياقوس)على اشلاء ابن تيمية وجهاده..

(١) النجوم الزاهرة جـ٩/ ٨٣.　　(٢) تاريخ ابن كثير جـ٤/ ١٢٣.
(٣) تاريخ ابن كثير جـ١٤/ ١٢٣: ١٢٤.

عشر يوماً من هتور [١١ نوفمبر] إلى تسعة وعشرين يوماً من كيهك [٢٥ ديسمبر] وان وافقت يوم عيد الميلاد الشريف يوم الأربعا أو يوم الجمعة فيفطرو فيه ولا يصومو بالجملة. وكذلك عيد الغطاس المقدس فى الحادى عشر من طوبه، وإن اتفق يوم أربعا أو يوم جمعة فيفطرو فيه أيضا ولا يصومو. إن وافق العاشر من طوبه الذى فيه صوم الغطاس أن يكون يوم سبت أو يوم أحد فلا

ولاريب أن تنعكس انتصارات الصوفية على ابن تيمية إلى ازدهار مضطرد فى إعلان العقيدة الصوفية..

هـ ـ وتشجع كثير من الصوفية فاعلنوا عقائدهم بصراحة.. وأبرزهم فى القرن الثامن الوفائية من المدرسة الشاذلية، يقول عميدها محمد وفا(ت سنة ٧٦٥) (اللهم اجعلنى عيناً لذات الذوات ومشرقاً لأنوارها المشرقات ومستودعاً لأسرار ها المكتتمة، ويقول: قال لى الحق أيها المخصوص: لك عند كل شئ مقدار ومقدار لك عندى فإنه لايسعنى غيرك وليس مثلك شئ، أنت عين حقيقتى وكل شئ مجازك وانا موجود فى الحقيقة معدوم فى المجاز ، ياعين مطلعى أنت الحد الجامع المانع لمصنوعاتى، إليك يرجع الأمر كله وإلى مرجعك، لأنك منتهى كل شئ ولاتنتهى إلى شئ، طويت لك الأراضين السبع ..إلخ)[١].

وقيل عن على محمد وفا(شعره ينعق بالاتحاد المفضى إلى الإلحاد، وكذا نظم والده)[٢]. وقال على بن محمد وفا عن والده (سيدى ووالدى صاحب الختم الأعظم، فالشاذلى وجميع الأولياء من جنود مملكته، فهو يحكم ولايحكم عليه فى سائر الدوائر، فلايقال لنا لم لاتقررون

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ٢٠.
(٢) شذرات الذهب جـ٧/ ٧١.

يصام بالجملة بل يصومو يوم الجمعة الذى قبل
ذلك عوض ليلة الغطاس. ولا يجوز لأحد من
المومنين أن يصوم يوم سبت إلا سبت الواحد فى
كل سنة، وهو السبت الكبير الذى هو آخر الصوم.
ويوجب صوم الأربعا والجمعة دايما طول السنة إلا
أيام الخمسين فقط. ولا يجوز لشماس أن يتأخر عن
خدمة بيعته ولا يغيب عنها فى الأيام التى يقدس
فيها إلا عن ضرورة أو وجع جسدانى أو أمر

حزب الشاذلى لأنكم من أتباعه)[1] . أى أنه سار فى طريق الاتحاد إلى درجة استصغر معها الشاذلى نفسه وجميع الأولياء. بل أنه استهان بابن عربى وابن سبعين فقال عنهما(أنهما سلكا الطريق معاً إلى فلك يقال الفلك الحدب ورجعا منه ولم ينفذا عنه)[2]. أى أنه وأباه فاقا ابن عربى وابن سبعين فى دعوى الاتحاد..

ومن اتباع الشاذلية الدعاة لابن عربى كان أبو المواهب الشاذلى ٨٨٢ ووصف بأنه (شديد المناضلة عنه والانتصار له)[3].. وقال الشاعر البشتكى أنه نسخ كثيرا من مصنفات ابن عربى للشيخ بهاء الدين الكازرونى ت ٧٧٤وهو من أتباع الشاذلية[4].

وخارج المدرسة الشاذلية كان سراج الدين الغزنوى الهندى ٧٣٣قاضى الحنفية متعصباً للصوفية الاتحادية وعزر ابن أبى حجلة لكلامه فى ابن الفارض[5].

وسلك شمس الدين شيخ الوضوء الشافعى ت٧٩٠ طريق التصوف(ومع كونه فقيهاً شافعياً فقد كان يعتقد ابن عربى)[6]. أى أن مذهب ابن عربى اجتذب إليه كثيراً من الفقهاء

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ٢٨ .
(٢) مناقب الوفائية مخطوط ٩٩.
(٣) شذرات الذهب جـ٧/ ٣٣٦.
(٤) إنباء الغمر جـ١/ ٥٠.
(٥) شذرات الذهب جـ٦/ ٢٢٨ : ٢٢٩ .
(٦) شذرات الذهب جـ٦/ ٣١٤.

سلطاني. ولا يجوز لقس إذا لم يحضر القداس من أوله أن يتقدم يقسم الجسد ولا يمسكه بيده البتة. ولا يخرج قس مجمرة البخور بعد قراءة الإنجيل المقدس انجيل القداس في وسط الشعب، بل يبخر بها حول المذبح إلى الوقت المعلوم. وإذا عمد طفل فليصوم إلى أن يتقرب إن قدر، وإن هو شرب لبن أمه أو غيرها من المومنات فلا يجوز له قربان. ولا يجوز معمودية بلا قربان. ولا يجوز أن تبيت النسا

والقضاء حتى أن ابن خلدون اتهم الفقيه اكمل الدين البابرتي ٧٨٦باعتقاد مذهب وحدة الوجود[١] . وفي هذا الجو درست مبادئ ابن عربي لكثير من الصوفية مثل نجم الصوفي ت ٨٠١[٢] . وبالغ بعضهم في إظهار عقيدته شطحاً مثل ابن الصاحب ت ٧٨٨ (وكان يتعصب لابن عربي، وكان يكثر من الشطح ويتكلم بما لايليق بأهل العلم من الفحش، ويصرح بالاتحاد)[٣]. مما حدا باليافعي إلى المجئ لمصر بعد سنة ٧٣٤ لأنه كان (من جملة المعظمين لابن عربي، وله في ذلك مبالغة)[٤].

وانضم بعض المماليك إلى حظيرة الاتحاديين بعد أن اعتنقوا التصوف، ومنهم قجماس الصوفي (ت٨٠٠)وكان من نقباء الدسوقية (وداعية إلى مقال ابن العربي)[٥]. ومقبل ابن عبد الله الرومي(ت٨٠٢) وهو عتيق الناصر محمد (طلب العلم واشتغل بالفقه وتعمق في مقاله الصوفية الاتحادية)[٦].

مراحل العقيدة الدينية وتطورها فى مصر

ـ وحدة الوجود وصراع الصوفية مع الفقهاء. في القرنين التاسع والعاشر الهجريين.

---

(١) الدر الكامنة جـ٤/ ٢٥٠.

(٢) إنباء الغمر جـ٣/ ٨٣.

(٣) شذرات الذهب جـ٦/ ٣٠١.

(٤) الشوكاني. البدر الطالع جـ١/ ٣٧٨.

(٥) إنباء الغمر جـ٢/ ٢٨.

(٦) إنباء الغمر جـ٢/ ١٢٩، شذرات الذهب جـ٧/ ٢٠.

في البيعة ليلة عيد ولا في ليالي الاحاد إلا أن تكون عجوز أو راهبة. ومن تزوج بامرأة ملكية [أي على مذهب الملكانية] فلا يمكن من ذلك إلا أن يتكللا عندنا [أى في الكنيسة القبطية] ولا يعمدو أولادهم إلا عندنا . وإن غاب الشمامسة الكبار عن كنايسهم ويحضرو في أيام الأعياد يريدو التقدمة فيها والخدمة فلا يمكنو من ذلك بل يتقدم الذين يلازمون الخدمة وإن كانو دونهم. وأى شماس أو

---

* في النصف الأول من القرن التاسع:
* في النصف الثاني من القرن التاسع:
- حركة البقاعي سنة ٨٧٥هـ.
- بعد موت البقاعي سنة ٨٨٥.
* في القرن العاشر: الشعراني ممثل الفقه والتصوف:
- طبيعة الشعراني: صوفي تسلح بالفقه ليخدم التصوف، هجومه على معاصريه من الصوفية، تأويل عبارات الاتحاد للصوفية السابقين.
- الشعراني يشيد بالاتحاديين.
- الشعراني يقول بالاتحاد الصوفي.

وحدة الوجود وصراع الصوفية والفقهاء في القرنين التاسع والعاشر الهجريين

أولاً: في النصف الأول من القرن التاسع..

١- في بداية القرن التاسع توافد إلى مصر جماعات من أوباش الاتحادية من أجناس الترك

---

٦٦ : انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

علمانى اعترض قسا أو خاطبه أو جرى بينه وبينه غضب فلا يمضى إلى قسا آخر يتقرب منه، وإن هو مضى إلى بيعة أخرى فلا يقرب، وإن فعل ذلك فهو والذى يقرب يكونو ممنوعين. وأى شماس أو غيره تشارر [عمل شرا] على كاهن وخرج عن حكم البيعة واستعان بالسلطان أو بالقاضى وعدل عن الكهنة والبيعة إلى غيرهم، وطلب ما ليس له بحق إن كان كاهنا فليمنع طقسه، وإن كان

لتعيش على جهد وعمل وانتاج المصريين بسبب انتمائهم للفئات الحاكمة واحترفوا التسول فى الطرقات والعيش فى الخنقاوات والتكايا التى اعدها الحكام الترك لأوباشهم ومن شابههم.. وكان صدى حركة ابن تيمية لايزال فى الأسماع فهب علاء الدين البخارى الصوفى يهاجم ابن عربى وابن الفارض والاتحاديين ويؤيده فى ذلك السلطان ومنافقوا القضاة الصوفية..

وهكذا فإن الثلث الأول من القرن التاسع شهد خفوتاً فى صوت الاتحادية مع كثرتهم العددية الوافدة إلى مصر، ووصل الأمر إلى حد اضطهاد البارزين من أوباش الاتحادية فقيل فى ترجمة اسماعيل الرومى(ت٨٣٤)وقد أقام بالخانقاه البيبرسية أنه (امتحن بمقاله ابن العربى ونهى مراراً عن اقرائها.. وكان يقرئ العربية والتصوف والحكمة)[١] فى الخانقاه المذكورة، وقيل نفس الكلام عن ابن الفنرى(ت ٨٣٤) أنه (قدم مصر وله عشرون سنة وكان يعاب بنحلة ابن العربى وبأنه يقرئ الفصوص ويقرره، وكان بعض من اعتنى به أوصاه ألايتكلم فى شئ من ذلك)[٢].

فكان من عادة الأعاجم القادمين إلى مصر أن يقرروا عقائدهم فى الخوانق كما كان يفعل نصر العجمى[٣] (ت٨٣٣) إلا أن أساطين الصوفية تحرجوا من شدة الإنكار عليهم من تلاميذ

(١) إنباء الغمر جـ٣/ ٤٦٥.
(٢) إنباء الغمر جـ٣/ ٤٦٥.
(٣) النجوم جـ١٥/ ١٦٥ : ١٦٦.

علمانيا فليمنع القربان. ولا تخالف الشمامسة ولا من دونهم قساهم [قساوستهم] ولا يخرجو عما يرسموه لهم لأنهم الامنا فى بيعة الله، ومن يكرم الله وكهنته وبيعته يكرمه الله ومن يهينهم يهينه الله. وقد أبحنا للمومنين يعملو القرابين فى منازلهم ويحملوهم إلى البيعة على قدر طاقتهم فيكون لهم الأجر والثواب بقدر أمانتهم ويكون عمله مما جرت به العادة أو لا، فان ذلك رفقا بالبيعة ليلا تكثر عليها المون.

ابن تيمية من ناحية وعلاء الدين البخارى من ناحية أخرى، فطالبوا بعض الاتحادية بالتخفيف، خصوصاً دارسى عقائد الاتحاد من القادمين والعاملين فى الخوانق الصوفية حتى أن بعضهم رجع عن عقيدة الاتحاد مثل الشاعر البشتكى[1].

٢ـ واتفق فى هذا القرن ظهور كثير من أعلام العصر المملوكى ممن جمعوا بين الفقه والقضاء والتاريخ مع الانكار على الصوفية الاتحاديين، وقد تتلمذوا على مدرسة ابن تيمية ومصنفاته..

وأبرزهم المقريزى(ت٨٤٥هـ)، وقد صنف رسالة فى دحض مذهب الاتحاد خلص فيها إلى أن اتباع ابن عربى ليسوا بمسلمين[2]، وهاجم صوفية عصره كلهم، فقال فيهم (ذهب والله ما هناك، وصارت الصوفية كما قال الشيخ فتح الدين محمد بن محمد بن سيد الناس العمرى ـ

ما هى شروط الصوفى فى عصرنا اليوم
سوى ستة بغير زيادة
وهى (نيك) العلوق والسكر
والسطلة والرقص والغنا والقيادة

(١) إنباء الغمر جـ٣/ ٣٩٢: ٣٩٢.

(٢) ذكرها جورج قنواتى فى أبحاث الندوة الألفية للقاهرة جـ١/ ٣٥٩: ٣٦٠.

ومن بعد تكريز الاب انبا اخرسطودلوس في دير أبو مقار بعد خروجه من اسكندرية أتى إلى مصر، وكانت عادة البطاركة الذين قبله جارية أن يكرزو في كنيسة مارى سرجيوس[ابو سرجه] بقصر الشمع لأنها القاثوليكا [مقرالبابوية] بمصر، فلم وصل هذا الاب إلى فسطاط مصر اجتمع كهنة كنيسة السيدة بمصر بقصر الشمع المعروفة بالمعلقة وقالو كيف تدع كنيستك وتمضي إلى كنيسة أبو

وإذا ما هذى وأبدى المحادا
وحلولاً من جهله وأعاده
وأتى المنكرات عقلاً وشرعاً
فهو شيخ الشيوخ ذو السجادة

ويعقب المقريزى بقوله (ثم تلاشى الآن حال الصوفية ومشايخها، حتى صاروا من سقط المتاع لاينسبون إلى علم ولاديانة، وإلى الله المشتكى)[١].

وكان ابن حجر (ت ٨٥٢) يعبر عن كراهيته لأتباع ابن عربي في تراجمه، يقول عن على وفا (شعره ينعق بالاتحاد المفضى للإلحاد[٢]. وذكر نضال أبي عبد الله الكركي عن الاتحاديين فقال عنه (اجتمعت به وسمعت كلامه، وكنت أبغضه في الله تعالى)[٣].

وامتدت كراهيته للصوفية جميعاً: يقول في ترجمة ابن مفلح (اشتغل قليلاً وسمع من جماعته، ثم انحرف وسلك طريق الصوفية)[٤].

---

(١) الخطط المقريزى جـ٣/ ٤٠١ طـ دار التحرير.
(٢)، (٣) إنباء الغمر جـ٢/ ٣٠٩، ٣٠، ٤٩٦ بالترتيب.
(٤) إنباء الغمر جـ٢/ ٣٠٩، ٣٠، ٤٩٦ بالترتيب.

(*) أزمة مقر تكريز البطرك.

سرجه التي هي للأسقف وتتكرز فيها(*)، وجرى بين كهنة هاتين الكنيستين منازعة وخصومة إلى أن مضو به إلى بيعة السيدة المعلقة وكرزوه فيها، وكان معه يوميذ أربعة وعشرين أسقف شيوخ قديسين مقدمين. وقدس معه في ذلك اليوم انبا فيلاتاوس أسقف مصر، وكان لكنيسة أبو سرجه أرشي دياقن يعرف بأبي الفرج الترس، فلما عدل البطرك عن كنيسته التي جرت العادة بتكريز

وقد شهد ابن حجر المتوفى (سنة ٨٥٢) ازياد نفوذ بعض الاتحاديين، وكان أحدهم مقرباً عند الظاهر برقوق فى عصر اشتد فيه المغارم، وتجادلا فى ابن عربى فهدده الصوفى بالوقيعة فيه عند برقوق فخافه ابن حجر واقنعه بالمباهلة، فتباهلا، ومات الصوفى بعدها[1].

وعرضنا لدور فقهاء القرن الثامن فى الرد على مصنفات ابن عربي والحكم بتكفيره، وقد تابعهم بعض الفقهاء فى القرن التاسع، وأهمهم الشريف الجرجانى وأحمد بن الزين العراقى وابن الأهدل وابن الجزرى وابراهيم الرقى وتقى الدين الفاسى[2].

وتغيرت الأحوال فى النصف الثانى من القرن التاسع بموت أعلام الفقهاء وعلاء الدين البخارى.. فتحمس أصحاب الاتحاد، وقد ازدادوا كثرة وأصبحت لهم صلات بالسلاطين والأمراء وكانت صلة معظمهم بالدين ظاهرية ضعيفة، فقيل أن الأمير تمربغا (ت٨٧٩) «يحب شياطين الصوفية حتى وصل إلى اعتقاد أهل الاتحاد فكان يقول: وماذا على الإنسان إذا قال أنا الله»[3]. أى أنهم أثروا عليه حتى جاراهم فى قول الشطح..

وبعضهم أخذ فى الدعوة لمذهبه يجمع الناس على الذكر مثل خلف المشالى (٨٧٤)

(١) تنبيه الغبى ١٥٠ للبقاعى.
(٢) تنبيه الغبى ٧٩: ٨٠، ١٣٥، ١٥١، ١٩٦، ١٥٢، ١٨٠، ١٥٧، ١٨٠، ١٩٠.
(٣) تاريخ البقاعى: مخطوط ورقة ١٥٣ ب.

البطاركة فيها قطع اسمه ولم يذكره على هيكله مدة أسبوع حتى جآ إليها بعد أسبوع وقدس فيها وأزال السجس [سوء الفهم] واعتذر أنه أنما مضى إلى كنيسة المعلقة قطعاً للخصومة التى جرت بين كهنة الكنيستين بسببه ليلا يتفاقم الأمر بينهم، وكانت روح القدس قريبة منه فظهرت منه معجزات وقوة نفس بالله تعالى، منها أنه منع إنسان يعرف بالحواجبى فانفلج وخرس ومات فى الحال،

«وكان ممن يميل إلى ابن عربى وينظر فى فتوحاته المكية، والغالب عليه الإكثار ممن نقل كلامه»[1].

بل كان من الاتحاديين زكريا الأنصارى شيخ الإسلام فى عهده - ويالها من سخرية ـ وقد قال عنه السخاوى (هو أحد من عظم ابن عربى واعتقده وسماه ولياً، وعذلته فى ذلك مرة بعد أخرى فما كف، بل تزايد إفصاحه بذلك بآخره، وأودعه فى شرحه للروض)[2].

لذا لم يكن مستغرباً أن يتعود أتباع ابن الفارض انشاد كلامه يوم الجمعة عند قبره[3] وصارت لهم صوله وجولة أستدعت أن يقوم البقاعى بحركته التى هزت التاريخ المملوكى فى الربع الأخير من القرن التاسع الهجرى.

فى النصف الثانى من القرن التاسع، حركة البقاعى ٨٧٥هـ.

والبقاعى (٨٠٩ ـ ٨٨٥) تلميذ متأخر لابن تيمية هب ينازع الصوفية الاتحادية بعد أن علا صوتهم فى النصف الثانى من القرن التاسع.. ولم يكتف ـ كغيره ـ بالتصنيف[4]، وإنما

(١) الضوء اللامع جـ١/ ١٨٦. (٢) الضوء اللامع جـ٣/ ٢٣٤.

(٣) الطبقات الكبرى للمناوى ٩٩ ب.

(٤) ألف البقاعى: تنبيه الغبى فى تكفير ابن عربى وتحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد، وقد حققها الشيخ عبدالرحمن الوكيل فى كتاب واحد حمل عنوان (مصرع التصوف).

ثم اجتمع إليهن رووسا مصر وسالوه أن يحلل ابن أخت الشيخ أبو زكرى يحيى ابن مقاره وهو متقدم يومـيـذ عند المملكة ومـتـولي الديوان [الذى يسمى] «البرهجى» وديوان النفقات لأنه كان ممنوعاً لأجل جـرم ارتكبـه فلم يحلله، فلمـا الحـو عليـه بالسـوال فـيـه قـال لهم: الكلمـة الواحـدة تغنى الحكيم والكلام الكثير لا يغنى الجاهل شراً، فلمـا سـمـعـوا منه هذا القـول سكتـو عن خطابه ولم يجسرو بعد هذا يخاطبوه فى مثل ذلك.

قرن القول بالعمل فيما رددته المصادر المملوكية لهذه الفترة تحت عنوان (كائنة البقاعي وابن الفارض)..

وقد ظهر تحامل المؤرخين على البقاعى، لأنه جرؤ على تكفير ولى مقدس كابن الفارض فى وقت سيطر فيه الصوفية على العصر دعاية وسياسة. إلا أن البقاعى فى تاريخه عرض لتلك الحادثة بصورة يظهر فيها الصدق والترتيب المنطقى للحوادث، واتفق فى بعضها مع ما أورده المؤرخون الآخرون من خصومه الذين تجاهلوا سياق الحوادث وذكروا نهايتها مبتورة ومشفوعة بالتشنيع على البقاعى. وقد حدثت كائنة البقاعى سنة ٨٧٥فى بداية حكم قايتباى، وكان الأمير يشبك ابن مهدى هو الداودار الكبير، وكان كاتب السر هو ابن مزهر الانصارى المتحالف مع الصوفية.

أ) ونلخص الوقائع فيما يلى حسبما أورد البقاعى نفسه فى تاريخه:

١ـ بعث البقاعى بخطاب مطول يثبت فيه كفر ابن الفارض بالأدلة.. وأرسله للقاضى ابن الديرى يطلب رأية حتى يلزمه بالوقوف معه فى الحق.

٢ـ لجأ الصوفية إلى المكر، حاولوا الحصول على كتاب البقاعى من ابن الديرى بحجة أن كاتب السر يطلبه، ففشلوا.. لكن البقاعى من ناحيته طلب منهم ـ وقد طالعوا الكتاب ـ أن يردوا عليه..

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

ثم جرت له نوبة مع قوم سريان وهو فى كنيسة الشهيد أبو مرقوره بمصر بسبب الزيت والملح الذى يعملوه فى قربانهم حتى أن إنسان منهم يعرف بالشيخ أبو البشر طبيب العظيمية [الأعظمية] خاطبه فأمر التلاميذ أن يقيموه من قدامه فأقاموه من بين يديه وأخرجوه إلى خارج مجرجراً إلى برا الكنيسة، وكان طبيب الملك وقريباً منه فمضى المذكور إلى الوزير وشكاه له، وكتب

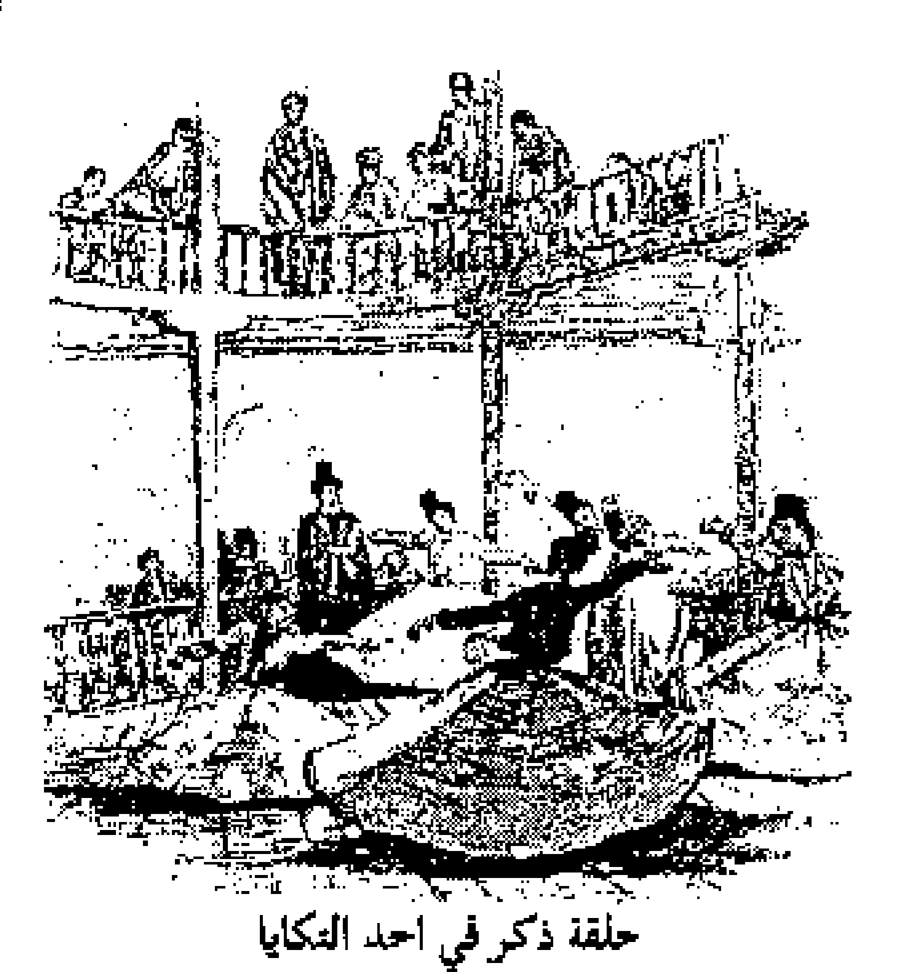
٣ـ عجزوا عن الرد بالحجة فلجأوا إلى أساليبهم التى تفوقوا فيها ـ والتى يتحرج منها البقاعي وإصحابه الفقهاء ـ فنشروا الإشاعات وإثاروا الجماهير وأصحاب الجاه، حتى صاروا يؤذونهم فى الطرقات.

٤ـ اقترح زعيم الصوفية الفارضية ـ اتباع ابن الفارض ـ أن يعقد مجلس ذكر تسبقه مظاهرة صوفية لإثارة الجماهير، وتمر المظاهرة على بيت البقاعى لتنهبه الغوغاء، وسقط الاقتراح خشية أن يتطور الأمر إلى غير صالحهم.

٥ـ لجأوا إلى طريقة أخرى، استكتبوا أعوانهم، وأذاعوا أن البقاعى قد كفر المساعد لهم والساكت عنهم ليثيروا الفقهاء المحايدين على البقاعى، ونجحوا فى إثارة زين الدين الإقصرائى وحدثت بينهما مشادة كلامية نتجت عن سوء الفهم والوقيعة..

٦ـ ضاقت الحال بالبقاعى، فحاول الاتصال بالداودار الكبير ليشرح له حقيقة الحال، ثم أن البعض اجتمع بالداودار وافهمه حقيقة الاتحادية، فخفف ذلك عن البقاعى بعض الشئ إلا أن نفوذهم كان لايزال غالباً، وكاتب السر الصوفى يخيفه ويهدده، إلا أن البقاعى ظل على سكينته.. ثم أرسل كاتب السر للبقاعى بعض أصدقائه يشير عليه بالرجوع عن رأيه لأن السلطان فمن دونه كلهم ضده، ورفض البقاعى التراجع، وعرض من جانبه أن يقبلوا منه أحد حلول ثلاثة ـ المجادلة أو المباهلة أو المقاتلة بالسيف فى حضرة السلطان والعلماء.. وقرأ

إلي يوحنا بطرك أنطاكية يشكوه أيضاً فلم يهمه شيأ من ذلك. وفعل بمصر أفعال كثيرة معجزة يطول شرحها.


حلقة ذكر في احد التكايا

وكان من أولاد النصارى بمصر صبي يعرف ببفام ابن بقوره الصواف عمره يوميذ اثني وعشرون سنة وهو ابن أخت انبا جرجه أسقف ميساره [مركز ديروط]، وكان قد غير دينه فرفضه أبوه

البقاعي على الرسولين اللذين جاءا من طرف كاتب السر بعض كلام ابن عربي فاستمالهما إليه ووافقوه على تكفيره..

٧ـ سأل الصوفية صاحبهم كاتب السر أن يكتب إليهم ضد البقاعي إلا أنه رفض متعللاً بوجوب أن يستمع إلى رأى البقاعي أولاً. فاشترط البقاعي أن يكون ذلك بخلوه، فسعوا في عدم اجتماعهما خوفاً من أن يستميله البقاعي إلى صفه..

٨ـ عمل البقاعي ميعاداً في الجامع الظاهرى واستمال الحاضرين فضجوا في الدعاء على أعدائه ، وابتدأ الميزان يتحول لصالحه فقد حاول الصوفية استكتاب قاضى الحنابلة معهم ولكنه افتى بتكفير ابن الفارض وتابعه في ذلك آخرون..

٩ـ لما رأت العامة أن أمر الصوفية ابتدأ في التراجع وإن البقاعي لايزال يقرر رأيه وأنهم عجزوا عن مقابلة حججه خف الهرج منهم، وبدأ بعضهم في التعاطف معه.

١٠ـ حاول السلطان عقد مجلس في مستهل سنة ٨٧٥ بسبب ابن الفارض فسأله كاتب السر الصوفي أن يترك ذلك، وبذل همته لدى العلماء وسعى لتأخير عقده.. إلا أن السلطان صمم فعقد المجلس وانتهى إلى لاشئ مع اقتناع البعض بأن البقاعي على حق[١].

(١) تاريخ البقاعي مخطوط ورقة ٨، ٩.

وأمـه وأبعـدوه عنهم فـمـضى [بعـد أن عـاد لنصرانيته] إلى كنيسة ميكاييل المختارة وأقام بها أيام وعـول على الدخـول إلى دير أبو مـقـار صـحـبـة جماعة من الرهبان أشارو عليه بذلك، فلما أرادو المسير قال لهم: ما منفعتى إذا مضيت معكم إلى تلك البرية ولم أعترف بالمسيح فى الموضع الذى أنكرته فيه. ثم تركهم وشد زناره وخرج يمشى فى أسـواق مـصـر، وكـان أبوه بقـوره الصـواف يعـامل

ب) آراء المؤرخين الآخرين:

١ - يقول ابن الصير فى عن ذلك المجلس (فى محرم صعد قاضى القضاة ومشايخ الإسلام لتهنئة السلطان، ولم يتكلموا فى شئ من أمر ابن الفارض لابنفى ولاإثبات فالأمر لم يكن بيـدهم ولكن بيد السلطان، واطلع البـرهان البـقـاعى فى هذا اليـوم قـبل كل أحـد، وجلس بالجامع وصحبته كتب كثيرة، وليس راجعاً عما قاله فى كلام ابن الفارض وتكفيره، وقد أوصى (أى ترك وصيته) وعنده أن هذا الأمر ليس التكلم فيه إلا فرية محضة، فإن قتل قتل شهيدا)[1].

وواضح أن البقاعى وإن ضم إليه بعض الفقهاء إلا أن الرأى العام يميل إلى تقديس ابن الفارض ويعتبر البقاعى معتدياً على حرمته، ويمثل هذا الرأى جمهرة من الصوفية والعلماء والمعبرين عنهم، ولاريب أن يأتى هذا على هوى السلطان خاصة وأن كاتب السر أقربهم إليه..

٢ـ يقول ابن أياس وهو قريب من هذه الفترة (كثر القيل والقال بين العلماء بالقاهرة فى أمر عمر ابن الفارض، وقد تعصب عليه جماعة من العلماء بسبب أبيات قالها فى قصيدته التائية، واعترضوا عليه فى ذلك، وصرحوا بفسقه، بل وتكفيره، ونسبوه إلى من يقول بالحول

---

(١) أبناء الهصر ١٧٦.

الاستاذ «عدة الدولة رفق» وهو يوميذ زمام الأتراك ومتولى القصر وقريب من الملك [معد المستنصر بالله]. فلما رأى المسلمين زناره فى وسطه بعد إسلامه أخذوه واجتمعو عليه ومضو به إلى الشرطة فاعتقله الوالى وضيق عليه، فمضى أبوه إلى صاحبه «عدة الدولة رفق» وأوعده بالجملة الكبيرة من المال على أن يخلصه، فقال له ما أقدر أفعل فى هذا شئ إلا أن يرضا ولدك بأن يظهر أنه

والاتحاد، وكان رأس المتعصبين عليه برهان الدين البقاعى وقاضى القضاة ابن الشحنة وولده عبد البر ونور الدين المحلى وقاضى القضاة عز الدين المحلى وتبعهم جماعة من العلماء يقولون بفسقه..)[١] أى أن البقاعى استطاع أن يضم إليه هذا الرعيل من الفقهاء.

ويقول ابن أياس (وأما من تعصب له ـ أى لابن الفارض ـ فهم الشيخ محى الدين الكافيجى الحنفى، والشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى، وبدر الدين بن الغرس، وابن حجى، والجلال ابن الكمال السيوطى، وزكريا الأنصارى، وتاج الدين بن شرف، فلما زاد الرهج فى هذه المسأله كتبت الفتاوى فى أمر ابن الفارض التى ظاهرها الخروج عن قواعد الشريعة ـ أى أوولت عبارات ابن الفارض لتتمشى مع الإسلام ـ فكتب الشيخ الكافيجى على هذه السؤال، وألف الجلال السيوطى كتاباً سماه(قمع المعارض فى الرد عن ابن الفارض)، وألف البدر بن الغرس فى ذلك كتاباً شافياً وصنف بعضهم كتاباً سماه (ترياق الأفاعى فى الرد على البقاعى).. ووقع فى هذه المسألة مشاحنات بين العلماء يطول شرحها.

ثم إن بعض الأمر اء تعصب لابن الفارض، وتعصب له السلطان أيضاً، فكتب سؤالاً وجهه للشيخ زكريا الأنصارى فيمن زعم فساد عقيد ابن الفارض، فامتنع الشيخ زكريا عن الكتابة

(١) تاريخ ابن أياس جـ٢/ ١١٩ طـ بولاق.

مـجنون وأنفـذ أنا الشـهـود إلى الحـبس ينظروه ويسمعو كلامه وأخلصه وهو نصرانى، وكان معه في الحبس راهب سرياني فوعظه وأنار قلبه وأبان له طريق الشهادة وجعل القتل على اسم المسيح عنده أحلا من الشهد حتى صار يشتهيه ويوثره على الحياة، فلما دخل إليه الشهود كلمهم كلام العقلا فاعترف بالأمانة الحسنة كما يجب أنه نصراني مسيحى، فقالو له: إنما قيل لنا أنك فعلت هذا عن

غاية الامتناع، فألح عليه أياماً، حتى كتب بأنه يحمل كلام هذا العارف على اصطلاح أهل طريقته، وأن ما قاله صدر عنه حين استغراقه وغيبته، ولكن ينبغي كتم تلك العبارات عمن لم يدركها، فما كل قلب يصلح للسر، ولكل قوم مقال.. فلما كتب زكريا ذلك سكن الإضطراب الذى كان بين الناس بسبب ابن الفارض، وعقيب ذلك عزل ابن الشحنة عن قضاء الحنفية، وحصل له عقيب ذلك فالج وذهل وسلب منه العلم وحصلت نكبات لولده عبد البر، وأما البقاعي فكادت العوام أن تقتله، وحصل له من الأمراء مالا خير فيه، واختفى حتى توجه إلى مكة فمات هناك، وأما أمام المدرسة الكاملية فخرج وهو مريض إلى الحجاز فمات في أثناء الطريق.. وقد جرى على من تعصب على ابن الفارض ما لاخير فيه، وظهرت بركته فى المتعصبين عليه شيئاً فشيئاً إلى الآن..)[١].

ج) دور زكريا الأنصارى (شيخ الإسلام):

ولعب زكريا الأنصارى دوراً كبيراً في إفشال حركة البقاعي.. وقد سبق أن رد على سؤال السلطان بشأن ابن الفارض وسوغ إيقاع الإضطهاد باتباع البقاعى..مع أن زكريا الأنصارى امتنع غاية الامتناع حسب قول ابن اياس. ثم بادر بالرد.. يقول الشعراني (لما وقعت فتنة البقاعي فى إنكاره على ابن الفارض أرسل السلطان إلى العلماء فكتبوا له بحسب ما ظهر

(١) نفس المرجع جـ٢/ ١١٩ : ١٢٠ طـ بولاق.

جنون لحقك، فقال لهم: لو كنت مجنون ماحفظت ديني وأمانتي وأنا بحمد الله عاقل مومن بالسيد المسيح له المجد، فمضى بهم الوالي إلى الوزير حتي شرحو له ما كان بحضور عدة الدولة رفق فأمر الوزير بقتله، فنزل صاحب سير [حاجب] السلطان يعني أمير جاندار مع الوالي إلى الشرطة وخاطبوه ولطفو به وأعلموه أنهم قد أمروا بقتله، فلم يرجع عن الاعتراف بالسيد يسوع المسيح،

لهم وامتنع الشيخ زكريا ثم اجتمع بالشيخ محمد الإصطمبولي فقال له: اكتب وانصر القوم وبين في الجواب أنه لايجوز لمن لايعرف مصطلح القوم أن يتكلم في حقهم بشر لأن دائرة الولاية تبتدئ من وراء طور العقل لبنائها على الكشف)[1].

ويدين زكريا الأنصاري بعقيدة ابن عربي ويدخلها في شروحه ولم يلتفت لإنكار السخاوي عليه كما سبق.. وموقف السخاوي كمؤرخ يتسم بالغرابة بالنسبة للبقاعي وحركته.. فالسخاوي فقيه ينكر على الاتحاية وسبق أن أوردنا انكاره على زكريا الأنصاري لغصبه لابن عربي. بل أن السخاوي ألمح إلى الإنكار على التصوف أكثر من مرة.. وقال عن الفقيه ابن صديق (وقد كان من المشتغلين بالفقه.. وبلغني في هذه السنين أنه تحول عن طريقته فسلك التسليك والشياخة الصوفية، وكأنه لمناسبة الوقت[2].

ثم أن للسخاوي خصماً شهيراً هو الجلال السيوطي الذي اتخذ جانب الدفاع عن ابن عربي وابن الفارض مع زكريا الأنصاري وغيره..

ومع ذلك فالسخاوي متحامل على البقاعي في ترجمة له في الضوء اللامع، وان لم يمنعه ذلك من ذكر جهوده ضد الصوفية فيقول أن البقاعي لمح بالحط على الغزالي وقال (إن

(١) الطبقات الصغرى: ٣٨.

(٢) الضوء اللامع جـ١/ ١٧، جـ٣/ ٨٧، ١٤٤: ١٤٥.

فأخرجوه من سجن الشرطة وتبعه خلق كثير من المصريين والعسكرية وغيرهم وبأيديهم العصى وآلات العذاب، فلم يمكن نايب والى المعونة أحد منهم يمد يده إليه حتى انتهى به إلى راس الجسر، فنزل [الوالى] هناك عن بغلته وكان عليها سرج ولجام بحلية ثقيلة وقلع سيفه الجلى وجعله على السرج وقال له: خذ هذه البغلة وما عليها وأنا أثبت اسمك فى ديوان السلطان [معد المستنصر

قوله «ليس فى الإمكان ابدع مما كان» كلام أهل الوحدة من الفلاسفة والصوفية)، وكذلك حط على ابن عطاء السكندرى[1].

واعترف بدور البقاعى فى إبطال المولد الأحمدى بطنطا وان لم يسند له الفضل كاملاً يقول عنه (قام بإنكار المولد بطنتدا أو ساعد مع القائمين فى إبطاله)[2]. واعتبر إبطال المولد الأحمدى فتنة يقول (كان للبقاعى دور الفتنة التى انتهت بإبطال المولد الأحمدى[3].

ويمكن تفسير موقف السخاوى فى ضوء المنافسة التى تكون بين الفقهاء .. فلا نملك سوى هذا القول.. فالبقاعى خرج على تقاليد عصره وأنكر صراحة ما كان السخاوى يلمح به فى ثنايا كلامه.. فلم يبق للسخاوى إلا التحامل على منافسه ومحاولته للتشكيك والتقبيح حتى فيما يضطر إليه من ذكر أعماله الحسنة.. ثم أنه تجاهل صراعه الأساسى مع أتباع ابن الفارض..

د) والواقع أن البقاعى كان يناضل عصره بكل ما أوتى من عنف، ويكفى أنه حين ساءت به الأمور قال لمن عرض عليه المهادنة (إنى والله قد وضعت بين عينى القتل بالسيف والضرب

---

(١) الضوء اللامع جـ١/ ١٠٧.

(٢) الضوء اللامع جـ١/ ١٠٨.

(٣) التبر المسبوك ١٧٧، وورد ذلك فى الجواهر السنية فى مناقب البدوى: ٦٥.

بالله] وأجعل لك واجب شي تقبضه في كل سنة وارجع عن هذا الرأى، فقال له: لو دفعت لى ملك مصر ما ألتفت إليه، فرفع يده ولطمه وكان فى أصبعه خاتم كبير ذهب حتى ورمت عينيه، ثم قال للسياف: جرد السيف. فجرده، فقال للصبى: أنظره فانه قاطع، فقال له: يا مولاى وجريدة [النخيل] أيضاً تقطع، والتمسو الرجاله حتى يعصبو به عينيه، فقال لهم: ما تحتاجو. وقطع من

إلى أن أموت منه فرأيته أهون عندى من أن يجهر بالكفر فى بلد أنا فيه، ويقال أن الصلاة حجاب، والصوم حجاب، والقرآن باطل أو شرك، ويراد خلع الشريعة المحمدية، ويظهر دين الكفر على دين محمد صلى الله عليه وسلم، فإما أن يعيننى الذين يريدون سكوتى بمال أقدر به على الانتقال من هذا البلد، فإنه والله لو كان معى مال اتجهز به هاجرت منها، وأما أن يختاروا منى واحدة من ثلاث بحضرة السلطان والقضاة الأربعة وساير العلماء وهى : المجادلة ثم المباهلة ثم المقاتلة، فيعطينى السلطان سيفاً وترساً ويعطى أشبهم (أكثرهم شبابا) سيفاً وترساً ويخلى بيننا قدامه فى حوش القلعة، وينظر ما يكون منى على شيخوختى، فإن قتلت كنت شهيداً وان قتلت خصمى عجلت من اقتله فى النار)[1].

فالبقاعى أراد بإخلاص الطريق الصوفي وأن يربطه بالإسلام الذى أدعى منافقو الصوفية الأوائل أنهم ملتزمون به. وكان نصيبه هذا العنت مما اضطره فى نهاية الأمر إلى الرحيل عن مصر متمتعاً بكراهية حكامها ورجال دينها لمجرد دعوته للحق، بل اعتبر بعض من حاول الانصاف ـ أن تلك هى سيئته الوحيدة. فقول ابن إياس (فى رجب ٨٨٥ جاءت الأخبار بموت برهان الدين البقاعى فى دمشق، وكان عالماً فاضلاً محدثاً ماهراً فى الحديث ليس من مساويه سوى حطه على الشيخ عمر ابن الفارض)[2].

---

(١) تاريخ البقاعى: ٥٤.

(٢) تاريخ ابن أياس جـ٢/ ١٩٧ طـ. بولاق.

كم غلالته خرقة عصب بها عينية بيده وبرك على الأرض وحـول وجـهـه إلى الشـرق وصلب على جبينه ومد عنقه فلكزه السياف بعقيبة السيف ليميل وجهه إلى القبلة [إلى الكعبة] فلم يفعل والتمس مآ فلم يسقا. وضربت عنقه فوقع بطنه على الأرض ورأسه ووجهه قايم منتصب إلى الشرق حتى تعجبو كل الحاضرين وجعلو أربعة يحرسوه في تلك الليلة فراو [فرأوا] بالليل نورا عظيما

بعد موت البقاعي سنة ٨٨٥هـ

١ـ كانت حركة البقاعي هزة في المجتمع المصرى الراكد، وبموته عاد الهدوء وكثر تحول باقى الفقهاء إلى عقيدة الصوفية وشهدنا السخاوى (ت٩٠٢) يقول عن ابن صديق أنه انتحل الشياخة الصوفية(وكأنه لمناسبة الوقت).. واعترف زكريا الأنصارى للشعرانى باعتناقه للتصوف منذ بدايته واستمرت مكانته حتى القرن العاشر تتزايد ليصبح شيخ الإسلام.. وعرضنا لموقف السيوطى من كائنة البقاعى وكيف أنه صنف فى الرد عليه كتاباً يدافع فيه عن ابن الفارض، وكرر السيوطى مقالته فى(تأييد الحقيقة العليه)معتمدا على المبررات المعتاده من السكر الصوفى والتأويل إلخ[١].

وقال الشعرانى عن نور الدين المحلى الشافعى(كان لديه الاعتقاد الحسن فى الصوفية عكس البقاعى، وكان يعتقد حتى فى ابن عربى وابن الفارض، وكان يقول بأن الملاحدة قد دسوا كثيراً فى كلام الأئمة بغير علمهم)[٢]...

وقام الصوفية وأعوانهم بالقضاء على أى أثر لحركة البقاعى بعد رحيله باضطهاد تلاميذ وملاحقتهم بالمحاكمات المتعسفة.

(١) تأييد الحقيقة العلية ٧١، ٧٢، ٧٣.

(٢) الطبقات الصغرى ٦٤.

مـفـزع قـد نزل عليـه حـتى أن اثنين منهـم تجننوا والاثنين الاخر خـرجـوا من مـصـر ولـم يعـرف لـهـم خبـر إلى اليـوم، ولما بلغ هذا الخبـر للملك معـد المستنصر بالله أميـر المومنين أمـر باطلاقـه لأهله يدفنون حـيث يريدوا فـحـمله أبوه إلى كنيسـة ميكاييل المختـارة [بجـزيرة الروضـة] ودفنه خـارج البـاب: وفي اليـوم الثـالث وصل الاب انبـا اخرسطودلوس من دير الشمع إلى البيعة المذكورة

يقـول ابن اياس فى حـوادث ٨٨٨[١] (حـصر شمس الدين الحلبى تركة يحيى بن حجى فرأى بين كتبه كتاب الفصوص لابن عربى: فقال هذا الكتاب ينبغى أن يحرق، وان ابن عربى كان كافراً أشد من كفر اليهود والنصارى وعبدة الأوثان. فمسكوا عليه ذلك وآرادوا تكفيره.. وآل أمره إلى أن عزروه وكشفوا رأسه ثم حكم باسلامه وحقن دمه، وقد قامت عليه الدائرة بسبب ذلك.

فى القرن العاشر

الشعرانى ممثل الفقه والتصوف

طبيعة الشعرانى :صوفى تسلح بالفقه ليخدم التصوف..

والشعرانى هو العلم الذى تميز فى القرن العاشر وسيطر عليه وعلى ماتلاه من قرون فى العصر العثمانى. والشعرانى صوفى تسلح بالفقه ليخدم التصوف كشأن الغزالى فى القرن الخامس.. وقد عرف العصر المملوكى ـ وعصر الشعرانى على الأخص ـ طائفة من الفقهاء المتصوفة.. أو بعض الفقهاء الذين تصوفوا وأصبحت لهم بعض الدراية بالتصوف .. وقد رأى الشعرانى فيهم خطراً على التصوف إذ أنهم لدرايتهم بالتصوف ومعرفتهم باختلافه عن الشرع

(١) تاريخ ابن اياس جـ٢/ ٢١٩: طـ. بولاق.

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

فوجدهم قد دفنوه خارج البيعة فأنكر ذلك وقال: شهيد يدفن خارج البيعة؟ وأمر بهدم القبر ودخل به إلى الكنيسة وكشف عنه الكفن ليقبله ويتبارك منه وجد عليه دماً طرياً كأنه في تلك الساعة خرج منه فأخذ منه وصلب على لباسه وبنا مذبح هناك على اسمه وكرزه ودفنه مقابله على وجه الأرض وجسده باقي إلى الآن هناك في كنيسة ميكاييل المختارة، وبعد هذه الأيام قسم الاب انبا

الإسلامي يمكنهم أن يصيبوا التصوف في مقتل.. فالشعراني (كصوفي فقيه) تخوف من (الفقهاءالصوفية) خشية أن يكون منهم من يعمل لصالح الفقه كما يعمل الشعراني لصالح التصوف..

لذا نرى الشعراني يفضل الفقيه الصرف ـ رغم انكاره على الصوفية ـ على الفقيه الصوفي لاحتمال أن يكون منافقاً في تصوفه وخطراً على الطريق الصوفي، فيقول(إن الفقيه الصرف الذى لم يدخل طريق القوم مقدم على الفقيه المتفعل فيها من غير اتقان علومها والمشى على طريقها، لأن الفقيه الصرف سالم من النفاق الذى وقع فيه المتفعل مع زيادة عليه بالعلوم الشرعية)، بل تطرف الشعراني فاعتبر العامي المعتقد في الصوفية خيراً من ذلك الفقيه الصوفي (بل نقول العامي الذى يعبد الله تعالى ويسأل العلماء ـ يقصد الصوفية ـ عن كل شئ أشكل عليه في دينه، أحسن حالاً من هؤلاء المتفعلين في طريق القوم)[١].

* هجومه على معاصريه من الصوفية

١ـ فالشعراني يهاجم أوباش الاتحادية في عصره.. يقول فيهم(استحكم في غالبهم الضلال والفساد.. وبعضهم رأى أن كل شئ في الوجود هو الإله، وأن عين هذا الوجود

(١) لطائف المنن ٦٠٦ ـ مكتبة عالم الفكر.

اخرسطودلوس كاتب له يعرف بأنبا ميخاييل(*) على كرسي تنيس، وكان فاضل عالم وهو الذى كتب سيرة عشرة بطاركة أولهم خايال الثلثة وآخرهم شنوده، ولما عول البطرك على مكاتبة انبا يوحنا بطرك انطاكية تقدم إليه بذلك وكتب عنه السنوديقا وسار بها هو وأنبا غبريال القديس أسقف صا [مركز كفر الزيات]، وكان شيخ رأيته عند دخوله إلى اسكندرية فى تكريز أنبا اخرسطودلوس.

(*) أنباء ميخاييل: كاتب سير عشرة من البطاركة فى هذا الكتاب بداية من خايال الثالث حتى شنوده.

الحادث هى عين الله من الجماد والنبات والعقارب والحيات والجان والإنسان والملك والشيطان، ويجعلون الخلق هو عين المخلوق من خسيس ونفيس ومرجوم وملعون ورائس ومرءوس حتى الأباليس، وهذا كلام لا يرضاه أهل الجنون ولا من كان فى حبه مجنون.. وقد نقلت هذا الكلام فى زماننا عن جماعة بالصعيد، فيعقدون هذه الأمور فيما بينهم وبين أصحابهم من الملاحدة، وينكرون ذلك فى الظاهر خوف القتل. بل الذى أقوله أن إبليس نفيسه ظهر ونسب إليه هذا المعتقد لتبرأ منه واستحيا من الله تعالى، وإن كان هو الذى يلقى إلى نفوسهم بذلك.

وقد حكيت لسيدى على الخواص بعض صفات هؤلاء فقال: هؤلاء زنادقة وهم انجس الطوائف لأنهم لايرون حساباً ولاعقاباً ولاجنة ولاناراً ولاحلالاً ولاحراماً ولا آخرة، ولالهم دين يرجعون إليه ولامعتقد يجتمعون عليه، وهم أخس من أن يذكروا لأنهم خالفوا المعقولات والمنقولات والمعانى وسائر الأديان التى جاءت بها الرسل عن الله تعالى، ولانعلم أ حداً من طوائف الكفار اعتقد اعتقاد هؤلاء).

٢ـ وقال عنهم (وكان أخى الشيخ أفضل الدين يقول: لوكنت حاكماً لضربت عنق كل من قال: لاموجود إلا الله ونحو ذلك من الألفاظ لأنه لم تأت بذلك شريعة)(١).. ويقول

(١) لطائف المنن ٤٨٦: ٤٨٧ طـ. قديمة.

ومن بعد ذلك بمدة اجتمع جماعة الأساقفة وهم
أنبا يوحنا أسقف سخا [مركز كفر الشيخ]
المعروف بابن الظالم، الكاتب كان قبل أسقفيته،
وأنبا خايال أسقف قطور [مركز طنطا] وأنبا إيليا
أسقف طموية [مركز السنبلاوين] وأنبا جرجه
أسقف الخندق [منطقة دير الملاك شمال القاهرة]
وأنبا مرقس أسقف البلينا وأنبا ميخاييل أسقف
تنيس كاتب السنوديقا المقدم ذكره وجماعة من

الشعراني أنه سمع بعض الاتحاديين يقول(ما ثم موجود إلا الله، فقلت له ايش أنت؟ فقال كلاماً والله ولو كان معي شاهد آخر يشهد لذهبت به إلى حكام الشريعة يضربون عنقه)[1].

وينصح الشعراني بعدم الاجتماع (بهؤلاء الجماعة الذين تظاهروا بطريق القوم في النصف الثاني من القرن العاشر من غير إحكام قواعد الشريعة، فإنهم ضلوا وأضلوا بمطالعتهم كتب توحيد القوم من غير معرفة مرادهم، وقد دخل على منهم شخص وانا مريض ولم يكن عندى أحد من الناس فقلت له: من تكون؟ قال أنا الله فقلت كذبت فقال أنا محمد رسول الله فقلت له كذبت فقال: أنا الشيطان وأنا اليهودى فقلت له: صدقت. فوالله لو كان عندى أحد يشهد عليه لرفعته إلى العلماء فضربوا عنقه بالشرع الشريف..)[2]. فالشعراني يستعدى السلطة عليهم، ولاشك أنهم يتمتعون بكراهية الشعراني وحقده لذا لم يترجم لأحد منهم في طبقاته الصغرى أو الكبرى..

النهي عن مطالعة كتب الاتحاد الصوفية:

١ـ ويقول الشعراني عن أصحاب الاتحاد في عصره (أنهم ضلوا وأضلوا بمطالعتهم كتب توحيد القوم من غير معرفة مرادهم)فهو بذلك يحقق غرضه بالهجوم على أوباش الاتحادية، وفي نفس الوقت يبرئ فيه ابن عربي وغيره من مقالة الاتحاد، وقد قال في ترجمة ابن عربي

---

(١) لواقح الأنوار ٧٩.

(٢) لطائف المنن ٣٩٥.

الكهنة بالاسكندرية ودخلوا إلى مصر وتعاقدوا على خلع الاب البطرك أنبا اخرسطودلوس من البطركية وادعوا عليه في الظاهر بأنه عند تقدمته لم تقرا عليه الصلوات التي جرت بها العادة أن تقرى على البطاركة. وكان سبب ذلك في الباطن خصومة جرت بينه وبين انبا يوحنا أسقف سخا المذكور فشعت [شنّع] عليه هولا الأساقفة والكهنة المذكورين. وقال لهم: إن سكتم عن مساعدتي

(وما انكر عليه من انكر إلا لدقة كلامه، لاغير)، وقرر أن مذهب الصوفية أنهم ينكرون(على من يطالع كلامه من غير سلوك طريق الرياضة، خوفاً من حصول شبهة في معتقده يموت عليها ولايهتدى لتأويلها على مراد الشيخ)[1].

ويقول الشعراني (أخذ علينا العهود ألا نمكن أحداً من إخواننا يطالع فى كتب الشيخ ابن عربى فى التوحيد المطلق، ولافى كتب غيره من غلاة الصوفية، وذلك لعدم الفائدة وشدة الإنكار على من تفوه بما ذكروه فيها مما يخالف عقول الناس، وما كل ما يعلم يقال، وربما فهموا منها أموراً تخالف صريح السنة فيموتون على اعتقادها فيخسرون مع الخاسرين)[2].

فهو مع اعترافه بأن ابن عربى من غلاة الصوفية وأن كلامه يقابل بشدة الإنكار إلا أنه يوحى بأنها لاتخالف صريح السنة ويلجأ إلى التهديد بالخسران لمن يجرؤ على مطالعة كتبه..

٢ـ ثم يلجأ الشعراني إلى تعميم تحذيره لتشمل مواضع التصوف فى المصنفات القديمة الشهيرة لمعتدلى الصوفية (وليحذر من العمل بمواضع من كتاب الأحياء، ومن كتاب النفخ والتسوية له وغير ذلك من كتب الفقه فإنها إما مدسوسة عليه أو وضعها أوائل أمره ثم رجع عنها، وكذلك يحذر من مواضع فى كتاب قوت القلوب لأبى طالب المكى نحو قوله(الله

---

(١) الطبقات الكبرى جـ١/ ١٦٣ط. صبيح.
(٢) البحر المورود ٢٧٤.

عليه فيفعل معكم أكثر مما فعل معي. فصغوا إليه وقاموا على الأب البطرك فلم يلتفت لهم ولا اجتمع بأحد من الأراخنة بمصر إلى أن اتضع له انبا يوحنا أسقف سخا، وكان من أوفى مساعديه في ذلك، وغيره [أقنعه] الشيخ أبو زكرى يحيى ابن مقاره صاحب ديوان المملكة وأحضر له الأسقف المذكور إلى البيعة وقدس معه وانصلحت الحال بينهم وبطل ما كانوا معولين عليه. وسار في

تعالى قوت العالم)ومن مواضع في تفسير مكي ومن مواضع كثيرة في كلام ابن ميسرة الحنبلي، وقد صنف الناس في الرد عليه، وليحذر من مطالعة كلام منذر بن سعيد، وكذلك يحذر مطالعة كتاب خلع النعلين لابن قسي.. وكذلك تائية سيدى محمد وفاء.. وليحذر أيضاً من مطالعة كتب الشيخ محيى الدين بن العربي رضي الله عنه لعلو مراقيها ولما فيها من الكلام المدسوس على الشيخ لاسيما الفصوص والفتوحات المكية)[١].

(وأخذ علينا العهود ألا نمكن أحداً من إخواننا يشتغل قط بأسماء السهروردى ولا أسماء البونى ولاعلم الحرف الأعلى..)[٢].

تأويل عبارات الاتحاد للصوفية السابقين:

١ـ وقرن الشعراني كلامه بالدفاع عن ابن عربي بدعوى أن ما كتب في مصنفاته مدسوس عليه أو أن ابن عربي قام بالرد على أهل الحول والاتحاد[٣]. ثم شمل شيوخ الاتحاد الباقين برعايته وأضفى عليهم حمايته بقول(ومما من الله تبارك وتعالى به علي: عدم إصغائي بأذني إلى وقتي، ولم أزل أؤول للقوم ما صح عنهم وأنفي مالم يصح)[٤]. أى أنه يؤول ما صح نقله من كفرهم ويخفى ما لم يصح ..

(١) لطائف المنن ٢٩٤.
(٢) البحر المورود ٢٧٨.
(٣) لطائف المنن ٤٨٧.
(٤) لطائف المنن ٤٧٩.

تلك الليلة إلى دمنهور وتوجه إلى دمرو بالغداة، وسار من هناك إلى دير أبو مقار بوادى هبيب. وكانو رهبان دير أبو مقار وكهنة اسكندرية يفضلو [يستبقوا] القربان ويخبوه من يوم الأحد الزيتونة إلى يوم الأربعا الكبير، وكان انبا ميخاييل كاتب السنوديقا أسقف تنيس هناك معه فأنكر الاب البطريرك عليهم ما يعتمدوه فى أمر القربان وذكر لهم ما يدخل عليه من العفن والتغيير والدبيب

٢ـ وقد وقع الشعراني فى المحظور وهو يؤول احدى شطحات أبى يزيد البسطامى بقول ـ مسنداً الكلام لشيخه الخواص ـ فى تبرير قول البسطامى(سبحانى ما أعظم شانى) (إن أبا يزيد لما نزه الحق وقدسه قيل له فى سره: هل فينا عيب تنزهنا عنه قال : لايارب، قال له الحق: إذن نزه نفسك عن النقائص، فلما جاهد نفسه ونزهما عن الرذائل قال : سبحانى قولاً ذاتياً ضرورياً حقا لادعوى فيه.. قال الخواص ـ أو الشعرانى ـ وعجيب ممن يؤول أخبار الصفات كيف لم يؤول كلام العارفين مع كونهم أولى بالتأويل من الرسل لنقصهم فى الفصاحة عنهم[١].

فالشعرانى اسند لنفسه فى البداية علم الغيب حين علم بحديث البسطامى لنفسه، ثم اسند الوحى للبسطامى وجعله يحاور ربه، ثم بعد ذلك يتخل عن دعوى الاتحاد فاعتبر تنزيه نفس البسطامى عن النقائص والرذائل مبرراً لقوله (سبحانى).. وجاءت القاصمة حين طالب بتأويل كلام الصوفية قياساً على تأويل صفات الله تعالى التى قد تفيد مشابهة البشر كالوجه فى (ويقى وجه ربك) أو اليد (يد الله فوق أيديهم).. فاعترف ضمنيًا بألوهيتهم أو من الرسل بالرعاية.

(١) درر الغواص: ٩١.

[الدود] وغير ذلك مما لا يمكن شرحه وأمر بابطال ذلك واحرم من يفعله فيما بعد بمحضر من جماعة أساقفة فى دير أبو مقار وحضور وكيل المسيح بقيره الرشيدى الكاتب صاحب الصليب، فقام الرهبان على الاب البطرك وجاو إليه بالمفاتيح الحديد وقالوا له: ما أنت أفضل من الابا الذين من قبلك. فقام وهو مغضب وخرج إلى قلايته وجرى شعت [أضطراب] عظيم، فأخرج

٣ـ وفى موضع آخر يفتخر الشعرانى بتأويله لكلام الصوفية (وحمل كلامهم على أحسن الوجوه، وكذلك كلام اتباعهم، فأحمله على محامل حسنة)[١].

٤ـ والشعرانى كصوفى فقيه يتخذ علمه بالفقه سلاحاً للدفاع عن نحلة التصوف ـ إلا أنه ناقض نفسه بتأويله لأشياخه الصوفيه بما يتنافى مع فلسفة الفقه وأسلوب الإسلام.. ثم أنه تناقض مع نفسه ككاتب ومفكر حين هاجم صوفية عصره فى الوقت الذى نهى فيه عن مطالعة كتب الصوفية السابقين وأول لهم كلامهم بعذر هو أقبح من الذنب.

*** الشعرانى يقول بالاتحاد الصوفى:**

نفاق الشعرانى:

بالغ الشعرانى فى التقية والنفاق متابعة لاشياخة أحمد الزاهد ومدين الأشمونى والغمرى مع قيامه بالتوفيق بين الإسلام والتصوف..

١ـ وقد حاول الشعرانى ـ على عادته ـ أن يسبغ الشروعية على كتمانه لعقيدة الاتحاد بشتى السبل، كالتعلق بأهداب السلف الصالح والخلط بين الفقه والتصوف والعلم والاتحاد، كقوله (ومما منّ الله تبارك وتعالى به على اقتدائى بالسلف الصالح فى كتمان الأسرار التى

(١) لطائف المنن ١٨٥، ١٩٥.

الاب البطرك من خزانة الكتب بدير أبو مقار ميمر
في هذا المعنى وقراه انبا ميخاييل كاتبه على الجمع
وأعان السيد المسيح هذا الاب على قطع تلك
العاده وإبطالها إلى الآن، ولم يعود أحد بعد ذلك
يفضل [يُبقى] قرباناً.

ولما صار جميع مقدمى المملكة والناظرين في
دواوينها وتدبير أمورها كلهم نصارى وهم الملاك

منحتها بفضل الله تعالى، فأعرف في كل آيه أو حديث أو أثر من الأسرار ما لا يسطر فى كتاب)، ويقول مستشهداً بروايات سابقة كاذبة (وقد كان الأمام على رضى الله تعالى عنه يقول: آه، بعد أن يضرب على صدره ـ إن هنا لعلوماً جمة. لو وجدنا من يحملها؟ وكان رضى الله عنه يقول: علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم علماً لو أفشيته لخضبت هذه من هذه، وأشار إلى لحيته وعنقه، وكان أبو هريرة يقول: أخذت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جرابين من علم فأما واحد فبثثته لكم، وأما الآخر فلو بثثته لقطع منى هذا البلعوم)[1].

ومعلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام يستحيل عليه اخفاء شئ من رسالته وعلمه، ومعلوم أن الإسلام قد تم واكتمل بانتهاء الوحي ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وتلك الروايات الكاذبة تتهم النبى باخفاء جزء من الرسالة، وعدم تبليغ الرسالة كلها، وذلك ما يرفضه المؤمن بالله ورسله. إلا أن الصوفية حين عجزوا عن إثبات أصل لعقيدتهم فى القرآن الكريم لجأوا إلى الإيهام بأن التصوف هو العلم الخفى الذى اختص به الرسول على الصوفية، واستشهدوا بأحاديث كاذبة.

٢ـ ثم يلجأ الشعرانى إلى القصص التى وجدت لها السوق الرائجة فى عصره ليثبت بها

---

(١) لطائف المنن ٤٨٨.

النافذ أمرهم طنخوا وعتوا وبذخوا هم وجميع النصارى بديار مصر وتكبروا وعزت نفوسهم، ووقع بينهم البغضة والحسد وبين مقدميهم، وصار أكثر اهتمامهم بالأمور الدنيانية والتجمل والتفاخر والكبريا على بعضهم بعض، فنزل الأدب من السما من عند السيد المسيح على جميع النصارى حتى لحق غيرهم من الأمم لينتقم منهم عن جميع ذنوبهم في هذه الدنيا ويخلصهم في الاخرة قبل أن يصيروا إليه كما قال داوود المغبوط في المزمور:

مشروعية التقية.. يقول (ونقل الشيخ عبد الغفار القوصي عن الشريف الكليمي أنه أخبره أنه كان ذاهباً في طريق العمرة ومعه فقير أعجمي، فتكلم بشئ من الأسرار، فقلعت رأسه من بين كتفيه فخفت أنهم يطالبونني به فهرولت وتركته)[1]. (وقد حكى الشيخ عبد العزيز المنوفي وكان من أصحاب الشيخ إلى عبد الله القرشي أنهم قالوا للقرشي مرة ياسيدى: لم لاتحدثنا بشئ من الحقائق؟ فقال لهم: كم أصحاب اليوم؟ فقالوا: ستمائة رجل فقال: استخلصوا منهم مائة فاستخلصوا ثم قال. فاستخلصوا منهم عشرين، ثم قال استخلصوا منهم أربعة فاستخلصوا منهم أربعة فاستخلصوا له الشيخ قطب الدين العسقلاني والشيخ عماد الدين وابن الصابوني والقرطبي وكانوا أهل مكاشفات وخوارق فقال الشيخ: والله لو تكلمت بشئ من الأسرار والحقائق لكان أول من يفتي بقتلي هؤلاء الأربعة)[2].

ولاشك أن قصة الاضطهاد التي لازمت التصوف في بدايته ترسبت في عقل الصوفية اللاحقين، وظهرت في أقاصيصهم وكراماتهم حتى في عصر تمتعوا فيه بالحرية بل وسيطروا عليه..

٣ـ ثم وصل الشعراني إلي غرضه وهو فلسفة الاخفاء وتقعيد التقية، واسباغها بالمشروعية الفقهية يقول(ووجه ذلك أن علم الحقائق والأسرار من علم القدرة والجبروت، وافشاء ذلك

---

(١)، (٢) لطائف المنن ٤٨٨، ٤٨٩.

«طوبا للرجل الذى يودبه الرب ومن ناموسه يعلمه لينجيه من اليوم السو» يعني يوم القيامة، وقال سليمان الحكيم: «يابنى لا تضجر من أدب الرب فان الذى يحبه الرب يودبه»، وقال بولس الرسول: «إنكم إن أهملتم وتركتم بغير أدب ولم تلدعوا عن ذلك بما تلدع به الصفوة من الناس صرتم غربا عند الله لا احبا»، وكما قال يوحنا الإنجيلى حبيب سيدنا يسوع المسيح فى جليانه(*): «إن الذين أحبهم ابكتهم واودبهم»، فأول ما جرى

(*) الجليان: هي الأقوال والرؤى.

كفر بالله عز وجل، ويجب على العلماء أن يفتوا بكفره، لأن ذلك بما تعبدهم الله تعالى به ظاهراً صيانة للشريعة المطهرة.. وأيضاً فإن الأسرار الإلهية المودعة فى قلوب العارفين هى من أمانة الله عندهم، وهي العهد والعقد وهم مطلوبون بالوفاء بالعهود والعقود وآداء الأمانات إلى أهلها دون غيرهم، فلو قطع صاحب الأسرار إرباً إرباً لما أظهرها، لكن إن أعطى الله تعالى عبداً قوة على التلويح دون الصريح كسيدى محمد البكرى حفظه الله تعالى من عيون الحاسدين.. فعلم أن كمل العارفين لا يقع منهم إفشاء لسر الربوبية، ثم لو تصور وقوع ذلك منهم فى حضور أو غيبة أو غلبة حال حصل القتل، إذ الغيرة الإلهية تقتضى ذلك كما مر فى أسرار الملوك وفى رمزه تعالى فواتح بعض سور القرآن العظيم مع قدرته على إظهار تلك..)[1].

أى أن الشعرانى وصل فى فقهه إلى اعتبار اسرار التصوف كإحدى معجزات القرآن الكريم فى فواتح السور.

٤ـ والشعرانى يعتبر نفسه من (كمل العارفين) الذين (لايقع منهم افشاء لسر الربوبية) مخافة (القتل).. فقد عد من منن الله تعالى عليه (عدم إفشائى الأسرار المتعلقة بالتوحيد ودقائق الشريعة الشريفة لأحد من الخلق إلا بعد طول امتحانه وكثرة التنكرات ـ أى الاختبارات ـ والتغريات عليه، واغضابه المرة بعد المرة، وسبه بين من يستحى منهم عادة:

---

(١) لطائف المنن ٤٨٨، ٤٨٩.

على الاب البطرك أنه كتب فيه رقعة للوزير اليازورى أنه يمنع ملك النوبة من انفاذ الهدية. فانفذ الوزير الترسيم عليه بماية دينار جعل مع غلام تركى لعضد الدولة متولى الحرب والسيارة بالريف اسمه «درى» فسار إليه وقبض عليه وسار به إلى القاهرة وأوصله إلى [وزير] عصب [عضد] الدولة فأكرمه وأنزله فى داره ومضى إلى الوزير اعنى [عصب الدولة] ومعه ابو البشر طبيب العظمية المقدم ذكره وخاطباه فى معنى [شأن]

«المرة .. وقد جاءنى مرة شخص من دهاة فحول الرجال من معلمى دار الضرب بالقلعة يطلب منى أن اطلعه على شئ من أسرار الطريق وألح فى ذلك فتنكرت عليه وتغوبت مدة وصرت أكلمه بالكلام المؤذن بنقص مرتبته.. فزهقت نفسه منى ونفرت.. وتقدم فى هذه المنن أن شخصاً دخل على أبى عبد الله القرشى فرآه يتكلم فى الاسرار فلما شعر به قطع الكلام فقال له الشخص: أنا من المعتقدين فى أهل الطريق لاتخافوا منى..»[١].

ففى عصر الشعرانى اكتملت سيطرة التصوف على الحياة الدينية عقيدة وسلوكاً وشريعة.. ومع ذلك أضحت (دقائق الشريعة) من الأمور الملحقة بالعقيدة الصوفية فى وجوب أخفائها عمن هم خارج الإطار الصوفى، ليس خشية من الفقهاء، ولكن لإظهار تميز الاشياخ الصوفية عن غيرهم من الاوباش، أو من الفقهاء الملتحقين بالتصوف، الذين يتمتعون بكراهية الشعرانى وعدم ثقته فيهم.

المرحلة الثالثة من
مراحل العقيدة الصوفية

* مدخل..

١ــ اسهبنا القول فى خصائص المرحلتين (الأولى والثانية) فى تاريخ العقيدة الصوفية..

---

(١) لطائف المنن ٥٤٥ : ٥٤٦.

البطرك انبا اخرسطودلوس وأنه لا صحة لما حكى عنه، فأمر بالافراج عنه وعاد إلى دمرو. وذكر انبا غبريال أسقف صا وانبا ميخاييل أسقف تنيس أنهما لما وصلا بالسنوديقا إلى انبا يوحنا بطرك انطاكية تلقاهما بأحسن ملتقا هو وأساقفته وجميع كهنته وقراها فى جميع كنايسه ونادى باسم ابونا انبا اخرسطودلوس على هياكل البيع بكرسى أنطاكية، وتحدث انبا ميخاييل أسقف تنيس بما شاهده وسمعه من عجايب ابونا انبا يوحنا ويغنينا

وقلنا أن العقيدة الصوفية بدأت (بنفاق الجنيد) الذى حافظ على عقيدة التصوف من ضغط الفقهاء الذى كان فى أبان قوته، وانتهت تلك المرحلة ـ وقد ضعف الفقهاء ـ بعد صلح بين الإسلام رالتصوف ، وبه أضحى التصوف (إسلاميا) على يد «الغزالى» وتحول الإنكار على التصوف إلى إنكار على أشخاص الصوفية ، وأسهم فى هذا الإنكار الغزالى نفسه لحماية الطريق الصوفى..

٢ـ ثم جاءت المرحلة الثانية قبيل العصر المملوكى على يد«ابن عربى» الذى أعلن صراحة ماكان الغزالى يرمز به، فأعلن عقيدة(وحدة الوجود) أو الوحدة الكاملة بين الله والعالم.

٣ـ ثم عرضنا للعقيدة الدينية للعصر المملوكى وكيف انها تبعت ابن عربى وسيطر عليها اتباعه، ومع ذلك فالصراع بينهم وبين الفقهاء لم يهدأ، بل ثار الفقهاء ثورتين فى القرن الثامن بزعامة ابن تيمية، وفى القرن التاسع بزعامة البقاعى.. وكل ما هدف إليه الفقهاء وهو مجرد التمسك بما كان يعلنه الجنيد قبلاً وهو الإلتزام بالكتاب والسنة.. (مع أن الجنيد كان يقول ذلك تقية وخوفاً من القتل)، ووضحا كيف اجهض التصوف المسيطر عى العصر حركتى الفقيهين.. ثم استسلم العصر المملوكى فى نهايته للشعرانى الذى سار على طريق الغزالى فى توثيق أواصر القربى بين الأسلام والتصوف أن الحفاظ على الثوب الإسلامى وتقرير العقيدة

عن ذكر ذلك ما شرحه انبا ميخاييل فى السيره التى ذكرها.

ولما مات الوزير على ابن احمد الجرجرائى تولى بعده الوزارة أبو نصر صدقه ابن يوسف الفلاحى(*) وبعده أبو البركات ابن أخى الجرجرائى وبعده البازورى [اليازورى] المقدم ذكره، فحرك عدوا الخير المبغض للصلاح إبليس على

(*) أبو منصور صدقه: تولى الوزارة سنة ٤٣٦هـ = ١٠٤٤م، فعمل على التخلص من سلطة أبى سعيد إبراهيم ابن سهل التسترى

الصوفية من خلاله ، وبذلك خف الإنكار عليه بل عرف عصره منافقين من الفقهاء داهنوا التصوف لأنه الغالب، بمثل ما فعل الجنيد سابقاً حين أبطن التصوف وأظهر الأسلام..

٤ـ والمرحلة الثالثة بدأ بها بعض الصوفية بقصد التحلل الكامل من الإسلام شكلاً وموضوعاً واسماً.. وقد ظهرت هذه الحركة - فى العصر المملوكى ـ العصر الذهبى للتصوف.. إلا أنها ـ وقد حصرت همها فى رفض الإسلام ـ علناً فلم تعلن بديلاً محدداً بدين واضح وبرنامج معين، وكل ماهنا لك انهم اعلنوا رفضهم للإسلام واستهزءوا به وبالأنبياء والقرآن، وادعى بعضهم النبوة صراحة وادعى آخرون الألوهية، وأعلن بعضهم شرعاً جديداً ينفى الأسلام ويحقق لهم إنحلالهم العقائدى والخلقى..

٥ـ إلا أن هذه المرحلة لم يكتب لها الاستمرار ، فليست إلا فترة زمنية محددة أتت بعد مرحلة ابن عربى وانهتها. وذلك لأكثر من سبب:

أ) ففى التاريخ العقائدى للتصوف لاتبدأ بالإجهاز التام على سابقتها.. وانما تبقى بعض ملامح الفترة السابقة وتكون الملامح الجديدة أوضح وأصرح ..ذلك أن العقيدة الصوفية قاسم مشترك فى المراحل الثلاث، فالجنيد قال بوحدة الوجود وتابعه الغزالى ثم أعلنها ابن عربى فالذى اختلف بينهم هو الأسلوب، والفارق هو فى نفاق الجنيد والغزالى وصراحة ابن عربى..

البيعة نكداً، وذلك أن رأس القديس مرقس الإنجيلى كان فى دار أبو يحيى زكريا الذى قدمنا ذكره، فلما مرض واشتد وجعه جا إلى والدى عشرة من النصارى وهم جبريل ابن قزمان وسيمون القس الذى صار أسقف تنيس وأخوه حسون الشماس وأبو الخير مطروح وسرور ابن مطروح ومن معهم، وقالوا له: الشيخ أبو يحيى زكريا قد اشتد وجعه وهو متعلق بخدمة القايد الاجل عز الدولة معضاد الأستاذ، ونخاف أن يموت فيقبض على داره وما

اليهودى التى امتدت من خلافة الظاهر لاعزاز دين الله حتى خلافة المستنصر بالله. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن ام الخليفة المستنصر كانت ملكاً للتسترى ثم أهداها للخليفة الظاهر فأنجبت منه ابنه أبا تميم معد الذى ولى الخلافة بعده وتلقب بالمستنصر. وقد ساعدت الاحداث ابو منصور صدقة على التخلص من التسترى عندما اشاع أن التسترى دس السم لعزيز الدولة ريحان القائد التركى مما أدى إلى قتله على يد

وقد يأتى فى المرحلة التالية (مرحلة ابن عربى) من يتمسك بأسلوب الجنيد والغزالى كما فعل الشعرانى الذى قال(بوحدة الوجود)مع تنزيهه لابن عربى ودفاعه عن الطريق الصوفى.. إلا أنه مع ذلك يبقى الصوت العالى لابن عربى وتلاميذه فى مرحلته وبنفوذهم أخمدت حركات الفقهاء..

ب) عايشت هذه المرحلة (رفض الإسلام صراحة) العصر المملوكى وهو عصر التصوف الاتحادى واتباع ابن عربى.. ومع أن اتباع المرحلة الجديدة كانوا صوفية اتحاديين استفادوا بالتصوف وعقيدته إلا أنهم وجدوا الإنكار ليس من الفقهاء فقط ولكن من الصوفية العاديين أيضاً وبعض الحكام.. ويرجع السبب فى ذلك إلى الأنكار على أسلوبهم الذى يهدف إلى التحلل المطلق من الإسلام شكلاً وموضوعاً.. وذلك الأسلوب لايقول به ابن عربى رغم التعارض التام بين وحدة الوجود والإسلام.. فان ابن عربى حرص على الشكل الإسلامى وحاول أن يجد لعقيدته أصلاً فى القرن الكريم إلى درجة أنه قام بتفسير القرآن الكريم ليوافق عقيدته، وأكثر من الاستشهاد بالأحاديث الموضوعة لأنه رأى أن الأسلوب الأمثل لايكون بإعلان رفض الإسلام صراحة،وأنما باستخدام اسم الإسلام وهيكله لحماية عقيدة الصوفية والباسها الثوب الإسلامى، وتذويب الفوارق بينهما بتأويل القرآن ووضع الأحاديث الباطلة.. وليس غريباً بعد هذا أن يكون العصر المملوكى عصر الأحاديث الزائفة الذائعة الصيت والمتداولة حتى الآن..

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

نأمن على راس القديس الذى هى عنده. فمضى معهم إلى الرجل فوجدوه ينازع فأخذوا الصندوق الذى فيه الراس وحملوه إلى دار جبريل ابن قزمان لأن داره كانت قريبة من دار أبو يحيى، فلما كان بالليل حملوه إلى دار والدى التى كنا نسكنها وقالوا له : خفنا أن نجعله بحيث نقلناه إليه لقربه من دار الشيخ أبو يحى زخريا لأنه قد مات الساعة فاجعله عندك، فوقف والدى فى الدهليز وحلف

بعض الجند الاتراك. ولكن أم الخليفة سعت إلى الانتقام من الفلاحى حتى أزالته من الوزارة ثم قتل فى اوائل سنة ٤٤٠هـ= ١٠٤٨م.

وهكذا رأى الصوفية فى العصر المملوكى الخطر كله فى أصحاب الحركة الصوفية الجديدة، فاضطهدوهم مع الفقهاء، كما فعل الشعرانى حين طالب برؤوس الاتحادية المعاصرين له حماية للطريق الصوفى.

جـ) إن المجتمع المملوكى استراح لفكرة المواءمة بين التصوف والاسلام التى قال بها الغزالى واستمرت بعده ليحافظ عليها ابن عربى مع صراحته فى إعلان عقيدته.. ومع دخول العصر المملوكى فى مرحلة التقديس للأشياخ الصوفية وسيطرة التصوف على الحياة العلمية ضعف المستوى العلمى والعقلى وآمن الناس بإشارات الصوفية فى (التفسير) وتخريجاتهم للأحاديث الموضوعة، وصار معلوماً لديهم من الدين بالضرورة أن مبدأ التصوف قرن للإسلام فالخروج على الأسلام خروج على التصوف .. فلاقى أصحابنا اضطهاد الفريقين (الصوفية والفقهاء) حين حاولوا نبذ الإسلام صراحة..

د) ثم إن ثورات الفقهاء وإنكارهم على اتباع ابن عربى ونحلته لم تنقطع.. رغم أنه لم يرفض الإسلام شكلاً واسماً.. حتى ظهر الشعرانى فى أواخر العصر يعيد سيرة الغزالى فى اصطناع الاعتدال والهجوم على أوباش الصوفية.. وطبيعى أن يتحرج الصوفية من ظهور الدعاة الجدد الرامين لنبذ الإسلام مطلقا خوفاً من أن يتعرض التصوف.. من اساسه لإنكار الفقهاء المتحمسين. ذلك أن الدعاة الجدد صوفية اتحاديون استفادوا بالحرية الدينية (الفوضى الدينية) ودعم السلطات التركية الحاكمة التى كانت فى غالبية أفرادها رقيق مجلوب من

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

أنه لا يدخل داره خوفاً من السلطان لأنه كان قد لقى قبل ذلك مصادرة وغرامة وأمور صعبة، فأخذه سرور ابن مطروح ومضى به إلى داره وكانت مقابلة الدار المذكورة، فقال له القس سيمون الذى صار الآن أسقفاً على تنيس: أنا أنقله من عندك إلى عندى وأخدمه أنا وأخى.ومضوا وأخذوه. وكان باسكندرية رجل من مدينة برقه يسمى على ابن بشير فكتب للقايد الاجل معضاد الدولة بصفة

مراعى وسط آسيا لا يعرف سوى الديانات البدائية البسيطة ويحنّ إليها، وقالوا بالشطحات مثلهم فى ذلك مثل الصوفية الأخرين.. فبادر الصوفية للإنكار عليهم وإعلان البراءة منهم ليسحبوا البساط من تحت أقدام الفقهاء..

٦ـ وهكذا.. بدأت المرحلة الأخيرة وانتهت فى العصر المملوكى، لاكمرحلة زمنية وإنما كمرحلة موضوعية منطقية فى تاريخ العقيدة الصوفية لم يكتب لها الاستمرار، لأن الظروف التاريخية لم تكن صالحة لاستمرارها.. وعلى ذلك يمكننا أن نعتبر العصر المملوكى – وهو العصر الذهبى للتصوف ـ قد حفل بجميع التيارات الصوفية المعبرة عن العقيدة الصوفية فى مراحلها الثلاث:

(فالجنيد) الذى نافق لينجو من الاضطهاد تابعة فى العصر المملوكى أحمد الزاهد ولقبه (جنيد القوم..) و(الغزالى) الذى وفق بين الأسلام والتصوف نهج طريقة (الشعرانى)..و(ابن عربى) الذى صرح وأعلن عقيدته سار على طريقة الكثيرون (كالتلمسانى والمنجى واليافعى وزكريا الأنصارى ومحمد الصوفى)ثم أشياخ الطرق الصوفية (البدوى والشاذلى والدسوقى..)..

والمتحللون من الإسلام فى العصر المملوكى أبرزهم الباجريقى والبققى وابن اللبان وآخرون.. وكلهم بدءوا بالشطح الصوفى..

الحال فوصل الأمر بالقبض على والدى والجماعة
الذين كانوا معه، وكان والى اسكندرية يومئذ
كوكب الدولة البشالى [البشتالى] فأحضرهم
وقال لهم: أريد رأس مرقس وعشرة ألف دينار
كانت معها، وهذا كتاب السلطان قد وصلنى
بمطالبتكم بذلك. وقدم حسون الشماس وقال له:
تريد أضربك بالسياط حتى تحضر ذلك. فقال: لا
ما أريد. فضحك منه وخلاه. وحمل والدى إلى

الشطح الصوفى فى العصر المملوكى

طريقة لنبذ الإسلام

١ـ أتاح الشطح الفرصة الكاملة لكل الصوفية ـ على اختلاف طرائقهم – فى أن يقولوا ما شاءوا.. وتاريخ الشطح هو تاريخ التصوف.. إذ بدأ التصوف بإعلان عقيدته فيما اعتبر شطحاً.. وقد أودى الشطح بحياة بعض الصوفية الأوائل وأشهرهم الحلاج، وبه اضطهد الآخرون بسبب (كلمات)لهم قيلت فتعرضوا للنفى والطرد والمحاكمات..

٢ـ وبتقرير تدين التصوف فى العصر المملوكى لم يعد الشكل الإسلامى حائلاً للصوفية عن قول الشطحات المنافية للإسلام.. بل على العكس أصبح الشطح من سمات العقيدة الصوفية حتى لدى شيوخ التوفيق بين الإسلام والتصوف كالشعرانى، فيقول عن العارفين (منهم من تهب على قلبه نفحات إلهية لو نطقوا بها كفرهم المؤمن)[1]. فالشطح أصبح عند الشعرانى (نفحة الاهية).. وازدهرت طرائف المجاذيب فى العصر المملوكى ولهم مطلق الحرية فى القول والفعل، فالمجذوب (لا يطالب بأدب من الأداب .. مع وجود الكشف ـ (علم الغيب) ـ وبقائه عليه)[2]. أى أن المجذوب لايسأل عما يفعل ومهما قال فهو متمتع بعلم الغيب مع أنه لايعلم الغيب إلا الله تعالى.

---

(١) الجواهر والدرر: ٢٧٥.
(٢) اليواقيت والجواهر ١٥٤.

مصر دون الجماعة، وطالبه معضاد الدولة بعشرة ألف دينار وقال: أريد راس مرقس لأن ابن بشير المذكور كتب إليه بأن الروم يدفعوا له فيه عشرة ألف دينار. فقال له والدى: ما رأيته ولا أخذته وهو ذا أنا بين يديك. فاعتقله. وعلم والدى والجماعة أن هذا ناله بسبب أنه لم يأخذه ورده من باب داره. فأقام معتقل سبعة وثلثين يوماً. وكان سجان الحبس رجل مسلم اسمه بركات [قال] لوالدى

٣- وأصبح الشطح من لوازم الولى الصوفى يحفظ عنه ويكتب فى ترجمتة وإذا حدث وشذ صوفي عن هذه القاعدة قيل عنه (لم يحفظ عنه شطح) كما في ترجمة المرشدى ت ٧٣٧ [١]..

ويزداد التقدير والتقديس للصوفى المجذوب إذ بالغ فى شطحه كما قال أبو المحاسن فى ترجمة السطوحى ت ٨٦٥ المجذوب (إذا بدأ فى الشطح يتغير كلامه كله بالسفه والإساءة المفرطة الفاحشة بغير سبب، رحمه الله ونفعنا ببركة أوليائه) [٢].

٤- وتوصف الشطحات بالكثرة كما ورد فى ترجمة الشعرانى لعبد القادر السبكى إذ قال عنه.. كثير الشطح) [٣]. وأحمد الكعكى يقول عنه الشعرانى (وكان كثير الشطح تبعاً لشيخه محمد الكعكى.. حتى كان لا يقدر على صحبته كل أحد) [٤]. وقد قال عن أبى السعود الجارحي (وكان رضى الله عنه له شطحات عظيمة..[٥] فوصف شطحه بالعظمة.. وقد كان أولئك معاصرين للشعرانى.

ويقول المناوى فى ترجمة الشيخ عبيد (كانت له خوارق مدهشة، وشطحات موحشة، وكان

(١) أعيان العصر مخطوط ٦، ١، ٤٧. (٢) حوادث الدهور ٥٦٥.
(٣)، (٤) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١٦٦، ١٦٧، ١١٧ على الترتيب.
(٥) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١٦٦، ١٦٧، ١١٧ على الترتيب.

صبيحة اليوم السابع والثلثين: يا شيخ أبو الفتح
رأيت الساعة إنسان شاب بلحية سودا على جبينه
ضربة وقف على هذا الباب وهو يقول: «ياأبوالفتح
ابن مفرج أنا مرقس الإنجيلي فقد ربحت نفسك
بصبرك وكلام آخر غير هذا ما فهمته «وخذ هذه
تتخلص» ورمى لك من يده اليمنى حصاة لها ثلثة
اروس [رؤوس] وقال إلى ثلثة أيام تتخلص. فقال
له والدى: ايتنى بضو حتى أبصر ما قلت. فأتاه

مثقوب اللسان لكثرة ما ينطق به من الشطح الذى لايمكن تأويله)[1]. فلم يمنع وصفه للشطحات من وصف صاحبها بالخوارق والكرامات..

٥ـ وفى إطار الشطحات انعدم الفارق بين الصوفى الاتحادى وأخيه الذى يعلن رفض الإسلام، طالما أن الاتحادى يدعى أنه فى حالة (وجد) أى (قوى عليه الحال) وحينئذ يباح له أن يقول ما يقول.. وقد أورد الشعرانى طائفة من الشطحات فى معرض فخره بأشياخه الصوفية لاتختلف عن أقاويل الرافضين للإسلام..

أ) منها ما استهدف الاستهزاء ببيوت الله بالقول والفعل، كما قال فى ترجمة الشيخ إبراهيم العريان(كان رضى الله عنه يطلع المنبر ويخطب عرياناً فيقول:«السلطان ودمياط وباب اللوق وبين القصرين وجامع طيلون الحمد لله رب العالمين»فيحصل للناس بسط عظيم)(وكان رضى الله إذ صحا يتكلم بكلام حلو)[2].. فصاحبنا المجذوب يتمتع بتأييد الناس حتى أنه (يحصل للناس بسط عظيم).

ب) وبعضهم كان يجد مجال الاستهزاء فى القرآن الكريم كشعبان المجذوب، يقول فيه الشعرانى (كان يقرأ سوراً غير السور التى فى القرآن على كراسى المساجد يوم الجمعة وغيرها

(١) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ورقة ٣٥٥ (ب).
(٢) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٢٩.

الضـو لأنه كـان سـجن مظلم فـوجـد الحـصـاة مطروحة قدامه فأخذها وتأملها وقبلها وشدها على ذراعه ورأيتـهـا أنا واخوتى بعد أن تخلص وكـانت فى منديل كمه باقية إلى حين وفاته فلما توفى لم نجدها، وبعد نظر السجان لهذا المنام بثلثة أيام انفذ معـضـاد الدولة وأحـضـر والدى وقـرر حـاله على خمس مـاية دينار سوى مـاية دينار أخرى لأصحابه لتمام سـتـماية دينار، وقام بها وأفرج عنه، ووصل

فلا ينكر عليه أحد. وكان العامى يظنها من القرآن الكريم لشبهها بالآيات فى الفواصل. وقد سمعته مرة يقرأ على بابا دار(على طريقة الفقهاء الذين يقرأون فى البيوت) فـصغيت إلى ما يقول فسمعته يقول:«وما أنتم فى تصديق هود بصادقيين.. ولقد أرسل الله لنا قوماً بالمؤتفكات يضربون ويأخذون أموالنا وما لنا من ناصر ين»ثم قال اللهم اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز فى صحائف فلان وفلان إلى آخر ما قال.. وكـانت الخلائق تعتقده اعتقاداً زائداً، لم اسمع قط أحداً ينكر عليه شيئاً من حاله، بل يعدون رؤيته عيداً عندهم)[1]. أى تنزه بجذبته عن الإنكار، حتى أن الشعرانى يقول عن تخريفاته أنه(كان يقرأ سوراً غير السور التى فى القرآن) فجعلها (سوراً قرآنية)..

ج) وبعضهم كـان يسب الأنبياء كالشيخ محمد الحضرى، وقد ترجم له الشعرانى فقال(كان يتكلم بالغرائب والعجائب من دقائق العلوم والمعارف ما دام صاحياً، فإذا قوى عليه الحال تكلم بألفاظ لايطيق أحد سماعها فى حق الأنبياء وغيرهم..» وأخبرنى الشيخ أبو الفضل السرسى أنه جاءهم يوم الجمعة فسألوه الخطبة فقال بسم الله فطلع المنبر فحمد الله واثنى عليه مجده ثم قال: «واشهد أن لاإله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام» فقال الناس: كفر فسل السيف ونزل فهرب الناس كلهم من الجامع فجلس عند المنبر إلى أذان العصر وما

---

(١) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٦٧: ١٦٨.

إلينا إلى اسكندرية وأخذ الراس وقبلها كانه لم يصيبه شي. وكان من جملة الشهود المعدلين [العدول] بمصر رجل مقدم فيهم يعرف بالقاضى أبو الحسين عبد الوهاب ابن على السيراقى [السيرافى] واصرف [عزل] من خدمة كان يتولاها بمصر واستخدم قاضياً ومشارفاً بمدينة اسكندرية واصرف منها واستخدم فى عدة خدم بالريف، وكان يبغض النصارى فمضى بعض الأيام إلى دمرو فلم يوفيه البطرك حقه فداخله إبليس خزاه

تجرأ أحد أن يدخل)[1]. ويحس القارئ نبرة الفخر فى حديث الشعرانى عن ذلك الخضرى حين هدد المنكرين عليه بالسيف فهربوا.. ويعنينا أن نذكر أن الخضرى المتوفى ٨٩٧ كان من أصحاب الاتحاد العارفين بدقائق العلوم والمعارف ولم يجد لعقيدته مجالاً إلا فى ادعاء الجذب الوقتى أو بتعبير الشعرانى (فإذا قوى عليه الحال تكلم بالألفاظ لايطيق أحد سماعها فى حق الأنبياء وغيرهم..).

٦ـ ويذكر أن بداية العصر المملوكى ووسطه شهدا عقد المحاكمات لأصحاب الدعوات المتطرفة الذين وقعوا فى سب الأنبياء تبعاً لغرضهم فى التحلل من الإسلام والشرائع الإلهية..

ففى عام ٨١٣ (رفع للقاضى الشافعى أن شخصا يقال له أبو بكر المغزو يدعى المشيخة ويتكلم على الناس ويقول: الأنبياء عرايا عن العلم لقوله تعالى: «سبحانك لا علم لنا» ونحو ذلك من الأشياء الشنيعة، فمنعه القاضى عن الكلام بعد أن عزره بالقول)[2].

وفى عام ٨٤٤ (عقد مجلس حكم بإراقة دم على أخى قطلوبغا لأنه يثبت عليه أنه سب الآنبياء وأفحش وذلك بالتركية والعربية)[3]. وتاثر بعض القضاه بهذا الجو ففى نفس العام

---

(١) الطبقات الكبرى جـ٢/ ٩٧ : ٩٨، ونقل ذلك فى أخبار القرن العاشر مخطوط: ٥٧.

(٢) إنباء الغمر لابن حجر جـ٣/ ٢٢٦.

(٣) إنباء الغمر مخطوط ١٢٨ : ١١٣١، ١١٣٩ بالترتيب.

الدوسة بفرس شيخ الطريقة السعدية على المريدين لينالوا البركة

الله وحسن له أن كتب إلى الوزير اليازورى وقال له فى حق البطرك أقوال كثيرة وان هذه دمرو هى القسطنطينية الثانية وفيها سبعة عشر بيعة أكثرها مستجد وأنه قد استجد فى غيرها من النواحى بيع كثير. وإن هذا الموضع قد عمر فيه موضع لسكناه ونقش على بابه الكفر واهان الإسلام واهله. واشار عليه أن يغلق البيع كلها ويهدم ما استجد منها ويقطع عليها مالا. فأجابه الوزير إلى ذلك وكتب

---

٨٤٤ (طلب قاضى دمشق الحنفى بالقاهرة بسبب ما نقل أنه سئل عن الحكمة فى طواف النبى (ص) على النساء فى ليلة واحدة، فأجاب بأنه فعل ذلك ليعفهن عن الزنا. فأغرمه السلطان مائتى دينار)[١].

وفى القرن التاسع ازداد التصوف وتكاثرت طبقة المجاذيب الصوفية، والمجذوب (لايطالب بأدب من الآداب) فلم يطالبوا بالآداب طالما فى حالة جذب.. بينما تعقد المحاكمات لغيرهم.. وهكذا أصبح ادعاء الجذب غطاء لأصحاب الدعوات المتطرفة يتخلصون به من المحاكمات..

ويلفت النظر إلى أنه فى القرن العاشر ـ عصر المجاذيب الذين ذكرهم الشعرانى ـ عقدت محاكمة سنة ٩١٣ لعمر بن علاء الدين الحنفى وكان خطيباً بأحد الجوامع لأنه (وقع فى حق سيدنا ابراهيم، فاستتابه أحد القضاة وحكم بحقن دمه، فتعصب السلطان الغورى للخليل ابراهيم، وصمم على ضرب عنق الخطيب، وجمع القضاة والعلماء وتباحثوا، وبعد تشاجر انفصل المجلس على سجنه حتى يتوب، والسلطان مصمم على قتله فسجن..) والغورى الذى صمم على قتل ذلك الخطيب الفقيه المتأثر بالتصوف هو نفسه الغورى الذى يعتقد فى الصوفية إلى درجة تقبيل أيديهم كما فعل بالصوفى المجذوب ابن عنان على مرأى من الشعرانى[٢].

(١) إنباء الغمر مخطوط ١٢٨: ١١٣١، ١١٣٩ بالترتيب.

(٢) قواعد الصوفية جـ١/ ١٩ تحقيق طه سرور طـ١.

إليه بأن يكشف عما تضمنه كتابه بالشهود العدول فركب في جماعة من الشهود المستخدمين وجآ إلى دمـــــرو ودخل إلى منزل البطرك انبــــا اخـرسطودلوس فوجد عليه منقوش باسم الاب والابن والروح القـدس الاله الواحـد فكشطه من الباب، فقال له البطرك: إذا كشطته من على الباب تقدر تكشطه من قلبي. فتعجبو الحاضرين من قوة نفسه وجودة كلامه.



الدوسة أو الوطء بحوافر فرس أحد مشايخ الطريقة السعدية على بعض الأتباع، ويتحملونه راضين تلمساً للبركة

فالفارق بين المجذوب والصوفي المتطرف أن الأول يدعي الجذب في قوله للشطح ويتمتع بالتقديس، إما الأخير فيقوله بصراحة وبلا ادعاء، ويتعرض للمحاكمة أحياناً.

٧ـ وهناك عامل آخر يذهب من الفوارق بين الصوفية العاديين وأصحاب الدعوات المتطرفة الرامين للتحلل من الإسلام وذلك فيما قاله أساطين الاتحاد من عبارات شطحية مقصودة تعبر عن عقيدة (وحدة الوجود) بكل وضوح وصراحة مستغلين جو الحرية الذى يتيح للصوفى أن يقول ما يشاء طبقاً لمبدأ الشطح..

فقد قيل فى ترجمة عفيف الدين التلمساني (٦٩٠) تلميذ ابن عربى أنه (نسبت إليه عظائم فى الأقوال والأفعال والاعتقاد فى الحلول والاتحاد والزندقة والكفر المحض، هذا مع أنه عمل أربعين خلوة كل خلوة أربعين يوماً متتالية)[١]. وأنه (لايحرم فرجاً وإن عنده ما ثم (أى ليس هناك) غير ولاسوى (أى لايوجد غير الله ولاسواه فالله هو كل شئ) بوجه من الوجه، وإن العبد إنما يشهد السوى(أى لايوجد غير الله من العالم) إذا كان محجوباً، فإذا انكشف حجابه ورأى أن ما ثم غيره (أى غير الله) تبين له الأمر، ولهذا كان يقول«نكاح الأم والبنت والأجنبيه واحد «وأنما هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام علينا فقلنا حرام عليك»[٢].. وقال عنه

(١) تاريخ ابن كثير جـ١٣/ ٣٢٦.

(٢) شذرات الذهب جـ٥/ ٤١٢.

وبعد هذا أمر الوزير اليازورى أن تغلق البيع فى جميع كورة مصر وكان المساعد على هذا عند الوزير اليازورى رجل يعرف بأبى الفرج البابلى من مقدمى الدولة أصحاب الدواوين وكان ناصر الدولة ابن حمدان والى السيارتين [المقاطعتين] بالريف الشرقية والغربية فأغلق البيع وأخذ البطرك والاساقفة فطالبهم بالمال وذلك فى سنة سبع مايه ثلثة وسبعين للشهد، وكان انبا اخرسطودلوس لما صار بطركاً يقول لمن صيره أسقفاً هذه الكراسى

ابن تيمية (هو من حذاق القائلين بالاتحاد علماً ومعرفة، وكان يظهر المذهب بالفعل فيشرب الخمر ويأتى المحرمات، وحدثنى الثقة إنه قرئ عليه فصوص الحكم لابن عربى وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين فلما قلت له: هذا الكلام يخالف القرآن فقال: القرآن كله شرك وانما التوحيد فى كلامنا. وكان يقول: ثبت عندنا فى الكشف ما يخالف صريح المعقول، وحدثنى عن من كان معه آخر نظير له فمرا على كلب أجرب ميت بالطريق فقال له رفيقه: هذا إيضا هو ذات الله؟ فقال : وهل ثم (هناك) شئ خارج عنها؟ نعم الجميع فى ذاته)[1]..

فالتلمسانى حلقة وصل ضرورية بين ابن عربى والصوفية الرافضين للإسلام.. ولم يعدم العصر المملوكى من وجود تلامذه للتلمسانى (قال أحدهم لرفيقه ـ وكان يمشى فى الاسكندرية ـ إن الله تعالى هو عين كل شئ، فمر بهما حمار فقال: وهذا الحمار؟ فقال: وهذا الحمار!! فروّث الحمار من دبره فقال له: وهذا الروث ؟ فقال : وهذا الروث!!)، وهذه قصة حقيقية وقعت فى القرن التاسع[2]..

٨ـ وجدير بالذكر أن بعض عتاة الجاهلين استهزأ بيوم القيامة وأعلن أنه سيعطى فى الآخرة

(١) مجموعة الرسائل والمسائل جـ١/ ١٤٥.
(٢) تاريخ البقاعى مخطوط : ١٢٣.

هى لمرقـ[س الإنجيلى] وهذا الكرسى الذى أصيرك عليه أسقفاً يكون النصف منه لمارى مرقس البشير والنصف لك فـاقـرضنى عن النصف الذى لمارى مرقس البشير كذا وكذا و اجبى [أجمع] أنت إلى أن تستوفى قـرضك، وبعد هذا مهمـا حصل فى الكرسى احمل النصف الذى فيه لمارى مرقس إلى القلايه. فحصل له من جماعة صيرهم أساقفة مالا كـثيراً من جملتهم مـرقس الكاتب المعروف بابن الظالم أخـذ منه ألف دينار قـرضـاً على نصـف

كما أعطى فى الدنيا المال والولد، واعتبر القرآن مقالته إثماً بالغاً يستحق مزيد العذاب، مع أن ما قاله لا يقاس بأى حال بشطح أى صوفى مهما بلغ اعتداله.

والمشـركـون السابقـون لم يقولوا كـالصـوفية(واشهـد أن لا إله لكم إلا إبليس عليـه الصـلاة والسلام ـ إو أن النجاسة والكلاب الميتة والحمير والورث هى عين الله).. وكل ما هنالك أنهم قـالوا بأن الله اتـخذ ولداً واعتـبره القـرآن هذا القـول كـفـراً ، ولكنه لايمكن أن يقـارن بأقـاويل الصوفية السابقة..

فـأين هذا من ذلك القـائل(طاعـتك لى يارب اعظم من طاعـتى لك ـ بطشى اشـد من بشطك، لأن ترانى مرة خير لك من أن ترى الله ألف مرة..).

الصوفية رافضوا الإسلام شيوخ

المرحلة الثالثة

• فى القرن الثامن:

شهد القرن الثامن حركة ابن تيـمية الداعية لتمسك الصـوفية بطريق الجنيد المعتدل الذى ظن ابن تيمية أنه ملتزم بالأسلام. وقد أحدثت حركة ابن تيـمية رد فعل مضـاد على الجانب الصـوفى المتطرف الذى كـان يتوق للتحـرر من الشكل الرسمى الإسلامى، فظهـرت حـركـات متفرقة تزعمها الباجريقى الصوفى فى القرن الثامن..

---

٦٦ : انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

الكرسي وصيره أسقفاً على كرسي سمنود، وكان يفعل هذا حتى لا يقال أنه ياخذ شرطونيه ويعتقد أنه مخلصاً من الله، فلما قبض عليه ناصر الدولة [الحمداني](*) كما قلنا بدياً وقرر عليه وعلى الأساقفة وجميع النصارى سبعين ألف دينار، فنال النصارى من ذلك ومن غلق كنايسهم ضيق شديد وصعوبة شديدة.

ثم بعد هذا خرج إنسان إلى الريف يعرف بابن

(*) ناصر الدوله الحمداني: ت ٤٦هـ = ١٠٧٤م
الحسن بن الحسين بن حمدان تغلبي، أبو محمد. ناصر الدوله. آخر مراء آل حمدان ملوك حلب. كان مير دمشق وعزله عنها المستنصر بالله لفاطمي سنة ٤٤٠هـ وقبض عليه رأرسله الي مصر فجمع حوله الانصار

***الباجريقي:**

استحوذ الباجريقي (محمد بن جمال الدين) (ت ٧٢٤) على اهتمام المصادر التاريخية.. وقد كان في الأصل فقيهاً بالمدراس ثم تصوف وصحب الفقراء وصار له اتباع، غير أنه كان يتفوه بالعظائم مثل أن الأنبياء والرسل طولت على الأمم الطريق إلى الله، وأنه بإمكانه أن يوصلهم إلى الله بأسرع من الرسل (وقد حكم القاضي المالكي بضرب عنقه مرة بعد أخرى لثبوت أمور فظيعة وكلمات شنيعة فتغيب عن دمشق وأقام بمصر بالجامع الأزهر وتردد إليه جماعة، وكان الشيخ صدر الدين يتردد إليه ويبهت في وجهه ويجلس بين يديه.. وكان له قوة تأثير، وشهد عليه أيضاً بما ابيح دمه منهم الشيخ مجد الدين التونسي فسافر إلى العراق ثم سعى أخوه بحماه حتى حكم الحنبلي بعصمة دمه فغضب المالكي وجدد الحكم بقتله)[١].

*** اتباع الباجريقي:**

وقد طوف الباجريقي بدعوته في مصر والشام والعراق واجتمع عليه الأشياع وكان نصيبهم مثله المحاكمات والاضطهاد، يقول ابن الوردي وأبو الفدا في حوادث سنة ٧٤١ (وفيها ضربت

---

(١) النويري: نهاية الأرب مخطوط جـ٣٠/ ٢٦، فتوح النصر مخطوط جـ٢/ ٢٠٩، أعيان العصر مخطوط جـ٦، ١، ٢، ٢٤: ٢٧ دول الإسلام للذهبي جـ٢/ ١٧٧، السلوك جـ٢/ ١/ ٤، الدرر الكامنة جـ٤/ ١٢: ١٤، ١٣٠: ١٣٢، شذرات الذهب جـ٦/ ٦٤: ٦٥.

القايد الرحيم بسجل إلى ناصر الدولة ابن حمدان [الحمداني] بأنه قد جعل له جباية الجوالي [الجزية وغيرها] بالريف، وكان رجل سو كثير الشر جداً مبغض للنصارى فأصابهم منه هوان عظيم وصعوبة، فلما كان في بعض الأيام ركب مهرة محرومة [شرسه] وكانت له، فلما صارت رجله في الركاب وثبت فوقع على الارض وبقيت رجله في الركاب ولم تزل تجرى وترفصه إلى أن مات، ولما

وقاتل المستنصر فانهزم الحمداني إلى اسكندرية. ثم عاد وحاصر القاهرة فصالحه المستنصر على أن يكون له تدبير الامور والعسكر فتمكن الحمداني من المستنصر ورتب له مئة دينار في اليوم وتلقب بأمير الجيوش ثم قتل على يد مماليكه بمنزله على النيل.

عنق عثمان الزنديق بدمشق على الإلحاد والباجريقية، سمع من الزندقة ما لم يسمع من غيره)[1]، ومعنى ذلك أن (الباجريقية) أصبحت طريقة صوفية تعني التحلل الصريح من الأسلام وإعلان الزندقة.

ومن أتباعه كان ابن المرحل(ت٧١٦) يقول فيه المقريزى إنه درس في الزاوية بجامع عمرو وكان ممن اتهم في دينه كالباجريقي والطوفي، وقد تعارضت آراؤه مع ابن تيمية[2]. وقيل في ترجمة ناصر الدين أبي الفضل المقتول سنة ٧٢٦أنه (اجتمع بمحلولي العقيدة مثل ابن المعمار والباجريقي والنجم بن خلكان وغيرهم، فانحلت عقيدته وتزندق من غير علم، فشهد عليه فهرب إلى بلاد الروم، ثم قدم حلب واجتمع بابن الزملكاني فأكرمه واستتابه، ثم ظهر منه زندقة عظيمة فسيره إلى دمشق فضربت عنقه)[3].

والنجم ابن خلكان سالف الذكر كان(ابن أخي قاضي القضاة شمس الدين ابن خلكان، وقد ولي القضاء ببعض البلاد الشامية، ونسب إلى انحلال في العقيدة فانقطع رزقه ومقت، فسافر للديار المصرية؛ وقعد مع الشهود حتى مات ٧٦٢)، ومعنى ذلك أن مصر كانت ملجأ

(١) تاريخ أبو الفدا جـ٤/ ١٣٧، تاريخ ابن الوردى جـ٢/ ٣٣٠.
(٢) السلوك جـ٢/ ١/ ١٦٧، حاشية ١٦٧ : ١٦٨.
(٣) شذرات الذهب جـ٦/ ٧٤: ٧٥.

دفن رجم قبره بالطوب عدة أيام حتى صار كوم.

ثم أن المستنصر بالله سخط على اليازورى وأمر بنفيه إلى تنيس ثم أمر بقتله هناك، وتسلط على جسده رجل مجنون يجر[ه] بكعبه [من رجليه] وينزله في خرارة الحمام، حمام دنشورة بتنيس، ويشيله في نهاره عدة دفعات ويطوف به الشوارع.

ثم ظهر في السيرافي أعجوبة في نفسه عبرسو عظيمة، ولحقه مرض تحته ودب فيه الدود فكانوا

لمتطرفي الصوفية فقد وفد إليها الباجربقي.. ثم ابن خلكان بعد طردهما من الشام.. ويذكر أن ابن خلكان خدع السلطان أوهمه بمقدرته على عمل الطلسمات والسحر فلما طولب بالبرهان عجز، ومع ذلك ظل مصراً على دعواه[1].

وفي سنة ٧١٥قتل أحمد الرويس الاقباعى (لاستحلاله المحارم وتعرضه للنبوة، وكان له كشف واخبار عن المغيبات فضل به الجهلة، وكان يقول: أتاني النبي صلى الله عليه وسلم وحدثني، وكان يأكل الحشيشة ويترك الصلاة)[2].

* **ابن البققي (أحمد بن محمد المصري) قيل في ترجمه في الدرر الكامنة:**

ادعى عليه ابن مخلوف المالكى بما يقتضى الانحلال واستحلال المحرمات والاستهزاء بالدين، وقامت عليه البينة فحبس، واعيدت عليه الدعوى فاعترف وصار يتلفظ بالشهادتين فلم يلتفت إليه، وحكم بقتله، وقد استجار بابن دقيق العيد فلم يلتفت إليه .. ويقال أن الشيخ الخندار سمع كلامه فقال له:«كأني بك وقد ضربت عنقك بين القرصين وبقى رأسك معلقاً بجلدة» فكان كذلك وكان يشطح ويتفوه بعظائم عن النبوة والتنزيل وتحليل المحرمات.

---

(١) الوافي بالوفيات جـ٣/ ٢٤٩: ٢٥٠، الفلاكة والمفلوكون للدلجي ٧١.

(٢) شذرات الذهب جـ٦/ ٣٥، اليافعي: مرآة الجنان جـ٤/ ٢٥٤.

يجـعلوا تحـتـه في كل يوم عـدة أرطال من اللـحم الطرى فيأكله الدود ولا يطل الأكل من جسـمـه، وهذه مكافاة الدنيا العاجلة ولقى صعوبة شـديدة إلى أن مات موت سو.

ثم أن البابلى بعد القبض على اليازورى بسبعين يوماً قبض عليه واعتقل فى خزانة [سـجن] البنود وكان ناصر الدولة يقول:هذا من عجايب النصارى ما نال ابن القـايد الرحيم أولا ثم اليـازورى وموت

ومما ينسب لابن البققى قوله عن نفسه (لوكان لصاحب المقامات حظ لكانت مقالاته تتلى فى المحاريب) وأنه كان يفطر فى نهار رمضان بغير عذر، وأنه كان يضع الرابعة (المصحف) تحت رجليه ويصعد فوقها يتناول حاجة له من الرف، ويقال أنه كان يستخف بالقاضى المالكى ويسبه ويطعن فيه وكان ذلك يبلغه ولايهيجه إلى أن أظفر بالمحضر المكتتب عليه فطلبه طلباً عنيفاً وادعى عليه عنده فانكر، فقامت البينه فأمر به فسجن ، وحكم المالكى بزندقته وإراقة دمه، ونقل المحضر للقاضى لابن دقيق العيد فرفض قتل من ينطق بالشهادتين، فبلغ ذلك والى القاهرة ناصر الدين ابن الشجى، وكان يميل إلى ابن البقفى فانتصر له وسعى فى نقله من المالكى إلى الشافعى، فأشير عليه بأن يكتب محضراً بأنه مجنون، فكتب فيه جماعة، وأحضره لابن دقيق العيد فقال: معاذ الله ما أعرفه إلاعاقلاً.

فقال المالكى: قد ثبت عندى كفره وزندقته فحكمت بإراقة دمه ووجب على ذلك.. فلما رأى السلطان انزعاجه قال: إن كان ولابد فليكن بمحضر الحكام. فأرسل إلى الوالى والحاجب وحضر القضاة الأربعة فتكلم المالكى بما حكم فوافقه الحنفى وقال:اقتلوه ودمه فى عنقى، فقتل)[1].

---

(١) الدرر الكامنة جـ٩/ ٣٢٩، تاريخ مصر المملوكية نشر زيترستين: ١٠٤ : ١٠٥ .

السيرافى واعتقال البابلى وكل واحد منهم أصيب
فى يوم جمعه مثل اليوم الذى أغلق فيه الكنايس،
كذلك كان سنان الدولة ابن كابر والى مصر يقول
أيضاً لأنه كان رجلا كتامى يحب النصارى،
وكذلك الأمير المؤيد حصن الدولة أبو تراب حيدره
ابن ميروا الكتامى(*) والى اسكندرية رحمه الله
وغفر له كان محب للنصارى ويراعى كنايسهم،
حتى أنه لما أمر اليازورى بغلق البيع أحضرنى أنا

(*) الأمير المؤيد حصن الدولة ابو تراب حيدره بن ميروا الكتامى: ت ٤٥٥هـ = ١٠٦٣م.
هو: حيدره بن الحسين بن مفلح، أبو المكرم، المعروف بالمؤيد. من رجال المستنصر الفاطمى. أرسله أميرا على دمشق سنة ٤٤١هـ، فاستمر إلى سنة ٤٥٠ وعزله ثم اعاده سنة ٤٥٣ وعزله سنة ٤٥٥هـ.

أى أن قتل البقفى يرجع إلى خصومته مع القاضى المالكى.. ولولا ذلك ما قتل. كما حدث لابن اللبان..

• ابن اللبان (شمس الدين محمد ابن أحمد بن المؤمن) (ت٧٤٩)..

كان صوفيا من أصحاب ياقوت العرش الشاذلى ت٧٣٧ قال فيه المقريزى (نسبت إليه عظائم منها أنه قال فى ميعاده بجامع مصر أن السجود للصنم غير محرم، وأنه يفضل الشيخ ياقوت العرش شيخه على بعض الصحابة، واستؤذن السلطان فمكن منه، فترامى على الأمير جنكلى بن البابا والأمير الحاج آل ملك والأمير ايدمر الخطير حتى حكم بتوبته، ومنع من الوعظ هو والشيخ زكى الدين بن معضاد الجعبرى وجماعه من الوعاظ)[١].

وكان القاضى الذى يحاكمه هو جلال الدين القزوينى..[٢] ويذكر ابن كثير أن كبار الصوفيه حضروا مع ابن اللبان للدفاع عنه، وهم شيخ الشيوخ مجد الدين الإقصرائى، وشهاب الدين الأصبهانى، وأنه قد ادعى عليه (بأشياء منكره من الحلول والاتحاد والغلو فى القرمطة وغير ذلك، فأقر ببعضها فحكم عليه بحقن دمه)[٣]. وكان المدعى عليه ابن المغربى.. ومنع أهم أصحابه من الوعظ كابن الجعبرى والزركشى وجماعة آخرين[٤].

(١) السلوك جـ٢/ ٢/ ٤٠٨.
(٢) شذرات الذهب جـ٦/ ١٦٤.
(٣) تاريخ ابن كثير جـ١٤/ ١٧٧.
(٤) فتوح النصر مخطوط جـ٢/ ٢٧١.

الخاطى وخالى صدقه ابن سرور لأنا كنا نخدمه فى مهماته وقال لنا: هذا كتاب الوزير اليازورى قد وصل بغلق البيع والقبض على جميع مالها ومطالبة جميع النصارى باسكندرية بعشرة ألف دينار ويجب أن تمضو الساعة وتنقلو جميع مافى بيعكم من آلات وكساوى وغيرها حتى تنظرو بعد هذا ما أفعله فى غد ويكون هذا أمر مخفى(*). ففعلنا ذلك، فلما كان بالغداة جلس وأحضر القاضى والشهود ومتولى الترتيب وأظهر الكتاب

(*) موقف حصن الدولة والى اسكندرية المدعم للقبط والنصارى.

- -

• ادعاء النبوة:

وعرف فى القرن الثامن أيضاً صوفية ادعوا النبوة. وذلك قريب من القول بالاتحاد ويرى ابن خلدون إن الخروج عن الصراط أدى بأصحاب نظريات (الحلول) (والاتحاد) (والامتزاج) (والاتصال) (ووحدة الوجود) (والقطبى) (والإنسان الكامل)ـ أدى بهم إلى القول بأن النبوة ذاتها يمكن للإنسان اكتسابها والوصول إليها عن طريق الرياضة وصفاء القلب[1]..

وتأسيساً على ذلك حدث فى عام ٧٨١ أن ادعى صوفى أنه محمد بن عبد الله النبى الأمى، وأن حروف القرآن الكريم تنطق له، وأن الذى يأتيه بالوحى جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزارائيل ورضوان ومالك ودرديائيل.. وأنه أرسل بقتل الكفرة، وقد قبض عليه وسجن بالمارستان متهماً بالجنون، وأفرج عنه بعد أن رجع عن مقالته[2]..

وقيل فى ترجمة وضاح الخياط أنه كان يصاحب الصوفية ويحترف الخياطة فأزله الشيطان فادعى النبوة، فسجن أياماً ثم استتيب، وعزر فى ذلك، وأطلق سنة ٧٥٣[3].

واستمر ادعاء النبوة إلى القرن التاسع فقد ادعى سنة ٨٢٤(شخص من عرب الصعيد

(١) شفاء السائل ٨٤: ٨٦.

(٢) السلوك جـ٣/ ١/ ٣٦٨: ٣٦٩. تاريخ ابن اياس جـ١/ ٢/ ٢٤٩.

(٣) الدرر الكامنة جـ٤/ ٤٠٧.

وأمرهم أن يمضو إلى البيع ويثبتو مافيها ويحتاطو عليه فمضو وعادو إليه باثبات ما وجدوه وهو حصير ومصيدة للفار فى كنيسة السطير المعروفة بالمخلص فقال: إذا كان هذا موجود فى كنايسهم وبيعتهم الكبيرة فكيف يكون حال هولا النصارى ومن أين لهم هذا المال الملتمس منهم، وقد صح عندى أنهم قوم مستورين ضعفاً لامال لهم. فأمر أن تغلق بيعنا وبيع الملكيين وكتب إلى الوزير بذلك. ولم يزل يردد رسله إليه [إلى] إن استقر

يقال له عرام النبوة، وزعم أنه رأى فاطمة الزهراء فى اليقظة فأخبرته عن أبيها، وانه سيبعث بعده، فأطاعه ناس وخرج فى ناحيته، فقام عليه نجم الدين البكرى وسعى إلى أن قبض عليه، فضربه تعزيراً وحبسه وأهانه فرجع عن دعواه وتاب..)[1]..

ووصل طوفان الإلحاد إلى المماليك، فقالوا عن طوغان الشمسى ت٧٤١بأنه (ينسب إليه استهتار زائد وكلمات مؤذنة بالزندقة والانحلال..)[2].

• الصعود للسماء:

وعرف القرن الثامن بوادر لإدعاء بعض الصوفية الصعود للسماء وتكليم البارى تعالى، يقول ابن اياس (ظهر بالقاهرة سنة ٧١٧شخص يدعى أنه يصعد للسماء ويكلم البارى جل شأنه فى كل يو م مرة، فاعتقده جماعه كثيرة من عوام مسلمى مصر، فلما شاع أمره بين الناس رسم السلطان بأن يعقدوا له مجلساً بالصالحية، فاجتمع هناك القضاة الأربعة، فأراد القاضى المالكى أن يثبت عليه الكفر فشهد جماعة من أهل الطب بأن فى عقله خللاً فسجنوه، ولم يثبت عليه الكفر..)[3].

(١) إنباء الغمر جـ٣/ ٢٤٣.

(٢) الدرر الكامنة جـ٢/ ٣٢٩.

(٣) تاريخ ابن اياس جـ٢/ ٤.

الحال على ألفى دينار فأحضرنا وأوقفنا على الكتاب فشكرناه ودعونا له. ثم شكونا له حالنا فى غلق البيع وانقطاع الدعآ له فى أوقات الصلوات والقداسات، فدفع لنا مفتاح كنيسة مارى جرجس [بالاسكندرية] التى كانت قديماً بيت انيانوس [الاسكافى] أول البطاركة وهو البيت الذى دخله مارى مرقس البشير فى أول يوم دخل اسكندرية لما ثقب الشفا كف انيانوس وهو يوميذ اسكاف وابراه مارى مرقس واستضاف به فى البيت. وقال لنا:

أى أ ن العصر المملوكى يحتفظ لأولئك المدعين ببعض التصديق بدليل استجوابهم وقيام البعض بنصرتهم وادعاء الجنون للتخلص من القتل.. أما العامة من المسلمين فهم أسرع للإستجابة والنصرة.. إلا أن القرن التاسع حفل بحوادث كثيرة من هذا النوع..

• القرن التاسع:

ـ طوائف الأعاجم:

توافد على مصر جماعات من الصوفية الزنادقة الاتحادية وملأوا طرقات القاهرة، وقد وصفهم المقريزى بأنهم(ينتحلون مذاهب الإلحاد، ويصرحون بتعطيل الصانع تعالى، وينكرون شرائع الأنبياء، ويجهرون بإباحة المحرمات)[(١)]. وقد قتل السلطان أحدهم بدافع سياسى لاديني قال فيه المقريزى أنه (من سقاط العجم قد ثبتت عليه ـ بشهادة جماعة ـ قوادح وعظائم أوجبت اراقة دمه شرعاً، وكان من جملة اشياع الأمير قرقماس المقتول، وتكلم فى السلطان وفى الأنبياء وغيرهم بما تعجل العقوبة)[(٢)]..

• الحروفية أو النسيمية:

وكان أولئك الصوفية الأعاجم يشكلون حركات الزندقة الصوفية المعلنة فى القرن التاسع

(١)، (٢) السلوك جـ٤/ ٣، ١٢٦.

امضو وافتحو هذه الكنيسة وصلو فيها سراً
وادعو لي فدعونا له وأخذنا المفتاح ومضينا
جماعة إلى البيعة ولم نزل نعافر الباب من ثالث
ساعة من النهار إلى التاسعة فبكينا وتضرعنا وقلنا:
يارب قد عرفنا أنك غلقتها لاجل خطايانا واثامنا
فارحمنا واعف عنا. فانفتح لنا الباب فدخلنا
وقدسنا وتقربنا وأقمنا هكذى حتى قسط علينا
ألف دينار وعلى الملكية ألف دينار وحملناها إليه.
وبعد أيام أحضرنى أنا وأخى وخالى وصديق له

في مصر وغيرها من البلاد المحيطة بها، وكان قدومها عادة إلى مصر، كما سبق لغيرها، عائد إلى التكايا الهائلة بها والتى كان يمنع على المصريين دخولها في الوقت التى يصرف عليها من كدهم واموالهم، فهى كانت مخصصة لرعاع الترك مدعى الصوفية، وأهمها طائفة «الحروفية» أو «النسيمية»..

وترجع هذه الطائفة إلى الشيخ فضل الله التبريزى. يقول ابن حجر(أحد المتقشفين من المبتدعة، وكان من الاتحادية ثم ابتدع النحلة التى عرفت بالحروفية، فزعم أن الحروف هي عين الآدميين إلى خرافات كثيرة لاأصل لها، ودعا اللنك (تيمور لنك)إلى بدعته فأراد قتله، فبلغ ذلك ولده أمير زاده لأنه فر مستجيراً به فضرب عنقه بيده، فبلغ اللنك فاستدعى برأسه وجثته فأحرقهما في هذه السنة، ونشأ من اتباعه واحد يلقب«نسيم الدين» فقتل بعد ذلك وسلخ جلده في الدولة المؤيدية سنة ٨٢١)[١]..

وكان قتل التبريزى سنة ٨٠٤يقول ابن اياس سنة ٨٠٤جاءت الأخبار بأن تيمور قتل التبريزى الذى كان قاضيه، وكان على مذهب النسيمى)[٢] وقد أخطأ ابن اياس حين اعتبر الأستاذ على مذهب تابعه.. والسبب في ذلك الخلط هو الشهرة التى حققها النسيمى بعد استاذه التبريزى حتى سميت طريقته باسمه فأصبحت (النسيمية) بعد أن كانت (الحروفية).

(١) إنباء الغمر جـ٢/ ٢١٩ وفيات ٨٠٤.   (٢) تاريخ ابن اياس جـ١/ ٢، ٦٥٨.

اسمه أبو غالب ابن سليمان، كان يخدمه أيضاً في بضايع تصل إليه من الشام، وقال لنا: كم وزنتم عما يخصكم في القسط فقلنا له مايتى دينار. فدفع لنا من قمطرته مايتى دينار وقال هذه أخذتها لكم من نصارى رشيد واتكوا [أدكو، جنوب اسكندرية] والجديديه ومحلة الأمير فخذوها عوضاً مما قمتم به فدعونا له وشكرناه وقلنا له: يامولاى ما يجوز لنا هذا لأن المقسط قد وزن فيه المستور والأرملة وكل أحد وكيف نستعيد نحن ما

ويقول ابن اياس في النسيمي (نزيل حلب صاحب الأشعار التركية، فأفسد عقائد الإتراك وبعث المؤيد شيخ بضرب عنقه وسلخه وصلبه على أحد أبواب حلب)[1] .. وقد عرض ابن حجر لترجمته بالتفصيل فهو معاصر له، يقول في حوادث ٨٢٠(قتل الشيخ نسيم الدين التبريزى نزيل حلب وهو شيخ الحروفية.. بعد شيخه فضل (ت٨٠٤)، وقد قرر نسيم الدين أن الشرائع أباطيل لاحقائق، وأنه لا إله، وقد وصل في ضلاله إلى أن وطأ ابنته واتخذها كالزوجات إلى أن أولدها ولداً. وقد سكن حلب وكثر أتباعه وشاعت بدعته، فأمر السلطان بقتله وسلخ جلده وصلبه)[2] ولعل السبب في مقتله سياسي يرجع إلى التخوف من كثرة اتباعه واحتمال أن يؤسس له دولة في حلب ـ وهي بعيدة عن مركز السلطة ـ تتخذ قاعدة لنشر دينه الجديد..

بيد أن دعودة النسيمية لم تمت بموت صاحبها.. يقول ابن حجر معقباً على مقتل النسيمي (وقد وقع لبعض اتباعه كائنة في سلطنة الأشرف (برسباى) واحرقت كتباً كان معه فيه هذه الاعتقاد،فأطلق بعد أن تبرأ من الكتاب المذكور، وتشهد (نطق الشهادتين)، والتزم أحكام الإسلام، وكان سبب الوقوع في ذلك أن شريفاً قدم من الشام، وذكر أنه لم يزل يسعى

(١) تاريخ ابن اياس جـ٢/ ٣٦تحقيق محمد مصطفى.
(٢) إنباء الغمر جـ٣/ ١٣٦.

قمنا به دونهم. فقال: هذه الدنانير لكم افعلوا فيها ما تريدوا. فدعونا له وشكرناه وأخذناها وابتعنا بها ثياب حلبى وقمح وفرقناه على الضعفا من النصارى فبلغه ذلك فوافقه وفرح به.

وكان رسم النصارى باسكندرية أن يخرجو الزيتونة يوم عيد الشعانين فى الليل ويشقو بها المحجه والسوق من بيعة القديس أبو سرجه إلى بيعة السطير بالدعا والقراه إلى أن جرى من

فى الإنكار على هؤلاء إلى أن عثر على هذا ، وكتب له مرسوم بالقيام عليهم فى بلاد الشام، ثم قدم علينا شخص من أهل انطاكية فذكر لنا عنهم أموراً كثيرة، وكتب له مراسيم بالقيام عليهم فى سنة (٨٤١)[١].

وابن حجر كان قاضياً للقضاه وقد شهد الواقعة بنفسه وقام بمحاكمة الرجل الذى ضبطت معه كتب الدعوة النسيمية ، ومهما يكن من أمر فأن سياق كلامه يدل على ما كانت عليه الحركة النسيمية، من نشاط فى الشام بدليل ما آثارته من فزع لدى الفقهاء فالتجأوا إلى مصر مركز الحكم المملوكى، ثم أن كتب النسيمى كانت ترد إلى القاهرة لأتباعه وضبط بعضها وحوكم من وجدت لديه..

وقد فصل ابن حجر القول فى حوادث سنة ٨٣٨ عن هذه الواقعة فقال (حضر للسلطان شريف من الشام بأوراق فيما يتعلق بالنسيمى وشيخه فضل الله، وإن بالشام ومصر جماعة على عقيدته، وأنه تصدى لتتبعهم، وأنه وجد بالقاهرة شخصاً منهم فأحضره للسلطان وكتبه، وهذه هى الحروفية، وعقد السلطان مجلساً أحضرت فيه الكتب ، وهى بالفارسى فإذا هى مقاله مركبة من قول المشبهة والاتحادية وفيه «إن شعر الإنسان فى رأسه ووجهه سبعة شعور، وشعر أجفانه الأربعة وحاجبه ورأسه سبعة ، وإن عقد أصابع اليدين أربعة عشر فلذلك عدد

(١) إنباء الغمر جـ٣/ ١٣٦ : ١٣٧.

المسلمين ما أوجب أن أقامو خمسة عشر سنة ما
طافو بها، فلما ذكرنا ذلك للأمير حصن الدولة
ابن ميروا أمر باخراجها على جارى العادة وأنفذ
معنا أصحابه وأوصاهم بأن يفعلو ما يقوله لهم وأى
دار رمى منها حجر يختم بابها ويعلم بها وأى
إنسان تكلم من المسلمين يمضو به إلى الحبس
ونادى مناديه بذلك فى المدينة فأخرجناه تلك الليلة
وطفنا بها المدينة بالقراه والتمجيد والصلبان
والبخور كما جرت العادة قديماً وكانت لنا ليلة

حروف المعجم» ونحو هذا. وفيه أن الإلهية انتقلت من الله لأدم ومن آدم لآخر إلى أن انتقلت لفضل الله» (التبريزى). وكلام من هذا حاصله «أن الله هو الحروف». وانكر الرجل اعتقاده وكفر من يعتقد بهذا، وامتثل لأمر الشافعي (القاضى الشافعى) وأحرق الكتب بيده، نودى: من عرف من أهل هذا المذهب النسيمى ووجد عنده شئ من كتبه وأحضره للسلطان كان له مائة دينار، ثم أمر فنودى بأن يخرج جميع العجم من القاهرة والقلعة بأسرهم ولايتخلف منهم أحد إلى ثلاثة أيام، ثم لم يتم ذلك)(١).

والواقع أن وفود العجم الصوفية كانت بيئة انحلال عقيديه، وكان ينادى عليهم دائما بالخروج من القاهرة ثم لايتم من ذلك شئ.. وفى نهاية القرن التاسع ـ فى عصر قايتباى ـ وجد طائفة النموسية ـ وكانوا يربون أولاد النموس ـ جمع نمس ـ يقول فيهم المناوى الصوفى (كانوا أصحاب حسين أبى على.. وضرب قايتباى رقاب بعضهم لما شطحوا ونطقوا بما يخالف الشريعة)(٢). وتابع ضهم ـ من أعاجم الصوفية ـ ادعاء العروج للسماء..

---

(١) إنباء الغمر جـ٣/ ٥٤٨: ٥٤٩.

(٢) الطبقات الكبرى للمناوى: مخطوط ٣٤٩ أ، ب.

حسنة وذلك فى سنة أربع مايه وأربعه الخراجية. وكان فى تلك السنة غلا عظيم حتى ابيع القمح ليلة الزيتونة بدينار ونصف الويبه وكان لا يباع إلا بالدنانير النزارى وقيمته يوميذ خمسه وثلثون درهماً ونصف بدينار، وكان الدينار نقد البلد الذى تتعامل به الناس قيمته ستة وعشرون درهماً فصار الدينار النزارى بدينار وربع وثمن نقد البلد، فلما آخرجنا الزيتونة تلك الليلة اتفق وصول شعير جديد بالغداة من البحيرة فصار القمح ويبه ونصف بدينار وثانى

• ادعاء الصعود للسماء:

يقول ابن اياس فى حوادث ٨١٩ (ظهر بالقاهرة شخص أعجمي يدعى أنه يصعد إلى السماء ويكلم البارى عز وجل فى كل يوم مرة، وأنه صرفه فى الكون، فاعتقده جماعة كثيرة من أهل مصر، فلما شاع أمره بين الناس رسم السلطان (شيخ) أن يعقد له مجلس بالمدرسة الصالحية، فاجتمع بها القضاة الأربعة فأراد المالكى أن يضرب عنقه فشهد جماعة من الأطباء بأن فى عقله خللاً فسجنوه ولم يثبت عليه كفر وصار مع المجانين[1]. وتمتع ذلك المدعى ـ كسابقه ـ بتصديق العامة حتى اهتم السلطان بأمره وتطلب الأمر عقد جلسة للتحقيق فى صدق دعواه وانتهت قصته النهاية المعروفة وهى تخليصه من القتل بحجة الجنون. فكان الإدعاء سهلاً فى بدايته وعاقبته..

وقد حضر ابن حجر محاكمة ذلك الصوفى الأعجمى، يقول أنه فى مجلس سماع الحديث بالقلعة مع السلطان سئل عن الحكم فى شخص يزعم أنه يصعد إلى السماء ويشاهد الله تعالى ويتكلم معه فاستعظموا ذلك، فأمر السلطان بإحضاره ـ ووصف ابن حجر الرجل ـ وقال أن السلطان (سأله عن أمره فأعاد ذلك وزاد بأنه كان فى اليقظة وأن الذى رآه على هيئة السلطان فى الجلوس وأن رؤيته تتكرر مراراً كثيرة، فاستفسره عن أمور تتعلق بالأحكام الشرعية

(١) تاريخ ابن اياس جـ٢/ ٢٨ : ٢٩، ٢، جـ٢/ ٤.

يوم ويبتين بدينار وبعد عشرة أيام صار أكثر من أردب بدينار وتزايد الرخا وزال الله الغلا برحمته ورأفته وتحققو المسلمين باسكندرية أن ذلك ببركة خروج الزيتونة وتطوافها فى البلد وصارو يفرحو بخروجها فى كل سنة فى ليلة عيد الشعانين إلى الآن.

ثم أن إبليس باغض الخير طرح سجس آخر وألقى فى نفس راهب يسمى فلوطس أن طلب

فظهر أنه جاهل بأمور الديانة، ثم سئل عنه فقيل أنه يسكن خارج باب القرافة تربة خربة، وأن لبعض الناس فيه اعتقاداً كدأبهم فى أمثاله) فاستفتى السلطان العلماء (فاتفق رأيهم على أنه إن كان عاقلاً يستتاب فإن تاب وإلا قتل. فاستتيب فامتنع، فعلق المالكى الحكم بقتله على شاهدين يشهدان أن عقله حاضر، فشهد جماعة من أهل الطب بأنه مختل العقل، فأمر السلطان به بأن يقيد فى المارستان فاستمر به، ثم اطلق بعد موت السلطان)[(١)].

وحدث أن كان السلطان فى عام ٨٢١ يتفقد أحوال المجانين فى المارستان المنصورى، فقام إليه ذلك المدعى فكلم السلطان أن يفرج عنه فلم يجبه[(٢)].

وسهولة الإدعاء والتهاون فى العقاب شجعت البعض على إعلان التحلل من التكاليف الشرعية بدعوى المنامات، كما حدث من الشيخ شمس الدين الميمونى حين قال «قد اباح لى سيدى اللواط والخمر والحشيش والفطر فى رمضان»، وشهد عليه جماعة وثبت ذلك عليه، فاعتقل وأحضر إلى مجلس السلطان وفيه ابن حجر فأفتى بأن فى عقله خللاً، وأعلن الميمونى توبته من رؤيا المنامات[(٣)].

(١) إنباء الغمر جـ٣/ ٩٩.
(٢) إنباء الغمر جـ٣/ ١٦٣.
(٣) إنباء الغمر جـ٣/ ٣٤٩.

الاسقفية من الاب اخرسطودلوس فلم يفعل فرفع فيه رقاع للسلطان فمنعوه قوم من الأراخنة بمصر وهم أبو اليمن ابن مكراوه ابن زنبور(*) وابو الطيب الزراوى وأبو السرور يوحنا ابن يوسف الابح وعدلوه واردعوه عن ذلك فارتدع زماناً ثم تجدد السجس بينه وبين البطرك وعاد إلى مواصلة الرفيعه [الوقيعة] فيه عند السلطان إلى أن قبض عليه فوجدو له في داره بدمرو حوض فيه ستة ألف

(*) ابن مكراوه: هو أبو سعد منصور ابن أبي اليمن ابن سورس ابن مكراوه ابن زنبور. كان أبوه ناظر الريف. تقلد الوزارة أياماً قليلة ولقلب بلقب «الأجل الأوحد المكين السيد الأفضل الأمين عميد الخلافة محب أمير المؤمنين». هرب عام ٤٥٨هـ = ١٠٦٥م بسبب مطالبة الجند لرواتبهم ثم تمردهم على الخليفة

وامتد الأمر للمماليك فقيل في ازدمر الطويل أنه (كان يخوض فيما لا يعنيه مع سوء عقيدة، واستخفاف بأمور الديني، ويميل للمتصوفة)(١).

***في الريف:**

وإذا كان هذا الحال في القاهرة ـ حيث السلطان والقضاة والعلماء.. فالحال في الريف أشد، ومع الأسف فإن جل اهتمام المؤرخين انصب على تتبع أخبار القاهرة دون غيرها من المدن الهامة، ولا نقول الأرياف حيث الجهل أشد إظلاماً وسيطرة التصوف أعتى استحكاماً. على أن بعض حوادث الزندقة ـ حين زادت وفاضت ـ وصل أمرها إلى علم المسئولين بالقاهرة، يقول أبو المحاسن في حوادث سنة ٨٦٦ (ورد الخبر من كاشف الغربية وغيره بأن في قرية ططية بالوجه الغربي من أعمال القاهرة جماعة زنادقة، وفيهم من ادعى الألوهية، ومنهم من ادعى النبوة، وانضم عليهم جماعة كثيرة من أوباش الناس، ومالوا إلى معتقدهم، ووقعت منهم أمور شنيعة، وإن الكاشف أمسك منهم نحو أربعة عشر نفراً، فأرسل السلطان إليهم القاضي ابن الوارث أحد نواب الحكم المالكية والناصر محمد الخازندار لينظروا في حقيقة أمرهم ويفعل فيهم مقتضى الشرع.. وأحضر الزنادقة فأنكروا أمام السلطان فحكم القاضي بتعزيرهم..)(٢).

---

(١) الضوء اللامع جـ٢/ ٢٧٣: ٢٧٤.

(٢) حوادث الدهور جـ٣/ ٤١٩: ٤٢٠.

دينار مشدودة فى ردآ أحمر فأخدوها وسارو بها معه إلى مصر، فاجتمعوالأراخنة وتسببو فى أمره إلى أن رفع عنه الترسيم وحمل المال المذكور إلى بيت المال وعاد البطرك إلى دمرو بعد أن لحقه مرض النقرس بمصر. وكان يوفى السكندرانيين ما يصرفون فى عمارة بيعهم وقرابينهم ثلثماية وخمسين دينار فى كل سنة عن الرسم المستقر لهم على البطاركة ويحملها لهم قبل أن يطلبوها منه، ولما عزل حصن الدولة ابن ميروا المذكور عن ولاية

المستنصر بالله سنة ٤٦٠هـ =١٠٦٧م. انظر كذلك الملحق السفلى ص١٠٥١.

فأولئك كثرة ادعى بعضهم الألوهية وآخرون النبوة.. وبعث بأمرهم (كاشف الغربية وغيره)، وذلك لأن أتباعهم كثروا (ووقعت منهم أمور شنيعة) ولعل مصادمات حدثت بينهم وبين الكاشف إذ أنه (أمسك منهم نحو أربعة عشرة نفرا) فقط.. أى لولا تجاوز حركة أولئك الزنادقة دور الدعوة القولية إلى الدور الحركى ومناوأة السلطة الحاكمة ـ لولا ذلك لما عرفت القاهرة بأمرهم ولما سجلت ذلك حوليات التاريخ.. ومعنى ذلك أن مدعى الألوهية والنبوة فى الريف فى مأمن من السلطان ومن الرصد التاريخى طالما اقتصروا على الدعوة لأنفسهم ثم إن الزندقة تحولت بعد القرن التاسع إلى شطحات يقولها المجذوب كيفما شاء وفى أى وقت بدعوى غيابه عن الوعى فتكاثر المجاذيب فى ذلك الوقت.. وأرخ لهم الشعرانى[1]. إلى ذلك الحد بلغ اضطراب العقيدة الدينية فى العصر المملوكى بأثر التصوف، ولنضرب بعض الأمثلة:

١ـ يارب سلم الحيطة بتتكلم سنة ٧٨١:

ففى هذا الجو المقفر من عقيدة صحيحة حيث الناس على استعداد للإعتقاد فى أى شىء ولو كان حجرا صلدا ـ أتيح لبعض الصوفية أن يعبث بعقول الناس ومعتقداتهم ويتجلى ذلك فى واقعة (الحائط الذى يتكلم)، وبطلها صوفى كان يتمتع بتقديس برقوق وهو الشيخ عمر ركن الدين (وقد كان الناس يتبركون به ويزورونه لمدة ثلاثين عاما)..

(١) ترجم الشعرانى للأكثرية منهم فى الطبقات الكبرى فى نهاية الجزء الثان، وهى (ظاهرة) أن يكون أكثر الصوفية المعتقدين المقدسين فى القرن العاشر من المجاذيب.

اسكندرية تولاها بعده المنحب [المنتخب] نصر الملك أبى على ملهم وكان رجلا عاقل وإنما غلط على نفسه وفعل فعلا كان سبب ميتته وذلك انه بات في بيعة القديس مارى جرجس الشهيد [و] بلد [نام] داخل بيت المذبح الذى قبره تحته مع غلام له امرد فظهر له فارس وهو الشهيد مارى جرجس ولم يزل يضربه برمحه وهو يستغيث ويقول لغلمانه: يافعله أصيح ما تخلصونى من هذا

وموجز الحكاية أن امرأة اشتكت لذلك الصوفى سوء معاملة زوجها لها، فكان الصوفى يعظه ويوصيه بزوجته من خلف الحائط بحيث لا يدرى من المتكلم، واشتهرت الإشاعة بأن حائطاً يتكلم، وسار الصوفى فى الطريق إلى نهايته، فافتتن الناس بالحائط الذى يتكلم وتوافدوا عليه يسمعونه، يقول ابن حجر: (افتتن الناس به شهرين واعتقدوا أن المتكلم من الجن أو الملائكة، وقال قائلهم «يارب سلم الحيطة بتتكلم» وقال الشاعر ابن العطار:

يا ناطقاً من جدار وهو ليس يُرى
اظهر والا فهذا الفعل فتان

ويقول ابن اياس «اشتدت فتنة الناس بالحائط حتى كادوا أن يعبدوه من عظم ما افتتنوا به ويتخذوه معبداً لهم..» وكانوا يقدمون للحائط النذور والقرابين.. ثم اظهر المحتسب الحيلة وعوقب الفاعلون[1]..

٢ـ زندقة بعض الفقهاء:

وتأثر بعضهم بهذا الجو المنحل عقيدياً فاعتاد التلفظ بالكفر مع وصفه بالعلم والفضل، ولكن وقف لهم الصوفية بالمرصاد وكأنما عز عليهم أن ينافسهم أعداؤهم فى ميدان الزندقة

(١) إنباء الغمر جـ١/ ١٩٨ : ١٩٩، السلوك جـ٣/ ١/ ٣٦١ : ٣٦٤. النجوم الزاهرة جـ١١/ ١٧٢ : ١٧٣، ابن اياس جـ١/ ٢/ ٢٤٦ : ٢٤٧.

الفـارس ليـلا يقـتلنى هوذا هو مـواصل عـقـربتى
برمـحـه. فـقـالو له: يا مـولاى يعـيـذك الله الأبواب
مغلقة وما دخل إلينا أحـد. فـمات لوقتـه. وكـان
يظهر لنا من رأس القديس مرقص لما أخذته عندى
عـجايب عظيمة منها أن أخى أبو العلا [فهد] نيح
الله نفسه كان قد شك فى . فلما نمت تلك الليلة
ظهرلى القديس مارى مرقس وقال لى : أخوك فهد
قـد شك فى. فلمـا أصبـحت أعلمت أخى بذلك

والشطحات.. فقد ذكر العينى فى حوادث ٧٢٠ مقتل اسماعيل الزنديق.. وقد اشتهر بين الفقهاء بالعلم والفضيلة والأدب مع كثرة الهزل والتلفظ بالكفر حتى لقب بالزنديق، فوقع فى بعض الأيام فى حق النبى لوط عليه السلام، فشهد عليه جماعة وعقد له مجلس عند ابن الأخنائى المالكى فادعى اختلال عقله،، وهى الحيلة المأثورة فى هذا المجال ـ فتوقف المالكى فى أمره.. ولكن لم يسمح الصوفية له بالجنون والإفلات من القتل. فادعى صوفى أنه رأى النبى محمد ﷺ فى المنام يأمره أن يقول (قل للأخنائى يضرب عنقه فإنه سب أخى لوطا) فحكم القاضى بضرب عنقه، وفى صبيحة مقتله رأى صوفى آخر النبى ومعه لوط عليهما السلام فى منام يؤكد الدعوة لمقتل اسماعيل الزنديق فتم تنفيذ الحكم فى ذلك الفقيه بين القصرين[١].

٣ـ حوادث الردة بين العامة والمماليك:

كان بعض المسيحيين يدخل الإسلام طمعاً فى منصب أو تخلصاً من ورطة وقع فيها ثم اعتاد بعضهم الرجوع والارتداد إلى دينه، بل ارتد بعض العامة المسلمين عن الإسلام ولم يوافقوا على العودة إليه[٢].. وفى تجريده حربية إلى جزيرة رودس ارتدت طائفة من المماليك ورجعت إلى النصرانية[٣]..

(١) عقد الجمان مخطوط حوادث ٧٢٠ لوحات ٢٣٩ : ٢٤١. نهاية الأرب مخطوط جـ٣٠/ ١٣٥.
(٢) تاريخ ابن اياس جـ١/ ٢/ ٣٢٤.
(٣) تاريخ ابن اياس جـ٢/ ٢٣٨ تحقيق محمد مصطفى.

وكنا في بيعة أبو سرجه أنا وهو وخالي صدقه ابن
سرور والراهب أبو يعقوب فلما سمع قولي تعجب
وارتعب واعترف بما خامر قلبه وأعلمنا ما كان منه
ومضى إلى حيث رأس القديس وصلا وبكا وسأله
الصفح عنه. ولما كان في برموده سنة ثلثة
وخمسين واربع ماية الخراجية ظهر نجمين عظيمين
دوايبنه [لها اذناب] يسمى أحدهما سفود
[سعود]والآخر فانوس، فالاول منها ظهر في آخر

إلا أن أهم أثر للإضطراب العقيدى الذى أحدثه التصوف في العصر المملوكي يتجلى في شيوع التكفير أو سهولة الإتهام بالكفر، على خُطورة ذلك الإتهام الذى يستوجب الحكم بالقتل عندهم.

شيوع التكفير:

١ـ شاع القول بالكفر بين الصوفية وغيرهم.. وتولى القضاة عقد المحاكمات لقائلي الكفريات، وفي جو يعمه الجهل والتعصب وحدّة العاطفة وكثرة الدسائس والحروب بين الصوفية والفقهاء وتدخلات السلطة المملوكية والنزاع المستمر بين القضاة ــ مع انعدام التقوى الذى لدى القضاة وتأثرهم بالتصوف وانحلاله .. وحرص الصوفية على النيل من أعدائهم الفقهاء.. ــ في هذه الظروف، انتشر الاتهام بالكفر، وكثر عقد مجالس الحكم وكانت تصدر أحكام القتل أو التعزيز حسب الظروف السياسية أو مقتضيات الأحوال العادية من الميل أو النفور بين القاضي والمتهم وتدخلات الأطراف الخارجية من الصوفية والأمراء المملوكية، كما ظهر في حوادث سابقة عرضنا لها، وسنعرض الآن لشيوع التكفير في العصر المملوكي بين العامة وفي مجتمع الفقهاء.

٢ـ وقد كان أحدهم يقرأ في رياض الصالحين، فشك في البعث وكيفياته فشُهد عليه

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

الليل مابين الشرق والقبلة، والآخر ظهر في آخر النهار ما بين الغرب وبحرى من حيث تغيب الشمس في ذلك الشهر ، وكان نجم عظيم يشبه القمر ليلة تمامه، وظهر أيضاً ثانى يوم بحيث تكون الشمس في ثامن ساعة من النهار وتوقدت دواييه [أذنابه] حتى صار كأنه الفانوس إذا وقد فيه الضو وظهر ثالث يوم وقد ارخا دوايب عظيمة رأيتها بعينى إلى الشرق والقبلة بحيث طلع [تبع]

وعُقد له مجلس فجدد إسلامه وحقن دمه[1].. وقال البرهان بن جماعة فى مجلس: قال الله تعالى فى كتاب العزيز: ضعيفان يغلبان قوياً.. فعقد له مجلس، ولم يصبه بضرر[2] وقال آخر إن التوراه والإنجيل بحالهما لم يبدلا، فعزر[3]. واعتبر الشريف المكرانى الزاهد من قال أن الرؤيا خيال باطل فهو كافر[4].

تقديس الولى الصوفى فى مصر المملوكية

أولا أنواع الأولياء الصوفية ودرجاتهم:

* بين القطب وأعوانه، الخضر، المجاذيب، أرباب الأحوال، أصحاب النوبة.

ثانيا :مهام الأولياء: الحملات، النظرة واللحظ والبركة.

ثالثا :الاعتقاد فى كرامات الأولياء الصوفية:

- الكرامات فى فكر الخاصة واعتقاد العامة فى العصر المملوكي.
- دراسه فى أساطير الكرامات فى العصر المملوكي.
- أصناف من أساطير الكرامات.

(١) حوادث الدهور ٣١.
(٢) تاريخ البقاعى ٣٧ مخطوط.
(٣) تاريخ الجزرى جـ١/ ١٧.
(٤) التبر المسبوك ٣٧٠.

النجم الأول لأن دوايب الأول كانت تتوقد وتفترش إلى حيث طلع الثاني، ودوايب الثاني كانت إلى حيث طلع الأول. ومن بعد ظهور هذين النجمين كثرت خطايانا وذنوبنا وتزايد طنخنا وبذخنا حتى أن جماعة ثقات من المسلمين والنصارى أبصروا بأعينهم الدموع تجرى من أعين بعض الصور التى فى الكنايس منها صورة مارى جرجس في كنيسة قرية تسمي دمول من قرى

---

* مدخل: جعل الصوفية لأنفسهم مملكة وهمية وزعوا فيها الوظائف بين الأولياء، واختلفوا في التوزيع وفى الألقاب فى تلك المملكة الوهمية.

كما جعلوا للأولياء وظائف ومهاما، كأن يقوم أحدهم بتحمل المصائب عن الأخرين، أو «الحملات» أو كأن يشمل الآخرين ببركته بالنظرة وبالبركة.. وينبع ذلك كله من اعتقاد العصر في كرامات الأولياء وقدرتهم ـ المزعومة ـ على التصريف في الكون وفي الناس.

وهو موضوع طويل، ذلك الذى يتحدث عن أنواع الأولياء الصوفية ومهامهم وكراماتهم، ونحاول هنا اختصاره، لتأكيد ما ساد في العصر المملوكي من تقديس للولي الصوفي والاعتقاد في مؤهلاته الإلاهية التى يتفوق بها على النبي، والتي لم يعرفها المسلمون فى عصر النبي.

أنواع الأولياء الصوفية ومهامهم وكراماتهم

أولاً: أنواع الأولياء الصوفية ودرجاتهم:

*** بين القطب وأعوانه:**

القطب عند صوفية العصرالمملوكي هو الذى عليه مدار الكون ولأجله وجد الكون وعليه مدار كونية الدارين، ولكل عصر قطب، وقطب الأقطاب هو الذى لم يكن قبله ولا بعده مثله،

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

أبوان وصورة السيدة وصورة الملاك ميكايل فى كنيسة تونه، أخبرنى بذلك مقاره الراهب تلميذ القديس بسوس بدير أبو كما المشهور قدسه وحسن سيرته، فضرب ديار مشر [وادى النطرون] باداب [بكوارث] عظيمة صعبة جداً، فأول ذلك حدوث زلزلة عظيمة ضحى نهار يوم الثلثا ثانى الفصح حتى أنها أقلبت عدة مواضع بالرمله وتنيس وغيرها، ولم يكن لها تأثير باسكندرية وكان بعدها وبا [وباء] كثير حتى لم يبق فى تنيس من الألوف

والأوتاد أربعة على أربع جهات العالم، والأبدال سبعة على حكم أيام الأسبوع، وللقطب رجلان عن يمين وشمال[1]، وأنكر ابن الحاج مغالاة الناس فى قولهم هذا قطب وهذا بدل لأنه يرى أن القطب واحد وقل من يعرفه[2]، وكان هناك دعاء مخصوص للأبدال[3]، وجعلوا الإمام الشافعى أحد الأوتاد الأربعة[4]، ونسب إلى على بن أبى طالب قوله «البدلاء بالشام، والنجباء فى مصر، والعصائب بالعراق، والنقباء بخراسان، والأوتاد بسائر الأرض، والخضر سيد القوم». ورووا أن الخضر قال ثلاثمائة هم الأولياء، وسبعون هم النجباء، وأربعون هم أوتاد الأرض، وعشرة هم النقباء، وسبعة هم العرفاء، وثلاثة هم المختارون، واحد منهم القطب الغوث»[5].

*القطب:

١ ـ اختلفت الصوفية فى صفاته فجعل له الشاذلية خمس عشرة علامة إلا هية[6]، و جعل الخواص من علامته كثرة تحمله للبلايا والإنكار عليه، فإن جميع بلاء أهل الأرض ينزل

(١) النويرى الإلمام ١ لوحة ١٧٨، الشعرانى: اليواقيت والجواهر ٢/ ٨٤، الكبريت الأحمر ٤/ ١١.
(٢) المدخل ٢/ ٢١٠ ـ ٢١١.
(٣) ذكر فى مناقب المنوفى ٣١.
(٤) لواقح الأنوار للشعرانى ٢٤٤.
(٥) روض الرياحين لليافعى ص ٨.
(٦) الشعرانى «اليوقيت والجواهر»، جـ٢ / ٧٩، ٨٢.

التي كانوا فيها إلا تقدير ماية نفر، وان الدار بها يوجد كلمن فيها رقود على فراشهم [موتى] ومالهم وكل شيء لهم فيها، فتحمل من دورهم الأسرة والقباب والدكك والفروش والمال . وخليت [مدينة] الرملة ولم يبقا فيها أحد، ثم تفاقمت الأمور إلى أن قام حرب بين المشارقة [بني حمدان] والأتراك المتغلبين بمصر على ناصر الدولة ابن حمدان وحسنوا للسلطان [المستنصر بالله الفاطمي] أن أخرج [يخرج] خيمة

عليه أولاً ثم يتفرع منه [1]، أما الشعراني فيرى أن غالب الأولياء لم يجتمع قط بالقطب لعدم طاقته أن ينظر إليه [2]. ومن شأن المريد أن يلزم الأدب مع القطب ولايقول نحن خارجون عن دائرة القطب[3]، ومقام القطبية ثقيل لتحمل صاحبها أعباء الممالك الأرضية ملوكاً ورعايا [4].

٢ ـ وعند الدسوقية لا يصير القطب قطباً إلا إذا شرب من نهر الحياة عند جبل قاف سبع مرات. ولا يكون غوثاً إلا إذا شرب منه ألف مرة. ومن هذا النهر شرب الدسوقي والرفاعي والبدوي والجيلي[5]. وقد رأى الشعراني القطب بمعرفة أستاذه الخواص يبيع الفول الحار في أحد حواري القاهرة [6]، وجعل من صفات القطب الغوث الإكثار من النكاح، ويقول إنه رأى شخصاً يدعي القطبية يدخل الحمام في النهار ثلاث مرات فازداد فيه إعتقاداً وتعظيماً [7]

٣ ـ ورأى آخر القطب الغوث بمكة على عجلة من ذهب تجرها الملائكة في الهواء بسلاسل من ذهب، فسأله إلى أين؟ فقال إلى أخ من إخواني اشتقت إليه [8]، وقالوا (كان أبو العباس (ت ٨٦١) قطب وقته، وقد رؤى في مكة على كرسي بين السماء والأرض)[9].

(١) لطائف المنن للشعراني ٥٣٢.
(٢) لطائف المنن ٤٩٢.
(٣) الشعراني آدب العبودية ٣٣.
(٤) الشعراني «اليواقيت والجواهر» جـ٢ / ٨٣.
(٥) طبقات الشرنوبي مخطوط ٥,٤.
(٦) لطائف المنن ٣٨٣.
(٧) لطائف المنن ٢٦٨.
(٨) اليافعي روض الرياحين ١٨٧.
(٩) الطبقات الكبرى للمناوي مخطوط ٣٤١.

حمرا ضربت خارج باب القصر فى [الموضع] المعروف بباب الذهب، وأظهر سخطه على بنى حمدان ومن معهم، وكان بالقاهرة ومصر منهم طايفة الاكراد وتقديرهم خمسة ألف رجل فصاح فيهم وفى بنى حمدان ومن معهم فى ذلك اليوم صايح حتى لم يبق منهم بمصر والقاهرة إلا يسير منهم قطعوا شعورهم واصداغهم واختفوا.

وقتل فى ذلك الوزير الخطير ابن الموفق المعروف بابن العجمى وجلال الدولة ابن

---

٤ ـ وأسرف كثير من الأولياء فى إدعاء القطبية، وأبرزهم المدرسة الشاذلية الذين اعتقدوا أن القطب منهم فى كل العصور[١]، واعترف بهذا الشعرانى [٢]، وزعموا أن الله تعالى قد جعل القطب الغوث من بيت الشاذلى إلى يوم القيامة[٣]، وزعموا أن الرسول قد بشر الشاذلى بالقطبية بعد موت أبى الحجاج الأقصرى[٤]، واشتهر فى الاسكندرية بأنه القطب الغوث[٥]، ومدحه البوصيرى فقال:

أفدى علياً فى الوجود وكلنا

بوجوده من كل سوء نفتدى

قطب الزمان وغوثه وإمامه

عين الوجود ولسان الموجد[٦].

أما خليفة الشاذلى أبو العباس المرسى فكان يرى أن القطب لا يلزم أن يكون شريفاً حسينياً، بل قد يكون من غير هذا القبيل، وقد قال «وما القطبانية بعيدة من بعض الأولياء

(١) دائرة المعارف١٣/٥٩.

(٢) آداب العبودية ٣٢.

(٣) تعطير الأنفاس ١٦.

(٤) تعطير الأنفاس ٤٦.

(٥) النويرى الإلمام بالإعلام جـ١ / ١٧٨.

(٦) ديوان البوصيرى ص ٧٣..

ملك بغداد وكان صديق بني حمدان ووصل ناصر
الدولة ابن حمدان ومن معه إلى اسكندرية
منهزمين وحالف قيس ولواته وأظهر النفاق،
وخرجت العساكر من مصر فى طلبه وكانو
مقدميها أمين الأمنا أبو اليمن سورس ابن مكراوه
ابن زنبور واخلع عليه وقلد [ه] سيف بحلية
ذهب فوق ذراعيه ولقب بسيد روويسا السيف
والقلم والأستاذ عزيز الدولة(*) زمام العبيد

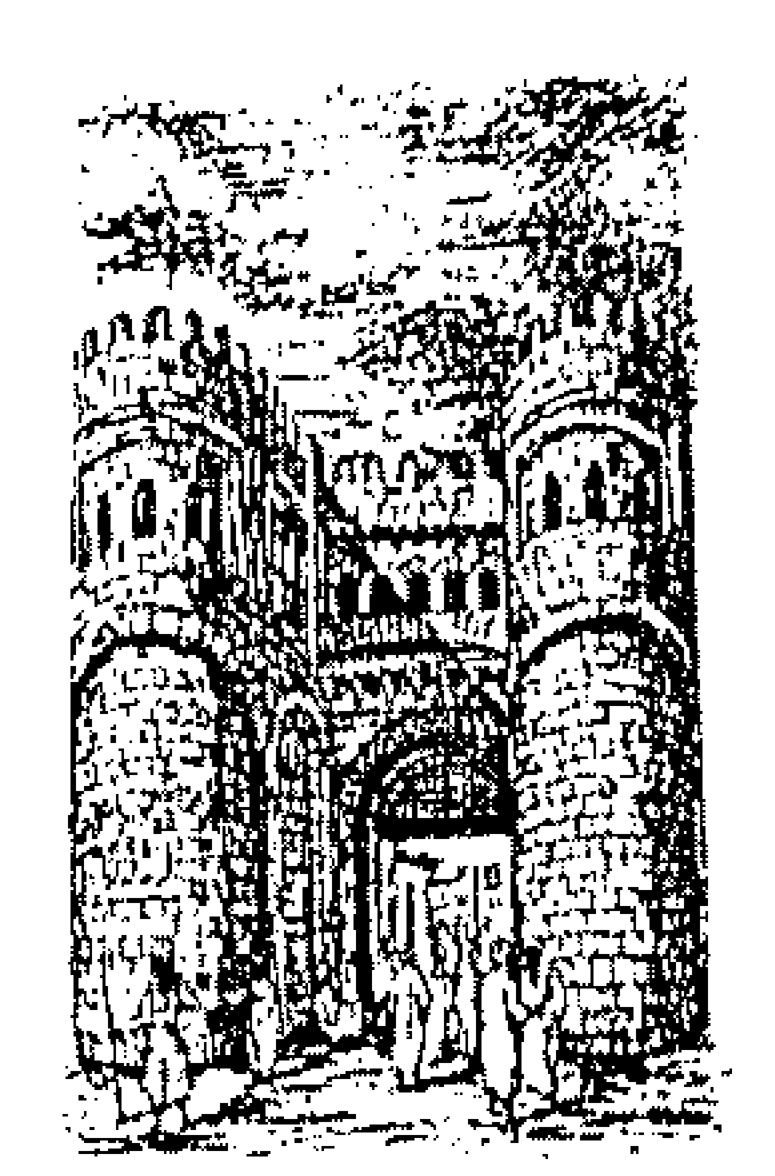
(*) عزيز الدولة ت: ت٤١٣هـ ١٠٢٢م فاتك بن عبدالله

وأشار إلى نفسه»(١)، ذلك أنه ينتمي إلى الأنصار، وذكر ابن عطاء بعض الكرامات التى تؤكد قطبية المرسى(٢).

٥ ـ وبالغت المدرسة الدسوقية في ادعاء القطبية، فادعت أن الله جعل الدسوقى قطباً قبل بناء البيت والحرم، وأنه اجتمع بالقطب الفرد وهو ابن سنه، وخدمه القطب وهو ابن عامين، وتقطب قطب المحبة وهو ابن عشر سنين، وقطب الفردانية العظمى وهو فى الرابعة عشرة، وسقى رجلاً من شرابه قدر درهم فتقطب، وأعطى تفاحة من غير واسطة، وناداه الله بألا يأكلها كلها حتى لا يحتكر القطبية لنفسه (٣)، وجعلوا الجيلى والرفاعى على مثال الدسوقى(٤)، وممن وصف بالقطبية من الأولياء «المنوفى (٥) وأبو القاسم المراغى (٦)، وأبو النجا الفوى شيخ الشعرانى، وقد شاع فى ليلة موته أنه القطب(٧)، وفتح على شمس الدين الحنفى بالقطبية بعد أن أخذ العهد على ابن الميلق، وقد قال الحنفى «إن القطبية مرت بنا ونحن شباب(٨)». وباختصار كان شيوخ الصوفية يتنافسون فى ادعاء القطبية ويتغنون فى توصيفها.

(١) تعطير الأنفاس ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣١.
(٢) لطائف المنن لابن عطاء ٥٨، ٥٩.
(٣) طبقات الشرنوبى مخطوط ١، ٤.
(٤) طبقات الشرنوبى ٧، ٨.
(٥) مناقب المنوفى ١١.
(٦) ابن الزيات الكواكب السيارة ١٨١.
(٧) الطبقات الصغرى للشعرانى ٦٥.
(٨) مناقب الحنفى مخطوط ١٢٨، ١٢٩، ٢٧٩ ـ ٣٨٠.

الرومي. أبو شجاع: وال من رجال الحاكم بأمر الله. أرمني الاصل. كسان غـلامـاً لبنجوتكين مولى العزيز صاحب مصر. تولى حلب ولقب امير الامراء عزيز الدولة، وتاج الملك. فدخل حلب في رمضان ٤٠٧. صنف له أبو العلاء المعرى «رسالة الصاهل والشاحج» في أربعين كراسة. انقلب على الحاكم الفاطمى ودعا لنفسه، فأرسل له الحاكم الجيوش لاخضاعه سنة ٤١١. فارسل عزيز الدولة إلى ملك الروم باسيل بالقسطنطينية يستنجده فاقبل ولكنى موت الحاكم أوقف زحف باسيل. ثم جاءته الخلع السلطانيه من «الظاهر» الذى خلف الحاكم ولكنه سرعان ما قتل على يد احد مماليك.



---

*الخضر:

١ ـ عده بعض الصوفية رتبة عليا في مملكتهم: «فإذا مات القطب الغوث ولى الخضر من يكون (قطبا) بمكة (غوثا)، وجعل (بدل) مكة (قطبا)، وهكذا أبداً، فإن مات الخضر صلى الغوث في حجر اسماعيل.. فتسقط عليه ورقة باسمة فيصير خضراً ويصير قطب مكة غوثاً»[1]. والصوفية ادعوا أن صاحب موسى المذكور في سورة الكهف (٦٥ : ٨٢) هو الخضر، وهو يحيا حياة أزلية، وليس مجرد رتبة صوفية، ومع أن ملامح صاحب موسى تؤكد أنه كان نبيا، فالله تعالى لا يعطى العلم ببعض الغيب إلا للأنبياء (آل عمران ١٧٩، الجن ٧٦، ٢٧)، ولكن افتتن الصوفية بجعل صاحب موسى ولياً وليس نبياً حتى يحقق أمنيتهم في أن يكون الولى خيراً من النبى ويقوم بتعليم النبى. ونأتى للعصر المملوكي لنجد ابن إمام الكاملية (ت ٨٧٤) قد وضع رسالة في حياة الخضر[2]، ونجد اليافعي يحاول إثبات حياته الأزلية [3]، ونجد على وفا يؤكد أن لكل ولى (خضرا) يمثل روح ولاية ذلك الوالى [4]، ويقول العشرانى في رسالته عن الخضر «أجمع أهل الكشف أى العلم اللدنى قاطبة على حياة الخضر وقت

(١) الدرر الكامنة جـ٢/ ٤٨٣، ٤٨٤.
(٢) البدر الطالع جـ٢/ ٢٤٤.
(٣) روض الرياحين ٢٧٣.
(٤) الشعراني. الطبقات الكبرى جـ٢ /٢٨، الطبعة القديمة.

ونجاح الدولة بغرا(*) وناصر الجيوش ابن أسد الدولة بلدكوش ووصلو إلى محلة الأمير ولأجل كثرة هولآ المقدمين فى هذا العسكر اختلفو ولم يتفق رأيهم وصار كل واحد منهم لايتبع رأى الآخر وإن كان فيه الصواب، فلم يفلحو ولا ظفرو بشئ لاختلافهم وتبددت الرجال عنهم لسو رأيهم وفساد تدبيرهم وقلة اتفاقهم، فقوى عليهم بنى حمدان والذين معه وهزموهم واستأسروهم

(*) هو جيش الكتامى ت ٣٩٠هـ = ١٠٠٠م [نجاح الدولة] بغرا. جيش بن محمد الكتامى المغربى، أبو الفتح: أمير، ولى نيابة دمشق لصاحب مصر ثلاث مرات فى أيام الفاطميين . وكان جبارا سفاكاً للدماء مات بالجذام.

إجتماعنا به، وقد اجتمع بعمر بن عبد العزيز، وأبى عبدالله البسرى، والشيخ عبد الرازق، وإبراهيم الخواص، وأبى يزيد البسطامي، وابن عربى، وأبى عبدالله القرشي، والشاذلى، والمرسى، وياقوت العرش» (١)، ويبدو أن الشعرانى قد استقى آراءه تلك من ابن عطاء (٢). إذ كان الكثيرون يدعون رؤية الخضر في المنام، ولم نجد عالماً فى العصر المملوكي أنكر حياة الخضر بل اعتقدوا صدق بعض من ادعى رؤيته فى المنام، يقول ابن الحاج «ومنهم من يدعى رؤية الخضر ويؤكد ذلك باليمين.. وذلك كله تقول وافتعال.. مع أن هذا لا ينكر إذا وقع من أهله في محله» (٣)، وعلل ابن تيمية كثرة من يدعى رؤية الخضر حتى من اليهود والنصارى ـ «وهم كثيرون صادقون» ولكنهم يرون الجان ولا يرون الخضر (٤). والاعتقاد في وجود الخضر مستمر حتى عصرنا الحالى كأثر من العصر المملوكي، يقول أحمد أمين (يعتقد بعضهم أنهم رأوا الخضر يقظة وخاطبوه وخاطبهم، ويزعمون أنه شرب من عين الحياة فلم يمت من عهد موسى إلى اليوم، وأن الأولياء الصالحين يرونه جهاراً ويخبرهم بالمغيبات، واذا ذكروه قالوا عليكم السلام إيهاماً بأنه مر عليهم وسلم عليهم (٥)، أى نجح التصوف فى التأكيد على

(١) الميزان الخضرية للشعرانى ص ١ .
(٢) لطائف المنن لابن عطا، ٤٧ ـ ٤٩ .
(٣) المدخل جـ٢/ ٢٠١، ٢٠٢.
(٤) ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل جـ١ / ٧٢.
(٥) قاموس العادات والتقاليد المصرية ١٩٣ ـ أحمد أمين.

وملكو بلاد الريف كلها الشرقية والغربية ونهبوها وأخربوها وقتلوا اهلها وهتكو الحرم وذبحو الأولاد على بطون أمهاتهم وعلى ظهور ابايهم ونهبو البيع واخربوها وكشطو وجوه الصور[الايقونات] التي بقيت فيها، وأخذو اللواتيين الاب البطرك انبا اخرسطودلوس من داره ونهبو جميع ما فيها وأخدو له مال كثير جدا. وكان يقول أنه لمارى مرقس الانجيلى والقديس أبو مقار ولم يقنعهم ذلك حتى

وجود الخضر حياً لا يموت، مع أن الله تعالى يقول للنبى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، أفإن مت فهم الخالدون؟ كل نفس ذائقة الموت.. الأنبياء ٢٤، ٢٥).

٢ ـ وقد وضع الشعرانى شرطاً لمن يريد الاجتماع بالخضر[١]، وقد تنافس الصوفية فى دعوى الاجتماع بالخضر واشتهر منهم على النبتيتى (ت ٩١٧) فى عصر الشعرانى [٢]، فنقل عنه الكثير من ادعاءاته[٣]، وسبق النبتيتى فى هذه الشهرة ابن الكبش بنحو قرن، فكان يجتمع بالخضر فى غالب الأوقات [٤]، وقبله أيضاً سليمان البسطامى (ت ٧٨٦) «وله فى ذلك أخبار كثيرة يستنكر بعضها» [٥]، وذكرت لقاءات للشاذلى مع الخضر [٦]، وكان الخضر يحضر مجلس شمس الدين الحنفى، ويشيعه للخلوة [٧]، وممن اجتمع بهم أيضاً عبد المحسن الواردى وأبو السعود بن أبى العشائر [٨]. وللخضر دور فى الحكايات الصوفية عن الأولياء

(١) الميزان الخضرية ١٦، ١٧.

(٢)، (٣) الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٠٨ ـ ١٠٩، لواقح الأنوار : ٢١١.

(٤) الكواكب السيارة ٢٦١ : ٢٦٢ ابن الزيات.

(٥) ابن العماد الحنبلى شذرات الذهب ٦/ ٢٩٠.

(٦) تعطير الأنفاس : ٣، ٣١، ٢٣٣، ٢٣٤، الطبقات الكبرى للمناوى ٢٩٤.

(٧) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢ / ٨٩.

(٨) الكواكب السيارة ٢٤٦، ٣١٧.

عـاقبـوه وعلقـوه بمذاكـره حتى صـارو تقـدير الجره الكبيرة. ولم يزل ناصر الدولة ابن حمدان بسوال كـاتبـه أبو الطيب ابن يحنس الزراوى مع اللواتيين يلطف بهم إلى أن اشتـراه منهم بثلثة ألف دينار، وزن أبو الطيب منهـا من عنده وعند غـيـره ألف دينار وانفـذه إلى اسكندرية مـحـتـاطاً عليـه إلى أن يقوم بألفي دينار البـاقية، فلما وصل إليهـا نزل في بيعة أبو سرجه وخاطب أولاده فيما هو فيـه فاعتذر

المجـهـولين[1]. وكان الإيمان بالخضر عاماً في هذا العصر من القضاة والعوام، فادعى شيخ الإسلام سراج الدين العبادى (ت ٨٧٧) أنه كان يجتمع بالخضر[2]، وكان قاضي القضاة البسـاطى يدعى ذلك[3]، وكانت جنازة ابن حجر هائلة حتى قيل إن الخضر حضرها[4]، وهكذا أرغم الخضر على المشاركة حتى في الجنازات الهامة.

• المجاذيب

اعتبرهم ابن خلدون نوعاً من الأولياء مع سقوط التكاليف[5] عنهم، إلا أنه عاد فاعتبرهم دون مرتبة الإنسان فلا يلحقون بالأولياء[6]، وفـضل ابن عطاء المجـذوب على السـالك لأن الأول طويت له الطريق ولم تطو عنه[7]، أى أن المجذوب اختاره الله واختصر عليه الطريق، أما السـالك فقد تركه الله يقطع الطريق ويسلكها بنفسه. وعلل الشعراني سبب ذهاب عقلهم بالتـجلي الإلهي الذى أتاهم على غـفلة فذهب بعـقولهم، وجعـلهم الشـعـراني عـلى ثلاثة

(١) روض الرياحين في حكايات الصالحين ١٧٤، ١٧٥.

(٢) إنباء الهصر ٤٨٥.

(٣) ذيل بن العراقي مخطوط ٢٥.

(٤) التبر المسبوك للسخاوى ٢٣٣.

(٥) مقدمة ابن خلدون ١١٠، ١١١.

(٦) شفاء السائل في تهذيب المسائل ٨٨ وفي هذا الكتاب ناقض ابن خلدون ما قاله عن التصوف في المقدمة.

(٧) لطائف المنن ١١١.

بعضهم بالغلا وما الناس فيه فقام مغضباً وقال: إذا قعدتم عنى مضيت إلى القاضى صدقه والى النوبه والى بنى هريسة والمسلمين وأقترض منهم وأتصدق. فمسكوه والتزم بعض أولاده أمره وقاموا عنه بالذى بقى عليه وهو ألفى دينار، ولما تخلص وخرج من خوف المطالبة وفاهم [أعاد اموالهم] ذلك لأنه في مقامه باسكندرية أقسم عدة أساقفة وأخذ منهم ما أوفا به ما عليه، وكنت أنا موهوب [ابن منصور] الخاطى قد قمت عنه بالدنانير

أقسام تبعاً للورد الإلهى والعقل [1]. وتكون حالة المجذوب بحسب الحالة التى جذب فى أثنائها فإن جذب في حال قبض (أى اكتئاب) فعمره كله قبض، وان جذب في حال بسط فعمره كل بسط وضحك [2]، وساد الإعتقاد بأنهم يعيشون فى عالم آخر يقول ابن عنان «إن من شأن المجاذيب أنك ترى أحدهم ماشياً وهو راكب، وتراه يأكل فى رمضان وهو صائم لم يفطر، وتراه عارياً وهو مرتد لثيابه [3]» وهذا تصريح للمجذوب بأن يفعل ما يريد. وافتخر الشعرانى بأدبه مع المجاذيب وأرباب الأحوال مذ كان صغيراً، وقال المتبولى سلموا على أرباب الأحوال بالقلب دون اللفظ فإنهم فى حضرة لا يقدرون على خطابى أحد باللفظ [4]. وأوصى الشعرانى بعدم مخالطة المجاذيب لأنهم يعلمون السرائر والخواطر المذمومة [5]، أى يعلمون الغيب الذى لا يعلمه إلا الله تعالى ولما قتل العثمانيون بعض المجاذيب قال الخواص: طاب الرحيل من هذه الديار[6]».

يقول الدشطوطى يصف الجذبة «.. فحصل لى جاذب إلا هى وصرت أغيب اليومين والثلاثة ثم أفيق أجد الناس حولى وهم متعجبون من أمرى، ثم صرت أغيب العشرة أيام

---

(١)، (٢) الشعرانى اليواقيت والجواهر ١٥٥ ـ ١٥٦ وقد ذكر أمثله لذلك فى الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٢٠.

(٣) أخبار القرن العاشر ١٣٤.

(٤) لطائف المنن ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٥) البحر المورود ١٨٥.

(٦) أخبار القرن العاشر ٢١٠.

المستقرة عليه للبيع بحكم ما ناله وحملت عنه همها.

وبعد هذا تصعبت الأمور وملكت اللواتيين البلاد وقتلوا صارم الدولة أخو الأمير سنان الدولة ابن جابر الكتامي الذى كان والي مصر فى طنتنا [طنطا] فسمع أبو الطيب الزواوى بذلك فصعب عليه لأنه كان قديماً كاتب لأخيه بمصر وجآ إلى طنتنا وشتم اللواتيين الذى قتلوه فوثب على موسى

والشهر ولا آكل ولا أشرب.. فخرجت سائحاً إلى وقتي هذا»[١]. ولسهولة هذا الإدعاء كثر مدعو الجذب والولاية، وكان المجذوب يوصف عادة بأنه معتقد أى يعتقد الناس في ولايته وأحياناً بأنه مقصد للزيارة أى يقصده الناس بالتبرك[٢]، وكانوا يفسرون هذيانهم على سبيل الكشف وعلم الغيب [٣]، وكان المؤرخون يعللون اعتقاد الناس فى صوفى ما بأنه مجذوب ويقولون «لعوام الناس فيه اعتقاد لإندراجه عندهم في المجاذيب [٤]» و«.. حصل له نوع من الجذب فصار للناس فيه اعتقاد[٥]» و«.. يذكر بين العوام بالجذب ويعتقد لذلك»[٦].

٣ ـ وتمتع المجاذيب بتقديس المماليك لهم [٧]، وكان السلطان برقوق يعتقد في الزهورى

(١) الطبقات الكبرى للشعراني جـ٢/ ١٢٠ ، ١٢١.

(٢) من الصعب حصرهم في سائر المراجع وعلى سبيل المثال : المنهل جـ٣/ ١٨٧ ، النجوم جـ١١/ ١٣٨ ، ١٦/ ١٧٧ ، ١٩٥ ، ١٣/ ١٨ ، ابن اياس جـ٢/ ٢١١ط بولاق، ٣٨٦/٤، الضوء اللامع جـ١/ ١٨٤ ، ٥٠/٣ السلوك ٣ قسم ٢/ ٥١١، إنباء الغمر ٣/ ٢٦١ ، ٣/ ١٥٣ ، ٥٩/١ .

(٣) ابن حجر ذيل الدرر الكامنة مخطوط ٢٢ .

(٤) التبر المسبوك للسخاوى ٢٣٧ ترجمة الشيخ بكير ـ وورد في الضوء اللامع جـ٣/ ١٨ .

(٥) تاريخ ابن اياس تحقيق محمد مصطفى جـ٢ / ٣٦٥ ترجمة الشيخ الطوخي.

(٦) الضوء اللامع جـ٢/ ٢٦٠ ترجمة ابن المؤمنى.

(٧) لطائف المنن الشعراني ١٢٩ .

ابن القرن أحدهم فضربه بسيفه وبادر إليه بقيتهم فقطعوه بسيوفهم ورموه فى حفير.

ثم تزايد الغلا والخوف وعدم القمح إلى أن أكلوا الناس الميتة ثم أكلوا بعضهم بعضاً ومنهم قوماً أكلوا أولادهم(*)، وفنى الناس بالوبا والغلا والسيف حتى لم يبق منهم إلا اليسير، ولقى الناس بمصر وأعمالها من الشدايد والمصاعب والبلايا ما تطول السيرة بشرح بعضه.

(*) الشدة المستنصريه.

المجذوب حتى لقد كان الأخير يبصق فى وجهه [١]. ولما افتتح برقوق مدرسته دخل عليه مجذوب وأعطاه (طوبة) وأمره أن يضعها فى المدرسة، فوضعها السلطان فى قنديل وعلقه فى المحراب، يقول ابن اياس «فهى باقية فى القنديل إلى الآن» [٢].. ولا نجد أبلغ من وصف أبى المحاسن لإعتقاد الناس فى يحيى الصنافيرى يقول عنه «هو ممن سلم من الإنكار عليه وأجمع الناس على إعتقاده، وهو لا يفيق من سكرته، وكان الناس يترددون إليه فوجاً فوجاً من بين عالم وقاضى وأمير ورئيس، ولايلتفت إليهم، ولما زاد تردد الناس عليه صار يرجمهم بالحجارة، فلم يردهم ذلك عنه رغبة فى إلتماس بركته، ففر منهم وساح فى الجبال مدة طويلة» [٣]..

• أرباب الأحوال:

١ ـ شاع هذا المصطلح فى العصر المملوكى خصوصاً فى أواخره، ويقول الشعرانى إنهم (أعطوا فى الدنيا التقديم والتأخير والولاية والعزل والقهر بما لهم من دلال على الله) ويقول الدشطوطى «أرباب الأحوال مع الله كحالهم قبل خلق الخلق وإنزال الشرائع» [٤]. واحتج ابن

(١) إنباء الغمر جـ٢/ ٥٧، النجوم الزاهرة ١٣/ ١٠.
(٢) تاريخ ابن اياس تحقيق محمد مصطفى ٢/١ ـ ٣٧٣.
(٣) المنهل الصافى مخطوط ٤٨١/٥، النجوم الزاهرة ١١/ ١١٨ ـ ١١٩.
(٤) الشعرانى.. لواقح الأنوار ١٠١، ١٠٢.

ثم وصل إلى الاب انبــا اخــرسطودلوس وهو باسكندرية انسان من أهل البلينا صايغ اسمه بمون بكتاب من الأمير عدة الدولة مقرب ابن ماضى صاحب الواح [الواحات] إليه يسله أن يجعله أسقفاً وأشيع بوفاة انبا بسيليوس أسقف ارمنت فجعل الاب البطرك بمون المذكور اسقف على كرسى ارمنت عوضه واوسم رجلا اسمه بفام اسقف على الواح وذلك فى توت سنة سبع ماية

الحاج على مدعى ذلك من الصوفية المنحرفين: «ثم أنهم يولون ويعزلون فى تلك الأحوال ويخبرون بمنازل أصحابهم.. ولاشك أنها أحوال نفسانية أو شيطانية لأن الفتح من الله لا يكون مع ارتكاب المكروهات أو المحرمات»[(١)]، أما المرسى فيعلل تميزهم هذا بضعفهم عن كتم أحوالهم وضيقهم عن وسعها [(٢)]، وبالغ بعضهم فى إدعاءاته، يقول المتبولى: «وعزة ربى لتتوزع أحوالى بعدى على سبعين رجلاً ولايحملون» [(٣)] أى لن يستطيعوا تحمل الحملات مثله.

٢ ـ وقد يكون الحال بمعنى الإنفعال الصوفى الحاد، فالشيخ أبو الحمايل «كان يغلب عليه الحال فيتكلم بالألسن العبرانية والسريانية والعجمية، وتارة يزغرت فى الأفراح والأعراس مثلما تزغرت النساء، وإذا اشتد عليه الحال فى مجلس الذكر ينهض قائماً ويأخذ الرجلين ويضرب بهما الحائط [(٤)]»، وتمثل هذه الحالة إحدى درجات الجذب، وقد جمع بعض الأولياء بين المرتبتين مثل عبيد البلقينى الذى «كان من أرباب الأحوال والكشف، حصل له جذب فى أول عمره..» [(٥)].

---

(١) المدخل جـ٢ / ١٥١.

(٢) الشعرانى . الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٧.

(٣) الطبقات الكبرى. الشعرانى جـ٢ / ٧٦.

(٤) الطبقات الكبرى ـ الشعرانى جـ٢/ ١١٠، جـ٢ / ١١١.

(٥) الطبقات الكبرى ـ الشعرانى جـ٢/ ١٢٧.

سبعه وثمنين للشهدا، وسيرهما صحبة انبا جرجه
اسقف بطو ليكرسهما ويتوجه بكتابه إلى ملك
النوبه يلتمس فيه شيأ يسعفه به ليصرفه فيما تقرر
عليه للواتيين ويعلمه بما جرى عليه. فلما وصلو
إلى ارمنت وجدو اسقفها حيأ لم يمت أعنى ابا
باسيليوس وكان قديس روحانى، وحكى احد
أولاده وهو الآن قس اسمه مينا أنه كان فى زمان
الغلا لا يدع فى بيته خبز إلا ويتصدق به، وانه فى

---

٣ ـ وكان من السهل تعليل ما يصيب الأولياء من أمراض بأنها «حال» وقد عد الشعرانى من المنن معرفته بطب أرباب الأحوال[١].

واستغل أرباب الأحوال شهرتهم فى التسول واعتبروه حقاً لهم لأنهم يدفعون البلاء [٢].

* **أصحاب النوبة:**

١ ـ فى أواخر العصر المملوكى برزت تقسيمات عدة للأولياء، بالإضافة لما سبق مثل الكمل والعارفين وأصحاب الحضرة وأصحاب الوقت، إلا أن أصحاب النوبة هم الأشهر وهم الذين يحفظون أدراكهم (أى الأماكن التى يحرسونها) فى سائر الأرض وعليهم قضاء الحوائج[٣]. وحديث الشعرانى عنهم متناقض فهو يجعل نفسه أحياناً مساعداً لهم فيطوف بقلبه على جميع أقطار الأرض، وفى نفس الوقت يحرص على استئذانهم كلما خرج من بيته ليكون فى رعايتهم [٤]، فلا نعرف هل يعد نفسه منهم أم لا، ويذكر أن شيخه الخواص كان أحدهم ، ويتمتع بالتصريف فى ثلاثة أرباع مصر وقراها، وكثيراً ما يرسل الحوائج إلى الشيخ محسن المجذوب الذى جعله من أصحاب التصريف فى الربع الباقى، مع أنه «صاحب درك

(١) لطائف المنن ٣٥٥.. الشعرانى.

(٢) لطائف المنن.. الشعرانى: ٤٠.

(٣) لطائف المنن. الشعرانى ١٤٤، ١٥١.

(٤) لطائف المنن ١٤٤، البحر المورود ٨٩، ٩٠.

ليلة من الليالى طرقه رجل مستور فدق باب منزله فقال لولده هذا مينا اعطه خبز ولم يكن بقى عنده الا رغيفين فدفع له منهما رغيف، ثم قرع الباب اخر فدفع له بعض الرغيف الاخر وبقى بعضه فلما هم ان يفطر عليه قرع الباب اخر فضجر ولده المذكور كما قال عن نفسه فالزمه ان يدفع بقية الرغيف للذى قرع الباب فدفعه له وبقى بلا شى يفطر عليه، فلما كان بعد وقت من الليل قرع

بحــــر الهند»[1]، ثم يذكر أن أصحاب النوبة كانوا فى صراع مع الخواص، يعارضهم ويعارضونه، وانتهى الصراع بمقتل الخواص[2].

أما الشيخ محيسن فقد أعطبوا رجله[3]، ومن السهل تفسير هذا التنافس بالصراع المحتدم بين الأولياء فى نهاية العصر حول المريدين والنذور والنفوذ.

٢ ـ وقد احتج الشعرانى على منكرى أصحاب النوبة ووصفهم بأنهم لم يدخلوا دائرة الولاية قط فلو دخلوها لعرفوا أهلها[4]، ووصف الخواص وأبو الفضل الأحمدى بمعرفة أصحاب النوبة فى سائر أقطار الأرض ومعرفة من تولى منهم ومن عزل[5]. ولما دخل السلطان سليم العثمانى مصر أرسل الخواص فقيراً ينظركم معه من أصحاب النوبة [6] (أى من يساعده منهم).

٣ ـ وقد وصف أصحاب النوبة بالشدة والعنف كانعكاس للصراع بين الأولياء وقتها، يقول الشيخ حسن العراقى «لا يأذن أصحاب النوبة لفقير أن يسكن فى مصر إلا إن كان مراعياً

(١) لطائف المنن ١٤٦. (٢) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٣٠.

(٣) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٢٤. (٤) لطائف المنن ص ١٤٤.

(٥) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٣٠، جـ٢/ ١٥٠.

(٦) الطبقات الكبرى جـ٢/١٣١.

الباب فقال لولده اجب من يدق الباب فقال وهو ضجر مغضب: [ما] بقى عندنا شي ندفعه لمن يدق كيف اكلمه وليس عندنا شي نعطيه؟. فالزمه باجابته فنزل اليه وفتح الباب فدفع اليه شخص ما يعرفه ولا ابصر وجهه طعاما في منديل ومضى ولم يرجع إلى الان ولا طلب المنديل.

فلما وجدوا الاسقف حي لم يمت سار بمون مع انبا جرجه اسقف بطو الى ملك النوبة، فلما

للأدب معهم، وإلا أخرجوه إلى القرى أو إلى خارج السور، وعد الشعرانى من المنن حفظه من تصريفهم فيه بمرض أو سلب حال[1]، وأوصى الخواص بالإستعانة عليهم بالله ورسوله[2]، ولا شك أن المقصود بهذه الصفة هم الأولياء المنافسون، فالخواص هو نفسه القائل «قل من فقراء الزمان من يعرف أنه تحت حكم أصحاب النوبة.. ولو عرف لسألهم ... وأنتظر ما يقع منهم من تولية أو عدمها[3]. وهو يقصد نفسه.

*أصحاب الوقت:

لا اختلاف بينه فى المفهوم عن أصحاب النوبة، اللهم إلا إندراج العلماء بينهم ولهم تقريباً نفس حقوق أصحاب النوبة[4]، وقد أكثر الشعرانى من الحديث المعاد عن أصحاب الحضرة الإلهية والكمل والعارفين[5] عدا تصنيفات أخرى لم يجد الخواص لها أسماء[6]. مما يجعل القارئ يتخيل عدد الأولياء مساوياً لأعداد الناس فى نهاية العصر، وإن كانت الصفات منحوتة من بيئة العصر وتصوراته وهو اجسه وتخيلاته، بينما كان العقل غائباً فى أجازة مفتوحة.

(١) لطائف المنن ص ١٤٧.
(٢) الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٤٤.
(٣) الشعرانى. ارشاد المغفلين ص ٢٧٣.
(٤) لطائف المنن ٢٥٦، ٢٧٧.
(٥) لطائف المنن ٣٦٥، ٣٩٢، ٢٩١.
(٦) لواقح الأنوار ٩٩.

وصلا اليه اكرمهما وكرز انبا جرجه للملك بيعة
بناها جديدة فحلت الروح القدس على احد
الاوعية التى فيها ما [ماء] التكريز فاخذه الملك
بيده ومضى به الى منزله، وكرز فى هذه البيعة
اربعة هياكل فى ذلك اليوم ودفع له الملك ما
اوصله الى البطرك ابا اخرسطودلوس الى اسكندرية
وبمون معه، ومن بعد هذا اعاد بمون الى اعمال
ارمنت واقام فى [ضيعة تعرف..] الى أن تنيح

ثانياً: مهام الأولياء:

*** الحملات:**

١ ـ يقال أن الولى يتحمل الحملة أى ينوب عن المصاب فى تحمل مصيبته. وقد شاعت هذه الفكرة فى العصر المملوكى، وقد نصح الشعرانى بصحبة الفقراء لأنهم يحملون عن أصحابهم المصائب فى الدنيا [١]. وقد وضع لها القواعد فلا يحمل الشيخ إلا عن أبناء حارته وإلا فقد تعدى دائرته [٢]، وشرط الولى الذى يحمل الحملات الإتصاف بالذلة، والفقر، وكثرة الملازمة فى المراكب الإلاهية، وألا يأخذ عنها مقابلاً، وكف الجوارح عن المحرم والمكروه والشهوات المباحة، والصيام أيام التحمل والتخلق بالرحمة[٣].

ويستلزم التحمل جهداً من الولى فهو يحس بالأوجاع فى جسمه وقد يبقى دون طعام أو شراب أو نوم أو نظافة أو لباس جديد [٤]، وقد أخبر بعض أهل الكشف أن إحمرار الماء الذى تحت بيت الشعرانى فى الخليج إنما هو من كثرة الهموم النازلة علية!!، ويقول إن هذا الأمر قل

(١) صحبة الأخبار ٣٩. (٢) تنبيه المغترين ١٣٦.
(٣) لطائف المنن للشعرانى ١٤٩: ١٥١، ١٧٢.
(٤) لطائف المنن فصل الشعرانى فيه ما يقاسيه بسبب التحمل ٣٢٢: ٣٢٣، ٥٥١.

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

الاسقف ابا بسيليوس فدخل [بمون] إلى ارمنت
وكرز فيها في اليوم الثاني من توت سنة سبع مايه
سبعه وتسعين للشهد، وبعد هذا جرى بينه وبين
اسقف قوص ابا بدير خصومة فمضى ابا بدير الى
ابا اندونه اسقف اسيوط وابا متاوس اسقف فاو
واخذ خطهما بانه مقدماً على ابا بمون بحكم ان
ابا بديركرز بعد نياحة ابا باسيليوس الذى كان قبله
واحتجو بان الذى تكرز أكبر من المكرز، وكان

من يفعله في عصره من المتمشيخين، وغاية أمر أحدهم أن يتوجع باللسان فقط[1]!! وقد تحمل الشعراني عن رجل وامرأته حين ماتت ابنتهما فكاد لحمه وعظمه أن يذوبا!! ويطلب الشعراني من إخوانه ألا يغضبوا حين يرونه عابساً ضيق الصدر فربما كان مشاركاً في حملة لحاكم أو لإمرأة مات ولدها أو كانت في الطلق[2]، وكان إذا نزل بالمسلمين هم أوغم لا يقر قرار حتى يرتفع[3]، وهو يتحمل هم عدوه أكثر من إهتمامه بهم صديقه[4]، وأكثر حملاته عن المرضى[5]، وكان من وقعت له مصيبة يأتي للشعراني فيحملها عنه ولا يتخلف. والحملة تخف بحسب الإعتقاد وتثقل بعدمه[6]، أى إذا كنت تعتقد في الشيخ فعلاً فإنه يحمل عنك مصيبتك فيخف وقعها عنك، وإن لم تكن تعتقد فالويل لك!!.

٢ ـ والقارئ للشعراني يتصوره بطل الحملات الوحيد، إلا أن الأولياء السابقين قد ادعوا ذلك وإن كانوا أقل مقدرة من الشعراني في سبك إدعاءاتهم، وعامة فإن الحديث عن الحملات في أقوال متصوفة المماليك البحرية فالمرسى يلوم العامة لأنهم ينفضون عن الولى الذى بين أظهرهم «مع أنه هو الذى يحمل أثقالهم ويدفع الأغيار عنهم[7]، ويقول ابن على

(١) لطائف المنن ٥٥١.
(٢) لطائف المنن ١٥١.
(٣) الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٤٨.
(٤)، (٥) لطائف المنن ٥٧٢، ٣٥٢، ٣٥٣.
(٦) لطائف المنن ١٢٣، ١٢٤.
(٧) الطبقات الكبرى للشعراني جـ٢ /١٨.

ذلك بعد وفاة انبا اخرسطودلوس وجلوس انبا
كيرلص القديس فانتهت حالتهما الى الاب المذكور
فحكم بان التقدمه لابا بمون اسقف ارمنت بحكم
ان الاب انبا اخرسطودلوس وضع يده عليه قبل ابا
بدير وان اسمه ثبت في منظرة الاساقفة وان تأخير
تكريزه في كرسيه لا يوخره عن طقسه في التاريخ
الذى اوسم فيه ويقدمه على من اوسم بعده ولو
بيوم واحد، واوجب الطقس لابا بامون اسقف

وفا «إذا حصل لى وارد من واردات الجلال إنما هو تحمل عن الخلق [(١)]، وفى حكاية للسبكى «تحمل شيخ ألم مريده حتى خرج عن الصلاة فبرئ المريد[(٢)]»، وفي مناقب الحنفي ـ في القرن التاسع ـ أن بعضهم تحمل الرمد عن غيره فشفاه[(٣)]، حتى إذا أهل القرن العاشر فأضحت الحملات ميدان المزاعم الصوفية، فيدعي المتبول أنه يتحمل ما يعجز عنه سبعون رجلاً من الأولياء[(٤)]، وكان أبو الفضل الأحمدى يحمل هموم الناس «حتى صار ليس عليه أوقية لحم[(٥)]»، ويدعى أفضل الدين الشعرانى بأنه منذ عشر سنين يحس بأن جسمه فى طبق من نحاس على نار من غير ماء ولحمه ودهنه يطشطش وهو صابر، وذلك «من كثرة توجه الناس إليه في شدائدهم، فيحملها عنهم ويعانى بدلاً منهم»[(٦)].

٣ ـ وكانت الحملات مجالاً للصراع بين الأولياء، فأثناء خلاف الشعرانى مع ثلاثة من أصحاب النوبة حصل له الفرج على يد الشيخ محمد البهوتي، الذى تحمل عنه بعد أن أبى الحملة ثلاثون من الأولياء، فبرئ الشعرانى بعد أن كان قد مكث تسعة أيام بلا أكل أو شرب أو نوم[(٧)].

---

(١) مناقب الوفائية مخطوط ٤٨.
(٢) طبقات الشافعية جـ٥ / ٢٣.
(٣) مناقب الحنفى ٣٤٠ مخطوط.
(٤) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢ / ١٠٥.
(٥) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١٥٠.
(٦) لطائف المنن ١٤٣ ـ ١٤٤.
(٧) لطائف المنن ١٤٧.

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

ارمنت المذكور الموسوم اسقفاً قبله ولا يوجب لبدير
ان يتقدم عليه. واحتج عن ذلك بحجج صحيحة
منها ان يوحنا المعمدان وضع يده على راس سيدنا
يسوع المسيح له المجد الذى قال عنه انه لم يزل
قبله وانه اقدم منه، وايضاً فان الاساقفة يضعو
ايديهم على البطرك فى وقت قسمته فهل يقدرو
لاجل هذا يتقدمو عليه. واصلح بينهم وزال
السجس عنهما. وحكى لى لوقاس شماس كنيسة

---

٤ ـ وقد يتعاون الأولياء فى الحملات فيرسل المرصفى وغيره الحملات للشيخ بركات الخياط، فيضعون له الحجر على حانوته، فيعلم بالحاجة ويقضيها، ويقول «الإسم لطوبة والفعل لأمشير»[١] ، مع أنه لو كان ولياً حقيقياً (عندهم) لعرف الغيب وما احتاج إلى حجر يوضع على باب دكانه، ولكن الأساطير تخلو من المنطق.

وكان سويدان المجذوب يحمل الحملات، وكل من حمله حملة وضع حبة من الحمص فى فمه ليتذكر قصته، فربما امتلأ فمه من الحمص، ويظل كذلك شهراً حتى تقضى الحوائج[٢]، وكان الخواص يرسل الحملات الثقال للشريف المجذوب فيقوم بها[٣]، وبدون حمص !!.

والواضح أن شيوع الاعتقاد فى الحملات كان لتبرير النذور والأموال التى كان يحصل عليها الشيوخ من الناس.

*النظرة:

١ ـ وإذا كانت الحملة فى الغالب يتحملها الولى عن الجميع فإن النظرة أو النفحة للمريدين والأتباع القريبين.

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢ /١٢٥، الغزى: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة جـ١ / ١٦٧/.
(٢) الطبقات الكبرى جـ٢/١٣٥ . الغزى: الكواكب جـ١/ ٢١٣.
(٣) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٣٠.



دراويش من مختلف الأجناس

السيدة بارمنت انه ابصره وقد كرز مذبح فى البيعة المذكورة فى سنة ثمانماية وواحد للشهد، فلما فرغ اخذ شقاف الاوعية التى فيها ما[ء] التكريز ورماها بيده في البير التى فى هذه البيعة فصعد الما حتى انتهى الى نصف البير وعلامته إلى الان باقية. وحكي جماعة من اهل الصعيد ان كنيسة بطرس راس الحواريون بحرارة [بالحرازة] قريب ارمنت لما كرزت فاض الما من القدور حتى اندفق في صحن البيعة.

---

٢ ـ وقد كان الشاذلي يربى أولاده بالنظر من غير كلام [١]، ويقول المرسى «والله ما بينى وبين الرجل إلا أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته» [٢]، والمريدون من جانبهم يعترفون بأثر نظرة الشيخ فيهم، يقول أحدهم «فلما جلست نظر إلى الشيخ وأمدنى بما أمدنى، ثم قال لى إنصرف إلى بلدك فقد استغنيت» [٣]، ويقول الشعرانى عن أحد المجاذيب «كان يحبنى وكنت في بركته وتحت نظره» [٤]، وينتظر المريدون خروج الشيخ من خلوته لتكون نظرته إليهم أوقع في الأثر، وقد اختلى شمس الدين الحنفي أربعين يوماً فاستعد مريدوه للظهور بين يديه حين يخرج وقالوا «غداً يظهر سيدى من الخلوة فكل من وقع نظره عليه حصلت له السعادة.. فلما كان وقت السحر ظهر سيدى ووقع نظره على فقال لى محمد قلت نعم يا سيدى، قال : والله لقد حصلت لك السعادة الكلية» يقول الراوى فكل ما أنا فيه من ثمرات تلك النظرة». حتى أنه تقطب قبل موته (أى أصبح قطبا)، وقد وقع نظر الحنفي على كلب فأصبح الكلب ولياً بفضل تلك النظرة يقول الراوى : «فهذه نظرة رجل من الأولياء وقعت على كلب غير

(١) قواعد الصوفية جـ١/ ١٩٢ وقد أخذ عنهم الشعرانى التربية بالنظر ـ لطائف المنن ٣٩٢.
(٢) ابن عطاء لطائف المنن ٥٦.
(٣) الكواكب السيارة ١٥١، تحفة الأحباب ٢٩٠.
(٤) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٢٢ الشعرانى.

فأما الاب اخرسطودلوس فظهر فى أيامه ايات وعجايب كثيرة، وكان فى زمانه جماعة من الابا والرهبان القديسين (وهوذا اذكر يسير من ذلك ليلا تطول السيره بشرح جميعه)، كان قد وصل إلى ا سكندرية ابا ايليا اسقف طموه [مركز الجيزة] وهو شيخ كبير جداً فحدثنا بعجايب كثيرة، وقد كنت سمعتها من غيره ممن حضرها وشاهدها وهو الشماس ابو حبيب ميخاييل ابن بدير مساعدى


رقص الدراويش

مكلف، فكيف لو وقعت على آدمي؟ أو على أحد من جهة ذلك الولى مثل خادم أو ولده أو على واحد من تلاميذه ؟!!»[1]، وهو سؤال يستحق الإجابة فعلاً ؟

٣ ـ وقد يعبر عن النظرة بالحظ، خاصة فى المراجع غير الصوفية، فالسبكى يقول عن ابن الحسين الأنصارى« كان إذا ألحظ شخصاً انتفع بالحاظه» [2]، ووصل الشيخ محمد الحنفى إلى ما وصل إليه « بلحظ الشيخ أبو العباس السوسى» [3]، والسخاوى يكثر من استعمال هذا اللفظ فيقول عن الزين عبد القادر إنه «انتفع بلحظ أبجد المجنون»، وقال عن الكتانى أنه «انتفع بلحظ الشيخ عمر بن عيسى» [4]، ويقول عن نفسه «إنه انتفع بالشيخ الغمرى»، «وصليت بجانبه ولحظنى» [5].

وفى المراجع الصوفية إستغاثت فتاة بالشيخ فقالت: «لا حظنى يا شيخ أبى» [6]، ويقول الشعرانى عن شيخه على النبتيتى «فحصل لى منه لحظ، وجدت بركته فى نفسى إلى وقتى هذا»[7]، وبهذا المفهوم تختلط النفحة باللحظ والنظرة.

(١)مناقب الحنفى مخطوط ٢٧٤ : ٢٨٣.
(٢) طبقات الشافعية جـ٥/ ٢٢.
(٣) شذرات الذهب جـ٧ / ٢٩٧.
(٤) الضوء اللامع جـ١ / ٧، جـ١ / ٢٥١.
(٥) التبر المسبوك ١٣٧.
(٦) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢ / ٩٠.
(٧) الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٠٩.

على نسخ السير وتفسيرها من القبطي(*) الى العربى، منهـا انه قدس ، اعنى الاب الاسقف المذكور، يوم عيد مارى بقطر الشهيد الجليل بكنيسته التي بالجيزة فلما تنصف القداس راى نور عظيم على صورة الست السيدة مرتمريم العذرى الطاهرة التي في شاق [أعلى] الهيكل وثبت النور عليها طويلا وشاهده جميع الشعب الحضور فى العيد وحدثنى القس يونس ريس دير نهيا انه كان

(*) أبو حبيب ميخاييل ابن بدير، وهو الذى كان يترجم سير البطاركة من القبطى إلى العربى.

يقول السخاوى عن أحدهم «وقد عادت عليّ نفحاته وبركاته ونفعنى دعاؤه» [1]، وقد صحب الشعرانى الشيخ الزفتاوى نحو خمس سنين وحصل له منه «نفحات»، وقال نحو ذلك عن شيخه صدر الدين البكرى [2].

ثالثاً: الاعتقاد فى كرامات الأولياء الصوفية:

***الكرامات فى فكر الخاصة واعتقاد العامة فى العصر المملوكى:**

١ ـ استلزم الاعتقاد فى الأولياء الاعتقاد فى مقدرتهم على الإتيان بالخوارق، أو ما عرف فى العصر المملوكى بالكرامات، التى شاع الإيمان بها فى العصر المملوكى تبعاً لإزدهار التصرف، حتى لقد فرضت نفسها على تفكير الخاصة واعتقاد العامة كما لو كانت معلوماً من الدين بالضرورة.

ويمكن أن نجمل تفكير الخاصة أو العلماء فى العصر المملوكى فيما يخص الكرامات فى اتجاهين: اتجاه عملى هو ألصق بالمتحررين منهم ، واتجاه نظرى يعتقد فى حدوث الكرامة مطلقاً أو مع بعض تحفظات.

(١) الضوء اللامع جـ١ / ١٨٩ .
(٢) الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٢٨ الشعرانى.

حاضر ذلك اليوم وابصر النور فمضيت انا الخاطى وتباركت من الصورة المقدسة.

* * *

قال يوحنا ابن صاعد ابن يحيى المعروف بابن القلزمى ناسخ هذه السيرة فى السيرة التى نسختها انا المسكين جرجه ابن مذكور من نسخة بخط المذكور انه مضى إلى البيعة المذكورة فى يوم عيد القديس مارى بقطر بالجيزه واسقفها فى ذلك الوقت ابا حذقيه القديس الفاضل وحدثه جماعة

---

٢ ـ وكبار الصوفية يعتقدون فى إمكانية حدوث الكرامات مطلقاً، فكتاب المناقب الصوفية يثبتون الكرامة فى مقدماتها ليؤمن القارئ بما حشدوه فيها من أساطير [١]. وقد أجهد اليافعى نفسه فى الاستدلال على جواز الكرامة عقلاً ونقلاً [٢]، وكعادة الصوفية لا يفرقون بينها وبين المعجزة إلا فى عدم التحدى كشرط لوقوع الكرامة [٣]، لتتاح الفرصة للتهرب من إثبات الكرامة عملياً. والقارىء لمناقب الحنفى تهوله كثرة الكرامات فيها مع أن المؤرخ أبا المحاسن كان معاصراً للحنفى وترجم له ترجمة عادية خالية من ذكر أى كرامة له [٤].

وقد دان علماء العصر المملوكى عامة بالتصوف باطراد يتناسب مع الأزدهار المستمر للتصوف من بدايته إلى نهايته، ففى أوائل العصر كان ابن خلدون يرى وقوع الكرامة أمراً صحيحاً غير منكر [٥]. ويقول السبكى إن من حق الصوفية إظهار الكرامات للبشارة أو الإنذار أو التربية [٦]، وبينما انصرف جهد السيوطى ـ فى نهاية العصر ـ إلى إثبات نواح من الكرامات لم تخطر على بال المتصوفة الأولين، فيصنع رسالة فى إثبات تطور الولى وتواجده

(١) فى مناقب المنوفى فصل فى المقدمة عن إثبات الكرامة.
(٢) اليافعى . فضل مشايخ الصوفية ص ١٧ وما بعدها.
(٣) اليافعى. روض الرياحين ٢٠٥ . الشعرانى ، فتح المنة فى التلبس بالسنة ٢٢.
(٤) حوادث الدهور جـ١ / ١٤٠.
(٥) المقدمة ١١٠، ٤٧٤.
(٦) السبكى. معيد النعم ١٥٩..

من الشعب الذين حضرو فى ذلك اليوم بمثل ذلك من حلول النور على صورة السيدة الطاهرة المصورة فى شاق الهيكل، وانه تامل الصورة فراى الاصباغ التى عليهـا تقلعت واستعلم السبب فى ذلك فاعلمه بعض الكهنة انه لما حل عليها النور وفرغ القداس تزاحم الكهنة عليها بالشمع ليختموه على جسم الصورة ليكون معهم بركة فى بيوتهم فانقلعت الاصباغ فى الشمع التى طبع عليها.

فى مكانين مختلفين فى وقت واحد [1]، أو ما تعبر عنه كتب المناقب أحياناً بوجود أكثر من جثة للولى فى أماكن مختلفة.

٣ ـ وكانت لبعض العلماء فى أوائل العصر تحفظات على وقوع الكرامة، لا تنال من إمكانية وقوعها من حيث المبدأ، فإبن تيمية يرد كرامات المتصوفة إلى فعل شيطانى ويسميهم أولياء الشيطان ويفرق بينهم وبين أولياء الرحمن. ويرى الأدفوى أنه لا مانع عقلى أو شرعى من وقوعها «.. ولكن اطرت العادة المستمرة بعدم وقوع ذلك والعوائد يقضى بها فى حكم الشرع باتفاق أئمةالإجتهاد.. والأمور البعيدة يتعجب من وقوعها ويتوقف فى قبولها إلا إذا علم صدق الخبر كما فى قصص القرآن عن زكريا ومريم وامرأة ابراهيم، ولا تثبت الكرامة بمجرد اشتهارها واستفاضتها عند الفقراء فإن الكذب فيها كثير، وكثير من الصوفية جاهل بصحة النقل أو مغفل يروى بحسن الظن، ثم إن أكثرها مرسلة وبعضها مبنى على التوهم..» ويرى أنها لوسلمت من ذلك ورويت على نسق الحديث المتواتر قبلت بشرط ألا تكون بعيدة فى العادة، وقد وقع مثلها[2]. أى أن الأدفوى سلم بالمبدأ دون التطبيق، ومع جرأته الواضحة إلا أنه خلط ـ كمحدث ـ بين المعجزة والكرامة.

(١) رسالة السيوطى: القول الجلى فى تطور الولى.
(٢) الطالع السعيد ٣٧٠، ٣٧٣.

قـال واضع هذه السيـرة وحـدثنى القس يونس ريس دير نهيـا المقدم ذكـره ان صبيـا يعـرف بابن حالومه كان من جملة الحاضرين فى ذلك اليوم وابصـر النور وانه صـار بعـد ذلك يتعـاهد الموضع فنظر النور دفعة أخرى على تلك الصورة المقدسة.

وكان بالقرب من البيعة مسجد وفيه موذنا يضر الامنوت [البواب] ويعاديه فعمـد ولد الامنوت الى طوبه حك به صورة الشهيد مارى بقطر وقال له:

---

٤ ـ ولأن التصوف أصبح حرفة فى العصر المملوكى، والكرامات مؤهلها الأساسى، فقد كان للأولياء طرقهم الخاصة فى انتحال ما يخدعون به العامة. وقد فطن لذلك بعض العلماء ممن نعدهم ضمن أصحاب الإتجاه العملى المتحرر.

وأبرزهم الجـويرى الذى فـضح أسـاليبـهم ضـمن ما سجله فى كـتابه «المختار فى كشف الأسرار» فكان يذكر الكرامة ثم يتبعها بكشف سرها، ونذكر بعض الأمثلة: يقول عمن جعلهم فى الدرجة الثالثة من المشايخ «.. ومنهم من يتعاطى النزول فى التنور، وقد أوقد فيه قنطاراً من الحطب فينزل فيه ثم يغيب ساعة ويطلع» ثم يشرح الجويرى تصميم التنور وكيف أن حرارته من أعلاه، وأسفله بارد فلا تضر الشيخ، وذكر طريقة أخرى وهى أن الشيخ يطلى جسده بمادة عازلة «.. التى يعملونها لمنع النار فمن ذلك يؤخذ الضفدع ويسلق حتى ينضج ويتفتت.. ثم يرفع عن النار حتى يبرد فإذا برد جمد الدهن على وجه الماء فيؤخذ الدهن ويضاف إليه الشئ من البارود الثلجى، ثم يلطخ به جسده ويدخل النار فلا تضره»[١]. وقد يلطخ الشيخ أصابعه بهذا الدواء، ويتقدم ويشعل أصابعه من الشمع «ولا يزال يرقص وأصابعه تشتعل حتى يضج الخلق، ثم يدنون الشمعة، فيشعلها ويطفى أصابعه» وفى هذه الحالة يضيف النفط إلى الدواء السابق[٢].

(١) الجويرى. المختار فى كشف الأسرار ٢١، ٢٢.
(٢) نفس المرجع ٢٣.

مـا تقـدر تخلصنا من هذا الموذن. فلحـقـتـه علة الارتعاش جميـع ايام حياته وكان اكثر اوقاته يصيح قـايلا: هوذا قـد جـا يعـاقـبنى. ثم انه استـعـان بأبا حذقيه اسقف الجيزة وساله الى ان جا الى الصورة وصلى بين يديه وسـال الشـهـيـد فـانصلحت حـاله قليل ومات.

وكـان فى البـرية بوادى هبـيـب بدير ابو كـمـا

وبعض المشايخ يوهم المريدين بنبع الماء من أصابعه، «وكشف ذلك أنه يأخذ مصران غنم فيدبغه بعد غسله ثم ينقعه بماء الورد سبعة أيام، وبعد ذلك يأخذه فيربط طرفه الواحد ربطاً جيداً، ثم ينفخه فى الهواء حتى يجف فإذا جف.. أخذه ثم ملأه ماء.. ثم جعله فى قميصه، وقد عمل له حمالات من تحت القميص.. فإذا أراد أن يسقى الناس جعل رأس المصران فى فم الوعـاء وهو دائر من حيث لا يعلم به أحـد، ثم يفك رأس المصـران يظفـره، فـينزل الماء فى الوعـــاء» [١]. ومنهم من يبقى «أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب ويدعون أن طعامهم التسبيح وشرابهم التقديس»، وذكر عدة طرق لذلك يستعمل فيها بذرة الحبة القمحاء أو كبد الغزال العطشان حين يمتنع عن شرب الماء، أما من يمتنع عن الطعام فيستعين بمسحوق من أكباد الخرفان وذكر طريقة عمله.. وتابع الجوبرى هتك أسرارهم «كمن يظهر فى ظلام الصحراء عامود نور إلى عنان السماء» «ومن يقف يصلى تحت الشجرة فتسجد له» «ومن يظهر الفواكه فى غير أوانها» «ومن يأكل الحيات والنار، ومن ينبع له الماء فى الصحراء» [٢]. ثم يقــرر أن هؤلاء المشايخ مجمعون على بطلان معجزات الأنبياء ويعتقدون أنها «مثل هذا النوع الذى سلكوه» [٣].

(١) نفس المرجع ٢٢، ٢٣ وذكر طريقة أخرى ص ٢٦.
(٢) نفس المرجع ٢٤: ١٤٢.
(٣) نفس المرجع ٢٨٠.

راهب قديس اسمه بسوس عليه نعمة عظيمة
وموهبة روح القدس كانت حالة عليه، وشاهدت
وسمعت منه عجايب كثيرة منها اننا لما سمعنا
خبره ونحن في اسكندرية، من راهب قس يسمى
ابو يعقوب وهو رجل قد تصدق بمال عظيم
وترهب، فخرجنا جماعة الى الديارات في طوبه
سنة سبع مايه وثمنية وسبعين للشهد،واخذنا بركة
راهب قديس أيضاً اسمه يعقوب قمص ديربرموس

---

٥ ـ وقد وردت إشارات تؤيد الجويري في مصادر أخرى.. فابن الحاج اعترض على من يدخل النار ولا يحترق[١]، واكتشف ابن تيمية حيل الأحمدية في دخولهم النار وواجههم بذلك[٢]، وقيل عن بعض الصوفية أنه كان صائم الدهر بخانقاه سعيد السعداء «يصوم الدهر ويفطر دائماً على حمص مصلوق بغير ادام»[٣].

وقد اشتهر محمد بن عبد الله المرشدي في مصادر العصر المملوكي بأنه كان يطعم الضيوف ما يشتهونه في خاطرهم، وقد أورد الصفدي السر في ذلك «وحقيقة الأمر أن هذه الكرامات إنما كانت بصناعة مقررة بينه وبين قاضي فوه فإنهما كانا روحين في جسد، وكان قد تحصن بالشيخ فلم يقدر قاضي القضاه ولا أحد على عزله... ولم يبق له دأب إلا تلقي من يصل من ذوي الأقدار قاصداً زيارة الشيخ لأن فوة طريق منيه مرشد، فإذا وصل الزاير أنزله وأضافه وشرع في محادثته ومحادثة من معه حتى يقف على ماقي خواطرهم وما يقترحونه، ثم أنه يبعث بذلك إلى الشيخ على دواب مركزه في الطريق بينهما، وبمده من الأصناف ما لعله لا يكون عنده، ويعطيه حلية كل رجل من المذكورين واسمه»[٤].

(١) المدخل جـ٢/ ١ ٢٠١.　　(٢) تاريخ ابن كثير جـ١٤ / ٣٦.
(٣) تاريخ قاضي شهبه. مخطوط جـ١ / ٦ ترجمة ابن صديق التبريزي.
(٤) الصفدي . أعيان العصر مخطوط جـ٦ قسم١ ورقة ٤٨، ٤٩.

وهو اخــو الاب ابا اخــرسطودلوس البطرك فى
الرهبنة كان له أيضاً عجايب وامور كثيرة، ومضينا
الى دير ابو كما وبتنا عند القديس بسوس فاكلنا مما
احضره لنا وكنا احد عشر رجلا واتانا بجرة
صغيرة وبارك عليها فشربنا منها كلنا الى ان قاربنا
لنسكر ولم تنقص الجرة الا الى مقدار نصفها. ولما
اصبحنا سالنا ان لا ندع احد من اراخنة مصر
الذين يخرجون الى تلك البرية للغطاس ياتوه

ومع ذلك فلم يتأثر اعتقاد العامة فى الأولياء، ويقول الفقيه البقاعى عن أحد المعتقدين «وكان للناس فيه اعتقاد كبير جداً وينسبون إليه مكاشفات ولم يظهر إلى أنا شئ من ذلك، فإنه بشر غير واحد من أصحابنا بأشياء لم تقع»[1]. ومن النص يتضح عمق اعتقاد العامة فى الصوفية حتى ولو أخطأ أحدهم فى دعاويه.

والواقع أن الناس فى العصر المملوكى كانوا على استعداد لتصديق الكرامات وتناقلها، فكان مجرد إشاعة كرامة ما كفيل بتوجه الناس جميعهم إلى صاحبها زائرين ومعتقدين ومتوسلين [2]، واستجابة لتلك العاطفة الشعبية حاول علماء العصر المملوكى أن يجدوا أصلاً شرعياً للكرامات، فوضعت فيما بعد كرامات لصوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين كما فعل الذهبى والسيوطى، ولم يعثر على أصولها التى نقلت عنها مما دفع بعض الباحثين للتأكيد بأنها وضعت لإرضاء عاطفة شعبية تريد إثبات صوفية أولئك الزاهدين، فالشعب لا يقبل الصوفى إلا بما يروى عن كراماته[3].

---

(١) تاريخ البقاعى. مخطوط ٨٨، ٨٩.

(٢) السخاوى. التبر المسبوك ٣٣٨.

(٣) محمد كامل حسين. حوليات آداب القاهرة مجلد ١٦ سنة ١٩٥٤ ص ٤٩.

وقال: ان جانى احد مهم خرجت الى مغاير ابو
موسى وتركت الدير. فودعناه ومضينا الى دير ابو
مقار فوجدنا جماعة كبيرة من اراخنة مصرالمقدمين
قد خرجو الى الديارات فى تلك السنة منهم الشيخ
ابو البـــدر ابن مـــينا الزواوى صـــاحب الديوان
الرهجى، والتمس المضى اليه فاعلمناه ما قاله لنا
فقال لى لابد لى من الاجتماع به واشكو له ذنوبى
ولولا رغبتى فى التبارك منه ما جيت الى هاهنا ،

وما كان لكتاب المناقب أن يحشدوها بكل ماهو مخالف للعقل والنقل لولا أن العامة فى العصر المملوكى على أتم استعدادلتصديقها بحيث يصح اعتبارها مقياساً لعقل العامة واعتقادهم فى كرامات الأولياء.. والعامة فى كل زمان ومكان قليلة العقل تميل لسماع الأقاصيص والأساطير، وتميل أكثر لتصديقها، ولهذا فإن التجارة بالدين سوق رائجة، خصوصاً إذا كان العقل غائباً.

دراسة فى أساطير الكرامات فى العصر المملوكى

وبعد فلنلق نظرة على كرامات العصر المملوكى:ـ

١ ـ نلاحظ نوعاً من التخصص فى الكرامات بين الأولياء، فالبدوى مثلاً جعلوه متخصصاً فى إحضار الأسرى من بلاد الفرنجة، وقد رفض المتبولى أن يعتدى على هذا التخصص وأرشد المرأة التى طالبته بإحضار ولدها الأسير أن تتوسل بالبدوى[١]. لأنه وحده الذى يأتى بالأسرى من عند الفرنجة.

وكان من السهل على مؤرخى العصر تناقل الكرامات بحذافيرها وترديدها كأمور مسلم

---

(١) عبد الصمد. الجواهر ٧٩.

وجرت في هذا خطوب كثيرة اوجبت ان سرت انا
وابن عمه ثقة الثقات ابو الطيب بشوى ابن يحنس
الى دير أبو يحنس بسبب نذر كان عليه مبلغه
خمس ماية دينار، فخليته في دير ابو يحنس
ومضيت انا الى دير ابو كما واجتمعت بالقديس
بسوس واعلمته ماجرى ولم ازل به الى أن استقر
مسيره اليه الى دير ابو مقار فخرج من الدير بعد
غروب الشمس بساعة ومضيت انا الى دير ابو

بها، بل قد تتكرر كرامة بعينها لأكثر من صوفي مع اختلاف الزمان والمكان [1]. وتنافس الصوفية في المزايدة بالكرامات فرويت كرامة للشيخ خليل وهو يطير من بلده إلى جبال الزيتون، فقال له المرسى «ليس الشأن أن تذهب لجبال الزيتون وتعود من ليلتك، ولكن أنا الساعة لو أردت أن آخذك بيدى وأضعك على جبل قاف وأنا هنا لفعلت» [2]. وهو القائل «والله ما سار الأولياء والأبدال من قاف إلى قاف حتى يلقوا واحداً مثلنا، فإذا لقوه كان بغيتهم» [3]. ويقول «ما جلست حتى جعلت جميع الكرامات تحت سجادتي» [4].

ولقد أوتي الشعراني مقدرة عجيبة على سبك الكرامات، وهو يوردها أحياناً كغطاء يخفى به الإنحلال الخلقي للأولياء في عصره كما يبدو في ترجمته للمتبولي والحنفي وغيرهم، والغريب أنه حين يذكر أحد الصالحين بصفات حسنة فلا نجد أثرا للكرامات [5].

---

(١) رويت كرامات لأبى العباس الملثم فيس ابن الفرات والطالع السعيد بدون تغيير في الألفاظ ونفس الوضع في ترجمة شرف الدين الصعيدى الذى امتحن الغورى امتناعه عن الطعام والشراب أربعين يوماً. الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١٣٨، شذرات الذهب جـ٨ /٩١ وقد نسبت أيضاً لمعاصر للحجاج بن يوسف، اليواقيت والجواهر جـ٢ / ١٠٤ وغير ذلك كثير.

(٢) ابن عطاء لطائف المنن ٥٧. (٣) ابن عطاء لطائف المنن ٥٦.

(٤) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢ / ١٨.

(٥) كما في ترجمتها للمرحومي الطبقات الكبرى جـ٢ / ٩٥ والغمرى جـ٢ / ١٢٧.

يحنس وبت فيه مع الشيخ ابو الطيب، فلما
أصبحت مضيت الى دير ابو كما لاسال عنه فقال
لى الراهب البواب: نصف الليل جا وضرب
الناقوس هاهنا حتى قام الرهبان للابصلمديه
كالعادة. فظننت انه لم يمضى الى دير ابو مقار لان
من دير ابو مقار الى دير ابو كما مسيرة اكثر من
اربعة ساعات، فدخلت اليه مبتسما فعرف انني قد
ظننت انه لم يمضى الى دير ابو مقار. فلما سلمت

وكان الناس على استعداد لتصديق الكرامات وتناقلها. فكان مجرد إشاعة كرامة ما كفيلاً بتوجه الناس جميعهم إلى أصحابهم زائرين ومعتقدين ومتوسلين[١]، وبعض الكرامات صيغت لسد النقص أو جبر العجز لدى الأولياء، فالولى المقعد الشيخ أحمد السطيحة قيل فيه «إنه يلبس كل جمعة مركوباً جديداً يقطعه مع أنه سطيحة لا يتحرك» «وتسللت زوجته ليلة فرأته قائماً سليماً من الكساح فلما شعر بها زجرها فخرست وتكسحت وعميت إلى أن ماتت، وحتى لا يوصف الشيخ أحمد السطيحة بالعجز الجنسى أيضاً فقد ذكروا أنه كان فى عصمته أربع نساء، وأنه خطب بنتاً بكراً فأبت وقالت: أنا ضاقت على الدنيا حتى اتزوج بسطيحة، فلحقها الفالج إلى أن ماتت. وطلبته بنت بنفسها فقيل لها يا امرأة المكتسح وعايروها فدخل بها الشيخ وازال بكارتها فملأ الدم ثيابها ورآه الناس.. إلخ[٢].

ونلمح بعض الإرتباط بين الكرامات والأحوال السياسية التى استغلها الصوفية لترويج كراماتهم، فعندما يتولى سلطان يقال أن مجذوباً بشره شفاهاً بالتملك[٣]، وحين يمرض السلطان يفسرمرضه بإنكاره على شيخ بعينه فجوزى بالمرضى[٤]، وكان من العادة شبه

(١) السخاوى : التبر المسبوك ٣٣٨.
(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى . ط صبيح جـ٢ / ١٢٣.
(٣) الضوء اللامع جـ٣ / ١٣٣.
(٤) مناقب الحنفى (مع الناصر فرج).

عليه واخذت بركته قال لي: مضيت واجتمعت
بالرجل. فسالته: متى وصل اليه ومتى عاد اذ كان
لا يمكن احد يمضى الى دير ابو مقار ويعود في
الليلة. فقال لي: مالك الى هذا حاجة، قد مضيت
الى عنده كما استقر معك. فقلت له: ما صفته؟
قال: هو رجل قصير اشهل العينين ووجدت عنده
اخوه ابو العلا فهد ودميان قريبك الاشهل العينين
ايضاً وتحدث معه بالقبطي. فلما قال لي هذا

الدائمة أن تنتهى حياة الأمراء وأرباب المناصب بالمصادرة والعزل والقتل والحبس، ومع ذلك كانت تفسر في ضوء غضب الأولياء ومعرفتهم الغيب [١]، وحين منع الناس من الحج بسبب حركة التتر أشيع أن الشاذلي قد حج بخطوة واحدة وعرض بعد مجيئه أن يخطو بالناس جميعاً إلى عرفات [٢]، ولم يتساءل أحد أما كان من الأجدى أن يوجه الشاذلي قدرته لدفع التتر الذين منعوا الناس من الحج.

فالملاحظ عامة أن إدعاء الكرامات قد استهلكه المتصوفة في نواح تافهة غير نبيلة تعكس حياتهم وتفكيرهم، فلم يحظ الجهاد مثلاً بأقل القليل من إدعاءاتهم الكثيرة بقلب الأشياء ذهباً، مما يفضح نفسية المتصرفة الغارقة في أحلام الوصول للنعيم الدنيوى بدون كد أو تعب. ولابد أن تنتهى تلك الكرامة بزهد الولى فيما قلبه ذهباً حتى لا يطالبه أحد بالدليل على إدعائه برجوع الذهب إلى حالته الأولى، وحتى يتأكد زهدهم وأنهم إنما تركوا الدنيا وزينتها مع قدرتهم على الثراء السريع، على أن تلك الكرامات بما صاحبها من دعايات حققت أهداف الصوفية ووطدت نفوذهم وأكدت الاعتقاد فيهم وفي تصريفهم.

---

(١) مناقب الحنفى ٣٨٤،النجوم جـ١١ / ١٨٧، المنهل الصافى جـ٥ / ٤٤١.
(٢) الإلمام بالإعلام للنويرى مخطوط مصور مجلد ٢ لوحة ٧٨.

خــرجـت من عنده عند طلوع الشــمس وركــبـت
دابتي واسرعت السير فوصلت الى دير ابو مقار في
رابع ســاعـة من النهـار، لأنه كـان في شـهـر طوبه،
فـدخلت مع الشيـخ ابو الطيب الى عندالشيخ ابو
البـدر المقدم ذكـره فقـال لنا: ما عندكم خبـرنا مع
القـديس بسـوس، فـانه جـا الى عندنا. قلت له: اى
وقت جـاكم؟. قال: جـا الينا العتـمـه، قلت له: هو
الوقت الذى خرج فيه من دير ابو كـمـا وفارقته انا

---

* مروجو الكرامات:

أبرزهم المتصلون بالشيوخ المنتفعون بهم كالخدم ومشايخ الزيارة والزوجة وغيرهم.

ـ الخدم: وقد أصبح بعضـهم شيخاً بعد موت سيـده يدعي أنه اختص بأسـراره ونشـر كراماته، فرويت كرامات عديدة عن الشاذلي عن طريق خادمه الشيخ ماضي أبو العزايم[1]، ويقـول خـادم الحنفي «وكـان سـيـدى يخبـر بما وقع له من الكرامـات على عـادة السلف من الأولياء المتمكنين[2]»، وقد يحرص الشيخ على تسجيل كراماته، ثم يوصى خادمه بكتمانها في حيـاته وإذاعتـهـا بعد مـوته[3]، كـمـا يدعـون، والواضح أن الخـادم هو الذى يشيع ذلك ليتكسب به.

وخادم الضريح دور كبير في إشاعة كرامات صاحب الضريح طمعاً منه في النذور، ولابأس بأن يحتـال لذلك الأساليب المبتكرة، فعـرف أحد القبـور ـ وهو مجهـول الصـاحب ـ بقبـر صاحب الشـمعة، لأن بعض خدام القبور المجاورة أشا ع أنه يرى على قبره شمعة مشتعلة في

(١) تعطير الأنفاس مخطوط ٥١، ٥٥ مابعدها، ٧٧ وما بعدها.
(٢) مناقب الحنفي مخطوط ٤٧٣، ٤٧٤.
(٣) الطبقات الصغرى للشعراني ترجمة السيوطى ص٣٠، ترجمة زكريا الأنصارى ص٤٠، ترجمة شمس الدين الدمياطى ص ٥٣.

من هناك وتوجه الى عندك. فتعجب هو وجميع الحاضرين ثم قال لى: ولم يزل يتحدث معه وانا اذا خاطبته بماية كلمة اجابنى عنها بكلمتين او ثلثة قاطعة فى الجواب الى ان خرج اخوك ابو العلا الى برا ابصر الوقت وقال لنا قد جا نصف الليل فقال بسوس القديس اريد امضى الى الدير فضربنا له مطانيات ان يقيم عندنا بقية ليلته ويومه فلم يزل معنا الى ان طلب الانفراد للصلاة فحبسناه

الليالى المظلمة، فاشتهر صاحب القبر بهذه الكرامة [١].

ـ مشايخ الزيارة: وهم الذين يعرفون معالم القرافة وطرق الزيارة، وفى كتب المزارات تنقل عنهم الكرامات مشفوعة بكلمات «وهذه الحكاية مستفاضة بين مشايخ الزيارة» أو نحو ذلك.

كان للزوجة دورها فى هذا المجال حتى ولو كانت بلاءً على زوجها، فكان الشيخ أبو الحمائل «مبتلى بزوجته» وقد حكت هذه للشعرانى إن زوجها كان كثيراً ما يكون جالساً عندها فتمر عليه الفقراء الطائرون فى الهواء ينادونه فيجيبهم ويطير معهم فلا تنتظره إلى الصباح [٢].

وكان الرأى العام يتوقع من الولى بعض الكرامات حين يغسل ـ بعد موته ـ وحين يلحد فى القبر، وتكفل الغسالون واللحادون والحفارون بإرضاء نهم الناس، فالشيخ عبد الغنى الغاسل غسل الشيخ أبا القاسم الأقطع وأورد من كراماته أنه غطى سوأته حين وقعت القطنة، وأنه كان يتقلب ذات اليمين وذات الشمال كلما قرأ الغاسل «ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال» [٣]. وتبسم أخر وهو يغسل لأن الحور العين قد غازلته، وأمر أخر مغسله بأن يغض

---

(١) تحفة الأحباب ٣٢٢.

(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢ / ١١١.

(٣) الكواكب السيارة ٢٤٤، ٢٤٥.

فى هذه الخزانة واغلقنا عليه وبتنا على بابها لنتبارك
منه بقربه ونسمع حس صلاته ونصلى معه فلم
نسمع له خبر، فلما اصبحنا فتحنا الخزانة ودخلت
انا اخذ بركته فلم اجده فبقينا باهتين متعجبين الى
الساعة ما ندرى ما كان منه. فقلت لهم: الوقت
الذى دخل فيه الخزانة واغلقتم عليه بابها هو
الوقت الذى دق فيه الناقوس لرهبان دير ابو كما
واقام فيه رهبانه للابصلمديه وجيت اليه سحراً

بصره لأن الجان ستغسله[١]، ويبدو أن الغسالين بالغوا فى إدعاءاتهم إلى درجة أثارت تندر الناس، فأوصى الفقيه ابن الشيخ أن يغسله الشيخ شهاب الدين بن النقيب، فقال بهاء الدين بن السبكي ما قصد بذلك إلا بسط الناس بعد موته[٢].

وفى أمثالنا الشعبية نلمح أثر ذلك «كرامات الميت تظهر عند غسله»، «مغسل وضامن جنة»[٣]. ونافس اللحادون والحفارون الغسالين فى هذا المجال، فيشيع أحدهم أنه وجد القبر قد اتسع بحيث لا يدرى هل هو فى بيت أم فى قبر، ووجد معه من يساعده فى اللحد وذلك لأن الميت كان يدعو «اللهم وسع على فى قبرى واجعلنى ممن تعولاه الملائكة[٤]»، ولحد آخر بنتاً للشاذلى فضحكت، وعرفته بأنه يلحقها بعد ثلاثة أيام[٥].

وحين حمل أبو مدين فى النعش وكان المؤذن يصيح بالآذان ثقل على حامليه حتى وضعوا النعش لأنه كان متعوداً على القيام حين يؤذن المؤذن[٦]، ويبدو أن ذلك أصل لما يشيعونه فى الريف الآن من طيران الشيخ بنعشه أحياناً أو توقفه حيناً.

(١) الكواكب السيارة ٢٤٧، ٢٤٨. (٢) ذيل ابن العراقى مخطوط ٦٥.
(٣) أحمد تيمور الأمثال الشعبية ٣١٥، ٣٧٨ الطبعة الأولى.
(٤) الكواكب السيارة، ٢٥٠، ٢٥١. (٥) تعطير الأنفاس مخطوط ٨٠.
(٦) المناوى. الطبقات الكبرى مخطوط ورقة ٢٨٣.

فـاعلمنى البـــواب بذلك ومن عنده جيت اليكم
فـزاد تعـجبنا وعلمنا ان عـجايب الله فى قـديسيـه.
وايضاً كان اخى ابو العلا [فهـد] نيـح الله نفسه
قد عاقبه امير الجيوش فى نصف كيهك من السنة
المذكورة حتى كتب خطه بستة الف دينار.

وفى الشهر المذكور عرقت اعمدة دير القديس
ابو موسى. وعـرقت ايضاً عـدة صـور فى كنيسـة

تهرب المتصوفة من الإتيان بكرامة:

كان المتصوفة ينسبون الكرامات للأولياء بعد الموت، أما فى الحياة فقد حاولوا تبرير تقاعسهم عن إثبات الكرامة عملياً ـ بشتى الوسائل. ووضع عبء ذلك على الشعرانى ـ بطل سبك الكرامات ـ بطبيعة الحال، فهو يميز الكرامة عن معجزة النبى بأنه لا يجب على الولى إظهارها لأنه لا يحتاج إلى دليل على صحة طريقه، بل يجب إخفاؤها، ويجوز للولى أن يتحدى بالكرامة إذا رأى فى ذلك مصلحة، ومع ذلك يجوز أن تقع الكرامة مع كلام الولى ومع سكوته[١].

ويبالغ الشعرانى فيرى أن من الأولياء من لا يستره حجاب ومع ذلك لا يعرف ما فى جيبه[٢]. وأن الولى قد يعاقب بأن يحبب إليه إظهار الكرامات كنوع من الاستدراج[٣]، وأن أكثر الأولياء كرامة من كثر تكذيب قومه له، وأقلهم كرامة من كثر تصديق قومه له[٤]، وعد من المنن كراهيته لوقوع الخوارق على يده فى الدنيا لأنها عرض فان، ومع ذلك يقول أن وقع

(١) اليواقيت والجواهر جـ١ / ١٦٣.
(٢) الجواهر والدرر ١٧٥.
(٣) الجواهر والدرر ١٧١.
(٤) كشف الران ص ٨٠.

القـديس تادرس الشـهيـد الجليل بمصـر ببنى وايل [كفر العلاقـمه/ ههيا] حـتى كان عـرقها يجرى كـالماً، وهوذا اثره وسـيـلانه باق الى اليـوم على حيطانها. فحدث فى تلك السنة جدرى مات منه بمصـر احد وعشرين الف صبى فى دون شهـر فكتبت الى القـديس بسـوس المذكـور والى الاب مـقـاره الامنوت بدير ابو مـقـار، الذى لما طلب للبطركيه بعد الاب اخرسطودلوس هرب واختفا

الخارق لابد منه للفقير ولو مرة واحدة، ثم يفتخر بكثرة اعتقاد أهل عصره فيه من غير مطالبة بدليل [1]، ومع ذلك كان الناس ينتظرون من الأولياء أن يخبروهم بما أوتوا من علم الغيب ووجد الشعرانى الوسيلة للتهرب من ذلك أيضاً. فهناك اللوح المحفوظ حيث لا تغيير فى المكتوب وهناك ألواح المحو والإثبات حيث التغيير والتبديل. فحذر الأولياء من الكشف عن الغيب إلا إذا كان مطمح أنظارهم اللوح المحفوظ محل الغيب النهائى، أما إذا كان ألواح المحو والإثبات الثلاثمائة والستين لوحاً فيمنع إظهار ما يعرفون من الغيب لأن الحق تعالى كل يوم هو فى شأن، «فربما غير ما تكلمنا به وأظهرناه للناس.. فيسئ الناس ظنهم بأمثالنا»، واستشهد بأن الخواص كان مشهده اللوح المحفوظ، ومشهد أبى الحمائل ألواح المحو والإثبات، فكان الخواص لا يخطئ فى كشفه عكس أبى الحمائل [2]. وانفرد الشعرانى بهذا القول، وإن كان المتبولى قد أشار إلى نحو ذلك حين حذر من إفشاء الولى للغيب لأن الله يحول بين المرء وقلبه [3]. فلم يرد فى قوله ما ذكره الشعرانى عن اللوح المحفوظ والمحو والإثبات.

(١) لطائف المنن ص ٣١٦، ص ٧، ٩٠، ٢٣٥.
(٢) البحر المورود ٢٧٣، ٢٧٤.
(٣) لطائف المنن ٩٣.

في بعض البلاد، الى ان جعل انبا كيرلص كتابا
وسالتهما فيه الدعا بالخلاص مما لنا وسوال جماعة
الاباّ الرهبان ان يهبو لنا ليلة واحدة يصلو فيها عنا.
وكان في الديارات سبع ماية راهب. وسيرت
الكتاب مع راهب من دير نهيا يسمى ابو العلا،
وهو اخو القس يونس المعروف بزكير ريس الدير
المذكور، وكان هذا الشماس ابو العلا الراهب
قديس ايضاً، وكان الاب بسوس يشتهي ان يكون

ويرى الشعرانى أن الأولياء يعطون التصرف بحرف (كن)، أى يقولون للشيء كن فيكون، مع أن ترك التصرف بها مرتبة الأكابر منهم[1]، وقد أعطى أحدهم هذا المقام فتركه وقال «نحن قوم تركنا الحق تعالى يتصرف لنا»[2]، وما أشد تواضع ذلك الولى!!

والأولياء «أسرار الوجود» كما يقول الحنفى[3]، وقد تكلم فقير ببعض الأسرار فقُتل، وقيل أن من أفشى أسرار الله فجزاؤه القتل بالسيف على عوائد الملوك فى قتل من يفشى أسرارهم[4]، وذلك تعليل ظريف لعدم إتيان الولى بكرامة على عيون الأشهاد، وقد عبر الشعرانى عن ضيقه من الفقهاء سلفاً وخلفاً لأنهم يطلبون الكرامة كدليلٍ على الولاية[5]، وعلل الخواص ذلك الخلق من الفقهاء مع عدم وجوده لدى الفقراء بكثرة اعتقاد الأخرين الاعتقاد الصحيح فى شيوخهم عكس الفقهاء[6]. على أن هناك أقوالاً للمتصوفة السابقين فى التهرب من الإتيان بكرامة تنقصها براعة الشعرانى، فعبد القادر الجيلى كان لا يشأ أن يُرى

---

(١) الجواهر والدر ١٢٣.

(٢) اليواقيت والجواهر جـ٢/١٠٦.

(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/٨٨.

(٤) لطائف المنن. الشعرانى ٤٨ ـ ٤٩، وذكر قصة ص٤٠٩ عن عجز المريدين عن تحمل الأسرار من الشيخى.

(٥) لطائف المنن ٩٠.

(٦) درر الغواص ٦٧.

عنده فى ديره لانه قال رايت افعاله توافقنى، فلما اوصل إليه كتابى انفذ الى رهبان جميع الديارات وسالهم فيما سالته فيه، وما راى ان يجمعهم فى موضع واحد خوفاً من السمعة والشناعة وتحريف القول عن الرهبان مع حدة امير الجيوش وشدة بطشه وقوة سلطته، ثم اخذ جمراً يتقد فوقف عليه ودعا لنا، واصبح يوم الميلاد الاول وهو الثامن والعشرين من كيهك وكان يوم سبت فقال له ابو

أحداً منه كرامة إلا بارادته هو، «وكانت الخارقة تظهر أحياناً منه وأحياناً فيه» حسب تعبير مؤلف مناقبه[1].

أما الشاذلى فيقول «أى كرامة أظهر وأعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السُنة»[2]، مع أن أقواله فى عقيدة الاتحاد الصوفية أبعد ما تكون عن ذلك.

وفى مناقب المنوفى أن ظهور الكرامة لا يدل على أفضلية صاحبها، وأنها تصدر عن الوالى بلا قصد ويجب عليه سترها، ويرى المرسى فى طىّ الأرض وهو انتقال الولى إلى أى مكان بخطوة واحدة لصغار الطائفة، أما الطى الأكبر فهو طىّ أوصاف النفوس[3]، وطُلبت كرامة من عبدالعزيز الدرينى، قالوا له «مرادنا شىء يقوى يقيننا واعتقادنا فيك حتى نأخذ عنك الطريق، فقال يا أولادى وهل ثَمّ كرامة من الله لعبدالعزيز أعظم من أن يمسك به الأرض ولم يخسفها به، وقد استحق الخسف من سنين»[4]، واضطُر على وفا للإخبار بالكشف عن مصير غُلامٍ محبوس فقال «لابد له من الخلاص إما فى أول الأمر أو آخره وإن فاته ذلك جميعه

(١) الشطنوفى ـ بهجة الأسرار. مخطوط ١ ـ ٢٩ إلى ٣٠.

(٢) تعطير الأنفاس ـ مخطوط ص٢٠٤.

(٣) مناقب المنوفى، مخطوط من ٥ إلى ٧.

(٤) لواقح الأنوار. ص ٢٤١، ص٣٧١، لطائف المنن ٥٩٢.

العـلا الراهب: اعطنى الجـواب ودعني اعـود الى ديرى بسـبب العـيـد. فـقـال له القـديس بسـوس: الجـواب انهـم قـد تخلصـو وانعم عليـهـم السـيـد المسيح. فـقـال له ابو العـلا الراهـب: اريد الدليل على هذا. فقال له : امضى الى مقاره الامنوت فهو يعرفك. فـجا اليه واعلمه ما قاله بسوس فـقال له مقاره: الذى قاله لك صـحيح فامضى ولا تشك فى قـوله. فـقـال لهـمـا: مـا امضـى الا بالجـواب منكمـا.

فيتخلص ولو على المغتسل، يقول الراوى بسذاجة رأيت ما يؤيد ذلك ويصحح هذه المقـولة[1] ، وفى أسطورة عن زكريا الأنصارى أن ضريراً من الشام قصده ليرد عليه بصره فأمره بالرجوع إلى غزة، وهناك يرد عليه البصر بشرط ألا يرجع مصر فيكف بصره ثانياً بحجة الخوف من ذيوع الخبر، وتقول الأسطورة إن الضرير قد أبصر هناك[2]. والغرض من ذلك هو إشاعة الكرامة دون المطالبة بدليل على صحتها بالإضافة للتخلص من إثباتها أمام الناس.

وكان نصر المجذوب المصرى «يتظاهر بالخطأ فى الكشف حتى لا يعتقده أحد»[3] بنحـو ذلك برروا خطأهم فيما يدّعون من إطلاع على الغيب.

أصناف من أساطير الكرامات

*** علم الغيب:**

١- ويسميه الصوفية كشفاً، وهو أبرز ما ادّعاه الصوفية من كرامات، ويرجع سبب شهرتهم بالكشف إلى أن الصوفي ينتظر أو يحس بالإنكار القلبى عليه فيسبق المنكر محتجاً على إنكاره قبل إعلان المنكر له، فيشتهر الصوفى بقراءة الخاطر، وبالغ الصوفية فى هذا فادّعوا علم الغيب.

(١) مناقب الوفائية. مخطوط ٧٢.
(٢) الطبقات الكبرى ـ الشعرانى جـ٢/١٠٨.
(٣) أخبار القرن العاشر ١٨٥.

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

فقال بسوس لراهب اسمه قسما كان كاتب
ديوان: اكتب عنا كتاب بان السيد المسيح قد
خلصهم في هذا اليوم. وتقدم الى قرابة لنا يسمى
هبة الله ابن منصور كان مختفي هناك ان يكتب لنا
كتاب عنهما بذلك. فاخذ ابو العلا الكتابين
بالخطوط التي يعرفها وهو مورخين بغداة يوم
السبت الذى كان فيه خطاب بسوس له في
الديارات وفيه كان خلالصنا. وذلك انني قدست

٢ـ ويتواضع بعضهم فيتحاشى الدعوة فى شيء من الخمس التى فى آخر سورة لقمان «لأنها من خصائص الحق تعالى» ولكنهم فى الوقت نفسه يؤولون دعوى بعض الأولياء فى علمها[١]، مع أن الغيب كلٌ لا يتجزأ وهو مما اختص الله تعالى به ذاته، ولم يعط الله تعالى العلم ببعض الغيب إلا بعض الرسل مثل يوسف (يوسف٣٧)، وعيسى (آل عمران ٤٩) وأكد القرآن أن خاتم النبيين لا يعلم الغيب.

٣ـ وادّعاءات الصوفية فى هذا المجال يضيق عنها الحصر، فأبو السعود بن أبى العشائر حدّث بإيضاح أحوال الملكوت والآخرة والمنازل والدرجات ومراتب الرجال من آدم إلى يوم القيامة.. إلخ[٢]، ويقول على وفا: ما من نطفة توضع فى رحم.. إلا وقد أطلعنى الله عليها[٣] وادّعى المتبولى بأنه «لاتنزل قطرة من السماء ولا يطلع نبت من الأرض إلا علمت به.. وهذا أمر أعطيته وأنا طفل[٤]»، والعارف يعلم أحوال أهل الجنة علماً لاشك فيه لخروجه عن حجاب بشريته[٥]»، والصوفية يعلمون السرائر لذا نصحوا المريدين بحفظ قلوبهم معهم[٦]..

(١) لطائف المنن للشعرانى ٩، ٤، ٤٣٠.
(٢) الكواكب السيارة ٣١٦، ٣١٧.
(٣) مناقب الوفائية ٤٣.
(٤) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٣٣٧.
(٥) درر الغواص ١١.
(٦) درر الغواص ٨١، قواعد الصوفية جـ١/ ١٥٨، الطبقات الكبرى جـ٢/ ٩٤، ١٥٠.

يوم السبت المذكور سحر فى كنيسة السيدة المعلقة بقصر الشمع ولزونا الاتراك المرسمين علينا فى المسير نحمل قماشنا وقماش المترسمين الى المركب، وعولنا على الانحدار فى ذلك اليوم الى الريف لنستمنح [نأخذ المنح من] الناس فيما نقوم به مما الزمنا به تحت العقوبة. ونزلنا من الكنيسة المذكورة ونحن متوجهين الى المركب، فقبل خروجنا من بابها جانا رسول الامير جمال الملك

وفى قصة البدوى تتردد معرفته بالغيب حتى أن هلال مأذنته بعد موته ينبأ بالغيب[1] واذا ولد ولى يبشر آخر أباه بما سيكون من أمره وفتوحه[2]، وعرف الشاذلى بموته فى حميثرة واستعد لذلك[3]، وكان ابن ماخلا شرطياً يتنبأ للوالى بسريرة المتهم[4]، وفى لطائف المنن ومناقب المنوفى وغيرها من كتب الصوفية أخبار لا تنقطع عن الكشف، «ولولا لسان الشريعة» كما يقول الفرغل «لأخبرتكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم»[5]، وكان شعبان المجذوب «يطلع على ما يقع فى كل سنة من رؤيته لهلالها» وأعطى مجذوب آخر «التمييز بين الأشقياء والسعداء فى الدنيا»[6]، واطلع الخواص على فتوح قلوب الفقراء وكان يخبر بذلك[7]، بل إنهم ادّعوا علم ما فى اللوح المحفوظ وتردد هذا فى كتبهم عن الدسوقى والرفاعى والجيلانى[8] وعبدالرحيم القنائى[9]. ويقول الحنفى لوسألتنى شيئاً لم يكن عندى أجبتك من اللوح المحفوظ[10].

(١) عبدالصمد: الجواهر ٧٦.
(٢) شذرات الذهب جـ٨/ ٣٠، ٣١.
(٣) الإلمام مخطوط مجلد ٢ ـ ٧٩.
(٤) طبقات الشاذلية ١١١، ١١٢.
(٥) مناقب الفرغل ١ مخطوط.
(٦) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ٩، ١٥٩، ١٣٠.
(٧) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١٣٠.
(٨) طبقات الشرنوبى ٧، ٨.
(٩) مناقب عبدالرحيم ١٥.
(١٠) الطبقات الكبرى.

صـاحب البـاب وقـال لنا: الأمـيـر جـمـال الملك
يخصكم بالسلام ويهنيكم باخلاص وقال لكم فى
هذه السـاعـة دخل مـولاه الاوحـد الى والده امـيـر
الجيـوش واسـتـوهبكم منه وامرنى بالإفراج عنكم
فـامضـو اليـه واشكروه. ثم قـال الرسول لا وليك
المترسمين: ارتفعـو عنهم ولا تعترضوهم. فـمضـو
عنا، ولما وصل الينا الكتـابين وعـرفنا الراهب ابو
العلا بما كان، علمنا ان تلك السـاعة التى تخلصنا

وكان محل كشف الخواص اللوح المحفوظ[1]. خاصة وأن نهاية كشف الولى أن يطلع على ما كتب فى اللوح المحفوظ كما يدعى الشعرانى[2].

والشيخ يعلم الخاطر ويمد مريده به، بل يتفاهمان على أساس الخاطر[3]، وكـان الحنفى يقيم ميعاداً سكوتياً فيلقى بخواطره فى قلوب أصحابه كل حسب «مشروبه»[4]، «ويتـحلى الشيخ الصادق بعلم يكشف به الحقائق والدقائق، والقاء الملك، ونفث الشيطان، والنفث فى الروع، والإلهام، وخطرات المريد، ونزعاته وأمراض القلوب وأسرار النفوس»، ويلاحظ مريده من حين كان فى عالم النور قبل وروده وهبوطه إلى أصلاب الآباء وبطون الأمهات، كما يقول الشعرانى[5].

٤ـ وكانت كتب التاريخ كثيراً ما تصف الصوفية بالكشف والعلم بما سيكون[6]، ويروى أبو المحاسن أن أحدهم فى نزاع مع السلطان «جـقـمق» أعلن فى الملأ أن غـريمه السلطان سيموت فى حادى عشر جمادى الأولى، وانتظرت العامة النتيجة، ولكن الشيخ مات قبل ذلك

(١) الطبقات الكبرى. (٢) الجواهر والدرر ١٩٥.
(٣) السبكى معيد النعم ١٥٨، ١٥٩.
(٤) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ٨٢.
(٥) لطائف المنن للشعرانى ٣٨٨.
(٦) ذيل الدرر الكامنة لابن حجر مخطوط ورقة عشرة، ١٦٥.

فـيهـا هى التى قـال فـيـهـا القـديس بسـوس قـد تخلصـو، فتعجبنا من ذلك ومجدنا الله جل اسـمه وشكرناه. وسـار الاوحـد الى مـدينة اسكندرية واصطنعنا واخذنا معه لانها كانت اقطعت له جرياً وخراجاً وخدمناه فيها.

وحكى لى الشماس ابو حبيب ميخاييل ابن بدير الدمنهورى انه كان مختفيا عنده فى الدير فى

اليوم بعشرة أيام ولم يظهر لكلامه صحة، وحاول أبو المحاسن مع ذلك تأويل كلام الشيخ، وأنه كان يقصد نفسه بالموت وأن الجماهير أخطأت فى النقل عنه[1]، مما يتعارض والقصة التى رواها بنفسه الأمر الذى يظهر مدى الإعتقاد فى علم الأولياء للغيب، وفى الأمثال الشعبية ما يعزز هذا كقولهم «إنت شيخ ولاحد قلك»[2].

*** التصريف:**

١ـ يقولون إن الولى خرق العادة حين يعطى حرف كن[3]، أى يقول للشىء كن فيكون، ويقول الجيلى عن نفسه «وأعطيت حرف كن»[4]. بل إن الخواص جعل فى باطن كل إنسان قـوة كن[5]. وفى قصة البدوى مع ركين أنه جعل الشعير قمحاً بكلمة كن[6]، وكـان الشربينى يقول للعصا التى كانت معه كونى إنساناً فتكون إنساناً، ويرسلها تقضى الحوائج ثم تعود كما كانت[7].

٢ـ بل إدعوا أن الولى يتصرف فى الموت والحياة، فالحسن أخو البدوى يميت من تعرض

(١) حوادث الدهور ١٠٧ : ١٠٨ سنة ٨٥٥.
(٢) الأمثال الشعبية لتيمور ٩٩، الشعب المصرى فى أمثاله. شعلان ص١٧٩.
(٣) الجواهر والدرر ١٦١.
(٤) لطائف المنن ١٨٨.
(٥) الجواهر والدرر ١٢٢.
(٦) عبدالصمد: الجواهر ٣٧، ٣٨.
(٧) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١١٨.

بعض الاوقات ومعه جماعة من الاخوة النصارى
مختفين وانه رآه وقد جعل زيت فى مسرجة وبارك
عليه واوقدها لهم، وانه اقام خمسة عشر ليلة
بنسخ الكتب ويقرى مع المذكورين كل ليلة الى
نصف الليل، اعنى ميخاييل، وهو محتاطاً على
المسرجة يرصدها فما فرغت ولا نقصت عن
حدها. وحكى ايضا حضور راهبين من دير ابو
بشوى متخاصمين فاجتهد فى ان يصطلحا فرضى

لهما من الأكراد ثم يعيدهم للحياة، والبدوى يميت جمال فاطمة بنت برى السبعة آلاف[1]، وأحيا على وفا غريقاً عند شاطىء الإسكندرية[2]، وحين مات الجمل أحياه على وفا إلى ما بعد الحج والرجوع إلى مصر «فمن وصوله إلى باب النصر وقع ميتاً فعلمت أن محيي الموتى أبقاه للخدمة»[3]، وأحيا المتبولى والد مريده فأخرجه «من القبر» ينفض التراب عن رأسه حين ناداه الشيخ»[4]، وانتهت كراماتهم مع الأسد ـ أحياناً ـ بإحياء من افترسه الأسد[5].

* إنتحال صفات الله: (من عدم الأكل والشرب والنوم والجماع) وغيرها.

فالبدوى حين نظر عبدالمجيد إلى وجهه صعق[6]، وكان يظل أربعين يوماً بلا طعام ولا شراب شاخصاً ببصره إلى السماء[7]، ورفض الزواج ولم تفلح معه إغراءات فاطمة بنت برى، وقال له الرفاعى فى المنام «فإن جميع الرجال والأبطال قد نظروا فى تاريخ الرجال فما

(١) عبدالصمد. الجواهر ٤٧، ٥١، وكان يصف البدوى فى نهاية كتابه بالمحيى المميت.
(٢) مناقب الوفائية ١٥، ١٦.
(٣) مناقب الوفائية ٧٧، ٤٨.
(٤) الطبقات الكبرى جـ٢/٧٦.
(٥) الإلمام مجلد ٢ لوحة ٧٤، بهجة الأسرار مخطوط جـ١٩/٢ : ٢٠.
(٦) عبدالصمد ١١، ٢٤.
(٧) عبدالصمد ٦، ٧، ١٠، ٣٦، النصيحة العلوية للحلبى ٢٣.

احدهما وامتنع الاخر ومضى ولم يطيعه، ثم عاد اليه بعد ثلثة ايام وقد تبرص وساله وتضرع اليه حتى قلع تراج كان عليه فالبسه اياه ومضى واعاده ثانى يوم وقد تنقا. وحكى لى الشماس يونس الراهب أحد أولاد القديس بسوس انه كان حاضر فى بعض الايام وهو فوق الجوسق يصلى، فدخل الى الدير ثمنية عشر رجلا من السودان فملكوه واخذو رجلا من الرهبان فعذبوه، فنزل

وجدوا من لا تهيج له روحانية ولا ينظر إلى النساء بشهوة إلا أنت يا فحل الرجال»[١]، وكان الشيخ خلف ـ أحد أصحاب البدوى ـ لا يضع جنبه على الأرض ليلاً ولا نهاراً[٢]، وقد سأل الشعرانى الخواص عن قوله تعالى «لا تأخذه سنة ولا نوم» هل خلع الله هذه الصفة على أحد من الأولياء فأجاب نعم ومثّل بعيسى بن نجم الذى ظل بلا نوم سبعة عشر عاماً[٣]، ومكث بعضهم نحو الخمسة شهور[٤]، وآخر سبعة وثلاثين سنة[٥]، وآخر مكث أربعين سنة[٦]، على أن علياً العياشي مكث فترة قياسية حطمت الأرقام السابقة فظل بلا نوم نحو نيّف وسبعين سنة[٧]، وقال اليافعي عن أحد أصحابه «وله إلى تاريخ تأليف هذا الكتاب خمس عشرة سنة لم يضع جنبه الأرض ويمكث أياماً عديدة لا يأكل فيها شيئا»[٨].

ونلمح مثل ذلك فى مدة إمتناع الولى عن الطعام والشراب فتراوحت بين أشهر لا تكمل سنة كما فى حالة ابن عمر التباعي (ت ٧٠٢)[٩]، أو يمكث سنين قد تمتد إلى عشرين

(١) عبدالصمد ١٧، ٤٩.
(٢) عبدالصمد: ٢٨.
(٣) الجواهر والدرر ١٤٠: ١٤٢.
(٤) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/١٥٥.
(٥) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/١٦١
(٦) صحبة الأخبار للشعرانى ١٣٦.
(٧) الطبقات الكبرى جـ٢/١٦٢.
(٨) روض الرياحين ١٧٩.
(٩) النبهانى جامع كرامات الأولياء جـ١/١٣٧.

الاب بسوس من الجوسق اليهم ومسك رقبة
مقدمهم بيده فاخرجه من باب الدير ولم يزل
ياخذهم واحد بعد واحد برقبته الى أن أخرجهم
الجميع واغلقو الباب، فحلفو اوليك السودان ان
ابصارهم عميت وان يده كانت على رقابهم مثل
الحجر الثقيل. وحكى لى الشماس يونس المذكور
ان فى السنة الصعبه كان الدير مقصود اكثر من
العربان وغيرهم، وكان يدفع الكعك والقمح

سنة[١]، وقد تصل أكثر من عشرين[٢]، بل إلى أربعين سنة[٣]، وقد يجتمع عدم الأكل والشرب مع عدم النوم كما فى حالة عيسى بن نجم[٤]، السالف الذكر، وربما يطلق على أحدهم صائم الدهر[٥].

ويخرج الولى بعد تلك الخلوة وذلك الحرمان يظهر الكرامات والخوارق[٦]. ومع ذلك فهم ابطال المآدب، ولهم فى الشراهة كرامات.

هذا وقد عدّ السخاوى من جملة كرامات الأولياء «إنقلاب الأعيان، وكذا المشى على الماء، والكشف عن حال الموتى، وسماع كلامهم، واحياؤهم بإذن الله تعالى، وطى الأرض لهم، والكلام على المستقبل والماضى واخبارهم بالمغيبات، وانفاقهم من الغيب، وإيثارهم على أنفسهم، وانطلاق البحر لهم، وغير ذلك من الكرامات التى شوهدت من كثير منهم»، ونحو ذلك ما قاله ابن عطاء فى لطائف المنن[٧].

(١) السبكى طبقات الشافعية جـ٥/ ٣: ٧.
(٢) الضوء اللامع جـ١/ ٢٠١ ترجمة ابن عرب.
(٣) شذرات الذهب جـ٧/ ٣٥٠.
(٤) تنبيه المغترين ١٣٠ وقد ظل على وضوء واحد.
(٥) ابن إياس تحقيق محمد مصطفى ٢/١ ـ ٣٥١، ٣٥٧ ترجمة شمس الدين التبريزى.
(٦) شذرات الذهب جـ٧/ ٣٥٠.
(٧) تحفة الأحباب ٣٤٩. لطائف المنن ٣٥.

لكلمن يطرقه حتى لم يبق عند الرهبان الا قوت
يوما واحداً فقط وكانو معولين ان ياكلو ويصبحو
يخرجو من الدير هايمين على وجوههم، فطرقهم
قوماً يطلبو ما ياكلو فقال لهم: اعطوهم الذى
عندكم . فتذمرو الرهبان واغتاضو من ذلك فقال
لهم بسكينة وهدو: فى اخر النهار يصل اليكم من
عند المسيح ما يكفاكم ايام فلا تضيقو صدوركم.
فدفعو للقوم القمح الذى كان عندهم فقالو له:

---

*كرامات ما بعد الموت:

١ـ يمكن أن يدخل تحت هذا الإطار الكرامات السابقة واللاحقة لسهولة إدّعاء المتصوفة لكرامة أشياخهم المتوفين دون تقديم إثبات، هذا بالإضافة إلى الدافع المالى فيبالغ المنتفعون فى أكاذيبهم عن كرامات صاحب الضريح طمعاً فى النذور، وحتى لا تفتر حماسة الناس للولى بعد موته[١]، وخشية أن يسرق الأضواء منه ولى آخر على قيد الحياة. وفى كتاب عبدالصمد عن البدوى نلمح إتجاهاً واضحاً لإسناد أكثر الكرامات للأولياء المتوفين. فعبد العال فى ضريحه سمّر شخصاً، والشيخ وهيب يهدد اللصوص إذا حاولوا نهب الودائع التى يضعها أهالى قريته عند ضريحه، والشيخ عمر الشناوى الأشعث يخرج من قبره راكباً فرساً ليغيث زائريه من قطاع الطرق، ومثله الشيخ يوسف البرلسى، وخلف الحبيشى والشيخ عماد الدين وغيرهم[٢]. والهدف من هذا طمأنة القادمين لزيارة الأضرحة وإخافة قُطّاع الطرق. بل إن بعض الأولياء كان يذهب إلى ضريح البدوى يجاذبه أطراف الحديث حتى إن البدوى كان يخرج رأسه من الضريح يسأل عن الشعرانى إذا تخلف عن حضور مولده[٣]، وقال ابن

(١) عاشور البدوى ١٦٣.
(٢) عبدالصمد الجواهر ٢٥ : ٣٥: ٧٠، ٧١.
(٣) عبدالصمد ٣٣، ٦٧، ٦٨.

ياراهب مـــا لنا طاحـــون. ولم يكن فى الدير الا طاحونة فدفعها لهم فتذمرو الرهبان وقالو له: قلت ان القمح يجينا عشية واخذت الطاحونة التى ليس عندنا غيرها ودفعتها لهولا القوم فهل اذا جا القمح نقرقشه او نصلقه؟ فقال لهم لا تقنطو فان الرب ياتينا بما نحتاجه فانه جل اسمه لا يعوزه علم شى فطيبو نفوسكم. حلف هذا يونس انه طلع الجوسق فى الوقت الذى قال له فراى جملين موسقين قمح

الصائغ «من لم تظهر كرامته بعد وفاته.. فليس بصادق»[1]. وكان أبو السعود بن أبى العشائر «كرامته ظاهرة فى حياته ثم بعد وفاته»[2].

ومثله عبدالرحيم القنائى وقد ذكرها رواة مناقبة[3]، ذلك أن الصوفية يعتقدون إعتقاداً جازماً بحياة الولى فى قبره متمتعاً بكراماته متحرراً من قيود الدار الأولى. وقد عد الشعرانى من المنن معرفته بأوقات تواجد الولى المتوفى فى قبره[4].

* الطىّ:

١ـ ويقصد به إنتقال الولى من مكان لآخر فى لمح البصر أو نحوه، يقول ابن عطاء عنه «أن تطوى لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها فى نفَس واحد»[5]، وعليه فقد كان المرسى يحضر يوما من الإسكندرية إلى المقسم حتى يسمع الميعاد ويعود فى نفس الوقت للإسكندرية مع شيخه الشاذلى[6]، ونقل البدوى ابن أخيه من جبل أبى قبيس إلى طنطا فى غمضة عين ثم رده إلى مكانه فى غمضة عين أيضاً[7]، وفى مناقب المنوفى باب عن طى الأرض له مع

(١) الكواكب السيارة ٢٨٧.
(٢) تحفة الأحباب ٤٧٤.
(٣) مناقب عبدالرحيم مخطوط ٢٢ وما بعدها.
(٤) لطائف المنن ١٩٤.
(٥) لطائف المنن ٣٥.
(٦) تعطير الأنفاس ٢٤٦.
(٧) عبدالصمد الجواهر ٥٨، ٦١.

وصلو اليه من بحرى برسالة، وعلى ظهر احد
الجملين طاحون فارسى صحيحة جديدة اكبر من
تلك التى دفعها، فسبحنا الله ومجدناه الذى أطلع
هذا القديس على ما هو مكتوم عن غيره وما ظهر
لنا من قدسه وعجايبه. وحكى ايضاً انه
صعد مرة الى جوسق دير ابو كما ليصلى
واصعدو معهم قفة مملوة كعك فلما صعدو
طرقهم قوماً يطلبو ما ياكلوه فقال له القديس

عدم تحركه[1]، وكان السيوطى يصلى العصر فى مكة ثم يرجع، وقد يصطحب معه خادمه بشرط أن يغمض عينيه، وكان صوفى من أهل الخطوة يقول فى كل يوم زرت سيدى عبدالقادر الجيلانى البارحة، وزرت النبى عليه السلام البارحة، وزرت أبا الحجاج الأقصرى» فقال شيخ الإسلام زكريا الأنصارى «يحتمل أن يكون صادقاً، فإن الأمر ممكن فإن الدنيا خطوة مؤمن»[2].

٢ـ على أن هناك طيًا آخر للزمان، فقد اشتاق بعضهم لأهله فى حصن كيفا، فشاور المتبولى وكان ذلك بعد العصر فأدخله الخلوة، فرأى نفسه داخل بلده والتقى بأهله، ومكث عندهم يخطب فى الجامع ويقرىء الأطفال مدة تسعة أشهر، ثم اشتاق للشيخ فأذن له أبواه فخرج إلى موضع خارج البلد، فإذا هو فى خلوة الشيخ وفى نفس الزمان[3]. وأقام جمال الدين الكردى يخطب فى بلاد الأكراد مدة ستة أشهر ثم رجع إلى مصر، وكل ذلك بعد صلاة العصر[4].

(١) مناقب المنوفى مخطوط ٤١ : ٤٦.
(٢) شذرات الذهب جـ٨/ ٥٤، الطبقات الصغرى للشعرانى ٣٠، ٣١، ٤٤.
(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ ٧٥/٢.
(٤) الجواهر والدرر ١٦٤.

بسوس: اعطهم الكعك. فانزل لهم جميع ما فى
القفة وبقيت القفة مرمية فارغة فى اخر القلاية،
فلما فرغ من الصلاة طرقهم قوم اخر مستطعمين
فادار وجهه اليه وقال له: اعطى هولآ الذى
يصيحو من ذلك الكعك. قال يونس المذكور
فقلت له: ما دفعته [ألم أدفعه] لا وليك الذين
جاو من قبلهم ؟ فقال لى: ما رجعت انا مليتها؟
فقلت له: ما انت منذ صعدت الى هاهنا قايم

*** التطور:**

وهو على أنواع، فقد يتطور الولى لتصير له سبع عيون أو يتربع فى الهواء[1]، أو يتشكل فى صورة أسد أو فيل أو فقير أو أمير أو فلاح أو جندى ويوصف حينئذ بأن «التطور دأبه ليلاً ونهاراً»[2]، وقد يكون للولى أكثر من جسد فيرى فى أكثر من بلد فى وقت واحد[3]، وربما يحلف شخص بالطلاق أنه رآه فى عرفات مراراً وهو لم يذهب للحج[4]، وقد ذهب المرسى إلى خمسة ولائم فى وقت واحد[5]، وصلى محمد الخضرى الجمعة فى ثلاثين بلداً فى وقت واحد، يبيت فى الليلة الواحدة فى عدة بلاد[6].

*** فى قراءة القرآن:**

اتخذت الكرامات هنا وسيلة للهروب من تلاوة القرآن خاصة وأنها ظهرت فى أواخر العصر، فكان أبو السعود الجارحي يصلي بالقرآن فى ركعة أو ركعتين[7].

---

(١) الغزى الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة جـ١/١٩٨ ترجمة الشيخ الغمرى.
(٢) الغزى نفس المرجع جـ١/ ٢١٣ ترجمة سويدان المجذوب، شذرات الذهب جـ٧/٣٥٠ ترجمة حسين الصوفي.
(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/٩٤ ترجمة محمد الخضر.
(٤) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/١٤٩ ترجمة نور الدين الشوفى.
(٥) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٢٦٢. (٦) أخبار القرن العاشر مخطوط ورقة ٥٧.
(٧) شذرات الذهب جـ٨/١٦٦، ١٦٧.

تصـلى مكانك ما برحت، متى مليتها؟ فقال لى: بلا قـد مليـتـهـا وهوذا هى مملوة كـعك فـادفـع لهم منه. فـمـضـيـت اليـهـا بامـره فـوجـدتهـا مملوة كـعك فانزلت بعـضـه لاوليك. وحلف يونس واشـهـد الله على نفسه ان القديس بسوس لم يمسكها بيده مذ فرغتها وجعلتها قدامى فارغة مطروحة على الارض الى ان صلا وصليت معه الثالثة وهو فى مكانه ما برح منه.

وذكر الشعرانى أن أبا العباس الحريشى ذكر أنه قرأ بين المغرب والعشاء خمس ختـمات فقال نور الدين المرصفي «الفقير «يعنى نفسه» وقع له أنه قرأ فى يوم وليلة ثلاثمائة وستين ألف ختمة كل درجة ألف ختمـة[1]» فقال له الشعرانى بالحروف يا سيدى؟ فقال نعم لأن الروح إذا تجردت عن الجسم الكثيف فعلت ذلك، ويقول «ويقع ذلك للأولياء لشرف قدرهم عند الله فإن أعـمار هذه الأمـة قـصـيرة، فـأقدر الله خواص هذه الأمـة على ذلك، ليـرجح أحـدهم فى الأعمال على عُبّاد الأمم السابقة الذين عاشوا نحو الخمسمائة سنة[2].

ويحكي الشعرانى عن نفسه أنه أحرم بصلاة الصبح خلف الإمام الذى افتتح سورة المزمل فسبَق لسانُ الشعرانى للقرآن، فقرأه من أول سورة البقرة ولحقه فى قراءة الركعة الأولى قبل أن يركع[3].

* رؤية الله سبحانه والملائكة والعرش:

إدّعى الصـوفيـة رؤية الله فـيـقـول المرسى إن له أربعين عاماً مـا حـجـب فـيـهـا عن الله طرفـة عـين[4]، وكـان تاج الدين النخال يتجلى عليه الحق فى الخلوة[5]، وجعل الشعرانى من المنن

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/١١٢.
(٢) البحر المورود ٢٦٧، ٢٦٨.
(٣) لطائف المنن ٢٩٤.
(٤) تعطير الأنفاس ٢٢٠، ٢٢١.
(٥) طبقات الشاذلية ١٨ـ١.

ومعلوم مشهور ان يسطس الراهب عميت عينيه فاقام القديس بسوس شهر كامل يصلي عليه حتى انفتحت عينيه، وحكى لي الشماس سنهوت الراهب بدير ابو بشيه عن هذا القديس بسوس عجايب كثيرة يطول شرحها، منها انه تنبى على مرقس ابنه في الرهبنه وهو اخو بقطر انه يغمضه بيده في تلك البرية، وكان مقيم في قرية تسمى ازرى [كفر الزيات]، فحضر اليه وقت وفاته وغمض عينيه.

تشريفه برؤية الله تعالى في النوم خمس مرات، ويقول إن شخصاً ادعى أنه اجتمع به في سوق الوراقين فأنكر عليه بعض العلماء، ويرى الشعراني أن ذلك الإنكار غير صحيح[1]، وقد أطلع الله الشعراني على عدد أصحابه وعرّفه بأنسابهم[2]، وأطلعه على السعداء من البشر والأشقياء منهم.

٢ـ وتوثقت علاقة الأولياء بجبريل، فكان عبدالرحيم القنائي يستشيره فيما يعن من مشكلات مريديه[3]، خاصة وأن مخاطبة جبريل لا يمنع منه لدى الصوفية عقل ولانقل على حد قول الدسوقي[4]، والكلام مع جبريل وغيره من الملائكة من كرامات الأولياء، وليست بمستحيلة ولا منكرة، وكتب الرقائق مشحونة بحديث الأولياء معهم، وقد ذكر بهاء الدين الأخميمي أن ملك الموت أخبره بعمره، واجتمع آخرون بعزرائيل وأوصى بعضهم ـ على ميت ـ منكراً ونكيراً[5]، وكان بعضهم يكلم «الملكيْن الكرام الكاتبين»[6].

(١) لطائف المنن ٣٨٢.

(٢) لطائف المنن ٣٩٣، ٣٥٢.

(٣) مناقب عبدالرحيم، مخطوط، ورقة ١٠، ١١.

(٤) حسن شمه، مسرة العينين، مخطوط، ورقة ٨.

(٥) لطائف المنن ٤٠٣ : ٤٠٤.

(٦) لواقح الأنوار ٣٣٥، والطبقات الكبرى للمناوى. مخطوط ورقة ١٠٦.

وحكى لى القديس مقاره الامنوت والقس زكير ريس دير نهيا والشماس ابو حبيب الدمنهورى ان القديس بسوس، رزقنا الله بركته، قال لهم ولجماعة من الرهبان قبل مضى امير الجيوش الى اسكندرية لمحاربة ولده الاوحد، ان فهد اخى يصير شهيداً باسكندرية وقد سرت له بذلك. وكان الأمر كما قال بعد مدة، وحكى لى جماعة من اولاده الرهبان بديرابو كما منهم مقاره النوبى انه اعلمهم

٣ـ واتخذ الصوفية من العرش مجالاً لكراماتهم حتى أن الدسوقى يقول «أنا العرش أنا الكرسى أنا اللوح أنا القلم»[١]، وتواضع باقى الأولياء. فادّعوا أن أبصارهم تطمح حتى تحيط بالعرش»[٢]، وكان الخضرى يقول «لايكمل الرجل عندنا حتى يكون مقامه تحت قوائم العرش»[٣]، واطلع أحدهم على مقام الشاذلى فوجده عند العرش[٤]. وسُمى ياقوت بالعرشى لأنه كان دائماً ينظر للعرش وليس فى الأرض سوى جسده[٥]، ويقول المرسى «والله إنى لأعرف العرش كما أعرف كفّى هذه[٦]»، وادعى كثير من الأولياء بأنه يعلم أزقة السموات أكثر من علمه بأزقة الأرض[٧].

* **الأسد:**

إستغله الصوفية فى كراماتهم خاصة وأن السباع كانت تهدد الحجاج[٨].

---

(١) حسن شمه مسرة العينين مخطوط ورقة ١٠.
(٢) الجواهر والدرر ١٦٦.
(٣) أخبار القرن العاشر ٦٣.
(٤) لطائف المنن ابن عطاء ٤٤.
(٥) عيون الأخبار جـ٤٤٢/٢، الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٣٣٣.
(٦) تعطير الأنفاس مخطوط ٢٧٣.
(٧) طبقات الشاذلية ١١٨ ترجمة تاج الدين النخال، أخبار القرن العاشر ١٧٥ ترجمة ابن عنان.
(٨) السلوك ٨٨٨/٢/٣.

بقتل اخى فهد قبل وصول الخبر اليه بقتله بيومين والهم تقصو عن الوقت الذى قتل فيه فوجدوه الذى اخبرهم فيه بقتله.

وكان في ايام الاب انبا اخرسطودلوس حبيس في صومعة سنجار اسمه بطرس له عجايب كثيرة منها ان اصبعه انصبغ [بالاحمر] من الكاس المقدس، واقام خمسة عشر سنة مربوط بخرقة، وحدثني يسطس السنجارى القس ببيعة ابو مرقوره

والأسد يتصاغر فى الكرامات الصوفية حين يفترس من ينقذه الولى، وربما يحمل عليه الولى الحطب أو يركبه، أو يلجأ الأسد لبيت الصوفى مستجيراً من جرح(١).

* الذهب:

أدى فقر الصوفية إلى إتخاذهم قلب الأعيان ذهباً جانباً هاماً من كراماتهم تفننوا فى حبكها، مع الحرص على انتهاء الكرامة بأن يعود الذهب إلى حالته الأصلية. وربما يعلن الولى مقدرته على قلب الشيء ذهباً ـ بدون قصد ـ فيتحول ما يشير إليه إشارة عابرة إلى ذهب، ومن الأشياء التى حولت ذهباً الطوب والحطب والهواء والحجر والماء وحتى الباذنجان(٢).

وتفرد الشاذلى بأن الله أوحى إليه ـ فيما يزعم ـ أن يجعل فى بوله ما يشاء يكن ذهباً، ويبدو أنه كان يتحرج من ذلك فيامر خادمه أن يبول على الحجر فيحوله ذهباً(٣)، وكان آخر كلما استنجى بحجر تحول ذهباً(٤).

---

(١) الكواكب السيارة ٢٠٦ : ٢٠٨، بهجة الأسرار ١٩/٢، حياة الحيوان للدميرى ١٥/٢ : ١٦.

(٢) روض الرياحين ١٩٧، الكواكب السيارة ٣١٨. مناقب الحنفى ١٧ : ٢٢١، المدخل لابن الحاج جـ٢/١٧٤، ١٧٥.

(٣) تعطير الأنفاس ٣١، ٤٩.

(٤) المدخل لابن الحاج جـ١٧٥/٢.

الشهيد الجليل بمصر، عن الذى طلع بعده إلى الصومعة المذكورة انه راه واصبعه مشدوداً صبغه، ولم يكن يحله ولا يريه لاحد، وانه كان عنده لما مرض قبل وفاته بثلثة ايام وانه ساله ان يريه[أصبعه]، ولم يزل يلطف به ويضرب له مطانوات الى ان كشفه له فراه احمر كانه فى تلك الساعة غطسه في دم. وحكى لى القس كيل السنجارى فى بيعة السيدة الطاهره، التى فى قرية

---

* **الطعام:**

كان كسابقة مجالاً للكرامات، واحتوت كتب المناقب على الكثير منها، وهى على أنواع منها إحضار ما لذ وطاب من الطعام من حيث لا يدرى أحد[1]، أو أن الولى يميز الطعام الحلال والحرام حين يكون مدعواً، واشتهروا بهذا التخصص لأن حياتهم قامت على الأكل من طعام الناس حراماً أو حلالاً، حتى أن مباراة عقدت بين وليين حضرها الظاهر بيبرس فيما يرويه الصوفية[2] فى هذا الشأن.

وحكيت كرامات على مثال ما روى في السيرة النبوية من أن الطعام القليل يكفى جمعاً عظيماً من الناس، وبولغ فى ذلك على عادة الصوفية[3].

ولم يتحرج الصوفية عن وصف تهالكهم فى حب الطعام، فكان من كرامات ابن عبدربه الصوفى أنه أكل طعام مولد بأكمله، وأكل مرة لحم بقرة كاملة[4]، وكان الشيخ دمرداش إذا غلب عليه الحال يأكل الأردب من الفول، وعمل له الأمير أقبردى الدودار سماطاً فلم يدعُ أحداً من أصحابه، وأكله بنفسه، وكان يكفى خمسمائة نفس، ولم يبق شيئاً، فقال لم أشبع

---

(١) تعطير الأنفاس ٥٥، ٥٦، ٢٣٣، ٢٢٤، ٢٦٣، ٢٦٤.

(٢) الكواكب السيارة ١٠٦، ١٠٧، ١٣١، تحفة الأحباب ٢٤٧، تعطير الأنفاس ٢٣٠.

(٣) لطائف المنن ١٩٠، ٤٩٠. (٤) شذرات الذهب جـ٧/٣٢٣.

تسمى الجديديه[مركز رشيد]، انه كان يقدس فى الصومعة المذكورة بسنجار لهذا القديس بطرس الحبيس فيه فى ايام الاعياد وغيرها، وانه قال له: يا ابى القديس انا ما اشبه اقل تلاميذك؟ فلماذا لا تستدعينى حتى اقدس لك ولا تقدس انت لنفسك. قال له: فلا تستقصى على. قال لى كيل المذكور: فقلت له ان لم تعرفنى السبب والا مضيت عنك ولا ارجع اقدس لك؟. وضربت له

فآتوه بكسر يابسة، وقيل له كيف أكلت ذلك كله؟ فقال: رأيت شبهات فأحضرت طائفة من الجن فاكلوه وحميت الفقراء منه[1].

* كرامات تافهة:

١ـ أصبح إدّعاء الكرامات ميداناً مباحاً أمام كل من هب ودب من مدّعى الصوفية، هذا بالإضافة إلى أن الكرامات فى حد ذاتها تعتبر إنعكاساً لحياة المتصوفة أنفسهم، فعدّ من كرامات الحنفى أنه «إذا وضع يده على الفرس الحرون لم يعد إلى حرونته»[2]، على أن هذا التفكير إنعكس بدوره على نظرة العصر لكرامات المتصوفة أنفسهم، فنجد أبا المحاسن يعد من كرامات يحيى الصنافيرى المجذوب أنه كان يغطس فى الماء البارد فى الشتاء وفى شدة الحر يجلس فى الشمس عريان مكشوف الرأس، ومن كراماته أيضاً أن امرأة أتته وقالت يا سيدى إن لى بقرتين سُرِقتا فقال لها «حُطى الفول فى المدود وهما يأكلان الفول، فمضت عنه، وجعلت الفول فى المدود حتى كان الليل أقبلت البقرتان إلى المدود وأكلتا الفول»[3]. وكان الولى إذا مات فى خانقاه مثلاً تشترى ثيابه بأغلى الأثمان ويعلن أن ثمنها قدر ما أخذه من معلوم أى مرتب الخانقاه[4].

(١) الغزى الكواكب السائرة جـ١/١٩٣.
(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/٨٨.
(٣) المنهل الصافى جـ٥/٤٨١.
(٤) أنباء الغمر جـ٣/٣٨٤ ـ ٣٨٥.

مطانوه فقال لى: ولا بد لك؟. قلت له : نعم. فقال لى : قدست دفعة فى كنيسة دمرو [الخمارة(*) قبل طلوعى الى هاذى الصومعة فلما جعلت اصبعى على حافت الكاس وقلت هذا يصير دم المسيح فاض الكاس حتى امتلا الى شفتيه وانصبغ اصبعى] وغشى على ولحقنى رعب عظيم، ومن ذلك اليوم شددت اصبعى حتى لا يراه احد وما قدست الى يومى هذا ولا اقدس ابدا.

(*) دمروا الخمارة: هى أحدى ثلاث قرى فى دمروا.

٣ـ لذا كان من المقبول أن يتقبل الرأى العام إدّعاءات الصوفية بالغاً ما بلغت تفاهتها. فكان حسن إبريق العابد إذا وقع الدلو منه في البئر يأمر الماء. أن يرتفع بالدلو وقد أعطى انساب جميع الحيوانات، وكان حسن الطراوى إذا فقد ماء الوضوء ينزل عليه ولى من السماء فى عنقه قربة مملوءة من ماء النيل[١]، ويدعى الشعرانى أنه كشف عنه الحجاب فى عام ٩٢٣ حتى سمع تسبيح الجمادات والحيوانات من البهائم وغيرها، ويسمع من تكلم فى أطراف مصر وقراها إلى سائر أقاليم الأرض ثم إلى البحر المحيط حتى صار يسمع تسبيح السمك[٢]، ووحلت سفينة فقال أحد الأولياء «إربطوها فى بيضى بحبل وأنا أنزل وأسحبها، ففعلوا فسحبها ببيضه حتى تخلصت من الوحل إلى البحر»[٣]، وكان أحدهم يقسم الأرزاق بين الحيوانات والطيور زمن القحط[٤]، وكان آخر يضرب الأرض برجله فينبع الماء ثم يضربها ثانية فيخرج منها قدحاً يضع فيه الماء[٥]، وكان الشيخ محمد الكناس من أصحاب البدوى يكنس مقام البدوى والجيلى والرفاعى وعدة مقامات فى بلاد المغرب وغيرها ويرجع إلى طنطا فى ساعة[٦]. وخرج الشيخ البلتاجى من قبره ليعيد حمارة ضائعة ليوسف العجمى[٧]، وكان

(١) الطبقات الكبرى للمناوى ٣٨٦.
(٢) لطائف المنن. ٢٣.
(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/٧٨.
(٤) بهجة الأسرار للشطنوفى جـ٢/٢٨.
(٥) الإلمام مجلد ٢/٧٦.
(٦) الطبقات الصغرى للمناوى مخطوط ورقة ٢٦٥.
(٧) الطبقات الكبرى للمناوى ٣٨٤.

وكان بنوسا [مركز أجا] شيخ اطروش قديس
حبيس فى صومعة اسمه شنوده فانفذت له اساله
ان يدعو لى ولاخى فهد بالخلاص وكنا يوميذ فى
يد امير الجيوش فى القبض، فعاد الى الجواب منه
غداة يوم الجمعة قايلا: قد خلصكم السيد المسيح
اليوم. فلما كان ثانى يوم وصل الى كتاب من اخى
من مصر يذكر فيه وصوله اليها، وانه دخل الى
امير الجيوش غداة يوم الجمعة بمال باع به الرباع

أبو العباس الحرار حين يستنجى تستحلفه الأحجار بالله ألا يستنجى بها، وأخيراً يجد حجراً يقول له إن الله أمرنى أن أتطهر بك[1]!!

٤ـ واخترعت الكرامات الصوفية نوعاً من الأولياء يطيرون فى الهواء، وقد أولم الشيخ البسطامى وليمة فاخرة لهم فتساقطوا من الهواء وأتوا عليها[2]، وقد طار المرسى فى الهواء ليستوثق من أن خادمه يكذب عليه حين قال له أنه سقى الفرس[3].

وعكست الكرامات الصراع بين الأولياء، فقيل عن حبيب المجذوب أنه كان كثير العطب ليست له كرامة إلا فى أذى الناس[4]. ومد أبو عبدالله المكى يده من المغرب فهدم الخلوة على زروق الفاسى فى بولاق، فنجاه الله ببركة أبى العباس الحضرمى[5][*].

(١) الطبقات الكبرى للمناوى ٢٦٤.
(٢) مناقب الحنفى ٣٨٩.
(٣) تعطير الأنفاس ٢٤١.
(٤) الطبقات الكبرى للمناوى ٣٨٥.
(٥) طبقات الشاذلية ١٢٠.
(*) انظر: العقائد الدينية فى مصر المملوكية. د. أحمد صبحى منصور سلسلة تاريخ المصريين. رقم ١٨٦. الهيئة العامة للكتاب القاهرة. عام ٢٠٠٠.

التى كانت لى باسكندرية، وانه اخذه منه وسامحه بالباقى من خط كنت الزمت به حتى كتبته بخمسة الف دينار وهو الفى دينار ورفع عنه الترسيم، ويقول فيه: وقد احسن الله خلاصنا فى هذه الساعة. وهى الساعة التى ذكرها شنوده القديس الحبيس. وحكى لى خالى صدقه ابن سرور نيح الله نفسه عن حكاية مرقوره الشماس ابن القس وزير الفوى، انه كان بدير ابو يحنس راهب

---

١٢. نهاية دولة سلاطين المماليك:

شهد القرن التاسع الهجرى ـ الخامس عشر للميلاد ـ تدهورا سريعا فى أوضاع دولة المماليك، وهو تدهور يرجع فى المقام الأول الى اختلال نظامهم الاجتماعى والحربى من ناحية، وسوء سياسة السلاطين الداخلية من ناحية أخرى. فبعد أن كان المماليك يجلبون صغارا وينشئون نشأة قويمة أساسها الطاعة والنظام، صاروا يجلبون الى مصر كبارا. بل أن بعضهم جاء بعدبلوغ سن الرشد[١]. ثم ان السلاطين عدلوا عن تسليمهم للفقيه«ليربيهم بالآداب والحشمة والحرمة»[٢]، وتركوهم وشأنهم، كما سمحوا لهم بالنزول من طباقهم وتهاونوا معهم فى أخطائهم. وترتب على ذلك أن فقد المماليك روح النظام والطاعة،وهى الروح التى ميزت أسلافهم الأوائل، وحلت محلها روح التمرد والعصيان. فاذا وزع السلطان دراهم الكسوة على مماليكه امتنعوا عن أخذها وطلبوا المزيد، بل بلغ الأمر ببعضهم أن قتل أستاذه من أجل تحقيق أطماعه الخاصة[٣]. وساعد على هذه الفوضى انقسام المماليك شيعا وأحزابا متطاحنة فى عهد سلطان واحد، فنسمع فى عهد السلطان المؤيد شيخ عن المماليك الأشرفية والظاهرية والمؤيدية. ولم يقتصر الأمر على الصرع فى شوارع القاهرة بين طوائف المماليك، مما أثار نوعا من الفوضى وترك أثرا سيئا فى أوضاع البلاد وخاصة الاقتصادية وانما أخذت كل

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١٧٣ .
(٢) المقريزى: كتاب السلوك ، ج٢ ، ص ٥٢٤ ، حوادث سنة ٧٤١ هـ .
(٣) ابن تغرى بردى: حوادث الدهور ، ج١ ص ١١٣ ، السخاوى: التبر المسبوك ، ص ٣٥٢ .

قديس يسمى كييل ابن الجندى، وانه مضى اليه برسالة من ابى البدر ابن صقيل الرشيدى اخو تادرس اسقف رشيد، وهذين هما خالين خالى صدقه ابن سرور المذكور، وكان صحبة هذا مرقوره الفوى رجلا نصرانى من اهل فوه(*)، قال مرقوره: كلما قرعنا على كييل ابن الجندى باب منشوبيته خرج وفتح لنا الباب وقال لذلك الرجل يافلان وسماه باسمه ما خفت من السيد المسيح ربنا لما

(*) فوه: تقع على فرع النيل قرب رشيد بينها وبين البحر ستة أميال. وهى مدينة تجارية وميناء هام. والفوه هي العروق التى تصبغ بها الثياب الحمر. اسمها الفرعونى «بوى» وقد قلبت الباء فاء كما

طائفة تتجسس على الأخرى. فاذا مرض مملوك من غير طائفته، أسرع مملوك آخر الى أخذ اقطاعه حيا كان أو ميتا. كذلك أدى عدم انضباط المماليك الى تعرضهم لحريم الأهالى وأولادهم، حتى أمسوا رمزا للسلب والنهب والإجرام وعنوانا للفوضى وعدم الاستقرار فى البلاد[1]. وهذا ما صار اليه المماليك على أيام المقريزى المتوفى سنة ١٤٤١م (٨٤٥هـ)، الذى وصف المماليك على أيامه بأنهم «ليس فيهم الا من من هو أزنى من قرد وألص من فأرة وأفسد من ذئب». أما المؤرخ أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الذى ينحدر من أصل مماليكى والذى توفى سنة ١٤٦٩م (٨٧٤هـ) فقد قال عن المماليك فى أيامه بأنهم «ليس لهم صناعة الا نهب البضاعة، يتقوون على الضعيف ويشرهون حتى فى الرغيف، جهادهم الاخراق بالرئيس، وغزوهم فى التبن والدريس!!»[2].

هذا الى أن فساد النظام الاقطاعى فى أواخر عصر المماليك أدى اختلال نظام الجيش نفسه، لأن الجيش قام على أسس اقطاعية بحتة. وكانت أبرز مظاهر ذلك الخلل تصرف الأمراء والأجناد فى اقطاعهم عن طريق البيع والتنازل والمقايضة فمن أراد النزول عن اقطاعه حمل مالا الى بيت المال بحسب ما يقرر عليه، الأمر الذى أدى إلى دخول كثير من الكتاب وأرباب الوظائف الدينية وأرباب الصنائع والحرف ضمن أجناد الجيش[3].

(١) ابن تغرى بردى: حوادث الدهور، ج٢، ص ٣٣٤.
ابن قاضى شهبة: الإعلام، ج٤، ص ١٨٦.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٢٩.
(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ٢١٩.

قلبت فى فاو والفيوم وادفو وأطفيح وغيرها. وهى الآن مركز هام تابع لمحافظة كفر الشيخ.

فسقت بالصبى ليلة الاحد فى الطاحون بفوة. فسقط الرجل على الارض وتعلق برجلى كييل وبكا، وساله ان يستغفر له فضمنه وقال له: ان انت تبت فانا اضمن لك الغفران. فتاب لوقته فقال له: طب نفساً فان الرب قد غفر لك. ثم قال لي: اهلا بالشماس مرقوره ابن وزير القس جيتنى برسالة من ابى البدر ابن صقيل [الرشيدى] قول له عنى انت رجل جيد غير انك اذا صليت تصيح

ومن ناحية أخر ى، فان سلاطين المماليك فى القرن التاسع الهجرى اتبعوا سياسة اقتصادية قاسية، فتطرفوا فى الاحتكار – مثلما فعل برسباى وقايتباى بوجه خاص ـ وأمعنوا فى جمع الضرائب مقدما دفعة واحدة، فضلا عن التلاعب فى العملة لتستفيد الخزانة من الفارق بين العملة الجيدة والعملة الرديئة، ومضاعفة المكوس والرسوم، مما سبب ضائقة اقتصادية خطيرة فى البلاد سنة ١٤٩٢م (٨٩٧هـ)[١].

وزاد الطين بلة أن جمهورية جنوة أ خذت تبحث عن طريق جديد الى الشرق بدلا من طريق مصر، بعد أن أدت سياسة المماليك الاحتكار ية الى ارتفا ع أثمان التوابل ارتفاعا غير محتمل، حتى انها صارت تباع للتجار الأوربين فى الاسكندرية ودمياط بثمن يفوق أربعين مرة أثمانها المستوردة بها الى مصر، وكان أن نجح البرتغاليون فى نهاية القرن الخامس عشر للميلاد (أوائل القرن العاشر للهجرة) فى الوصول الى الهند عن طريق الطواف حول أفريقيا، وبذلك حققوا نصرا عالميا جديدا واستطاعوا أن يوفروا للسوق الأوروبية التوابل وغيرها من حاصلات الشرق الأقصى، بثمن يبلغ ربع الثمن الذى كانت تباع به فى الاسكندر ية ودمياط. وسرعان ما اهتزت سلطنة المماليك لذلك الانقلاب المفاجئ فى طرق التجارة، مما حرم المماليك من المورد الأول الذى استمدوا منه أسباب قوتهم وعظمتهم. وعبثا حاول السلطان الغورى أن يعيد عقارب الساعة الى الوراء اذا انتصر البرتغاليون فى النهاية على الأسطول المماليكى فى موقعة

(١) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٨٧ (تحقيق محمد مصطفى).

كثير فاخفط [فأخفض] صوتك قليلا اذا صليت.
ثم قال لى جواب الرسالة من غير ان اقول له شيا، فتعجبنا من قدسه وعدنا نسبح الله. وكان والد هذا كييل الراهب جندى يخدم السلطان وهو على دينه وخدمته بالقاهرة فسال كييل السيد المسيح فيه ان ياتي به اليه ويهديه ان يتعمد، فبينما هو ذات يوم فى منشوبيته قرع عليه ابوه الباب فخرج اليه فوجده راكب فرسه بقوسه ونشابه وجعبته

ديو البحرية سنة ١٥٠٩م (٩١٥هـ[١]). وهكذا ذبلت تجارة مصر مع الشرق الأقصى والغرب الأوروبى جميعا. وبذبول تلك التجارة ذبلت الدولة نفسها. كان ذلك فى الوقت الذى لاح على مسرح الشرق الأدنى خطر جسيم قدر له أن يجهز على سلطنة المماليك فى مصر والشام، وهو خطر الأتراك العثمانيين.

اما هؤلاء العثمانيون فهم من الأتراك اضطروا فى بداية القرن الثالث عشر للميلاد ـ السابع الهجرى ـ الى أن يتحركوا تحت ضغط التتار من اقليم خراسان حتى استقر بهم المقام فى آسيا الصغرى. ولم يلبث أن أدى انهيار سلطنة سلاجقة الروم فى أوائل القرى التالى الى اتاحة فرصة للعثمانيين فأخذوا يتوسعون بسرعة فى آسيا الصغرى والبلقان حتى سقطت القسطنطينية فى أيديهم سنة ١٤٥٣م (٨٥٧هـ)، وبذلك قاربت الدولة العثمانية فى تاريخها نقطة مفترق الطريق، فهل تواصل توسعها فى وسط أوروبا أم تتجه الى التوسع فى الشرق؟ وعندما اختار العثمانيون الطريق الأخير صار الصدام بينهم وبين المماليك أمرا لامندوحة عنه،اذ كان لابد لاحدى هاتين القوتين اللتين تتزعمان العالم الاسلامى فى الشرق الأدنى من أن تسحق منافستها لتستأثر بزعامة المسلمين فى المنطقة[٢].

(١) المصدر السابق، ج٤ ، ص ٨٢ ، ٢٨٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٦ .
(٢) محمد مصطفى زيادة: نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ (بحث نشر فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٥١).

وسلاحه فتلقاه بفرح وادخله المنشوبية وساله عن
سبب مجيه فقال له: شخص ما اعرفه ساقنى من
القاهره الى هاهنا بغير اختيارى. ففرح به ووعظه
وعرفه شرف دين المسيح وفضايله ودعاه اليه
فاجابه وتعمد واقام عنده زمان وكانت عدته معلقه
فى المنشوبيه مدة طويلة والرهبان وغيرهم
يشاهدوها. واعلمنى ابو يعقوب الراهب ان كييل
المذكور وقف يصلى ليلة الاحد بين يدى صورة
الست السيدة مرتمريم العذرى الى بالغداة، فكلمه

وفى الصراع الذى قام بين المماليك والعثمانيين كان من الصعب أن يصمد المماليك بعد أن اختل نظامهم فى الداخل، وفقدت دولتهم المورد الأول لثروتها وقوتها. وهكذا حلت الهزيمة بالسلطان الغورى عند مرج دابق ـ قرب حلب سنة ١٥١٦م (٩٢٢هـ)[١]. ورغم الشجاعة الكبيرة التى أبدها طومان باى آخر سلاطين المماليك ـ فان السلطان سليم العثمانى استطاع الانتصار عليه، والسيطرة على مصر. وتروى المصادر أنه عندما وقع طومان باى فى قبضة غريمه السلطان سليم، فانه واجهه فى شجاعة، وقال له «الأنفس التى تربت فى العز لاتقبل الذل. وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب؟ لاأنتم أفرس منا، ولاأشجع منا، وليس فى عسكرك من يقايسنى فى حومة القتال!!». وكان أن سيق طومان باى الى باب زويلة حيث شنق سنة ١٥١٧م (٩٢٣هـ).

وهكذا انتهت دولة سلاطين المماليك، وهى الدولة التى كانت فيها مصر قوة مستقلة ذات نفوذ عريض فى الشرق والغرب جميعا، ونشاط واسع فى ميادين الحرب والسلم. وبنهاية هذه الدولة، دخلت مصر مرحلة أخرى من مراحل تاريخها الحافل الطويل[*].

(١) ابن زنبل: آخرة المماليك، ص ١٢٢ ـ ١٣٦.

(*) انظر: تاريخ مصر الإسلامية: أ.د. سيدة إسماعيل كاشف، أ.د. جمال الدين سرور، أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور. أعدها للنشر: أ.د. عبدالعظيم رمضان. سلسلة تاريخ المصريين رقم ٦٣. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٣.

ابليس خزاه الله من خلف الصورة وقال له: قد تعبت ياكييل يكفي. فزجره كييل كعادته معه وقال له: جيت ايضا؟. وصلب عليه فصار زوبعة سودا ومضى عنه يدوى. وبعد هذا قال لجماعة من الرهبان اذا كان يوم الجمعة وقت الساعة التاسعة احضرو عندى لاودعكم فانى راحل عنكم فى ذلك اليوم، فلما كان يوم الجمعة حضرو عنده فوقف يخدمهم داخل وخارج فى جملة

المجاعات فى العصر الفاطمى وأسبابها(*)

لما كان من المتعارف عليه لدى المؤرخين أن حالة فيضان النيل نقصاً أو زيادة، تؤثر على حياة المصريين أن رخاء أو قحطاً ، فإنه من البديهى إن نحاول أولاً التعرف على حدود الفيضان النافعة والضارة إبان فترة الدراسة ، وقبل التعرض لأحداث المجاعات وتحليل أسبابها.

ورغم وجود المقاييس على النيل، والمناداة اليومية على مقدار زيادة النيل، مما يتيح لعامة الناس معرفة حد الوفاء، إلا أننا ندهش أمام حجم التناقض الملحوظ فى كتابات المؤرخين بهذا الشأن.

فإذا كان من المتفق عليه بين معظم المؤرخين أن حد الوفاء عند غزو العرب كان الستة عشر ذراعاً، والتى كانت تكفى لزراعة أرض مصر، ويفيض من الغلات مايكفى لسنتين كما يذكر المقريزى نقلاً عن القضاعى[1] (ت ٤٥٤ هـ)، فإنه ومنذ منتصف القرن الرابع الهجرى تقريباً، نجد اختلافاً واضحاً فى ذكر حدود الوفاء، وما يتطرق إليه الحديث عند سرد أحداث المجاعات ومستوى الفيضان وقتها.

فعلى حين يذكر المسعودى أن ١٦ ذراعاً تكفى لزراعة ثلاثة أرباع أرض مصر، وان ١٧ ذراعاً

(*) انظر: مجاعات مصر الفاطمية. د. أحمد السيد الصاوى. دار التضامن. بيروت ١٩٨٨.

(١) المقريزى: الخطط ـ ج١ ص٥٩. القلقشندى: صبح الأعشى ـ ج٣ص ٢٩٤.

السلامة ويتحدث معهم، في الساعة السادسة فقام الى المحم[الحمام= المغطس] فافاض عليه ما[ء] حار ولبس ثياب نظاف قد اعدها لنفسه وانضجع قدامهم وقال اقرو على المزامير، وكان يتحدث معي الى الساعة التاسعة ثم ودعهم وتنيح.

كان وصل من الاندلس الى اسكندرية انسان من مقدمي الاندلس يعرف بابي يونس وهو قرابة

فيها كامل النفع، وأن ١٨ ذراعاً تؤدى إلى الإستبحار وتلف مراعى الماشية[١]، نجد أن المقريزى عند تعرضه للمجاعة التى حدثت عام ٣٥٤هـ /٩٦٥م بسبب نقص الفيضان، يشير إلى أن مبلغ الزيادة كان سته عشر ذراعاً وأصابع[٢]. وفى هذا الصدد فإن د. المناوى رجح ما ذكره المسعودى بحكم قربه من هذا التأريخ إذ انتهى من وضع كتابه حوالى عام ٣٣٢هـ /٩٤٤م[٣]. غير أن الأمر فى حاجة إلى أكثر من ترجيح رأى على آخر استناداً إلى عامل الزمن فقط، ونود أن نلفت النظر هنا إلى أمور مهمة:

١ - أن حد الوفاء كان يتغير بتقادم الزمن بسبب ترسبات الطمى الذى يجلبه الفيضان، مما يؤدى إلى ارتفاع منسوب التربة، وإن كان هذا التغير الطبيعي يتسم بالبطء، نظراً لوجود ترسبات طينية أيضا فى مجرى النهر، الأمر الذى يعنى إرتفاع منسوب النهر بالتالى.

٢ـ أن هذا الحد كان شديد التأثر بحالة الجسور والترع، ومدى إهتمام الحكومات بمشروعات الرى، فإذا ما وضعنا فى الحسبان حالة الاضطراب التى سادت مصر منذ سقوط الدولة الطولونية سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤ـ٩٠٥م ودوام نزاعات الجند، وتوالى الأزمات الاقتصادية،

---

(١) المسعودى: مروج الذهب ـ ج١ص ٢١١ـ ٢١٢.

(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ص ١٢

(٣) د. محمد حمدى المناوى: نهر النيل فى المكتبة العربية. القاهرة ١٩٦٦ ص ١٦٨ هامش (٤).

صاحب المرية(*) المدينة وكان بيني وبينه مودة
نزوله في دار الوكالة الذى لى، وكنت قد سمعت
ن جماعة تجار من الاندلس شيوخ ان بالاندلس
عند بيعة السيدة الطاهرة مرتمريم شجرة زيتون
ورق وتثمر في ليلة عيد تلك الكنيسة كل سنة،
ووقع اجتماعهم على صحة هذا الامر(*)، فلما
وصل الاندلسي المذكور سالته عن صحة ذلك
فاستدعا غلاماً له اسمه رشيد، وكان غلاماً عاقلا

(*) المرية: ميناء وعاصمة اقليم المرية في الجنوب الشرقي لأسبانيا. كانت في هذه الفترة تحت حكم بنو صمادح من ملوك الطوائف.

(*) يورد الدكتور عبد العزيز الأهواني في كتاب «نصوص عن الاندلس» نشره معهد الدراسات الاسلامية. مدريد ١٩٦٥م النص التالي عن ابن الدلائي، أحمد

في مدة حكم الأخشيديين، لأمكننا القول بأن تدهوراً قد طرأ على حد الوفاء نتيجة لإهمال مشروعات الرى، إلا أن هذا التدهور لم يكن ليعني أن ١٦ ذراعاً هو حد المجاعة خاصة وأن النيل كان يصل إلى هذا الحد في سنوات لاحقة ولم تحدث مجاعات.

٣ـ أن ثمة ملاحظة جديرة بالإلتفات، إبداها المقريزى في معرض حديثه عن المجاعة التي روعت البلاد عام ٧٩٦هـ/١٣٩٣ـ١٣٩٤م إذ ذكر أن عادة بلاد مصر منذ الزمن القديم، إذا تأخر جرى النيل بها أن يمتد الغلاء سنتين[1]. وفسر ذلك بأن السنة الأولى تقل الغلال فيها، ويزداد الطلب عليها، فاذا ما وفى النيل العام التالي، كانت الحاجة ماسة إلى الحبوب لبذرها، فيزداد إرتفاع أسعارها. وعلى ضوء ذلك يمكن فهم سبب هذه المجاعة التي وقعت عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م- رغم بلوغ النيل ١٦ ذراعاً حسب المقريزى و١٦ ذراعاً و١٥ أصبعاً حسب «أبو المحاسن» ـ على أنها استمرار للمجاعة التي شملت البلاد منذ ٣٥٢هـ /٩٦٣م، حيث بلغت الزيادة في سنة ٣٥٣هـ خمسة عشر ذراعاً وأربع أصابع[2]. أما إذا صح ما ذكره بن أيبك الدوادارى عن إرتفاع الفيضان (١٦ ذراعاً و١٥ أصبعاً عام ٣٥٣هـ و١٤ ذراعاً و١٩ أصبعاً عام ٣٥٤هـ) فإن مجاعة عام ٣٥٤هـ يكون سببها هو نقص الفيضان، بينما ينطبق التفسير الذى أورده المقريزى على مجاعة سنة ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م.

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٤١ ـ ٤٢.
(٢) المصدر السابق ص ١١.

يتولى جميع ماله، فقال له: يا رشيد هذا الشيخ قد استعلم منى حال الشجرة الزيتون التى عند البيعة وانت كنت معى عند مضى اليها فاجلس حتى احدثه ليلا يغيب شى عنى فتذكرنى به. ثم التفت وقال: انا كشفت حال هذه الشجرة الزيتون لاننى كنت اكذب من يحكى عنها فسرت الى موضع هذه الشجرة وهى عند كنيسة تعرف بمريم، بينها وبين المرية المدينة ثلثة ايام، وهو موضع يسمى

بن عمرو بن أنس العذرى (ت ٤٧٨هـ): «... ومن الغرائب زيتونة فى كنيسة فى حومة بجبل على مقربة من مدينة لورقة وبقرب حصن هناك يعرف بميربيط (سرنيط)، إذ كان أوان صلاة العصر من اليوم الذى يستقبل أول ليلة من شهر مايو نوّرت الزيتونة فلا يأتى الليل إلا وقد عقدت فتصبح من تلك الليلة والزيتونة كلها قد أسود ثمرها من الزيتون وطاب. وقد عرف الناس ذلك ووقفوا عليها، وأرسل الأمراء قديماً إليها. وقد

ومهما يكن من أمر، فقد أصبح واضحاً أن ١٦ ذراعاً لم تعد كافية لزراعة جميع أراضى مصر، حسبما ذكر المسعودى وحسبما تؤكد الروايات التاريخية، وذلك قبيل العصر الفاطمى وإن كانت لاتعنى القحط.

أما فى العصر الفاطمى فإن التوصل إلى معرفة يقينية لحد الوفاء يعد أمراً مشوباً بالمخاطر، فعلى حين يؤكد المقريزى أن زيادة النيل النافعة هى ١٦ ذراعاً إلى ما بعد سنة ٥٠٠هـ، وأن زيادة ١٧ ذراعاً تزيد خراج مصر ١٠٠,٠٠٠ دينار لما يروى من الأراضى العالية[1]، يشير هو نفسه إلى إستمرار الغلاء أعوام ٣٥٨هـ، ٣٥٩هـ ٣٦٠هـ، والتى بلغ النيل خلالها ١٦ ذراعاً و٢٠ إصبعاً، ١٧ ذرعاً ٢١ إصبعاً، ١٧ ذراعاً، و٢١ إصبعاً، على التوالى، وأن الأسعار إنخفضت وأخصبت الأرض وحصل الرخاء عام ٣٦١هـ/١٧١- ٩٧٢م، على الرغم من أن النيل بلغ ١٧ ذراعاً وأربعة أصابع[2]. وإذا أمكن القول بأن سبب هذه المجاعات يعود إلى اضطراب البلاد عند الفتح الفاطمى، فإن المقريزى يقرر صراحة أن المجاعة التى وقعت عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م سببها نقص الفيضان الذى بلغ ١٦ ذراعاً وأصابع[3]. ثم يزيد ناصر خسرو،

(١) المقريزى: الخطط - ج١ص٦٠- ٦١.

(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ص ١٣.

(٣) المصدر نفسه.

«انظر واعجب» فنصبت خيمتى تحت الشجرة وهى على باب الكنيسة وليس عليها يوميذ ورقة خضر، وكان معى اربعين فارساً من اصحابى، وكان ليلة عيد تلك الكنيسة وقد حج لها الناس من كل موضع، فبتنا هناك الى بكره، فلما طلعت الشمس يوم العيد اخضرت الشجرة والناس كلهم ينظروها وتفتحت اغصانها واينع ورقها ثم تكاثر الورق وظهر الثمر وتكون الزيتون وتزايد وتكاثر الى

قطعها أهل تلك الناحية لكثرة الوارد عليهم بسببها فبقيت مقطوعة زماناً، ثم لقح الأصل بعد ذلك، وهي باقية إلى اليوم على حالها الموصوف.
وقد رأيت من قدم خبرها أن إبراهيم ابن يعقوب الاسرائيلى الطرطوشى أخبر أن ملك الروم برومية سنة خمسين وثلثمائه من الهجرة (٩٦١م) قال له إنى أريد أن أرسل إلى أميرا المؤمنين بالاندلس قوماً (قسيس) حاذقاً بهدية، وان من أعظم حوائجى عنده، وأجل مطالبى قبله، وذلك

الذى زار مصر خلال أعوام ٤٣٩ ـ ٤٤٢، الأمر تعقيداً، فيذكر أن الزيادة المعهودة هى ١٨ ذرعاً وأنه كلما قلت الزيادة عن ذلك قيل إن النيل ناقص[١] وعلى النقيض من ذلك تماماً، وقعت المجاعة عام ٥٣٢هـ/١١٣٧ـ ١١٣٨م بسبب توقف النيل[٢] الذى بلغ فى هذه السنة ١٨ ذراعاً و١٢ إصبعاً[٣]، أو ١٧ ذراعاً و٣أصابع طبقاً لابن أبيك. أما أنه «حصل غرق نجم عنه تلف» عام ٥٥٩هـ[٤]، وزيادة النيل ١٨ ذراعاً و١٠ أصابع (أو ٨أصابع)وسنلحظ خلال هذا البحث أن بعض المجاعات، وقعت والزيادة تخطت الذراع السادسة عشر بأصابع بل والذراع السابعة عشر، فى حين أن زيادة النيل قلت عن ذلك فى سنوات كثيرة ولم تحدث المجاعة. ومن استقراء بيانات الفيضانات يمكن الجزم بأن حد القحط خلال العصر الفاطمى كان ما دون الذراع الخامسة عشر، وكان هذا الحد عند الفتح العربى ١٢ ذرعاً. فزيادة النيل لم

(١) ناصر خسرو : سفر نامه ـ ترجمة وتعليق د. يحيى الخشاب ـ لجنة التاليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٤٥ ـ ص ٤٢.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ـ تحقيق د. محمد حلمى محمد - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ١٩٧٣٣ ـ ج٣ ص١٦٥ ـ ١٦٦.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ ص ٢٦٣.
(٤) د. راشد الراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ـ النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٤٨ص - ٣٧٠

نصف النهار فصار فيها من الزيتون مالا يحصى، فعند ذلك خرج قيم البيعة واخذ من الزيتون ما عصره واوقدمنه قناديل البيعة وصلو وكملو قداسهم وتقربو ثم انصرفو عايدين الى مواطنهم، وعرفت ان القيم وخدام البيعة بعد انقضى العيد يجمعو ذلك الزيتون فيكفاهم لوقيد القناديل وسرج البيعة وما يحتاجو للاكل طول السنة، واخذت انا من ذلك الزيتون وجماعة من الناس

أنه صحّ عندى أن في القاعة الكريمة كنيسة وفي الدار منها زيتونة إذا كان ليلة الميلاد نوّرت وعقدت وأطعمت من نهارها، فاعلم أن لشهيدها محلاً عظيماً عند الله عزّ وجلّ فاضرع إلى معاليه في تسليل أهل تلك الكنيسة ومداراتهم حتى يسمحوا بعظام ذلك الشهيد، فإن حصل لى هذا فهو كان أجلّ عندى من كل نعمة في الأرض.» ص ٨/٧.
كما يذكر أبو حامد الغرناطي (ت ٥٦٥/ ١١٦٩) في كتابه

تصل إلى ما دون ١٥ ذرعاً إلا ثلاث مرات إبان حكم الفاطميين لمصر، في سنوات ٣٩٧هـ/١٠٠٦-١٠٠٧م، ٣٩٨هـ ـ ١٠٠٧-١٠٠٨م، و٤١٤هـ/١٠٢٣ـ ١٠٢٤م، وجميعها كانت سنوات مجاعة. وفيما عدا ذلك فإن زيادة ما بعد ١٥ ذرعاً لم يكن ولو بإصبع واحد كافية لعدم قحط البلاد (٥٥٤هـ)، كما أنه من الوارد حدوث المجاعات حتى لو وصلت الزيادة إلى قريب من ١٨ ذرعاً. ومغزى ذلك أنه بعد ١٥ ذرعاً لم يكن هناك حد قاطع ومحدد لفيضان النيل تحدث معه المجاعة، وأن هذا الحد كان متذبذباً، متأثراً في ذلك بحالة الدولة المركزية، التي كان بإمكانها ـ إن استطاعت ـ أن تعبر بالبلاد الأزمة رغم الإنخفاض النسبي للفيضان، أو تعجز عن منع الأمور من الانحدار مع شمول الرى لمعظم الأراضي.

إلا أن ذلك لايعفى من محاولة الوصول إلى حد موضوعي لوفاء النيل يمكن معه الفصل فيما إذا كان سبب المجاعة هو النيل أم عامل آخر.ويبدو أن الحد الذى اعتبرته الحكومة كافياً لتحصيل الخراج هو ١٦ ذراعاً، حيث كان يتم الإحتفال بوفاء النيل عنده حسبما نقل المقريزى[١] عن ابن الطوير.

إلا أنه من الملاحظ أن الاحتفال بوفاء النيل ظل يتم عند بلوغ الذراع السادسة عشر حتى

(١) المقريزى: الخطط ـ ج١ص ٤٧٦ وقد أورد القلقشندى سجلاً من إنشاء ابن الصير في يؤكد أن ١٦ذراعاً هى حد الوفاء، القلقشندى: صبح الأعشى ـ ج٨ص ٣٢٩ـ ٣٣٠.

الحاضرين على سبيل التبارك به وعدت الى المريه. ثم قال لغلامه: يا رشيد ما كذا كان. قال: نعم يا مولاى هكذى كان وأنت اجل من ان تستشهد بعبدك.

وكان يظهرفي ايام الاب انبا اخرسطودلوس عجايب كثيرة منها ان صورة مارى مينا الشهيد التى فى فى اسكنا ابو مقار سال منها دم، وهوذا علامته باقيه الى الان، وشهد بهذا جماعة من الآبا

«المغرب عن بعض عجايب المغرب» تقديم وترجمة وتحقيق إينغرد بيخارانو، مدريد ١٩٩١م، «وبقرب غرناطه جبل عليه الثلج لايفارقه أبداً صيفاً ولا شتاءً لا يقدر أحد من بنى آدم يصعد إليه، وبالقرب من هذا الجبل آثار كنيسة عندها عين من الماء وشجرة زيتون، ويخرج الناس ويقصدون تلك الشجرة الزيتونة زمان الربيع فى يوم معروف فإذا طلعت الشمس من ذلك اليوم فاضت تلك العين بماء كثير فظهر على الزيتونة زهر الزيتون، ثم ينعقد زيتوناً ويكبر ويسودّ من

العصر المملوكى، رغم إن ذلك الحد لم يعد كافياً لزراعة الأرض وقتها، وكان يحتفل بالوفاء، فقط لكون ذلك «قانون الرى فى القديم»[١] ولذا فليس بالإمكان الإعتداد بهذا الحد، طالما أصبح الاحتفال بوفاء النيل عنده مسألة تراثية لا علاقة لها بالواقع.

وفى ضوء روايات المؤرخين يمكن ترتيب حدود الوفاء على النحو التالى:

١ـ الستة عشر ذرعاً كانت تكفى لزراعة جميع الأراضى ودرء خطر المجاعة عن البلاد، وليس هناك خطر محقق إذا بلغت الزيادة ١٥ ذراعاً.

٢ـ السبعة عشر ذراعاً، أصبحت كافية فقط لزراعة معظم الأراضى وليس كلها.

٣ـ أن حد الوفاء الذى يكفى لزراعة جميع الأراضى ويمكن معه الوفاء بالخراج دون عنت كان ١٨ ذراعاً ، وذلك منذ منتصف القرن ٥هـ/١١م على الأقل.

ومعنى ذلك أن حدود فيضان النيل عند الغزو العربى زادت بمقدار ذراعين تقريباً خلال العصر الفاطمى . وقبل الدخول فى سرد أحداث المجاعات التى مرت بمصر الفاطمية نشير إلى أنه برغم من مرور البلاد بفترات من الفوضى والاضطراب وخاصة فى خلافة المستنصر بالله. فإن مصر شهدت إهتماماً لابأس به بمشروعات الرى والزراعة ، فتدل وثائق الجنيزة اليهودية

(١) المقريزى: الخطط ـ ج١ ص٥٥.

الرهبان القديسين منهم القديس مقاره الامنوت الذى هرب من البطركيه، فا نه قال لى من فاه الطاهر: أن [أنه] كان فى الاسكنا امنوت قديس اسمه بهور ظهرت له عجايب كثيرة وهو ابو بسوس ابن الامنوت، وان صورة الشهيد الجليل مارى مينا التى فى الاسكنا انقلع من القونه [الايقونه] مسمار فطلع سمره فخرج الدم من تحت المسمار من أعلا الصورة الى اسفل، وقال لى

يومه ويأخذ من قدر على أخذه ويحملون من تلك العين للتداوى». ص ١١.
أما محمد ابن عبد المنعم الحميرى (توفى فى القرن الثامن الهجرى) فيذكر فى كتابه «الروض المعطار فى خبر الأقطار»، حققه الدكتور احسان عباس، بيروت ١٩٩٨٤م، فى مادة لورقة: «... ومن أغرب الغرائب الزيتونة التى على مقربة من حصن «سرنيط» وهو حصن من حصون لورقة البرانية منها، وهى زيتونة فى حومة الجبل.» ص ٥١٢.

Geniza على وجود إدارة خاصة تشرف على أمور الزراعة بالبلاد[١]. كما وأن الكتابات التاريخية تفيد بأن ثلث خراج البلاد كان يرصد لعمارة جسور أراضى مصر[٢] والجسور المعنية هنا هى الجسور السلطانية التى توجد فى شرق وغرب الدلتا ، أ ما الجسور البلدية وهى التى تنتفع بها جهات محلية دون أخرى، فكان يتولى صيانتها الملاك والمتقبلون على أن يخصم تكاليف ذلك من الخراج الذى يؤدونه للدولة[٣]. وشهدت عهودا إستقرار الحكم المركزى إهتماماً بمشروعات الرى، مثل تطهير خليج الإسكندرية بعد أن طم تقريباً وخاصة فى قسمه الأول عند خروجه من فرع رشيد وبلغت تكاليف ذلك فى سنة ٤٠٤هـ/ ١٠١٣ـ ١٠١٤م، ١٥ ألف دينار، واستفادت منه القرى الواقعة فى غرب الدلتا فضلاً عن تسهيل الملاحة[٤]. وحفر فى عهد الأفضل بن أمير الجيوش عام ٥٠٦هـ/ ١١١٢ـ١١١٣م الخليج المعروف بخليج أبى المنجا لضمان رى أراضى البلاد الشرقية فى كل الأحوال[٥].

(١) د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية ـ ص ١٠٥.
(٢) المقريزى: الخطط - ج١ص٦١.
(٣) د. راشد البراوى: المرجع السابق ص ٦٥.
(٤) المرجع نفسه ص ١٠٣.
(٥) المقريزى: الخطط ـ ج١ ص ٧١ ـ ٧٢، د. راشد البروى: المرجع السابق ـ ص ١٠٤ وهامش (٤) ويبدو أن هذا الخليج كان قديماً طمّ ثم أعيد حفره إذ يرجع القلقشندى هذا الخليج إلى أحد ملوك مصر بعد الطوفان. القلقشندى: صبح الأعشى ـ ج٣ ص ٣٠٥.

مـقــاره أنه شك فى الدم الذى خــرج من هذه الصورة بحكم صباه فى ذلك الوقت قال: وطلعت لاعـمل غـشـا الاراديون وكـان هناك جـمـاعـة من الرهبان القبط والسريان فاستحلفنى احد السريان ان اتقدم الى الصورة لانظر الدم فتقدمت اليها وانا شاك فيها وقال لى قلبى ان الناس يكذبو على فلما رايته فاذا هو دم بالحقيقة لا شك فيـه، وعند ذلك رايت الارض قـد صعدت فوقى والحمـال الخشب

مجاعات العصر الفاطمي:

قام الفاطميـون منذ استقرارهم في إفريقية وتأسيس دولتهم بتوجيه خمس حملات للاستيلاء على مصر، حققت أربع منها نجاحات محدودة في فرض سيطرتهم على بعض النواحي الواقعة في غرب مصر مثل الإسكندرية والفيوم والجيزة[1]. ولم يكتب النجـاح إلا للحملة الخامسة التى أرسلت عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م بقيادة جوهر الصقلى[2]، وكانت مصر وقتها تعانى من قحط ووباء بدأ عام ٣٥١هـ/٩٦٢م مما أدى وفاة الكثيرين حتى عجز الناس عن تكفين الموتى فألقوا بجثثهم فى النيل وترتب على ذلك اشتداد الغلاء وندرة القمح وانتشار أعمال السلب والنهب[3]، ولم يصبح فى البلاد قوة مادية أو معنوية من جانب شعبها الذى

---

(١) د. عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر- دار المعارف الإسكندرية ١٩٦٨ ـ ص ٩٦ ـ ١٠٠.

(٢) أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ مكتبة القدس ـ القاهرة ١٣٥٠هـ ـ ج٣ ص ٢٦.

(٣) د. حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية المطبعة الأميرية ـ القاهرة ١٩٣٢م ـ ص ٩٥ـ ٩٦، وكان فى بغداد غلاء ذريع حتى بيع الكر من الدقيق بتسعين ديناراً. انظر: ابن الجوزى: المنتظم ـ ج٧ ص ٤٧.

[في السقف] قد نزلت الى الارض والحيطان قد التقوا والناس الذى كانوا قيام تحتى قد صاروا فوقى وسقطت مغشياً على وصرت كأن ثقل البيعة كله على، فقلت: ياسيدى خلصنى فان الله قادر ان يظهر عجايبه فى قديسيه وان انا تخلصت علقت على وجهه [اعنى القديس مارى مينا] خرقة مليحة. حينيذ فتحت عينى فرايت نفسى قد استقرت والحيطان قد رجعو كما كانو وسمعت الرهبان يصيحو مات الصبى فاوميت اليهم بيدى

أنهكه الجوع والمرض[١]، وكان وصول أخبار هذه الأحداث المؤسفة ـ التى زادها سوءاً موت كافور الإخشيدى وتفرق جنده - كافياً لشحذ همة المعز لدين الله لينتهز هذه الفرصة ويستولى على مصر[٢]، خاصة بعد أن كاتبه أعيان مصر يدعونه لدخولها بسبب طمع الجند فى أهل القرى[٣]. ويبدو أن المصريين وجدوا فى الفاطميين منقذهم من الحالة التى تردت إليها البلاد فدخل الجيش الفاطمى الذى بلغ مائه ألف مقاتل مصر «فى يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة (٩٦٩م)، فهرب أصحاب كافور وأخذ جوهر مصر بلا ضربة ولاطعنة ولا ممانعة»[٤].

ومن الواضح الجلى أن إنخفاض النيل لم يكن مبرراً لحالة القحط التى سادت البلاد فى عام الفتح الفاطمى، فالفيضان كان قد وصل فى أقل التقديرات إلى ١٦ ذراعاً و٢٠ إصبعاً،

(١) د. أحمد مختار العبادى: فى التاريخ العباسى والفاطمى ـ مطبعة شباب الجامعة - الإسكندرية ١٩٨٢ ـ ص ٢٤٨.

(٢) أبو الفدا، إسماعيل بن عمر بن كثير: البداية والنهاية ـ مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٨ ـ ج١١ص٢٢٦، ابن الأثير على بن أبى سعيد الأندلسى: المغرب فى حلى المغرب: تحقيق د. زكى حسن (وآخرون): مطبعة جامعة فؤاد الأول ـ ١٩٣٥ ـ ج١ ص ٢٠١

(٣) عبد الله الشرقاوى: تحفه الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين، مصر ١٩٢٢ـ ص٣٣.

(٤) السيوطى: حسن المحاضرة ـ ج٢ص١١، شمس الدين الذهبى: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والإعلام ـ مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم ٤٢، تاريخ، مجلد ١٦ص ٩٩ حوادث عام ٣٥٨هـ.

اسكتو ولم استطيع الكلام وجلست ساعة حتى رجعت لى روحى وانتعشت نفسى واعلمتهم ما كان منى واننى رأيت الدم وهو بالحقيقة دم لا شك فيه.

وبلغنى عن انسان نصرانى كان دايماً يستشفع بالقديس مرقوريوس الشهيد وكان يقضى حوايجه ويقوم هو ايضا بخدمته، وانه فى زمان ادب [غضب] من اداب الرب لخلقه، استشفع كعادته

وهو حد لا يعنى القحط كما أسلفنا، ولذا فإنه على وجه الترجيح، يمكن إرجاع المجاعة والغلاء إلى اضطراب الأحوال الاقتصادية واهمال مشاريع الرى والزراعة، ومنازعات فرق الجند، مما أفضى إلى أرتفاع الأسعار حتى بلغ سعر القمح تسعة أقداح بدينار[1]. بل إن ضعف الإدارة المركزية، أدى إلى سوء عيار السكة الإخشيدية وانتشار الغش فيها كما يتضح من خطاب الأمان الذى أعطاه جوهر الصقلى للمصريين عند دخوله مصر[2].

والذى وعد فيه بإرخاص الأسعار، وإقرار الأمن وتجويد عيار السكة. ولكن إقرار النظام، وضمان زراعة الأرض، وإكمال إستعادة الإدارة المركزية لكافة صلاحياتها. لم يكن ليتم بين ليلة وضحاها، إذ استغرق ذلك ثلاث سنوات تقريبا حاول خلالها جوهر الضرب بشدة على أيدى التجار والطحانين الذين استغلوا حالة الفوضى فى محاولة الإ ثراء من ورائها. ففى ذى القعدة عام ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م قام سليمان بن عزه المغربى، الذى تولى الحسبة[3] عوضاً عن أبى

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطمين الخلفا ـ تحقيق د. جمال الدين الشيال – القاهرة ١٩٤٨ ـ ق١ ص ١٦٨.

(٢) د. حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر ـ ص ١٠٨.

(٣) يقصد بالحسبة والإحتساب ـ شرعاً ـ الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والنهى عن المنكر إذا ظهر فعله، أى محاولة جعل الحياة السائدة موافقة لأحكام الشريعة، وفى مصطلح التاريخ يقصد بالحسبة الوظيفة التى تراقب تنفيذ أحكام الشريعة فيما هو حادث فعلاً فى المجتمع الإسلامى على اختلاف طبقاته ـ انظر: د. السيد الباز العرينى: الحسبة والمحتسبون فى مصر ـ مقال بالمجلة التاريخية المصرية. القاهرة ١٩٥٣ ـ =

فلم يقضى له حاجة فشك فيه فظهر له فى تلك الليلة واخرجه الى موضع واسع واوقفه على جب فيه خيل وسلاح وقال له: تعرفنى انا ابو مرقوره فلا تشك فى واعلم انى انا واخوتى الشهدا وغيرنا قد امرنابان لا نشفع فى احد فى هذا الزمان لانه زمان ادب. وهذه خيلنا وسلاحنا قد تركناه ها هنا.

وكان غلق الكنايس فى زمان الوزير اليازورى فى يوم الجمعة الخامس من بوونه سنة ست واربعين

جعفر الذى توفى فى ربيع الآخر، باتخاذ بعض الإجراءات لمواجهة إرتفاع الأسعار، فضبط ساحل بولاق حيث ترد الغلة فى المراكب، وجمع تجار القمح وسماسرة الغلال فى موضع واحد، وسد الطرق إلا طريقاً واحداً يتم منه خروج القمح تحت إشرافه وبحضوره[1]، ثم قام بضرب أحد عشر طحاناً وشهرهم[2]، ويبدو أنهم حالوا تخزين بعض الدقيق لبيعه بثمن مرتفع، ويمكن أن نضيف إلى جانب عامل الإحتكار الذى يتسبب فى إرتفاع الأسعار، اختلال الأمن وانتشار السلب والنهب الذى كان متفشياً فى بداية خلافة المعز بمصر[3].

وبلغت الضائقة الاقتصادية ذورتها عام ٣٦٠هـ/ ٩٧٠-٩٧١م[4] ويرجع ذلك إلى

= مجلد٣العدد ٢ ص ١٥٧ .والحسبة عند الشيعة تدخل فى عموم واجبات الإمام الحاكم بسبب كونها خدمة دينية. وكان الإمام يستخلف فيها من يراه أهلاً لها. انظر: د. عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر. الإنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٧٣ـ ج١ ص ١٦١ـ ١٦٢. وقد كان للمحتسب منزلة رفيعة فى العصر الفاطمى فكان يقوم بتعيين نوابه بالقاهرة وجميع الأعمال ولايحال بينه وبين مصلحة أرادها وكانت تضاف الحسبة بمصر والقاهرة إلى صاحب الشرطة بهما أحياناً. انظر : القلقشندى: صبح الأعشى ـ ج٣ص ٤٨٦.

(١) د. أحمد مختار العبادى: فى التاريخ العباسى والفاطمى ـ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج١ص ٧٢ ـ ١٦٩.

(٣) أبو صالح الارمنى: كنائس وأديرة مصر ـ المطبعة المدرسية باكسفورد ١٨٩٥ ـ ص ٨٤.

(٤) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ١٣.

واربع مايه الخراجية. وقبض على الاب اخرسطودلوس والاساقفه وطولبو بالمال وعوقب ثلثة اساقفة منهم وماتو، احدهم ابا اسحق اسقف مصيل(*)، وتاودرس اسقف سمنود ابن اخت الاب انبا شنوده البطرك المتنيح، وابا جرجه اسقف الخندق.

(*) مدينة مندرسة، خربت في الفترة العثمانية، ولاتزال أطلالها تعرف اليوم باسم كوم المدينة ناحية بسنتاواى بمركز أبو حمص غربى مدينة المحمودية محافظة البحيرة.

وكذلك كان اخوتنا السريان والمومنين بمدينة انطاكية في جهد وبلا عظيم، لان الملكيه وثبو

استمرار تفشى الأمراض والأوبئة، التى اشتدت بالقاهرة من المحرم، مما دفع جوهراً إلى منع بيع الشواء مسموطا، وأمر بأن يسلخ من جلده كإجراء وقائى[1]. ويلاحظ إرتباط المجاعات بانتشار الأوبئة وخاصة وباء الطاعون الذى يودى بحياة الكثيرين، فيلحق بذلك الضرر بالأيدى العاملة فى الزراعة، إما لموت البعض، أو لهجرة آخرين لمواطن الداء، فتصبح الأرض ولاتجد من يزرعها[2]. ومن العوامل التى تساعد على تفشى الأوبئة ازدحام البيوت بالسكان، وخاصة فى الفسطاط، والتى تتكون بعض الدور فيها من سبع طبقات، «وربما يسكن فى الدار المائتان من الناس»[3] فإذا أضيف إلى ذلك العادات غير الصحية التى كان يتبعها السكان من أن يرموا بما يموت من القطط والكلاب فى الشوارع والنيل ومصادر مياه الشرب فيشربون هذه العفونة، المختلطة بالماء، فضلاً عن تعذر دفن الموتى فى حالة تفشى الأوبئة والمجاعات مما يؤدى إلى انتشار الميكروب وبقائه لفترة طويلة بالبلاد لتأخر وسائل الطب الوقائى[4]، لعرفنا مدى فداحة الخسائر التى كانت تقع بين صفوف السكان، حتى إن المقريزى يذكر أنه لما سقطت

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج١ ص ١٧٩.
(٢) د. راشد البداوى: حالة مصر الاقتصادية ـ ص ٨٠ ـ ٨٢.
(٣) المقريزى: الخطط ـ ج١ ص ٣٤١.
(٤) المقريزى: الخطط ـ ج١ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠، د. راشد البراوى: المرجع السابق ـ ص ٨٠.

على بيعهم واحرقوها بالنار وجميع كتبها، وبحكم
ان الملك لهم، وكـان عليـهم منهم طرد عظيم،
وذلك سنة سبع مايه ثلثة وثمانين للشهدا، وكثر
تنهدهم وضجيجهم وبكاهم، وصار منهم جماعة
على راى الملكيـة بانطكيـة. وفى سنة ست الف
وخمس ماية اربعة وستين للعالم وهى سنة سبع
ماية ثمانية وثمانين للشهد وصل الملك العادل
البارسلان [عضد الدولة محمد ابو شجاع ت

الدولة الإخشيدية واختل حال مصر بتوالى الغلاء وتواتر الأوبئة والفناء «حدّثت مدينة القاهرة عند قدوم جيوش المعز» بسبب تدهور حالة الفسطاط وموت معظم سكانها[١].

ولايمكن إغفال دور التهديد بالغزو الخارجى فى إرتفاع الأسعار إذ قام القرامطة بغزو الشام ونجحوا فى هزيمة الجيش الفاطمى بدمشق عام ٣٦٠هـ/٧٠ـ ٩٧١م، بل وحاصروا القاهرة حتى عام ٣٦١هـ/٩٧٢م[٢].

ومهما يكن من أمر فقد وضعت هذه المجاعة أوزارها عام ٣٦١هـ، التى انخفضت فيها الأسعار واخصبت الأرض وحصل الرخاء[٣]. وذلك كنتيجة طبيعية لاستقرار أمور الحكومة الجديدة، ونجاحها فى القضاء على الأخطار الخارجية، ونشر الأمن فى ربوع البلاد، مما ضمن زراعة معظم الأراضى، ولا يعتقد أن هناك ثمة علاقة بين هذا الرخاء وحالة الفيضان، الذى كان فى هذا العام ١٧ ذراعاً و٤ أصابع، أى أقل من فيضان العام السابق بأصابع.

وبانتهاء هذه المجاعة كان الخليفة المعز لدين الله قد وعى وبشكل عملى، الدرس ألا وهو الإرتباط بين الإحتكار التجارى واستشعار الناس انخفاض زيادة النيل، من خلال المناداة على

(١) المقريزى: المصدر السابق ـ ج١ص ٣٥٩.
(٢) د. عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ١١٥.
(٣) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ١٣.

١٠٧٢م] من المشرق في عساكر عظيمة عددها ستماية الف فارس مقاتلين سوى اتباعهم، فاضطربت البلاد وقلقت المملكة بمصر وفتح في الشام الفوقاني بلاد كثيرة وفي بلاد الروم الى ان حسن له اصحابه فتح المدينة الجليلة الرها، وكان فيها يوميذ دوقس[دوق] يسمى بسيل ابن اسار ابن ملك الغز من قبل ديوجانس الملك. وكان بالرها يوميذ ثمانية الف ارمني وعشرين الف سرياني

زيادة النيل، وبأ ن لا يكتب بذلك إلا إليه، وإلى القائد جوهر، وأن يباح النداء عند بلوغ النيل حد الوفاء الرسمي ـ وهو الستة عشر ذراعا[١].

بيد أن ذلك الإجراء فيما يظهر، لم يستمر طويلاً، إذ يشير ناصر خسرو إلى استمرار نظام المناداة اليومية على زيادة النيل خلال زيارته لمصر[٢].

شهدت خلافة الحاكم بأمر الله(٣٨٦ - ٤١١هـ/ ٩٩٦ـ ١٠٢٠م) سلسلة من المجاعات، استغرقت نحو نصف سني حكمه التي قاربت الربع قرن. ولاشك أن هذه الكوارث قد وضعته في موقف لايحسد عليه إذا أصبح لزاماً عليه أن يحارب في أكثر من جبهة، فقد اعتلى الحاكم كرسي الخلافة وهو في الحادية عشر، و٥ أشهر وستة أيام[٣]، طفل تسعى أكثر من قوة

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ـ ج١ص ١٩١، الخطط ـ ج١ ص ٦١، ويذكر القلقشندي أنه كان يؤخذ المقياس وتكتب له رقعة للخليفة وللوزير ثم ينزل بديوان الرسائل في مسير معدله في الديوان ويستمر الحال على ذلك في كل يوم ترفع رقعة إلى ديوان الإنشاء بالزيادة لايطلع عليها غير الخليفة والوزير وأمره مكتوم إلى أن يبقى من ذراع الوفاء(١٦ ذراعا) أصبع أو أصبعان ـ صبح الأعشى ـ ج٣ ص ٥١٦.

(٢) ناصر خسرو: سفر نامه ـ ص ٤٢.

(3) Wustenfeld (f) Geschichte Fatimiden cholifen. Aus dem 26und 27 Bande der Abhandungen der Koniglichen Geseilschaft der wissenschaften zu Gottnigen _ Gottingen 881 _ p165.

وستة الف رومى [يونانى] والف افرنجى [لاتينى]
فنزل عليهم فى ستماية الف مقاتل وضرب خيمته
وانفذ الى اهلها يخدعهم قايلا: ما غرضى فتح
بلدكم بل تقطعو لى عليكم مال وارحل عنكم،
فلما سمعو هذا اهتمو بجمع المال، وهو ينقب
تحت حصن المدينة. ومن بعد سبعة ايام كان فى
عسكره صبى سريانى فكتب رقعة يقول فيها لاهل
الرها هو يخادعكم وقد نقب تحت البرج الفلانى

للسيطرة عليه وعلى مقاليد الأمور بالبلاد، فنشبت المنازعات بين البربر والأتراك[1]، وقد نجح الحاكم بعد أربع سنوات من وصاية برجوان عليه أن يمتلك زمام الأمور فى البلاد كخليفة قـــوى[2]. وبعد ذلك كان عليه أن يواجه غزواً خارجياً جاءه من الغرب بقيادة الثائر أبى ركـــوه[3]، وخطر الأوبئة الفتاكة والمجاعات، وقبل ذلك وبعده المنازعات التى دارت داخل البيت الخليفى للحد من نفوذه المطلق، تلك المنازعات والمؤمرات التى أودت فى النهاية بحياته بتدبير أخته ست الملك[4]. فضلاً عن بعض المشاكل المتعلقة بالدعوة الفاطمية، ومحاولات البعض إلصاق الألوهية به[5]. ورغم أن التاريخ حافل بشخصيات كثيرة أهضمها المؤرخون حقها وأساءوا فهمها ـ عمداً فى معظم الأحوال ـ إلا أن شخصية الحاكم فاقت كل هذه الشخصيات فى مقدار الظلم الفادح الذى وقع بحقها.

(١) د. عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ٣٧١ ـ ٣٧٢.
(٢) ستانلى لينبول: سيرة القاهرة ـ ترجمة د. حسين إبراهيم حسن ـ النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٠ـ ص ١٣٤.
(٣) الذهبى: تاريخ الإسلام ـ مجلد ١٦ ص ١٣٢ ـ ١٣٣.
(٤) أبو الفدا: البداية والنهاية ـ ج١٢ ص ١٠.
(٥) د. عبد المنعم ماجد: الحاكم بأمر الله المفترى عليه ـ مكتبة الإنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٥٩ـ ص ١١٥.

والموضع الفلانى حتى وصف لهم احد عشر
موضعاً فيها النقابين ينقبو وقد بلغو تحت الحصن
وتجاوزوه، وجعل الرقعة فى نشابه ورماها المدينة،
فاخذوها ووقفو عليها، ونقبو قبالة تلك المواضع.
وكان الوالى المذكور ياخذ البوق ويجعل راسه فيما
يلى خارج البلد على الأرض وطرفه عند اذنه
فيسمع حس النقب. فالتقو النقابين بغتة فى
النقوب فقتل من نقابين الرها ثلثة ومن نقابين

فكتابات بعض المؤرخين غير واقعية لأنها رمته بالشذوذ والجنون إلى حد وصفه بأنه كان شر خليفة، بل لم يل مصر فرعون شر منه[1]، ولم يسلم الحاكم من كتابات كثيرة معاصرة، حتى من قبل الكتاب الأجانب الذين دخلوا حلبة إدانته اعتماداً على المصادر التاريخية دون تمحيص أو نقد[2].

ولما لم يكن مجالنا هنا تبرئة ساحة الحاكم[3]، فإننا سنقتصر على سرد ما يخص موضوع المجاعات في عهده، حيث أثبت بتصرفاته واجراءته مع كل ما واجه من صعاب، أنه كان أنضج وعياً، وأكثر عبقرية من غيره من الخلفاء. الذين لم يتهموا بالجنون.

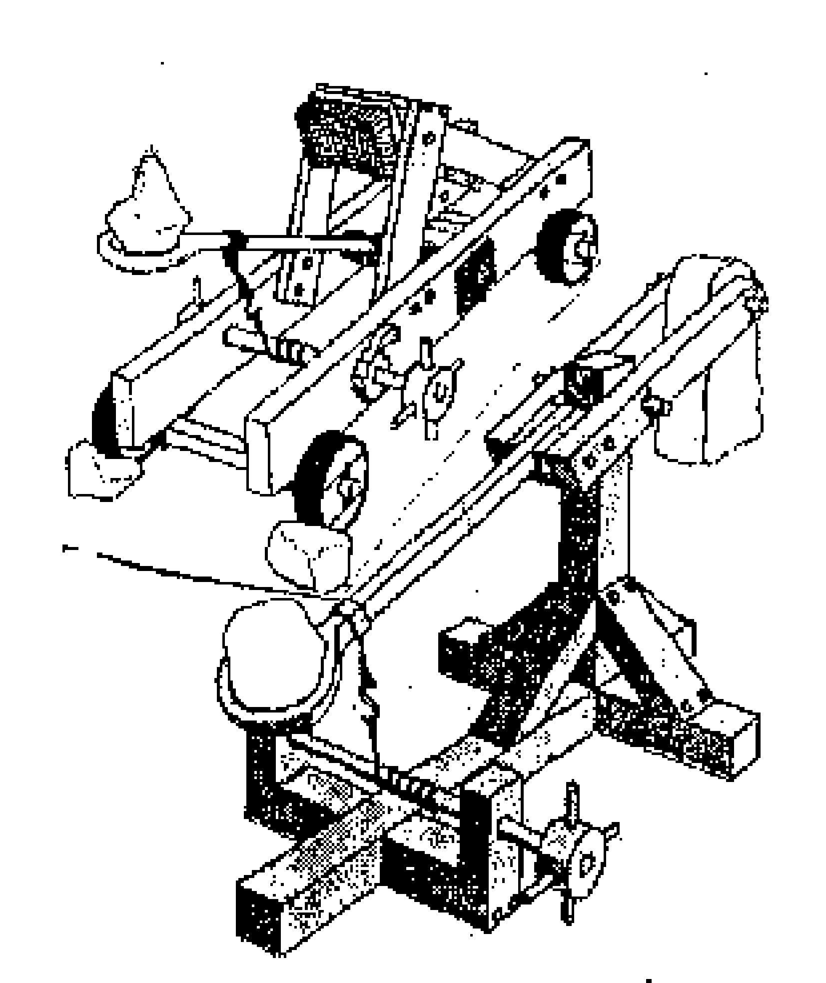
فعندما توقف النيل عن الزيادة في عهده، وقيل له إن هذا من فعل الأحباش الذين غيروا مجرى النيل، أمر بطرك النصارى أن يتوجه إلى الحبشة، فذهب وعرض على النجاشي ما وقع بالبلاد مع ضرر، «فأمر ملك الحبشة بفتح سد عندهم يجرى منه إلى

(١) السيوطى: حسن المحاضرة ـ ج٢ ص ١٣، ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول ـ بيروت ١٩٨٠ ـ ص ٣١٣.

(٢) لينبول: سيرة القاهرة ـ ص ١٤٣ـ ١٣٥،

Brocklmann (Carl): History of the Islamic peoples. London and Henley 1980 - p 160.

(٣) انظر: د. عبد المنعم ماجد: الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه.



(*) أعلى : منجنيف متحرك. واسفله منجنيق ثابت.

البارسلان ابن داوود المنعوت بالعادل عشرون رجلا واستاسرو تسعة فقتلوهم ورمو رووسهم اليه فى المنجنيقات والغرادات وكان عندهم تسعين منجنيق وغراد وشتموه وصاحو عليه يا غدار يا مكار يا نكاث واكثرو من شتمه بكل قبيح ، فنصب عليهم القتال الشديد ثمنية وثلثين يوماً،وكان يقاتلهم بالافيله وعليهم الرجال لابسين الحديد فاذا دنو لينقوبو الحصن طرحو عليهم الصخور العظيمة فيقتلو منهم، واستظهرو عليه

مصر ماء النيل لأجل أن البطرك قدم عليه، فزاد النيل فى تلك السنة زيادة قوية حتى أوفى»[1].

لم يقنع الحاكم بهذا الحل، الذى يضعه تحت رحمة ملك الحبشة، وأظنه لم يصدق ما ذكر عن وجود سد عندهم يحجب الماء عن مصر، ولا يستبعد أن تكون هذه الرواية التى يكثر تكرارها فى سنوات مختلفة، محاولة لتدعيم مركز القبط فى مصر، خاصة مع ما عرف عن الحاكم من تشدد مع أهل الذمة، وظلت ظاهرة انخفاض الفيضان تستحوذ على إهتمام الحاكم حتى سمع عن أبى على بن الحسين بن الهيثم[2]، الذى نبغ فى الهندسة، فأرسل فى طلبه من العراق، وأكرم وفادته وسير معه جماعة من الصناع فى طول مصر حتى وصل إلى أسوان، لكنه اعتذر عن عجزه القيام بشئ بسبب طبيعة أرض أسوان الجرانيتية، فأبقاه الحاكم معززاً مكرماً[3].

---

(١) أيمن فؤاد سيد: نصوص ضائعة من أخبار مصر للمسبحى ـ مستخرج من حوليات إسلامية ـ المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ـ القاهرة ١٩٨١ـ مجلد ١٧ـ ص ,٣٢

(٢) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ـ شرح وتحقيق د. رضا نزار رضا ـ مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٥ ـ ترجمة ابن الهيثم ص ٥٥٠ ـ ٥٦٠، وأنظر : أحمد تيمور: المهندسون فى العصر الإسلامى القاهرة ١٩٧٩ ـ ص ٢٨ ـ ٣٠.

(٣) د. ماجد : الحاكم بأمر الله، ص ٦٤ ـ ٦٥، امرأة مصرية تتزعم مظاهرة فى عهد الخليفة المستنصر بالله ـ المجلة التاريخية المصرية ـ القاهرة ١٩٧٧ ـ المجلد ٢٤ ـ ص ٣٤ ـ ٣٥.

بقوة السيد المسيح لانها المدينه التى دعا لها تدا التلميذ ولملكها، ثم انه زحف اليها بسبع دبابات[*] عظيم، فعملو عليها صوارى عظيمة وشحم وزفت ونفط، وطرحو عليها من الحصن صخور ونار واحرقوها وقتلو كلمن كان فيها، ثم امر الملك العادل بقطع الاشجار والاخشاب ورميها فى الخندق الذى على الحصن حتى يمشى الخيل والرجال عليهم الى الحصن، فتوصلو اليها من

(*) دبابات: هى ابراج كبيرة من الخشب القوى سقفه من عروق الاشجار، يدفع إلى اسوار الحصون وبداخله عدد كبير من الجنود، و عند التصاق البرج بسور الحصن يقوم الجنود بنقبه وينفذون منه لداخل الحصن أو يتسلقون سطحها ويقفزون إلي اسوار المدينة المعاصرة.

وفى هذا الصدد، يذكر ابن أبى أصيبعة أن همته انكسرت لما رأى آثار قدماء المصريين وعظمتها ، فأيقن عجزه، وأنه خشى على نفسه من الحاكم فادعى الجنون حتى توفى الخليفة، فعاد للحياة الطبيعية، كناسخ لبعض الكتب الطبية ليقتات منها[1].

وربما لوكان النجاح قد صادف ابن الهيثم والحاكم، لتغيرت كثيراً معالم وجه تاريخ مصر.

لم يفت فى عضد الحاكم فشل ابن الهيثم فى معالجة أمر الفيضان، فلجأ إلى الإجراءات الوقائية إ عتماداً على قوة السلطة المركزية وهيبته كرأس لهذه السلطة.

ولما كان إحتكار التجار للغلال، وتلاعبهم بالأسعار سبباً رئيسياً وراء المجاعات ، فقد عمد إلى أقامة سعر لكل شئ ، لاسيما الحبوب والمبيعات، واستخدام وسائله الخاصة فى منع تخزين الأقوات، «فضرب جماعة بالسوط، وشهرهم، وأمر ألا يباع القمح إلا للطحانين» للقضاء على الوسطاء، كما كان يفاجئ مخازن الغلال والبيوت للبحث عن القمح ويفرقه على الطحانين بالسعر الرسمى.

ولأهمية الحسبة ومراقبة الأسواق، كان الحاكم يقوم بنفسه بمهام المحتسب، فيدور فى

(١) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء ـ ص ٥٥١، ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول ـ ص ٣١٦ ـ ٣١٨.

داخل المدينة من النقوب واطلقوا فيها النيران فتاجج النار حتى صار الخندق نيران تلتهب، ووقع الصياح عليه وعلى عساكره من فوق الحصن بالافترا والشتيمة، فانفذ اليه رسول يقول لهم: ما يحسن بى ان ارحل عنكم بعد قتالكم وقد اطاعتنى جميع البلاد الا بعد ان يستقر لى عليكم مال يسير وانا ارحل عنكم ليلا [لئلا] يصير على فضيحة، فا نزل الوالى رسوله فى دار واكرمه،



رسم طائر على طبق صينى انتجه الفنان المصرى فى العصر الفاطمى وعرف كطبق من اطباق غبن متولى الحسبة

الأسواق ممتطياً حماره، وتذكر المصادر السابقة نفسها أن من وجده قد غش فى معيشة، أمر عبداً أسود معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى[1]. ويرجع إهتمام الخليفة بالحسبة إلى أنه اعتبرها فى عموم واجبات الأمام، ولذا نجده عندما ولى حسبة القاهرة ومصر والجيزة لقائد القواد ومتولى الشرطتين (القاهرة ومصر) المعروف بغبن[2] عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م يشدد فى سجل التعيين على ضرورة مراعاة واجبات وظيفته[3]. ويبدو أن الحاكم اعتبر غبناً مسؤولاً عن إرتفاع الأسعار وتكالب الناس على الخبز عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م[4]، طالما كان ذلك يدخل ضمن واجبات المحتسب فعزله من منصبه فى نفس العام وأمر بقطع إحدى يديه، وأعقبها بالأخرى ثم بلسانه حتى توفى. وعلل ذلك بأن غبن كان متورطاً فى خصومة مع أخته ست الملك، أو بأنه أخفى عن الحاكم بعض الشكاوى

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ـ ج٢ص ٢١٣ . أبو الفدا: البداية والنهاية ـ ج١٢ص ٩.
(٢) عرف غبن أيضا بلقب استاذ انظر: د. حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ـ القاهرة ١٩٦٥ ـ ج١ ص ٦٣.
(٣) د. حسن الباشا(وآخرون): القاهرة: تاريخها فنونها ـ آثارها ـ مؤسسة الأهرام ـ القاهرة ١٩٧٠ـ ص ٥١٢.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ـ تحقيق د. محمد حلمى محمد أحمد ـ مجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ١٩٧٠ـ ج٢ ص ٩٣، الخطط ـ ج٢ ص ٨٧.

فلما كان بالغداة تخير عشرة الف رجل احداث
مقاتلين من المدينة والبس جميعه من الحديد حتى
لم يبق منهم الا جفون عينيهم واوقفهم صفين في
الموضع الذى يعبر فيه الرسول الى باب الرها،
وقال للرسول اركب عايد الى صاحبك فركب ولم
يزلساير فيما بين اوليك الاحداث وهم يزعقو
ويصيحو الى ان انتهى الى باب المدينة، فقال له
بسيل الوالي: قل لهذا الكلب الغدار الذى ارسلك

الموجهة بحق غبن[1]. ويبدو الإحتمال الثانى أكثر ترجيحاً، حيث تم عزل غبن وعقابه أثناء ارتفاع الأسعار، ويحتمل أن تكون الشكاوى قد مست واجباته كمحتسب.

ولم يخل سجل الحاكم بأمر الله من جهود حثيثة لتفادى أخطار الأوبئة، التى كانت عادة ما تصحب المجاعات، فلأجل الحفاظ على الثروة الحيوانية، التى كانت تجتاحها الأوبئة أيضاً، أمر بمنع ذبح الأبقار السليمة من العاهة إلا فى أيام الأعياد حتى لاتنقرض وهو إجراء لجأ إليه ابنه الظاهر فيما بعد[2]. كما كان يصدر أوامره بمنع أكل أو بيع بعض المأكولات، التى ربما يترتب على أكلها مضار صحية وأمراض في عصره، مثل الملوخيا والجرجير والقرع والمتوكلية، وهى نبات للحساء، ومنع عجين الدقيق بالأقدام وكان يغرم المخالفين لذلك[3].

أما مجاعات عهد الحاكم، فقد بدأت بمجاعة فى العام التالى لتوليه الخلافة عام ٣٨٦هـ/٩٩٦م وكأنما كان على موعد مع الأقدار، وكان الذى يتولى تدبير الدولة فى هذه السنة (٣٨٧هـ/٩٩٧م)، أمين الدولة أبى محمد الحسن بن عمار. وسبب هذا المجاعة قصور النيل، حسب رأى المقريزى، الذى بلغ زيادته ١٦ ذراعاً وأصابع، فارتفعت الأسعار، واختفى

---

(١) د. حسن الباشا: المرجع السابق ص ٥٢٢.
(٢) د. ماجد: الحاكم بأمر الله - ص ٦٤.
(٣) المرجع نفسه ص ٩١.

كنا نظن ان لك قولا صادقا واذ انت غدار كذوبا نكاثا، وما عندنا السيف لان كذبك وغدرك قد عرفناه وما تحتاج الى نقب ولا دبابات هو ذا باب المدينة مفتوح، ووحق سيدى يسوع المسيح لا اغلق باب هذه المدينة فى هذا النهار الا بعد مغيب الشمس فان اردت القتال فتقدم . ولم يزل باب المدينة مفتوح واوليك الاحداث قيام والحصن معمر بالرجال الى بعد الغروب، واغلقو الباب وصاحو

القمح، واضطرب حبل الأمن، وخطفت النساء من الطرق، ووصل سعر الخبز إلى أربعة أرطال بدرهم ، ثم انخفضت الأسعار بعد ذلك(١).

وإذا ما وضعنا فى الإعتبار حدود وفاء النيل فى العصر الفاطمى فإننا نلحظ أن هذا الحد من الزيادة (١٦ ذراعاً و٧أصابع)لم يكن يعنى القحط ، وربما تكون زيادة النيل قد تأخرت بعض الوقت، فأدى ذلك إلى ارتفاع الأسعار واحتكار الغلال، خاصة وأن حالة من الفوضى والاضطراب كانت تعم البلاد لتصارع المشارقة والمغاربة على السلطة فى بداية خلافة الحاكم.

وفى عام ٣٩٥هـ/١٠٠٤ـ ١٠٠٥م، انتشر الوباء فى البلاد، وحتى بين الماشية التى أمر الحاكم بمنع ذبح السليم منها إلا فى عيد الأضحى كما حث على قتل جميع الكلاب حتى خلت منها الطرق(٢)، ويبدو أنها كانت تنقل العدوى، وفى إطار مقاومة الوباء منع أكل

---

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ١٣- ويذكر ابن إياس ـ ج١ص ٥٥) أن الناس اجتمعوا تحت قصر الزمرد واستغاثوا بالحاكم فقال إنه متوجه إلى جامع راشد وفى طريق عودته يريد أن تملأ الغلال الأرض وإلا ضرب عنق من يجد منها شيئاً عنده..إلخ. وهذه الحوادث يذكرها فى عام ٣٩٩هـ، وهذا أقرب للصحة حيث أن الحاكم فى عام ٣٨٧هـ كان فى الثانية عشر من العمر، ولم يكن له شأن فى تسيير أمور الدولة.

(٢) د. حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر- ص ٢٢٨ . ويبدو أنه كانت هناك حالة من الجفاف تعم منطقة حوض المتوسط فقد شهدت أفريقيا فى نفس هذا السنة غلاء شديداً ووباء أودى بحياة الكثيرين. أبو الفدا: البداية والنهاية ـ ج١١ص ٣٣٥، ابن الأثير: الكامل ـ ج٧ص٢٢٧.

عليه من فوق السور. وفي تلك الليلة رحل عنهم
بعد ان اقام خمسة واربعين يوماً ومضى الى مدينة
سروج والى حلب وحاصرها فكانو يعيروه بما لقيه
من اهل الرها، وبعد هذا خرج اليه محمود بن
صالح ليلا في زى الغز حتى وصل الى خيمته
فتطارح عليه فقبله واحسن اليه واخلع عليه واعاده
الى مدينته، ثم عاد [الب ارسلان] ايضاً الى الرها
في شهر بشنس واقام اربعة ايام بلا قتال وكتب اليه

الدلينس (الدنيس) ومنع السماكين من صيده وهدد من يخالف ذلك بالقتل[1].

ويظهر أن الحاكم تخوف من حدوث مجاعة في ظل إنتشار الوباء، خاصة وأن النيل وصل في زيادته في هذا العام إلى ١٦ ذراعاً و٣أصابع مما يعنى عدم زراعة بعض الأراضى، فأشاع جوا من الرهبة بين الناس، وخاصة بين الكتاب، وأصحاب الدواوين، عندما عمل شونة ملئت بالبوص والسنط والحلفا، حتى قويت الشائعات بأن الحاكم أعدها لحرق الكتاب وأصحاب الدواوين، فاجتمعوا متفزعين منه فأعطاهم أماناً، وتلى ذلك أمانات لطوائف الجند والعبيد، ثم التمس أهل الأسواق على طبقاتهم كتب أمان فكتبت لهم[2]. ورغم ذلك فإن الحاكم قتل جماعة من الأعيان[3].

وينبغي أن يضاف إلى الحسبان، أن ثورة أبي ركوة التي بدأت في برقة، بالاستيلاء على بعض أملاكها في جمادى الآخرسنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥[4]، أى في نفس الوقت الذى أعطيت فيه هذه الأمانات تقريباً، فكان لابد من إتخاذ هذه الإجراءات حتى لاتسول لأحد نفسه أن

(١) د. حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر - ص ٢٢١.
(٢) أيمن فؤاد سيد: نصوص ضائعة من أخبار مصر - ص ٢٠-٢١.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة - ج٤ ص ٢١٢، الذهبي: تاريخ الإسلام - مجلدا ١٦- ص ١٣٠.
(٤) د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين - ص ٢٤٧. ويذكر ابن الجوزى أن ثورة أبي ركوة كانت في عام ٣٩٧هـ - المنتظم - ج٧ص ٢٣٣. وكذلك ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب - ج٣ ص ١٤٨.

نصـر ابن نصـر الدولة يقـول له: انت نازل على
الرها وما تقدر تفتحها وديوجانس [رومانوس] ملك
الروم قـد اهلك بلد الاسـلام الى ان قـارب بلاد
خراسان. فرحل ليلا وسار الى ان وصل الى خلاط
مجاور مازكرد بلد الارمن وبين المدينتين نهر عظيم
، وكـان ديوجـانس ملك الروم نازل على نهـر
مازكرد بعسكره وهو أيضاً في ستماية الف فارس
مقاتلة، فالتقا الملكان في ايام من بوونه، فعمل

يستغل هذه الملابسات مجتمعة، ومع ذلك فقد ارتفعت الأسعار عندما تحرك أبور كوة نحو مـصـر، وهدد الإسكندرية ثم أعـمل السلب والنهب في ريف مـصـر، مـتـعـاوناً في ذلك مع الأعراب الذين دأبوا على الإغارة على سكان الدلتا، متمردين بذلك على السلطة المركزية التي أبوا أن ينضووا تحت لوائها بشكل مطلق[1].

وبغض النظر عن بعض الإنتصارات الجزئية التي حققها أبو ركوة فقد نجح الحاكم في نهاية الجولة في أن يقضي على أبي ركوة ويأسره ويشهر به في القاهرة، وان كان قد اضطر خلال الاعداد للحرب إلى التخلي عن تشدده في أعمال الحسبة، فأقبل المصريون على الإنضمام لجيشه، خاصة بعد أن عاينوا التخريب الذى أحدثته جيوش أبي ركوة، ووضعوا أموالهم كلها تحت تصرف الخليفة بل وتوقفت الأسعار عن الزيادة كدليل على صدق معاونة المصريين للحاكم[2].

بيد أن تصاريف القدر شاءت أن ينخفض النيل في العام التالي ٣٩٧هـ/١٠٠٦ - ١٠٠٧م، لتشهد البلاد مجاعة خطيرة، وطويلة نسبياً. وإذا كانت المصادر التاريخية ترجع سبب هذه المجاعة إلى انخفاض الفيضان، فإن الاضطراب يسود تحديد مقدار هذا الإنخفاض.

(١) د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية ـ ص ٨٣.
(٢) د. ماجد : الحاكم بأمر الله ـ ص ١٦.

مقدمين عساكر ديوجانس الرومى عليه منصوبة
[خديعة] بدسيسة من ميخاييل ابن مريه الذى كان
ملك قبله بعد عمه قيصر ، فلما حمل الملك
ديوجانس على عسكر الغز وصار فى وسطهم وهو
يظن ان اصحابه وعساكره يحملو معه وهم طايعين
له ومناصحين ، فلما خذلوه وتخلو عنه قتل بيده
جماعة من الغز ولم يزل يقتل ويدفع عن نفسه
الى ان قبضوه اسير وتفرقت عساكره بعد ان قبض

البداية كانت بتوقف زيادة النيل فصلى الناس صلاة الاستقاء مرتين، ويبدوا أن ذلك كان والنيل عند الذراع الثالثة عشر وأصابع[1]، ثم كسر الخليج بعد ذلك والنيل عند الذراع الخامسة عشر[2] وبعدها زاد النيل حتى وصل إلى ستة عشر إصبعاً من ١٧ ذراعاً ثم نقص بعد ذلك[3]. ليصل إلى ١٤ ذراعاً و١٦ إصبعاً لأبى المحاسن وابن أيبك، وهو حد فى زيادة النيل يعنى المجاعة، كما سبق التنوية آنفاً، وقد صاحب هذه المجاعة وباء أودى بحياة الكثير من السكان[4].

وكان من الطبيعى أن ترتفع الأسعار، فأصدرت الأوامر لمسعود الصقلى متولى الستر بالنظر فى أمر الأسعار، فجمع خزنة الغلال والطحانين والخبازين، وقبض على ما بالساحل من غلال وأمر أن لاتباع إلاللطحانين لمنع الوسطاء والسماسرة، وتم تسعير القمح، كل تليس بدينار إلا قيراطاً والشعير عشر ويبات بدينار، وللحطب عشر حملات بدينار، وسعر سائر الحبوب والمبيعات، وهاجم عدة مخازن وفرق مابها على الطحانين وضرب جماعة بالسوط وشهرهم، فتوافر الخبز فى الأسواق وهدأت الناس[5].

(١) المقريزى: أغاثة الأمة ـ ص ١٥ .
(٢) المصدر نفسه ـ ص ١٦ .
(٣) المقريزى: الخطط ـ ج٢ ص ٢٨٦ .
(٤) ابن الأثير: الكامل ـ ج٧ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ .
(٥) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ١٥ - ١٦ .

منهم جماعة ودخل بعضهم الى [قلعة] مازكرد(*). فاحضره الملك العادل بين يديه وقال له: اتريد ان ابيعك او اقتلك او اعتقك . فقال له ديوجانس: ما ملكتني بقتال وانما اجنادي خذلوني وتخلو عني ولم ينصحوني، والان فان كنت جزاراً فاقتلني وان كنت صيرفيا فبيعني وان كنت ملكا فاعف عن، فقام إليه فاعتنقه واجلسه معه في مرتبته وخلى به ثلثة ايام ياكل ويشرب ويتحدث

(*) كانت معركة مازكرد سنة ١٠٧١م هي المعركة التي انكسر فيها البيزنطيين بقيادة رومانس الرابع أمام السلاجقة بقيادة الب ارسلان. ومنذ هذه المعركة أخذت الدولة البيزنطية في التقهقر.

إلا أن استمرار إنخفاض النيل أدى إلى ارتفاع الأسعار مرة أخرى فبلغ القمح كل تليس أربعة دنانير، والأرز كل ويبة بدينار، ولحم البقر رطل ونصف بدرهم ولحم الضأن رطل بدرهم، وزيت الوقود رطل بدرهم وبيع الخبز كل ثلاثة أرطال بدرهم[1]. فأعيد على أثر ذلك تسعير الكثير من السلع، فسعر الخبز كل اثنى عشر رطلاً بدرهم، واللحم رطلين بدرهم، وتمت معاقبة من يخالف ذلك بالجلد، فسكنت الأحوال[2]. حيث إن العقاب لم يكن ينزل فقط بمن يخالف الأسعار، فقد ضرب عدة من الطحانين والخبازين وشهروا لأجل ازدحام الناس على الخبز، مما يشير إلى شبهة التباطوء في أداء العمل، فأصبح الخبز لايباع إلا مبلولاً (عجينا).

وزاد في الطنبور نغمة، استمرار الزيادة في فيضان النيل عام ٣٩٨هـ/١٠٠٧-١٠٠٨م، حتى إن الناس استقوا مرتين، وفتح الخليج والماء على خمسة عشر ذراعاً فاشتد الغلاء[3]. ثم بدأ نقص النيل بعد فتح الخليج بأيام، فاشتدت المسغبة، وبيع الخبز مبلولاً، وضرب جماعة من الخبازين وشهروا لتعذر وجود الخبز بالعشايا، وبلغ الغلاء ذروته في ربيع الآخر[4]. وعندما

(١) المصدر نفسه ص ١٦.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا - ج٢ص ٦٩.
(٣) المقريزي: الخطط - ج٢ ص ٢٨٦-٢٨٧.
(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا - ج٢ص ٧١.

معه ويوادده وقرر معه عهود وهدية وسير معه ثلثة الف فارس حتى اوصلوه المصيصه وعادو، فلما وصل اليها بلغه ان ميخاييل قد جلس ملكا فى القسطنطينيه وذلك فى سنة سبع مايه اربعه وثمانين للشهدا، واستعد ميخاييل بالعساكر وحشد ديوجانس وهو بالمصيصه(*) عساكر كثيرة وطلب المملكة وصارو مقدمى الروم قسمين: فرق مع ديوجانس وفرق مع ميخاييل، فسير ميخاييل

(*) المصيصة هى فى وادى ادنه شمال الاسكندرونه.

توقفت زيادة النيل عند ١٤ ذراعاً وأصابع اشتدت الأزمة ولحق بالناس كل الضرر[1]. وزادت الكارثة بانتشار الأوبئة، فاختفت الأدوية. وضمن إجراءات الوقاية الطبية، «شهر جماعة من الناس وجد عندهم فقاع وملوخيه ودلينس وضربوا»[2]. ولأجل مواجهة السيل المنهمر من إرتفاع الأسعار، وزيادة الإحتكار، أمر الحاكم بألا يخزن أحد من المؤن أكثر من حاجته، وحدد أسعار القمح والمواد الغذائية، وجعل عقوبة من يخالف ذلك القتل[3].

ولاعتقاد الحاكم، وكذلك بقية المسلمين، أن سبب توقف النيل هو ما يقوم به العباد من إظهار المنكرات التى نهى الله عنها مثل السكر واللهو، فقد منع الحاكم الناس من التظاهر بالغناء، ومن ركوب النيل للتفرج، ومنع بيع المسكرات، وفرض ما يشبه حظر التجول من العشاء وحتى الفجر[4] وإن كان الأمر لا يخلو من رغبة الحاكم فى تقييد حركة السكان وعدم التمرد.

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ١٦.
(٢) المقريزى: الخطط ج٢ص ٢٨٧.
(٣) د. محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٧٠ ـ ص ٩٣.
(٤) المقريزى: الخطط ـ ج٢ص ٨٧، د. حسن إبراهيم: الفاطميون فى مصر ـ ٢٨٨، الذهبى (شمس الدين). تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ـ مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤٢، تاريخ، مجلد ١٦ ـ ص ١٤٧.

الدمستق ابن عمه الى ديوجانس بعسكر كبير ولقيه على [نهر] ادنه فظفر [به] ديوجانس وكسره، فعاد منهزماً الى القسطنطينيه، ثم اجتهد ديوجانس بالانطاكيين ان يفتحو له انطاكية فما فعلو، وبقى هو مقيم بعسكره فى المصيصه وادنه الى طرسوس، ثم جرد ميخاييل عسكر اخر مع الدمستق ابن عمه حتى لقى ديوجانس فى أدنه فكسره الدمستق وظفر به فدخل منهزماً الى



جزء من عتب باب علوى من الخشب عليه بالحفر مشهد يمثل دخول المسيح أورشليم على أتان تستقبله الجماهير (القرن الخامس الميلادى الميلادى. كنيسة المعلقة).

وحل موعد إحتفال الأقباط بعيد الشعانين[1]، والغلاء على أشده، فمنع النصارى من تزيين كنائسهم، كما جرت عادتهم، وقبض على جماعة منهم فى شهر رجب يبدو أنهم حاولوا مخالفة نواهيه، وأمر باحضار ما هو معلق على الكنائس واثباته فى ديوان الخليفة، وكتب بذلك إلى كل الولاة، وأحرقت صلبان كثيرة على باب الجامع فى الشرطة[2]. (لعلها شرطة الفسطاط).

وقد أتت الإجراءات السابقة ثمارها فخفت حدة إرتفاع الأسعار بعض الشئ فى شهر رجب[3]. ويبدو أن عدد الوفيات كان كبيراً خلال الأعوام ٣٩٥هـ ٣٩٨هـ، سواء من مات منهم بالوباء. أو قتل لمخالفة أوامر الحاكم، الأمر الذى دفعه إلى إستحداث ديوان جديد يقال له الديوان المفرد، ومهمته «الإستحواذ على من يقبض ماله من المقتولين وغيرهم من المصادرين[4].

---

(١) وهو عيد الزيتونة ويعرف بعيد الشعانين ومعناه التسبيح، ويكون فى سابع أحد من صوم المسيحيين، وجرت العادة بأن يخرجوا سعف النخيل من الكنيسة يومها للأحتفال بهذا اليوم ويرون أنه يوم ركوب المسيح الحمار فى القدس ودخوله إلى صهيون وهو راكب والناس بين يديه يسبحون وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ــ المقريزى: الخطط ــ ج١ ص ٢٦٤.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ــ ج٢ص ٧١.

(٣) المقريزى: الخطط ــ ج٢ ص ٢٨٧.

(٤) المقريزى: الخطط ــ ج٢ ص ٢٨٧.

[حـصن] ادنه واخـذ [الدمستقى] البـخت يسيـراً [أسيراً]، وهو الذى كان يشد من [أزر] ديوجانس.
وبقى ديوجـانس ومن معـه محـاصـرين فى حـصن ادنه عـدة ايام، فـقـال لمقـدمى المدينة الى متى هذا الامر الذى نحن فيه وقد افنينا النصـ[ـارى] فيما بيننا، لا حـاجـة لى بالملك على هذه القـضـيـة. ثم ارسل الى الدمـسـتق يقـول له انا فى هذه الليلة اقـصى شـعـرى واترهب والبس الـ[صـوف] وبارك

وعندما كسر الخليج فى العام التالى وكان مقدار الماء فيه، ١٥ ذراعاً[١]، تخوف الناس من إستمرار الحالة التى يكابدونها منذ عامين، فتظاهروا فى شارع بين القصرين، واستغاثوا بالحاكم بالحاكم ألا يهمل أمرهم.

وكان الخليفة عند حسن ظنهم به، فركب حماره وخرج من باب البحر ووقف وقال: «أنا ماض إلى جامع راشدة. فأقسم بالله إن عدت فوجدت فى الطريق وموضعاً يطأه حمارى، مكشوفاً من الغلة لأضربن رقبة كل من يقال لى إن عنده شيئاً منها ولأحرقن داره وأهبن ماله» وتوجه إلى الجهة التى حددها، وتأخر حتى آخر النهار، ليعطى فرصة كافية يحمل الناس خلالها غلالها إلى الطريق. ولشدة حركة النقل بلغت أجرة الحمار فى حمل النقلة الواحدة ديناراً. فلما امتلأت الطرقات بالغلال، امتلأت عيون الناس. وساعد ذلك الحاكم على أن يصدر أوامره بتقدير ما يحتاج إليه فى كل يوم وفرضه على تجار الغلات بالنسيئة وخيرهم بين أن يبيعوا بالسعر الذى يقرره، بما فى ذلك من فائدة محتملة، وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم، ولايمكنهم من بيع شئ منها إلى دخول الغلة الجديدة، فاستجابوا له وانخفضت الأسعار[٢].

---

(١) ذكر المقريزى أنه اشيع بلوغ الذراع السادسة عشر وخلع على ابن الرداد ثم نقص منذ ١٩ توت (اتعاظ ـ ج٢ ص ٧٦).

(٢) المقريزى : إغاثة الأمة ـ ص ١٦ـ ١٧.

الله لكم فى ملككم والموعد بينى وبينك انى فى
غدا اخرج اليك وعلى ثياب صوف اسود وشعرى
محمول قدامى فى صينية، فلما كان بالغداة ركب
الدمستق ليتلقاه فخرج اليه بثياب الرهبنة وشعره
مقصوص بين يديه، فلما راه الدمستق وجميع
جيوشه ترجلو عن خيلهم وسجدو له وبكو وعانقه
الدمستق وبكا وسارو جميعاً الى حرصا مولى
[على] ساحل القسطنطينية وطلع الى دير هناك،

من هذه الرواية يستفاد أنه رغم نقص النيل فى العام السابق، إلا أن بعض الأراضى كانت قد زرعت وأنه لولا الاحتكار التجارى والتخوف من استمرار المجاعة، لكانت الغلال تكفى حاجات السكان، وتدل عبارة «الغلة الجديدة» على أن زيادة النيل قد سمحت برى بعض الاراضى، وإلا لما كان هناك مجال للحديث عن «الغلة الجديدة».

وقد وضعت هذه المجاعة أوزارها فى شهر شعبان ٣٣٩هـ/١٠٠٩م حينما «تراخت الأسعار» على حد تعبير المقريزى[١].

وشهدت خلافة الحاكم بعد ذلك أحداثاً شبيهة بما حدث وإن كانت أقل شأناً وخطورة، ففى سنة ٤٠٣هـ/١١– ١٠١٢م ارتفعت الأسعار، مما اضطر الحاكم فى رجب من هذه السنة إلى «قطع الرسم الجارى من الخبز والحلوى الذى كان يقام فى شهور رجب وشعبان ورمضان، لمن يبيت بجامع القاهرة من ليلة النصف من رجب»[٢]، ولعل سبب ذلك عدم زراعة بعض الأراضى حيث بلغ النيل ١٦ ذراعاً و١٠ أصابع.

وفى عام ٤٠٣هـ/١٢– ١٠١٣م، إرتفعت الأسعار وازدحم الناس على الخبز ففرق الحاكم

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا – ج٢ ص ٧٨.
(٢) أيمن فؤاد سيد: نصوص ضائعة – ص ٣.

وبعث الدمستق الى ميخاييل الملك والى عمه قيصر فاعلمهما بذلك.

ولما مضى البارسلان ملك الغز الخرساني الى اصبهان وجد ابن عمه فارود قد نافق عليه، فاندفع قدامه الى ما ورا النهر وبقي غلام له ديلمي في قلعة حصينة، فنزل عليه البارسلان وحاصره فلما رأى الغلبة طلب منه الامان فامنه ونزل اليه، فلما كان بعد نزوله اليه بثلثة ايام وهو مقبوض عليه

مالاً على الفقراء[1]. وربما كان ذلك من جراء إنخفاض النيل في العام السابق لأنه بلغ في هذا العام ١٧ ذرعاً و١٢إ صبعاً.

ويذكر المقريزى أن مجاعة قد وقعت عام ٤٠٦هـ/١٥ـ١٠١٦م، وإن كانت قد جاءت بعكس سابقاتها إذا ارتفع الفيضان في هذه السنة إ لى ثلاثة أصباع من إحدى وعشرين ذراعاً، «فغرق المقياس وامتلأ كل مكان من المدينة وبلغ الماء إلى نصف النخل مما يلي بركة الحبش، ولم يبق طريق يسلك إلى القاهرة إلا من الشارع والصحراء، وأدى ذلك إلى غرق الضياع والبساتين»[2].

إلا أن قوائم النيل تخلو من ذكر لهذه الزيادة التي اتفقت المصادر التاريخية على أنها كانت ١٦ زراعاً وأصابع فإن كان هناك ثمة مجاعة في هذه السنة فيكون سببها القصور النسبي لماء الفيضان.

أما ختام هذه السلسلة من مجاعات عهد الحاكم بأمر الله فكان، في سنة ٤١٠هـ/١٩ـ١٠٢٠م، حيث اشتد إرتفاع الأسعار حتى وصل سعر رطل الدقيق درهماً، وبيع اللحم أربع

(١) المقريزى: اتعاظ ـ ج٢ ص ٩٣، الخططة٢ص٢٨٧.
(٢) المقريزى: اتعاظ ـ ج٢ص١١٢.

في خيمة وبعث اليه البارسلان ملك الغز يقول له: لابد من قتلك فاختار اى مو[ته] تموت . فقال لرسول البارسلان: مولاى وانا كنت فى هذه القلعة من قبل ابن عمه واذا كان يريد قتلى فالمال الذى كان لابن عمه جميعه عندى فى هذه القلعة مخبى واريد احضر بين يديه واعلمه موضع المال ومبلغه ويفعل بى بعد هذا ما يريد. فمضى الرسول الى البارسلان واعلمه بذلك فامر باحضاره فلما حضر قبل الارض وتقدم حتى دنا من سرير الملك

أواق بدرهم ومات الكثير من الناس بالجوع وبلغ عدد من مات فى شهور رمضان وشوال وذى القعدة «مائتى ألف وسبعين ألفاً سوى الغرباء وهم أكثر من ذلك»[(١)].

ومن خلال استقراء قوائم الفيضان يمكن القول بأن سبب هذه المجاعة الأخيرة، هو إرتفاع فيضان النيل إلى حد إغراق الأراضى الزراعية (١٩ ذراعاً و٨أصابع)، ويكون ما أورده المقريزى بشأن المجاعة التى حدثت عام ٤٠٦هـ منطبقاً على هذه السنة، ويرجح أن يكون المقريزى قد خلط بين أحداث السنتين، ويؤكد ترجيحنا لهذا الاحتمال أن سنة ٤٠٦هـ بلغ النيل فيها حسب أبى المحاسن ١٦ ذرعاً وأصبعين وحسب ابن أيبك ١٦ ذرعاً و٩إصابع ، وهو حد يعنى عدم زراعة بعض الأراضى، وذلك فى ضوء أن المقريزى الذى انفرد بذكر مجاعة ٤١٠هـ، لم يوضح سببها.

أما الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم، فعلى الرغم من قصر مدة خلافته(٤١١ـ٤٢٧هـ/١٠٢٠ـ١٠٣٥م) فإن البلاد شهدت فى عهده مجاعة مخيفة إمتدت عامى (٤١٤ـ٤١٥هـ/١٠٢٣ـ١٠٢٥م)[(٢)].

وجملة الأحداث والملابسات التى وقعت خلال هذين العامين تثبت بشكل قاطع أهمية

(١) المقريزى: اتعاظ ـ ج٢ ص ١١٥.

(2) Lewis (B) and others: The Cambridg Hisstory Of Islam. London 1970 - Vol . 1 . P. 1880.

البارسلان فقالو له قل للملك موضع المال، فقال:
الملك مولاى وانا عبده ما اقول شى الا بينى وبينه،
فامر ان يدنو منه فانحنا كانه يقبل الارض
فاستخرج سكين كانت معه بين الرانات والخف
ورمى نفسه على الملك وضربه بالسكين فى صدره
اوله وثانيه فوثب اليه الغلمان بالدبابيس فضربوه
حتى قتلوه وجروه بكعبه، وعاش البارسلان بعده
ساعة واوصا وزيره وخواصه وقال لهم ولدى
الوسطانى هو الملك الذى يستحق ان يكون بعدى.

الدور الذى تلعبه الإدارة المركزية، فى الحد من مخاطر نقص الفيضان، خاصة إذا ما قورنت بما وقع أيام الحاكم بأمر الله.

فلقد كان الظاهر، خلافاً لأبيه، ضعيف الشخصية، مسلوب الإرادة مع رجال الدولة الذين تركزت فى أيديهم سلطات إدارة البلاد حتى أصبح لايدخل عليه سوى ثلاثة (الشيخ نجيب الدولة الجرجرائى، والشيخ العميد محسن بن بدوس، والقائد معضاد)ويخرجون ليسيروا أمور الدولة بينما انهمك الظاهر فى لذاته[1]. فقد اشتهر بشغفه باللهو وحب الغناء، وشراء المجوهرات، وأصبح الترف سمة لعصره، إذ حاكاه رجال الدولة ومياسير القوم، الذين تأنقوا واتخذوا المغنيات والراقصات[2].

ويبدو الأمر كما لو كان الظاهر قد أتى ليجنى فقط ثمار جهاد أسلافه فى إقامة أول خلافة شيعية، غير مدفوع بهذه الروح الدينية التى أشبع بها الخلفاء الأول.

وبداية، فإنه يمكن إجمال أسباب هذه المجاعة فى:

١ـ ضعف سلطة الخليفة، رأس الدولة المركزية، وبداية ظهور رجال الدولة الأقوياء كأنداد للخليفة، يشاركونه سلطته الزمنية.

(١) المقريزى: الخطط ج١ص ٣٥٤.
(٢) المصدر نفسه ـ ج١ص ٣٥٥.

فلما مات اجلسو ولده المذكور فسير اخوه يانس الى الشام ومعه رجال كثير فملكه واقام فيه وسكن في دمشق.

وكان الاب [انبا اخرسطودلوس البطرك] قد جرت له خطوب كثير مع القس ابو يعقوب الراهب الذى ذكرته انفاً حتى انه طمع بالبطركيه وحدثته نفسه بانه ياخذها بيد ناصر الدولة ابن حمدان صاحبه، وسار الى عند المذكور وقرر معه

كما أن الظاهر أهمل واجباته، كممثل للسلطة المركزية، فلم يهتم بتوفير الغذاء للناس، بل وفي أوج الأزمة، قام بالاستيلاء على ماورد إلى ساحل مصر من مراكب مملوءة قمحاً، ورسم بتسليمها لقصر الخلافة وأدى ذلك إلى أرتفاع الأسعار[١]. ومن المفارقات التاريخية أن الظاهر نزل إلى القاهرة في نصف ذى القعدة ٤١٥هـ/١٠٢٥م، والغلاء على أشده «وشق البلد بدلالين وخلفه الخدم المقودون والمصطنعة وبين يديه الرقاصون»[٢]، وفي حين أن الحاكم أبطل مظاهر اللهو والاحتفال بوازع دينى كما أسلفنا. ولم يترك أفراد الشعب المصرى هذه المناسبة دون أن ينددوا بسلوك الخليفة، مذكرين إياه بما فعله أبوه، فاعترضوا مسيرة الخليفة في تظاهرة وهم يهتفون«الجوع يا أمير المؤمنين. الجوع، لم يصنع بنا هكذا أبوك ولاجدك فالله الله في أمرنا»[٣].

٢ـ أدى ضعف الخليفة إلى تضخم دور رجال الدولة الذين مارسوا تجارة الغلال بغية الربح، ثم تمادوا في ذلك إلى حد إحتكار الغلال والتحكم في أسعار البيع. ويدل على ذلك نصان، وردا لدى المسبحي، أولهما في حوادث رجب ٤١٤هـ/١٠٢٣م ويتعلق«بفتح مخازن لجماعة

(١) المسبحي، الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد: أخبار مصر ـ تحقيق أيمن فؤاد السيد، وتيارى بيانكي ـ المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ـ القاهرة ١٩٧٧ـ ج٤ص ٣٩.
(٢) المصدر نفسه ـ ص ٧٣.
(٣) المقريزى: الخطط ج١ص ٣٥٤ .

ذلك وعـاد [إلى] اسكندرية ينتظر وصـول ابن
حمدان اليها ليفعل له ما وعده به، فمرض ابو
يعقوب الراهب ومات ودفناه في بيعة ابو مينا
الشهيد الجليل الذى خارج الحصن، وعند وفاته
قال لنا قس راهب كان قد جعله ولده في الرهبنه
اسمه سليمان، وكان اطروش[بطروش] وكان
قديس عاقل، اعلمو ان السيد المسيح قد ستر هذا
القس ابو يعقوب وستر على الشريعة بموته وما
اقول لكم اكثر من هذا. ومن بعد هذا وصل ابن

من رجال الدولة» لتفرق غلاتها على الناس بسعر منخفض[(١)]. والثاني في حوادث ذى القعدة ٤١٥هـ/١٠٢٥م ويشير إلى فتح مخزن لرجل يدعى مسعود، غلام الشيخ نجيب الدولة أبى القاسم الجرجرائي، وبيع القمح الذى فيه بثلاثة دنانير التليس فتزاحم الناس عليه[(٢)]. رغم أن هذا السعر لايبعد كثيراً عن سعر البيع في ذى الحجة (أربعة دنانير وثلث للتليس) وهو سعر أصاب الناس بمسغبة على حد تعبير المسبحي نفسه[(٣)]. ولقد لعب الإحتكار دوراً بارزاً فى اشتداد هذه المجاعة وخاصة في عام ٤١٥هـ بعد أن بلغ النيل حداً يمكن معه زراعة بعض الأراضي ودرء خطر الجوع، ولم تقتصر الممارسات الإحتكارية والتلاعب بالأسعار، على رجال الدولة وغلمانهم، فقد كان هناك أيضاً مخالفات من جانب الخبازين والطحانين وتجار الغلال الذين عذروا (عوقبوا) من قبل المحتسب.

٣- خطر الغزو الخارجى، الذى لاح على حدود مصر الشرقية من قبل حسان بن مفرج بن جراح الطائى عام ٤١٥هـ/١٠٢٤ـ١٠٢٥م، مما أدى إلى زيادة الأسعار بعد انخفاضها.

٤- نقص زيادة النيل عام ٤١٤هـ إلى ١٤ذراعاً و ١٤إصبعاً، وهو حد يعنى المجاعة، وإن كان النيل فى العام التالى قد وصل إلى ١٦ ذراعاً و٨ أصابع.

(١) المسبحي: أخبار مصر ج٤٠ص ١٥، المقريزى: إتعاظ الحنفا ج٢ص ١٣٥.
(٢) المسبحي: أخبار مصرج٤٠ص ٧٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٨٦.

حمدان الى اسكندرية وكان قد عظم امره وصار
يخاطب بمولانا الناصر، فلما علم بوفاة ابو يعقوب
صعب عليه ذلك لانه كان يؤثره وقال: والله لو
بقى الى ان اصل لبلغته مراده وجعلته بطركاً.
فعلمنا من قوله ومن قول سليمان الاطروش ان ابو
يعقوب اراد ان يغتصب البطركيه لنفسه بيد
حمدان صاحبه وشكرنا الله اذ قصر عمره ولم
يبلغ غرضه في الاخراق بالمذهب المسيحي والشرع
الشريف الحواري. وكنت في حال وجعه افتقده

وتبدأ أحداث هذه المجاعة فى الثلاثة أيام الأخيرة من جمادى الآخر عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م بنقصان ماء النيل بعد أن أوفى، فلم ترو لذلك الضياع، وكثير من الأراضى، «فكثر ضجيج الناس واستغاثتهم إلى الله، وخرج أكثر السكان من الرجال والأطفال ومعهم المصاحف إلى جبل المقطم يستغيثون بالله تعالى فلم يغاثوا»[١].

وكان أول رد فعل ـ هو إحجام التجار عن بيع الغلال فوصل سعر تليس القمح إلى دينار ثم اختفى القمح كلية وأصبح يباع سراً بدينارين للتليس، ووصل سعر حملة الدقيق إلى دينارين وربع، والخبز أربعة أرطال بدرهم وثمن، مع ندرة وجوده فى الأسواق ، وبيع التبن بعشرين درهماً الحمل[٢].

---

(١) المسبحى:أخبار مصر ج٤٠ص١٢، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٣٤ – ١٣٥.

(٢) المسبحى: المصدر السابق ص ١٢ـ ١٣ذكر المقريزى فى إتعاظ الحنفا(ج٢ـص ١٣) الأسعار نفسها عدا أنه ذكر أن «ثمن الحمل الدقيق بعشرين درهما»، وهو ما أثار استغراب المحقق (هامش (١) نفس الصفحة، حيث إنه بذلك، يكون تليس القمح وهو ما يوازى نصف حملة الدقيق وزناً بدينارين وربع دينار حيث إن الرطل المصرى يساوى مائة وأربعة وأربعين درهماً والتليس مائه وخمسون رطلاً وخمسون رطلاً مصرياً حسب ابن مماتي. والواضح أن النسخة المحققة كان بها خطأ من الناسخ أو يكون المقريزى ـ وهو أمر مستبعد ـ قد أخطأ عند نقله عن المسبحى ـ الذى ورد فيه أن الحمل الذى بعشرين درهماً كان من التبن، وكلمة ثمن فهى تعنى درهم فى «الخبز أربعة أرطال بدرهم وثمن» ولاتعنى الثمن أى السعر.

لانه كان اخذ ولدى يوحنا فى المعمودية فسمعته
يقول: يارب قد اخطات فامهلنى سنة واحدة حتى
اتوب وابكى على خطيتى، ثم قال فامهلنى ستة
شهور ثم قال فشهر واحد الى ان تعقد لسانه
ومات . وظهر بعد موته من فعله فى طلب
اغتصاب البطركيه ما تقدم ذكره، وتمت فيه
المجازاة الدنيانية العاجلة وكفى البطرك امره.

ولما ملكو اللواتيين (*) جميع اسفل الارض

(*) اللواتيون: قبائل بدوية انتشرت

وفى محاولة للقضاء على إرتفاع الأسعار عزل ابن عزة متولى الحسبة، وعرضت الحسبة فى رجب ٤١٤هـ/١٠٢٣م على العميدى الذى كان قد عزل من تولى الترتيب، فأبى أن يصير محتسباً بعد أن كان جليس أمير المؤمنين وصاحب خريطة، فتم تعيين دواس بن يعقوب الكتامى، محتسباً على الأسواق والسواحل، وخلع عليه بثوب مثقل وعمامة، ونزل إلى القاهرة فى موكب عظيم، حتى انتهى إلى مجلس الحسبة، فأحضر هناك الخبازين وتجار الدقيق وضرب بعضهم وشهرهم فارتدع الناس، وانخفضت الأسعار وظهرت الغلال فى الأسواق(١)، ولأن هذه الإجراءات لم تمس إحتكارات وغلال رجال الدولة، الذين مارسوا رفع الاسعار ولاشك، فإن الأمور ما لبث أن عادت إلى سيرتها الأولى، فبعد أيام قليلة أفتقد الخبز، وكثر الأزدحام على دكاكين الخبز، وكان غاية ما فعله المحتسب أن أمر ببل الخبز فى الماء فى القصارى على أن يباع بسعر ثلاثة أرطال بدرهم. وبصرف النظر عن أن هذه أول مرة يرد فيها هذا الإجراء، فإن ذلك كا يعنى عملياً إقرار سعر أكثر إرتفاعاً من الذى كان يباع به الخبز جافاً (أربعة أرطال بدرهم وثمن) طالما كان بل الخبز يعنى زيادة وزنه، أى أنه نوع من الغش التجارى المستتر والمقنن.

(١) المسبحى: المصدر السابق ص ١٣ـ ١٤، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص١٣٥.

في الصحراء الغربية المصرية، هاجموا الاراضي الزراعية والقرى خاصة في الدلتا وغربها واشاعوا الفساد والنهب والسلب والقتل.

وصارو فى اربعين الف فارس سوى اتباعهم، وصارت بلاد مصر بحكمهم يزرعو كما يريدو بلا خراج بلا مساحة الى ان افكرو وتشاورو مشورة ردية ان لا يعملو جسور فى الريف ولا يحفرو تراع حتى لا يطلع الما على الاراضى ولا يزرع احد شى فيبيعو غلاتهم التى حصلوها بما يريدو ويهلكو من بقى من الناس، فارسل الله في تلك السنة وهى سنة اربع ماية اثنين وستين الخراجية جا نيل عال

وهو أيضاً تحبيز للتجار على بيع الخبز نظراً لارتفاع أرباحهم وبحماية المحتسب ـ فظهرت الأخباز في الأسواق بعد ذلك.

ولضمان إستمرار وجود الخبز، فتحت مخازن لجماعة من رجال الدولة، وأطلق للناس من السواحل غلة كثيرة، وقام المحتسب بضرب جماعة من الخبازين وشهرهم بسبب رفعهم الأسعار، وضيق على الطحانين، الذين كانوا فيما يبدو، يقومون ببيع الدقيق للناس بسعر مرتفع بدلاً من بيعه للمخابز التى تشترى الدقيق وتبيع الخبز بأسعار محددة، حتى إنه الزمهم بترك عملهم في طحن الغلال وختم على مخازنهم وفلست طواحينهم وجعلهم خبازين(١).

أهلت سنة ٤١٥هـ والأزمة لازالت قائمة، وتضاربت الأقوال بشأن زيادة النيل فى هذه السنة. فالمقريزى يذكر أن زيادة النيل جاءت ناقصة، «ولم يرُ النيل فيما تقدم من السنين أقل نقصاناً منه في هذه السنة»(٢). ثم يعود فيذكر أن ماء النيل بلغ ١٦ ذراعاً و٨أصابع(٣). ويورد

(١) المسبحي: المصدر السابق ص ١٥ـ ١٦، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص١٣٥.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ٢ص ١٤٢، الخطط ١ص ٣٥٤.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٧٢، ويذكر المسبحى أن النيل قد أوفى هذه السنة وهو الأصح. انظر المسبحي ـ المصدر السابق ج٤٠ص ٤٧.

جدا بغتة حتى غطا جميع الارض وزرعو الناس جميع البلاد.

واما الاب اخرسطودلوس فانه توجه بعد موت ابو يعقوب الراهب الى مصر واقام بها مدة طويلة الى ان وصل الاجل [الأفضل] امير الجيوش من عكا الى مصر وقتل من كان فيها من المنافقين وذلك في سنة ثلاث وستين واربع مايه الخراجية وهي سنة سبعماية وتسعين للشهد الابرار

ابن أيبك وأبو المحاسن أن الزيادة كانت ١٦ ذراعاً. وهذه الحدود كما أسلفنا لاتعنى المجاعة، إلا أنها مع وجود مجاعة فى العام السابق والعوامل السابق الأشارة إليها ، من الممكن أن تزداد الأمور سوءاء، وهذا ما كان. فبدأ إرتفاع الأسعار من شهر ربيع الأخر، وخاصة سعر القمح الذى بلغ التليس منه ثلاثة دنانير، «والشعير بيع أربع ويبات بدينار، وبيع الخبز رطلين ونصف بدرهم، وبلغ سعر حمل تبن الدواب ديناراً إن وجد ، وارتفعت أسعار كل ما يؤكل»[(١)].

وفى الشهر التالى، واصلت الأسعار إرتفاعها ، لاستيلاء الدولة على ما ورد إلى المقس من غلال لصالح مخازن القصر الفاطمى[(٢)].

ويظهر أن الأحوال بلغت حدا لايصح السكوت عليه، تشكك معه الخليفة فى كفاءة، وربما أمانه، المحتسب، دواس بن يعقوب، فتم عزله فى ٤ رجب ٤١٥ هـ ، ليحل بقى الخادم الأسود غلام بدر الدولة مكانه، إضافة إلى توليه الشرطتين (القاهر ة والفسطاط)، ونظر فى

---

(١) المسبحى: أخبار مصرج٤٠ ص ٣٢، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص١٤٢.
(٢) المسبحى: المصدر السابق ص ٣٩، المقريزى: نفس المصدر ج٢ص١٤٤.

وصلحت البلاد على يده، وخرج الى اللواتيين وكسرهم وقتل جميعهم واباذهم من اعمال الريف وملكها، وسار الى الصعيد ايضاً ففتحه واباد من كان فيه من المارقين وملكه، وعاد الى مصر واقام بها ورتب الامور على نظامها القديم واعادها الى كيانها بحمد الله ومنه.

وكان اللواتيين منذ امتدت ايديهم الى الديارات بوادى هبيب فنهبوها وقتلو رهبانها وهرب من بقى

الحسبة وأمر أن يباع الخبز الخشكار خمسة أرطال بدرهم والحوارى أربعة أرطال بدرهم[1].

على أن أصحاب الطواحين وحوانيت الخبز، الذين استساغوا تساهل ابن يعقوب ، لم يرتضوا هذه الأسعار، وامتنعوا عن فتح الطواحين والحوانيت طوال اليوم التالى (٥رجب)فلم يجد الناس خبزاً ولا دقيقاً. ومن ثم اضطر الخليفة إلى عزل بقى من الحسبة يوم ٦ رجب وأعادة دواس إليها. فأمر المحتسب العائد بأن يباع الخبز الذى يباع فى الأفران خمسة أرطال بدرهم، ولعله يقصد بذلك الخبز الخشكار وهو نفس السعر الذى قرره المحتسب المعزول، على أن تباع بقية الأنواع الأخرى من الخبز بدون تسعير، وهو كما نرى «حل وسط» يضمن توفر ما يسد به رمق الناس من الخبز الردئ، وفى نفس الوقت يضمن زيادة مكاسب التجار فيما سواه من الأنواع الجيدة، وبالفعل ظهر الخبز فى الأسواق وبيع الخبز السميذ رطلين ونصف بدرهم، وما دون هذا النوع ثلاثة أرطال بدرهم[2].

---

(١) المسبحى: المصدر السابق ح ٤ص ٤٧ ـ٤٨ .والخشكار هو الدقيق الذى لم يستقص طحنه، ولانخله والخبز الخشكار هو المصنوع بدقيق القمح والردة ، والحوارى هو الدقيق الأبيض، والخبز الحوارى هو المصنوع من الدقيق الأبيض ـ(انظر ـ المسبحى هامش ٣،٤ص ٨٤).

(٢) المسبحى: أخبار مصر ج٤٠ ص٤٨ ـ ويذكر المحققان (هامش ٥) أن السميذ هو الحوارى وربما يكون السميذ نوع أفضل من الحوارى.

منهم الى الريف وغيره واخربوها، ونال الشعب باسكندرية ومصر حزن عظيم معما نالهم من الشدة العظيمة فى ايام ابن حمدان واصحابه، وانه تسلط اللواتيين على الريف فملكوه ولم يقدر احد يزرع فيه غلة غيرهم فحرثو الغلات وامتنعو من بيعها الى ان عدمت من ارض مصر وبلغ التليس [جوال] القمح ثمانين(*) دينار وعدم حتى لم يوجد، واكلوا الناس البغال والحمير الميتة وغيرها

(*) هذا الرقم يعني في الغالب ثمانية وليس (٨٠) ثمانين، قارنه بالملحق اسفل نفس الصفحة.

ولذلك، فقد كان من الطبيعى أن لايدوم وجود الخبز فى الأسواق إلا أياماً معدودات، إذ عادت الأسعار إلى الأرتفاع وخاصة ثمن القمح والدقيق والخبز،واضطربت الأحوال لذلك فى نفس هذا الشهر[١]. وساعد على ذلك أنه سرت فى البلاد شائعة مؤداها أن حسان بن جراح الذى خرج على الخلافة فى الشام بعث بخمسمائة فارس إلى العريش ولم يعرف مقصدهم، فخاف الناس أن يدخلوا عن طريق القرافة فانتقل سكانها إلى الفسطاط وكذلك فعل أهالى بلبيس، وازاء إرتفاع الأسعار واضطراب الأحوال اضطرت السلطات إلى أعادة السيطرة على القرافة حتى تسكن الحالة[٢].

إستمر إرتفاع الأسعار حتى شهر شوال فبلغ سر تليس القمح دينارين ثم ثلاثة غير ثمن التليس (العبوة)، وتليس الشعير ديناراً واحداً ثم الست ويبات بدينار، والخبز رطلين بدرهم، والدقيق رطلين بدرهم واللحم الرطل بثلاثة دراهم مع تعذر وجود اللحوم سواء من الدواجن أو الحيوانات[٣]. ويظهر أن وباءً قد أصاب الحيوانات والدواجن مما أدى إلى إرتفاع أسعارها حتى

---

(١) المسبحى: المصدر السابق ص٥٢.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ ص١٥٤.

(٣) المسبحى: أخبار مصر ج٤٠ ص٦٧ ـ ٦٩، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ ص١٦١ ـ ١٦٢.

حتى فنيت، ثم اكل بعضهم بعضا، وجماعة منه
اكلو اولادهم، وجماعة كانو ياكلون الكندر، وهو
نخالة خشب النخل، ولم يزل الناس فى هذا البلا
الى ان اهلك الله ناصر الدولة ابن حمدان واخوته
واصحابه فقتل فى منازل الغز بمصر بيد بلدكور
صهره ومن كان معه من الملحية [البحرية] الاتراك
وذلك في سنة خمس وستين واربع مابة الهلالية
الموافقة لسنة ا ثنين وستين واربع مابة الخراجية،
وبعد قتله بسنة واحدة وصل امير الجيوش الى مصر

وصل ثمن رأس البقر إلى خمسين دينارا(١)، الأمر الذى اضطر الظاهر إلى إصدار أوامره بعدم ذبح شئ من الأبقار السليمة وهدد من يفعل ذلك بالقتل وذلك بغرض الحفاظ على الحيوانات التي تساعد في أعمال الزراعة من حرث ورى ونحو ذلك(٢).

وقد أثر تناقص أعداد الحيوانات على أسعار مياه الشرب التي كانت تقوم بنقلها، فبلغت راوية الماء البغل درهمين والرواية الجمل ثلاثة دراهم(٣).

ولم يكن الوباء متفشيا فقط بين الحيوانات، بل انتشر بين الناس وازدادت حدته في شهر شوال فيما يبدو، وذلك ما يفسر إرتفاع أسعار ما يحتاج إليه المرضى، حيث بلغ سعر الرمانة الواحدة ثلاثة دراهم، والبطيخة البرلسى ثلاثين درهما، والأوقية الشراب درهما(٤).

وكان انتشار الأوبئة من الكثافة، حتى إن الناس تشاغلوا بها عن شراء ماكانوا اعتادوا عليه من الفواكه والحلوى في ليلة ميلاد المسيح، التي حلت يوم الخامس والعشرين من شوال،

---

(١) المقريزى: الخطط ج١ ص٣٥٤.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ ص١٤٩.
(٣) المسبحى: المصدر السابق ص٦٩ ـ ٧٣. المقريزى: الخطط ج١ص٣٥٤.
(٤) المسبحى: نفسه ص ٦٩ـ المقريزى:اتعاظ الحنفا ٢ ص١٦٢.

وفرج الله عن الناس بفتح الريف والصعيد وكل البلاد، وتراخت [هبطت] الاسعار ورخصت في ايامه حتى صار القمح يباع بربع دينار التليس ولله الشكر دايما ابد.

وكان امير الجيوش عند مسيره الى الصعيد حتى فتحه قد سعى اليه رجلا اسمه على القفطى بالبطرك وقال له: ان مطران اسمه بقطر من قبل اخرسطودلوس البطرك اهدم مسجد في بلاد النوبة

«حتى إنه لم يخل منزل أحد من المرضى وأوجاع الدم والحلوق»[١].

وفيما عدا المأكولات والمشروبات على اختلاف أنواعها، فقد انخفضت قيمة ما يملكه الناس من متاع، فطرحت الثياب والأمتعة في الأسواق، ولم تجد من يشتريها بدرهم[٢]. بىل وانخفضت القوة الشرائية للعملة «فيكون مع الرجل جملة من الدنانير فيطلب من يشبعه خبزاً فلا يجده»[٣].

ووسط هذا الخضم من المآسي لم يجد الظاهر لإعزاز دين الله أى غضاضة في أن يحتفل مع الناس بعيد الغطاس في رابع ذى القعدة وكان منتهى إهتمامه أن أمر بعدم إختلاط النصارى بالمسلمين[٤].

وخلال شهر ذى القعدة، ازداد تعقد الموقف، بعد أن نما إلى علم الناس إرسال حسان بن جراح ألف فارس إلى الفرما ، ففر الناس منها إلى تنيس بالمراكب، وأخذ الناس بمصر في

---

(١) المسبحي: المصدر السابق ص ٦٩.
(٢) المسبحي: المصدر المصدر السابق ص ٦٩، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٦٢.
(٣) المقريزى: المصدر السابق ص ١٧١ ـ ١٧٢.
(٤) المقريزى: الخطط ج١ص ٢٦٦.

وان في بلاد الحبشة مطران اسمه قوريل[عبدون]
وانه يراعي المسلمين ويحبهم ويكرمهم، فانفذ امير
الجيوش من الصعيد كتابا لولده الاوحد يامره فيه
ان يقبض على البطرك فقبض عليه واعتقله عنده
الى ان وصل رسول كان امير الجيوش قد انفذه الى
ملك النوبة يعرف بحسام الدولة جوامرد فعرفه
ضد ما حكاه على القفطى، فلما عاد الى القاهرة
احضر الاب انبا اخرسطودلوس البطرك الى
مجلسه مكرماً مبجلا واحضر حسام الدولة

التحفظ على أموالهم «وفقد القمح والدقيق والخبز»[1]. وقام المحتسب بمعاقبة جماعة من الخبازين لأنه وجد موازينهم للأرطال ناقصة، وصنجهم التي يزنون بها الدراهم زائدة[2].

واشتد الغلاء يوم الجمعة ١٣ ذى القعدة فبيع الخبز السميذرطلين بدرهم وربع والخبز الخشكار رطلين بدرهم، والحملة الدقيق بأربعة دنانير ونصف وقيراطين، والتليس القمح بثلاثة دنانير، وبيع اللحم أربع أواق بدرهم[3].

فازدادات مسغبة الناس الذين كثر الموت بينهم لتفشى الوباء وخاصة بين الفقراء والمساكين، وبلغ الأمر بالناس أن جزاراً طرح عظمة لكلب فرآه رجل شاب مستور متعفف فطرد الكلب وأخذ العظم منه ولم يزل يمتصه نياً إلى أن نال من مصه بلغه فرماه من يده وذهب. ولم يجد الفقراء ما يأكلونه، فأطعموا أولادهم قضبان القنبيط (وهو أغلظ أجزاءه) التى كان البقالون ينتزعونها من رؤوس الكرنب ويرمونها، فيجمعها الفقراء ليقتاتوا بها وباليسير من كسب اللوز والسمسم، وارتفعت أيضاً أسعار البقول[4].

(١) المصدر نفسه ج١ص ٣٥٤، اتعاظ الحنفا: ج١ص ١٦٦.
(٢) المسبحى: المصدر السابق ج٤٠ص ٧٢.
(٣) المسبحى: المصدر السابق ج٤٠ص ٧٢.
(٤) المصدر نفسه ص ٧٢ ـ ٧٣.

جوامرد وعلى المذكور وكذبه حسام الدولة فيما حكاه فاقر واعترف بكذبه، فاحضر امير الجيوش القضاة والشهود والفقها وقال لهم: ما يجب ان يفعل بهذا القفطي الكذوب الذى كذب بين ملكين؟. فافتوا الفقها بقتله، فقال امير الجيوش للبطرك: فما تقول أنت فيه؟ فقال له: ما عندنا فى مذهبنا قتل ولا مجازاة على الشر بشر وأنت السلطان والامر لله ولك. وامر بقتله فقتل وكفا الله البطرك امره. وكان وصول حسام الدولة

وأخيراً، شمر المحتسب دواس ساعد الجد، فأحضر جمالي القمح وضربهم حتى أقروا بمخازن التجار وسماسرة الغلال، التى يحملون إليها الغلال، وكتبوا له ١٥٠ مخزناً للقمح، «فوضع الطوابع عليها وهدد بقطع يد من تسول له نفسه أخذ حبة قمح منها»[(١)].

وتقتضى مجريات الأمور أن يقوم المحتسب بالبيع من هذه المخازن فى اليوم التالى ـ السبت ١٣ ذى القعدة ـ إلا أن ذلك لم يحدث لسبب لم تذكره المصادر التاريخية. ولعله أن المحتسب أراد أن يعطى الفرصة كاملة لكبار رجال الدولة الذين يتجرون فى الغلال، كى يبيعوا مخزونهم باعلى سعر ممكن. وهذا ما حدث بالفعل، فقد قام مسعود غلام الشيخ نجيب الدولة أبى القاسم الجرجرائى، بفتح مخزن قمح له وباع منه بسعر ثلاثة دنانير التليس، فتزاحم الناس عليه[(٢)].

المهم أن الخبز الدقيق لم يظهر بالأسواق منذ يوم الجمعة وحتى يوم الاثنين ١٦ ذى القعدة، ووصل سعر الدقيق، إن وجد، رطلاً ونصف بدرهم والخبز الأسود رطلين بدرهم وربع[(٣)].

(١) المصدر نفسه ص ٧٤ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٦٥.

(٢) المسبحى: المصدر السابق ص ١٧٤.

(٣) نفسه،المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٦٥.

جوامرد فى ذلك الوقت من الآيات العجيبة، وجرى لامير الجيوش مع الاب البطرك انبا اخرسطودلو[س] فى هذا المجلس كلام كثير ابان فيه الاب البطريرك عن فضل وعقل ورياسة حتى عظم قدره فى اعين الحاضرين. ثم قال لأمير الجيوش ان قوريل المسمى عبدون مدعى الكهنوة ومغتصب المطرنه لانى ما وسمته ولا صليت عليه ولا جعلت له ما ادعاه لنفسه ولا كتبت له كتاباً بالجملة ، وكان قبل ذلك قد استقر مسير ابا

فثارت الرعية وخرجوا إلى الشوارع فى مظاهرات ضخمة واعترضوا ركب الخليفة الذى تقدمة الرقاصون والخدم فى النصف من ذى القعدة وهم يصيحون «الجوع ـ الجوع» ومطالبين الخليفة أن يهتم بأمرهم[1]. بل وقام أحد المغاربة وهو أبو عبد الله محمد بن جيش بن الصمصامى الكتامى ويقال إنه كان مجنوناً، بالوقوف تحت القصر، وأخذ يسب الخليفة على أقبح وجه وبالغ فى ذلك فضربه الرقاصون حتى سقط وجروه برجله وسحبوه إلى السجن، حيث ضربه متولى الشرطة ثلاثين درة واعتقله[2].

ولم تنقطع مظاهرات الناس فى الشوارع، وظل هتافهم «الجوع» يشق الهواء ولاوجود لخبز أو دقيق فى الأسواق، فتم استدعاء المحتسب دواس بن يعقوب إلى القصر فى سادس عشر ذى القعدة، وعنف وهدد، واتهم بأنه فتن البلاد على الخليفة، وتم تذكيره بأنه كتب بخطه تعهداً بتوفير القمح والخبز حتى إدراك الغلة الجديدة (وهذا دليل جديد على وفاء النيل) فتعهد المحتسب مجدداً، بتدراك الأمر وقام من فوره بتوزيع القمح على الطحانين وسعره عليهم بدينار ونصف التليس، وأمرهم بأن يباع الدقيق بأربعة دنانير ونصف التليس، وأمرهم بأن يباع

---

(١) المسبحى: المصدر نفسه ص ٧٣٣، المقريزى: الخطط ج١ص٣٥٤.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ٢ص ١٦٤ - ١٦٥.

مـرقـوره اسـقف وسـيم الى بلاد الحـبشـة بكتـاب البـطرك وثوب من ثيـابه ليلبسـه لقـوريل المذكـور ويجعله مطراناً، وكـان الاب البطرك يبكى لما الزم بذلك، فلمـا بان كـذب القـفطى وقـتل وتكلم البطرك فى مجلس [الأجل الافضل] امير الجيوش بما قـدمنا ذكـره بطل امر قـوريل واستقـر مـسـير مرقوره الاسقف المذكور ويعرف بالوعواع الى بلاد النوبة رسـولا الى الملك من قـبل البطرك، ومـعـه رسول من قبل امير الجيوش اليه وهو رجلا شريف

الدقيق بأربعة دنانير الحملة، والخبز ر طلاً ونصف بدرهم، فسكن الناس لذلك قليلاً[١]. وهذه الأسعار ليست بعيدة عن الإرتفاع.

إلا أن المحتسب كان له رأى آخر، فقبيل انتهاء هذا اليوم نزل من القاهرة ومعه سجل بإلغاء جميع المكوس المقررة على الغلات الورادة إلى السواحل، وهذا يعنى تخفيض أسعارهم، ثم أضاف أمرا غاية فى الغرابة حيث ألغى التسعير الذى قرره قبل ساعات. فظهر الخبز والدقيق فى الأسواق وبأسعار قريبة من تلك التى ضج الناس بالشكوى منها، إذ وصل سعر تليس القمح إلى ثلاثة دنانير إلا ربعاً (وكان ثلاثة دنانير) والخبز السميذ رطلين بدرهم وربع، والخبز الحوارى رطلين بدرهم[٢].

وبعد هذه الحوادث يصبح إحتمال تواطؤ المحتسب مع تجار الغلال من كبار رجال الدولة، أمراً أبعد من مجرد التشكك، إذ أنه كرس إرتفاع الأسعار، رغم الغاء مكوس الغلة.

وأطمعت سياسة المحتسب غير العادلة، الجشعين من التجار والباعة، الذين لم يقنعوا بأرباحهم العالية، فلجأوا إلى رفع الأسعار والغش، ففى ٢٤ من ذى القعدة، ضرب المحتسب

(١) المسبحى: المصدر السابق ص ٧٤-٧٥، المقريزى: اتعاظ ج٢ص ١٦٥ ويلاحظ أن سعر التليس القمح يوم ختم على المخازن ١٣ذى القعدة) كان ثلاثة دنانير أى أن الفارق هو نصف دينار فقط.
(٢) المسبحى: المصدر نفسه ص ٧٥، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٦٦.

لقبه سيف الدولة ويعرف بالشريف الرضيع، فى طلب امير يعرف بكنز الدولة(*) كان قد نافق فى بلاد الصعيد الاعلا وافسد فيه ونهبه وملكه قبل وصول أمير الجيوش الى مصر، فلما علم [كنز الدولة] بمسيره [امير الجيوش] الى الصعيد كما قلنا بدياً هرب منه الى بلد النوبة. فلما سار الاسقف المذكور والرسول الذى معه الى بلاد النوبة بكتاب البطرك سلمه لهم الملك ووصلو به إلى مصر فقتله امير الجيوش وصلبه عند باب

(*) ملك النوبه يعتقل «كنز الدولة» الهارب إلى بلاده ويسلمه لرسول امير الجيوش.

بعض بائعى الدقيق وشهرهم على الجمال فى شوارع مصر وكانوا إثنين وعشرين رجلاً وفيهم مقدمهم ويعرف بابن البورى، وذلك لمغالاتهم فى الأسعار وسواد الأخباز وفساد الدقيق وخلطه بالمسحوق، وأعادهم إلى السجن بعد ذلك[1].

ولم يكن الغش فقط فى الدقيق والخبز، بل امتد إلى الموازين. ففى ٧ذى الحجة ضرب المحتسب بالفسطاط رجلاً حلاوياً يسكن على باب زقاق القناديل وشهره على جمل لأنه وجد أرطاله التى يبيع بها ينقص كل رطل منها أوقيتين وكل صنجة يزن بها الدراهم تزيد ثمن ($\frac{١}{٨}$) درهم[2].

ويعد هذا الحدث تأكيداً جديداً على دور الإحتكار التجارى وممارسات التجار الجشعة، وما وصل إليه الحال من إستخفاف بالسلطة المركزية من قبل التجار.

وكان من المنطقى ألا تفلح محاولات الرد التى قام بها المحتسب، فعاودت الأسعار إرتفاع من جديد خلال شهر ذى الحجة، فبيع القمح بأربعة دنانير وثلث للتليس، والحملة الدقيق بستة دنانير، والخبز رطل بدرهم، «فأصاب الناس لذلك مسبغة شديدة»[3].

(١) المسبحى: المصدر السابق ص ٧٦، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٦٦.
(٢) المسبحى: نفس المصدر ص ٧٨.
(٣) المسبحى: المصدر السابق ص ٨٦.

الحـــديد(*) فيما بين القاهرة ومصر. وزاد امير الجيوش فى اكرام الاب انبا اخرسطودلوس البطرك ومراعاته. وتواتر الرخا فى أيام امير الجيوش، واستقامت الطرقات واتصل وصول القوافل الى مصر من المشرق والمغرب وكل البلاد.

(*) يذكر فى مؤلفات هذا العصر أن باب الحديد كان فى ميناء المقس بالقاهرة على النيل. اما ما يذكر هنا فهو غالبًا باب الحديد الذى كان على ميناء مصر عتيقة (الفسطاط) جنوب القاهرة.

وكـــان فى اخـــر ايام انبـــا اخـــرسطودلو [س] البطرك قد صار يوحنا بطرك على انطاكيه وهو ابن اخت انبا يوحنا بطركها المعروف بابن عبدون الذى ذكرت عجايبه، ولما تنيح جعل هذا الاب عوضاً

ولم يكن ذلك بأخر تصاريف القدر، إذ سرعان ما قام العبيد بمهاجمة سواحل الغلة ونهبوا وأحرقوا، فاختفت الأخباز والدقيق، رغم إرتفاع أسعارها حتى وصل الخبز إلى رطل واحد بدرهم(١).

وفى عام ٤٤٢هـ/١٠٣١م، كادت مأساة ٤١٤ـ٤١٥هـ أن تكرر نفسها، حينما تأخرت زيادة النيل عن أوانها أربعة أشهر ولولا أن أتخذت الدولة تدابيرها باستيراد الغلال من الشام، ثم جاءت زيادة النيل فاستقامت الأحوال(٢).

وفى سنة ٤٢٦هـ/٣٤ـ١٠٣٥م حدثت بالبلاد مجاعة بسبب تكاثر الفئران حتى أكلت الزرع وانتشر الوباء بين السكان تبعاً لذلك(٣).

تعد فترة خلافة المستنصر بالله (٤٢٧ـ ٤٨٧هـ/١٠٣٥ـ١٠٩٤م) حداً فاصلاً بين عهد الخلفاء الأقوياء وعصر الوزراء العظام وكأى فترة تحول تاريخي، حفلت خلافته بأحداث جسام،

....

(١) المصدر نفسه ص ٨٨، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٧٠.

(٢) اتعاظ الحنفا ٢ ص ١٨٠، الخطط ج١ص٣٥٥. يذكر أبو الفدا أنه حدثت زلازل بمصر والشام فهدمت شيئاً كثيراً ومات تحت الأنقاض الكثير من الناس سنة ٤٢٥هـ البداية ج١٢ص ٣٦.

(٣) المقريزى: اتعاظ ج٢ص ١٨٠.

عنه واسموه كاسمه [كأسمه] يوحنا وكان قديس، وكتب اليه الاب انبا اخرسطودلوس كتابا يشكو اليه ماجرى عليه من النهب والاسر والعقوبة وانه خرج من نعمته كما تخرج الشعرة من العجين، وأُخذ له زايد عنماية الف دينار وغير ذلك مما شرحه في كتابه، فكتب اليه الجواب على يد انسان قس سرياني يسمى صمويل من اهل القدس وصار حبيساً قديساً فى صومعة بالريف تسمى اررى رزقنا الله بركة صلواته، يذكر فيه كلاماً حسناً

يحار الدارس أمام تشابك أحداثها، وتناقض معلوماتها، ناهيك عن صعوبة الفصل بين الأسباب والنتائج، حيث توالي الأحداث عملها تأثيراً وتأثراً.

وبديهي أن ما وقع من أحداث في خلافة المستنصر بالله، تكمن بذوره في فترات سابقة، طالما كان كل جديد نابتاً من القديم ويحمل بعضاً من صفاته، وجاءت ولادة عصر المستنصر من رحم خلافة أبيه الظاهر لإعزاز دين الله، والذى يعد فترة إنتقال بين عهدين، عهد سيطرة الخلفاء وعهد سيادة الوزراء.

وقبل الدخول إلى سرد وقائع المجاعات التى عاشها الناس في عهد المستنصر بالله يحسن أن أعراض للأسباب العامة التى كانت وراء هذه الأحداث.

١. ضعف السلطة المركزية:

يرجع سبب هذه المجاعات قبل أى شئ إلى ضعف شخصية المستنصر بالله، الذى ولى الخلافة وعمره سبع سنوات(١) وإذا كان أبوه قد حافظ بعض الشئ على سلطاته الزمانية، رغم تفرد رجال دولته بإدارة معظم شؤون البلاد، فإن المستنصر لم يستطيع بعد أن شب عن

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان - طبعة النهضة المصرية ١٩٤٨- ج٤ ص ٣١٧ ويذكر لين بول أن عمره كان ٨أشهر فقط - انظر سيرة القاهرة ص ١٣٨.

ويتشوقه ويشرح له الامانة والمحبة والاتحاد المسيحى
الذى لبطاركة هذين الكرسيين، ثم قال له فيه:
فاما ما ذكره الاخ القديس شريكنا فى الخدمة من
خروجه من نعمته كخروج الشعرة من العجين وما
ناله مما شرحه فى كتابه فانى انا الخاطى اجل قدره
ورياسته وقدسه عن هذا القول واى مال لنا نحن
الذين صرنا فى هذه الرياسة الجليلة التى لا
نستحقها الا غنا السيد المسيح الهنا الذى كان
على الارض ياكلو تلاميده بين يديه خبز الصدقة

الطوق أن يستخلص صلاحياته من براثن الوزراء ورجال الإدارة والجند، مثلما فعل جده الحاكم بأمر الله. إن ظاهرة ضعف سلطة الخليفة التى أطلت برأسها على استحياء فى عهد الظاهر، ظهرت هنا مكتملة الأبعاد، ويوردها المقريزى على رأس العوامل التى أفضت إلى الشدة المستنصرية[1].

وحال ضعف الخليفة دون سيطرته على طموح القواد ورجال البلاط والخصيان الذين أخذوا يحيكون الدسائس، وساعد على ذلك إنسياق المستنصر لما يسمعه من وشايات وشكايات، فأكثر من تغيير الوزراء حتى إن الوزارة وليها خلال تسع سنوات أربعون وزيراً بعضهم قضى فى منصبه يوماً واحداً[2].

وبدأ ذلك الاضطراب فى تغيير الوزراء فيما يبدو عام ٤٥٠هـ/٥٨ـ١٠٥٩م(٤)، واشتدت سرعة تغيير الوزراء وكذلك القضاة فى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م[3].

ولاشك أن سرعة إجراء التغييرات الوزارية والقضائية، أضعف من قوة الوزراء وأعجزهم عن تدبير الأمور، وأوقع الإختلاف بين فئات الجند، نتيجة لإختلاف سياسات الوزراء الذين

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ص ٢٣.
(٢) د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية ص ٨٨.
(٣) المقريزى: الخطط ج١ص ٣٥٦.

وهو القادر الذى اشبع الالوف من خمسة ارغفة
شعير ورفع من الفضلات اضعاف ذلك، وكذلك
بطرس ريس الحواريون وجميع التلاميذ القديسين
الذين نحن خلفاهم لم يكنز احد منهم كنزاً ولا
كان لاحد منهم سوى ثوب واحد لا غير حتى ان
القديس العظيم حبيب السيد المسيح يوحنا ابن
زبدى الانجيلي كان يخدم في زبل الحمام بمدينة
افسس عند انسان رومى وياكل الخبز بتعبه فى
مستوقد الحمام، فكيف يكون لنا نحن الحقيرين

حاول كل واحد منهم أن يتبع سياسة ترضى الطرف الذى فى مكنته الإيعاز بعزله من منصبة[١].

وإضاف إلى ذلك فإن المستنصر كان لايشارك وزراءه المسؤلية كما كان يفعل الخلفاء من قبله، وترك هذه المهمة إلى أمه التى كانت تتحكم فى تغيير الوزراء، وتتلقب بالسيدة الملكة، ويخاطبها الرجال فى حضرة ابنها بمولاتهم ويشار إليها بالجهة الجليلة والستر الرفيع[٢].

٢. تزايد نفوذ العسكريين:

نشأ عن ضعف الخليفة، وتدهور نفوذ وزرائه فراغ سياسى لم يملأه سوى العسكر، فقد كانوا بحكم تنظيمهم العسكرى، هم القوة الوحيدة فى البلاد التى يمكن أن يكون لها صدى فى تقرير أمور البلاد، سواء لاعتبارات تملك السلاح والقوة، أو سهولة التحرك بأوامر قادتهم، ووجد العسكريون ـ على إختلاف طوائفهم ـ فى ضعف وتردد إدارة البلاد فرصتهم المواتية لتوسيع رقعة نفوذهم وزيادة نصيبهم من ثروات البلاد، فطالبوا بزيادة رواتبهم، وألحوا فى ذلك حتى خلت خزائن الدولة، فأقضوا مضاجع الخليفة والوزراء، وألجأوا الخليفة إلى بيع محتويات خزائنه لهم لأجل تسديد رواتبهم، فأخذوها بأبخس الأثمان، ثم تمادى بهم الحال فاقتسموا ربع الأراضى المزروعة.

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ص ٢١، اتعاظ الحنفا ج٢ص ٢٦٢ـ ٢٦٣.
(٢) د. عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ٣٧٥.

مـال. وذكـر له من هذا فى كـتـابه شيـأ كـثيـر وهو تعزية وتوبيخ وتسلية.

وبعد هذا تنيح الاب المذكور انبا يوحنا ، وجلس بعـده ابا باسـيل البطرك واقـام سنة واحـد ونصف وتنيح، ولم تصل منه سنوديقا ولا ذكـر اسـمه فى كنايس بلاد مـصـر لا فى قـداس ولا فى صـلاة، وبقى اسم القديس يوحنا يذكر على جارى العادة. واقام كرسى انطاكيه خاليأ مدة كبيرة لاستحواذ

وقد بدأ صعود العسكرين السياسى منذ عام ٤٥٠هـ[١]، وهو نفس العام الذى كثر فيه تغيير الوزراء.

٣.الفتن والمنازعات:

تميز الجيش الفاطمى منذ فتح مصر بتباين العناصر العرقية المكونة له، فكان يضم إلى جانب المغاربة الذين شكلوا العمود الفقرى لجيش الغزو، عناصر موجودة فى الشرق من الديلم والأتراك، وعناصر سوداء من الزنوج ومن العبيد الذين يشترون من تجار الرقيق، وضم أيضاً البدو والمصريين[٢].

ورأينا كيف أن النزاعات التى ثارت بين بعض الطوائف فى عصرى الحاكم والظاهر، قد زادت من اضطراب البلاد وزيادة الأسعار، إلا أنها كانت نزاعات محدودة يمكن لسلطة الدولة تطويقها، فلما ضعفت السلطة المركزية، برزت نزاعات الجند لتصبح ملمحاً رئيساً من ملامح الحياة فى عصر المستنصر، الذى ترك الأمر إلى وزارائه فحاولوا السيطرة على أمور البلاد عن طريق الإستعانة ببعض طوائف الجيش.

ففى محاولة من الوزير الفلاحى للتفرد بشؤون الحكم دون الملكة أم المستنصر، سعى إلى

---

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ص ٢٢-٢٣، اتعاظ الحنفا ج٢ص ٢٦٢- ٢٦٣.

(٢) د. ماجد : المرجع السابق ص ٣٦٩- ٣٧٤.

الغز [الترك] على تللك البلاد وما جرى فيها من الفتن والسبى والقتل الى ان اجتمع اربعة وثلثين رجلا مطارنة واساقفة في دير برصوما واقامو بطركاً على كرسى انطاكية كان اسمه العازر وسموه ديوناسيوس وكتب رسالة سنوديقا على يد قس سريانى اسمه توما قد صار الان اسقفا على بغداد، وكان وصوله بها فى ايام القديس كيرلص بطرك اسكندرية رزقنا الله بركة صلاته وسنذكر ذلك في

تأليب الأتراك على السودان للقضاء عليهم، وهم، أى السودان، كانوا من نفس جنس الملكة، التى اعتمدت عليهم، ولجأ أثناء ذلك إلى زيادة رواتب السودان والمغاربة، وإنقاص عطاء الأتراك واوهم أن التسترى هو المسؤل عن ذلك فقتل الاتراك التسترى وما لبثت الملكة أن نجحت فى قتل الفلاحى، وأحلت فى منصبه الوزير أبا البركات الذى اختلف مع سياسة الملكة فى إضعاف الأتراك، فعزلته وولت رئيس ديوانها الخاص الجديد المعروف باليازورى، الذى نجح بقوة شخصيته فى وقف النزاع بين طوائف الجند إلى حد ما[١].

ومع ذلك، فقد ظلت أم المستنصر على سياستها فى تقريب بنى جنسها من السودان وبدا واضحاً للأتراك أن الجيش الذى تم تكوينه من ٥٠ألف جندى سوادنى يشكلون حرس الخليفة وأمه، ليس إلا مقدمة للقضاء عليهم، لهذا أصبحت البلاد وكأنها مخزن بارود، تكفى شرارة صغيرة لإحداث إنفجاره الهائل[٢].

---

(١) ابن ميسر، محمد بن على بن يوسف بن جلب: أخبار مصر ـ تصحيح هنرى ماسيه ـ المعهد العلمى الفرنسى القاهرة ١٩١٩ـج٢ص ١٤، د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين: ص ٣٧٥ـ٣٧٦. والتسترى هو أبو سعد بن سهل التسترى، يهودى كان يقوم هو وأخوه أبو نصر هارون بالإتجار فى عهد الحاكم، وتقرب أبو سعد إلى الظاهر وباع له جارية سوداء أولدها المستنصر بالله، فرعت لأبى سعد ذلك، فعينته فى ديوانها، وقد عمل أبو سعد على عزل الأنبارى من الوزارة وتولية الفلاحى .انظر ابن ميسر: أخبار مصر ج٢ ص ١٣ـ١٤، المقريزى: الخطط ج١ص٤٢٤.

(٢) د. راشد البراوى: المرجع السابق ص ٨٩.

سيرته. وتنيح الاب القديس انبا اخرسطودولس البطرك يوم السبت الرابع عشر من كيهك سنة سبعماية اربعة وتسعين للشهد الابرار ودفن فى كنيسة السيدة الطاهرة المعروفة بالمعلقة بقصر الشمع[بمصر عتيقة]، وكان مدة مقامه على الكرسى الانجيلى ثلثون سنة، وبعد مدة حمل جسده المقدس الى دير ابو مقار بوادى هبيب رزقنا الله بركة صلواته امين.

وبمقتل اليازورى قويت إحتمالات تفجر الصراع، إذ تولى الوزارة البابلى، الذى عمل بمشورة أم المستنصر فأغرى السودان بالأتراك، فتغيرت نياتهم«وصار فى قلب كل طائفة من الأخرى إحن»[1].

وجاءت شرارة الانفجار فى جمادى الآخر عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، عندما خرج المستنصر كعادته فى كل سنة إلى جب عميرة وهو موضع نزهة بهيئة أنه خارج للحج ومعه الخمر فى الروايا ليسقيه للناس عوضاً عن الماء، فجرد أثناء ذلك أحد الأتراك سيفاً على بعض السودان، فقتله السوادن[2].

إحتج الأتراك على هذا الحادث لدى المستنصر، الذى استنكره ونفى رضاه عن ذلك، فحمل بعض الأتراك على جماعة من السودان عند كوم شريك فانهزم السودان وقتل منهم عدد كبير. بعد هذه الهزيمة سارعت إم المستنصر إلى إمداد السودان بالمال والسلاح، فلما ضبط الأتراك بعضاً مما كانت ترسله، دخلوا على الخليفة ثائرين وأغلظوا له فى القول فأنكر أى صلة له بتأييد السوادن، وثار النزاع المسلح ثانية، حتى تمكن أبو الفرج محمد بن جعفر

---

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ص ١٤.

(٢) المصدر نفسه ص ١٣، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٥ص ١٧-١٨، د. راشد البراوى: المرجع السابق ص ٨٩- ٩٠.

هذه الموسوعة

مبدئياً علينا أن نؤمن بأن هناك مايسمى بالقوة الطليعية التى قادت البشرية نحو التطور والتقدم . فعندما نرى المصريين وقد تحولوا إلى أمة متحدة تقيم الدولة الواحدة لأول مرة فى التاريخ ،بمؤسساتها المتعددة والقوانين التى تنظم علاقاتها الاجتماعية ، وما تمارسه فيها اللغة والكتابة كوظيفة كبرى. فحين ذاك يبدأ تاريخ البشرية الذى صنعه المصريون منذ آلاف السنين على ضفاف نيلهم ،وسجلوه كتابة ورسماً ونحتًا على جدران عمايرهم ومسلاتهم وأهراماتهم وأوراق البردى فأمكننا بذلك معرفة أين بدأ البشرية تاريخها ومن الذى صنعه.

ولكن عندما قسم تاريخ أمتنا المصرية إلى بطلمى وروماني وأموى وعباسى وفاطمى وأيوبى ومملوكى وعثمانى .. إلخ قام بعض المرتزقة والمنتفعين بنهب هذه الأقسام وافتعلوا بينها تناقضات وصراعات . ولم يعد فى ذهنهم أن هناك تاريخاً طويلاً متواصلاً لأمتنا المصرية يمتد لآلاف السنين نفتخر به وليس لنا سواه.

إلى جانب هؤلاء المرتزقة كان هناك كتابات تاريخية أدركت أن تاريخ المصريين ووطنهم الأم نسيج واحد ينساب عبر التاريخ منجزاً أعظم حضارات البشر ،دون أى تقسيمات أو فواصل ،من هذه الكتابات الأثرية مخطوطنا « تاريخ البطاركة » الذى رصد أول فترة من تاريخ المصريين تمتد لعشرين قرناً، من بدايات القرن الأول الميلادى وحتى بدايات القرن العشرين .

يرصد فيه العديد من أحداثنا التاريخية التى لم ترد فى مخطوطاتنا التراثية المعروفة ، ننشره هنا كاملاً ومحققاً.

وقد استكملت فى موسوعتنا هذه أحداث القرن العشرين حتى نهايته، وزودته بالملاحق العديدة وأضفت (من الكتب التراثية) متابعات موازية للأحداث الواردة بالمخطوط من أجل المقارنة والدراسة ، إلى جانب العديد من اللوحات والخرائط لنستكمل بها رؤية تاريخنا .

عبد العزيز جمال الدين

MADBULI BOOKSHOP مكتبة مدبولى

6 Talat Harb SQ. Cairo Tel : 5756421 ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت ٥٧٥٦٤٢١

مكتبة مدبولى